المقتطف

الجزء الاول من المجلد السادس بعد المائة

١ يناير سنة ١٩٤٥ | ١٧ محرم سنة ١٣٦٤

عقار جديد

لعلاج السل والجذام

في دار قديمة ألوت بها الرياح على ضفة نهر ديترويت ، كان رجلان يتحدثان ، وكان أحدهما الدكتور ليون سويت مدير البحث الكيميائي في شركة بارك دايفس المشهورة في صناعة العقاقير ، وكان الآخر الدكتور لويس بامباس المتوفر على تركيب الذرات بعضها مع بعض لإنشاء مركبات كيميائية جديدة .

وطوف الرجلان في حديثهما بموضوعات كثيرة ، ولكنهما لم يعرجا على الجذام والسل ، اللذين ما فتئا منذ قديم الزمان في الطليعة بين نكبات البشر ، وقد عجز العلم عن أن يحرز غلبة تذكر عليهما أو على أحدهما . وقد باءت بالإخفاق جميع بحوث العلماء لكشف لقاح واقٍ أو علاج شاف للسل . وعجز الباحثون عن نقل الجذام الى حيوانات التجارب ، وعن العثور على علاج له . وجل ما استطاعه العلماء ، هو أن يصفوا الراحة والغذاء الجيد للمصاب بإحدى العلتين .

ومع ذلك فالسل يقتل ستين ألفاً كل سنة في الولايات المتحدة ، ويمرض ثلاثمئة ألف . والجذام ينكب من ثلاثة ملايين إلى خمسة ملايين في جميع أقطار الأرض . وقد كان سويت وبامباس يعرفان هذه الحقائق ، وما كان يقابلها من فتك سائر الأمراض بالناس ، ولكن همهما يوم اجتمعا وتحدثا لم يكن منصرفاً الى السل ولا إلى الجذام .

قال سويت : إن ثمة باحثين كثيرين يبحثون عن عقاقير عجيبة في أسرة السلفوناميد ،

لعلاج طائفة من الأمراض لم تدن لعقار ، ولكن من المستغرب أن يهمل الجميع طائفة المركبات المعروفة باسم : سلفون .

واقترح سويت على بامباس أن يعنى بهذه المركبات عسى أن يجد فيها عقاراً ناجعاً في كفاح الجراثيم الستربتوكوكية ، التي تسبب تسمم الدم والتهاب الجروح وتعفنها ، وعسى أن يكون هذا العقار أفعل من عقاقير السلفا وأقل منها فعلاً ساماً .

فقال بامباس : إن هذا بحث على غير هدى ، وقد يستغرق وقتاً طويلاً ويستنفد نشاطاً عظيماً ثم لا ينتهي إلى شيء له قيمة ما . فليس ثمة ما يدل على أن لطائفة « السلفون » فائدة في الشفاء ومع ذلك فلنجرّب .

وهذا القول يمثل لوناً من العلم ينبع من الحاجة وينساق مع الواقع ، وغرضهُ محدود لا يعدو حبةً أو سائلاً يحقن به تحت الجلد ، فيشفي من مرض ويقبل عليهِ الأطباء ، ولكنهُ ذلك اللون من العلم الذي أسفر أولاً عن كشف عقاقير السلفا .

وعاد بامباس الى معملهِ وبدأ يبحث . وكان البحث يبعث السآمة ، ويجري فيهِ الباحث على نمط معيّن لا يكاد يكون عنهُ محيد . فعلى الباحث أن ينفق الأسابيع الأولى في إبداع مركّب كيميائي جديد ، ثم يحقن بهِ أرنباً أو فأراً . فاذا وقع الأرنب أو الفأر ميتاً ، فقد وجب نبذ المركب لأنه سمٌّ زعاف ، فيضيع معهُ جهاد أسابيع . ولكن إذا بقي الفأر على قيد الحياة ، فعندئذٍ يضع الباحث قليلاً من هذا المركب في أنبوب اختبار حافل بالجراثيم. ثم يراقب ما يحدث في الأنبوب . فاذا قتل المركب الجراثيم في الأنبوب اغتبط الباحث بما يتمّ ، واذا أبطأ المركب نموّ الجراثيم بالفتك بأجهزة الهضم فيها أو بأجهزة التكاثر ، اغتبط الباحث كذلك .

وبعد أن يتبيّن الباحث هذه الحقائق يخطو الخطوة التالية ، بأن يحقن بالجراثيم فأراً أو أرنباً هنديّاً ، ثم يحقنهُ بعد ذلك بجرعة من هذا الركب لكي يرى هل ينقذهُ المركب من فتك الجراثيم .

فالبحث يجري على هذا المنوال ، بمركّب في أثر مركب ، على نمط خليق بأن يبث السآمة في نفس الباحث — إلاّ إذا كان موفقاً .

وانقضى على بامباس أشهر وهو يتبع هذا الطريق المملّ في البحث ، ثم أشرق لهُ وجه التوفيق في أحد الأيام . وكان قد سبق لهُ فركّب من ذرّات النتروجين والايدروجين

والكربون والأوكسجين والكبريت والصوديوم مركباً غريباً كان مسحوقاً أصفر أطلقت عليه شركة بارك دايفس اسم برومين Promin

***

لننتقل الآن إلى معهد مايو في مدينة روتشستر بولاية مينسوتا ، فنجد هناك باحثاً يدعى الدكتور وليم فلدمان ، وكان معنيّاً ببحث العقاقير الجديدة التابعة لأسرة عقاقير السلفا . وقد كتب فلدمان إلى الدكتور سويت يسأله أوجد أحد الباحثين في شركته عقاراً جديداً ما من عقاقير السلفا . فيرسل إليه سويت ، بالبريد ، حفنة من مسحوق بامباس الأصفر.

ويتبع ذلك بحث طويل مملّ . فيجرّب المسحوق بالجراثيم الستربتوكوكية ، فيؤثر فيها بعض التأثير وحسب . ثم يجرب في الجراثيم النموكوكية التي تحدث التهاب الرئتين ، والجونوكوكية التي تحدث السيلان . فيؤثر فيها ولكن تأثيره ليس باهراً . ثم يخطر لفلدمان أن يجرّبه بباشلس الدرن (السل وما أشبه) .

وعليك أن تذكر أيها القارئ الكريم ، أن عقاراً ما لم يؤثر قبلُ في هذه الجرثومة البطيئة الصلبة الراس ، التي تسبب السلّ .

فمنذ سنوات كانت جماعة من الباحثين قد جرّبت السلفانيلاميد فوجدت أن هذا العقار لا يؤثر تأثيراً ما في باشلس الدرن إلاّ حين تبلغ الجرعات مبلغاً كبيراً ، فتفتك بستين في المئة من حيوانات التجارب ، فلم تتبين الجماعة أملاً ما في مكافحة السل بالسلفانيلاميد . فليس ثمة مسلول واحد يرغب في أن يتعاطى دواءً يبلغ احتمال فتكه به هو ، ستين في المئة .

ولكن فلدمان قال في ذات نفسه : إنّ هذا العقار الجديد ، ليس من أسرة السلفا . إنهُ من أسرة السلفون . فثمة أمل . وعلى كلّ حال إنهُ جدير بأن يجرّب . فبعث إلى زريبة حيوانات التجارب يطلب ثمانين أرنباً هنديّاً .

والأرنب الهندي خير حيوان لإجراء تجارب السلّ . فليس في جسمه مناعة طبيعية ضدّ المرض . وما عليك إلاّ أن تحقنهُ تحت الجلد ببضعة من باشلس الدرن ، فلا تنقضي أسابيع حتى تستقرّ الجراثيم في أجسام الارانب وتستأصل في الطحال والكبد والرئتين . وفي فترة تتفاوت من ثلاثة أشهر إلى ستة أشهر تموت جميعاً .

وكذلك حقنت الارانب الهندية الثمانون بجرع فتاكة من هذه الجراثيم ، ووضع الباحث اثني عشر أرنباً منها جانباً ، تنتظر ما لا مفرّ منهُ . وأما الثمانية والستون الباقية ، فستعطى

البروميين ، في طعامها . وليس للباحث بعد أن تعطى البروميين من عمل إلاّ أن ينتظر وهو يراقبها .

فلم تكد تنقضي أسابيع حتى كانت الأرانب التي حقنت بالجراثيم ولم تحقن بالعقار في طريق الموت . وأما الأرانب الأخرى فكانت سليمة لا تزال . وما انقضى اليوم الثاني والتسعون بعد المئة ، حتى كانت الأرانب الأولى قد ماتت جميعاً ، بتأثير باشلس الدرن . وأما أرانب الطائفة الثانية فكانت ٨٤ في المئة منها لا تزال سليمة . ونصف الأحياء من هذه الأرانب لم تبدُ عليهِ أعراض سل مستفحلة . والنصف الآخر بدت عليهِ أعراض هيّنة . وكان وزن جميعها قد زاد بدلاً من أن ينقص .

على أن فلدمان وزميليهِ في البحث ، سلكا طريق الشك العلمي في نتائجهما الأولى فأعادا التجربة ، وظفرا بالنتائج نفسها . واهتمت جماعات أخرى من الباحثين بضبط النتائج فثبتت صحتها ثبوتاً لا يرقى إليه الشك . فهذا المسحوق الأصفر الشاحب ، يتخير من الجراثيم جرثومة الدرن ويؤثر فيها .

وحين كانت التجارب بالأرانب الهندية قائمة على قدم وساق انصرف بامباس وأعوانهُ إلى تركيب مركبات سلفونية جديدة ، بدا عليها أنها أهدى إلى الغرض المطلوب من البرومين وكان الطريق قد مُهّد لتجربة هذه الجراثيم الجديدة في الناس .

سارت التجارب في الناس ، على الطريق المتبع ، وهو أن تختار المصابين الذين لا رجاء لهم في شفاء ، فاذا ظهر أن العقار سم قاتل ، فانما يودي بمصابين لا يرجون . وكان المصاب الذي عرض على الأطباء ، طفلاً في الثانية من عمره ، وكان مصاباً بالتهاب سحائي درنيّ .

وهذا مرض مخيف ، يحدثهُ باشلس الدرن ، حين يهجم على أغشية المخ والحبل الشوكي فيتألم المصاب ألماً فظيعاً . ويصيح من شدة الألم حتى يحبسه الاعياء . ثم تستولي عليه الغيبوبة وتتبعها الوفاة . والمرض قاتل لا ينجو منه أحد .

فبدأ الأطباء يحقنون الطفل بجرعات كبيرة من البروميزول — أحد أبناء عمومة البرومين . فلم تكد تنقضي ساعات ، حتى طفقت أعراض المرض تتحسن . وفي اليوم السادس كان الطفل منتصباً في سريره يلعب ، وبعد أسابيع غادر المستشفى .

وحين يبرأ مصابون ، مثل هذا البرء العجيب ، يقرر الأطباء الباحثون ، أن ثمة خطأً ما ، فربما كان التشخيص خاطئاً والولد لم يكن مصاباً بالتهاب سحائي درني . إذ يشق عليهم أن يصدقوا أنفسهم ، أن مرضاً فتاكاً استعصى على الأطباء والباحثين منذ قرون ، قد دان لهم

بمثل هذه السهولة وهذا الحسم . فلذلك ارتابوا في صحة ما شاهدوه في حادثة هذا الطفل .

ولذلك عمد فلدمان وعشرات غيره يشتغلون في مصحات كثيرة في طول البلاد وعرضها إلى استعمال البرومين ليكون استعماله تجربة سريرية واسعة النطاق . فأخذهُ مئات من المرضى في أحوال ومراحل متفاوتة من المرض، وقد أخذهُ بعضهم من طريق الفم وحقن به بعضهم حقناً.

كان بعض المصابين ، حديث الاصابة ، وكان بعضهم قديمها ، وكان منهم المصاب بالدرن في الكليتين ، أو المصاب بدمامل درنية . فكانت استجابة بعض المصابين للعلاج الجديد ، موسومة بميسم المعجزات .

على أن البحث العلمي يقتضي ، أن يعرف معدل تأثير العقار في طائفة كبيرة من المصابين الذين أجريت فيهم التجارب ، لا أن يقتصر على مريض واحد وحسب . فاليك خلاصة الاحصاءات الخاصة بطائفة مؤلفة من ٤٢٣ مريضاً .

من هذه الطائفة ، تحسنت حالة الثلث تحسناً لا ريب فيه ، وكان التحسن في بعضها سريعاً أتاح للمصابين أن يعودوا إلى عملهم . وقد مات تسعة وأربعون مصاباً ، منهم النصف قضوا بالالتهاب السحائي الدرني . أما في بقية المصابين فقد كان التحسن مشكوكاً فيه ، أو ظل المصابون على حالهم . وقد أثبتت هذه التجارب أن العقار الجديد ، شديد التأثير في المراحل الأولى من المرض .

وإذا كانت هذه التجارب لم تثبت حتى الآن ، أن العقار الجديد علاج ناجع حاسم للسل ، فانها أثبتت على الأقل ، أنه أفعل وأنجع من أي عقار سابق .

***

هذا النجاح في علاج السلّ — وإن لم يكن تامًّا حتى الآن — حمل الباحثين على تجربة العقار الجديد ، في إصابات الجذام . فبين الداءين وجوه شبه كثيرة . إن سببهما كليهما جراثيم عصوية ، ومن لم يكن مدرباً على التفريق بين فصائل الجراثيم ربما تعذر عليه أن يفرق بين جراثيم الدرن وجراثيم الجذام . والمرضان كلاهما ، يقتلان المصاب قتلاً بطيئاً ولا يقضيان عليه بهجوم خاطف كما تفعل الجراثيم الستربتوكوكية . فقد يعيش المجذوم مجذوماً عشرين سنة أو ثلاثين . وقد ينزل الجذامُ بالمصاب العمى ، ويغطي جسمه بالقروح ثم ينتهي به المطاف إلى أن يموت بشيء آخر — كالالتهاب الرئوي .

وإذا كان السل مرضاً يحيط به الغموض ويحير الأطباء والباحثين ، فالجذام أشد غموضاً وتحييراً . وقد وصف منذ ستة آلاف سنة ، ومع ذلك فقليل ما يعرفه العلم عنه . وقد كشف

جرهارد هانسن الباحث النرويجي جرثومة الجذام سنة ١٨٧٤ ولكن جميع مساعي العلماء لاستحداث الجذام في حيوانات التجارب قد باءت بالخيبة .

وقد عمد فريق من الباحثين إلى محاولة استحداث الجذام في أبدانهم فحقنوهم بجراثيم الجذام . ولم تسفر جميع تجارب استحداث الجذام إلا عن حادثة واحدة أصيب فيها رجلٌ في جزائر هواي . وقد كان الرجل محكوماً عليه بالاعدام فتطوَّع للتجربة ، وحقن في بدنه بجراثيم الجذام في سنة ١٨٨٤ فبات مجذوماً سنة ١٨٩٠ . ومع ذلك كان الشك يحوم حول صحة إصابته فقد قضى حياته كلها يجاور المجذومين ويخالطهم ، ومن المحتمل أن المرض كان كامناً فيه قبل أن حاول الباحثون أن يستحدثوه في جسمه .

والتاريخ يحدثنا أن الجذام اكتسح أوربة في القرون الوسطى فكان في القارة الأوربية عشرون ألفاً من ملاجئ المجذومين . ثم زال المرض من أوربة ، ولكنه آخذ في الازدياد في البرازيل .

والمرض لا ينتقل بسهولة ، على خلاف ما يُظن . فاصابة الأطباء به بالعدوى في مستشفيات الجذام نادرة ، وتدلُّ الاحصاءات أن اثنتين من كل مائة من زوجات المجذومين أصيبتا بالجذام . ويكاد يوجد في كل مدينة كبيرة عدد من المجذومين يزاولون أعمالهم .

كان اعتماد الأطباء في علاج المجذومين ، على الراحة والطعام المغذّي ووقاية المصاب من الأذى . وإذا استثني زيت الشولموجرا — وهو زيت يستخرج من جوز شجرة هندية — فان الأطباء لا يملكون عقاراً ما لعلاج المرض ، ومع ذلك فالكثيرون يشكون في فائدة هذا الزيت

فلم يكن أمراً غريباً أن يسترعي عناية المعنيين بمسائل الجذام ، ما عرف عن فعل البرومين في المصابين بالسل ، وكان في طليعة الذين عنوا بهذا العقار ، جماعة الباحثين في مستشفى الجذام بمدينة كارفيل في ولاية لويزيانا الاميركية . فقرَّر الدكتور « فاجت » أن يجرِّب البرومين في طائفة من المرضى ، اعتماداً على ما بين السل والجذام من وجوه شبه .

فاختار عشرة مجذومين لهذه التجربة ، وأعطاهم جميعاً هذا العقار جَرْعاً . فرض معظمهم وأصيبوا بالغثيان والصداع ، وتفاقمت فيهم حالة فقر الدم . فقرر فاجت أن يعطيهم العقار حقناً في الوريد ، واختار لذلك اثنين وعشرين مصاباً .

ثم وضع خطتهُ : يعطى المرضى جرعات تختلف من جرام واحد الى خمسة جرامات كل يوم خلال أشهر . ثم تلي ذلك فترة أسبوعين ، يعفى فيها المصابون من الحقن بالعقار ثم

يستأنف العلاج . ويبلغ عدد فترات الراحة ثلاثاً في السنة . ولكي يدنع فقر الدم أعطى فاجت كلّ مصاب منهم طعاماً يحتوي على الكبد والحديد .

فأسفرت هذه التجربة عن نتائج تختلف كل الاختلاف عن نتائج التجربة السابقة . وقد ندر بين المصابين الذين أجرت عليهم هذه التجربة ، من أصيب بردّ فعل يذكر — نعم إنّ ثلثهم أصيب بالغثيان ولكنهُ كان خفيفاً وعابراً . على أن المصابين الذين حقنوا بهذا العقار ، لم يستجيبوا استجابة سريعة تستوقف النظر ، ولكنّ البقع النحاسية على جلدهم — وهي علامة الجذام — بدأت تتحسن رويداً رويداً ، وأخذ الجلد يستردّ حالتهُ السوية ، وشفيت القروح الفاغرة ، وتحسنت الالتصاقات الجذامية في العين ، بعد أن كانت تهددها بالعمى ، وقل تورُّم الالتصاقات التي في المسالك الأنفية والحلق ، وهي التي تحدث الاختناق ، واندملت القرح التي في اللسان والشفتين وسقف الحلق .

وتتلخص التجربة التي أجريت على اثنين وعشرين مجذوماً في أن خمسة عشر منهم تحسنت حالهم تحسناً لا ريب فيه . وظل ستة على حالهم . وساءت حالة واحد منهم . ويرى الدكتور فاجت أن هذه التجربة أحفل بالأمل من جميع التجارب التي أجريت على الاطلاق .

***

ويجمل القول الآن أن عقار البرومين والعقاقير التي على شاكلته ليست حلاً نهائيًّا لمشكلتي السلّ والجذام . فهذه العقاقير يلازمها فعل سام خفيف وليست نوعيةً تماماً ، وكل علاج بها يحتاج إلى جرعات كبيرة منها للظفر بنتائج طيبة . وقد بلغ ما حقنت به أوردة بعض المصابين الذين عالجهم الدكتور فاجت ، خمسة أرطال

فلا يجوز أن يذهب أحد ممن يقرأ هذا المقال إلى أن هذه العقاقير هي العلاج الناجع المطلوب فهي لا تباع الآن في الصيدليات ، وربما لن تباع في حالتها الحاضرة على الأقل .

ولكنّ العلماء الذين وفقوا إلى هذه العقاقير أشبه ما يكون بجماعة من الباحثين عن الذهب . فقد رفعوا التراب عن عرق من الذهب ، ولا يزال عليهم أن يستخرجوا الذهب المدفون في جوف الأرض . ولعلّ الدواءَ الساحر الذي يقضي على السلّ والجذام ، عند منعطف الطريق .

(نقل بتصرف يسير عن مجلة « خلاصة العلم »)

على المشنقة ...

قصة

محمود تيمور

« تحية لصديقي اليوزباشي عبد المنعم
أبي السعود ضابط سجن ـ وهاج »

كان جالساً القرفصاء في حجرته الفردية من السجن ، معتمداً ذقنه بيديه ، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ، فحجرته ليست كلها إلا حوائط متشابهة ...

وذلك الظلام المخيم على كل شيء كان يراه شائعاً حوله ، ويحسه يغمر دخيلة نفسه . إنه الظلام الدائم العابس ، ذلك الزميل الوحيد الذي يلازمه ولا يريد له فراقاً . .

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً ، ولم يكن يستطيع أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مبنى السجن ، كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق تختفي فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر أن بصيصاً يدلف إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقية هي من أشعة الشمس استطاعت أن تفلت من بين الجدران والسدود ، أم فضلة هي من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل . . . كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذي يحتويه . . . صمت متواصل يقطعه رنين أجراس السجن في فترات متباعدة ، فيترامى هذا الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً ، مزق بعد الشقة أشلاءه ، فلا يبلغه إلا أصداء غامضة لا يدرك لها كنهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس نفسه الموحشة .

وقد اتخذت هاته الحجرة في ظلامها وصمتها وحوائطها المتشابهة الدائرة

حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنما انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى في قرارتها كأنه إحدى الهوام التي تأوي إلى جحورها في بطون المغاور والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ، فراح يتلمس الهواء جاهداً ....

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شنقاً... وسينفذ الحكم يوماً ما إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه . . . إنه ليذكر تلك اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ، ووجهه المستدير المطهم ذي العينين المتألقتين . . .

كان في قفص الاتهام والحراس حواليه ، وعيون الناس في قاعة المحكمة تنتهبه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لواثق أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنهُ كائن موجود لم يمس بسوء ، ويرى الناس حياله أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رحبة تزخر بالنور والهواء والضجة . . . لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حيًّا يتحرك ويتنفّس ويستطيع أن يتكلم وأن يبتسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد ... لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منهُ ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه . . . وتهيأ وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلىء قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحس رعشة تتمشى في أوصاله فتوهن ساقيه ، وهمّ بأن يبتسم فأحس بعضلات وجهه تتقلّص كمن أجهش بالبكاء ، أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتدّ إلى حلقه متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجهوريّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وحوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة مختنقة قائلاً :

- ما قتلت إلاّ منتقماً لشرفي ! ... ربنا عادل ... الأمر لله ...

وعجب لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ عبد المتجلّي عزيز قومه

وعميد بلدته في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب من علم الشريعة قدراً ومن السلطان والتحكم نصيباً ، من استطاع أن يوفق في نظره بين روح التديّن وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له ، الرجل الذي أقام نفسه بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه حاكماً مهيب الرأي مخشيّ الجانب ، يفصل في المنازعات وينزل العقوبات بأصحابها دون أن يردّ له أمر أو نهي ...

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والقاضي والمحامي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جان فهو جانٍ ما من ذلك بدّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطىء ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع ، بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لمَّا أسرَّ إليه أحد أعوانه « سعداوي » أن « ستيتة » حقَّ عليها العقاب ، إذ فرطت في شرفها وخاضت في حديثها ألسنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبيراً من الحب والإعزاز . . . وبعد أن استيقن من « سعداوي » أن الأمر جدّ لا يحتمل التأويل أحس على الفور حميّة الشرف تهب أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يثأر للشرف المثلوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عتم أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يبح بما تمَّ في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيباً إلى البلدة قبيل الغروب حتى رماه بطلق ناري وهو يغمغم : هذا جزاء الفاسق الآثم !

وفي منتصف الليل دلف إلى مخدع أخته « ستيتة » وهي مغرقة في سبات ، فلم يزعجها بإيقاظ ، بل أخذ رأسها توًّا وأعمل السكين المسنونة في رقبتها فغارت في أوداجها حتى كاد يهوي الرأس عن الجسد ، وهو يهمهم : الله أكبر !... فلتموتي أيتها الفاسقة

الآثيمة ! ... وترك الجثة تختلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يشخب منها دفاقاً . ومضى يمسح السكين في قبائه ، ثم ذهب فاغتسل وأوى إلى فراشه ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تجمهر الأهلين ، هرج ومرج ، شرطة ورجال تحقيق ... ثم ألفى نفسه نزيل السجن . . . وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو يتنقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يقسم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكلتا يديه ، وحجاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهنالك يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ويقعقعون بأسلحتهم المزهوبة ... تشابكت في رأسه المشاهد ، واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغشى ذلك كله ضباب متراكم ، ولكن صورة واحدة بين ألفاف هذه الصور الغامضة ظلت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوي » الذى سعى إليه بتهمة أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذي لم يكن في الحسبان . . . إن اعتراف هذا « السعداوي » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صخابة ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهامه القتيلين في شرفهما لم يكن إلاَّ تبليغاً مكذوباً ، ووشاية مقصودة ، وأنهُ إنما عمد إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيل لضغائن كمينة ، ومن « ستيتة » لأنها حرمته ما كانت تجزله لهُ من عطاء ... إذن لقد وضح للشيخ عبد المتجلي أن جنايته المزدوجة لم تكن في موضعها ، لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيًّا أميناً بلا جريرة كأنهُ يلهو ويعبث ...

وغضَّ من بصره ، وجعل يقرض أظفاره بعنف ، حتى أدمي أنامله . وصعّد زفرات حرَّى ... وسرعان ما لاحقه الريب : ليس بمعقول أن يقتل نفسين بغير حق . إن فراسته لم تخطىء مرة وبصيرته لم تكذبه يوماً ... ولكن ماذا يصنع أمام اعتراف ذلك «السعداوي» بأنه واشٍ كذوب ؟!... وماذا يصنع بما أقنعه به محاميه من أنه قتل بلا موجب ، وأن شهادة الشهود وقرائن الحادث كشفت هذه الحقيقة ساطعة ناصعة ؟ .

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وازداد المكان تجهماً وحلوكة .

ورفع رأسه ، فاصطدم بصره بهذه الجدران الكالحة البغيضة ، جدران

البئر المظلمة التي لا منفذ لها ... وفتح عينيه جهد إمكانه ، وراح يحملق تائه النظر ... وتمثلت له اللحظة التي نطق فيها كبير القضاة بحكم الإعدام : إنه ليراه الآن أمامه جليّ الصورة ، واضح القسمات ، منكبًّا على أوراقه ، فاذا رفع رأسه تراءت عيناه الصغيرتان خلف نظارته وهو يركز بصره دائمًا في موضع ثابت لا يعدوه إلى منصة المحامين ولا إلى صفوف الجمهور ولا إلى قفص الاتهام ، كأنه لا يعنيه من هذا كله شيء . . . وكان ذلك القاضي لا يفتأ يتابع حركة يده إلى رأسه يخلع طربوشه ثم يعيده مكانه ، فتظهر صلعته ملتمعة وتختفي سريعاً ... وقد نطق بحكمه في صوت أخنّ ولهجة فاترة ، كأنه يتحدث إلى جارٍ له حديثاً تافهاً لا يثير الانتباه .

وبينما كان الشيخ عبد المتجلي منسرح الفكر في هذه الأخيلة ، إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يشنق ولن يمسه أحد بضر ... لقد قتل من قتل ثأراً للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم الأسرة بالعار ، فحقّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السعداوي » والتحقيق آخذ مجراه ، وانكبّ على يده يغسلهـا بدموعه ويستغفره ، ويردّد بصوت متحشرج : لقد خدعتك يا عبد المتجلي . لقد أثرت حفيظتك على بريئين . أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك ستراً ولا أن يلحق بك عاراً . عفوك عفوك .

وكان يصغي إلى استغفار هذا « السعداوي » ولا يلفظ من قول . إنه يسأل نفسه الآن : لماذا لم يُجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟ لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لمـاذا كان خاملاً كالمعتوه لم يحرك ساكناً ؟ إنهُ يذكر أن كل ما فعلهُ ساعتئذٍ أنه ازورّ ببصره عن « السعداوي » وهمهم : إن الله لا يظلم من عباده أحداً . . .

ثم طفرت من عينه دمعة فلم يمسها ، بل تركها تتهاوى على خده .

إنهُ ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك وجعل يتحدث إليه حديثاً مسهباً مستفيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلاّ هذه الجملة التي ختم بها قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيـه الإنسان مهما يكن من أمر يا شيخ

عبـد المتجلي . الحاكم هو الله ! » . . . وانصرف عنه المحـامي ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترن أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه ... لقد أحسّ بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه وتسري في أوصاله تخزه وخز الإبر !

وألفى لسانه يردّد وهو مطأطىء الراس : ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ! واعترته بغتة نوبة بكاء حادّ ، وتمادى في نشيجه وهو يشعر أن ليس لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجمل به أن يبكي ، قد يمر على مقربة منه أحد الحراس فيسمعهُ ، فليكفكف دمعه ، وليكبح ثائرة نفسه ...

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله ! أيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه ؟ وإذا فرض أنه كان عادلاً في أقضيته لم يحد عن جادة الحق مرة ، فمن الذي نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم من أهل بلدته على فرض أنهم قد اقترفوا حقًّا جرائمهم التي اتهموا بها وتصدّى هو للفصل فيها ؛ أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشهم وحدود تفكيرهم ما يزجّ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا لهـا ردًّا ؟ أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنهُ تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذرة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يقدم على فعلته إلاَّ ليطعم بنيه الجياع ؟ . ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ، وها هو ذا قد قتل متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضي عنهُ ، فهو في حساب نفسه بريء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب . . . إن أي رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وحمية ، لما تردَّد في أن يفعل ما فعل ويقتل من قتل : المأمور الذي قبض عليه ، ووكيل النيابة الذي حقق معه وأدانه ، والقاضي الذي أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة لما تردَّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذي

يقدر على الإنسان ما تسبت يداه من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هي إرادة علوية تتصرّف فينا منذ الأزل، فليدع البشر حكم السماء للسماء !

واعتمد الشيخ عبد المتجلي رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سبات لا يدري أطال به أم قصر ، ثم رفع رأسه ودار بنظره مستطلعاً حوله وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أي وقت هو ؟ أفي مهبط الأصيل أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شيء حولهُ إلاّ الصمت والظلام . . . وأحسّ بالوقت يمر بهِ الهوينى ثقيل الخطا ، وشعر بأن تفكيره قد تعطلت حركته وجمد ... لقد أضحى لا يفكر في شيء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجيء غريب ، شعور غامض لم يعرف كنهه يتوثب من أعماق قلبه متلمساً له منفذاً ... وتكاثف هذا الشعور ، وازدحمت طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق ... وأُلقي في روعه أن الوقت الذي هو فيه إنما هو طلائع الصباح . وتأكد له هذا الحدس ، أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هي التي ألقت في روعه هذا الشعور ، أم بصيرته هي التي أوحت بذلك إليه ؟

الشمس الآن في طفولتها تتهادى على بساط الأفق بسامة تنثر الضياء وتشيع النشاط والحركة في رحاب الكون ، وهل نسي قط تلك الساعة الرائعة في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في منصرفه من المسجد وهو ينقل حبات المسبحة بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التي ألف أن يختم بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حياه نسيم السحر وهو على المصطبة الفسيحة أمام داره بسطت عليها مفارش صوفية زاهية الألوان ، وقد جلس يقرأ بعض كتب الشريعة والسِّيَر متذوّقاً مستمتعاً بما تُهْدِي إليه من غذاء روحيّ ورضاً نفسيّ ! ...

على هذه المصطبة نعم حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسة وصفاء ، وبادله أحاديث كلها مؤازرة وتعاون ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سدد إليه طلقاً ناريًّا أرداه قتيلا . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تزخر بطلاب الحاجات ومن يفزعون إليه يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضي

في هذا المكان شطر نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تعده أخته له بارع الطهي مختلف الألوان شهيًّا .

أخته !.. وتراءت له السكين المخضبة، وهو يمسحها في قبائه، ورأس القتيلة يتسايل منه الدم غزيراً ... أبريئة هي حقًّا ؟ لقد اعترف « السعداوي » بأنهُ كان أفَّاكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار . . . وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ . . . إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها . . . الله هو العالم بالنيات والسرائر ، فلهُ وحده الحكم ، وإليه يُرجع الأمر كله !

وخيل إليه أنه يسمع شيئاً : أحركةٌ هي أم صوت ؟ أرهف أذنيه ، وأحدّ من بصره . إن الوقت صباح حتماً . . . وفاجأته رعشة ، لقد حدث أنه سمع قبل ذلك أصواتاً وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن جسمهُ لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، ففيم هذه الرعشة الطارئة ؟ إنه يصغي في اهتمام ... لا ريب أن هناك حركةً وهمهمة : أمن الدهليز صادرة أم من تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ ... إنها أصوات . . . إنه وقع أقدام .. وأحسّ بقشعريرة تسري في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوَّل كله آذاناً صاغية . أحُرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم . . . أم . . .

وتسمَّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل . . . وخُيِّلَ إليه أن حديثاً يوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحد الحرّاس فطوره ، إنه أجود فطور وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن . . . ووجد يده تمتد في تباطؤ وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ، ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يلقي باللقيمة بين شدقيه . . . لقيمة واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح فمه بظهر يده ، وردّد في صوت أجهر من ذي قبل :

الحمد لله على نعمتك يارب ...

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألفى الجمع يتأهبون للخروج ، وقد عقدت ثلة الحرّاس حوله نطاقاً ، وساروا جميعا ...

كان ممتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء . وشاعت على محياه بسمة غامضة : أبسمة أسًى هي أم بسمة تهكم ؟ وكان لا ينفكّ يردد :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار في الدهليز تغمره لجة من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مبهمة ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تواب . من هو الشيخ عبد التجلي بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تجازي الناس سوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما الله جل شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلاّ بالعفو والرضوان .

وسِيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حجر السجن إلاّ بهذه المنصة الصغيرة التي تدلّت عليها من السقف أحْبُولَة مفتولة ... أتكون المشنقة ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفزعة ، ليس فيها ما يبعث على العجب ، إنها لأشبه بأرجوحة الصبيان في القرية

وتجمع إحساسه حول نفسه ، وتعمق في دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما حوله ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذي هو فيه بجثمانه . وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة ...

وخيل إلى الشيخ عبد التجلّي أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسباب الحكم عليه . وأبصر خلف الضباب الذي كان يغشى عينيه شبحاً يدنو منه ويأخذ بكتفيه ، فألفى نفسه يدفعه عنه . ووجد قدميه تخطوان نحو المنصة ...

وفي هذه اللحظة طرق سمعه صوت قائل : ألا تشتهي شيئاً ؟ بماذا توصي ؟

وأحسّ يداً تدير الأحبولة حول عنقه ، فأجاب بصوتٍ بيِّن :

إني بريء ... كلنا أبرياء .. الله وحده هو الذي يملك الحكم على عباده !

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرفه الانسان عن جسمه ونفسه

في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

أكتب بهذا الأسلوب للمثقفين من الأطباء وغير الأطباء موضوعات تلتقي فيها المعلومات الطبية المبسطة بالمعلومات العامة وببعض ما له اتصال بشؤون الحياة الاجتماعية والنفسية والجسمية والخلقية وغيرها . ولعلي أوفق للوصول إلى الغاية التي أرمي إليها، لأني أشعر بحاجة الجمهور إلى ما يفيده من المعلومات الطبية المبسطة ليحافظ على صحته ويساعد طبيبه على العناية به إذا ما مرض .

وقد ابتعدت عما يشوش الذهن ويلقي الوساوس في النفوس، وتجنبت مناقشة الموضوعات التي لم يبت فيها ، مكتفياً بما اتفقت عليه الآراء واعتمده جميع الأطباء والباحثين .

حرارة الجسم

• كلنا يلاحظ أن للإنسان حرارة يشعر بها عند ملامسة جسمه أو ملابسه الملتصقة بجسمه بعد خلعها أو مرقده على الفراش بعد تركه — فما هي هذه الحرارة ؟ وكيف تتولد ؟ ومن أين مصدرها ؟ وكيف توزع على أجزاء الجسم ؟ وكيف تتصرف ؟ هذا ما سنعالجه .

أصبح من المعلومات العامة أن حرارة الانسان الطبيعية normal هي حول ٣٧ درجة بالترمومتر المئوي . وهي حرارة شبه ثابتة . فقد تنقص أو تزيد بمقدار لا يتجاوز بضعة أشراط ، ومعلوم أن كل درجة من الترمومتر المئوي مقسمة عشرة أشراط .

• تنخفض هذه الحرارة بضعة أشراط وقت الجوع وأثناء النوم، وتزيد قليلاً على معدلها أثناء عملية الهضم ، وبعد مجهود عضليّ شديد . وتتغير الحرارة على حسب أوقات الليل والنهار، فبعد منتصف الليل بين الساعة ٣ صباحاً والساعة ٥ صباحاً تكون في أدنى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٦ ½ أو أقل قليلاً ، وبعد الظهر في نحو الساعة ٥ تكون في أعلى درجاتها إذ قد تصل إلى ٣٧ ½ أو أقل قليلاً ، ثم تنخفض تدريجياً وهكذا . وقد تنعكس الآية فتزيد الحرارة في الليل وتنخفض في النهار في حدود هذا التغير البسيط عند من يسهرون

ويعملون في الليل، ويستريحون وينامون بالنهار . وعلى أي حال لا تتجاوز هذه الفروق زيادة أو نقصاً عن بضعة أشراط، وإن نقصت أكثر من درجة أو زادت أكثر من درجة عُدَّ ذلك غير طبيعي ووجب البحث عن سببه .

• أدنى حرارة وصل إليها جسم الانسان — كما يحصل حينما يطمر في الثلوج — واستعاد بعدها صحته وقوته وحيويته بوسائل التدفئة والعلاج، هي درجة ٢٤ مئوية وهذا نادر .

• يجب أن نشير إلى أن الحرارة في الحالة الطبيعية فضلاً عن أنها تتغير قليلاً في فترات الليل والنهار وأثناء الهضم — وبُعد المجهود العضلي كالألعاب الرياضية والجري والسفر الشاق وما شابه ذلك — ليست على وتيرة واحدة عند كل الأفراد . وإذا اتخذنا درجة ٣٧ حرارة طبيعية فذلك على حسب المشاهد بين ٨٠و٩٠ في المئة من الأشخاص — فبعض الأفراد حرارتهم العادية ٣٦ دون أي عارض . وتزيد بضعة خطوط وتنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها . وتعد عندهم درجة ٣٧½ ازدياداً غير طبيعي في حرارتهم . كما أننا نلاحظ في أفراد آخرين أن حرارتهم الطبيعية ٣٧½ دون أي عارض، وهي تزيد أو تنخفض بضعة خطوط تبعاً للملابسات التي ذكرناها، فعند هؤلاء لا تُعدّ درجة ٣٨ ازدياداً غير طبيعي، بل تعد درجة ٣٦ نقصاً غير طبيعي يجب البحث عن سببه .

• هذا الشذوذ يوجب على كل إنسان أن يعرف معدل حرارته الشخصية ليخبر بها طبيبه إذا ما مرض . ولتبين معدل الحرارة تؤخذ في فترات مختلفة بضعة أيام في الصيف وبضعة أيام في الشتاء مرة واحدة كل عشر سنوات، أو في فترات التغيرات الطبيعية عند الإنسان أي في سن الطفولة قبل الخامسة وبعد الخامسة وفي سن البلوغ وفي سن الرجولة وفي سن الشيخوخة — والساعات التي تؤخذ فيها الحرارة لهذا الغرض هي الساعة ٨ صباحاً والساعة ١٢ الظهر والساعة ٤ بعد الظهر والساعة ٨ مساء والساعة ١٢ نصف الليل . وهذا مهم أثناء المرض ليقدر الطبيب ذلك العامل الشخصي عند تشخيص المرض وعلاجه .

***

• الحيوان على حسب حرارته نوعان : الأول ذو الدم الحار كالانسان والقردة والخيل والحمير، والثاني ذو الدم البارد كالزواحف والسمك والبرمائيات .

فالإنسان وغيره من ذوي الدم الحار لا تتغير حرارته بحسب الجو المحيط به إلاّ مدة قصيرة، فلا تزيد بمجرد الحر ولا تقل بمجرد البرد إلاّ درجة خفيفة مدة قصيرة، وإن زادت أو نقصت كثيراً دخلت البنية في دور مرضي، خصوصاً إذا استمرت الزيادة أو النقص فترة

طويلة . والإنسان في ذلك كغيره من الحيوانات كالكلاب والقططة والقردة والغنم والخيل والحمير ، وكل الحيوانات الثديية والطيور غيرها تعد حرارتها ثابتة لا تتغير بحسب الجو المحيط بها . وتسمى ذوات الدم الحار لتميزها عن غيرها من الحيوانات ذوات الحرارة المتغيرة على حسب البيئة التي تعيش فيها، فإن كانت حرارة هذه البيئة ٣٠ كانت حرارتها ٣٠ وإن كانت ١٠ كانت حرارتها ١٠ وهكذا . وتسمى هذه الحيوانات ذوات الدم البارد مثل الزواحف كالثعابين والسحالي وما شابهها والسمك والبرمائيات وكثير من الحشرات . والدم هو الذي يوزع الحرارة على جميع أجزاء الجسم في كلا النوعين حتى تكون الحرارة متقاربة في كل الأعضاء.

***

• أجنة الحيوانات الثديية داخل الرحم تتبع حرارتها حرارة جسم الأم . ويلاحظ أن الحيوانات التي ترقد وتعتكف في الشتاء hibernating . وإن كان بعضها من ذوات الدم الحار تتغير حرارتها على حسب مقتضيات حرارة البيئة التي تعيش فيها مدة سباتها الاعتكافي في الشتاء .

• ثمة ظاهرة عند الحيوانات ذوات الدم الحار ، وهي أن حرارة الجلد أقل قليلاً منها في الفم الذي تقل حرارته عن الأمعاء ، وهذه حرارتها أقل قليلاً من الدم الذي تقل حرارته عن الكبد ، ولكن كل هذه الفوارق لا تتجاوز بضعة أشراط . وحرارة الجلد تسمى حرارة سطحية ، وحرارة الأمعاء تعد داخلية .

قلنا إن الحيوانات ذوات الدم الحار ثابتة الحرارة، والسبب أن لديها وظيفة خاصة تكيف بها الحرارة في تولدها وتصريفها حتى تحافظ البنية على ثبات حرارتها بعملية فزيولوجية لا بد لفهمها من ذكر بعض معلومات تمهيدية .

• لاحظ كل من اشتغل في معمل الكيمياء أنه عند ما يجري بعض تجاربه الكيميائية ويضع محلولاً على محلول آخر يحدث بينهما تفاعل كيميائي ، وقد يحدث هذا التفاعل تغييراً في حرارة المخلوط نشعر به حينما نلمس أنبوبة الاختبار . وجسمنا معمل كيميائي معقد تحدث داخله تفاعلات كيميائية كثيرة بعضها يولد الحرارة وبعضها يصرفها .

وحديث التفاعلات الكيميائية يذكرنا ببعض ما عرفنا من احتياج الخلايا للأوكسيجين والتخلص من ثاني أوكسيد الكربون ، إذ يحدث ما يسمى التأكسد oxidation . ونرى أن استهلاك الأعضاء والأنسجة والخلايا للأوكسيجين وتخلصها من غاز ثاني أوكسيد الكربونيك وغيره من الفضلات يزيد كلما زاد عمل العضو ، ومن نتيجة هذه العملية تتولد

الحرارة . وهي عملية تشبه عملية الاحتراق لأن أنسجتنا تستهلك الأوكسيجين الذي يتحد مع المواد السكرية والدهنية، ويحدث تفاعل أو شبه احتراق تكون نتيجته خروج غاز ثاني أوكسيد الكربون . وتنتج حرارة من هذا التفاعل .

• كما أننا إذا أوقدنا ناراً ووضعنا عليها وقوداً أوفر زاد شبوبها ولهبها وكثر دخانها واستهلكت أوكسيجيناً أكثر من الهواء لمساعدة الاحتراق،كذلك يلاحظ أن أعضاء الجسم تحدث حرارة أكثر عند ما تعمل باجهاد أثناء تأدية وظيفتها وتحدث حرارة أقل عند ما تعمل ببطء أثناء تأدية هذه الوظيفة . وتقل حرارتها التي تحدثها جداً حينما تكون ساكنة لا تعمل .

• أهم عضو في توليد الحرارة الجسمية هو العضلات ، ووزنها يساوي تقريباً نصف وزن الجسم ، فيجب أن تكون الحرارة التي تولدها مساوية لنصف حرارته . وقد شوهد بالاختبارات الفزيولوجية أن عمل العضلات يسبب ازدياد الحرارة درجة أو درجتين عن الحرارة الطبيعية ، وتتولد هذه الزيادة من ازدياد عملية تأكسد المواد الغذائية بعد امتصاصها والتي يحملها الدم إلى العضلات فتستسيغها وتتصرف فيها . وقد يتولد بعض الحرارة من العمليات الفزيولوجية في الكبد والأمعاء والغدد وغيرها من الأنسجة ، ولكن إذا وازنا بين العضلات وبين بقية أعضاء الجسم باعتبار كل منها مصدراً للحرارة فإن النسبة الكبرى من حرارة الجسم تولدها العضلات ، ويعد مصدرها من الأعضاء الأخرى تافهاً قليل الأهمية .

• زد على ذلك أن العضلات وهي ساكنة بدون إجهاد ولا حركة لها عمل وقوة خاصة tone لحفظ مفاصل الجسم في مواضعها، وحفظ شكل الإنسان وقوامه وتوازنه ، وهذه القوة الخاصة tone وحدها تولد حرارة . وإذا ما فقدت العضلات هذه الخاصّة بأن أصيبت بالشلل أو حدث فيها ارتخاء ، قلّ تولد الحرارة منها ، وهذا ما يشاهد في بعض الأمراض الناهكة للقوى، إذ نرى بنية منهوكي القوى والطاعنين في السن إذا ما أصيبوا بمرض حُمّْوِيّ تكون زيادة الحرارة عندهم بسيطة جداً بالنسبة لما يجب أن تكون عليه عند الأقوياء ، وهي علامة سيئة لا يطمئن إليها الأطباء، وتسمى هذه الحالة «حمى بدون حرارة» apyrexial fever.

• إذا استمرت الحرارة في التولد بواسطة العضلات وغيرها وجب أن تستمر حرارة البنية في الازدياد . ولذا أوجدت الطبيعة وظيفة أخرى فزيولوجية لتصريف الحرارة من الجسم لفقدها حتى تعتدل وتكون ثابتة ، والأعضاء التي تؤدي وظيفة « تصريف الحرارة » هي الجلد بالعرق وغيره ، والرئة مع التنفس ، والكلى بواسطة البول ، والأمعاء بواسطة التبرز ، بالوسائل المختلفة التي سنشرحها . وأقل هذه الأعضاء أهمية في تصريف الحرارة هي

الكلى والأمعاء . وانتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصرفها يسمى اصطلاحيّا «تكيف البنية لحفظ حرارتها ثابتة » .

• العضلات إذاً هي وسيلة الحركة البدنية ومولدة الحرارة . والجلد هو غطاء الجسد الخارجي وله وظائف كثيرة أهمها تصريف الحرارة . وهو عضو من أعضاء الجسم الرئيسية له جملة وظائف هامة ، لا مجرد غطاء . وتستمد العضلات موردها لتوليد الحرارة من المواد الغذائية التي تأكلها ، ولكل نوع من أنواع الطعام مقدرة على إعطاء وحدة حرارية أو طاقة حرارية (سُعْر calory) خاصة به تستمين العضلات بها لتولد منها الحرارة أثناء عملية التبادل الغذائي metabolisme في أنسجتها ؛ بأن تأخذ الأوكسيجين وتعطي غاز ثاني أوكسيد الكربون . ووحدة الحرارة (سعر calory) هي مقدار الحرارة الكافي لرفع حرارة لتر واحد من الماء درجة مئوية واحدة من الحرارة .

ويعد الرجل المعتدل في جسمه وعمله محتاجاً لمواد غذائية تعطي ٣٠٠٠ وحدة حرارية في أربع وعشرين ساعة يحصل عليها من الطعام الذي يأكله فيُهضم في الجهاز الهضمي ثم يمتص في الأمعاء ويسير في الدم إلى القلب فيوزعه على أعضاء الجسم المختلفة . وعندما تستسيغهُ خلايا الجسم ويحصل التفاعل تتولد الحرارة اللازمة . والدم هو الذي يوزع الحرارة على كل أعضاء الجسم كما ذكرنا آنفاً .

• أجريت جملة تجارب فزيولوجية لمعرفة ما يصرفه الجسم من وحدات الحرارة ، ولتقديره أثناء الراحة التامة والرقاد مدة ٢٤ ساعة ، فوجد أنه تلزم وحدة حرارة واحدة في الساعة الواحدة لكل كيلو جرام واحد من وزن الجسم . أي أن الرجل الذي وزنه ٧٠ كيلو يحتاج ١ × ٧٠ × ٢٤ = ١٦٨٠ سُعراً ليعوض بها ما يفقده جسمه منها . ويحصل عليها من غذائه . فالطعام هو الواهب والمنبه لانتاج الحرارة ، وأعضاء الجسم وأهمها العضلات هي التي تولدها مما يصل إليها من المواد الغذائية بعد هضمها وامتصاصها .

• المواد الغذائية هي المواد الزلالية proteines والمواد الدهنية fats والمواد النشوية carbohydrates . والمتفق عليه بعد عدة تجارب أن كل جرام من المواد الزلالية يعطي من وحدة الحرارة ٤ر١ ، وكل جرام من المواد الدهنية يعطي ٩ر٣ ، وكل جرام من المواد النشوية يعطي ٤ر١ .

• المواد الزلالية هي أهم المواد الغذائية التي يستمد منها الجسم حرارته ، ولذا نرى أن الإنسان يميل بغريزته لأكلها مدة الشتاء لاحتياجه لحرارة جسمية لمقاومة البرد في الشتاء

أكثر من الصيف ، حقاً إن المواد الدهنية تعطي وحدات حرارة أكثر ، ولكن زيادة الأكل منها تحدث اضطرابات في المعدة . وسكان البلاد الباردة على وجه العموم أغلب طعامهم الممتاز والمفضل من اللحوم والسمك والمواد الدهنية . وعندنا في مصر يقول العامل : أشتغل لأحصل على الخبز والملح ، أما في أوربة فيقول : أشتغل لأحصل على الخبز والزبدة !

• كلنا يلاحظ كثرة العرق في الصيف وقلته في الشتاء ، والسبب في ذلك أن الجسم محتاج لفقد حرارته حتى لا تزيد من شدة الحر ، لأن العرق يتبخر والتبخر يمتص الحرارة فتقل حرارة الجسم ولا تزيد على حسب حرارة الجو الموجودة فيه . ويلاحظ أن أوعية الجلد الشعرية تتسع فيحمر الجلد فيمر الدم في هذه الأوعية بغزارة، لكي تساعد على كثرة العرق وتلطيف الحرارة . وأما في الشتاء فيلاحظ انقباض الأوعية الشعرية وقلة العرق أو فقدانه لكي لا يفقد الجسم حرارته . ويلاحظ في الصيف أيضاً نشاط الرئة لكي تتلطف حرارة الجسم بالتبخر مع التنفس . وفي الشتاء يقل نشاط الرئة .

• من الأسئلة التي يسألنا إياها الجمهور : لماذا يقل البول في الصيف؟ بل لقد حضر عندي مرضى عصبيون يشكون قلة البول في أيام الحر ، والجواب سهل لأن العرق يكثر في الصيف ويتصرف الماء من الجسم بواسطته وبواسطة التنفس . ويكفي أن يضع المرء أمام فمه سطحاً مصقولاً مثل المرآة ويتنفس فيها ليرى قطرات البخار متجمعة على صفحتها .

وفي الشتاء يزيد البول لقلة العرق ولقلة ما يتصرف من البخار مع التنفس ، وإن كنا نشاهد البخار مع التنفس في الشتاء، وذلك راجع لبرودة الجو لا لكثرة التبخر في الشتاء .

وتقدر كمية العرق في مدة ٢٤ ساعة لشخص سليم وفي جو معتدل لا حار ولا بارد بنحو ٧٥٠ جراماً وتركيبها مبين في الجدول الآتي على وجه التقريب . ففي كل مئة جرام يوجد

٩٩ — جرام ماء

٤ /. جرام — كلورور الصوديوم

٨ . ر . جرام — بولينا

آثار — فسفات الصوديوم وكلورور البوتاسيوم وأحماض دهنية .

وفي الحالة الطبيعية وفي الجو المعتدل تفرز الكلى أكبر كمية من الماء الذي تفقده البنية، وجزء من هذا الماء يفقد من الرئة ومن الجلد ومع التبرز . وفي الجو البارد يزيد إفراز الكلى الماء وتزيد كمية البول إذ يقل العرق . وفي الجو الحار يكثر العرق ولذا تقل كمية الماء الذي تفرزه الكلى فتقل كمية البول .

• يعرق الإنسان في الجو المعتدل الحرارة ولكنه لا يشعر به لأن الملابس تمتصه ويتبخر، وأما في الصيف فإنه يشعر به لكثرته .

• إذا ما انتقل المرء من مكان بارد إلى مكان دافىء كيّف الجسم حرارته لكي تكون ثابتة بواسطة وسائله في زيادة توليد الحرارة ووسائله في زيادة تصريفها ، والعكس بالعكس . وللوصول إلى انتظام وظيفة توليد الحرارة ووظيفة تصريفها وتعاونهما وانسجامهما في الجسم ، يوجد في المخ مركز منظم للحرارة ، ولم يحدد بعد مكانه بالضبط ، ولكنه في أحد المواضع الآتية :

الجسم المخطط corpus striatum ، أو المهد البصري ophie thalamus أو الجزء أسفل المهد البصري hypothalamus .

ويعد هذا المركز الأعلى لتنظيم الحرارة، فهناك مراكز مساعدة له في النخاع المستطيل ، وهذه المراكز هي التي تنظم وتكيف الحرارة وفق حاجات البنية فتنبه أعضاء توليد الحرارة لتزيد نشاطها فتعطي حرارة أكثر أو تهدىء وظيفتها لتعطي حرارة أقل كما تنبه أعضاء تصريف الحرارة من الجسم وتنشطها فتصرف حرارة أكثر أو تهدئها ليكون فقد الحرارة أقل ، ويتبع ذلك زيادة احتياج الانسان للطعام والماء أو نقص احتياجه .

• قلنا إن حركة العضلات وانقباضها تزيد حرارة الجسم، ولذا يحتاج الإنسان في الجو البارد لأن يجري تمرينات عضلية وألعاباً رياضية وسيلةً للتدفئة وتنشيط البنية . والملابس لا تزيد تولد الحرارة وإنما تحفظها من التبخر والتدمع بواسطة الجلد لكي لا يفقد المرء حرارة جسمه بسهولة ، ومن يكثر من الملابس في الشتاء ويبقى جالساً في مكانه لا يكون جسمه نشيطاً لأن أعضاءه لا تعمل على إيجاد حرارة فيه . ويلاحظ في الشتاء أن المرء يكثر من الأغطية عند رقاده في الفراش لأن تولد الحرارة أثناء الراحة والنوم يكون أقل بكثير منه أثناء اليقظة والحركة ، فيستعين الانسان بالتدثر للمحافظة على الحرارة . والملابس الصوفية لها هذه الخاصة أكثر من غيرها لضيق مسامها، ولذا تتخذ في البرد وكذا الفراء لكثرة وبرها. وأما ما يتخذ للباس من الأصناف الأخرى مثل الجلد فإنهُ يحفظ الحرارة أكثر لتماسك أجزائه وعدم وجود مسام فيه بعد دبغه ، ويلاحظ في مصر أن بعض من يخشون البرد يضعون ورق الجرائد على صدورهم ويشعرون بدفء من ذلك ، لأن الورق متماسك الاجزاء خال من المسام لا يتخلله الهواء ، مثله كمثل الجلد المدبوغ.

• ويجب الاحتراس من كثرة الملابس لأنها تسبب الخمول وتسهل عند خلعها الإصابة

بالبرد كما أنها تعوق البنية عن المحافظة على حرارة الجسم بنشاطها وعملياتها الفزيولوجية ، ويحدث مثل هذا الضرر من كثرة التدفئة في الغرف ، وقلة الملابس لها عكس هذا الأثر إذا ما كانت في حد المعقول لكي لا تضر . وفي البلاد الحارة كبلادنا يجب ألاّ تضيق الملابس بحيث تكثر العرق وتعوق تبخره .

والدجاجة ترقد على صغارها وتجمعها حولها لتدفئتهـا بحرارة جسمها إلى أن يخرج ريشها فتستغني به .

• ثمة مسألة هامة تحتاج إلى التنبيه ، وهي أنك في فصل البرد إذا دخلت منزلاً يجب أن تخلع رداءك الخارجي (المعطف) وتضعهُ في مكان غير بارد ، ومما يؤسف له أن أكثر الناس يضعون في منازلهم أماكن وضع الرداء بجوار الباب الخارجي ، أي في مكان بارد ، فعند ما يلبسها المرء وهو خارج من الغرفة يشعر ببرودتها وتضايقه هذه البرودة فيحسن أن نخصص للمعاطف مكاناً غير مجاور للباب الخارجي . وعند خروجك من منزل في الشتاء لا تخرج بسرعة من حجرة دافئة إلى برد الشارع مباشرة ، بل يجب الخروج تدريجاً ، أي من حجرة دافئة إلى ردهة أقل منها دفئاً ، ثم تلبس رداءك وتخرج ، لكي لا تتأثر ببرد الشارع . ومن هنا تحسن السيدات صنعاً بكثرة الكلام وطول الحديث في الردهة قبل الخروج ، لأن هذه الفترة تمهد لأجسامهنَّ التكيف لاستقبال تغير الحرارة .

• وفي الصيف يستعين المرء بما يخفف الحرارة ، ومن ذلك قلة التغذية خصوصاً قلة المواد الزلالية والمواد الدهنية وتخفيف الملابس ، ونجد الطبيعة تساعدنا بكثرة العرق الذي بتبخره يمص الحرارة من الجسم فتقل ، ونرى أوعية الجلد الشعرية تتسع فيغزر الدم فيها فيزيد العرق وتفقد الحرارة بواسطة التشعع أيضاً أكثر مما لو كانت الأوعية الشعرية منقبضة . ويلاحظ أن الكلاب يكثر نفسها ويسرع لغزارة الوبر على جسمها . وهذا التنفس الكثير السريع وسيلة من وسائل فقد الحرارة من الجسم بواسطة التبخر من اللسان والفم ومن الرئة ، ونرى الكلاب في الصيف أيضاً تبحث عن مكان بارد مثل الرخام أو الحشائش وترقد عليها لفقد الحرارة بتوصيلها من جسمها إلى الأشياء الباردة ، لأن وبر جلدها يمنع تشعع الحرارة ويمنع فقدها بواسطة الجلد ، وليس عند الكلاب غدد عرق مهمة ، فالجلد عندها قليل الفائدة إذا نظرنا اليه من جهة تصريف الحرارة .

« يتبع »

أبو العلاء وبيئته

في أي شيء أطاعها وأي شيء عصاها ؟

لادوار مرقص

من أعضاء المجمع العلمي العربي

كانت بيئة أبي العلاء بيئة تطاحن وتنازع له أول وليس له آخر في العقائد الدينية والمذاهب السياسية والنظريات الاجتماعية ، وكان المسلمون منقسمين إلى فرق كثيرة قائمة في وجه أهل السنّة — وهم الفريق الأعظم والأشهر — فمن تلك الفرق الشيعة والمعتزلة والخوارج والقدرية والجبرية والمرجئة والمجسمة والظاهرية . مع أن الاسلام في عصرنا الحاضر منحصر في ثلاث فرق هي السنية والشيعة والوهابية .

وكان الخليفة العباسي السابع وهو المأمون ابن الخليفة هرون الرشيد علاّمة الخلفاء غير مدافع يطلق العنان لكل واحد من خواص رعيته في ميادين التفكير والبحث والاعتقاد بشأن الدين والعلم والفلسفة . فلما توفي وأسندت الخلافة إلى أخيه المعتصم بالله نهج منهجه في هذا الاطلاق وهذا التسامح ، ثم أفضت الخلافة إلى ابن المعتصم الواثق بالله ، والمظنون أن منهجه في ذلك كان وسطاً بين الشدة واللين ، ثم أعقبه أخوه جعفر المتوكل على الله فشدد النكير والعقاب لكل من خالف أهل السنة منحرفاً نحو التعطيل أو الزندقة وكذلك كان شأن من جاءوا بعده من الخلفاء في التشديد والاستنكار . ومن ثمَّ أصبح المفكرون بغير ما يرضي الدولة وسواد الأمة ، يتسترون ويتحجبون . واتفق فريق من كبار المفكرين قبل نبوغ أبي العلاء بسبعين أو ثمانين سنة على آراء فلسفية لها تأثير عظيم في عقائد الدين ورسومه وألفوا في السر جمعية منهم سموها جمعية إخوان الصفا وأصدروا على التوالي نيفاً وخمسين بحثاً هي المسماة في أدبنا العربي برسائل إخوان الصفا دسوها بين الناس بطرائق خفية وكانوا يزعمون أن الشريعة دنستها الجهالات لأنها أدخلت عليها ما ليس منها . وإنما يمكن إصلاحها وردها إلى الطهارة باستنجاد الفلسفة اليونانية بما لا يخالف جوهر الدين الاسلامي من هذه الفلسفة . وفي رسائلهم فندوا وعابوا أشياء كثيرة في السياسة . وقد وافقهم على آرائهم

ومذهبهم فريق من خاصة الناس وخالفهم فيه فريق آخر ، ولا غرو فان مطالبهم ومباحثهم العويصة من جهة الذات الالهية والقضاء والقدر والثواب والعقاب وقدم العالم وحدوثه وما جاور هذه الموضوعات كانت وما زالت مثار الجدل والمناظرة والحيرة والشك من أوائل نشأة العلم والفلسفة إلى أيامنا الحاضرة . ومن علمـاء تلك المؤسسة الفلسفية جمعية إخوان الصفا الذين اتصلت بنا أسماؤهم زائد بن رفاعة ومحمد البستي وأبو الحسن وأبو أحمد . وكان أصحابها يكتمون أسماؤهم خوفاً من أن يصيبهم أذى أو ضيم من قبل الدولة أو قبل فئات من الشعب .

فلما ظهر أبو العلاء وفي رأسه عقل جبار وبين جنبيه نفس جريئة طموح واطلع على ذلك المعترك الديني العلمي الفلسفي في ميادين الفرق الدينية وفي جمعية إخوان الصفـا وفي اختلاف نظريات العمران والاجتماع والسياسة ـ استهوته هذه المباحث وكان لها عليه وقع بعيد الأثر فجعلها دأبه وديدنه وبدرت منه بوادر أقوال وآراء يستنكرها الأكثرون . وما كان أسرع عودته عنها إلى ما نشأ عليه في حجر أبويه من عقائد ومبادئ . وسأورد ذلك بإيضاح.

ومرَّ أبو العلاء في إحدى رحلاته بمدينتنا اللاذقية هذه وكانت أعظم وأجل بكثير مما هي عليه الآن . وفي أثناء إقامته هنا ـ ولا أعلم مدتها ـ عرف راهباً يونانيـاً من أهل الذكاء والعلم وهو من رهبان دير مار جرجس المبني على هضبة القاروس ، وإلى جانب الدير كنيسة باسم هذا القديس الشهيد سماها الناس حينئذٍ « كنيسة نصف البلد » وهي تسمية تدل دلالة واضحة على عظم المدينة واتساعها في عصر أبي العـلاء . والظاهر أن الراهب اليوناني كان يحسن أيضاً التعبير باللسان العربي، فكلفه أبو العلاء أن يطلعه على أشياء في الفلسفة اليونانية ففعل، ولا نعلم أي ناحية فلسفية اختارها أبو العلاء : أفلسفة ما وراء المادة أم فلسفة القوى العقلية أم فلسفة الاجتماع ونظم العمران أم ماذا ؟ وذكر أبو العلاء اللاذقية ذكراً كنا نود وروده بغير السياق الذي اختاره . قال :

في اللاذقيـة ضجّـة   ما بين أحمد والمسيحْ
هذا بناقوس يد   قٌّ وذا بمئذنة يصيح
كلٌّ يعظّـمُ دينه   يا ليت شعري ما الصحيح

ولو كنت إلى جانبه يوم نطق بهذه الأبيات لقلت له : رويدك يا أستاذنا وموضع حبنا وإكرامنا . إن ضجة الخلاف والشادة لم تقم قط بين أحمد والمسيح بل بين تبّـاع هذا وتباع ذاك ، فقد أوصلتهم طرق التعليل والتأويل والاطراد والتعريج إلى اختلافات ومهاوٍ

سحيقة مع بقاء أحمد والمسيح على اتفاق تام في جوهر العقيدة والمبدإ. وكيف يمكن أن يقع اختلاف جدي ونفور بين رجال الله وأصفيائه عزّ وجلّ ؟

ولما مرّ أبو العلاء بطرابلس وكانت فيها مكتبة عامرة كلف بعض الناس أن يقرأ له شيئاً من محتوياتها على حسب اختيار المكلف ، ففعل وأضاف ما استمرأه ذهنه منها إلى ما عنده من علم وأدب .

***

وكما أثرت في أبي العلاء بيئته باستدراجه إلى قضايا الدين الجدلية أثرت فيه كذلك باستدراجه إلى زخرف الكلام وتزويقه بالبدائع اللفظية من جناس وتقفية ولزوم ما لا يلزم مع ما يجاور هذه الصور من طول الاستطرادات وعبارات الدعاء والمجاملة ، فإن أدبهُ نظماً ونثراً ممتلئ إلى حد البطنة بهذه الأغذية وبينها ما لا يخلو من قبول ودسم وما هو تافه تماماً ليس له طعم ولا يرجى من وراء هضمه وتمثيله مدد وعافية . وكذلك كان مذهب أدباء ذلك العصر وما تقدمه وتخلف عنه . ومن مشاهير أصحاب هذه الطريقة أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمذاني وأبو منصور الثعالبي والوزير المهلبي والحريري والصابئ وابن العميد والصاحب بن عبّاد . وكل هؤلاء كان إنشاؤهم ناصعاً جيلاً دالاً على مقدرة عجيبة وذخيرة وافرة من أوضاع اللغة ومجازاتها . ولكننا لا نشك أنهم كلهم وبينهم أبو العلاء المعري لو لم يتقيدوا بهذه الطريقة التزويقية لجاء إنشاؤهم أجمل وأمتن ولما عابه ما في بعضه من أثر التكلف والاعنات والاسهاب المملّ . ونريد بذلك الاشارة إلى طريقة إنشائية غير طريقتهم، طريقة الحرص على الرشاقة في مواضعها والجزالة في مواضعها بغير تسجيع وتصريع وترصيع إلاّ ما جاء من ذلك عفو الخاطر . هكذا كان مذهب فحول إنشاء آخرين نبغوا في صدر الاسلام قبل من أوردنا أسماءهم ومنهم عبد الحميد الكاتب وعمرو بن مسعدة الكاتب والجاحظ وابن المقفع وزياد بن أبيه والمهلب بن أبي صفره والحجاج بن يوسف الثقفي . وأما من ظهروا بعد أولئك فمن أشهرهم ابن خلدون وجلال الدين السيوطي . وبديهي أن ديوان اللزوميات لأبي العلاء لم يظهر على تلك الصورة إلاّ مجاراة لذلك المذهب في البديع اللفظي .

وأطاع أبو العلاء أيضاً بيئته في مظهر آخر من مظاهر الأدب العربي لم يكن عصره يستهجنهُ أو يستغربه ولا ما تقدمه وتخلف عنهُ من عصور القدماء والمولدين . والمراد به باب

التمدح والفخر، فقد دخله أبو العلاء صريحاً فصيحاً . وأظن ظنّاً راجحاً يقرب من اليقين أنهُ تعمد الافتخار بنفسه ردًّا ودحضاً لما كان يلمحه من مساعي خصومه وحساده وفلتات أقلامهم وألسنتهم ضده . وكان يعلم أن بين رجال العلم والأدب جمهوراً ينتصرون له ويشدون أزره إذا رأوا ضرورة لمؤازرته . ولولا هذا الحافز الذي يعذره عليه كل عاقل عادل لما خرج قيد شبر عن شرط الدعة والتواضع كما هو المعهود في أمثاله من العلماء الأثبات .

ومما يروى عن أفلاطون الحكيم اليوناني الشهير تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو أنه قال : قضيت حياتي في طلب العلم والشيء الوحيد الذي علمتــه إلى اليوم هو أني لا أعلم شيئاً . ويروى عن أبي عبيدة العلامة الراوية العربي في صدر الدولة العباسية أن شابّاً سأله مسألة لغوية فقال له أبو عبيدة : لا أدري . فارتاب الشاب في صدق جوابه وظنه يحاول أن يضن عليه بالفائدة ، فقال له : كيف تقول في هذه المسألة لا أدري وإليك تضرب آباط الابل من مشارق البلاد ومغاربها انتجاعاً لفضلك ، وكان في أبي عبيدة حدة طبع، وحدة لسان فأجابه : ويحك لو كان لأمك بعر بقــدر ما لا أدري لاستغنت . وكان من العاملين في دار الحكمة ببغداد على عهد الخليفة المأمون عالم وقور طاعن في السن، فسأله أحدهم مسألة أدبية أو فقهية فقال:لا أدري، فاستغرب الجواب وقال له : إن أمير المؤمنين يجري عليك من الخيرات والأرزاق كل شهر جراية عالمين ثم تسأل سؤالاً واحداً فتقول لا أدري، والله إن هذا لمن العجب العجاب . فأجابه بلين وتؤدة : « يا بني إن أمير المؤمنين أيده الله إنما يجري عليّ خيراته جزاءً لي على ما أدري ولو كانت عطاياه جزاءً على ما لا أدري لنفدت خزائنه قبل أن ينفد جانب يسير مما لا أدري » ولما بلغت مقالته المأمون قال : هذا هو العالم الحق. ثم زاد في إكرامه ورعايته .

هذا شأن العلمــاء الناضجين في التواضع وإنكار الذات ، ولا شك أن أبا العلاء أحد الممتازين بينهم . ولـكن هؤلاء المتواضعين إذا تعمد متعمد أن يتنقصهم أو يهينهم ظهرت فيهم أنفة وشمم لقمع كل عدو ومفترٍ وكبح جماحه . وإلى هــذا الناموس الاجتماعي اشار الشاعر بقوله :

إن المعلم والطبيب كليهما لا ينفعان إذا هما لم يكرما
فاصبر لدائك إن أهنت طبيبه واصبر لجهلك إن أهنت معلما

ولعلَّ هــذا الناموس الاجتماعي فكر فيه أب عاقل حين أوصى ابنه وقال له في جملة وصيته : « يا بنيَّ لا تمار العلماء فيمقتوك » والمماراة هي سوء الجدل أو إدخال العناد

والمماحكة في الجدل . ولا يخرج عن هذا الصدد ما رواه بعضهم من أن شابًّا مغروراً بنفسه كان يعمل في حقل الأدب فنظم أبياتاً وأسمعها أحد رجال العلم واللغة فطرق أذن العالم منها لفظ استنكره وسأل الناظم عنه سؤال متعجب : ما الذي تريد به ؟ فأجابه الشاب مكابراً « هذا حرف في العربية لم يبلغك » فابتسم الشيخ وقال له : « يا ابن أخي لا خير لك في مالم يبلغني منها » يريد أنه لا يفوته منها شيء .

وهذه الدعوى ما كان ليظهرها لو لم يلجئه اليها الشاب بغروره وغطرسته . أفلا يظن القارىء مثلي أن أمثال هـذه الدواعي هي التي ساقت أبا العلاء إلى تمدحه وافتخاره بنفسه ولا سيما في قصيدة لاميّة له مشهورة ؟ ومنها قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل عفـاف وإقدام وحزم ونائل

أعنـدي وقد مارست كل خفية يصدق واشٍ أو يخيَّب سـائل

يفاخر يومي فيَّ أمسي تطولا وتحسد أسحاري على الأصائل

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل

إلى أن يقول في أواخر القصيدة بلهجةٍ حادَّة تدل على التعريض مع منتهى السخط والاشمئزاز مما يؤيد رأينا في الدواعي التي دعت الناظم إلى هذا التمدح والافتخار :

إذا باهت الأرض السماءَ سفاهةً وعيَّر قسًّا بالفهـاهة باقلُ

وقال السهى للشمس أنت ضئيلة وقال الدجى للصبح لونك حائل

فياموتُ زر إن الحيـاة ذميمةٌ ويا نفسُ جدّي إن دهرك هازلُ

ثارت ثائرة أبي العلاء لذلك الوضع المعكوس في المجتمع البشري لعهده ممـا أشار اليه بهذه الاستعارات البليغة، فما قول القراء فيه رحمه الله وغفر لنا جميعاً لو أدرك عهدنا الحاضر وشاهد ما نشاهد وأحس بما نحس به من عجائب الشواذ وغرائب التناقضات.

***

ومن تأثير بيئة أبي العلاء عليه ما رآه حواليه من مفاسد الناس ونفاقهم ولؤمهم فأساء ظنهُ فيهم وفي الدنيا التي احتوتهم، ومن ثمَّ نما فيه خلق التشاؤم وأعراض السوداوية وكانا قد اختمرا في نفسه بما أصابه من العمى في طفولته ثم بفقده أبويه ، ولما فقد الوالد منهما لم يكن الولد إلاَّ صبيًّـا قاصراً في الرابعة عشرة من عمره . وأما أمه فتوفيت وقد نيف على الثلاثين ولأجلها أسرع في ترك بغداد عائداً إلى المعرة لـكي يودعها قبل موتها فلم يبلغها إلاَّ

وهي في قبرها . كل هذه الحوادث المؤلمة توالت على أبي العلاء فطبعت أقواله بطابع الكآبة البالغة حد اليأس .

فرغنا من أهم ما أثرت به البيئة في أبي العلاء ، وحان لنا أن نلتفت إلى ما عصاها فيه :

كان الغالب على بيئة أبي العلاء رغد المعيشة ورفاهيتها ومباهاة الأقران بكثير من كماليات الحياة . وهذه المظاهر الساطعة الخلابة لم تجد لها أصغر موقع ولا أقل منتجع في نفس شاعرنا العظيم وفيلسوفنا الحقيقي بل تنكب طريقها واكتفى له بمستغل له صغير ورثه عن أبيه لا يزيد دخله السنوي على ثمانين ديناراً مما يساوي بالتقريب ٣٥ ليرة ذهبية من نقود أيامنا الحاضرة،وهذا المبلغ كان ينفقه على نفسه وعلى خادم له خاص في معيشة بسيطة مأكلاً ومشرباً وملبساً ومأوى ، وكان يغلب على طعامه العدس المطبوخ وقد تعمد تجنب اللحوم بعد ما اجتاز الأربعين من العمر عاملاً برأي فلسفي كان يقول به ، وقد شاع يومئذٍ بين فلاسفة الهند ومؤداه أن الانسان حيوان ناطق لا يجوز له سلب حياة غيره لكي يغذي حياته ، بل يجدر به أن يكتفي بالثمار والنبات .

ولعلَّ أصدق صورة ذهنية تنطبق على أبي العلاء في استقامته وثقته بنفسه واحتياطه من شرور الناس أبيات للطغرائي في لاميته المشهورة وهي هذه :

وشان صدقك بين الناس كذبهُمُ   وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل

أعدى عدوك أوفى من وثقت بهِ   فحاذر الناس واصحبهم على دخلِ

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعوّل في الدنيا على رجلِ

وأوضح خلة عصى بها أبو العلاء بيئته هي الأنفة وعزة النفس، وكانت البيئة ممتلئة في صميمها وزواياها برجال التملق والتزلف والنفاق استدراراً للمال من أيدي الملوك والأمراء والأعيان والأغنياء ، وهذه الخلة هي أخت شقيقة لما ذكرناه من قناعته ورضاه بشظف العيش، ومما يروقنا ذكره ويعزينا بعض التعزية عن مفاسد الزمان وأهل الزمان أن جماعة من رجالات العرب كانوا على هذه الشاكلة ومنهم الامام الشافعي القائل :

عليَّ ثياب لو تباع جميعها   بفلسٍ لكان الفلس منهنَّ أكثرا

وفيهنَّ نفس لو تقاس بفضلها   نفوس الورى كانت أجل وأكبرا

والقاضي أبو الحسن عبد العزيز الجرجاني وهو القائل :

يقولون لي فيك انقباض وإنما   رأوا رجلاً عن موطن الذل أحجما

إذا قيلَ هذا منهل قلت قد أرى   ولكن نفس الحر تحتمل الظما

وفي موضوع الأباء وعزة النفس تحضرني خاطرة سديدة من خواطر الأدب الفرنسي وهي للكاتب الفرنسي لاروشفيكو إذا صدقتني الذاكرة . قال : « ليس من الويل أن تحسن إلى لئيم فيبخسك حقك ويجحد معروفك . ولكن الويل كل الويل أن تحتاج إلى لئيم يسعفك إسعافاً خفيفاً ثم يمن عليك طول حياتك منّاً لا تحمله أرض ولا سماء »

***

بقي علينا أن نذكر شيمة واحدة من الشيم الكريمة التي خالف بها أبو العلاء بيئته بل خالف معظم ما عهدناه من البشر في كل مكان وكل زمان . وأظن هذه الشيمة تفوق جميع الشيم في نبلها وسمو قدرها ، وأريد بها شيمة الأثرة أو إنكار الذات . فإن أبا العلاء على ما هو عليه من ضعف ثقته بالناس وشدة استيائه من مفاسدهم كان قلبه الكبير ينطوي على ود صحيح لهم وإرادة كل خير وبركة تشملهم، ومما يدل على شفقته الفطرية عدم استحلاله لحم طير أو حيوان أو سمك لأجل تغذية الانسان . ثم إذا رأينا الأمير أبا فراس الحمداني يقول ولو في معرض نسيب وتشبيب :

معللتي بالوصل والموت دونه   إذا متُّ ظمآناً فلا نزل القطر

وبهاء الدين زهيراً المصري يقول :

وإذا ما متُّ من ظماءٍ   لاجرى من بعدي النيلُ

رأينا أبا العلاء المعري وكان عصره بين عصريهما يقول :

ولو أني حبيت الخلد فرداً   لما أحببت بالخلد انفرادا

فلا هطلت عليّ ولا بأرضي   سحائب ليس تنتظم البلادا

ومما لا شك فيه أن أبا العلاء لو رزقه الله ثروة واسعة ومع نفوذه الأدبي سطوة حكم رسمي جاء بالشيء الكثير من أعمال الخير ومشروعات الاصلاح : وهذه منية تشعرنا بصدق الشعور في قول من قال :

كفى حزناً أن الكريم مقترٌ   عليه ولا معروف عند بخيل

اللاذقية (سورية)

مياه عين الفيجة *

﴿ لمحة تاريخية ﴾ كانت مياه الفيجة في أيام الرومان كما كانت في أيام العرب موزعة بواسطة قناة محفورة في الصخور، مارة على سفح الجبل في وادي بَرَدَى من نبع الفيجة حتى أعلى نقطة في حي الصالحية، ولا تزال آثار هذه القناة موجودة إلى يومنا هذا، ولكنها مخربة في أكثر أقسامها. وهذه القناة كانت تسقي القرى الواقعة بين نبع الفيجة ومدينة دمشق، وما زاد منها بعد ما تأخذ مدينة دمشق حاجتها يتخذ لأعمال الري. وكان الاهمال سبب تخريب هذه القناة إذ أن صيانتها وترميمها وإصلاحاتها كانت تقوم بها، على ما يظهر، لجان من أهل المدينة والقرى على طريقة كري الأنهر المتبعة الآن في غوطة دمشق، ولذلك صارت عرضة للتخريب بسبب هجرها وعدم العناية بها.

وكذلك بقيت مدينة دمشق مدة طويلة محرومة المياه النقية. وكانت تستعمل مياه الأنهر التي كانت موزعة على البيوت بشكل طوالع وبحرات وجداول توزيعاً فنيًّا دقيقاً، فتستقي البيوت منها حاجاتها للشرب والاستعمال باستمرار وغزارة. إلاَّ أنها كانت غير نقية، ولذلك كانت المدينة دوماً عرضة للأمراض والأوبئة. لهذه الأسباب لم يكن بد من وجدان مياه نظيفة صافية لأجل تأمين شرب الأهلين ولانقاذ دمشق من الامراض والأوبئة. وعلى ذلك فكرت الحكومات منذ خمسين سنة ونيف في جلب كمية كافية من نبع الفيجة، وقد تأسس في ذلك الحين مشروع لإسالة مياه الفيجة بواسطة قساطل حديدية. وتم تنفيذ المشروع في زمن الوالي التركي المشهور ناظم باشا. وكانت المياه النقية المسحوبة تبلغ ألفي متر مكعب وُزعت على ما يقرب من خمسمئة سبيل كانت تسيل في ساعات معينة في الصباح والمساء، وبذلك أُنقذت المدينة من تفشي الأوبئة.

﴿ تأسيس مشروع الفيجة العام وتوزيعه على البيوت ﴾ قام بدرس هذا المشروع بعض رجالات دمشق في عام ١٩٢٢ إذ كانت حاجة العمران تقضي بتوسع المدينة. ولما كانت المياه الموجودة لا تكفي للقيام بانشاء أبنية حديثة فكروا في جلب كميات كافية من نبع

* استندنا في كتابة هذا البحث الى استطلاع خاص، فضلا عن بيان بعث به الينا السيد خالد سعيد الحكيم المهندس الدمشقي

الفيجة الذي يبعد عن دمشق ثلاثة وعشرين كيلومتراً فهو أقرب الينابيع إلى المدينة، ومياهه غزيرة ونقية من وجهة التحليل الجرثومي والكيميائي وكان قسم من مياهه قد اسيل في أنابيب ووزع بواسطة الاسالة . فتقرر في ذلك التاريخ تأسيس لجنة باسم «لجنة مياه عين الفيجة» في سبيل درس مشروع جديد لجلب مقادير كافية ، تمهيداً للتوسع العمراني ، لأن الكمية الموزعة بواسطة الاسالة عادت لا تكفي لري الأهلين . فتألفت عندئذٍ في دمشق جمعية بالاشتراك مع غرفة التجارة لتهيئة المشروع والدعوة اليه. وإذ كان هذا المشروع من المشروعات العامة اتفقت جمعية ملاكي الماء مع بلدية دمشق على تنفيذه بعد أخذ امتيازه من الحكومة، وذلك بالرغم من وجود شركات أجنبية كانت تسعى إلى أخذ الامتياز على قاعدة الاستثمار . وفي ٢٣ شباط (فبراير) من عام ١٩٢٤ عقدت اتفاقية بين حكومة دمشق ورئيس بلديتها نصت على كيفية العمل وعلى إدارة المشروع من قبل لجنة مزدوجة . ولقد كان لمعالي لطفي بك الحفار فضل الظفر بامتياز المشروع باسم مدينة دمشق،وقد بذل الكثير في سبيل تحقيق المشروع سنين طويلة ثم قام بالاشراف على أعماله بهمة عالية وإخلاص .

وفي الخامس عشر من شهر حزيران (يونيه) من عام ١٩٢٥ عُرض المشروع للالتزام . فتقدمت من مختلف بلاد العالم شركات قديرة من الجهتين المالية والفنية للمناقصة ، بعد دراسة المشروع دراسة فنية ، ثم نالت الالتزام إحدى الشركات الكبرى . وبوشر العمل في أول أيلول (سبتمبر) من عام ١٩٢٥ .

وقد كان الرأي الأول سحب الماء بوساطة أنابيب حديدية ، كما جرى من قبل . ولما كانت تكاليف الأنابيب الحديدية تقارب النفقات اللازمة لإنشاء قناة في شكل نفق أوثرت الطريقة الثانية لجملة أسباب فنية . أهمها إمكان جلب مقادير كافية من المياه لسدّ حاجة دمشق وتخفيف نفقات الترميم والاصلاح ، وبذلك تقل نفقات الاستثمار علاوة على أنه يستفاد من حجم قناة النفق لتأسيس شلال للماء . وبعد أن تقرر إنشاء القناة بدئ العمل في آخر عام ١٩٢٥ . وقد بلغ طول القناة المذكورة ثمانية عشر كيلو متراً، لأن القناة طريقها يقرب من الخط المستقيم ، وهي مؤلفة من أربعين نفقاً وثلاث قنوات مبنية بالأسمنت المسلح وأربعة جسور يختلف طولها بين ١٥ و ٥٠ متراً بنيت بالأسمنت المسلح ثم مماصّ (سيفون) كبير مبني بالأسمنت المسلح طوله أربعمئة متر في وادي قرية دُمّر التي تبعد عن دمشق سبعة كيلومترات . وعمق الوادي تحت سطح النفق يبلغ أربعين متراً . وقد بني المماصّ (السيفون) في شكل أنبوب بمقطع دائري قطره متر واحد من الداخل .

أما مقادير المياه التي تسيل في هذه القناة فتبلغ ثلاثة آلاف لتر في الثانية . تأخذ المدينة منها خمسمئة لتر ،أما الباقي وقدره ألفان وخمسمئة لتر فيَصب في شلال الماء المنشأ لبناء معمل كهربيّ في موقع «الهامة» لإضاءة المدينة ، لأن الشلالات القديمة صارت لا تفي بالإنارة .

وقد بلغت نفقات الأعمال الإنشائية ٢٧٠ مائتين وسبعين ألف ليرة عثمانية ذهبية. وقد انتهى المشروع في عام ١٩٣٢ ، فأسيلت المياه في بيوت المدينة .

وأما طريقة التوزيع فهي طريقة لا تشابه الطرق الجارية في سائر المدن العالمية ، لأن المشتركين في دمشق يملكون أمتاراً من الماء ويدفعون قيمتها لأجل تأمين رأس مال المشروع ، وهم يستمتعون بالماء في بيوتهم ويدفعون عنه رسماً سنويًّا في رأس كل سنة لقاء نفقات الترميم والإصلاح والاستثمار . وهذا الرسم السنوي يختلف في كل سنة إذ يزيد أو ينقص بنسبة النفقات السنوية الضرورية والاستثمار ، وبنسبة نصف المتر أو متر الماء الذي يكون قد اشترك فيه المشترك وسحبه إلى داره . وتوزَّع المياه المشترَك فيها بطريق الممارسة حصراً لمقادير الماء المسحوبة .وبعض أهل دمشق يطلبون الاشتراك بطريق العداد ، وعددهم لا يزيد على ألف مشترك إلى الآن . ويبلغ مجموع المشتركين ٣٠٠٠ مشترك ، منهم المقيمون بالمناطق العسكرية،واشتراك هؤلاء نحو ٥٧٥٠ متراً مكعباً . ولم يدفع الأهلون حتى عام ١٩٤١ من مجموع الـ ٢٧٠ الف ليرة عثمانية ، وهي مقدار النفقات ، سوى مبلغ ١٣٠ ألف ليرة ذهبية ، وسُدد الفرق بفضل اللجنة بوساطة قروض عقدت مع الحكومة التي لمست الحاجة إلى إتمام هذا المشروع الحيوي للمدينة والذي ينفذ بعناية من الوجهة الفنية وبانتظام من الوجهة الادارية . وقد وُفقت اللجنة لإلغاء جميع الفوائد التي نصت عليها عقود الدين مع الحكومة ودفع القسم الكبير من الدين أو قيمة القروض التي افترضتها اللجنة من الحكومة لقاء ضمانات كبيرة . ثم قُسِّطت بقية هذا الدين على مدد محددة ينتهي جميع الدين بانتهائها .

ثم أنشئت دار المصلحة في أشرف بقعة من المدينة ، وهي آية من آيات الطراز الحديث في صورته العربية من حيث البناء والنقش والزخرفة والأثاث ، ولا يكاد يماثلها بناء في جميع الشرق العربي . وأما الذي أبلغها هذه الروعة الفنية السليمة فهو المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان ، فقد قام بمعاونة أولاده بصناعة هذه التحفة قيام الحاذق العارف بدقائق الفنّ العربي السليم .

كانْت والعقل الجرماني الحديث

نقله باختصار وتصرف عبد الكريم المحمود

عن مقال بالانجليزية للاستاذ باجت

لقد عشت عشر سنوات مع فلسفة « كانْتْ » Kant . وظلّت في نفس الوقت بيتي وسجني ، تنفستها كتنفسي الهواء ، وإني أشكّ في أن أحداً لا يعمل عملي هذا يستطيع أن يفهم عصرنا وما فيه من رذائل وفضائل . فلنشكر عبقرية كانتْ التي أظهرت فيما اوحت إليه حياةَ الغرب المتسقة في قالب ميكانيكي ثم قوتها وراء هذه المثالية الميكانيكية التي كيفت التاريخ الأوربي منذ عصر النهضة .

على أن تكون «كانتيّا» مخلصاً مدةطويلة هو من الافتراضات الواجبة ،فذلك يمهد السبيل إلى انقطاعك عن فلسفة كانت،إذ لا خلاص من سيطرة كانت الفلسفية إلاّ بالخضوع لها زمناً . هذا ، وإذا أردنا أن نبني روحاً جديدة في عالم الفكر العالمي الحديث، فلابدّ لنا من أن نعيش مع كانت ما دام هو الحجر الأساسي في بناء الفكر العالمي الحديث وما دامت الفلسفات الحديثة تأخذه بعين الاعتبار عند ما تبحث مشكلاتها الأساسية .

منذ أكثر من قرن ظهرت فلسفة كانت في مكان معين من التاريخ الأوربي ، وذلك حين تنفس عهد « الركوكو » النفس الأخير وانفجر العصر الرومانتيكي . هذه الساعة البهيجة الجليلة يمكنني ان القبها بكل شجاعة : الذروة العليا في التاريخ الأوربي .

لا يسأل كانت ما هي الحقيقة وما هي الأشياء وما هذا العمل ؟ بل يسأل عن إمكان معرفة الأشياء والعمل . لقد ضرب كانت بالأشياء عرض الحائط وانطوى على نفسه هذا الانطواء العميق الذي لم يكن جديداً في عصر كانت ، بل كان من خصائص عصر النهضة على العموم . وما كانت في الواقع إلاّ الفيلسوف الذي ألبس هذا الاهمال للاشياء صورتـه النهائية . وبهذا نرى كانت يهمل المشكلة «المتافيزقية» للوجود وينصرف جهده إلى مشكلة المعرفة . فهو لم يهتم بكونه يعرف ، ولكنه اهتمّ بكونه : هل يعرف . وبكلمة أخرى، انصرف كانتْ إلى إمكان المعرفة .

***

وإذا نظرنا إلى الفلسفة المعاصرة نراها تجعل من الفلسفة ابتـداءً من « كانت » علماً

للمعرفة ، فهي تصرّح بأنهُ قبل أن نعرف أي شيء ، علينا أن نتثبت أولاً من إمكان المعرفة ، وهذا الأسلوب الجديد في الفلسفة لم يقتصر على إدخال الشك في عقل الرجل العصري فحسب ، بل منذ ديكارت Descartes لم نأل جهداً في اعتبار الأمر الطبيعي والمعقول لدى الفلسفة أن تبدأ في توضيح طريق المعرفة المؤدية إلى الحقيقة .

وهنالك زمان لم يكن فيه شعور الفيلسوف مماثلاً لشعور فيلسوفنا الحديث، ففلسفة اليونان وفلسفة القرون الوسطى لم تكن علماً للمعرفة بل علماً للوجود . وان علم المعرفة كان بالنسبة إليهم أمراً ثانويًّا ، ولهذا نرى أن هذه النزعة في الروح المعاصرة التي تحفزنا إلى السؤال عن إمكان وجود حقيقة وعن طريق معرفتها غريبة عن عقلية اليونان والقرون الوسطى .

إن أفلاطون والقديس أغسطينس قريبان من الروح المعاصرة ولكنهما لا يشكان أبداً في إمكان معرفة الحقيقة. والواقع أن أفلاطون اطمأن بقوة العقل كل الاطمئنان حتى إنه تعجب كثيراً من جواز وقوع الخطأ .

وهنا لا بد أن معترضاً يقول بأن أفلاطون قد كرَّر كثيراً اثارة مشكلة المعرفة مستعملا نفس الالفاظ التي استعملها الفلاسفة المحدثون . ولكن هذه الاثارة والتكرار فيهما شيء ظاهري لا يفيد إلاَّ البعد بين تفكيره وتفكيرنا الحديث . فديكارت وهيوم Hume وكانت يسألون : هل لدينا معرفة صحيحة بشيء ما ، ولكن أفلاطون لا يشك ولو لحظة واحدة في قدرتنا على معرفة أشياء كثيرة ، وهو وإن أنكر معرفة الأشياء الجزئية لم يشك مطلقاً في معرفة الكليات أو الفكر كالعدالة والحب ، وبكلمة أخرى : يثير أفلاطون مشكلة المعرفة لا لأنهُ يعتقد مقدماً أن العقل البشري قاصر عن المعرفة ولكن ليتثبت هل هناك موضوعات للمعرفة اليقينية .

***

هذه الملاحظات مع ما فيها من التشابه الظاهري هي في الواقع الحد الفاصل بين الروح اليونانية والقرون الوسطى من جهة ، والروح الحديثة من جهة أخرى . وهذا الفاصل قد خلق بدوره نظريتين مختلفتين للحياة . فيبدأ القدماء من الشعور بالثقة في هذا العالم ونظامه ولكن الرجل العصري يبدأ بعدم الثقة في هذا العالم ، ويعبر كانت عن هذا بقوله « إن العالم في تشويش وسوء انتظام». على أنهُ لمن الخطأ أن نذكر كسابق لهذه النزعة العصرية نزعة المشككين عند اليونان ، ونحن وإن كنَّا لا ننكر أن التفكير الحديث قد تعلَّم من اليونان

المشككين كثيراً واستعمل أسلحتهم مراراً لنرى أن هناك فرقاً أساسياً بين عصر الشك الكلاسيكي وعصر الفلسفة النقدية الحديثة . فالمشككون عند اليونان لم يبتدئوا بالشك بل توصلوا إليه، على حين الفكر الحديث يبتدئ بالشك .

ليس الشك بالأمر المهم كما يقول « كانت » وذلك لأن أول شاك كبير عصري ، وهو ديكارت ، قد توصل إلى حقيقة ذاتية بعد أن تساءل عن فكرة القدماء عن الحقيقة ، ولهذا فكل الجدل حول الشك في العصر اليوناني أصبح لا يجدي شيئاً بعد أن توصلنا إلى حقيقة ذاتية، ولكن ذلك لا يمنعنا القول بأن روح الشك في العصر اليوناني قريبة إلى حدّ ما من روح العصر الحاضر . ولهذا السبب نجد روح عصر الشك عند اليونان يقف موقفاً مضاداً للروح العامة، حتى إن اليونان لخوفهم من هذه الفئة لقبوها بالوساوسة .

وليس أدل على معنى هذا الخوف الذي يعتري اليونان من هذه الفئة من كلمة « الشك ». فكلمة الشك عند اليونان معناها « الازدواج » ولكن اليونان يكرهون هذا الازدواج ويميلون إلى الوحدة .

إن الشك الذي كان من البطولة الوصولُ إليه أصبح ظاهرة طبيعية لدى الروح الحديثة « فكانت » الذي يمثل هذه الظاهرة بأجمعها لم يكتف باتخاذ الحذر طريقة فلسفية، بل جعل من الفلسفة علماً له . ولهذا فإن الفلسفة النقدية الحديثة ليست إلاَّ العلم الذي لا يهتم بأن يعرف بل يهتم بأن يتجنب الخطأ . فالفلسفة القديمة — فلسفة اليونان والقرون الوسطى — هي ثمرة الثقة والشعور بالاطمئنان ، ولهذا نرى أن مجتمعها يتجسد في الفارس المغامر في حروبه، بعكس الفلسفة الحديثة التي أنتجها عدم الثقة والحذر والتي هي من خلق رجل الطبقة الوسطى في المجتمع الأوربي . إن رجل الطبقة الوسطى هذا قد تغلب على المغامر وعلى الروح الحربية القديمة وجعل من نفسه نموذجاً لمجتمعه . ولكنهُ بفقدان هذه الروح المحاربة وبسبب حذره اضطرَّ إلى السعي وراء الطمأنينة بالتشريع والاقتصاد وسيلةً لتجنب ما يحذره ويخافه .

وليست فلسفة كانتْ النقدية إلاَّ صورة لروح الطبقة الوسطى التي تحكمت في مصير أوربة منذ عصر النهضة، والتي سارت في تطورها جنباً إلى جنب مع تطور الرأسمالية . ولهذا نرى أن تشبع كانت بالفلسفة الانكليزية التي كانت تمثل الصورة المثلى لتطور الفلسفة النقدية والرأسمالية في إنكلترة ليس من قبيل المصادفة . على أن ذلك لا يعني أن هذه الملاحظات التي أبديتها تفيد الاعتقاد « بمذهب المادية التاريخية » . أنا لا أقول إن الفلسفة النقدية هي

من نتاج النظام الرأسمالي الحديث ولكني أقول إن الفلسفة النقدية والرأسمالية هما من خلق هذا الإنسان الذي يحركه الحذر والشك . إن أية قيمة تقيمها لأي عمل ثقافي يجب أن تسبق بفحص الظاهرة « البيولوجية » أعني نوع الشخص الذي أنتج العمل .

***

على أن هذه الملاحظات على ما فيها من التعدد لها قيمتها في معرفتنا لأنفسنا . فلأي نوع ينتمي رجلنا المعاصر ، هل هو متمم لحذر رجل الطبقة الوسطى ؟ الجواب عن ذلك يتطلب تحليل الفلسفة المعاصرة ، وهو عمل يعجزنا ما دامت الفلسفة المعاصرة لا تزال في طور النمو ولم تكتمل بعد . إلا أن هناك ملاحظة في وسعنا الإشارة إليها دون أن نتحمل خطر التبعة ، أعني أن الفلسفة المعاصرة تعتقد أن الشك ليس بالطريق الصالح وأن الرجل الحذر في تفكيره في استطاعته التخلص من ذكائه او براعته . إن الانسان لا يستطيع أن يتوصل إلى طريق المعرفة قبل معرفة الحقيقة ، لأن المعرفة تتضمن معرفة طريق الحقيقة ، وبعبارة أخرى : إن الثقة أصلح من الحذر أو الشك .

ليس الحذر وحده الذي يميز فلسفة كانت . فديكارت وهيوم كانا حذرين ، ومع ذلك تختلف فلسفتهما كل الاختلاف عن فلسفة « كانت » ، وإن هذا الاختلاف ناتج عن الطريقة التي بها هدّأوا حذرهم وشكهم والاعتقادات التي نتجت عن هذه التهدئة ، لهذا نرى الروح الجرمانية وروح حوض البحر المتوسط تختلفان أكثر مما نعتقد ، لأن هاتين الروحين تبتدئان من تجارب متناقضة كل التناقض . فساعة تفيق الروح الجرمانية لا ترى في هذا العالم إلاّ نفسها : الفرد منطو على نفسه وليس له أي علاقة بفرد آخر . وإن روح الفرد الجرماني لا تشعر إلاّ بنفسها ، وإن شعرت بالمجتمع الذي حولها فلا تشعر به إلا كنظام أعمى أو كموج يلطم شاطىء جزيرتها .

على أن فرد حوض البحر المتوسط يفيق وهو في سوق البيع ، وهو منذ الولادة رجل الساحات . وأول مؤثر فيه هو الحياة الاجتماعية ، فتجاربه في « أنت ، هي ، الشعب ، الأشجار ، النجوم » تسبق معرفته لنفسه . إن الشعور بالوحدة أجنبيّ عنه ، وإذا أراده وجب عليه أن يخلقه ويحارب من أجله ، وإن حصل عليه فلا يكون ذلك إلاّ من قبيل الصناعة والتمثيل . إن روح حوض البحر المتوسط في بنائها فلسفتها تعتمد على العالم الخارجي وتعتبر الأشياء الحسية صورة الحقيقة ، ولهذا هي زاهدة في قيمة وجودها بالنسبة إلى المنزلة التي تنزل بها الأشياء والناس . إن هذه الروح لا تعي إلاّ سطحية « الأنانة »[1] حيث الأشياء تترك

(١) قولك : أنا (التحرير)

طابعها ، وذلك بعكس الروح الجرمانية التي تستدبر العالم الخارجي وتنطوي على وليجة نفسها . فالجرماني لا يرى العالم مباشرة بل يراه من طريق تفكيره وإحساسه ، وبهذا يصبح عالمه عالم فكرة أو صورة . وما مثله إلاّ كمثل رجل يريد أن يرى الطبيعة فيذهب إلى شجرة ويراها منعكسة في شعاعات سائلية .

إن حقيقة وعي الأنانة صورة لرجل حوض البحر المتوسط ، وليس الشعور بها عند الجرماني إلاّ مرضاً في العقل . فالوعي لا يكون موجوداً إلاّ إذا كان وعياً بشيء . ولهـذا نرى في النظام الطبيعي أسبقية العالم الخارجي على الوعي . إن وعيك كموضوع لوعيك شيء ثانوي ويتطلب العالم الخارجي ، وهذا عكس ما يفكر فيه الجرمان . فالأشياء الحسية عنـد الجرمان أمر ثانوي بالإضافة الى الوعي الداخلي . وهنا يمثل كانت أوج الذاتية في الروح الجرمانية التي تقود الفرد إلى الاعتقاد بأن « الأنانة » هي الحقيقة الأولى في هذا الوجود . وهكذا فإن كل محاولة من جانب الجرمان في الوصول إلى ما بعد الذات خاسرة ، ولا يكون الاتصال مباشراً بل صناعيّـاً مكوناً قبليّـاً في الذهن apriori .

أما رجل الجنوب فشاعر منـذ البداية بالعالم الخارجي ومقضي عليه بالعيش في جلبـة أسواق العالم ، وليس لهُ من سبيل إلى الانفراد بنفسه . فمشكلته تنحصر في كيفية الغوص في نفسه وتفهّـم حقيقة الأنانه . وإن وصل إلى حقيقة نفسه فما يكون ذلك إلا بعد أن يختبر الأشياء في « أنت » ثم يرجع بها إلى « أنا » ، لهذا فهو أميل إلى تفسير « أنا » من الخارج على الصورة التي اختبر بها الناس والأشياء . وليس ذلك بالغريب لأن فلسفة البحر المتوسط ترى الأنانة على الصورة التي تركب بها الجسم ، وذلك باستثناء فلسفة القديس أغسطينس التي تعرف الأنانة على الصورة التي يعرفها فلاسفة العصر الحديث .

على أن هـذا الاختلاف بين تلك الروحين أدى إلى صراع عنيف بين رهبـان الشمال ورهبان الجنوب في أوربة . فهوجو وسكوتس وأوكام من أهل الشمال شغلوا أنفسهم بالحياة الداخلية على حين أن القديس توما الاقويني ــ الايطالي الصميم ــ أحيا فكرة الجسم الروحي الارسططالية التي يتكوّن نصفها من المـادة والتي ليست لها سلطة على التفكير فحسب بل على نمو الجسم أيضاً . ومن هنا نرى أن التفكير لم يكن ليفهم من الداخل كما هو عند الجرمان ، بل اعتبر حقيقة داخلة في نظام حركات الاجسام .

« شرقي الاردن »

منشأ الدولة الأتابكية

لناجي الطنطاوي

من أعضاء مكتب الدراسات الاسلامية بدمشق

يبدو للمتأمل في مجرى التاريخ أن الدول الحاكمة ينشأ بعضها عن بعض في تسلسل منظم، فلا يكاد يضعف أمر أمة بعد العزة والمنعة والقوة، وتدب اليها عوامل الانحلال والفوضى، حتى يستيقظ فيها عنصر جديد فتيّ يتسلم الحكم فيها، أو يغزوها حاكم أجنبي قوي يستولي عليها. هذا هو شأن الأمم والممالك في الشرق والغرب. انقضى عهد الخلفاء الراشدين، فتلاه عهد الأمويين ثم أعقبهم العباسيون ثم . . . ثم . . . . ثم تلاهم بنو بويه فبنو سلجوق، فالأتابكيون، فالأيوبيون ...

كانت الدولة السلجوقية [1] على جانب عظيم من القوة ومنعة الجانب وسعة السلطان، عمّ نفوذها خراسان والريّ وكرمان وبلاد الروم وامتد إلى العراق وسورية، وتعاقب عليها ملوك ذوو طموح وهمة وحزم، وطدوا بدهائهم وحسن سياستهم هذا الملك الشاسع وحفظوه من طمع الطامعين وكيد الخائنين، ولكن لم يكد ينقضي القرن الخامس الهجري حتى مال نجمها إلى الأفول منذ قضى عاهلها العظيم ملكشاه، فتفككت عراها وانحلت أواصرها وتقوضت دعائمها، فاستقل الأميران سليمان وتاج الدولة تتش بمملكتيهما — الأول في آسية الصغرى والآخر في بلاد الشام — استقلالاً تامّـاً، وعادا لم يربطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية، وتبعهما في هذا الاستقلال عن الدولة الأمراء الآخرون الذين لم يجسروا على ذلك إلاّ بعد موت ملكشاه ونظام الملك، وكلاهما من ذوي العبقرية الفذة والشخصية القوية، ففاتت بموتهما عظمة الدولة السلجوقية وانهار بناؤها الشامخ المتين.

كان لملكشاه هذا مملوك [2] تركي يدعى آق سنقر بن عبد الله [3] تزوج حاضنة السلطان إدريس بن طغان شاه، وحظي بثقة ملكشاه فأصبح من أمرائه وصار من المقربين إليه ومن خواصّه، واعتمد عليه ملكشاه في مهماته، وزاد قدره علوّاً إلى أن صار يلقبه مثل

---

(١) دامت الدولة السلجوقية الكبرى التي أسسها طغرل بك ٩٣ عاماً (٤٢٩—٥٢٢ هـ) ودامت الدولة السلجوقية في سورية — وهي التي نشأت عنها الدولة الاتابكية — ٢٤ عاماً (٤٨٧—٥١١ هـ).

(٢) وقيل إنه اصدق له لا مملوك أي من أصحابه وأترابه وممن ربي معه في صغره (٣) وقيل إن اسم أبيه آل ترغان من قبيلة ساب يو

نظام الملك، مع تحكمه في السلطان وتمكنه من المملكة فأشار نظام الملك على السلطان أن يولي آق سنقر مدينة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية، وأراد بذلك أن يبعده عن خدمة السلطان ويتخذ عنده يداً بذلك، فأقطعه السلطان جميع ذلك. قال ابن الأثير: ومن الدليل على علوّ مرتبته تلقبه بقسيم الدولة وكانت الألقاب حينئذٍ مصونة لاتعطى إلاّ لمستحقيها[1].

ولما قدم ملكشاه حلب في رمضان ٤٧٩ هـ قاصداً أخاه تاج الدولة تتش، قدم معهُ آق سنقر وانهزم تتش، وبعد انقضاء عيد الفطر رحل ملكشاه عنها وقرر ولايتها لآق سنقر هذا في مستهلّ عام ٤٨٠ ولقّبه قسيم الدولة فبقي فيها والياً إلى أن توفي وليّ نعمته ملكشاه ولم يزل بها حتى قتله تاج الدولة.

وأجمع المؤرخون على أن آق سنقر كان حسن السيرة إدارياً حازماً، ساد في أيامه العدل والإنصاف. وانتشر الأمن في أرجاء حلب وعمّ الرخاء. كان قطاع الطرق منتشرين في البلدة يزعجون الناس ويثيرون مخاوفهم، فتتبعهم وتتبّع اللصوص في كل مكان حتى استطاع أن يستأصل شأفتهم، وكتب إلى الأطراف أن يفعلوا مثل فعله فأمنت الطرق بعد خوفها وسلكت السبل بعد انقطاعها، فشكر له الناس ذلك، وبلغ به الاهتمام أن وضع نظاماً يقضي بأنه إذا وقعت حادثة سرقة في إحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها[2].

قال ابن الأثير الجزري: «كان قسيم الدولة آق سنقر أحسن الأمراء سياسة لرعيته وحفظاً لهم وكانت بلاده بين عدل عام ورخص شامل وأمن واسع، وكان قد شرط على أهل كل قرية في بلاده متى أُخذ عند أحدهم قفل أو غيره غرّم أهلها جميع ما يؤخذ من الأموال من قليل وكثير، فكانت السيارة إذا بلغوا قرية من بلاده ألقوا رحالهم وناموا وقام أهل القرية يحرسونهم إلى أن يرحلوا، فأمنت الطرق وتحدّث الركبان بحسن سيرته».

وشنق من قطّاع الطرق خلقاً، وكلما سمع بقاطع طريق في موضع قصده وأخذه وصلبه على أبواب المدينة، وكان ذا هيبة عظيمة. وقرّب الحلبيّين وأحبّهم الحب المفرط وأحبوه أضعاف ذلك، وأقام الحدود وأحيا أحكام الإسلام، وكثرت في أيامه الأمطار وتفجرت العيون والأنهار، وعامل أهل حلب بالرفق وقدّم اليهم من الجميل ما أحوجهم أن يتوارثوا الرحمة عليه إلى آخر الدهر[3].

وبلغت السياسة المالية في عهده مبلغاً استغلّت به حلب في كل يوم ألفاً وخمسمائة

(١) الروضتين ٢٤ (٢) وقد أخذ بهذه النظرية بعض الأمم الحديثة.
(٣) الروضتين، من خط أبي عبد الله محمد بن علي العظيمي.

دينار [١] . أما الناحية العمرانيـة فإن مدينة حلب قد عمرت في أيامه بعد الأمن الذي ساد أرجاءها ، إذ كثر ورود التجار عليهـا فقويت حركة التعامل وانتعشت الأسواق ، وتقاطر الناس إليها للمقام بها بعد ما عرف من حسن سيرته وعدله ، وجددت في عهـده منارة حلب بالجامع عام ٤٨٢ ونقش اسمه عليها ، وأمر ببناء مشهد قرنَبيْا ، لمنام رآه بعض أهل زمانه ، ووقف عليه الوقف .

هذا وكان السلطان ملكشاه يفكر قبيل وفاته في القيام بمشروعات كبيرة ، منها إخضاع الخليفة الفاطمي في مصر ، فأمر لهذه الغاية آق سنقر وبوزان عامل الرها أن يلتقيا بجندهما مع تتش الذي تولى قيادة الجيش ، ولكنهم ما وصلوا إلى طرابلس حتى اختلفوا فيما بينهم . ويقال إن ابن عمار والي هـذه المدينة رشا آق سنقر ووزيره زرين كمر ، ومهما يكن من شيء فقد عاد آق سنقر ادراجه فاضطر تتش إلى التخلي عن هذه الحملة ، وبعـد قليل توفي ملكشاه فانتهز تتش الفرصة للوصول إلى السلطنة .

ولهذا سار مسرعاً إلى حلب ، وبالرغم من كراهية آق سنقر لتتش ، لم ير من الحكمة أن يقف في سبيله فتبعه مرغماً وحذا بوزان حذوه . وبعد أن سارت جنودهم مسافة طويلة وكانت الحرب وشيكة الوقوع بينهم وبين بركيارق الوارث الشرعي لملكشاه لم يكن من آق سنقر وبوزان إلاَّ أن تخليا عن تتش وانضما إلى بركيارق فأجبر تتش على الارتداد إلى الشام ، ولكنه مع هذا ظلَّ متشبثاً بأطماعه في السلطنة .

كانت كراهية آق سنقر الباطنة لتتش تبدو في بعض الأحوال بشكل واضح ، من ذلك أن تاج الدولة تتش نزل مرة إلى السلطان ملكشاه ، فلما رآه ترجل له ـ وكان في الصيد ـ خيفة ان يسيء به الظن ، وحضر هو وقسيم الدولة في حضرته ، فقال تتش :كان من الأمر كذا وكذا ، فقال له قسيم الدولة : تكذب . فقال له السلطان : تقول لأخي كذا ؟ قال : نعم ، يطلع الله في عينيه ما يريده لك ويطلع في عيني ما أريده لك ، فأسرها تتش في نفسه وأضمر السوء له .

ولما توفي السلطان ملكشاه كان تتش في دمشق ، فأراد العبور مختفياً ليمضي إلى خراسان ويرث ملك أخيه ، وخرج في شهر ربيع الأول سنة ٤٨٧ ومعه خلق من العرب وقطع ماضي ورعى عسكره الزرع ونهب المواشي وغيرها ، واتصل الخبر بآق سنقر وهو بحلب فنهض إليه وكاتبه السلطان بركيارق وخطب له بحلب ، فجمع وحشد واستنجد بمن يجاوره فوصل إليه كربوقا صاحب الموصل وبوزان صاحب الرها ويوسف بن آبق صاحب الرحبة في ألفي فارس وخمسمئة فارس منجدين قسيم الدولة ، وحصل الجمع بحلب ، واستدعى آق سنقر منجماً ليأخذ

(١) كتاب عنوان السير وكتاب شذرات الذهب

له الطالع لحضر عنده واختار له وقتاً وقال : تخرج الساعة فركب ومعـه النجدة التي وصلته وجماعة كبيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل وكان أطلقهما من الاعتقال، ومحمد بن زايدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية في أحسن زي وأكمل عدة ، وقيل إنهُ قدر عسكره بعشرين ألف فارس وقيل كان يزيد على ستة آلاف، وقصد تاج الدولة في ٩ جمادى الأولى . وتقول إحدى الروايات إن قسيم الدولة خرج إليه وقال لأصحابه : إلحقوني بكتاف الأسرى ـ استصغاراً لخصمه ـ فقال له سكمان بن أرتق : حركشتهم ؟ ـ أي : أرأيتهم ؟ ـ ولم يتمهل إلى حين تصل خيله فمضى واستعجل .

قطع آق سنقر سواقي نهر سبعين [1] قاصداً تتش ، وكان تتش قد وصل إلى الحانوتة ورحل منها إلى الناعورة وأغارت خيله على المواشي بالنقرة وأحرقوا بعض زرعها ورحل من الناعورة قاصداً الوادي وادي بزاعا ، وحصلت الواقعة عند قرية سبعين أو بكارس [2] وكان أول من برز للحرب آق سنقر ، فالتقى الفريقان ولم يثق آق سنقر بمن كان معه من العرب خوفاً من قائديه اللذين أخرجهما من السجن ، فنقلهم من الميمنة إلى الميسرة في وقت المصافّ ثم نقلهم إلى القلب فلم يغنوا شيئاً ، وحمل عسكر تتش على عسكر آق سنقر فلم يثبت ، وانهزمت العرب وعسكر كربوقا وبوزان معهم إلى حلب ووقع فيهم القتل وثبت قسيم الدولة فأسر وأكثر أصحابه ، ورحل تتش من موضع الكسرة إلى حلب فملكها واستولى على المواضع التي كانت لقسيم وجلس في قلعة حلب وشرب فيها وأحضر قسيم الدولة.

وقتل آق سنقر بين يدي تتش في سبعين أو بكارس وقال له تتش قبل قتله : لو ظفرت بي ما كنت صانعاً فيّ ؟ قال : أقتلك . قال : فأنا احكم عليك بما كنت تحكم عليّ ، وقتله صبراً ، وقطع رأسه وطيف به البلاد وحملت جثته فدفنت عند مشهد قَرْنَبْيا وهي هضبة تقع قرب حلب ، وقيل إن آق سنقر قتل بقرية بكارس قرب حلب . ولما ولي ابنه عماد الدين زنكي — أبو نور الدين — نقله إلى مدرسة كان قد ابتدئ بعمارتها ولم تتمّ ووقف عليها ضيعتين هما شامر وكارس يساوي مغلهما ألف دينار كل سنة وعمر بها عمارة معجزة ونقل رمّته إليها ، وجعل قبره قبالة المسجد من الشمال وأجرى إليها قناة ماء وغرس وسطها وجعل القبر مثل قبر أبي حنيفة رضي الله عنه .

وكان قتل آق سنقر يوم السبت ٩ جمادى الأولى سنة ٤٨٧ وقتل معه أربعة عشر مقدّماً.[3]

« دمشق »

---

(١) قرية من قرى حلب من نقرة بني أسد على نهر الذهب (٢) وفي رواية : في أرض تبل وهي قرية قريبة من إعزاز وضواحي حلب . وفي دائرة المعارف الاسلامية : عند قرية ريان . وهو خطأ

(٣) المصادر: الروضتين، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الاثير، وعنوان السير وغيرها .

التّمثيل الخارجي*

للدكتور نجيب الأرمنازي

هذه خمسة وعشرون عاماً والبلاد السورية تجد وتدأب في سبيل إدراك استقلالها وتحقيق وسائله ، فأجرت في سبيل هذه الغاية محاولات جمة ، وكانت تجدد المساعي في كل بضعة أعوام حتى دخلت البلاد في وضع سياسي أصبحنا نتطلع فيه إلى المستقبل بثقة تزداد مع الزمن ، ونحن نتوقع أن نستوحي من عبر الماضي وعظاته ما يكون عوناً لنا في تسديد خطواتنا ، ودليلاً ومرشداً في معالجة ما نحن مدعوون إلى معالجته من أمورنا .

والاستقلال الذي هو مظهر سلطان الأمة وحريتها إنما يتجلى في سيطرتها على أمورها الداخلية وأمورها الخارجية ، والتمثيل الخارجي أو السلك السياسي جزء من هذا السلطان . وسنبدأ في البحث بالأوصاف والميزات التي يجب أن يتحلى بها رجال السياسة ، ثم نبحث عن رجال السلك السياسي وما يقومون به من الأعمال ، ونورد بعد ذلك بعض ما جاء في كتب العرب من الآراء في شأن السفراء والرسل والعيون والجواسيس ونشر الأخبار ، فنشاهد هذا التشابه العجيب في الآراء التي يأتي بها الفكر الإنساني في أجياله المختلفة لحل المعضلات المتشابهة التي تعرض عليه . والأمم والشعوب تتوارث الآراء والمذاهب ، والتشابه عظيم بين القواعد التي أخرجت للناس ، وميراث الفكر والعقل عام مشترك بين الجميع .

١ — أوصاف رجال السياسة وميزاتهم

قد لا تكون صناعة أكثر تنوعاً واختلافاً من السياسة في معناها الدبلوماسي لأنها مرتبطة بجميع المشكلات التي يعالجها العالم ، ولذلك كانت وظيفة السياسي دقيقة غامضة تحتاج إلى خبرة نادرة وتجربة شاملة وفراسة بعيدة وفكرة سديدة وقدرة على العمل وصيانة للأسرار ، فينبغي لمن يتعاطى السياسة أن يكون متمكناً من نفسه مسيطراً على هواه لا يستفزه حال إلى البوح بما لم يكن قد صحّ رأيه على أن يبوح به ، وعليه أن يكتم ما يعرض في خاطره ، فلا ينطق بكل ما فكر فيه ، ولكن يفكر في كل ما ينطق به ، وليس الصمت في

---

* من كتاب المؤلف معد للطبع

معرض البيان بحزم، ولكن الحزم أن يحسن المرء القول حيث ينبغي أن يكون . وليست قلة الكلام من شروط السياسة وقواعدها، فإن كثيراً من الساسة البارعين عرفوا برقة الحاشية وحلاوة المحضر وحسن الحديث وطلاوة النكتة . وكان (تليران) نزر الكلام في المجامع ولكنه متبذل في مجالس ثقاته ، وكان (مترنيخ) أحسن الناس حديثاً وأكثرهم نادرة ، وكان اللورد (ليتون) أحد مشاهير السفراء البريطانيين في أوائل الجمهورية الثالثة في باريس موصوفاً بفصاحة الأسلوب وسلاسة الكلام وخصب البيان ، ولكن هذه المزايا لم تمنعه أن يكون شديد الكتمان لا يفتح شفتيه عن كلمة لا يريد أن يقولها ، وقلما وجد رجل مثله يجمع مختلف المواهب العظيمة التي يتمم بعضها عمل بعض . وقد كتبت جريدة التيمس حين مات هذا السياسي قالت : كان يجمع بين التفكير والثقافة وبين صفات الرجل السياسي الدائب المتبصر وبين الرقة والعذوبة والفن والأدب .

والمتوفقان في عالم السياسة يحتاج إلى لين في الجانب ورقة في الحاشية وملاءمة في الطباع، وبذلك يستطيع السياسي أن يستطلع خفايا القلوب ، ثم لا بد له من أن يستمد من أعماق نفسه نبل العواطف ومكارم الأخلاق وصحة العزيمة وقوة الإرادة . فإذا اقتضت منافع بلاده أن يدافع عنها دافع بكل صلابة وشدة وثبات على الرأي الذي أنضجته الفكرة وهذبته التجارب، ولا شيء يودي بمصالح الأمم مثل التردد والتواني . كما أن من أشرف الخصال التي يسمو بها الساسة المضاء في الأمور والوقوف عند الرأي الذي قطع به ومسايرته الى أن ينفذ ويبلغ أجله ، وقد كان الكردينال (ريشليو) واسع الحيلة بعيد النظر ولكنه متردد عندما يصير الأمر إلى الغاية القصوى ولا يبقى سوى إنفاذه ، ففي هذه الساعة الأخيرة كان يسرع إليه الأب (جوزيف) مستشاره فيمده برأيه وحزمه .

وكذلك يجب على السياسي أن يكون حسن النظام في جميع أعماله وأطواره ، بعيداً عن النقائص والمثالب ، خالصاً من شوائب التخبط والاضطراب ، وماذا ترتجي المنافع العامة من رجل أخلى شؤونه الخاصة من كل تدبير ونظام أو أفرط في اللهو واللعب والتهالك . فانه لا يستحق أن يدخل في عداد الساسة أولئك الذين تحكمهم أهواؤهم ولا يحكمونها وتستعبدهم نفوسهم ولا يستبدون بها ، على أنه لا يكفي الرجل الذي يجدر به أن يمثل أمة أن يكون معروفاً بالعفة والنزاهة موصوفاً بالذكاء والفطنة ، بل عليه فوق ذلك أن يكون على جانب غير يسير من الاطلاع والمعرفة ، راسخ القدم في تدبير المصالح السياسية ، يغشى مجالس العظماء فيستفيد منها جليل الفوائد وتعقد بينه وبين رجالها روابط المودة . فالفوز في كثير من الأحاديث الخطيرة يرجع في الغالب إلى قيمة المحدث وما له من شأن ، وقد يكون هذا

الشرط كما قال (براديه فودره) ، مثبطاً لهمم فريق من الناس الذين تسمو بهم الانقلابات إلى المنازل التي لم يكونوا أهلاً لها .

وقد وصف (سان سيمون) أحد رجال السياسة في القرن السابع عشر (أرنولدري بومبون) بقوله : كان رجلاً منفرداً بشعور الحق والعدل ولين الجانب ودماثة الخلق ، يزن كل شيء ويصنعه بنضج دون بطء ، ويمتاز بمعالجة الأمور بفن وبراعة ودقة ومرونة ، فيصل إلى أغراضه بلا حيلة ولا استفزاز ، وهو على رقته وصبره لا يقصر في حزم ولا يغمز بنقص ولا يتوانى في الدفاع عن مصلحة الدولة وعظمة المملكة ، وعلى هذه الصفات التي عرف بها استمال جميع الذين فاوضوه في مختلف البلاد ، فكان موضع التقدير والثقة مهذباً محسناً ، لم يأتِ وزير مثله في حياة متشابهة منسجمة ، بعيدة عن البذخ والترف ، لا يدع عمله العظيم إلاّ لأسرته وأصدقائه وكتبه ، وعلاقاته العذبة تستهوي النفوس وتسحرها ، وأحاديثه من غير أن يريد وأن يتكلف ، لا تنتهي فائدتها لسامعيه .

وصوّر الكاتب الفرنسي (لابروير) رجل الدولة الذي يخلع عنه رداء المواكب ولباس الحاشية بسطور بليغة تنطبق على أوصاف رجال السياسة في كل مكان فقال : الوزير أو الوزير المفوض هو كالحرباء في تلونه ، فلا يغير أسارير وجهه إلاّ عمداً ، ويستشير في أعماله الزمان والمكان ويتحين الفرص ، ويتعرّف ما لديه من قوة أو ضعف ، ويترقب أحوال الشعوب التي يعاملها ويتأمل طبائعها وأمزجة رجالها الذين يفاوضونهم أو الذين يخلفونهم ، وكل آرائه وكل قواعده ونظراته وكل تدقيقاته السياسية وكل محاولاته إنما ترمي إلى غاية واحدة هي أن لا يكون قد خدع وأن يتمكن من خديعة سواه . ومن أعظم وسائل النجاح أن يعرف كيف يقول الحقيقة ، وهو فن يجب أن يبلغ الغاية من الإحاطة ، فعليه أن يكون بعيد الغور شديد الإبهام عند ما يريد إخفاء حقيقة يذكرها لأنه يهمه أن يذكرها وأن لا يصدق فيما قاله عنها،ويتظاهر بأنه صريح صادق حتى يستطيع أن يخفي ما لا تجوز معرفته ، ويقنع مخاطبه بأنه قد أطلعه على ما يريد الاطلاع عليه ولم يكتم شيئاً في نفسه ، وهو كذلك يؤازر حلفاءه إذا وجد في ذلك ما يعينه على تحقيق أغراضه ، ويؤازر أيضاً الضعفاء ويؤلف بينهم لمقاومة الأقوياء والاحتفاظ بالتوازن بين القوى المختلفة . ويكون أيضاً لطيف العشرة ، ظاهر التمسك بقواعد الشرف بعيد الأثر في إدراك شؤون الحياة وإتقان تصاريف الكلام ووجوهه ، مقتدراً على الإتيان بالحجج الشريفة ، مكيناً في معرفة ما يوافق الزمان ويناسبه ، لا يتكلم إلاّ عن السلم وعن المحالفات وعن الطمأنينة العامة والخير العام ، ولكنه في الحقيقة

لا يفكر إلاّ في منافع سيده أو جمهوريته، وهو لا يخدع بما يقول ولا يعتقد به ، ويرمي في مساعيه الى الجوهر والغاية ، ويستعد دائماً لبذل الأمور الصغيرة وإهمال مسائل الشرف الموهومة .

وأوصى (الكونت دي بيلوف) ابنه الذي أصبح بعد ذلك (البرنس دي بيلوف) المستشار الألماني بوصية أورد فيها جملة من المزايا التي ينبغي أن يتصف بها رجال السياسة ويحرصوا عليها ، فقال فيما قال :

« الزم الحقيقة كل الحقيقة بدون هوادة ولا تساهل في كلما تنقله وترويه ، وإياك أن تحمل من الأنباء ما لا تعتمد على صحته وما يمكن أن تتضح حقيقته ذات يوم ، وإياك أن تقع في الاسفاف ونشر الشوائع والمبالغات والمفاخرات الباطلة وتلوين الأشياء بألوان زاهية جدّاً ، واحذر الافراط في الاستنتاج ، واجتهد كل الاجتهاد في تحري الحقيقة وأنت تذكر الأرقام ، ولا تقع في الأشياء المخترعة والأساليب المستحدثة ، ولا تصف أمراً بأكثر مما هو على حقيقته إذا تأملته بهدوء وسكينة ، وكن حذراً فيما تقرره من حكم ، ولا تتكهن فيما ترويه وتخبر عنه ، فقد انقطع عهد النبوات والمعجزات والإخبار بالغيب والكهانة والنجوم ، وكل شيء يمكن حدوثه ولكن لا يمكن عقد الايمان على شيء لأن التغير والتبدل من الأمور التي لا مفر منها ، ولا تجعل أحداً يقع في مشكلة بسبب تقاريرك ، فإنه لا يتفق مع أصول اللباقة وأسباب الحزم . ولا تكتب شيئاً في ساعة غضبك ... وعليك بالحذر فيما ترسلهُ من برقيات ولكن كن أكثر حذراً عند وضع الأرقام التي يجب إعمال الفكرة كثيراً فيها . وإياك أن تفرط في النقد في تقاريرك فالنقد سهل والعمل صعب . . . وكن هادئ النفس معتدل المزاج رزيناً وقوراً ، ولا يأخذك الجزع في شيء ولكن تعمد الجد في كل شيء ، واحرص على السبق وانتبه إلى كل ما حولك ولا تستسلم أبداً إلى عواطف البغض والكره ، ولا تقل كلمة تحدث للحكومة مشكلة إذا لم تكن أذنت بها وزارة الخارجية ، واجعل أسلوبك واضحاً موجزاً لا اضطراب فيه ولا تعقيد ولا إملال » .

٢ — السلك السياسي

أ — وزير الخارجية

يتألف السلك السياسي في سفاراته وبعثاته من رجال شتى سياسيين وعسكريين وبحريين وتجاريين ، ويلحق بهم القناصل والخبراء . وتوزع في السفارات الأعمال بين مكتب سياسي ومكتب إداري ، ووزير الخارجية هو المرجع الأعلى لرجال هذا السلك وعماله .

وقد اشتدت الحملة في بعض الأحيان على السلك السياسي ، ولا سيما بعد الانقلاب العظيم الذي حدث في المواصلات إذ دعا الناقدون إلى الاستغناء عنه وجعله نظاماً لا يختلف عن النظام القنصلي ، واقترح الآخرون تسمية رجال هذا السلك بمرسلين ، ولكنه برغم التطور الذي حدث فإنه لا يزال على حاله في علاقات الدول وارتباط بعضها ببعض .

وإن الطابع الذي يطبع به وزير الخارجية سياسة بلاده ينبغي أن يكون صورة حقيقية لنيات الحكومة ومقاصدها . ويجب عليه أن يختار أحسن الأساليب ويتفق عليها مع حكومته حتى يبلغ أفضل الغايات في خدمة مصالح الدولة والوطن ، ولا يكفي أن يكون عارفاً حق المعرفة بدعاوي دولته وحقوقها وواجباتها وقواها واستعداداتها وما ضمنته لها العهود والعقود ، بل عليه كذلك أن يعرف الوسائل المادية والمعنوية للدول التي بينها وبين بلاده روابط وعلاقات .

وفي الحق أن المزايا التي يجب أن يتحلى بها وزير الخارجية كثيرة الاختلاف ، والأعمال التي يقوم بها تدل على تمكنه في الفن الدقيق الذي هو سياسة أمة ببراعة وإتقان ، ومن الصعب إدخال الصفات المبتغاة تحت حصر وإحصاء ، ففي الأمور الخارجية — كما قال (مارتنس) في كتاب الدليل السياسي — لا يمكن تحديد شيء ولا الإكراه على شيء ، وهي تقوم على الطلب والرجاء والمفاوضة ، وأقل كلمة في غير محلها قد تؤذي شعباً بأسره ، والسعي الخاطىء والحساب الباطل واتخاذ الخطط بحسب المصادفات قد تحط من كرامة الحكومة ومصلحة الدولة .

ووزير الخارجية بوصفه رئيساً للسلك السياسي يستدعي السفير متى أراد ، وللسفير كذلك أن يطلب المقابلة ويعنى بطريقة إثارة البحث ، وإذا كان ذلك بتكليف من الحكومة فسبب البحث ظاهر ، وكثير من الصفات التي تطلب من وزير الخارجية تطلب كذلك من السفير ، كتبادل الثقة واجتناب الدسيسة وحسن التصرف في تمويه الحقيقة وتحاشي الأخبار السيئة وفي الصمت والنظر ، وعدم الإفراط في تقدير وجود الدسائس والمكايد ، وهدوء الأعصاب حتى في المناقشات الشديدة التي يظهر فيها فضل الرجل الذي يستطيع ضبط نفسه على الرجل الذي لا يستطيع ، واجتناب الغضب وكل ضعف إنساني يخرج الرجل عن طوره ويحمله على البوح بمكنون سره ، ويجب على السياسي أن يفصل بين شعوره والأمور التي يعالجها مهما تكن العواطف الوطنية التي تملأ قلبه . بل إنه ليقال أيضاً — وإن كان في ذلك إثارة وإغضاب لحماسة الكثيرين — إن أفضل سياسي ليس الذي ينقاد إلى قلبه ولكن الذي ينقاد إلى المنطق الهادئ ، ويتساءل ماذا يستطيع أن ينال وما هو سبيل الوصول إليه . ولما

كان التمكن من النفس ليس من صفات كل إنسان وطبائعه ، فعلى من يريد أن يكون جديراً بالعمل السياسي أن يسعى لمراقبة نفسه والتغلب عليها، وإذا عزّ عليه إدراك ذلك فلابدّ أن يصبر في إنفاق الجهد وبذل العناء حتى يناله مع الزمان ، ومن الواجب أيضاً تحليل نفس المخاطب ومعرفة ما يؤثر فيه ، والخطأ في المرمى قد يعقب ضرراً لا يمكن تلافيه ، ويجب في الأمور الكبرى الاعتناء بالاستفادة من الفرص السانحة أكثر من الاجتهاد باحداثها، فإن (ريشليو) و (بسمرك) لم يبدعا الفرص ولم يخلقا الظروف التي مهدت السبيل لنجاح خططهما.

ووزير الخارجية الجديد بهذه المهمة الخطيرة يستطيع أن يقود المساعي والمفاوضات نحو الغاية السياسية الموضوعة فيهدي الرجال السياسيين بخططه وآرائه ويراقب أعمالهم حتى لا يخرج أحدهم عن النهج المرسوم ، ويطلعهم على ما يجري من الشؤون التي تؤثر في مصلحة البلاد ويرسل إليهم حيناً بعد حين وصفاً موجزاً للموقف الخارجي حتى يكونوا على بينة من سياسة الحكومة ومقاصدها .

ووزير الخارجية بوصفه مرجع ساسة الدول الأجنبية في بلاده له مهمة مزدوجة ولكنها مرتبطة من ناحيتيها : فهو يعالج الشؤون السياسية في الغالب بالمحادثات الشفوية وليس ذلك لأن الحكومات تريد أن تتخلص عند الحاجة من العهود المكتوبة بل لأنها تريد أيضاً اجتناب الوثائق التي يطلع عليها الآخرون ، وقلما تسجل المحادثات السياسية مع وزير الخارجية ، وذلك بعكس العقود والاتفاقات والاعمال الادارية التي تسجل وتودع بطون الصحائف والدفاتر . وعلاقات السفير مع وزير الخارجية ذات أشكال شتى فمنها ما هو رسمي وما هو شبه رسمي وما هو موقت وسري وخاص وما هو لتنفيذ الأوامر والمناقشة في الشؤون الجارية والمسائل الادارية والمفاوضات السياسية والاقتصادية واستطلاع الأنباء والمحافظة على حسن العلاقات ، وهنالك مسعى ومطلب وتصريح وتبليغ واحتجاج . وعلى السفير أن يحافظ على العلاقات الحسنة مع وزير الخارجية ، وان لا يقاطعه مهما تتحرج الحالة بينهما وأن يحسن اغتنام الاجتماعات الأسبوعية أو الاجتماعات الخاصة والعامة لمعرفة ما يريد الاطلاع عليه، إذ لا يستحسن أن يكتب إلى الوزير يسأله رأيه عن حادثة أو ثورة ولكنه يستخرج ذلك في أثناء مجاذبته الحديث ومخاطبته إياه ، وقد قال (تليران) في وزير الخارجية كلمة تنطبق على كل سياسي وهي : « يجب أن يكون عند وزير الخارجية شيء من الفطرة والملكة يحذرانه بسرعة ويمنعانه قبل كل محادثة من الوقوع في مشكلة » .

ولا بد في بعض الاحيان من الالتجاء إلى الكتابة ، فالاحتجاج مثلاً يكون حينئذ

أكثر تأثيراً ، على أن اختيار هذه الطريقة غير تابع لقاعدة معينة . وقد تفتر العلاقات بين وزير الخارجية وبين السفير فيلجأ حينئذٍ للمكاتبة ، على أن هذه الحالة لا تكون إلاّ إلى حين ، فإما أن يتلوها استئناف العلاقات وإما انقطاعها . ومن المجمَع عليه أن يتفق مع الحكومة على هذا الأمر ، وقد يستلزم الغياب والمرض الكتابة وكذلك المسعى الذي يقوم به السفير لدي الوزير وما ينتظر أن يكون من تأثيره عنده فيطلعه عليه أو على بعضه كتابةً بعد استئذان الحكومة في الغالب ، وذلك أملاً في أن يكون أكثر استعداداً للتفاهم بعد الكتابة إليه .

ويغلب أن يبقى السفير للوزير بعد الحديث مذكرة لتأييد ما قاله في حديثه ، وذلك في المسائل المعقدة خاصة ، وتكون الوثيقة المكتوبة ملحقة، أما إذا قدم السفير وثيقة بأمر الحكومة فحينئذٍ يكون الشرح الذي يلحق بها مضافاً .

والعلاقات الكتابية تأخذ صيغاً شتى ، فالمذكرة يخاطب بها الوزير وتحتوي على صيغة المجاملة الختامية ، وقد تكون بصيغة الشخص الثالث. والمذكرة الشفوية لا توقع ولا بأس من احتوائها صيغة المجاملة ، والمذكرة والخواطر في صيغها الأخرى لا توقع أيضاً وأسلوبها مختصر مجرد ، وقد يضاف إلى هذه المذكرات أنها بأمر الحكومة لتعزيز ما فيها ، على أن هذا من الفضول والزوائد لأن ما أرسل يكون بأمر الحكومة ، وقد تضاف كلمة «سري». ويجب أن يكون المكتوب واضحاً محدداً مهذباً بعيداً عن الجفاء الذي هو مغاير للقواعد السياسية ، ولا بدَّ من المجاملة في الألقاب . وأما الشؤون المهمة السياسية فتعالج بمذكرة موقعة ، والرسائل الخاصة توضع في الشكل الذي تقتضيه العلاقة بين المتراسلين .

ب — السفراء

يقوم السفير بمهمة تمثيل بلاده، فينبغي عليه أن يكون رسول سلام وأن يجعل شخصه قريباً من القلوب بمظهره وكلامه وأساليبه، وهو لا ينال ذلك إلاّ بتربية صحيحة وثقافة عالية ولهجة أنيقة وعشرة طيبة، فيحافظ على كرامته بدون كبر ولكن بإباء وترفع، ويكون حسن البزّة ولكن بغير تكلف ولا تصنع ولا إغراق . وتختلف الحاجة إلى المظاهر باختلاف البلاد التي يكون السفير فيها واختلاف أوضاعها . وعلى كل حال فإنه لا يجوز الافراط الذي ينقلب إلى حد الهزؤ والسخرية . والسفير الذي يمثل سياسة ليست الفضيلة عنصرها المميّز عليه أن يكون في حياته الخاصة بعيداً عن كل ما يدنسها، فهو عرضة للمراقبة، والسيرة الحسنة تنفعه كما تنفع بلاده لأن العالم يألف التعميم ، وهو بذلك يكون أيضاً مؤثراً في معاونيه ،

ولا يكون قدوة لهم في عمل سيء . وإذا استعمل السفير الدهاء والحيلة في بعض حاجاته فينبغي عليه أن لا يخرج عن شروط الرجل الشريف، والحيلة تدل في الغالب أن الرجل قليل الرأي ضعيف التدبير ، وأصحاب الأخلاق الكبيرة يتنزهون عنها . وعلى السفير أن لا ينصب نفسه للدفاع عن قضية البلاد التي هو فيها ولا ان يقاومها بكل ما لديه من روح المقاومة والمعارضة وهو في البلاد المحمية . فمهما تكن درجته فعليه أن يكون مضاعف البراعة وأن يحسن التفريق بين البلاد الحامية والبلاد المحمية . وعليه أن يفي بما يعد به ، فما قيمة السفير إذا أصبحت كلماته باطلة ووعوده كاذبة وضميره ساقطاً . وعليه أن يتجنب المفاجأة والكبرياء وأن لا يضايق محدثه بمحاولة إظهار براعته والإدلال بصحة رأيه . ومن مقتضيات الحذر الإصغاء برفق وتواضع لحجج الآخرين وعدم التشبث المطلق بحججه. وعندما يريد الاعتراض على رأي يجب أن يحمل إلى المناقشة إنصافاً وعدلاً مهما تكن القضية التي يدافع عنها حقاً ، فلا يشعر أحد بتحامل على رأي يبديه . ولا بأس بالتسليم في بعض الاحيان لاستمالة المحدث ثم الاستئناف بعد ذلك للوصول إلى الغاية المطلوبة .

وينبغي اجتناب الافراط في الحماسة أو في البغضاء والحذر من قلق النفس الذي يعطل العمل ويحرم الصبر والدأب . ومهما يكن الرجل الذي يراد إقناعه فينبغي حسن العناية به والالتفات إليه ، وكلمة طيبة في محلها تصلح من الأمور أكثر من جواب عنيف أو طلب مثير . ويجدر بالسفير أن لا يكون كثير الانطلاق وأن يظل بعيداً في فكرته قريباً في نفسه . والتواضع السياسي — وإن كان تظاهراً في بعض الأحيان لتحقيق بعض المآرب ومعرفة بعض الأمور — يُحمد أثره إذا لم يكن مقروناً بالمبالغة . واجتناب الغضب يجعل المرء متمكناً من نفسه فلا تبدر منهُ بادرة تثقل كاهله أو كاهل بلاده كما وقع (لبتمن هولوغ) عند ما وصف حياد البلجيك بأنه قصاصة ورق. ثم يطالب السفير باحترام الشعائر الدينية مهما يكن مذهبه ، وأن لا يهتم بالاتصال بالذين يتهافتون عليه منذ وصوله ، فقد يكون هنالك أشخاص لا قيمة لهم وأشخاص محرضون ، والتهالك على تغيير كل شيء لا تحمد عواقبه ، فينبغي السير هوناً في التجديد والاصلاح ، وإذا لم يكن حسن التصرف فطرياً فالطبيعة تساعد على نموه .

وهنالك قضايا لا تزال موضع الجدل والمناقشة فيما يتعلق بجواز ما يصنعه السفراء أو عدم جوازه كالكذب والافساد والتجسس والرشوة . وقد كانت تتناقل الألسن فكاهة مشهورة وصف بها سفراء البندقية ، وهي أن السفير رجل شريف أرسل إلى الديار الأجنبية حتى يكذب باسم الجمهورية ، وقيل أيضاً مثل ذلك في السفير : إنه يتجسس لدولته بصورة

رسمية . ولم يكن (مكيافللي) ومن حذا حذوه يشاركون الأديان والمعتقدات في استنكار الكذب واعتبار بعضها إياه من الكبائر ، لأنهُ في نظرهم لا يجوز البحث والمناقشة عند ما تكون سلامة الدولة في خطر . ولكن ما أنبل الذين يستطيعون أن يقفوا بين أيدي الحقائق غير مفتقرين إلى تحريفها . على أن الصمت يكون في بعض الأحيان منجاة لأصحابه من قول الباطل أو من التعرض للخطر بذكر الحقيقة . أما الافساد واستخدام الجواسيس فهو من الضرورات المزدراة ، على أنه يعذر سفير إذا قام بشيء أمره به رئيسه . ولكن هل يجوز له أن يتدخل في سياسة محلية ويعارض الدولة التي هو فيها . وإذا كانت مهمة السفير خدمة بلاده لا خدمة البلاد التي هو فيها أو دفع الضرر عنها فانه يقتضي مع ذلك إذا كلفه سيده بأمر أن يحذره قبل أن يطيعه ، وإن كان الرفض به أجدر والتحريض على الجريمة شر من ارتكابها . وتقدر الأمور بقدرها في حالات يرجى فيها اجتلاب خير أو دفع شر .

أما المال فقد كان (فيليب المقدوني) يقول إنه يفتح كل حصن مغلق ، وهو عند المعاصرين كذلك ، وقد كانت الهدايا من العادات المألوفة عند الملوك والسفراء وأعضاء المجالس العامة ، ولكن الأمر الذي يصعب تمييزه هو أين تنتهي المجاملة وتبدأ الرشوة ؟ فعلى السفير أن يكون شديد الحذر في قضايا المال حتى لا يصيب سمعته بأذى ، ويجب عليه أن يأبى قبول أية هدية يمكن أن تؤول أو أن تتخذ وسيلة لغاية حتى إنه إذا استطاع أن يرد هدايا مواطنيه كان ذلك خيراً له . وينبغي عليه أن يكون جواداً سمحاً ولكن بدون إسراف ولا إفراط ولا محاولة للظهور بمظهر الفائق على أصحاب الغنى والجاه في البلاد التي هو فيها .

ولما كان في مقدمة الأعمال التي يقوم بها السفير إطلاع حكومته على سير الأمور فعليه أن لا يتهاون في تتبع الحوادث ومراقبة اتجاهاتها . ومن وسائل الاستطلاع الاتصال بالملوك والرؤساء والأمراء والوزراء وكبار موظفي الدولة ورجال الحكومة المتقاعدين ورجال المعارضة ورجال السلك السياسي ، واتخاذ المخبرين المؤتمنين ومراقبة الشؤون الداخلية بحذر وأناة ، وإقامة المآدب والحفلات ، وتأمل الأشياء والأشخاص ، والاستعانة بصدق الشعور والحكم الصحيح في الأمور على إدراك الحقائق . والصحافة وسيلة مهمة للأخبار سواء صحافة البلاد التي فيها السفير أو صحافة البلاد التي تنتمي اليها ، ومهما كانت أنباء الصحف تحمل الحقائق والأباطيل ولا يكفي تمييز بعضها عن بعض فانه لا يجوز إهمال شيء منها . على أن الأخبار الملفقة تفيد فائدة كبرى لأنها تكشف القناع عن روح التحزب عند الذين يخترعونها ، سواء أمرضية كانت الأنباء أم غير مرضية ، فالذي يهم هو معرفتها في حينها .

وقد كان (لويس الرابع عشر) الذي يعد من كبار الملوك السياسيين قد حض سفراءه على موافاته بجميع الأنباء لأنه يريد معرفة الأنباء السيئة كما يريد معرفة غيرها. على أنهُ يحسن اجتناب الأنباء التي لا تفيد إلا إثارة النفوس ، وقد وقعت حادثة لسفير إنكلترة في فرنسة أيام حرب السبعين بقيت مكتومة ثلاثين سنة ، وذلك أن السفير قبض عليه بتهمة الجاسوسية ثم أخلي سبيله وكان معهُ بعض موظفيهِ فأمرهم بالصمت إذ لا فائدة من ذكر الأنباء التي لا علاقة لها بأعمال الدولة .

وقد تكون مهمة السفير أصعب في بلاد منها في غيرها ، وذلك بحسب ما تستطيع البلاد كتمانهُ من شؤونها العامة وما تعرضهُ لأنظار المراقبين لها ، ولا يجوز للسفير أن يعتمد في أنبائهِ على الخونة ولكن على مقدرة في الملاحظة والاستطلاع ، وينبغي أن يكون على حذر من الجواسيس إذا لم يجد بداً من استخدامهم لأن هذه الطائفة من الناس لا تبالي في سبيل المال أن تخترع الأنباء ، ولما كانت صناعتهم تقصيهم عن أن تكون لهم ضمائر تحاسبهم فهم لا يترددون في خيانة الذي يبذل لهم المال إذا وجدوا من يزيد في عطائهم .

والسفير يعرف ماذا ينتظر منهُ بحسب البلاغات والأوامر التي لديهِ ، ويحسن أن ترسم له خطة قبل سفره وأن تكون واضحة بينة لا تحتمل شكاً أو تأويلاً . على أنهُ بوجوده في مكان عملهِ له حق التقدير ويمكنهُ أن يجد من الدلائل والبينات ما لم يكن عند واضع الخطة . وإذا كانت مهمة السفير تقتصر على نقل ما كلف بهِ وحمل الأجوبة التي يتلقاها فلا حاجة إلى أن يكون حذراً أو فصيحاً ولا أن يبذل العناء في حسن الاختيار .

وجملة ما يقال أن في حسن إدارة الأخبار وتلقيها وملاحظة الأشياء والأشخاص والاستدلال بالوقائع والأحوال والجد في تسيير الأمور وتمثيل البلاد خطر مهمة السفراء .

وقد كان يتوقف عليهم فيما مضى المحافظة على توازن الدول ، فكانوا هم المفاوضين العاملين في وضع المعاهدات التي كان بعضها مثل معاهدة (وستفاليه) Westphalie من الحوادث الخطيرة في تاريخ العالم ، وقد أريد أن تقوم عصبة الأمم مقامهم في تسوية قضايا الشعوب ، فأصابت بعض النجاح ، ولكنها لم تصل إلى الغاية التي أرادها منها منشئوها وانتهى أمرها إلى الإخفاق .

ج — القناصل

كان القناصل في الماضي رجال تجارة وكانت التجارة تسبق السياسة وتمهد لها السبل . والقناصل هم الرجال المقيمون في الديار الأجنبية للسهر على مصالح مواطنيهم ، وقد وصفهم

(تليران) بقوله : إن خصائصهم تختلف اختلافاً لا حد له ، وهم يقومون بوظيفة ضابط الأحوال المدنية وكاتب العدل وأحياناً بوظيفة القاضي والحكم ، وأحياناً بوظائف بحرية ومراقبة الاحوال الصحية في السفن ، ويمكنهم أن يروا رأياً صحيحاً في التجارة والملاحة والصناعة في البلاد التي يقيمون بها . ويفيد القناصل بما يبدونه من آراء تجار البلاد وأرباب المصانع . وقد قررت المحاكم الفرنسية في اجتهادها اعتبار القناصل موظفين عامّين ولكنها رفضت لهم صفة التمثيل التي ليست إلاّ من حق رؤساء البعثات السياسية والسفراء والوزراء .

والقناصل لا يتلقون كتب اعتماد من حكوماتهم ولكن كتباً نعترف بهم ، ولا يمكن القيام بوظائفهم ما لم تمنحهم الحكومات التي يعينون لديها صفة التنفيذ من غير أن يكون لهم صفة سياسية ، ما عدا بلاد الشرق ، فقد كانوا يتمتعون فيها أحياناً بهذه الصفة وبما يترتب عليها من مكانة .

وعلى كل حال فانه ينبغي الاعتماد على القناصل والثقة بهم وإن كانوا يسرفون في الغيرة على مصالح المواطنين الذين يعيشون بين ظهرانيهم ، ويحسبون أن كرامة بلادهم تتعرض للاهانة في الصغيرة والكبيرة ، وهذا النوع من الاسراف هو الذي اتفق على استنكاره أقطاب السياسة مثل (تليران) و (بسمرك) و (تييرس) .

﴿ الذيل ﴾

بعض الآراء الاسلامية فيما يلابس ذلك

الدبلوماسية من منشآت العصور الحديثة . ولكن الفكر الانساني كان عليه أن يعالج الأمور المشابهة لها ، لذلك نجد المؤلفين في ابان الدولة الاسلامية والحضارة العربية يعرضون بطبيعة الحكم وحاجات السلطان الى مثل هذه الامور التي أوردنا ذكرها نقلا عن الغربيين ، فبحثوا في أساليب الكتابة في الأحداث الخطيرة وفي شؤون السفراء والرسل والعيون والجواسيس ، وكانت هذه الأبحاث تتصل بنواحي الشرع والفقه والسياسة والأدب ، ونحن نقتبس هنا بعض ما أوردوه من ذلك :

١ — الكتابة في الأحداث الخطيرة

ذكر صاحب « صبح الأعشى » نقلا عن كتاب « مواد البيان » ما يكتب به عن السلطان من خبر يريد التورية عنه وستر حقيقته كالاعلام بالحوادث الحادثة على الملوك والنوائب الملمة بالدولة : من هزيمة جيش أو تغيير رسم أو احداثه أو تكاليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه وما اشبه ذلك . فيجب أن يقصد بذلك الى الاختصار والايجاز ويعدل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى الى غيرها مما يحتمل التأويل ولا تنفر الاسماع منه ، ولا تراع القلوب به ، من غير أن يحتمل كذباً صراحاً ، فانه لا شيء أقبح بالسلطان ولا أغض لشأنه وقدره من أن يضمن كتابه ما ينكشف للعامة بطلانه . وينبغي للكاتب أن يتخلص من هذا

الباب التخلص الجيد الذي يزين به الأثر ، من غير تصريح بكذب ، وأن يخرج الباطل في صورة الحق ويعرض سلطانه في ذلك للاحماد والتقريظ من حيث يستحق التثريب والاذمام ، فن هذه سبيل البلاغة وطريقة فضلاء الصناعة لأن الأمر الظاهر الحسن المجمع على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه الى كد الخاطر واتعاب الفكر ، وانما الفضل في تحسين ما ليس يحسن وتصحيح ما ليس بصحيح ، بضروب من التمويه والتخييل واقامة المعاذير والعلل المغفية على الاساءة والتقصير من حيث لا يلحق كذب صريح ولا زور مطلق .

ب — السفراء والرسل

وجاء في « كتاب رسل الملوك » المنسوب الى أبي علي الحسين بن محمد المعروف بابن الفراء فصول جليلة الفائدة على قصر فيها وايجاز تذكر الحدود التي يجب أن يقف عندها الرسل في سفاراتهم والصفات التي ينبغي أن يتحلوا بها كالصبر والوقار والاناة والشجاعة والحذر والصدق . وقد جاء في هذه الفصول ما نلخص بعضه في ما يلي هذا :

«اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومناظرتك والنيابة عنك رجلا نصيحاً بليغاً حولا قلباً قليل الغفلة منتهز الفرصة ذا رأي جزل وقول فصل ولسان سليط وقلب حديد ، فطناً للطائف التدبير ومستقلا بما ترجو وتحاول بالحزم واصابة الرأي ، متعقباً له بالحذر والتمييز ، سامياً الى ما يستدعيه اليك ويستدفعه عنك ، ان حاول جر أمر أحسن اعتلاقه وان رام دفعه أحسن رده ، حاضر الفصاحة مبتدر العبارة ظاهر الطلاقة وثاباً على الحجج ، مبرماً لما نقض خصمه ناقضاً لما أبرم ، يحيل الباطل في شخص الحق والحق في شخص الباطل ، محتالا في محاورته ومكايده ، وليكن من أهل الشرف والبيوتات ذا همة عالية ، فانه لا بد مقتفٍ آثار وليه مجيب لمناقبها مساوٍ لأهله فيها . فتى اجتمعت لك فيه هذه الخصال فاجعله من بطانتك واطلعه طلع أمرك خطيره وحقيره واستشره في شؤونك لطيفها وجليلها .

ويحسن أن يكون الذي تختاره للتوجه في الرسائل جهير الصوت حسن الرواء مقبول الشمائل جيد البيان حافظاً لما يبلغ ليؤديه على وجهه . ولا يمنعه الصدق عن سلطانه رغبة يقدمها فيمن يتوجه اليه ولا مهانة يستشعرها في نفسه فيه وتقديم النصيحة لرئيسه . فانه متى لم يكن المستكفي لهذا العمل واستعمل باباً من التحريف والتمويه فيما يختلف فيه بين السلطان وبين من يراسله ويشافهه على لسانه بما يحتاج اليه ، فان عدا هذه الصفة وتم في أعمال السلطان بذلك أظهر خلل وأعظم ضرر ، ولذلك يجب على السائس أن يجتهد في تخيره لهذا العمل من يصلح له ويستقل به ويجريه على وجهه . . وينبغي أن يكون الرسول حاد البصر ذكي القلب يفهم الايماء ويناظر الملوك على السواء ، فانه انما ينطق بلسان مرسله . . فاذا ذكر عرف واذا نظر اليه لم يحتقر . . لا تقتحمه العين ولا يزدري بالخبرة . . والعامة ترمق المنظر أكثر مما ترمق الكفاية والسواء . ويجب أن تزاح علله فيما يحتاج اليه حتى لا تشره نفسه الى ما يبذل له ويدفع اليه فان الطمع يقطع الحجة والرسول أمين لا أمين عليه فيجب أن يرتهن بالاحسان اليه والافضال عليه . . ثم ان للرسالة حدوداً لا يقسم تعديها وحقوقاً يلزم القيام بها ، اولها ايثار الصدق وتعمد النصح وأن يصدع بالرسالة وله أن يدع المعنى الغليظ منها في الألفاظ اللينة . . والرسول محتاج من الاقدام والجرأة الى مثل ما يحتاج اليه من الوقار والرزانة ، لأنه ليس على كل الطبقات يشتد ولا لكلها يلين ، وربما لم يسعه الا أن يصدع بالرسالة على ما فيها ، فن لم يكن جريئاً حرفها وأخل بها » .

وقد أورد الوزير نظام الملك في كتابه « سياست نامه » الذي وضعه بالفارسية فصلا في الرسل وطريقة معاملتهم نصح فيه بمراقبتهم والاحسان اليهم حتى يرضوا وذكر انهم يقومون مقام الملك الذي أرسلهم ، فكل حرمة لهم تكون موجهة له . وقد تعارف الملوك على أن يتبادلوا حسن المعاملة وأن يكرموا الرسل الذين يأتونهم فيعززوا شأنهم ويرفعوا ذكرهم واذا اختلف الملوك وتنازعوا فان السفراء كانوا يقومون دائماً خير قيام بما يعهد اليهم من الأمور المهمة على حسب ما لديهم من الوصايا والتعاليم . ولم يعرف أن الرسل أسيء اليهم وأنهم عوملوا بغير ما ألف من المجاملة ، واذا وقع شيء من ذلك أنكره جميع الناس .

ولم يرد الملوك بإرسال السفراء أن يبعثوا برسالة ويكتفوا بها ولكن يريدون أن يعرفوا كثيراً من أحوال المملكة ودقائق شئونها ، ولا يجوز أن يركن اليهم بالثقة فهم كالعيون والجواسيس وأصحاب الأخبار . واذا أراد ملك أن يرسل رسولا فعليه أن يحسن انتخابه من أولي المعارف الواسعة والمدارك البعيدة وطلاقة اللسان وبهاء المنظر وحسن المخبر .

ج — العيون والجواسيس

قال صاحب «صبح الاعشى» : «النظر في أمر العيون والجواسيس جزء عظيم من أس الملك وعماد المملكة وقد شرطوا في الجاسوس شروطاً : منها أن يكون ممن يوثق بنصيحته وصدقه ، فان الظنين لا ينتفع بخبره وان كان صادقاً لانه ربما أخبر بالصدق فتهم فيه فتفوت فيه المصلحة، ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة ليدرك بوفور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما كتمه . ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة ... ومنها أن يكون له دراية بالاسفار ومعرفة البلاد التي يتوجه اليها ومنها أن يكون عارفاً بلسان أهلها ... ومنها أن يكون صبوراً على ما لعله يصير إليه من عقوبة ان ظفر به العدو بحيث لا يخبر بأحوال مليكه ولا يطلع على وهن في مملكته ، فان ذلك لا يخلصه من يد عدوه ولا يدفع سطوته عنه .

فاذا وجد من العيون والجواسيس من هو مستكمل لهذه الشرائط وما في معناها فعليه أن يظهر لهم الود والمصافاة ولا يطلع أحداً منهم في زمن تصرفه له انه يتهمه ولا أنه غير مأمون لديه ، فربما آذاه ذلك في أضيق الاوقات ان يكون عيناً عليه ... وعليه أن يجزل لهم الاحسان والبر ولا يغفل تعاهدهم بالصلات قبل احتياجه اليهم ، ويزيد في ذلك عند توجيههم الى المهمات ، ويتعهد أهليهم في حضورهم وغيبتهم .. واذا قضي على من بعثه منهم بقضاء أحسن الى من خلفه من أهله ، وجعل لهم من بعده من الاحسان ما كان يجعله له اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعياً لغيره على التضحية . واذا قدر ان عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبة وهو ثقة فلا يستوحش منه بل يوليه الجميل ويعامله بالاحسان . وعليه أن يحترز من أن يعرف جواسيسه بعضهم بعضاً لا سيما عند التوجه للمهمات، وان استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل ، وان لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى ايصاله اليه .. وأيضاً فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وممالأتهم لعدوه . . وعليه أن يصغي الى ما يلقيه اليه كل من جواسيسه وعيونه وان اختلفت أخبارهم ويأخذ الأحوط فيما يؤديه اليه اجتهاده من ذلك ، ولا يجعل اختلافهم ذنباً لأحد منهم ، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله . . واذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فليسترها عنه وعليه ولا يعاتبه على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه فهي خلوة بلطف .. فان ذلك أدعى لاستعلائه .. واذا أحضر اليه جاسوس يخبر عن عدوه استعمل فيه التثبت ودوام البشر ، ولا يظهر تهاوناً عليه تظهر معه الخفة ولا اعراضاً عنه يفوت معه قدر المناصحة ولا يظهر له كراهة ما يأتيه من الأخبار المكروهة ، فان ذلك مما يستدعي كتمان السرعة فيما يكره فيؤدي الى الاضرار ...

واعلم أنه لا يمكن أحده أن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه فيجب الاحتراز منهم بكتمان السر وستر العورة ما أمكنه ، على انه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان الى أن يعرف الملك عدوه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوس عدوه جاسوساً له ، بأن يتودد اليه بالاستمالة والبر وكثرة البذل حتى يستخرج نصيحته ، فحينئذ تلقي اليه ما أراد تبليغه الى صاحبه الأول مما فيه المكيدة فيوصله اليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه» .

«. دمشق »

المآصر في بلاد الروم والاسلام

لميخائيل عوّاد

— ٩ —

(هـ) مأصر القاهرة

أشرنا غير مرّة في ما مضى من بحثنا هذا ، إلى أن كلاًّ من المآصر النهرية والبحرية اتخذت لصدّ أخطار الغزو الذي يقع بين حين وآخر على البلاد ، وَلتنظيم سبل التجارة وتسهيل أمر استيفاء الضرائب والعشور ، ولكنها هاهنا في القاهرة لم تتخذ لهذه الأغراض ، بل نصبت لأمرٍ فريد غريب انفردت به دون ما سواها من المدن الراكبة سواحل البحار الملحة وضفاف الأنهار . وسأقصّ عليك من أخبار هذا المأصر الفريد ما وقفت عليه من الأنباء .

إن من جملة الخلجان الخمسة التي بظاهر القاهرة ، خليجاً[1] يعرف بـ « خليج فم الخور[2] » قال المقريزي إنهُ « يخرج الآن من بحر النيل ويصبّ في الخليج الناصري ليقوي جري الماء فيه ويغزره ، وكان قبل أن يحفر الخليج الناصري يمدّ خليج الذكر . . . »[3]

وكان هذا الخليج من متنزهات أهل القاهرة ، وأحد مواطن اللهو والتيه ، يعبرون فيه بالمراكب للتنزه ، وكان أكثر رواده من أهل القصف والبطالة ، « فظهر من المنكرات ما لم يعهد في مصر في وقت من الأوقات . . . فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب في نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهنّ الزاهر يضربنَ بها وتسمع أصواتهنّ ، ووجوههنّ مكشوفة وحرفاؤهنّ من الرجال معهنّ في المراكب لا يمنعون عنهنّ الأيدي ولا الأبصار ، ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار ، وتوقّع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة »[4].

وكان على خليج فم الخور قنطرة واحدة هي المسماة بقنطرة المقسي[5] . قال المقريزي إن قنطرة المقسي هذه « على خليج فم الخور وهو الذي يخرج من بحر النيل ويلتقي مع الخليج الناصري عند الدكة فيصيران خليجاً واحداً يصبّ في الخليج الكبير . كان موضعها جسراً يستند عليهِ الماء إذا بدت الزيادة إلى أن تكمل أربع عشرة ذراعاً فيفتح ويمرّ الماء فيه

(١) خليج ، « انظر الذيل رقم ١ » (٢) الخور : « انظر الذيل رقم ٢ » (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٥) (٤) خطط المقريزي (٣ : ٢٣٣) (٥) انظر كلاماً مفصلاً على المقسي في خطط المقريزي (٢ : ٢٠٨ — ٢٠٩ ، و٣ : ١٩٦ — ٢٠٢ و ٤ : ٦٥ — ٦٦)

إلى الخليج الناصري وبركة الرطلي [1] » . . . وما زال موضع هـذه القنطرة سدًّا إلى أن كانت وزارة الصاحب شمس الدين أبي الفرج عبد الله المقسي في أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المكان القنطرة فعرفت به ، واتصلت العمائر أيضاً بجانبي هذا الخليج من حيث يبتدئ إلى أنْ يلتقي مع الخليج الناصري ، ثمّ خرب أكثر ما عليهِ من العمائر والمساكن بعد سنة ست وثمانمائة . وكان للناس بهذا الخليج مع الخليج الناصري في أيام النيل مرور في المراكب للنزهة يخرجون فيهِ عن الحدّ بكثرة التهتك والتمتع بكلّ ما يلهي إلى أن ولي أمر الدولة بعد قتل الملك الأشرف شعبان بن حُسَين الأميران : برقوق وبركة فقام الشيخ محمّد المعروف بصائم الدهر بمنع المراكب من المرور بالمتفرجين في الخليج ، واستفتى شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني ، فكتب له بوجوب منعهم لكثرة ما ينتهك في المراكب من الحرمات ويتجاهر بهِ من الفواحش والمنكرات ، فبرز مرسوم الأميرَيْن المذكورَيْن بمنع المراكب من الدخول إلى الخليج ، وركبت سلسلة على قنطرة المقسي هـذه في شهر ربيع الأول سنة إحدى وثمانين وسبعمائة ، فامتنعت المراكب بأسرها من عبور هذا الخليج إلاّ أن يكون فيها غلّة أو متاع ، فقلق الناس لذلك وشقّ عليهم . وقال الشهاب أحمد بن العطّار الدنيسري في ذلك :

حديث فم الخور المسلسل ماؤه بقنطرة المقسي قد سار في الخلق
ألا فاعجبوا مِن مطلق ومسلسل يقول لقد أوقفتم الماء في حلقي

تسلسلت [2] قنطرة المقسي ممّـا قد جرى والمنع أضحى شاملا
وقال أهل طبنـة في مجنهم قوموا بنا نقطع السلاسـلا

ولم تزل مراكب الفرجة ممتنعة من عبور الخليج إلى أن زالت دولة الظاهر برقوق في سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، فأذن في دخولها وهي مستمرة إلى وقتنا هذا » [3] .

وقد تطرّق السيوطي إلى هذه السلسلة حينما ساق الحوادث الغريبة الكائنة بمصر في ملّة الإسلام ، فقال : « في سنة إحدى وثمانين (وسبعمائة) رسم الأمير بركة ... بأن يُعمل على قنطرة فم الغور سلسلة تمنع المراكب من الدخول وإلى بركة الرطلي . فقال بعض الشعراء في ذلك :

أطلقتُ دمعي على خليج مذ سلسلوه فراح مقفل
مَن رامَ مِن دهرنا عجيبا فلينظر المطلق المسلسل [4]

(١) انظر بركة الرطلي في خطط المقريزي (٣ : ٢٦٣ — ٢٦٤) ، وفي بدائع الزهور (١ : ١٦٣ — ١٦٤) (٢) في المطبوع « تسلست » وهو تحريف ظاهر (٣) خطط المقريزي (٣ : ٢٤٤—٢٤٥) (٤) حسن المحاضرة (٢ : ١٦٣ ، المطبعة الشرفية) — (٢ : ١٨٢ ، مطبعة الموسوعات بمصر سنة ١٣٢١ هـ)

وفي أيام ازدهار هذا الخليج وارتياده مِن أهل الخلاعة والقصف وذوي الآداب والظرف عُمِّرَت البقاع المطلّة عليه ، فأنشأ الناس « بها دياراً جليلة تتناهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها ، وبالغوا في زخرفتها بالرخام والدهان وغرسوا بها الأشجار ، وأجروا إليها المياه مِن الآبار ، فكانت تُعدّ مِن المساكن البديعة النزهة ، فكم حوت تلك الديار ، مِن حسن ومستحسن » ، قال مَن شاهدها : « ما مررتُ بها قط إلاّ وتبيَّن لي مِن كلّ دار هناك آثار النعم ، إما روائح تقالي المطابخ ، أو عبير بخور العود والندّ ، أو نفحات الخمر ، أو صوت غناء ، أو دقّ هاون ونحو ذلك ، ممّا يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشهم وغضارة نعمهم . ثم هي الآن موحشة خراب ، قد هدمت تلك المنازل وبيعت أنقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة ، فزالت الطرق وجهلت الأزقة » تلك هي العاقبة « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً » (١)

الضرائب والعشور بمصر

كان الاهتمام بأمر هذه الثغور على مدى السنين عظيماً يأتي في طليعة الأعمال الرئيسة وقد وقفنا على تقليد للخليفة إلى السلطان من إنشاء فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء بمصر في حدود سنة تسع وخمسين وستمائة يقول له فيه : « ....واجعل أمرها (الثغور) على الأمور مقدماً ، وشيد منها كل ما غادره العدو منهدماً ، فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهي على العدو داعية افتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر لهمجاوراً والعدوّ له ملتفتاً ناظراً ، لاسيما ثغور الديار المصرية ، فان العدو وصل إليها رابحاً وراح خاسراً ، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثراً »(٢). وهنالك عامل آخر غير صد الغزاة والطامعين ، هو استيفاء الضرائب والعشور ، وهي من الأسس التي عليها ثروة البلاد ، وقد كانت المآصر بمصر تعين الضرائبيين على إتمام عملهم على الوجه الحسن . وذكر البشاري المقدسي أن الضرائب بمصر كانت ثقيلة خاصة بتنيس ودمياط وعلى ساحل النيل ، فقد كان « يؤخذ بتنيس على زق الزيت دينار ، ومثل هذا وأشباهه ، ثم على شط النيل بالفسطاط ضرائب ثقال . رأيت بساحل تنيس ضرائبيًّا جالساً قيل قبالة هذا الموضع في كل يوم ألف دينار ، ومثله عدة على ساحل البحر بالصعيد وساحل الإسكندرية ، وبالإسكندرية أيضاً على مراكب الغرب ، وبالفرما على مراكب الشام ، ويؤخذ بالقلزم من كل حمل درهم » (٣). ولنا شاهد حسن فيما يرويه الرحالة

(١) سورة الاسراء (١٧ : ١٥) (٢) السلوك للمقريزي (١ : ٤٥٦ — ٤٥٧) ، وراجع بهذا الصدد : مقدمة ابن خلدون (٢ : ٣٢ — ٤٠ ، طبع باريس) ، وصبح الاعشى (٣ : ٥٢٣ — ٥٢٤) .

(٣) أحسن التقاسيم (ص ٢١٣)

ابن جبير، الذي وصل ثغر الإسكندرية في يوم السبت ثاني ذي الحجة من سنة ٥٧٨ للهجرة، قال: « فمن أول ما شاهدنا فيها يوم نزولنا أن طلع أمناء إلى المركب من قبل السلطان بها، لتقييد جميع ما جلب فيه ، فاستحضر جميع من كان فيه من المسلمين واحداً واحداً ، وكتبت أسماؤهم وصفاتهم وأسماء بلادهم ، وسئل كل واحد عما لديه من سلع أو ناض ليؤدي زكاة ذلك كله دون أن يبحث عما حال عليه الحول من ذلك أو ما لم يحل » (١) .

خاتمة البحث

هذا ما انتهى إلينا من أخبار المآصر ، وهو كما رأيت ، كلام جمعت أجزاؤه من غير كتاب ، وضمت فوائده بعد أن كانت منثورة في كثير من المظان ، تلك التي حاولنا جهد الطاقة أن نجمع أشتاتها ، ونصل ما بين حلقاتها لنخرجها على الوجه الذي بين يديك .

وقد بان لك من مطاوي البحث أن هذه المآصر بصنفيها : النهري والبحري ، كانت جليلة القدر ، عظيمة الخطر ، وعلى أيديها كانت تنتظم أمور الحرب وسبل التجارة مدى أجيال كثيرة في بلدان الروم والاسلام .

« بغداد » ميخائيل عواد

الذيل

(١) الخليج على ما في التاج : نهر في شق من النهر الأعظم وجناحا النهر خليجاه، وأنشد :

إلى فتى فاض أكف الفتيان فيض الخليج مده خليجان

وفي الحديث أن فلاناً ساق خليجاً ، الخليج نهر يقتطع من النهر الأعظم إلى موضع ينتفع به فيه . والخليج شرم من البحر . وقال ابن سيده : هو ما انقطع من معظم الماء لأنه يجبذ منه وقد اختلج . وقيل الخليج شعبة تشعب من الوادي والجمع خلج وخلجان .

(٢) قال في التاج (٣ : ١٩٢ ، مادة : خ ا ر) : « الخور مثل الغور المنخفض المطمئن من الأرض بين النشزين ، والخور : الخليج من البحر ، وقيل مصب الماء في البحر ، وقيل هو مصب المياه الجارية في البحر إذا اتسع وعرض . وقال شمر : الخور عنق من البحر يدخل في الأرض والجمع خؤور ، قال العجاج يصف السفينة :

إذا انتحى بجؤجؤ مسمور وتارة ينقض في الخؤور تقضي البازي من الصقور »

---

(١) رحلة ابن جبير (ص ٣٥ ط رايت ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ، دي غويه ، ص ٧ ـ ٨ ، ط السعادة)

التعريف والتنقيب

نستحدث هذا الباب ونتبسط فيه إرادة أن نتدبر
ما يتصل بقضايا الفكر وما يدخل في شؤون
الذوق ، فنجريه إلى غايتين : إحداهما مراجعة
بعض ما يخرج في العلم والأدب والفن كتابةً
أو أداء ، والأخرى نشر ما انطوى من
الضنائن المخطوطة أو المهملة . ومقصدنا أن
يصبح هذا الباب مرجعاً للمستطلع السائل
ومعرضاً للمستبصر الراكن . هذا ويشترك في
إنشاء الباب نفر من أهل النظر وأعداء الهوى .

بشر فارس

المقتطف ، يناير ١٩٤٥

المشتمل

سنةٌ مضت

رضي نفر من إخوان الصفاء في ألفة الذهن والإخلاص لخلوص الأدب والائتمار بما يرسمه العلم أن يروا رأيي في استحداث هذا الباب ، بل شاءوا أن أكون صاحب توجيهه وتدبيره ، فشرفوني بثقتهم . وما أدري هل كنت عند حسن ظنهم بي . (ثم انضم إلى هؤلاء الاخوان بعد ذلك نظراء لهم فضلاء من مصر وغير مصر .)

وكان مقصدنا الأبعد إرضاءَ فئة من القراء هم شركاؤنا في الصفاء والاخلاص والائتمار ثم تهيئة جيل من القراء ينبذون ما سقط ورخص وزعم .

وقد تخيرنا هذه المجلة الجليلة الثابتة لتكون مجال قرائحنا . فأصبنا من أحد منشئيها — مدَّ الله في عمره — عونَ العالم وحث الرائد ، ثم من رئيس تحريرها ترحيباً وتفويضا .

هذا ، وكنا أجمعنا الرأي على أن يكون الأمر على سبيل التجربة مدة سنة كاملة . وهذه اثنا عشر شهراً ولت . فانتهت التجربة . على أنها دلّت — وكم نفرح بالدلالة — أن شركاءنا من القراء كثير ، وأن المهذبين من الجيل الطالع منجذبون إلى مثل هذا الجد الصادق . فقد أقبل علينا هؤلاء وهؤلاء من أمصارٍ شتى وراسلونا وأيدونا . فأي ثواب خير من هذا الثواب ؟ وإنْ نحن أمسكنا اليوم عن المضيّ في هذا الباب وطويناه في المقتطف فانما ذلك إلى حين ، ريثما نتجمع لخطوة تلي التي خطوناها فيطَّرد النشاط .

ألا شكراً للمقتطف على حفاوته ، وسلاماً على من رجع الينا وركن .

ب . ف

١ — الكتب

• أبو نواس • بقلم عبد الرحمن صدقي

١٤ × ١٩ سم ١٩٠ ص عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٩٤٤

قيل إن أبا نواس لم يكن خليقاً أن يكتب في شانه في سلسلة موقوفة على أعلام الاسلام، وقيل مثل هذا حين أخرج الأستاذ المازني كتابه في هذه السلسلة عن بشار .

وكأنَّ الأستاذ عبد الرحمن صدقي توقّع الاعتراض على هذا الاختيار ، فكتب مقدمة يعلل في شطر منها الحكمة في هذا الاختيار ويدفع عن نفسه وعن صاحب بشار وممّن يعتزمون الكتابة في مثل هذه الشخصية الماجنة .

غير أن دفاع المؤلف لا يعفيه من الوقوع في اللوم . فإننا لم نفته بعد من الترجمة لأعلام الفقه والسياسة والفتح والفكر حتى نستبق الى الترجمة لأعلام الخلاعة واللهو . إلاّ أن المؤلف قد شاء ذلك ، فليكن له ما شاء ، وليكن لنا أن نقول ما نعتقد .

وهذا الكتاب — في الحق — لم تخرجه العجالة ، ولكن أخرجته الأناة وطول الصحبة لأبي نواس . ولهذا نجد فيه الصدق في الترجمة ، وحسن التصوير لحياة شاعر شاء القدر الساخر أن يجعله مثلاً للحياة العابثة في العصر العباسي الأول .

وطريق المؤلف في الترجمة طريق صحيحة شائقة . فهو لا يصحب الشاعر من يوم ولادته ، ولكن يذهب بعيداً الى أصله والعوامل الفعالة فيه ، ولا يزال يعرض ألوان حياته وألوان الحياة التي أحاطت به حتى يشيع فيه الفناء من طول ما مجن ، فيتذكر طاعة الله وهو نضو هزيل . والمؤلف رفيق بصاحبه الشاعر ، بل قد يلتمس له العذر فيما وقع فيه ، وقد يحمل تمريضه بالدين على محمل الهزل واللهو لا محمل القصد والجد (ص ٦٧) .

وكان من الطبيعي أن يذكر المؤلف شعراً للشاعر على سبيل الاحتجاج والاستشهاد . ولكن ما باله — غفر الله له — لا يتحرى وجه الصحة في الرواية فيكون بعض ما رواه غير مضبوط ، أو ناقصاً في الوزن ، أو جارياً على غير الرسم الصحيح للشعر . ولو جاز هذا من مؤلف فلن يجوز من عبد الرحمن صدقي الذي ظهرت عنايته بالشعر في كثير من مواضع الكتاب . وما بال من يهدف الى الدقة في صفحة من الكتاب يهملها في صفحة مواجهة ؟

ففي ص ٦٧ : اسقنيها ملأً وفا لا أُريد المنصَّفا
والصحيح : اسقنيها ملا وفا لا أريد النصَّفا

وفي ص ٨٠ : قد رأينا عربيات يواصلن نبيطا
والرسم الصحيح للبيت : قد رأينا عربيا ت يواصلن نبيطا

وفي ص ٨٣ : لست أحظى به سوى نظر يشركني فيه كل إنسان
والبيت ناقص وتمامه: مَن لستُ أحظى بهسوى نظر يشركني فيه كل إنسان

وفي ص ٥٩ : تحيرت والنجوم وقف لم يتمكن منها المدار
والصحيح : « لم يتمكن بهـا المدار » . (راجع ديوان ابي نواس ص ٢٧٤ من طبعة آصاف، وغيرها في ص ٩٢ سطر ٩ ، ص ٩٩ سطر ١٦) .

ثم إن في شعر أبي نواس كثيراً من الألفـاظ التي تنغلق على الافهـام ، ففسر المؤلف بعضها وأغفل كثيراً منها . وكان خيراً للقراء لو فسرها جميعاً :

ففي ص ١٠٦ فسر كلة « الجاثليق » وترك جارتها في البيت نفسه وهي كلة « مطر بلبيط » والذي أعرفه أنها تعريب لكلمة Metropolite ، وهو منصب رفيع عند المسيحيين .

وفي ص ١١٤ ترك البيت الآتي من غير تفسير ألفاظه :

نبط بتفاح إلى مشمش بين نخيل الطُن والبَرْنِ

والطُن : الرُطَب الأحمر الشديد الحلاوة . والبرني : نوع من التَّمْر العراقي . وهناك كلمات كثيرة جداً في شعر النواسي لم يتعرض لهـا المؤلف بالشرح ، مثل هذه : قِرَاة القس . ص ١٠٥ ، وشمعلة ص ١٠٦، وآبين ص ١٠٨، ودير نهر أذان ص ١٠٧

وقد يفسر المؤلف الكلمة بأخرى أكثر منها غرابة ، كما فسر « الدهليز الأزجّ » « بالساباط » ، والساباط أدْخَل في الغرابة من الدهليز الأزجّ .

وما كان أتم الترجمة لو أن المؤلف عقد فصلاً في التهكم عند أبي نواس ، بدلاً من الاشارات العابرة إليه . أليس التهكم لوناً من ألوان نفسية الشاعر كان خليقاً باطالة الوقوف لديه ؟

ثم الوفاء يا أخي ! أيكفيك ويكفي أبا نواس أن تتحدث عنه في بضعة أسطر ـ ص ١٧٧ ؟

ولكنها ملاحظات لا تبخس قدر عمل المؤلف ، ولعله مستدركها فيما نرجوه منه من مستقبل الانتاج .

محمد عبد الغني حسن

• جمهور أرِسطُفانِس • بقلم فيكتور إرنبرج

The People of Aristophanes by Victor Ehrenberg

٢٤ × ١٧ سم ٣٢٠ ص وألواح أكسفرد ١٩٤٣

هذا الكتاب على اتجاه جديد في دراسة الأدب من ناحية علم الاجتماع، وهذا الاتجاه وليد السنوات الماضية، وروّاده النقاد الجامعيون في فرنسة وإنجلترة وقد أخرجوا أبحاثاً في الأدبين الفرنسي والانجليزي تدور على تعرف صفات البيئة وأخلاق أهلها على ضوء النصوص الأدبية. وفي أدبنا العربي الحديث مثل على ذلك هو بحث في اللغة الفرنسية للدكتور بشر فارس عن «مجرى الأدب في مصر سنة ١٩٣٨» (١)

أما في نطاق الأدب اليوناني القديم فالرائد هو الأستاذ طمسُن Thomson بكتابه الجليل «إسخيلُس والآثينيون» (لندن ١٩٤١)، وتلاه الأستاذ لِتِل Little بكتابه «الأساطير والشعب في المسرحية الآثينية» (أكسفرد ١٩٤٢)، والكتاب الذي نحن بصدد مراجعته الآن حلقة في هذه السلسلة الجديدة.

ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ السابق للتاريخ القديم في جامعة براهة (تشيكوسلوفاكية). وقد أفرد مقالات لدراسة الملابسات الاجتماعية والاقتصادية في آثينة معتمداً كل الاعتماد على النصوص المتبقية من «الكوميدية» (الأضحوكة المسرحية) فجاء كتابه مرجعاً لدراسة أرسطفانس والتاريخ الاجتماعي والاقتصادي لآثينة جميعاً.

وتنفرد الكوميدية في أنواع الأدب في ما تسوقه من شواهد على أحوال البيئة بهذه الميزة: أن هذه الشواهد تجري في الكوميدية عفواً دون عمد، فهي بذلك فوق التجريح وفي ذلك يقول المؤلف: «إن الكوميدية وحدها دون سائر أنواع الأدب تعرض أدلة اجتماعية واقتصادية لا غرض من ورائها سوى إحداث الجو الفني المسرحي» (ص ٦).

ونحن نرى أن الحيطة واجبة هنا على كل حال، فان تصور الجو الفني المسرحي يتوقف إلى

(١) ألقاه في مؤتمر المستشرقين بمدينة بروكسل سنة ١٩٣٨ ونشرته مجلة القاهرة La Revue du Caire (أغسطس ١٩٤٢) ووصفته المقتطف (ديسمبر ١٩٤٢ ص ٥٤٠) قالت: «وقيمة هذا البحث في طرافة المعالجة وملخصها أن الكاتب يستشف مجرى الحياة الاجتماعية من التآليف فيستخرج الحالات الذهنية والنفسانية والثقافية والارادية وتبيين النزعات المختلفة من ثنايا الكتب»

حد بعيد على وجهة نظر المؤلف المسرحي . هذا وثمة صعوبة أخرى إذ ليس هناك من سبيل إلى التفرقة بين النصوص التي يمكن أن نقف عند المعنى الحرفي في تأويلها والتي ترد مشوهة ممسوخة لأجل إثارة الضحك والسخرية . ولكن مؤلف الكتاب كان حصيفاً في جل ما تناول من شواهد فقد تحذّر وتحوّط.

هذا ، وإن النتائج التي وصل إليها المؤلف — على حداثة الطريقة التي اتبعها في تناول الموضوع — لا تروع القارئ المستطلع إذ ليس فيها من جديد ، والسبب أن كل من عنوا بدراسة الأحوال الاقتصادية والاجتماعية في آثينة القديمة لم يهملوا النظر في مسرحيات أرسطفانس ولم يغفلوا شاهداً من شواهدها ، ولو أنهم لم يدرسوها تلك الدراسة المستفيضة. ونحن لا نستطيع أن نتخيل صورة للقانون اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد لا تكون مستقاة في بعض دقائقها من مسرحيات أرسطفانس .

وهناك مسائل معدودات نخالف فيها المؤلف ، فقوله إن المحلّفين كانوا يقيدون أسماءهم في مقاطعات مختلفة « ليحصلوا على أكثر من مرتب واحد » (ص ٢٤٢) لا يبدو صحيحاً لنا ، إذ أنهم كانوا يلجأون إلى هذا المسلك ، ليضمنوا اختيارهم في إحدى الدوائر.

ولقد عجبنا للمؤلف كيف يهمل الاستشهاد بالمقطوعة (سطر ١٥٣ — ١٧٠) من مسرحية « آخارنين » في معرض حديثه عن استخدام الجنود المرتزقة في الحرب الپيلوپونيزية (ص ٢٢٣) ، فالمقطوعة تدور على كره أهل آثينة لهؤلاء الجند ونفورهم من استخدامهم .

• • •

وبعد ، فهل نحن نرضى عن هذا الاتجاه الجديد في الدرس ؟ أليس من التطرف أن نعد التاريخ الاجتماعي موضوع مسرحيات أرسطفانس ، كما يرى المؤلف (ص ٨٠ وما بعدها) وهل أراد أرسطفانس حقاً لمسرحياته أن تكون وثائق للتاريخ الاجتماعي ؟ (ص ٩٠) . نحن لا ننكر أن بعض مسرحياته وعلى التخصيص پلوتس Plutus كانت معنية أشد العناية بالمشكلتين الاجتماعية والاقتصادية ، إذ تناولت مسألة العدل الاجتماعي وإعادة توزيع الثروة وأثر شهوة الإثراء في الأخلاق . ونحن نوافق أصحاب هذه المدرسة الحديثة على أنه ليس أجدى على دراسة الأدب اليوناني القديم من تبين الصلة الوثيقة بينه وبين أبعد ما يشغلنا الآن من أحداث . ولكن ليس معنى هذا أن نقحم الآثار الفنية الرائعة في مجموعة الوثائق التاريخية ، ولا أن نستقبل هذه الآثار في غير الوجهة التي رسمها أصحابها الخالدون .

وهيب كامل

• رسالة الملائكة • للمعري

بتحقيق وشرح محمد سليم الجندي

١٧½ × ٢٥ سم ٣٠٢ ص دمشق ١٩٤٤

قد كان هذا الكتاب دفين المكتبات الخاصة ، ثم انتقل إلى دار الكتب الظاهرية بدمشق ، على حين تناقل الأدباء قطعة منه ظنوها « رسالة الملائكة » . وهذه الرسالة قد طويت تحت أجنحة هذا العنوان ، لأن أبا العلاء ألَّفها في سن الأشياخ ، فتخيل في مطلعها حواره للملائكة يحاول أن يشغلهم بتصريف الألفاظ . . . انظر قوله « والظعن إلى الآخرة قريب ، أفتراني أدافع مَلَكَ النفوس فأقول أصل ملك : مألك ، وإنما أخذ من الألوكة ، وهي الرسالة ، ثم قلب ، ويدلنا على ذلك قولهم : الملائكة ، في الجمع ، لأن الجموع تردّ الأشياء إلى أصولها ، وأنشده قول الشاعر :

فلست لأنسيّ ولكن لملأك تنزل من جو السماء يصوب

فيعجبه ما سمع ، فينظرني ساعة لاشتغاله بما قلت ، فإذا هم بالقبض قلت : وزن مَلَك على هذا القول مَعَل ، لأن الميم زائدة ... قال عمر بن أبي ربيعة : . . . وأنشد أبو عبيدة : . . . فيقول الملكُ : من ابن أبي ربيعة ؟ وما أبو عبيدة ؟ وما هذه الاباطيل ؟ إن كان لك عمل صالح فأنت السعيد ، وإلاَّ فاخسأ وراءك ، فأقول أمهلني ساعة حتى أخبرك بوزن عزرائيل ، فأقيم الدليل على أن الهمزة زائدة فيه ، فيقول الملك : هيهات ليس الأمر إليّ ، إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . أم تراني أداري منكراً ونكيراً فأقول : . . ؟ » (ص ٥ — ٩) .

وهذه الرسالة — وإن بدئت بالنواضع الغرق — آية على علاء أبي العلاء في علوم العربية ونفاذ رأيه في طرائد اللغة والتصريف ، حتى إنه يوجه الكلمات الأعجمية في المعرض العربي فيكاد يخفي سَحْنَتها الأعجمية [1] .

وقد جهد الاستاذ الجندي في بحث الرسالة جهداً موفوراً ، وبث في مسائلها شرحاً مشكوراً ، ولعله يتقبل أن نسوق إليه بعض الخواطر التي ساقها نظر الرسالة وشرحها .

---

(١) قد كان أبو العلاء يعلم أن الاعجمي المعرب لا يجري مع الاصول العربية ، ومثل ذلك رد على أبي إسحاق الزجاج (« رسالة الملائكة » ص ٣٨) ولكنه إذا فاض علمه بالعربية طغى على بعض الكلمات الاعجمية .

جاء في ص ١١٦ : « أبو داود (كذا ذكره مرتين) جارية وقيل جويرية بن الحجاج من إياد ابن نزار بن معد ، شاعر قديم ، يقال إنهُ أوصف الناس للفرس ، وأكثر شعره في وصف الخيل » ، والذي نعلمه أنه « أبو دُوَاد » (انظر القاموس ، وشرحه ، والأغاني ، والشعر والشعراء ، والمؤتلف والمختلف ، والخزانة ، وغيرها) . والبيت الذي ذكره أبو العلاء في هذا الموضع جاء في موضعين من الصحاح واللسان والتاج (ج و ب ؛ ش و ه) ونسبه أصحابها إلى أبي دواد ، ولولا ما صنعه الشارح في آخر الرسالة لحسبناه من الغلط المطبعي ، ولكنه ذكر في « فهرست أسماء الأعلام » (ص ٢٨٨) ما نصه : « جارية بن الحجاج (أبو داود) ١١٦ » ، وذكر في ص ٢٩٠ ما نصه : « أبو دؤاد الإيادي ٧٤ ، ... » .

وجاء في ص ٥٩ قول أبي العلاء : « ولو قال قائل : ما وزن أُنْ ؟ (وهو الأمر من آن يؤون ، أي رفق في السير) لقيل : وزنه فُلْ وأصله أفْعُلْ ، لأنه من باب قتل يقتل ..... ولو نطق بذلك على الأصل لقيل أُووُنْ ، بواوين ، الأولى منهما كانت همزة فجعلت واواً . . . وكذلك قالوا : رُويَة ، فجعلوا الهمزة واواً ، ومن قال رُيَّة في رؤية ، ألزمه القياس أن يقول أُوّ ، فيدغم » .

وهذا موضع وعر من مواضع التصريف يحتاج إلى ضبط وإحكام ، فما « أُوٌّ » ؟ وهل هذا تنوين ؟ والصواب : أُوُّنْ .

وجاء في ص ٣٠ : « المطيبون خمس قبائل : بنو عبد مناف وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تيم وبنو زهرة ». وهؤلاء أربع ، فأين الخامسة؟ لعله سقط منه : « وبنو الحرث بن فهر ».

ولقد كنا نود أن يستكمل الأستاذ الجندي أشياء ذكرها في شرحه دون ترجيح أو رجع إلى الأصول . جاء مثلاً في ص ٢٤ البيت :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجتزّ شيحا

وذكر الأستاذ الجندي نسبته إلى يزيد بن الطثرية وإلى مضرس بن ربعي الأسدي ، ثم ذكر شيئاً من ترجمة يزيد . ولعلّ الأستاذ يعلم ردّ العلماء على نسبة البيت إلى يزيد ، فلو رجح نسبته إلى مضرس وذكر شيئاً من قصيدته التي منها هذا البيت لكان أقرب إلى جنى التحقيق :

وضيفٍ جاءنا والليلُ داجٍ وريحُ القرّ تحفزُ منه روحَا
فطرت بمُنصُلي في يَعمَلاتٍ خِفاف الوطْءِ يَخْبِطْنَ السَّريحَا
فعضَّ بساق دَوْسرَةٍ عليهَا عتيقُ النّيِّ لم تخفِزْ لقوحَا
وقلت لصاحبي لا تحبسني بنزْعِ أصوله واجتزَّ شيحَا

وجاء في ص ١٢ قول أبي العلاء : « وقد ذكر الفارسي هذا البيت مهموزاً :

أحب المؤقدين إلي مؤسى وحزرة لو أضاء لي الوقود

وعلى مجاورة الضمة جاز الهمز في : سوق ، جمع : ساق ، في قراءة من قرأ كذلك » .
وكان كل ما ذكره الأستاذ الجندي في هذه القراءة قوله : « نسبها البيضاوي إلى ابن كثير »
وكان خيراً للأستاذ أن يذكر قول ابن جني — تلميذ الفارسي هامز البيت — في « سر الصناعة » (وقد ذكر كلام شيخه أبي علي) : « وروى قنبل عن ابن كثير ، بالسُّؤق : فهمز الواو ، ووجه ذلك أن الواو وإن كانت ساكنة فإنها قد جاورت ضمة الميم ، فصارت الضمة كأنها فيها ، فمن حيث همزت الواو في نحو : أُقِّتتْ وأجوه ، لانضمامها كذلك كان همز الواو في : المؤقدين ومؤسى ، على ما قدمناه » .

وجاء في ص ٢٧ ذكر « سفرجل » وتصغيره ، ونقل الأستاذ عن سيبويه في موضعين ، وكان خيراً أن يتم ذلك بذكر كلام سيبويه في الكتاب (ج ٢ ص ١٠٧) .

وكذلك كنا نحب أن يراجع الأستاذ الباحث تصحيح الطبع ، لتقل الأغلاط المطبعية . وليتنبه القارئ عليها إذا كان لها جدول في آخر الكتاب ، ونحن لا نعنى بعديدها هنا ، فإن البحث أجلّ من ذلك ، ولكننا نذكر منها مثلاً :

جاء في ص ٥٥ : « لا أنهم ... السنين ... الثواب » والصواب « لا أنهم ... الستين ... الثوابّ » ... الخ . وكذلك كنا نحب أن يضع الأستاذ الجندي من علائم الترقيم ودلائل الفصل في مفاصل الكلام ما يعبد طريق النظر إليه . وللأستاذ عندنا تقدير كريم .

رفعت فتح الله
أستاذ النحو بكلية اللغة العربية بالازهر

• كتاب فتوح إفريقية والأندلس • لعبد الرحمن بن عبد الحكم

نشره وترجمه : جاتو

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne
édité et traduit par Gateau

١٤½ × ١٩½ سم ١٦٣ ص éditions Carbonel الجزائر ١٩٤٢

هذا هو الكتاب الثاني من سلسلة المكتبة العربية الفرنسية — Bibliothèque Arabe Française التي تصدر باشراف المستشرق الفرنسي الأستاذ هنري بريس Henri Pérès والتي أريد بها نشر بعض عيون المؤلفات العربية ، ومع كل منها ترجمة إلى الفرنسية ومقدمة

في سيرة المؤلف وآثاره العلمية فضلاً عن بعض الشروح والتعليقات .[1]

ومؤلف الكتاب هو عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ المصري المتوفى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧٠ — ٨٧١ م) والذي كان مرجعاً ثميناً لكثير من أعلام المؤرخين المصريين ولا سيما الكندي والسيوطي .

عني ابن عبد الحكم بالفتوح الاسلامية فكتب فيها مؤلفاً كبيراً سماه « ذكر فتوح مصر » وقد وقف على نشره الأستاذ تري Ch. Torrey سنة ١٩٣٢ .

وختم المؤلف هذا الكتاب بالكلام على فتح إفريقية والأندلس بوصفها امتداداً لتاريخ مصر ، ولا عجب فابن عبد الحكم مؤرخ مصري قبل كل شيء . ومع أن كلامه على تلك الفتوح لم يكن باسهاب عني به المستشرقون الفرنسيون المشتغلون بتاريخ إفريقية حتى أعادوا نشره في الكتاب الذي نحن بصدده اليوم .

وكتب الأستاذ جاتو Gateau تصديراً لهذه الطبعة تحدث فيه عن غموض حوادث الفتح العربي في إفريقية والأندلس وعن سيرة ابن عبد الحكم وعن كتابه ومراجعة المؤرخين الذين نقلوا عنه وتأثروا به ، كما عرض لسائر المصادر المعروفة في دراسة الفتح الاسلامي في إفريقية . ونحن نرى أنه اعتمد في ما كتبه بشأن سيرة ابن عبدالحكم وآثاره على ما جاء في المقدمة التي عملها المستشرق الانجليزي جست Guest لكتاب « الولاة والقضاة » للكندي . ويلي ذلك التصدير نصوص ابن عبد الحكم في ذكر فتح برقة ، وذكر أطرابلس ثم استئذان عمرو بن العاص عمرَ بن الخطاب في غزو إفريقية ثم ذكر فتح إفريقية ومن كان يخرج على غزو المغرب بعد عمرو بن العاص وفتوحه ثم ذكر فتح الاندلس . وإزاء كل صحيفة من النص العربي ترجمتها بالفرنسية .

وختم الناشر الكتاب بطائفة من الشروح والتعليقات أشار فيها إلى بعض المراجع ، ووازن بين نصوص ابن عبد الحكم ونصوص جاءت في مراجع أخرى وعرّف فيها ببعض من جاء ذكرهم في النص العربي ، وأتى بغير ذلك من البيانات التي تعين على فهم الكتاب ، وعمل الفهارس التي تيسر الانتفاع به . والحق ان الترجمة الفرنسية دقيقة وحسنة ، وإنّ جهد الناشر هنا جليّ وجدير بالثناء .

زكي محمد حسن

• • •

(١) ظهر في السلسلة جزءان ، هذا المنقود فوق ثم « فصل المقال » لابن رشد وهو في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال (سنة ١٩٤٢) . وحسبنا اليوم هذا التنويه .

• تاريخ جرح • بقلم فؤاد الشائب

١٢×١٨ ١٨٢ ص دار المكشوف بيروت ١٩٤٤

تدل هذه المجموعة من الأقاصيص على أن فن الحكاية في الشام - والمؤلف منها - آخذ في الاستواء . ففي هذه الأقاصيص معرفة بأصول المدخل والمخرج والتفصيل والتحليل، وإن كان الذهاب في التفكير والتوجيه غير حافل بعد ولا ظاهر . وأما العبارة فمتدفقة على تلوّن ، وإن كانت على اكتظاظ في التركيب .

*

• جبران خليل جبران • بقلم ميخائيل نعيمة

١٨×٢٥ ٣٠٤ ص مكتبة صادر بيروت ١٩٤٤

من الفائدة أن نخبر القراء بأن هذا الكتاب أعيد طبعه في بيروت ، فقد نفدت نسخ الطبعة الأولى أو عزّت . وليس في هذه الطبعة مزيد، ولم يلتفت المؤلف إلى ما أثارته الأقلام يوم خروج الطبعة الأولى ، فلم يعلّق ولم يناظر ، وهذا يدل على شدة اطمئنانه إلى ما كتب أولاً . ومن دأب الأستاذ نعيمة أن يكتب وحليفه الاخلاص . وقد نقدت المقتطف هذا الكتاب حين ظهر ، فهل نزيد أنه من خير النماذج في السِيَر ؟

*

• رسالة الهناء • للمعري شرح وتحقيق كامل كيلاني

١٣½ × ١٩½ ٢٩٦ ص دار الكتب الاهلية القاهرة ١٩٤٤

في هذه الرسالة يبين المعري كيف ينتقل الطبع الانساني من الكذب إلى الصدق . وينحو في التبيين منحى التمثيل ، شأنه في كثير من رسائله ومن صفحات في « الفصول والغايات » . والرسالة جدّ صغيرة ، إلاّ أن الناشر صنع لها مقدمات وترجمات وحلاها بحواش وتعليقات بحيث أخرج سفراً لم يكن لأحد أن يظنه خارجاً في هذا الحجم . وفي هذه الاضافات لفتات وتنبيهات (هوامش نص الرسالة ص ٢٢١ — ٢٦٤) . ولا شك أن الشارح جد في قراءة ما انتهى إلينا من آثار أبي العلاء ، ولا شك أنه رغب في تقريبها إلى الأذهان.

غير انه مال إلى التطويل الترديد (قدم للرسالة في ثلاثة فصول : التمهيد والشرح والترجمة،علاوة على الحواشي) ورضي بفضول الكلام . من ذلك ترجمته لفاتحة الرسالة بهذه الكلمات : « يستهل أبو العلاء رسالته بالهناء ، هناء يقرن به نور وضياء ، وحسن وبهاء ، ورفعة وسناء ، وسمو واعتلاء . لا بل يستهلها بآيات من التهاني، يُرغم لها أنف المبغض الشاني » . ثم دونك نص فاتحة الرسالة : « هناء يقرن به نور وسناء . بل تهانىء يُرغم لهن الشانىء » وفي الهامش يعود الشارح فيقول : « الهناء : بهجة وفرح — نور وسناء : رفعة وعلو » .

والرأي أن هذا غلو في التقريب ، حتى الأحداث ليست بهم حاجة إلى مثل هذا . والذي عطف بنا إلى تصور الأحداث أن الشارح يجتهد في شكل الكلمات كلها ، حتى الحروف مثل الواو وفي وإلى . وإذا هو قصد إلى إرشاد الاحداث إلى أبي العلاء — وهذا مقصد حسن حقا — فيا ليته لم يؤثر التزام السجع في كثير من فقره ، فهذا أسلوب قد ولّى زمنه .

والرسالة على كل حال غنيمة ، والتحقيق حسن ، وفي الشرح فوائد .

*

• الشوامخ • الجزء الثاني بقلم محمد صبري

١٦½ × ٢٥ سم ١٥٢ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٤٤

يحلو للأستاذ محمد صبري الدكتور في الآداب من السربون أن يعنى بالنقد الأدبي . وله فيه اجتهاد ، ذلك أنه ينظر في « الشعر الجاهلي » وهو موضوع هـذا الجزء وكذلك في النثر الجاهلي بعين تدربت على قراءة الروائع في الآداب الاوربية وتصفح آيات الفن من نحت وتصوير . ومن هنا موازناته ولفتاته . ومن هنا أيضاً تركه المأثور من أقوال النقاد السابقين إذ تلتقي لديهم ملكات الشعراء في عبارات متعادلة أو متجاورة . فهو يبحث عن الخصائص والميزات ليفرز عهداً من عهد وطبقة من طبقة . وفي ذلك فضل وجدّ .

غير أنه يسرف أحياناً ، في ما يبدو لنا . من ذلك قوله إن وصف أبي ذؤيب الهـذلي لصراع الفارسين في قصيدته العينية « خير ما جادت به قريحة الشعراء على الاطلاق » (يعني من العرب والافرنج ، ص ١٤٦) ، ومهما يكن من إسراف فان المؤلف أحسن في تبصيرنا روعة هذا الوصف وما وراءه من قوة ، وحركة ، وصورة قد شبهها بلوح من مرقم المصور الاسباني ڤيلاسكويز . ومن الاسراف أيضاً عقد موازنة بين قول حميد الراجز وهو يصف فؤاده فيقول :

كأن قلبي والفراق محذور وقد جرى طائر بينٍ مزجور
غصن من الطرفاء راح ممطور

وبيتين للشاعر الفرنسي فرلين ، هما :

Il pleure (non : pleut) dans mon cœur comme il pleut sur la ville

وقد ترجمها المؤلف هكذا : « وكأني بالمطر يسقط في فؤادي كما يسقط على المدينة» (ص١١١) . والترجمة عندنا هي : « إن في القلب بكاء (لا مطراً ، كما روى المؤلف وترجم) كالمطر الساقط على المدينة » .

*

• الغرر التاريخية في الأسرة اليازجية • بقلم عيسى اسكندر المعلوف

١٢ × ١٨½ سم ١٢٨ ص مطبعة الرهبانية المخلصية صيدا (لبنان) ١٩٤٤

للمؤلف عناية خاصة بتاريخ الأسر اللبنانية والشامية ، وله في هذا سفر ضخم لم ينشر بعد، أعانه على تصنيفه ذاكرة قوية وخزانة كتب زاخرة . ومن طلائع ذاك السفر الجليل الجزء الاول من هذه الرسالة وهي موقوفة على سِيَر المشايخ اليازجيين في أسلوب مختصر ، همّه الرواية والنقل .

واليازجيون مشهورون في جميع الأقطار العربيـة ، عَلَمهم الشيخ ناصيف ونبراسهم الشيخ إبراهيم . وفي هذا الجزء سرد لأخبارهم الاجتماعية والأدبية ، وفيه فوائد وطرائف، وفيه على وجه التخصيص شعر ونثر مطويان وإشارات إلى مخطوطات ومفقودات نفيسة، من ذلك كتاب « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » وهو معجم كان الشيخ ابراهيم شرع في وضعه ولم ينجزه، وقد كان سلك فيه المأنوس من كلام قدماء العرب بأسلوب علمي وتطرق فيه إلى موضوعات المولّدين والمحدثين .

ومثل هذه الرسالة يُمدّ التأليف في تاريخ الأدب الحديث لما تضم من الأخبار المجهولة والآثار ، فهي من باب التنقيب لا من باب النقد .

*

• قصة البنيسلين • بقلم مصطفى عبد العزيز

١١½ × ١٦½ سم ١٥٦ ص مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر « اقرأ » ١٩٤٤



نماذج لحشوات قديمة من الخشب المصنوع في الشام (المئة الـ١٥ والـ١٦) مجوّفة وملوّنة



أنموذج مستحدث من المقاعد ، خشبها مخروط ومحفور

في مصنع المعلم محمد علي الخياط الشهير بأبي سليمان

٢ – المجلات –

« الأديب » العدد الخاص بأبي العلاء حزيران (يونيو) ١٩٤٤

يقرأ الباحث في كثير من الكتب التي تطرق موضوعاً خاصاً ، فلا يجد فيها تلك اللذة ولا تلك الأصداء المتجاوبة التي تتردد في ثنايا مجلة تنتظم موضوعاً واحداً . ولعل ذلك لتعدد الأقلام التي تتناول بأفكارها وقراءاتها المتباينة ذلك الموضوع وتنظر إليه من زوايا متعددة . وقد جمعت مجلة « الأديب » البيروتية أبحاثاً طريفة حقاً ، منها : « أبو العلاء المعلم » و « سر أبي العلاء » و « القرامطة وأثرهم في أدب المعري » و « أبو العلاء المفكر الحر » و « لغة المعري » و « رسالة الغفران ومنابعها » و « فصل من كتاب الأيك والغصون » .

وكان الدكتور إسحاق الحسيني موفقاً في إظهار الرسالة التي اضطلع بها أبو العلاء المعلم والنشاط الذي كان يشيعه فيمن حوله من الطلاب والمريدين . وأما « سر أبي العلاء » فهو فرض ساقه الأستاذ الخولي ، يذهب إلى أن أبا العلاء إنما منعه من الزواج مانع العجز الطبيعي ، وأن السر إنما يرد «إلى سبب مادي طبيعي لا لزهد ولا لفلسفة » . ولكن كيف نتصور تلك العبقرية المتدافعة المتزاحمة ، في تلك الرجولة الناقصة ؟ إن العبقريات الممتازة لم تكن يوماً في ضعاف الرجال . بل إني لأذهب إلى أن أبا العلاء كان من قوة طبيعة الرجل بالمكان الذي يحمله على التقلل على المطعم والمشرب ، ليكفّ عوارم هذا الميل ، ويصير إلى حال من العفة وضبط النفس . وليس فيما ذكره الأستاذ من شواهد اللزوم ما ينهض حجة صالحة لدعواه الطريفة .

وقال الدكتور أسعد طلس في مقاله القيم «القرامطة» : «وأنا مؤمن أننا حين نعثر على كتاب المجالس للمؤيد في الدين أبي النصر (هو أبو نصر) بن أبي عمران داعي الدعاة . . . » وكتاب المجالس المؤيدية لم يفقد ، فنه نسخة بالهند أخذت منها صورة مودعة بخزانة جامعة فؤاد الأول . وقد اقتبست لجنة أبي العلاء بالقاهرة نصاً منه في كتابها « تعريف القدماء بأبي العلاء » (القاهرة ١٩٤٤ ص ٣٨٧) .

إنا لنهنىء « الأديب » بمجهودها البارع ، وندعو أدباء مصر أن يوثقوا من صلاتهم بمجلات الأمم الشقيقة ، ليتحقق بذلك ما نأمل من توطيد العلاقة بين الأمم العربية وتدعيم التقارب .

عبد السلام محمد هارون

٣ - المسرح

لما أنشيء هذا الباب شُقت فيه كوة نحو المسرح إذ جعل من مقاصده « مراجعة ما يخرج في الفن أداء » . والمسرح من أسباب الثقافة الحق ، ومن شواغل الحس الناعم . غير أن مسرحية واحدة لم تستحق المراجعة (١) . وكانت الفرقة المصرية ، وهي حكومية ، مما عقد عليه الامل . غير أنها آثرت خطة أرادت بها أن ترضي طبقات شتى لتضمن إقبالاً كبيراً على ليلاتها ، وفي ما أدته ما يقصيها عن مرتبة فرقة رسمية وما يحرف الغاية التي أنشئت من أجلها أولاً . وقد أذعت من راديو الشرق ببيروت في خاتمة شهر اكتوبر لهذه السنة رأيي في هذه الفرقة ، فنبهت الاذهان الى فساد خطتها على أيدي الموجهين والمؤلفين وبعض النقدة . واليوم أحمد الله على ثورة الاستاذ زكي طليمات نفسه ، فقد راجته جلالة الفن الخالص ، والاداء الأسمى طافح بين يديه .

ب . ف

صفق الجمهور فصفق النقاد

قدمت الفرقة المصرية في الشهر الماضي مسرحية عنوانها « شارع البهلوان رقم ٧٧٧ » في مسرح دار الاوبرة الملكية بنجاح لم يألفه مسرحنا منذ عهد بعيد ، فقد تجاوز دخل هذه المسرحية في الأسبوعين الأولين خمسمئة والفين من الجنيهات . الجمهور مقبل على مشاهدتها بحال يذكرنا رواد المسرح في باريس ولندن وبرلين ، فالصف من الجمهور المصري في مسرحيتنا هذه ينتظم تجاه شباك التذاكر ويطول حتى مشارف الطريق منحوياً كالأفعوان ، وصارف التذاكر يعلن عن نفادها قبل ميعاد رفع الستار بساعات ، وقد اتخذ صوته نبر السيد الآمر غير الآبه بشيء ، وإدارة الفرقة تزيد في عدد حفلات إضافية ، ولجنة ترقية التمثيل العربي ، وهي اللجنة المشرفة على الفرقة ، يتبادل أعضاؤها أنخاب الابتهاج والتفاؤل في صحة الفرقة ونجاحها ، والذين يشتركون في تمثيل الرواية كلهم في طرب ، والذين لم يشتركوا في كمد إذ يعز عليهم أن تحظى الفرقة بنجاح لا يكونون من بواعثه وعوامله . . . ولا يخفى أن لحسد المهنة منطقاً لا يعرفه المنطق السليم ، ولا سيما أن الممثلين المصريين يحيون بغرائزهم أكثر مما يعيشون بأذهانهم ، ويعملون بوحي التفردية فوق ما يعملون بروح التماسك .

---

(١) سوى مسرحية « يوليس قيصر » لشكسبير ، أخرجها زكي طليمات هذا الخريف ، فما استطعت الكتابة فيها لغيابي عن مصر في ذلك الفصل .

وعلى الجملة ، إن جنبات المسرح المصري ممثلة في هذه الفرقة المصرية تدوي بانفعالات كان طبيعياً أن تمتد إليَّ وأنا مخرج الرواية ومقوِّم غير المعقول والمقبول فيها...

وأصارح القارئ بأن ما بنفسي من جراء هذا كله إنما هو أخلاط من العجب العاجب، والأسف المرير ، والتشفي السادر ، وسرعان ما تتبلور هذه الانفعالات عن غيظ خانق كلما أراد نفر تهنئتي باخراج هذه التحفة الفنية ، كما هي في زعم المهنئين (!)

وأغالط نفسي من حيث إن إجماع الناس على الاعجاب لا يجوز أن يكون على شيء باطل أو زهيد تافه . . فأعود الى المراجعة والتأمل ثم الى سؤال نفسي : هل أتى التأليف المسرحي في مصر بهـذه المسرحية رائعته المنتظرة ؟ وهل أتيت حقـًا في إخراجها من الجديد الموفق والطريف الممتاز ما أستأهل من أجله التهنئة والثناء ؟

وهل أصبح جمهورنا ، في طرفة عين ، من رواد المسارح الأمناء حتى يقبل على دور التمثيل ينشد غذاء الروح ؟ ثم أين هو غذاء الروح في « شارع البهلوان ، ٧٧٧ » ؟

ولكن سرعان ما أفيق بعـد أن يشرع الضمير الأدبي ميزانه وتنبري مقاييس الفن ومعاييره تراجع وتحاسب ، وهأنذا أقرر يقين النفس فأقول : لا شيء من هذا ألبتة . . . « وهذه عقدة المسألة » كما يقول (هملت) .

إن مسرحية « شـارع البهلوان رقم ٧٧٧ » من الأدب الماحل الذي يعوزه الدسم والخصب وهي من سقط متاع الفن باعتبار أنها « ڤودڤيل Vaudeville » ، أي من اللون الفكاهي الهزيل من حيث تحليل شخوص مسرحياته وتقويمهم التقويم الانساني الصحيح ، والمنحرف عن شرعة (الكوميدية) الخلقية من حيث عوامل التشويق فيها ، وأما دوافع الضحك فتقوم على المفاجآت المفتعلة ، والنكات المتكلفة والعبـارات المتبذلة التي تلذع ولا تخلف ما يلوكه الذهن أو يردده الخاطر ليتغذى به .

وإخراجي الرواية ليس فيه جديد ولا طريف ، فقد أخذت فيـه بالنزعة الواقعية الخالصة ، وذلك أن الرواية خلت من عوامل الايحاء والتركيز وجرت سياقة مشاهدها على نمط راتب لا يشحذ خيال المخرج فيبعثه على التوليد والخروج على الطوق التقليدي .

بل لقد تورطت — مكرهاً — في خطإٍ فني ، فقد جاءت مناظر الرواية ، على بساطتها ، لا تعرض الصبغة المحلية للرواية ، بل لا توحي بصبغتها النفسية ، فقد كانت كلهـا مناظر حُـجُـرات « دُوَلية » مما يشاهد في بيوت أوربة . وليس فيها ما يشير إشارة واضحة إلى طابعهـا المصري . والأثاث كذلك نمطه أوربي قديم ، (طراز لويس السادس عشر

ولويس الخامس عشر) ، وليس بينه وبين رسم المناظر علاقة من حيث الطراز ، فقد نسيت أن أقول إن مناظر الرواية مرسومة وفقاً لشرعة الفن الحديث . هذا والذوق السليم والحس الصائب — ومهما يجب أن يأخذ المخرج في عمله — لا يستسيغان حجرة تخضع في تصميمها وتلوينها إلى أحدث فن، وأثاثاً يرجع إلى عهد طابعه من مئات سنين . أكرهت على التورط في هذا الخطأ عالماً وعامداً ... والصمت عما خفي خير . .

والممثلون والممثلات ، وإن أدوا أدوارهم في حذق ومهارة ، فإنهم لم يأتوا بالطريف الذي يشد اليهم الجمهور هذا الشد العجيب ويبعثه على الإغراق في الضحك حتى يصرخ منه الوقار . وإني أتجاوز عن نقد الممثلين والممثلات بالمقياس الذي اعتمدته في نقدي للمسرحية لأنهم نهضوا بما حملوه أحسن مما نهضت بحملي ... وأيضاً لأن أجسامهم هشة رقيقة .

إذن لم كل هذه الانفعالات من ابتهاج وحسد ؟ ومن أين يأتي هذا الاقبال الكبير على المشاهدة ؟ وكيف نجم هذا الاجماع على الاشادة بفتنة المسرحية وروعة مواقفها ؟

الجواب يسير ومرير . . إن المسرحية صادفت هوًى من الجمهور ... إذ أجابت رغبته في التفكهة وأشبعت نزعته إلى التسلية الخفيفة الباسمة في هذه الآونة التي اسودَّ فيها كل شيء حتى الرغيف بفعل الحرب ، وإذ تملقت بعض خصائص الطبع المصري في ناحية من نواحيه السهلة اللينة . إذن : صفق الجمهور فصفق النقاد ، وأقبل الجمهور على المشاهدة فأقبل النقاد على الكتابة مهللين مستبشرين ، واطرد امتلاء قاعة دار الأوبرا بالنظارة فطربت الفرقة وزُهيت إدارتها . . ولو لم يقبل الجمهور هذا الاقبال لانبرى النقد بزعم أن الرواية لم تنجح ، وأن المخرج لم يوفق ، وأن الممثلين لم يحسنوا تلبس أدوارهم . ولو لم يقبل الجمهور لاغتمت إدارة الفرقة . وعلى الجملة لو لم يقبل الجمهور لما ذاع صيت للرواية . ولا يهم أن تكون الرواية سقيمة المبنى هزيلة المعنى ، خالية خاوية مما يثقف ويهذب ويصلح ويشق الأفق الفسيح للتفكير المثمر، ليس فيها من شيء تهفو له الأذن ، ويشد إليه النظر سوى فرقعة الصواريخ : وهي أصوات وأضواء سرعان ما تخفت وتخبو وتمَّحي من عالم الرؤية والسمع .

وإحقاق الحق يقضي بأن نصرح بأن لا لوم على الجمهور إذا أقبل على مشاهدة المسرحية التي تجاوب نزعاته في الساعة التي هو فيها ، وأن لا تثريب على إدارة الفرقة إذا جعلت بعضاً من رواياتها للسواد الأعظم من الجمهور حتى تكفل الإقبال على حفلاتها ، وبهذا يتيسر لها أمر تقديم المسرحيات الرفيعة مبنىً ومعنى ، وهي مسرحيات لا ترضي إلاّ الخاصة ، وهم — ويا للأسف — قليل .

لكل هذا جانب من الصواب ، ولكن أن يقف النقد والنقاد من مسرحية موقف عامة الجمهور فتلبسهم نزعات الدهماء في الحكم على الرواية وتأديتها ، وتكون مقاييسهم في الحكم من مقاييسه التي يجفوها الحس المرهف والذوق المصفّى ، وتعوزها المعرفة بفن كتابة المسرحية وبحرفة الاخراج ، وينقصها الاستقصاء الفني السليم ، فهذا أمر له خطره ، وظاهرة عجيبة جديرة بالانتباه .

إن النقد — ذاتيًّا كان أو موضوعيًّا — يجب أن تكون أحكامه أسمى من أحكام الجمهور وأقوم منهجاً وأوفر نصيباً من الدقة والإحكام ، وأن يكون للتبصير وللتنبيه ، وأن يكون حركة إيجابية عنيفة نحو الإصلاح والتوجيه إلى ما هو جميل حقًّا وإلى ما يجب أن يكون ولا يبالى في سبيل هذا بالخروج على بدوات الذوق السائد ، وقد يكون معتلاً سقيماً ، ولا يأبه بالأوضاع القائمة ما دامت في حاجة إلى التبديل والتحوير .

يقولون « لا شيء ينجح مثل النجاح » وهي قولة لها ما لها وعليها ما عليها ، ولكن الذي لا شك فيه أن النقد إذا جرى في إثر هذه القولة ولم يراجع ويمحص انعدم غرضه وامّحى أثره بل إنه يغدو بوقاً عزافاً بالدعاية لكل براق خلاب .

• • •

ذلك وجه من وجوه النقد المسرحي الذي طالعني ، ويا للأسف ، عقب إخراجي مسرحية « البهلوان ... » . ولا أتحدث عن وجوهه الأخرى التي تنجم القينة بعد القينة ، نجوم قرن الماعز ، فتكون — إلاّ أقلها — للتشيع والمناصرة من غير حق ، أو هي للتخذيل والناجزة من غير أصل ، وقد اتسمت في الحالتين بالجهل المزدوج ، جهل الناقد بمعارف ما ينقد وأصوله ، وجهله بأنه يجهل الأرض التي سخر قلمه العابث الضليل للخوض فيها .

أما بعد ، فهذه تأملات أردت تسجيلها مهيباً بحملة الأقلام النزيهة العالمة أن يعالجوا شؤون المسرح في أسلوب جدي رصين يشع فيه الصدق والإخلاص والمعرفة ، فمسرحنا في حاجة الى الهداية والتوجيه والوعد والوعيد والهدم والبناء .

وبوصفي من سدنة هيكل هذا المسرح أحمل على أكتافي وفر السنين وتجاريبها ، وأنوء بأثقال من النقد ، مدحاً وذمًّا ، وثناءً وشتماً ، أقول لهذا الناقد الحق المرتجى ظهوره: « اشتمني واصدق أيها الشاتم » .

زكي طليمات

المدير الفني للفرقة المصرية
ومدير معهد فن التمثيل العربي

٤ - الاستدراك

• الامتاع والمؤانسة • الجزء الثالث للتوحيدي

صححه وضبطه وحققه وشرح غريبه ورتب فهارسه : أحمد أمين وأحمد الزين

١٧ × ٢٤ سم ٢٣٠ ص سوى الفهارس القاهرة ١٩٤٤

- ٢ -*

ص ١١١ س ٢٠ « فقد بان أنَّ النفس متى لم تكن . . . أنّها لا تكون أيضاً . . . » بفتح همزة « أن » الثانية ، والصّواب كسرها فتكون « إنها » لأنَّ الخبر جملة لا مفرد مؤوّل ولا يجوز جعْل خبر « أنَّ » المفتوحة مَصْدراً مؤوّلاً من « أن » المفتوحة نفسها وما بعدها كما ورد في الكتاب .

ص ١١٦ س ١٠ « حاولنا عند علمها أن تكون » وفي الحاشية أن الأصل «علمائها» وأنه تحريف . قلنا: وصورة الكلمة تدل على أن أصلها المحرف «علمنا بها» فما الداعي إلى الإغراب ؟

ص ١١٩ س ٩ « مداجاةً في العلم وخيانة للحكمة وجناية على المستنصح » بنصب المصادر الثلاثة . ولا نرى وجهاً له ، وإنما المداجاة خبر لمبتدأ متقدم هو « إدخال » ، فتكون الجملة « وإدخال العريض . . مداجاة » ، ويتبعه في الرفع خيانة وجناية .

ص ١٢٦ س ٢-٣ « ليس في بضائع أصحابنا الذين حولي من يُدرك هذه المعاني . . . فكيف من يفزعَ في شرحها وتهذيبها إليه » وقال الناشران في الحاشية : « الظاهر أن (من) زائدة » . وليس هذا عندي بالظاهر لأنَّ حذف « مَن » يخلّ بالعبارة ويغير المعنى المُراد . فانَّ القائل نفى وجود المدرك للمعاني وبنى عليه نفي وجود الشارح وإنْ كان التعبير استفهاميًّا ، فكأنه قال: « ليس فيهم من يدركُها فضلاً عمن يشرحها ويهذبها ؛ وحذفُ «من» يجعل العبارة غَلَطاً .

ص ١٣٤ س ١٤ « والقواعد تسيحُ » بالحاء المهملة . والصواب « تسيخ » بالخاء المعجمة أي تغور وتذهب في الأرض ، ومثله « تسوخ وتثوخ »

ص ١٤٨ س ١٣ « وليسَ للإنسان عنها مرحَل » . قلت المشهور في كلام العرب « مَزْحَل » كقول الشاعر « وإن لم يكن عن شفرة السيف مَزْحَل » وهو اسم مكان من « زَحَل »

* راجع مقتطف ديسمبر الفائت ، باب التعريف والتنقيب

أي تنحى وابتعد .

ص ١٤٩ س ٣ « فقبلَ أن لَقيتُ الملك أفصح له الذي كان معي مشرفاً عليّ » وفي الحاشية أنّ في الأصل ما صورته : « ما أفصح » بالنفي وأنّ « ما » زيادة من الناسخ . وهذا غير صحيح لأن المعنى يكون به معكوساً ويدلُ على انّ الشرف لم يفصح لعضد الدولة أنه كان متشوقاً متشوقاً إلى سماع الجواب ويقول : « هات الجواب عمّا نفّذت فيه ... أنت حُمّلتَ الرسالة وأطالب غيرك بالجواب » ؟ !

ووردت « نُفّذتَ » المذكورة في النقدة السابقة على وزن « خَرَجْتَ » . وهذا غلط في الضبط ، والصواب تشديد الفاء وبناؤه للمجهول، أو « أُنفذت » فانهم كانوا يقولون « نفذته وأنفذته في رسالة تنفيذاً وانفاذاً » أي أرسلته وبعثته ، أمّا « نفذ فلان القومَ أي تجاوزهم » فلا يصحّ ها هنا — كما هو واضح — لأنّ الرسول أرسله غيرهُ ولم ينفذ هو بنفسه .

ص ١٦٧ س ١ « رمى عمر بن هبيرة ... إلى عُرام بن شتير بخاتم له فضة — وقد زوج — فعقد عليه عرام سيراً » . فليت شعري من كان قد زوّج وما سرّ التعريض الوارد في الخبر ؟ إنّ هذا تحريف غريب والأصل « فيروزج » و « فصهُ » ، محرّف إلى « قد زوج » وفضة ، والصواب « رمى ... بخاتم له فصّهُ فيروزج فعقد ... » اتخذ الفيروزج معراضاً للزرقة المكروهة عند العرب .

ص ١٧٦ س ٨ « الذي أُتي به ابن هبيرة الفزاري فأمر بصلبه » بنصب « ابن » . والصواب رفعه لأنه نائب فاعل .

ص ١٧٨ س ٦ « فلم يَحر إليه جواباً » بفتح ياء « يحر » . والصواب ضمّها ، يقال : « ما أحار ولم يُحر جواباً »

ص ١٧٩ س ٧ « فيكتفي مؤونتي » . وهو غلط صوابه : « فيكفى مبنيّا للمجهول ثلاثيّا » ، وقد ورد في الصفحة بعينها « س ١١ » : فيكفى مؤونتهم . والأول لا يعضده القياس ولا يؤيده السماع ، لأن الاكتفاء اعمال بالنفس و « يكفى » عمل لغير الانسان المكفيّ وهو المراد لدلالته على المعونة .

ص ١٧٨ س ١٦ قول حسّان بن ثابت :

أناس تهلك الأحساب فيهم   يرون التيس يعدلهُ الحبيب

ولا أرى نسبة بين التيس والحبيب وهلاك الأحساب ، ولو جاز الاستغراب لقيل على الأقلّ « الجنيب » وهو الفرس المجنوب . وأرى أن الأصل : « يعدلهُ الحسيب » أي يسوّون بين التيس والرجل الحسيب ، وهو إيضاح لقوله : « تهلك الأحساب فيهم » .

ص ١٨١ س ٨ « ويتصامم عن العَوراء » بفك الادغام في « يتصامّ » وهو غلط والصواب « يتصامّ » بالادغام لوجوبه ولم يشذّ من القاعدة إلاّ قولهم « تحانن » في الشعر دون النثر.

ص ١٨٤ س ١٢ « ومرّ جرير بالأحوص وهو يفسق بامرأة وينشد » . وهذا الفسق محال لا يجري بصورته في أسوإ الأمم أخلاقاً فكيف العرب في عصور الاسلام (وفي «مرّ» إشارة إلى أن الحادث جرى في الطريق)؟ والصواب : « وهو يشبب بامرأة » ومصدره التشبيب ، ويوضحه قوله « وينشد » .

ص ١٨٦ س ١ « إنّ هذا الباب مختلف فيه ولا سبيل إلى رفعه » . والصحيح « إلى دفعه » أي دفع الاختلاف ، وقد تقدم في الكتاب (ج ١ ص ٧٧) : « مما لا سبيل إلى دفعه » .

ص ١٩٠ س ١٤ « هذا ينبغي أن تعلمه بقلبك ولا تدع الله به » . والصواب « ولا تدعوَ » بالنصب لا بالجزم ، معطوفاً على المنصوب « تعلمه » . ولا يجوز عطف فعل طلبي بالأمر والنهي بحرف العطف (الواو) على فعل خبري مثل « تعلمه » فلا يقال « هذا تأخذه ولا تبعه » أو « تأخذه وبعه » .

ص ١٩٧ س ٢ « الجنة إذاً أولى من الحمام إذ قيل بئس البيت الحمام » . والظاهر أن الأصل «أولى (بالذم) من الحمام » لأن وجه الأولوية غير مذكور في العبارة .

ص ٢٠٠ س ١٤ « وحدثني أن امرأة تظلمت » . ولا مرجع لفاعل «حدثني» في الإخبار ، ولعل الأصل «حُدثتُ» مبنيًا للمجهول .

ص ٢٠٢ س ٦ «وتعلم الحاضر بالتعارف والمشاهدة ومجال الحس» أي النفس . وفي الحاشية أن التعارف وردت بهذه الصورة ولا معنى لها . قلت : وكيف لا يكون له معنى وهو مبالغة من المعرفة والتعرف كالتباعد والتقارب والتعالم والتسامي والتعالي في المبالغة من البعد والقرب والسمو والعلو والعلم ، ثم إن المشاهدة والاحساس يجعلان تعارفاً بين الشيء الحاضر والنفس ، فهو على الوجهين صحيح .

ص ٢٠٦ س ٥ « وليس لهم (عليها) معير للخوف منهم » . ولا داعي إلى إقحام «عليها» في الكلام ، فان لم يكن بد من الايضاح فالواجب إقحام « بها » لانهُ يقال « عيّره كذا تعييراً وعيّره به » على لغة يدعى اللغويون أنها ضعيفة وإن كان هذا الادعاء مضاداً لطبيعة الكلام لأنّ الحذف والايصال تخفيف للعبارة ، والتعدي الطبيعي في الفعل لا يكون إلاّ إلى مفعول واحد .

ص ٢٠٨ س ٤ « وطرف عازم » وفي الحاشية أن لفظ « عازم » وردت بهذه الهيئة ولعلها تحريف إذ لم يظهر للناشر معنى وصف الطرف بالعزم . قلت : الصواب « طرف عارم »

بالراء من العرامة وهي الشدة ومنه قول ابن أبي ربيعة : « ولي نظر لولا التحرّج عارم »

ص ٢٠٩ س ٢ « يتلقى ما أعيا من ذلك باللّيّ » وفي الحاشية أن الأصل « بالكيّ » وأنه تحريف لامعنى له . قلت: لا بل هو الصواب، وهو مأخوذ من قولهم في المثل « آخر الدواء الكي »

ص ٢١٣ س ١٣ « كما يطرب سامع الغناء على الشبابير » وفي الحاشية أن الأصل هو « الستائر » لا الشبابير وأنه تحريف استوجب هذا التصحيح . وهذا القول غير سديد لأنّ كلمة « الستائر » اصطلاح على الغناء في تلك العصور التي قيلت فيها الكلمة وقبلها ، ووُصف ناس بأنهم من أصحاب الستائر أي ذوي جوار يغنين خلف الستائر .

ص ٢١٤ س ١٣ « بين حَيطة وورطة » بفتح الحاء من حيطة . والصواب « كسرها » لأنها في الأصل مصدر هيئة ثم صارت اسم مصدر كما هو مألوف في لغة العرب . ولو كانت الحاء مفتوحة لقيل « حوطة » أو « حاطة » كالعودة والعادة والقولة والقالة ، فالعين واو .

ص ٢١٨ س ١٠ « فإذا نَقِبَ الخفُّ دَمِي الأظلّ » . فليت شعري ما الأظل ؟ إنه اسم تفضيل من « ظلّ » أي بقي ومكث ولا محلّ له هنا . والصواب « الإظلُ » على وزن شبر وهو لحم باطن الخف فإذا نقب الخف دَمِي ذلك اللحم .

ص ٢٢٠ س ٦ « لما يدخل هذا الوارد ويدنون طرف البساط تندر رأسه » . و « لما » لا تدخل على المضارع من الأفعال وهي ظرف للزمن الماضي فكان الفعل الماضي بزمنه وصورته أحق بها من غيره ، ومن المستبعد أن يستعملها أبو حيان بخلاف ما ورد في لغة العرب ، وقد وردت على هذه الصورة القبيحة في شعر شهاب الدين الخيمي المتوفى سنة ٦٨٥هـ قال : لكن ينازع شوقي تارةً أدبي فأطلب الوصل لما يضعف الأدب [١]

فلعلّ الأصل : « حالما يدخل » أو « حينما » أو « عند ما » على لغة ضعيفة أوجه من وضع « لما » كذلك .

ص ٢٢١ س ١٤ « ومن الجالس فوق مشْرعة مكان الروايا » . والذي علمناه من خطط بغداد أنها « مشرعة الروايا » لا « مشرعة مكان الروايا »[٢] ، والظاهر لنا أنّ في الأصل « كان » مقحمة فتزحلقت وصارت « مكان » أعني أنّ الأصل « من الجالس — كان — فوق مشرعة الروايا » .

ص ٢٢٦ س ١ « ولم أظلم معنى بالتحريف ولا ملت فيه إلى التحوير » ، وفي الحاشية أنّ

(١) ابن الفرات في تاريخه (ج ٨ ص ٤٢)

(٢) أصول التاريخ والادب ، من مجموعاتنا الخطية (ج ١٩ ص ١٦١) وكامل المبرد (ج ٩ ص ٢٢٣) و (المنتظم ج ٨ ص ٢٣٢)

التحوير في النسخة التي ورد فيها وحدها هذا الكلام هو على صورة « التجويز » وأنه تحريف . قلت : وما التحوير إلاّ التبييض ولا محلّ لها ، فالصواب « التجوّز » أي الترخص في التعبير والتسامح فيه ومنه قول المؤلف في الجزء نفسه ص ١١٠ س ١٥ :« إلا أن تجعل إفادتها للقابل منها استفادةً لها وفي هذا تجوز ظاهر » ، ولو جاز أن يكون مصحفاً عن غير التجوز لكان « التحويف» مصدر « حوّف » أي مال إلى الحافة .

• • •

ومن الغلط في أعلام الناس :

ص٧س ٨«رأيت أبا خليفة المفضّل بن الحباب». والذي حفظناه أنه «الفضل» وقد راجعنا ماوصلت اليه يدنا من الكتب في الاسكندرية[1] فتأكد لنا أنه أبو خليفة الفضل بن الحباب ابن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي القاضي السّجاع وهو ابن أخت محمد بن سلام الجمحي مؤلف طبقات الشعراء ، كان من رواة الأخبار والآثار والأشعار والآداب والأنساب وتوفي بالبصرة سنة « ٣٠٥ » هـ[2] .

ص ١٣ س ٨ « قال أبو الحسن أخبرني الثوري عن أبي عبيدة » وفي الحاشية أنَّ هذا «الثوريّ» ورد في نسخة ب بصورة«التوزي»وأن كليهما معروف . قلت :كونهما معروفين لا يكفي في تحقيق الاسم ، فانَّ سفيان الثوري لم يروِ عن أبي عبيدة وإنما روى عنه التوزي .

ص ٧٥ س ٩ « على المائدة أبوعلي بن مقلة وأبو عبد الله اليزيدي .. وكان اليزيدي..» ولم يشتهر يزيديّ في ذلك العصر فضلاً عن أن يؤاكل ابن مقلة الوزير فالصواب « أبو عبد الله البريديّ » وهو الأمير المشهور في تاريخ ذلك العصر وورد في ص ٢٢٢ « ابن اليزيدي » .

ص ٧٦ س ١ « وحدثني ابن صبعون الصوفي ». والمشهور «ابن سمعون الصوفي » وهو الذي ذكره الحريري في المقامات وهو محمد بن أحمد ذكره الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ٨٨ و ص ١٩٨) وابن خلكان في الوفيات وغيرهم .

ص ١٠٠ س ١٧ « لأبي الحسين السبتي » وفي الحاشية قال الشارحان « في ب الليثي » . وهذا لا يكفي فانّه لا يجوز أن يكون بالنسبتين معاً صحيحاً ، فالصّواب « أبو الحسن البستي » لا أبو الحسين الليثي ، واسمه أحمد بن علي ، وترجمته في معجم الأدباء (ج ١ ص ٢٣٣) من طبعة مرغليوث وغيره من كتب التراجم والأدب .

---

(١) بعث الينا الاستاذ مصطفى جواد الدكتور في الآداب من السربون والاستاذ بدار المعلمين العالية في بغداد بهذا الاستدراك وهو نزيل الاسكندرية في الصيف الماضي .

(٢) الصفدي في « نكت الهميان في نكت العميان » ص ٢٢٦

ص ١٥٣ س ٤٠٣ « ومحمد بن صالح بن شيبان » . والذي علمناه أنه « ابن أم شيبان » وهو الذي سأل المتنبي عن سبب لقبه كما في الجزء الثامن من « نشوار المحاضرة » وكان من القضاة الهاشميين ترجمه الخطيب في تاريخ بغداد (ج ٥ ص ٣٢٦) وذكره مسكويه في التجارب (ج ٥ ص ٤ ص ٢٩) وابن الجوزي في المنتظم (ج ٧ ص ١٠٢) واشتهر ابنه علي بابن أم شيبان أيضاً كما في تاريخ الخطيب (ج ٢ ص ٩٩) .

ص ١٥٣ أيضاً س ٧ « وابن رُباط شيخ الكرخ » . رُباط جاء على وزن غُراب وفي ص ١٩٧ س ٣ « ابن ربّاط » على وزن شداد ، وفي هذا تناقض يجب دفعُهُ .

ص١٩٦ س ٨ « قال ابن عثمان الآدمي » . الآدمي منسوب إلى آدم من الآدمين ، والمشهور « الأدمي » بلا مدّة وهي الجلود المدبوغة والنسبة نسبة الحرفة .

ص ٢١٥ س ٦ « هذا التركي ساسنكر ، تفيأ بظله » وفي الحاشية أنّ الشارحين لم يجدا هذا الاسم في معجمات الأعلام التركية التي راجعاها والذي وجداه سنجر . قلت : المراجعة لا تكفي في وجدان الاسم ومعرفته . لأن المسألة تاريخية لا لغوية حتى تكفي فيها صورة اللفظ ، فصاحب الاسم المحرّف « ساسنكر ، هو « سبكتكين » الحاجب غلام معز لدولة ، وذكره مستفيض في كتب التاريخ كالكامل وتجارب الأمم وكتب الأدب مثل الفرج بعد الشدة للتنوخي وغيره .

ص ٢٢٢ س٤ « ولذوي مليحا في هذا الباب نفخ » وفي الحاشية أنّ هذا ورد في نسخة ب ولم يتبين الشارحان من هم ذوو مليحا . قلت : هو مكيخا الجاثليق كان ببغداد وأخباره في « كتاب بطاركة كرسي المشرق » لماري بن سليمان ، وذووه : أصحابه من النصارى .

ص ٢٢٨ س ٩ « سرحني رسولاً ... أو إلى أبي السؤل الكردي » وفي الحاشية أن أبا السؤل ورد بهذه الصورة ولم يهتديا إلى وجه الصواب فيه . قلت : إنما هو أبو الشوك الكردي المشهور في حوادث القرن الرابع للهجرة كما في الكامل وتجارب الأمم وغيرهما .

• • •

هذا ما استطعت التنبيه عليه بعد قراءة سريعة والابانة عنه بعد التأمل والروية ، وهو يسير — كما قلت — بالاضافة إلى هذا الجزء الفاخر الذي تدل العناية الفائقة باخراجه على علم وفضل وتبحر واستفراغ للطاقة وحرص في الحفاظ على تراث الأمة الأدبي . فللأستاذين الناشرين أتم الشكر وأطيب الثناء .

مصطفى جواد

٥ – المسائل

الأديب وحرفته

كما أن الأدب لا وزنَ له إذا غلَّته القيود سواء أتته من جهة السياسة أو من جهة الاجتماع أو من جهات أخرى ، كذلك الأديب لا يصدق إنشاؤه ولا يعظم شانه إلاَّ إذا انطلقت يده فاطمأن قلمه إلى صناعة الكتابة . والأديب أو المنشئ لا بدَّ له من حرفة يحترفها تكون مرتزقه ، وذلك لأن الإنشاء لا يدرّ عليه ، في غالب الأمر ، ما يقيم عيشه ويسدّ حاجه . تلك حال الأديب من الزمن الأول حتى اليوم — تلك حاله في أوربة لهذا العهد ، وإن قيل لنا إنّ الأدب هناك سوقُه نافقة ، وإن زعم زاعم أنّ متعاطيه هناك لا يشكو الضنْك بل ربما أثرى . ولا ريب أن تلك حاله أيضاً في بلداننا الناطقات بالعربية . وطبيعي أني أعني الأديب المخلص لفنه ، الحابسَ همه على محض الأدب ، لا الواغل على أهل تلك الصناعة ، ولا المنعطفَ اليها عن هوًى عابر ، ولا المتخذَها وسيلةً أو ألهية .

وللأديب أن ينجو من هذه المشكلة فيعدلَ عن اختيار حرفة يتكسّب بها ، قد يكثر معها التصرف والتقلب ، وذلك بالانزواء والقناعة بكفاف الرزق والاجتزاء بقسمة القدر ، بما يتقطر له الحين بعد الحين من هنا ومن هنا . فتكون سيرته من سيرة شيخنا أبي العلاء الحبيس . غير أن الزهد والتقشف لا يقدر عليهما إلا الأقلون . وليس لهذا النحو من العيش أن ينتصب قاعدةً يُجرىَ عليها . وللأديب بعد هذا أن يحظى بعطف ملك أو كبير يقرّبه ويؤثره ويقدرهُ ، فيجري عليه راتباً أو يصله مرة بعد مرة ، لوجه الرعاية . على أن هذا اللون من الحظوة ، وإن كان شائعاً في العصور الماضية ولا سيما عند العرب ، لنادرٌ حدوثه اليوم . وإن وقع ، فلغاية معلومة . ولكنه كثيرُ الحدوث للعالِم ، ومن الأدلة على هذا تلك الأموالُ المرصودة للمعامل والمخابر والمعاهد ثم للرّحلات والتنقيبات والتجارب ... عهدُنا اليوم أوفر انصرافاً إلى حقائق العلم منه إلى رقائق الأدب . وفي هذا مجلبة للحسرة ، ففي الأدب غِذاء وسموّ لا تجدهما والله في العلم الصرف .

• • •

* حديث أذاعه الكاتب من « راديو الشرق » ببيروت في ١١/ ٦ / ١٩٤٤ .

هذا . والحق أن الأديب يشق عليه أن يختار حرفة تباعد فنه وتغاير خطته ، إذ أنه منجذب إلى صناعته ، محوّل اليها سكناته وحركاته ، مشغول بها في يقظته وغفوته . لذلك نرى الأديب في عصرنا هذا قليلا ما يزاول صناعة تحيد عن طريق فنه أو تفلت من سلكه. فهو موزّع بين التدريس والصحافة والتأليف المتصل . وإن خرج عنها فهو في أكثر الحال موظّف سواء عليه أسايرت وظيفته هواه الأدبي أم جانبته .

وفي رأيي أن في تلك الحرف الثلاث ثم في التوظف ما قد يضر بصناعة الأدب وينقص من ثقافته :

أما التدريس ، عندنا على وجه التخصيص ، فيحصر الذهن في الكلام المعاد سنة بعد سنة . وأخوف من هذا أنه يغرق من يمارسه في الكتب والكراريس ، ويلزمه لوناً أو لونين من الفنون ، ويدفعه إلى الاستبحار في اللون أو اللونين ، ويلفته قليلاً أو كثيراً عن سواهما ، فيمط الادراك من جهة ويقبضه من جهة . ثم إن الكراريس والكتب تيسر التلقف والاقتطاف من غير إعمال الروية . وعلى هذا نبه قديماً إمامنا الجاحظ ، وهو يلهو في إحدى رسائله — ولعلها « التربيع والتدوير » — بالصَحَفي ، وكأنه يريد ما يقال له في الفرنسية livresque والانجليزية bookish ، وهو المتلقي معارفه من بطون المجلدات . هذا ، والتحقيق أن تصفح وجوه الحياة كما يرى الفيلسوف الفرنسي ديكارت Descartes وتدبر مطاوي النفس كما يرى المفكر الألماني نيتشه Nietzsche إنما هما مصدرا الفهم الأعلى والحس الأوفر . ثم إن تكرار الحديث سنة بعد سنة ، أو تناول الموضوع الواحد موسماً بعد موسم ، يولد في الذهن مثل الركود والفتور ، على حين الأدب كما أظنك تعلم : وثبان وفوران .

وليس خطر التدريس على صناعة الأدب بشيء إلى جنب خطر الصحافة . ولا يزال الجمهور يخلط الأدب بالصحافة ، بل إنك ترى صحافيًّا ينزل نفسه منزلة الأديب لأنه يرفع الفاعل ويخفض المجرور — وقد لا يرفع ولا يخفض! — ولست بعارض هنا لهذا الضرب من الصحافيين المقتحمين مسالك الأدب المنتحلين اسمه على غير استبصار ، ولكني أريد الأديب الذي يشتغل بالصحافة ويرضى بها حرفة له . والكلام على سوء أثر الصحافة في الأدب المحض يطول ، فحسبي الاشارة إلى أمرين :

الاول أن للصحافة أساليب ، من ينتهجها طويلاً يجر عليها في طريق الأدب من حيث لا يحتسب . ومن هذه الأساليب العناية بالحادث فوق العناية بما خلف الحادث من الأسباب

الدقيقة وعما بعده من المسببات الجليلة : فلا غوص على البعيد ولا تمهل عند الخطير . بل الهم منصرف إلى الحاضر الظاهر ، وليس الحاضر بالنقطة الثابتة حتى يعظم شأنه ولا بالجوهر القائم حتى تعتمد حاله . وأما الأمر الثاني فالسرعة التي يضطر اليها الصحافي إذا كتب : فالخبر أو المقال يجب أن يطبع اليوم أو في غدٍ ، والقارىء منتظر ملحّ . فالصحافي لا ينفسح له مجال التبصر ، ولا قارئ الصحف يقوى على ما لطف مرماه وبعد مغزاه .

هذا ، ومن أثر الأمر الاول — وهو الوقوف عند الحاضر الظاهر — أن الاديب يعتاد الكتابة الهينة القريبة ، فلا تشغله علل الحوادث ولا تزعجه مصاير الأمور . وأما الانسانية فتنزل عنده منزلة القافلة التي أناخت وسط الصحراء واطمأنت فجمدت ، لا القافلة التي تقطع المراحل وتفوّز ، فتشقى ثم تنعم ، ويأخذها السراب ثم تنكشف لها البئر ، وتدنو من الهلاك ثم ينجيها الأمل الرفاف .

ومن أثر الأمر الثاني — وهو التسرع في الكتابة — أن الاديب متى ينشئ ينصرف عن التأمل والتفهم في باب التفكير ويهمل التهذيب والتشذيب في باب التعبير — وما أعرف آفةً أضرَّ بالأدب من التسرّع ... الأدب الحقّ ولادة مُعْسِرة — أريد جهة الفكر لا جهة الأداء .

ثم يلحق بهذين الأثرين أثر ثالث لا بدَّ لي من ذكره خطفاً . وهو انحراف الأديب الصحافي إلى الجدَل والمحك ، وذلك لأن حرفتـه تسوقه إلى الدفاع والهجوم عن هوًى أو تحازب ، فليست الحقيقةَ التي تجذبه وتقلقه ، ولكن الغلَبة والانتصار . وليس في هذا الأسلوب ما يُغني أو يُرقي .

• • •

وأما حرفة التأليف المتصل ، ففي ظن أكثر الادباء أنها أليق بهم ولهم أنفع . والحقّ أنها بضد ذلك أو بخلافه . ودعني أمثّلْ لك بدلاً من أن أحكمَ على سبيل التجريد في الكلام . وليكن المثل الذي أختاره ما يجري حولك الآن في ميدان النشر . فهذه دورٌ للطباعة همّها إخراجُ الرسائل والكتب إلى القراء إخراجاً متواصلاً متعاقباً . فهي لذلك تقصد الادباء ، وهي تؤثر الملحوظين منهم المشهورين رغبةً في الرواج وطمعاً في الكسب . وينشأ عن ذلك أن هؤلاء الادباء — إلى جنب سائر أعمالهم ، مثل إنشاء المقالات وإلقاء المحاضرات — ملزَمون بدفع كتاب أو أكثرَ من كتابٍ في السنة الواحدة . فمن أين

الوقتُ الذي يستوعَب فيه الموضوع، وتنضج الفكرة، ويستوي التأليف، ويستقيم الأداء؟ وقد وقع بعض هذه الكتب بين يديّ في السنة التي نحن فيها، وهي التي نشطتْ فيها المطابع فتواردت ثمراتُها. فوجدتُ تلك الكتب — في جملتها — فجّةً أو ذاوية، وعلى أكثرها طابَع الارتجال. ولا يكاد يكون فيها كتاب يغذو الضمير أو يثير الفكر أو يدنِي أفقاً أو يرفع حجابا. ذلك أدب رخيص أو كالرخيص. وشرّ ما في الطريقة أن الناشر يقترح الموضوع على الكاتب، أو يقيده في سلسلة معيَّنة، كأنما الأديب رَهنُ التاجر أو طوعُ السوق.

بقيت حرفة التوظف، وهي خارجة عن الصناعة كما قدَّمتُ لك، وضررُها أنها كثيراً ما تولد في النفس فتور الذهن وقعود الهمة، وتطرد من الطبع غضبةَ الحرّ وثورةَ الشامخ. فإن استطاع الموظف أن يجاهد ما يتولد في نفسه، ويستردَّ ما يُطرَد من طبعه، فحرفته تمكنه من معالجة الأدب في تغلغل وروية وتمهل واستقلال.

وليست تلك الحرَفُ كلَّ ما يتقدّم بين يدي الأديب، فهنالك حرَفٌ أجنبية عن دائرة القلم والمداد. هنالك الحرف اليدوية مثلاً. وقد أوصى بالاقبال عليها أمثالَ الفيلسوف الفرنسي رينان Renan وتولستوي الروسي. وربما كانت فئة من أدباء العرب يتكسبون، ولا سيما الشعراء: كان فيهم البزاز والخياط والرفاء والسقاء وغيرَ ذلك، وهم في سلّم القيم الانسانية أرفع مرتبة وأجل شأناً من الأدباء الطفيليين، أولئك الذين رَضُوا بالمديح تارةً والهجاء أخرى، مرتَزَقاً. فأقبح بهم، وإن كان فيهم أضراب الأخطل وبشار. ومما يحزن النفس أنّ لهؤلاء الجناة على جوهر الأدب أذناباً في العهد الذي كُتب لنا أن نعيشَ فيه، وقد توافر فيه التملّقُ والتجريس.

• • •

وبعدُ، فلم أعرض هنا إلا للحرف التي يختارها أدباؤنا. فأشرت إلى ما فيها من النواحي التي تضر بالإنشاء، ولعلي لم أتحكم ولم أجازف. وإنما غرضي أن أنبه وأن أبين، وأما همي فصون البهاء الذي في الأدب وحوط الجلال الذي يلفه.

بشر فارس

باب الأخبار العلمية

ثمرات الحرب الحالية

في العلوم والفنون

قد يكون غير ضروري كشف سبب داء السرطان ، ما دام علاجه ليس ميسوراً . ولكن قد تبين من المباحث التي تمت في الأشهر الأخيرة من سنة ١٩٤٢ أن بعض أنواع المواد الكيميائية تحول دون قيام خلايا سرطان الثدي بوظائفها . بيد أنها لا تستطيع مناوأة أية خلية من الخلايا السليمة . ومن المعلوم أن العلماء لم ينجحوا في اختراع أي علاج كيميائي لذلك الداء العضال ، فإذا أسفر هذا البحث (الذي ما زال في طور أنابيب الاختبار في المعامل الكيميائية) عن نتيجة مرضية ، كان بلا شك دليلاً على القضاء على ذلك الداء العياء .

وما فتئت الڤيتامينات ذات تأثير خطير في علاج أوصاب الناس . وأحدث ما ظفر به العلماء منها في هذا الصدد هو ڤيتامين ب ١ B.1 وهو هيدروكلوريد الثيامين الذي يزيل الألم المبرح من أسناخ الأسنان المؤلمة في الفك عند ما تخلع منه الأسنان ، إذ تحقن هاتيك الأسناخ بذلك الڤيتامين فيذهب عنها الألم في ثلثي الاصابات في نحو نصف ساعة .

وفي أكداس الدريس قد يوجد العلاج المنقذ للبشر من تجمد الدم في عروقهم وغير ذلك من المضاعفات لتصلب الشرايين . لأن تعفن النفل sweet clover يولد مادة كيميائية تسمى ديكومارين Dicoumarin تنقص من قوة تجمد الدم . وهذه خاصية مفيدة في علاج الحالات التي مدارها تجمد الدم . وقد تم تركيب هذه المادة الكيميائية وهي رخيصة . ويستطاع إعطاء المريض إياها من طريق الفم وحقناً بالحقنة تحت الجلد . ويتوقع العلماء نجاح هذا الدواء لأن الخبراء قد شاهدوا أن المواشي التي تعلف بالنفل الذي دب فيه العفن كثيراً ما تموت من رضوض خفيفة يتولد منها نزيف قتال مصدره عجز الدم عن التجمد . وإليك تاريخ الديكومارين :

كان الديكومارين يستخرج في بدء الأمر من النفل المتعفن ثم شرعت جامعة ويسكونسن الاميركية في تركيبه بالوسائل الكيميائية . ويرى العلماء أنه سيصبح عاملاً جديداً خطير الشأن في علاج تخثر الدم في العروق إذ يقيها منه . وهذه الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تنتاب المريض عقب الجراحات . وقد أعلن هذا الاختراع ثلاثة أفواج من ثقات

الباحثين المحققين وذلك في الاجتماع الذي عقدته الجمعية الطبية الاميركية كما جاء في جريدة التيمز النيويوركية بقلم مندوبها ل. لورنس . ولا غرو فتكوّن الجلط الدموية من أشد الأخطار التي تساور الجراحة سواء أبقيت في مكان تولدها فتعرف باسم (رُوبة الدم) أم انتقلت من منشئها إلى عرق أبعد وأصغر مما نشأت فيه حيث تعوق الدورة الدموية فتحدث حينئذٍ حالة تسمى السدادة الشريانية .

ما الهيبارين ؟

أما الهيبارين Heparin فهو دواء موجود الآن في الصيدليات المصرية ومخازن الأدوية وقد استعمله صديقنا الدكتور رمسيس جرجس الخبير الفني في لجنتي الطب والكيمياء في مجمع فؤاد الأول للغة العربية في القاهرة ، وذلك في علاج أحد أقطاب الوفد المصري ، فشفي . ويستخرج الهيبارين من كبد الحصان ويقاوم تجمد الدم أيضاً ، ولكنه غالي الثمن ولا بدّ من إدخاله في العرق حقناً . وهذا العمل يتطلب دقة الملاحظة .

مجاري الكهربات تفوق موجات الضوء

وكان التقدم العلمي الذي تم في الميادين الاخرى فائقاً أيضاً ونافعاً جدًّا في الظروف الحالية الطارئة . ومثال ذلك أن طول موجات الضوء المرئي ، كانت تعدُّ منذ سنوات ، مقياساً لحجم المرئيات التي تستطيع العيون البشرية رؤيتها . ثم تبين ان مجاري الكهيربات ، وهي جزيئات المادة من جهة ، وجوهر الكهربية من جهة أخرى ، تكاد تقوم مقام الضوء ، الذي تكون موجاته أقصر منها جدًّا ، فيتسنى بها توسيع نطاق المكتشفات الدقيقة الجوية وتصوير الأشياء التي لا يمكن إبصارها بالمجاهر العصرية ذات العدسات المصطلح عليها ، وإن تكن من أجود الانواع . فظهر أن الجراثيم ذات أشكال تختلف عما كان معروفاً وذلك حينما تمَّ تكبير صور أقطارها بالمجهر الكهيربي من ٢٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ مرة . ثم ثبت أيضاً أن المواد الكيميائية الشائعة الاستعمال تختلف كل الاختلاف عما كان يزعم الناس . وأحدث ما أضيف من التحسينات إلى ذلك المجهار الكهيربي ، جهاز للاضاءة سوف يتيح نقل الصورة التي تصور بالمجهار المشار إليه ، وذلك بالراديو المصور . غير أن الزمن الحالي غير صالح للانتفاع بهذا التحسين . ويؤلف المجهار الكهيربي الكشاف المشار إليه من مجهار كهيربي وراديو مصور وراديو مقلّد .

المجهار الكهيربي

وبهذا الجهاز الجديد يتمكن العلماء من دراسة تركيب الذرات في الأجسام غير

الشفافة ، مثل الفلزات ، درساً محكماً لم يحلم به إنسان . ويتيسر استعمال الجهاز الكهربي أيضاً في تقصي الأشياء الدقيقة وتحديد بنائها الذري . وبهذا التعديل تغدو الصورة التي تلتقط به ليست ممثلة لهيئة الجسم التي تبدو للناظر (إذا استطاع رؤية هاتيك الأشياء الدقيقة) بل تكون في الواقع رسماً رسمه تشعع النور تشععاً يتمكن به علماء الطبيعة من إدراك كيفية ترتيب الذرات في الجزيئات وفي خلال بضع دقائق يستطاع التقاط صورة من هذا القبيل ثم استخراج نموذج لها بتشعع النور عنها فتأتي بمنافع جليلة في كثير من ميادين العلم .

وثمة تحسين في الجهاز الكهربي هو إنتاج صور تمكن بها رؤية الأشياء مجسمة . وقوام هذه الخدعة العلمية هو عمل صورتين من زاويتين تختلف كل منهما عن الأخرى اختلافاً طفيفاً . وتتاح مشاهدة هاتين الصورتين المزوجتين بوساطة المجساد .

جهاز للاشعة السينية
يولد مئة مليون فولط

وتستعمل الكهيربات الفائقة السرعة والطاقة بأسلوب مختلف جداً ، وذلك في أقوى ما اخترع في العالم من أجهزة أشعة رنتجن ، حيث تقوم آلة خاصة أطلق عليها اسم (معجلة تحريك الكهيرب) بقذف الكهيربات بسرعة فائقة تمكن ذلك الجهاز الضخم حينما يدور من توليد أشعة سينية تبلغ ٢٠ مليون فولط . هذا والعمل دائر الآن في وضع رسوم جهاز جديد لتوليد أشعة سينية تبلغ مائة مليون فولط .

وقد استوجب تركيب الجهاز السابق الذكر ، تشييد مبنى من الآبرق المسلح ، بلغت ثخانة حيطانه ثلاث أقدام ، وذلك لينصب فيه هذا الجهاز الضخم القوي ، صوناً للناس من ضرره . وهو مستعمل لفحص ألواح المعدات الحربية . والأشعة السينية الفائقة الطاقة التي سوف يولدها الجهاز المرتقب والتي تبلغ طاقتها مائة مليون فولط ستكون ذات موجة طولها يشبهه أضعف موجات الأشعة الكونية . وهذا مما يجعل العلماء يأملون كشف أشياء جديدة خاصة ببناء الكون يمكن تحقيقها حينما تتاح لهم فرصة تذليل تلك الأشعة القوية جداً .

الأورانيوم رقم ٢٣٥

وما زال في طي الكتمان ، الذي يلازم دائماً المباحث الحربية ، خبر أي تقدم يتقدمه العلماء في استخلاص الطاقة من ذرة الأورانيوم بتهشيمها . ولكن زفت إلى العلماء بشرى عظيمة قد تكون سبب تحقيق آمالهم ، وهي تحطيم ذرة تشبه ذرة الأورانيوم رقم ٢٣٥ (التي هي معقد آمالهم في طاقة الذرة في هذه الأرض) .

ومصدر هذا الحادث هالة الشمس ، وهي

مجموعة من ألسنة الضوء المنير التي تحف بالشمس ولا ترى إلاّ عند كسوفها الكلي وكان اكتشاف الأورانيوم ٢٣٥ الذي ينفجر بقوة هائلة ، مشفوعاً بالعمل الباهر الخاص باكتشاف طريقة فصل نوعي ذرات الاورانيوم سبباً لاعتقاد بعض العلماء كونه ممهداً لإطلاق طاقة الذرة .

ويؤكد علماء الطبيعة أن رطلاً واحداً من الأورانيوم الذي يعادل ثقل الهيدروجين ٢٣٥ مرة تنبعث منه طاقة تساوي ثلاثة ملايين رطل من البنزين أو خمسة ملايين رطل من الفحم الحجري.

ويقول الأستاذ دننج Dunning مكتشف الخواص الفرقعة لأخف ذرتي الاورانيوم إنه لا يزال أمامه خطوة واحدة حتى يتمكن الانسان من الانتفاع بها وهي تحسين وسائل استخراج ذلك الاورانيوم من تبره إذ لا يتاح الآن استخراجه إلاّ بمقادير ضئيلة جداً على حين أن تبره يوجد منه مقادير كبيرة .

ويرى بعض العلماء أيضاً أن هذا الاكتشاف قد يفضي إلى إحداث انقلاب في العالم إذ أنه يبشر بجعل جميع المصادر الأخرى المولدة للطاقة ، لا تزيد على لعبات للأطفال وذلك عند موازنتها به. ولاغرو فهم يقولون إن مقداراً من الاورانيوم رقم ٢٣٥ يتفاوت بين خمسة أرطال وعشرة أرطال ، يستطيع تسيير احدى عابرات المحيط زمناً غير محدود .

وبحسبان هذه المادة قابلة للانفجار يولد الرطل منها ضغطاً يعدل ما يولده ١٥٠٠٠ طن من الترينيترو توليول مليون مرة . وأن قطعة منها في حجم كف المرء تمكن غواصة من قطع المحيط الهادي . وبمثل هذا المقدار تستطيع إحدى الطائرات الطيران حول العالم . وقد تبين أن الأورانيوم ٢٣٥ يمكن جعله يصدر طاقته بسهولة مدهشة إذ يوضع في صهريج ثم يسلط عليه مجرى مستمر من الماء البارد . وكلما عجلت إراقة الماء عليه ، خرج الماء ساخناً جداً من الجانب الآخر فيتولد البخار بأي مقدار تمس الحاجة اليه .

استخراج المغنيزيوم من البحر

واستخراج المغنيزيوم من البحر ، وهو معدن أخف وزناً من الالومينوم ونافع جداً في صناعة الطائرات ، هو من أعظم الأعمال الكيميائية الحديثة التي تساعد الدول المتحالفة في مجهوداتها الحربية، وكان هذا الفلز يستخرج من أملاح آبار المياه المالحة في متشيجان ولكن الكيميائيين حوّلوا جهودهم صوب اليمّ فاستخرجوا منه مقادير أكبر مما كانوا يستنبطون من مياه هاتيك الآبار إذ تبين لهم أن في كل ميل مكعب من مياه البحر زهاء ٥٧٠٠٠٠٠ طن من المغنيزيوم فأدركوا أن المحيط معين للمغنيزيوم لا ينضب .

عوض جندي

رداء غير منظور

يقي من البلل

تمكن العلماء أخيراً من اختراع رداء غير منظور يقي من البلل ، وهذا الرداء يمكن تكوينه على الأقمشة أو الورق أو غيرهما من المواد ، عن طريق تعريض تلك المواد لأبخرة كيميائية تتصاعد من مركب جديد ، فتتحول إلى سترة تطرد الماء . ومن أهم منافع هذا الكشف الجديد استخدامه في معالجة العوازل الفخارية في أجهزة الراديو ، لأن تأثيره يفوق نحو تسعة أضعاف تأثير العوازل الشمعية التي تستعمل في الوقت الحالي لطرد الماء ، كما أن مزاياه مستديمة باقية .

*

أما السائل الذي يبلل بخره تلك المواد ، فإنه سائل رائق يتكون من مواد كيميائية مختلفة تتبخر في درجة حرارة أقل من مئة درجة مئوية . وتعرض المواد التي يراد طلاؤها بهذه المادة للبخار في حجرة مقفلة خلال دقائق . ثم تنقل المواد من الحجرة وتعالج ، إذا لزم الأمر ، ببخار النوشادر ليتعادل مع الحوامض الأكالة التي قد تتكون عليها أثناء عملية الطلاء . والنتيجة أن تتكون طبقة رقيقة عازلة للماء على سطح المادة (سواء أقماشاً كانت أم ورقاً) ، وهي متناهية في الرقة حتى لا تستطيع العين المجردة أو المجهر الدقيق تبينها . ويستعان على اختبار وجودها بالتحليل الكيميائي . وإذا سقط المطر على سطح مطلي بهذه المادة ، فانه يكون نقطاً منفصلة بعضها عن بعض لا يتشربها السطح .

*

ومن مزايا تلك المادة أيضاً أنها تستعمل في أدوات المختبرات العلمية . فكثيراً ما يتسبب الماء وبخار الماء في تغشية سطوح أنابيب الاختبار المدرجة ، فتشق رؤية الأرقام رؤية واضحة . وقد أمكن ملافاة ذلك النقص ، بتعريض هذه الأنابيب إلى بخار السائل الكيميائي المتقدم الذكر ، فسهلت رؤية الأرقام المنقوشة على الأنابيب .

البنسلين أيضاً

أعلنت جامعة أريزونا (بفونكس) أن البنسلين استخدم بنجاح في قتل سرطان النبات ، وهو مرض فتاك تتسبب البكتيريا في انتشاره .

مستقبل القطن الطبيعي

جاء في تقرير لوزارة الزراعة الأميركية أنه سيستعاض من القطن الطبيعيّ في كثير من مصنوعات ما بعد الحرب بالأنسجة الصناعية التي أصابت تقدماً كبيراً في أثناء توسع الانتاج الصناعيّ في زمن الحرب.

وينتظر في الوقت نفسه أن تفتح أسواق جديدة للقطن الطبيعيّ في المناطق الاخرى التي تقوم فيها تجارب لاستخدام القطن الطبيعيّ في صناعة الأجهزة العازلة والعجائن الكيميائية وأنواع معينة من الملابس والأنسجة والخامات التي تستخدم في صناعة الأنسجة.

وقد نجح استخدام القطن أخيراً كمادة مانعةٍ للماء والحرارة والبرودة، وبذلك يتسنى استخدامه في الأبنية والسيارات.

وأشار التقرير إلى أن العجائن الكيميائية ستصبح من أهمّ وجوه استهلاك القطن الذي يستخدم الآنّ لتغذية العجائن التي تتطلب المرونة والمتانة وخفة الوزن.

سلاح الصاروخ

ليس الصاروخ كشفاً جديداً، إذ عرفه الصينيون حوالي عام ١٣٠٠. وقد أجريت في مدفعية الحرب الكبرى الماضية عدة تجارب في استخدام الصاروخ، ولكن الصلح أبرم قبل أن يصل العلماء إلى نتائج ذات شأن. واستمر البحث زمن السلم، وخاصة فيما يتعلق بالدسر (أي الدفع إلى الامام)، وأجرى العلامة «فرتز أوبل» عدة تجارب على السيارات المسيرة بالصاروخ. أما في هذه الحرب، فقد أمكن الحصول على نتائج باهرة في هذا الفن.

والصاروخ قذيفة مُسيَّرة بذاتها، تختلف عن القذائف المدفعية الاخرى في أن قوتها الدافعة تتولد من رد فعل الغازات المحترقة داخلها وهذا هو المبدأ العام لجميع أنواع الصواريخ.

وإليك ملخَّص طريقة عمل هذه الصواريخ: تُشعل القذيفة الدافعة سواء بالكهربا أو بالفتيل من أجهزة داخل الصاروخ، فيولّد ذلك غازاتٍ تتمدد في جميع الاتجاهات موزعة عليها ضغطاً متساوياً. فالغازات الجانبيّة يتعادل بعضها بعضاً، أما الغازات التي تتولّد من الخلف فإنها تخرج بقوّة فتدفع الصاروخ نحو الهدف.

وينتظر لهذا السلاح تقدمٌ كبير في السنوات القادمة.

وديع فلسطين

قواعد بسيطة للطعام الصحي

الأولى — الإكثار من شرب اللبن وما يصنع منهُ، ويحسن إذا أمكن أن لا يكتفي الانسان بأقل من رطلين من اللبن . فاللبن فضلاً عن كونهِ كثير المواد الفيتامينية ، فيه مقادير يسيرة جداً من العناصر المعدنية ولكنها على يسرها لازمة للجسم . ثم هو يساعد على إنماء نوع من الجراثيم النافعة في الأمعاء ، على قول بعض الأطباء ، فيتولد حامض يدعى الحامض « اللبنيك » وهو الذي يقضي في الأمعاء على بعض الجراثيم التي تفسد الأطعمة النشوية . فاذا أكثرنا من شرب اللبن قلّ تولد المواد المضرة في الأمعاء

الثانية — في الخضر المورقة غذاء يختلف كل الاختلاف عن الغذاء في الخضر الجذرية كالبطاطس والجزر . ومن فوائد الخضر المورقة أنها تيسر حركة الأمعاء . وأهم هذه الخضر الاسبانخ والخس والكرنب والقرنبيط والبصل .

الثالثة — يجب الإكثار من أكل الخضر والفواكه غير المطبوخة لكي نحصل منها على الفيتامين الذي يقاوم ويقي من المرض الذي كان يصيب البحارة والرحالين .

***

مجموعة فريدة

للصحف الشرقية

إن في بيروت ذخيرة تزيد في ثروتها ، والذخيرة بين يدي فاضل من فضلائها وعالم من علمائها الفيكنت فيليب دي طرازي ، وهي مجموعة للصحف لا نعرف لها أختاً في العالم ، وإن اشتهرت أوربة وأميركة بالتفوق في الجمع لذخائر الثقافة .

وما نظن القارىء يجهل من الفيكنت دي طرازي صاحب كتاب « تاريخ الصحافة العربية » الكتاب الذي ألقى الترحيب والتقدير ونزل منزلة السفر المعتمد في بابه . انصرف الفيكنت دي طرازي منذ فتوته إلى جمع الكتب والصحف على نحو ما كان يصنع رحالات العرب وعلى نحو ما صنع أحمد تيمور وأحمد زكي عندنا ، فاتسقت له خزانة كتب حافلة فيها المطبوع والمخطوط ، فأنشأ بها « دار الكتب اللبنانية » في بيروت ثم أتحف الدار بألطاف وآثار جمع بعضها إلى بعض فانتظمت في شكل معرض فني . وأما مجموعة الصحف فلا تزال في حوزته .

إن هذه المجموعة لمن الضنائن ويا ليت مصر — وفيها دار الكتب وكلية الآداب ولاسيما معهد الصحافة — أن تكون لها

حافلة . هي مجموعة تضم الشوارد والغرائب والمفاريد . أقبل صاحبها على إنشائها سنة ١٨٨٧ فراسل الأدباء والصحافيين والمولعين بما قدم من المنشورات ، وكاف من كلف بالتقاط ما انقطع خروجه أو ابتدأ صدوره ، بل رحل إلى أطراف آسية وإفريقية وأوربة فظفر بما نصفه هنا .

المجموعة على قسمين عربي وغير عربي . أما العربي فيضم العدد الأول لكل صحيفة منذ نشأة الصحافة العربية ، وربما ضم عدداً ممتازاً صدر لأمر خاص . وكان المؤلف إن عجز عن الحصول على العدد الأول اقتنى الثاني أو الثالث فأتسق له من الصحف بين جرائد ومجلات مختلفة العنوانات ظهرت في الخافقين نحو أربعة آلاف ، منها ما يزيد على ثلاثة آلاف عدد أول .

وأما القسم غير العربي فيضم الصحف التي خرجت في حروف شرقية كالتركية والفارسية والعبرية والسريانية والحبشية والكردية والتترية والأردوية والأرمنية وغيرها . ويجنب ذلك عني الفيكنت العربي بجمع طائفة من الصحف الافرنجية التي طبعت في بلاد الشرق أو التي نشرها الشرقيون في بلاد الغرب ويربي عدد تلك الصحف غير العربية على ثلاثة آلاف .

ولهذه المجموعة — وفيها أعداد مخطوطة لا مطبوعة — ترتيب حسن يجري على ناحيتين: الناحية الجغرافية والناحية التاريخية فبحسب الأولى قسمت المجموعة خمسة أقسام على عدد قارات العالم ثم جزئت كل قارة إلى دول ، وكسرت الدول على فروع ، والفروع على توابع ، فمن العواصم حتى القرى . وبحسب الناحية الثانية سلسلات الصحف على تعاقب السنين من الزمن الابعد إلى الأقرب . وتقريباً للمأخذ صنع صاحب المجموعة فهارس شاملة ومسارد وافية أدرج فيها على التتالي أسماء المنشئين وأسامي الصحف .

تلك هي المجموعة التي نرجو أن تبقى في الشرق العربي بل في مركزه الثقافي مصر . فاننا نعلم أن عيوناً شاخصة اليها وأن خزانات طامعة فيها . ذلك لأنها ذخيرة ثمينة من جانب تاريخ الصحافة العربية خاصة والشرقية عامة ثم من جانب النفاسة والندرة على وجه الاطلاق .

إنها لمجموعة لن يتهيأ اتساقها اليوم لأحد مهما يبذل من السعي .

***

ونحن نهنئ الفيكنت الهمّام بدأبه العلمي ونذكر له فضله ونسأل الله أن يمدّ في عمره ، فهو من العلماء العاملين الذين رصدوا حياتهم وثروتهم وسعيهم لخدمة المعرفة ولتوسيع الثقافة ولبذل أدوات الاطلاع والتحصيل لمواطنيه . ولعلّ لبنان يقدر هذا الفضل ويُنزل صاحبه المنزلة التي هو أهل لها وبها أحقّ .

فهرس الجزء الاول

من المجلد السادس بعد المائة

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٥ — ١٨ صفر سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

العلم أسلوب من أساليب الكشف عن الحقيقة — حقيقة المادة وحقيقة الحياة . وهو أسلوب أسفر تطبيقهُ خلال القرن ونصف القرن الماضيين ، عن آيات تبهر النفس ، وتعين على تيسير الحياة ، وبناط بها الأمل حين يحزب الأمر ، بكسب الحرب من ناحية ، او الارتفاع بالانسان إلى مستوى أعلى من العيش والفكر والأخلاق من ناحية أخرى . وعلى أنَّ العلم في العصر الحديث كشف كثيراً مما كان مستتراً عن فهم البشر ، منذ قرن أو نصف قرنٍ وحسب ، فان العلماء لا يزالون على عهدنا بهم في كل عصر ، ذوي دعة يتنكبون التبجُّح ، ويقبلون على بحوثهم إقبال نيوتن حين قال : أراني واقفاً على ساحل بحر الحقيقة ولما التقط من درّ حصبائهِ سوى حجر واحد .

فهم يعترفون بأن الأسرار التي تعضّهم وتومىء اليهم لم تزل فوق الحصر ، وقد استفتى باحث علميّ منذ عهد قريب طائفة كبيرةً منهم ، في ألغاز العلم التي ما فتئت تحيّرهم ، فإذا الكثرة ممن استفتى تقدم الألغاز السبعة التالية .

١ — لغز عصر الجمد

حدث مراراً خلال العصر الجولوجي الأخير ، المتغلغل مليون سنةٍ في جوف الزمان ، أن غطى مساحات واسعة من سطح الأرض غشاء فسيح كثيف من جمد ، بدأ يتكوّن عند القطبين الشمالي والجنوبي ، ثم جعل يمتدُّ ويتسع ، جنوباً من الشمال ، وشمالاً من الجنوب . ففي القارة الأمريكية ، بلغ الغشاء النازل من الشمال حدود فرجينيا ، وفي أوربا حدود فرنسا

وروسيا . ويذهب فريق من علماء طبقات الأرض ، إلى أن كتلة هـذا الغشاء من الجـد ، أغرقت الأراضي الواطئة في شمال أميركا الشرقي ، ولكنها عادت فارتفعت فوق سطح المحيط .

وكلُّ غزوةٍ من غزوات الجمد هذه ، استغرقت زمناً طويلاً ، فهلك كلُّ حيٍّ في المناطق التي شملتها ، أو فرَّ منها ، إن كان قادراً على الحركة ، إلى الأقاليم الدافئة . والغالب ان الاقليم كان في الزمن بين غزوة وأخرى ، معتدلاً في المناطق التي غطاها الجـد . فترعرع النبات وتكاثر الحيوان وزخرت الحياة بوجه عام .

فما كان الباعث على هذا ؟ وهل يحتمل أن يعود الجمد فيغطي مناطق واسعة من سطح الأرض ؟ هذان السؤالان مجتمعان ، هما أحد ألغاز العلم الحديث . ويقول العلماء إنهم إذا أخذوا بالاحتمال الرياضي وحسب ، فالغالب أن يعود عصر الجـد مرة أخرى ، فيرتحل عن المناطق الشمالية البشر والحيوان ، ويقضى على منشآت الحضارة فيها . وعندهم أن الأرض تجوز الآن الزمن المتوسط بين عصرين من عصور الجمد ، وأنها جازت منتصفهُ ، أي أنها بلغت أقصى الدفء ، وهي سائرة سيراً بطيئاً في طريق البرد الشديد . بل هم يعتقدون كذلك ، ان الاقليم Climate ما فتىء يزداد برداً ورطوبة ،منذ بضعة ألوفٍ من السنين . ولكن يقابل هذا ، ان انسان العصر الحديث ، أحسن أهبةً من إنسان الكهوف لمواجهة طوارىء البرد الشديد ومكافحة الجمد .

وقد تضاربت الأقوال في تفسير هـذه الظاهرة الطبيعية العجيبة . فقـد قال بعضهم أنْ ثمة تحوُّل في محور الأرض ، أي ان مركز دوران الأرض كان في عصر الجمد ، في مكانٍ غير مكانه الآن ، وان أشعة الشمس كذلك ، سقطت على سطح الأرض من زاوية غير زاوية سقوطها في هذا العصر ، فأثر ذلك في الاقليم تأثيراً عظيماً . فيردُّ علماء الطبيعة والفلك ، ردًّا قويًّا ، بأن تحوُّلاً من هذا القبيل في مركز دوران الأرض يكاد يكون مستحيلاً . وقال فريق آخر إن فعلاً بركانيًّا عنيفاً رفع جبالاً شامخة فوق سطح الأرض في المناطق الشمالية ، فأحدث ذلك برداً شديداً وبدل حالة الاقليم تبديلاً عظيماً . ولكن هذا القول إن صدق على المناطق الشمالية ، فإنهُ لا يفسر ما حدث في النصف الجنوبي من الكرة ، والحاجة إنما إلى تفسير يصدق في الحالين . والعلماء يعتقدون ان هبوط الحرارة ، شمل الأرض كلها ولكنه تجلى تجلياً عنيفاً في المناطق الشمالية والجنوبية . فهل حدث شيء في الشمس ؟ هل ثارت فيها سلسلة من الزوابع العاتية ، غطت بعض سطحها ، فأضعفت تأثير أشعتها في جو الأرض وسطحها ؟ هـذا تفسير ، ممكن ولكنهُ غير مرجح ، أو هل مرت المجموعة الشمسية ، اثناء انطلاقها السريع في الفضاء ، خلال منطقة باردة بالغة البرد في تلك الرحاب

الفسيحة النائية ؟ إن العلم يأبى الأخذ بهذا الرأي . أو هل نقص مقدار ثاني أكسيد الكربون في الهواء فضعف فعل الدثار الذي يحفظ حرارتها ويقيها برد الرحاب الخارجية الخاوية ؟ وهذا غير محتمل على ما يقولون . أو هل اصطلح المد والجزر والريح اصطلاحاً ما على إحداث هذه النتيجة ؟ يتعذر على العقل أن يتصور اصطلاحاً من هذا القبيل ، حدث أربع مرات متعاقبة ، وظل قائماً كل مرة ، دهراً طويلاً ، ربما لا يقل على ربع مليون من السنين . فالجواب عن السؤال : ما سبب عصور الجمد في الزمن الماضي ، وما يحتمل أن يكون الباعث عليها في الزمن المقبل ، لا يزال مكانهُ بياضاً في صفحة العلم الحديث .

٢ — لغز الاشعة الكونية

كل بوصة مربعة من سطح الأرض ، عرضة كل ثانية من ثواني الليل والنهار ، لأشعة خفية قوية تنطلق من رحاب الفضاء ، فتصيب سطح الأرض فيما تصيبهُ من الأجسام التي تعترض سبيل انطلاقها . وطاقة هذه الأشعة عظيمة تبلغ الوف الوف الوف من وحدات الطاقة الكهربية . ومع ذلك فانها لا تحدث من الأثر البادي ما يستوقف النظر . والعلماء لم يتبينوها إلاّ من أثرها في تمزيق بعض ذرات المادة إما على سطح الارض وإما في الغلاف الغازي الذي يحيط بها . وقد يبلغ من شدة وقع الأشعة في الذرة مبلغاً عظيماً لا يكاد يتصوره عقل . فحين تنشق ذرة ما ، بفعل من هذا القبيل ، وتنحل وتنطلق أجزاؤها في الفضاء ، فقد تكون سرعة بعضها قريبة من سرعة الضوء ، وهي ١٨٦ الف ميل في الثانية .

فهذه هي الأشعة الكونية [١] وهي من بعض النواحي قريبة الشبه بالأشعة السينية ، ولكنها تختلف عنها في أن بعض الأشعة الكونية تحمل شحنة كهربية موجبة ، على حين أن الأشعة السينية ، هي أشعة ضوء شديدة النفاذ ، ولا تحمل شحنة كهربية ما . ولما كانت الأرض في منزلة مغنطيس كبير دائر ، فان الأشعة الكونية الموجبة الشحنة ، تنحرف حين تدخل جو الأرض ، بتأثير مغنطيسية الارض ، فتميل إلى الانحراف نحو قطبي الأرض المغنطيسيين . وهذا هو أحد الاسباب ، التي تجعل قوة الأشعة الكونية متفاوتة بتفاوت مكان الراصد على سطح الأرض . ويبدو أن الأشعة تأتي من الغرب أكثر مما تأتي من الشرق — في نصف الكرة الشمالي — ولعل هذا مرجعهُ إلى الانحراف المغناطيسي لأن مقر القطب المغنطيسي في مكان ما في شمال القارة الأمريكية . ولما كان الهواء يمتص جانباً كبيراً من هذه الأشعة فهي أقوى في طبقات الجو العليا منها على سطح البحر . وقد وجد الباحثون في

(١) راجع كتاب « آفاق العلم الحديث » فصل « الاشعة الكونية » صفحة ٦٤

العهد الأخير شيئاً من التفاوت في قوتها بتفاوت خطوط العرض والطول

والرأي الشائع أن الأشعة الكونية ينحل بعضها، حين تدخل جو الأرض فتتحول إلى دقائق تعرف الدقيقة منها باسم «ميزوترون»، ومدة حياة هذه الدقيقة غاية في القصر وربما لا تزيد على بعض ثانية. ولكن «الميزوترون» متصف بقدرة خارقة على النفاذ من الأجسام. فهو يستطيع أن ينفذ من لوح من الرصاص سمكه بضعة أمتار، مع أن طبقاً رقيقاً منه يحجب الأشعة السينية. وحين ينحل «الميزوترون» تتكوّن منه — في بعض الرأي — دقيقتان غاية في الصغر يطلق على أحدهما اسم «الكهيرب»، والآخر اسم «النترينو». والنترينو جسم فرضه العلماء فرضاً، ولم يقم دليل على وجوده المادي بعد.

وعلى قدر ما يسبر العلماء غور الأشعة الكونية، يزدادون ايماناً بما لها من شأن عظيم فهي تهشم الذرات حين تصدمها في كل بوصة مكعبة من الفضاء، ولذلك فلا بد من أن يكون لها أثر في أجسامنا. فماذا تفعل فيها؟ إن قوام كل عامل من عوامل الوراثة في الصبغيات (الكروموسومات) — بحسب الرأي الحديث — جزء مفرد من البروتين. فمن الجائز أن يكون للأشعة الكونية أثر في هذا البناء العضوي. وإذا حدث تغير ما في بناء عامل الوراثة حصل ما يعرف في علم الوراثة بالتحول الفجائي. والتحول الفجائي لم يزل خير تفسير لتطور الأحياء. طبعاً ان القول بتأثير الأشعة الكونية في عوامل الوراثة داخل في باب التخمين. وعلماء الأحياء لا يقرونه. ولكننا نعلم ان الأشعة السينية، على ضعفها بالقياس إلى الأشعة الكونية، تؤثر في عوامل الوراثة، وتحدث في بعض الأحياء تحولات فجائية عجيبة. وقد جرب ذلك بذبابة الفاكهة (دروسوفيلا) تجريباً خاضعاً لقواعد البحث العلمي المحكم. وقد ذهب أحد الكتاب العلميين الذين ينحون نحو الفلسفة إلى القول منذ سنوات، بأن الكرة الأرضية جازت خلال انطلاقها في الفضاء مناطق تكثر فيها الأشعة الكونية، وأخرى تقل فيها هذه الأشعة، ففي المناطق الأولى كان التطور العضوي وظهور الأنواع الجديدة سريعين كل السرعة وفي المناطق الثانية، كان التطور العضوي بطيئاً البطء كله.

وقد اختلف العلماء في منشأ هذه الأشعة؟

بنى مليكن نظريته، على أن هذه الأشعة هي اشعاعات كهرطيسية (كهربائية مغنطيسية) أو فوتونات من قبيل الأشعة السينية وأشعة غمّا. ولكنها أكثر من هذه الاشعاعات أمواجاً وأشد اختراقاً للاجسام. وكان هذا الفرض طبيعيّاً لشدة نفوذ الأشعة، ثم عمد مليكن إلى الرياضة والطبيعة معاً، فقال إن أشعة لها نفس قدرة النفوذ التي تتصف بها الأشعة الكونية، يمكن أن تتولد إذا اجتمعت أربع ذرات من الايدروجين، واتحدت

فتكون من اتحادها ذرة من الهليوم . فالطاقة التي تنطلق من هذا الاندماج ، هي في قوتها وقدرتها على اختراق الاجسام ، من رتبة الأشعة الكونية .

لذلك أشار مليكن الى شعاعة منها بقوله « إنها صراخ ذرة عند ولادتها » في رحاب الفضاء ، فكان قوله هذا نفخاً في بوق أهاب بالعلماء الى البحث

وعلى هذا القياس قيل ان تولد ذرات العناصر التي تفوق الهليوم في وزنها الذري — كالاكسجين والسليكون — ينشيء أشعة كونية ، من درجات متفاوتة في قدرتها على اختراق الاجسام المادية ، وان هذه الذرات تتفاوت بفعل التجاذب ، فتتكوّن منها السدم ثم النجوم . وتشع السدم والنجوم مادتها بتحولها الى ضوء وحرارة ، وتنطلق الطاقة الشاعة منها في رحاب الكون ، فتتحوّل في خلال رحلتها الطويلة — وهذا فرض فلسفي — الى بروتونات وكهيربات ، ومن هذه الدقائق تتألف ذرات الايدروجين ومن اجتماع ذرّات الايدروجين تتكوّن ذرّات الهليوم فذرّات عناصر أخرى وتنطلق أشعة ، وكذلك ترى الكون بحسب رأي مليكن ، يبتديء من حيث ينتهي

ما كاد مليكن يطلع بنظريته هذه ، حتى قال جينز برأي يخالفها . فالأشعة الكونية ، في نظره ، رسائل تنبيء بفناء المادة وتلاشيها ، لا بتولدها . واتخذ من الحساب الرياضي أساساً لتأييد القول المشهور في علم الطبيعة ، وهو أن الكون يتدرَّج انحطاطاً في مقدار الطاقة الفعالة التي فيه ، الى حيث لا رجعى . فالكون بحسب ناموس « الثرموديناميكس » الثاني ، وحساب جينز ، سائر إلى نهاية ، ولا عود له منها .

ثم جاء باحث طبيعي فرنسي شاب يدعى دوفيلييه ، فاقترح نظرية أخرى لتفسير أصل الاشعة الكونية ، ولكن الأصل الذي بنى عليه نظريته هو أن الأشعة الكونية ليست مؤلفة من فوتونات ، بل هي كهيربات تنطلق من الشمس الى الأرض ، من مناطق عالية الضغط الكهربائيّ في الشمس ، فيدنو بعضها من جوّ الأرض فيؤثر في جوّها ، فيحدث الأضواء القطبية الباهرة ، ويمزّق ذرّات الغازات في الهواء فتتطاير شظاياها .

ولعل أغرب الآراء التي اقترحها العلماء لتعليل نشأة الأشعة الكونية ، هو رأي الأب لومتر الفلكي الطبيعي البلجيكي وهو صاحب الرأي القائل بأن الكون كان من ألوف ملايين من السنين ، مركزاً في حيز ضيق ، ثم اختلّ استقراره الداخلي ، فانفجر فجأة ، فانتثرت منهُ السدم فأخذت تبعد بعضها عن بعض ، وما فتئت تتباعد . على انه يقول ان الأجزاءَ التي انتثرت من الكون عند انفجاره لم تكن سدماً ونجوماً فقط ، بل كان منها دقائق صغيرة جدّاً ، ذرّات وكهيربات وفوتونات ، وعنده ان هذه الدقائق المتناهية في الصغر ، التي ما فتئت

تجوب رحاب الفضاء من بداية الكون ، هي الأشعة الكونية .

فهل ثمة سبيل الى معرفة الحقيقة في طبيعة هذه الأشعة ؟ وهل هي فوتونات كما يقول مليكن وجينز ، أو كهربات كما يقول دوفيلييه ، أو مزيج من أشعة ودقائق مختلفة كما يقول لومتر ؟ ولا يزال البحث مستمراً ، ولكن ليس ثمة ما يشير إلى أن اللغز قد حل .

٣ — لغز الزكام

ان الزكام أكثر العلل التي تصيب الناس شيوعاً وأشدها غموضاً وتحييراً للعلماء . وعلى أنه يصيب عشرات الملايين من الناس كل سنة ، وينزل بالصناعة والتجارة خسارة تقدَّر بمئات الملايين من الريالات ، لتغيب المزكومين عن أعمالهم ، وتتبعه أحياناً علل أخرى بعضها مميت ، فان العلم قلما يعرف عنه شيئاً ، مع ان المنشآت العلمية انفقت في العهد الأخير أموالاً طائلة في سبيل البحث عن سببه ومنشأه وكشف طرائق لعلاجه والبرء منه .

والفرض الغالب في دوائر العلم والطب ، ان سبب الزكام « فيروس » راشح ، ولكن الدليل على صدق هذا القول ليس قاطعاً . ورجال الطب والبحث الطبي يعرفون أن تعرض الناس للاصابة بالزكام يختلف باختلاف الناس . وقد يكون هذا موروثاً . وقد حضّرت أنواع شتى من اللقاح ولكن كفة الدليل على وفائها بالغرض مرجوحة لا راجحة .

ومن الأقوال الشائعة عن ميكروب الزكام إنه يحل بساحة كل امرىء ، ان كانت الحموضة غالبة على جسمه ، فلكي يتجنب الزكام أو يدفعه عنهُ عليه أن يتخذ من المواد القلوية ما يعدل هذه الحموضة ويميل بجسمه إلى القلوية . على ان العلم يقول إن هذا الرأي هراء لا طائل تحته . فلو زادت الحموضة في الجسم زيادة يسيرة ، لغلبت الغيبوبة على الجسم ولتبعتها الوفاة على الأثر . ومن حسن الحظ أن الأدوية التي توصف لجعل الجسم «قلويـًا» لا تؤثر في الجسم تأثيراً ما من هذا القبيل ، لأنه لو مال الجسم إلى « القلوية » ميلاً يسيراً ، لأصيب بالتشنج ولكان احتمال الموت كبيراً .

ومع أن العلم لم يكشف سر سبب الزكام ونشأته فانه هيأ وسائل شتى لمنعه كاستعمال المصابيح التي تشع ضوءًا يفتك بجراثيمه المنطلقة في الهواء ، ولكن هذه الوسيلة تدخل في باب الوقاية لا في باب العلاج .

على ان العلماء مجمعون على ان خير ما تتقي به الزكام هو العافية . وهم يشيرون على من يدركه الزكام أن يلتزم الفراش ، وإذا شاء أن يزدرد ما شاء من الحبوب ، وأن يغسل حلقه بما شاء من المحاليل ، فله أن يفعل ذلك ، ما زال يفهم أن كل ذلك إنما يخفف من أعراض الزكام وحسب ، فليس لهذه العلة الشائعة علاج شافٍ معروف .

فؤاد صرّوف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان

عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

• من الملاحظ أن الحيوانات ذوات الوبر يقل وبرها صيفاً ويغزر شتاء وهواة الكلاب ومربو الحيوانات ذوات الوبر الغزير، يقصون أو يجزون وبرها قبل الصيف، لا لمجرد استغلال صوف الغنم مثلاً، بل لتخفيف الوبر لكي يسهل تصريف الحرارة من الجسم بالإشعاع وتوصيلها إلى خارج الجسم. ولهذا السبب نقص شعر الخيل والحمير والجمال وغيرها، وصائدو حيوانات الفراء يعرفون ذلك فيصطادونها شتاءً وصانعو الفراء من جلد الأرانب يصنعونها من جلدها في الشتاء للسبب عينه.

عرف الانسان بالخبرة قيمة الملابس صيفاً وشتاءً وتكوَّنت هذه الغريزة عند الشعوب بتوالي العصور ثم تفنّن في صنعها وزينتها وتغالت السيدات في تنويعها. وفي البلاد الباردة نجد الشعوب ترتدي الملابس المحكمة وتصنعها من الصوف. وفي البلاد الحارة ترتدي الملابس الخفيفة غير المحكمة لتسهيل تخلل الهواء فيها لتجفيف العرق وتلطيف حرارة الجسم. وعندما تعوَّدت شعوب البلاد الحارة لبس الملابس الأوربية، وعندما حلَّ سكان البلاد الباردة في البلاد الحارة واستمروا على لبس ملابسهم الأصلية، وجدوا عدم ملاءمتها للجو الحار، فبحث في ألوانها لمعرفة أي الألوان أنسب للبلاد الحارة. وعلى هذا نرى أن حلة السهرة المعروفة باسم Smoking قد استبدل بنسيجها الأسود تيل أبيض. ثم ابتدعوا الملابس القصيرة غير المحكمة «شورتس» المصنوعة من النسيج الخفيف، والغرض من ذلك تسهيل تصريف الحرارة بتخلل الهواء داخلها وبتعرض جزء من أطراف الجسم للهواء حتى تتصرف الحرارة من الجلد بواسطة الإشعاع وتبخر العرق. ونرى ذلك نفسه يتبع في الألعاب الرياضية شتاءً لأن حركة العضلات تولد حرارة زائدة، ولا بد من مخرج لها لتكييف البنية حرارتها وتجعلها ثابتة قريبة من الحرارة الطبيعية للانسان، ولهذا السبب يلبس ممارسو الألعاب الرياضية

أثناء لعب كرة القدم والتنس وغيرها ملابس اللعب الخاصة ، وهي لا تغطي الجسم كله على نظرية لبس « الشورتس »

• يلاحظ عند انتقال إنسان من جوٍّ حارٍ إلى جوٍّ بارد حصول رعشة في العضلات قد تكون موضعية في الفك وقد تعم الجسم ، وهذه الرعشة هي مشاركة العضلات في المساعدة على زيادة الحرارة ، فيزيد عملها لتتولد حرارة أكثر ، وهي ظاهرة من ظواهر تكييف البنية للمحافظة على حرارتها حتى تقاوم البرد . ونرى الإنسان يفرك يديه فيحرك عضلات الذراعين ليزيد عمل عضلاته فيزيد تولد الحرارة . ولكن هذه الرعشة أو الرجفة تعد منبئاً لنا بأن حرارة جسمنا تأثرت بالبرد ، وأن العضلات أخذت تعمل لدرء ضرره ، وتنبهنا لكي نحترس بوسائل أخرى للمحافظة على حرارة جسمنا ، لأننا لو تركنا الحيطة وشملت الرجفة عضلاتنا كلها وزادت ، انتهى بها الحال إلى أن تخور . فلهذه الرعشة ثلاث خواص : الأولى مساعدة البنيـة على التكييف بحرارة الجو البارد ، ونحن نقلدها بفرك أيدينا ، وبتحريك أرجلنا . والثانية : إنذار البنية لنا بالاحتراس ، والثالثة : ان الرعشة إذا زادت وعمت الجسم كانت إنذاراً آخر بأن البنية أوشكت أن تخور وتضعف أمام البرد القارس . وكل هـذا التكييف في حد المعقول ، إذ لا يمكن أن يستمر تكييف البنية مدة طويلة في جو غير ملائم ، ومن هنا يحدث أكثر الأخطار من تعرض الإنسان مدة طويلة لبرد قارس أو لقيظ لافح . وإذا نقصت حرارة الجسم بسبب البرد فانها ترجع تدريجاً ببطء يتناسب مع الدرجة التي هبطت إليها . وعرف بالتجارب ان من تهبط حرارته البدنية إلى ٣٥ درجة مئوية ، بسبب البرد وينقل إلى غرفة دافئة ويدثر باحتراس ترتفع درجة حرارته تدريجاً وتعود إلى الحالة الطبيعية في وقت قصير ، لأن لذلك عاملين يساعدانه على ارتفاع الحرارة ، الأول : حرارة الحجرة وتدفئة الغطاء ، والثاني : عامل البنية لإنتاج الحرارة ، لأن البنية تحتفظ بمقدرتها على توليد الحرارة ما دامت حرارة البدن لا تقل عن ٣٢ درجة مئوية . وأما إذا انخفضت الحرارة إلى أقل من ٣٢ درجة ، ووضعنا المريض في غرفة دافئة ودثرناه فإنه يتطلب وقتاً طويلاً لاستعادة حرارته الطبيعية ، إذ التدفئة والتدثر هما العاملان الوحيدان لكي تصل الحرارة إلى ٣٥ درجة ، فيظهر عامل مقدرة البنية على توليد الحرارة .

• وفي الحر يحصل عكس ذلك فإذا زاد الحر فالبنية تقاوم أيضاً ارتفاع الحرارة وتتكيف بوسائلها لتنقص عملية توليد الحرارة ، وتزيد عمليـة تصريفها وفقدها ، فيحدث ارتخاء في العضلات ويكثر العرق ، أي بعكس ما يحدث من مقاومة البرد . وتنجح هذه الوسيلة إذا ما كانت حرارة الجو لا تزيد عن ٣٧ درجة أي عن درجة حرارة الجسم العادية ، وإذا

ما زادت حرارة المكان وارتفعت إلى أكثر من ذلك وبلغت الأربعين وزيادة ، فإن انعدام توليد الحرارة من البنية لا يكفي وحده لمقاومة حرارة المكان والجو ، فيستعين المرء بوسائل أخرى من وسائل فقد الحرارة البدنية وأهمها العرق الذي يزيد فيتبخر على سطح الجلد ، وكذلك نشاط التنفس ، وإذا لم تتمكن وسائل تصريف الحرارة من خفضها زادت الأعراض شدة ويحدث مرض الإعياء من الحر . والتبخر كما هو معلوم يمتص الحرارة ، ويكفي أن يضع المرء مادة من المواد السريعة التبخر على جلد يده مثل الكحول أو الأثير ليلاحظ أن يده تبرد أثناء تبخر هذه المادة . وغزارة العرق في الصيف معروفة للجميع لأنها وسيلة طبيعية من وسائل تخفيض حرارة الجسم في الصيف . ومن المشاهد أن العرق يتبخر بسرعة في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو الرطب ، ولذا تتكيف البنية لمقاومة الحر بسهولة في الجو الجاف، أكثر مما تتكيف في الجو المشبع بالرطوبة .

• من ملطفات الحرارة النسيم فانه يساعد أولاً على تجفيف العرق وثانياً ينعش الجسم، ولذا تغزّل فيه كثير من شعراء البلاد الحارة في شعرهم وأغانيهم في مواضع عديدة وحملوه سلاماً وأشواقاً — ونلاحظ ان أكثر الناس يستعمل المروحة في الصيف لاحداث نسيم خفيف وتبديل في الهواء لتلطيف حرارة الجسد وتجفيف العرق . وقبل أن تخترع المروحة الكهربائية كانت تستعمل المراوح اليدوية من قديم الزمان وتوجد في الآثار صور تدل على وقوف حملة المراوح بجوار الملوك للتهوية على وجوههم — ولا تزال المراوح اليدوية تستعمل للآن وبأشكال متنوعة في جميع مناطق البلاد الحارة ، وتفننوا في صنعها ، من أبسطها وأرخصها كالمصنوع من زعف النخيل إلى أثمنها وأغلاها كالمحلى بالنقوش والصور والمزين بريش النعام، بل والمرصع بالأحجار الكريمة وكانت من حليّ السيدات كما أصبحت الآن من التحف المنزلية الثمينة التي تحلى بها الحجرات وتعرض في المتاحف .

• ومن الوسائل التي يستعملها ذوو اليسار في الصيف لتلطيف الحرارة ولانعاش الجسم ماء الكولونيا والروائح العطرية الأخرى، وفائدتها أن المواد الكحولية والطيارة التي بها تتبخر بسرعة فتمتص الحرارة — وروائحها تنعش حركة التنفس — ومن ملطفات الحرارة الضارة النافعة معاً، شرب الماء البارد وتناول المثلجات . على ان ضررها يكون أكثر من نفعها إذا شرب الماء بكثرة أو تناول المرء المثلجات بغير اعتدال لأنها تحدث نزلات معدية معوية واضطرابات هضمية ـ فالماء اذا استعمل من الظاهر رشاً أو استحماماً يلطف الحرارة وينعش الجسم وينبه أعصاب الجلد وينشط التنفس . وأما اذا شرب فانه يمتص الحرارة من المعدة ويلطف الحرارة قليلاً ثم يمتص فيزيد العرق والعرق كما قلنا يتبخر ، ويكثر العطش

في الصيف من كثرة العرق ولذا نجد في البلاد الحارة كثرة استعمال المشروبات المرطبة والمثلجة مثل القازوزة وعصير الليمون وعرق السوس وما شابهها . ويعد من الاحسان والعطف تسبيل الماء وبناء أماكن الشرب الخاصة المعروفة بالسبيل في الطرقات بل ربما كان الشرقيون أول من فكر في عمل اناء حجري صغير للكلاب بجوار السبيل — غير أن شرب الماء بافراط مضر كما قلنا لأنه يحدث اضطرابات في الهضم، والماء الذي نشربه يمتص جزء بسيط منه في المعدة وأغلبه يمتص في الأمعاء الدقاق وبعضه في الأمعاء الغلاظ .

• تصرف الحرارة وتفقد من الجلد بثلاث وسائل الأولى: امتصاص الحرارة أثناء تبخر العرق ويحدث هذا في الهواء الطلق بسهولة — ويحدث في الهواء المحبوس مثل هواء الغرف وغيرها بصعوبة — كما يحدث في الجو الجاف أكثر مما يحدث في الجو المشبع بالرطوبة — والنسيم يسهّل تبخر العرق . والثانية بتوصيل الجلد لحرارة الجسم الى ما يجاوره . فالملابس تدفأ بملامستها الجسم وفي تدليك الجسم بالماء أو بالكولونيا أو الاستحمام بالماء البارد أو عمل مكمدات باردة أو ما شابهها يوصل الجلد الحرارة اليهـا فتقل حرارة الجسم . والثالثة بطريقة الإشعاع أي بإشعاع الحرارة في الهواء ولا يمكن هذا إلاّ إذا كانت حرارة الجو أقل من حرارة الجسم — ويعد تبخر العرق أهمها . وعرف بالتجارب الفزيولوجية ان تبخر ١٢٠ جم من العرق يخفض حرارة الجسم درجة واحدة مئوية — وقد استعان الطب العلاجي بهذه الوسائل الطبيعية وقلدها واستعمل النافع منها في علاج الحميات

إذا وجد الانسان في مكان معتدل الحرارة والرطوبة بأن تكون حرارته نحواً من ١٥ درجة، ورطوبته نحواً من ٥٠ في المائة والتهوية فيه معتدلة أيضاً وليس بهـا تيـارات هواء — وملابسه عادية لا هي بالثقيلة ولا هي بالخفيفة — فإنهُ يفقد من حرارة جسمه الزائدة عن احتياجاته بالوسائل المختلفة الخاصة بتصريف الحرارة من البنية بالنسبة الآتية :

٤٠ في المائة بالإشعاع

٣٠ » بتوصيل حرارته إلى ما جاور جسده كالملابس والكراسي والفراش وما يمسكه في يده من الكتب والأواني والأدوات إلى غير ذلك.

٢٠ » بتبخر العرق من جلده وبالتنفس .

؟ » جزء بسيط مع التبول والتبرز .

؟ » جزء آخر بسيط بتدفق الهواء الداخل إلى الرئة من الأنف والحلق والقصبة الهوائية وبتدفئة الغذاء البارد وما يشرب بارداً أثناء تناوله .

ويعد العرق أهم وسيلة من وسائل فقد الحرارة وتكييفها في البلاد الحارة ويعد فقدها وتكييفها بالوسائل الأخرى قليلاً نسبيًّا ويكاد يكون قليل الأهمية .

• كلنا يشكو من لزوجة العرق في الاسكندرية وأمثالها . وسئلت كثيراً عن سبب ذلك. والسبب أن جو الاسكندرية مشبع بالرطوبة كما يلاحظ من الجدول الآتي وقد قورنت فيه ثلاثة أيام متفرقة كانت حرارتها متقاربة .

التاريخ	اسم المكان	الحرارة: النهاية الصغرى	الحرارة: النهاية الكبرى	متوسط الرطوبة
١٢/٤/٣٤	اسكندرية	١٤	٢١	٧٣
»	مصر الازبكية	١٤	٣٠	٥٣
»	مصر الجيزة	١٢	٣٠	٧٣
»	حلوان	١٤	٣٠	٦٦
٦/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٨١
»	مصر الازبكية	٢١	٣٤	٦٥
»	مصر الجيزة	١٩	٣٣	٦٢
»	حلوان	٢١	٣٤	٥١
٢١/٧/٣٤	اسكندرية	٢٢	٢٩	٧٣
»	مصر الأزبكية	٢٢	٣٤	٦٣
»	مصر الجيزة	٢٠	٣٣	٦٥
»	حلوان	٢١	٣٣	٥٤

وأقل بلاد القطر المصري رطوبة هي الواحات الداخلة واسوان وقنا وليس من المعقول أن يصطاف فيها الانسان فانها أماكن للاشتاء ، لأن الحرارة بها شديدة جداً في الصيف .

***

ويرى من هذا الجدول أن الاسكندرية أكثر رطوبة من مصر ومن الجيزة ومن حلوان ـ وان الحرارة في الاسكندرية أقل في هذه الاماكن خلال الأيام التي اتخذناها مثلاً ـ وحيث ان العرق لايتبخر بسهولة في الجو الرطب، فانه يبقى فوق الجلد ويختلط بالافرازات الجلدية الأخرى ويصبح لزجاً .

« يتبع » .

المـــرأة

ثمّ المرأة

أمِنْكِ برقٌ أبيت الليل أرقبُه . كأنّه في عِراض الشام مصباح ؟

نابليون : مدام : اني لا أحب أن تتمحك المرأة في السياسة.
أرملة كوندورسيه : لك الحق أيها الجنرال . ولكن من الطبيعي
في بلد تحتز فيه رؤوس النساء ، أن يكون
لهن الحق في أن يسألن عن السبب في ذلك .

وغالب الظن انه في بلد يعيش نساؤه مستعبدات أو في حكم المستعبدات ، يحملن المستقبل ويعملنَ للحاضر ويقمنَ بين الحقول والمزارع بأعمال لا يصح أن يقوم بها غير دواب الحمل، وتؤكل أموالهنّ وتغتصب حقوقهنّ ويشرع لهنّ ولا حق لهنّ في الاحتجاج، ويرسم حاضرهنّ ويخط مستقبلهنّ ، ولا يمثلنَ في ناحية واحدة من نواحي الحياة الاجتماعية ، ويخضعنَ لقانون الحراج في أن يستعمل الشطر الأغلب من شطري الجمعية حق الأقوى ، حق المتسلط ذي الارادة المطلقة في إقامة الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها حقوق المرأة ، . . . غالب الظن أن يكون للمرأة في مثل هذه الجمعية الحق كل الحق في أن تسأل عن السبب في ذلك ؟

من حق المرأة في بلدٍ كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة حين ترى أختها الأوربية تشارك في الحرب وفي المصانع الحربية وتقطع البحار وتجوب القفار وتعمر المصانع والمعامل وتشترك في معارك الأدب والعلم والاجتماع والفن ، وحين ترى أختها الروسية تضحّي بدمها في سبيل إنقاذ ستالينجراد تحت جنح الليل وفي غمار الثلوج وتحت نيران العدو وعلى مياه الفولجا الباردة المقرورة .

مَن حق المرأة في بلدٍ كهذا أن تسأل عن السبب في ذلك ؟ وبخاصة عند ما ترى ان أبناء الاوربيات اللائي ذكرناهنّ أنجب من أبنائها وأنجح في الحياة وأقوى شكيمة وأثبت خلقاً وأفرع رجولة . فمن أين أتى ذلك ؟ أظن انه من نكران الحقوق المدنية على المرأة الأوربية، أتى ذلك العمل الفذ الذي قام به أبناؤها ، وليس له في التاريخ مثيل مذ كان

للانسان تاريخ . أظن انه أتى من قبوع المرأة في عقر دارها وعدم تمتعها بالحقوق السياسية والاجتماعية ، على المبادئ التي يريد أن يقيم عليها بعضنا حياة المرأة في بلادنا وفي الشرق .

كيف تأتى للمرأة الاوربية أن تربي أبناءها هذه التربية الاستقلالية الحرة ، ولم يعقها التمتع بحقوقها ، التي أقول انهـا طبيعية ، عن ذلك ؟ كيف نشـأت الرجال الذين يريدون التسود على كرة الأرض ، وهي بين جدران المصنع وفوق ظهر الباخرة وبين أجنحة الطائرة وفي القفار والصحاري والغابات . كيف تأتى لها ذلك ؟ أمن أجل انهـا من طينة غير طينة البشر أجمعين ؟ هل تأتى لها ذلك وهي في حجرة النوم وفي المطبخ ؟ كلاً أيهـا السادة : تكلموا فيما تحسنون .

لماذا يكون العمل والحرية والانتاج والمشاركة في بناء المدنية وفي الحرب والصـناعة ، فضيلة في المرأة الاوربية ، رذيلة في المرأة الشرقية ؟ أفمن حق المرأة الاوربية أن تكون حرة ، وليس ذلك من حق المرأة الشرقية ؟ أخلقت الأوربية مختصـة بهبة الحـس فتعرف اللذة والألم ، وخلقت المرأة الشرقية مكفوفة عن هذه الهبة فلا شعور لها باللذة ولا إدراك عندها للألم ؟ هل كوّنت نفس المرأة الأوربية ولها المشاعر والانفعالات والعواطف والحب والبغض ، وكوّنت نفس المرأة الشرقية محجوبة عن كل ذلك ؟ سبحانك موزع الحظوظ .

***

لانزال منذ أن أصدر قاسم أمين كتابه « تحرير المرأة » في الموقف نفسه : فريقٌ يقول أن المرأة للمنزل : وفريقٌ يقول إن المرأة للحيـاة . لا يزال البعض منا في نفس الموقف الذي وقفه « روسو » من نساء فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر ، تؤثر فينا التقاليد التي كانت طابع الحياة القديمة والتي ما عرفت معنى الحرية ولا معنى الحقوق الإنسانية . فإن روسو بالرغم مما أشاد بالحق السياسي وبالحرية وبالرغم من أنه قال إن تلك الحقوق طبيعية لا تسقط عن الإنسان ولا تسلب منه ، حتى ولو تعاقد هو نفسه على حرمانه منهـا ، وقوله إن حق التصويت حقٌّ عام لـكل أفراد الجمعية ، فقد ذهب إلى جانب هذا مذهباً عجيباً إزاء المرأة فلم يسلّـم بأن لها حقّـا يقال له الحق السياسي .

لقد كتب روسو كثيراً عن المرأة ، وفصّـل الفوارق التي تفصلها عن الرجل . ولـكن لم ينزل كاتب من كتّـاب القرن الثامن عشر إلى ذلك الدرك الذي انحدر فيه روسو إذ قال : « خلقت المرأة لتكون ملهاة للرجل » . وقال أيضاً — « ينبغي أن يكون تعليمها متصلاً بحاجات الرجل ، فتكون له تسلية وفائدة وموضعاً لحبه واحترامه ، وتربي أولاده صغاراً

وتعنى بهم كباراً ، ولتبذل لهم النصح وتنفحهم بالعطف ، حتى تصبح حياتهم هادئة مرحة. كانت هذه الأشياء خلال كل العصور واجبات المرأة ، ومن أجل هذه الواجبات يجب أن تتعلمَّ المرأة من الصغر ».

هذا المذهب القديم لا يزال طابع الفكر عند الكثيرين من أنصار التقاليد العتيقة في هذه البلاد وفي كثير من البلدان الشرقية ، وبخاصَّة العربية منها . غير أن الفرق بين ما كتب في أواخر القرن الثامن عشر في أوربا ، وبين ما يكتب عندنا في أواسط القرن العشرين ، إن سفسطتنا قد بلغت من الضعف، أضعاف ما بلغ كلام روسو من سوء الفهم .

***

بلغت السفسطة عند بعض الكتّاب الذين تصدوا للكلام في المرأة والحياة العامة مبلغ أن فرض بعضهم حالات لا وجود لها في الطبيعة ولا حقيقة لها إلاّ في الخيال المحض ، وبنى على هذه الفروض وتلك الخيالات القضايا واستخلص النتائج، وراح يناضل عن وجهة من النظر لا علاقة لها بهذه الفروض على اطلاق القول .

قال بعضهم : « لو أن عالم الانسان كان كله ذكوراً ، أو أنه كان كله اناثاً ، أو كان شيئاً بين هذين : لا هو بالذكور الصرف ولا بالاناث المحض ، — أريد أن أقول : لو أن الانسان لم يخلق هكذا مؤلفاً من جنسين مختلفين ، بل كان جميعه جنساً واحداً ، — أكانت حياته هي هذه التي نراها حياة مليئة بالشر والاضطراب ، أم تكون حياة وادعة مطمئنة مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ؟»

« أعتقد أن تسعين في المائة أو أكثر ، من هذا الوبال الذي يعانيه الانسان ، سببه مجموع أمرين : أحدهما أنه خلق من جنسين مختلفين . والآخر أنه أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية ، التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع ، ليتعاون الفريقان على المرافق الحيوية ، ويتكافلا على بقاء النسل وحفظ النوع ، أو قل أن سببه هو الأمر الثاني فقط » .

فانظر أي فرض يفرضه الكاتب وأية مقدمات يتخيل لموضوع فرغت منه الطبيعة منذ ملايين عديدة من السنين . يريد أن يتخيل ثلاثة عوالم : الأول عالم كله رجال . والثاني عالم كله نساء . والثالث عالم كله خناث : نصفه خناث إلى التذكير والنصف الآخر خناث إلى التأنيث . وكل هذه العوالم الخيالية عنده تكون عوالم مليئة بالراحة والهدوء والصفاء ! أما العالم الذي نصفه رجال ونصفه نساء ، فهو السبب في تسعين في المائة أو أكثر من هذا

الوبال الذي يعانيه الانسان ، وان الانسان أساء فهم النظم الطبيعية لتلك الرابطة الجنسية التي وضعتها الطبيعة ونظمتها الشرائع، إلى آخر ما يقول .

أما الطبيعة فلم تخطيء قيد شعرة . فقد خلقت من الحيوان ذكراً وأنثى وبثت فيه الميل الجنسي ليكون ذلك حافزاً لحفظ النوع وتتالي الحياة على وجه الأرض . قاعدة لم تند عنها الطبيعة الا في الحيوانات الدنيا التي استعاضت عن التبادل الجنسي فيها بالتكاثر بالانقسام أو بالتبرعم . وإذن يكون الخطأ في الشرائع التي نظمت هذه العلاقة على غير قاعدة طبيعية . هذا ما تسوق اليه المقدمات التي ساقها ذلك الكاتب .

ثم إن القول بأن خلق الانسان من جنسين خطأ ساق إلى الوبال الذي نعانيه ، لو أنك حللته تحليلاً منطقيًّا لبان لك أمران : فاذا كان القائل به من الدهريين لدل ذلك على أن علمه بالطبيعة ناقص وفهمه لحقائق الحياة من الناحيتين الحيوانية والاحيائية بعيد عن الاستواء . وإذا كان من المتدينين كان ذلك اعتراض على الخلق وحكمته لا يصدو إلاّ من متورّط إلى الكلام في ما لا يعلم . وإذاً يكون محصل ما قال ذلك الكاتب ان الشرور التي وقع فيها العالم سببها أن الشرائع نظمت علاقة الرجل بالمرأة تنظيماً جرّ علينا ذلك الوبال . لأن الطبيعة نظمت الخلق على قاعدة أن يكون فيه ذكر وأنثى ، فلا يعقل أن تجعل للانسان دون سائر الأحياء العليا لغة أخرى غير لغتها، ومنطقاً آخر غير منطقها .

ثم انظر اليه كيف يقول : « لم تخلق المرأة لتكون للرجل شغله الشاغل في هذه الحياة فاذا ما حارب ، كان في خبيئة قلبه أن سيرقى منصباً أو ينال رتبة ، فيفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها . وإذا ركب البحار وخاض الغمار كان في قرارة نفسه إنه سيصبح ذا ثراء وفير وخير كثير ، فتزدلف اليه المرأة، وإذا ما سعى ليكون رئيساً عظيماً أو مديراً كبيراً أو وزيراً خطيراً، كان أكبر همه فيما سعى اليه ، أن يحظى برضاء المرأة وينعم بتودد المرأة » .

« لم تخلق المرأة ليعبدها الرجل أو ينافق لها نفاقاً يبلغ درجة العبادة أو يزيد . أما تراه كيف يركع لها في خشوع المتبتل وصغار المستعبد إذا أقبلت ، وكيف يلمس أناملها وقد وضع يده على قلبه يمسكه أن يخر تحت قدميها ، وكلنا يعلم إن هـذا تصنع زائف ، وإنه لا يتفق وما يعاملها به في ناحية أخرى ، حيث يصب عليها جام غضبه ويذيقهـا العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها» . ا.هـ

صورة لم تخلق إلاّ في مخيلة الكاتب ، وأوهام لم يقم عليها أي مجتمع إنساني مذ كان للانسان مجتمع . الرجل يعمل ويكد ويحارب ويقيم الدنية ويقطع البحار ويجوب القفار ،

ويمشي على الرمضاء صيفاً ، وعلى الزمهرير شتاءً ، لماذا ؟ ليفوز بتقدير المرأة ويسعد باقبالها ويحظى برضاها وينعم بتوددها، فاذا أقبلت ورضيت وتوددت صبَّ عليها جام غضبه وأذاقها العذاب ألواناً حين ينتهي أربه منها ! ! أسمعت أيها الانسان المتمدين بمثل هذا في خطوب الأولين ؟

فروض لا أساس لها من العقل ولا من الواقع ، وترهات لا يؤيدها برهان ولا يقوم عليها دليل، تتخذ أساساً لبحث في المرأة ومنزلتها من المجتمع وأثرها في اقامة دعائم التمدين، وتكييف حالات المستقبل . وهي فوق ذلك فروض ليس لها سند في الطبيعة ، ولا موئل في الطبع ، ولا تمت بصلة ما إلى مجتمع بذاته من المجتمعات الانسانية . فأين الرجل الذي يحارب متودداً للمرأة ، وأين الانسان الذي يركب البحار ويخوض الغمار لتزدلف اليه المرأة . وأين الجماعة الانسانية التي عاشت وهذا طابعها في الحياة ؟ لا شك في أن ذلك كله قد قام في وهم ذلك الكاتب لا أكثر ولا أقل وغاية همه من ذلك العنت ، بل من ذلك العبث ، أن يقول « السعي خارج المنزل وقد خصَّ به الرجل ، والعمل داخل المنزل وقد خصت به المرأة » هو جماع ما في الجمعية البشرية من حكمة الحياة .

***

أما اذا أردنا أن نتكلم في هـذا الموضوع كلاماً تفهمه الطبيعة فينبغي علينا أن نعتقد أن المرأة لها من الحقوق وعليها من الواجبات مثل ما للرجل تماماً ، وان النظامات العتيقة وحدها هي التي جعلت من المرأة ذلك المخلوق المهان المستضعف ، وأن الطبيعة أعدت المرأة أول ما أعدتها لتكون شريكة الرجل في الحياة بأوسع معانيها وبكل احتمالاتها ومطلوباتها . شريكة لها حق الحياة والعمل والكسب والسعي ، ولها فوق ذلك حق طبيعي لا يسلب ولا يُستطى ، هو حق الحرية، التي هي الحياة .

اسماعيل مظهر

الجاهل : لا يؤمننك شر الجاهل قرابة ولا جوار ولا إلف ، فان أخوف ما يكون الانسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل ان جاورك أنصبك ، وان ناسبك جنى عليك ، وان ألفك حمل عليك ما لا تطيق ، وان عاشرك آذاك وأخافك . مع انه عند الجوع سبع ضار ، وعند الشبع ملك فظ ، وعند الموافقة في الدين قائد الى جهنم . فأنت بالهرب منه ، أحق منك بالهرب من سم الاساود ، والحريق المخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء . « ابن المقفع »

مبدأ سيادة الدولة

وقضية السلم العالمي

بقلم

صلاح الدين الشريف

ظلّ مبدأ السيادة قاعدة العلاقات الدولية ، ومظهر السلطان السياسي الذي تحرص أمم هذا العالم على التمسك به، في كافة ما يشغل أفق حياتها القومية والعالمية . وحق سيادة الدول في العالم المتمدين ، قرين حق الحرية عند الأفراد ، فهو قاعدة النظم السياسية والتشريعية والاقتصادية ، وشتى نواحي النشاط الداخلي والخارجي للدولة .

وبديهي أن لكل أمة نظمها الخاصة بها ، وظروفها المقصورة عليها ، وإن كان إنطباع كل الأمم بروح الحضارة السائدة كفيل بأن يقرّب بينها جميعاً، ويفتح أعينها على مشاكل الحضارة التي تأخذ بنصيبها منها ، فتشارك في علاجها بأساليب تكاد تتقارب في البواعث والغايات ، وبذلك تتبادل الحلول والمنافع ، وتقارب ما استطاعت بين صور التفاوت في وجهات النظر .

غير أن اختيار كل دولة مستقلة نظمها ، وانتخابها لأساليب خاصة تواجه بها مشاكل العيش في ظل الحضارة ، لا يتحقق لها بغير سلطان السيادة .

فالسيادة هي عونها في سلطتها التشريعية فتهيء لها أن تصوغ قوانينها وفقاً لتطوراتها الاجتماعية المقصورة عليها . وهي كذلك عونها في سياستها العسكرية ، فتدفع عن أرضها غوائل الاعتداء . كما أنها قاعدة السياسة الخارجية التي تتبعها ومناط نشاطها الخارجي كله . فبها تشهر الحرب ، وتعقد الصلح ، وتعاهد ، وتحالف ، وتبادل التمثيل السياسي ، وتعتمد رجاله ومبعوثيه من أبناء الدول المرتبطة معها بعلاقات سياسية .

وبهذا المعنى على إطلاقه نفهم ضرورة السيادة كحق ضروري لكل دولة تريد أن تتمتع بنصيبها من الوجود السياسي ، وتساهم في إعلاء مقاييس الحضارة التي تسود هذا العالم .

ولكن الدول اليوم لا تعيش في عزلة وراء تخومها السياسية والجغرافية ، بل تتشابك علاقاتها وتتقابل وجهاتها أو تتعارض ، حتى لينشأ من هذا التشابك والتعارض احتكاك بين

السيادات ، إذا لم يعالج دائماً بما يحقق التوازن والاستقرار ، هدَّد المجتمع الدولي بفوضى الحرب ، وسيادة شريعة القوة ، تحقيقاً لمبدأ التنازع الأبدي في سبيل البقاء .

ولما كانت كل دولة ترغب في أن تحيا مطمئنة على حقوقها ومطامحها ، وأن تكون على أتم أهبة لملاقاة مخاطر النضال ومواجهة أهواله ، فهي لن تجد مفرًّا من الحرب ، تدفع بها العدوان وتحل بها ما يرهقها من عوادي الغير وغوائله .

غير أن من الدول من يتسع أفق نظرتها إلى مشاكل العالم التي تخوض محيطها ، فتنكر جدوى الحرب في حسم النزاع وفض الخلاف ، وتنظر إلى الأمر نظرة عكسية ، وتأخذ في علاجه من طرف آخر ، قد يريحها من الحرب ، ويجنبها ما تتمخض عنه من كوارث ونكبات.

وسبيلها إلى هذا ، تقوية ضمانات السيادة ، وتعزيز مقدرة الدفاع الوطني من ناحية ، والتوسل بالدبلوماسية المفاوضة والمصالحة ، واقتراح شتى الحلول السلمية ، من ناحية أخرى .

وقد كان لسيادة هذه النظرية التقليدية أثر نفسي (سيكولوجي) بعيد في تشجيع بعض أمم المجتمع الدولي على التسابق إلى تقوية سيادتها ، حتى لقد التوى بها القصد ، وانكفأت أمامها الغاية ، فأهملت جانب المسالمة والمفاوضة ، وأضحى أمر العلاقات السياسية بينها مقصوراً على التطاحن بين السيادات ، يقوّيه العامل الاقتصادي ، وحافز المصلحة القومية ، دون غيرهما من عوامل الاجتماع الداعية إلى التضامن الدولي ، أو التآلف في ظل الدوليَّة العالمية .

وكلمة « السيادة » بمعناها الاصطلاحي المعروف اليوم ، لم يعم استعمالها إلاّ في اواخر القرن السادس عشر ، وكان الفقيه « بودان » أول من استعمل هذا الاصطلاح في كتاباته الفقهية ، بعد أن أفسح نطاق مدلوله الفقهي الذي كان يحمله طيلة العصور الوسطى ، إذ كان مقصوراً على سلطات معينة يتمتع بها الملوك والعواهل ، بحكم مركزهم السياسي والاجتماعي ، وما خوّله لهم من المزايا والحقوق .

ولما كانت المبادىء والنظريات عرضة للتطور ، فقد كان حتماً أن تنصاع لحكم الضرورات المختلفة ، فتماشي التطورات الاجتماعية التي تكيف البيئة ، وتوجه مصاير أفرادها ، وتأمن بذلك شر الجمود والانحصار في حدود ضيقة ، وهي كثيراً ما تسوق إلى ضرب من الشلل الاجتماعي ، له آثاره السالبة ، فيتخلف المجتمع ، من ناحيتيه المادية والروحية ، عن مسايرة ركب الحضارة إلى غاياته المثلى .

ولعلّ عملية التطور هذه ، وهي الناموس الطبيعي الذي يحكم المجتمع الإنساني ، هي خير

ما تختبر به المبادىء الجوهرية التي يستوعبها ضمير الجماعة ، إذ أن هذه المبادىء تجوز بدورها سلسلة من التطورات تنالها بالتعديل والتكميل ، حتى تسامت أهداف الجماعة ، وتماشي عوامل الاستقرار أو عوامل الانقلاب التي تتناوب على البيئة .

ولما تشابكت العلاقات الدولية ، واستفحل أمر السيادات في مطلع العصور الحديثة ، ابتدأت عوامل النضال الخفي بين الدول العظمى في سبيل الهيمنة على مصاير التوازن الدولي في القارة الأوربية ، فضلاً عن خوض غمار المعارك الاستعمارية الكبرى التي اجتذبت الدول إلى مغانمها ، للحصول على موارد الحرب وخامات الصناعة .

ولما بدأ المجتمع الدولي يُعاني مغبة الأخذ بمبدأ السيادة المطلقة ، وتقديس حق الدولة في تبرير أية خطة تنتهجها في تنفيذ سياستها الخارجية ، مادامت مستندة إلى سلطان السيادة ، ظهرت بوادر حركة رجعية ، ضعيفة تُعد بمثابة ارتكاس لنظرية السيادة المطلقة المطبوعة بالروح المكيافيلي . ذلك الروح الذي ظل مهيمناً على علاقات الشعوب المتمدينة ، يدفعها إلى غمار المطامع ، ويجتذبها إلى معارك الحياة والموت .

ولم يكن بد من أن يظهر أثر هذا الانقلاب الفكري في كتابات بعض الفقهاء الدوليين ممن حبذوا فكرة « السيادة المقيدة » فكتب العلامة « بافندورف » في مؤلفه العظيم De Jure Naturae et Gentium مثبتاً أن سلطان السيادة يقبل القيود ، وأن هذه القيود تحد من السلطة الحاكمة في الداخل حرصاً على حريات المحكومين وخيرهم ، كما أنها تحد من حرية الدولة في انتهاك علاقات المودة وحسن الجوار وروح التفاهم ، التي يجب أن تربطها بالدول الأخرى ، حتى لا تستغل مبدأ السيادة ، مدفوعة بنية ظالمة ، في انتهاج سياسة خارجية معادية أو مخادعة .

***

وفي القرن الثامن عشر أخذ مبدأ السيادة ، بتأثير النظريات الفقهية الجديدة يتكيف في صور جديدة تحت ظل المحالفات والمعاهدات التي كانت تعقدها شعوب القارة الاوروبية ، مدفوعة إلى ذلك بعوامل سياسية مختلفة . ومن ثم بدأ يسود الأفق الدولي روح جديدة من التفاهم على وجوب تقييد حق السيادة للصالح الدولي المشترك . وجرى العرف الجديد بأن قبلت كل دولة ، تتحالف مع دولة أو مجموعة دول أخرى ، أن تتقيد مختارة ، بقيود سياسية ودبلوماسية ، طامنت إلى حد كبير من غلواء المبدأ الذي كانت تعتنقه الدول من قبل ، ونعني به مبدأ التمييز بين السيادات ، ومحاولة كل دولة التوسع في سيادتها على حساب الدول

الأخرى ، غير حافلة بما يترتب على ذلك من إخلال بمبدأ التوازن الدولي ، ومن قضاء على روح المسالمة ، الواجب أن ترعاها إزاء أمم المجتمع الدولي .

على أن مبدأ تقييد السيادات قد تجلى في أبرز صورة في أعقاب الحرب العظمى الأولى ، عند ما قضت الالتزامات التي أوجبتها معاهدات الصلح ابتغاء تسوية عالمية مشتركة ، تحقق في نظر أعلام السياسة أيامئذٍ ، ضرباً من الاستقرار والتوازن ، فقبلت بعض الدول الاوروبية قيوداً سياسية وعسكرية معينة ، اعترف واضعوها بأنها لا تمس سيادة الدول الموكولة بتنفيذها أو استقلالها . وسرعان ما تقبل فقهاء القانون الدولي وأعلام السياسة الأوروبية ، الذين كانوا يسعون إلى تحقيق حلم السلام الدائم ، هذه النظرة الجديدة في فقه السياسة ، وأخذوا من ثمَّ يحشدون آراءهم في مؤلفات تناولوا فيها مبدأ السيادة بألوان من الشروح السمحة التي تحكم الصالح العالمي المشترك ، قبل أن تستهدي الصالح القومي الضيق الأفق ، مؤكدين أن سلك أمم العالم المتمدين في شبه وحدة سياسية واقتصادية متآخية متضامنة ، لن يتحقق إلاَّ إذا قنعت كل دولة بحدود جديدة لمبدإ السيادة ، يتفق والالتزامات التي يفرضها روح عصر ينشد فيه العالم سلاماً طويل الأمد .

غير أن هذا الاتجاه الانساني الجديد في تقاليد المجتمع الدولي ، لم يُرضِ جماعة من الفقهاء المحفوزين بعُرام الرغبات المنوية ، إلى فرض سيطرة دولهم ، فاندفعوا نحو تأليه حقوق السيادة ، بطريق تأليه مقام الدولة وتقديس حقوقها حتى لتستوعب حقوق الأفراد وإراداتهم ، بله حقوق الأمم الأخرى التي لا تبدو للدول الطامحة إلاَّ في صورة المزاحم لها على منادح العيش ومجالات الحياة .

وهم في ذلك يسوقون ضرباً من المناقضة يبدو خطله لأول وهلة ، فيقولون بل يؤكدون أنه بغير اقرار مبدأ السيادة على وجهٍ واسع ، لا يكون ثمت قانون دولي ينظم تشابك السيادات بين الدول . فتقييد السيادة إلغاء صريح للمقوّمات السياسية للدولة ، وإذا سلمنا بهذا الالغاء تدريجاً أو طفرة ، لم يعد المجتمع الدولي وجود ظاهر . وواضح أن هذا الرأي افتراض نظري محض تلعب السفسطة فيه دوراً يذكر ، وقد تكفل الفقيه الفرنسي الكبير « Le Fur » بدحضه فقال : « إن التوفيق بين سيادات الدول وبين حقوق المجتمع الدولي هو حقًّا مشكلة المشاكل في فقه القانون الدولي . بيد أن النظر السليم المبني على قواعد الاستقراء التاريخي والمقارنة الواقعية لأسس الاجتماع الانساني ونظمه الحاضرة ، كفيل بأن يهدينا إلى القول الفصل في هذا الاشكال . وإذا أردنا عرض الأمر في أبسط صوره

دون اصطدام بالتفاصيل الفقهية المرهقة ، ظهر لنا أن القابلة الاجتماعية بين حق الفرد في الدولة وحق الدولة في محيط المجتمع العالمي ، يضع أيدينا على مفتاح الحل المنشود » .

« فالفرد في المجتمع ، لا بدَّ له من حرية تكفل له مجالاً لملكاته ومواهبه ، ومن حقوق تهيئ له أن ينمي شخصيته ويقوّي كيان أسرته التي يعمل من أجلها ويكدح ، ومن ثمت كان طغيان سلطان المجتمع على حريات الأفراد وحقوقهم ، عن طريق الجبر الاجتماعي ، بمثابة سلب المجتمع بواعث نشاطه وحيويته . كما أن في إطلاق المجال لحريات الأفراد وتعزيز استقلالهم إزاء حقوق السلطات العامة ، محطم لنظام الجماعة معطل لاستقرارها ورخائها على غرار ما تكفلت بشرحه بعض نظريات العقد الاجتماعي، بل حقائق الواقع الاجتماعي ذاته . ثم يأتي الطرف الآخر من المقابلة في صورة مجتمع عالمي أفراده الدول . فهذه الدول الأعضاء فيه ، لا بدَّ من احترام استقلالها وسيادتها حتى تكون عوامل منتجة في تعزيز الرخاء العالمي . بيد أن هذه السيادة التي تظاهر حقوق الاستقلال ، ليس من الصالح العالمي أن يرخى الحبل لاتساعها وتضخمها، والاَّ كان من وراء ذلك امتداد لمعارك السلطان بين السيادات ، واعزاز لشأن الجامعات العنصرية الكبرى على حساب القوميات الصغيرة ، وكلا الأمرين منافٍ لوجود مجتمع عالمي يقوم على تحديد السيادات في سبيل تضامنها وتوجيه حقوق الاستقلال لخدمة قضية السلم . وقوام هذا التحديد مرافق عالمية مشتركة في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، تنمو وتتسع بتقدم العالم وازدياد الصلات والروابط بين أجزائه » .

والواقع أن العالم في صراعه الحاضر يدلل على أن روحه ترفض مبادىء الطغيان والتحكم وشهر السلاح في وجه الضعيف الأعزل صاحب الحق ، وهو اليوم يعير مبادىء الاخاء والتضامن العالمي عناية أكبر ويستوعبها بفهم أنضج من فهم الأمس الدابر . وإذا كان قد تعرّف على أخطاء الأمس التي حالت بينه وبين هذا التعاون الذي كان ينبغي أن يحكمه في تقرير الصالح المشترك بين الأمم ، فان حاضره ومستقبله حقيقان بأن يكفلا له تأليف هيئة عالمية كبرى تكون محكمته وبوليسه وبرلمانه، فتحكم بين الأمم وتعمل لخير العالم غربه وشرقه، وهذا ما تعقد الانسانية اليوم رجاءها عليه .

مصادر المقال .

1 — Foreign Affairs : An American Quarterly Review (April 1942)

2 — E. H. Carr : The Twenty Years Crisis (1919 —1939)

الفيل

ذلك المجهول

من الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لان بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على انه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل هو في تكوينه الحيوي ، بمثابة جهاز « رادار » الحديث ، فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الاذنان .

لاشك في أن الطبيعة ، أمنا العظمى ، عندما أرادت تصوير الفيل ، قد افتنّت وتريثت طويلاً ، لتبرز في عالم الحياة حيواناً لا نظير له في الخليقة . وإلاّ فأين نظيره ؟ أين الحيوان الذي تنمو ثناياه حتى تصير من الثقل بحيث ترهقه بحملها إذا مشى ؟ أين الحيوان الذي زوّدته الطبيعة بجلد سمكه بوصة ، وجهاز لتوزيع الحرارة ضعيف الأثر ، فلا يحتمل الجليد إلاّ بقدر ما تحتمله نبتة ضعيفة من نبات الفول الغض ؟ أين الحيوان الذي اندمجت أنفه في شفته العليا ثم امتدتا إلى الامام فأصبحتا ذلك العضو الغريب الذي ندعوه الخرطوم، فيقوم مقام الأصبع واليد والأنف والنافورة والمراوة .

ان أقدم أسلاف الفيلة قد انقرضوا من الارض منذ ٢٠٫٠٠٠ سنة على الأقل ، في حين أن الفيل ، وهو البقية الباقية من عالم بائد ، قد عاش إلى الآن ، لتضفي به الطبيعة علينا آية من حيوان هو أبعد ضروب الحيوان عن أفهامنا . حيوان ورثنا بوجوده عن آبائنا قصصاً وخرافات ، وعن علمائنا أقوالاً متناقضة متضاربة .

ولعلك قد سمعت بعض ما يروى عن الفيل . ألم تسمع أن الفيل يبدأ في التوالد إذا بلغ المائة أو يزيد ، وانه لا ينسى إساءة ، وانه لا بدّ من أن يردها انتقاماً ؟ وان الفيلة الافريقية غير قابلة للايلاف ، فلا يستطيع الانسان أن يعالجها ، وان الطوّال منهم تزعجهم الفئران ؟ وأنّ قائد القطيع لا بدّ من أن يكون فحلاً هائل الحجم ضخم الجثة ، له ماضٍ في المعارك تركت أثرها في إهابه ، فتظل له السيادة حتى يتغلب عليه « جالوت » صغير يتربع على عرش القطيع ، وأن الفيل إذا توقع الموت تسلّل ليموت خفية وفي سلام ، ولكن في مقبرة لا يعرفها إلاّ الفيلة ؟ .

ليس من هـذا كله شيء حقيقي ، ولو أنك وقفت تنظر إلى فيل من غير أن تعرف أي شيء عنه ، لاستعصى عليك أن تعتقد شيئاً من صحة ذلك . ولننظر الآن فيما يقال عن عمره . ولنقف عند هذا برهة قصيرة .

***

ان لأهل « بورما » قولة في الفيل وانه يولد عجوزاً طاعناً في السن . ولهم في ذلك حق . فان فلو الفيل يلوح كأنه عجوز فانٍ ، بجلده المجعّد وحركاته الثقيلة وترنحه ترنح المعجّزين ، وفيل في الاربعين يلوح لك كأنه في عمر نوح . ناهيك بإهابه المنتفخ الأغبر الأملط المشوّه بآلاف التجاعيد ، وجبهته العريضة البارزة التي تعبر لك عن أنها خزانة حكمة وتجربة ، وعينيه الصغيرتين الغائرتين ، جماع ذلك يكمل ، عند أول نظرة اليه ، صورة حيوان عاش من القـدم المديد إلى عصرك الحاضر . هـذه الأشياء إيحـاء لا غير ، تبعثه فيك صورته الظاهرة .

ويبلغ الفيل تمام نموّه في العشرين من عمره ، وأقل من ذلك شيئاً مّـا . وتلد أنثى الفيل وهي في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من سنيها ، وتظهر على الفيلة سمات الـكبر وهي في الاربعين . وأقصى عمر تبلغه الخامسة بعد السبعين غالباً .

ثم ماذا عن حقد الفيل وانه لا ينسى الاساءة ! قد يكون لذلك الجنس ذاكرة غاية في القوة . ولـكن إذا صحّ أن الفيل لا يصفح عن أذية ، إذن لتعذر أن يوجد فيل واحد في ملعب من الملاعب ، أو حظيرة من حظائر حدائق الحيوان . وكل الحقائق المعروفة تدل على أن الفيل يحترم السلطة ويخضع لها . وقد يصرع حارسه إذا شاء ، ولـكنه يحني له الرأس احتراماً إذا اضطرّ .

وللذكور أخلاق تند عن أخلاق الاناث من حيث الالفة والخضوع ، ومزاجها أخفى وأغمض . وهذا هو السبب في أن العادة اتبعت في ملاعب الحيوان أن يكون قطيع الفيلة فيها من الاناث ، ولو انهُ يجري على ألسنة أصحابها كلمة « الفحول » إشارة الى الفيلة من غير اعتبار لجنسها . والواقع أن ذكور الفيلة إذا طال بها الأسر ساءت أخلاقها واستعصت ، فنصيبها القتل بالرصاص ، طال بها العهد أم قصر .

ان « غمبو » ، وهو فيل ذكر عظيم روّضه « بارنوم » ، معروف لـكل أمريكي ولد قبل سنة ١٨٩٠ . وهو ولاشك أعظم فيل عاش في أسر الانسان . وكان « غمبو » افريقيّـا ،

وهو نوع عرف عنهُ انهُ من أبعد الحيوان عن قبول الإيلاف . ولكن آلافاً من الاطفال ركبوا ظهره ، فناقض بذلك خرافة شاعت عن الفيلة الافريقية .

ثم كيف القول في أن الفيل يرهب الفأر ، وان له مقابر يلجأ اليها ليموت إذا حان حينه وان أكبر الفحول يقود القطيع ؟

***

يقول حرَّاس حديقة الحيوان في فلادلفيا ، أن فيلة الحديقة لا تأبه بالفئران ولا تعيرها أي التفات . ولا شك في أن ذلك الخلق هو خلقها في الغابة . ومن الجائز أن الفيلة لا ترى الفئران رؤية صحيحة ، لأن بصرها ضعيف . فعندما يلتقط الفيل جوزة صغيرة أو حبة من الفول السوداني ، فلا يدل ذلك على أنه يراها . ذلك بأن خرطوم الفيل ، هو في تكوينه الحيوي بمثابة جهاز « رادار » الحديث فينقل اليه ما هو جار على بعد منه ، بأدق ما تنقل العينان أو الأذنان .

كذلك لا يقود الفحل الأكبر القطيع كما يقال . ولكن الرأي في ذلك غير متفق . بيد أن الشائع أن إحدى الاناث تكون غالباً على رأس القطيع . ويقول أحد صيادي الفيلة أن جماعتها تخضع لنظام الأمومة ، وهو نظام يكون السلطان والرياسة فيه للام ، وأنه إذا حدث ووجد فيل عظيم النابين في جماعة من الأناث ، فيغلب أن يتعذر عليك قتله ، لا لسبب إلاّ للحملة الوحشية الثائرة ، التي يوجهها اليك الأناث دفاعاً عنه .

***

وقطعان الفيلة مسالمة فيما بينها وديعة في تصرفها . والظاهر أن ما يحدث بينها من التخاصم قليل ، ولا يند عن هذه القاعدة غير فئة قليلة من الذكور ينبذها القطيع لسوء أخلاقها ، فتهيم على وجهها زماناً ، تغرس فيها خلاله ، ميول غير مرغوب فيها ، فتظل طريدة .

أما مدافن الفيلة ، فالظاهر أن لا وجود لها . وبالرغم من أن الكثيرين بحثوا وراءها وفتشوا عنها ، رغبة في الحصول على عاجها ، فانه لم يعثر على أثر لها . وبالرغم من أن أكثر ما ينقل عن طبائع الفيلة غير صحيح ، فهنالك من حقائق حياتها العجيبة الشاذة ، ما يظهر ان هذا الحيوان من أغرب الثدييات في دنيا الحياة . فالفيل ولو أنه ذائع في بقاع فسيحة شاسعة من رقاع إفريقية وآسيا ، ولا يتورع عن المشي خمسين ميلاً ليسعد بشربة ماء ، فانه عاجز عن الجري والرَّوَيان والتقريب ، ولا يستطيع الوثب ، ومشيه عبارة عن سبح سريع

لا يزيد معدله عن عشرين ميلاً في الساعة ، ولكنه لا يقدر على ذلك غير قليل من الزمن . فاذا هاجم ، فان الصياد قلما يسبقه عدواً .

***

والفيل سباح ماهر ، ويحب الغوص تحت الماء بكل جسمه ما عدا طرف خرطومه الذي يظل ظاهراً فوق السطح ، كأنه منفاق[1] غواصة . ولا يضارعه شيء من الحيوان في القدرة على اللقانة ، والتعلم في أخريات عمره . وقد يزن ناباه مائتي أو ثلاثمائة رطل . وهما ثقيلان يتعبانه ويضنيانه . وللفحل الكبير من الفيلة نابان من هذا الوزن الثقيل . وكثيراً ما يعمد الفحول الكبيرة إلى شجرة يسندون اليها أنيابهم ليريحوا عضلات رقابهم من حملها بعض الوقت .

ولا يعضد مثل هذه الأنياب غير جمجمة عظيمة الحجم . وجمجمة الفيل شيء يدعو إلى العجب . ففي مؤخر الطبقة العظمية الأمامية التي تؤلف الجبهة ، مسافات منفرجة قليلاً أو كثيراً ، مملوءة بعظام أشبه بأقراص خلية النحل . ومن المتعذر أن تقتل فيلاً باصابة دماغه (مخه) . فان الاهتداء اليه عسير ، ذلك بأنه مندفن في داخل الجمجمة على بعد اثنتي عشرة بوصة أو يزيد .

وأسنان الفيل الفكية شيء غير عادي في دنيا الحيوان . فهي على كبرها لا تستقر في وقوب شأن بقية الحيوان ، وإنما تنتظم في خندق غائر في عظم الفك ، تنزلق فيه حسب الحاجة . ولا يظهر من أسنانه غير سن واحدة أو سن ونصف في كل من فكيه ، فاذا تحاتت سن منها ، سقطت وحلت محلها السن التي تليها ولكن أغرب ما في الفيل خرطومه ، وهو عبارة عن أنبوبة من العضلات ، أو قل مئات من العضلات ، وينقسم عند منتصفه بفاصل ، وفي طرفه الأمامي بروزان يستعملهما الفيل كما نستعمل أصابعنا .

والفيلة تعبر عن الصداقة بتشابك الأنياب كما نعبر نحن عن ذلك بهز اليد . وتربت الأنثى صغيرها بنابها ، فاذا مشى وضعته فوق ظهره لتدله به على الطريق . وربما كان أعظم فائدة لخرطوم الفيل أنه عضو حس . فاذا نامت الفيلة مدت خراطيمها لتشم الهواء ، عساها تقع بالشم على عدو قريب منها .

في الكوخ

قصة عن فاندا فاسيلفسكا

« وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتدلف الى النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ ، أهي محكمة القفل ؟ موصدة لا تقبر ؟ »

« جدتي ! اصغي : جدتي » .

فنظرت « أنيسيا » إلى أعلى . كانت « تتالكا » تناديها من الناحية الاخرى من السور .

« ماذا » ؟

« أتسمحين لي بالمثول دقيقة واحدة » ؟

« ليس ما يمنع من ذلك . احضري إذا شئت » . وأخذت « أنيسيا » تغمغم بطريقتها المعهودة .

ما أدفأ أشعة الشمس في ذلك النهار . وأخيراً وجدت عظامها المتصلبة النابضة بالآلام بعضاً من الدفء يتغلغل فيها . شمس يولية الجميلة الشفيقة . ألا ليت الأمطار تمسك ؟ أمّا ما كانت تتوقع فقد بللها وأزعجها قبل أن يقع ! المطر ! كلاً كلاً . فليس من شيء هو ألعن من أن يهطل المطر . فلو أنه هطل ، إذن لتألم كل جزء من عظامها . تألم بفظاعة . ثم تتورم مفاصلها ، ويستعصى عليها أن تخطو خطوة واحدة . ولكن عند ما تكون الشمس مشرقة ، وبالأخص كما كانت تشرق في ذلك اليوم ، فان الحالة تختلف . فما أبهج شمس يولية وهي تداعب الارض بأشعتها الذهبية .

« جدتي » .

« ماذا بعد » ؟

« أتسمعينني » ؟

« لِمَ لا ؟ طبعاً استطيع أن اسمعك » .

قالت أنيسيا ذلك وهي مضية تتمتم عجباً . ان هذه الفتاة تطلب شيئاً على الدوام . لماذا لا يتركون عجوزاً مثلي تستريح في سلام ؟ ان مثلي لا يطلب من الحياة مزيداً ؟ قليلاً من سلام النفس يعزيني . بضع ساعات فقط قبل أن يحضرني الموت ، الموت الذي هو آخذ طريقه نحوي » . في هذا اتجهت أفكارها .

عادت تتالكا قائلة : « جدتي : انظري إليّ » .

فرفعت العجوز جفنيها الثقيلين نحو الفتاة بانتباه ، وثبتت عيناها الغائرتان وكأنهما

مفشاتين بورق خفيف

« جدتي : إن الألمان قادمون » .

هزت أنيسا كتفيها . لقد سمعت هذه الأخبار منذ أيام مضت . كانوا قادمين ! أقادمون هم ؟ حسناً . وماذا يحدث لو أنهم قدموا ؟ فإن الألمان ولا شك سيتركون حزمة من العظام منها تموت في سلام . إذا كانوا قادمين فليكن ذلك : الألمان — رنت هذه الكلمة في أذنيها وكأنها شيء بعيد عن سمعها. وفي الحقيقة لم تنقل إليها هذه الكلمة أي معنى . أهم من ذلك عندها أن تتشمس وتشعر بحرارة الشمس الدفيئة تسري في عظامها الموجعة . الألمان — فليهتم صغار السن بالألمان ..... أمر لا يزعج عجوزاً مثلها حطمها الزمن

« جدتي : إننا سنغادر هذا المكان ونمضي إلى الغابة » .

« حسناً . اذهبوا إذا شئتم . أي شيء يعنيني في ذلك ؟ لست ذاهبة معكم » .

فأمسكت نتالكا بذراعها وقد ذهب صبرها .

« كلا . لا تعملي ذلك . إنه يؤذيني . والآن ماذا تريدين مني ؟ » .

« جدتي . جدتي . انهضي واصغي إليّ ، دقيقة واحدة »

« إني مصغية »

« أتسمعينني » .

« نعم . ماذا تريدين » ؟

« جدتي نحن ذاهبون الى الغابة . والدي ذاهب معنا وأنا أيضاً . وكذلك كل من هنا » .

« حسناً . اذهبوا إذن . ان الألمان قادمون . هل هم قادمون حقيقة ؟ من الطبيعي أن تطيروا إلى الغابات . أما أنا فسوف أظل هنا ... أتشمّس »

« جدّتي : إن في حديقتنا رجلين من جنود الجيش الأحمر »

« اثنان ... ماذا ؟ »

« اثنان من الجيش الأحمر . أتفهمينني »

« نعم . ولكن ماذا يطلب مني إزاء هذا الأمر »

أخذت الفتاة تهزها بيأس ممسكة بكتفيها.

« جدّتي : انك في سنة من النوم مرة ثانية . اجتهدي ألاّ تنامي »

« اني لا يأخذني النوم . وانما يهوم النعاس بجفوني لا أكثر »

« جدّتي . أأنت مصغية إليَّ . في حديقتنا رجلان من جنود الجيش الأحمر . تحت ظليلتنا ، بمقربة من شجر البرقوق »

« حسناً . وماذا يهم . أفتنت بأحدهما ؟ »

تنفست نتالكا الصعداء يأساً وقنوطاً ، فجلست القرفصاء تلقاءها ونظرت في تينك العينين الغائرتين اللامعتين بغشاوة المرض والزمن ، وأفصحت لها بصوت عالٍ ، مخرجة كل لفظ بعناية تامة ، ضاغطة على الحروف حتى تبين تماماً .

« جدّتي . ان في حديقتنا رجلين من

جنـد الجيش الأحمر . انهمـا جريحين ، ولا نسـتطيع أن نأخـذهما معنا . انهما مريضين حتى لا يستطيعان الحركة . أتفهمين .

« نعم . نعم . أفهم . ينبغي أن يخرجا في الشمس »

« ولـكنهما يا جدتي جريحين . فيهما جراح بالغة . أتفهمينني ؟ وجميعنا سنجلو إلى الغابة . وقد يقدم الألمـان أي وقت الآن . . جدتي . هم في حاجة الى من يأتي لهما بشربة ماء . أعطيهما شيئاً من عنـايتك . أتفهمين » ؟

« ليس فيما قلت شيئاً يفوت الفهم ! أفيما قلت شيئاً من ذلك ؟

« أفي استطاعتك أن تفعلي بهما ذلك » ؟

« لمَ لا ؟ ما دامت الشمس مشرقة ، وعظامي لا تدق بالألم ، فسأخدمهما بكل عناية »

« انكِ لم تنسيْ بعدُ أين هي ظليلتنا ؟ »

« كلاً بالطبع لم أنس »

« إذن فستعني بهما »

« نعم . نعم . سوف أنظر في أمرهما »

« ولـكن كوني على حذر فان الألمان لا ينبغي أن يلحظوا شيئاً » !

« سوف لا يلحظون شيئاً أبداً . ولم يتعبون أنفسهم في متابعـة امرأة عجوز ؟ سوف أتظاهر بأني أطوّف على غـير هدًى هنا وهناك ، حتى أمر بأشجار البرقوق — فأمر بأشجار البرقوق ... »

« بحقك لا تنسي يا جدتي » .

« وكيف أنسى ؟ اثنان ! أكذا قلت ؟ هما في حاجة إلى المـاء ... وإلى إنسان يوثّر مضجعيهما ... وأشياء أخرى من هذا القبيل . قليل من الطعام ، على ما أتخيل . ذلك ما سوف يطلبان ؟

هنا أخذ الفرح من قلب الفتاة .

« نعم . نعم يا جـدتي . غير أنهما لا يستطيعان أن يأكلا الآن ... الشقيـان : ما أتعسهما . ولـكن بعد مضي يوم أو يومين ... ربما ... عند ما يشعران بأنهما أحسن قليلاً »

« سأفعل ما في وسعي . سأحضر اليهما قليلاً من الخبز وبُـلغة من شيء آخر . سأعني بهما » .

« ومتى تذهبين اليهما » ؟

« إني ذاهبة الآن ... وبعد قليل سأعود اليهما . لا تقلقي . فـكل شيء يجري حسب مرامك » .

« لا تنسي » .

عند ذلك أخـذ الغضب من العجوز فاحتدّت قائلة :

« لقد أوسعتني وقاحة : تذكري مرة وإلى الأبد أن جدتك أنيسـا إذا وعدت بشيء فإنها تحتفظ بكلمتهـا . ماذا يقلق بالك ؟ أتظنين أن جدتك أنيسـا حزمة قديمة من العظام لا منفعة فيها ولا قيمة لها ؟ لا شيء من ذلك ..... ما دام هنـاك شمس مشرقة فإني أستطيع أن أعمل عملاً » .

ربتت نتالكا على اليد المرتعشة المجعدة بحنوّ

« حسناً استودعك الله يا جدة . أكاد أكون متأكدة من أننا سوف نعود سريعاً . ولكن في الوقت الحاضر ينبغي أن نختفي ونبذر ظهورنا . سنظل نرقبهم من الغابات »

تمتمت العجوز . « هـذا حسن ... من الغابات ... لا تقلقي سوف يكونان بخير وعافية عندما تعودوا ... سوف لا أنسى نبيك . »

وارتفع صوت من الناحية الأخرى من السور :

« تنالكا ! أين أنت ؟ تنالكا ؟ »

« إني قادمة يا أبي ! إني قادمة » .

وأشرقت قدماها البيضاوان في ضوء الشمس . وهزت أتيسيا رأسها .

« كأنها معزاة مرحة صغيرة حسناً ، أيتها العظام القديمة — لقد حان الوقت الذي نعنى فيه بالعشيين ..... »

جهدت حتى انتصبت على قدميها . ولابدّ من جهد تبذله حتى تقوم . فاذا قوّمت ظهرها حملتها قدماها الموجعتان إلى حيث تريد واستندت بصلابة على مرفقيها ومضت تطوف في الحديقة وتطلعت عيناها النصف مكفوفتين في ممرات الحديقة تحت أشعة الشمس وهي بها خبيرة . تطلعت فاذا بها تتخيل أن جميع الممرات مغلقة غير مسلوكة . لقد عاشت هنا ، في هـذه البقعة . كم من السنين ؟ تسعين . واحداً وتسعين .

« كلا . لقد ضللت . لقد أثقلتني السنون الطوال . كم مرّ بي منها » ؟

دارت من حول السور ودخلت حديقة جارها ، والد تنالكا . وكانت أشجار البرقوق في الركن هناك يمد صفوف عساد الشمس والقنب ودغل التوت . الطليلة ... بناء متداع مسقوف بالحطب والبوص .... مغمور في أغصان ملتفة وأماليد كثيفة . واستدارت من حوله لتجد المدخل .

يصعب أن تعثر به . لقد أمعنوا في تنكيره حتى ليتعذر أن تجده .

جريحان مستلقيان هنـالك على القش . جثت العجوز ونظرت اليهما .

« لِمَ ذا . الوحشان ! انهما ما يزالان في ميعة الشباب » .

تنبه أحد الجريحين من الغفوة المحمومة التي أخذته ورفع رأسه المعصوبة .

صاح : « من هنا » ؟

« صه . صه . انها الجدّة اتيسيا جاءت لترا كما . الرقد ساكناً وكن مستريحاً »

« ماء » .

« ماء . بالطبع سأحضر لكما بعض الماء يا ولديّ . سأحضر لكما كل ما أنتما في حاجة اليه » .

« لم تعرف تلك العجوز الفانية من أين أتتها العافيـة . وقف الألم الممض الذي كان يعصر قدميها عصراً . نسيته » فأخرجت من البئر قليـلاً من الماء وملأت منه صوالجاً وعادت إلى الحديقة ، ثم إلى الطليلة يُعيّد

أشجار البرقوق .

« هوذا . اشرب ، اشرب يا بنيّ . ماء زلال رائق بارد . جئت به من بئرنا . إنه حقيقة مما يرد الحياة وليس ككل ماء » .

كان الجريح الآخر يتململ في حمى تقرع أوصاله وترض مفاصله . فبللت خرقة ووضعتها من فوق جبينه .

« وهكذا قد يتفق أن يكون جسد منهوك متداعٍ بالقدم وبالزمن ذا منفعة ... ونتالكا ... ويح الطريقة التي اتبعتها معي !

... ويحها من طريقة ! من ذا الذي يجهل أن المريض يحتاج إلى شربة ماء ... وأنت يا بني أرقد في سلام وأرح نفسك . احتمل بصبر يوماً أو يومين . سوف تتحسن حالك بعدها »

وضعت الصواع بجوار الجريحين ودلفت من ثمّ إلى صومعتها . فلما بلغتها ، جلست ثانية على درج الباب وأغفت بعد أن أتعبتها واجبات ذلك النهار . لقد ظلت نائمة حيث هي طوال الوقت شاعرة بطنين الذباب المتكاسل من حولها وبحرارة الشمس وبالنعمة التي تغشاها من الدفء الذي بعثته الشمس في جثمانها . ولكن برودة المساء أيقظتها . وبجهد جاهد انطلقت نحو الجريحين ، ثم عادت إلى صومعتها

«حسناً . لقد مرّ بي النهار في النهاية ... وفي الغد ! سيكون الغد يوماً مشرقاً صافي الأديم أيضاً .

في صباح اليوم الثاني دخل ثلاثة فناءها . أما الجدة أنيسيا فلم تأبه بهم أي شيء . ماذا يهمها من الألمان ؟ بعد أيام قلائل قد يأتيها الموت . . . ذلك الموت الذي تلكأ طويلاً على الطريق

انتظرت هادئة . وكانت تسمع أصواتاً خشنة تنطلق بلغة غريبة عنها . فلتدعهم يثرثرون . ماذا يهمها ؟ انها لن تفهم شيئاً منهم

نادوها . فابتسمت بطيبة قلب ، واجتهدت في أن تفحص عنهم بنظراتها لعلها تعرف أي أناس هم . نعم . هنالك ثلاثة منهم . ثلاثة رماة ، لا يكبرون الفتيين اللذين يرقدان في الظليلة — هنالك في الركن الأبعد من حديقة جارها وسرعان ما شغلتها فكرة . أيوجد في الصواع قدر كاف من الماء ؟ أما لو ذهب هؤلاء وتركوها في سلام . لقد حان الوقت الذي ينبغي أن يعنى فيه بأمر الفتيين . نعم . سنفعل ذلك بمكر ودهاء . باحتيال . وسوف لا يشتبه في أمرها أحد فمن ذا الذي يهتم بعجوز تقعد حتى عن المشي والسعي لحاجتها ؟

نادوها . ثم نادوها صارخين ، ثم ذهبوا . ظنت أنيسيا أن هذا آخر ما ترام . ولكنها ما كادت تهم عن درج الباب حتى ملأ الالمان الفناء .

« أهذه صومعتك » ؟

رفعت ذراعها لتقي عينيها وهج الشمس . كان أحدهم يكلمها بالأوكرانية — بلغتها الاصيلة ، ولكن الكلمات كانت تخرج من فمه خشنة لا عذوبة فيها . وفهمت بالضرورة كل ما قال

ولكنها لم تجد من نفسها رغبة في الكلام. ولكن الضابط أخذته الحدة. « تكلمي ! أهذه صومعتك » ؟

« صومعتي ! لماذا » ؟

وأخذ الضباط يتناجون. ولكن أنيسيا كانت في ثورة من الغضب الحاد، لأنهم حالوا بينها وبين الشمس، ومضت تخرج أنفاسها بشدة، فكان لها زحير.

« ما هذا ؟ ».

« لا شيء. انه لا شيء ».

« افتحي الباب ».

« لماذا انه مفتوح » قالت ذلك بعجب يمازجه الغضب.

صاح فيها المترجم. « افتحيه إذا أمرت بذلك ».

بكل بطء، وبكثير من التأوه والتوجع جاهدت حتى قامت على قدميها، ثم مالت بصلابة على هراوتها ودفعت الباب فانفتح على مصراعيه ودخلت الصومعة. فازدحم الضباط من ورائها.

« انها صومعة صغيرة مكدسة بالأشياء». ذلك ما لاحظ الكولونيل مقطباً وجهه.

« يمكن أن تفتح النافذة ». فاندفع أحد صغار الضباط نحو النافذة ودفع مصراعيها، فأحدث دفعهما بتلك الشدة جلبة جلجلت في الحديقة النضرة المبللة بندى الصباح.

قال الملازم: «سلها أين ذهب الأهلون» ؟ وقفت أنيسيا حيث كانت متوكئة على هراوتها تتأمل هؤلاء الغرباء في صمت عميق.

« كيف أعرف أين ذهبوا » ؟ وهزّت كتفيها للمترجم عند ما وجه لها السؤال.

«إني عجوز فانية، وقلما أخرج من الدار ».

« هل تبيتين وحدك هنا » ؟

« نعم. وحدي. عشر سنوات مضين الآن وأنا وحدي. لا أحد معي ».

تركوها في سلام. ولكنهم احتلوا المنزل وتبوءوا كل مكان فيه : الرفوف والمقاعد والفراش وبدءوا يتكلمون في أمر مّا صاخبين. ظلت هي حيث كانت برهة ما ثم اتجهت نحو الباب. ولكن يداً ثقيلة سقطت على كتفها وجذبتها إلى الوراء. فتحققت أنهم لن يسمحوا لها بالخروج من الصومعة. وأخذ الملازم يناقش في شيء ما مع المترجم. واستمر نقاشهما برهة غير وجيزة.

« انتبه إليها ولا تغفل. قد تكون امرأة عجوزاً عمياء. ولكن الشيطان وحده يعلم ما تخفي وراء ذلك. قبل أن تعرف ما هي، قد ترسل نبأ إلى ناحية مّا بأننا هنا. وأوامري تقضي بأن لا تتركوها تخرج من الصومعة. ألقوا عليها نظركم باستمرار، ولا تغفلوا عنها برهة واحدة ».

فلما أعرب لها المترجم عن انها لا بدّ من أن تظل في داخل الصومعة دائماً، نغضت أنيسيا رأسها علامة الفهم مرات. أي فارق عندها ؟ لقد أمرت أن تظل في داخل

الصومعة . إذن فلننظر في داخل الصومعة .

تسلقت سطح الوقد حيث فراشها وأغفت. أما الألمان فكانوا يتكلمون صاخبين في داخل الحجرة ، وقد بسطوا على المائدة بعض الخرائط ومضوا يتشاحنون ويصفرون،وأرض الغرفة تقعقع تحت ثقل أحذيتهم ذوات الدسر الحديدية . لم تأبه بشيء من ذلك . وظلت في غفوتها ، والذباب يطن من حولها ، والأبواب تجلجل ، والجند يخرجون ويدخلون مسرعين. كل هذا كان يصل إلى حسها كما لو كان من وراء ضباب كثيف ، فان جسمها كان واقعاً تحت سلطان ذلك الخدر الذي يسبق النعاس .

ولكن القلق ساورها عند ما جن الليل. فهنالك في الظليلة المختفية وراء أشجار البرقوق قد يحتمل أن لا يكون في الصواع. نقطة ماء. والفتيان ! لا شك في أنهما ينتظران الجدة « أنيسيا » بفارغ الصبر . ولا ينتظر أن يكونا قد عرفا ما هو واقع في ذلك المكان . وكل ما يتبادر لهما أن العجوز قد نسيتهما ، وأنها أكسل من أن تأتي بحركة ...

كانت حينذاك في تمام اليقظة والتنبه ، متطلعة إلى كل ما يحدث من حولها في الحجرة. تجمعوا من حول الباب ، ولكنها كانت تراهم يروحون ويغدون في المشي . أيقف حارس إلى جانب الباب يلحظه ؟ كلا . ليس من فرصة للخروج متسللة بحيث لا ترى .

وانزلقت هادرة من فوق الموقد

« إلى أين أنت ذاهبة » ؟

جملة قالها المترجم وقد ظهر فجاءة ، كما لو كان قد خرج من الارض . فردت عنها يده قاضبة بطرف هراوتها .

« والآن : كف عن هذا . . . لي أن أخرج بعض الأحيان . ألا تفهم » ؟

رجع عنها ، ولكنها لاحظت انه يتعقبها. فهزت كتفيها صامتة .

« حسناً . أأقول إن الالمان يخشون امرأة عجوزاً ؟ وعلى الرغم من هرمي ، فاني أقدر أن آتي عملاً . كذلك هم يظنون . حسناً جداً . راقبني . راقبني »

عادت أدراجها الى الكوخ ، وقبعت في مكانها من فوق الموقد . كانت مشفقة على الفتيين . وكانت الفكرة فيهما تجثم على صدرها. همس في وعيها هاتف وكأنها تقول لكان من الممكن أن تتمكن « نتاشا » الصغيرة من التسلل إلى الخارج. أما أنا... جسد متهدم عتيق مثلي..ماذا أستطيع أن اعمل يا ولدي وهم لا يسمحون لي بالخروج إذا أردت. هم يدرجون من ورائي كما لو كنت مَنْ . . مَنْ ذا يعلم إلا الله... من أنا . والآن : ماذا أفعل . ماذا يجب علي أن أفعل ؟

ومضت تتقلب في فراشها قلقة ، ترسل أنفاسها دفينة قوية .

فلما هوم النعاس برأسها وأخذتها غفوة حلمت بهما . كانا يطلبان ماء ... يتوسلان. يطلبان الماء ولكن ليس هناك قطرة واحدة في الظليلة . انهما يناديانها . يناديان الجدة

انيسيا . والجدة أنيسيا لا تحضر . لقد انحسر الرباط عن رأس أحدهما ، وليس من يسعفه برده حيث يجب أن يكون . انهما يشكوان إلى نتالكا من أن الجدة أنيسيا لم تلزم كلتهما ، وان نتالكا تشير اليهما مهددة بطرف أصبعها معبرة عما يجول في رأسها . يا لله . انهمرت الدموع من عيني انيسيا لعنف ما سمعت . يا لله . انهما يصرخان بحدة ، يطلبان الماء . كانا يصيحان بصوت عال ، حتى فزعت انيسيا من نومها ، وشعرت أن شيئاً غير مرغوب فيه قد حدث . تطلعت من فوق الموقد ، ولكن خيل اليها انها ما تزال نائمة .

كان الضباط جالسين من حول المائدة ، على المقاعد ومن حول الفراش . وكان في مواجهتهما الفتيان صاحبا الظليلة واقفان ومن حولهما نطاق من الجند . خيل إلى الجدة انيسيا أن ذلك الرمد الذي أخذ يغشى على عينيها منذ سنوات قد انكشف عنهما فجأة . رأت كل شيء بدقة لم تتعودها منذ أعوام طوال . يا للعجب . هاهي ذي ترى اللفائف على رأسيهما وأرجلهما واذرعتهما . وها هي ترى ما في قسمات وجهيهما من التعبيرات . كانت عيونهما تلمع بأشعة محمومة هاذية . رفعت انيسيا رأسها من فوق الموقد ، وأظافرها الحادة تقطع راحتيها غيظاً . وإنما فعلت ذلك لتنصرف بهذه الحركة عن البكاء بصوت مسموع .

جلس الكولونيل في وسط الحلقة ، مستلقياً على مقعده بعظمة ، وخياله يتراءى رواحاً وجيئة على حائط البهو كلما تحرك . وكان مصباح الغاز يلقي ضوءه الى أسفل ، فكانت عينا الكولونيل تتواريان في حدقتيهما الغائرتين . وكان المترجم واقفاً إلى جانب المائدة على مقربة من الجريحين . سأل الكولونيل سؤالاً ، فأعاده المترجم بلغتهما ، ولكن بصوت أجش كريه .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

وكانت الجدة أنيسيا تستطيع أن تسمع بدقة ، كأنما تلك السدادة التي سدت أذنيها سنين ، قد زالت في لحظة . وكانت تصل اليها الكلمات واضحة بينة ، على صورة لم تعتدها أياماً طوالاً .

حتى أنفاس الجريحين المترددة العميقة ، كانت تصل سمع « أنيسيا » وهي مستجمعة من فوق الموقد . كانا يجاهدان في سبيل التنفس بقوة من فميهما اليابسين . كانا يترنحان ، ولكن أيدي الجنود الألمان كانت تسندهما بقوة وخشونة ، ليثبتا مكانهما .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

لم يجيبا . وقرع الكولونيل بيده على المائدة بشدة محتداً .

« قل لهما اني لا أحتمل شيئاً من هذا الهذر . أهذا واضح ؟ قل لهما ان نصيحتي ، ونصيحتي الخالصة ، أن يتكلما . عرفهما ان لدي طرقي الخاصة لمعاملة أمثالهما . قلهما من

أي الوحدات هما ، ومتى نزلت الوحدة هنا ، وإلى أين ذهبت ، ومن أين أتت ، وأين الجيش ، وأين سكان القرية ، وفي أي المعارك حاربا ؟ هذا ما أطلب . ابتدىء ! »

أدركت أنيسيا من صوته ما فيه من تهديد ووعيد . شعرت بأن قلبها يدق وكأنه سينفجر . دق قلبها دقات قوية لم تعهدها من قبل سنين طويلة ، وخيل اليها أن أولئك الجالسين من حول المائدة سوف يسمعون هدير تلك الثورة القائمة في صدرها . ولكن لم ينظر نحوها أحد منهم . كانت كل العيون متجهة إلى الفتيين الواقفين أمام المائدة ، تسندها أيدي الجند الخشنة القاسية .

« من أي الوحدات أنتما » ؟

تنفس الفتى المشجوج الرأس طويلاً وبعمق . وانتظرت الجدة أنيسيا الجواب ، وهي تنتفض من قدميها لمفرق رأسها .

« سوف لا أجيب » !

« انك لا تجيب . حسن . اليك ياهنس ساعده حتى يخرج . إنه لا يستطيع أن يخرج الكلمات من بين أسنانه . اذهب وخذ بيده »

فرفع الجندي يده وضرب الجريح الروسي على وجهه بجمع يده . ارتدت تلك الرأس الجريحة إلى الوراء . الرأس التي تغشاها تلك اللفائف القذرة المدماة . ولكن الجريح استجمع إرادته وبذل جهد الصابر فتماسك ولم يتضعضع .

« سوف لا أخبرك » !

« أين الجيش » ؟

« لا أعرف » .

« أنت لا تعرف ، إليك يا هنس . نبه ذاكرته ! أيقظها ! أن الفتى المسكين قد نسي ولكنا سنجتهد حتى يتذكر . نعم : سنعمل غاية جهدنا حتى يتذكر » !

تبع ذلك ضربة على الفك ، ثم ثانية وثالثة : وظهرت على اللفافة قطرات من الدم الجديد : وبجهد عظيم كبتت أنيسيا عواطفها فلم تصرخ ، وحبست صوتها المتهدج في حنجرتها الواهية .

« أين القرويون » ؟

« لا أعرف : لم أر منهم أحداً » .

وفي سورة من الغضب لوى الكولونيل حزمة الاوراق التي كانت أمامه على المائدة وأخذ يفركها بأصابعه .

« انه لم ير أحداً منهم يا هنس . تصور . انه لم ير أحداً منهم . تقدم إذاً وأنر له عينيه . أتفهم . خذ بيده حتى يستطيع أن يرى » .

سقط رجل الجيش الاحمر على الأرض . وانتصبت أنيسيا . كلاً . لن يكون ذلك . ان عينيها العتيقتين تغرران بها ! فقد اعتلى الجندي منكبيه وجلس آخران على صدر الرجل المنطرح على الأرض ، وبكل تؤدة وثبات أولج الجندي هنس ذلك النصل المحدود في عين الجريح اليسرى . وسرى إذ ذاك عويل وحشي ملأ جو الكوخ ، ثم سكن فجأة .

« أين الجيش »

« لا أعرف سوف لا أخبرك . انك لن

تفوز بشيء مني » — كان هذا جواب الفتى الجريح ، ولكن بصوت عميق شديد جاف . وانحدر الدم من الحدقة المفجورة إلى فمه وقام الكولونيل من مكانه وانحنى على الرجل المحتضر وارتسمت على وجهه أمارات دلت على الدهشة والعجب ، ثم ركل الجسد الهامد بطرف حذائه

«سله للمرة الأخيرة هل هو مجيب » ؟

وانحنى المترجم على الفتى الممدود على الارض . وسمعت الجدة انيسيا صوت الدم يحشرج في صدره . ومن خلال ذلك الصوت الكريه استطاعت أن تسمع بضع كلمات تخرج بتثاقل وجهد . مختلطة بأنات الألم ، وكأنها تسمع :

« أيها الرفقاء • هيا • تقدموا مسرعين الوقعة الأخيرة : فلنتقدم » .

« ماذا . ماذا . ماذا يقول » . سأل الكولونيل باهتمام .

« لا شيء » .

«ماذا تعني بلا شيء . إنه قال شيئاً ؟

« قال شيئاً غير مفهوم » •

« اقض عليه إذاً » بذلك أمر الكولونيل .

« فرفع الجندي سنكيّه » .

« لا ليس هنا . خذه في الخارج » .

فأمسك الجندي بذلك الجسد الهامد من تحت الإبطين وجرّه نحو الباب . ورأت انيسيا رجليه الواهيتين تسبحان من فوق الارض فتتركان أثراً من الدم في طول الحجرة .

جلست حيث هي ، ويدها على قلبها ، كأنما هي تثبته مكانه . وتراءت خيالات سود على الحائط . هنالك كان الفتى الثاني واقفاً أمام المائدة . كان يتمايل ضعفاً . ولكن أيدي الجند الخشنة كانت تعضده .

« سلهُ »

سترت أنيسيا رأسها تحت الغطاء . وسدت أذنيها حتى لا تسمع ، وضغطت عينيها بيدها حتى لا ترى ، ومع تنهدة خرجت من أعماق نفسها لعنت مصيرها الذي جعلها تعيش الى التسعين أو ما فوقها حتى أوصلها الى هذه الليلة الليلاء . لعنت عينيها لأنهما لم يفقدا ضوءهما ، ولعنت أذنيها . لماذا لم تفقد عيناها البصر ، ولمَ لم تفقد أذناها السمع ؟

ومن خلال الغطاء استطاعت أن تسمع الرواية الأولى تتكرر ، الصرخة الداوية ، وأنات الألم العميقة .

« لا أعرف ، سوف لا أخبرك » .

ساد السكون . ومضت برهة لا تستطيع فيها أن تمد رأسها من وراء غطائها لتستطلع ، وبعد لأي مدت رأسها بتابث . ان الالمان يتأهبون للنوم على ما يظهر . انهم يخلعون الاحزمة والأحذية . لقد أغلقوا المصاريع الخشبية على النوافذ وأقفلوا الباب ، وعسكر الجند في خارج الصومعة ، وظل حارس يذرع الأرض رواحاً وجيئة أمام الباب ولكن الضباط على ما يظهر لم يكن لهم ثقة بأحد . فقد امتحن الكولونيل بنفسه قفل الباب

وجسّ الباب والنوافذ ، واقترب من الموقد ليرى العجوز . أنائمة هي ؟

أقفلت أنيسيا عينيها ، وتنفست بتخاذل وهدوء ، كأنما هي نائمة .

وأطفىء المصباح . وأخذ الزمن يمضي ببطء وهوادة . يالله . كم هو بطيء ذلك الزمن . وفي ظلام الحجرة الخيف المضني ، كانت الثواني كأنها الاحقاب . أحقاب الأزل . لقد وقف الزمن فلا يتحرك . وكانت إذراعا أنيسيا وقدماها كأعمدة من الثلج ، وقد نضح جبينها بعرق بارد مثلوج . وانحدر العرق إلى ظهرها ! لا بد لها من أن تفعل فعلتها . نعم هذا قضاء .

كان بعضهم يغط غطيطاً . وجلست أنيسيا من فوق الموقد ، وخيل اليها أنها قد ترى في ذلك الظلام الدامس ، وأن كل حركة تأتيها قد تسمع ، وقد تنم عنها . ولكن الألمان كانوا في نوم عميق . وكان غطيطهم منبعثاً من انحاء المكان . هنالك هم يرقدون . متقلبين على فراش خشن من القش الجاف . ونام الكولونيل في المهد ومدت أنيسيا إحدى رجليها بحذر من فوق الموقد وانتظرت أما لو سكن قلبها عن ضرباته تلك . عسى هذه الضربات لا توقظهم . ولكن لا . انهم في غمرة من النوم . النوم العميق الهادىء الذي تطلبه أجسام انهكها التعب . وأخذت أنيسيا طريقها نحو الباب . ومن ثقبه أخرجت المفتاح بخفة ومن غير أن تحدث صوتاً . ثم مضت تحكم قفل الرتاج من وراء كل نافذة . أية قوة كانت مختزنة حتى تلك الساعة في اليدين الواهيتين المرعشتين ! والآن وقد أحكم قفل الباب والنوافذ ، وسدّت جميعاً بإحكام ، فليس في استطاعة أحد أن يدخل الصومعة ليقلق النائمين أو يوقظ الضباط

انتظرت دقائق ، ثم استدارت بخفة من حول المائدة ، نعم ، كانت الزجاجة ما تزال في مكانها ، إنها مملوءة حتى القمة ، لقد أتت بها نتالكا من المخزن قبل ذهابها وتركتها هنالك ، إنها ملآنة .

وشدت العجوز السدادة ، ومن غير أن تحدث أي صوت انحنت على الفراش ، وصبت قليلاً من الكيروسين على القش عند قدمي الكولونيل ، ثم ارتدت بخفة خطوة واحدة وصبت بحذر وبطء مثلها على الأرض حيث كان يرقد الضباط ، ثم على العتبة ومن حول الحجرة بأجمعها .

كان كل شيء جاف . الجدران والأبواب والعضائد . منذ كم من السنين وقفت تلك الصومعة حيث هي ؟ كان قوامها الخشبي جافاً كالهشيم ، نعم ، الهشيم . طبعاً كالهشيم .

وبأصابع مرتعشة فتشت عن الثقاب تحت الغطاء ، وخيل إليها أن شعلة الثقاب قد رنت رنين طلقة نارية ، ولكن كل شيء كان هادئاً في داخل الصومعة ، اللهمّ إلاّ غطيط الرجال المتعبين مطرداً نظيماً ، رجال أخذهم سلطان نوم عميق . وقربت الثقاب المشتعل من أرض

الحجرة ، ثم شعرت بأنها لا تقوى بعد ذلك على الحركة . وامتد اللهب بسرعة في الهشيم الجاف ، متلويًا كأنه أفعى هاربة .

لم تستطع أنيسيا أن ترفع بصرها عن ألسنة النار ، ولم تشعر بأن ثوبها المشبع بالكيروسين قد اشتعل .

وبعد قليل نهض أحد النائمين صائحًا ، ولكن الصومعة كانت طعمة للنار الحامية ، التي اندلعت ألسنتها ، وكان أحدهم يعمل في الباب ليفتحه .

وقامت أنيسيا متحاملة على رجليها المهتزتين ، ولكن لتندلف في النار . وكان آخر ما جال في خاطرها : الباب والنوافذ : أهي محكمة القفل ، موصدة لا تقتحم ؟

وصايا صحية

الفاكهة في الغذاء اليومي

من الناس من يأكل الفاكهة بعد وجبة كاملة ، إذ تكون الشهية مثقلة ، والجسم منهك بالتعب . وآخرون لا يتناولون الفاكهة حذر الاسهال ، وقليلاً ما تسبب الفاكهة هذا المرض اللهمَّ إلاّ إذا كانت قد تجاوزت حد النضج أو كانت في تخمر . وقد تسبب الفاكهة بعض الأحيان قليلاً من المتاعب إذا أكلت بين الوجبات وفي وقت غير مناسب . وينبغي أن تؤكل الفاكهة كجزء متمم للطعام ، فاذا كانت ناضجة نفعت ولم تضر .

الاحتياط في تناول الطعام

يعيش أكثر الناس على نصف ما يأكلون تقريبًا ويرهقون طاقاتهم الحيوية بارغام الجهاز على التخلص من النصف الآخر . في حين كان من الواجب استخدام الطاقة المفقودة في الجهد العقلي أو الجسماني . والسبب المباشر لسوء الهضم هو تلك العادة الكريهة : عادة الجلوس إلى الطعام لأن وقته قد حان . ثم نغرى بالالوان اللذيذة فنأكل ونمتلىء في حين أن إباء الشهية وعدم الشعور بالجوع هو نذير الطبيعة، يوحي الينا بأن الأكل غير ضروري

ان آلافًا من النافهين قد ساروا إلى قبورهم باغراء أصدقاء جهلاء أخطأوا بحسن قصد . ذلك بأنهم قد يشجعونهم على تناول الطعام والشراب ، ظانين أنهم بذلك يستردون قواهم ، فيفقدون كل شيء .

الـــتراب

يغزو الموت

كيف أدت المباحث في المعدين إلى كشوف علمية
أغلى قيمة من كل الذهب الذي تخرجه كندا .

إن أحدث انتصار سجله العلم في العصر الحديث ، هو انتصاره على أقدم مرض أصاب الانسان منذ أبعد العصور .

في فجر التاريخ وفي مكان مّا ، وقف رجل بدائي يعمل بجهد المستميت وبصبر لا ينفد شهراً بعد شهر لكي يفسح من جوانب كهفه الذي يؤويه فمضى مستخدماً عضلاته القوية في نحت صفحة من الجبل ، مستنشقاً التراب من فتات الصخور . وذات يوم تصلبت وصلات أصابعه فلم تستطع حمل أداته ، وضاق تنفسه فلم يصل إلى رئتيه الهواء حتى كادت تتحطم ، ثم خرّ صريعاً وأسلم الروح . كان هذا الانسان البدائي أول ضحية من ضحايا التجلد السليكي .

بعد أزمان طويلة لا يحصيها العد — أي في العصر الحديث — مات خمسمائة من العمال كانوا يحفرون نفقاً في خلال بضعة أسابيع . في الدهور التي تخللت الحادثين — وهي دهور تتضمن فيما تتضمن أحقاب التاريخ الانساني برمته — ظلت وظيفة التنفس الطبيعية ، وهي وظيفة تعود على الانسان بالصحة والعافية والحياة ، تقضي على العمال بالمرض والموت ، فراحوا ضحية داء خفي يحول رئاتهم إلى ما يشبه الجلد الجاف .

منذ ١٩٠٠ سنة مضين سماه الكاتب الروماني بلينيوس داء « قاطعي الاحجار » وعرفه آخرون بأنه سل المعدّنين أو عفن السنّانين أو ربو الخزافين أو سعال صنّاع الآجر ، إلى غير ذلك وهو يصيب طبقات كثيرة من الناس كالسبّاكين والفلاحين وصنّاع الخزف وغيرهم ، فاذا لم يقتل أدّى الى مرض السّلال . أما الوقاية منه فانحصرت في تربية الشوارب واللّحى . وكانت هذه نصيحة الأطباء الى شهر ابريل سنة ١٩٤٠ . وقد أدت فعلاً إلى منع شيء قليل من الاصابة بهذا المرض .

وليس معنى القول بأن العلم انتصر على مرض التجلد السّليكي، أن حُفّار ذلك النفق الذين قضى عليهم المرض تلقاء عملهم هم آخر من يموتون به ، كما ان استكشاف الانسولين ليس معناه ان داء السكر سوف لا يقتل أحداً من الناس . ولكن معناه الصحيح ان في يد الانسان الآن سلاحاً قوياً فعّالاً يستعمله في اتقاء فعل حبيبات السّليكا التي لا يزيد حجمها على حجم الميكروبات المجهرية . ومن أعجب الأشياء ان هذا السلاح هو بذاته . . « تراب » ، مكوّن من حبيبات دقيقة من الالومينوم تُصفّح الرئة وتحفظ رطوبة أنسجتها الاسفنجية من فعل التجلد الذي يحدثه تراب السليكا . ولكل شيء آفة من جنسه .

يرجع الى كندا الفضل الأكبر في هذا الاستكشاف ، وتليها أمريكا وبريطانيا . ففي شمال كندا الأقصى وفي مبنى عظيم مملوك لمناجم « كابوسكابنج » في اونتاريو ، وهي ثاني المناجم الكبرى لاستخلاص الذهب ، يدخل مئات من العمال في مناوبتين ، حجرة جافة ، فيرتدون ملابس العمل ، وفي أثناء ذلك يستنشقون في جو الحجرة هواءً ممزوجاً بتراب الالومينوم ، نسبة تركيزه ٠٠٠ر٣٠ جزء من ذلك المعدن المسحوق في كل سنتي متر مكعب من الهواء . ويشبع جو الحجرة بذلك التراب قبيل دخول العمال اليها . ومسحوق هذا المعدن لطيف لا يرى ، وهو فوق ذلك بلا رائحة أو طعم .

ولا يُتخذ هؤلاء العمال محل تجربة ، فان زمن التجربة قد فات منذ زمان . فليس من اصابات جديدة بالتجلّد السليكي بينهم ، والمصابون به من قدامى العمال آخذون في سبيل الصحة . والفضل في ذلك كل الفضل « لحجرة مسحوق الالومينوم » .

ولقد كان طريق البحث الذي أدّى الى تأسيس « حجرة مسحوق الالومينوم » طريقاً مملوءاً بالعوائق والشكوك والفشل. كما ينبغي أن يقال ان السبب الذي حمل على هذا البحث لم يكن فيه شيء من انكار الذات أول شيء ، فان تقريراً وضعه ثلاثة من الباحثين تضمن انه « بعيد شيوع مرض التجلد السليكي ومعرفة أنه مرض لا بدّ من أن يصيب العمال في المناجم حتماً ، اتجه فكر الأطباء والراقبين في هذه المناجم إلى أهمية تلك الظاهرة وما نشأ عنها من مشكلات في صناعة التعدين » . وقد كان تفشي هذا المرض سبباً في نفقات باهظة تنفقها ادارة المناجم ، بغير نتيجة بينة . لهذا كان للانتصار على مرض التجلد السليكي قصة تضارع قصة استكشاف التطعيم والراديوم والأنسولين والسلفا والبنسلين .

ظنّ أول المشتغلين باخضاع ذلك المرض لسلطان العلم أن فتات تراب السليكا الحادة الأطراف إذا دخلت الرئة عملت فيها عمل آلاف من المدى الصغيرة. فتصيب أنسجتها بقروح .

واقترح بعضهم الالتجاء إلى طريقة التهوية الصناعية، وقال غيرهم باستعمال المضخات المائية أو التقنع بالقناعات المرشحة، غير عالمين أن تراب السليكا إنما يؤثر أثره بالفعل الكيميائي، وأن التهوية والمضخات المائية والأقنعة المرشحة لا فائدة منها في حجب جزيئاتها الدقيقة عن دخول الرئة.

تطوع ثلاثة رجال لواجب البحث والتنقيب عن سبب هذا المرض وعلاجه. «ج. دني» مهندس التعدين و «و. ب روبسون» كبير الاطباء و «ددلي ا. إرون». والأولان من موظفي مناجم «ماكنتاير» والثالث استاذ البحث الطبي في جامعة أونتاريو. واتخذوا سير «فريدريك بانتنج» مستشاراً لبحوثهم.

ولما كان من المستحيل إزالة التراب من الجو الذي يعمل فيه العمال، عمل هؤلاء الباحثون على قاعدة أساسية، هي الكشف عن مادة تقضي على الأثر الذي يخلفه تراب السليكا — يزدردها العمال.

ولقد مات أجيال بعد أجيال من الارانب وخنازير غينيا في المناجم ومعامل البحث، طوراً بنشر التراب الطبيعي وطوراً آخر بذر السليكا وأتربة أخرى عليها. وجرى البحث على أن ترسل أعضاؤها الرئيسية إلى دكتور «إرون» في تورونتو للفحص عنها وتحليلها في حين ظل «دني» و «روبسون» يعملان بكل جهد مستطاع ويجمعان بين أنواع الاتربة والسليكا ويمزجانها ثم يذرانها في الجو الذي تعيش فيه خنازير غينيا، لعلهما يقفان على شيء يقضي على أثر السليكا في الجسم البشري

هنا وصل بحث علماء بريطانيا إلى أن السليكا إذا تحاتت حتى تصير ذرات غير مرئية أحيطت بملايين عديدة من جزيئات الأوكسجين العاطشة، فتذوب هذه الجزيئات في رطوبة الرئة وتحدث الحامض السليكي، وهو الذي يسبب «تجلد الرئة» وربما كان هؤلاء العلماء قد أملوا أن تكون هنالك مادة تشبع عطش حبيبات السليكا المشبعة بالاوكسجين، فتقمعها قبل أن تحدث أحداثها السيئة.

وذات يوم، وبغير سبب خاص، ذرّوا شيئاً من مسحوق الالومينوم في منسف التراب الذي كانوا ينثرونه دائماً على مجموعة من حيوانات التجارب وأرسلت رئات هذه الارانب الى دكتور «إرون»، فبحثها ثم أبرق: «لا أثر للتجلد السليكي في الرئات بالعينة ٣٤١٧٣» فردّ عليه «دني» و «ربسون»: «وصلت البرقية» — فكأنهما رفضا أن يملأ النفس بأن ذلك الخبر يعني شيئاً جديداً، غير أنهما ظلا يضيفان مسحوق الالومينوم ذرّاً في جو

الجبس الذي تعيش فيه الأرانب فكانت نتيجة البحث أن التجلد السليكي لا أثر له في رئاتها

كان من الظاهر أن البحث قد أدى إلى نتيجة حاسمة ولكنهما لم يثقا ولم يعمنا في الثقة . فان ما وصلا اليه قد يكون « شيئاً » وقد يكون « لا شيء » فقبل أن تطبق النتيجة التي وصلا اليها في معملهما الصغير على آلاف العمال في صناعات مختلفة ، رأيا أنه لا مناص من الاجابة على سؤالين :

الأول : أي تأثير لتراب الألومينوم على السليكا فيمنعه من التحول إلى محلول يستحدث حامضاً قتالا ؟

الثاني : ما هو الأثر الذي يخلفه في الرئة إذا تكرر تزويدها بتراب الألومينوم ؟

فاذا اتضح انه ضار ، تركا الأمر كله ونسياه ، وعمدا إلى تجاريب أخرى . أما السؤال الثاني فقد أجاب عنه دكتور « فرانسيس فراري »، مدير البحوث في شركة الألومينوم بأمريكا فقد سئل : « هل لدى الشركة عمال ظلوا يستنشقون ذرور تراب الألومينوم زمناً طويلاً ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما أثر ذلك في صحتهم ؟ » فكان الجواب « ان العمال الذين يصنعون ذرور الألومينوم المستعمل للدهان والحبر يعيشون بصحة جيدة »

وقد أوضحت الأشعة السينية وسجلات العمل الخاصة بما لا يقل عن ١٢٥ عاملاً ظلوا يعملون في هذه الصناعة مدداً تتراوح بين ٦ و ٢٣ سنة ، أن الألومينوم قد يحدث فيهم آثاراً غير سوية ، ويظهر فضلاً عن ذلك أن صحة هؤلاء العمال هي في المتوسط أقوى من صحة ٣٠٠ عامل آخرين يعملون في أقسام أخرى لهذه الشركة

بل وضح أكثر من ذلك ، فان ثلاثة من المستخدمين كان قد ظهر في اللوحات التي صورت بها صدورهم بدايات السل ، ولكن هذه الآثار قد زالت من اللوحات التي صورت بعد تعرضهم مدة لاستنشاق تراب الألومينوم . وهنا عاد الباحثان إلى معملهما في غابات الشمال تملؤهما الثقة ويحدوهما الاطمئنان

ولقد علما أن حبيبات السليكا الدقيقة تنحل بسرعة إذا اتصلت بالماء ، وعلما فوق ذلك انه إذا أضيف إلى الماء $\frac{1}{100}$ من تراب الألومينوم يمنع انحلال السليكا ، وكيف يحدث ذلك ؟ تذكر صبغة تسمى الأورين — aurine — ترد الألومينوم أحمر براقاً ، فذرا على قطع من الحجارة كسرت لوقتها مسحوق الألومينوم ، وتركا قطعاً أخرى من غير أن تعالج بمثل ذلك ، وصبا عليها صبغة الأورين ، فالحجارة المغشاة بمسحوق الألومينوم انقلبت حمراء براقة ، وظلت الأخرى بدون تغيير ، فن تراب السليكا قد أصبح بذلك غير ضار ، لأنه طلي بالمعدن

هنا حان الوقت لتطبيق ذلك على الانسان ، وهذا يدل على أن ما يصح في تجربة المعمل قد يتفق أن لا ينجح في التطبيق على حالات الحياة التي من أجلهـا أفرغ كل الجهد . وفي هذه المرحلة انضم إلى الباحثين ثلاثة من فحول العلماء هم دكتور هـ . و . كرومبي كبير أطباء مصحة الملكة الـكسندرا في لندن بمقاطعة أونتاريو ، وهو حجة في أمراض الصدر ، ودكتور ل . بلايسديل من كبار الباثولوجيين (علماء الامراض) والآنسة ج . مكفرسون الكيميائية بنفس المعهد . وبدأوا بحوثهم في مستشفى القديسة مارية ببلدة « تيمنس » ، وانتقوا ٣٥ عاملاً وضعوا تحت العلاج بشم تراب الألومينوم ، وعدد آخر لم يعالج به ، وكلا المجموعتين من المصابين بالتجلد السليكي ، وظل الجميع يعملون في محيط تراب المناجم في أثناء التجربة

.بدأت تجربة انشاق تراب الألومينوم بخمس دقائق كل يوم ثم أطيلت المدة حتى صارت ثلاثين دقيقة ، وبعد مدة كررت فيها العملية ٢٠٠ أو ٣٠٠ مرة ، فكانت النتيجة ان سبعة منهم ظهر فيهم تحسن جلي ، واثنى عشر ظهر فيهم تحسن نسبي ، ولم يتحسن الباقون . ومن الذين لم يعالجوا ٦٥ ساءت حالهم الصحية .

وقد قرر الذين عولجوا انهم أصبحوا أطول نفساً أو انهم لا يشعرون بضيق النفس ، كما زالت آلام الصدر والشعور بالتعب ، بل زاد وزنهم ، وأصبحوا أقل تعرضاً لاصابات البرد . على ان شيئاً من وجوه هذا التحسن لم يظهر في المصابين الذين لم يعالجوا . هـذا كله وقد اعتقد الأطباء أن تراب الالومينوم انما هو مانع للتجلد السليكي ، وليس بشافٍ منه . ومن ثمَّ أقيمت حجرة الاستنشاق التي ألمعنا اليها قبل

أقوال

- الحرية شيء لا تملكه حتى تعطيه
- يعيش أكثر الناس عيش من ينتظر ان يحكم عليه بما يكتب على لوحة قبره ، لا مما يعرف عن خلقه
- إن أفضل الازواج لا يقنصون ، وانما يصنعون.
- الرجل العادي ، هو الذي يظن انه غير ذلك .

***

لقد سبقتك اليوم عيناك سبقه وأبكاك من عهد الشباب ملاعبه
فوالله ما أدري أيغلبني الهوى اذا جد جد البين أم انا غالبه
فان استطع اغلب وان يغلب الهوى فمثل الذي لاقيت يغلب صاحبه

الرماح ابن مياده

تأثير الآلات الحديثة

في حياة الفلاح المصري

من حيث الثروة والعمل

همسة في أذن وزارة الشئون الاجتماعية

تخيل دانتي انساناً وأفعى . وقف الانسان على قدميه ، وانبطحت الافعى على بطنها . ولكن انقلاباً خطيراً اصابهما . التحم ساقا الانسان واستطالا ، واندمج ذراعاه في جنبيه وانبطح على بطنه ، وانفلق ذنب الأفعى فصار ساقين ، وبرز من جنبيها ذراعان فانتصبت واقفة ، فصار الانسان افعى ، وصارت الأفعى انساناً ..

كان لبضعة اختراعات قليلة اهتدى اليها في القرن التاسع عشر ، آثار اجتماعية لم يمر بخيال أحد انها سوف تترتب على تلك المخترعات . بل إن هذه الآلات ، كما أحدثت آثاراً اجتماعية ، كذلك أحدثت آثاراً سياسية ، خضعت لها الدول ، ولا تزال خاضعة لها حتى اليوم . فالآلات أحدثت كل الحركات العمالية التي شغلت العالم قرناً ونصف قرن من الزمان ، وقوّت روح المذاهب الاشتراكية والشيوعية وما اليها ، كما كانت السبب في قيام الروح التسلطية الاستعمارية في العالم الحديث . لأن العَلَم تبع التجارة في البحار، كما قال سياسيو القرن التاسع عشر . والآلة زادت الانتاج ، وزيادة الانتاج تطلبت الأسواق ، وفتح الأسواق تطلب الجيوش والأساطيل .

ولكن تأثير الآلة لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه الى آفاق أخرى وأحدث آثاراً سوف تشكل عالم المستقبل القريب بحسب ما خلفت من ظروف وبيئات . من تلك الآثار أثران كان لهما أعمق الفعل في حياة الجماعات : الأول تأثيرها في تحوير الرأسمالية ، والثاني تأثيرها في حياة العامل . أما تأثيرها في الرأسمالية فإخراجها رؤوس الأموال من مجرد الملكية للأرض والبناء أو للأثاث إلى أموال منتجة بذاتها ، رؤوس أموال « نائمة » على ما يقول الاقتصاديون ، تخرج من يد صاحبها وترد اليه مرات عديدة في أوقات متفاوتة على حسب طبيعة ما توظف فيه من الأعمال ، فصارت بذلك أوثق ارتباطاً

بحياة الجماهير بعد أن كانت وثيقة الرابطة بصاحبها وحده، شأنها في عصور الاقطاع. ومن ناحية أن رؤوس الأموال أصبحت وثيقة الارتباط بالناس وبالعمال خاصة، نشأ الكلام في النظام الرأسمالي في العصر الحديث، ومن الكلام فيه تفرعت المذاهب الاجتماعية الحديثة، وإن شئت أن تكون أكثر تحديداً، فقل تجددت تلك المذاهب بعد أن طمس عليها عصر الظلامية الفكرية ألفاً من السنين، وبعد أن طغى عليها عسف نظام الاقطاع حتى حدود العصر الحديث. هذا من حيث أثرها في الرأسمالية. أما من حيث تأثير تلك الآلات في حياة العامل، فان الانقلاب كان أعظم. فان العامل قبيل عصر الآلات كان سيد نفسه، إذ كان يعمل تحت سلطتين: إما سلطة الأسرة وإما سلطة الطائفة. فاذا كان عمله في وسط أسرته وانتاجه له ولها، كانت الأسرة هي وحدها صاحبة السلطة العليا عليه وفائدة عمله عائدة عليه وعليها. وإذا كان عمله طائفي أو مهني فان أصحاب المهن كانوا ينتظمون طوائف كل طائفة تختص بمهنة أو صناعة خاصة تقتسم العمل وتقتسم فائدته. فلما ظهرت الآلة ظهرت معها العامل وشيدت معها المدن الصناعية، فخرج العامل من جو السيادة الذاتية إلى جو الاستعباد في ظل رأس المال والمعمل. ونسي مهارته اليدوية التي كانت رأسماله وملاذ حريته، ووقف مكتوفاً أمام آلة تسيره وتحدد عمله وتحدد أجره، وفقد إرادته أمام الآلة، وفرضت الآلة عليه إرادتها، فأصبح هو الآلة وأصبحت الآلة انساناً، أشبه شيء بأفعى ذاتي وانسانه. ومن هنا نشأت كل المشكلات التي نسميها اليوم مشكلات النظام الاقتصادي، ونشأت إلى جانبها المذاهب الاجتماعية الحديثة على اختلاف ضروبها وتباين صورها.

***

هذه هي الظروف التي حاقت بالعالم الاوربي منذ نشوء الآلة، أو بالحري الظروف التي خلعت على أوربا ثوب الانقلاب الصناعي. فهل نحن مسوقون في مثل هذه الطريق؟ نقول نعم نحن مسوقون فيها وبخطوات واسعة سوف تستعجلها هذه الحرب عندما تضع أوزارها. مساقون فيها من ناحيتين: من ناحية العامل، ومن ناحية الفلاّح. أما مشكلات العامل فقد سبقتنا اليها أوربا، ومشكلات العامل هنالك ستكون هي بعينها مشكلات العامل هنا. وتأثير رأس المال هناك، سيكون تأثيره هنا. ولكن تأثير ذلك الانقلاب في الفلاح المصري، أمر يحتاج الى شيء من التفكير وشيء من التطبيق، هو موضوع كلامنا اليوم.

نسأل أولاً: هل حدث في حياة الزارع المصري انقلاب أشبه بالانقلاب الصناعي الذي

حدث في أوربا ؟ نعم حدث ذلك الانقلاب . وبدأ منذ عصر محمد علي . ولكن خطواته كانت وئيدة ، ثم تسارعت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وزاد تسارعها في القرن العشرين .

***

عاش الفلاح المصري خلال ثلاثة الارباع الأولى من القرن التاسع عشر عيشه الذي ألفه في عصر المماليك ، وورثه عن العصور التي تقدمته. وترجع هذه الوراثة إلى العصر الاغريقي ثم إلى العصر الروماني من بعده . عاش هذه الحقبة غير شاعر بأنه يتقدم نحو انقلاب خطير بدأته سياسة محمد علي في مصر. فصار من حيث الوضع السياسي أكثر اتصالاً بأوربا فشارك في بعض حروبها وتطلع من طريق تلك السياسة الى السيادة بحريًا على الجزء الشرقي من البحر المتوسط . ومن حيث الانتاج الزراعي أصبح أكثر اتصالاً بالأسواق العالمية التي تصرف فيها أهم محصولاته وأهمها القطن . ولكن هذه الصلة بدأت صغيرة وأخذت تنمو على الأيام . هذا الانقلاب الكبير كانت له آثاره الجلي في حياة الفلاح المصري .

فان الأسر الزراعية في الزمن الأول كانت تعيش مكفية الحاجة بعملها الذاتي . تزرع قطعة من الأرض تكفيها مؤونة العيش ، وتغزل قليلاً من القطن ثم تنسجه على مناسج منزلية، وتستغل دواجنها لحاجة حياتها، وتطحن حبها في طواحين إما يديرها الهواء ، وإمّا تجرها الدواب . وكان عمل الفلاح قليلاً فان أكثر الأرض كانت بوراً وطرق الري بدائية، إذ كانت تعتمد أكثر ما تعتمد على الفيضان وحده وطرق الصرف كانت معدومة بالمرة . فكان ما يزرع من الأرض جزء ضئيل ، ولكنه كان يكفي الحاجة ويزيد عليها . كان شأن الفلاح المصري في ذلك الوقت شأن الفلاح الأوربي قبل عصر الآلات . زراعة تكفي الحاجة، وصناعة يدوية بسيطة معملها البيت وسوقها القرية .

ولكن الآلات أخذت تعمل عملها الثابت في حياة الفلاح المصري وأثرت فيه كما أثرت في حياة الفلاح الاوربي .

فان اختراع الآلة البخارية زاد سرعة الانتقال برًّا وبحراً وزادت الصلة بين مصر وجاراتها من الشمال ، وعمت مشروعات الري وتلتها مشروعات الصرف ووردت المنسوجات الأوربية رخيصة الثمن ، فقضت على المغزل والمنسج واستبدلت طواحين الهواء والدواب بالطواحين الآلية وأخذ المحراث الآلي يحل محل المحراث الذي تجره الثيران ، وسلكت السيارات الطرق ، وبالجملة قضى الحديد على جزء كبير من حياة الفلاح الأول ، وسيقضي بعد

الحرب مباشرة على الجزء الباقي منها . فما هي الآثار التي ستترتب على مثل هذا الانقلاب وما هي العدة التي أعددناها لنتوقى نتائجها ؟ .

* **

إذا وضعت الحرب أوزارها وسوق مصر جائعة والبلاد الصناعية في حاجة إلى الانتاج وتصريف ما تنتج، غمرت مصر بصنوف من البضائع أهمها الآلات الزراعية .' آلات الحرث والري والبذر وجمع القطن والطحن والحصد والدرس والتذرية . وجميع هذه الأشياء سوف توفر الأيدي العاملة في الريف بحيث يصبح الفلاح في شبه تعطل أكثر أيام السنة ، ويفقد بذلك ثمانين في المئة على الأقل مما كان يربح من أجر عمله في المزارع الكبرى وهو شيء كان على كل حال يقوم بسد جزء من حاجته . وستنشأ المعامل الكبرى حوالي بعض المدن ، فتمتص قليلاً من هذه الأيدي المتعطلة ، ولكنها مهما امتصت فسيبقى الجزء الأكبر من الأيدي متعطلاً عن العمل قليل الكسب، فينزل مستواه إلى إقل من المستوى الذي هو فيه الآن. ومن هنا تنشأ مشكلتان : مشكلة عمالية : تقوم في المدن الصناعية، وسوف يكون فيها العامل مضغوطاً من جميع نواحيه . فرأس المال يريد الربح بأقصى نسبة فينزل أجور العمال لتوفر الأيدي في الريف . ومشكلة الفلاح : الذي سيظل متعطلاً ولا يجد باباً يكسب منه أجر العمل ، وسيقتصر عمله على غيطه الصغير الذي لا يكاد يقوم الآن بأوده بعد دفع نفقات الزراعة وإيجار الأرض .

هذه هي مشكلة الريف بغير إطناب . هذه هي المشكلة التي نحن مقبلون عليها . فما هي العدة التي أعددناها لتوقي نتائجها الاجتماعية ؟

لا شك في أن رفع مستوى الفلاح له طريق واحد . طريق لا ثاني له . زد ثروته ترفع مستواه . فما هي الفائدة في أن تعرفه معنى النظافة وهو لا يجد ثمن الصابون ؟ وما هي الفائدة في أن تعلمه قواعد الصحة وهو لا يجد ثمن الدواء ؟ وقس على ذلك كل وجوه الاصلاح التي ذكرها كثير من الكتاب في أزمان وظروف متفرقة . إنها ولا شك وجوه إصلاح ضرورية ، ولكنها لن تنتج ولن تثمر أية ثمرة والفلاح في فقره المدقع الشديد . زد ثروته ترفع مستواه .

ونحن بعد مقدمون على عصر سوف تشتد فيه فاقة الفلاح . عصر ستقوم فيه الآلة مقام اليد العاملة في المصنع وفي الحقل . وسيفقد الفلاح مصدراً من مصادر رزقه : ثلاثة أرباع أجر عمله اليدوي في الحقول التي سوف يلعلع فيها صوت الآلات ، فنجر على الفلاح الفقر

والخصاصة ، فوق ما هو فيه من فقر وخصاصة . آلات سوف تجلجل في الحقول فينذر صوتها بالخراب الاجتماعي ، وإن أدت إلى زيادة الانتاج وقلة النفقات . ولكنها أرباح ليس للفلاح العامل أية فائدة منها . بل ستكون مصدر ذله واستعباده ، أكثر مما هو فيه من استعباد .

وعندي أن الحل الذي تتطلبه هذه المشكلة له وجه واحد . فالواقع أن الأيدي المتعطلة في الريف ستزيد بعد الحرب ، وكسب عمل الفلاح سيقل فينزل كسبه وايراده ، وسيحل به فقر عظيم . فاذا استطعنا أن نلجأ إلى وسيلة نتقي بها ذلك الشر كان هذا أمجد ما يقوم به أبناء هذا العصر لمستقبل مصر ، أمهم العظمى .

لكي نتقي هذا الشر ينبغي لنا أن نشيد دعائم الصناعات الزراعية في معامل صغيرة تنتشر بين القرى والضياع . صناعات تتصل بالانتاج الزراعي من جميع وجوهه . صناعات الألبان واللحوم الباردة والخضر المحفوظة وتربية الدواجن والنحل إلى غير ذلك من آلاف الصناعات التي يمكن استغلالها حتى من النفايات التي تتكدس من حول القرى وفي المدن : ويكون لنا إلى جانب هذا اسطول للنقل تام العدة يصرف هذه المصنوعات في أنحاء العالم حيث تطلب وحيث تستهلك . بذلك نجد للايدي المتعطلة عملاً يعود عليها بكسب ، ونرفع مستوى الفلاح من رجل منتج بالزراعة إلى رجل منتج بالصناعة أيضاً . هذا عمل ينبغي أن تمد له الحكومة يد المساعدة الفعالة بخبرائها ومالها . وإلاَّ فالنتيجة ما وصفنا . ولله درك باشاعر البراري إذ تقول مخاطباً هدهد سليمان :

خدمت سليمان في ملكه	وبلّغته نبأً عن سبأ
وقلت : أحط بما لم تحط	به واجترأت أمام الملأ
وحُملت منه كتاباً كريماً	فعززت بالخبر المبتدأ
فيمم أولي الأمر منا وقل	معي نبأ يا له من نبأ
حسام الحقول : وأعني به	فلاّح مصر علاه الصدأ
غذاها وجاع وصان وضاع	وأروى الضياع وقاسى الظمأ
وأمراضه فوق هذا وذاك	تناهبنه كنباح الكلا
ورث الجديدان من حوله	ولم يلق بينهما ملتجأ
فيا ليت شعري : متى يعتنى	به ويضاء له ما أنطفأ

مرسلات مع الريح

فوق الصخرة

السوداء

«ورست بنا السفينة في مرفإ خيل الينا أن ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه . عيون تلمع كأنها الاقباس تحت جباه لوحتها الشمس الحامية ، فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . أي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ »

ترنحت السفينة فوق سطح الماء ولطمها الهواء فتمايلت ، ثم استدارت شامخة بأنفها السحوق نحو السماء ، وأرسلت من جوفها ذلك العويل الطويل كأنما هي تودع اليابسة قبل أن يحتضنها اليمّ الواسع العميق ، واستقبلت مخرج ميناء « دوفر » لتدلف منه إلى الخضم الأزرق ، المترامي تحت قدميها ، فتمخر فيه باسم الله مجريها .



ومضت تبتعد عن الشاطىء شيئاً بعد شيء ، والشاطىء يغيب عنها هوناً على هون ، حتى بدا كأنه ضباب كثيف لا تستبين فيه من شيء ، الاّ قمم المطرّحات من الأبنية ورءوس المداخن ترسل دخانها الأسود كأنما هي مجموعة من البراكين الثائرة ترسل من جوفها أفاعيل طبيعية غاضبة

ولفنا الماء ، واكتنفنا الغسق ، وأخذت آلات السفينة تهدر تهدار البراكين ، تجالد اليمّ واليمُّ يجالدها ، تبج صدره بحيزومها وتضرب به بذنبها الملوي كأنها أفعى تسترق الخطو في الظلام المنسدل ، فيرد كيدها بأمواج كالجبال .

وبدت نجوم الليل ترسل بصيصها إلى ذلك العالم الأصمّ الذي كنا نجتازه ، وأخذت الشعرى تبرق وتكظم ، كالغادة اللعوب ، وبدا الفرقدان : وإذا شئت :

فاسأل الفرقدين عمن أحسّا من قبيل وآنسا من بلاد
كم أقاما على زوال نهارٍ وأنارا لمدلج في سواد

وأكل الناس وشربوا ومرحوا وأخذ الكرى يلاعب معاقد أجفانهم ، بعد أن أنهكهم الرقص وفعل بهم المرح ، وحتى للمرح متاعبه ، هذا والسفينة لا تأخذها سنة ، والبحر يقظ يغالبها وتغالبه . وكيف ينام وهو ذلك الشيء الذي استيقظ مع الخليقة ولم تغف له عين ، ولا سكنت له حركة ، ولا اضطرب له قلب ، ولا اهتزّ له جنان . فكيف به يعبأ بتلك الذرّة من الهشيم ؟ انها تداعبه ولا ريب . هي ألهية من ألهياته ، بل خطرة من خطراته . كلاّ ، بل حلم مغيّب في جوف الزمن .

وما ذلك الصّفير الأجش الذي يضرب السفينة بنبراته السريعة القوية ، فتميل ذات اليمين وذات الشمال ؟ انه ولا شك عبارات الترحاب يرسلها البحر إلى الذين ينزلون رحابه الواسعة .

وما ذلك الدوي البعيد الذي يكاد يفجر الصدور بعمقه ويخلع القلوب بروعته . تلك هي العاصفة : هي أغنية الأزل الأول .

* * *

كنا في منتصف يناير والهواء زمهرير والماء زبد يتهادى فوق قمم من الموج أشبه بالتلال المتلاحقة في صحراء شهباء ، سطع عليها قمر مريض الضوء باهت اللون . ولم يبق على ظهر السفينة انسان يحيّي هذه الطبيعة الصاخبة الغضبى ، فقد لاذ كل منهم بمنجى منها ، ولكل امرىء منهم يومئذٍ شأنٌ يغنيه .

واستدارت السفينة من حول شاطىء فرنسا الغربي ويممت نحو الجنوب وكلما أمعنت فيه انتعشت الأرواح ومرحت النفوس فقد استحال الهواء البارد المثلوج نسمات تخاطب القلب والعقل ، وأخذت ذكاء بأبهتها السماوية ، تحيينا كل صباح بأشعتها الذهبية ، وتودعنا كل مساء وهي منحدرة في جوف اليمّ الواسع مشيرة الينا بألسنة صفراء من نارها المتسعرة ، فكأنما هي في تحيتها ووداعها صديق من فقد الصديق ، في مثل عالمنا الذي كنا نقطع رحابه ، فوق ذات ألواح ودسر .

فلما كانت السفينة في نطاق دائرة الاستواء ، تغير لون الماء فاذا به أحمر قانٍ كأنه الدم المهراق في رقعة لا يحدها البصر . وكان الى جانبي عالم أخذ طريقه الى الجزء الجنوبي من كرة الأرض ليبحث طبائع بعض الأحياء في وهاد افريقية وغاباتها الموحشة . فلما أبديت دهشتي من تلك الظاهرة قال لاتدهش فالماء هو الماء ، وانما اللون من حيوانات مجهرية تتكاثر ثم تتكاثر في بعض فصول السنة ، فتصبغ البحر بهذا اللون الاحمر الارجواني . ثم انظر ألا ترى أشياء تثب من الماء ثم تغوص . إذا إقتربت سفينتنا منها فسوف تطير . هذا هو الخطاف ، وهو جنس من السمك الطيار يتخذ من زعانفه أجنحة ، فاذا أزعجها مزعج همت هاربة ، فتضرب بزعانفها الجانبية فترتفع فوق سطح الماء وتسير في الهواء مسافة ، فإذا أخذ منها الروع ، وجدت من صدر البحر مثوى وئيداً واسع الجنبات . ثم ها هي ذي الصخرة السوداء .

***

أشرفنا عليها وهي قائمة في وسط اليمّ كأنها الحلم الفزع في خيال مضطرب . وقد استطالت قممها المشرفة على البحر وراحت تتطلع إلى سماء شملها الغيم الكثيف ، فكأنما هي امرأة مهجورة تناجي السماء بآلامها المرتسمة على صفحتها المربدّة من ظلم الأيام .

ورست بنا السفينة في مرفإٍ خُيِّل الينا أن ساكنيه من عالم آخر غير العالم الذي نعرفه ، عيون تلمع كأنها الأقباس تحت جباهٍ لوحتها الشمس الحامية فكانت أشبه بنحاس علاه الصدأ . اي عالم جرتنا اليه هذه السفينة ؟ ولكن السفينة لا بد من أن تتزود ، فألقت مراسيها على الصخرة السوداء ، يوماً وليلة .

وحملنا حب الاستطلاع على النزول إلى البرّ ، واخذنا نضرب في نواحي المدينة حتى ألقينا عصا النوى في مكان هو مجتمع الادلاء ، فقال أحدهم : أأدلكم على الكوخ الأثري ؟ قلنا وما هو ؟ قال كوخ فيه كتاب سطوره الحياة ، وسطور الحياة كلها مكتوبة على صفحة واحدة خطتها يد القدر . فسأله أحدنا أورقة تعني ؟ قال نعم .

ووقفنا أمام الكوخ الأثري فاذا به حظيرة بها جياد لحامية تلك الصخرة السوداء . رأينا الجياد . ولكن لم نر الكتاب ولا الصفحة التي خطتها يد القدر . قال لا تعجلوا ، فهنا في هذه الحجرة نزل ضيف جاء من وراء البحار ، وظل بها سنين ، فلما مات اتخذ الكوخ حظيرة للجياد .

ولكن هذه الحجرة قد تركت مغلقة احتراماً لذكرى ذلك الضيف . وأنتم ترون كيف

عنى بها . فتلك الحشائش النابتة من خلال الجدران ، ومن بين الشقوق التي تتخلل الأرض، دليل على أن أصحاب الأمر هنا لم ينتهكوا حرمتها . وفي هذا القمطر ورقة مكتوبة هي طلبتكم : وأخذنا ننظر في الورقة التي خطتها يد القدر .

« في تسعة الأيام الأخيرة من حياته ظلّ هاذياً وفي غيبوبة . كانت الحركة تؤلمه ، وحتى اللمس كان يؤذيه . وفي اليوم الخامس من مايو تلفظ ببضع كلمات غير مستبانة، ولكن رفيقه « مونتولون » ظن أنه يقول « فرنسا — الجيش — رأس الجيش » .

« وما إن تحرك لسانه بهذه الالفاظ حتى وثب من فراشه ثائراً وجذب معهُ «مونتولون» الذي حاول أن ينيبه إلى الرشد ، فانطرحا معاً على الأرض . كان ذلك آخر جهد بذلته ارادة لا ترد وقوة لا تقهر ».

«وبعد صراع، استطاع مونتولون أن يرجعه إلى الفراش مستعيناً بزميله «أرشمبو».وظلّ المريض في فراشه ساكناً حتى كانت الساعة السادسة من المساء، فبذل آخر أنفاسه.كانت عاصفة هوجاء ترسل بأهازيجها الصاخبة في خارج الكوخ ، الذي أخذ يهتز من شدتها كما لو كانت زلزالاً صارماً انتفضت منه الأرض . ها هي ذي العاصفة تقتلع شجرة الصفصاف التي كان يجلس اليها ذلك الخالد الفاني . وإذ كانت العاصفة تقتلع تلك الشجرة التي تفيأها الضيف الراحل، كان «مرشان» ، أحد رجاله، يسجيه بالعباءة التي كان يلتفع بها قاهر الجيوش في موقعة مارنجو » .

* * *

يا لك من صخرة سوداء ! أنت يا جزيرة القديسة هيلانة . ويا لكَ من رجل ! أنت يا ابن فرنسا ! أنتَ يا نابوليون !

* * *

قبره الآن في باريس ، ولله در « البكري » إذ يقول :

« وقفت بقبر نابوليون أمس ، أحدث النفس ، عما في ذلك الرمس ، فإذا سكون بعد صولة ، وقبر في جوفه دولة ، وصولجان كرته الأرض ، أضحى مخراق لاعب ، وسرير كان عليه البسط والقبض ، أمسى ملتقى ناعٍ وناعب .

الكهرباء
وتشخيص الامراض

طرق ثابتة لا تكذبك ولا تضلك

اذا أخذت بضع نقط من دم حي ما، ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس، ونشرت المزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر ، حصلت على التبلور . فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح ، فان البلورات تأخذ شكلا خاصاً . وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي يتكيف

كان طبيب الريف في الزمن الماضي يعتمد في استجلاء المرض على حواسه الخمس غالباً ، على سمعه وبصره وشمه ولمسه وذوقه . ولقد جرى في ذلك على سنّة اتبعت ومرج ردم . أما طبيب العصر الحديث فسلاحه التشخيصيّ علمان : الطبيعة والكيمياء .

أمضى دكتور «هرولد سكستون بار» من مدرسة الطب في جامعة «ييل» ، سنين منصرفاً إلى دراسة الظاهرات الكهربية في الجسم البشري ، وانتهى به الأمر إلى تركيب آلة تقيس التغييرات الكهربيـة في الجسم ، حتى إذا ضؤلت فلم تتجاوز خمساً على مليون من الفولت الكهربي .

وبهذه الآلة استطاع أن يستشف ويسجل ظاهرة تكوّن البييضات في الارانب والسنانير والنساء ، وتكوين أفراخ الدجاج والسمندل وهي في البيض ، والفروق بين الفئران التي قدّر لها أن تصاب بنمو سرطاني والفئران التي سوف لا تصاب به البتة . فلكل مرض من الأمراض دلالته الكهربية الخاصة ، حتى قبل وجود علامات ظاهرة تنم عنه .

وقد مضى الآن عشرون سنة منذ بدأ دكتور « إهرنفريد فيفر » العالم السويسري ، يدرس بلورات الدم وعلاقتها بالمرض . فالتبلور كما هو معروف ، عبارة عن ظاهرة تحصل عندما تتجمع جزيئات مادة ما ، على نسق خاص . فاذا اتسقت أخذت اشكالاً هندسية يكون بعضها ظاهراً للعين المجردة .

فاذا أخذت بضع نقط من الدم من حي مّـا ، ومزجتها بمحلول من كلوريد النحاس ، ونشرت المزيج على شريحة من زجاج وتركتها تتبخر ، حصلت على التبلور . فاذا كان الدم مأخوذاً من حيوان صحيح ، فان البلورات تأخذ شكلاً خاصًّـا . وإذا كان مريضاً فبناء البلورات السوي يتكيف . فثال من التنسيق البلوري يدل على فقر الدم، وآخر على السرطان، وثالث على السل ، وهكذا .

وكل مادة تتبلور في صورة محدودة بينة تنم عن حقيقتها . وقد كشف دكتور « فيفر » عن أن هذه البلورات عالية الحساسية ، حتى ان إضافة نقطة من سائل غريب تحدث تحويراً عظيماً في شكلها . وبعد آلاف من التجارب سهل عليه أن يستنتج نتائج في خصائص المواد التي تحدث تلك التحويرات .

واشترك دكتور « بجوين » من جامعة الطبِّ في « بوردو » مع دكتور « فيفر » في درس خصائص بلورات الامراض ، وكتب تقريراً عن النتائج إلى أكاديمي العـلوم الطبية في فرنسا . ولقد وصل دكتور « بجوين » بهـذه الطريقة إلى نتائج ذات بال . فمن مجرد فحص بلورات الدم صحَّ تشخيصه في ٣٠ حالة من ٣١ حالة سرطانية ، وكانت الحالة الواحـدة والثلاثون حالة سرطان مصحوب بزهري، واصطحاب المرضين أعطى مثالاً آخر من البلورات . ومن تسع حالات سل شخص دكتور بجوين ثماني حالات تشخيصاً تامًّـا . والحالة التاسعة كانت مصحوبة بالتهاب الخُشاء — Mastoid — والتهاب سحـائي ، فحورت البلورات وضللت الطبيب .

وطريقة دكتور « بجوين وفيفر » في بحث البلورات ودلالتها على الامراض غير معروفة بدقة خارج فرنسا . بيد أنها طريقـة ما فتئت في طور التجربة . فان امراضاً كثيرة ما تزال تحت الدرس والتبويب بهذه الطريقة . على أن المستقبل يدل على إمكان الاهتـداء إلى نتائج فذّة باهرة .

وتصوير انسان العين معناهُ درس حركاته وتفسير دلالاتهـا في مختلف الأمراض . فإن عدداً عظيماً من الأطبـاء قد أيقنوا بأن انسان العين يسلك سلوكاً خاصًّا يختلف باختلاف الأمراض التي تصيب الجسم ، وبخاصـة الأمراض التي تصيب الدماغ (المخ) والأعصـاب . ولـكن حركات انسان العين هي حركات سريعة يتعذر تتبعها . فاذا أريد تتبعها بالعين المجردة ، فمثل هذا الفحص يقود الى نتائج تتوقف صحتها في أكثر الأمر على خصائص الفاحص الذاتية .

ومنذ خمسة عشر عاماً عمل دكتور « أوتولونتال » من جامعة « بون » بألمانيـا على

تذليل هذه الصعوبة . فصمم على نقل ارتكاسات انسان العين على رق مصوَّر، وبذلك يمكن الوصول الى نتائج لا تحتمل الشك . وقامت أمامه عقبة . فان تصوير انسان العين بتلك الطريقة يحتاج الى ضوء شديد وقت التصوير من غير أن ينقبض انسان العين والضوء واقع عليه . وبعد مشاق استطاع أن يملك جهازاً يستعمل فيه أشعة الضوء دون الأحمر التي تسجَّل على رقوق للتصوير الضوئي ، وهي أشعة لا تكشفها العين، فلا يكون لها تأثير على انسانها .

ومن المعروف ان انسان العين يتكيَّف متغيراً بحسب الحالات الانفعالية . والانعكاسات التي تصيبه تتوقف على حال الأعصاب التي تحكم العضلات فتفتح انسان العين أو تقبضه . فاذا لم تقم هذه الأعصاب بوظيفتها خير قيام نتيجة لكبر السن أو الامعان في شرب الخمور أو استعمال العقاقير أو وجود مرض عضوي كالزهري ، فان سلوك انسان العين في تلك الحالات وأمثالها يختلف عن سلوكه في الأفراد الأسوياء . ولما كانت أناسيّ العيون غاية في الحساسية وتعكس تأثيرات الأمراض العصبية منذ بداياتها الأولى ، فان ذلك يساعد ولا شبهة على التشخيص وسرعة العلاج الناجع الذي يكون فيه لعنصر الزمن أثرٌ هامٌّ جدًّا .

يوضع المريض تحت تأثير منبهات متفرقة — كاطلاق قذيفة بندقية أو مفاجأته بشعاع قوي لا يتوقعه — وتؤخذ صورة لارتكاسات انسان عينه . وتؤخذ الرقوق المسجلة من المصوّرة وتستظهر . وإنك لتعجب إذ ترى أن هذه المسجلات تفصح لك عن حالة أعصاب المريض بمثل الجلاء الذي تظهرك به الأشعة السينية على أعضائه الداخلة .

وتصوير إنسان العين يمكن الأطباء من تشخيص الاضطرابات العصبية وتقييم خطورتها فيرسمون بذلك خطة العلاج والشفاء . ولكن لوحظ أن المريض لا يكون قد شفي تماماً إذا عادت حركات انسان عينه إلى حالتها السوية . ولهذا تابع دكتور « لونتال » بحوثه في سويسرا، مقتنعاً بأن تصوير انسان العين سيكون له أثر بارز في القضاء على الأمراض العقلية

إذا وضع لوح من الزجاج يحتوي على أوكسيد النيكل أمام شعاع فوق بنفسجي ، حدث ضوء إلى السواد . فاذا بحثت أشياء ما تحت ذلك الضوء الأسود السحري ، فانها تعرب عن خصائص لا يفصح عنها الضوء العادي .

ولقد طرأ لدكتور «أوتو رتش» من جامعة ليبزج فكرة أخذ عينات من الدم البشري يحفظها في أنابيب حتى تترسب كريات الدم الحمر في قاعها، ثم يفحص عن المصل الرائق الأصفر الذي يكون في عنق تلك الانابيب تحت ذلك الضوء الأسود . فلما عرّض المصل إلى ذلك الضوء الأسود المنبعث من الشعاع فوق البنفسجي ، ظهرت فيه ألوان مختلفة ، متدرجة في ظلال من

الأصفر المخضر الى الأخضر الزيتوني إلى الأزرق الزبرجدي أو الأزرق المبيض أو اللون الأرجواني ، وبعضها شفاف ، والبعض الآخر بمثل كثافة اللبن .

***

كانت المشكلة الثانية هي : كيف تقرأ بدقة تلك الرسائل التي يسجلها دستور تلك الألوان المختلفة العجيبة ؟ حُلَّ كل مصل على حدة ونقي من كل مايحتمل أن يكون فيه من القصيات (bacteria) الشفافة بتعقيمه تعقيماً تامًّا . وهنا حلت المعضلة، عند ما ظهر للباحثين الفرق الجلي بين المصل المستخلص من دم أشخاص أصحاء والمصل المستخلص من أشخاص مرضى .

أما الانبثاقات اللونية التي ظهرت عن مصل أبدان صحيحة ، فكان في كل حالة من الحالات عبارة عن لون خفيف باهت أو أخضر زيتوني إلى الكمدة . في حين أن مصل الأبدان المرضى أعطى ضوءاً ظاهر اللون ، فكان ذلك برهان قوي على أن للمرض تغييراً في الدم يظهر تحت فعل الأشعة فوق البنفسجية . فلما أظهرت البحوث التالية أن مصل ذوي السل له لون خاص ، ومصل ذوي السرطان لون آخر ، وذوو تصلب الشرايين لون ثالث ، استنتج أن الأمراض المختلفة يمكن تعيينها من طريق الألوان التي تعطيها الامصال المتفرقة ، إذا عولجت بالضوء الأسود .

وعلى الرغم من أن هناك خفايا أخرى ينبغي الوصول اليها، وأن الأمراض لم تبوَّب كلها بحسب الألوان المنبعثة عن أمصال الدم ، فان تحسيناً بيناً في دقة الجهاز المستعمل في ذلك البحث ، قد أعان الأطباء على أن يعرفوا أن الانبثاق اللوني في بعض الأمراض يتضمن خطوطاً تكون مفقودة في غيرها .

وتقدم دكتور « هاجان » من جامعة كولوني خطوة أخرى في تحسين هذه الوسيلة . فهنالك قُصَيات (bacteria) خاصة وجراثيم أخرى صغيرة جهد الصغر، حتى لا تكشفها المجاهر العادية . وهذه تدعى الترشحات (Viruses) وتحدث أمراضاً مثل مرض البغاء والحصبة والحمى الصفراء . فاذا نظر في هذه الترشحات من خلال الضوء الأسود ، فانها تعطي ألواناً شفافة . وهذا البحث ما يزال في بداياته ، وقد يحدث في المستقبل أن يمكن الكشف عن هذه العضويات من طريق تلك الألوان النوعية ، التي تنعكس منها تحت تأثير الضوء الأسود .

قمة الدنيا

إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها



« سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية . ستشعر بأنك منكور من كل انسان . ستخان . سيخيل اليك انه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن سوف يمضي . ستعطى أكثر مما أملت و تصورت. ستكون رجلا عظيما، في يديك قوة ، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف . هذا ما سطر »

ألم تشعر يوماً بأنك تتوقع حدوث شيء لا تعلم ما هو ولا ما هي علاقتك به ؟ ألم تفعل شيئاً مجبراً ولا تعلم لماذا فعلته ، فردَّ عنك عادية أو وجهك توجيهاً ترضاه ؟ نعم قد اتفق مثل ذلك للكثيرين منا ، واتفق أكثر منه للقلائل من الذين أحاطت بهم ظروف بلغت من اليأس حد التسليم بالقدر المقدور . ولا شك عندي في أن لتلك المنزلة التي قال بها بعض المتصوفين وسموها حالة الكَشْف ، حقيقة ترجع اليها في الطبيعة الانسانية. وليست هي من الأشياء التي يبحثها العلم بطرقه المعروفة ، وهي طرق تعتمد أول شيء على الحواس ، وإنما هي أشياء ترجع إلى ما سماه الفلاسفة « عالم المجهول » . فالعلم لم يصل إلى كل شيء ، ولا يدعي القدرة على الوصول إلى كل شيء . ولكن « عالم المجهول » درجات تبدأ من حقيقة علمية بسيطة أو قانون كيمياوي أو طبيعي يكون تحت يدنا ويغيب عنا كشفه، إلى الظاهرات الفذة التي لا يعللها العلم ولا يحللها العقل، الاَّ بطريق واحد، طريق الاعتراف بالعجز إزاءها

هذه حادثة واقعية نرويها وسنذكر مصدرها وشخصيها ، ولا يزالان معنا وفي عصرنا. نطلب لها تعليلاً ممن يستطيع أن يعللها ، على أن لا ترد إلى «المجهول» ، الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل .

***

كانا في الصحراء . في جوف الصحراء الواسعة المترامية الأطراف . سيد وسيدة ، كلاهما تلقى العلم في أرقى الجامعات ، وكلاهما يعرف أن الصحراء غول لا صديق له . نفد الماء

وعلف الدواب ، ومعهما رجال من الأدلاء والحراس، والعمران قصي بعيد ، والاتجاه في أيّ متجه من غير علم به ، معناه الموت المحقق في جوف الرمال . وكانا يبحثان عن واحة مجهولة قطعا اليها طريقاً غير مسلوك . نزل بهما الهم وأخذ منهما ومن رجالها القنوط ، ، فأنيخت الابل وحلّت القافلة في ذلك القفر لا مؤنس لها إلاّ الاعتقاد بأن الارادة السرمدية نافذة فيهم لا محالة : فإما طريق إلى الدنيا ، وإما طريق إلى الآخرة .

حلم السيد حلماً، وهو بعد ممن لم يعكفوا على التصوف يوماً واحداً من أيام حياتهم. حلم بامرأة بيضاء أو إنها تلبس البياض ، لم يستطع أن يصفها ، ولكنها تنبأت بما سوف يقع ، وتكلمت ولكن بلغة الرموز . ولكن هذا الحلم قد اتخذ أول الأمر موضع تسلية ومحل سخرية . ولكن السيد أكد أن ما رأى ليس حلماً . لقد كان أكثر من حلم . إنها رؤيا تكاد تكون في يقظة غير تامة ، في صحوة عقل مضطرب من هول الموقف .

وقفت تلك المرأة التي تراءت له إلى جانبه في الصحراء بقربة من محط الرحال . وكان يرى خيالها على الأرض في ضوء النجوم ، ورأى آثار قدميها في الرمال ، قالت له — « لا تنزعج ، سوف تصل ...... ولكن عليك أن تقتحم ثلاثة حوائط قبل أن تصل . وقبيل النهاية ستضطر إلى تغيير طريق سيرك لتتقي بذلك أجساماً ميتة »

في الصباح جلس السيد والسيدة يناقشان في هذه الرؤيا . ولكنهما لم يشكّا هذه المرة في حقيقة الامر ، وعللا الحوائط بعقبات سوف تصادفهما ، عقبات انسانية أو طبيعية ، سوف يجتازانها، وعلّلا الاجسام الميتة بموقعة تحصل .

في خلال الاسابيع التي تلت تلك الرؤيا ، أحيط بهم ثلاث مرات . أحاط بهم بدو معادون . وسجنوا في الخيام هما ورجالها ، والبدو من حولهم يناقشون في قتلهم ، وطريقة القتل . وظلاّ على ذلك حتى أدركهم من أنقذهم .

فلما كان آخر يوم في رحلتهم بين الكثبان المتموجة، اضطروا إلى الدوران حول وادٍ عميق فيه جثث أموات لصقت عضلاتهم الصفر بعظامهم. جثث آدميين ودواب. هذه قافلة قتلها العطش.

رأى السيد بعد ذلك رؤيا ثانية . ففي جوف تلك الصحراء المجرودة الصماء التي لم تخترقها قافلة من قبل ، رأى تلك المرأة في ثوب أبيض مقبلة نحوه من خلال الرمال الواسعة : وقالت له : « خذ السلسلة التي تعلقها في عنقك وتعال معي إلى قمة هذا الكثيب . ثم أدفنها هنالك. وفي الصباح ، إذا حضرت لتأخذها ، سوف ترى آثار قدميك وقدمي معاً . وبذلك تعرف أنك لم تكن في حلم » .

فعل السيد كما أمر، فلما انحدرا من فوق الكثيب قالت له المرأة: «سوف تقاسي آلاماً وتلقى كروباً عقلية. ستشعر بأنك منكور من كل انسان. ستخان. سيخيل اليك إنه لم يبق لك من شيء في هذه الحياة. ولكن كل هذا الحزن، سوف يمضي. ستعطى أكثر مما أملت أو تصورت. ستكون رجلاً عظيماً، في يديك قوة، ويحف بك الغنى والشرف. لا تخف. هذا ما سُطِّر».

فسألها السيد: وما بال السيدة التي معي؟ ماذا سيحل بها»

وفي اليوم التالي قصَّ السيد على رفيقته كيف أن الصوت الذي كان يخاطبه قد تلعثم وارتبك، فأصبح أقرب إلى البشرية، وتفوّه بكلمات تخللها توقف وتفكير: هذه معانيها — «لا أعرف شيئاً عنها. إنها ليست من ملتنا. ولا أعرف لماذا ..... ولكنها سوف تنجو في كل الظروف. هذا محقق. سيحيط بها خطر عظيم، ولكن لا يصيبها شيء. سيحل بها حزن ويأس، ولكنها ستنجو دائماً. ليس في يدها دفع شيء. ليس ذلك في طوق ارادتها. ستسلك طرقاً عجيبة، قد تؤدي إلى الموت — ولكن ليس من نصيبها أن تموت في ذلك. هذا ما كتب. سوف تنجو».

عند ما ظهر الفجر الكاذب خيطاً أبيض الاهاب باهت اللون فويق الأفق، مبشراً باقتراب الشمس من البزوغ على رمال الصحراء المترامية، اصطحب السيد رفيقته، وأراها آثار أقدامه ذاهبة إلى أعلا الكثيب، ثم هابطة منه، وإلى جانبها آثار ظاهرة جلية متجانسة الخطو. كانت آثار قدمين عاريتين، ضغطتا على الرمل ضغطاً خفيفاً ليناً، والنسمات من ورائها تسفي عليها الرمال الناعمة.

نظرا إلى هذه الآثار في صمت عميق. وفي صمت أبلغ احتفرا السلسلة من حيث قال السيد. أما آثار القدمين العاريتين فانحدرت نحو الصحراء العريضة المغيبة الاسرار. هنالك كانا على بُعد بضعة مئات من الأميال عن كل مكان مأهول.

***

أما السيد فهو أحمد محمد حسنين باشا. وأما السيدة فالمؤلفة الجوالة روزيتا فوربس. وأما الرواية ففي كتابها Gypsy of the Sun — في الصفحات ٤٥ و٤٦ و ٤٧ طبعة Cassel.

***

ألا يحق لنا أن نعتقد ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيغزو العالم المجهول، من غير أن يدرك كيف غزاه؟

عرف العرب اميركة

قبل أن يعرفها أبناء الغرب[1]

كان العرب منذ أقدم الأزمنة ، وقبل المسيح بكثير ، يختلفون الى جزر واقعة في جنوب غربي بريطانية العظمى . تلكم الجزر التي كان يسميها اليونانيون يومئذٍ (جزر القصدير) ، وبلسانهم Kasseterides ومنه اسم القـلعي عندنا أي القصدير المعروف باسم منجمه .

وذهاب أبناء قحطان الى تلكم الربوع النائية يدل على أمور جمة :

منها : انهم كانوا يتقنون الملاحة إتقاناً عجيباً ، بدليل ما ذهبوا إليه من البلدان الشاسعة

ومنها : أنهم كانوا يبرعون في بناية السفن ، باحكام عظيم ، لتتمكن من مصارعة أهوال البحار والمحيطات ، ولكي لا تتصدع ولا تنفسخ ، ومن ثمَّ لا تغرق .

ومنها : انهم كانوا بارعين في الهندسة ، حتى إنهم تمكنوا من نشر الجواري المنشآت نشراً متساوي الجوانب والأحناء والأجزاء ، حتى لا تمزقها اللجج المتلاطمة ولا يزيد فيها جزء على جزء ، فيثقل جانب ويخف آخر ، فيمتنع التوازن والتساوي فتعطب تلكم المواخر في اليمّ .

فكان هؤلاء السلف الأبطال ، الأنجاب ، الأنجاد ، يذهبون الى تلكم الربوع الأقاصي ، كأن قلوبهم قدّت من جلمود ، وانتزعت أفئدتهم من الأعبل والصوان . فكانوا اذا بلغوا تلكم الأصقاع ، يستخرجون منها القصدير أي القَلْعي الذي نسميه نحن « القلاي » في هذا العهد ، ثم ينقلونه إلى ديارهم العامرة على تلكم المواخر ، فيبيعونه بأثمان باهظة ، لأنهم كانوا يتخذون منه ما يقوي التِّـرَسَـة .

هذا وتجارة العرب ، معروفة ومشهورة منذ القدم والأزمنة الواغلة في الماضي ، وبيع إخوة يوسف شقيقهم لبني إسماعيل أشهر من أن يذكر ، وذلك قبل الميلاد بأكثر من ألفي سنة

---

(١) خطبة القاها الاب انستاس ماري الكرملي في قاعة فيصل الثاني في بغداد في ٦ كانون الاول (دسمبر) ١٩٤٤

وقد تعلّمَ بعض النـاس من العرب ، استخراج القصدير من تلك الجزر فنأثروهم في صناعتهم وتجارتهم . فكان فيهم الفنيقيون والقرطاجنيون . والرومان ، واليونان ، وغيرهم . ذكر كل ذلك هيرودوتس أبو التاريخ في ٣ : ١١٥ ، واسترابون في الباب ٢ في الفصل ١١

أمّا ما اسم تلكم الجزر في عهدنا هذا فيظن الحذاق جميعهم انها المسماة Iles Sorlingues وبالانكليزية Scilly islands وهي واقعة في خليج المانش على ساحل كونتية كورنوايل ، Cornwall وهذا دليل على ان صداقتنا للانكليز من أعرق جميع الصداقات .

بسطت لديكم الدليل الأول ، نقلاً عن هيرودونس أبي التاريخ ، المتوفى في المائة الخامسة قبل الميلاد ، وعن استرابون ، المتوفى في الأيام الاخيرة ، من عهد طيباريوس قيصر ، أي في نأناة النصرانية . والآن أذكر لكم الدليل الثاني ، وهو : يرى المفكرون البصراء من أهل البحث في هذا العصر ، أن أبناء العروبة ، عرفوا التيار المشهور في هـذا العهد بالاسم الانكليزي Gulf Stream أي تيار الخليج ، وهو تيار عظيم ينساب في المحيط الاتلانتي ، الذي يسميه ابن خلدون : (المحيط اللبلابي) وينشأ من خليج المكسيك ، ماراً بقناة بهاما ، ثم يلاعب سواحل أميركة الجنوبيـة ، ويسايرها إلى الدرجة ٤٠° من العرض الشمالي ، ثم ينحدر إلى جنوب الجنوب الشرقي .

ويذهب أمير موناكو البحّـار الشهير ، والبحاثة الخطير ، إلى أن سواحل أوربة ، تتدفق على وجهها بسط من المياه هي غير مياه تيّـار الخليـج ، اللهمَّ إلاّ القليل النزر منها الذي لا يلتفت اليه . هذا وتبقى مجاري هـذا التيار دافئة . فتكسر شيئاً من بُرد إرلندة ، لأن تلكم المياه تبلغها ، كما تصل إلى انكلترة ونروج .

وهذا التيار نفسه يفيض على بحار أوربة ، كما يفيض عليها أيضاً تيارات رَنّـل Rennell وخليج غسكونية ، ويستدل على هذا التيار بحرارة مياهه ، إذ قد تبلغ ٣٠° درجة مئوية فوق الصفر ، في أول اندفاعها . ومن علائمه أيضاً لون مياهه الزرق ، وملوحتها البليغة — وأول من عرف أمور هذا التيار بُنْـص دي لاون Ponce de Léon في المائة الـ ١٦ ، ثم درسها حاق الدرسَ موري Maury في زماننا هـذا ، ثم أمير موناكو البحّـار البحاثة الذائع الصيت .

وسبق العرب سائر الأمم إلى معرفة هذا التيار وخواصه ، وإلى حركته من المكسيك الى أرلندة ، ومن هذه الى تلك ، فكانوا يركبونه من موضع إلى موطن ، بحيث كانوا يدهشون سكان جزر المانش ، أي جزر القصدير ، وأهـالي جزيرة ارلندة . فكانوا إذا

فامنوا الى أنحاء المكسيك ، مكث بعضهم فيها ، وعاد القليلون منهم إلى بلادهم . راكبين متن ذلك التيار المبارك ، مسبحين ربهم ، مباركين مسلمهم .

ونعرف أنهم كانوا يقيمون في الديار التي عرفت بعد ذلك بالمكسيك ، من أسماء الحيوانات التي سموها بها ، وهي أسام تعرف بها الى اليوم ، لكن لا يفقه أهلها معانيها ، ولا علماء الغرب الذين اتخذوها هم أيضاً محافظين عليها محافظتهم على حياتهم ، فقد أعيت لغوييهم على اختلاف قومياتهم ، حتى المعاصرين من أجلة لغوييهم ، فاذا جاءوا إلى ذكر أصول تلكم الحروف ، قالوا : « هكذا في لغة أهل تلك الارجاء » ولا يذهبون الى أبعد من هذا النقل الضعيف ، الذي لا يقنع صغيرهم فضلاً عن كبيرهم .

ولو كانوا واقفين على تاريخ نشأة بني يعرب ونزولهم في تلك الربوع ، بل وصولهم إلى أقصى الخافقين ، واطلاعهم على أسرار لغتهم البديعة المبينة ؛ لاهتدوا إلى حل العقد ، وحل المعضل ، ولشكروا السلف الصالح ، على ما اوتوا من الحكمة ، وكشف الأسرار ، ووصف الغوامض وصفاً دقيقاً ، بتلك الحروف الخفيفة النقل .

هذا ، والألفاظ العلمية ، الموضوعة في علم الحيوان ، والطير ، والسمك ، والحشرات جمة لا تحصى . على أن ما لا يدرك كله ، لا يترك جله . وأنا أتلو على أسماعكم شيئاً نذراً من هذا القبيل ، لكي لا يرميني بعض الحاضرين ، بالتعصب الأعمى ، إذ كثيراً ما سمعت من بعض الذين يدرسون لغة الأجانب ، ولا يعرفون فتيلا من لغة الأعراب : « أنك يا هذا أعمى العينين ، بل أنت أكمه ، لم تر في حياتك النور البتة ، ولا يمكنك أن تراه ، فكيف تحبب لنا شيئاً لم تره ، ولم تعرفه » .

فكان هذا الكلام يضحكني ولا يزعزعني ، بل يثبتني في رأيي ومعتقدي .

وأما بعض هذه الألفاظ فمنها : التمساح المسمى عندهم Alligator فانهم لم يعرفوا من أي لغة هي ، إنما يقولون إنها بلسان البلاد التي يعيش فيها . ولم يزيدوا على هذا القدر . أما أنها من لغتنا المضرية ، فما لا شك فيه ، لوجود العمامة والكوفية في رأسها ، أي الألف واللام ، وهي العمرة التي يمتاز بها القحطاني دون غيره . فهي (القاطور) المشتقة من قطره أي صرعه . وذلك أن هذا التمساح يصرع عدوه صرعاً شديداً ، يورده حياض الموت ! فهل من منكر معاند بعد هذا ؟

ومن أسمائه قيمان Caiman وتكتب أيضاً Cayman وأصلها قرمان ، من قرم الشيء بأسنانه اي قطعه ، وهذا التمساح حاد الأسنان ، يقطع عدوه نصفين ، إذا ما تناوله بها .

لكن كيف قلبت الراء ياء ؟ فهذا ما يفهمنا اياه الجاحظ هذا اللغوي العظيم . فقد قال في كتابه البيان والتبيين (١٧:١ من الطبعة الاولى المصرية : «منهم (أي من العرب) من إذا أراد أن يقول عمرو . قال : عمي ، فيجعل الراء ياء » ومن الأسف أن الجاحظ لم يذكر لنا اسم القبيلة التي كانت تلفظ هذا اللفظ أو تقلب الراء ياء ، لعلمنا اسم القبيلة التي نزلت في تلك الأرجاء النائية .

ولو اتسع لي الوقت — والوقت أضيق من سم الخياط ، — لذكرت لكم مئات من الألفاظ ، إلاّ أني أحاول مسابقة الزمن ، لئلاّ تفوتني الفرصة التي أريد أن أبين فيها : أن الإرلنديين لما رأوا العرب يأتون إلى ديارهم ، ثم يركبون متن تيار الخليج ، عرفوا أن في أقاصي البحر الاتلانتي ، بلاداً مأهولة ، وسكاناً متوحشين ، لا يعرفون من دين النصرانية شيئاً يذكر .

وأول من انتبه لهذا الأمر ، راهب اسمه Brendan برندان ، السائح البحّار ، المولود في فَنْتْ Fent من كونتية كَرّي Kerry سنة ٤٨٣ م . وهو من أصل شريف ، يرتقي إلى ملك ارلندة ، الذي رقي الكرسي في المائة الأولى للمسيح . وقد أولع منذ حداثته بركوب الأخطار ، وبما هناك من غرائب الأقطار ، فعزم على ارتياد المحيط الاتلانتي ، ومشاهدة ما وراءه من البر العظيم المجهول

ففي عام ٥٤٥ م ، تهيأ لتحقيق ما يختلج في صدره من الأماني ، مع أربعة عشر راهباً ، من مقتحمي الأهوال ، فابتنوا مركباً كبيراً ليستكشفوا ما هنالك ، ثم أخذوا معهم ، زاداً ، وماءً ، وأدواتٍ شتى ، لهذه الغاية — وفي مدة ١٢ يوماً سايرتهم الريح ، ثم هدأت ، وبقوا شهراً واحداً يقذفون بالمقاذيف ، وكانت الأراييح تسالمهم مرة ، وتخالفهم مرة أخرى ، وفي الآخر ، تراءت لهم أرض كانت جزيرة ، والمظنون أنها كانت إسلندة التي معناها جزيرة الجمد ، لأنها كانت في شمالي ما رأوه . فرسوا عندها ، ومكثوا فيها ثلاثة أيام .

كان كلنبس يعرف هذه الرحلة

وفي السبعة الأعوام الأخيرة ، بحثوا عن الأرض المطلوبة المنشودة ، فسافروا إلى أسفل الهند الجنوبية من المحيط الاتلانتي ، وزاروا في جملة ما زاروا من الجزائر ، تلكم المسماة بالخالدات عند العرب . أي الكناري عند الغربيين ، ثم كلاًّ من تناريف Teneriffe وهيارو Hiero ولا يزال يروي أهالي تلكم الارجاء مرور البحارة الارلندية ، بتلكم المواطن . وفي تناريف ترى اليوم هيكل على اسم ذلكم القديس أي برندان . وأما جزيرة هيارو ، فاسمه بقي فيها محفوظاً في شجرة غار ضخمة قديمة من ذلكم العهد العهيد إلى يومنا .

وفي سنة ٥٥٢ ، نزل برندان ورفقاؤه على ساحل أميركة . ويرى في مخطوط عتيق ، وصف وجيز لما رأوه في تلك الديار . وللنهر العظيم الذي يجري فيها . ويظن إنه المسيسبي .

ولما عاد برندان من رحلته إلى وطنه ، حفظت روايتها في كتاب لاتيني العبارة ، وكان دوّنها أحد معاصريه، ونسخ منها عدة نسخ . وأنفذت إلى أرجاء أوربة المختلفة ، وكان بثها الرسلون الارلنديون . — ويرى منها نسخة في خزانة الفاتيكان إلى يومنا هذا . وقد قال أحد الثقات من جهابذة النقدة : إنها كتبت في المائة التاسعة . — وفي الخزانة الوطنية في باريس ، إحدى عشرة نسخة خطية ، تروي رحلة برندان المذكور .

وبعد سفرة برندان ، ترى عدة أدلة على أن رهباناً ارلنديين آخرين ، ركبوا المحيط الاتلانتي بعد ذلك ، وكانوا على سفن ضعيفة ، ليقوموا بواجبات الرسلين في العالم الحديث وذلك في المائة الثامنة . وكانت تمتد أعمالهم من ساحل جون شيساپيك في أسفله ، إلى أدنى كارولينة وفلوريدة . وقد عرف تلك الأرجاء كلها عدد وافر من الارلنديين .

ولا جرم ، أن كلنبس كان واقفاً أتم الوقوف على خبر رحلة برندان ، فتمكن من أن يقنع الملك فرديننْد ، والملكة ايزابلّة ، بأن يوافقا على هذه الرحلة . للبحث عن العالم الجديد فقنعا في الآخر، وكل ذلك بفضل ما اطلع عليه من الرحلة المذكورة في تلك المخطوطات النفيسة

الخاتمة

فهذا ، يا سادتي الفضلاء ، مجمل ما يقال في هذا الموضوع ، وأما التفاصيل فطويلة مملة . لا تزيدكم فائدة أعظم . ويلخص كلامي هذا كما يأتي :

إن أبناء يعرب القدامى ولا سيما أولئك الذين كانوا يجاورون ثغور البحار ، يركبون السفن التي كانوا ينشرونها بأيديهم ، فيجوبون بها المحيطات ، فوصلوا في أول أسفارهم إلى جزر القصدير ، وهي في بحر المانش ، وعددها (١٤٥) خريصاً ، وبعد ذلك عرفوا تيار الخليج ، وهو المسمى عند الانكليز Gulf Stream ، فاتخذوه ناقلا لهم ، إلى الاصقاع التي دعيت بعد ذلك بالمكسيك ، ومنها انبثوا إلى سائر مدن أميركة ، من شمالية وجنوبية . فالعرب وسائر الأقوام التي حلت العالم الجديد عرفوا المكسيك ، قبل أن يعرفوا سائر الديار الغربية من تلك الأرجاء . ولذا نرى فيها من الأسماء العربية العائدة إلى الحيوان والطير ، أكثر مما في سائر الانحاء الحديثة المعروفة ، بحيث لا يمكن لأحد أن ينكرها .

وقد اعتمدتُ في كل ما قررت هنا على مصنفات الأغراب أنفسهم ، إلاّ ما وجدته نبهاً بنفسي . وقع ذلك كله قبل المسيح .وبعده ، لاسيما بعد اكتشاف تلك المنتأيات . هذا

وانا أتحدَّى كل أديب ينكر عليَّ هذه الحقائق، أن يفندها تفنيداً علميًّا، إما على طريق التاريخ، وإما على سبيل اللغة، وإما على سبيل النقل عن السلف، بشرط أن يكون هذا التفنيد طلباً للحقيقة، لا للمماحكة والمعارضة، والمعاندة، والمباهاة والادعاء الفارغ. وأن يكون بأدلة صادقة مقنعة، خالية من كل تمويهٍ وتشويه.

نعم، إن الذين ينكرون هذه الحقائق هم الأجانب الذين لا يعجبهم أن يسمعوا كل مدح بحق العرب، أو أولئك المتعربون، أو المتفرنجون، الشعوبية الذين يغمطون حق كل ناطق بالضاد، وإن بان فضله وعلمه. فهؤلاء جميعهم من القوم الخاسرين الخاسئين، ولا يلتفت إلى مزاعمهم، فالاعتماد على الشباب المنوَّر، الذين عليهم المستقبل وعساهم أن يزدادوا عدداً كلما زدنا تقدماً في الأيام. وعليه تعالى تحقيق الأحلام.

مراجعنا

1 — Martyrologium Romanum

2 — M. — N. Bouillet. — Dic. universel d'His. et de Geog. art. Cassiterides.

3 — Nouveau Larousse illustré. T. II Art. Brendan.

4 — Nelson's Encyclopaedia. Vol. IV art. Brendan (St.)

5 — Encyclopaedia Britannica-art. Brendan

6 — C. Wahlund : Die alfrezosishe Prosa Ubersetzung von Brendans Meerfahrt (Upsala, 1900)

7 — F. Novati : La navigatio Sancti Brendani in antico Veneziano, (Bergamo, 1892)

8 — G. Schirmer. — Zur Brendanus—Legende, etc. (Leipzig, 1888)

9 — F. Michel : Les Voyages Merveilleux de St. Brendan, etc, (Paris 1872).

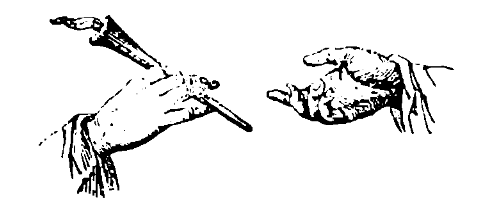
(10) — R. F. Moran : Acta Sancti Brendani. Original Latin Documents connected witth the Life of Saint Brendan. (Dublin 1872)

11 — Tit - Bits No. 3192 Friday, 7th. April 1944.

12 — Pierre Larousse — Grand Dictionnaire Universel du XIX Siecle. — Paris

١٣ — المقتطف ١٠٥ : ٣١٧ وما يليها

١٤ — مجلة المجمع العلمي العربي — ١٩ : ٣١٥ وما يليها الى غيرها من الكتب والمجلات والصحف.



وحدة الوجود

أمذهب أم فكرة ؟

« ان وحدة الوجود ليست إلا نزعة او اتجاهاً عقلياً بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به الى مشكلة اكبر »

كثر التحدث في العهد الأخير في وحدة الوجود ، وتقدم للكلام في هذا الموضوع طائفة من جلة أدبائنا ، فتفرقوا فيه شيعاً ، ومضوا في بحثه أحزاباً وفرقاً ، على أن كل ذلك إنما يدل دلالة واضحة على أننا في صحوة من الفكر ، ويقظة في متابعة الدرس ، نحمد للذين أقاموا الدليل عليها ببحوثهم ، أنهم كانوا تراجمة أمناء على البحث والتقصي .

ولا شك عندي في أن هذه الظاهرة لها دلالة أخرى لا تقل من يقظة الفكر شأناً ومكانة . تلك ناحية أن الفكر المصري قد أخذ يستعمق في الدراسات الفلسفية ، وانه ألف أن يظل بعيداً عن التسامي إلى آفاق الفكر البعيدة .

غير أن تلك البحوث التي مضى فيها هؤلاء الأساتذة الأجلاء قد نقصتها ناحية ذات بال من نواحي التأمل . فقد مضى بعضهم في البحث على أن وحدة الوجود مذهب ، فقال في بحوثه ان مذهب وحدة الوجود كذا ، وان مذهب وحدة الوجود كيت ، من غير أن يقيم الدليل على أنه مذهب صحيح له شعابه المترامية ومفازاته القصية وله حقائقه وغيبياته ، شأن جميع المذاهب الكبرى في الفلسفة . فليس لوحدة الوجود من الأصول والفروع مثلاً ، ما لمذهب المادية أو الروحانية أو مذهب الكلام عند النصارى وعند المسلمين ، أو مذهب الألوهية عند المتألهين ، أو مذهب الشكية عند اصحاب الشك ، أو مذهب اللاأدرية عند اللاأدريين أو مذهب اللادينية عند من يثبتون الله وينفون الأديان ، أو مذهب الجبرية أو القدرية أو المشبهة أو المعطلة . فجماع هذه مذاهب تقوم على فكرة هي الأساس ، تتشعب من حولها فروع وشعب من الفكر لا نهاية لها . فهل في القول بوحدة الوجود شيء من ذلك ؟ لم يتكلم أحد من الباحثين في هذا . وكان من الواجب أن يقوم البحث بداءة ذي بدء على أساس ثابت يكون بمثابة البورة تنبعث منها أشعة تترامى في شعاب الفكر .

إن كلمة Pantheism — من حيث التخريج اللغوي معناها القول بأن الكل هو الله

أو أنّ الله هو الكل . ولما كان الفكر قد يتراوح بين القول بأن الكل لله أو أن الله للكل، فقد حتم أن يكون لهذا القول وجهان :

فاذا بدأت من حيث انتهى المعتقد الديني أو الايمان الفلسفي بالله وانه حقيقة لانهائية سرمدية ، إذن فالعالم النهائي الموقوت يندمج في الله ، وهنا تلبس وحدة الوجود ثوب اللاكونية — Acosmism — أي ان المادة ليست غير خيال إلى جانب الله الذي هو الحقيقة الثابتة . أما إذا بدأت من حيث انتهى المعتقد العلمي أو الصورة الشعرية للمادة باعتبارها وحدة ، فان الله يندمج في المادة وتلبس وحدة الوجود ثوب « الوحدة الكونية » — Pancosmism . والأولى نظرة إلهية ، والثانية نظرة معطلة (تنكر وجود الله) .

والتفسير المنطقي البسيط لتبينك النزعتين هو أنك إذا قلت بأن « الكل لله » أثبت وجود الله وان لا شيء خارج عنه ، وعطلت وجود المادة . وإذا قلت بأن « الله للكل » أثبت وجود المادة وان لا شيء خارج عنها ، وعطلت وجود الله . هذا على أن لا نغفل أبداً عن أن الكل من الوجهين معضلات عقلية محضة لا تنتهي من إحداها إلاّ لتقع في أعضل منها . وعلى هذه الوتيرة ظل الفكر الانساني ازاء هذه القولة منذ أقدم العصور حتى الآن ولم يخط خطوة واحدة الى الأمام .

وعندي أن القول بوحدة الوجود ليس مذهباً فلسفيًا ولاهو فكرة ترتد إلى أساس أولي في العقل . ومعنى انها ليست مذهباً أنها تدور وتتركز حول شيء واحد هو القول بأن الله والمادة واحد لا يتجزأ، من غير أن يرسل هذا القول ضوءًا على أية ناحية أخرى من نواحي المعرفة . فلا شعاب له ولا فكرات ولا تعمق في استبطان حقائق الوجود . ومعنى إنه ليس فكرة أنه لا منطق له يقوم عليه. فما هو مثلاً منطق القول بوحدة الوجود إذا نحن أردنا أن نحدد منطقها ؟ أما الحقيقة التي أومن بها ، فهي إن وحدة الوجود ليست إلاّ نزعة أو اتجاهاً عقليًا بسيطاً أريد به التخلص من مشكلة كبرى ، فأدى القول به إلى مشكلة أكبر . بل لقد كان لذلك المتجه العقلي آثار أخلاقية تمسك القلم عنها لأنها إلى الرذيلة ونكران الفضائل كافة . كذلك كان لها سقطات فكرية يترفع عنها عقل سلم من محتملات القول بوحدة الوجود . وما قولك فيمن يقول « ما في الجُبَّة إلاّ الله » . سبحانه وتعالى .

قد يطلب الينا تبيان ذلك الشكل الذي حدا بالعقل إلى أن ينزع هذه النزعة ويتجه ذلك المتجه . وليس ذلك بمتعذر على من أدرك طرفاً من فلسفة القدماء . فالواقع الثابت أن وحدة الوجود لم تقم في العقل البشري إلاّ نتيجة للبحث في الله والقدم . فزاد القول بها مشكلة الله والقدم استعصاء على منطق العقل الصرف .

ما هي علاقة الله بذلك الاتجاه العقلي ؟

في الفلسفة مبحث يقال له السببية — Causality — مؤداه أن كل مسبب لا بد له من سبب ، وإن كل معلول لا بد له من علة ، والمسبب لا يقوم بنفسه وإنما يقوم بالسبب ، وكذلك المعلول فانه لا يوجد بذاته وإنما يوجد بوجود العلة . فاذا زال السبب أو العلة زال المسبب وزال المعلول . هذا منطق بسيط جداً يخاطب عقل البسطاء ، كما يخاطب عقل النبغاء من أهل التأمل . وكفى أنه منطق العربي البسيط الذي يقول : الأثر يدل على المسير .

والعلة في منطق الفلسفة الاستنتاجية أنواع ، لا مجال للخوض فيها هنا . وإنما نقول إن محصل القول فيها أن العلة إذا كانت ناقصة تخلف عنها معلولها ، فاذا تمت فلا بد إذن من وجود المعلول . مثلاً : إذا وجد الخشب والأدوات والنجار ، فهل يكفي ذلك لوجود الكرسي . كلا . ذلك بان هذه الأشياء تكون علة ناقصة . فاذا أضيف إلى ذلك الارادة ، كملت العلة ، وإذن يقوم المعلول ، وهو الكرسي .

والله لا شك علة العلل ، فلا مناص من القول بانه علة كاملة ، لا يتخلف عنها معلولها بصورة من الصور ولا شك أيضاً في أنه قديم . لأن الحدوث مستحيل عليه باعتباره من صفات المعلولات ، لا من صفات العلل الغائية .

إذا انتهينا من ذلك وجب أن نعتقد ان لله معلولاً أعظم لا يتخلف عنه ولا يشاركه في صفاته التي من اخصها القدم . فهل المادة التي هي المعلول الأعظم للعلة الغائية ، قديمة أم حادثة ؟ فاذا قيل بأنها حادثة تساءلنا كيف حدثت ؟ وهل يمكن خلق شيء من لا شيء ؟ أو محو شيء الى لا شيء ؟

فاذا قيل بقدم المادة ، شاركت المادة الله في قدمه . وإذا قيل بحدوثها ، كانت الطامة على العقل أعظم وأكبر . فانها اذا كانت حادثة دلّ ذلك منطقاً على ان الله كان علة ناقصة فلما كملت حدث المعلول . وذلك ما لا يقول به أحد من أصحاب الألوهية على اطلاق القول .

هنا نزع العقل الى وحدة الوجود ، لا لشيء ، إلاّ ليتخلص من مشكلة العلة والمعلول والقدم والحدوث ، فقال إن الله والعالم ، وبالأحرى أن الله والمادة ، وحدة لا تنفصم . هذا ليخلص من تضارب المنطق عند البحث في الله والقدم .

غير ان ذلك أدّى إلى مشاكل أعظم . فأنت وأنا والجوامد والسوائل وما يعقل وما لا يعقل أجزاء في تلك الوحدة ! هنا تنتفي كل القيم التي قدسها العقل وساق اليها التأمل في الألوهية . تلك هي نزعة العقل إلى وحدة الوجود . نزعة أراد العقل بها التخلص من مشكلة كبرى ، فوقع في مشكلة أكبر .

كل مرحاً

تعش طويلاً

النحفاء والسمان على السواء في اشد الحاجة الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر . ولا تساعد هذه المواد على الهضم وحسب، بل ترهف الجهاز الهضمي برمته ، وتزود الدم بحاجته من الفيتامين.

لا تزدحم بالطعام.فان هضم الاغذية عمل طويل تقوم به أعضاء مختلفة : المعدة والكبد والبنقراس . فاذا أرهقتها بالعمل احتجت . وسوء الهضم هي طريقة الاحتجاج .

كل بتؤدة . وهذا من أهم الأشياء . فان ازدراد الطعام بغير مضغ جيد من أخطر الأشياء . فالأغذية النشوية كما نعلم جميعاً ينبغي أن تهضم في الفم . فخميرة البلياتين التي تكون في اللعاب هي التي تغير النشويات الى سكريات ينتفع بها الجسم . فاذا لم يختلط طعامك اختلاطاً كافياً بهذه الخميرة المهضمة يبقى كثير منه بغير هضم فيفسد ويغير مظهرك الخارجي فكأنك مريض وفي الواقع انك مثقل بغذاء غير مهضوم .

اترك متاعبك وانسها اذا جلست الى مائدتك . فلا شك في أن الهضم يتعطل تماماً اذا كانت الناحية الانفعالية في الانسان مضطربة ثائرة . ذلك بأن النواحي الطبيعية والانفعالية والعقلية في الانسان متصلة اتصالا وثيقاً في التكوين البشري وحالة كل منها تؤثر في صاحبتها تأثيراً قوياً . فاذا كنت في ثورة من الغضب أو موجة من الحزن فمن المستحسن أن تتخطى وجبة من أكلك . فان الطعام الذي تأكله وأنت في تلك الحال لا يفيدك أية فائدة وقد يحدث بك ضرراً بالغاً .

استرح بعد الوجبة . وان هذا لمن أفيد الشروط الصحية لمن هم في عمل مستمر . فانك اذا بدأت تعمل بعد الأكل مباشرة انجذب الدم من ناحية المعدة الى الدماغ واليدين . وهذا يعوق الهضم . فراحة نصف ساعة على الأقل بعد الأكل من أوجب الواجبات . ولا شك في انك تعوض هـذا الوقت نشاطاً ومقدرة وانتاجاً عند ما تبدأ عملك .

ان الذين هم عرضة لسوء الهضم يكونون في العادة أقل مما ينبغي وزناً . فمن الحقائق الثابتة أن النحفاء أكثر وقوعاً في سوء الهضم من اخوانهم المتوردي الخدود الممتلئي الأجسام . وذلك بسبب طبيعي. فان قناة الهضم في النحفاء أقصر منها في السمان . وهذا يسبب سرعة مرور الطعام فيبقى جزء منه غير مهضوم وغير ممثل . والطعام غير المهضوم مباءة للتخمر .

ومما يفيد أولئك الذين يقل وزنهم عن القدر الضروري أن يعكفوا على أكل الخضر مطبوخة ومعالجة بدهن نباتي . وذلك يبطىء مرور الطعام في القناة الهضمية فتتمكن العصارات الهضمية من ان تؤثر اثرها المطلوب في اتمام عملية الهضم.

وهنالك أمر آخر يهم النحفاء المصابين بسوء الهضم . فان خمس أو ست وجبات صغيرة أخلق بهم وأفيد لهم من ثلاث وجبات ضخام . فان كثرة الوجبات وقلة كميتها تخفف وطأة العمل على المعدة والجهاز الهضمي عامة ولا ترهقه دفعة واحدة . ومن المرغوب فيه أن يقسموا أعمالهم فيجعلوها أقساطاً وأجزاء . ولكن ليذكر هؤلاء أن المقصود بكثرة الوجبات وقلة كميتها أن تكون وجبات لا أكلات صغيرة بين أكلات كبيرة.

والنحفاء والسمان على السواء في أشد الاحتياج الى مزج طعامهم بالفواكه وعصير الخضر . ولا تساعد هذه المواد على الهضم وحسب بل ترهف الجهاز الهضمي بأجمعه وتزود الدم بحاجته من الفيتامين.

واليك سراً آخر.فانك اذا أخذت في اعادة بناء جهازك الهضمي فتجنب الاقراص المهضمة وبيكربونات الصودا . فان لديك من الوسائل الطبيعية ما هو أنجع منها في تفادي الحمو المعدي وحدوث الاحماض . فجزء من عصير الكرفس وجزء مماثله من عصير البرتقال ممزوجين خير مزيج لازاحة متاعبك . خذ جزءاً من هذا المزيج أول شيء في الصباح أو في أي وقت تشعر بالحاجة اليه .

تاريخ يومك

ما هو ؟

التقويم العالمي يكفيك إلى نهاية الدهر

في التقويم العالمي كما وضعته جمعية التقويم العالمية في نيويورك ، قسمت السنة المكونة من ١٢ شهراً ارباعاً متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر او ١٣ اسبوعاً ايامها ٩١ يوماً ، على قاعدة ان ايام الاشهر هي ٣١ ـ ٣٠ ـ ٣٠ يوماً وكل منها ٢٦ يوماً اسبوعياً خلا ايام الآحاد . وكل الوحدات الزمنية تتفق في نهاية كل ربع سنة . والشهور الاوائل من الارباع تبدأ كلها بيوم الاحد وتنتهي يوم الثلاثاء . والشهور الثواني من الارباع تبدأ بيوم الاربعاء وتنتهي بيوم الخميس ، والشهور الثوالث تبدأ كلها بيوم الجمعة وتنتهي بيوم السبت.

في سنة ٤٧ ق . م . عمل يوليوس قيصر بمشورة « سوسيغانس » — Sosigenes — الفلكي السكندري ، وأصلح التقويم الروماني بأن أخرج من حساب التقويم دورة القمر ووضعها على أساس دورة الشمس . وبدأ التقويم اليولياني من أول يناير سنة ٤٥ ق.م ، وظلَّ متبعاً حتى سنة ١٥٨٢ بعد الميلاد عند ما أمر البابا غريغوريوس الثالث عشر باعادة النظر فيه . والتقويم الجديد ، الذي عرف فيما بعد بالتقويم الغريغوري ، قد اعترف به سنة ١٥٨٢ في كل من ايطاليا واسبانيا وبولاندا والبرتغال وفرنسا . أما دخوله في سويسرا فكان تدريجاً . وبدىء به في سنة ١٥٨٢ وأكمل سنة ١٨١٢ ، فاعترفت به أكثر الدول الجرمانية التابعة للمذهب الروماني الكاثوليكي ، والفلاندر والأراضي المنخفضة سنة ١٥٨٣ ، وقبلته هنغاريا سنة ١٥٨٧ ، والمانيا البروتستانتية سنة ١٧٠٠ ، وصدَّق البرلمان البريطاني على التقويم الغريغوري سنة ١٧٥١ ، وطبق على الامبراطورية البريطانية بأمر ملكي سنة ١٧٥٢ ، وأخذت به السويد سنة ١٧٥٣ ، وأرجعه نابليون في فرنسا سنة ١٨٠٦ مستبدلاً به تقويم الثورة الفرنسية ، واستعملته اليابان سنة ١٨٧٣ والصين الجمهورية سنة ١٩١٢ ، وبلغاريا سنة ١٩١٦ وروسيا السوفيتية سنة ١٩١٨ ، ورومانيا واليونان سنة ١٩٢٤ ، وتركيا سنة ١٩٢٧ .

ومع هذا فان التقويم الغريغوري لم يعم استعماله . ففي العالم تقاويم كثيرة بخلاف التقويمين اليولياني والغريغوري ، منها التقويم الصيني وهو تقويم قمري شمسي ويجري عليه بطريق مباشر أو غير مباشر ٤٥٠ مليوناً من الانفس في أسيا . ومنها التقويم الاسلامي ويجري عليه ٢٧٥ مليوناً في أسيا وإفريقية ، هذا بخلاف ١٧٠ تقويماً متفرقة يجري عليها ٣٢٠ مليوناً في الهند . والتقويم الهجري لا يزال معترفاً به في تركيا وفارس وبلاد العرب ومصر وأجزاء من الهند . ويبدأ من أول يوم في الشهر الذي وقعت فيه الهجرة المحمدية من مكة الى المدينة . وكان هذا اليوم على التحقيق يوم ١٦ من يولية سنة ٦٢٢ ميلادية وأشهرها قمرية تبدأ بشروق القمر أول كل شهر ، والتقويم الهجري ليس فيه اضافات تجعله جارياً على حسب تغيير الفصول بدورة الشمس ، فسنواته تتراوح بين الفصول في خلال ٣٢½ سنة .

* **

وتجري الهند الآن على ١٤ تقويماً رئيسيًّا بالاضافة الى التقاويم الغريغوري والهجري والعبري . وفيها تقاويم متفرقة تتبع في مقاطعات مختلفة من المملكة . فالاسامي والبنغالي والبرمي والكوجراتي (بمقاطعة بومباي) والهندو والكفارسي (في ميسور بغربي الهند وأجزاء من مدراس) ومهراشترا (جنوبي بومباي وبونا وغيرها) والملابي (في ملابار) والمَرْواري (في أقاليم مَروار ويستعمله التجار في جميع أنحاء الهند) والاورابي (في أوريسا وجزء من مدراس والجزء الأعظم من بهار) والبارسي والبنجابي والطميل (في جنوبي الهند وسيلان) والتلوجو (في شمالي مدراس) .

ولتضارب هذه التقاويم أثر ظاهر في أنحاء المملكة الهندية . ويقول موظفو حكومة الهند إن استعمالها جملة يحدث مشاكل كبيرة فضلاً عن انها تكلف الخزينة أموالاً تنفق في غير حاجة الى انفاقها . ومنذ زمن بعيد اعتادت الحكومة أن تطبع أربعة تقاويم منها هي : البنغالي والهندوكي والملابي والطميل ، في هيئة مجموعة للمراجعة وتتضمن أيضاً التقويمين الغريغوري والهجري . ولا تقل صفحات هذه المجموعة عن ٣٥٠٠ صفحة ولا بد من أن تتضمن عبور الشمس والقمر وبعض الأجرام السماوية الأخرى بخط الزوال كل يوم على مدى سنين متعاقبة . وجمع هذه المتفرقات يحتاج ثلاثة أشهر ، وغالباً ما تحتاج إلى زمن أطول كثيراً . فاذا علمت أن هذه المجموعة تتضمن تغير الفصول بحسب التقاويم المختلفة والأعياد والاجازات الرسمية وكل التواريخ الهامة ، علمت ما يصرف في سبيلها من الجهد العظيم

وكثيراً ما أشارت الصحف البريطانية إلى ما في التقاويم الهندية من التعقيدات التي لا تبارى . قالت جريدة التيمس ذات مرة :

« يحدث في خلال ثلاثين سنة أن يأتي عامان أو ثلاثة أعوام متوالية يكون فيها عند المسلمين أيام حداد تعينها دورة التقويم القمري المتغايرة، فتتفق وأياماً تكون عند الهندوكيين أيام أعياد محددة بمقتضى التقويم الشمسي » .

***

ولقد قال « غاندي » ما يأتي :

« لا شك في أنه من المرغوب فيه أن يكون لأمتنا التي تبلغ ٣٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة تقويم وطني واحد . ولما كانت كل التقاويم الهندية موضوعة على أساس الاثنى عشر شهراً، فمن السهل أن تلتقي كل التقاويم على هذه القاعدة . وإني أحبذ الأخذ بمثل هذا التقويم . وإني فوق ذلك أكثر ميلاً إلى تقويم عالمي عام ، كما اني أدعو إلى عملة واحدة تتخذ قاعدة للتعامل في كل ممالك الأرض ، وكذلك لغة واحدة لكل الشعوب » .

ان سكان الصين ، وقد بلغوا منذ زمن نيفاً وخمسمائة مليون نسمة — أي ربع تعداد الأنفس التي تسكن كرة الأرض — قد استعملوا منذ أزمان تفوت الذكريات تقويمين : التقويم القمري القديم ، وإلى جانبه تقويم شمسي يتبع الاشهر الفلكية بدقة تامة . ولقد ألغي التقويم القمري مع قيام الجمهورية، وحل مكانه التقويم الغريغوري . ولقد عملت الحكومة الوطنية تحت قيادة الزعيم « شنج كاي شك » على العمل بالتقويم الغريغوري . فصدرت المراسيم التي تحظر طبع التقويم الصيني القديم ونشره أو بيعه ، كما أن الحكومات المتعاقبة من سنة ١٩١١ قد عمدت إلى عدم الاعتراف بالعقود والمستندات التي تؤرخ بحسب الطريقة القديمة .

***

يقدر عدد سكان الدنيا بحوالي ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة ويقدر عدد اليهود من كل المذاهب بحوالي ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ إلى ١٦٫٠٠٠٫٠٠٠ . والتقويم العبري الذي يستعمل الآن تقويم شمسي قمري ، فسنواته شمسية ، وشهوره قمرية . وللتوفيق بين الدورتين الشمسية والقمرية يكبس شهر برمته في السنة الثالثة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والرابعة عشرة والسابعة عشرة والتاسعة عشرة في دورة عدتها تسعة عشر عاماً . ولأسباب عملية مثل

ابتداء السبت عندهم ويبدأ بغروب الشمس ، يحصل خلاف ، اذا لاحظنا أن اليوم التقويمي في أربعة وعشرين سنة يبدأ دائماً في الساعة السادسة مساء . ويختلف الشهر العبري من ٢٩ الى ٣٠ يوماً ، وبذا يختلف عدد الأيام في السنة الواحدة فيكون المجموع عبارة عن ٢٩ يوماً و ١٢ ساعة ، و ٤٤ دقيقة و ٣ ½ ثانية مضروباً في ١٢ إذا كانت السنة بسيطة ، وفي ١٣ إذا كانت السنة كبيسة .

***

والتقويم الرسمي في يوغوسلافيا هو التقويم الغريغوري ، فهو المستعمل في كل العلاقات الرسمية ولا يستعمل موظفو الحكومة تقويماً غيره . ولكنهم في حياتهم الخاصة يتبعون التقويم اليولياني في تعيين الأيام والمعاملات . وعلى هذا جرى أكثر اليوغوسلاف إلى ما قبيل الحرب . وأكثر المسلمين في تلك البلاد ، ولو انهم « سُلافٌ » بالأصل ، يجرون على التقويم القمري الهجري . في حين ان اليهود ، يجرون على تقويمهم العبري .

ومن الظاهر ، بناءً على كل الخلافات القائمة بين التقاويم الحالية ، يحتاج العالم إلى تقويم عالمي عام . وقد ينزع الأكثرون إلى تحبيذ الأخذ بالتقويم الغريغوري ، ولكن الافضل أن يدخل على هذا التقويم إصلاح طالما شعر الناس بالحاجة اليه .

ذلك بأن التقويم الغريغوري بعيد عن الكمال كما أبان عن ذلك ك . اندرسون في « صحيفة اصلاح التقويم » : قال —

« يتسامح كل منا في الجري على تقويم يختلف كل شهر وكل سنة . تقويم غير نظيم فيه شهران عدة كل منهما ٣١ يوماً ، هما يولية وأغسطس : وفيه شهران اثنان ، هما فبراير ومارس يبدآن دائماً بيوم معين في الاسبوع ، غير انهما ينتهيان في يومين مختلفين . وبذا نجد أنفسنا في حاجة دائماً إلى الرجوع إلى تقاويم سنين ماضية لنعرف كم يختلف تاريخ اليوم (الجمعة مثلاً) من الخميس في السنة الماضية . وهذا ما لا ينبغي أن يحدث فعلاً ، فيجب أن تكون تواريخ الأيام واحدة في كل السنين ، إذا استعملنا شيئاً من الحذق في وضع تقويم جديد » .

ان كل رجال الأعمال والاخصائيين ، ورجال العلم والتربية والمهندسين والمشترعين ، يعترفون بأنَّ هنالك فوضى تحدث باستعمال التقويم الحالي ، وذلك لاختلاف تواريخ الأيام باختلاف السنين . فكيف نخلص من هذه المعضلة ؟ انظر أولاً في الجدول الآتي ثم اطلع على التفصيل .

يناير

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

فبراير

أ	اث	ثل	أر	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

مارس

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

ابريل

ا	اث	ث	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

مايو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

يونيو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

٣١ سبت زائد (عيد عالمي كل ٤ سنوات)

يوليو

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

اغسطس

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

سبتمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

اكتوبر

	اث	ثل	ار	خ	ج	س
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧
٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤
١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١
٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨
٢٩	٣٠	٣١	—	—	—	—

نوفمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	١	٢	٣	٤
٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١
١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨
١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥
٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	—	—

دسمبر

أ	اث	ثل	ار	خ	ج	س
—	—	—	—	—	١	٢
٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦
١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣
٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠

٣١ سبت زائد (عيد عالمي كل سنة)

في التقويم العالمي ، كما وضعته جمعية التقويم العالمية في نيويورك ، قسمت السنة المكونة من ١٢ شهراً ارباعاً متساوية كل ربع منها ثلاثة أشهر أو ١٣ أسبوعاً أيامها ٩١ يوماً . وقسمت أيام الاشهر على قاعدة ٣١ — ٣٠ — ٣٠ يوماً ، وفي كل شهر منها ٢٦ يوماً أسبوعياً زائداً أيام الآحاد . وكل الوحدات الزمنية تتفق في نهاية كل ربع سنة

ويوم ٣١ ديسمبر في التقويم القديم هو سبت زائد ، وتبدأ السنة الميلادية يوم الاحد أول يناير .

ويوم ٢٩ فبراير في السنين الكبيسة في التقويم القديم يصبح يوم سبت زائداً ايضاً يقع في آخر شهر يونيه ، وكل من السبتين الزائدين يعتبر عيداً عالمياً .

هذا تقويم جديد يضارع من حيث الضبط والدقة ساعتك التي تعين ثوانيك ، وهو التقويم الحديث الذي قسمت فيه السنة اثني عشر شهراً ، وزعت على أرباع متساوية ، وهو المعروف بالتقويم العالمي . فكل سنة تبدأ بيوم أحد ، وكذلك كل ربع سنة . والشهر الاول من كل من هذه الارباع عدته ٣١ يوماً وشهران عدتهما ٣٠ يوماً . وفي كل شهر ٢٦ يوماً اسبوعياً زائداً عليها أيام الآحاد . فتجد ان السنة قد قسمت إلى أربعة أرباع متساوية الزمن أي ٩١ يوماً أو ١٣ اسبوعاً أو ثلاثة أشهر . وواضح من ذلك ان أيام السنة تبلغ ٣٦٤ يوماً فاذا أضفنا اليها يوم سبت زائداً في نهاية ديسمبر من كل سنة ليكون عيداً عالمياً ، كملت السنة ٣٦٥ يوماً وأصبحت ثابتة . ويتبع نفس هذا النظام في السنين الكبيسة حيث يقع اليوم الزائد في وسط السنة أي في يوم زائد بعد يوم ٣٠ يونية ، عدا اليوم الزائد سنوياً بعد ٣٠ ديسمبر .

فاذا عمل بهذا التقويم أصبح التأريخ مضبوطاً ضبط ساعتك التي تعيش بها يومك . فاذا وقع ميلادك يوم أربعاء من أية سنة ، فانه يتكرر في ذلك اليوم دائماً ، وبه يسجل اليوم والسنة على الاستمرار .

مأثورات

« ان من عرف فضل قوته على الضعفاء ، فاغتر بذلك في شأن الأقوياء ، قياساً لهم على الضعفاء ، كانت قوته وبالا عليه »

***

« إن طالب الحق هو الذي يفلح ، وان قضى عليه ، وطالب الباطل مخصوم ، وإن قضى له . وليس لصاحب الدنيا في دنياه شيء ، لا مال ولا صديق سوى العمل الصالح يقدمه ، فذو العقل حقيق أن يكون سعيه في طلب ما يبقى ويعود نفعه عليه غداً ، وأن يمقت سعيه فيما سوى ذلك من أمور الدنيا . فان منزلة المال عند العاقل بمنزلة المدر ، ومنزلة الناس عنده فيما يحب لهم من الخير ويكره من الشر ، بمنزلة نفسه ».

***

« وبعد فاعلم أن الفأس يقطع به الشجر ، فيعود ينبت ، والسيف يقطع به اللحم ، ثم يعود فيندمل . واللسان لا يندمل جرحه ولا تؤسى مقاطعه . والنصل من السهم يغيب في اللحم ، ثم ينزع فيخرج . واشباه النصل من الكلام ، إذا وصلت إلى القلب ، لم تنزع ولم تستخرج . ولكل حريق مطفىء ، فللنار الماء ، وللسم الدواء ، وللحزن الصبر ، ونار الحقد لا تخبو ابداً » .

***

والعاقل وإن كان واثقاً بقوته وفضله ، لا ينبغي أن يحمله ذلك على أن يجلب العداوة على نفسه اتكالا على ما عنده من الرأي والقوة ، كما أنه وإن كان عنده الترياق لا ينبغي له ان يشرب السم اتكالا على ما عنده . وصاحب حسن العمل ، وان قصر به القول في مستقبل الامر ، كان فضله بيناً واضحاً في العاقبة والاختبار ؛ وصاحب حسن القول ، وان أعجب الناس منه حسن صفته للامور ، لم تحمد عاقبة امره .

ابن المقفع : عن بيدبا الفيلسوف

صحيات

حذار

من أمراض البرد

« امراض البرد هي الطاعون الجديد ، تعطل الناس عن العمل ملايين الساعات ومضاعفاتها أكثر وأعظم أثراً من اي مرض آخر » .

قال بعضهم : « إذا أردت أن تتقي البرد فامضغ قليلاً من الثوم ، وبذلك يتقيك المصابون به فلا تنقل اليك العدوى » . والبرد من الأمراض المستعصية على العلاج ، فمنذ خمسة آلاف سنة لم يعثر على علاج شاف له . فهو مرض يأتي ويذهب على غير ارادتك . وفي الوقت الذي بني فيه الهرم الأكبر كانت أمراض البرد تعالج بنفس مانعالج به الآن . ونحن لا نعرف الجراثيم التي تسبب هذه الأمراض ، ولكننا لا نشك في انها معدية .

وتختلف اصابات البرد سنة عن سنة ، بل فصلاً عن فصل . لهذا شكّ الاطباء أن يكون نوعاً بعينه من المترشحات (Viruses) هي السبب في احداثها . ويعتقد دكتور «لوسيوس بوش » انها انما تحدث باجتماع عدة أنواع أو ضروب من الجراثيم ، واستنتج من ذلك أن هذا الوباء قد يسبب لبعض المصابين به سعالاً دائماً في بعض الأحيان ، وقد يسبب رشحاً أنفياً أحياناً أخرى ، او التهاباً في الزور ، وكل مجموعة من هذه الجراثيم لا بدّ من أن تنتقل من شخص لآخر ، فتغزو هذه المجموعة نفس المكان الذي أصيب به حامل المرض ، وتنتج أعراضاً مشابهة للاعراض التي تكون فيه .

كيف تبدأ اصابات البرد ؟

كيف نستطيع ان نعلل انتشار هذا الوباء ؟ وأين تحدث أول اصابة فينتشر منها المرض؟ والجواب على هذا السؤال ليس صعباً كما يتبادر اليك لأول وهلة . فكل الجراثيم التي تسبب اصابات البرد موجودة فعلاً في منطقة الزور في كل انسان صحيح الجسم . والغالب ان كل انسان يحمل قليلاً من ضروبها المختلفة وبين الناس من الاختلاف والتباين ما يحملنا على الاعتقاد بأن الصورة التي تلابس المرض انما ترجع الى استعداد أول من يصاب به . وقد نسأل كيف يستحدث البرد في أول من يقع فريسة له .

لجراثيم أمراض البرد ، ككل صنوف الجراثيم الأخرى كالسبحيات Streptococci والعنقوديات Staphylococci التي تحدث الصديد ، تنتعش وتتكاثر إذا حبس عنها الهواء ولم يتصل بها . والحقيقة أن تلك الظاهرة هي من خصائص عدد كبير من الجراثيم المعدية . فالكزاز (التتانوس) وقصيات القولون Colon bacilli وكثير غيرها ، هي من هذا الطابع . فاذا اتصلت بالهواء ، فان ضررها يصبح قليلاً نسبيًّا ، فاذا حبست عن الهواء ولم تتصل به ، تحدث الالتهابات بسرعة ، وتبدأ هذه الجراثيم في التكاثر بنسبة لا تصدق .

وقد يتفق لأول من يصاب بالبرد أن يجلس في تيار هوائي وجسمه دافىء ، فيسبب هذا تبريداً سريعاً في أنسجة العضلات فتنقبض وتسبب ضغطاً على بعض الأعصاب الرئيسية ، وبخاصة أجزاء الأعصاب عند تفرعها من النخاع . فتيار هوائي يصيب الرقبة قد يحدث تأثيراً في الأعصاب المنظمة للدورة في الرأس والزور ، فينتج عن ذلك ورم في الغشاء المخاطي الحافّ بتلك الأجزاء . وهذا الورم او التضخم قد يظهر في صورة التهاب في الزور أو جفاف في الأنف . ولكن أهم ظاهرة في كل ذلك هو أن الأنف تسد فلا يتخلل الهواء كل أجزائها في تلك الأجزاء التي لا يصل اليها الهواء تأخذ الجراثيم في التكاثر بسرعة عجيبة . ويزداد الاحتقان في تلك الأجزاء وتأخذ الخلايا المخاطية في افراز كمية كبيرة من المخاط محاولة بذلك الافراز كنس الجراثيم التي تغزوها إلى خارج الأنف . وبذلك تبدأ الاصابة بالبرد وتأخذ العدوى طريقها المألوف . وقد تحدث الاصابة من أسباب أخرى غير التعرض للتيار الهوائي ، فالامعان في الأكل والشرب أو التعب قد يهيىء ظروفاً للاصابة . والنتيجة مع جميع هذه الأسباب واحدة: كتم مجاري الأنف وامتناع الهواء عن الوصول اليها. هنالك تحدث الاصابة.

اصابات البرد لا تعدي دائماً

هنالك حقيقة فذّة نعرفها عن تلك الجراثيم التي تسبب اصابات البرد ، هي إنه بالرغم من أننا جميعاً نجهلها فان اختلاطنا بأناس آخرين لا ينقل الينا العدوى ، ما لم يكن الاختلاط بشخص أو أشخاص نشطت فيهم تلك الجراثيم فأحدثت فيهم أعراض البرد . فقد ذكر دكتور «لوسيوس بوش» إنه رأى رجلاً مصاباً بزكام مزمن وزوجه غير مصابة به ، ورأى امرأة مصابة بالتهاب الجيوب الزمن وزوجها غير مصاب به . وهذا يدل على ان الجراثيم لا تصبح خطرة إلاّ إذا نشطت بصورة حادة . فالاصابات الزمنة غير معدية إلى حدّ ملحوظ . وحتى الجراثيم المنقولة عن شخص مصاب بحدّة ، قد تقاوم عند ما تنتقل منه إلى شخص آخر ، إذا ما ظلت تجويفات الأنف مفتوحة بحيث تسمح للهواء بتخللها فيظل الغشاء المخاطي صحيحاً محتفظاً بقوة المقاومة .

الهواء النقي أسلم من العقاقير

الهواء النقي هو عقار « السُّلفا » الطبيعي ، بيد ان استعماله أسلم عاقبة . وقد يصف الأطباء عقار « السُّلفا » لكثير من المصابين بهذه الأمراض . وقد وجد ان هذا العقار لا يقتل تلك الجراثيم بالفعل ، ولكنه يعمل فقط على وقف نمائها وتكاثرها . ويحدث هذا الأثر نفسه من تعرض هذه الجراثيم للهواء . وهنا نجد أن الطبيعة قد سبقت الكشف العلمي آلافاً مؤلفة من السنين . وكما ان كريات الدم البيض تستطيع قتل الجراثيم بطريقة أسلم من كل عقار مطهِّر ، كذلك الهواء يستطيع أن يقف تكاثرها ونماءها ، من غير أن يخلف نتائج سيئة ، كتلك التي يتفق أن يخلّفها تعاطي عقار « السُّلفا » .

ومنذ أن قال العلماء بنظرية الجراثيم ونقلها للأمراض ، حاول الباحثون أن يصلوا إلى طريقة للوقاية من الاصابة بالأمراض ، فعمدوا إلى الحقن ليزيدوا به مقاومة الجسم . ولاشك أن الأطباء قد يقبلون هذه الطريقة مستدلين على كفايتها بأمراض لا تصيب الانسان ثانية إذا أصابته مرة سابقة كالحصبة والحمى القرمزية . ولكن أمراض البرد من طابع غير هذا الطابع . فإصابة بالبرد لا تمنع إصابة أخرى . وقد يتفق أن يصاب أحدهم بالبرد بعد أسبوع واحد من إصابة سابقة . والنظرية التي تقوم عليها نظرية الحقن بالطعم الواقي هي أن يصاب الجسم إصابة خفيفة ، فتحدث فيه مناعة تقيه إذا تعرض للعدوى بذلك المرض . فإذا لم تحدث المناعة من إصابة شديدة بالمرض نفسه ، فالحقن يكون تضييعاً للوقت لا فائدة منه . هذا موقف الطعم الواقي من البرد في الوقت الحاضر ، وكل الذين حبذوه من قبل أخذوا يفقدون الثقة بهِ الآن .

واقٍ محمود العاقبة

هنالك طريقان : طريق للوقاية من البرد ، وطريق لتقصير مدته إذا حدث .

إن اصابات البرد تحدث بمضاعفاتها نسبة كبيرة من أمراض الانسان . فلولا البرد لما كان الصمم إلاّ نادراً جدًّا . والتهاب الجيوب مرض مقضيٌّ عليه إذا لم تكن إصابات البرد . وزكام الأنف ، وما يترتب عليه من إصابات بأمراض تنشأ عنهُ في الأمعاء والمعدة والقولون تصبح جميعاً في حكم العدم . وقد يقل الصداع بأنواعه . وكذلك ذات الرئة والسل قد تقل نسبتهما ، وأما حمى القش والربو فقد يصبحان من النوادر .

ولا يستطيع أحد أن يمنع كل إصابات البرد . ولكن دكتور « بوش » قد استطاع أن ينزل عدد الاصابات التي أصيب بها بعض مرضاه بنسبة الثلث . وقد سجل ذلك مدى

ثلاثين عاماً اتخذ فيها نوعاً خاصاً من العلاج . ومرمى هذا العلاج هو أن يجعل الهواء يتخلل الأنف والزور وييسره بحالة سوية . ولكي يصل الانسان إلى هذه النتيجة ينبغي له أن يزيل كل العوائق الأنفية بأن يوسع مجاريها بواسطة أصبعه البنصر . ولا تعيق هذه الطريقة دورة الدم ، فان شعيرات الدم بعيدة عن التأثر بذلك فلا تتمزق . فإذا كانت العظام قد انتقلت من مكانها السوي بحادث سابق أو تكون قد عيقت عن النماء بفعل طبيعي ، فمن الممكن ردها إلى مكانها ، فلا تعوق المريض عن التنفس بفتحتي أنفه تنفساً حراً . وما لم يكن الأنف مصاباً بعرض آخر يعوق ذلك، فإن هذا العلاج يمنع كثيراً من إصابات البرد بالرغم من التعرض لعدواها .

فاذا انفتحت مجاري الأنف زالت العوائق التي تسد الجيوب أيضاً فتنقى وتظل نقية بالتمخط ، وهو الطريق الذي ابتدعته الطبيعة لتخليص الجيوب من نفاياتها . ويمكن أيضاً إزالة الالتصاقات « الانفيبلعومية » — nasopharynx (الأنفية البلعومية) وتزول معها الجيوب التي تحدثها تلك الالتصاقات . وبزوالها يزول سبب آخر من الأسباب المحدثة لاصابات البرد والزكام الأنفي . وكذلك يمكن إزالة النماءات الغددية فلا تعوق التنفس الانفي ولا تمنع القناة الاوستاشية — eustachian tube — من تأدية وظيفتها فلا يكون هنالك أي تأثير على السمع بصورة سوية . إننا لا نستطيع أن نتخلص من الجراثيم، ولكن في مكنتنا أن نقضي على قدرتها .

في طوقنا بعد أن نصاب بالزكام أن نقصر مداه ونخفف من أعراضه بطريقة مشابهة لهذه الطريقة . فان في قدرتنا أن نفك أسر الأعصاب إذا ضغطت عليها العضلات المتقبضة فأعاقتها عن اداء وظيفتها السوية . يمكن ذلك بتقويم العظام بواسطة اليد . فان مجاري الأنف يمكن فتحها واخراج ما بها من مصادر الداء . وتصريف النفايات يمكن تحسينه حتى تنبذ مصادر الاصابة وتعود حالة الصحة . ولا تقتصر فائدة هذه الطريقة على تقصير مدى الاصابة وتخفيف آلامها ، بل إنها تمنع مضاعفاتها ، فتقل الاصابة بذات الرئة والسل ، وكذلك خراجات الأذن والصمم .

وإن اصابات البرد من حيث علاقتها بالانتاج وضياع كثير من ساعات العمل ، أمر ينبغي النظر فيه . فان ما يفقده الافراد والمجموع من جراء ذلك ، كفيل بأن يحملنا نصرف من العناية بها والعمل على التخلص منها أضعاف ما نعمل الآن . ولا شك أن لهذه الأمراض علاقة بالناحية الاجتماعية لا ينبغي اهمالها .

في مصر القديمة

الحروب بين ملوك الشمال وملوك الجنوب

قبل عصر التوحيد الثاني (الدولة الوسطى)

للدكتور باهور لبيب

ترامت الينا أخبار الحروب الداخلية ، التي قامت بين ملوك اهناسيا في الشمال [1] وملوك طيبة في الجنوب [2] من الطرفين المتحاربين بصورة تجردت نصوصها من معرفة السبب الحقيقي الذي من أجله نشبت تلك الحروب

فيمكن أن يكون سببها (ا) خلافاً بين الفريقين المتحاربين على منطقة واقعة في حدود طينة (بلدة ازوريس) ادعاها ملوك الشمال لأنفسهم وكانت في يد ملوك الجنوب (ب) وقد يكون نزاعاً على الاختصاص الاداري بين موظفي الحدود كالحراس او موظفي الضرائب في كل من المملكتين الشمالية والجنوبية (ج) وقد يكون شعور أمراء الجنوب بالحاجة الى توسيع حدودهم وشعورهم بقوتهم وبضعف الفريق الآخر (د) وقد يكون تطلع أمراء الجنوب الى الرغبة في توحيد مصر مدفوعين إلى ذلك بعامل القوميـــة كما فعل الملك مينا من قبل والملك احمس الأول فيما بعد

* **

وأني شخصيًا أرجح السبب الأول مع السبب الرابع (ا) مع (د) وذلك لأن الملك خيتي الثالث (واح كارع) وهو من ملوك الشمال اعترف في وصيته لابنه خيتي الرابع (مري كارع) بأنه ندم على تعديه على طينه وقداستها مما اضطر ملك الجنوب إلى الدفاع عن حدود منطقته الشمالية رداً للاهانة وسعياً وراء توحيد القطر المصري كله

---

(١) وكان سلطان فراعنة اهناسيا يمتد من الدلتا وينتهي عند طينة او بلدة العرابة المدفونة ومقر عاصمتهم بلدة اهناسيا المدينة.

(٢) أما نفوذ فراعنة طيبة فكان يمتد من اسوان جنوباً وينتهي عند طينة شمالا

والذي نعلمه عن هذه الحروب هو ان أول ملك من ملوك طيبة ذكر التاريخ أنه حارب البيت الاهناسي هو الملك أنتف الثاني (واح عنخ) وذلك لأنه من الثابت ان المنطقة التي كان يحكمها هذا الملك تبدأ من الفنين جنوباً وتنتهي في طينة شمالاً أي في القسم الاداري المصري القديم رقم ٨

* * *

وقد عرفنا من لوحة حجرية وجدت في الجورنه مؤرخة من عصر الملك (واح عنخ) وموجودة الآن في المتحف المصري وهي للسمير الاوحد جاري وفيها يذكر : « . . . بعد الحروب التي نشبت مع ملوك البيت الخيتي في المنطقة الغربية من طينة » ففي استطاعتنا ان نجزم من هذا النص بان ميدان الحرب بدأ في أقصى المنطقة الشمالية التي كانت تحت حكم الملك انتف (واح عنخ) أي في بلدة طينة الواقعة في قسم ابيدوس

والظاهر أن نتيجة هذه الحرب كانت في مصلحة ملك طيبة لأننا نعلم فيما بعد ان حدود هذا الملك الشمالية وصلت إلى منطقة أعلى من طينة وهي منطقة قسم الثعبان أي وصلت إلى القسم العاشر الاداري من أقسام مصر الادارية .

* * *

وقد حافظ هذا الملك على هـذه الحدود إلى السنة الخمسين من حكمه لأنه لدينا لوحة موجودة بالمتحف المصري مؤرخة في السنة الخمسين من حكمه وفيها يسجل : « ... ان حده الشمالي وصل إلى قسم الثعبان » أي ان هذه المنطقة قد اعتبرت حداً شمالياً . وعليه فالنتيجة النهائية هي انه في السنة الخمسين من حكم (واح عنخ) لم يتم الاستيلاء على اقليم ابيدوس فقط بل وصل الى القسم العاشر

ولكن حكم ملوك طيبه على هذا القسم العاشر الذي انتصر عليه (واح عنخ) لم يستقر ولم يكن نصيبه الهدوء والسكينة بل ثارت بعض الاجزاء على من حكموا بعده كما ذكرت لنا لوحة حجرية لموظف يدعى « ايكا أورانتف » فنجد حاكم اسيوط المدعو « تف ابي » والذي كان يعاصر ويشايع الملك الاهناسي خيتي الثالث (واح كارع) يجلي جيش طيبة في موقعة بحرية عن القسم العاشر باسم ملك الشمال ويضطره للرجوع جنوباً إلى حدود الطرفين القديمة أي إلى طينة .

ثم أرجع الملك منتوحتب الأول قبيل وفاته حدود مملكته كسابق عهدها إلى قسم الثعبان أي القسم العاشر .

نعلم أن ابن « تف ايبي » المدعو خيتي والذي كان معاصراً لملك الشمال خيتي الرابع (مري كارع) قد حارب مع ملوك الشمال في القسم الحادي عشر ضد ملك الجنوب .

بعد ذلك نعلم أن ملوك طيبة نجحوا في امتداد سلطانهم إلى شمال المنطقة الشمالية السابقة فاستولوا على أسيوط نفسها وهي في القسم الثالث عشر ، وبذلك ينتهي تاريخ أمراء أسيوط فعلاً أيام (خيتي بن تف ايبي). وتكون منطقة القسم الثالث عشر هي أعلى ما بلغ اليها ملوك طيبة .

ونعلم بعد ذلك من نصوص حاتنوب الواقعة شمالي أسيوط أي في القسم الخامس عشر أن حروبا قامت في هذه الجهة أدت إلى استيلاء ملوك طيبة على هذه المنطقة .

***

وأخيراً استطاع ملك طيبة المدعو « نب حبت رع » (منتوحتب الثاني) بعد ذلك من توحيد المملكة المصرية فابتدأ بذلك حوالي سنة ٢٠٧٠ قبل الميلاد عصراً جديداً ممتازاً في تاريخ مصر القديمة وهو المعروف بعصر التوحيد الثاني (عصر الدولة الوسطى) .

وقد استمر توحيد المملكة المصرية في عهد خلفه « سعنخ كارع » (منتو حتب الثالث) ونب تاوي رع (منتو حتب الرابع) وباقي ملوك عصر التوحيد الثاني .

وبهذه المناسبة نقول ان عدد ملوك بيت طيبة (المعروفين بملوك الأسرة ١١) وترتيبهم كالآتي على حسب أحدث الآراء :

(١) انتف الأول (سهرتاوى) (٢) انتف الثاني (واح عنخ) (٣) انتف الثالث (نخت نب تب نفر) (٤) منتو حتب الأول (سعنخ ايب تاوى) (٥) منتو حتب الثاني (نب حبت رع ويقرأ خطأ نب خرورع) (٦) منتو حتب الثالث (سعنخ كارع) (٧) منتو حتب الرابع (نب تاوى رع)

ويلاحظ ان بعض هؤلاء الملوك كان معاصراً لملوك البيت الاهناسي كما شرحنا

مفردات نباتية

محمود مصطفى الدمياطي بك

ورد بعضها ضمن مفردات ابن البيطار، وهي التي استعارها العرب من لغة المسيحيين الاسبانيين وسماها ابن البيطار اللغة اللاتينية . أوردتها مرتبة بحروف المعجم . وقد اعتمدت في تحقيقها على ما جاء في بحث العلامة لكايرك أخذ عناصره بالأخص من الترجمة العربية لديسقوريدس بالمخطوط ١٠٦٧ من التتمة العربية لدار الكتب الامبراطورية بفرنسا ونشره بالجريدة الآسيوية في يناير سنة ١٨٦٧ بعنوان « تعليق على الترجمة العربية لديسقوريدس والتراجم العربية عموماً تتمة للدراسات اللغوية عن ابن البيطار »

﴿ انطوبيا ﴾ هي الهندَب والهندَبا والهندبا والهندباء والعامة تقول هندبة وفي الاسبانية endibia والبرتغالية endivia والانجليزية endive; succory والفرنسية chicorée وفي اصطلاح النباتيين Cichorium — جنس بقل من الفصيلة المركبة .

﴿ بشتناقة ﴾ في الانجليزية parsnip والفرنسية panais: pastenague وفي اصطلاح النباتيين Peucedanum sativum — نبات من الفصيلة الخيمية .

﴿ بلنتاين ﴾ هو لسان الحَمَل وفي الاسبانية ihantem والانجليزية plantain والفرنسية plantain وفي اصطلاح النباتيين Plantago — جنس نبات من الفصيلة البلانتجنية عريض الورق أصفر الزهر حبّهُ كالحُمّاض .

﴿ بوبودية ﴾ وتسمى بالبَسْفايج وبالكثير الأرجل وبأضراس الكلب وبالبولوبوديون وفي الانجليزية polypody والفرنسية polypode وفي اصطلاح النباتيين Polypodium جنس نبات من المراخس له عروق دقاق إلى السواد والحمرة اليسيرة أو الى الخضرة ذات شعب كالدودة الكثيرة الأرجل .

﴿ جَقوطة ﴾ هي الشوكران وفي الانجليزية hemlock والفرنسية ciguë وفي اصطلاح النباتيين Conium — جنس نبات من الفصيلة الخيمية وهو المشهور في مفردات الأطباء .

﴿ جنتنو ﴾ هو السُلت وفي الاسبانية centeno وسمّاه ديسقوريدس tragus وفي الانجليزية rye والفرنسية seigle وفي اصطلاح النباتيين Secale — جنس نبات من الفصيلة النجيلية .

﴿ جنطورية ﴾ هي القنطاريُون والقنطُوريون وفي الانجليزية centaury; knapweed والفرنسية centaurée وفي اصطلاح النباتيين Centaurea — جنس حشيشة من الفصيلة المركبة مرّة الطعم جدًّا وتعرف في مصر باليرور والمرّير وسرّة النعجة .

﴿ رابنة ﴾ هي الفُجْل والفُجُل وفي الانجليزية radish والفرنسية radis وفي اصطلاح النباتيين Raphanus — جنس عشب من الفصيلة الصليبية له أرومة تؤكل ذات لحم أبيض وقشر أحمر أو أبيض أو أسود وورق عريض .

﴿ شالبية ﴾ هي الالسفاقن باليونانية وفي الانجليزية sage والفرنسية sauge وفي اصطلاح النباتيين Salvia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية . وتعرف في مصر بالمرْيميَّة والرّعل وشجرة الغزال والغبيش والعَرينْم .

﴿ شبوق ﴾ هو الخُمّان ويسمّى في مصر بالبَيْلَسان وفي الاسبانية sabugo والانجليزية elder والفرنسية sureau وفي اصطلاح النباتيين Sambucus — جنس شجر من الفصيلة البيلسانية .

﴿ شبينة ﴾ هي الأَبْهَل والعامة تقول الأُبْهُل بالضم وفي الانجليزية savin والفرنسية sabine وفي اصطلاح النباتيين Juniperus Sabina — شجر كبير من الفصيلة الصنوبرية ورقه كالطرفاء وثمره كالنبق .

﴿ شطرية ﴾ هي النَّدْغ والنَّدغ والسعتر البري وفي الانجليزية savory والفرنسية

sarriette وفي اصطلاح النباتيين Satureia — جنس نبات من الفصيلة الشفوية .

﴿ طمرجة ﴾ هي الطَرْفَاء والأَثْل وتسمى في مصر حَطَب أحمر وفي الانجليزية tamarisk والفرنسية tamaris وفي اصطلاح النباتيين Tamarix — جنس شجر من الفصيلة الطرفائية .

﴿ فلجة ﴾ هي المرخس الذكر وفي الانجليزية male fern وسماها ديسقوريدس filix وبالفرنسية fougère mâle وفي اصطلاح النباتيين Dryopteris Filix mas — نبات من السراخس .

﴿ قانترة ﴾ هي الكُزْبُرَة والكُزبَرَة والكَزبرة والكُسْبُرَة وتفتح الباء . معرَّب كُسْبَر بالكلدانية وتسمى بلغة اليمن تِقْدَة وفي الاسبانية coentro والانجليزية coriander والفرنسية coriandre وفي اصطلاح النباتيين coriandrum — جنس نبات من الأبازير فصيلته الخيمية ويعرف بزرها بالجلجلان .

﴿ قرنولية ﴾ هي القرانيا وتسمى في بلاد الجزائر قراصية وفي الانجليزية dogwood والفرنسية cornouiller وفي اصطلاح النباتيين Cornus — جنس شجر جبلي ثمره كالزيتون من الفصيلة القرانية .

﴿ قبرونش ﴾ هو النَبق (عن بوست) وهو غير السِّدْر المعروف وفي الاسبانية scambrones وبالانجليزية buckthorn والفرنسية nerprun وفي اصطلاح النباتيين Rhamnus — جنس شجر من الفصيلة النبقية .

﴿ لوره ﴾ هي الغار والرَنْد وفي الانجليزية laurel والفرنسية laurier وفي اصطلاح النباتيين Laurus — جنس شجر من الفصيلة الغارية له دهن كثير المنافع .

﴿ مطرنيس ﴾ هو القطلب وفي الاسبانية madronho والانجليزية arbute؛ strawberry-tree والفرنسية arbousier وفي اصطلاح النباتيين Arbutus — جنس شجر من الفصيلة الاريكية يكثر في جبال الشام دقيق الورق ناعم شديد الحمرة يحمل حبًّا

نحو العنب أخضر فاذا نضج كان أحمر كالياقوت طيب الرائحة حلو الى قبض إذا مضغ صار تفله كالتبن

﴿ ملمندر ﴾ هو البَنْج وفي البرتغالية memendro والانجليزية henbane والفرنسية jusquiame وفي اصطلاح النباتيين Hyoscyamus — جنس نبات من الفصيلة الباذنجانية . مسبت مذهب للحس . معرب بنك بالفارسية . ومن أسمائه في مصر التاتورة وسم الفار وشجرة السّكَران والسَّيكران .

﴿ نابه ﴾ هي اللفت والسلجم وفي الانجليزية rape والفرنسية navet وفي اصطلاح النباتيين Brassica Napus — نبات من الفصيلة الصليبية .

﴿ يذرة ﴾ هي اللبلاب الكبير والعصبة وعاشق الشجر وحبل المساكين والقِسّوس وفي الاسبانية Yedra والانجليزية ivy والفرنسية lierre وفي اصطلاح النباتيين Hedera جنس نبات من الفصيلة الارالية ورقه كورق اللوبيا يتعلق على الشجر ويسمى في مصر بالعلّيق

﴿ ربه قرجياله ﴾ هي الهيوفاريقون وفي الاسبانية coraion zilho والانجليزية Saint John's wort والفرنسية millepertuis وفي اصطلاح النباتيين Hypericum جنس نبات من الفصيلة الهيوفاريقية

﴿ ينجه ﴾ في الاسبانية junco والانجليزية cat's-tail والفرنسية massette وفي اصطلاح النباتيين Typha — جنس نبات من الفصيلة النيفية يسمى في مصر بالبردي والديس .

﴿ ينجه ﴾ هي الإذْخر والإذخر وطيب العَرَب والخلال المأموني لأن المأمون كان يتخلل بها وفي الاسبانية junco والانجليزية lemon grass والفرنسية citronnelle; jonc odorant وفي اصطلاح النباتيين Andropogon Schoenanthus حشيشة طيب الرائحة من الفصيلة النجيلية .





الفتح مستمر : للاستاذ فؤاد صرّوف

هدية المقتطف سنة ١٩٤٤ : ٢٤٨ صفحة من القطع الكبير

عني الأستاذ فؤاد صروف بأن يغذّي الوهبة التي وهبها بطبعه ، وأن يقوّي الاتجاه الذي اتجهه في التعليم ، بأن يتابع البحث والكتابة في الموضوعات الطبيعية ، والتوسع فيها ، والسعي في شعابها المختلفة ، فتابع نشر بحوثه في المقتطف وفيما ألقي من محاضرات حتى كادت تكون حياته العلمية مقصورة على هذه الناحية . وللأستاذ صرّوف قدرة خاصة على تبسيط العلوم التي تناول مختلف فروعها بالكلام فيما كتب من المقالات والكتب ، فإذا قرأته غائصاً في أدق الموضوعات الطبيعية أو الحيوية ، فكأنك تقرأه قاصّاً طلي العبارة منسجم القول مبيناً مفصحاً ، بعيداً عن التعقيد ، قريباً من عقلك وقلبك . فأسلوبه من الدعائم التي قرّبت موضوعات العلم من ذهن الأديب والفنان ، وذلك أقصى جهد يبذله مثقف من المثقفين ، وأسمى مرتبة يطمع فيها من يحاول أن يجعل المعرفة بوجهاتها المختلفة ملكاً مشاعاً للجميع .

***

وكتابه الأخير « الفتح مستمر » دليل حيّ على ذلك فقد تناول فيه ثلاث جهات من العلم : الكون والمادة ، وأسرار الجسم الحي ، والصحة والمرض ، وهي جهات على اتساع ما بينها من الفروق ، لمّها العلم في بورة واحدة وجمع بينها في بوتقة بعينها من الفكر ، فبسّطها الأستاذ صرّوف أروع تبسيط وأدّاها أحسن أداء .

الطب التجريبي

مدخل الى دراسته

تأليف كلود برنار ، ونقله عن الفرنسية الدكتور يوسف مراد والاستاذ حمد الله سلطان ، وأخرجته ادارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية بمصر ، ويقع في ٢٤٦ صفحة من القطع الكبير ، طبع المطبعة الاميرية سنة ١٩٤٤ .

جاء في مقدمة ذلك الكتاب ما يلي :

« وكلود برنار (١٨١٣ — ١٨٧٨) أحد العلماء الذين شعروا في أثناء بحوثهم العلمية بضرورة الوقوف هنيهة وإعادة النظر في أسس العلم العقليـة والتجريبية ، وفي صلة العلوم بعضها ببعض ، وفي قيمة القوانين العلمية من حيث يقينيتها ومن حيث هي عنصر من عناصر تفسير الكون بأسره . وقد ضمَّن كلود برنار آراءه الفلسفية في هذه المشاكل في عدة مقالات نشرتها مجلة العالمين ، وفي هذا الكتاب الذي نقدمه لقراء اللغة العربية وهو « المدخل إلى دراسة الطب التجريبي » .

وقد حصر كلود برنار همه في التقريب والملاحظة والتجربة وزاد إلى ذلك أن قرَّب بين الاستنتاج والاستقراء ، مبيناً أن منهج العلوم التجريبية ليس منهجاً استقرائيًّا فحسب ، بل إنه منهج استقرائي استنتاجي أو كما يقال منهج فرضي استنتاجي . وقد أشار بذلك إلى الأثر الهام الذي يخلفه الحدس في تكوين الفكرة التجريبية ، وإلى ضرورة الشك أولاً في نتائج التجربة حتى التأكد من صحتها نهائيًّا ، باقامة التجارب العكسية .

ولا شك عندنا في أن وزارة المعارف قد أدَّت خدمة جليلة بنقل هذا الكتاب وطبعه. ولا يسعنا إلاَّ أن نأمل من الوزارة أن تنشر هذا الكتاب بين طبقات المتعلمين نشراً واسع النطاق . فإنه دستور ثابت للبحث العلمي والعقلي ، وأساس تعليمي من أروع الأسس التي ينبغي أن يعم العلم بها طبقات المثقفين . والمبادىء التي تضمنها لا يستغنى عن العلم بها عالم أو أديب أو فيلسوف . ولقد سمعت من قبل بعض النقاد يقولون أن الكتاب قديم وإنه قليل الفائدة في عصرنا الحاضر . ولم أكن قد اطلعت عليه . فاذا بالترجمة العربية توحي لمن يطلع على هذا الكتاب أنه جديرٌ بما أحدث في الفكر الفرنسي في عهده ، وأنه أجدر بأن يحدث في هذا الجيل من أبناء العربية ، أثراً أبين وأعمق .

وأسلوب الترجمة على وجهٍ عام أكمل ما ينتظر لمثل هذا الكتاب العقد ، فقد بذل فيه الترجمان الفاضلان جهد المستقصي ، وغالب الظن انه لم يفتهما من المعنى الأصلي شيء ، اللهمَّ إلاَّ الهنات التي لا يسلم منها مترجم ينقل من لغة الى لغة ، والترجمة كما قيل كنقل روح

من جسم إلى جسم ، لا يؤمن استيحاشها منه . وبالرغم من هذا فان العبارات بيّنة والأسلوب سهل على قدر ما يمكن السهولة في كتاب يخرج من عقل فيلسوف عالم، يجمع فيه بين طرفين متباعدين .

ولا يفوتنا أن نذكر هنا ان في بعض الاستعمالات التي وردت في المقدمة وفي صلب الكتاب ما كان ينبغي أن لا يفلت منه مترجميه وهما من نعلم منزلتهما من العلم والفضل . ولكنه على كل حال نقص القادرين على التمام . فقد ورد في المقدمة استعمال كلمة فيزياء مرات ومرات فيزيقا ، فذكر كاتب المقدمة الفيزيقية الكيميائية ثم فيزيائية وكيمائية ، ثم قال الكيمائيين والفيزيقيين وكلها تعريب لكلمة — Physics — وكان من الواجب أن يوحد رسم الكلمات طلباً للضبط ورفع اللبس عند المبتدئين. كذلك ورد في ص ١٦٨ العبارة الآتية: « في الأوردة وفي الشرايين ، وفي القلب الأيمن وفي القلب الأيسر » الخ . والواقع انه ليس هنالك قلب أيمن وقلب أيسر ، وإلاّ لأصبح للانسان قلبان ، وانما له قلب واحد فيه بطينان ، البطين الأيمن والبطين الأيسر .

على أن هذا لا ينقص من قيمة الكتاب . فانما هذه الهنات وغيرها ، وهي قليلة ، هنات شكلية لا تصيب من الموضوع والجوهر شيئاً . وانا لنستحث وزارة المعارف على تزويد الحركة الفكرية بالكثير من أمثال هذه الكتب الفذة التي هي لدى الواقع لب النهضة الفكرية ، والنور المشعّ الذي يلمع في سماء الفوضى التي تغمر حركة التنوير الحديثة في مصر ، وقد أخذ بعض الناشرين يلقون في تيارها بكتب سمجة الموضوع غثة الفكر ، يؤديها أسلوب كأنه الرصاص ، صلب بارد ثقيل .

ا . م

من حرب عالمية الى سلم عالمي

تأليف الاستاذ ليون بليلوس باللغة الانجليزية — ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط ، طبع بمدينة الاسكندرية سنة ١٩٤٤

From Global War To Global Peace. By Leon Belilos. A Twentieth Century Charter and a Rallying Ground. The Means of Achieving the Principles of the ATLANTIC CHARTER.

The Ways and Means of Achieving the Six Essential Freedoms Regarding : WANT — FEAR — WORSHIP — EXPRESSION — IGNORANCE — WAR

عالج المؤلف في كتابه هذا مشكلات هذا العصر بروح قلما تعجب رجال السياسة . فكل الكتاب من أوله إلى آخره مصروف الى الاصلاح على أساس تغيير العقلية الانسانية بالقضاء

على النزعتين السياسية والحربية وتحكيم العلم في ترويض النزعات الانقلابية وعلاج المساوىء التي ورثناها عن الماضي بتنظيم الحياة على أساس علمي ينصرف إلى دراسة الادواء الاجتماعية دراسة علمية ويقوّم النظم على قاعدة ما تدعو اليه الحاجة من تغيير في النظم القائمة تغييراً يضمن سير التطور الطبيعي للجماعات ، ويمنع عنها سوآت الانقلاب والثورات .

فالمؤلف من التطوريين الذين يقولون بأن التطور أساس الاصلاح ، وإن ذلك الأساس ينبغي أن يأخذ الخطا الطبيعية التي تنقله درجة بعد درجة إلى آفاق جديدة بحيث لا يشعر الناس بأنهم تسللوا من حالة الى أخرى ، إلاَّ بأن ينظروا إلى الماضي فيقيسون ما هم فيه على ما كانوا فيه ، فلا تصدمهم في الحياة نظامات عتيقة تشعرهم بأن الحالات القائمة من حولهم قد تخلفت عن حاجاتهم المعيشية وآمالهم ومطامعهم ، شأن الناس في هـذه الفترة العصيبة . ولا شك في أن القلق الذي يسود عالم الانسان الآن إنما يرجع إلى أن الجماعات خلفت من ورائها نظامات يريد رجال السياسة والحرب أن يلزموها الخضوع لها قسراً ، غير ناظرين إلى أن حكم التطور الطبيعي لا رادَّ له ، وإن ما تطلب الطبيعة أن يكون، لا بد من أن يكون .

وبالرغم من أن السيـاسيين ورجال الحرب يشعرون بنفس القلق الذي يشعر به العلماء ورجال الاجتماع ، فانهم لا يزالون في أسر تلك العقليـة القديمة التي تزين لهم أن مماحكات السياسة وقنابل المدافع في استطاعتها أن تكبح سير الطبيعة وأن تقف تيار النشوء الاجتماعي

وسنعود إلى الكلام بالتفصيل عن وجهات من النظر تصدّى لهـا المؤلف وسنتناولهـا بالعرض والنقد في صفحات المقتطف، وسننشر أول شيء مقالاً بعنوان « الخطايا العشر » في عدد مارس المقبل، نفصل فيه القول فيما مهد به المؤلف لكتابه من الاخطاء التي توسع هوَّة الخلف بين الشعوب والطبقات والأفراد . والكتاب جدير كل الجدارة بأن ينعم النظر فيه، كل من يشعر بأن العـالم في حاجة إلى الخروج من دائرة الفكرة القومية إلى دائرة الفكرة العالمية ، التي يرمي اليها ميثاق الأطلنطي .

أعلام الاسلام : محمد عبده

تأليف الدكتور عثمان أمين — نشرته لجنة دائرة المعارف الاسلامية : ١٤٢ صفحة من القطع الصغير

هو الكتاب الخامس في سلسلة أعلام الاسلام التي تصدرها لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية وقد تقدمه أربعة كتب أخرى من حجمه في عمرو بن العاص ومنصور الاندلس وبشار بن برد والمعز لدين الله . والعمل في قوامه من أمجد الأعمـال الأدبية التي فكر في اخراجها شبابنا المتعلم ، بورك فيه . فان حياة الأمم انما تظل فائضة بصور الحياة ما اتصـل

حاضرها بماضيها ، فاذا انفصمت تلك العقدة الحيوية ، انفصم معها رباط القوة التي تصل بين المقومات الحيوية ، فتنحل الحياة الفكرية وتفسد معها المعاني التي تعيش الأمم وتستهدي بها ، معاني الوطنية والمجد القومي والشعور بالعزة ، تلك المعاني التي هي الروح الحي المنبث في تضاعيف العقل الاجتماعي وتختفي دائماً في وعي العقل الفردي ، فتمد الحياة بجهتيها جهة الفرد وجهة الجماعات، بالمثاليات التي تنير لها سبيل التقدم وتمدها بالقيم التي تقودها في الحياة.

ولقد أحسن القائمون بنشر هذه السلسلة باختيار موضوع هذه الحلقة إذ خصت بها رجلاً لا نزال جميعاً متأثرين بحياته، كما أحسنوا في أن عهدوا بها إلى أستاذ استطاع أن يبسطها أبين البسط ويؤديها أقوم الاداء . فالترجمة عن حياة الرجل تمضي في تدرج طبيعي من الطفولة الى الرجولة إلى نبوغ الكهولة ، ويظهرك على السبيل التي تكونت بها عقلية الامام محمد عبده والحوادث التي أثرت في تكوينها حتى أصبحت ما هي . وقد أشار مؤلفها الفاضل إلى ما كان للمترجم عنه من أثر في الصحافة وحرية الفكر والسياسة والحكمة ، وبين ما كان من أمر علاقته بالفيلسوف الكبير جمال الدين الافغاني ، وما تركت في عقله المتوثب من أثر ثابت باقٍ .

على أن الترجمة قد أظهرت لنا ناحية أخرى من نواحي حياة الامام ، ولو ان إظهارها لم يكن بطريق ايجابي ، بل كان بطريق سلبي صرف . وقد التزم المؤلف في ذلك ناحية الأمانة الصرفة . فانه لم يتكلم في حياة الأستاذ من حيث اتصالها بالحركة العلمية التي قامت في خلال حياته في أوربا فقضت على المذاهب القديمة في العلم والفلسفة بقيام مذهب النشوء والتطور في انجلترا وما شارك قيامه من معارك فكرية في ذلك العصر . ولم يتعرض لما تكلم فيه الاستاذ والسيد جمال الدين من الرد على الدهريين وقد عنيا بهم التطوريين أنصار مذهب النشوء والارتقاء ، وحسناً فعل . فان الخطوة التي خطاها السيد والشيخ، كانت خطوة علمية ولكن الى الوراء ، فأهمل الكلام فيها . والحق ان الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها فلم يصيبا فيه ، ولم يوفقا في نقودهما التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر .

وأسلوب الكتاب رائع فيه بساطة وجمال . ولا استدراك لنا على ما استعمل فيه المؤلف الفاضل من الألفاظ إلاّ قوله « اللاهوتي » (ص ٢٥) وقد عني بذلك الامام محمد عبده ، ويحسن أن نترك هذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي . وغالب ما أذهب اليه انه لا يوجد لاهوتية في الاسلام ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين .

أبو العلاء المعري

فيلسوف الشعراء

رسالة من منشورات مجلة المسرة للاستاذ الاب يوحنا فاخوري البولسي ، استاذ الآداب العربية في معهد الرسالة البولسية — حريصا ، لبنان — ١٩٤٤ — ٦٠ صفحة من القطع الكبير ، أصدرتها مطبعة القديس بولس

ان الفارق الذي نلحظه بين القول بأن المعري فيلسوف الشعراء أو أنه شاعر الفلاسفة ، ينبغي أن يكون له وزن كبير في أي نقد نتناول به مذهب هذا العبقري الفذ . فهو إما أنه فيلسوف إلى الشعر، أو انه شاعر إلى الفلسفة . ولكل من الاعتبارين اثر في توجيه القول. فاذا نظرنا في مذهبه من حيث هو فيلسوف فرضنا عليه أن يكون علمه بالفلسفة أساساً للنقد ، وإذا نظرنا فيه من حيث هو شاعر فرضنا عليه أن يكون فنه الشعري أساساً للنقد . والأستاذ الفاضل مؤلف هذه الرسالة ممن يقولون بأنه فيلسوف غلب عليه الشعر ، في حين أننا نرى أنه شاعر غلبت عليه الفلسفة . بل نذهب إلى أكثر من هذا فنقول إنه شاعر ينزع إلى التأمل الفلسفي ، لأن قولنا بأن المذهبية الفلسفية لا التأمل هي الغالبة عليه، ظلم قد يسوقنا إلى وجهة في النقد مضلة مفسدة . بل ان لدينا دليلاً قاطعاً على أنه شاعر قبل أن يكون متأملاً في الفلسفة. فان جماع ما قال من الشعر عبارة عن فن من القول الشعري عبّر به عن آراء ذاعت في عصره نقلت عن فلاسفة العالم الحاف به ، تلك الآراء التي غزت العقل العربي شمالاً من اليونان وغرباً من الاسكندرية وشرقاً من فارس والهند ، فهو القيثارة الشعرية التي ارسلت نغمات من التأمل الفلسفي عبرت أقوى تعبير عن نزعات عصره الفكرية ، فليس لنا أن نؤاخذه على ذلك التناقض الذي بدا في بعض أشعاره إزاء مذاهب تباينت فيها آراء الفلاسفة تبايناً ، وليس التناقض الذي تقع عليه في شعر ابي العلاء إزاءها إلاّ تعبيراً صريحاً عن اختلاف وجهات النظر الفلسفي فيها .

وقد أثبت المؤلف الفاضل وجهة نظرنا في جميع صفحات الرسالة . فانه عندما تناول الكلام في مختلف نواحي نظراته الفلسفية ردها إلى أصول انحدرت منها ، كما أنه مهد للكلام في تأملات أبي العلاء بكلام العلامة عبد العزيز الميمني الراجكوتي وهو في لبه اجمال لما ذاع في عصر أبي العلاء من الآراء الفلسفية وهي النبع الذي استقى منه شاعر الفلاسفة جميع تأملاته. والرسالة في جملتها من الدراسات القوية التي تمتاز بسلامة الاسلوب ووحدة الفكرة والبيان.

كتب حديثة ظهرت

لوديع فلسطين

---

١ — تاريخ ماقبل التاريخ

لعبد الله حسين — مطبعة الشباب الحديثة

مؤلف علمي جليل كتبه الأستاذ عبد الله حسين المحامي لجمع بين علوم الجيولوجيا والانتروبولوجيا والحيوان والفلك والتاريخ والاجتماع والفلسفة والأديان. وقد حلا للاستاذ عبد الله أن يلخص محتويات الكتاب فقال في مقدمته: « أما موضوعه فانه يتناول تلك العصور البعيدة التي سبقت الحضارات التاريخية القديمة المعروفة مبتدئاً بالكون وظهور الحياة على الكرة الأرضية عارضاً التقلبات الطبيعية ونشوء الانسان وغرائزه وانتاجه المادي والعقلي. ولما كان هذا الموضوع يتطلب من الاستقصاء والاستيعاب ما تقصر عنه هذه الصفحات، كان حماداي أنني جمعت أصوله ونسقت فصوله وأوجزت تفاصيله ميسراً للمستزيدين أن ينهلوا من مراجعه المدونة في آخره... داعياً أبناء مصر والعروبة الى استكمال بحث هذا الموضوع ». وصدّر المؤلف كتابه بشعار اتخذه لنفسه: « كل كتاب جديد لا يضيف جديداً إلى المعرفة، إما أن يكون رجعاً لصدى غيره، أو لغواً غير جدير بعناء القراء ».

فكتاب « تاريخ ما قبل التاريخ » من أفضل المراجع التي تسرد تاريخ الحياة على الأرض وكيف تكوّنت الكرة الأرضية والاجرام السماوية، وكيف ظهرت الحياة على وجه البسيطة. وهو يعرض نظريات أفلاطون وأرسطو وداروين وغيرهم. ثم يعكف المؤلف على دراسة المعادن المختلفة ونصيب مصر منها، ويروي قصص الكتب المقدسة عن الخليقة والطوفان وغيرها من الحوادث الهامة التي سبقت التاريخ، ويسرد فصولاً في الأديان وفلسفاتها، والسحر والدجل والطب والصيدلة. ثم يعود فيضمن كتابه فصلاً عن اللغة والكتابة والطباعة، ثم يتبعه بفصل آخر عن الصناعة والعادات المختلفة والتقاليد القومية ويعرض لموضوع المكيفات والخمور، ثم يكتب عن الفن والأدب والتمثيل والشعر، ويختم كتابه بفصل عن مؤتمرات الرياضة الدولية وقراءة الكف وشرح مبدأ التصوف.

ب — لافوازييه

لعبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة إقرأ

ليس من يجهل لافوازييه وفضله العظيم على العلم التجريبي وتفانيه في خدمة الانسانية طريق هذا المضمار . وقد أصدرت مكتبة المعارف أخيراً كتاباً عن لافوازييه ترجم فيه عن حياته الأستاذان عبد الحميد يونس وعبد العزيز أمين . وذكر ثانيهما في مقدمة الكتاب أنه وقف في صيف عام ١٩٣٧ في شارع « لامادلين » بمدينة باريس غير بعيد عن دار الاوبرا أمام تمثال « لافوازييه » العالم الشهيد ; فذكر انه ولد عام ١٧٤٣ ، وأن فرنسا خاصة والعالم المتحضر عامة سوف يحتفل بعد ستة أعوام بمرور مائتي عام على مولده .

« وانقضت السنوات الست،فاذا فرنسا ، بل واذا الانسانية المتحضرة كلها ، قد صرفتها الغاشية العامة عن لافوازييه وغير لافوازييه . وقد رأيت براً بهذا العالم الشهيد الذي أتى في علم الكيمياء بما يشبه الخوارق ، وهو العلم الذي أعيش له وأعيش عليه ، أن أقدّم إلى قراء العربية هذه الترجمة المتواضعة إحياءً لذكراه ».

يشتمل الكتاب على ترجمة لحياة لافوازييه وسرد لفتوحاته في عالم العلم ونشاطه في الحدب على دور العلماء ومؤسساتهم وتضحياته في سبيلها بكل شيء . كذلك يحتوي الكتاب صوراً من نشاط لافوازييه السياسي ، وكيف استشهد ضحية لغدر السياسة الحمقاء . وفي ذلك يقول المؤلفان : « صعد الى المقصلة رابط الجأش . وما هي إلاّ لحظة حتى كانت الثورة الفرنسية قد ارتكبت أشنع جريمة في تاريخها إذ حزّت المقصلة رأس لافوازييه ، وفصلت بذلك عن فرنسا أعظم عظمائها » .

وليس ثمة ريب في عبقرية لافوازييه. فقد استطاع وهو حدث أن يعدّ مشروعاً ضخماً لإضاءة باريس بطريقة اقتصادية سهلة . واستطاع وهو شاب في مقتبل العمر أن يجالس كبار العلماء ويناقشهم مناقشة الندّ للندّ ، بل إنه حطّم كل تقليد وأصبح عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية ولما يتجاوز الخامسة والعشرين .

هذه بعض النواحي الظاهرة في حياة لافوازييه ، وقد بسّطها العالمان الشابان عبد الحميد يونس (لا عبد المجيد كما ذكر خطأً في عددٍ سابقٍ من المقتطف) ، وعبد العزيز أمين ، في الكتيب العلميّ « لافوازييه » .

ج — قصة البنسلين

للدكتور مصطفى عبد العزيز — مطبعة المعارف بمصر — سلسلة اقرأ

وثمة كتاب علمي ثالث يبحث في قضية من أحدث القضايا التي تشغل الرأي العام في العالم وتذهله . فما أكثر الألسنة التي لاكت كلمة البنسلين في السنوات الأخيرة ، وما أطول ما كتبته الصحف عن تلك المادة السحرية العجيبة التي تعد أعظم الكشوف العلمية الحديثة

وقد عنّ للدكتور مصطفى عبد العزيز أن يفرد كتاباً خاصاً عن البنسلين يذكر فيه قصته باطناب ، مراعياً الرويّة العلمية في الكتابة والدقة في السرد . فكان مجهوده موفقاً إذ استطاع أن يجمع بين شتات المعلومات التي لم تعرف بعد طريقها إلى الكتب العربية ، ورتّبها ، وسلسلها ، وعزّزها بالصور والرسوم ، فخرج كتاباً شاملاً يستطيع الرجل العادي أن يقرأه ويستوعب محتوياته دون عناء كبير .

ولما كان البنسلين نوعاً من الفطر ، فقد رأى الدكتور مصطفى أن يبدأ كتابه بتوضيح أنواع الفطريات ومزاياها وأضرارها ، وانتقل من ذلك إلى التحدث عن الأمراض الخبيثة التي تولدها البكتيريا والميكروبات وهما الأمراض التي لولا كشف البنسلين لظلت كالسيف السلط على رقاب البشر ، ترعى وتفتك بلا ضابط أو رادع ولكن شكراً للاستاذين فلمنج وفلوري اللذين كان لهما الفضل في كشف البنسلين والتبحر في دراسته حتى أمست عقّارات السلفا لا تعد شيئاً مذكوراً الى جانبه ، وهما العقّارات التي كانت إلى وقت قريب تُعدُّ إحدى معجزات الطبّ الخارقة .

وقد جاء في خاتمة الكتاب : « وإذا كان لكل قصة من قصص الحياة مرماها ومغزاها ، فمغزى قصة البنسلين هو ذلك الصراع المستمر بين الكائنات من فطريات وميكروبات »

تلك قصة البنسلين ، فاتنة الدنيا في القرن العشرين !

قاعدة جليلة

في التوسل والوسيلة

أصدرت دار المنار الطبعة الرابعة من هذا الكتاب لشيخ الاسلام ابن تيمية حرر فيه أهم المسائل الدينية التي اضطرب فيها المتأخرون ، وبين مذهب السلف الصالح فيها وهي : التوسل والاستغاثة والدعاء والسؤال والشفاعة والقسم على الله ببعض مخلوقاته والاستسقاء والزيادة والخوارق وحدود التوحيد والشرك وحق الله على عباده وحقهم عليه والفرق بين المخلوق والخالق والقول في التشريع ومراتب الحديث والمحدثين .

باب الأخبار العلمية

البحث الحديث وسموم الافاعي والعقارب

ليس هذا مجال الحديث المفصل في ما يصنع من أنواع اللقاح والمصل للأمراض المختلفة ولكن لا يفوتنا أن نذكر طرفاً من عجيب المباحث الحديثة التي تمَّت في العصر الحديث لصنع مصل يقي من سموم الأفاعي والعقارب وبهذا المصل استطاع الانسان أن يفوز في النزاع بينهُ وبينها .

وقد أخذت المصانع الطبية تصنعُ مصلاً يدعى انتيفنين يرجع الفخر في اكتشافهِ إلى الدكتور كالمت الفرنسي ، يقي من لدغ الأفاعي في أميركا الشمالية . وغيرها كالأفعى المسماة ذات الأجراس ، والأفعى ذات الرأس النحاسي وهو يباع في أنابيب يستطيع الصياد أو الرحالة أو أي شخص آخر معرض للدغ الافاعي ان يحملهُ في جيبهِ ويجب أن يستعمل حالاً بعد حصول اللدغ أو على الأكثر في أثناء ١٢ ساعة الى ٢٤ ساعة بعد اللدغ ويبقى فعالاً مدة خمس سنوات بعد تحضيره .

ومما يؤخذ على هذه الطريقة أن نوعاً واحداً من المصل لا يستطيع أن يقي من كل أنواع سموم الأفاعي ، فالرجل الذي يتعرَّض للدغها يجب أن يكون حاملاً في جرابهِ أنواعاً مختلفة من الأمصال الواقية من سمومها وعليه أن يكون جامعاً لجميع حواسهِ حين يلدغ ليعرف نوع الأفعى التي لدغتهُ ليستعمل المصل الخاص بها والذي يقي من فعل سمها .

والعلماء ماضون في البحث للتغلب على هذه الصعوبة . ولا ريب في أنهم بالغون الغرض وفقهم الله .

يؤخذ السم من الأفعى بجعلها تعض بأنيابها على إناء زجاجي مستطيل تحيط بهِ مادة غروية . فيستقطر من كل أفعى ٣٠ قطرة من السمّ إلى ٤٠ قطرة . أو يقبض على الأفعى وتدلك فوق الغدد التي تحتوي على سمّها ، فيتقطر السم من نابيْها . ثم يحقن هذا السم في حصانٍ حقناً متزايدة المقدار ، مدة ١٦ شهراً في الغالب وبعد ما تنقضي بضعة أيام على الحقنة الأخيرة يفصد الحصان ، ثم يعاد فصدهُ ثلاثة أشهر بعد ذلك ، ويحضَّر المصل الواقي من السم كما يحضَّر مصل الدفتيريا .

ويسرنا أن نقول أن للدكتور شوشه بك وكيل وزارة الصحة مباحث على جانب عظيم من خطر الشأن في تحضير المصل الواقي للتطعيم ضد سم العقارب . ولا جدال في أن لدغ العقارب منتشر في بعض انحاء القطر

المصري وخصوصاً في بعض انحاء القاهرة والواحات والصعيد ، وينجم عنه جملة وفيات كلَّ سنة بين الأطفال عادة .

ففي سنة ١٩٢٢ مثلاً حدثت ٨٣٦ وفاة بلدغ العقارب

وقد أثبت الدكتور طلعت سنة ١٩٠٤ إنه يمكن تلقيح الماعز ضد سم العقرب وان مصل الماعز الملقح يبطل فعل هذا السم وتوسع الدكتور طه سنة ١٩٠٨ في هذا الموضوع ونجح في تطعيم الخيل ضد هذه السموم فوجد أن مصل الخيل المطعمة ذو فائدة في علاج المصابين . وهذه الطريقة وإن تكن صعبة الاستعمال وخطرة على الحيوانات المحقونة إلاَّ إنها المستعملة في تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب .

وقد استخرج الدكتور شوشه بك بعد ذلك القواعد العلمية التي يمكن بمقتضاها تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب فيحدث مناعة فعالة وأثبت أن الارانب والخنازير الهندية يمكن اكسابها مناعة فعالة بحقن المصل المحضر في طريقته ، وإذاً يمكن تحضير المصل الواقي من لدغ العقرب من الخيل بدون تعريضها للخطر الذي كانت تتعرَّض له في طريقة طه القديمة .

من معجزات العلوم والفنون

أعظم اكتشاف زراعي

اكتشف الدكتور جوستاف اجلوف رئيس المعهد الكيميائي الاميركي ان مسحوق الكولكيثين وهو مسحوق أصفر سحري يضاعف حجم الخضراوات . وتكهن عن مستقبل منافعه بقوله انهُ ييسر زراعة أنواع جديدة من الفواكه والخضراوات فآثرت تفصيل هذا الاكتشاف العجيب نقلاً عن إحدى المجلات العلمية الاميركية :

في وسع المرء أن يصبح عالماً عبقريًّا من علماء النبات الذين تمكنوا من الاحتيال على الطبيعة . وقد يتاح له أن يفوق في هذا الفن الحديث ما بلغه بربنك في زمانه وذلك بمقدار طفيف لا يزيد على ملء نصف ملعقة من ملاعق الشاي من المواد الكيميائية التي سنصفها لك فيما يلي . فتتمكن من إنتاج فواكه وأزهار ضخمة وتوقف نمو غيرها بحيث لا تعدو جزءًا من حجمها الاصلي وتنمي نباتات عجيبة جدًّا في أشكالها .

وبهذا العلاج الكيميائي الطريف يتسنى علاج النبات الضعيف وجعله قويًّا وتوليد طماطم خالية من البذور ثم قلب النبات وجعل جذوره تنمو فوق ساقه . وفي وسعك إذا شئت أن تقلع هذا النبات من منبتهِ ثم تعيد غرسه بالعكس بحيث تدفن أوراقه في التربة

وتبقى جذوره في الهواء فلايلبث أن يتأصل في الأرض من جديد وتنمو فيه أغصان جديدة .

وهذه الأمور جميعها بل ما هو أكثر منها يتسنى آداؤها بمساعدة هرمونات وفيتامينات نباتية صناعية حديثة الاكتشاف وما زالت بعض النتائج التي تنتجها لا تخلو من الغموض إلى حدّ ما . أو هي كما قال أحد الزراع (أمور لا نستطيع إدراك كنهها) فيكفي القول « إنها وسائل تتخذ لتنظيم نمو النباتات » أو بتعبير آخر إنها وسائط تساعد الزراع على اكثار الحاصلات وتحسين أحوالها . ومن شأن هاتيك المواد الكيميائية تقوية النبتة حتى تستطيع شق طريقها في التربة شقًّا أسرع من المألوف . ثم توليد جذور أضخم من المعتادة تنتج نبتة قوية تحمل فاكهة يانعة من طراز واحد .

الهرمونات الجديدة تقمع الآفات الزراعية

ويمكن بعض هذه الهرمونات الجديدة المعاونة على قمع الآفات الزراعية . كما إن بعضها يسوغ استعماله لتأخير النمو الطبيعي للنبات . وهذا من شأنه وقاية المحصول من أضرار تقلب الأجواء في حالة نموه عاجلاً بحرارة مباغتة قبل زوال خطر الصقيع . ومنها هرمون يرش على شجر التفاح فيثبت ثمره في أغصانه حتى يتم علاجه فيتقى البستاني الخسائر التي تنشأ عن سقوط التفاح بنفسه أو بالرياح وكذلك يتيسر منع بعض الخضراوات من التزريع حين تخزينها كالبصل والبطاطس بأن ترش اكياسها باحدى تلك المواد الجديدة

أسماء الهرمونات ومنافعها

— وتعرف هذه المركبات الكيميائية التي تحدث هذه المعجزات الزراعية بأسماء فنية هي كما يأتي : —

حامضا الاينديول أسيتيك Indole acetic والليفيولينيك levulinic acid ونفتالين أسيتاميد وفيتامين ب رقم ١ — وغيرها من الفيتامينات . والعالم الأمريكي الذي يستعمل هذه المواد وغيرها هو جورج بي وارنر صاحب المباحث الأصلية في استعمال فيتامين ب — ١ — في النبات وذلك لصنع أشياء جمة مما يستطاع صنعها في معهد مباحثه في مدينة بسادينا في كليفورنيا حيث يشاهده الزائر يرش قطرة من أحد السوائل في وعاء يحوي أزهاراً مقطوفة فتظل غضة أسبوعاً كاملاً . ولا غرو فقد تناول الأستاذ ورنر عقل أزهار الكاميليا ، وهي مشهورة بكونها عسيرة التأصيل كل العسر ، فنقعها في سائل كالماء وذلك قبل غرسها في التربة . فلما غرست

بعد ذلك ، ولدت مجموعات قوية من الجذور في أسبوعين . وبڤيتامين ب رقم ١ — وغيره من المواد الكيميائية أتيح لذلك العالم توليد جذور لأي نوع كان من عقل النباتات التي يعلوها لحالا حيّ فجعلها تنمو نموّا منظماً . والخضراوات ونباتات الأزهار والشجيرات والاشجار التي يعالجها على هذا النمط ، تنضج قبل غيرها ، وتكتسب رونقاً أجمل منه في أخواتها وتكون أقوى من مثيلاتها التي حرمت العلاج . وأضحى في وسع الزارع الأمريكي أن يحذو حذو ورنر وزملائه من الباحثين في كثير مما فعلوا من المعجزات الزراعية لأن كثيراً من المواد الكيميائية التي يستعملونها توجد في أسواق أمريكا على شكل مزيجات تحتوي على مواد منبهة للنمو مختلفة الأنواع تستعمل لأغراض شتى . وما على الشاري إلاّ أن ينتقي منها الصنف الذي أثبت الاختبار صلاحيته لما يصبو اليه زراعه من النتائج ولكن ربما تحقق الآمال في بعض الاحوال لأن النباتات جميعها ليست صالحة بدرجة واحدة لقبول التقوية العظيمة التي تنجم عن الهرمونات في أغلبها . كما إن هاتيك المواد الكيميائية لا تنتج نتائج عجيبة في التربات التي تزخر بالمواد القلوية . فعلى الزارع الحذر في اتباع الارشادات الخاصة بأية مادة من هذه المواد الكيميائية الجديدة القوية لنمو النباتات إذ تقضي تلك التعليمات باضافة قطرة واحدة من أحد محاليلها الى كل خمسة جالونات من الماء الذي يستعمل لري النبات أو رشه وهذه هي الجرعة المعتادة .

أما إذا اشتد تركيز حامض الاندول أسيتيك فانهُ يقتل النبات . وكذلك المحلول الضعيف من المادة عينها يقف نمو النبات فيجعلهُ ناضجاً وهو ما زال نفاشياً [1] . على حين أن للمحلول الضعيف جداً من المادة نفسها تأثيراً عكسياً إذ يجعل النبات نضراً

كيف تولد الصفات الممتازة في النباتات

أما إذا أريد توليد صفات ممتازة في النباتات فيستعمل نوع آخر من المواد الكيميائية السابقة الذكر ونخص منها اللحلاح colchicine وهو سم زعاف يستخرج من جذور الكركم الخريفي autumn crocus وكان هذا العقار يعدّ في أحد العصور الغابرة من الادوية المألوفة لعلاج داء النقرس . ويمكن الحصول عليه من الصيادلة كسائر المواد الكيميائية المشار اليها . وتكفي قطعة صغيرة منهُ للقيام بالعمل المقصود . فيذاب جرام من اللحلاح في ثمن جالون من الماء المقطر . ويمكن تخفيفها أيضاً عند استعمالها . أو يستعمل عشرة مليجرامات من اللحلاح ممزوجة بجرام من دهن الصوف lanolin fat

(١) النفاشي — الفزعة بلغة العامة — وهو للذي لم يتكامل نمود الطبيعي في حينه

فيكفي لكثير من التجارب ، إنما يجب إبعاد كل من ذينك المزيجين عن الايدي ، والوجه لأن كلاً منهما سم باطني خطر .

ويبدو لنا ان اللحلاح يشل وظيفة انقسام الخلية في النبات . وهذا مما يسبب مضاعفة الصّبْغِيات (الكروموسومات) في الأجزاء النباتية التي تستهدف له . والصبغيّات هي عوامل الوراثة في النبات . وأي تغيير يحدث في عددها يغير أيضاً مميزات النباتات . وتتجلى هذه التغيرات في الجيل الثاني من حياتها . ويمكنك نقع البذور بضع ساعات أو أيام في محلول مخفف من اللحلاح وتجفيفها ثم بذرها كالمعتاد . ومن الصعب التكهن بدقة عن النتائج التي تعقب ذلك . ولكن مما لاشك فيه ان النبات ينمو نمواً مشوّهاً فاسداً وينتج أزهاراً غريبة الشكل . والبذور التي تنتج من هذه الازهار هي التي قد تولد أوراقاً فائقة الحجم وأزهاراً وأثماراً ضخمة فيجب الاحتفاظ بهذه البذور لاعادة زرعها ويحتمل أن تكون عقيمة وربما تنتج نباتات تحمل ثماراً مبكرة قبل غيرها من جنسها أو تكون مقاومة للعطش أو تصير ذات مميزات جديدة . والوسيلة الوحيدة لمعرفة النتائج هي استمرارها .

وبدلاً من نقع البذور في المحلول المشار اليه يمكنك استعمال قطرات قليلة منه في الماء كرش يرش به النبات عدة مرات كل أسبوع فتحصل على النتائج عينها

ومن الوسائل العلمية الدائمة الاستعمال تربية طائفة من البذور أو النباتات التي لم تعالج بهذا العلاج الكيميائي (اللحلاح) وذلك في حوض من حياض الرقابة ليتسنى لمربيها المقابلة بين نتائج النباتات المعالجة وغير المعالجة .

كيف يستعمل اللحلاح وما نتائجه ؟

وللزارع الخيار في استعمال عجينة اللحلاح الممزوجة بدهن الصوف (لانولين) استعمالاً موضعيًّا ، وذلك للنباتات التي تكون قد أخذت في النمو فيدهن ساق النبات بمسواك مغموس بقليل من العجينة الكيميائية المذكورة آنفاً . أو وضعها على رؤوس النباتات أو على غصن من أغصانها فلا يلبث الجزء المدهون منها أن ينتفخ . وكذلك سرعان ما ينمو الغصن المعالج فيصير أضخم من سائر الأغصان وأسرع . ثم تحفظ البذور التي تنتج من هذا النبات لتصير وسيلة للوقوف على التغيرات التي تطرأ على الجيل التالي لها .

وتنبت الجذور من الساق في المكان الذي توضع فيه العجينة . وهذه هي التجربة التي يتمكن بها من نقل النبات من تربته ثم اعادة غرسه منكساً . والجذور التي تتولد من اللحلاح تنمو في الأرض.

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني من المجلد السادس بعد المائة

عدد مارس من المقتطف

بعض موضوعات العدد

على هامش الطب : سليمان عزمي باشا

العالم العربي : اسماعيل مظهر

لحظة الصفر : قصة

الضمان الاجتماعي : مشروع بفردج من ناحيته : التاريخية والاجتماعية

الدبلوماسية اليابانية : صلاح الدين الشريف

الريف والزراعة فى الولايات المتحدة : وديع فلسطين

اصلاح الخط العربي : الدكتور متى عقراوي

الخطايا العشر : عشر خطايا اجتماعية تسبب

الانقسامات والحروب

عدو الكذب : قصة : حسين المهدي سنام

ارتياد جزيرة العرب : للاستاذ محمد عبد الغني حسن

المخترعات الحديثة في خدمة المجتمع : محاضرة لأحمد زكي بك

مفردات النباتات الطبية : للاستاذ محمود مصطفى الدمياطي بك

مكتبة المقتطف

باب الأخبار العلمية

وغير ذلك من المقالات والبحوث ، مدبجة بأقلام كبار الكتاب في العالم العربي

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السادس بعد المائة

١ مارس سنة ١٩٤٥ — ١٦ ربيع اول سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

– ٢ –

لغز الورقة الخضراء

في طليعة ألغاز الطبيعة التي يوليها العلماء أعظم اهتمام ، لغز الورقة الخضراء . فالأوراق الخضر ، أو جميع الأجزاء الخضر في كل نبات ، هي أكبر وأعجب معامل كيميائية على سطح الأرض ، فهي في ما تركبه ، تعدُّ أعظم منتج لمواد الطعام ، وأغزر مورد للوقود ، وبفعلها يرتبط مصير الانسان نفسه . وأظهر مظاهر هذا النشاط الحيوي الكيميائي الصناعي ، في الأوراق الخضر ، هو اصطلاح ضوء الشمس وثاني أكسيد الكربون والماء على تركيب السكر . وهذا التركيب يتم في خلايا الورق والجزوع . ولما كانت الأوراق والجزوع ، خضراً على الغالب ، فان معنى ذلك انها لا تستطيع أن تنتفع إلاّ بطائفة من أشعة الشمس ذات طول معين . وبعد أن يتركب السكر (أو أصناف السكر) يتحوَّل إلى نشاء وخشب . وقد قدَّر العلماء ان مساحة تبلغ ذراعاً مربعة من سطح الورق الأخضر تركب ثلث أوقية من السكر في النهار ، ولا تحتاج الاَّ إلى أكسيد الكربون والماء من المواد الأولية .

وقد كشف العلماء أن هذا العمل الكيميائي ، يحتاج الى أنزيمات لكي يتم . فهي مواد تؤثر في التفاعل الكيميائي الحيوي ، على نمط تأثير الوسيط الفلزي في التفاعل الكيميائي العادي ، أو هي تفعل فعل الأنزيمات الهاضمة في اللعاب في تهيئة عناصر التفاعل للتفاعل . وهذه الأنزيمات توجد في الورقة . أما الخضرة فلا غنى عنها كذلك . وقد أجرى فريق

من العلماء تجربة بلغت الغاية دقة وعجباً،فقد أحدثوا تغييراً في بناء الصبغي (الكروموسوم) في نباتات اتخذوها موضوعاً للتجربة في المعمل ، فدمرت في الصبغيات ، عوامل الوراثة التي تحدث الخضرة في النبات . وصار ورق النبات أصفر لا أخضر ، فثبت لهم ان هذا النبات عاجز عن أن يصنع بطريقته المألوفة كل ما يحتاج اليه من غذاء . فعمدوا حينئذٍ ، الى ترقيع جذع النبات ، الذي حدث فيه هذا التحول العظيم ، بجذع أخضر ، يستطيع أن ينتفع بضوء الشمس ، فاذا هو في منزلة مصنع يصنع الغذاء الذي مست اليه حاجة النبات ، حين أزيلت خضرته

إن طريقـة انتفاع النبات بضوء الشمس لتركيب السكر من المـاء وثاني أكسيد الـكربون لهي من أعظم الحقائق شأناً في تاريخ الحياة على سطح هذا السيار . ومع ذلك فلم يتيسر للعلماء النفوذ إلى سرها . والناس لا ينتفعون بنتاج هذا التركيب ، إلاّ في المرتبة الثانية أو الثالثة على الغالب . نعم قد نكون ممن يحبون أكل السلطة الخضراء ، أوالخس أخضر غضًّـا ، فننتفع بما يصنعه لنا النبات، ولكننا على الأكثر ندع المواشي تأكل النبات الأخضر (أي المصانع الـكيميائية وما تصنع) ثم نأكل نحن لحم المواشي.

ولو استطعنا أن نفعل منذ الولادة ، ما تفعله الورقة الخضراء ،أي أن ننتفع بضوء الشمس في تركيب السكر من الماء والهواء ، لقضي على مشكلـة من أخطر المشكلات التي يواجهها البشر . وإذاً لظفرنا بكل ما نحتاج اليه من غذاء بأقل جهد ، ولأشرق فجر عصر جديد في حياة الناس . ولذلك نرى العلماء مكبين على استطلاع السر، ومن يدري فقد نصبح ذات صباح فنقرأ خبراً مطويًّـا في زاوية محجوبة من صحيفة ، أن السرّ قد كشف،على حين نقرأ في الصحيفة نفسها عنواناً مكتوباً بحروف عراض ، وصفَ معركة أو جريمة أو مولد خمسة توائم .

وإذا كشف السرّ ، فعسى أن يكون للجهاز الرحوي (سـيكلوترون) يدٌ كبيرةٌ في ذلك . وأحد منافع الجهاز الرحوي ، انه يصلح لتحويل طائفة من العنـاصر غير المشعّـة ، عناصر مشعّـةً . وليس يهمّـنا في هذا البحث أن مدة إشعاع هـذه العناصر تختلف طولاً وقصراً . وإنما يهمّنا ان العلماء صنعوا أجهزة دقيقة ، تتبين مسير ذرّات هذه العناصر في أجهزة الهضم وأوعية الدم ، في أجسام الحيوان والنبات ، وقد عمد العلماء إلى التوسل بذرات العناصر التي استحدث فيها الإشعاع بالجهاز الرحوي ،لاستكشاف المواد والتفاعلات الكيميائية في النبات . فقد تمكن الدكتور روبين أحد أساتذة جامعة كاليفورنيا من أن يضع قدراً مشعًّـا

من ثاني أكسيد الكربون وتتبع امتصاص النبات لجزيئات هذا المركب المشعّ . والطريقة التي اتبعها في تحويل ثاني اكسيد الكربون مشعًّا تقوم على إطلاق قذائف الجهاز الرحوي على ذرات البور فتقذف منها ذرات كربون مشعّ فتستعمل في توليد جزيئات ثاني اكسيد الكربون فتكون مشعة ، فتوضع هذه الجزيئات في فضاء وعاء تنمو فيه نباتات مثل الشعير والقمح وعبّاد الشمس فتمتصها ، ثم يشرَّح النبات أو يفحص بالمطياف أو يحلل تحليلاً كيميائيًّا لمعرفة ذرّات الكربون فيه . وقد عانى هذا العالم مشقة عظيمة في بدءِ البحث لأن ذرات الكربون المشعة تفقد قدرة الإشعاع في ست ساعات ، ولذلك عمد إلى ذرّات نظير isotope من نظائر الكربون لا تفقد قدرة الإشعاع المستحدث فيها إلاَّ بعد انقضاء نصف مليون سنة . وعليها مدار التجارب الآن .

ومع ذلك فلا يزال سرُّ الورقة الخضراءِ باب موصداً ، يحجب وراءَهُ كنوزاً من المعرفة لا تقوَّم بمال .

لغز بدء الحياة

ان الغالب في دوائر علوم الأحياء ، هو القول بأن نشوءَ الأجسام الحية على سطح الأرض تمّ من مواد غير حية . فكيف نشأت الخلية الأولى ؟

والخلايا ككل شيء في الكون مركبة من جزيئات والجزيئات مركبة من ذرّات . وكل ذرّة تشبه — إلى حدٍّ ما — نظاماً شمسيًّا قوامه دقائق موجبة الكهربائية وأخرى سالبتها . فالمادة الأصلية التي تتقوّم بها الخلية الحية ، هي مادة لا حياة فيها . ولكن الخلية تنشطر وتتكاثر . والانشطار ليس مقتصراً على الخلية ، بل يشمل مئات وألوف من الأجسام الداخلة في تركيبها كالصبغيات وما أشبه . ومن هذه الخلية ، تتركب جميع أجسام الأحياءِ ، من سمك وطير وبشر ، ومن مجنون في مستشفى إلى رجالٍ بلغوا قمم العبقرية ، من أمثال سقراط وميكل انجلو ونيوتن وبيتوفن . فكيف بدأت هذه الخلية ؟ وكيف اصطلحت عوامل الطبيعة على جمع الذرّات والجزيئات جمعاً ينشيء منها خلية حية ؟

ليس يملك العلم جواباً شافياً عن هذا السؤال. ولكنهُ يملك رأياً نوجزهُ فيما يلي :

بعد ما بردت كرة الأرض حتى غدت حرارة قشرتها معتدلة ، كان جانب كبير من سطح الارض يغطيه الماء . وكان الغلاف الغازي المحيط بالأرض يحتوي على بخار الماء وثاني إكسيد الكربون والنتروجين وبعض غاز النشادر ، ومن المرجح ان مقدار الأكسجين فيه كان يسيراً جدًّا . أما الأكسجين الذي نجده في الهواء الآن فردّه إلى الأكسجين الذي كان متحداً

بالكربون في ثاني إكسيد الكربون. وقد انطلق الاكسجين من عقاله بعد أن ترسب الكربون صخوراً محتوية على كربونات الجير مثلاً، أو فحماً في عروق الفحم، أو نفطاً في طبقات الارض. وكان لنموّ النبات شأن أي شأن في انجاز هذا العمل الواسع النطاق. ففعل التركيب الضوئيّ، يتمّ في الاوراق الخضر، بفعل اليخضور (كلوروفيل) وإشعاع الشمس، فيفصل الكربون عن الاكسجين — وهما متحدان في ثاني إكسيد الكربون كما تقدم — فينطلق الاكسجين حرًّا في الهواء ويترسب الكربون. ومن أدق البحوث العلمية الحديثة، بحث غرضه الموازنة بين مقدار الاكسجين الحر في الهواء، ومقدار الكربون المستقر في أشكال شتى في قشرة الارض، وقد أسفرت هذه الموازنة عن حمل العلماء على القول بأن كل أكسجين الهواء تقريباً مرده الى الاكسجين الذي كان متحداً بالكربون في ثاني إكسيد الكربون عند ما كان مقدار هذا الغاز المركب أعظم جدًّا من مقداره الآن.

ولا يخفى أن الاوزون يحجب الاشعة التي فوق البنفسجي بعض الحجب. وجزيء الاوزون قوامه ثلاث ذرات من الاكسجين. ومعظم اوزون الهواء الآن في طبقات الجو العليا فهي أشبه ما يكون بدثار يدثر الارض على بعد عظيم من سطحها. ففي العصور الخالية عند ما كان مقدار الاوكسجين الحر في الهواء أقل كثيراً مما هو الآن، كان ما يصل سطح الارض من الاشعاع الذي فوق البنفسجي، أعظم مما يصلها الآن.

ومن الحقائق المعروفة أن جزيئات ثاني إكسيد الكربون، تتفاعل متأثرة بالاشعة التي فوق البنفسجي، مع جزيئات الماء، فتتولد جزيء مادة «كربو ايدراتية» بسيطة كالنشا أو السكر. فاذا كان هناك نشادر في المكان الذي يحدث فيه هذا التفاعل، تولد جزيء أشد تعقيداً وأكبر حجماً من جزيء السكر او النشا. وقد يقترب في حجمه وتعقيد بنائه من جزيء البروتين. وعلى هذا الوجه تتولد المادة العضوية من المادة غير العضوية. ولكن هذه المادة العضوية ليست مادة حية، فكيف نفخت فيها شعلة الحياة.

على كرّ الزمن تتولد مقادير كبيرة من المواد العضوية كافية لتغذية الاحياء البسيطة التي قد توجد أو تظهر، والرأي أن تأثير أشعة الشمس، ولاسيما الاشعة قصيرة الامواج في طيفها أفضى على الزمن إلى نشوء جزيئات عضوية على جانب من تعقيد البناء كافٍ لظهور بعض خواص الاحياء فيها، واذا كان هذا الفعل قد تمّ حقيقة فالعوامل المؤاتية لنمو هذه الاجسام الحية كانت متوافرة. فالطعام وفير والمنافسة منتفية. أما اذا ظهرت جزيئات من هذا القبيل على النحو المتقدم فمسألة فيها نظر. ولعل جزيئاً واحداً ظهر وتكاثر، فجميع الاحياء تتأثر تأثراً واحداً بالضوء المستقطب، وتتحرك حركة واحدة في مستوى الاستقطاب بينما

هناك حركتان مشاهدتان في الأجسام غير الحية . وفي الأجسام العضوية البسيطة كأصناف السكر والنشا فكأن هذه الصفة دليلٌ على أن جميع الأحياء ترتد الى هذا الأصل — الجزيء — البعيد البسيط

واذا ظهر جزيءٌ من هذا القبيل واتصف بخواص الأحياء فنشوء الأحياء منهُ وتنوعها مسألة زمن طويل وتفاعل مستمر . ويكفي أن نسلم بنظرية التطوُّر العضوي لتفسير أشكال الأحياء المتعددة التي تعمر سطح الأرض سواءٌ أنباتية كانت أم حيوانية

وغاية ما يستطيعه البحث العلمي الآن في سعيه الى ادراك أصل الحياة انما هو التوفر على بحث اشكال الحياة البدائية وهي مرتبة بحسب تعقد بنائها وتنظيم جزيئاتها كما يلي من الأدنى الى الأعلى : الانزيمات ، الفيروسات الراشحة ، البكتيريوفاج (آكل البكتيريا) ، البكتيريا ، البروتوزى . الأحياء المتعددة الخلايا من نبات وحيوان والانسان في أوجها .

ولعلّ البكتيريا هي أدنى الأجسام تعقيداً وتنظيماً في البناء التي ثبت انها حية حقيقة ولكن بعض الأفعال التي تتصف بها أجسام دون البكتيريا مرتبة ، تشبه أفعال الأجسام الحية فعلاً من بعض نواحيها .

ولا يعلم ان الانزيمات الموجودة في الخمائر ، والفيروسات الراشحة والبكتيريوفاج ، تستطيع أن تتكاثر وحدها ، فالانزيمات تتكاثر في أثناء فعل التخمر ، والفيروسات تولد خواصها في أجسام أرقى منها مرتبة في سلم الحياة كما يحدث عند ما يصاب ورق التبغ بمرض مرده الى فيروس والبكتيريوفاج يتكاثر في أثناء قضائه على البكتيريا أما البكتيريا والبروتوزوى فتتكاثر بالانشطار الخلايا على ان تكون درجة الحرارة وأحوال البيئة من طبيعية وكيميائية مؤاتية لهذا الانشطار . ولذلك من أشق الامور أن يحكم العلماء : أتعدُّ الأجسام التي دون البكتيريا أجساماً حية حقيقةً أم لا . فالأشعة التي فوق البنفسجي أفعل جدًّا في تدمير البكتيريا والأحياء التي فوقها في سلم الحياة ، منها في تدمير الأجسام التي دونها في هذا السلم . وهذه الحقيقة قد تكون كافية لتعليل وجود خلايا نصف حية على سطح الارض عندما كان الاشعاع الذي فوق البنفسجي الواصل الى سطح الارض أعظم جدًّا — لقلة الاكسجين الحر — منه الآن . ومن الجائز ان الأجسام التي في أسفل السلّم — أي الانزيمات والفيروسات والبكتيريوفاج — التي تعجز الآن عن التكاثر وحدها بغير معونة تسدى اليها من أجسام أخرى ، كانت قادرة على التكاثر في أحوال أشد مواتاة لتكاثرها عند ما كانت الارض في بدء مرحلتها ككرة صلبة . ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد أنّ الجنين الانساني يعيش الساعات الاولى بعد تكونه في

معزل تام عن الاكسجين ، والنمو في هذه المرحلة الاولى من حياة الجنين يسير على وجه أشبه ما يكون بفعل التخمر وهو فعل يتم بمعزل عن الهواء أي بمعزل عن الاكسجين . ولعلّ هذه المرحلة من حياة الجنين ليست إلاّ ظلاً للمرحلة الاولى من مراحل الحياة على سطح الأرض .

لغز الملاءمة في الاحياء

كيف تنشأ أشكال الحياة العليا — في النبات والحيوان — من الأشكال الدنيا ؟

ليس ثمة ريبٌ في حقيقة التطوُّر . والعلماء يعرفون جانباً كبيراً من السبيل الذي سار فيه التطوُّر منذ أقدم العصور . ولكنّ المسألة الأساسية المحيّرة هي فهم سبب التطوُّر وطريقته . والعلماء اليوم أضعف ثقة بما قيل في سبب « أصل الأنواع » وطريقة تطورها حتى تلائم البيئة التي تعيش فيها ، مما كانوا منذ ستين سنة أو سبعين .

ففي الخمس والثمانين سنة التي انقضت منذ نشر كتاب أصل الأنواع ، جمع العلماء من الأدلة على ثبوت حقيقة التطور ما يجعلها في حرز حريز من سهام النقد . ولكنهم جمعوا كذلك من الحقائق عن الوراثة والتباين ، ما يثبت ان الآراء القديمة التي اقترحت لتعليل التطور لم تعلله قط . فنظرية لامارك في توريث الصفات التي يكتسبها الآباء في حياتهم لا تقوم على أساس « ثابت » أو يجب تعديلها في ضوء ما عُرِف عن تأثير الأشعة السينية في عوامل الوراثة . وإذا كانت الصفات المكتسبة كما وصفها لامارك لا تورّث فالأنواع الجديدة المتصفة بصفات تمكنها من ملائمة نفسها للبيئة لا يمكن أن تنشأ . أما مذهب داروِن القائم على أن لكل صفةٍ من صفات الجسم الحيّ مقاماً من حيث أثرها في الصراع الضعيف الناشب بين الأحياء ، وأن الصفات التي تمكن الكائن من الظفر في هذا الصراع تورّث الاجيال التالية فأقرب إلى الاستنتاج المنطقي منهُ إلى الحقيقة . ومعظم التباينات الداروينية لا قيمة لها في هذا النزاع ولا هي تورّث ، إنما هي في الواقع اختلاف يسير عن المتوسط السوي يقتضيه ناموس الاحتمال الرياضي أو يفسّرهُ ، وهي أضعف من أن يكون لها هذا الأثر الخطير في تغير مصير صاحبها وسلالتهِ ، وهي تورّث إذا كانت قريبة من المتوسط ، وتضعف قوة توريثها على قدر ما تبعد عنهُ .

على اننا في العهد الذي هدمت فيه نظريتا لامارك وداروِن في تعليل التطوُّر لم يخرج أحد من العلماء تعليلاً جديداً كاملاً يحلُّ محلَّ التعليلين القديمين . ولعلَّ رأي ده فريز في « التحوُّل الفجائي » mutation أهمها .

« البقية في آخر الاخبار العلمية »

فؤاد صروف

على هامش الطب

بعض ما يجب أن يعرف الانسان

عن جسمه ونفسه في صحته ومرضه

للدكتور سليمان عزمي باشا

قد سبق ذكر تركيب العرق فليراجعه من يشاء — ونضيف على ذلك أن أهم غدد الجلد ثلاثة أنواع — غدد العرق وغدد تفرز مادة دسمة وغدد تفرز مادة صماخية وإفراز هذه يختلط مع بعضه فيزيد في لزوجة العرق على الجلد.

ولنفس السبب إذا وجد يوم شديد الحرارة بدرجة واحدة في القاهرة والاسكندرية فان الانسان يتأثر من الحر بالاسكندرية لرطوبة جوها أكثر مما يتأثر منه في القاهرة أو في أي جهة أخرى أقل رطوبة من الاسكندرية — لأن تبخر العرق من الجلد يحصل بسهولة في الجو الجاف — ومن حسن حظ المصطافين بالاسكندرية وشواطىء البحر ان حرارتها تكون عادةً أقل من حرارة داخل البلاد وان بها نسيم خفيف يلطف حرارة الجو وينعش الجسم — ومن المشاهد وقد لاحظته على نفسي ما يحصل في أوروبا وبالأخص في السهول والأماكن المشبعة بالرطوبة — ان خطر ازدياد الحرارة فيها يكون أكثر منه في البلاد الحارة فتزداد حرارة الجسم تدريجيًّا لصعوبة تصريفها ويحصل هبوط في البنية واعياء شديد من الحر قد يؤدي الى ارتخاء العضلات وضيق التنفس وسرعة ضربات القلب وضعفها ثم الى هبوط وقد يعقبه الموت ولذا نقرأ في جرائد أوروبا حوادث وفيات في الصيف من اعياء الحر Heat Exhaustion أكثر مما يحصل في البلاد الحارة الجافة ومرض اعياء الحر شيء آخر خلاف ضربة الشمس Sun stroke .

• أذكر دليلاً آخر على تأثر الانسان من الحرارة في الجو المشبع بالرطوبة ما شاهدته عندما يشتغلون في البساتين بين الأشجار وتحت ظلالها إذ يظهر عليهم التعب بسرعة رغماً عن أنهم يشتغلون تحت ظلال الأشجار ولا يشعرون بالتعب بهذه السرعة إذا ما اشتغلوا في الخلاء في وسط الغيط والسبب واضح . وهو أن النسيم يكون معدوماً بين الأشجار

الكثيفة كما يكون الهواء بينها وتحت ظلالها مشبعاً بالرطوبة — فلا تحدث سرعة تبخر العرق الذي يلطف تبخره حرارة الجسم .

• والمعروف أن العرق إذا كان خفيفاً معتدلاً يؤدي فائدة في تعديل الحرارة وينبئنا أن وسائل مقاومة الجسم للحرارة قد ابتدأت أن تعمل لنحترس ولنقلل مجهوداتنا ونستظل. ويستبشر أقارب المرضى إذا ما هلَّ عرق على مريضهم لأنه يلطف من شدة الحمى ويبشر بقرب الشفاء ويتفرون من العرق الذي يحدث والجسم منخفض الحرارة ويعدونه دليلاً على الهبوط .

• لنفرض الآن أن البنية لا تتكيف بوسائلها الطبيعية لتخفيف ازدياد الحرارة فماذا تكون النتيجة . النتيجة تكون ظهور أعراض الاعياء من الحر التي تودي إلى الوفاة إن لم تتدارك بالعلاج السريع وليس التأثر من ازدياد الحرارة قاصراً على الانسان . بل نراه يؤثر تأثيراً سيئاً على الحيوانات ذات الوبر للأسباب الآتية :

أولاً أن حرارتها الطبيعية أعلا من حرارة الانسان الطبيعية، فحرارة الانسان الطبيعية ٣٧ درجة كما ذكرنا وأما حرارة الكلاب والقطط فهي ٣٩ درجة مئوية وحرارة الخراف والدجاج ٣٩ ½ والفراخ لا تعرق كثيراً لوجود الريش وكل من شاهد الفراخ في الحر يجدها ترفع أجنحتها عن جسمها وتفتح فمها وتتنفس بسرعة لتلطيف حرارة جسمها . وأما الكلب فان حركة تنفسه تزيد ويخرج لسانه لتصريف الحرارة — ويلاحظ أن الكلاب والدجاج والعصافير تغمس جسمها في الماء أو ترش عليه الماء لتخفيف الحرارة — وأغلب الحيوانات الشبه مائية كالبط حرارتها العادية تقرب من الاربعين ولذا فانها لا تقدر أن تعيش إلاَّ بجوار المياه . وحب الجاموس للماء مشهور لنفس السبب وخصوصاً أن نسبة مسطح جلدها إلى وزنها وجسمها قليل فتكون نسبة تصريف الحرارة عندها ضعيفة فتستعين بالعوم في الماء لهذا الغرض . وليس الاعياء من الحر قاصراً على الانسان لأنه يصيب الحيوانات فكثيراً ما تحصل وفاة للغنم إذا مشيت في الحر وقد حصل فعلاً في مزرعة ألبان بجوار القاهرة حادثة اعياء شديد من الحر لعدد كبير من الجاموس لأنها تركت مدة طويلة في الشمس فظهرت عليها أعراض مقلقة زالت عندما نقلت إلى الظل ورش عليها الماء .

وكثرة الملابس وضيقها لا يسهل عملية تشعع الحرارة ولا تبخر العرق وتكون بمثابة الوبر الغزير من جسم الحيوانات الوبرية والريش من جلد الطيور . وعند المبدنين (السمان) تعيق طبقة الدهن السميكة تحت الجلد فقد الحرارة منه بواسطة التشعع كما تعيق انتظام

الدورة الدموية في أوعية الجلد الشعرية ولذا يتعب البدينون من الحر أكثر من غيرهم .

شاعت في وقت ما عادة طلاء الجلد بمادة لزجة للتسلية في أعياد الكرنفال وغيرها وقد توفي بعض الأشخاص من هذا السبب عند وجودهم في أماكن شديدة الحر لفقد الجلد وظيفة تصريف الحرارة بواسطة العرق والإشعاع وكان الطلاء اللزج سبب هذه الاعاقة عن تأدية الجلد لهذه الوظيفة

شاعت أخيراً طريقة تكييف الهواء وهي طريقة لها فوائدها ومضارها ولكن منافعها أكثر من ضررها ولا تضر إلاَّ إذا أسيء استعمالها . ولا يجب أن تخفض الحرارة بواسطتها في الصيف إلى درجة كبيرة وإن لا ترفع في الشتاء إلى درجة كبيرة أيضاً حتى لا يحصل فرق شاسع بين حرارة الغرفة وحرارة الشارع ، لأن ذلك يساعد على الاصابة بالبرد إذا ما دخل الانسان الغرفة صيفاً أو خرج منها شتاءً ثم إلى الشارع لأنه يتعرض لفرق الحرارتين . فإذا كان الشارع في الصيف حرارته ٣٩ درجة وتكييف حرارة الغرفة على ١٥ كان الفرق ٢٤ درجة وهو فرق محسوس . وقس على عكس ذلك في الشتاء فتسهل الإصابة بالنوازل . ومن الضرر استعمالها في غرف الاطفال الأصحاء فإنها تكييف الحرارة لهم بدل أن تكيف بنيتهم الحرارة، حسب الظروف بالوسائل الفزيولوجية — فتكون النتيجة أن تضعف هذه الوظيفة عندهم . ومسألة كثرة الملابس لها نفس المضار ولكن بدرجة أقل . وعلى الآباء أن يعوّدوا أطفالهم من الصغر على قلة الملابس وعلى مواجهة التغيرات الجوية باحتراس ليعيشوا عيشة قريبة من الطبيعة فتنمو معهم وظائف المقاومة وتكييف البنية على مختلف الظروف . ومن فوائد تكييف الهواء استعمالها صيفاً في غرف الاطفال المرضى باسهال الصيف الخطر على حياتهم، وقد لوحظ أن تكييف الهواء باعتدال واحتراس في غرفهم بالمستشفيات يسهل عليهم الشفاء .

وقد استعمل الجرّاحون تكييف الهواء في غرف العمليات الجراحية فكانت لها مزايا لا يستهان بها ، وتظهر فائدة ذلك واضحة جلية إذا ما علمنا أن الإنسان وهو تحت تأثير البنج يفقد إلى درجة كبيرة وظيفة تكييف الحرارة البدنية ولا بد من وسائل اصطناعية لتكييف الحرارة حتى لا يتعرض المريض أثناء العملية للاصابة بالبرد . ولهذا السبب يلاحظ دائماً عند إنشاء المستشفيات أن تكون قاعة العمليات متوسطة بين حجر المرضى وأن يعمل على أن لا يتعرض المريض لتيارات الهواء في الطرقات اثناء نقله من غرفة العمليات إلى غرفته.

• ونظرية صنع الترموس الذي شاع استعماله وعمت فوائده أساسها وضع الشيء المراد حفظ برودته أو حرارته في اناء صنع بحيث لا تصرف جدره الحرارة لا بطريقة

الاشعاع ولا بطريقة توصيل الحرارة إلى ما جاورهـا . وقبل صنع الترموس كانت تستعمل أوانٍ صمّ المسام لحفظ الماء شتاء مثل الدورق الزجاجي أو الصيني---وفي الصيف تستعمل الأواني ذوات المسام مثل القلل الفخار فيرشح الماء من مسامها ويتبخر على سطحها فيمتص الحرارة بعملية التبخر فيبرد الماء . ويساعد الانسان عملية التبخر هذه بوضع قطعة من القماش، حول الاناء ووضعه في مكان مظل به نسيم خفيف ، فقطعة القماش بتبللها والنسيم بجريه يزيدان حركة التبخر . والزمزمية مغطاة بطبقـة من القماش السميك يبلل لنفس هذا الغرض في الصحراء .

• يمكننا بعد كل هذا الشرح أن نذكر شيئاً عن الحميات. وقبل أن نتكلم عنها يجب أن نميز بين ارتفاع الحرارة أو زيادتها بدون سبب مرضي، وبين ارتفاعها وازديادها بسبب مرضي ، مكروبي أو غير مكروبي . يوجد لفظان متشابهان ولـكنهما اصطلاحيًّا غير مترادفين فلفظ حرارة زائدة Hypethermia معناه مجرد ارتفاع الحرارة لأي سبب كان. وتستعمل في الغالب في أحوال ارتفاع الحرارة من سبب غير مكروبي أو ما شابه المكروبات أو الفيروس. كأن يكون الارتفـاع إثر امتصاص الدم المنسكب في الأنسجة عقب الصـدمات وعقب الـكسور ، أو من حقن اللبن أو حقن زيت الـكبريت التي تسبب ارتفاعاً في الحرارة وتعطى عادة لعلاج بعض الأمراض مما لا داعي لاطالة الشرح فيه . وأمَّا لفظ حمى Fever فقد أصبح لفظاً اصطلاحيًّا دالاً على ارتفاع الحرارة المسبب عن عدوى مكروبية أو ما شابهها ، موضعية كانت أو عمومية أو عن عدوى فيروس Virus وليست الحمى هي المرض بل هي ظاهرة أو علامة من أهم علامات المرض . فإذا قلنا التيفوس فهذا اسم المرض والحمى احد أعراضه وبحكم العادة نقول حمى التيفوس مع ان كلمة تيفوس كافية وذلك من بقايا الماضي، حيث كان كل ارتفاع حرارة يسمى حمى وعند ما ابتدأ الأطباء يميزون أنواع الحميات صاروا يذكرون لفظ حمى وبعدها لفظ نوعها كقولهم حمى التيفوس وحمى التيفود والحمى الراجعة والحمى القرمزية وهكذا. وهنالك أمراض حمّية مهمة جدًّا جرى العرف على ذكرها بدون أن ترافقها لفظة حمى مثل الجدري والحصبة والطاعون .

• تعد الحمى كما قلنا علامة من علامات المرض وتتبع سيراً خاصًّا. ومدة معلومة لكل مرض ، وتصحبها أعراض أخرى نتيجة تفاعل عام في البنية لمقاومة المرض . واتخذت درجة الحرارة مقياساً لشدة المرض وخفته ، ولو ان بعض الأعراض الأخرى قد تدلنـا على خطورة المرض وعدم خطورته أكثر مما يدلنا عليه مجرد ارتفاع الحرارة — وهذه الأعراض

مثل قلة البول وسرعة ضربات القلب والحالة العصبية العامة للمريض ، بأن يكون متنبهاً أو مهتاجاً أو قلقاً أو متناوماً أو هاذياً إلى آخره .

• وكما قلنا عن حرارة الجسم الطبيعية نقول عن سير الحرارة وارتفاعها عند المريض. فان بعض الأشخاص ترتفع حرارته بسهولة وغيره لا ترتفع بسهولة ، ويظهر ذلك عند استعمال الطعم الوقائي أو العلاجي فانا نشاهد بعض الأفراد ترتفع حرارته ارتفاعاً كبيراً وبعضهم ترتفع قليلاً .وقد لاحظت في الأسرة الواحدة هذه الظاهرة إذ حدث أن عالجت اخوين من مرض حمي واحد ، ومن مصدر عدوى واحد . وكذلك إذا أعطيتهم حقناً من الطعم للوقاية بمقدار واحد ، فتكون الحرارة شديدة عند أحدهم عن الآخر مع تساوي الظروف والاحتمالات . وقد يعلل ذلك بعامل شخصي أو بأن وسائل تكييف الحرارة عند أحدهم أفضل منها عند الآخر . كل هذه وغيرها رءوس مسائل تستدعي البحث ومصر بلد به كثير من الأمراض خصوصاً المعدية والوبائية تستدعي انشاء معهد أبحاث خاص لها لفحصها وتعليمها ، إذ لا يكفي المجهود الشخصي الفردي في ذلك ، لأنه لا بد من تتابع البحث وأن لا يقف البحث بعد موت أحد الباحثين . وفي أمثال هذه المعاهد يكون البحث مستمراً وتسهل طرقه ووسائله لمن يريد أن يشترك في بحث ما ، أو يعطي معلومات قيمة عما شاهده ليقوم المعهد ببحثه . لأن البحث العلمي في هذا العصر أصبح عملاً تعاونياً يشترك فيه جملة أشخاص كل فيما خصص له . وقد نوهت عن فائدة هذه المعاهد في تقاريري ومحاضراتي وأشرت بضرورتها وضرورة انشائها ، وأتمنى أن لا يبعد اليوم الذي يوفق فيه أولو الأمر الى انشاء هذه المعاهد في مختلف الفروع حتى يؤدي مصر نصيباً وافراً من الانتاج العلمي الصحيح ، وتساهم في تقدم العلوم والمعارف في العالم فلا نبقى إلى الأبد ، نتزود بمعلوماتنا من غيرنا ولا نعطي شيئاً من عندنا .وفائدة هذه المعاهد التعليمية غنية عن البيان .

وقبل أن أنتقل الى نقطة أخرى أرجو أن يعرف الجميع أن كثيراً من أطبائنا قاموا ببحوث قيمة جليلة لا يمكن أن يقلل أحد من شأنها . ولا يزالون يقومون بالكثير منها . فلهم الشكر . ولكن الأفيد والأهم ، هو استمرار البحث . والكفيل بذلك وجود المعاهد الخاصة .

• نعود الى الحمى : عند ما تكون الحمى آخذة في الازدياد أي صاعدة من ½ ٣٧ الى ٣٨ الى ٣٩، وهكذا أيا كان سببها نفسر ذلك بأن وسائل تصريفها من الجلد أو بالتنفس غير وافية — وعند ما تكون الحمى آخذة في الهبوط من ٣٩ الى ٣٨ الى ٣٧ ، يدل ذلك على أن

وسائل تصريفها من الجلد وافية في خفض الحرارة . وعندما تكون الحرارة سائرة على وتيرة واحدة أي ٣٩ إلى ٤٠ مثلا ،فهذا دليل على ان وسائل انتاج الحمى ووسائل تصريفها متساوية ، أو بعبارة أخرى ان البنية تكيفت على هذه الحالة .

• وفي الحميات يضطرب مركز تنظيم الحرارة الذي ذكرناه،فتضطرب تبعاً لذلك وسائل تكييفها. والرأي السائد أن أغلب الاضطراب يحصل في وسائل تصريف الحرارة من البنية . إذ الشاهد أثناء الحمى قلة العرق وقلة البول وجفاف الجلد وسخونته ، ولذا يعد ظهور العرق علامة حسنة ، وكذا ازدياد البول ، إذ يُعدّا دليلين على أن البنية ابتدأت تتكيف على تصريف الحرارة الزائدة وعلى تصريف الفضلات المتزايدة في الجسم بسبب الحمى . وفي الحميات يفقد المريض شهية الطعام فلا يتناول غذاءً كافياً لعدم مقدرة جهازه الهضمي على تحمل مجهودات هضمه،فتعيش البنية على ما تحصل عليه من المواد البروتينية والدهنية والنشوية الحيوية glycogen الموجودة في الجسم،كما يحصل في الصيام.ولذا يفقد المريض في الوزن أثناء الحميات المستمرة وأثناء الصيام — وتعد المواد الدهنيـة مواد مختزنة في الأنسجة الخلوية ، وكذا تعد مادة النشاء الحيوي glycogen مادة مختزنة في الكبد والعضلات، ولكن كميتها ضئيلة جداً بالنسبة للمواد الدهنية . وأما المواد الزلالية Proteines فهي المواد الداخلة في تركيب الخلية،وتعد المادة الحية والحيوية الأساسية في تركيب جسمنا . ويفقد المريض في الوزن بسبب نقص المواد الدهنية والمواد البروتينية ، كما يفقد من قوة بنيته وحيويته على وجه العموم . لهذا السبب تفتك الحميات فتكاً ذريعاً إذا ما أصابت شخصاً منهوك القوى من ضعف التغذية لفقره ، إذ ليست في جسمه مادة مدخرة ، كما تفتك بمن عندهم ضعف شيخوخي أو أمراض أخرى منهكة للقوى.قلنا ان البنية أثناء الحمى تستهلك المواد الزلالية الحيوية،ويظهر ذلك من تحليل البول،إذ تشاهد فيه ازدياد الفضلات التي تتصرف عادةً معه والتي مصدرها المواد الزلالية وهذه الفضلات مثل البولية الكرياتينية creatinin urea والبوليات والحامض البولي إذ تزيد زيادة واضحة عما تكون عليه في حالة الصحة — لأن في الحميات يزيد التبادل الغذائي الأساسي Basal Metabolism زيادة تقرب من ٥٠ في المئة عن الحد الطبيعي.ولا يمكن في الحميات أن يفسر ارتفاع الحرارة بكثرة الغذاء ولا باجهاد العضلات ، فان شهية المحموم تكون مفقودة،ولا يقدر على تناول الطعام ، إلاّ ما يصرح به الطبيب من الغذاء الخفيف المناسب لكل حالة ، ولأن المريض يكون ملازماً للفراش بارشاد الطبيب،وليست عضلاته في حالة إجهاد بسبب ارتفاع الحرارة،كما يحصل عند الأصحاء .

والسبب الذي نفسر به الحمى هو اضطراب وظيفة مركز تنظيم الحرارة بسبب المرض

وان هذا الاضطراب يؤثر على وسائل تصريف الحرارة أكثر مما يؤثر على وسائل توليدها

• يتحدثون عن حمى عصبية، والرأي السائد ان سبب الحمى نزلة حلقية خفيفة أو مرض آخر خفيف،لا تظهر له علامات وصادف ظهوره أثناء أحوال تؤدي الى الاشتباه بوجود حالة عصبية كما لاحظت ذلك ليلة الزفاف في عند بعض السيدات . والأمراض العصبية التي تحدث تغيرات عضوية في المجموع العصبي تحدث حمى إذا حصل تغير مرضي في مراكز تنظيم الحمى كما يحصل في أورام المخ واصاباته .

• وقد استفاد الطب العلاجي كثيراً من وسائل توليد الحرارة ووسائل تصريفها عند الأصحاء،ومن المعلومات التي نعلمها من تأثير الحمى على البنية ومقاومة البنية للحمى ، فقلدها في علاجها وعدَّلها ونظمها وحتم الراحة التامة ليقلل مجهود العضلات فلا تتولد حرارة زائدة ولكي لا تضعف البنية . وحتم قلة التغذية لكي لا تجهد أعضاء الهضم وهي ضعيفة بسبب الحمى واكتفى بمواد غذائية سهلة الهضم . وقلد الطبيعة في تصريف الحمى فاستعان في علاجها بالمكمدات والتدليك بالكولونيا وغير ذلك .

مأثورات

سمع اعرابي يدعو الله وهو يقول :

هربت اليك نفسي يا ملجأ الهاربين بأثقال الذنوب أحملها على ظهري ، لا أجد شافعاً اليك إلا معرفتي بأنك أكرم من قصد اليه المضطرون ، وأمل فيما لديه الراغبون، يا من فتق العقول بمعرفته، وأطلق الألسن بحمده وجعل ما امتن به من ذلك على خلقه ، كفاء لتأدية حقه . لا تجعل للهوى على عقلي سبيلا ، ولا للباطل على عملي دليلا .

وعن قيس بن رفاعة :

من يصل ناري بلا ذنب ولا ترة   يصل بنار كريم غير غدار
أنا النذير لكم مني مجاهرة   كي لا ألام على نهي وانذار
فان عصيتم مقالي اليوم فاعترفوا   ان سوف تلقون خزياً ظاهر العار
لترجعن أحاديثاً ملعنة   لهو المقيم ولهو المدلج الساري
من كان في نفسه حوجاء (١) يطلبها   عندي فاني له رهن باصحار (٢)
أقيم عوجته ان كان ذا عوج   كما يقوم قدح النبعة الباري
وصاحب الوتر ليس الدهر مدركه   عندي واني لدراك بأوتار

(١) الحوجاء الحاجة   (٢) الاصحار البروز الى الصحراء يقصد انه لا يستتر [illegible]

العالم العربي



الحرية عقّار أدوائه

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيه أصوله ، فيتحقق في نفس الرجل الحر ، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى أي أثر في الخارج . فاذا لم تقم الحرية في النفس ، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً .

لما قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر ، تلقتها الأيدي المستنيرة من الشعب الفرنسوي، فوضى غامرة، قضت على كل المثاليات القديمة التي قامت عليها النظامات الفرنسية منذ عهد لويس الرابع عشر . فالنظريات السياسية والاصول الاجتماعية والفوارق التي قام عليها مجلس الطبقات في فرنسا ، وهم النبلاء والشعب ورجال الكنيسة ، تناولتها معاول الهدم التي عمل بها الشعب الفرنسي في أصول هذه الأشياء ، وفي كثير غيرها .

فلما أراد المستنيرون أن يقيموا البناء الجديد على قواعد مثالية ، وضعوه على أساس الحرية والاخاء والمساواة ، وعملوا على أن يقيموا صرح فرنسا الجديدة بل والعالم المتمدين على هذه المبادىء الثلاثة ، ومضوا يعملون على نشرها ، لا في القارة الأوربية وحدها ، بل أرادوا أن يجعلوها أساس الحياة السياسية والاجتماعية في غيرها من القارات . غير أن هذا الحلم لم يعش طويلاً ، فقضت عليه عوامل كثيرة ، كان أعظمها شأناً انتصار فرنسا في الحروب التي تلت الثورة ، فذاق رجالها طعم القوة ، وأخذوا بنشوة النصر ، فنسوا تلك المبادىء وراحوا فريسة لفكرة التسلط : imperialism وكانت تلك النزعة أكبر ما مهد لحكم نابوليون الأول.

هذا سبب من الأسباب العارضة ، أي التي جاءت بالاضافة الى الثورة إسفافاً وراء ما تملي القوة من صنوف الايحاء . غير أن هنالك سبباً آخر أعمق بكثير من هذا السبب ، سبب حملته تلك المبادىء التي اتخذت أساساً لبناء العالم الجديد، وظل كامناً في تضاعيفها حتى عفّى عليها

لقد أراد هؤلاء المستنيرون، وهم بعد واقعون تحت تأثير حكم استبدادي طويل، وانتصار ماد كل مجده على الشعب الفرنسي وحده دون الملك المستبد ، أن يوفقوا بين ثلاثة مبادىء ، واحد منها طبيعي ، واثنان خياليان . فالحرية هي المبدأ الطبيعي والاخاء والمساواة خياليان . لهذا عاشت الحرية في أرض فرنسا ، ومات الاخاء ودفنت المساواة . عاشت الحرية فأسست في أرض فرنسا أربع جمهوريات على التتالي ، وخلفت من ورائها تراثاً مجيداً لم ير الشعب فيه أثراً خلفه الاخاء، أو عرضاً ورثته إياه المساواة.

ذلك بأن التوفيق بين الجوهر والعرض ، ليكون لكل منهما أثر صاحبه ، أمرٌ مخالفٌ لطبيعة الأشياء منافٍ لأوليات التطور الذي تسوق فيه الطبيعة كل شيء في هذا الوجود . أراد هؤلاء المستنيرون أن يوفقوا بين جوهر ثابت في الطبع الانساني ، وعرضين كلاهما خارج عن طبعه الرسيس، بل هو من خَلْقِ العقل وحده إذ ينزع الى مثاليات، ان لم يستطع أن يحققها في الواقع ، فلا أقل من أن يسعد بها في أمانيه .

أقدم بهذه المقدمة لأثبت أن الحرية وحدها هي التي استطاعت أن تنقذ فرنسا في كل الأدوار العصيبة التي مرّت على امبراطوريتها النابوليونية وعلى جمهورياتها الأربع ، وهي التي ستنقذها في محنتها الأخيرة . ولقد استطاعت الحرية أن تخدم فرنسا وهي معنى محقق الدلالة في الخارج ، بقيامه في نفس الشعب . هذا المعنى خدمه الأدب والفن والعلم والسياسة والصناعة ، وعلى الجملة كل المرافق التي قامت عليها الحضارة الفرنسية خلال قرن ونصف قرن من الزمان . أنقذت الحرية فرنسا لأنها حق طبيعي يولد مع الانسان ولا يلحد معه ، بل يتركه الانسان لمن هم بعده . حقٌ لا تختلف فيه نظرة العلم ولا الفلسفة ولا الفن ولا الدين. ومن أجل أنه طبيعي ، فهو كـكل الأشياء التي تمنحها الحياة للحي العاقل ، لا ينبغي أن يسلب أو يعتدى عليه أو يتنازل عنه بأي حال من الأحوال وبأية صورة من الصور . ولذا كان الاعتداء على الحرية بمثابة الاعتداء على الحياة ذاتها . لأن حياة الانسان لا يتحقق معناها الا إذا تحققت الحرية .

***

الحرية معنى يقوم في النفس وتثبت فيها أصوله فيتحقق في نفس الرجل الحر ، قبل أن ينعكس عن ذلك المعنى اي أثر في الخارج . فاذا لم تقم الحرية في النفس ، انعدمت القدرة على تحقيق شيء من آثارها تحقيقاً عملياً ، ورجع الانسان الى الدرجة التي لا يتحقق له فيها الا الحرية الحيوانية الصرفة كحرية التنقل أو الاغتذاء . وهو ضرب من الحرية يشاركه فيه كل صنوف الحيوان ، فلا يكون للانسان الذي يرضى بذلك الضرب من الحرية أي

معنى انساني ، ولهذا ينبغي قطعاً أن نعتبر الشعوب التي ترضى بذلك الضرب من الحرية ، سواءٌ أم يرضيها أن تشبع شهواتها الحيوانية دون شهواتها العقلية والنفسية . واذاً فلا يشملها معنى الحرية التي نقصد الى الكلام فيها .

يشارك الانسان كل الأحياء في صفة الحياة . ولكنهُ يمتاز عليها بأنه « عاقل » . ومن طريق مشاركته للاحياء في صفة الحياة يتحقق له ذلك الضرب من الحرية التي هي للحيوان . اما صفة أنه عاقل فتحقق له ضرباً آخر من الحرية له صوره المختلفة . وهذه الصور هي التي ينبغي على كل فرد من أفراد العالم العربي باعتباره عالماً تجمع بين أهله أطماع وميول ومشارب ووراثات واحدة تقريباً ، أن يحققوها في أنفسهم ، حتى يسعدوا بآثارها الجليلة . ولا شك عندي في أن تحقيق معاني هذه الصور ، كافٍ في ذاته ومن غير مجهود كبير ، أن يرفع عالم العرب إلى قمة الدنيا ، وإن كان تحقيقها في ذاته مجهود ، مهما عظم ، فانه لا يستكثر على شعوب لها ذلك الماضي العظيم .

لا نطلب تحقيق الحرية في النفس لأن الحرية حق طبيعي للانسان العاقل ولأنها تقرن دائماً إلى الحياة ذاتها . وإنما نطلب ذلك أيضاً ، لأن الحرية إذا تحققت في نفس الفرد ، استطاع بذلك أن يعمل على تحقيقها عند غيره من أفراد الجمعية . وهي فوق هذا وذلك واسطة مجدية فعالة في صب العقلية الفردية في قالب ينزع بها دائماً وفي كل الحالات إلى التسمح ، ووزن الأشياء بميزان ذي كفتين ، فلا يميل إلى إحداها كل الميل ، ولا يطفف في تقدير ماله وما عليه ، فيلزم دائماً حد الاعتدال ، فلا يجنح آونة إلى الافراط وأخرى إلى التفريط ، فتفوته أواسط الأشياء ، وهي في الأخلاق الفاضلة حدّ السعادة وحدّ الخير ، كما يقول ارسطوطاليس ، سيد الاخلاقيين .

والحرية وتحقيقها في النفس شيء ، وقبول ما يترتب عليها من الآثار شيء آخر . فاذا عجزت الحرية عن رياضة العقل والنفس على قبول الحقائق وأن آلمتها لأول صدمة ، كما قال أحد الفلاسفة ، قصرت الحرية الفردية عن أن يكون لها ذلك الأثر المطلوب الذي ننشده في حياة الجماعة ، وأصبحت الحرية كفاية فردية لا يتعدّى أثرها حياة الفرد . وإنما تحقق الحرية رسالتها الخالدة ، إذا انعكست آثارها من الفرد إلى المجموع ، وكوّنت جوّاً تنطلق فيه العقول من كل التقاليد التي أسرتها وكبتت نزعاتها عن الانطلاق في آفاق الفكر البعيدة اللانهائية .

والحرية إذا تحققت في النفس وريض العقل على قبول محتملاتها ، قبلت بسماحة إبداء كل رأي وتمحيص كل فكرة والمناقشة في كل نزعة من النزعات المتباينة التي تنعكس عن صور

الفكر ، وصور الفكر غير محدودة ولا نهائية . وأنت إذا بحثت في أسباب الشقاق الذي يعم العالم آثاره ، وصنوف البغض والكراهية والحسد ، تلك التي تقمع الانسانية وقمعتها خلال كل العصور عن الانطلاق في آفاق العمل الجدي ، قنعت بان قصور النفس عن قبول ما يترتب على تحقيق الحرية فيها من الآثار العقلية واخراجها إلى حيز العمل ، هي كل السبب فيما نرى ورأينا ، وفيما سوف نرى من انقلابات داوية ، ستظل الانسانية تدور من حولها في دائرة نجسة

كتب الفلاسفة والمصلحون ما كتبوا متتبعين خطى التقدم التي خطتها الانسانية منذ أقدم العصور ، وقال بعضهم إن الانسانية تنتظر عصراً ذهبيًّا تزهو فيه الحضارة . وقال البعض الآخر ان ذلك العصر قد مرَّ منذ آلاف السنين ، وإن الانسانية الآن تنحدر ، أو هي على الأقل واقفة تدور من حول تلك الدائرة النجسة . واعتمد الاولون على ما رأوا من تقدم مادي ، واستند الآخرون على ما رأوا في التاريخ من انتكاس كل مبدإ مثالي إلى نقيضه ، في كل محاولة طمعت من طريقها الجماعات في الخطو إلى الأمام . للسبب في هذا كله أن الانسان لم يحقق الحرية في نفسه ، ولم يهيئ لها جوًّا عقليًّا تبرز فيه آثارها المحققة في النفس .

من هنا يظهر لنا جليًّا أن رياضة النفس على تحقيق الحرية وقبول آثار ذلك ، إنما هو أساس الاصلاح الاجتماعي برمته . لو أن هذا المبدأ كان محققاً لما سقطت الحضارة الانسانية تلك السقطات التي جرَّتها إلى الحروب الدينية والخلافات المذهبية التي لا طائل تحتها ، والتي كبلت أيديها وأرجلها بتلك القيود التي صدت الجماعات عن التفاهم على أبسط الأشياء . أشياء قبلتها عقول الأفراد ونبذتها عقلية الجماعات ، تلك العقلية التي ظلت وستظل عهداً طويلاً مسرحاً لتلاعب أنصار الدكتاتورية والطامعين في السلطان والعاملين على استعباد الاحرار ، كل هذا ليجعلوا الانسانية تدور من حول تلك الدائرة النجسة ، فلا تفلت الجماعات من أيديهم ، فتنطلق في آفاق الحرية الواسعة .

إذا اعتقدنا بان الحرية حق طبيعي ، استطعنا أن نحقق معناها في أنفسنا ، وإذا حققنا معناها في النفس ، تسنى لنا أن نقبل ما يترتب عليها من الآثار . وأثرها الأول تحقيق حرية الأديان . فلكل انسان أن يتدين كما يشاء وأن يعبد إلهه بالطريقة التي يختارها . فلا اكراه في الدين . والدين طريقة اتصال بين الانسان وخالقه . فلكل فرد من الأفراد أن يختار تلك الطريق بمطلق حريته . وأثرها الثاني حرية الفكر . فالحرية الحقيقية تمنع الناس والحكومات وأصحاب السلطان من أن يعاقبوا فرداً على رأيه ، مهما كان مخالفاً لآرائهم ، ومهما كان فيه من منابذة التقاليد . ولن تتحقق هذه الحرية إلا بأن يأمن كل انسان على حياته وماله وعيشه .

وذلك من واجب الجمعية المتمدينة أن تتكفل به . وأثرها الثالث حرية القول . فان قمع الفكر عن الاتصال بالجو القائم من حوله ، قمع للحرية ذاتها ، وتعطيل لمعنى الحرية في أبرز صورها .

أما إذا حقق العالم العربي هذه الحريات ، فانه ولا ريبة يتربع على قمة الدنيا ، ولا جدال في أن وحدة العالم العربي ينبغي أن تقوم على الحرية . لأن اشتراك الرافق بين أجزاء هذا العالم لا تكون مناطاً للوحدة، إذا نظرنا فيها نظرة ضيقة الحدود مقصورة على التبادل المادي. ان هذه المرافق ولا شبهة تكون موضعاً للنزاع والتفرقة أكثر منها سبباً للألفة ، إذا لم تقم من ورائها عقلية حرة تزن مصالح الشعوب العربية على أساس من التسامح ومغالبة الأهواء .

* * *

لقد نزعت الشعوب العربية الى الأخذ بمبدإ الديمقراطية في الحكم . وهو مبدأ له هفواته . ولكنه على كل حال أقل صور الحكم هفوات ومفاسد . هو الحد الممكن من الحكم الصالح بلغ اليه الانسان . ولكن كثيراً من هفوات هذه الصورة من الحكم، ولا شك تنعدم إذا رضنا أنفسنا على الحرية بمعانيها التي أسلفنا القول فيها . فرجال الحكم قبل غيرهم، ينبغي أن يكونوا رجالاً حققوا في أنفسهم معنى الحرية ، وراضوا عقولهم على قبول ما يترتب على ذلك من الآثار ، ونصبوا أنفسهم أمثلة حية ، فيقتدي بهم الناس . ينبغي أن يكونوا القدوة العليا ، فلا ينصرفوا إلى المعنى الأدنى ، معنى التمحك السياسي ، مقلعين عن الانصراف إلى المعنى الأسمى ، معنى الحرية .

ولقد قضى علينا مذهب الحكم الديمقراطي أن نوسع من مجال تلك الدائرة التي يخرج منها السياسيون ورجال الحكم ، وكلما اتسعت تلك الدائرة قلت المواهب العليا التي تتجه مطامعها الى الاصلاح الحقيقي من طريق الحكم . على انهُ من المستطاع القضاء على هذه الظاهرة إذا نحن نزعنا إلى الحرية وحققناها في أنفسنا ، وقبلنا آثارها المترتبة عليها . فان في ذلك الضمان الكلي لقيام حكم ديمقراطي يهيء الطريق إلى مستقبل تستقر فيه الجمعية العربية على قاعدة روحانية سامية ، والشرق مبعث الروحانيات .

في القرن التاسع عشر طغت على أوربا موجة من السياسة رجّت أساس الحضارة ، وبلغت من التأثير في النظام الاجتماعي مبلغاً أزعج المفكرين . قال اناتول بوليو[1] (١٨٨٥) :—

« كلما اتسع المحيط الاجتماعي الذي ينشأ في نطاقه السياسيون وكبار رجال الدولة ، نزل

(١) Anatole Beaulieu

مستواهم العقلي . وهذا الانتكاس أبين في أخلاقهم ، منهُ في أية ناحية أخرى من صفاتهم . فنزعت السياسة الى الفساد والتدهور ، حتى لوَّثت كل الأيدي التي انغمست فيها ، وكل الرجال الذين اعتمدوا عليها في الحصول على معاشهم . ولقد أصبحت المعارك السياسية من الرارة والوقاحة ، بحيث صدَّت الطبائع النبيلة المستقيمة عن التصدي للسياسة بعنفها ودسائسها . وقد أظهرت الطبقات المنتقاة في أكثر من أمة ، ميلاً إلى الترفع عنها . والسياسة ولا شك تجارة ان أردت أن تنعم بها وتسعد في ظلّها ، فينبغي أن يكون لك من الذكاء والمعرفة ، أقل مما لك من الجرأة والقدرة على الدسّ . ولقد أصبحت السياسة في بعض الدول من أكثر مهن الحياة شيناً وقذارة . وما الأحزاب إلا نقابات للاستغلال ، فأضحت وسائلها ، أقل شعوراً بالخجل . كنت جالساً إلى المائدة ولورد غراي أوف فالدون من الضيوف ، وأثير سؤال في السياسة وهل هي مهنة شريفة ؟ فقال لورد غراي على الفور — « انها تجارة خسيسة » ونقل الأسقف كرايتون عن لورد برايت انه قال — « لو علم الشعب أي صنف من الناس هم السياسيون ، إذن لهبَّ من سباته وأقصاهم أجمعين » . ونقل أنَّ كونت كافور قال — « أي ضرب من المجرمين نكون ، إذا نحن فعلنا بأنفسنا ، ما نفعل اليوم بإيطاليا » ؟

قيل هذا في عصر كان فيه للقوانين الدولية بعض الوزن ، وكان للأخلاق فيه بعض القيمة ، وكان الشعور بالمسئولية وبالخجل ، من العوامل التي لها بعض الأثر في سياسة الدول . أما وقد انحدر أهل الدنية إلى ما رأينا في الحرب العظمى الأولى وفي هذه الحرب ؛ من الاستهانة بالحقوق العامة وبالحقوق الخاصَّة ، فلاشك في أن الاطمئنان الى السياسة في تحقيق ما تصبو اليه أمم سلبت حقوقها الطبيعية ، يكون شذوذاً لا تسوغه طبيعة الأشياء .

كل هذه الخبائث إنما تنشأ في جوٍّ لا تتحقق فيه الحرية في أنفس الأفراد . ولقد عانى العالم كلهُ من آثارها الأمرَّين ، وفقد من قواه ومن ثروته ومن جهوده ما لو بقي لنا بعضه لحقق لنا عيشاً أسعد وحياة أمتع وأرغد ، ولتسنمت به الانسانية ذروة الحضارة العليا . حضارة يتحقق فيها السلام والانصراف الى العمل المجدي . حضارة حرَّة ، قوامها أمم حرَّة .

هذا ما ينبغي أن نحققه لأنفسنا . ونعني « بأنفسنا » عالمنا العربي ، « حزام الدنيا » من حدود بحر الظلمات إلى تخوم الصين ، ومن شواطىء البحر المتوسط إلى شعاب افريقية الوسطى .

إذا حققنا ذلك ، حققنا معه حلم العظمة والسيادة داخل تخومنا ، حلم أن بلاد العرب للعرب .

اسماعيل مظهر

لحظة الصفر

قصة عن بوريس جورباتوف

Boris Gorbatov

« لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو .
هنا الحقد في صدري . الحقد العميق الناري الانفاس . ان قلبي
ليشتعل . هذه معركتنا الى الموت . هنالك أذهب »

أيها الرفيق ! لقد قرىء علينا الأمر الآن . في الفجر سنكون في الموقعة . سبع ساعات حتى الفجر .

كان الوقت ليلاً . وبعيداً فوق الرؤوس تلألأت الكواكب . خيم السكون . كان قصف المدافع قد سكن . وأغفى جاري اغفاءة هنية . وفي ركن من الأركان، انبعث همسٌ ما . هنالك المراقب يسر الى أحدهم كلمات .

في الحياة فترات من الصمت لها طابع عجيب ، ومن المتعذر أن تُنْسى .

ويوماً ما سأذكر هذه الليلة — ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٤١ . سأذكر القمر وهو ينساق على منحدرات « الدّون » وقد بدت النجوم مرتعشة، كأنما أصابتها الْبُرَداء . سأذكر كيف أغفى زميلي وراح في نوم عميق،

وعلى الربى وفوق الخنادق ومواقع قذف النار ، خيم سكوت رهيب . سكوت في تضاعيفه العاصفة . السكوت الذي يسبق الموقعة .

كنت مستلقياً في الخندق ، وقد أخفيت مشعلي الصغير بطرف ردائي المبلل لأكتب اليك هذا ..... كذلك كان الملايين من المحاربين مثلي منتشرين من محيط الجمد الشمالي إلى البحر الأسود ، يستلقون كما أنا مستلق ، وفي نفس هذه الليلة ، وعلى الأرض المرطوبة، ينتظرون تنفس الصبح والهجوم ، يفكرون في الحياة وفي الموت ، وفي ما ينتظرهم من حظ .

أيها الرفيق ! ان كلاً منا يريد ان يعيش طويلاً . وأنا أريد أن أعيش ، وأتنفس وأكون قادراً على المشي ، وأرى السماء من

فوق رأسي . غير أني لا أريد أن أعيش أي لون من ألوان العيش ، فلست ممن يهمهم أن يعيشوا وكفى — وأن يوجدوا وحسب .

في الليل الماضي زحف رجل الى خندقنا آتياً من « الضفة الأخرى » . لقد هرب من الفاشيين . قدم زاحفاً بساقين واهيتين وذراعين انتزع عنهما الجلد وسالت الدماء . فلما رآنا ، نحن أهله وعشيرته ، طفق يبكي ، ومضى يشد على أيدينا ويهزها ، وكأنه أراد أن يعانق كل من لاقاه . كان وجهه يختلج ، وشفتاه تهتزان ، فأعطيناه بعض الخبز والزبد والطباق . فلما فرغ من وجبته هدأ روعه وأخذ يقص علينا ابشع القصص عن الألمان . حدّثنا عن السلب والتعذيب والسرقة . فلما سمعناه أخذ دمنا يغلي ، وقلوبنا تزداد خفقاً .

رأيت ظهر الرجل . ثبتت عيناي فيه فلم تريا شيئاً آخر كأنما هما قد علقتا به . لقد كان منظره أبلغ من كل كلام .

كان قد مضى شهر ونصف شهر على هذا الرجل تحت سلطان الفاشيين ، فتقوّس ظهره كما لو كان فقاره قد كسر ، أو كأنه أجبر على أن يمشي منحنياً نحو الارض ، أما عضلات ظهره فكانت تمتد وتنكمش ، كأنما هي تترقب توالي الضربات القاسية . كان منظره ينم عن أنه رجل سلبت ارادته ، أو أنه رقيق مستعبد .

صاح به أحدهم اعتدل . قوّم كتفيك وردها الى الوراء ، أيها الرفيق . انك في عشيرتك .

رأيت ، كما لو كنت أرى في صفحة جلية واضحة ، ما هو مقسوم لي . حياة بظهر مكسور ، ثم الاسترقاق والعبودية .

أيها الرفيق ! خمس ساعات قد بقينَ ثم يتنفس الصبح . بعد خمس ساعات أكون في غمار الموقعة . كلاّ ليس من أجل تلك الربوة التي أمامي سوف أحارب الفاشيين . كلاّ . ستكون الحرب لأغراض أعظم وأضخم . ستكون الحرب من أجل من سوف يكون المتصرف في مصيري : هتلر أم أنا ؟

حتى هذه البرهة يتصرف كلانا — أنت وأنا — في مصير نفسه ويتسوّد عليه . ونحن إننا نختار نوع العمل الذي نعمل ، والصنعة التي نتعلمها ، والوظيفة التي نشغلها ، ونتزوّج من المرأة التي نحبها . أمة حرة في أرض حرة . إنما ننظر للمستقبل بشجاعة وبطولة . المملكة كلها أمٌ لنا جميعاً . في كل بيت أصدقاء ورفقاء . وكل وظيفة من وظائف العمل محترمة مبجلة ، والعمل في ذاته بطولة ومجد . لقد علمت ان كل طن من الفحم نخرجه من باطن الارض ، فيه الشرف والصيت والكفاء . وكل أردب من القمح يحصد ، يضاعف من ثروتك ، التي هي ثروة أسرتك .

ولكن ! لقد أتى الفاشيون . سيصبحون

المقدّرين لحظك ونصيبك في الحياة. سيحطمون يومك، ويسلبون غدك. سيتحكمون في حياتك وسكنك وأسرتك. سيطردونك من بيتك. نعم وسوف تطرد مقصوم الظهر، طاوياً تحت المطر، ملقى بك في الأوحال. نعم. قد يسمحون لك بأن تعيش. ذلك بأنهم في حاجة إلى دواب الحمل. سوف يستعبدونك. ولكنك ستكون عبداً مهيض المتن مقوّس الظهر. ستحصد أردب القمح. ولكنه سيذهب اليهم وتُنسَى متضوراً من الجوع. وستخرج الطن من الفحم. غير انهم سيستولون عليه صارخين: « أيها الخنازير الروس: انكم لا تحسنون العمل». ستظل في أعينهم دائماً ذلك الروسيّ الحقير: حيوان من نوع أخسّ. سيحملونك على أن تنسى لغتك ولغة آبائك. اللغة التي حلمت بها ورأيت فيها رؤاك. اللغة التي عبرت بها عن حبك لمن أحببت. سيجبرونك على أن تتكلم لغتهم، وسوف يهزأون بك وأنت ترطن بلغة أجنبية بعيدة عنك.

الفاشيّ!!

سيطأ بقدمه أحلامك ويُشنق على آمالك. انك قد أمّلت وحلمت بأن ابنك إذا كبر واسترجل فسيكون عالماً، أو مهندساً ذا خطر وقيمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعلماء من الروس! ألم يجمعوا علماءهم أنفسهم في قطعان أودعوها محلات الاعتقال؟ انهم لا يريدون إلاّ دواب خاملة من دواب الحمل. وسوف يساق ابنك تحت سلطان الفاشيين، ناسياً طفولته وفتوته ومستقبله.

كثر ما دلّلت ابنتك الحبيبة وأحطتها بعنايتك. كم مرة حنوت عليها وأشفقت بها وانحنيت فوقها أنت وزوجك وهي في غفوتها الملائكية، وحلمتما بسعادتها. ولكن الفاشيين لا يرغبون في بنات روسيات نظيفات جميلات. يردنهنّ في بيوت الدعارة ليكنّ متعة لذوي القمصان السمر من أبنائهم. أترضى بأن تكون موضع فخرك ومحل أملك... ابنتك « ماريكا »، حمامتك المحبوبة..... بغيًّا.

أنت تفخر بزوجك. كل من في القرية يحبها ويحترمها... أوكسانا الجميلة. كلنا في حسدك عليها سواء. ولكن في العبودية لا يكون للنساء اختيار. انهنّ يكبرنَ قبل الأوان. ان زوجتك « أوكسانا » ستصبح عجوزاً شمطاء مقوّسة الظهر.

أنت تبجل والديك. ألم يكونا السبب في انك وجدت وربيت ونشأت؟ وأرضك هذه! ألم تعاونك على أن تهيئ لهما حياة سعيدة هنية هادئة، وشيخوخة شريفة محترمة. ولكن الفاشيين لا حاجة لهم بعجائز الروس. فالمعمَّرون لا يعملون، إذاً ينبغي أن يموتوا جوعاً، ولهذا فسوف لا يعطون والدتك شيئاً من القوت الذي تحصله بكد ساعدك.

قد يتفق أن تحتمل كل هذا ، فلا تموت. غير أنك ستصبح خاملاً متواكلاً تعيش عيشاً كله عماء وجوع وحزن .

اني لأرفض أن أعيش هـذا العيش . كلاً . لن أحيا هذه الحياة . لأجدر بي أن أموت من أن أوجد هذا الوجود . أفضل عندي حربة في صدري ، من قيد في عنقي . كلاً أخـلـق بي أن أموت شجاعاً ولا أعيش عبداً ذليلاً أو جباناً حقيراً .

أيها الرفيق ! ثلاث سـاعات بقين قبل أن يتنفس الصبح . ان مصيري في يدي . مصـيري كائن في سنان حربتي المرهف . مصيري ومصير أسرتي ووطني وقومي .

أيها الرفيق ! ساعتان قبـل أن يتنفس الصبح .

تطلعت خلال الظلام بعيني رجل شعر باقتراب الموقعة وترقب الموت ، فنظر بعيداً واخترق الحجب . ومن خـلال ليالٍ طوال وأيام أطول ، بل ومن خلال شـهور أنظر أمامي، ومن فوق جبال من الأحزان والآلام، فأرى النصر ماثلاً . سوف نناله . سنخوض اليه أنهاراً من الدماء ممزوجة بالحزن والأسى والعذاب . سنخوض اليـه مآسي الحرب ودواهيها . ولـكننا سنصل إلى النصر ، الى النصر الحاسم الفاصل على العدو . لقد قاسينا من أجله واحتملنا كثيراً . سوف نفوز .

تذكر أيامنا قبل الحرب . لقد ظلّ جيلنا هذا وسيف الحرب مصلت من فوق رأسه . عشنا وعملنا ودللنا زوجاتنا وربينا أولادنا. ولـكن لا يجب أن ننسى أن كل هـذا انما كان من أجل دقيقة واحدة . هنـالك في الناحيـة الأخرى من تخومنا يجثم وحش مفترس يستعد لمضغنا ، فيشحذ أظافره ويحدّ أنيابه السامة . لقـد كانت الحرب جارنا القريب . كانت أنفاس الأفعى المجلجلة تسمم حياتنا وجهـادنا ، بل وحبنا نفسه . كنـا فزعين . وانتظرنا :

هاجمنا الوحش . بات في أرضنا . تدور الآن أقسى المعارك وأنكى الوقائع . حرب إلى الموت.والتفاهم مستحيل فلا اختيار إذن. فلنطعن ونقوّض كل قائم لنقضي مرة واحدة وإلى الأبد ، على الوحش الهتـلري . وحتى يثوى آخر فاشيّ في قبره العميق ، لن ينكشف عن صدرنا ذلك الـكابوس الذي يغشانا . ثمّ هدوء شامل . هدوء لا يتخلله جلبة . هدوء النصر ، سيظلل رؤوسنا . وهنـالك سوف نسمع ، أيها الرفيق ، لا حفيف أشجار الغابة المرحة الجميلة وحده ، بل سوف نسمع العالم يرسل أنفاس الراحة ، ويشم هواء الأمل . سوف نسمع أنفاس الانسانيـة تتردد هادئة وسنانة .

سوف ندخل المدن والقرى المحرّرة يرحب بنا السكون الشامل — سكون قلوب

شملها الفرح والسرور . هنالك سيرتفع الدخان مرة أخرى من مداخن المعامل الشيدة — هنالك الحياة ، سوف تدب مرة أخرى . حياة سعيدة كاملة أيها الرفيق . حياة عظيمة ثمينة في دنيا حرة . حياة تسودها أخوة الشعوب .

من أجل تلك الحياة يهون الموت . إنه لن يكون موتاً . إنما هو الخلود .

***

أخذ الصبح يتنفس أيها الرفيق . صبح خجول أسمر الإهاب . بدأت الأشباح تتبين لم تلح لنا الحياة من قبل في ثوب أبهج . انظر كيف تبتسم هضاب الدون أمامنا . انظر كيف تلمع التلال الطباشيرية تحت أول شعاع يشق الأفق ، كأنها جبال من فضة .

نعم . أن للحياة قيمة ما . ولكن قيمتها في أن نرى النصر كيف ينال ، إذ ذاك أضم رأس ابنتي الصغيرة إلى صدري بين ثنايا معطفي الكبير ، راضياً رخي البال . إني إنما أعيش من أجل أغراض كثيرة . ولذا فأنا ذاهب الآن إلى المعركة . سأحارب لأجل الحياة . ذاهب من أجل حياة طيبة أيها الرفيق ، ولن أعيش لأكون عبداً . ذاهب من أجل سعادة أولادي . من أجل سعادة وطني ، أمي الكبرى . من أجل سعادتي . إني أحب الحياة . وسوف لا أبددها . اني أحب الحياة . ولكني لا أرهب الموت . اني أفهم من الحياة أن أعيش شجاعاً ، وأموت شجاعاً

الفجر ! !

بدأت المدافع السريعة تجلجل . وستار النار سوف ينتشر . وبعد برهة نذهب في الغمرات .

أيها الرفيق ! من فوق هضاب « الدون » التي هي هضابي ، أرسلت الشمس أشعتها الذهبية . شمس المعركة .

واني لأقسم أيها الرفيق بحق جلالها اني سوف لا أتراجع . فاذا أصابني مكروه فسوف أموت في الصفوف . واذا أحيط بي فسوف لا أسلم نفسي . لا خوف ولا اضطراب في قلبي ، ولا رحمة عندي للعدو . هنا الحقد في صدري ، الحقد العميق ، الناري الأنفاس . ان قلبي ليشتعل . هذه معركتنا الى الموت .

هنالك . أذهب



الضمان الاجتماعي

مشروع بيفردج من ناحيتيه التاريخية والاجتماعية

ما هو الضمان الاجتماعي ؟

الضمان الاجتماعي عند السير وليم بيفردج هو النظام الذي يتحقق للجمعية البشرية بالقضاء على خمسة عمالقة هي : الخصاصة أي الحاجة ، والمرض ، والجهل ، والقذارة ، والتعطل أي الكسل . وعلى هذا فلا يتحقق الضمان الاجتماعي ما دامت هذه العمالقة تسيطر على الحياة الانسانية .

لما نشبت الحرب الأخيرة واشتبكت فيها أكثر شعوب أوربا ، وقضت النازية والفاشية ، إلى حين ، على حضارة كثير من الأمم الصغيرة التي كانت تعيش في بحبوحة من العيش في ظل نظام ديمقراطي ، وساد الفقر جماعات كانت تعد من أغنى جماعات الانسان وأقدرها على رفع مستوى الحياة ، وانتشرت الأمراض الجتاحة ، وتعطلت دور العلم عن أداء رسالتها ، شعر سوّاس الانجليز ، وكان لهم أكبر الحق في أن يشعروا بحرارة ، ان العالم مقبل على انقلاب خطير سوف يتناول أساس نظامه الاقتصادي الذي تقوم عليه كل مرافق المجتمع ، وأن الضمانات التي كفلها هذا النظام في الماضي ، لن تصلح لكفالة نظام اجتماعي ذي استقرار في المستقبل ، أي في العصر الذي يلي انتهاء الحرب وعودة السلام . لهذا عهدت الحكومة البريطانية في شهر يونية سنة ١٩٤١ إلى سير وليم بيفردج أن يدلي برأيه في علاج الحالة الاجتماعية التي سوف تترتب على الحرب الحالية ، فوضع تقريره المعروف ، الذي أصبح اسم بيفردج علماً عليه .

لم تكن هذه الحرب السبب المباشر لقيام هذا الشعور عند سوّاس الانجليز ، وانما كانت حافزاً لهم على التفكير بجد في حالات اجتماعية ، كانوا يشعرون بأنها كائنة ، ولكن معالجتها لم تكن عاجلة . وهم بذلك انما يكررون نفس الخطأ الذي وقع فيه الكثيرون من قبلهم .

يكررون الخطأ الذي وقع فيه لويس السادس عشر وحكومته في فرنسا ، والخطأ الذي وقعت فيه القيصرية الروسية في أثناء الحرب الماضية ، فأدّى إلى هزّات عنيفة وثورات ، كان من الممكن أن توفر على الانسانية ما حملتها من فوضى ومن دماء ، لو أن ساسة الأمم قد بصروا بشيء من حقائق التطور القائمة من حولهم ، ونظروا لأبعد من أنوفهم قليلاً ، ليدركوا أن ما تقضي به طبيعة الحياة لا بدَّ من أن يكون . ولعلَّ ساسة الانجليز في هذا العصر قد انتفعوا بتجاريب الذين سبقهم من السياسيين في مختلف الأمم ، فبادروا إلى وضع الشيء في موضعه ، فعهدوا ببحث أدواء المجتمع إلى رجل لم تسيطر عليه السياسة ، ولم تؤثر في عقله مماحكاتها ، فشقَّ الطريق القويم إلى الغرض الأسمى ، وبحث المشكلات القائمة بعقل غير مدخول بأي اعتبار اللهمَّ إلاَّ اعتبار ان الجمعية الانسانية تتطوّر ، وان نظرتها في الحياة تتسامى ، وان من حق كل فرد من أفراد الرعية أن يتخلص من حماقات الماضي التي سببتها سياسة أطلقت على الجماعات تلك العمالقة الخمسة ، وأفردتها بالتصرف في مصاير الأمم .

لا أبالغ إذا قلت إنَّ هذه هي المرة الأولى ، لا في انجلترا وحدها ، بل وفي جميع بقاع الأرض ، تنازل فيها السياسيون من عليائهم ، وأخضعوا كبرياءهم للحقائق . ذلك بمعنى ان الحكومة الانجليزية لم تعهد بهذا البحث إلى السياسيين المحترفين ، بل عهدت به إلى رجل اجتماعي درس الاجتماع من نواحيه القصية . درسه من حيث تطوره واقتصاده وانتاجه وقدرته على العمل ، فخرج من ذلك بآراء أصبحت دستور الاصلاح الاجتماعي في جميع بلاد العالم . دستور ضرب بمعول باتر في أصول الكثير من النظامات التي خيل للسياسيين منذ عهد قريب انها أبدية ، وإن الجمعية الانسانية قد وصلت في ظلالها إلى طابع من المدنية لن يتبدل .

كان من خطإ السياسيين في الماضي عقوقهم للعلم ، فاستأثروا بالرأي في كل ما يتعلق بالأمم من الأشياء التي يحسنونها والتي لا يحسنونها ، وتاريخ القرن التاسع عشر ، ناهيك بما قبله ، وتلك العقود التي سلخناها من القرن العشرين ، أكبر شاهد على هذا العقوق . كبر عليهم أن يستعينوا بالعلم والخبرة العلمية والنظر النافذ في حالات التطور التي تصيب الجمعيات في معالجة المشكلات المدنية ، فطاحوا بالكثير من مصالح الامم ، وأوقعوا الشعوب في مآزق عصرتهم عصراً ، وتركتهم نُفلاً بغير لُب . وقد تناوبت هذه الحالات على شعوب الأرض المتمدينة المرة بعد المرة ، حتى ساد الناس شعور بالقلق والامتعاض والحاجة إلى الاصلاح الواجب ، وأُفعم جو المدنية بشعور عميق بأن عصراً من عصور المدنية قد آن اختتامه ، وأن الانسان يستقبل عصراً جديداً .

إن الحكمة التي أبداها سوّاس الانجليز في أن يعهدوا ببحث أسباب ذلك القلق الاجتماعي إلى رجل اجتماعي خبير ، هي نفس الحكمة التي ينبغي أن تملي على كل الحكومات أن تعهد ببحث مختلف قضايا الاجتماع الى الذين يحسنون بحثها بروح الحرية والاستقلال . ولو أن السياسيين قد شعروا بأن سيطرتهم على كل مرافق الأمم لمجرد انهم سياسيين ذوي سلطان ، لا تستوي ونشدان الحقيقة التي لا يمكن بدونها أن يكون اصلاح ثابت ، إذن لمضت الانسانية تضرب في سبيل التقدم بقدم أثبت وخطى أوسع

نشكو في بلادنا هذه من الفقر ومن الجهل . فهل عهدنا بعلاج ذلك إلى الأيدي التي تحسن علاج الفقر والجهل ؟ ونشكو من المرض ومن التعطل ! ثم ماذا . ينبغي على رجال الحكم عندنا أن يقتدوا بما فعل الانجليز ، فلقد كانوا في ما فعلوا قدوة حسنة . وكل البلاد تشكو مما نشكو منه ، وربما كانت شكوى غيرنا أبلغ من شكوانا وبلواهم أعظم من بلوانا . ولكن المخرج من ذلك في أيدينا وأيديهم . ذلك بأن يعهد في بحث هذه المعضلات الى من ينظرون فيها نظراً حرّاً مستقلا بعيداً عما تملي السياسات على اختلاف نواحيها وعلى متباين نزعاتها . ينبغي أن يعهد بها الى رجال تحرّروا من الأغراض ومن الشهوات ! ! ونشدوا الخير العام وحده لا شريك له .

ان الأغراض التي يرمي اليها الضمان الاجتماعي هي بذاتها الأغراض التي نشدها الانسان من أقدم العصور . هي المبادىء التي حاول أن يطبقها منذ إن كانت له مدنية . وما تلك الجهود التي بذلها وتلك المتاعب التي أنفقها في سبيل الحضارة سوى صور تشكلت فيها نزعته نحو الكمال المدني . نزعته تلك هي التي شيدت معابد الكلدان ومصر وهي التي أقامت مدارس أثينا والاسكندرية وجامعات أوربة ، وهي التي حفزته الى النهضة في القرون الوسطى ، وهي التي تدفعهُ الآن دفعاً نحو خطوة أخرى تدنيه من الكمال المنشود . غير أن مختلف تلك الجهود ، إن كانت قد أسلمت به إلى الطريق السوي ، فان خطواتها كانت وئيدة بطيئة ، لكثرة ما انتابها من تضارب النزعات والميول وتحكم الشهوات . ولعلنا لا نخطىء إذا قلنا إن كل خطوة خطاها الانسان نحو ذلك الهدف ، تبعها انتكاس أودى بها في اكثر الظروف. ذلك بأن علم الانسان لم يكن قد شمل بعد مرافقه الاجتماعية ولم يكن قد تغلغل في البحث عن الأسباب التي تؤثر في ضمير الجماعة ، فمشى الانسان في طريق مظلم معتم ، ومضى يتخبط منبعثاً وحي كل هاتف يهتف به ، متلهفاً إلى ما يخيل إليه أنه يدنيه من مثالياته التي نشدها .

إن روح الانسانية ظلت في خلال العصور تنشد الكمال ، وكل العصور الاجتماعية التي توالت على البشر ، ما هي الاّ ثمرة تلك الروح المشبوبة القوية المتوثبة . روح سبيلها النفس

والعقل ، وغريزة التطلع الى ما هو أسمى . ولكن الانتكاس كان دائماً نصيب كل جهد انصرفت فيه تلك الروح . لقد بذلت الانسانية ما بذلت ، وأنفقت من ثمار المال والروح ما أنفقت ، ولكنها ارتدت دائماً الى حيث بدأت . كان السبب في هذا أن العمالقة الخمسة قد سيطرت على المجتمع ، فلم تترك له منفلتاً من مخالبها القاتلة .

***

على الرغم مما تتطلب هذه الحرب الضروس من مهام العمل واليقظة والاستمرار ، فان سوّاس الانجليز قد بذلوا أقصى الجهد في سبيل تنفيذ ما أوصى به عالمهم ، فأدّوا بذلك للعالم خدمة أخرى ، إذ كانوا أعظم قدوة وأسمى مثل ضرب للناس في هذا العصر . نعم استطاعوا أن يقضوا على الجهل ، فنفذوا بموافقة مجلسهم النيابي موافقة بالاجماع ، برنامجاً للتعليم يقضي على الجهل ، إذ جعلوا التعليم من نصيب الأولاد والفتيات عامة ومن نصيب كل الطبقات . وأدخلوا ذلك النظام في طور التنفيذ الفعلي . بل لقد قرأت لأحدهم قوله : ان تنفيذ هذا البرنامج التعليمي من أبهر الانتصارات التي نالها الانجليز في هذه الحرب .

قضى الانجليز بذلك على العملاق الأول : الجهل ، وانصرفوا بعد ذلك إلى مغالبة العملاق الثاني : التعطل أو الكسل ، فعمدوا إلى نظام يضمن لكل انسان عملاً منتجاً ، وجعلوا انتاج الحاجات التي تسد غرض الحياة في البلاد أول همهم . ذلك بأن الأمة ما دامت تعمل في مجموعها ، استطاعت بذلك أن تقضي على الخصاصة وعلى الحاجة ، وتنصرف من هذه السبيل إلى العمل الذي يكون في ذاته خدمة اجتماعية ذات أثر ثابت في حياة الجماعة . ولم يغفل الانجليز عن العملاق الثالث : المرض ، فقد أخذت الحكومة تنفذ برنامجاً صحيًّا يشمل جميع أفراد الأمة على اختلاف طبقاتها . وما فعلوا ذلك إلاّ ليكون الاصلاح الصحي مقدمة للقضاء على العملاق الرابع وهو الحاجة أو الخصاصة ، فان الاصلاح الصحي ، يقضي بوضع نظام للتأمين عند التقاعد عن العمل . فمن الواجب أن يقوم هذا النظام على ، مقتضى المبادئ التي وضعت للضمان الصحي .

العملاق الرابع : الحاجة أو الخصاصة ، هو الآن في طريقه إلى الموت ، في صورة مرسوم بقانون تضمنه كتاب أبيض سيعرض على مجلس العموم . ولقد قدم ذلك المشروع كما وضعه بيفردج ، ما عدا بعض تنقيحات زادها المتحمسون إلى ما أوصى به ذلك العالم المصلح ، وأساسه إدخال نظام التأمين القومي الجبري لكل طبقات الأمة ، بحيث يكون ذلك من حق كل فرد من المهد إلى اللحد ، وأن يكون التأمين شاملاً ، بحيث يتناول كل مرافق الحياة الفردية .

سيقوم هذا المشروع على أساس التأمين على التعطل لكل رجل وامرأة ، ولكل رجل مع زوجة لها كسب ، ولكل رجل مع زوجة لا كسب لها ، ولكل امرأة متزوجة ذات كسب ، ثم مخصصات لمن يعولون . وكذلك سيكون هناك تأمين ضد المرض والتقاعد ، ثم مخصصات للأمومة والموت ، وللأرامل والايتام وللتعليم الصناعي والمهني ، عند ما يكون الفرد متعطلاً عن العمل . وينص هذا المشروع على ان الحكومة تقوم بدفع مخصصات للأسر وتنفق على الأولاد تعليماً وتغذية ، وتوزع اللبن على الأطفال المحتاجين اليه ، وتعوض العامل عما يحدث له من الاصابات أثناء العمل ، وتكفل له حياة مستقلة شريفة إذا تقاعد بسبب الاصابة .

وقد تبلغ نفقات التأمين الاجتماعي والمساعدة القومية ومخصصات الأسر والخدمة الصحية ٦٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ مليوناً من الجنيهات الانجليزية في السنة الأولى ، وسترتفع إلى ٨٣١٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة . وستدفع الخزانة من هذه المبالغ ٣٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ في السنة الأولى ثم تتدرّج حتى تصير ٥٥٧٫٠٠٠٫٠٠٠ بعد ثلاثين سنة .

هذا طرف ضئيل مما يتضمن مشروع بفردج للضمان الاجتماعي . ولكنه كاف على كل حال ، ليظهرنا على الروح التي بعثته ، وإلى الحالات التي أدّت اليه .

***

لماذا تقع الانقلابات الاجتماعيـة ؟ تقع الانقلابات الاجتماعيـة إذا تطوّرت الجماعات ووقفت النظامات العتيقة تحول دون خطى التطور أن تنبعث في طريقها المحتوم . وإذاً يكون كبح الانقلابات الاجتماعية هو بالعمل على مسايرة تلك الخطى التي تتطور فيها الجماعات وتتكوّن عنها فكرة في ضمائر الأمم ، بحيث تعالج بذلك العمل حالات ، هي التي تدفع إلى الانقلاب .

نظر فلاسفة الاجتماع الى حالات الانقلاب نظرتين مختلفتين : قال الأولون ان كل انقلاب خطأ : وقال الآخرون ان كل انقلاب صواب . نظرتان مختلفتان ، بل هما نقيضان لا يلتقيان . ولكن الواقع يثبت أن كلاً من النظرتين لها في العقل ما يبرّرها . فالذين يقولون بأن كل انقلاب خطأ ، انما يحكمون بذلك على اعتقاد ان الانقلاب ليس مضمون العاقبة دائماً ، وقد يتولاه الانتكاس فيرتد الى عكس ما أريد به . هذا فضلاً عما يتطلب من التضحيات ، وما يسبب من الآلام . والذين يقولون بأن كل انقلاب صواب انما يحكمون بذلك على اعتقاد انه

ما من سبيل الى الافراج عن الرغبات المكبوتة بالقوة والوصول الى الاصلاح المنشود الاّ بتحطيم كل ما يقف في سبيل ذلك من العقبات. وكما ان للنظرتين ما يبرّرها عقلاً، فان لها الى جانب ذلك فائدة أخرى، هي ان نثبت من طريقهما أن التطور التدريجي قد يقضي على كل نزعة الى الانقلاب اذا أحسن القيام عليه، وعهد بسياسة الأمم الاجتماعية الى الذين في مستطاعهم ان يدركوا ما تحفز اليه حاجات الناس من وجوه الاصلاح.

أما علاج حالات مجتمع كادت تصيبه فورة الانقلاب، فسبيلها النظر في مجالقة بيفردج الخمسة: هل هي آخذة بخناقه؟ هل هي تهد من كيانه وتكبح من رغباته وتشوّقه الى حالات أسمى وأنجح في الحياة؟ لقد أوضح العلاّمة بيفردج الطريق ورسم النهج وأنار السبيل.

إن العالم في مخاض، أما ما ستلد الأيام. فذلك ما نكاد نحكم بأنه سيكون خطوة كبيرة إلى الأمام. خطوة تخلف العالم الاجتماعي أكثر استقراراً وأمناً، إذا تولته الأيدي التي تحسن القيام عليه.

حديث ذو شجون

حدث أبو بكر بن دريد الازدي، قال أخبرنا عبد الرحمن عن عمه قال: رأيت بالبادية امرأة على راحلة لها تطوف حول قبر وهي تقول:

يا من بمقلته زهى الدهر ... قد كان فيك تضاءل الامر
زعموا قتلت وما لهم خبر ... كذبوا وقبرك ما لهم عذر
يا قبر سيدنا المجن سماحة ... صلى الاله عليك يا قبر
ما ضر قبراً فيه شلوك ساكن ... أن لا يمر بأرضه القطر
فلينبعن سماح جودك في الثرى ... وليورقن بقربك الصخر
واذا غضبت تصدعت فرقاً ... منك الجبال وخافك الذعر
واذا رقدت فأنت منتبه ... واذا انتبهت فوجهك البدر
والله لو بك لم أدع أحداً ... إلا قتلت، لفاتني الوتر

قال فدنوت منها لاسألها عن أمرها، فاذا هي ميتة.

الامالي ص ٤١ : ١ ط أميرية



الدبلوماسية البابوية

في محيط السياسة الاوربية

لصلاح الدين الشريف

تطلع علينا أنباء البرقيات الخارجية الحين بعد الحين ، بألوان من السعي الدبلوماسي السلمي يصبغ نشاط « الفاتيكان » في هذه المرحلة التي يجوزها العالم ويرسم لنا في غمرة الأحداث الدولية التي تتعاور الآن مصاير الأمم ، صوراً حية تعكس للقادة العالميين حقيقة المتجه الدبلوماسي الذي تنحوه اليوم سياسة «الفاتيكان» في معترك العلاقات الدولية المتشابكة، كما تـكاد تفصح عن مدى ما تستطيع أن تؤديه الدبلوماسية البابوية للعالم كله من سلام وتعاون وإخاء ، بعد سنوات شداد من العراك والدمار والفوضى .

والحق ان البابوية لعبت دوراً تاريخيًّا خطيراً في سياسة العالم من قبل ، اذ كان لبابوات روما اليد الطولى في خوض معركة لاهبة من معارك الـكفاح الرهيب بغية التفرد بالسلطان الزمني ، بله سلطانهم الديني . وكان من المحتوم أن يشغل هذا الـكفاح من العصور الوسطى حقبة من الزمن ، حفلت بأحداثها وظروفها ، إذ نازعت فيها البابوية ملوك أوربا وأقيالها ، واشتدت في مدافعتهم عن رغبة الاستئثار وحدهم بالسيطرة على مصاير أوطانهم السياسية وممارسة سلطانهم الزمني كاملاً . وقد تجلى دهاء السياسة البابوية في مناسبات عدة ، كما تبدت روعة أساليبها في حرصها الشديد على الاستمساك بعروة السلطان الزمني طيلة فترة الـكفاح بينها وبين الأمبراطورية ، وعرضت لنا صفحات التاريخ الأوروبي صوراً باهرة لأعلام السياسة الزمنية من دهاة البابوية ودهاقينها المجربين العباقرة .

ولم تهدأ ثائرة هذا النزاع العاصف بين الـكنيسة والدولة ، إلاَّ بعد أن أخذ ملوك أوربا وأقيالها يدأبون على توطيد سلطانهم الزمني متوسلين بالنظريات المبتدعة تارةً [1]

(١) كنظرية الحق الالهي التي تقضي بأن الملك أو الامبراطور يستمد حقه في حكم شعبه من الله ، فهو غير مسئول الا أمامه سبحانه .

وبسياسة البطش تارةً أخرى . وظلّ العامل الديني الذي اصطبغت به الدعوة البابوية في دفاعها عن مبدئها في السياسة الزمنية ، محافظاً على بقية من نفوذه وقوته في أذهان الغربيين حتى مطلع القرن الثامن عشر ، عصر الاستنارة في أوربة ، فشاعت فلسفة الشك التي تناولت قيم الحياة وأقيسة الحضارة بألوان من التجريح والنقد ، استندت فيها الى فقه دعاة الاصلاح الديني من ناحية ، وإلى كتابات فلاسفة القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وعلى رأسهم فولتير من ناحية أخرى .

وما استتمّ القرن الثامن عشر دورته ، وطالعت العالم المتمدين طلائع الثورة الفرنسية الكبرى ، حتى تقرر في الواقع ، بعد أن تقرر في الأذهان ، مبدأ الفصل بين نفوذ الكنيسة الديني والنفوذ السياسي للدولة . وذاعت من ثمت نظرية سياسة جديدة لبابها تقرير المبدأ المسيحي القديم «ما لله لله وما لقيصر لقيصر» أي أن الحكم للدولة والدين للكنيسة ولا بدّ ، تبعاً لهذا المبدأ ، من تحديد النفوذ بينهما Cujus regio ejus relegio [1] .

كانت فلسفة الثورة الفرنسية ستار أسدل على ما كان باقياً للكنيسة وقتئذ من آثار السلطان الزمني ، ولم يطل الأمر بالكنيسة حتى فقدت إبان الثورة مقاطعاتها وممتلكاتها جميعاً ، بعد مصادرتها وإلحاقها بالدولة التي اعتنقت « دين العقل » وقدّست مبتدعه « روبسبيير » داعية الثورة الأكبر !

وتولت فرنسا الثائرة من يومئذ مهمة الانفاق على الشعائر الدينية من خزينة الدولة ، وفي حدود ما ترصده لها من مواردها العامة ، فكانت أنصبة محدودة وحصصاً متواضعة ، لا تكاد تفي بما يسد حاجة هذه الشعائر من وجوه الانفاق .

ولم يكن عجباً أن يصبح مرفق الدين في المجتمع الثوري ضئيل الحظ من العناية الحكومية بعد ما كان له من سلطان زمني باذخ وعنفوان روحي قديم . وهكذا طغت فلسفة القرن الثامن عشر الاجتماعية على ما بقي من حرمات للمراسم والتقاليد ، وعصفت نزعة الالحاد برجال الثورة والقائمين على إلهاب مبادئها اللادينية المتطرّفة في صدور الجماهير .

وكان « الفاتيكان » في ذلك الوقت يلوذ بصمته التقليدي الذي يرتد اليه في كل مرة يفلت من يده زمام الأمور الكنسية التابعة لمذهبه الرسمي ، وظلّ يرقب عن كثب أحداث تلك الثورة التي أطاحت بعهد الارهاب لتخلفه حكومة « الديركتوار » التي مهدت بدورها

....

(١) Paleologue, Un Grand Tournant de la Politique Mondiale, P. 40,

لظهور نابليون الأول، ليسيطر بحروبه الظافرة عبر القارة ، على أقدار الممالك ومصاير شعوبها فترة غير قصيرة من الزمان .

وأوحى إلى نابليون دهاؤه بأن الوضع الذي رسمته الثورة للمجتمع الفرنسي ، بالنسبة لعلاقاته الدينية مع البابا ، لا يتفق وما يجول في خاطره من آمالٍ جسامٍ يتطلع إلى تحقيقها وإلباسها ثوب الحقائق السافرة ، وأن لا غنية له عن كسب العطف البابوي ، فاعتزم من فوره — و هو الطامح إلى تاج الامبراطورية — أن يعيد إلى فرنسا ، الابنة البارة للكنيسة الكاثوليكية ، وضعها الطبيعي الأول ، وأن يمد يد المصالحة إلى البابا ليعيد العلاقات بينه وبين الدولة سيرتها الأولى . وهكذا كان اتفاق « الكونكوردا — Concordat » المبرم في عام ١٨٠١ دستور علاقات قامت على الوفاق والمودة بين الفاتيكان وفرنسا حتى عام ١٩٠٤ ، حين استبدل بها غيرها .

وكان اتفاق « الكونكوردا » في الواقع عملاً باهراً من أعمال الدبلوماسية النابليونية ، حملَ « باڤاريا » عام ١٨١٧ وبروسيا عام ١٨٢١ على أن تنسجا على منوال فرنسا ، إذ عقدت كل من المملكتين مع « الفاتيكان » اتفاقية تنظم سير العلاقات بينهما .

والحق أن العنصر السياسي لم يكن بارز الأثر في هذه الاتفاقات ، غير أن مقام « الفاتيكان » في العالم الكاثوليكي، بله المسيحي عامةً ، كان ذا أثر ملحوظ في السيطرة على عقائد الملايين من سكان أوروبا على اختلافهم ، فكان البابا بهذا الوضع قوة روحية كبرى يخشى جانبها ويستحب اكتساب عطفها ورضاها ، ولاسيما بعد أن عادت الأوضاع الطبيعية إلى أوروبا في أعقاب عصر الارهاب الثوري ، واستتبت شئون القارة إلى حين ، إثر معركة الأمم وهزيمة نابليون في « واترلو » وهيمنة سياسة المؤتمرات على ممالكها وشعوبها .

والواقع أن الدبلوماسية البابوية لم تشأ أن تشتبك بادىء ذي بدء في غمار الأحداث الدولية أو أن تساهم في معترك الشؤون الخارجية بين ممالك القارة ، بقدر ما عكفت على تنظيم صلاتها الدينية بكنائس الدول الأوروبية ، فلم تن عن العمل على توثيق سلطانها الروحي عن طريق مبعوثيها من الرسل البابويين عند الدول التي ارتبطت باتفاقيات تنظم علاقاتها بالفاتيكان ، فظلت مطبوعةً بطابعٍ ديني محض ، لا شأن له بأمور السلطان الزمني ، على خلاف ما كانت عليه أوضاع البابوية طوال العصور الوسطى[1] .

(1) Mowat, Diplomacy & Peace, P. 188—189.

غير أن هذا الاعتكاف في داخل نطاق السلطان الروحي وتسيير دفة العلائق الدبلوماسية المبنية على تلك الاتفاقات في حدوده ، ليس يعني أن البابوية حتى قرابة الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، لم تكن تباشر أي لون من ألوان السلطان الزمني . فلا يجب أن ننسى أن الفاتيكان ظلّ مسيطراً على مدينة رومية وما كان داخلاً من الارضين في نطاقها ، يباشر عليها جميعاً سلطانه الزمني بكامل المعنى الاصطلاحيّ ، حتى بدأ حلم الوحدة الايطالية يتحقق بدخول جيوش « بيمونت » المدينة المقدّسة ، واحتلالها عام ١٨٧٠ وجعلها عاصمة لمملكة إيطاليا .

وعند ما تيسرت الأسباب لمملكة إيطاليا ، ولا سيما بعد استكمال وحدتها القومية والسياسية وزوال سياسة الفاتيكان ، أن تكون قوة عاملةً في المحيط الدولي ، ثارت بين الدول من جديد نظرية « الوضع الدولي للبابا » وعكف فقهاء السياسة الدولية على بحث تلك القاعدة التقليدية القديمة التي كانت تشترط لصحة انتخاب عميد المسيحية الأكبر وتربعه على عرش الفاتيكان ، أن يكون إيطاليّ الجنسية ، وانتهت إلى أن هذا الشرط « العنصري » — إذا ظلّ معمولاً به — فانه لا يحقق على الدوام الصفة الدولية للبابا ، ولا أن يضفي على « الفاتيكان » صبغة عالمية بارزة . ومن ثمّ ذهب فريق من فقهاء القانون الدولي إلى القول بأن الوضع الدولي البابوي لا يتحقق بكامل معناه إلاّ باعتناق نظرية الانتخاب الشعوبي العام ، وتمهيد السبيل أمام الأمم الأخرى ، ليحظى أبناؤها من الكرادلة والأساقفة الذين استكملوا شرائط الانتخاب ، بالكرسي البابوي الرفيع ، أسوة برجال السلك الكهنوتي من أبناء الشعب الايطالي .

ولقد كان للنظريات الفقهية الجديدة التي حتمتها تطورات السياسة الدولية في العقود الثلاثة الأخيرة ، أثر ملحوظ في توثيق ذلك الرأي الفقهي ، وإن لم يدخل بعد في حيز التنفيذ العملي ، رغم أن أوضاع عصبة الأمم التي دعا « ولسون » حلفاءه إلى بحث فكرتها بعد الحرب العالمية الماضية ، كانت تقضي بدولية الانتخاب الخاص بتولي منصب سكرتيريتها العامة [1] حتى يعم التناوب عليها جميع أبناء الدول الداخلة في عضويتها وهيئاتها

بيد أن فريقاً آخر من الفقهاء والمشترعين الذين أشبعت روحهم بثقافة دينية مسالمة ، لم يروا في محاولة قلب الأوضاع الحالية وابتداع النظريات الفقهية بغية التعديل في القواعد المرسومة التي رسّخها الزمن ، إلا فرصةً سانحةً لبعث التنافس والمزاحمة بين الشعوب ،

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٦ ، ١٨٧

وإثارة كوامن التطاحن السياسي بين حكومات الدول المتناجزة ، في سبيل كسب هذا المنصب لأبنائها . ولقد رأوا أن مثل هذه الخصومة قد تجر إلى إثارة منازعات أسدل عليها عصر الضياء في أوربة ، ستاراً كثيفاً . فالاستمساك بعرى التقليد القديم الذي جرت عليه مراسم الانتخاب للكرسي البابوي ، يجعل مركز البابا على الدوام بنجوة من تلك المنافسات السياسية فضلاً عن أن الفاتيكان ، في ظل هذا التقليد التاريخي العتيد ، لا تسلب حيدته ولا يثلم استقلاله، الذي يستمد منه سلامته وحرمته في العالم المسيحي كله .

ولم يكن المتجه الدبلوماسي للبابوية منذ حركة الاصلاح الديني « Reformation » حتى منبثق عام ١٨٧٠ سوى سلسلة من السعي الحثيث لكسب مزايا دينية ومنحٍ مادية للكنيسة الكاثوليكية . ولقد تجلت خصائص هذه الدبلوماسية الايجابية لتحقيق هذه المغانم الأدبية والمادية للكنيسة في عهد فيليب الثاني ملك اسبانيا ولويس الرابع عشر وخلفه لويس الخامس عشر ملكا فرنسا .

وفي القرن التاسع عشر ظلت الدبلوماسية البابوية منذ انعقاد مؤتمر فينا حتى نشوب الحرب السبعينية بين المانيا وفرنسا، لا تألو جهداً في الاستمساك بسلطانها الزمني الذي هيأ لها السيطرة المطلقة على مرافق روما وأقدارها ردحاً من الزمن ، حققت البابوية في خلاله صورةً من المجتمع الديني سادت فيه فضائل المسيحية . ولم يكن مستنكراً في غمار هذه الظروف أن تناهض سياسة الفاتيكان نشوة الروح القومي في ايطاليا ، تلك الروح التي كانت ترمي إلى تحقيق الوحدة السياسية الموموقة بين إماراتها ودوقياتها بزعامة « پيمونت » ومن ثمة اتجهت الدبلوماسية البابوية أيامئذٍ إلى مناصرة سياسة المؤتمر التي رسم «ميترنيخ» قواعدها بتأييد انجلترا وروسيا [1] والنمسا .

والحق أن فقدان الفاتيكان لسلطانه الزمني إثر تحقيق الوحدة الايطالية ، لم يحمل في طياته أيما شر سياسي للفاتيكان ، كما كان يتنبأ بذلك أنطونلّي Antonell الدبلوماسي الداهية الذي كان كاتماً لسر البابا « بيوس التاسع » منذ عام ١٨٤٨ حتى عام ١٨٧٦ .فزوال السلطان الزمني ضمن لدولة الفاتيكان الخلاص من ربقة القيود الاقليمية والاعتزال وراء التخوم الجغرافية،ومهد للفاتيكان اتباع سياسة دولية شاملة خرجت بنشاطه الديني والسلمي إلى الأفق الدولي الفسيح .

ولقد تحقق هذا الوضع على أكمل وجه له بعد « المعاهدة اللاتيرانية Lateran » التي

....

(١) المرجع السابق صفحة ١٨٨

أبرمتها الدولة الايطالية مع الفاتيكان عام ١٩٢٩ ونظمت بها العلاقات الدبلوماسية بين الدولتين وأمكن بها للبابا ، لأول مرة ، أن يخرج عن احتجاجه التقليدي الذي ظلَّ حتى وقتئذٍ سنة متبعة منذ احتلال قوات « بيمونت » لرومية ، احتجاجاً على العدوان العسكري والسياسي الذي نزل بالفاتيكان باحتلال « المدينة المقدسة »

وظلَّ خلفاء « بيوس التاسع » ملازمين الفاتيكان الذي انكمش سلطانه السياسي على أثر تحقيق الوحدة القومية، واتبعت الحكومة الملكية الجديدة إزاء مدينة البابا وضعاً دولياً مسالماً ، إذ اعتبرت الفاتيكان إقليماً أجنبياً عن أرض الدولة « extra-territorial » فلم تخضعه لهيمنة الحكومة المركزية، ولم تحتله بجيوشها أو موظفيها الملكيين [١].

وعلى ذلك لم يعد للاحتجاج التقليدي الذي اتبعته السياسة البابوية منذ عام ١٨٧٠ أي مبرر ، لأن استنكار هذه السياسة لفكرة الضم Annexation لم يعد يحمل معنى انتهاك السيادة واهدار الاستقلال ، ولم يكن في الواقع غير عمل سياسي طبيعي ضمت به مدينة رومية المملكة الجديدة لتصبح العاصمة ، واقتطعت الحكومة الملكية بعض الأرضين التي تتاخم المدينة وتكون ضواحيها .

ومن ثمة انفسح المجال أمام الفاتيكان ليشارك في تعزيز الروابط الدينية وتقوية العوامل الأدبية بين أمم المسيحية ، وتأكد هذا النشاط الجديد عقيب أن بارح البابا « بيوس الحادي عشر » مدينة الفاتيكان في موكب ديني مشهود اعلاناً لرضائه الصريح الذي ظلت الحكومات الايطالية المتعاقبة حريصة على الفوز به.

***

ولما كانت الدبلوماسية البابوية تستمد خصائصها من طابعها الديني الذي يعزز في روحه وتعاليمه مكارم الأخلاق الدولية بين أمم العالم ، فقد هالها الصراع الدموي الرهيب الناشب بين أمم الحضارة، وينذر بالقضاء على مقوماتها ومثلها ، فهبت نشيطة يقظة تدعو العالم الى كلمة سواء ، وتهيب به أن يفيء الى الاخاء والعدل والسلم .

---

(١) راجع مقال N. V. Tcharykow بعنوان « The Roman Question » في مجلة Contemporary Review عدد مارس سنة ١٩٣٠ . وقد كان «تشاريكوف» هذا ممثلا للامبراطورية الروسية لدى دولة الفاتيكان عام ١٨٩٧

وفي اليوم الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣ أذاع قداسة البابا من محطة الفاتيكان اللاسلكية رسالة كريمة طالب فيها الأمم المتحالفة أن تحقق السلام في أقرب وقت، وناشدها ألا تدع هذه الحرب المروعة تنتهي بالتحطيم والتدمير بل يجب أن تستهل صفحة جديدة من الصلح الأخوي بين الشعوب .

ولقد رسم قداسته في تلك الرسالة ، التي سبقتها دعوات قوية مماثلة ، قواعد الدبلوماسية الجديدة التي تناصرها البابوية وتراها أمثل الأساليب لاقالة هذا العالم من عثرته ، ومنها نستشف سماحة العوامل التي حدت بهذا النشاط الدبلوماسي الى تكرار دعوته ومواصلة النهج في سبيلها ، حتى يعلو صوت العقل على صوت الدمار والفوضى .

قال قداسته « يزداد في كل أمة النفور من أساليب الحرب العامة، كما أخذ الشك يتسرب الى جميع القلوب في هل يتفق استمرار مثل هذه الحرب مع المصالح القومية أو مع العقل . وقد تحطم صرح الثقة والايمان بين الأمم بعد المعاهدات الكثيرة التي نقضت، والعهود التي نكثت ! وان الشعوب لا تستحق ، بعد الآلام والمتاعب التي عانتها ، سوى السلام والخبز والعمل ، هذه كل ما تطلبه الشعوب ، والله هو الحكم الأكبر لكل عدل وقانون . فالويل لمن يثيرون الأحقاد ويبنون سلطانهم على الاضطهاد والمظالم وتعذيب الأبرياء ويمنعون بناء سلام عادل دائم » .

« إن الذين حسبوا أنهم قادرون على تحقيق انتصارات عسكرية خاطفة واحراز صلح سريع ظافر ، لم يشاهدوا ، حتى في بداية هذا العام الخامس من الحرب، سوى الرعب والفزع » [1]

***

ولا شك في أن هذا الاتجاه السلمي الجديد ، مع ما يعززه من النفوذ الأدبي لهيبة المقام البابوي بين أمم العالم المتطاحن، سيحملها على أن تطوي صفحة الأمس المحزنة، وتستهل صفحة جديدة قوامها الاخاء والرخاء والعدل بين أمم العالم المتمدين .

---

(١) راجع جريدة الاهرام العدد رقم ٢١١١٩ الصادر في ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣



الريف والزراعة

في الولايات المتحدة الاميركية

لوديع فلسطين

يهمّ البلاد الزراعية، ومصر في طليعتها، أن تتبع أنباء التقدم الزراعي في العالم لتستطيع الافادة من خبرة الأمم الأخرى في هذا الشأن .

١ — إضاءة الريف الأمريكي

وأول ما يلفت النظر في الريف الأمريكي نظام الاضاءة الكهربائية الذي ينتشر في عددٍ كبيرٍ من قرى الولايات المتحدة الأمريكية .

فقد استطاع الأمريكيون في مدى سبع سنوات إضاءة ما يزيد على مليون منزل ريفي تضمّ زهاء خمسة ملايين نسمة . فأضحى هذا العدد الضخم من الفلاحين ينتفع بمزايا الاضاءة الكهربائية الجمّة .

أنشئت إدارة إضاءة الريف بالولايات المتحدة في مايو سنة ١٩٣٥ بناءً على أمر الرئيس فرنكلن روزفلت، واتضح بعد مضي سبع سنوات من قيام هذه المؤسسة أن أصبح ٢٥ في المائة من القرى الأمريكية البالغ عددها ٦٫٨٠٠٫٠٠٠ قرية تضاء بالكهرباء .

وكان تحوّل الإضاءة من الزيت إلى الكهرباء مصحوباً بتطورٍ اجتماعي واقتصادي كبير . فقد أصبح الحصول على المياه النقية في الريف ممكناً ، وأدّى ذلك إلى تحسن صحة الريفيين . كما أن انتشار الكهرباء جعل من المتيسّر على الفلاحين اقتناء ثلاجاتٍ لحفظ المواد الغذائية ، ووفر عليهم الخدمات التي كان يؤديها الكوّائين والغسالين ومن إليهم .

ومن أهمّ ما نتج عن تطبيق هذا النظام الجديد أن أصبح مستطاعاً استعمال الآلات الزراعية، عوضاً عن سخرة الفلاحين في أعمال الفلاحة المختلفة .

ومما يجدر ذكره أن مشروع الإضاءة الريفي الكبير ، قام على اموالٍ أقرضتها

الحكومة الأمريكية المركزية (الفدرالية) إلى جمعيات تعاونية أقيمت خاصة لهذا الغرض أو إلى مؤسسات عامة لا تسعى إلى ربح ذاتي .

ووضع إلى جانب القروض ، نظام خاص يمكن بمقتضاه ردّ قيمة هذه القروض ثانيةً إلى الحكومة في مدى ٢٥ عاماً .

ولعلّ المثل التالي يبين لنا الطريقة التي أدّت إلى إضاءة الريف الأميركي .

يدعو ممثل الحكومة الأميركية المركزية فلاحي قرية من القرى إلى اجتماع عام يُظهر فيه الفلاحون رغبتهم في مدّ الأسلاك الكهربائية في قريتهم . فتتكوّن هيئة تعاونية تشرف على تنفيذ هذه الرغبة ، تُقرضها الحكومة المركزية نفقات مشروع الإضاءة ، فتمدّ الأسلاك في أرجاء القرية وتطالب الفلاحين بسداد نفقات استهلاكهم من الكهرباء وتقوم بدورها بتسديد الأقساط الحكوميّة ، مما حصلت عليه من المستهلكين . ومهمة الجمعيات التعاونية القيام بشراء الكهرباء من مراكز توليدها على أساس سعر الجملة ، ثم بيعها الى المستهلكين بسعر القطاعي، فيكون ربحها هو الفرق بين السعرين . ويُستغلّ هذا الربح في تصفية ديون الجمعية التعاونية للحكومة المركزية .

هذا وقد أنشيء في مختلف أنحاء الولايات المتحدة الأميركية ٤٥ مركزاً لتوليد الكهرباء تقوم بمهمة مدّ الهيئات التعاونية بالقوى الكهربائية اللازمة . وكان من نجاح المشروع أن ما يزيد على ٤٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار أقرضتها الحكومة الى نيفٍ وثمانمائة مؤسسة عامة تقوم بنشر الكهرباء في مختلف أنحاء الريف الأميركي .

هذه لمحة عن مشروع ريفي ناجح في بلادٍ زراعيّة ناجحة .

٢ — المزارع النموذجية

استطاعت خمسون مزرعة أميركية تدار بإشراف كلّ من « إدارة البحوث الزراعية الاميركية، والمختبرات ومراكز البحث الاقليمية » أن تغير الخريطة الزراعية للولايات المتحدة الاميركية . فأمكن في إحدى هذه المزارع التجريبية ، اختراع طريقة للزراعة الجافة أدت إلى تحويل المناطق الصحراوية في الولايات المتحدة الاميركية إلى مساحات تزرع فيها الحبوب. وتوصّل الباحثون إلى نوع من الحبوب يتطلب قليلاً من الرطوبة ، فزرعوه في هذه المزارع التجريبية ، وكانت النتيجة أن أصبح ثلاثون مليوناً من الأنفس يعيشون على هذا النوع من الحبوب ، وأن يستنبتوها لعمل الخبز اللازم لأهالي الولايات المتحدة وجنودها وحلفائها .

وقد أجريت تجارب مضنية لزراعة فول الصويا في نوع من التربة يشبه تربة نهر الفولجا في روسيا ، وكان نجاحها مدعاة لأن تشحن الولايات المتحدة إلى اتحاد الجمهوريات السوفيتية مقادير من فول الصويا ، الذي لم يسبق لروسيا أن استنبتته .

وأمكن لاحدى المزارع الاميركية ، أن تحرز نجاحاً ملحوظاً في استنبات نوع جديد من القمح يزيد عدد الحبات في السنبلة الواحدة منه بمقدار ٥٠ في المائة من عدد الحبات في سنابل القمح العادي . فكان من نتيجة ذلك أن أصبحت الولايات المتحدة الأميركية الآن تمتلك عدداً كبيراً من مخازن الغلال الزائدة عن الحاجة ، يمكن عند الضرورة شحنها إلى أوربا وآسيا وشمال أفريقية لتموين البلدان التي تأثرت سياستها الغذائية بفعل الحرب . وتدار محطات التجارب الزراعية التابعة لوزارة الزراعة الأميركية لمصلحة الفلاحين الأميركيين وبمعاونتهم ، وكذلك بمعاونة طلاب الزراعة في جميع الولايات ، فهي والحال هذه تمثل جميع درجات المناخ وأنواع التربة .

ويتعاون العلماء مع الفلاحين في انتاج أنواع جديدة من النباتات ، وتحسين سلالات الماشية ، وزيادة الانتاج المحلي من بيض الدجاج ، واختراع المواد الكيميائية اللازمة لعلاج أمراض النباتات .

ويخسر زراع الحبوب في المناطق الغربية من الولايات المتحدة الأميركية كميات هائلة من القمح سنويًّا لاصابتها بمرض « الصدأ » ، غير أن البحوث التي تجريها المزارع الحكومية تمخضت عن كشف نوع جديد من القمح لا يصاب بالصدأ لمناعته . وغلة الفدان منه تزيد على غلة الأنواع الأخرى . فأمكن بأساليب التسميد المستحدثة والأنواع الجديدة من الحبوب أن تتزايد غلة الشعير والقرطم والحنطة والحمص . وأصبحت الولايات المتحدة تنتج من هذه المحصولات ١٢٥ في المائة أزيد مما كانت تنتجه قبل عشر سنوات .

وتواصل الهيئات المختصة بنجاح مكافحة الحشرات التي تفسد الفاكهة وسوس القمح ودودة القطن وأمراض الماشية وتحارب جميع الأدواء التي تؤثر في زيادة الموارد الغذائية للولايات المتحدة الأميركية .

ويطوف ألوف من مندوبي مصلحة الزراعة الأميركية على القرى لابلاغ الفلاحين نتائج بحوث هذه المزارع بطريقة واضحة ، وإحاطتهم بجميع التحسينات التي تطرأ على الزراعة . كما انهم يقومون بعرض مشكلات الفلاحين على الباحثين ليتعاونوا على حلها .

وحدث مرة أن اشتكى فلاحو الأراضي الجنوبية في الولايات المتحدة من أن ماشيتهم

هزيلة سقيمة ، فأرسلت الحكومة خبراءها إلى تلك المنطقة ليتقصوا أسباب هذه الشكوى ، فاتضح لهم أن الماشية من نوعٍ لا ينضج عرقاً يلطّف من حرارة أجسامها . وعندما لقّحوا الماشية بنوعٍ جيّد من المواشي يلائمها الجوّ الجنوبي الحار ، تحسنت أنواعها ، وتضاعف إنتاجها .

وأمكن بالعناية الفائقة بالدجاج أن تبيض الدجاجة الواحدة في المزارع الأميركية حوالي ٢٥٠ بيضة في العام ، واستطاع هؤلاء العلماء أنفسهم زيادة إنتاج الولايات المتحدة من لبن البقر بمقدار ٢٠ في المائة ، وضاعفوا النسبة الغذائية في الزبد . كذلك رأى أصحاب مزارع الليمون والبرتقال أن الأشجار تنمو هزيلة ، فاستدعوا اخصائيي الحكومة ، واتضح لهم أن الأشجار الناجحة تنبت في تربة تحتوي على نسبة قليلة من الخارصين (الزنك) وان البساتين المصابة تعوزها هذه المادة ، فعولجت على هذا الأساس وعادت إلى الأشجار عافيتها.

وفي السنوات العشر الأخيرة وحدها ، استطاع علماء الحكومة ومندوبوها متعاونين، زيادة إنتاج الحقول الأميركية بما لا يقل عن ٢٥ في المائة وهم يواصلون أعمالهم الآن . فاستنبتوا أنواعاً جديدة من القطن المتين التيلة وأنتجوا أنواعاً جديدة من الفاكهة والمحصولات المختلفة ووفقوا إلى كشف فوائد جديدة لجميع المحصولات ، واستغلوها جميعاً أفضل استغلال ، فأصبح القمح الهندي مثلاً ، يستعمل في ما لا يقل عن ألف غرضٍ صناعي عدا استعماله غذاء . وفول الصويا استعمله العلماء في صناعة المطاط الصناعي وفي بناء الطائرات وفي إنتاج مئات من الأدوات النافعة . واستطاعوا بكافة الوسائل استغلال ذكائهم ومعارفهم وصبرهم في الاكثار من محصولات الحقول الأميركية .

***

تلك أمثلة للمشكلات التي نجحت في حلّها المزارع الخمسين التابعة لحكومة الولايات المتحدة الأميركية . ولم تنجح تلك البحوث في تحسين حال الفلاحين وحسب ، بل ساعدت الحكومة الأميركية في تغذية جيشها الكبير .

وإزاء الحرب القائمة ، أنشأت مصلحة الزراعة الأميركية قسماً خاصّاً لبحث الحالة الغذائية في العالم ودراسة المزايا النسبية التي تترتب على استنبات محصولات زراعية معينة في بلادٍ لها من جوّها وتربتها ما يجعلها أنسب مكانٍ لإنبات هذا النوع من النبات . كما انها وضعت برنامجاً وثّاباً لنشاطها بعد الحرب .

الزرمانقة وأصلها

للأب أنستاس ماري الكرملي

من أحفياء مجمع فؤاد الاول للغة العربية

جاء في قاموس الفيروزابادي : والزُرمانقة بالضم جبة من صوف . معرب أشتُربانَه أي «متاع الجمّال» وقد تبع هذا الرأي كل من بحث عن هذه الكلمة من أبناء الناطقين بالضاد . ونحن لا نرى البتة هذا الرأي ، إذ بين الحرفين من الفرق ، كما بين الثرى والثريا ، أو كما بين البقة والبقرة . ولا يهمنا قال فلان كذا ، أو قال آخر كذا ، انما نرمي إلى التحقيق ليس إلاّ .

والمستشرقون لم يقبلوا هذا الأصل الفارسي الذي يحيل بعضهم عليه ، فقد نظر فرنكل (ص ٢٨٩ من كتابه إلى رأي نولدكي أي الى انها من (كره يبان) أي حافظ الرقبة من (كِره أي عنق)و (بان أي حافظ) ولكن كليهما شك في صحة هذا الأصل ولم يقنع بهذا الفكر . ولهذا جعل وراء (كِره يبان ؟) علامة الاستفهام ، دلالة على عدم اقتناعه به .

ونحن أيضاً لا نوافق على رأي من يقول بهذا الأصل أي (اشتربانه) ولا على رأي من يقول إنها من كره يبان ، والذي عندنا ان (الزرمانقة) مأخوذة من (جرمانقة) وهي اسم بلدة تسمى اليوم(مَرْعَش) ، وكانت تعمل فيها أكسية منسوبة اليها ، وهي جبب من صوف أو من وَبَر الجمال .

قال السيد مرتضَى في تاجه : « الزرمانقة بالضم جبة من صوف . نقلهُ الجوهري . ومنه الحديث : ان موسى عليه السلام ، لما أتى فرعون ، أتاه وعليهِ زرمانقة ، يعني جبة صوف . قال أبو عبيد : أراها عبرانية . قال : والتفسير هو في الحديث . ويقال : هو فارسي معرب اشتربانه أي متاع الجمل» اه . — قلنا : وفي القاموس — كما رأينا : متاع الجمّال ، بتشديد الجيم يليها ميم » .

قلنا : ليست في العبرية كلمة تشبه هذا اللفظ ولا هذا المعنى . وأما في الفارسية ،

فالكلمة (اشتربانه) بعيدة عن الزرمانقة . هـذا فضلاً عن ان (اشتر) معناها الجمـل ، الحيوان المعهود ، لا الجمّـال أي صاحب الجمل . ولم ترد (بانه) عندهم إلاّ بمعنى العانة، ولا محل لهذا المعنى هنا .

والمعروف في الفارسية (أشْتُـرْوَا) وهو ثوب يتخذ من الوَبَر و (أُشتروَارْ) أو (أُشترباد) حمل أو وَقر جمل.و(اشتُـرابه) أو (أُستُرَاوه) ثوب يتخذ من الوبر، وقد صحفهُ بعضهم فقال (أُشترابه) وكلاهما خطأ ، إذ لا وجود لهما في الفارسية الفصحى . والصواب أن الـكلمة من اللاتينية Germaniciana ومعناها مَرْعَشِيَّـة بتقدير جُبَّـة ، فيكون معنى زُرْمَـانقة : جبة مرعشية ، أو تعمل في مرعش ، وهي من مدن الثغور ، لأن هذه البلدة تسمى بالرومانية Germanicia (جرمانيقية) واليونانيون لا يستطيعون التلفظ بالجيم ، فيجعلونها زاياً ولهذا يقولون (زرمانيقية) ، ثم خففت تخفيفاً طفيفاً بحذف الياء فقيل رزمانقة .

والـكلمة معروفة اليوم عند الإرميين (وهم الذين يسمون وهماً وخطأً كلداناً وسرياناً) بصورة (جُـرْميناقـا) بمعنى زرمانقة، وقد أفرغوها بقالب لغتهم، صاغها بنو مُـضَـر صياغة مُـضَـرية ، وفسرها بعضهم بانها ثوب محشو ومبطـن وقد وردت هذه الـكلمة بصورة ثانية في لساننا هي جرمقي وزان زبرجي .

***

الـكساء الجرمقي هو الزرمانقة

الكساء الجرمقي هو عندنا الزرمانقة بنفسها ، وان لم يصرح بهذا المعنى أرباب نصوص اللغة قال في القاموس في تركيب (ج ر م ق) ، الـكساء الجرمقي بالـكسر ، وفي التاج : « قال الفراء : كساء جرمقي ، بالـكسر ، كذا في التـكملة » ولم يزد على هـذا القدر ولم يشرحوه » . اهـ

والذي عندنا أنهُ الزرمانقة نفسها ، فهذه الصورة اللاتينية، والجرمقي بالصورة الخفيفة العربية، كما قالوا في عبد القيس وامرىء القيس وعبد مناف وعبد شمس ، عبدي وامرئي ومنافي وعبشمي، الى نظائرها، وكل ذلك طلباً للخفة.

ولماذا لم يشرحوا الجرمقي كما شرحوا الزرمانقة ؟ — قلنا : لذلك أسباب ، منها :

وهو الأول : إنهم كانوا يعرفون معناه حين تدوينه في المعاجم .

الثاني : شهرة ذلك المعنى والشهرة تغني عن التعريف .

الثالث : استغناؤهم بقولهم : كساء وما كان مشهوراً يومئذٍ بكساء هو الزرمانقة ولم يفكروا أن الأجيال القادمة قد تختلط بمختلف الامم ذوي الألسنة المختلفة فيعسر معرفة المعنى إلَّـمْ يشرح بتفصيل واضح

الرابع : لعلَّ بعضهم شرحوه ولم يتصل بنا.

الخامس : ضبطه بعضهم وزان جعفري ، كما فعل صاحب (معيار اللغة) وهو الميرزا محمد علي بن محمد صادق الشيرازي من اللغويين المتأخرين،ومعجمه مطبوع في طهران طبعاً حجريًّـا سنة ١٣١١ للهجرة ، فقد قال في مادة (ج ر م ق): « جرمق كعسكر : بلد ، أو موضع وكساء جرمقي منسوب اليه اه . وضبطه ضبط قلم كعسكري، وهو خطأ واضح لأنه مخالف لجميع من صرحوا بضبطيهِ أي كزبرجي بكسر الزاي والراء .

اختلاف بعض اللغويين المحدثين في شرحه

جاء في ذيل أقرب الموارد للشرتوني : « كساء جرمقي بالكسر كذا بالتكملة.وهو منسوب الى الجرامقة » اه

قلنا : قوله : وهو منسوب الى الجرامقة ، ولم يرد في التكملة ، فهو من عنده ومن زياداته .

وفي البستان وهو للشيخ عبد الله البستاني : « الجرمقي كساء منسوب الى الجرامقة »— وهذا خطأ في خطأ . إذ لم يقل أحد : جرمقي بدون منعوت بل قال جميعهم كساء جرمقي . ولم ينسبوه الى الجرامقة، بل نسبوه الى جرمانيقية أي مَرْعَش وهي مدينة لا قوم، فاختلط عليه الحابل بالنابل والبقةُّ بالبقرة .

وجاء في معجم فريتغ الغربي اللاتيني ما هذا معناه : « زرمانَـقة . كذا . أي انه ضبط ضبط قلم بفتح النون وهو خطأ ،جبة من صوف (نقلا عن القاموس) : ويقال : إنها من الفارسية : اشتربانه . وعليه يدفعنا اشتقاقها هذا ، الى القول بأنها من ألبسة الجمالين » اه. وهذا كلام معقول وان لم يكن صحيحاً

والسبعون وبلّغتها

استطاع غلادستون ، السياسي الانجليزي المعروف، أن يشن معركة سياسية، أصبح بعدها رئيساً لوزارة انجلترا وهو في الرابعة بعد الثمانين . ورسم « تتيان » صورة من روائع الفن عنوانها « المسيح متوّج بالأشواك » وهو في الخامسة بعد التسعين . وكان « أوليفر ديتول هولمز » عضواً ممتازاً في محكمة الولايات المتحدة العليا ، ولم يعتكف ، إلاّ بعد أن بلغ الاولى بعد التسعين . فالعمر إذاً أمرٌ ذاتي ، ولا يُمَدّ دائماً بطول السنين والأعوام .

تكون الحياة ثمينة ما استطاع المرء أن يعيش سعيداً مفيداً لنفسه وللناس . ولا شك في أن الانسان لا ينتظر أن يعيش وهو في السبعين محتفظاً بنفس القوة والنشاط اللذين يكونان له وهو في الأربعين . ولكنه مع ذلك يستطيع أن يؤدي في ذلك السن عملاً مفيداً وأن يعيش في كنفه هادئاً وادعاً ، ما دام تكوين بنيته مواتياً لمطلوباته، وعاداته متفقة مع ما تقتضيه شرائط الصحة . صحة الجسم والعقل والروح .

الراحة الواجبة

إذا تقدم بك السن فصرت في أصيل الحياة ، فاعمل بهدوء وتؤدة وتجنب العجلة وامشِ بهوادة، أي على قدر ما تجد عندك من طاقة، فلا ترهق عضلاتك وأعصابك. ذلك بأن مقدار الحركة في الحياة يجب أن يتكيّف دائماً بنسبة ما تجد في جثمانك من قوة ونشاط وكفاية كل يوم . فالراحة إلى الحد الواجب والتكاسل والنوم ، تصبح من الأشياء الضرورية اللازمة لمن هم في السبعين ، واغفالها أمرٌ لا يعين على السلامة .

فبعد أن تقضي عيشة هادئة ، بعيداً عن مهام حياتك ، مستقر النفس ، منصرفاً عما يثيرها ويمضها ، فالفراش أولى بك إذا بلغت ساعتك التاسعة أو بعدها بقليل . والذين يشعرون بالقلق إذا جنّ الليل ، والذين يصابون بالأرق لغير سبب طبيعي ، يجمل بهم أن يلجؤوا إلى حمام ساخن ، فانه خير ما يهدئ الأعصاب ، ويعيد للنفس استقرارها ، ويجلب

النعاس الهادي إلى الجفون المتعبة . فبعد عشرين أو ثلاثين دقيقة تقضيها في حمامك ، جفف جسمك بعناية ، واستلق طالباً الراحة موطناً نفسك عليها ، فيهوّم النعاس بعينيك ثم تنام راضي البال . فالتراخي والاستسلام إذا ما أويت إلى فراشك ، وانصرافك عن التململ والتقلب على جنبيك ، من مجلبات النوم ، فاذا أعيتك الحيل وطار النوم من عينيك ، فالجأ إلى الطبيب غير متوانٍ ، فان ذلك خير سبيل ، وآمن وسيلة .

إن بذل أي جهد عضلي أو نفسي محاولة جلب النوم ، من أخص الأشياء التي تجلب اليك الأرق . وأعدى اعداء الأرق جلسة هادئة وعقل وادع ونفس مطمئنة . هنالك يأتيك النوم ساعياً اليك . ومن الضروري لك أن تعلم أن الراحة والهدوء عاملين من أعظم مجلبات النوم . وعليك أن تقاوم ميلك إلى العقاقير النوّمة ، لأنها أول بواعث التخدّر ، فتحدث حالة من الخدر العقلي تهدّئك ، ولكنها ليست نوماً طبيعيًّا ، وكل العقاقير النوّمة من العوامل المحدثة للعادات التي تستبد بك على اختلاف في الدّرجة والقدر ، ولن يوصي بها انسان عالم بحقيقة ما تؤدّي اليه .

ويجب الانتباه إلى الرياضة البدنية ومرانة الجسم خارج المنزل ، كلما كان ذلك مستطاعاً . والمشي من الرياضات المثالية لجميع الناس وفي كل أطوار العمر ، فلا تهمله .

الازدحام بالطعام يختزل العمر

الكلام في الحمية الواجبة لمن بلغ السبعين ، وبخاصة في عادات الأكل والشرب ، وفي ملاحظة الميل الى الرّبالة ، من أخصّ ما ينبغي أن ينصرف إليه المعنيون بأمر صحتهم . فان انصرافك إلى لذائذ المائدة ، أمرٌ قد يجر عليك أمراضاً كثيرة وآلاماً أنت في غناء عنها .

فالمعدة المزدحمة لا يقف بها الأمر عند خلق الاضطرابات المعوية الشديدة ، بل انها عقبة كؤود تعوق حركة القلب عند المتقدمين في السن . والازدحام بالطعام من شأنه أن يحدث مع الزمن ميلاً إلى الرّبالة ، وهي مما يؤثر في وصلات الجسم السفلى ، فتتراخى وتتعطل عن القيام بوظائفها الحيوية . والنّقرس من الأمراض التي يتفاقم أمرها ، إذا عيق القلب عن حركته الطبيعية ، ان لم تكن إعاقة القلب عن تأدية واجبه ، سبباً في إحداث الاصابة به ، لأن القلب إذا عيق عن عمله ، اضطر إلى زيادة الجهد بنسبة كل رطل يزيد في وزن الجسم . والرّبلون قلما يمتد بهم العمر . وقد دلت التجارب على ان كل رطلين في الوزن تلقاء بوصة في الطول ، هو المعدّل الطبيعي للبالغين ، فاذا زاد المعدّل أو قلَّ في نطاق عشر أرطال ، لم يدلَّ ذلك على تجاوز ذي بال ، ولكن لا ينبغي أن يتعدّي ذلك .

يتطلب الاحتفاظ بالصحة غذاءً بسيطاً يطهى بطريقة خالية من التعقيد، والحديقة والحقل هما أمثل مكانين لتزويدك بالأغذية السهلة . والبقول تحتاج إلى الطهي ، أما الفواكه والجوز ، فقد طهتها الشمس ، فوق انها مأكولات شهية غنية بضروب الفيتامين والمعادن . وهذه الأطعمة، مضافاً اليها اللبن والزبد والجبن والبيض ، في مجموعها غذاء منشط كافٍ للاحتفاظ بحالة الصحة . واستكشاف ضروب الفيتامين ، قد أحدث انقلاباً في التغذية ، يعدّ الآن من أسس الصحة الجوهرية .

الكحول والطباق

ليس لتعاطي أنواع الكحول من مبرّر بحال من الاحوال، فانها جميعاً من أضر الأشياء بحالة الصحة . وبالرغم مما يعتقده أكثر الناس ، قد انتهى الباحثون الى أن أية كمية من الكحول صغيرة كانت أم كبيرة ، ليست من المنبهات في شيء ، بل هي على العكس من ذلك مخدرة مذهبة للحيوية ، ولها مؤثرات تخل بكفايات العقل العليا . ويرجع الى إدمانها الكثير من مآسي الحياة الانسانية .

وتَشَرُّب النيكوتين، وهو سم الطباق الناقع، عادة أخرى من العادات المستقبحة التي تختزل الحياة ماديًّا وعقليًّا ، كما أبان عن ذلك بأجلى بيان « ريموند پيرل » الأستاذ بجامعة « جون هوبكنز » . فان هذا المخدّر يترك أثره المباشر في الأعصاب والدماغ، ويثير الزّوْر والشُّعب الرئوية ، بالرغم مما يحاول البعض من المتاجرين بأعمار الناس أن يدخلوه في روع الدخنين. والنيكوتين من مسببات قرحة المعدة وبثور الامعاء ، وهو مما يعوق دورة الدم ، بما يحدث في الشرايين من التصلب .

فإذا أردت أن تنمي كل ذلك فالجأ إلى الطبيعة . إلى حديقة حسنة التنسيق تتناثر فيها الزهور الجميلة والأشجار الغضة . وحياة الريف من أفعل الأشياء التي تنسيك همك وتقوّم حياتك .

تجنب الوحدة

ومما يحسن بك أن تجتنب الوحدة ، وأن تلزم مصاحبة أقاربك وأصدقائك والذين هم من جيل أصغر من جيلك . فان ضحكات الأطفال وعبثهم ، وألعاب الشباب ومرحهم، أشياء لها أثر بعيد في بعث الحيوية وتجديد الشباب ، فضلاً عما يعود على الجيل الناشىء من الفائدة بمباشرة الكبار ، إذ يتزودون منهم بالنصائح الطريفة والمعلومات وتاريخ الأيام الماضية .

وعلى الرغم من أن التقدم في السن يضعف الذاكرة بعض الشيء ، فان العقـل من شأنه أن يتابع الاتساع والنماء طوال العمر، والانسان مهما تقدم به السن في مكنته أن يتعلم شيئاً جديداً وأن يتزود من المعرفة بمـا لم يكن يعلم . وهنالك من استطاعوا أن يستوعبوا لغات صعبة كالأغريقية بعـد أن بلغوا الثمانين من العمر ، فتشرَّبوها وتفقهوا في آدابهـا . فاذا عكـفت على تعلم شيء من هذا وانصرفت إليه ، فان ذلك مما ينسيك آلامك ويفيـد صحتك ويوسع آمالك ويزيد رغبتك في المتعة بالحياة . لأن لـكل طور من أطوار العمر متعة ، ومتعة الشيوخ الاتصال بالحياة من طريق جدي ، كتحصيل العلم أو استيعاب المعرفة .

ومن بلغ السبعين فانما قد بلغ عصره الذهبي ، فمن واجبه إذاً أن يتمتع بحصاد ما زرع في أيامه الأول ، بأن يقف حياته المفعمة بتجاريب الزمن على خدمة الجيل الناشىء من أولاده وأقاربه والذين يلوذون بهم . فاذا كان ممن هم في سعة من العيش ، حفَّ به سلام الحياة ، وإن له في الريف الجميل لحياة أكثر سلاماً ودعة ، وفيه يجد طبيعة غضة الاهاب تزوده بما يفعم نفسه جمالاً وقلبه انشراحاً ورئتيه هواءً منعشاً يجدد كيانه .

طبيبك يوفر عليك مالاً ومرضاً

إن كثيراً من المرض والألم والممضات مع ما يتبعها من نفقات وبذل ، يمكن تلافيها إذا بادر الناس بالذهاب الى الطبيب قبل أن يضطروا الى الذهاب اليه بزمن يسير . وكل انسان في حاجة الى فحص كامل يقوم به طبيب الأسرة كل سنة على الأقل ، وما يبذل في سبيل ذلك ، انما هو في الواقع اقتصاد مفيد . فاذا راعيت مع ذلك اتباع قواعد الصحة ، ضمنت حياة خالية قدر الامكان من كثير من الآلام التي تصاحب الشيخوخة

إذا تقدَّم بنا السن فان العظام تصبح قَصِفَـة هشة ، حتى أن سقطة على طنفسة ، قد تحدث فيها كسراً . وذلك يستدعي البقاء في الفراش مدة طويلة حتى تلتئم ، وقد لا تلتئم . وكذلك يصبح التوازن عسيراً واستقامة الجسم غير تامة ، مما يجعل احتمال السقوط متوقعاً في أي وقت . فعلينا أن نتجنب المشي على أرض الغرف المدهونة بالشمع والطنافس غير الثابتة ، وينبغي أن نستعين بعصاً في طرفها الأسفل قطعة من المطاط تجعلها ثابتة . ويجب مع هذا التحفظ أن نحتـاط من البرد والصَّقيـع وتغير الطقس ، فان عامة ذا يحدث اضطراباً في التنفس ، وقد ينشّىء أمراضاً منهـا التهاب الرئة . ولا تتوان عن ترك الاماكن المزدحمة الحارة ، أو التي تساورها تيارات الهواء، إذا أردت أن تتجنب الاصـابة بعرض من أمراض البرد ، فان صحتك ينبغي أن يكون لها الاعتبار الأول .

اصلاح الخط العربي

للدكتور متى عقراوي

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

— ١ —

١ — تمهيد : ضرورة التيسير في اللغة

تيسير اللغة العربية أمر تحتمه نهضة العرب الحديثة . فان النهضات القومية لا تقوم في هذا العصر على أكتاف فئة قليلة من الناس تتزعمها فحسب ، بل على سواعد كافة أبناء الشعب . ولا تكون النهضة قوية الأركان الا إذا كان يدعمها منهاج واسع لتثقيف الجمهور ، وخلق وعي فكري وخلقي وسياسي واجتماعي فيه . ولما كانت اللغة تلعب دوراً هاماً في هذا المنهاج التثقيفي ، وجب لذلك تطويرها وتيسيرها لتصبح ملكاً مشاعاً لسواد الشعب العربي يستسيغها ويستسهل تعلمها .

ولقد سبق للغة العربية أن تطورت في جميع نواحيها أيام النهضة العربية الأولى بمجيء الاسلام وما عقبه من فتوحات العرب العظيمة واحتكاكهم بمختلف الأمم والشعوب . وكان ذلك التطور محتوماً بمقتضى الحياة الجديدة التي بدأ العرب يحيونها ، ولولاه لما اتسعت اللغة العربية لضروب العلوم والفنون والفلسفة ولمقتضيات التجارة وسائر أساليب العيش ، بل لوقفت حجر عثرة أمام كل تقدم . ونحن اليوم في وضع يماثل وضع أمتنا الأول . نحن على أبواب حياة جديدة ونظام في العيش جديد ، نقتبس الأفكار والعلوم الحديثة وتتطور عقليتنا تطوراً جديداً نتيجة لاحتكاكنا بالأمم الأخرى ونتيجة لنزعتنا الجديدة الى الحياة الحرة المستقلة . ولم يعد من الكافي في عصرنا الحاضر أن يقتصر شعور النهضة والتثقيف على طبقة خاصة كما كان الأمر في العصور السالفة . فما من أمة تستطيع حفظ كيانها في هذا الزمن وسواد شعبها جاهل . فاذا كان الأمر كذلك ، وجب علينا أن ندخل على لغتنا

من التيسير ما يسهل اقتباسها وتعلمها على كافة أفراد الشعب العربي ، وذلك بتخليصها مما في خطها واملائها من الصعوبات ، ومما أدخله على صرفها ونحوها متحذلقو النحاة في القرون الوسطى من التعقيدات . كما ان علينا ان نجعل أدبنا سهلاً قريب المنال من عامة الشعب بتخليصه من معقد التراكيب وغريب المفردات ، وأن نكوّن أدباً للاطفال يستهويهم ويحبب اليهم آدابهم ولغة آبائهم . وما القصد من ذلك سوى تسهيل طريق النهضة القومية وتيسير انتشار اللغة القومية وآدابها بين أبنائها ، فبدل أن تكون لغة يستصعبها حتى الخاصة، تصبح لغة سهلة المنال على العرب اجمعين . وهذا وحده أعظم سبيل لتعزيز اللغة العربية واعلاء شأنها وضمان اطراد تقدمها . فطريق النهضة اذاً هو طريق التيسير والتبسيط واطراح الحشو والتعقيد .

وليست هذه المشكلة مشكلة لغوية أدبية فحسب ، بل هي مشكلة تربوية عظيمة . فالمربون والمعلمون هم الموكلون بتعليم اللغة العربية وهجائها وآدابها لأبناء الأمة ، وما يلاقونه من صعوبة في تعليمها واضح لدى كل ذي عناية بهذا الموضوع . وقد ننعي على المعلمين والمربين بحق أساليبهم العقيمة في التعليم ونعزو إلى هذا العقم سوء تعليم اللغة ، ولكننا يجب أن نكون منصفين فنسمع من المعلمين والمربين شيئاً عن المصاعب التي يلاقونها في تدريسهم مما يرجع الى طبيعة اللغة وكتابتها وشيئاً عن آرائهم في كيفية تلافي ذلك .

٢ — اصلاح الخط العربي

على اننا في هذا المقال نود أن نحصر بحثنا في اصلاح الخط العربي ، تاركين البحث في تيسير الصرف والنحو وأساليب الكتابة والتعبير ، على كثرة ما يمكن أن يقال فيهما . ولا بدّ لنا من القول منذ البدء اننا لسنا من دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي . بل عقيدتنا هي ان ضرر الانقلاب في مثل هذه الأمور أكثر من نفعه . ولعلّ دعاة الانقلاب في تعديل الخط العربي مسئولون بعض المسئولية عن المقاومة التي تلقاها الدعوة إلى هذا التعديل ، وذلك لرد الفعل الذي يخلقونه بما يقدمون من الاقتراحات المتطرفة .

ونود أن نقرّر هنا ان تعديل الخط يجب أن يكون مستمدّاً من طبيعة خطنا ، يعدّله ويبسطه في التفاصيل . ولكنه يحتفظ بأساسه وجوهره . وكل اصلاح يتعدى هذه الحدود هو غير عملي التطبيق ، لا لما يلقاه من المقاومة فحسب ، بل للضرر الذي قد يدخله على اللغة ، فلا بدّ لنا من التسليم بأن للحروف العربية مزيتين عظيمتين تحسدنا عليهما سائر اللغات .

المزية الأولى هي انها مبنية على أساس صوتي صحيح يطابق فيه اللفظ الصوت إلى أبعد حد، وهذا ما لا يتوفر في معظم اللغات الأوربية الحديثة. والمزية الثانية هي ان الحروف العربية أشبه بالاختزال، لأن طريقة الكتابة فيها تعتمد على اهمال الحركات في معظم الأحيان، والاقتصار على الحروف الصحيحة التي تكوّن لباب الكلمات. نقول ذلك ونحن نعلم أن من الباحثين من ينعي على اللغة العربية نفس هذه المزية. وسنبين وجه الغلو في هذه النظرية فيما بعد، على اننا نعتقد أن كل اصلاح للخط العربي يجب أن يأخذ هاتين المزيتين بعين الاعتبار فلا يعمل على هدمهما.

***

ومن هنا يظهر خطل الفكرتين القائلتين بالأخذ بالحروف اللاتينية، وكتابة الحركات بطريقة الحروف. أما مشكلة الحركات فسنعود إليها فيما بعد. وإنما نود أن نحلل هنا الفكرة القائلة باقتباس الحروف اللاتينية لكتابة اللغة العربية، على غرار ما فعلته تركيا وليس غرضنا من ذلك إن ندحض هذا الرأي فحسب، فقد لا يحتاج ذلك إلى كثير عناء، ولكن لنوضح مزايا الخط العربي، ولنبين كيف أن بضعة تعديلات بسيطة في خطنا لا تمس جوهره، كافية لجعله أحسن خط ممكن لكتابة اللغة العربية في العصر الحاضر، ومن أسهل خطوط العالم

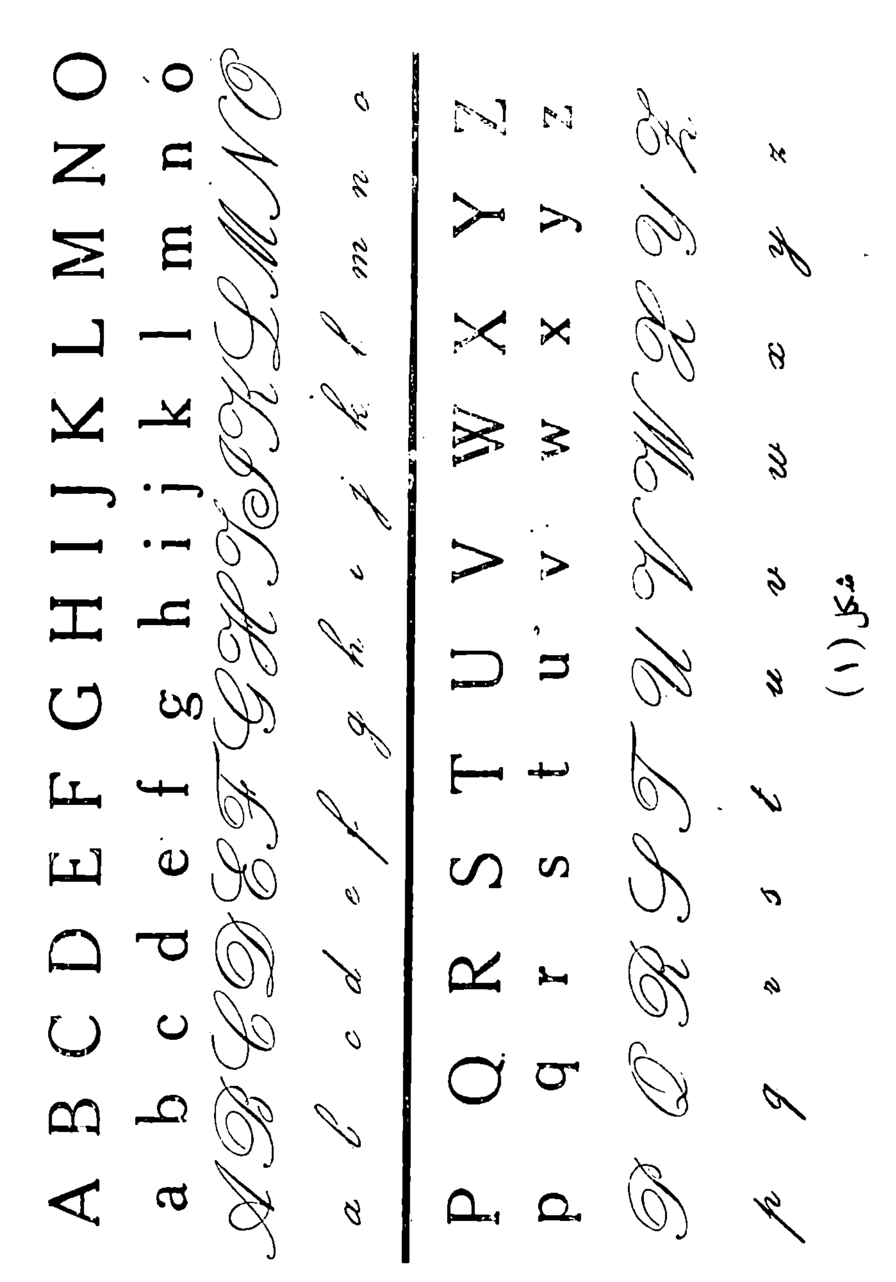
٣ — الموازنة بين الخط العربي والخط اللاتيني

إن أهم ما يستند إليه دعاة الأخذ بالخط اللاتيني نقطتان — هذا اذا استثنينا مشكلة الحركات التي سنعود إليها :

أما النقطة الأولى فهي أن الخط اللاتيني أبسط من العربي، لأن للحرف فيه شكلاً واحداً لا يتبدل، ولأن الحرف منفصل دائماً بحيث يمكن للقارىء أن يحلل الكلمات إلى حروفها ويؤلف من الحروف كلمات بكل سهولة، على عكس الخط العربي الذي تتصل حروفه بعضها ببعض في الكلمات، وتتبدل أشكالها بحسب مواقعها. وأما النقطة الثانية فهي إنهم يشيرون إلى نجاح تركيا في اقتباسها الخط اللاتيني ومساعدة ذلك لها على نشر التعليم فيها بسرعة.

أما النقطة الأولى وهي بساطة الخط اللاتيني وعدم تبدل أشكاله، فلا أساس لها بل هي في الغالب إدعاء ناتج عن قلة تدقيق في الخط اللاتيني. فالواقع أن الخط اللاتيني ليس خطاً واحداً، بل خطين، أحدهما يستعمل في الطباعة. وثانيهما خط يدوي يستعمل للكتابة الاعتيادية،

ومع أن بعض الحروف بين هذين الخطين واحدة أو تتشابه تشابهاً يختلف في قربه أو بعده، إلاّ ان جانباً غير قليل من حروف الطبع يختلف في شكله عن حروف الكتابة . أضف إلى



شكل (١)

ذلك أن حروف الخط البدوي تتصل بعضها ببعض كما تتصل حروف الخط العربي . ثم إن كل

واحد من هذين الحرفين لهشكلان ، الشكل الكبير وهو مايعرف بالانكليزية بـ Capital letter وبالافرنسية بـ Majuscule والشكل الصغير أي Small letter أو Minuscule. وهكذا يصبح لكثير من الحروف اللاتينية أربعة أشكال بدلاً من شكل واحد كما يزعمون . ونظرة واحدة إلى جدول الحروف اللاتينية تكفي لايضاح هذه النقطة وبيان الفروق بين الحروف . (الرسم ١) أما الخط الألماني فهو على ثلاثة أنواع لاتيني وقوطي Gothic ويدوي . ولكل من هذه الانواع شكلان كبير وصغير بحيث يصبح مجموع أشكال بعض هذه الحروف ستة ، لا شكلاً واحداً . أما الخط العربي وإن كان شكل الحرف فيه يتبدل بحسب موقعه في الكلمة، الاّ أنهُ هو هو في خطي الطباعة والكتابة لا تبديل فيه الاّ ما ندر .

وهنالك من يعيب على الخط العربي تقارب كثير من أشكال حروفه كالباء والتاء والثاء والنون، وكالجيم والحاء والخاء وغير ذلك . فانها لا تختلف احداها عن الأخرى إلاّ في وجود النقط أو فقدانها وفي عدد هذه النقط إذا وجدت . على أن شيئاً من هذا التشابه في اشكال الحروف موجود ايضاً في الحرف اللاتيني . فهنالك في الحرف المطبوع التشابه بين الـ q والـ d فانهما لا تختلفان الاّ بقلب أسفلهما ، وتشابه بين الـ b والـ h وبين الـ b والـ q . وفي الخط اليدوي نجد تشابهاً كبيراً بين الـ b والـ h والـ p والـ l وتشابهاً كثيراً ما يدعو إلى الابهام بين الـ a والـ o وبين الـ n والـ u .

***

ولقد أسهبنا في هذه النقطة ، لا لكي ننقد الخط اللاتيني، بل لنبين أن بعض الصفات المنتقدة في الخط العربي موجودة في الخط اللاتيني أيضاً ، وان كان وجودها ليس بمقدار ما هي عليه في الخط العربي ، وان التبديل الى الخط اللاتيني، لن ينجينا منها بتاتاً.

على أن قراءة أية لغة وكتابتها لاتتوقفان على مجرد معرفة أصواتها وحروفها، بل تعتمدان إلى حدّ بعيد على كيفية اجتماع هذه الأصوات والحروف في كلمات، وما يطرأ عليها من التبدل في اللفظ باجتماعها هذا . ومن هذه الناحية تفضل اللغة العربية معظم اللغات الاوربية بمراحل ، وعلى الأخص اللغة الانكليزية ، وبدرجة ثانية اللغة الافرنسية . فالحرف في اللغة العربية هو هو، له الصوت نفسه، دون تبديل أينما حل من الكلمة في أولها أو وسطها أو آخرها، ومهما كان نوع الحرف الآخر الذي يجتمع به . أي أن الخط العربي موضوع على أساس صوتي قويم، تطابق فيه الحروف الأصوات مطابقة تكاد تكون كلية . ولا يخرج عن هذه

المطابقة الاّ حالات معدودة ككتابة الهمزة ، وكالفرق بين التاء المربوطة والتاء الطويلة وكالتمييز بين الألف المقصورة والطويلة، وبين الظاء والضاد عند أهل العراق والجزيرة لا عند أهل الشام ومصر .

وإذا استثنينا هذه الحالات الشاذة وغيرها قليل ،كانت الكتابة العربيةصوتية لا غبار عليها في تركيبها ، وهذا عامل تسهيل عظيم في الكتابة العربية واملائها .

وليس الأمر كذلك في اللغات الأوربية التي تستعمل الخط اللاتيني — على كل حال في تلك اللغات التي لي شيء من الاطلاع فيها وهي الانكليزية والفرنسية والالمانية . فان تركيبها الصوتي تشوبه كثير من الشوائب . ولعل الألمانية أحسن اللغات الثلاثة من هذه الوجهة والانكليزية أبعدها عن المنطق والنظام والفرنسية واقفة في محل وسط بين الاثنتين . وهاًنـذَا آتي ببعضَ الأمثلة في اللغة الانكليزية لأوضح الفرق العظيم بين بعض اللغات الأوربية واللغة العربية في هذا الشأن .

***

خذ مثلاً حرف الـ u في الكلمات التالية : Cure, Cup, Superior, Burst فهو يقرأ (يو) في الأولى و (أ) مفخمة في الثانية و (أو) في الثالثة و (e) الفرنسية في الرابعة . أي ان هذا الحرف يلفظ بأشكال أربعة يختلف أحدها عن الآخر اختلافاً بيناً . أو خذ الحروف ough في الكلمات Through, Borough, Rough فهي تلفظ (أو) في الأولى و (ο) في الثانية و (ف) في الثالثة . وعلى ذكر صوت الفاء فهنالك ثلاث طرق لتدوينه في اللغة الانكليزية تتجلى في الكلمات Form, Philosophy, Rough . ولحرف الثاء أيضاً أربعة أصوات تظهر في الكلمات Turn, Action, Nature, Bottle . أما الحروف التي تكتب ولا تلفظ فحدّث عنها ولا حرج . ومثل هذا الشذوذ عن الأصول الصوتية كثير تجده في اللغة الانكليزية أينما تلتفت ، بل هو القاعدة ، والانتظام الصوتي للكلمات والحروف هو الشاذ ، حتى اشتهرت اللغة الانكليزية بذلك، وحتى أصبح تعلم الاملاء والهجاء الانكليزيين من الأمور الصعبة . وعلى الطالب المتكلم باللغة الانكليزية أن يتخبط في هذه المتاهة سنوات ليتمكن من تعلم املاء كلمات لغته ولفظها . وأصبح الاملاء الانكليزي من المواضيع المهمة التي تدرس في المدارس مع ان الاملاء العربي عندنا يعتبر في التدريس أمراً ثانويًّا . وهذا الخلل الصوتي في الانكليزية موجود بدرجة أقل في اللغة الافرنسية ، ولكن وجوده لا يستهان به ولولا خشية الاطالة لجئنا بأمثلة عليه .

٤ — الفرق في النشأة بين الخط العربي والخط اللاتيني

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن العلة في أن الحروف العربية صوتية في الغالب وعن تطرق الخلل من الوجهة الصوتية في كتابة اللغات الاوربية . ولكي نجيب عن هذا السؤال علينا أن نرجع إلى تاريخ نشوء الخط . ولعلّ الجواب الذي نتوصل اليه يعطينا فكرة أساسية عن طبيعة الخط العربي تفيدنا في معالجتنا المشكلة التي نحن بصددها .

كان الفينيقيون أول من وضع حروف الهجاء ونشرها في أنحاء العالم المتمدن المعروف إذ ذاك . ويظهر انهم اقتبسوها عن الكتابة المصرية ، إلاّ أنهم وضعوها على أساس صوتي ، بأن جعلوا لكل صوت حرفاً خاصًّا به . والفينيقيون قوم من الساميين كانوا أكبر تجار عصرهم ؛ ينقلون البضائع بين الشرق والغرب ، وكانوا يحتاجون إلى طريقة سهلة مختصرة لتسجيل معاملاتهم التجارية فاخترعوا حروف الهجاء لهذا الغرض . وأخذ الآراميون الكتابة عن الفينيقيين ، وأخذ النبطيون وهم قوم من العرب كانوا نازلين في وادي موسى والبطراء ، بين التاريخين الميلادي والهجري ، الكتابة عن الارميين . وتدل البحوث التي قام بها العلماء عن الخط العربي ومقارنة الخطوط العربية القديمة بالخط النبطي ، ان الخط العربي الدائم اليوم أخذ من الخط النبطي ونما وتطوّر ، حتى أصبح بالصورة التي نعرفها اليوم .

ان اللغات الفينيقية والإرمية والنبطية والعربية لغات سامية قريبة احداها من الأخرى وترجع إلى أصل واحد . وان شئت فقل انها لهجات من لغة واحدة تختلف في بعدها عن الأصل ، منها القريبة ومنها البعيدة . يدلك على ذلك ان الافعال الأساسية فيها ثلاثية كما في اللغة العربية ، تشتق منها بقية الصيغ ، وان جانباً كبيراً من مفرداتها مشترك مع تحريف بسيط ، وان معظم أصواتها مشترك أيضاً . فلما وضع الفينيقيون الألفباء ، جاءت حروفهم صوتية منطبقة على لغتهم اشد الانطباق . ولما كانت اللغات السامية الاخرى التي اقتبست خطها منهم قريبة من الفينيقية ، لم تجد في هذا الاقتباس كبير عناء ، ولم تجد ضرورة الى إجراء كثير من التبديل والحذف او الاضافة أو تركيب حرفين أو أكثر للدلالة على صوت واحد ، كما تراه في اللغات الاوربية . بل اننا نجد ان أحرف «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت» هي هي في الإرمية وفي العربية ، وقد زادت العربية عليها أحرف « ثخذ ، ضظغ » . ونجد أن كل اللغات السامية التي تكتب بالحروف الأبجدية تشترك في صفة واحدة ، هي اهمال الحركات وكتابة الاحرف الصحيحة فقط مع حروف المد كما نفعل نحن في اللغة العربية . وصفوة القول ، إن الخط الهجائي نشأ على أساس لغة سامية ، وانتشر منها إلى قريباتها ، وتطوّر

بمقتضى تطوّر هذه اللغات حتى وجد الخط العربي وهو من أحدث الخطوط في اللغات السامية ، إن لم يكن أحدثها . فالخط عندنا اذاً مستمد من طبيعة اللغة ، متصل بها اتصالاً وثيقاً ، مطابق لها مطابقة صوتية كبيرة بحكم نشأته التاريخية . وهذه حقيقة لا ينتبه اليها دعاة الأخذ بالخط اللاتيني .

وليس هذا حظ الخطوط اللاتينية . فان الفينيقيين في أسفارهم في البحر المتوسط أعطوا خطهم الى اليونان ، وهؤلاء أعطوه الى الرومان اللاتينيين ، ومن الخط اللاتيني استمدت الأمم الاوربية الحديثة حروف هجائها . على أن اللغات الأوربية ليست سامية بل هي طائفة من اللغات قائمة بذاتها، تختلف اختلافاً عظيماً في مفرداتها وتراكيبها وأصولها اللغوية عن اللغات السامية، كما تختلف عنها أيضاً في عدد غير قليل من أصواتها . ففي اللغات السامية أصوات غير موجودة في اللغات الأوربية . وفي هذه أصوات تزيد على أصوات اللغات السامية ، ولم يكن الفينيقيون بالطبع قد وضعوا لها رموزاً وحروفاً، فاضطر الاوربيون إذاً، إمّا أن يضعوا لهـا حروفاً جديدة ، أو أن يعطوا للحرف الواحد أكثر من صوت واحد ، أو أن يؤلفوا حرفين وثلاثة للرمز عن صوت واحد ، كما تفعل الانكليزية للرمز عن (ج — ch) و (ش — sh) و (ث و ذ — th) وهذان الحرفان الأخيران ، يرمزان كما ترى إلى صوتين، هما الثاء والذال .

هذا على ما نرى هو السبب الأساسي الأصيل في تطرق الخلل من الناحية الصوتية الى بعض خطوط اللغات الأوربية . فاذا كانت الحروف العربية وحروف اللغات السامية ، منطبقة على لغاتها وأصواتها أشد الانطباق، لأنها نشأت ونمت مع هذه اللغات وهي مستمدة من طبيعتها ملازمة لها ، فان اختلال الخطوط الأوربية،وبالأخص الحديثة منها بعض الاختلال،يعود الى أن الخط الهجائي ليس أصيلاً فيها، بل هو دخيل عليها، نشأ في لغة أجنبية بعيدة عنها. والفرق بين الخط العربي والخطوط الهجائية السامية من جهة ، وبين الخطوط الأوربية من الجهة الأخرى، هو كالفرق بين الأصيل والتقليد . وإذا كانت الخطوط الأوربية بعد تطور ما يزيد على الألفي سنة، أصبحت تسد حاجات اللغات الأوربية،فليس ذلك دليلاً على إنها صالحة للغتنا. ومن صعب عليه تصديق ذلك، فلينظر الى محاولات المستشرقين كتابة الكلمات العربية بحروف أوربية، ويشاهد مقدار النقط والخطوط والعلامات التي يضطرون الى استعمالها للرمز إلى الكلمات العربية، وليرى كيف أن الكلمة التي تكتب عندنا بثلاثة حروف ، تكتب عندهم بخمسة أو ستة ، وكيف انه تصعب عليه قراءتها، مهما كان بارعاً في قراءة الرموز اللاتينية .

قيود

قضى زماني عليَّ أني أمشي ورجلاي في القيودْ
حال بها في خطاي يمشي ذل الأسير الخطى المقودْ
ويلاه مما لقيت منها ويلاه للسيِّد المسودْ
إبليس لو ذاقها قديماً لما عصى الأمر بالسجودْ

* * *

ظلمٌ، ولكن أنَّى قضاتي! أو أين لي فيه بالشهودْ؟
من مثله لم يزل لعيسى دم على مذبح اليهودْ
يا رب فيم الوجود إذ لم تمنحه حرية الوجودْ؟
وأينما صالح يولِّي وجهاً، فلا بُدَّ من ثمودْ

* * *

يا زمني فيك وجه عادٍ فهل ترى فيَّ وجه هودْ
أبشر وثق بي فلا نبيٌّ يبعثه الله للقرودْ

محمود أبو الوفا

تحقيق لغوي

في مادة (تلمذ)

بقلم عبد السلام محمد هارون

لعلَّ كلمة « تلميذ » من أكثر الكلمات دوراناً في دور العلم ومعاهد الدراسة، وهي من الكلمات التاريخية التي دخلت في أطوار مختلفة من الدلالة حتى استقرت الآن في معنى طالب العلم . بيد أن تأصيل هذه الكلمة وبيان مشتقاتها وجموعها يحتاج إلى توضيح وتوقيف . وقد كنت قديماً على أن أكتب فيها تحقيقاً شاملاً ، ولكني وجدت رسالة البغدادي في هذا التحقيق من أوفى ما كتب في هذه الناحية ، فآثرت أن أجعلها تحفة للأدباء من قراء « المقتطف » تغنيهم عن التطلع إلى ما وراءها .

والبغدادي هو عبد القادر بن عمر البغدادي ، صاحب خزانة الأدب ، المولود في بغداد سنة ١٠٣٠ والمتوفى بمصر سنة ١٠٩٣

ورسالته تلك التي ننشرها ، منها نسخة بالخزانة التيمورية ، وثلاث أخرى بخزانة دار الكتب المصرية ، إحداها برقم ٦ مجاميع ش والثانية برقم ١٨١ مجاميع ، والثالثة برقم ١٢٢ مجاميع . وقد قابلت النسخ الثلاث الأخيرة بعضها ببعض ، ورمزت إليها بالرموز ا ، ب ، حـ على ترتيبها . وأصح هذه النسخ وأكملها نسخة ب . وكل ما أثبته بين علامتي الزيادة فهو منها .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين .

[أما بعد] فهذه كلمات ذكرتها لمعنى التلميذ ، فإني لم أجد هذه الكلمة مذكورة في كتب اللغة المتداولة، المدوَّنة [لبيان] الجليل والحقير ، وذكر النقير والقِطْمير ، كالجمهرة لابن دريد ، والصِّحاح للجوهري ، والمحكم لابن سيده ، والعباب للصاغاني ، والقاموس

لمجد الدين الفيروزابادي ، وغيرها ، إلاّ في لسان العرب لابن مكرم ، فإنه أورده في مادة (تلمذ) وقال : « التلاميذ الخدم والأتباع ، وأحدهم تلميذ » مع أنها كلمة متداولة بين العام والخاص . وكثيرة الاستعمال في تآليف العلماء الأعلام .

وكان الباعث لهذا أني لما قرأت كتاب مغني اللبيب ، ووصلت إلى قوله في الباب الخامس «حكى لي أن بعض مشايخ الإقراء أعرب لتلميذ له بيت المفصل » [1] رأيت شارحه الفاضل إبراهيم بن الملاّ الحلبي [2] قال : « التلميذ القارئ على الشيخ . ولم أقف عليه في شيء من كتب اللغة المتداولة كالصحاح والقاموس وغيرهما » . اهـ

فحينئذٍ تتبعت بطون الدفاتر ، من مصنفات الأوائل والأواخر ، حتى رأيته في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، فإنه ساق [3] فيه شعراً للبيد بن ربيعة العامري الصحابي ، وفيه هذا البيت :

فالماء يجلو متونهنّ كما يجلو التلاميذ لؤلؤاً قشبا [4]

وقال بعد إنشاد الأبيات : « التلاميذ غلمان الصنّاع . والقَشِيب والقشيب الجديد . والجمع القُشُب » .

ورأيته أيضاً في شعر أمية بن أبي الصلت ، وهو شاعر أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يوفق للايمان به . وغالب شعره في الوعظ وتذكير الآخرة وقصص الأنبياء ، وهو مما لا يكاد يقضي العجب منه . قال في قصيدة :

والأرض معقلنا وكانت أمَّنا فيها مقامتنا وفيها نولدُ
وبها تلاميذ على قذفاتها حبسوا قياماً فالفرائص تُرْعَدُ [5]

قال شارح ديوانه : « التلاميذ الخدم ، يعني الملائكة » .

وقال أيضاً في قصيدة أخرى

صاغ السماء فلم يخفض مواضعها لم ينتقص علمَه جهل ولا هرمُ
لا كشِّفت مرة عنا ولا بليت فيها تلاميذ في أقفائهم دعمُ

---

(١) المفصل للزمخشري في النحو . انظر شرح ابن يعيش (٢ : ٩٤) . والبيت هو :
لا يبعد الله التلبب والغا رات إذ قال الخميس : نعم

(٢) هو إبراهيم بن الملا محمد الحلبي المتوفى سنة ٩٧٩ . ذكره في كشف الظنون . وفي ا ، حـ : «حلبي» موضع : « الحلبي » تحريف .

(٣) ا ، حـ : « سابق » والصواب في ب .

(٤) البيت في ديوانه ص ١٤١ بشرح الطوسي . وفيه : « التلاميذ غلمان الصاغة ... التلاميذ فارسي » .

(٥) القذفات : جمع قذفة ، بالضم ، وهي الناحية.

وقال شارحه هنا أيضاً كذلك .

ورأيت في المقامة الأولى من المقامات الحريرية قوله : « فوجدته محاذياً لتلميذ ، على خبز سميذ ، وجدي حنيذ ، وقبالتهما خابية نبيذ [1] » . قال شارحه الشريشي : « التلميذ متعلم الصنعة ، والتلميذ الخادم ، والجمع التلاميذ » . وأنشد بيت لبيد المتقدم ، ثم قال : « وطلبة العلم تلاميذ شيخهم » . اﻫ

وإهمال داله لغة فيه ، قال أمية بن أبي الصلت في القصيدة الدالية التي تقدم إنشاد بيتين منها :

فمضى وأصعد واستبدَّ إقامةً بأولي قوًى فمبتَّل ومُتلمَدُ

قال شارحه : « يريد متلمَد ، أي خادم من التلاميذ . وتُلمِد جُعل للخدمة . ويروى متلمِد بكسر الميم . وأراد بأولي قوى الملائكة الذين يحملون العرش . وقوله : فمضى يعني الله عزّ وجل . واستبدّ ، يعني لا يستشير أحداً ، يقال استبدَّ فلان برأيه إذا لم يستعن أحداً على ما يريد . والمبتَّل المفرد » . انتهى .

ويؤخذ منه أن تاءه أصلية . ووزن تلميذ فِعْليل ، وأن له فعلاً متصرفاً هو تلمذه كدحرجه ، بمعنى خدمه ، يتلمذه كيدحرجه ، تلمذة وتلماذا ، كدَحْرَجةً ودَحْراجاً ، فهو متلمذ كمُدَحْرَج بمعنى خادم ، وذاك متلمَذ أي جعل خادماً [2] . وإطلاق التلميذ على المتعلم صنعة أو قراءة ، لأنه في الغالب يخدم أستاذه .

وقول الناس : « تلمَّذ له » و « تلمَّذ منه » بتشديد الميم ، خطأ ، لأنهم توهموا أن الياء زائدة ، وليس كذلك ، وصوابه « تلمَّظ له » و « تلمظ منه [3] » بالظاء المشالة المعجمة . ولمَّظه أي أطعمه وأذاقه . والتلمظ : تتبع اللسان بقية الطعام في الفم . وقد يكنى به عن الأكل ، استعير للتعليم شيئاً فشيئاً .

والتلميذ يجمع على تلاميذ ، فإنَّ فِعْليلا يجمع على فَعَاليل ، كبرطيل وبراطيل ، وعفريت وعفاريت ، وقنديل وقناديل ، وإصليت وإصاليت ، وإبريق وأباريق ، ومِنْديل ومناديل .

(١) هذا سهو من البغدادي ، فان الشريشي في هذا الموضع لم يقل إلا : « تلميذ : متعلم الصنعة » انظر الشريشي (١ : ٢٩ س ١) وأما الكلام الذي نقله البغدادي بعد فهو تعليق على قول ابن الحريري : «فالتفت إلى تلميذه وقلت عزمت عليك بمن تستدفع به الأذى ، لتخبرني من ذا » انظر الشريشي (١ : ٣٠) .

(٢) الأولى من تلمذه بمعنى خدمه ، والأخيرة من تلمذه أي جعله خادماً

(٣) هذه فتوى لغوية للبغدادي . ولما يستعمل هذا التعبير ، ولا أظنه سائغاً

وأما قولهم في جمعه « تلامذة » فعلى توهم أنه اسم أعجمي[١] ، فإن الهاء في الجمع تكون في أحد ثلاثة مواضع : (أحدها) الاسم الأعجمي المعرب ، سواء كانت للتعويض عن مدّه[٢] نحو أستاذ وأساتذة ، أم لا نحو موزج وموازجة وكيلجه ، وكيالجة . (ثانيها) للتعويض عن ياء النسب في المفرد ، نحو أشعثي وأشاعثة ، ومهلبي ومهالبة ، وأزرقي وأزارقة (ثالثها) للتعويض [إما] عن ألف خامسة جوازاً نحو حبنطي وحبانطة ، وعفرني وعفارنة وإما عن [عين][٣] مضاعفة نحو جبار وجبابرة . وفي غير هذه المواضع الثلاثة قليل نادر كفحولة وحجارة .

قيل[٤] : وقد يرخم التلاميذ في الشعر على تلام ، كقول الطرماح :

تتقي الشمس بمدريّةٍ كالحماليج بأيدي التلام

والحماليج : منافخ الصاغة الطوال ، واحدها حملوج ، شبه قرن البقرة الوحشية بها .

قال الجواليقي في المعرّبات[٥] : « التلام أعجمي[٦] معرب ، قيل هم الصاغة ، وقيل غلمان الصاغة ، وقيل هم التلاميذ » وأنشد هذا البيت .

وأنشد ابن بري في حاشية الصحاح قول غيلان بن سلمة الثقفي[٧] أيضاً :

وسربال مضاعفة دلاص قد أحرز شكها صُنعُ التلام

وروى : « التلام » في البيتين بفتح التاء وكسرها . أما الفتح فعلى أنه مرخم التلاميذ ضرورة . وقد اقتصر عليه صاحب الصحاح ، وقال : « التلام التلاميذ سقطت منه الذال » .

وصاحب الصحاح تابع في هذا لأبي علي ، قال في المسائل العسكرية[٨] : « ومن قبيح الضرورة قول الشاعر : مثل الحماليج بأيدي التلام

قالوا : يريد التلامذة ، فحذف . وقد أعلمتك أن ذلك لا يكون على الترخيم فيما تقدم . إلاّ أنه قد جاء من هذا النحو ما لا يكون في الترخيم كقوله[٩] :

دَرَس المَنَا بمتالع فأبانِ

---

(١) كأن البغدادي يذهب إلى أنه عربي (٢) ا ، حـ : « مدة » (٣) كتبت كلمة « عين » في ا ، حـ لكن جعل فوقها خط علامة على الخطأ . وإثباتها عين الصواب كما في ب .

(٤) ا ، حـ : « قليل » وذلك على أنها متصلة بكلمة « حجارة » والوجه ما أثبت من ب كما يفهم من السياق . (٥) المعرب للجواليقي طبع دار الكتب ص ٩١ (٦) ا ، حـ : « قيل معرب » وكلمة : « قيل » مقحمة (٧) شاعر مخضرم ، أدرك الجاهلية والاسلام . ترجمته في الاصابة ٦٩١٨ والاغاني (١٢ : ٤٣ — ٤٧) (٨) المسائل العسكرية لأبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ . نقل منها البغدادي نصوصاً قيمة في مواضع شتى من الخزانة . انظر (١ : ٩ ، ١٤/٢ : ٦٢ ، ٢٧٥ : ٤٠١ ، ٥٢٢/٣ : ٤٦/ ٤ : ٦٧ ، ٧٣ ، ٥٨٢) . ا ، حـ : « مسائل العسكرية » تحريف.

(٩) هو لبيد بن ربيعة . والبيت مطلع قصيدة له في ديوانه ص ٦١ طبع فينا سنة ١٨٨٠

قالوا : يريد : المنازل . ومثل ذلك ما أنشدوه لأبي دُوادٍ [1] الإيادي :

فكأنما تُذكي سنابكها حُبَبا [2]

قيل يريد الحباحب ، أي نار الحباحب . وفي التنزيل : فالموريات قدحاً » انتهى كلامه

وأما الكسر فعلى أنه جمع « تلم » بكسر فسكون ، بمعنى الغلام . قال ابن مكرم [3] : فمن [4] رواه : التلامي ، بفتح التاء وإثبات الياء ، أراد التلاميذ ، يعني تلاميذ الصاغة . هكذا رواه أبو عمرو ، وقال : حذف الذال من آخرها [5] ومن رواه : التلام ، بكسر التاء ، فان أبا سعيد قال : التلم الغلام . قال : وكل غلام تلم ، تلميذاً كان أو غير تلميذ . والجميع [6] التلام . وقال ابن الأعرابي : التلام الصاغة ، والتلام الأكرة» . انتهى

وأقول : «الصاغة » تصحيف من الصناع [7] لوقوعه في صحبه الحماليج . ويدفعه البيت الثاني [8] .

وقال صاحب القاموس : « التلم ، بالكسر : الغلام ، والأكّار ، والصائغ أو منفخهُ ، الطويل [9] . والجمع تلام . وكسحاب : التلاميذ ، حذفت ذاله . ولم يذكر الجوهري غيرها ، وليس من هذه المادة [و] انما هو من باب الذال » . انتهى

أقول : أما قوله : « الأكار والصائغ » فقد أخذه من قول ابن الأعرابي ، على أن الصاغة والأكرة بالتحريك جمع صائغ وأكار .

وأما قوله : « أو منفخه [10] » فقد أخذه من قول بعضهم ، وقد غلط فيه .

نقل الأزهري عن الليث أن بعضهم قال : التلام الحماليج التي ينفخ بها . قال : وهذا باطل [11]

والعجب من صاحب القاموس ، أنه اعترض على صاحب الصحاح في ذكره التلام في باب الميم ، مع أنه أثبته مثله ، ولم يذكره في باب الذال .

عبد السلام محمد هارون

---

(١) أ ، حـ : « أبو دؤاد » بالهمز . (٢) روي البيت في اللسان (١ : ٢٨٨) هكذا :

يذرين جندل حائر لجنوبها   فكأنما تذكي سنابكها الحبا

(٣) في لسان العرب مادة (تلم) (٤) في الاصل : « ومن » وصواب النص من اللسان .

(٥) أسقط البغدادي هنا قول ابن منظور : « كقول الآخر :

لها أشارير من لحم تتمره   من الثعالي ووخز من أرانيها

أراد من الثعالب ، ومن أرانبها » وهذا البيت لابي كاهل اليشكري كما في اللسان (٥ : ١٦١)

(٦) في الاصل : « والجمع » وأثبت ما في اللسان .

(٧) حـ فقط : « في الصناع » (٨) يشير الى بيت غيلان بن سلمة . أ ، حـ « في » مكان : «ويدفعه» محرف . (٩) أ ، حـ « والصانع» بالنون و« منفخة الطويل» صوابهما ما أثبت من ب. (١٠) أ ، حـ : « أو منفخة » محرف . (١١) في اللسان : « قال ابو منصور — وهو الازهري — قال الليث : إن بعضهم قال : التلاميذ الحماليج التي ينفخ فيها . قال : وهذا باطل ما قاله أحد » .



٨ الخطايا العشر

هنالك عشر خطايا اجتماعية ينبغي علينا ان نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا أفلحنا فنحن الى السلام ، واذا أخفقنا فنحن الى الدماء والعرق والدموع

العالم في مخاض . أما ما ستلد الأيام فذلك سرٌّ مُغَيَّب في جوف المستقبل . يشعر الناس شعوراً خفيّاً بأن من وراء المظاهر المدنية القائمة داءً دفيناً ينخر في نظام الجماعات ، ويفكك من تماسكها ، ويحلل من روابطها التي أضفت عليها التقاليد ثوباً من القداسة ، تلك القداسة التي حملت في أسسها العتيقة معاول التطور الانساني .

لو أن الانسانية استطاعت أن تساير الخطى التطورية التى سار فيها العقل ومضى فيها العلم ، ولم تقف عند الحد الذي أراد السياسيون وقادة الامم من محترفي الحكم ان تقف عنده ، إذاً لكان شعورنا بما ينتظر الجماعات من مشكلات المستقبل القريب أميل الى التفاؤل . ولكن العقل الفردي والعلم ، وهما من الخصائص الفردية ، قد سارا بخطى واسعة لم تستطع الجماعات أن تتابعها ، والجماعات هي ما نعلم تكويناً وفطرة ، فعقليتها أقل تقبلا للتجديد وأعصى على فهم الحقائق وأعسر قياداً وأقل ليناً ، وأبعد عن مرونة الأخذ والعطاء

لهذا سارت الجماعات تتخبط في ليل مدلهم من الرغبات المكبوتة والآمال المقموعة والشعور بالحاجة الى التغير ، ومسايرة خطى العقل الفردي ، فاذا همت بالمسير عاقها الفقر وسدَّ طريقها الظلم ، وقامت ميول أهل السلطة ترد الجماعات عن التطور حذر أن يبدل التطور نظام الجماعات ، فتزيح من طريقها تلك السدود التي تستند اليها سلطة ذوي السلطة من السياسيين والانتهازيين والدكتاتوريين ومن لفّ لفهم من أصحاب المصالح المادية التي لا يتحقق لها وجود ، الا وعلى عين الجماعة قناع من الأوهام والخيالات ، وفي قدميها أغلال من الزيف والفوضى .

لا سلطان لأهل السلطة على العقل الفردي . فالعقل الفردي طليق . يفكر كيف يشاء

ويسبح في مفاوز الكون ، ويتبوأ من رحاب الوجود أي متبوإ أراد . انطلق العقل الفردي منذ أقدم الأزمان،محلقاً في ظلال الغابات وفي رؤوس الجبال وفي الصحاري والوهاد والبسابس الملس والمفاوز الخشنة ، وفي الدير والمسجد ، وفي المدرسة والجامعة . وتابعه العلم والفلسفة والفن . فطار الانسان بعقله وما فُتِقَ له عنه من فنون المعرفة وضروب الصناعة ، في آفاق بعيدة قصية ، وتطلع من ورائه بعين الفرد الحر الطليق ، فاذا به يرى الجماعات ما تزال واقفة في أول الطريق وقد تراكمت أمامها الصعاب والمشكلات، ووقفت أوهام العقلية الضّامية تذودها عن السير في طريق الارتقاء ، كما وقف في طريقه الظلم والشهوات والبغض والانانية ورذائل الخلق والمطامع الأشعبية ، يؤيدها في ذلك ما سببت من فقر وجوع وجهل وحروب وثورات .

وفي الحق ان الجماعات عاجزة عن التفكير لذاتها . فالجماعة تفكر بعقل الفرد . وعقل الفرد يحاول دائماً ان يجذب الجماعة الى أعلا ، وينهض بها الى السماوات التي ارتفع اليها . ولكن العقلية الضّامية تسد عليه الطريق وتفسد عليه جهده ، كلما عمل على رفع مستوى الانسانية . فالواجب الأول على العقل الفردي أن يعمل على قتل أوهام العقلية الضّامية أول شيء ، هذا إذا أراد أن يكون لجهده أثر مرموق في نظام الجماعات .

واذا كان للعقلية الضّامية أوهام عاقت الجماعات عن الانبعاث في سبيل التطور ، فان هذه الاوهام قد أدّت بدورها الى خطايا خلقية ، عمل السياسيون ومن اليهم على تغذيتها وتنميتها لتظل غُلاًّ في عنق الجماعات يعوقها عن التحليق في آفاق الحرية الواسعة فتتقارب وجهات النظر بين الأمم وتحترم المصالح والمبادىء القدسية التي لا ينبغي أن يكون للاجتماع الانساني غيرها أساساً ودعامة : مبادىء السلام والحرية والأخاء والمساواة في الحقوق وحق الاختيار في نظام الحكم الذي يوافق مزاج كل أمة من الأمم .

هذه الخطايا العشر التي عاشت الجماعات في أسرها طوال القرون السالفة وكانت غِرَاس الأوهام التي تمكنت من العقلية الضّامية، منها ما يتعلق بالنظام المدني الذي نعيش في كنفه، ومنها ما يتعلق بالخلق الاجتماعي، الذي كان وما يزال طابعَ الأمم والجماعات.

الخطيئة الاولى : أسلوب التناول

فان وجهة النظر تختلف اختلافاً كبيراً عند الأمم وعند الأفراد . فهنالك نظرة جزئية تريك من الشيء جزؤه ، وهنالك نظرة كلية تريك من الشيء اجزاؤه مفردة ومجتمعة .

ولقد عمل السياسيون وزعماء الأمم جميعاً على أن يوجهوا الشعوب الى الأخذ بوجهة النظر الجزئي في كل ما يتعلق بالسياسة والعلاقات التي ينبغي أن تقوم بين الأمم . ذلك بأنَّ النظرة الكلية في أمور السياسة والاجتماع إذا تمكنت من عقلية الشعوب سادت فكرة السلام حتماً، وتقاربت الأمم وعرفت المصالح واحترمت الحريات وساد الاخاء وتفرَّدت الإرادات الاجتماعية بالقطع في أمور الدول ، ومال محور السياسة نحو العمل على التقريب بين الشعوب والاعتراف بحقوقها في الحياة الحرة المنتجة. وعلى العكس من ذلك سارت سياسة الانتهازيين والوصوليين من قادة الأمم، فجرُّوا على المجتمع الانساني ما نرى من كوارث الحرب والثورات. هذا بالرغم مما تغنى به السياسيون طوال عصور، من حدبهم على خير الانسانية . ولكن السياسيين بحكم صناعتهم ، كالشعراء ، يقولون ما لا يفعلون ، ويتفوهون بما لا يعتقدون .

الخطيئة الثانية : تأثر الفكر الفردي بنقائصه دون كمالاته

من نقائص الفكر الفردي تأثره الى حدٍّ ما بالظَّلاَمية الفكرية ، فيقف إزاء بعض الحقائق المتعلقة بتطور الجماعات جامداً لا يتحرك ، فتنعقد فيه قوة الابتكار والقدرة على مواجهة الحقائق، وإن أدرك أنها كائنة . ويرجع السبب في ذلك الى أن فكر الفرد قد يتأثر من طريق العجز عن مواجهة الحقائق والاعتراف بها ، فيخشى مواجهة الجماهير بما يتصل بأسباب كثيرة من مقومات حياتها ومسببات رقيها وركودها ، فيكون عاملاً من عوامل التوقف عن مسايرة خطى التطور الطبيعي . وقد يعود أكثر السبب في ذلك الى ما تحوط به الجماعات تقاليدها ومعتقداتها من صنوف القداسات، التي لا أصل لها إلاّ أن القِدَم قد أضفى عليها تلك الصفات .

ولقد أشار الى ذلك الأستاذ فرنسيس كارل في كتابه « الانسان : ذلك المجهول » ، حيث أبان أن العلوم قد تقدمت انسان الطبقة الوسطى وفاقت كل العلوم مداركه، ولم يبق فيها ثابتاً غير متقدم إلاّ علم الانسان نفسه . فان علم الانسان ظلّ وراء كل العلوم كالفلك والأحياء والطبيعة والكيمياء . هذا بالرغم من درجات التقدم التي سارت فيها الانسانية . فالانسان ظلّ وما يظل جائعاً، عاجزاً عن ارضاء حاجاته الأولية . وظهر أن العلماء قد عجزوا عن تنظيم حياة الانسان بنفس الدقة التي استطاعوها في تنظيم مجال بحوثهم العلمية. فالانسان مهما تعلّم وارتقى، تجد فيه، بالرغم من ذلك، آثاراً من حياة أسلافه الأول، حياة الوهم والأساطير والخرافات ، والعجز عن إدراك الحق وإن تبلج ضوءه وسطعت شمسه .

الخطيئة الثالثة : تشابك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية

تلك وراثة اجتماعية . فان الجماعات قد خرجت من خطوبها الأولى بنظام اشتركت فيه المصالح والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى أصبح من المتعذر على أي مصالح أن يمس ناحية منها بأي تغير تقتضيه الظروف المحيطة بالجماعات ، من غير أن تضطره طبيعة هذا النظام أن يمس بقية النواحي . والى هذا يعزى السبب في اخفاق كل الجهود التي رمت إلى السلام ، بل إنه هدد السلام نفسه ، وكاد يحدث في العقلية البشرية نزعة إلى اليأس من أن يسود السلام أو يكون للسلام أثر في سياسة الأمم والشعوب ، أو فعل ناجع في اتجاه الدول من حيث علاقاتها بعضها ببعض .

الخطيئة الرابعة : المصلحة الذاتية

تنسينا المصلحة الذاتية ومركزنا الاقتصادي دائماً ، عاملاً من أهم العوامل المؤثرة في علاقة بعض الطبقات ببعض . فان صاحب العمل وحامل الأسهم والتاجر في رأس المال ، وهم من الطبقات ذوات العلاقة المباشرة بالانتاج العائد في مجموعه الى أكبر عدد من أفراد الأمة ، يغفلون دائماً عن « العامل الانساني » في حياة الجماعة ، فينظرون دائماً في كل ما يتعلق بالنظام الاجتماعي من زاوية واحدة ، زاوية المصلحة الذاتية . ينسون طوعاً أو كرهاً ، ما سيطرت عليهم قوة الأنانية ، ان المخلوقات التي تعمل في سبيل الانتاج ، انما هي مخلوقات بشرية لهم حاجات وفيهم أرواح تحس، ولهم مشاعر تتأثر، ولهم أسر وأولاد يحتاجون إلى التربية والتنشئة والتعليم، ليصبحوا عوامل ذات أثر مفيد للمجتمع.

ولقد بلغ الجهل ببعض ذوي السلطان في طور ما من أطوار التاريخ ، حد ان « العامل الانساني » فيهم قد تجرد من كل معنى مثالي . كما بلغ في حالات أخرى حداً فاضحاً من الاستهتار المؤيد بالغباء . فان الشعب الفرنسوي في ثورته المشهورة ، قد ثار جائعاً يطلب الخبز لا أكثر . فلما علمت الملكة ماري انطوانيت بسبب الثورة ، قالت اعطوهم فطيراً .

أما إذا ضعف الشعور بالأنانية ، فلا شك في أن « العامل الانساني » يتسامى وتثبت أصوله ، فيُقضَى من طريقه، على كثير من مفاسد هذا المجتمع .

الخطيئة الخامسة : الشهوات الانسانية

كلنا يعرف قولة الحكيم أفلاطون المشهورة : «الشهوات تَطْمس الحق». فاذا أردنا أن نرعى الحق وأن نوزع العدالة بالقسط على كل الأفراد في مجتمع ما ، انبغي للذين في

بدهم القوة أن يتحرروا من كل الشهوات التي تصم آذانهم عن تلك الصرخات الداوية التي تخرجها حناجر المظلومين المأكولة حقوقهم المداسة أقدارهم ، وأن يعملوا دائماً على النظر في قضايا المجتمع نظرة حرّة بعيدة عن التأثر بتلك القوالب الفكرية العتيقة التي تثير الشهوات وتغشى على العقل بغشاوة الموروثات والتقاليد .

الخطيئة السادسة : ميوعة العبارات

للكلمات حدثان . وقد لا نخطىء كثيراً إذا قلنا إن للكلمات حدوداً تحوّر معانيها بطريق الاستعمال . ومن هذا الطريق ورثنا سوء الفهم عن الجيل الماضي . أما وقد عرفنا أننا ورثنا ذلك الميراث الخسيس عن الذين نشّئوا تلك الجهالات ، فان أول واجب على المصلح الاجتماعي أن يطلب التحديد في معنى الكلمات ، بحيث يصبح للعبارات الاجتماعية دقة المصطلحات الرياضية . ولا ريبة في أن هذا وحده ، كفيل بأن يبعد عن أفق المجتمع البشري كثيراً من أسباب التناقض ، والازدحام بكثير من المعاني المتضاربة التي تخلط الذهنية العامة ، وتدفعها في طريق الثورات بغير أهدافٍ معينة .

الخطيئة السابعة : التخليط في تعيين المشكلات الاجتماعية

وهذا سبب من أخطر الأسباب التي تقود إلى الفوضى . ولاشك عندي أن التخليط في تعيين كل مشكل اجتماعي باعتباره وحدة لها قوام ذاتي ، بصرف النظر عن علاقته بغيره من نواحي النظام السياسيّ ، كان السبب في نشوء تلك النزعات المتطرفة وأخصها العَدَميَّة والفَوْضَويّة وما اليها من نزعات الهدم والتخريب . فان العقل الانساني بطبعه إذا ضلّ وتاه وتخالطت قواه المفرقة بين المعقولات ، خبلت قوته ، وتسلم زمام النفس البشرية غيره من القوى الدّنيا ، فينزع الانسان بطبعه وبحكم ذلك الظرف ، إلى تحطيم كل وَلاَية من الوَلاَيات الاجتماعية ، وأولها وَلاَية التشريع ، إذ ينسب اليها القوة التي تتذرع بها وَلاَية التنفيذ وحفظ النظام . ولا شك في أن ترك الذهنية العامة نهباً لهذا التخليط ، خطيئة من أعظم الخطايا التي يرتكبها أهل هذا الزمان .

الخطيئة الثامنة : المساومة

أول ما يفد إلى ذهنك من الخواطر إذا ذكرت معنى المساومة في سياسة الاصلاح الاجتماعي ، ان هذا النمط من التفكير ينسيك أول ما ينسيك : « فضائل السلام » .

إذا جدّت مشكلة من مشا كل السياسة ، أو تكوّنت نزعة اجتماعية من النزعات التي كثيراً ما يقتضيها التطور الضمني ، ونزعت السلطات إلى حلها بطريق المساومة ، فاعلم علم الموقن الثابت في يقينه ، ان حاجة السلام قد ضحى بها في سبيل الوصول الى حلول موقوتة تسكن لوعة الداء ، ولكنها لا تستأصله . واعلم فوق ذلك ان كل الدماء المهراقة في الحروب ، وكل الخبائث التي لازمت قيام الثورات والانقلابات الاجتماعية ، كان هذا سببها : مساومة تنسيك فضائل السلام . وما ذلك إلاّ العمل الفائل . عمل لما هو زائل ، ونقض لما هو باقٍ ثابت .

الخطيئة التاسعة : روح التفرقة

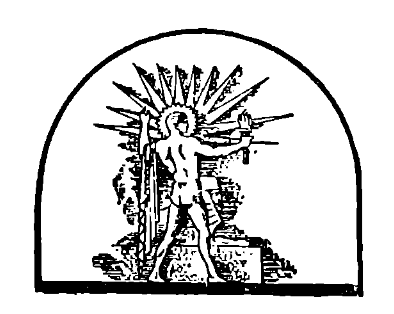
أصحاب المصالح في العالم فريقان : دول ذوات مصالح عامة ، وأفراد ذوو مصالح ذاتية . فاذا ظلّ هؤلاء مستمسكين كلاً بمركزه ، فنشدت الدول الاحتفاظ بمركزها في التفوق حتى الدرجة التي يصبح فيها ذلك التفوق غير ضروري للاحتفاظ ببقائها ، وسعى الأفراد الى الاستقواء على الطبقات المستغَلّة في المجتمع ، وقفنا حيث نحن ، شاعرين بأن بعض الدول لا بد من أن تتسمح في شيء من تفوقها اقتصاديًا أو سياسيًا أو غير ذلك ، وان بعض الأفراد لا بد لهم من أن يذعنوا الى ضرورة التنازل عن شيء من امتيازاتهم . واذن فلا بد من تضحية ، ليتزن بناء المجتمع .

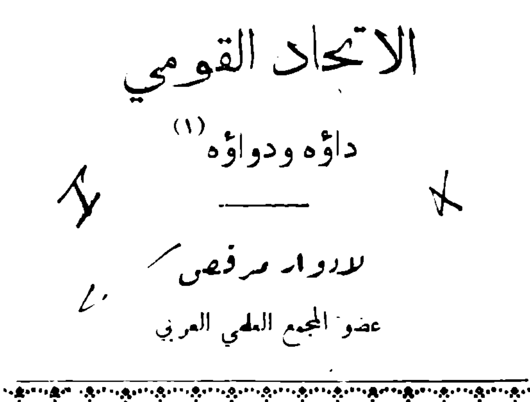
الخطيئة العاشرة : اختلال القوالب الاقتصادية والسياسية

والسبب في هذا الاختلال عجز الأفراد والجماعات عن النظر في الحياة الجديدة نظرة دولية ، تختلف كل الاختلاف عن النظرة القديمة التي تغشاهم اليوم . لقد انقلبت الحال فتطورت الحياة وتغيرت قيَمُها . فكل القِيَم القومية القديمة قد حلت محلها قِيَمٌ دولية شعوبية جديدة . ولقد تم هذا التطور لاشعوريًا ، حتى أن الناس اليوم يعيشون في نظام دولي ، ولكنهم يفكرون بذهن قومي . وإذن ينبغي لنا أن نعمل على أن نقضي على ناحية التفكير القومي ليساير الفكر ، الذي هو العامل الأول في تنشئة النظامات الاجتماعية ، مقتضى الحال في الحياة الدولية التي نحياها .

***

هذه خطيئات عشر ، يلزمنا أن نقضي عليها بالقضاء على بواعثها . فاذا قضينا عليها فنحن الى السلام ، وإذا عجزنا عن ذلك ، فنحن الى الفوضى ، بل الى الحضيض ، الى الدماء والعرق والدموع .





الاتحاد القومي

داؤه ودواؤه (١)

لادوار مرقص

عضو المجمع العلمي العربي

أصبحت بلاد سورية ولبنان في فجر عهدٍ جديد هو عهد الاستقلال والتمتع بالكرامة القومية في أوسع مداها . وما عهد الدول لنا بهذا الشأن كافياً وافياً ، وإن كان عظيم الفائدة. بل يجب علينا ان نضيف الى هذا المستند الرسمي مساعي فعالة طيبة من قبلنا، تظهر اننا نفكر في واجباتنا ومسؤولياتنا تجاه هذا الاستقلال ، قبل أن نفكر في مغانمنا وأمانينا الذهبية من ورائه ، بحيث نكون مستحقين له ولحسن عناية الدول ورعايتها حين تضع تفاصيل الميثاق الاطلنطي، وفي مقدمة أغراضه تأييد الشعوب الصغيرة ومنح كل منها حقوقها السياسية.

فما الشرط الأساسي الذي يطلب منا لنيل ذلك . هو ولا شك اتحادنا كتلة قوية صادقة في نياتها ومساعيها ومقاصدها. وما الذي يحول دون اعتمادنا على هذه الصفة الشريفة . هو ولا شك وجود النعرات الدينية في صميم مجتمعنا ، وترصد النصارى والمسلمين بعضهم لبعض ، بتأييد هذه النعرات الخبيثة .

ومن ثمَّ يكون زوال النعرات الدينية من بيننا أعظم ضامن لنجاحنا سياسيًّا واداريًّا واجتماعيًّا، وأصدق كفيل لسلامة استقلالنا وراحة بالنا وكرامة نفوسنا وصون نفائسنا .

وإذا لم تزل من بيننا هذه النعرات الخبيثة فلا تكون الوحدة العربية اذا حزناها ، ونحن اليوم نعوّل عليها ونسعى اليها ونفتخر بها، إلاّ ضئيلة الجدوى إذ لم أقل معدومة الجدوى، وما أشبهها بصَرح جميل فخم ولكنه ذو أساس ضعيف تغير عليه من هذه الزاوية ومن تلك، مسارب مياه قوية التيار ، تحتفر الأخاديد في طريقها وتهدد الصَّرح بالتصدع فالانهيار بين ساعة وساعة، والعياذ بالله.

(١) محاضرة ألقيت في ردهة المدرسة التجهيزية الرسمية باللاذقية في ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٤

ولا تنسوا أن أول واجب يطالب به الكاتب أو الخطيب أن يكون مدفوعاً بعامل الاخلاص والحمية قصد الافادة والارشاد، لا قصد الاغراب والمباهاة ، بحيث يرضي ضميره أول شيء . ورحم الله من قال : أخوك من صدَقك ، لا من صدَّقك .

النعرات الدينية تحقرنا أمام الناس وأمام أنفسنا كلما فكرنا في قبح مدلولها . النعرات الدينية تجعلنا مطمعاً لكل طامع وحجة دامغة علينا لكل محتج وتكذبنا جهاراً في كل صيحة من صيحاتنا الوطنية وكل دعوى من دعواتنا القومية. وهذه النعرات لم يقتصر أمرها على الشعب في خصوصياته وفي دخائل كل فرد من أفراده، بل تعدت ذلك الى ما يخزي ويخذل. فأصبح لها أثر رسمي قانوني في انتخاباتنا ووظائفنا ودعواتنا واقتراحاتنا ومشروعاتنا. ونخشى أن يستشري فسادها بعد قليل فتدخل في مطاعمنا ومشاربنا وفي أبسط وأحقر مظهر من مظاهر معيشتنا . ولم يكن أمرنا ليصل إلى هذا . نعم أنّ أبناء جيلنا الحاضر عرفوا من حقائق الكون العمرانية ما لم يعرفه آباؤهم وأجدادهم ، وأصبح فيهم استعداد فطري للاخاء الوطني والرابطة القومية وتقديمها على كل رابطة سواها . ولكن تيّار الأحوال الطارئة جرفهم على سهوٍ منهم أو على تجاهل وتغافل ، فوقعوا في سوء ما ورثوا بتطبيق نظاماتنا الرسمية على فوارق الدين بيننا . ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

وقد تناولت هذا المطلب الوطني الجوهري مراراً قبل اليوم في جرائد ومجلات مختلفة منها ما قلته منذ سبع سنوات بعنوان : « لا يجمع سيفان في غمد . إمّا الطائفية وإمّا الوطنية » . ثم أقول : « أما نحن سكان هذه الديار فأمرنا عجب . ظاهره يضحك الثاكلات وباطنه يثكل الضاحكات . أمرنا عجب . وكل عدّتنا فيه صخب ولجب . نحب الوطنية . ونشتهي الوطنية . ونحسُّ بحاجتنا القصوى إلى الوطنية . ونتغنى بالوطنية . وتنادي ألسنتنا وأقلامنا بالوطنية في كل صباح وكل مساء . ومع ذلك لا نتحوّل قيد شعرة عن النعرة الطائفية . ولا نتنازل عن حبَّة مما اصطلحنا أن نسميه حقوقاً طائفية أو تقاليد طائفية ، ولا نعرف أن نعيش إلاّ بالطائفية . متنشقين ريحها . سكارى براحها . ملهمين روحها . وكثيراً ما نسخّر الوطنية لأجل الطائفية بحيث لا نعطي الوطنية إلا القشر وندّخر اللب كله للطائفية . بحيث يقول اللسان وطنية . ويضمر القلب طائفية . ومن ثمَّ نزداد بعداً عن تحقيق الآمال بجمع الكلمة ورصّ الصفوف ينصر بعضها بعضاً . وهي حالة تعاسة وألم كأنها المعنية بقول القائل .

وكنت إذا أرسلت طَرْفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر

رأيت الذي لا كله أنت قادرٌ عليه ، ولا عن بعضه أنت صابر

* * *

كانت المملكة الاسلامية في عصورها الأولى خلافة دينية بحتة . وكان معظم النصارى المنضوين تحت لوائها أجانب عنها غرباءَ بلسانهم وأخلاقهم وميولهم وسياساتهم المنحدرة اليهم مما ألفوه وعهدوه وأشربته قلوبهم من دول نصرانية سابقة ما بين يونان ورومان وسريان وأقباط وغيرها، وهي الدول التي غلبها المسلمون على أمرها وملكوا ديارها . ومن ثمَّ كان المسلمون معذورين عذراً واضحاً في كيفية نظرهم إلى النصارى الساكنين معهم وفي اتخاذهم الحيطة بشأنهم ، وبما أن هؤلاء النصارى دخلوا في الدولة الاسلامية وهم أهل كتاب سماوي ، رعى المسلمون حرمتهم إلى حدٍّ محدود فسموهم ذميين أو معاهدين وأخذوا على أنفسهم حمايتهم والذود عن حقوقهم بشروط وقيود مفصلة في مواضعها ، خوفاً من فتنة أو ثورة أو مكيدة تقع عليهم من قبل هؤلاء النصارى .

أما اليوم فقد زالت هذه الأحوال وهذه الدعاوي، ولم يبق مسوغ لهذه التفرقة بجعل الرعايا قسمين مؤمنين أقارب ، وذميين أجانب . لم يبق مسوّغ لهذا لأن اللغة والمشارب والأخلاق أصبحت كلها موحدة ضمن إطار عربي . ان قرناً واحداً في المعاشرة والامتزاج بحسب كافياً لمثل هذا التوحيد ، فكيف وقد انقضى على تلك الحال ثلاثة عشر قرناً ونيفاً ونسي النصارى ما كان يربط أجداد أجداد أجداد فئات منهم باليونان والرومان وغيرهم رباط جنسية ونسب . لقد استعربوا جميعهم من قمة رأسهم إلى اخمص قدمهم ، ولم يضرهم شيئاً في استعرابهم ، أصلهم الأعجمي القديم . ثم إذا كانت العجمة قد دخلت في أنساب بعضهم متوغلة في قدمها ، فان بعضهم الآخر يمت إلى نسب عربي صميم من أيام الجاهلية ، وأريد أنهم من سلالة القبائل العربية المتنصرة ، وأشهرها في القسم العدناني تغلب وبكر وكلب والأزد . وفي القسم القحطاني طي وكنده وغسان ولخم وقضاعة وإياد . أوَ ليس كذلك شأن اخواننا مسلمي العرب ؟ فهم في أنسابهم من قبائل عربية ومن شعوب أعجمية كالفرس والترك والأكراد والشركس وغيرهم . بل إن أجداد جماعات منهم ، هم أجداد النصارى أنفسهم . وإنما دخلوا في الاسلام تدريجاً بعوامل مختلفة أهمها حافزان جوهريان لا ثالث لهما : وهما الرغبة والرهبة . على أن اختلاط العناصر والانساب شيء لا بد منه بفعل كرور الاحقاب والاشتراك في التوطن والمعيشة حتى أصبح من المتعذر أن نجد امة ترجع أصولها الى جنس واحد . وقد يتسنى هذا التمحيص للقبائل الرحل كالبدو من العرب ومن التتار والخزر وهنود أميركا وزنوج أفريقية وقبائل الاسكيمو بجوار القطب الشمالي . وأما الامم المتحضرة وهي

تسعة أعشار البشر أو تزيد ؛ فلا يتسنى لها هذا التمحيص . فالأمة الفرنسوية مثلاً يدخل في نسبها القديم العرق الجرماني . ويدخل في الأمة الروسية العنصر المغولي . وفي الأمتين الاسبانية والبورتغالية الدم العربي . وفي الأمة الايطالية الأصل اليوناني إلى آخر ما هنالك.

واذا حاول جماعة من أهل التعنت والعناد أو من المولعين بالمكابرة والمماحكة أن يتعاموا عن صحة هذه النظرية العمرانية الجلية ، وأصروا على حرمان نصارى العرب حق انتسابهم إلى العروبة أجبناهم : رويدكم : إذا كنتم ترون النسب اليوناني أو السرياني أو الفينيقي أو غيرها من أنساب الأعاجم أولى بأبناء وطنكم النصارى من النسب العربي ، لأن أجدادهم من الف سنة كانوا ينتمون إلى هذه العناصر ، فانكم بهذا القياس الجائر تخرجون بني قريش أنفسهم، وهم سادات العرب ، عن عروبتهم وتحكمون بانهم كلدان لأنهم ينتمون إلى اسماعيل ابن ابراهيم الخليل بن ناحور بن تارح وهو كلداني قح من بلاد ما بين النهرين ، من مدينة الرّها التي نسميها اليوم أورفا . فما قولكم في هذه المهزلة بجعل قريش كلداناً ، بل بجعل جميع القبائل العدنانية لا قريش وحدها ، خارجة عن العروبة ، مع أنها تؤلف في التاريخ نصف الأمة العربية .

وفي هذا القدر كفاية لاثبات عروبة الوطنيين من نصارى بلادنا في عصرنا الحاضر أسوة بأبناء وطنهم المسلمين . فلا يجوز أن ينظر اليهم كما كان ينظر إلى أسلافهم من نصارى الشرق الأوائل في فجر الاسلام . كان نصارى تلك العصور أعاجم بلسانهم وعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم ومقاصدهم . وأما نصارى اليوم فهم عرب في جميع ما ذكر . كان النصارى القدماء يؤدون الجزية لبيت المال ، والجزية هي أكبر دليل وبرهان على أن لهم حالة استثنائية في نظر الدولة ، لا تعادل حال المسلمين . وأما نصارى اليوم فقد أعفتهم الدولة من أداء الجزية، وان شئت فقل أعفتهم من تلك الصبغة . . . كان أولئك النصارى لا يطالبون بالخدمة العسكرية إذ لا يؤمن جانبهم ولا يقبل اشتراكهم فيها إذا أرادوا التطوع لها . وأما نصارى اليوم فهم شركاء أبناء وطنهم المسلمين في هذه الخدمة على اختلاف أنواعها من جيش عامل وجيش احتياطي ودرك وشرطة وحرس . ويضاف إلى هذه المزايا أن نصارى نهضتنا الحاضرة قاموا بقسط كبير شريف في خدمة العرب والعربية داخل ديارهم ، وحملوا قبسها الوهاج ، ونشروا لواءها الظليل خارج ديارهم في عدة أقطار شرقية وغربية ، تشهد لهم بذلك شهادة لا ترد ولا تدحض ، جمعياتهم وأنديتهم وصحفهم ومؤلفاتهم وخطبهم .

(البقية في العدد المقبل)



ارتياد جزيرة العرب

خلاصة لكتاب يحتج به (*)

لمحمد عبد الغني حسن

في أوائل القرن السابع عشر الميلادي أو في سنة ١٦٠٩ بالتحديد، كتب موظف في شركة الهند الشرقية يقول في تقرير له: « يجب أن يتوقع المسافر إلى عدن أخطاراً تنتظره وأهوالاً ترتقبه، لأنها مدينة مشحونة بالأحراس والجنود، وليس فيها من التجار إلا قليل. والربح القليل الذي يؤمل من التجارة فيها، لا يوازي الأخطار التي يستهدف لها التاجر. أما مدينة مُخَا اليمنية فهي على صغر حجمها، مركز تجاري أمين لأنها مملوءة بالتجار لا بالجنود».

وكانت عدن قبل ذلك الحين ببضع عشرات من السنين من أملاك الدولة العثمانية. ولكن قيمتها التجارية مع بلاد الهند والجزيرة العربية وأوربا أخذت تتضاءل، حتى انتهى الأمر الى مدينة مخا التي اخذت تحتل مكانها وتنزع عنها قديم شهرتها.

وكان يحكم عدن من قِبَل العثمانيين رجل يوناني غير مسلم، اتخذه حاكم صنعاء صنيعة له وعهد إليه بحكم هذه المدينة العسكرية.

وفي سنة ١٦٠٩ أيضاً أرسلت شركة الهند الشرقية بعثة الى عدن، على رأسها « اسكندر شاربي» ومعه رجل من الذين يجوبون الضرب في الأرض للتجارة وعقد الصفقات والترويج للسلع حتى تنفق. هذا الرجل اسمه « جون جوردان » من مقاطعة دورست بانجلترة.

لقي هذان الرجلان الطامعان في ثروة البلاد العربية عنتاً وارهاقاً، وخاصة في عدن تلك المدينة التي ليس فيها جرعة من الماء سائغة لظمآن. وليس فيها الا الصخور الربد والحجارة الدُكن.

ولكنهما لم يعرفا وهناً، ولم يدعا لليأس سبيلاً الى قلبيهما. فقد تعرّفا الى عدن

L'Exploration de L'Arabie — Par : R. H. Kiernan, Paris 1938 (*)

وصنعاء ومخا . بل تعرّفا الى كثير من بلاد اليمن . ولم يجد « شاربي » سوقاً للسلع الكثيرة التي جلبها معه من الهند ، وإذا وجد السوق فانه لا يصادف الا الثمن البخس والدراهم المعدودة . فعاد الى الهند تاركاً زميله المغامر الجريء «جوردان» يسير في مناكب اليمن ...

وبعثت شركة الهند الشرقية « السير هنري ميدلتون » ليتم ما عجز عن اتمامه سلفه « شاربي » . فجاء الرجل ووجد في « جوردان » يده وعدته . وكان في « جوردان » صلابة وعناد لا يخضعان لقساوة الظروف وحرج المواقف .

وهنا كانت المنافسة بين الانجليز والهولنديين أخذت سبيلها . وخاصة بعد القضاء على نفوذ البرتغال ، وانقلبت المنافسة التجارية الى عداوة مبينة . ولم يكن غير أطراف الاسنة مركب بين المتنافسين . ولم يكن للمضطرين الا ركوبها .

وجاء أسطول هولندي صغير يقوده « هدريك جانزون » . وكان في استطاعة أسطول « جوردان » الضئيل ان يتقي اللقاء بالهرب . ولكنه آثر الموت الذي ليس منه بد ، ووجد عاراً لنفسه ولبلاده أن يموت جباناً ...

وانتهت المعركة بقتل « جوردان » ، وهو يحمل علم بلاده في يده — بعد ما أصدر أمراً بالتسليم حتى لا يكون مصير بعثته الفناء .

***

هذه المعركة البحرية الصغيرة ، هي وأخوات لها في خلال القرن السابع عشر ، والنصف الأول من القرن الثامن عشر ، لم تكن ارتياداً للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الصحيح ، وإنما كانت منافسات تجارية . ولكنها على كل حال كانت الخطوات الأولى في الارتياد لتلك الجزيرة السحيقة الأطراف .

وأول كشف للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الحديث ابتدأه الدانمركيون . وهم قوم على قلة عددهم حملوا لواء الارتياد . وما ضرّهم انهم قليل عددهم ، فالكرام في الدنيا قليل ...

وأول طارق لبلاد العرب على نية الكشف العلمي هو « كارستون نيبوهر » الدانمركي ، الذي أرسلته حكومة بلاده على رأس بعثة أُمدّت بأسباب البحث والاطلاع الممكنة في عصره . قامت البعثة سنة ١٧٦١ م . وقضت سنة في مصر وشبه جزيرة سيناء . ثم بلغت جدة سنة ١٧٦٢ م ومنها أبحرت الى ميناء في بلاد اليمن يدعى « اللحيّه » بالحاء والياء المشددة المفتوحة وهاء في آخره[1] . وكان هذا الثغر اليمني هو الهدف الذي ترمي اليه البعثة.

---

(١) حقق هذا الاسم العالم الجليل الاب انستاس ماري الكرملي في كتاب « بلوغ المرام في شرح مسك الختام » للقاضي العرشي الذي نشره الاب « ص ٢٧٠ س ١٦ » . وخطأ من يقول ان اسمه لحيا

ومن هناك أبحر رجالها الى « مخا » الحافلة بالتجار وأكبر ميناء لتجارة البن . ولما كان « نيبوهر » غير عالم بالحضارات القديمة ولا متخصص في دراستها فقد اصطحب معه علماً من أعلام هذا العلم اسمه (فون هافن) . وظلت البعثة بين إتهام وإنجاد حتى بلغت صنعاء التي جابها « نيبوهر » شبراً شبراً ، ووصف كل معْلم من معالمها وحيٍّ من أحيائها . ولقد كان وصفه للحي اليهودي فيها شائقاً .

وبعد أن اقامت البعثة عشرة أيام في صنعاء ، عادت إلى مخا عن طريق الحديدة ومن مخا أقلعت البعثة إلى الهند . وفي العام التالي بقي « نيبوهر » وحيداً بعد وفاة ثلاثة من زملائه فزار عُمان ومواطن أخرى على الخليج الفارسي . ثم ذهب إلى البصرة فسورية ففلسطين ومنها إلى وطنه بعد غياب أربع سنوات . وطبع نتائج رحلته سنة ١٧٧٢ . ويعد عمله هذا أول وصف لبلاد العرب وخاصة اليمن . وكان وصفه للأماكن المختلفة وصفاً مملوءاً بالدقة ، حتى انه لم يترك لمن جاء بعده من الروّاد مجالاً للوصف الدقيق .

وكان « نيبوهر » منصفاً في حكمه على العرب عارفاً أقدارهم ، فلم تمل به دواعي الهوى في حكمه ، وقد عرفهم عن قرب ، وفرّهم عن تجربة . وقال فيهم في كتابه [1] . « إذا كان هناك شعب يقدمه التاريخ مثالاً فريداً للأمانة المصحوبة ببساطة التقاليد ، فانه الشعب العربي بكل تأكيد »

* * *

وبعد مضي أكثر من قرن على بعثة « نيبوهر » ذهب « هالفي » إلى بلاد اليمن سنة ١٨٦٩ فاكتشف مدينة مأرب والكتابة المنقوشة على صخورها . ودخل اقليم نجران الخصيب ، حيث لقي جالية من اليهود في قرية « مخلاف » فأقام بينهم بضعة أسابيع . وفي سنة ١٨٧٠ وصل إلى مدينة « النحاس » التي سميت بهذا الاسم لأن آثارها المنقوشة وجدت على ألواح من هذا المعدن . وعلى بعد ساعتين من شرقي مأرب على سد مأرب المشهور في التاريخ .

ولم ينفرد « هالفي » بكشف مأرب ، ولكنه فتح سبيلاً ممهداً للعالم الأثري النمسوي « جلازر » الذي قام — تحت حماية الأتراك — بزيارة مأرب سنة ١٨٨٩ . ولولا خصومة بين قبيلتي « حاشد » « وبقيل » لأمعن في سيره . ولكنه خشي على نفسه أن يقع ضحية في خلال هذا الخصام . وانتظر الرجل حتى يجد في مصالحة الحيين المحتربين فرصة لاستئناف عمله . وكان ذلك في رحلة ثانية وصل فيها إلى مأرب ، وأقام فيها ثلاثين يوماً جمع خلالها

(١) Voyages à Travers L'Arabie

طائفة كبيرة من النقوش والآثار ، ولكنهُ لم يستطع أن يخترق شرقي مأرب، فقد كانت دوية مخيفة غير واضحة الأقراب .

وفي سنة ١٨٣٥ استطاع « ويلستد » الذهاب إلى قلب حضرموت ، وما كان ذلك سهلاً ولاميسوراً ، ولـكنه كان بزماع الأمر والهم الـكنع كما فعل سويد بن كاهل صاحب القصيدة العينيـة المشهورة .!! . وكاد « ويلستد » ينجح في مغامرته لولا أن بعض الخصـومات المذهبية في اليمن، لم تمكن البعثة من انجاز عملها .

* * *

ولما كان الحجاز أشهر أقاليم الجزيرة العربية — لما للمدينتين المقدستين من مقام عظيم — فقد قام « ڤارتيما » الايطالي من دمشق في أوائل القرن السادس عشر . ولعلهُ أول أوربي زار أرض الحجاز. كما كان « يوسف بتس» الديفوني الانجليزي من أوائل الزائرين للحجاز. وهناك آخرون زاروا مكة متخفين أو متظاهرين بالاسلام . وظلَّ الحال كذلك إلى أول القرن التاسع عشر . فزير الحجاز ـ لأول مرة ـ لغاية علمية محدودة بوساطة « باديا ليبليك» الاسباني الذي تسمى باسم « علي بك » وادعى أنه من أعقاب العباسيين وأنه بقية من بقاياهم !! فوصل إلى جدة سنة ١٨٠٧ . وأدَّى فريضة الحج في مكة . وهو أول مرتاد أوربي اخرج للعالم أول صورة دقيقة للمدينة المـكرمة واشعائر المسلمين في البيت الحرام . كما كان أول من حـدد موقع مكة بعد مشاهدات فلـكية متتابعة ، ووصف كل ما يحيط بها من المواقع والبطاح .

ولقد مهد « علي بك » الاسباني طريق إرتياد الحجـاز للرحالة « بركهاردت » الذي ولد في « لوزان » وتعلّم في سويسرة وأتم تعليمه في جامعتي لندن وكامبريدج. وكان في الفتى صلابة في الخلق ودأب في الدرس ، حتى لقد احتمل الحرمان الأليم والضنى الممض في سبيل دراسته . فحفظ القرآن ودرس التفسـير في أوسع كتبه وأعظم مراجعه ، وتعمق في بحث الشريعة الاسلامية تعمقاً مكـنه من أن ترسخ قدمه فيها . وهو الرائد الحقيقي لبلاد الحجاز

ولقد مكـنته قراءاته الواسعة ومعرفته بحياة العرب وعاداتهم من أن يدخل بلاد الحجاز كمسلم . فنزل جدّة سنة ١٨١٤ حينما تمّ احتـلال الوهّـابيين للحجاز : وكانت جيوش محمد علي باشا على أهبة التقدم نحو نجـد . وزار الطائف وقضى ثلاثة شهور في مكة فحجَّ واعتمر وقضى مناسك الحج . وفي سـنة ١٨١٥ سافر إلى المدينة بطريق الساحل . وبالرغم من اعتلال صحته فقد سجل كل ما رأى وجرب بالدقة التي امتازت بهـا رحلته إلى مكة . وفي النهاية حينما ألحت عليه العلة — اضطرَّ إلى قطع رحلته وعاد إلى القاهرة ، ومات بعد ذلك بعامين .

ومن روّاد «الحجاز» «ريتشارد برتون» الذي كتب رحلته في كتاب لم يسبقه اليه سابق من حيث اتساعه وضبطه . وفي سنة ١٨٧٧ أوفده الخديو اسماعيل ليكشف مناجم الذهب في شمالي الحجاز ! فوجد هناك آثاراً ذات قيمة تاريخية وحمل معه خرائط ومصورات

وبعد عشرين عاماً زار المدينتين المقدستين رجل هولندي اسمه «هيرجرونيه» وكان عميد الرواد في عصره . وطبع كتابه بالألمانية ولكنه لم ينل من الشهرة ما نال سابقوه . ولعلّ ذلك راجع الى أنه كشف أشياء كانت معروفة لدى جمهور العلماء في زمانه .

وكانت انتصارات ابراهيم باشا في الحجاز سبباً من أسباب نفوذ الرحالين إلى أواسط الجزيرة العربية . فقد دخل عدد من الضباط الأجانب في الجيش المصري ، ولكنهم لم يتركوا لنا أثراً من مشاهداتهم .

ولكن حكومة الهند كانت راغبة في القضاء على القرصنة في الخليج الفارسي، ومتطلعة إلى الحصول على معلومات صحيحة عن مركز البلاد العربية . فأرسلت الضابط (سادلير) مندوباً عنها لدى ابراهيم باشا الذي كان والياً على البلاد العربية ، والذي تقبله بقبول حسن، وكان أول رحالة أوربي اخترق بلاد العرب من بحر إلى بحر . ولو أن النتائج السياسية لرحلته كانت هباء ، إلاّ أنها كانت ذات قيمة جغرافية كبيرة . فقد أصبح اختراق بادية نجد شيئاً مستطاعاً حتى في أشد الشهور قيظاً .

وإلى هذه اللحظة ظلّ اقليم جبل شمّر غير مطروق إلى أن جاء «والن» نيابةً عن محمد علي باشا ليستطلع عن شمالي نجد نبأ . فاخترق صحراء «النفود» الى «الحائل» وهي العاصمة المزدهرة لجبل شمّر. ولقد أدهشته أخلاق العرب ومروءتهم وعدالة رئيسهم .

وفي سنة ١٨٦٢ زار الجوف والحائل والرياض والأحساء ، الرحالة «بلجراف» في صحبة «بركات» وهو قسيس لبناني وصل فيما بعد الى مرتبة مطران . ولقد مكنت «بلجراف» معرفته الوثيقة باللغة العربية وتاريخ الجزيرة من رسم صورة حية ناطقة للحياة العربية . وهي صورة ملأى بالفتنة والروعة ، ولكنها من الناحية الجغرافية لا تمد شيئاً ، فان طغيان الخيال والاغراق في المبالغة ، جعلت رحلته أقرب الى المتعة منها الى التحقيق، حتى ان الرحالة «دوتي» بعد خمسة عشر عاماً لم يجد أثراً لمعالم بلجراف !

ولكن «بلجراف» وجد من يدافع عنه بعد موته وهو الدكتور «هوجارث» ، وكان آخر رحالي القرن التاسع عشر، البارون «نولده» الذي زار مدينة الحائل سنة ١٨٩٣ . وهو أول من مهد السبيل لروّاد القرن العشرين .



النباتات المتطفلة

لرضوان محمد رضوان

التطفل وجود فردين يستفيد أحدهما من الآخر مسبباً له بذلك ضرراً يتفاوت في خطورته ، وتكون نتيجته الموت في غالب الأحيان ، ولم يعرف بالتحقيق كيف نشأ التطفل. وأغلب الظن أنه نشأ بمحض المصادفة فقد يتفق أن يبتلع حيوان ما إحدى الكائنات الحية ، نباتية كانت أم حيوانية ، أو أن تدخل هذه في نسيج أي نبات ، فاذا وجدت أن هذه البيئة الجديدة تحوي كل الظروف اللائمة لنموها وتكاثرها من غذاء وحرارة وغيرها ، وأنها لا تختلف كثيراً عن موارد غذائها الطبيعية ، فضلاً عن كونها لا تعاني مجهوداً يذكر في الحصول على ما يقوم بأودها ، استمرأت هذه الحياة وجعلتها ديدناً لها ، وبذا تصير خاصية التطفل عادةً لهذا الكائن الحي . ومما يؤيد هذا، أن عدداً كبيراً من الطفيليات يمكنها أن تصيب عوائل مختلفة من أجناس متباينة مثل فطر Corticium vagum فله القدرة على اصابة نباتات عدة مثل القطن والبطاطس والبنجر والفاصوليا . . الخ . وعلى ذلك فالطفيليات، ولو أنها منتشرة انتشاراً عظيماً في مملكتي الحيوان والنبات، إلا أنها لا تكوّن قسماً طبيعيًّا خاصًّا ، مما يدل على أن هذه الحالات انما نشأت مستقلة عن بعضها ، واذا كانت هناك بعض أنواع من الديدان الشريطية تقتصر على التطفل ، فانه قد ثبت أن لها أسلافاً عاشت حرة أي غير متطفلة . ويمكن تقسيم النباتات المتطفلة قسمين :

١ — النباتات اللازهرية أو (الخفيَّة الزهر) Cryptogamics

٢ — النباتات الزهرية أو (البادية الزهر) Phanerogamics

ومن أهم الطفيليات في النباتات اللازهرية الفُطر والبكتريا (القُصَيات) . فالفطر Fungi نبات لا يحتوي على اليَخضُور (الكلوروفيل) أي انه لا يستفيد من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي ليكوّن مركباته الكربونية ، ولهذا يتطفل على الكائنات الحية ويمتص منها غذاءه ، فنجد ان هيفات الفطر تخترق طريقها الى العائل ميكانيكيًّا، بأن تضغط

على أديم النباتات — وهي ثابتة في مكانها — وتستمر في الضغط بشدة حتى ينفجر الأديم وبذلك ينفتح الطريق لدخول الفطر ، وعندئذٍ ينمو داخل النبات مخترقاً الأنسجة نفسها أو نامياً في المسافات البينية ويفرز أنزيمة (خميرة) البكتيناز Pectinase التي تفكك الخلايا وتؤثر على الجبلة أو المادة الحية (البروتوبلازم) وبذا تتحلل الأنوية وتنتفخ النشاشيات الخضر (الكلوروبلاستيدات)[1] ثم تتحلل وتختفي حبيبات النشا، فيستطيع الفطر أن يمتص غذاءه. وقد شوهد أن خميرة البكتيناز تنتشر متقدمة الهيفات فتقتل الخلايا وتحلل الجدر قبل وصول الهيفات اليها ، ويسبب هذا التأثير عفن الأنسجة ، وينتهي بموت النبات كله .

ويختلف تأثير الفطر على النبات باختلاف أنواعه ، فمنه ما ينحصر تأثيره على الخلية التي يسكن فيها فقط كالفطر المسمّى Myxomycetes ، وهو يصيب نباتات الجنس المسمّى براسيكا التي منها الكرنب مثلاً ، فيسكن هذا الفطر في داخل خلايا العائل ويمتص محتوياتها ويتكاثر فيها فيميتها . وقد يؤثر الفطر على الأوراق فتكمد وتموت مثل مرض البياض الزغبي في العنب وهو المسمى Plasmapara viticola ، وبعض الفطريات تفرز سموماً (توكسينات) toxines تفسد جبلة العائل ، مثل الفطر المسبب لمرض ذبول القطن المسمى Fusarium vasinfectum

ولا يقتصر تطفل الفطر على النبات ، بل يتعداه إلى الحيوان ، فأغلب الأمراض الجلدية التي تصيب الحيوانات يسببها الفطر . فرض القراع الذي يصيب جميع الحيوانات الصغيرة وينتقل الى الانسان ، تسببه ثلاث أنواع من الفطر : الأول ويسمى Trichophyton ويصيب الماشية ، والثاني يسمى Micrósporn ويصيب الخيل ، والثالث Achorion وهو يصيب الانسان . وهناك نوع من الفطر يسمى Empusa musca يصيب الذباب في ابتداء الخريف ويكون على أشده في نوفبر، فتصبح الحشرات ضعيفة لا تقوى على السير ويكثر عددها الذي يلتصق بالجدر والألواح فلا تقوى على تركها ! والتأثير الذي يحدثه هذا الفطر في الحشرة هو اتلاف العضلات،فلا تقوى على الطيران . ومرض Muscardine الذي يصيب يرقات دودة الحرير سببه فطر من جنس Batrytes يسبب تصلب الجسم بسبب الافرازات الكلسية التي يفرزها على جسم الحشرة .

أما الطفيليات المسماة بالقصيات (البكتريا) Bacteria فعبارة عن خلية واحدة تحتوي

---

(١) Chloroplastids : chloro Gr. = green & plastids = form units. E. Haeckel (Eng. Ed.) I, 347.

على المادة اللازمة للحياة أي الجبلة (البروتوبلازم) وتحاط بجدار غشائي رقيق مكوّن من مواد أزوتية . ولما كانت البكتريا فاقدة اليخضور (الكلوروفيل) فانها تحتاج إلى التغذي من أجسام الحيوان والنبات ، وهي منتشرة بكثرة في الهواء والماء ، وعالقة بالأسطح المعرضة للهواء الجوي ، وعلى ذلك فالكائنات جميعاً معرضة لهجمات هذه الميكروبات وكثير منها يسبب اضراراً وخيمة للانسان ، فهي تصيبه إما عن طريق الجلد أو القناة الهضمية أو الجهاز التنفسي ، فاذا وصلت الى الجلد عن طريق جرح أو ثلم به ، فانها تتكاثر فيه بسرعة مسببة التهابات موضعية قد تتحوّل الى خرّاجات تتلف الأنسجة ، وقد تفرز مواد سامة تفضي إلى تسمم الجسم . والقصيمات (البكتريا) التي تصيب الجهاز الهضمي كثيرة : أهمها وأخطرها بكتريا التيفود والكوليرا والدوسنطاريا ، وأخطر أنواع البكتريا هي التي تصيب الانسان عن طريق الجهاز التنفسي فتسبب له أمراضاً خطرة مثل مرض السل الرئوي والالتهاب الرئوي الذي يحدث التهاباً في أنسجة الرئة والفاصل ، وتنتقل هذه القصيمات بواسطة قطرات الماء التي تخرج من فم المصاب أو أنفه عند السعال أو الكلام .

***

النباتات الزهرية الطفيلية : Parasitic Phanerogams

الأصل في غذاء النبات أن يستمد الكربون اللازم له إمّا من غاز ثاني أكسيد الكربون الجوي فيدخل أنسجة الورقة أو السوق الخضر ، وإمّا من الهواء المحيط بالنبات، ثم يمتص النبات الماء من الأرض بواسطة الجذور . وبواسطة اليخضور (الكلوروفيل) يحدث تفاعل كيميائي من ثاني اكسيد الكربون والماء ، فتنشأ عنه كربوإيدرات. والنباتات الخالية من اليخضور تماماً ، والتي تعتمد على عائلها في الحصول على الماء والاملاح والمواد الغذائية العضوية اللازمة لها، تسمى بالنباتات تامّة التطفل . وأما التي تستمد من عائلها الماء والأملاح فقط ، ويمكنها تجهيز المواد العضوية بواسطة أوراقها لاحتوائها على اليخضور ، فتسمى النباتات ناقصة التطفل .

ومن النباتات التامة التطفل الهالوك ، وهو يتطفل على جذور نباتات مختلفة في مصر ، كالفول والطماطم والكرنب ، ولا بدّ لنجاح التطفل في هذا النبات من أن تنبت بزوره بجوار جذور العائل ، فمهما توفرت كل الشروط الملائمة للانبات من حرارة وماء وغيرها ولم توجد جذور العائل ، لا تنبت البزور ، وحين إنباتها تنمو منه مِمَصّات تتجه نحو العائل وتخترق

أنسجة الجذر وتتصل بأنابيب الخشب لتمتص الماء والأملاح ، وبعضها يتصل بالماء للحصول على المواد العضوية المجهزة، ثم ينمو الطفيل ويكون تحت الارض جسما درنيًّا تتصل حزمه الوعائية بحزم العائل ، ويأخذ هذا الجسم الدرني في النمو ، ثم ينبثق منه شمراخ زهري يظهر فوق سطح الأرض ويحمل أوراقاً حرشفية خالية من اليخضور . وبزور الهالوك يمكنها أن تعيش في الأرض عشر سنوات في حالة همود إذا لم تجد عائلها الخاص ، دون أن تتلف أو تفقد حيويتها .

***

والحامول نبات زهري تام التطفل يكثر في مصر على البرسيم والكتان ، ومن المعتاد أن توجد بزور الحامول مع بزور العائل ، فاذا زرعت نبتت بزور العائل أولاً ثم تعقبها بزور الحامول فيخرج منها ساق رقيقة خيطية تثبّت نفسها في الأرض بواسطة شُعَيْرَات تنمو من القاعدة، وتنمو الساق إلى حد يكفيها للالتفاف حول العائل ، ثم تتحرك قمتها حركة دائرية ، حتى إذا ما لامست ساق العائل التفّت حوله وماتت الشعيرات التي كانت تثبته في الأرض، وبذلك يفقد الحامول علاقته بالتربة ويصبح كل اعتماده على العائل . ثم تنمو من الساق الخيطية أقراص تلتصق بساق العائل،وتخرج من هذه الأقراص ممَصّات تخترق أنسجة العائل إلى أن تصل إلى الحِزَم الوعائية ، وكذلك تتفرّع من الممصات خلايا جانبية رقيقة الجُدُر ، تتصل بخلايا القشرة والأنسجة النخاعية لامتصاص المادة المخزونة فيها .

***

وأما النباتات ناقصة التطفل فأهمها نبات الثيسيوم sium وهو نبات عشبي صغير له أوراق خُضْر ، ويتطفل على جذور النجيليات وهو يكثر في مريوط ونبات اللورنتس Loranthus وينمو بكثرة على أشجار السنط ويشاهد في الجنوب الشرقي من مصر ، وتمتد من ساقه ممصات تخترق أنسجة العائل فتمتص منه الماء والأملاح . وأما المادة العضوية فان النبات يجهزها بأوراقه الخضر . وبزوره تنتقل بواسطة الطيور إذ أنها طعام مفضل ومحبوب لديها ، ولما كانت البزرة محاطة بمادة لزجة، فهي تلتصق بمنقار الطائر فيحاول أن يتخلص منها بأن يمسح منقاره عدة مرات على شجرة مّا ، وبذا تنتقل البذرة إلى الشجرة وتلتصق بها مكونة نباتاً جديداً .

عدو الكذب

قصة عن الكاتب البولندي

فانسلاف سولسكي

نقلها حسين المهدي غنام

سيداتي . سادتي

يجب عليكم جميعاً ان تخجلوا من أنفسكم

قلّب رئيس المحكمة نظره في الأضابير المطروحة أمامه ، ثم صاح بالمتهم -- قف ! إن اسمك «ياتوسلاف ماتوشك » ، وعمرك أربعون سنة ، ولكنك ما زلت عَزَباً . وقد اشتغلت في « براتسلافا » زمناً ما . ثم حولتك إدارة البريد إلى هذه البلدة ، فسببت لها كثيراً من الألم ، ونغصت على أهليها الحياة ، ولا أستطيع تعليل ذلك . ولكن لعلك تخبرنا عن السبب الذي حدا بك الى فعْلَتك !! فأجاب المتهم بالتأكيد. ولكني لاأستسيغ أن أشرح ذلك في كلمات قليلة . فاسمح لي قبل كل شيء أن أؤكد لك أني كنت دائماً ، وما زلت ، بطلاً من أبطال الصدق ، بل أقول انني كنت وما زلت متعصباً للصدق تعصباً دينيًّا ، إذا صح هذا التعبير !

ونقّل المتهم بصره من الرئيس الى الجمهور ، ووجه الكلام اليهم جميعاً ، ثم قال : والآن ، اليكم قصتي ... لقد مرَّ الكثير من المراسلات بين يدي في مكتب البريد ، فأحببت أن أكوّن لنفسي فكرة عامة عن مستوى الذكاء عند سكان هذه البلدة ، وهذا لا يتأتى الا بالاطلاع على رسائلهم ومكاتباتهم ، ولذا فضضت كثيراً منها . . . ومن السهل ان يَفُضّ الانسان مظروفاً ويقرأ ما فيه ثم يقفله مرة أخرى .. وبهذه الطريقة قرأت الرسائل والخطابات ، فرأيت أشياء لم تسرني ... إن مستوى الذكاء فيها يستحق الاشفاق ، فانه أقل من المتوسط ، ولم تحتو كتب القوم ورسائلهم الا على سخافات مزرية وتلفيقات ونمائم وأكاذيب.

سيداتي ! سادتي ! يجب عليكم جميعاً أن تخجلوا من أنفسكم ...!

وما كاد المتهم يفوه بهذه الكلمات ، وقد وجهها الى المستمعين من أهل البلدة ، حتى تعالت صيحات السخط والحنق وكادوا ينزلون به سوءاً ، غير أنه ظلّ هادئاً ولم يحرّك ساكناً ، رغم ما بدا على الجمهور من آثار الغضب . واستمر في كلامه فقال : ...ولكثرة ما قرأت من رسائل الناس تعلمت تقليد خطوطهم وتوقيعاتهم ، فبهذه هي الطريقة

التي التي رأيتها أنجع الطرق جميعاً لتنفيذ خطتي . . . وبعد مرانة استغرقت ثلاثة شهور كاملة ، وجدت نفسي قادراً على تنفيذ أولى محاولاتي . . . وذلك أن شاباً من هذه البلدة كتب خطاباً الى فتاة في بلدة « مورافسكا أوستراقا » . . . وكان هذا الخطاب غاية في الكآبة والحزن وخيبة الأمل . . . وكان فيه ثلاث غلطات نحوية فاحشة ، بله اخطاء التهجية . . . ولكني كنت قد قرأت قبل ذلك ثلاثة كتب من تلك الفتاة موجهة إلى فتاها ، وقد فهمت من هذه الرسائل ان الفتاة رضية الأخلاق سمحة الشخصية . فعزّ عليّ أن يكون كتاب الفتى مخيباً لآمالها ، فألقيت به في سلة المهملات ، وأنشأت بدلاً منه خطاب غرام مشرق الديباجة قلت فيه للفتاة « تعاليْ إليّ يا حبيبتي ، أني أريد أن أتزوج منك بغير إبطاء » . وقد جاءت وتزوجت فعلاً . . . ولكن ليس من فتاها الأول بل من فتى آخر ، هو صديق له، أحبته لأول نظرة حباً فاق حبها للفتى الآخر ، وعاشا زوجين سعيدين ... وليست هذه غلطتي بطبيعة الحال ...

وهنا . قال رئيس المحكمة ولكن يظهر انك كتبت رسائل أخرى غير رسائل الحب ...

فأجاب المتهم — نعم ... كتبت أشياء أخرى ... ولكن فارقاً بعيداً بين سيدة شابة ، وبين السيد « فرانتا نوفاك » ... لقد كتب السيد « نوفاك » رسالة الى السيد « كورت » وقد ذهب الى « براجا » أسابيع قليلة ، وقال له في تلك الرسالة : « متى تعود الينا ثانية ايها العزيز كورت ؟ اني لأفتقدك كثيراً فلا أجدك ... » . ومضى في رسالته على هذا النمط ، فملأ صفحتين . على أني أعلم أن رأي السيد « نوفاك » في السيد « كورت » ، رأي مخالف لما جاء في تلك الرسالة ... وبما انه ليس من وظيفة مصلحة البريد أن تشجع الكذب ، أو تعمل على نشره في الناس ، فقد كتبت حاشية ذيلت بها رسالة السيد « نوفاك » ، مقلداً خطه بطبيعة الحال ، قلت فيها : « ... اني لم أقصد بما كتبت اليك إلاّ السخرية منك ، فاذا أردت أن تعرف ما هو رأيي فيك حقاً ، فما عليّ من حرج إذا قلت لك بكل صراحة : إنك سكير عربيد وغد نذل ، خنزير كبير ... » ... ثم بعثت بالرسالة ، وكانت النتيجة أن السيد « كورت » ، قابل السيد « نوفاك » بعد عودته من براجا ، وحياه بلكمة على فكه .

قال المتهم هذا مستغرقاً في الضحك .

فصاح به رئيس المحكمة — أحسن من سلوكك وقوّم من تصرفك ! ولا تنسَ إنك متهم أيضاً بسرقة أشياء أخرى أرسلت بالبريد ...

قال المتهم اني أعلم حقيقة ما تشير اليه ، ولكن هذه ليست سرقة ، أما ما حدث بالضبط فكان هذا : « ذات يوم تسلمنا رسالة من باريس ، عليها هذا العنوان (السيد

الكونت « مونت كريستو » الثاني ، يحفظ بشباك البريد) . فلما قرأت هذا العنوان أخذتُ بغرابته فاشتبهت فيه ، ففضضت الرسالة ، ووجدت بداخلها ثلاث صور ... أتعلم ما هي ؟ إنها ثلاث صور بذيئة وضيعة سافلة ... ولم تكن بالصور التي ربما قد يذهب إليها خيالك . ولكنها قبضت نفسي ، على أية حال ، وجعلتني أشمئز من منظرها ، ومن السيد الذي كانت مرسلة إليه. ولكي أعلن عن اشمئزازي لهذا السيد ، ألقيت بالصور القذرة الثلاث في الموقد ووضعت بدلاً منها ورقاً أخذته من المرحاض ، حتى أؤكد لهذا السيد تقززي من الصور المرسلة إليه ... ولكن . . هل تستطيع أن تتصور أو تتخيل من ذا الذي جاء في اليوم التالي لاستلام تلك الرسالة وما تحوي من صور ؟ لا أظنك تصدّق هذا ... ولكنها الحقيقة ... فالذي جاء لم يكن غير السيد « كارل دوستالك » ، عمدة هذه البلدة بنفسه . . . هذا الرجل الذي يحترمه كل انسان ، وهو والد ستة أبناء . . ! »

وعندما انتهى المتهم من هذا الكلام انفجر الجمهور المتفرج ضاحكاً . . . وكان « دوستالك »، عمدة البلدة ، رجلا بديناً، قوي البنية ذا لحية كبيرة بيضاء ورأسٍ أصلع ، ... فلما سمع هذا الكلام ، وقف ساكناً ، ومسح أنفه بمنديل كثير الألوان ، وخرج من قاعة الجلسة يدلف صامتاً من غير أن ينبس بكلمة واحدة ...

وصاح رئيس المحكمة — إني أمنعك من افشاء أسرار البريد، وإلاَّ رفعت الجلسة...

وعندئذٍ مال عضو اليمين على رئيس المحكمة يهمس في أذنه . وكاد الرئيس يجيبه لولا أن فأجاه المتهم قائلاً : « ... لا تلق بالاً الى ما يقول مستشارك ياسيدي الرئيس ، إنه غير أهل لصداقتك ... »

وصاح الرئيس بالمتهم — أمسك لسانك ! ... لا تتدخل في شئون لا تعنيك

المتهم — حسن . . . هذه أمور لا تعنيني حقّاً ... ولكنك تخطىء إذ تعامل مستشارك معاملة الأكفاء ، فهل تعلم ماذا قال عنك في إحدى رسائله ؟ ... »

وأخرج المتهم ورقة كبيرة ومضى يقرأ « ... إني لم أرَ في حياتي ، رجلاً أكثر غفلة من رئيس محكمتنا ... »

ولم يستطع رئيس المحكمة أن يسمع بقية رأي مستشاره فيه ، فرفع الجلسة ، وخرج مندفعاً من القاعة غاضباً ، يتبعه عضو اليمين صائحاً إنه سيوضّح له كل شيء ، ولكن الرئيس رفض أن يصغي اليه ... وجلس المتهم ، ووقف خلفه أحد ضباط البوليس .

والتفت المتهم الى الضابط وقال : لست أفهم لماذا يكذب الناس هذه الأكاذيب الكثيرة ، ويظهرون غير ما يبطنون ... لو أنهم لم يقولوا غير الواقع ، لأصبحت الدنيا أجمل بكثير مما هي ، ولعشنا فيها سعداء !



من أنواع النبات

الطبي

لمحمود مصطفى الدمياطي بك

﴿ الأَبْهَل ﴾ والعامة تقول الأُبهُل بالضم شجر من الفصيلة الصنوبرية منبته في وسط أوربا وأجزاء من آسيا ويزرع في بريطانيا اسمه النباتي Juniperus Sabina, L. وبالانجليزية Savin وبالفرنسية Sabine تشتمل فروعه الصغار وأوراقه وثماره على دُهن منصعِّد فعّال يتداوى به مدرًّا للطمث وطارداً للدود .

﴿ أزرارُ الغاسول ﴾ ويقال « غاسولُ أزرار » هو عشب ينبت بطبيعته في مصر ويعرف « بالغاسول » من الفصيلة المسمبريانثيمية اسمه النباتي Mesembryanthemum nodiflorum, L. أي المسمبريانثم العقدي الزهر وبالانكليزية Egyptian Fig Marigold وبالفرنسية Ficoïde Nodiflore تداووا به في قديم الزمان منظّفاً ومدرًّا للطمث .

﴿ الأَسارُون ﴾ يوناني معرَّب « أسرون » Asaron ويسمى بالناردين البري » نبات من الفصيلة الأرسطولوخية تأقلم في قليل من حرجات شمال انكلترة وفي اسكتلندة اسمه النباتي Asarum europaeum, L. وبالانكليزية Asarabacca وبالفرنسية Cabaret تسحق أوراقه وجذره وتستعمل عقاراً مقيئاً ومسهلاً ومدرًّا للبول وإذا استعمل المسحوق سعوطاً (نشوقاً) أحدث افرازاً غزيراً من المنخرين .

﴿ الأسرَاس ﴾ ويقال « الرسراس » نبات يعرف « بالبرواق » في مفردات ابن البيطار من الفصيلة الزنبقية ويزرع في الحدائق الانكليزية اسمه النباتي Asphodelus ramosus, L. وبالانكليزية Tall or Branched Asphodel وبالفرنسية Bâton Royal تستعمل أرومته ضمن عقاقير أخر في مداواة الجرب فقد يصنع منها مروخ بالخل للجلد في حالة القُوْباء والجرَب

﴿ الإسفَند ﴾ هو « الحَرْمَل » نبات شديد الرائحة من الفصيلة السذابية ينبت بطبيعته في مصر والعامة تسميه غلقة الذئب » و « الخرجويل » و « الحرملان » اسمه النباتي Peganum Harmala, L. وبالانكليزية Syrian Rue وبالفرنسية Harmale وهو ينبت بطبيعته أيضاً في أسبانيا وهنغاريا وشمال أفريقية وبلاد العرب وكشمير وجبال هيمالايا

وغيرها. تستعمل بزوره في تركيا طاردة للدود وتابلاً وكذلك للصبغ باللون الأحمر . والأطباء الوطنيون من الهنود يعطون البزور منوماً ونقيع الأوراق في النقرس (وجع المفاصل) وغيره . ويخلطون مسحوق الجذر بدهن الخردل لإبادة الهوام في الشعر . وفي محيط المحيط « قيل حبُّه يخرج السوداء والبلغم اسهالاً ويصفي الدم وينوِّم حتى عدَّه الشيخ الرئيس من السكرات وينفع من داء المفاصل وعرق النَّسَا »

﴿ الأصْفَر ﴾ إختصار « الإهْلِيْلج الأصْفَر » ويقال هَلِيْلج » بلا همزة معرَّب « هَلِيْلَه » بالفارسيَّة . ثمر شجر من الفصيلة الكومبريتية ينبت في جزائر الهند الشرقية والملايو اسمه النباتي Terminalia citrina, rosch وبالانكليزية Hara Nut وبالفرنسية Myrobalan Citrin وهذا الشجر يستعمل في الدباغة والصباغة وإذا أخذ ثمره يابساً أحدث اسهالاً خفيفاً .

﴿ الأمْبَرْبَارِيْس ﴾ يوناني معرَّب ويقال « الأنْبَرْبَارِيْس » و « البَرْبَارِيْس » وبالفارسيَّة « الزرشك » شجيرة ذات شوك من الفصيلة البَرْبَرِيسيَّة تنبت برِّيًّا في أوربا وتزرع أيضاً في الحدائق والسياج للتزيين وبالأخص عندما تكسوها وفرة من الأزهار الصفر أو الثمار الحمر اسمها النباتي Berberis vulgaris, L. وبالانكليزية Barberry وبالفرنسية Epine—vinette . والثمار رطيبة حامضة لاشتمالها على الحامض الأوكساليك ولذلك يرغب فيها بايطاليا وغيرها لعمل الربيَّات . وجذرها المغليّ في ماء القلي واللحاء الداخلي من ساقها ينتجان صِبْغاً أصفر فاخراً ويستعملان دواءً قابضاً .

﴿ الإيكر » فارسيّ معرَّب ويقال له باليونانية « أقارون » akaron وهو « الوَجُّ » و « قَصَب الذريرة » في مفردات ابن البيطار نبات كالبَرْدِيّ من الفصيلة القلقاسية ينبت في المنطقة الشمالية المعتدلة اسمه النباتي Acorus Calamus, L. وبالانكليزية Sweet Flag وبالفرنسية Acore Odorant; Roseau Odorant أرومته عطرية تدخل في صنع مسحوق الشعر وفي الطيوب الأخر وبائعو الحلويَّات يصنعون منها قَنْداً وتدخل في صناعة الشراب المعروف « بالجِنّ » وفي الجعة (البيرة) . واذا سحق النبات بأكمله فاحت منه رائحة طيِّبة وهو ضرب من الأدوية .

وقد يطلق الايكر أحياناً على أصل نبات آخر من جنس السَّوْسَن من الفصيلة السوسنية ينبت في أوربا وشمال آسيا اسمه النباتي Iris Pseudacorus, L. وبالانكليزية Yellow Iris وبالفرنسية Iris'des Marais تستعمل بزوره المحمصة عوضاً عن القهوة وهي مدرَّة للبول ومسهلة ومقيئة.

باب المراسلة والمناظرة

لبنان ومصر (1)

النص الرسمي للخطاب الذي ألقاه صاحب العزة الدكتور طه حسين بك في الحفلة التكريمية التي أقامها له معالي نائب رئيس مجلس الوزراء وزير التربية الوطنية الأستاذ حبيب أبو شهلا .

سيدي صاحب الدولة الرئيس ، سيدي صاحب المعالي الوزير ، سادتي :

يقول المثل العربي القديم : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه . ولم أشعر قط بصدق هذا المثل كما أشعر به الآن . فقد كنت أعلل نفسي سعيداً بأن أهل هذه البلاد الكريمة يحسنون الظن بي ويضيفون إليّ شيئاً من فضل، لأنهم يسمعون بي أكثر مما يرونني . ثم أراد فضلكم العظيم أن تستقبلوني وتحتفوا بي هذه الليلة وتفضل معالي وزير التربية والتعليم فأهدى إليّ هذا الثناء الجميل الذي سمعتموه وهأنا ذا أنهض لأؤدي بعض ما يستوجب هذا الفضل من الشكر، فاذا أنا مقصر لاأقدر على شيء، ومفحم لا أجد ما أقول، ومصدر هذا العي أمران : أولهما أني أعجز الناس عن الشكر حين تهدى إليَّ النعمة ،ويسدى إليَّ الجميل، لأني أرى كل ما يقدم إليّ من فضل أعظم مما استحق وأجل من أن ينهض به الشكر . فأنا في رأي نفسي أقل جدًّا مما يظن الذين يتفضلون عليّ بالثناء . وثقوا بأني لا أقول هذا تواضعاً ولا تكلفاً للتواضع ، وإنما هو رأيي في نفسي وفي كل ما يصدر عني من قول وعمل . وأقسم ما أتيت شيئاً من الأمر وما قلت شيئاً وما كتبت شيئاً إلاّ وهو في نفسي أقل مما كنت أريد وأهون جدًّا مما يرى الناس فيّ ومما يتفضلون به عليّ من ثناء . الأمر الثاني:أني لا أرى نفسي إلاّ فرداً من الأفراد ، وعمل الأفراد مهما يكن أهون من أن يحفل به أو يؤبه له . لذلك أعتقد أن ما تتفضلون به عليّ الليلة من احتفاء إنما هو موجهٌ إلى مصر . ومن حق لبنان أن يكون بمصر حفيـًّا ، ومن حق مصر أن تحتفي بلبنان ، فان الأمر بينهما على ما فيه من رفع الكلفة خليقٌ بالاكبار حقـاً . فهذان الوطنان الكريمان قد تعاونا دائماً على الخير ، وتظاهرا دائماً

---

(1) للدكتور طه حسين بك قالها في حفلة تكريمه في لبنان

على تحقيق المنفعة الانسانية الكبرى ، وأؤكد لكم ان التعاون الخصب بين مصر ولبنان أقدم عهداً وأبعد مدى مما يظن المتعجلون في الحكم .

فنحن لا نكاد نرى وطنينا في فجر التاريخ القديم إلاّ متعاونين على الخير متظاهرين على نشر الحضارة والثقافة . ولقد كانت ممفيس والاسكندرية يعملان على نشر الحضارة والثقافة والمعرفة متعاونتين على ذلك مع صور وصيدا كما تتعاون القاهرة الآن مع بيروت على نفس هذا الغرض النبيل . فالود بين مصر ولبنان قديم، والتعاون بين مصر ولبنان بعيد المدى، عظيم الخطر، لا يقتصر نفعه عليهما وحده . بل يتجاوزهما إلى جميع الأوطان التي تحب الحضارة وتريد أن تنتفع بها . وما دام الأمر قد جرى على هذا النحو في الماضي فمن الطبيعي أن يجري عليه إلى أبعد آماد المستقبل ، فانه قانون طبيعي من قوانين الجوار بين هذين الوطنين الكريمين . فلا غرابة اذاً في أن يتبادلا الثناء، ويتهاديا المعروف، ويقدرا كل منهما لصاحبه نصيبه في تحقيق المنفعة الانسانية العليا .

وقد تفضل حضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم فأثنى على ما لي من مشاركة في الهدف ومن حظ في الانتاج الثقافي والأدبي . فاسمحوا لي أن أعيد عليكم حقيقة من الحقائق الأولية في تاريخ الأدب العربي الحديث، ولكني أرى أن تكرارها واجب لأنه أداء للحق واعتراف بالفضل لاصحابه ، وهي أن الأدب الحديث في مصر وفي الشرق العربي كله مدين بنهضته لعلمائكم وأدبائكم الذين سبقوا في القرن الماضي إلى العناية بدرس الأدب العربي القديم واحيائه كما سبقوا الى توثيق الصلة بين العقل العربي الشرقي والعقل الأوربي الغربي. وأنا رجل أنفقت حياتي في التعليم وتعوّدت ألاّ أرسل الأحكام عفواً دون أن أقيم عليها الأدلة . وما أحب أن القي عليكم الآن محاضرة في تاريخ الأدب العربي الحديث فانما يكفي أن أذكر بعض الأسماء فذكرها يغني عن كل دليل . يكفي أن أذكر اليازجي والبستاني وصرّوف وزيدان وأن أذكر الضياء ودائرة المعارف وترجمة الالياذة والمقتطف والهلال . فهذه الأسماء كلها واضحة الدلالة على ما قلت من أن علماءكم وأدباءكم سبقوا الى احياء الأدب العربي وتحقيق الصلة بينه وبين الآداب الأوربية الكبرى . فمن زعم لكم من أدباء الشرق العربي المعاصرين انه ليس مدين للبنان بشيء من أدبه ، فهو منكر للحق كافر للنعمة جاحد للجميل

سادتي : ان كثيراً من الناس يزورون بلادكم الجميلة في فصل الصيف ويلتمسون فيها الراحة والاستمتاع بجمال الطبيعة ، وأنا أشاركهم في هذا ، ولكن أخص نفسي بمتعة لا يكاد يشاركني فيها أحد . فأنا لا استمتع في بلادكم بطبيعتها الرائعة ونسيمها العذب وثمراتها المختلفة المتشابهة فحسب ، وانما استمتع فيها بأدب رائع غض فيه لذة للنفس وحياة للقلب

وتغذية للعقل . واذا كان الجيل المعاصر قد أعرض عن سنة الجيل الماضي في احياء الأدب القديم والتعمق في دراسته ، فانّ له من الأدب الرفيع حظًّا عظيماً سواء في ذلك الشعر والنثر . ثم انا لا استمتع بأدبكم الذي يتخذ اللغة الفصحى أداة للتعبير فحسب ، وانما استمتع بأدبكم الشعبي الرائع الدقيق النفاذ .

فاذا أثنيتم عليّ بأن لي حظًّا من أدب ، فانما تثنون على أنفسكم ، لأني مدين لكم بهذا الادب . وكم كنت أريد أن أؤدي اليكم بعض ما لكم من حق ، وأن أشكر لحضرة صاحب الفخامة رئيس الجمهورية فضله العظيم ، ولحضرة صاحب الدولة رئيس الوزراء عطفه الكريم ، ولحضرة صاحب المعالي وزير التربية والتعليم كرمه الجم وثناءه العذب وجميله الذي طوقني به تطويقاً معنويًّا قبل أن يطوّق عنقي به تطويقاً ماديًّا كما ترون ، وللبنان كله هذه الأيام السعيدة التي أقضيها فيه ، ولكني كما ترون عاجز عن أن أبلغ ما أريد . وأنا مع ذلك معروف بطول اللسان ، ولكن ربّ نعمة قصرت أشد الألسنة طولاً ، والواقع أن نعمكم قد أفحمتني فليتولّ الله شكركم عني فانه على ذلك قدير .

حول كتاب محمد عبده

للدكتور عثمان أمين

حضرة رئيس تحرير المقتطف

قرأت في باب مكتبة « المقتطف » (ص ١٨٥ عدد فبراير سنة ١٩٤٥) ما تفضلتم فخصصتم به كتابي عن « محمد عبده » الذي ظهر في مجموعة أعلام الإسلام منذ شهور .

وإني مع وافر شكري لجميل عنايتكم بالكتاب وحسن ظنكم بمؤلفه ، أرجو أن تسمحوا لي بكلمة موجزة ردًّا على بعض الملاحظات التي أوردتموها في آخر المقال .

لاحظتم أنني لم أتعرض في كتابي للكلام عن صلة محمد عبده بالحركة العلمية التي ظهرت في الغرب وفي الشرق بقيام مذهب التطور والنشوء . وهذا حق ، فإنني أغفلت الكلام عن هذه المسائل وأشباهها في مذهب محمد عبده ، لانني إنما أردت أن يكون كتابي في « أعلام الإسلام » تجلية لسيرة الأستاذ الإمام . أما الخوض في فلسفة محمد عبده وآرائه الدينية والاجتماعية ، فقد جعلت له مؤلفاً آخر مستفيضاً ، كتبته بالفرنسية منذ سنوات في « آراء محمد عبده الفلسفية والدينية » وهو البحث الذي قدمته إلى جامعة السربون لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة ، وتقوم الآن بطبعه وزارة المعارف .

وقلتم حضرتكم ، في معرض الكلام عن موقف الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الافغاني من أنصار مذهب « التطور » إن « الخطوة التي خطاها السيد والشيخ كانت خطوة علمية ولكن إلى الوراء ... والحق إن الكلام في ذلك كان خارجاً عن مجالها ، فلم يصيبا فيه ولم يوفقا في نقودها التي وجهاها إلى المذهب الذي قلب نواحي الفكر في القرن التاسع عشر » .

وملاحظتي على هذا القول أنه إن صحّ إلى حدٍّ ما بالقياس إلى السيد جمال الدين ، فليس يصح مطلقاً بالقياس إلى الشيخ محمد عبده : فإن الاستاذ الامام كان موفقاً بحقيقة التطور ، مناصراً له على نحو لم يسبق اليه . وأكثر من هذا أنه أراد ان يطبق معاني ذلك المذهب ، ولكن في صورة روحية ، على العقائد الاسلامية ، وأن يجعل له في تفسير القرآن نفسه مكانة ظاهرة ، وهذا ما أخذه عليه بعض المحافظين مِنَ الأزهريين . بل إن للشيخ نظرية طريفة في فلسفة التاريخ الديني ، يتجلى فيها هـذا الاتجاه بوضوح ، وقد نتناولها بالعرض والنقد في فرصة أخرى . وهذا وكثير غيره قد بسطته في بحثي الفرنسي الذي أشرت إليه ، وستظهر ترجمة له عن قريب .

بقي أنكم استدركتم على لفظ « اللاهوتي » الذي استعملتهُ وصفاً للاستاذ الامام باعتباره صاحب مذهب في الدين . وقد آثرتم حضرتكم أن يترك هـذا الاستعمال للكلام في اللاهوت المسيحي ، وذهبتم إلى أنه « لا يوجد لاهوتية في الاسلام ، ولا يوجد لاهوتيون عند المسلمين » .

ولكني أعرف أن الدين شيء واللاهوت شيء آخر ، وأن الدين يسبق اللاهوت : ذلك أن الانفعال الديني وإدراك الأمور الالهية بالحدْس الغامض ، عملان سابقان على عمل الفكر الذي يروِّي ويتأمل مسائل الدين . فاذا صح أن في المسلمين ، كغيرهم من أهل الأديان ، مَنْ يشعر شعوراً دينيًّا ، ومنهم مَن يفكر في المسائل الدينية تفكيراً عقليًّا ، فلست أرى وجهاً لأن نقصر استعمالنا للاهوت على التفكير في الدين المسيحي .[1]

ولعلكم حسبتم أن اللفظ لم يستعمل في لغتنا العربية كما استعمل في اللغات الأفرنجية . ولكن الواقع أن لدينا نصوصاً كثيرة ورد فيها ، وبخاصة عند المشتغلين بتاريخ الملل والنحل من مؤلفي العرب . يضاف الى ذلك أن لأهل التصوف من المسلمين نظريات معروفة في

---

(١) من غرائب الصدف اني وجدت حضرة الاستاذ نفسه ، في كتاب له ، يصف الشيخ محمد عبده بقوله « كبير لاهوتيي مصر في القرن الماضي » (« ملتقى السبيل » ص ١١٢) .

التفريق بين ما يسمّونه « عالم اللاهوت » و « عالم الناسوت » .. الخ ، ولا يسمح المقام بالخوض فيها . فاذا كان اللفظ مستعملاً في اللغة العربية ، وكان المعنى الذي يؤديه معنىً عامًّا لا يقتصر على دين خاص ولا يختص بملة بعينها ، فلِمَ العدول عنه إلى غيره ؟

ولا يسعني أخيراً إلاّ أن أوجه أصدق التحية والتقدير لأدبكم العالي في النقد ولفنانكم البارعة في العرض والسلام

دكتور عثمان أمين

تتمة لبحث العرب عرفوا أميركة

جاءنا من حضرة الأب أنستاس ماري الكرملي الكلمة الآتية :

زارني الأستاذ محمد عبد الجواد الأصمعي ، من كتبة دار الكتب المصرية في ٢٠/١/١٩٤٥ فذكرت له ان مجلة المقتطف تنشر مقالا في جزء فبراير عنوانه : « عرف العرب أميركة قبل أن يعرفها أبناء الغرب » . فقال : وهل ذكرت في هذا الصدد ما جاء في الجزء الأول من مسالك الابصار ص ٣١ المطبوع بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٤ ؟ قلت لا . وما هذا النص ؟ قال : سأنقله لك نهار غد وأبعث به اليك . وفي اليوم جاءني ودونك نصه :

﴿ تخيل علماء الاسلام لوجود أميركة قبل اكتشافها بقرن ونصف ﴾

« وقال شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الاصفهاني امتع الله به .

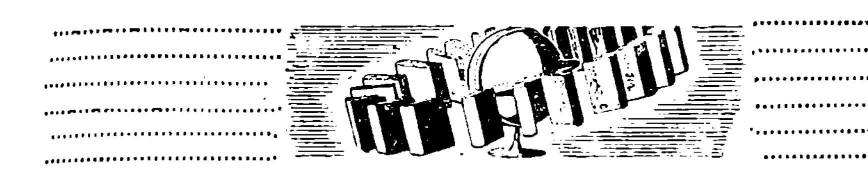
« لا أمنع أن يكون ما انكشف عنه الماء من الأرض من جهتنا ، منكشفاً من الجهة الأخرى . وإذا لم أمنع أن يكون منكشفاً من تلك الجهة ، لا أمنع أن يكون به من الحيوان والنبات والمعادن مثل ما عندنا ، أو من أنواع وأجناس أخرى[1] والذي ظهر لنا من ذلك عقلاً ونقلاً ذكرناه . وبالله التوفيق .

هذا ما ورد في الجزء الأول من مسالك الابصار وتعليق المرحوم شيخ العروبة زكي باشا على هامش ما أورده . فأرجو إحقاقاً للحق وخدمةً للتاريخ الاشارة إلى هذا . وتفضلوا بقبول وافر الاحترام .

محمد عبد الجواد الأصمعي
بدار الكتب المصرية

---

(١) للاصفهاني (وهو بمصر) فضل السبق على كرستوف كولومب (وهو بالاندلس) لانه قال بهذه النظرية بقرن ونصف قرن . وللاصفهاني فضل أكبر على مكتشف أميركا ، لانه تخيل وجودها بقوة الفطنة والاستدلال . وأما كولومب فتخيل فقط وجود طريق جديد يوصل للهند من جهة الغرب . توفي أبو الثناء في سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨) م وأما كولومب فقد اجتهد في اقناع فرديننند وايزابلا صاحبي الاندلس بصدق نظريته في سنة ١٤٩٢ ميلادية (الموافقة لسنة ٨٩٨ هـ)





خمسة كتب للاستاذ اسعاف النشاشيبي بك

١ — قلب عربي وعقل أوربي

خطبة ألقيت في دار الجمعية الاميركية في بيروت سنة ١٩٢٤ ، وكأني بالاستاذ الكبير قد تنبأ في هذه الخطبة بما سيحدث في العالم العربي من الأحداث الجسام بعد عشرين سنة . فقد رأينا كيف يعمل العرب على اقامة جامعتهم العظمى بقلوب عربية وعقول أوربية ، فاجتمع للعرب بذلك مجد العمل على نشر ما اندثر من قوام العرب والعروبة ، مسايرين في ذلك مقتضيات المدنية الأوربية الحديثة . ولعمري إن في هذا لحياة كم تمناها العرب وكم حلموا بها منذ أجيال ، فاذا حققت اليوم فان تحقيقها إنما يرجع الى القلوب التي حنت عليها والعقول التي فكرت فيها ، وأستاذنا النشاشيبي بقلبه العربي الكبير وعقله الأوربي الناضج أحد الذين مهدوا بأرواحهم الكبيرة سبيل هذه الجامعة .

وقد رمى في خطبته هذه الى الاستمساك بأهداب المدنية الأوربية والعكوف على درسها واستيعاب روحها العليا — فانها على حد قوله — الملجأ الذي يحمينا عفاريتها والقوة التي تبعد عنا شرهم وضرهم وتجلب علينا خيرهم قال :

« فالعربي الذي يكرّه الينا هذه المدنية ويثلب علمها ونظامها وفنها ويسخر من روادها، لا يروم أن نحيا في هذا الوجود أو أن نسود ، بل يريد أن نبيد ، أو أن نعود في الناس مثل العبيد . وهذا عدو ، وما تمنى عدو لعدوه خيراً . والعدو تحرز منه وإن نصح فني نصحه ريق الحية . أو صديق ضال. جهل الحال فقال . واذا حمق صديقك ، أو ضيع عقله ، فتصدق به على ابليس »

٢ — مقام ابراهيم

خطبة القيت في حفلة التأبين الكبرى التي أقامها رجال الكتلة الوطنية في الشام لفقيد العرب البطل المجاهد ابراهيم هنانو ، وهو قائد الثورة السورية في أعقاب الحرب العظمى ، فلما هدمت قنابل الفرنسيين أنحاء من دمشق خرج ابراهيم الى البادية ومعه أبطال من العرب شنوا عليهم الحرب ، ثم نزل فلسطين بوعد من الانجليز ، انه آمن فيها ، ثم سُلّم برغم ذلك الى السلطات الفرنسية ، فقتل ومات بطلاً جديراً بما في دمه من نخوة اجداده الأولين.

وهذه الخطبة مرثية تفيض ايماناً وقوة ووطنية جديرة بأن تصدر من قلم رجل يعد في عصرنا هذا من طراخنة الأدب المقدمين .

***

٣ — العربية وشاعرها الأكبر احمد شوقي — اللغة العربية والاستاذ الريحاني — العربية في المدرسة

ثلاثة موضوعات تناولها هذا الكتاب الفذ وغرضها هدف واحد ، هو أن اللغة العربية لغة مدنية لا لغة بدوية . والمعنى المرموق من هذا ان اللغة العربية فيها القدرة على خدمة المعارف والعلوم والفن والحكمة ، وانها قادرة كل القدرة على مسايرة المدنية الحديثة كما سايرت المدنية التي سبقتها ، وانها كما استطاعت أن تنقل كنوز اليونان والرومان ووسع صدرها أعظم نتاج أخرجه الفكر الانساني في المدنيات القديمة ، كذلك هي تسع نتاج الفكر الحديث . وفي الواقع أن هذا القول صحيح من جميع الوجوه ، وان الذين يذهبون غير هذا المذهب ، إنما هم بعيدون عن العربية وعن أسرارها المغيبة في بطون الكتب . وقد ضرب الاستاذ على ذلك الأمثال وساق من الأقوال ما يقنعك بأن لغة العرب أوسع اللغات ، جميعاً وأعمرها بالمفردات والأساليب .

***

٤ — البطل الخالد صلاح الدين والشاعر الخالد احمد شوقي

هذا الكتاب صرخة داوية خرجت من أعماق قلب يؤمن بالاسلام والعرب . ففي بحثه الأول في صلاح الدين الأيوبي يريك كيف انتصر العرب المسلمون على أهل الحروب الصليبية في وقعة حطين ، وهي الوقعة التي قضى فيها جيش الشرق على جيش الغرب . وفي بحثه الثاني قرن شاعرنا شوقي بالشاعر الخالد العظيم أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي ، وأظهر بأدبه الجم وسعة علمه ، ان الشاعر شوقي هو سيد شعراء العصر غير منازع ، وساق الكلام في بحثيه

سوق العارف المطلع ، فأبرز فيها صوراً لو ترجمتها ريشة الفنان في لوحات لخرجت فنّـا رائعاً يهزّ نفسك ويبعث فيك روح العرب والعروبة ، روح الحرية التي دان بهـا العرب منذ أقدم عصورهم ، تلك الحرية التي كانت قبل الاسلام وبعده ، وقبل النصرانية وبعدها ، وقبل الموسوية وبعدها ، طابع العرب الخالد ، وستظل طابعهم إلى آخر الدهور .

***

٥ — البُستان : كتاب الاستظهار للمدارس الأولية والابتدائية

هذا الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي عُني أصحابها بتهذيب الطلاّب الناشئين . وهو نسيج وحده لأنه من صميم أدب العرب المأثور ، ومن كلام فصحاء العرب شعراء وناثرين ، وهو بنسجه هذا خير ديوان يدخل أدب العرب في نفس الناشيء غير محصّ انه من مأثورات الأدب القديم ، ويطبع ألسنتهم بأسلوب قويم صحيح العبارة مختار اللفظ . وحسبنا أن نقول فيه أنه من اختيار أديب العرب ، من أدب العرب ، لأبناء العرب .

ولا جرم اننا إذا دعونا المربين إلى الانتفاع بهـذا الكتاب الثمين ، الذي يصح أن يكون متعة للناشيء والمتأدب معاً ، فانما ندعو واثقين أن خير ما يربّي العربي أدبه ، وخير ما يسوّد العربي روحه . وفي هذا الكتاب من أدب العرب وروح العرب ، ما يكفل الناشيء تربية عربية صحيحة .

التعليم الريفي والزراعي في تركيا الحديثة

بقلم حسن احمد السلمان : مطبعة التفيض الاهلية — بغداد — ٦٠ صفحة من القطع الكبير

وقد تناول فيه الأستاذ مؤلفه ناحية من النواحي التي نجح اخواننا الأتراك في معالجتها نجاحاً مقطوع النظير ، والكتاب من أنفع الكتب التي تنير سبيل نشر التعليم الذي يحتاج اليه أهل الريف مقروناً بمعلومات قيمة في الزراعة المحلية . وهـذا ضرب من الاصلاح يجب أن يصرف فيه من الجهد والمال ما يجدر بأمم الشرق جميعاً أن لا تضن به . وقد عرض فيـه مؤلفه الفاضل الى التعليم الريفي الابتدائي وأتى على قانون التعليم الريفي ومنهـج التعليم وبناء المدارس الريفية ولوازمها وأثاثها والامتحانات والتفتيش على المدارس ومميزات التعليم الريفي ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الكلام في معاهد اعداد معلمي الأرياف ثم إلى الكلام في التعليم الزراعي المتصل بالتعليم الريفي .

وقد حلّى الكتاب بكثير من اللوحات والجداول البيانية التي تتم الفائدة المرجوة منه . والواقع ان هذا الكتاب جديرٌ بأن يطلع عليه كل المشتغلين بنشر التعليم في الشرق العربي .

رابندرانات تاجور : والوحدة الروحية

بقلم محمود المنجوري — ١٠٢ صفحة من القطع الكبير —
طبع مطبعة المقتطف والمقطم سنة ١٩٤٣

الأدب الشرقي فلسفة روحية ، والأدب الغربي فلسفة مادية . وفي أدب طاغور المثل الأعلى لأدب الشرق الروحي . وفي فلسفة نيتشه وأضرابه المثل الأعلى لأدب الغرب المادي. وبين الأدبين ، وان شئت فقل بين الفلسفتين ، ذلك الصدع الذي تلمسه في هدوء النفس الشرقية وتساميها عن الماديات ، وفي ثوران النفس الغربية التي تغلي الآن مراجلها في أكثر قارات الأرض . ولقد أرسل طاغور من قبل نبوءته الكبرى ، نبوءة ان الغرب اذا لم يعد الى فلسفة الروح أكلته المادة ، وسوّت عليه القوة الغاشمة ، وطاحت به مطامع النفوس الغليظة . ولا شك في أن هذه الحرب التي رمى مشعلوها الى استعباد أهل الأرض وتسخيرهم لمطامع المادة ، قد ضربوا المثل وزوّدوا الغرب بالموعظة ، فكانت أول صرخة من الغرب نسمعها إبان الحرب ، إنما هي صرخة الحرية التي هي عنوان الروح ، بل استصرخ الغرب أمم الشرق، ورجع زعماؤه الى مبادىء الانسانية العليا ، يقولون بأنها نصيب الجميع وحق الجميع ، حق القوي وحق الضعيف ، حق الكبير وحق الصغير . لم يقولوا بذلك الاّ لمـا أدركتهم الغاشية ، غاشية الحرب والدمار والموت . بل قل غاشية المادية الخسيسة . لم يسمَع الغرب صوت الشرق ، بل انه لم يسمع صوت طاغور في تبتله إذ يتوجه الى الملأ الأعلى ينشد سلام الروح فيقول :

جُدْ عليَّ بشماع مُنْبجسٍ من كَرَمات غفرانك وأيقظ روحي .

أو وهو يقول :

يا مهيمناً على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها ، وحِّد بين قلوبنا وألهمنا تبادل المحبة .

لا أزيد على هذا شيئاً في التعريف بصفة هذا الكتاب الذي ينبغي أن يكون بين يدي كل انسان ينشد سلام النفس وصفاء الروح . انك إذا قرأت هذا الكتاب فانك لا تقرأ طاغور ، وإنما تقرأ الروح في أسمى معالمها وأزكى نزعاتها . انك لا تقرأ طاغور وانما تقرأ روحك إذ تستيقظ ، ونفسك إذ تنجلي وتشرق .

ولكني أزيد فوق ذلك كلمة في أسلوب الكتاب ، فان كاتبه الفاضل قد استمدّ الاسلوب الذي أداه به من إشراقة روحية ، فاض عليه بها الشاعر الالهي طاغور .

عطر ودخان

تأليف الكاتب القصصي المعروف محمود تيمور ، نشرته لجنة النشر للجامعيين

١٧٦ صفحة من القطع الصغير

مقالات قصيرة فيها الفن والقصة والخيال والوصف والتامل . عالج فيها الاستاذ محمود تيمور كثيراً من نواحي الاجتماع وبرّز التبريز كله في وصف بعض الشخصيات المعروفة من أهل هذا الجيل وإنك إذ تقرأ له ما تناول به هؤلاء ، لا تعرف ، إذا وضعت نفسك موضعه ، كيف تخلص من موقف بعد موقف وهو يتناول هذه الشخصيات ، فلا تحرج نفسك ولا تحرج صاحبك . ولكن الأستاذ تيمور يستطيع بلباقة القصاص الماهر أن يدور بك دورة فلا تلبث أن تجد نفسك أمام تيمور وصاحبه متصافيين متصافحين ، وكأنهما لم يقعا قط على مقدار ما يغضب من مقدار ما يرضي . وهذه مقدرة الفنان القاص الذي يعالج أعقد المواقف بلباقة العالم الرياضي ، الذي يضع أساس المعادلة الجبرية ، فلا تخرج منها الاّ بالنتيجة التي يبغيها . واني لأعلم علم اليقين أن غير تيمور ، لو تناول شخصية وأراد تحليلها ليصل الى مثل ما يصل اليه ، اذاً لتواثبا ثم فقأ الناقد عين المنقود ، وجدع المنقود أنف الناقد ، وانجلت الموقعة عن ضحيتين ، وقعتا على كل ما يغضب ، ولم يعرفا قط ما يرضي.

ولهذا الكتاب ميزة ما يكتب تيمور من سلاسة العبارة وحلاوة الأسلوب وهدوء الطبع ، وحبذا لو انتحى الاستاذ المؤلف هذا المنحى ، فانه ولا شك يضيف الى أدبه الجم أدباً محبباً شهيّ المأخذ حلو الأداء .

الأخلاق والواجبات

للاستاذ الشيخ عبد القادر المغربي عضو مجمع فؤاد الاول للغة العربية ، ٢٣٠ صفحة من القطع الكبير

كتاب مدرسيّ في تهذيب أخلاق الناشئة الاسلامية يجمع بين حاجة المربيّ والمعلّم ، فيه كلمات جامعة وأقوال في الحِكَم والآداب ، وقد اقتصر فيه مؤلفه الفاضل على اقتباس ما ورد في الكتاب السماوي والحديث النبوي ، اللهم إلاّ ما جاء عرضاً من أقوال الحكماء ، مما يلتحم معناه مع معنى الآية والحديث . والكتاب مفرغ في قالب حسن وأسلوب سهل المأخذ قريب التناول ، وقد عُلّق عليه من الشرح والتفسير ما تستدعيه الحاجة ، ويتطلبه ذهن الطالع .

والكتاب من أثمن كتب التهذيب الخلقي ، وفيه من المثل ما يخاطب النفس والعقل ، وفيه من الحكمة ما يرضي الأديب وطالب الأدب .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

الصمامات الكهربية

الصمامات الكهربية أنابيب مفرغة من الهواء كالتي يحويها المذياع — وهي تساعد على تسهيل النقل بوسائله المعروفة ، على اختلاف أنواعها . وسوف تصير منافعها من عوامل الانقلاب الذي ينتظر حدوثه عقب انتهاء الحرب الحالية ، ومنها أجهزة الرائد اللاسلكي [1] الصغيرة الحجم . وهذه تقوم بمنع اصطدام السيارات بعضها ببعض كما تحذر راكب السيارة من العربات التي تكون قادمة من طريق خفيّ مقاطع لمسيره .

مصابيح لاشارات المرور في السيارات

وستصبح لوحات أجهزة قيادة السيارات المركبة في صدورها ، محتوية على مصابيح كهربية صغيرة ذات ألوان حمر وخضر تقوم للسائق مقام « لافتات » المرور في الطرق العامة . وستكون هذه اللافتات مصحوبة بنغمتين موسيقيتين هما — قف — وسرْ « فلن تبقى حينئذٍ حاجة الى وجوب التفرس في مصابيح الاشارات التي قدامه ليستشرف [2] أضواء المرور واشاراته التي ربما تختلط بلوحات الاعلانات الكهربية الملوَّنة بغازات النيون والأرغون والزئبق . أما في الظلمة فتقوم البصاصات الكهربية التي تركب في السيارة باضاءة مصابيحها من تلقاء ذاتها حينما تجب إضاءتُها . وبذلك يتمكن السائق من تلقي الارشادات الخاصة بسلامة مسيره عن طريق المذياع الذي تجهز به سيارته . وذلك عند دنوه من الموصلات الكهربية اللاسلكية المحلية (إريال) المستكنة في طوار [3] الشارع الذي يسير فيه اذ تحل تلك الموصلات الخفية محل فوانيس اشارات المرور الشنيعة المنظر . أما السياح الذين يجوبون آفاق البلاد فعليهم تحويل زمام سياراتهم صوب الخط الأبيض الذي تضيئه لهم البصاصات الكهربية في طريقهم ، إقتداءً بقادة الطائرات الذين

(١) يرى كاتب هذه السطور أن خير ما يترجم به لفظ radar هو الرائد اللاسلكي (٢) استشرف الشيء رفع بصره لينظر اليه (٣) الطوار — ما كان بحذاء الشيء أو على حده — زتوار

يسترشدون في طيرانهم بالأجهزة الأوتوماتيكية التي توجههم الى أهدافهم . ولا غرو فالعيون الكهربية المنبثة على قوارع الطرق الرئيسية الأمريكية تضطلع الآن من تلقاء نفسها بتقدير سرعة كل سيارة تمرّ بها وتعلنها توًّا للشرطة أو للسائقين أنفسهم ليرعووا عن مجاوزة السرعة المقررة . وذلك باشارات كهربية

الراديو المصور في السيارات

وسيحل يوم عقب الحرب الحالية يستطيع فيه صاحب السيارة طبع جريدة صغيرة الحجم إذ يكون مضطجعاً على مقعد سيارته وذلك بالموجات اللاسلكية

وكذلك يغدو في وسعه وهو بعيد عن العمران رؤية صور الوقائع والحوادث عن طريق الراديو المصور الذي تجهز به سيارته .

الراديو والاجهزة الكهربية في القطرات

وقد أذعنت حديثاً مجالس إدارات شركات سكك حديد الولايات المتحدة الأميركية لضغط أهالي بلادها الخاص باتخاذ الوسائل الفعّالة لمنع حوادث المصادمات المروّعة فأمرت بتركيب الراديو والأجهزة الكهربية في قطراتها ابتغاءَ سلامة ركابها . وكان ذلك نتيجة حادث فظيع ذهقت فيه أرواح كثيرة حينما أوفد رجال الاشارات (الأشرجية) لوقف قطرات سريعة كانت قادمة إلى إحدى المحطات (على خطوط مشغولة) فأخفقوا فوقعت الطامة . ولذلك ركبت في قطرات الشركة تليفونات لاسلكية لتخاطب بها القطرات بعضها بعضاً، كما تخاطب مركز الرياسة المشرفة على تسييرها. وبهذه الوسيلة يستطيع مهندسو القاطرات ومديرو القطرات الاتصال دائماً اتصالاً شخصيًّا وثيقاً بعمال القطرات القريبة منهم جميعاً . وهذا مما تترتب عليه سلامة الركاب ومنع تأخير القطرات ثم ابطال الطريقة العتيقة التي تقضي بإنفاد (الفرملجي) حاملاً فانوسه أو رايته محذراً من الخطر الداهم حيث يقطع ميلاً وأكثر ويستغرق وقتاً ثميناً ربما يعود . ومع أن كل سفينة وطائرة على اتصال دائم بالعالم وذلك بالتليفون والتلغراف اللاسلكيين فان عمال القطرات يصيرون في عزلة تامة عن المسكونة حينما تسير بهم قطراتهم ناهبة الارض نهباً . ومثال ذلك ان الراكب الذي يسافر من محطة نيويورك الى محطة شيكاغو بالقطار السريع الفاخر المسمى (الطيار) يتمتع بوسائل الراحة والرفاهية جميعها بيد انه يحرم في خلال تلك الرحلة ، الاتصال المباشر بآله وصحبه ، كمن يطوي البيد طيًّا على متون الابل . بينما الراكب الذي يحظى بالسفر في أحد القطارين الامريكيين « القرن العشرين » أو « برودواي ليمتد » يستطيع

في أثناء سفره مباشرة أي عمل من أعماله الضرورية مع عماله وعملائه في طول البلاد وعرضها وذلك بوساطة التليفون اللاسلكي المركب في قطاره. ولذلك وجه المخترعون الاميركيون همهم الى اختراع أجهزة كهربية للاشارات التي تحتاج اليها أشغال السكك الحديدية بغية تسهيل القطرات بلا أدنى تأخير، على عكس ما هو جارٍ الآن

التليفون اللاسلكي في قطرات البضائع

ومن التحسينات التي تمت هناك في قطرات البضائع، تركيب أجهزة للتليفون اللاسلكي توصل سائق القاطرة بعربة الفرملجي في القطار. وهي من ثمرات الحرب الحالية التي ستستعمل دائماً عقب انتهائها وذلك في القطرات المدنية.

المذياع في حجر استراحات المحطات

وحتى حجر الاستراحات في محطات سكك حديد المدن الصغيرة الخالية من وسائل الترويح عن النفس. ستجهز بأجهزة الراديو لاذاعة الموسيقى والاخبار التي تخفف عن روّادها سأم طول الانتظار، وستكون تلك الاذاعات مصحوبة بمواعيد قيام السفن وعودتها، وبكل ما يهم الركاب الوقوف عليه في غضون أسفارهم في السكك الحديدية بحيث تتم هذه الأعمال جميعها بأقل النفقات إذ تستعمل فيها أجهزة التلغراف الحالية وأسلاكها دون إحداث اضطراب في عمل التلغراف العادي.

العيون الكهربية في أفنية بضائع المحطات

هذا وستركب أيضاً المصاصات الكهربية على خطوط عربات البضائع الواردة لتقوم من تلقاء نفسها حين دخول القطرات الحاملة البضائع الى المحطة بنقل أرقام كل عربة حين مرورها أمامها ثم تطبعها في سجل المشرف على فناء المحطة ولا سيما في الليالي الحالكة القارسة البرد فيستغنى بها عن العمال المختصين الذين يؤدون أعمالهم حاملين فوانيسهم لتضيء لهم الطريق وتبين أرقام تلك العربات ليقيدوها في السجلات الخاصة بها.

صمام الامن البشري

تعتمد الآلة البخارية العصرية اعتماداً كبيراً على الصمامات الأوتوماتيكية التي تؤدي وظائفها على خير وجه لكي تسير الآلة سيراً صالحاً وفق المرام. والواقع أن أتقن صمام في العالم هو الذي اخترعته الطبيعة فجاء صالحاً للأجسام البشرية كل الصلاحية وذلك منذ

بدء الخليقة حتى الآن وإلى الأبد أي من قبل أن يفكر أي مخترع في اختراع الآلات البخارية أو يحلم أي انسان بالمحركات الغازية وهذا الصمام البشري الذي يكفل سلامة الانسان هو « لسان المزمار أو اللهاة » . ولعلَّ كثيرين من القراء يعرفون وظيفة ذلك العضو إذ هو كامن خلف الفم حيث يمرُّ الهواء ويعترضه الغذاء . ووظيفة اللهاة هي القيام من تلقاء نفسها باغلاق القصبة الهوائية « قصبة الرئة » في كل مرة حينما نبلع الطعام ولو عجزت اللهاة عن الاضطلاع بتلك المهمة لاستطاعت خنقنا كلُّ دقيقة من دقائق طعامنا . فهذا الصمام البشري يؤدي عمله الاوتوماتيكي إذن بغاية الاحكام خير من أي صمام اخترعه الانسان لأية آلة عرفت حتى الآن .

عوض جندي

ألغاز العلم

(تابع المنشور على الصفحة ٢٠٢)

وقد وجد علماء النبات والحيوان ، بعد ده فريز تباينات متعددة في أصناف شتى من النبات والحيوان . ولكن ما شاهده هؤلاء العلماء من التحولات الفجائية قليل لا يكفي لتعليل نشوء أنواع النبات والحيوان التي تعدُّ بالملايين ، خلال القرون المتطاولة

ثم طلع فجأة على العالم منذ نحو ١٥ سنة ، بحث مُلَر وأقرانه في ما للاشعة السينية من تأثير في صبغيات الأحياء وما فيها من عوامل الوراثة . وأن هذا التأثير يسفر عن تحولات فجائية عجيبة في نوعها وعددها ، وانها تورَّث . ومن ثمَّ تقدم بعضهم برأي مؤداه أن الأشعة الكونية أشد نفاذاً عشرات المرات من الأشعة السينية ، فلعلها تؤثر في الأحياء فتحدث تغيراً في تركيب عوامل الوراثة فيها ، وأن تاريخ التطور يشير إلى ان ظهور الأنواع الجديدة سار سيراً بطيئاً بعد ظهور الحياة على سطح الارض . ثم أسرع تطور الاحياء فكثر ظهور الانواع الجديدة قبيل العصر الكمبري (الجولوجي) وفي اثنائه . ثم تلا ذلك دور كان من أظهر مظاهره بطء التطور . ثم تلاه دور آخر أسرع فيه التطور . وهذا يمكن تعليله بأن الاشعة الكونية لا تأتينا من جميع انحاء الفضاء على السواء وان النظام الشمسي – ومنه الارض – كان في سيره السريع خلال الفضاء يخترق آناً منطقة تكثر فيها الاشعة الكونية فتؤثر في الاحياء كتأثير الاشعة السينية فتكثر الانواع الجديدة ويسرع التطور العضوي ثم يخترق منطقة أخرى تكون الاشعة فيها ضعيفة فيبطؤ التطور ويقل ظهور الانواع الجديدة

فالعلماء في فهم التطور أو أحد ركنيه – وهو ركن الصفات الملائمة للبيئة التي تورث – لا يزالون في اول التيه .

هدية المقتطف السنوية

لسنة ١٩٤٥

سبعة كتب في كتاب

قام المقتطف في حياته التي بلغت سبعين سنة ، وإلى جانب مجلداته التي بلغت ستة ومائة مجلد ، بخدمة أدبية لا تقل عن خدماته التي أداها للعالم العربي في حياته الطويلة بمجلداته تلك ، إذ جرى على أن يهدي مشتركيه كتاباً يعوّض به احتجاب المقتطف شهرين في نهاية كل سنة . وإذا استعرضت هدايا المقتطف منذ نشأته إلى اليوم وقعت على مكتبة كاملة في التاريخ الطبيعي والفلك والارتياد والكيمياء والموسيقى والأدب والقصص . وسيضم المقتطف إلى هذه الثروة الأدبية العلمية ثروة جديدة إذ يقدم لمشتركيه عن سنة ١٩٤٥ هدية ممتازة هي الجزء الثاني من كتاب

المنتخبات

بقلم العلامة الكبير احمد لطفي السيد باشا

الذي يضطلع اليوم برياسة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعد أن نشّأ جيلاً برمته عند ما كان رئيساً وموجّهاً لجامعة فؤاد الأول . هذا إلى مآثره الأدبية الأخرى التي يضفي بها على الأدب العربي لباساً جديداً بترجمة ارسطوطاليس ، يضاف اليها فصوله الباقية التي نشرها في « الجريدة » ومنها نستخلص هذه المنتخبات .

والجزء الثاني من هذه المنتخبات سبعة كتب في كتاب : وهذه موضوعاتها :

الكتاب الاول : في التربية والتعليم

التربية والتعليم — حالة التعليم عندنا — الى القائمين بالتربية والتعليم — مذاهب التربية — المذهب العلمي للتربية والتعليم

الكتاب الثاني : الى نواب الامة

الى نواب الأمة — حريتنا — الحرية ومذاهب الحكم — الاحزاب — حقوق الكافة وسلطة التشريع — حرية التعليم — حرية القضاء — حرية الصحافة — حرية الخطابة — حرية الاجتماع — مذهب الحرية مفيد للافراد وللامة جميعاً — خاتمة

الكتاب الثالث : مشاهدات عامة

اليأس — الحال الأخلاقية — حالنا الاقتصادية — حالنا السياسية — مشاهدة بسيكولوجية .

الكتاب الرابع : في اللغة العربية

التأليف باللغة العربية — الى الأمام : في اللغة أيضاً — اللغة العربية — رقوا لغتكم.

الكتاب الخامس : البنات والابناء

أبناؤنا وبناتنا — بناتنا وأبناؤنا — البنون والبنات — الى الفتيان : الوطنية .

الكتاب السادس : في التأمل

القدوة الحسنة — الآثار القديمة — آثار الجمال وجمال الآثار — ربيع الحياة — جني القطن — أول العام — الرجل السعيد — الرجل الصريح — زهر الربيع — الصداقة

الكتاب السابع : بحوث عامة

سلطة الأمة — في سبيل الارتقاء — الحرية — تضامننا — مصريتنا — المصرية — آمالنا — التقليد — سر تطور الأمم — الحرية الشخصية — خبز السجون — من أجل ذلك نطلب الدستور — حقوق الأمة — الكفاءة الاقتصادية — النظام الاقتصادي — وفاة فتحي زغلول باشا — وداع الوزارة — تأبين أحمد فتحي زغلول باشا — الحرب .

***

هذه سبعة كتب في كتاب تصلك هدية من المقتطف في آخر السنة . وسيتم طبع هذا الكتاب الفذ في حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وترسل الهدية الى الذين سددوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٤٥ والمشتركين الجدد عن سنة كاملة . وثمن الكتاب لغير المشتركين أربعون قرشاً مصريًّا بخلاف البريد .

من بحوث مقتطف ابريل

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السادس بعد المائة

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السادس بعد المائة

١ ابريل سنة ١٩٤٥ — ١٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤

ألغاز العلم

— ٣ —

صلة المادة بالاشعاع

ذهب نيوتن إلى أن الضوء دقائق أو ذرَّات . وذهب هوجنس إلى انهُ تموجات. فراجت سوق الجدال بين العلماء ، واقترح أحدهم أن يؤتى بصندوق أسود من داخله ، فيوزن أولاً ثم تسدَّد اليه شعاعة من الضوء ثم يوزن بعد ذلك . فاذا زاد وزنهُ ثبت ان الضوء ذرَّات وإذا بقي وزنهُ على ما كان عليهِ ثبت أن الضوء تموُّج . جُرّبت التجربة وبقي وزن الصندوق على حاله لأن أدق المقاييس والموازين لا تستطيع أن تزن شعاعة من الضوء ، ولو كان الضوء ذرَّات لها وزن أو ضغط . فرجح مذهب التموّج حينئذٍ وبقي سائداً الى أوائل هذا القرن حين أخذت البحوث تثبت شيئاً فشيئاً ان الضوء ذرّات (أقدار ، كوانتا) وأمواج أو هو لدى التحقيق ذرّات من الطاقة تسير سيراً موجيًّا .

وما حدث للضوءِ حدث للكهيرب . فانَّ العلماء أخذوا ينظرون اليهِ نظرهم إلى كتلة من الأمواج كما يؤخذ من تجارب دافيسون وطمسون ، وكما يستفاد من مباحث ده برولي ومن جرى مجراه ، وهي مباحث رياضية دقيقة أيدتّها التجارب في المعامل .

فقد أخذ دافيسون الاميركي بلورة من النكل وسدَّد إلى صفحتها تياراً من الكهيربات فانحرفت بعض الكهيربات عنها ، ولدى التحقيق وُجد أن هذا الانحراف يحصل في جهات معينة

دون غيرها . وبعد البحث الرياضي الدقيق وجد أنهُ لو كانت الكهيربات أمواجاً مسدَّدة إلى صفحة هذه البلورة ، لانحرفت عنها إلى الجهة التي انحرفت اليها الكهيربات ، دون غيرها .

وأخذ جورج طمسون (نجل ج . ج طمسون مكتشف الكهيرب) أغشية دقيقة شفافة من المعادن آناً ومن السلولويد آناً آخر ، وأنفذ خلالها تياراً من الكهيربات . ولما كانت أكثر المواد بلورية التركيب فقد كان عمل الأستاذ طمسون في الواقع ، إرسال تيار من الكهيربات في غشاء مكوَّنٍ من بلورات متعددة دقيقة ، بدلاً من أن يفعل ما فعله دافيسون من توجيه التيار إلى بلورة واحدة وحسب . وقد وضع طمسون لوحاً للتصوير الضوئي ، وراءَ الغشاء وعلى ١٢ بوصة منهُ ، فكانت الكهيربات تصيبهُ بعد أن تخترق الغشاء ، وكانت البلورات تفرق الكهيربات ، فحين تصيب الكهيربات لوح الضوء ، تترك أثراً فيهِ . فلما أخذ هذا اللوح وحمِّض وثبت وجد أن أثر الكهيربات بيِّن فيه ، وانهُ حلقةٌ أو نقط منتظمة في شكل حلقة . وهذا الانتظام يشبه أثر الأشعة السينية بعد أن تخترق طبقة رقيقة من بلورات الألومنيوم أي أن الكهيربات فعلت كفعل الأشعة السينية .

فالمسألة التي تحيِّر ألباب العلماء هي هذه : هل الضوء أمواج أو ذرَّات ؟ هل الكهيربات أمواجٌ أو ذرَّات ؟ فالضوء الذي نشأنا على حسبانهِ أمواجاً لهُ أحياناً صفات الأمواج . والكهيربات التي اتصفت بصفات الدقائق المادية ثبتت لها خواص وأسندت اليها أفعال تجعلها والأمواج سواءً . وتلخص وجوه الشبه بين المادة والاشعاع في ثلاثة وجوهٍ رئيسية :

أولاً — اذا سقطت الأشعة المختلفة على سطحٍ نشأ من سقوطها عليهِ ضغط كما يحدث في حالة سقوط المادة على سطح . فالاشعاع الساقط على ورقةٍ يضغط سطح الورقة . كما لو كان الشعاع مصنوعاً من المادة . وهذه ظاهرة عرفت في القرن الثامن عشر . وسميت ظاهرة ضغط الضوء ، أو « ضغط الاشعاع » . وهو ضغط قليل جدًّا ، في نطاق العادة ، فضغط أشعة الشمس على ميلٍ مربع من سطح الأرض لا يزيد على ثلاثة أرطال . فأحرِ بهِ ، إذا حاولت تبينهُ على سطح ورقةٍ ، أن لا يكون شيئاً مذكوراً . ولكن الضغط يزداد بازدياد شدَّة الأشعة وقِصر موجتها . ولك — من الناحية النظرية وحسب — أن تسقط إلى الأرض لوحاً قائماً من الحديد ، بتوجيه أشعة قوية اليه ، ولكن حرارة هذه الأشعة تبلغ من الشدة مبلغاً يصهر الحديد قبل سقوطهِ .

ثانياً — ان للأشعة خواص الجسيمات الدقيقة ، فكأنما هي مؤلفة من ذرَّات ضوئية . وقد سميت هذه الذرَّات الضوئية « فوتونات » . وهذه ظاهرة تتجلَّى في ما يقال عن الكهربية

الضوئية التي تستخدم في الأجهزة الكهربية الحديثة ، والتطبيقات الكهربية في الصناعة والحرب مثل العين الكهربية .

ثالثاً — ان المادة لها خواص موجية تشبه خواص الضوء الموجية . وما تتصف به المادة من خواص موجية لم يكن معروفاً قبل سنة ١٩٢٧ ويرجع الفضل في كشفه الى طمسون وريد في انكلترا ودافيسون وجرمر في أميركا . وهو يوحي بأن المادة والاشعاع ناحيتان لشيء واحد ، أو هما يرتدان الى أصل واحد ، او تصل بينهما صلة أساسية واحدة .

وهذا الشيء الواحد هو في نظر الدكتور علي مصطفى مشرفة — السرعة . فلندعه يتحدَّث في دعة العالم عن رأيه : « تقدمت أخيراً ببعض آراء يقصد منها التوفيق بين وجهتي النظر الى كل من المادة والاشعاع . . .

« من المعلوم ان القوانين الكهربائية المغنطيسية تصاغ عادةً في الصيغة التي تنسب الى مكسويل ، وفي هذه القوانين نستعمل عادةً لغتين مختلفتين احداهما للتعبير عن المادة ، والثانية للتعبير عن الاشعاع . فهل من الممكن استخدام قانون أكثر أساسية من قانون مكسويل ، أي أن نوحد بين اللغتين بحيث تنطبق العبارة الواحدة على كل من المادة والاشعاع . هذا هو السؤال الذي وضعته لنفسي وحاولت الاجابة عنه .

« وقد وجدت انه للاجابة عن هذا السؤال يكون من المفيد ان نحوّل المعادلات بحيث تعبر عن وجهة نظر شخصٍ متحرك بسرعة الضوء لكي يمكن مقابلة وجهة نظر هذا الشخص بوجهة نظرنا العادية . واني أخشى ان يكون هذا التحويل الذي هو تحويل عادي جداً من الناحية الرياضية قد استرعى من الانتباه أكثر مما يجب . فمثلاً قارن اوليفر لدج في أحد مؤلفاته بيني وبين دين سويفت واضع كتاب رحلات جاليفر . ولكنني لا أعتقد أن هنالك مسوغاً كبيراً لهذه المقارنة . فان كبلر عندما حول حركات الكواكب السيارة الى ما تظهر عليه إذا نُظِر اليها من وجهة شخص على الشمس ، لم يكن يتطلب منا ان ننتقل الى الشمس نصطلي بسعيرها لكي ننظر الى العالم . وكذلك اذا أمكن تحويل معادلات مكسويل أو غيرها من القوانين ، بنسبتها الى محاور متحركة بسرعة الضوء ، فليس معنى هذا ان علينا ان نكون ملائكة مصنوعين من النور لكي يمكن لنا فهمها . وكذلك قرأت للاستاذ هولدين مؤلفاً أشار فيه الى آرائي هذه في علاقة المادة بالاشعاع فقال انها تنطوي على مبدأ فلسفي جديد ولكنني أفضل أن ينظر اليه نظرة جينز — على انها محاولة للتوحيد بين لغتين مختلفتين ، وقانونين مختلفين أحدهما يصلح للمادة والآخر للاشعاع ، وان نجعل منها لغة واحدة وقانوناً واحداً يصلح لكل من المادة والاشعاع » .

سر الخلية المتكاثرة

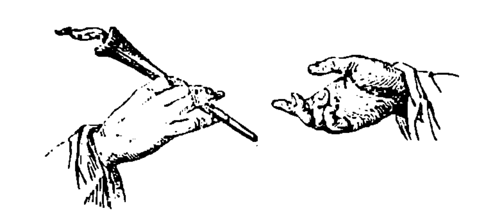
من ألغاز العلم التي تحيّر ألباب الباحثين في الطبّ وطبائع الأحياء ، لغز الخلية ، أو الخلايا ، التي تشذّ في نموّها ، على القيود والضوابط التي تقيد نموّ الخلايا الأخرى وتضبطهُ . وهذا النموّ غيرُ المقيّد يحدث في أجسام البشر وسائر الحيوان والنبات ، فتصاب بعلة أطلق عليها اسم السرطان . وقد دانت طائفة كبيرة من الأمراض التي تصيب الأحياء ، للعقاقير وغيرها من أساليب العلاج ، ولكنّ السرطان لم يزل مستعصياً ، بوجهٍ عام . إن علاجَهُ بالجراحة والأشعة السينية والراديوم ، قد يجدي إذا كان السرطان في بواكيرهِ ، وعلى سطح الجسم أو قريباً من السطح ، ولكن لو عُلِمَ أصل العلة ، وكيف تنحرف الخلية عن طريق النموّ المقيَّد إلى النمو الناشز والتكاثر الذي لاحدَّ لهُ ، لكان علاجها أحكم وأدنى إلى النجاح .

إن سرَّ النموّ في الأحياء ، قائم على انشطار الخلية . فالخلية الواحدة تنشطر خليتين سويتين ، والخليتان تنشطران أربع خلايا سويَّة وهكذا . فمتى بلغ النسيج حدَّهُ السويّ من النموّ ، توقفت الخلايا عن الانشطار ، إلاَّ في الحدود اللازمة ، لتعويض ما يهلك منها فضبط النمو في الخلايا ، على هذا الوجه ، تسيطر عليهِ ، فيما يُظَنّ ، عوامل الوراثة في الخلية ، مشتركةً مع الأتوار (الهرمونات) التي تفرزها الغدد الصمّ . أما كيف تسيطر فهو ما يجهلهُ العلم الآن . وفي الحين بعد الحين تتمرّد إحدى الخلايا على هذه السيطرة ، فتمضي في الانشطار ، إلى أن تتكوَّن كتلة منها غير سوية . وقد تبلغ في تكاثرها حدًّا تقف عنده ولا يعلم أحد لماذا تقف ولا كيف تقف . وقد يقفها عن استمرار النموّ ، العلاج بالأشعة السينية ، أو باشعاع الراديوم . أو قد تمضي لا يعوقها عائق ما إلى أن تقضي على الحياة .

ولما كانت العوامل الوراثية ، تسيطر على الحياة ، فقد سأل العلماء أنفسهم هذا السؤال أيحدث في عوامل الوراثة انحرافٌ عن الطريق السوي يفضي إلى هذا التكاثر غير السوي ولكن معظم خواص عوامل الوراثة ، خواص موروثة ، والعلماء يرون أن خواص الخلايا السرطانية ، أو معظمها على الأقل — ليست خواص موروثة . ولذلك يتجه الرأي بينهم إلى البحث عن سرّ هذه الظاهرة في الأتوار والخمائر (الهرمونات والانزيمات) . فاذا صح نظرهم ، فعسى ان يجدوا للفيتامينات أثراً عظيماً في كلّ هذا . فللفيتامينات شأن كبير في تمثلهُ الجسم من المواد الكيميائية ، وكيف يستعملهُ . وقد يكشفون أنَّ خطأً معيناً في التغذية ، يفضي إلى إبطال النظام الذي يسيطر على نمو الخلايا سيطرةً محكمة .

فؤاد صروف

(البقية في آخر باب الاخبار العلمية)



جامعة الامم العربية

في الساعة الرابعة من مساء ٢٢ من مارس الماضي وقع مندوبو الدول العربيـة المستقلة ميثاق جامعة الدول العربية فأصبحت الجامعة حقيقة مادية واقعة . والمقتطف إذ يحيّي العرب من أعماق قلبه ونفسه ، ويعضي شديد الايمان بما سوف يتمخض عنه هذا الميثاق في المستقبل القريب من خير عميم وعزة قومية ترفع العرب الى ما كان عليـه آباؤهم وأكثر ، يسره أن يثبت نص الميثاق تخليداً لهذه الذكرى التاريخية العظيمة

مادة ١ — تتألف جامعة الدول العربية من الدول العربية المستقلة الموقعة على هذا الميثاق ولـكل دولة عربيـة مستقلة الحق في أن تنضم إلى الجامعـة . فاذا رغبت في الانضمام قدّمت طلباً بذلك يودع لدى الأمانة العامة الدائمة ويعرض على المجلس في أول اجتماع يعقد بعد تقديم الطلب

مادة ٢ — الغرض من الجامعة توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانةً لاستقلالها وسيادتهـا والنظر بصفة عامة في شؤون البلاد العربية ومصالحها .

كذلك من أغراضها تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منهـا وأحوالها في الشؤون الآتية :

(ا) الشؤون الاقتصادية والمالية ويدخل في ذلك التبادل التجاري والجمـارك والعملة وأمور الزراعة والصناعة .

(ب) شؤون المواصلات ويدخل في ذلك السكك الحديدية والطرق والطيران والملاحة والبرق والبريد .

(ج) شؤون الثقافة .

(د) شؤون الجنسية والجوازات والتأشيرات وتنفيذ الأحكام وتسليم المجرمين .

(هـ) الشؤون الاجتماعية .

(و) الشؤون الصحية .

مادة ٣ — يكون للجامعة مجلس يتألف من ممثلي الدول المشتركة في الجامعة ، ويكون لكل منها صوت واحد مهما يكن عدد ممثليها .

وتكون مهمته القيام على تحقيق أغراض الجامعة ومراعاة تنفيذ ما تبرمه الدول المشتركة فيها من اتفاقات في الشؤون المشار اليها في المادة السابقة وفي غيرها .

ويدخل في مهمة المجلس كذلك تقرير وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

مادة ٤ — تؤلف لكل من الشؤون المبينة في المادة الثانية لجنة خاصة تمثل فيها الدول المشتركة في الجامعة وتتولى هذه اللجان وضع قواعد التعاون ومداه وصياغتها في شكل مشروعات اتفاقات تعرض على المجلس للنظر فيها تمهيداً لعرضها على الدول المذكورة .

ويجوز أن يشترك في اللجان المتقدم ذكرها أعضاء يمثلون البلاد العربية الأخرى . ويحدد المجلس الأحوال التي يجوز فيها اشتراك أولئك الممثلين وقواعد التمثيل .

مادة ٥ — لا يجوز الالتجاء الى القوة لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة . فاذا نشب بينها خلاف لا يتعلق باستقلال الدولة أو سيادتها أو سلامة أراضيها ولجأ المتنازعون الى المجلس لفض هذا الخلاف كان قراره عندئذٍ نافذاً وملزماً .

وفي هذه الحالة لا يكون للدول التي وقع بينها الخلاف الاشتراك في مداولات المجلس وقراراته .

ويتوسط المجلس في الخلاف الذي يخشى منه وقوع حرب بين دولة من دول الجامعة وبين أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما .

وتصدر قرارات التحكيم والقرارات الخاصة بالتوسط بأغلبية الآراء .

مادة ٦ — اذا وقع اعتداء من دولة على دولة من أعضاء الجامعة أو خشي وقوعه ، فللدولة المعتدى عليها أو المهددة بالاعتداء عليها أن تطلب دعوة المجلس للانعقاد فوراً .

ويقرر المجلس التدابير اللازمة لدفع هذا الاعتداء ويصدر القرار بالاجماع فاذا كان الاعتداء من احدى دول الجامعة لا يدخل في حساب الاجماع رأي الدولة المعتدية .

واذا وقع الاعتداء بحيث يجعل حكومة الدولة المعتدى عليها عاجزة عن الاتصال بالمجلس فلممثل تلك الدولة فيه أن يطلب انعقاده للغاية المبينة في الفقرة السابقة . واذا تعذر على الممثل الاتصال بمجلس الجامعة حقَّ لأية دولة من أعضائها أن تطلب انعقاده .

مادة ٧ — ما يقرره المجلس بالاجماع يكون ملزماً لجميع الدول المشتركة في الجامعة وما يقرره المجلس بالأكثرية يكون ملزماً لمن يقبله .

وفي الحالتين تنفذ قرارات المجلس في كل دولة وفقاً لنظمها الأساسية .

مادة ٨ — تحترم كل دولة من الدول المشتركة في الجامعة نظام الحكم القائم في دول الجامعة الأخرى وتعتبره حقاً من حقوق تلك الدول وتتعهد بأن لا تقوم بعمل يرمي إلى تغيير ذلك النظام فيها .

مادة ٩ — لدول الجامعة العربية الراغبة فيما بينها في تعاون أوثق وروابط أقوى مما نصّ عليه هذا الميثاق أن تعقد بينها من الاتفاقات ما تشاء لتحقيق هذه الأغراض .

والمعاهدات والاتفاقات التي سبق أن عقدتها أو التي تعقدها فيما بعد دولة من دول الجامعة مع أية دولة أخرى لا تلزم ولا تقيد الأعضاء الآخرين .

مادة ١٠ — تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية ولمجلس الجامعة أن يجتمع في أي مكان آخر يعينه .

مادة ١١ — ينعقد مجلس الجامعة انعقاداً عادياً مرتين في العام في كل من شهري مارس واكتوبر وينعقد بصفة غير عادية كلما دعت الحاجة إلى ذلك بناءً على طلب دولتين من دول الجامعة .

مادة ١٢ — يكون للجامعة أمانة عامة دائمة تتألف من أمين عام وأمناء مساعدين وعدد كافٍ من الموظفين .

ويعين مجلس الجامعة بأكثرية ثلثي دول الجامعة الأمين العام . ويعين الأمين العام بموافقة المجلس الأمناء المساعدين والموظفين الرئيسيين في الجامعة .

ويضع مجلس الجامعة نظاماً داخلياً لأعمال الأمانة العامة وشؤون الموظفين .

ويكون الأمين العام في درجة سفير والأمناء المساعدون في درجة وزراء مفوضين .

ويعين في ملحق لهذا الميثاق أول أمين عام للجامعة

مادة ١٣ — يعد الأمين العام مشروع ميزانية الجامعة ويعرضه على المجلس للموافقة عليه قبل كل سنة مالية .

ويحدد المجلس نصيب كل دولة من دول الجامعة في النفقات ويجوز أن يعيد النظر فيه عند الاقتضاء .

مادة ١٤ — يتمتع أعضاء مجلس الجامعة وأعضاء لجانها وموظفوها الذين ينص عليهم في النظام الداخلي بالامتيازات وبالحصانة الدبلوماسية أثناء قيامهم بعملهم .

وتكون مصونة حرمة المباني التي تشغلها هيئات الجامعة

مادة ١٥ — ينعقد المجلس المرة الأولى بدعوة من رئيس الحكومة المصرية وبعد ذلك بدعوة من الأمين العام .

ويتناوب ممثلو دول الجامعة رياسة المجلس في كل انعقاد عادي .

مادة ١٦ — فيما عدا الأحوال المنصوص عليها في هذا الميثاق يكتفى بأغلبية الآراء لاتخاذ المجلس قرارات نافذة في الشؤون الآتية :

(أ) شؤون الموظفين

(ب) اقرار ميزانية الجامعة .

(ج) وضع نظام داخلي لكل من المجلس واللجان والأمانة العامة .

(د) تقرير فض أدوار الاجتماع .

مادة ١٧ — تودع الدول المشتركة في الجامعة الأمانة العامة نسخاً من جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدتها أو تعقدها مع أية دولة أخرى من دول الجامعة أو غيرها .

مادة ١٨ — اذا رأت إحدى دول الجامعة ان تنسحب منها أبلغت المجلس عزمها على الانسحاب قبل تنفيذه بسنة .

ولمجلس الجامعة ان يعتبر أية دولة لا تقوم بواجبات هذا الميثاق منفصلة عن الجامعة وذلك بقرار يصدره باجماع الدول عدا الدولة المشار اليها .

مادة ١٩ — يجوز بموافقة ثلثي دول الجامعة تعديل هذا الميثاق وعلى الخصوص لجعل الروابط بينها أمتن وأوثق ولانشاء محكمة عدل عربية ولتنظيم صلات الجامعة بالهيئات الدولية التي قد تنشأ في المستقبل لكفالة الأمن والسلام.

ولا يبت في التعديل الا في دور الانعقاد التالي للدور الذي يقدم فيه الطلب .

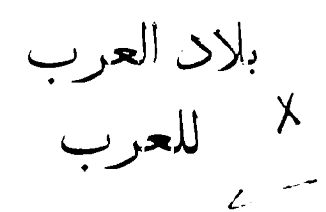
وللدولة التي لا تقبل التعديل ان تنسحب عند تنفيذه دون التقيد بأحكام المادة السابقة .

مادة ٢٠ — يصدق على هذا الميثاق وملاحقه وفقاً للنظم الأساسية المرعية في كل من الدول المتعاقدة .

وتودع وثائق التصديق لدى الأمانة العامة ويصبح الميثاق نافذاً قبل من صدق عليه بعد انقضاء خمسة عشر يوماً من تاريخ استلام الأمين العام وثائق التصديق من أربع دول

حرر هذا الميثاق باللغة العربية في القاهرة بتاريخ ٨ ربيع الثاني سنة ١٣٦٤ (٢٢ مارس سنة ١٩٤٥) من نسخة واحدة تحفظ في الأمانة العامة .

وتسلم صورة منها مطابقة للاصل لكل دولة من دول الجامعة .





« اذا قال أحدنا « الجامعة الاسلامية » فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا « الجامعة العربية » فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة . وكل قول يناقض هذا القول ، خطأ ، وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خبيثة » .

هل آمنّا ؟

لم نؤمن بعد . ولكن أقول أسلمنا . ولمّا يدخل الايمان في قلوبنا .

إذا كان التسليم بضرورة العمل على انهاض بلاد العرب واقامة سالف مجدها الخالد على أساس من المدنية الحديثة ، هو أول خطوة في سبيل الايمان بحقنا الطبيعي في الحياة الحرة المستقلة ، فنحن الآن ولا شك في أول مراقي الايمان بأن بلاد العرب ينبغي أن تكون للعرب وحدهم دون بقية خلق الله . ولن تكون بلاد العرب للعرب حتى نؤمن بأن لبلادنا العربية حقًّا مقدسًا معلقًا في عنق كل عربي وعربية ، حقًّا ننشده أولاً في أنفسنا وفي أخلاقنا وفي عزتنا ، ننظر من خلاله إلى العالم القائم من حولنا نظرة المؤمنين بأننا أبناء أولئك الذين دانت لهم الأرض ، وانها ينبغي أن تدين لنا ، أبناء أولئك الذين أقاموا أسس المدنية الحديثة ، وانها ينبغي أن تكون لنا ، أبناء أولئك الذين فتحوا الدنيا من حدود الصين إلى ضفاف بحر الظلمات ، وان الدنيا ينبغي أن تعترف بوجودنا وتشعر بأن عرب اليوم هم عرب الأمس ، هم ورثة محمد وعمر وأبي بكر وخالد بن الوليد وأمثالهم ممن حطموا أغلال العبودية في الجاهلية والاسلام ، وأقاموا أسس الحرية في عصر لم تعرف فيه الحرية ، واعترفوا بالمساواة بين الناس في عصر لم تعرف فيه إلاّ الفروق بين الأفراد والجماعات ، وشيدوا صرح الاخاء في عصر لم يعرف فيه إلاّ التباغض والتنافر والتدابر . أولئك الذين شرعوا للناس على قاعدة الفطرة لا على قاعدة الذات ، أولئك الذين

أنكروا ذواتهم فاستطاعوا أن يحققوا الانسانية ذاتيتها ، فأعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، علماً وعملاً . أولئك الذين اتسعت نفوسهم لأكبر قسط من التسمح الديني ذكره تاريخ البشر منذ كان للبشر تاريخ ، أولئك الذين قالوا لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى ، وان العبد الزنجي إذا علم ، فضّل على العربي إذا جهل ، أولئك الذين وضعوا أول قواعد السياسة العالمية ، وقضوا على سياسة القوميات ، في عصر لم تشرق فيه شمس الفكر الحر قبل أن يكونوا ، برهة واحدة من الزمان .

***

إذا أراد أبناء العرب أن يتسنّموا هذه القمّة ، ويعيدوا ذلك المجد القديم ، فأول واجب عليهم أن يعتقدوا اعتقاداً جازماً لا ريب فيه ان ذلك إنما يرجع إلى أنفسهم أولاً وقبل كل شيء .

إذا كان المجموع في البلاد العربية في هذا العصر ، ضعيف التماسك محطم الروابط مفكك الصلات ، فلا ينبغي أن تفت هذه الظواهر على خطورتها في عضد الفرد ، وتبعث في نفسه اليأس من إمكان تأليف مجموع قوي مترابط متحد في عصر قريب .

ذلك بأن بناء المجموع ومكانته من القوة والعزّة ، يرجع برمته إلى قوة الأفراد . فاذا نظر كل منا في نفسه أوّل شيء ، وراضها على الخلود إلى الحقائق،وعمل على أن يكون مثلاً أعلى ، لا بالقياس على غيره فقط ولا بالقياس على المجموع الذي هو عضو فيه ، وانما بالقياس على الفضائل العربية التي ورثها العرب عن أسلافهم الاولين ، كان ذلك المصدر وحده ، النبع الاول الذي يزوّد الجماعات العربية في كل دولة من الدول بالقوة المعنوية التي هي في الواقع أجلى مظهر من مظاهر الاتحاد القومي . إذا جرى كل عربي على هذا السنن القويم ، فهنالك يدخل الايمان في قلوبنا ، وتسيطر علينا قوة ذلك الايمان الثابت ، الذي أوحى لأسلافنا بما أوحى .

ينبغي لكل عربي أن يكون في دخيلة نفسه عربيًّا روحاً ونفساً . مثله الأعلى آداب العرب وآداب الاسلام ، وسياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الاسلام . وبأي شيء يوحي ذلك المثل الأعلى ؟ يوحي اليك بأنك إذا لم تكن حرًّا ، فلست بعربي ولست بمسلم . وانك إذا لم تكن مستقلاً ، فلست بعربي ولست بمسلم . وإذا لم تكن صادقاً ، فلست بعربي ولست بمسلم ، وإذا لم يكن رائدك في الحياة الاخلاص لعروبتك والتفاني في خدمتها ، وإذا لم تكن صريح الفكر واللسان ، وإذا لم تعمل على قتل الشرور بلسانك ويدك ، وإذا لم تعتقد

انك إذا سكتّ عن قول الحق والدفاع عنهُ ، فأنت شيطان أخرس ، إذا لم تكن شيئاً من ذلك ، فلست بعربي ولست بمسلم .

وإنما اقترن الكلام في العروبة بالاسلام، لأن الثابت الذي لا لجاج فيه ولاريب يداخله، أن الاسلام لم ينزل بلغة العرب فقط ، وانما نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا . فالعربي النصراني مسلم بصفاته العربية ، والمسلم عربي بما في الاسلام من روح العرب . هذه هي الجامعة التي تربط بين العرب على اختلاف عقائدهم وتباين مشاربهم ، وهي أعراض لا تؤثر في ذلك الجوهر شيئاً . فاذا نسيت هذه الحقيقة أو غفلت عنها ، فلست بعربي ولست بمسلم .

***

تقوم الجامعة العربية ، إذا قدِّر لها في العلم القديم أن تقوم ، لا على الحروف التي تتحرك بها الشفاه ، ولا على الأوراق التي تسوَّد بما تسوَّد به من السُّطور ، ولا بما يوضع من المبادىء التي نلوكها ولا نؤمن بها ، وإنما هي قبل أن تكون أي شيء من ذلك ، روح تجمع العرب جميعاً حول إيمان بشيء واحد ، هو أن بلاد العرب للعرب .

إذا جمعت هذه الروح بين العرب ، فلا شك عندي في أنها تكون كفيلة بأن ترأب تلك الصدوع التي فرَّقت بين العرب في سالف أزمانهم . ولقد تقوى هذه الروح ، إذا نحن نسينا كل الأسباب السفة التي فرَّقت بيننا في الماضي . فليس لمسلم أن يقول هذا نصراني وإن كان عربيًّا بالأصل واللغة والوطن والنشأة، وليس لنصراني أن يقول هذا مسلم وإن كان غير عربي، ما دام قد اكتسب صفات العروبة بالبيئة واللغة والدين . هذه هي روح الاسلام ، التي هي لدى الواقع روح العرب أيضاً . هي روح أثينة ثبتت أصولها الأولى في نفوس أهل الجاهلية وربها الاسلام .

***

أقول مملوءًا ثقة بصحة ما أقول إن الاسلام فكرة جامعة ؛ ومعنى أنه فكرة جامعة أنه دين ودولة . ومهما قيل اليوم بعكس ذلك ، ومهما حاول البعض أن يخرج عن الاسلام هذه الصفة ، ومهما قيدت نظامات الحكم ، فسيظل الاسلام فكرة جامعة تجمع الدين والدولة في فكرة واحدة هي فكرة الدفاع عن المجموع الذي يستظل بظل الاسلام ، مهما تفرقت فيه النحل، واختلفت المذاهب، وتباينت النزعات . فاذا كانت حكومات المسلمين في هذا العصر قد اضطرت مغلوبة إلى مجاراة روح النظام الحديث في المدنية الأوربية، ففصلت بين الدين والدولة، فان هذا الفصل ينبغي أن لا يتعدى إنه فصلٌ في الأوضاع لا في الروح . فكل حكومة من

أوصيك ١ ـ لا تؤجل الى غد ما تستطيع أن تعمل اليوم ٢ ـ لا ترهق أحداً بشيء تستطيع أنت فعله ٣ ـ لا تنفق نقودك قبل أن تحصل عليها ٤ ـ لا تشتر شيئاً أنت في غنى عنه لأنه رخيص ، فقد يكلفك ما لا طاقة لك به ٥ ـ يكلفنا الكبر أكثر مما يكلفنا الجوع والعطش والبرد ٦ ـ لعلنا لم نأسف أبداً على الاقتصاد في الاكل ٧ ـ ما من شيء فعلناه برغبة فيه ثم ندمنا ٨ ـ كم تحملنا من الالم ، توقعاً لشرور لم تحدث ٩ ـ خذ الاشياء من ناحيتها اللينة ١٠ ـ اذا غضبت فعدّ الى العشرة ، أما اذا غضبت جداً ، فعدّ الى المئة.

عن توماس جفرسن

حكومات الاسلام في هذا العصر ، وإن كانت قد قبلت الفكرة في فصل الدين عن الدولة ، وأقامت على ذلك نظاماتها المدنية ، فانها قد نصت مع ذلك في دساتيرها على أن دين الدولة الاسلام .

ولست أعرف حقيقة الباعث الذي حدى بالذين وضعوا تلك الدساتير على اثبات هذا النص . فالدولة شخص معنوي ، والنص على أن ذلك الشخص المعنوي له دين اسمه الاسلام ، أمرٌ لا يخلو من التناقض . لأن هذا الشخص المعنوي إنما هو شخص مجرد ، أي إنه فكرة مجردة تقوم في الذهن ، ولا حيز لها في خارج الفكر . ولكني أعتقد أن هذا النص لم يثبت في دساتير الدول الاسلامية الاّ استجابة لوعي خفي مستمد من روح الاسلام ، وأنه دين ودولة معاً ، أملته على أولئك المشترعين روح اسلامية لم تخبُ في انفسهم يوماً شعلتها ، وإن كانت قد استخفت فانما كان استخفاؤها تحت ضغط ظروف ، لا حاجة بنا إلى الافاضة فيها الآن .

كل هذا لأقول أن روح الاسلام ، تلك الروح التي نشأت بنشوء الاسلام ، وستظل باقية ما بقي الاسلام ، والتي أنشأت أول نظام موحد من الدين والدولة وأدمجتهما معاً ، هي روح لا تفرق بين رعايا الدولة من حيث العقائد ، بل انها روح تقدس الحرية أولاً وتحمي رعاياها حماية بلغت منتهى درجات التسمح في تاريخ الدنيا .

فاذا قال أحدنا الجامعة الاسلامية ، فانما يعني جامعة عربية روحها الاسلام ، واذا قال أحدنا الجامعة العربية ، فانما يعني جامعة اسلامية روحها العروبة .

وكل قول ينابذ هذا القول خطأ . وكل نزعة تخالف هذه النزعة ، شعوبية خسيسة .

اسماعيل مظهر

أرثر ادنجتن[1]

Sir Arthur Eddington

منذ برهة وجيزة أذاع رويتر ما يلي : (توفي السر أرثر أدنجتن العالم الفلكي الرياضي). وقد نشرت الصحف هذا الخبر في مكان غير بارز دون تعليق ، ومرَّ الناس على نبأ الوفاة فلم يبعث فيهم انتباهاً أو اهتماماً . وليس غريباً ألاّ يحفل الناس بهذا الخبر ، فقد حصلت الوفاة في أيام حالكات ووسط عواصف الحرب حيث المصائب تنصب على العالم من كل جانب ، وحيث أسماء رجال الحرب والقتال ملء الاسماع وحديث المجالس والمجتمعات . ولئن مرَّ ادنجتن عن الدنيا دون ضجيج، فقد خلف آثاراً خالدة وترك في ميادين العلم ثروة علمية ضخمة تجعله خالداً في الخالدين المقدمين في تاريخ تقدم الفكر الرياضي وعلم الفلك في القرن العشرين

ولد ادنجتن في كندال بانكلترا عام ١٨٨٢ وتعلم في كلية أوين وفي منشستر وفي كلية ترنتي بجامعة كمبردج . وفي سنة ١٩٠٧ حاز جائزة سمث اعترافاً بنبوغه وفضله . وبعدها انتخب زميلاً في جامعة كمبردج تقديراً لجهوده وآثاره . وعهد اليه من ١٩٠٦ الى ١٩١٣ بمركز المساعد الأول في مرصد غرينتش الملكي . ويظهر أن عام ١٩١٣ الذي كان بداية شر مستطير على العالم، كان عام ألقاب وتقدير للاستاذ ادنجتن ، ففي هذه السنة صار أستاذاً لعلم الفلك في كمبردج ، وفي سنة ١٩١٤ عين مديراً لمرصدها ، كما انتخب عضواً في الجمعية الملكية . وبدأت بعد ذلك آثاره تبرز للعيان بصورة واسعة، وقريحة تتحف العلم بالاضافات الجديدة ، مما جعل الجمعيات العلمية والفلسفية خارج بريطانيا تعرض عليه عضويتها وتسأله قبول شرف الانتساب اليها . ويظهر ان مآثره كانت محل تقدير الهيئات والجامعات . فقد حاز جائزة Hopkins التي تمنحها الجمعية الفلسفية في كمبردج وجائزة Ponté Coulant Prize من الأكاديمية الافرنسية سنة ١٩١٩، والمدالية الذهبية من الجمعية الفلكية، ومدالية

---

(١) أذيع هذا الحديث في مساء ١٩٤٤/١٢/٣١ في محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية في يافا بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته .

بروس Bruce للجمعية الفلكية ومدالية هنري درابر وهي المدالية التي تمنحها الاكاديمية الوطنية للعلوم . وفوق ذلك فقد كان أدنجتن محل عطف الدولة التي منحته لقب (سير) وأحاطته بالرعاية الكبيرة والعناية الفائقة . ولسنا بحاجة الى القول ان هذا العطف من جانب الدولة وتلك الجوائز والمداليات من الجمعيات والهيئات على تعددها تدل دلالة واضحة على فضله وعلمه وعلى تقدير اضافاته القيمة الى العلم ، في الفلك والطبيعة والرياضيات .

كتب ادنجتن في الفلك وفي النجوم وتطورها، وقد أخرج بحثه الأول سنة ١٩٠٦ فتناول فيه حركات النجوم وتركيبها، وحرارتها، وله في ذلك آراء ونظريات أخذ بها العلماء وأحلوها مكانها في الفلك الحديث . لقد درس الغازات وطبائعها والذرّات وجسيماتها وما لها من شأن في نقل الحرارة . وقد تبين له أن معدّل انسياب الحرارة من باطن النجم إلى [illegible] يتوقف في الأكثر على كتلة النجم — وعلى هـذا فقد خرج بالرأي القائل بأن انسياب الحرارة يزداد بازدياد مقدار الكتلة ، وليس لقطر النجم أو بنائه الداخلي علاقة تذكر بالحرارة . ويعتبر علماء الفلك ان استخراج الصلة بين الاشراق والكتلة، من أهم القواعد في نظرية بناء النجوم الحديثة .

وبحث في السدم وانطلاقاتهـا وقد تبين ان السدم كلهـا تقريباً تجفل منا بسرعة بالغة وهي تتباعد عنا بسرعة فوق ما يتصور العقل البشري ، إذ منها ما يتباعد بمعدل ٢٦ مليون ميل في الساعة !! . وقد حسب ادنجتن انه إذا كانت السدم تبتعد عنا بالفعل بسرعة عظيمة جدّاً . . إذن يتحتم أن يكون المجموع الكلي لمقدار المادة الموجودة في الكون بأسره قدر ما في (١١٠٠٠) مليون مليون مليون شمس ، أي قدر ما يرى العلماء بمراقبهم ثلاثة ملايين مرة تقريباً .

وامتاز ادنجتن بعمق تفكيره عند عرض آراء العلماء حين يختلفون في مسألة من المسائل . فهناك من العلماء من يؤكد وجود الأثير ، ومنهم من ينكر وجوده . وهنا تتجلى براعة ادنجتن بقوله [وكلا الفريقين يقصدون بقولهم شيئاً واحداً وهم لا يختلفون إلاّ في الألفاظ]

وتناول ادنجتن كغيره من علماء الفلك عوامل تكوين النظام الشمسي، وقد خرجوا بعد البحث والدرس بأن كتلة الشمس الأصيلة، كانت آخذة في التقلص بسبب اسراع دورانها حتى أصبحت تميل إلى الانشطار ، وانها لفي هذه الحالة إذ اتفق مرور شمس كبيرة قربها بسرعة متوسطة ، مما أحدث مدّاً في كتلة الشمس . وما زال هـذا المد يرتفع حتى بلغ درجة انتثر عندها إلى مجارٍ من المـادة اللطيفة ، ما لبثت أن تقلصت وأصبحت سيارات . وقالوا بأن الحسابات دلّتهم على ان ذلك حدث منذ ألف مليون سنة أو أكثر . ومنذ ذلك الحين سارت

الشمس الأخرى في طريقها، ونظام السيارات ليس إلاّ أثراً من آثارها . ويرى ادنجتن ان تأثير كل هذه الحوادث غير محتمل حتى في حياة النجوم الطويلة فان توزع النجوم في الفضاء شبيه بعشرين كرة من كرات التنس موزعة في كرة قطرها ٨٠٠٠ ميل ، واقتراب الشمس المذكورة من شمسنا، هو كاقتراب إحدي هذه الكرات من كرة أخرى،حتى تصير على بضع يردات منها . ويرى ادنجتن ان احتمال وقوع هذا هو كنسبة واحد إلى مئة مليون . ولاشك انه بحساباته هذه ، قد أدخل الطمأنينة إلى النفوس ، فلا خوف من اقتراب شمس من شمسنا تسبب تغيرات قد تؤدي إلى اختلال أو عدم توازن في حركات الأرض والكواكب . وما يدرينا فقد ينتج عن ذلك زوال الحياة ومن على هذه الكرة الأرضية .

ولعلّ من أبرز ما امتاز به ادنجتن تقديره لأهمية النظرية النسبية لاسيما في أول ظهورها فقد شغف بها وبحثها ودرسها درساً عميقاً وسلط عليها عقله ووجه اليها تفكيره، فتمكن من إخراجها إلى الناس في صورة تعدّ واضحة، إذا قورنت بالصورة التي جاء بها غيره من كبار العلماء الرياضيين . ولم يقف عند هذا الحدّ، بل استطاع أن يضيف إلى هذه النظرية إضافات هامة وضعها في رسالة ظهرت عام ١٩٢١ عنوانها :

Generalization of Weyl's Theory of the Electromagnetic & Gravitational Fields.

ولنأتِ الآن على مثل بسيط يتبين منه كيف فاق غيره ، في تفسير بعض نقط في النسبية كانت غامضة وغير مفهومة .

تشتمل النسبية على نظرية هامة ، هي ان كل جسم يتقلص في خط اتجاه سيره بنسبة ما بين سرعته وسرعة النور . وهو لا يتقلص البتة في الاتجاه المعامد لخط سيره . ولقد اعتبر (البرت اينشتين) هذا التقلص سنة طبيعية وجعله قاعدة لمبدأ النسبية ، بانياً عليه مباحثه فيها . وقد حاول بعض كبار الفلكيين والرياضيين تفسير سبب هذا التقلص فلم يخرجوا بطائل ، لكن إدنجتن في كتاب طبيعة العالم المادي تمكن من تفسيره تفسيراً لم يسبق اليه ، حالفه فيه التوفيق والنجاح.وهنا نضع خلاصة رأيه، كما ورد في كتاب خلاصة الكون للاستاذ نقولا حداد وهو : « . . إن بين الذرات Atoms مسافات بعيدة جدًّا بالنسبة إلى أحجامها . ولكن الذرات المتماثلة متساوية البعد . والذرات تحافظ على هذا التباعد المحدود فيما بينها،وعلى الحيز الذي تتحول فيه . وتحافظ على ذلك بتفاعل كهربائي فيما بينها منه قوات جاذبة ومنه حركات (قوات) أخري مختلفة تحاول أن تبعد الذرات بعضها عن بعض .

وكلتا الطائفتين من القوات متوازنتان بحيث يبقى حيز الذرة في سعة محدودة، ويبقى بعده عن غيره في مسافة محدودة أيضاً . ذلك على فرض ان الذرة ساكنة . ولكن متى كانت متحركة (أو متى شرعت تتسارع بحركتها أي تعجل) تتغير القوات الكهربائية التي كانت تقيدها بالمسافات المحدودة فيما بينها ، لأن تسارعها ينشيء أمواجاً كهربائية مغناطيسية Electro-mag-Waves وهو نوع من القوات يختلف عن النوع الأول فيختل توازنها السابق وينشأ لها توازن جديد . ومن هذا يُرى أن سر المسألة هو في التيار الذي أنشأته سرعة الذرة أو تسارعها ، وهو مطابق للرأي العلمي الذي سار عليه اينشتين وزملاؤه وهو أن الذرة المسرعة تنشيء حولها جوّاً كهربائيّاً مغناطيسيّاً . وفي هذا الجو تتخذ الكهارب أفلاكاً تدور فيها حول نواة الذرة، كما تدور السيارات حول الشمس في جوّ جاذبي — تدور بتأثير هذا الجو الذي يمنعها أن تشرد عن فلكها حول النواة [1]. وما دمنا في صدد النسبية فنقول إن ادنجتن قد حسب نظريّاً وبطرق رياضية، السرعة التي يجب أن تتحرك فيها السدم فيما لو كان الكون يتمدد بحسب نظرية النسبية .

ولم تقتصر بحوث إدنجتن على النواحي التي ألمعنا اليها، فقد كتب في موضوعات كثيرة أخرى في الفلك والطبيعة، وله عدة قطع من قلمه في دائرة المعارف البريطانية . أما كتبه التي أخرجها الى الناس فهي :

(١) حركات النجوم ونشوء الكون (٢) رسالة في النسبية والجاذبية (٣) الفراغ والزمن والجاذبية (٤) نظرية النسبية رياضيّاً (٥) النجوم والذرات (٦) طبيعة العالم المادي (٧) الكون المتمدد

أضف إلى ذلك مقالات ومحاضرات في الفلك والنسبية نشرها في المجلات العلمية العالية في انكلترا .

هذا عرض موجز لحياة السير ارثر إدنجتن، ولمحة بسيطة عن آثاره وإضافاته في الفلك والطبيعة والرياضيات . ولا شك أن العلم قد خسر بوفاته عالماً فلكيّاً ورياضيّاً قدم أجل الخدمات في ميادين المعرفة التي تجعله علماً بين أعلام العلماء المقدمين في تاريخ العلوم الدقيقة في القرن العشرين . قدري حافظ طوقان

---

(١) اعتمدنا في هذا المقال على كتب صاحب الترجمة وكتب جينز وكتاب فتوحات العلم الحديث وآفاق العلم الحديث للاستاذ صروف وكتاب هندسة الكون للاستاذ نقولا حداد ودائرة المعارف البريطانية وغيرها من الكتب .

كنوز الصحارى

المصرية



الكنوز المهجورة ، فتنة حمام فرعون ، المناجم ، المعادن ، حقول البترول ، الفحم الابيض ، مرافق تجعل مصر من أقوى دول البحر المتوسط ، أسرار الصحراء ، فتوحات علمية ، واجب هذا الجيل

محاباة الطبيعة لمصر

إذا ألقينا نظرة على خريطة مصر ، رأينا مجرى النيل يتوسطها ويليه من الجانبين ، الشرقي والغربي ، أرض خضراء ثم صحراء وقفار . ولقد تعلمنا في أوائل هذا القرن العشرين ان مصر بلد زراعي وانه قطر عقيم في الصناعة — لأنه لم يرزق الفحم ولا الحديد . فهل كان حقًّا ما يقولون ؟

والحق إن علم ما في باطن مصر كان سرًّا لم يحط به خبراً غير قدماء المصريين الذين أوتوا الحكمة والقوة ، وعلموا الأمم ما لم تعلم ، وكشفوا عن المناجم واستغلوا المعادن ، وصنعوا الأسلحة والآلات والفأس والمحراث من الحديد المصري والنحاس المصري . ثم بعض الخاصة من الفنيين الأجانب وفي مقدمتهم الدكتور هيوم مدير مصلحة الكيمياء السابق ، وقد وضع أول بحث علمي عن الحديد الخام في مصر وقدَّمه في سنة ١٩٠٩ الى المؤتمر العالمي للحديد الخام الذي عقد بمدينة « استكهلم » عاصمة السويد مكتوباً باللغة الانجليزية وظلَّ مجهولاً من الجمهور المصري . ثم تتابعت البحوث بعد الحرب العظمى الماضية وكان أبرزها بلا ريب ما وفق أليه المهندس لبيب نسيم في شرقي أسوان من بقاع غنية بالحديد جرى لها لعاب المانيا قبيل الحرب القائمة ، وشممنا رائحة المنافسة الدولية تداعب تلك الكنوز المرصودة ، ونحسب أن مصر وإن رحبت بالفنيين الأجانب وعُدد الفتح العلمي ، فستحرص أكثر من أيّ زمن مضى على الاحتفاظ برقابة المناجم ، وها هي سياسة الاقتصاد الأهلي في العالم المتحضر تسير قدماً صوب النظام القومي الذي يجمع بين تآلف الحكومة والأمة وتعاونهما ، فتؤسس شركات الاستغلال والاستثمار مساهمة بينهما ، تحمل الطابع القومي . ونعتقد ان هذا يطابق الصالح الوطني ويرضي الشعور الشعبي .

تعلمنا أن أكثر من ٩٥ في المائة من مساحة مصر فيافي وقفار ، ولكن ما كشف عنه

البحث والعلم يدل على أن صحارى مصر تكنز لهذا الشعب من المعادن والكنوز ما لا يقل عن مبرات النيل، أبي الخيرات .

ماذا نعرف عن وطننا ؟

اننا نحب الوطن ، لأنه الشخصية المقدسة التي تربطنا بها الصلة الروحية والرابطة البنوية — وانه ليزداد تقديرنا للوطن واعتزازنا به بمقدار ما نعلم من كوامن قواته وفيض خيراته ، ولقد حبت الطبيعة بلادنا بأعظم آيات الغنى والجمال ، وأنعمت على كافة السكان بأغزر مرافق الثروة الكامنة. ومعلوم أن الحضارة والمدنية والنشاط الاقتصادي للبلاد تتوقف جميعاً على أحوالها الطبيعية من جهة مرافق ثروتها وموقعها الجغرافي ومناخها ، وكذا من حيث المستوى العلمي والاجتماعي ومدى جهود الأفراد وتوجيه الحكومات في تذليل قوى الطبيعة لاسعاد الجميع وهاكم نظرة في طبيعة مصر :

موقع مصر وثروتها المطمورة

لقد قسمت الطبيعة مصر ثلاث مناطق ليس في الدنيا أغنى منها ولا أبدع ، نجمل وصف خفاياها فيما يأتي :

١ — شرقي مصر : يحيث جزيرة سيناء الزاخر بمناجم الحديد والمنجنيز والفوسفات والرصاص والنحاس وزيت البترول، وهذه الجزيرة غنية بشواطئها الساحلية الرائعة وجبالها الشامخة التي يؤمها السائحون وتفتنهم ذكرياتها الروحية المقدسة في جبل موسى وجبل سنت كاترين ، وتخترق سيناء سكة حديدية تصل مصر بفلسطين وما يليها من الأقطار الصديقة ، ويحد سيناء غرباً شاطىء البحر الأحمر المترع بكنوز البحر وصيده ولآلئه، هذا إلى نافورات ساخنة ومشات طبيعية لا ترى العين أنزه منها للخاطر ولا أمتع للناظر ،وهي ترتقب من يعمرها . وعلى شاطىء سيناء يطل « حمام فرعون » على خليج السويس ، ويؤمه عارفوه القلائل لسلق السمك الطازج في ماء عينه الساخنة الفائرة .

٢ — وسط مصر : القسم الأوسط من مسطح مصر هو القلب النابض بالكنوز المهجورة ، ونحسب أنه بحسب مصر أن تقوم قومة رجل واحد لاستثمار مرافق هذه البقاع من ثروتها المطمورة في صحاريها الذهبية لتصبح من أقوى دول حوض البحر المتوسط ويحد هذا القسم شرقاً بشاطىء البحر الأحمر وغرباً بشاطىء نهر النيل ، وتحفل الصحراء الشرقية بسلسلة من العيون المعدنية تبتدىء من « عين الصيرة » وتصل الى « الفشن » ، ثم جبل الرخام بمديرية بني سويف والجرانيت والبازلت بمديرية اسوان وسلسلة المحاجر والجبس والفوسفات ، ونترات الصودا والألوان والمغرة والخزف ومواد الطوب الملون ومواد

الأسمنت والبناء واللاط وهناك مناجم الحديد شرقي اسوان وقنا وبني سويف ومناجم الزنك والرصاص والنحاس والذهب والقصدير والكروم وحقول البترول وخاصة في رأس غارب وجمه والغردقة وسفاجه. ولقد جاء استغلال آبار رأس غارب في سنة ١٩٣٩ فتحاً اقتصادياً في مصر يبشر بأن يصبح هذا القطر عاجلاً أو آجلاً في مقدمة الدول استغلالا لهذه الثروة الحرارية التي تلعب الدور الأول في فلك الدول العظمى : فياليت مصر تستقر وتتدبر وتعمل وتنهض بادئة بتوليد الكهرباء من مساقط خزان اسوان حيث تشرف مناجم الحديد .

٣ — غربيّ مصر : يتوّج القسم الغربي للقطر المصري شاطىء البحر المتوسط ، وعلى هامته ميناء الاسكندرية محور الحركة والبركة في مصر ، ثم دلتا النيل شرقاً وصحراء لوبيا الزاخرة بالواحات العامرة وعلى رأسها واحة الفيوم والواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة وسيوه وجغبوب ، وتجمع هذه البقاع بين ثروة زراعية من الحبوب والفاكهة الحلوة وبين مستقبل صناعي بفضل غناها بالحديد والفوسفات المنثور في الصحراء . وهناك حقول البترول غربي الفيوم وفي وادي النطرون . ونذكر أن رحالة مصرياً من معلمي المدارس أطلعني منذ سنوات على وثائق هامة عن اكتشافه بعض حقول زيت البترول في صحراء الفيوم ، فأحلته يومئذ على عميد كلية الهندسة وبعض الجهات العليا .

وتمتاز صحراء لوبيا بوديانها التي انتفع ببعضها قدماء المصريين ، فاتخذوا من وادي الريان خزاناً لأمداد الوجه البحري بالمياه ابان تحاريق النيل، فضلاً عن اتخاذه حصناً أمامياً للحد من غائلة الفيضانات العالية، وتفكر وزارة الأشغال في هذا العصر في بعث خزان وادي الريان.

أما منخفض القطارة فقد ذهب المهندس حسين سري باشا إلى امكان توظيفه مع مجرى صناعي من مياه البحر المتوسط في احداث مسقط للمياه يولّد القوة الكهربائية التي تكفل أوسع الأغراض الصناعية في مدن الوجه البحري وقراه ، وتتيح لهذه المناطق شبكة مواصلات كهربائية وانارة رخيصة . فما أعظم آمال مصر في مرافقها وفي علمائها وفي مواردها المهجورة

عظمة صحارى مصر

نرجو أن لا يستخف مصري بعد اليوم بلفظ صحراء ، فان الاستهتار بهذا المجهول جحود بنعمة من أعظم نعم الله — وحسب الأمة تواكلاً ، ولا يجوز لأمة ناهضة بعد اليوم أن تستخف بآيات الفن والعلم في استثمار مناجمها وثروتها المطمورة .

ان في صحارى مصر جمالاً وسحراً وفتنة وكنوزاً مهجورة يجب أن تكون حديث كل مصري ومصرية ، ويجب أن تشغلنا أفراداً وهيآت وحكومة عن كل ما عداها .

عبد الحليم الياس نصير

بطاقات الوحدة

عن فاندا فاسيلفسكا

« تعاليْ . كاتيا . تعاليْ » .

عاجلةً ، وبأصابع محمومة ، أعدَّت شريطاً جديداً . وكان شعرها غير نظيم تحت عصابتها . وقد صرف أليكس كل انتباهه الى المدفع السريع الذي كان بين يديه ، فلم يلتفت إليها .

« تعاليْ . كاتيا . تعاليْ » .

وأخذ المدفع السريع يقرقع ، ومضى الشريط يمر بسرعة من خلال علبة القذف . التقطت « كاتيا » الشريط الآخر ، ووقفت تنتظر » .

« كاتيا »

« أبتَّيك » .

« اجتهدي واتصلي بهم مرة ثانية . اخبري الكولونيل بالموقف . أتسمعين ؟ عرفيه كل شيء » .

زَحَفَتْ إلى الدغل واندست فيه ، ووثبت الى الناحية الأخرى من المنحدر ، وأطلقت ساقيها للريح جهد ما استطاعت ، الى بيت هنالك . وأسرعت الى الممرة .

«أعطني المدينة . أسرع : ٣—٥ » .

« انهم لا يجيبون النداء » .

« اجتهد ٣ — ٥ » .

« لا جواب » .

وانقطع الاتصال . فوقفت كاتيا حائرة تقلب يديها . أسرعت الى النافذة . سمعت قرقعة البنادق ، وطلقات متقطعة صادرة من مكان ما وراء الدغل . وبيدين مرعشتين استلمت المسرة مرة ثانية .

«أيها العزيز . هنا من أورلوفكا .... تتكلم . . . . أورلوفكا . تفضل وصلني بالمدينة ٣—٥ » .

« لا جواب » !

«ولكن من فضلك ... أفهم ... هنا اورلوفكا تتكلم . اورلوفكا لا بد من أن اتصل بالمدينة . أي رقم في المدينة يكفي— صلني بالمدينة » .

« سأبذل جهدي ، استمعي » . نقل السلك هذه الكلمات اليها .

قمت قشعريرة كادت تتولاها . فمن مكان ما ، مكان بعيد قصي ، سمعت «كاتيا» صوت التحام الخطوط السلكية ، ومعها

صوت حبيب هو صوت الفتاة أمام لوحة الاتصالات تكرر باطراد :

« المدينة .... المدينة .... المدينة » .

« هالو . أهذه أورلوفكا » !

« ان خط المدينة قطع . وهم يصلحونه الآن . عليك أن تنتظري » .

سقطت يدا « كاتيا » الى جنبيها معبرة عما أحست به من قنوط مرير .

همت خارجة من المنزل ، ومن أجل أن تصل الى الدغل ، كانت مضطرة الى الزحف على بطنها . هنالك وصلت إلى خط النار . فأدار اليكس رأسه هنيهة . « حسناً » .

« الخط مقطوع ، وهم يصلحونه » .

فصرّ بأسنانه .

« كاتيا . أنظري في أمر جريشا ، ألك أن تفعلي ؟ إني لا أسمع شيئاً من حيث هو »

زحفت إلى اليمين حتى حاذت قمة المرتفع. كان الفتى حارس الحدود راقداً هنـاك ، ووجهـه لاصق بالأرض . لمست وجنتيـه الغضتين بشفتيها في رفق ولين ، ثم وضعت يدها تحت صدرته — إن قلبه قد وقف عن النبض .

« مات » — هتفت بذلك الى اليكس « تسعة » . وإذ همس بذلك قال — « كاتيا : قليلاً من الذخيرة » .

وظلت تغذيه بما يطلب كلما احتاج إلى شيء . وكانت عيناها تمتدان دائماً إلى تلك البقعة الـكائنة هنالك على الشاطىء الآخر ، على الغدير الصغير والجسر الذي يعلوه . فمن هناك ، من مسافة ما بُعَيْد الجسر ، كانت تنبعث ألسنة من النـار ، من وراء ذلك المرج الأخضر . هنالك الألمان .

« تعاليْ . كاتيا . تعاليْ »

رقدا منسطحين إلى الأرض تخفيهما الأعشاب وتَمَوُّج الحشائش البرية . وظل يطلق النار من غير أن يتوقف دقيقة واحدة ، ناسياً كل شيء من حوله . وكان بينهما وبين الألمان رقعة لا تزيد مسافتها على مائتي أو ثلاثمائة ياردة .

وظلت « كاتيا » تمده بأشرطة المدفع . فعلت ذلك بحركة آلية ، ومع هذه الحركة مضت تعد : نعم بقي تسعة ، تسعة فقط .

« لا تعدي جريشا بعد الان » .

وارتفعت أنَّة من مكان قريب . لم يبق تسعة ، هم ثمانية الآن .

« كاتيا — جربي مرة ثانيـة — ربما يكون الخط قد أصلح » .

وثبت وأخذت تعدو .

« أورلوفكا . هنـا أورلوفكا تتكلم . كن شفيقاً ، وتفضل فصِلْنا بالمدينة » :

ألقت كاتيا السماع واتخذت طريقها بأسرع ما حملتها قدماها .

« اليكس . لا يمكن إصلاح الخط قبل ساعتين » .

« سوف لا نكون أحياء بعد ساعتين ياعزيزتي كاتيا » .

أمتعب أنت ؟

اذا شعرت بأنك متعب وبك ضعف ، فان الاسباب التي تتخيلها قلما تكون صحيحة . قد تتخيل انك في حاجة الى الفيتامين أو أنك مصاب بسوء الهضم أو ان بقلبك اضطراباً أو أن كبدك لا يفرز الصفراء . ان كثيراً من هـذه الحالات لا تعود لمثل ما تخيلت من الاسباب . إذ دل البحث الطبي في ٣٠٠ شخص يشكون مثل هذه الاعراض ان ٢٠ في المئة منهم بهم أمراض جسمانية و ٨٠ في المئة ترجع متاعبهم الى اضطراب عصبي .

كثيراً ما يظن ان نقص الفيتامين سبب في احداث حالة الاجهاد البدني . ولكن الفحص الدقيق دل على ان واحداً فقط من ٣٠٠ فحصوا طبياً ، يشكون نقصاً في هذه المادة الحيوية . ولم يعثر على حالة واحدة كان سوء الهضم فيها سبباً في احداث هذه الظاهرة . بل اتضح ان ما يعزى الى سوء الهضم مبالغ فيه ، وان كل الكبد بريء من ذلك . وقد يعزو كثير من الاطباء ظاهرة الاجهاد الى اسباب غير صحيحة . ففي تقرير نشر في صحيفة نيو إنجلند الطبية أثبت دكتور فرنك ن. ألن أن في ٥ حالات من ٣٠٠ حالة كان فقر الدم سبباً في احداث حالة الاجهاد البدني ، ولم يجد حالة واحدة منها كان السبب فيها ضغط الدم .

ان هؤلاء يستفيدون فائدة جلى اذا تحققوا أن أعصابهم هي سبب متاعبهم . فقد يشعرون باضطراب داخلي وقلق مصحوب بأعراض عصبية كانسداد الزور وتوتر الرقبة وصعوبة التنفس . ومن العجيب ان أكثر المجهدين لا يعزون السبب الى أعصابهم ، ولكن مظاهرهم تنم عن حقيقتهم . فاذا شعرت بشيء من تلك الاعراض فاعزها الى أعصابك ، ثم عالج نفسك بمقتضى ذلك ، ولكن بعد أن تتأكد انك لست مصاباً بمرض نوعي .

وعدتهم بسرعة . سبعة . نعم سبعة فقط .

« كاتيا . إن يدك تدمى . أعصبيها بمنديل وازحفي لتنظري ماذا حل بصديقنا بلاتون » .

عصبت كاتيا يدها بسرعة وزحفت بين الأعشاب

« إنك مصاب بجرح بالغ يا بلاتون . أجدر بك أن تزحف إلى المؤخرة .

« إنه خمش لا أكثر يا كاتيا . إنه لا شيء .

« كاتيا » .

سمعت صوت زوجها يناديها فاتخذت طريقها إليه .

« إصغي يا كاتيا » .

لم يلتفت اليها اليكس إذ حدثها . كانت عيناه مثبتتان حيث تلك الخضرة دوين الجسر ، حيث زادت ألسن النيران عما كانت عليه .

« هل تقدرين أن تخرجي السيارة من المظلة » .

أخذت كاتيا متراجعة ، كما لو ان شخصاً ضربها على صدرها ضربة قوية .

« هيا . أتقدرين » .

لم يلتفت اليها . كانت عيناه مركزتين في بقعة واحدة . في تلك الخضرة التي كانت تنبعث منها كرات حمر .

« نعم » . أجابت بصوت مختنق .

« أأنت مصغية . كاتيا » . « نعم » .

إن الوثائق في القمطر . ضعيها جميعاً في السيارة واذهبي إلى المدينة . سلميها إلى الكولونيل . أتفهمين »

« أليوشا . يا حبة قلبي . أود البقاء . اني لا أستطيع »

« كاتيا . نفذي بسرعة . أأنت فاهمة ؟ تواً . لحظة تلكأ واحدة تفوت الفرصة . الوثائق . كل ما في القمطر . أتفهمين . كاتيا »

« نعم » .

لم يلتفت وراءه ، ليتزود بنظرة منها . وهي . كذلك هي قد قمت رغبتها في أن تمس يده عندما ناولته شريط الطلقات .

« جهزي السيارة واذهبي بها . ادفعيها بأقصى ما في إمكانك . خذي الغدارة . أتسمعين . وتذكري يا كاتيا : سبع طلقات فقط في الخزانة ، اتركي واحدة فقط . استعداداً لما يتوقع . أتفهمين » .

« نعم » .

وفي سكون زحفت نحو الدغل . ولكنه ناداها فجاءة .

« كاتيا . انتظري برهة . خذي بطاقتي وخذي بطاقات الآخرين أيضاً . سلميها هناك » .

أخذت البطاقة الحمراء الصغيرة . وزحفت من واحد إلى الآخر . خمس . خمس بطاقات لا غير .

« خذي البقية من الآخرين »

فتشت جيوب القتلى . لقد حصلت عليها جميعاً . البطاقات الحمر الصغيرة .

« كاتيا : لا تنسيْ أن تعدّي قليلاً من البترول للطوارىء — صبّيه على كل شيء واشعلي فيه ثقاباً . والطلقة السابعة لا تغفلي عنها . والآن أسرعي يا كاتيا بقدر ما تستطيعين . . . »

التفت هذه المرة ونظر اليها . عيناه الرماديتان الحبيبتان .

« أليوشا »

« لا تبتئسي . كاتيا — لا تبتئسي » .

وشاع في وجدانها فجأة حرٌّ ذلك الحب العميق الفائر نحو ذلك الرجل .

« اسرعي . هذا حب صحيح يا كاتيا »

هذا حب صحيح . كزت على شفتيها وزحفت بحرص ، وأطراف تلك البطاقات الحمر الدبقة تضغط على صدرها .

ثم أسرعت الى غرضها . كانت السيارة في المظلة خلف المنزل .

أدارت كاتيا الآلة ، ومن وراء ذلك الدغل سمع الذين هم كانوا هنالك هديرها .

وكذلك سمعه اليكس .

« هـذا حب صحيح . هـذا حب صحيح » . ومضت تكرر هذه الكلمات متمتمة بشفتين جافتين يابستين ، وكأنها في ضباب ثقيل وخرجت بالسيارة الى الطريق .

وانحنت على عجلة القيادة . وكان الطريق ممهداً معبداً . ومضت السيارة تنهب الطريق وأزّ الهواء في أذنيها .

ومرت الى جانب الأشجار الخضر والأكواخ البيض، فكأنما كانت أقباساً من الضوء الخاطف . وأخذت السيارة تطوي الطريق طيّاً ، متسارعة كلما تقدمت إلى الأمام، وكلمات اليكس ترن في أذنيها .

« توّاً . لحظة تلكأ واحدة تفوّت الفرصة » .

اضطرت عند مفترق الطرق أن تقف وتسأل عن الاتجاه . كانت جاهلة بمسالك تلك الناحية . فانها لم تزرها قبل الآن . كانت بها يوماً وليلة ، بعد أن ظلت بعيداً عن اليكس ستة أشهر .

وصلت المدينة بعد جهد . أوقفها الجند وسألاها عن أمرها . فأجابت ، وارشدوها كيف تصل إلى غرضها . ولقد شعرت أن قدميها أثقل من الرصاص عند ما أخذت تصعد درج السلم ، وثبة ، وثبتان .

كم هي مديدة تلك الدرجات . باب . بابان . ثلاثة أبواب . رجال في الملابس العسكرية وفي ثياب المليشيا ؟ جماعات من الناس . قلنسوات بشارات خضر . وضرب قلبها سريعاً عند ما رأت تلك القلنسوات التي هي شعار حراس الحدود .

سارت توّاً إلى المائدة وقالت : « القائد اليكس نازاروف أمرني بأن أوصل اليك هذه الوثائق »

وسلمت الأوراق وحافظات الرسائل والصرر . فتأملها الرجل الجالس الى الناحية الأخرى من المائدة بتؤدة وثقة وقال — « والآن يجب أن تجلسي وتستريحي » .

أرادت أن تقول انها غير متعبة ، ولكن ركبتيها خانتاها ، فجلست بتثاقل على الكرسي الذي قدم اليها . كانت جلجلة نيران البنادق واهتزاز السيارة وهدير آلتها، كل ذا يرن في أذنيها رنيناً .

رفع الرجل الجالس اليها مسماع المسرّة « اعطني أورلوفكا »

انتظرت كاتيا

« أورلوفكا . أورلوفكا . حالاً » .

كادت أنفاسها تقف . ووقعت أصابعها على طرف المائدة بحركة عصبية وشدّت عليها وجهدت عيناها المتعبتين أن تنفذا في ذلك الرجل الذي يتكلم . حملت على أن تقرأ في عينيه بصيصاً مما كان يجري في الطرف الآخر من ذلك السلك الممدود .

« هكذا . حسن » .

وأعاد المسماع إلى مكانه بتؤدة .

« ماذا » ؟

فدار نحوها من وراء المائدة وأخذ يدها المثلوجة بين يديه وقال :

« أورلوفكا لا تجيب »

« ألم يصلح الخط بعد » ؟

وشعرت بأن أصابعها تختلج، ورجلاها تبردان ، وسرى ذلك القرّ في جميع أجزاء جثمانها .

« عزيزتي . كوني شجاعة ، ماذا في مكنتنا أن نفعل . انها الحرب . ان الألمان في اورلوفكا » .

مرت بذاكرتها مرور الصدى البعيد ، نغمات أغنية كانت تسمعها . من ذا الذي كان يغنيها ؟ اليكس — عيناه الرماديتان ، من تحت حاجبيه الأسودين — معبودي . حبيبي . اليكس .

« وأسفا . أأترك المرج الفسيح ، والشمس في السماء ، والحب من ورائي » ؟

واستجمعت نفسها واستلهمت قواها .

« إيذن لي . إني ذاهبة الى لجنة الوحدة الاقليمية » . فدلها على الطريق .

وجدت هنالك مائدة للكتابة أيضاً ثم رجلاً من ورائها . انقبض قلبها مرة أخرى . يشبه من ممن رأت ؟ نعم هو جريشا . جريشا الصغير . أول من سقط من الرجال .

« أحضرتُ هذه البطاقات الخاصة بالوحدة » .

أخرجت البطاقات من تحت قميصها . عشر بطاقات حمر صغيرة .

«من أين أتيت بها . بطاقات مَنْ مِن رجالنا » .

وقفت كاتبا ممدودة القامة بارزة الصدر وقالت بغير تلعثم أو اختلاج في صوتها :

« هي بطاقات عشر رجال . وحدة كاملة من حرس الحدود . ماتوا فجر اليوم في مراكزهم وهم يحاربون الألمان » .

نهض السكرتير . البطاقات ملقاة أمامه على المائدة . عشر بطاقات حمر صغيرة على الغطاء الأخضر ، كأنها قطرات من الدم الأحمر ، تنبيء عن مصير هؤلاء .

في حب الوطن

ولي منزل ، آليتُ أن لا أبيعَهُ وأن لا أرى غيري له الدهرَ مالكاَ

عهدتُ به شرخَ الشباب ونِعمةً كنِعمةِ قومٍ أصبحوا في ظلالكاَ

فقد ألِفَتْه النفس حتى كأنه لها جسدٌ، إن غابَ غودِرْتُ هالكاَ

وحبَّبَ أوطان الرِّجال إليهم مآربُ قضَّاها الشباب هنالكاَ

إذا ذَكَروا أوطانَهُم، ذكَّرتهُم عهودَ الصِّبا فيها، فحنُّوا لذالكاَ

ابن الرومي

المذهب الشيعي

قبيل الدولة الفاطمية وفي أيامها

وضعت البذرة الأولى للمذهب الشيعي قبل استقرار الخلافة الفاطمية بمصر في الغزوات التي لم تقو فيها جيوش العبيديين على غزو البلاد المصرية ، فقام بعض أنصارهم بنشر الدعوة الشيعية بمصر ، ووجدوا من المصريين العدد الكبير الذي يعطف عليهم ويعتنق مبادئهم ويميل لمعتقداتهم. ولما رأى ذكا الرومي والي مصر (٣٠٣—٣٠٧ ه) شغف الكثير من المصريين بهذا المذهب الجديد ، وازدياد اتباعه يوماً بعد يوم ، وما قد يؤدي اليه ذلك في المستقبل ، عزم على اضطهاد رجاله فسجن عدداً كبيراً منهم ونكّل بهم .

ولكن هذا الاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، لم يفتّ في عضد أنصار المذهب الشيعي بل داوموا على نشره وتحبيبه الى المصريين لأنهم وثقوا من انه اذا أقبل الشعب المصري على هذا المذهب لم يضمنوا فقط التغلب على المذهب المنافس له والسائد في البلاد إذ ذاك وهو السني ، بل سيسهل عليهم أيضاً فتح مصر وانتشار مذهبهم وعقائدهم في ثلاث من الحواضر الاسلامية الكبرى وهي الفسطاط ودمشق والمدينة .

ولما فتح جوهر الصقلي قائد جيوش الخليفة الرابع الفاطمي المعز لدين الله مصر سنة ٣٥٨ ه ٩٦٩ م) واستقلّ بها عن الدولة العباسية وعن الخليفة العباسي ، طبع سياسة الدولة الجديدة بصبغة دينية عميقة من مفتتح عهدها ، ونشر الدعوة للخليفة المعز لدين الله خاصة ، ولأهل بيته من العلويين عامة .

وكما منع المهدي « عبيد الله أبو محمد » رأس الدولة الفاطمية الفقهاء بالمغرب من أن يفتوا إلاّ بمذهب جعفر بن محمد ، كذلك نجد أشباله العبيديين منذ استقرت أقدامهم في مصر ، عُنوا بتنظيم دعوتهم المذهبية وبثها في كل مكان ، فكانت تلقى في مجالس الحكمة أحياناً بالقصر ، وأحياناً أخرى في الجامع الأزهر ، واحتضنها وليده قاضي قضاتهم ، فنمّاها وسهر على تربيبها ، ثم تعهدها من بعده وغذاها داعي الدعاة ومعاونوه .

ولكي يضمن العبيديون نجاح تغلب عقيدتهم على المذهب السني السائد بالبلاد المصرية قبيل قدومهم ، جلب الخليفة المعز لدين الله معه مع ما حمل عند رحيله لمصر من مكتبته

الخاصة بالقيروان ، عدداً عظيماً من الكتب التي كانت تتناول الكلام في المذهب الشيعي ، واستصحب جمعاً وافراً من فقهاء الشيعة وأعلامها مثل قاضي القيروان أبي حنيفة النعمان ابن أبي عبد الله بن منصور بن احمد بن حيون الاسماعيلي المغربي ، هذا الرجل المنتج الذي تحدثنا المخطوطات عنه بأنه كتب كتباً كثيرة في فقه الشيعة ، مثل دعائم الاسلام في الحلال والحرام ، وكتاب ابتداء الدعوة للعبيديين ، وكذا كتاب الهمة في اتباع الأئمة ، وكتاب اختلاف الفقهاء، وكتاب شرح الاخبار، وكتاب المجالس والمسايرات، وغيرها مما يدل على علوّ كعبه في الفقه والدين ، وتوقد قريحته في التأليف والتصنيف

هذه الكتب الكثيرة المؤلفة في مذهبهم كانت ثروة عظيمة لنشر دعوتهم لأنها منشورة سهلة المنال وكان بنو النعمان وغيرهم من المغاربة من أكبر العوامل لنشر مذهب الشيعة بمصر. فكان عليّ بن النعمان مثلاً يجلس بالجامع الأزهر ويقرأ مختصر أبيه في فقه آل البيت، وهو المسمى بكتاب الاختصار ، ويحدثنا المقريزي نقلاً عن المسبحي المتوفي سنة ٤٢٠ هـ إن الاقبال على حلقات بني النعمان بالأزهر وهي التي قرأوا فيها علوم الشيعة كان عظيماً حتى أن المسبحي مؤرخ الدولة الفاطمية والذي نال عطف الخليفة الحاكم بأمر الله وتدرج في مناصب الدولة حتى وصل إلى الوزارة يقول « إنه في ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضي محمد بن النعمان (شقيق علي) بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد، فمات في الزحام أحد عشر رجلاً فكفنهم العزيز بالله » . كذلك صنف وزير المعز لدين الله ثم وزير ولده العزيز بالله من بعده وهو يعقوب بن كلس، كتاباً في الفقه الشيعي يعرف بالرسالة الوزيرية، أخذه عن المعز وابنه العزيز وتناول فيه الكلام عن العقائد الفاطمية . فكان ابن كلس يجلس في جمع من العلماء والعامة في داره وفي الجامع الأزهر ليقرأ على الناس خاصتهم وعامتهم مؤلفاته، وكان يُشرِع لسماعه الفقهاء والقضاة ليفتوا بما فيها ، كما كان يدرّس بالجامع العتيق للطلبة والأساتذة ، وكما عنيت الدولة الفاطمية في شرح علوم البيت وقراءتها للكافة على اختلاف طبقاتهم بفقهاء كان رائدهم بث الدعوة في المكاتب والمساجد وديدنهم غزو الأذهان بطرق منظمة، كذلك استعانت على بث عقائد المذهب الاسماعيلي بين الناس بسلاح التشريع الذي كان أَحَدُّ غزواً وأكثر نفعاً لنشر المذهب الشيعي بمصر ، فكما أسند العباسيون مناصب الدولة الهامة الى الخراسانيين أنصارهم ومؤسسي دولتهم ، كذلك نجد جوهراً أحلَّ المغاربة الشيعيين محل المصريين السنيين في جميع المناصب الهامة . لأن المغاربة هم أنصارهم وأعوانهم الذين قامت الدولة الفاطمية على أكتافهم، حتى قال المقريزي «إن جوهراً لم يدع عملاً إلاّ جعل فيه مغربيًّا شريكاً لمن فيه».

كذلك حتم الفاطميون على جميع موظفي الدواوين بمصر من المصريين ، أن يعتنقوا

المذهب الفاطمي ، كما ألزموا القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب

ولكن هل قضت هذه الطرق التي قصِدَ بها التهديد والوعيد أحياناً والتي فيها أصدر الخليفة الظاهر مثلاً أمراً باخراج الفقهاء المالكية وغيرهم من مصر فأُخرجوا ، وأريد بها التشجيع والترغيب أحياناً أخرى عندما أمر هذا الخليفة الدعاة أن يُحَفِّظوا الناس كتاب دعائم الاسلام ومختصر الوزير ، وهي الرسالة الوزيرية ، وجعل لمن حفظ ذلك مالاً ، على مذهب أهل السنة بمصر ؟ وبمعنى آخر هل تمكن جوهر وإمامه المعز من قطع دابر المذهب السني وابادته من مصر ، واحلال المذهب الاسماعيلي محله ، أم انهما هما ومن جاء بعدهما من الخلفاء الفاطميين تركوا ذلك للزمن ، واعتقدوا أنه الكفيل بمعالجة هذا الاشكال ، لأنه يتصل بالاعتقاد الذي لا سبيل للوعظ والارشاد ولا للوعد والوعيد فيه ؟

نرجح أنه بقدر ما كانت الظروف مواتية لهم ، وبالرغم من إنه كان بين الشيعة صلة متينة وعطف وتعاون حتى كان التآلف مضرب الأمثال ، وبرغم ما كان بين منافسيهم من أصحاب المذاهب السُّنِّية من تقاطع وتنابذ ، فقد ساد المذهب الفاطمي على مذاهب أهل السنة التي كانت منتشرة في مصر ولها الأغلبية الكبرى قبل الفتح الفاطمي وصار فقه الطائفة الاسماعيلية ومذهبهم هو المذهب الرسمي المعمول به في القضاء والفتيا مدة طويلة في أيام العبيديين بمصر وأنكر ما خالفه . نقول ساد مذهبهم وعمل به رسميًّا مدة طويلة من حكمهم للبلاد المصرية ، ولا نذهب مع السيوطي حينما يقول : « في القرن الرابع الهجري ملك العبيديون مصر وأفنوا من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلاً ونفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرفض والشيعة ولم يزولوا منها إلاّ في أواخر القرن السادس الهجري فتراجعت اليها الأئمة من سائر المذاهب » . ولسنا مع ابن خلدون في مقدمته حيث يقول : « انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة الرافضة » لأننا سنبرهن بالبرهان القاطع فيما يلي ، ومن السيوطي نفسه ، على ان مذاهب أهل السنة أيام الفاطميين عاشت جنباً لجنب مع مذهب الفاتحين . ولكن لا بالسيادة ولا بالوضوح والرسمية التي كان يتمتع بها مذهب العبيديين . ولكنها عاشت وكفى . وعاش فقهاؤها من الأئمة زمناً في كنفهم وتحت رعايتهم .

فيحدثنا السيوطي ان أبا بكر النعالي المتوفى سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) كان امام المالكية بمصر ، وكانت حلقته في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً ، لكثرة من يحضرها ، بعد أن كان للمالكيين في سنة ٣٢٦ هـ (٩٣٨ م) في المسجد الجامع خمسة عشرة حلقة وللشافعيين مثلها ولأصحاب أبي حنيفة ثلاث حلقات فقط .

كذلك نجد الفاطميين أنفسهم لما قدموا مصر ، تألفوا أهل السنة والجماعة ومكنوهم من

إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم فلم يمنعوهم من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد معظم أيامهم، مع ما في هذا من مخالفة لمعتقدهم. وكثيراً ما نقرأ في السجلات التي كانت تقرأ على المنابر بمصر «لا اكراه في الدين» و«صلاة الضحى وصلاة التراويح لامانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون» و«يُخَمِّس في التكبير على الجنائز المخمسون ولا يمنع من التكبير عليها المُرَبِّعُون» «ويؤذن بحيّ على خير العمل المؤذنون ولا يؤذي من بها لا يؤمنون».

كما سمح لأهل السنة أن يكون لهم حلقات في المسجد الجامع وزوايا يدرس بها الفقه على مختلف مذاهبهم. وكان لكل فقيه منهم زاوية، ويجري عليه الرزق حتى بلغت حلقاتهم العدد الكثير. ويحدثنا القلقشندي «ان مذاهب مالك والشافعي واحمد كانت ظاهرة في مملكتهم. وان من سألهم الحكم بمذهب مالك أجابوه».

ويؤيدنا في رأينا هذا أمَانُ جوهر للمصريين الذي يعتبر بحق وثيقة هامة في الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية، حيث نص فيه على إقامة المصريين على مذهبهم، وأن يتركوا على ما كانوا عليه.

نعم قَلَبَتْ الدولة الفاطمية أحياناً ظهر المِجَنّ لأصحاب مالك حتى انه في سنة ٣٨١ هـ (٩٨٩ م) أيام العزيز بالله ضُرِبَ رجل بمصر وطِيفَ بِهِ في المدينة، لأنهُ وجد عنده كتاب الموطأ للامام مالك بن أنس.

وسمحوا للسنيين أحياناً بتولي منصب القضاء بشرط خضوعهم للمذهب الاسماعيلي، فلما كان «أبو العباس بن العوام» حنبلياً على غير المذهب الشيعي، فقد اشتمل سجله على فقرة شُرِطَ فيها عليه أن يصدر أحكامه طبقاً لقانون الشيعة، وان يكون معه في مجلس القضاء أربعة من القضاة، لا شك في أنهم كانوا من الشيعة، عيّنوا من قبل الخليفة ليراقبوا انه يقضي بمذهب الاسماعيلية. وقد كان أبو العباس بن العوام قاضياً من سنة ٤٠٥ هـ بالبلاد المصرية حتى مات في عهد الخليفة الظاهر. وعلى ذلك فقد ولى القضاء أيام الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر.

كذلك ترك الشيعة لعلماء السنيين حلقات التدريس التي كانت لهم قبل قدومهم لمصر بالجامع العتيق. فلقد حدثنا السيوطي عمن كان بمصر من فقهاء المالكية في أيام العبيديين، وان من حدث وتفقه عليه منهم خلقٌ عظيم. ومنهم من ألّف في فضائل مالك، ومنهم من شرح المدونة، وهو جالس في حلقة المالكية بالجامع

وان «عبد الجليل بن مخلوف» الفقيه المالكي أفتى بمصر أربعين سنة، ومات بها سنة ٤٥٩ هـ، وأن «أبا القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد الغافقي» الفقيه المالكي المصري المتوفى سنة ٣٨١ هـ صنف مسند الموطأ.

وان « أبا الطاهر محمد بن عبد الله البغدادي » المالكي المذهب المتوفى سنة ٣٦٧ ﻫ ولي قضاء الديار المصرية واستناب على دمشق وكانت له تصانيف

وان « أبا القاسم بن مخلوف الاسكندري » المتوفي سنة ٥٣٣ ﻫ الذي كان من أئمة كبار المالكية تفقه عليه أهل الثغر زماناً

فهذه الأمثلة تدل دلالة واضحة على أن العبيديين لم يستأصلوا شأفة المالكيين بمصر، بل سمحوا بوجودهم وعملوا على استمادة أهل مذهبهم منهم ، بتركهم أحراراً يعملون في بيئتهم الشيعية، فلم يستتروا ولم يتظاهروا بالمذهب الشيعي، بل تمسكوا جهراً بمذهبهم السني واعتزوا به حتى لدى أهل الشيعة أنفسهم ،فقد ذكر السيوطي أن أبا العباس أحمد بن عبد الله بن احمد ابن هشام بن الحطيئة » اللخمي الفاسي المتوفى سنة ٥٦٠ ﻫ عرض عليه القضاء لما شغرت مصر من قاض ثلاثة أشهر في سنة ٥٣٣ ﻫ أيام الخليفة الحافظ، فاشترط ألا يقضي بمذهب الدولة، فأبوا وتولى غيره القضاء . كذلك حدثنا السيوطي عن فقهاء الحنفية بمصر ، فاستلفت نظرنا أن « عبد الله بن سعد الله الجريري » المعروف بابن الشاعر وهو حنفي المذهب (٥١٣ — ٥٨٤ ﻫ) أقام يفتي ويدرّس بالمدرسة السيوطية إلى أن مات

وحدثنا السيوطي أيضاً عن عدد كبير من قضاة وفقهاء شافعيين بمصر أيام الفاطميين، منهم من ناظر تحت سمع الدولة الشيعية وبصرها، ومنهم من كانت له تصانيف، ومنهم من كان يقرأ عليه نفر كثير، بل منهم من ولي القضاء زمن الفاطميين دون أن ينص صراحة على أنهم اشترطوا عليه أن يحكم بمذهبهم الاسماعيلي، فقد تولى «أبو عبد الله محمد بن سلامه بن جعفر القضاعي » الشافعي المذهب المتوفى سنة ٤٥٤ ﻫ قضاء الديار المصرية كما تولى القاضي « أبو المعالي مجلي بن جميع بن نجاة» قضاء الديار المصرية، ومات سنة ٥٥٠ ﻫ ، وعمل بمذهب الشافعي وأهل مذهب الدولة . كذلك تولى القاضي أبو الحسن علي بن الحسين المعروف بالخلعي الشافعي المذهب المتوفى سنة ٤٩٢ ﻫ قضاء الديار المصرية يوماً واحداً ثم استعفى ، كما تولى القاضي أبو محمد عبد الله بن رفاعه بن غدير الشافعي المذهب المتوفى سنة ٥٦١ ﻫ قضاء الجيزة

ونرى أن المذهب الشيعي كان رفيقاً في الجملة بمعاملة من حوله من أصحاب المذاهب السنية، فكان يجامل بعضهم بعضاً، فلقد ذكر السيوطي مثلاً أن أبا العباس احمد بن محمد الديبلي الفقيه الشافعي عند ما توفى بمصر في رمضان سنة ٣٧٣ ﻫ « لم يبق بمصر أحد إلاّ حضر جنازته »، وان القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر أبي محمد البغدادي المتوفى سنة ٤٢٢ ﻫ تولى القضاء ببغداد وما حولها، ثم تحوّل لضيق ذات يده إلى مصر العبيدية الشيعية، فأكرمت وفادته، حتى تبدّل عسره يسراً، ونعم بحياة هادئة سعيدة .

كل هذا يؤيد رأينا في أن العبيديين لم يفنوا من كان بمصر من أئمة المذاهب السنية

نفياً وتشريداً وقتلاً، ولم يقطعوا دابر تلك المذاهب السنية لأنهم علموا، وقد تمسك الجمهور المصري بها ولاسيما بمذهبي مالك والشافعي، أنّ من حسن السياسة أن يتحببوا اليهم، ويعطفوا على أئمتهم وقضاتهم ويشجعوهم.

ويمكن أن نبرهن على رأينا هذا بوقائع حدثت في أول حكم الفاطميين وأواخر حكمهم، إذ لما وصل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر وجد جوهر مولاه وقائده قد استخلف على القضاء «أبا الطاهر محمد بن احمد بن عبد الله الذهلي» القاضي السني المالكي على أيام كافور، فأقره وسمح له أن يصدر حكماً يغاير مذهبه الاسماعيلي. فقد عرضت لهذا القاضي قضية رجل (هو ابن بنت أوليجور) تظلم في أمر حمام وادعى ملكيته لأن جده لأمه أنشأه، وكان ينبغي أن تنتقل ملكيته إلى أمه حسب قانون الشيعة الذي ينص على توريث البنت جميع الميراث إذا لم يكن للميت أخ أو أخت، فأصدر أبو الطاهر حكمه وفقاً لمذهبه السني وقضى برفض دعوى المدعي في ملكيته الحمام، وبالرغم من تظلم المدعي بعد رفض دعواه للخليفة المعز لدين الله واحتجاجه لديه بأن القاضي حكم بمذهب يغاير مذهب الدولة الرسمي، فقد وقع المعز بخطه هذه العبارة التي لم نجد أقوى منها في تأييد رأينا هذا حيث قال: «يمضي في الحمام ما حكم به محمد ابن احمد». فهذا مثل ظاهر ناطق بأن العبيديين سمحوا في أول عهد حكمهم لمصر، بأن يحكم القاضي السني في دولتهم الشيعية بمذهبه السني.

ولما ازدادت الدولة الفاطمية ضعفاً في أواخر حكمها تولى القضاء سنيون حكموا بمذهبهم السني دون مذهب الدولة الرسمي الاسماعيلي، فقد ذكر ابن ميسر أن أبا علي احمد بن الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالي، رتّب أيام الحافظ لدين الله في سنة ٥٢٥ هـ في الحكم أربع قضاة يحكم كل قاضٍ بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان للشافعية الفقيه سلطان، وللمالكية الفقيه الليثي، وللاسماعيلية الفقيه أبو الفضل بن الأزرق، وللامامية ابن أبي كامل، لتمسك المصريين بمذهبي مالك والشافعي، وعدم انتحالهم المذهب الاسماعيلي، وهي أول مرة يتعدد فيها القضاة في الاسلام وفي مصر

ولما ولي صلاح الدين يوسف بن أيوب الملقب بالملك الناصر، وزاره الخليفة العاضد عبدالله أبي محمد، آخر خلفاء العبيديين، أزال مظاهر الدولة الاسماعيلية، ومحى دولة الرفض والشيعة، فهدم في سنة ٥٦٦ هـ دار المعونة بمصر وعمرها مدرسة للشافعية، وأنشأ مدرسة أخرى للمالكية وعزل قضاة مصر الشيعيين في ٢٢ جمادى الثانية سنة ٥٦٦ هـ، وقلد صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردي الشافعي سنة ٥٦٦ قضاء القضاة بالقاهرة، وجعل له الحكم في اقليم مصر كله، وعين بدل الشيعة قضاة من السنيين الشافعية الذين كان يدين بمذهبهم، بعد أن صرف قضاة

أمراض الوهم ان عدداً كبيراً من الامراض قد تنشأ أو يتضاعف فعلها استجابة لانفعالاتنا . وبالرغم من أن كثيراً من المتاعب الجسمانية سببها عقلي، فانها ليست متاعب «خيالية» ، بل انها على العكس من ذلك ، أعراضها حقيقية واقعة . وما ينشر من المؤلفات الطبية مفعم بذكر حوادث عجيبة، أحدثت أمراضاً سببها انفعالي في أكثر الامر .

(١) فتاة مخطوبة لفتى . تضمنت الانتحار إثر مشادة حادة معه ، ففزع أشد الفزع . وفي اليوم التالي بدأت رقبته تتورم ، وفي مدى شهر أجريت له عملية استئصال الادرة goiter .

(٢) امرأة كان يصيبها الحاق (جدري الماء) مساء كل يوم ، وظل يعاودها عشر سنوات كاملة . ولم يفد فيها علاج أية فائدة تذكر . وكان لزوجها أخ اعتاد أن يحضر مساء كل يوم الى المنزل ، فلا يفسح لها مجال الانفراد بزوجها . فلما كف عن ذلك ، لم يصبها الحاق وزال كأنما السحر قد أخذ بيدها .

(٣) امرأة أجرت أربع عمليات في بطنها ولم تشف ، حتى علمت أن اختها تزوجت ، وكانت هي تخشى أن تظل اختها عانساً .

(٤) امرأة أخذها المخاض فعادها طبيب وقابلة ، وظلا ساعات ينتظران أن تلد. وأخيراً تبين انها ليست حاملا ، ولكن رغبتها الملحة في أن يكون لها ولد ، قد أحدثت فيها كل أعراض الحمل الطبيعي ، الى الحد الذي غرر بالطبيب

(٥) أب دخل مدرسة فرأى ابنه في الملعب معصوب الرأس ، فغشي عليه وحمل الى فراشه مريضاً وظل متقاعداً . فانه رأى في صغره أخاً له أصابه الصرع إثر جرح أصابه في رأسه ، وكان يخشى دائماً أن يحدث ذلك لبعض أولاده .

(٦) شاب حمل الى فراشه يشكو آلاماً شديدة في بطنه . وكان قد فشل في امتحان الحقوق . فاتضح ان مرضه يرجع الى الخوف من ابيه ، وكان رجلا شديد الاخلاق وحشي الطباع ، وكان الشاب يعلم ان فشله في ان يكون محامياً ، سوف يثير غضب أبيه .

الشيعة كلهم وأبطل الخطبة والتدريس من الجامع الأزهر رغبة في ازالة كل أثر للفاطميين . وبذلك أخذ المصريون يرجعون الى المذهب السني الذي كانت له السيادة قبل الدولة الفاطمية ، وأصبح الشيعة يتظاهرون بمذهبي مالك والشافعي المحببين للمصريين ليبعدوا عنهم الانتقام

ولما تمّ لصلاح الدين الايوبي الأمر وأسس الدولة الأيوبية ، وهم من الأكراد الشافعية ، زاد في محاربة المذهب الاسماعيلي ، حتى لم يبق له أثر ، وقطع الصلة بيننا وبين العبيديين ، حتى لا نكاد نطلع على شيء من كتبهم في الفقه أو غيره

عطية مصطفى مشرفة



الاخلاق

وتناسخ الشخصيات

في عالم الحيوان ظاهرة يدعوها علماء الأحياء ظاهرة الانسلاخ . ولنضرب لك مثلاً بدودة القز . فإن هذه الدودة تخرج من بيضة صغيرة كحبة البرسيم بيضاء اللون ، فتكون أشبه بخيط أبيض يدب دبيباً . فإذا اغتذت كبر حجمها وزادت سرعة تنقلها وتجاوز نهمها كل تصور ، فاذا أدركها دور الشرنقة (أو الفيلجة) نقصت قدرتها على الحركة، وانقلب لونها من البياض إلى الاصفرار، وقلت شهوتها إلى الطعام ، وجنحت إلى غصن أو زاوية في مكان أو عُصَيّة ، وأفرزت من جوفها لُعَاباً إذا جفّ صار خيطاً حريريًّا ، ومضت تلف جسمها بذلك الخيط المتصل المشبع بمادة غروية القوام ، ليكون اذا جف كرة صلبة بعض الصلابة . فاذا انتهت من بناء هذه الفيلجة (الشرنقة) أصابها سبات ، فيجف قوامها ويتحجر، حتى انك إذا هززت الفيلجة في يدك ، خُيِّلَ اليك أن في جوفها مدَرَةً لها في جدار الفيلجة صوت أشبه بذاك الذي تحدثه كرة صلبة صغيرة ، عند ارتطامها بجسم صلب

إن الدودة ما تزال حية ، ولكنها لا ترزق . فانها في طورها السباتي هذا يغتذي بعضها ببعض ، وتتزوّد مما كان بها من الرطوبات ، ولكنها في الوقت ذاته تكون ماضية في التَّخلّق ، إذ تمضي في سبيل الانحراف عن صورتها الاصلية لتأخذ صورة جديدة — هي صورة الفراش . هي إذ ذاك خلقٌ آخر لا أثر للدودة فيه ، كما كانت من قبل دودة لا أثر للفراش فيها . حكمة بالغة في قوة الخلق والتصوير ، تقتصد بها الطبيعة زمناً وجهداً ، وتحفظ بذلك صورة من صور الحياة بدورة محكمة من دورات التناسخ ، فاذا تخلّق الفراش نقب جدار الفيلجة وخرج من جوفها حيواناً تام الخلق كامل الاستعداد للتناسل ، فاذا تم الضِّراب بين الذكور والإناث منها ، نبذت الطبيعة الذكور فماتوا لأنهم أتموا في الحياة واجبهم ، وخدموا الطبيعة فيما سخّرتهم له ، واذا وضع الاناث البيض ، حفظنَ بذلك مستقبل الحياة ممثلاً في تلك الصورة ، نبذتهنَّ الطبيعة ايضاً فَمُتنَ في هدوء مستسلمات للقضاء

حانيات للقدر ، منحدرات الى حيث انحدر قبلهنَّ آلاف وملايين من الأجيال سبقنهنَّ إلى تلك المهواة ، مهواة اللانهاية والأبد .

هذه الصورة الرائعة التي ترسمها الطبيعة كل يوم على لوحتها الخالدة ، صورة بريئة من كل ما تتخيَّل من صور العنف أو الشدة أو الجهد ، تلك التي تلحظها في حياة الحيوانات العليا ، حيث الألم سبيل البقاء ، والشقاء طريق الاحتفاظ بالنوع . فميلاد جيلٍ جديد من حيوان ضَرَبَ في نظام الطبيعة بسهم وارتفع الى صورها العليا ، يقتضي ألماً عند الولادة وألماً في التنشئة والحصول على الرزق ، وألماً في المرض ، وآلاماً مبرِّحة عند مفارقة الحياة . أما في تلك الدودة الحقيرة في صورتها ، العظيمة الفذة في حقيقتها ، فميلاد جيل جديد لا يقتضي إلا أن توضع البذرة ، وهي حمل تتخلص منه الأنثى ملتذة بالتخلص منه ، ولا ألم في التنشئة ، فان الطبيعة تتولى الصغار برحمتها ، ولا جهد في الحصول على الرزق ، فالرزق مكفول في جنبات تلك الأم العظمى ، ولا خوف من المرض لأن الحياة قصيرة ، والانتقال منها بلا تباريح من الألم ، بل ان موت الدودة عبارة عن انسلاخ من صورة الى صورة ، وموت الفراش انحلال طبيعي أشبه بانحلال البلورات في الماء ، وهو في الواقع تراخٍ يصيب الهيكل الحي ، وكلما اشتد غاض لهب الشعلة ، شعلة الحياة ، فاذا بلغ ذلك التراخي آخر درجاته ، انطفأت الشعلة ، كأنها قنديل هبت عليه النسمات .

* * *

لهذه الحالة العجيبة مثيلاتها في عالم الخلقِ الأعلى ، ونقصد بالخلقِ الأعلى خلق الانسان المتمدين الذي شبت في نفسه جذوة من جذوات الحياة لا يعرفها عالم الحياة الأدنى . وإذا قلنا إن لهذه الحال مثيلات في عالم الانسان ، فلا نقصد حالات الانسلاخ العضوي الذي يصيب الدودة فتصير فراشاً ، وإنما هو انسلاخ من نوع آخر . انسلاخ يصيب الشخصية بمقتضى مجموعةٍ من الظروف والشهوات والانفعالات التي ظهرت آثارها في الانسان ، ومضت تحتكم في ظواهره ، وفي بعض الأحيان في أهم ظواهره ، باعتباره انساناً له مفهوم خاص بعيد عن مفهوم غيره من صور الحياة .

ولا ريبة في أن أهم مظهر من مظاهر الانسان هو خلقه وصفاته الأدبية العليا التي قضت من ناحيتها على صلته الوثيقة بالحيوانية ، وجعلته في منطق الطبيعة مقولة برأسها ، تكاد تنفصل انفصالاً تامًّا عن بقية مقولاتها .

من رأي العلامة « دروين » ان الأشياء التي يمتاز بها الانسان على بقية الحيوان كثيرة

ومتعددة . غير أنها أشياء يمكن بالبحث الاحيائي أن يرجعها المتأمل إلى أصول لها في صور الحياة الدنيا ، فيكون الاختلاف الملحوظ بينها باعتبارها أشياء انسانية أو باعتبارها أشياء حيوانية، إنما هو اختلاف من حيث الكمّ ، لا من حيث الـكَـيْـف . ولقد استطاع العلامة «دروين» أن يستقرىء من صفات حيوانية، بدايات صفات انسانية عليا ، ردّها إلى النشوء وجعل مرجعها تأثيرات طبيعيـة كالبيئة والوراثة وغير ذلك . على انه على الرغم من ذلك وقف عاجزاً عن تعليل نشوء بضعة صفات انسانية ، وتعذر عليه أن يجد لها بدايات ترجع اليها في عالم الحيوان . من هذه الأشياء حِسّ الموسيقى وحِسّ الجمال وحِسّ الضمير وغيرها من الحسواس الأدبية ، التي جعلت من الانسان تلك المقولة المنفردة بذاتها في منطق الطبيعة ، مقولة لا يشاركها من عالم الحياة شيء في بعض صفاتها المثالية .

إذا خرجنا من هـذا البحث الاحيائي ، ومضينا في بحث نتناول فيـه بعض الظواهر الأخلاقية وتطورها المؤقت بحسب الظروف المحيطة بالفرد ، استطعنا أن نستدل منها على ان العلامة « دروين » ان عجز عن رد بعض الصفات العليا في الانسان إلى بدايات حيوانية ، فان

اقرأ وافهم

يقول رسكن : لا أعجب لما يقاسي الناس من الآلام والحرمان ، وانما أعجب لما يفوتهم من الفوائد .

ولاشك في أن الانسان لا يفوته من شيء تتعذر استعاضته ، لان فواته فوات لمتعة حقيقية، من القراءة بحذق وفهم . وقد دلت الاحصاءات الدقيقة على أن كثيراً من الشيوخ والشباب تفوتهم هذه المتعة العليا ، وان الذي يصرفون انتباههم في قراءته ، انما هي الاشياء ذوات اللذة العابرة التي لا بقاء لها في الذهن ، ولا أثر لها في التثقيف إلا قليلا ، وفي جهات قلمـا تفيد الانسان في حياته حكمة يرجوها أو تجربة يتعظ بها .

كان من المؤمنين بأن قراءة الفهم لذة تفوق كثيراً من اللذات ، طالب علم مر بقرية أقيم في ناديها مرقص حافل في ليلة مرح ، فاقتحم المرقص وأخذ يتلو من كتاب « دون كيشوت » سطراً بعد سطر بصوت عال ، ويعقب على القراءة بشرح المغزى المستفاد مما قرأ .

سمع له أول الامر فتى أو فتيان ، تركا حلقة الرقص في خجل ، ولـكن محاضرته انتهت بزمرة عديدة ضمت جميع المراهقين والمراهقات من فتيان القرية وفتياتها .

الفيلسوف المتأمل أو الباحث السيكولوجي ، قد يقع على طرف من تلك البـدايات إذا هو نظر فيما يصيب الانسان من تناسخ أخلاقي ، إذ تتعاقب عليه صور مختلفة من شخصـيات تلابسه ، ولـكل شخصية حالة تنتجها ، وصورة تؤول اليها .

والحالات التي تحـدث تعاقب تلك الشخصيات قسمان ، قسم ذاتيّ ، وقسم موضوعي ، ونقصد بالذاتي ما يصدر عن النفس مباشرةً ، فهي أشياء طبيعية فطرية ، وبالموضوعي ما يصدر عن ظروف تحيط بالفرد فتؤثر في نفسه تأثيراً يختلف باختلاف الاستعداد الخلقي ، فهي أشياء اصـطناعية مفتعلة . ومثلنا على الحالات الذاتيـة الحزن والفرح والخوف والانفعال والتّشهّـي وغيرها ، فجُمَّـاع هذه أشياء تصدر عن النفس بأفعال انعكاسية لا قِبل للارادة بالتحكم فيها . ومثلنا على الحالات الموضوعية ما يصطنع الفرد من ظواهر ، وما يتخـذ من أساليب ، تضيف إلى شخصيته الصحيحة أشياء تنكـرها ، توصلاً الى إرضاء شهوات دُنيا تقوم في نفسه ، وقضاءً لمآرب دنيوية ، كالتشـامخ والتـكبّـر والترفع عن الناس والتنابذ بالألقاب وتخليط القيم الأخلاقية ابتغاء التمويه على مثالياتها حتى تـكن الصـفات الفاضلة ، فيروج في سوق الدنيا تكبر المتكبر وتشامخ المتشامخ ، وما إلى ذلك من الصفات التي اصطلح الأخلاقيون على تسميتها رذائل الخُـلُـق .

***

وفي الحيوان من ذلك بدايات . ولـكنها ترتد جميعاً إلى انفعالات تفيد الحيّ في حالات حياته . فاذا انتفخ الهر أو كشر عن أنيابه الأسد أو هرّ الـكلب ، فتلك صـفات تلابس الحيوان اتقاءً لظروف تحيط به . فلما سيطر العقل على الأشياء الانسانية نهضت هذه البدايات الحيوانية، فتطورت مستخفية في الخلق الانساني ثم ظهرت في صورة مصطنعة يلجأ اليها الفرد إذا أراد أن يحاكي الهر إذا انتفخ ، والأسد إذا كشّـر عن نابه ، والـكلب إذا هرّ . وبذلك بدا في أفق الخلق البشري طابع تلك البدايات مصورة في صورة خُـلُـقٍ اجتماعي مصطنع ، فيحاول أصحاب الخلق الخسيس الضعيف إحياءها في أنفسهم ، ليحصلوا بها على نفس الأثر الذي أرادت الطبيعة أن يكون لتلك الانفعالات الحيوانية التي صوّرناها . ذلك بأن طبيعة التطور ، لما رأت أن تلك الصفات لم يصبح للانسان المتمدين بها من حاجة ، مضت تكبتها وتقمعها ، ماضية بها في سبيل الاضمحلال ، شأنها في ذلك كشأنها مع كثير من الصـفات العضوية التي مضت بها في سبيل الزوال ، بزوال الحـاجة إلى الوظيفة التي كانت تؤدّيها . فالعودة الى استخدام مثل هذه البدايات كالعودة إلى تحريك عضلات الأذن في الانسان مثلاً ،

تكون مصطنعة مفتعلة بعيدة عن حاجات الطبع وأشياء الحياة الضرورية .

تلك أشياء تدلنا على أن الانسان الذي تنسخ شخصيته ، فتزول صورتها الأولى لتلابسه صورة ثانية ، بمقتضى ما يحيط به من ظروف المجتمع ، انما هو في ذلك كالمهرّج الذي يلبس من الثياب ما يلائم الدور الذي يحاول أن يلعبه أمام الناس ، فتتوالى عليه الصُّور التي يصطنعها بنفسه ، وهو في جميعها كذّاب مُضَلِّل أفّاك .

وإنك ان تأملت في نفسية الطفل الصغير رأيت أن الطفل قد يلجأ إلى ما يلجأ اليه الحيوان بعض الأحيان من ضروب التنكّر الخلقي ، فقد ينتفخ كما ينتفخ الهر ويكشر عن نابه كما يكشر الأسد مثلاً . ولكن الطفل إذا أتى ضرباً من هذا التنكّر فانما يأتيه عن طبع أصيل . ذلك بأنه في طفولته يكون أكثر احتياجاً الى استخدام هذه الأساليب الحيوانية منه إذا كبر وشبّ واكتمل عقله ، واستبانت مواهبه الانسانية، وأصبح أكثر معرفة بطبيعة الظروف التي تحيط به . وهذه الظاهرة وندعوها ظاهرة « التنكر الخلقي » تبدأ بالضعف والاستخفاء كلما تحوَّل الطفل إلى طور الفتوة والشباب ، وتكمن وتكاد تزول إذا بلغ الفرد سن الرجولة العاقلة .

غير أن مقتضى الظروف المدنية في المجتمع الحديث قد تقلب تلك الظاهرة قلباً كليّاً ، فتخرجها من مجالها الطبيعي إلى مجال مصطنع مفتعَلٍ ، فتنقلب من « تنكّر خلقي » دعت إليه الطبيعة في الحيوان وورّثته الإنسان في بداياته الأولى لحاجات حيوية صرفة ، إلى ما ندعوه « تناسخ الشّخصيّات » ، وهذا التناسخ ان استمدّ أصلاً من صفة التنكّر الطبيعية، فانه في حياة الانسان العاقل المتمدين ليس إلاّ صفة أثرية يدعو الى استخدامها ضعف أخلاقي نأنسه في كثير من الناس ، إذ تجد أن الفرد الواحد منهم قد انتسخت شخصيته مرات عديدة في مدى حياته ، بحسب الظروف التي تحيط به . وهؤلاء هم أضعف الناس خلقاً وأرذلهم طبعاً وأدناهم نفساً . أولئك هم الارقاء ، الذين يخيل اليهم أنهم أحرار ، أولئك هم الديدان التي تنسلخ فتصير آناً فراشاً وأخرى دابة أو حشرة . هم أولئك الذين ضعفت عقولهم عن تقييم حقيقة الحياة الانسانية ، فارتدوا الى حياة الحيوان . أولئك هم الذين لا يعرفون لحياة الناس قيمة الاّ اذا عصرتهم ظروف الحياة ، فابتزّت منهم نزعة ذلك التصنع ، الذي هو من كواذب الأخلاق .

راقصة الفالس

لما تنازعها الهوى واستحكم الوجد الدفين
قامت لتعرب عن جوىً وبجفنها دمعٌ سخين
فاستعجمت عن شرح شكواها وقد غلب الحنين
كم موقفٍ لحَنَ اللسا ن به وأعربت العيون

عيَّ البيانُ ولم يحرْ لما تكلمت الفنون
وأصاخ مشتاق إلى الأوتار فانهلّت شؤون
فكأنما الألحان في الأسماع من شجوٍ أنين
شرقت بمدمعها العيو نُ وناح من وجدٍ حزين

لحنٌ أثار بها الهوى والوجد مبعثه لحون
تمشي ويثنيها الدلا ل كما تمايلت الغصون
حتى توسطت الجمو ع وساد في الجو السكون
فأتت من الابداع ما أغضت لروعته الجفون

نطقت بما راح الصبا يمليه والسحر المبين
فاذا الكلام اشارةٌ عن غامض المعنى تبين
صورٌ يخيل أنها الأحلام تمليها الظنون
فارتابت العينان مما أعربت ، وهو اليقين

للجسم رعشةُ مدنف لما تساوره المنون
أو هزة الداء الدفين اذا تملكت الشجون
والخصر من هيف يخا ل به سقام وهو لين
للفن ألوان كما للحسن في الدنيا فنون

وتدور كالمصروع عا وده من الماضي جنون
طوراً تسير الى الأما م كما تخلجت السفين
وتصد كالمذعور لما أرعشت منه اليمين
وبعينها للظامئين لمنهل الرؤيا عيون

دمشق — عدنان مردم بك

ألكم الذكر وله الأنثى ؟

هل تسنّى للعلم أن يعين النسل؟

هل سيكون ذكراً أم أنثى ؟ سؤال يَتَـرَدّد في نفس كل حامل — وتظل الأسرة في حالة ترقب حتى تنفصل حياة الوليد من عالم الغيب . فاذا تنفس صبح حياته ، وعرف نوعه قيل ذلك ما كنا نبغي. ولـكن كثيراً ما يتلهف قلب أم لها ستة أبناء ، أن يكون لها بنت أو أب له ست بنات ، يتمنى لو أن له ابن يحفظ اسم الأسرة ويرث مجدها . فاذا كان عاهلاً أو ملـكاً ، فأعباء الملك ! من ذا الذي يضطلع بهـا من بعده ؟ تلك مشـكلة من مشـاكل الحظ التي نشأت بنشوء الانسـان ، وكبرت مع آماله وانتعشت مع خيالاته وشـهواته . أيستطيـع الانسان أن يتحكم في الحياة فيتعين النسل ؟

ظلّ العلم حتى عهدنا هذا قليل الجدوى في هذه الناحية . والأحاديث المتناقلة بين الناس أقل منه جدوى ، وفيها من الخيـال والأسطورة ، ما في قراءة الـكف أو استقراء الحظ من أوراق اللعب . ولقد ذاعت منذ أزمان موغلة في القدم ، أحاديث ، ورويت مرويّـات وماتت كما ولدت ، بلا فائدة جنيت ، ولا حقيقة كشفت ، وظلّ ذلك الأمر من المغيّبات . قيل بان تعيين النسل يرجع إلى دور الأنوثة ، وإلى أوجه القمر ، والاستحمام بماء فيه قلوية أو حمـضية ، عنـد اكتمال وجه من وجوهه . فلم يُـجْـدِ شيئاً من ذلك ، وظلّ معدل المواليد من حيث الجنس ، واقفاً عند ١٠٦ ذكور لـكل ١٠٠ إناث .

غير ان التجارب التي أجريت حديثاً في الاستيلاد ، قد دلت على أن تعيين النسل ممكن ، وإن معرفة جنس المولود من المستطاع التنبؤ به . أجريت التجارب في ذبابة الفاكهة أول شيء ، فقال الذين يعلمون : إذا كانت آليّـة الوراثة واحدة في الأحياء ، فلماذا لا يصدق على الانسان ما يصدق على غيره ؟ والعاكفون على مشكلة الاستيلاد الآن ، لا يستطيعون أن يعينوا جنس المولود أذكراً هو أم أنثى فحسب ، بل هم يقدرون على أن يعينوا جنس المولود بحسب ارادتهم باقترانات يختارونها. ومما هو جدير بالذكر إن لدى العلم الآن وسائل يُـقْسِمُـنا بها السبب في ذلك

كل ذلك إنما يرجع إلى الراهب النمسوي الخالد « جريجور مندل » الذي أدت تجاريبه الخالدة في نبات البسلّـة ، إلى الـكشف عن أسـاس الوراثة . فإذا فرضنا نباتاً يخرج بسلّـة

سوداء ، وآخر يخرج بسلة بيضاء ، إذا تلاقحا ، لم يخرج تلاقحهما حبوباً كلها سود ، ولا حبوباً كلها بيض ، بل يجيء النسل خليطاً من اللونين ، بنسبة ثلاث حبات سود ، وواحدة بيضاء . فدلَّ ذلك على أن السواد صفة « نافرة » Dominant والبياض صفة « منفورة » Recessive . فاذا استنبت هذه الحبوب عدداً مناسباً من الأجيال ، عادت جميعاً إلى السَّواد .

إن هذا انما هو تبسيط لقانون كثير الشعب كبير التَّعقُّد . ولكن هذا البحث كافٍ لفهم المبادىء التي حققت في وراثة الجنس Six . — فلون الشعر والعين أو تركيب الفك أو الجبهة في أسرة من الأسر ، إنما هي صفات تنحدر فيها من الآباء ، وكذلك يورث الجنس — الذكورة أو الأنوثة ، من نفس تلك الآلية الوراثية .

إنَّ العنصر الذي له الأثر المباشر في تعيين النسل من حيث الجنس ، هو في الواقع حقيقة طبيعية نستطيع أن نلحظها تحت عدسة المجهر . ففي كل خلية من خلايا الانسان ٢٤ زوجاً من العناصر الحاملة للصفات الموروثة نعرفها باسم الصبغيَّات : Chromosomes ، وواحدة فقط من هذه الصبغيات تؤثر في تعيين النسل . وقد عيِّنت هذه الوحدة الصبغيّة في الأنثى بالرمز (س) . ولكن هذه الصبغية المعينة للنسل في الذكر تمتاز بعُقْدَة صغيرة مستقرة فيها ، ويشار اليها بالرمز (ي) .

عند التناسل تمتزج الصبغية السينية بالصبغية اليائية وبعيد قليل تبدأ الخلية الملقحة في الانقسام ، فاذا صارت خليتين ، أخذت كل منهما نصف الصبغيتين الممتزجتين . والنصف الذي يحتوي العقدة من العنصر اليائي (الذكري) يمَّحي ، مفسحاً الطريق للنصف الآخر حتى ينشأ وتتخلّق فرداً جديداً .

حدثت ظاهرة عجيبة لاحظها دكتور « و . جوون » ودكتور « هـ . نلسون » من جامعة « آميس » ، وكان كلاهما يجرّب في ذباب الفاكهة ، فان زوجاً من هذا الذباب ظلَّ يلد ذكوراً صرفاً ، لغير سبب معروف ، فأثار ذلك فيهما رغبة البحث العلمي ، فزاوجا أنسال ذلك الزوج ثمانية أجيال ، حدث خلالها أكثر من ٥٠٠ اقتران ، فلم تخطىء القاعدة ، وكان النسل ذكوراً كله . وكان قد سبقهما باحث آخر ، هو الاحيائي « جرشنسون » ، وقد استولد عشرة من هذا الذباب ، حملت إناثه ذلك العنصر الذي لا يحدث الذكور ، فكان نسلها إناثاً كله .

والوراثة في الذباب تُحكَم بنفس الآلية الصبغيَّة ، كما في الانسان . ومن المعروف أن الصبغيَّات نفسها ، تتألف من عناصر أصغر منها سميت المورِّثات : Genes تماسّ كأنها خَرَزَات في سِلْكٍ ، وكل مورّثة من هذه المورثات تعيّن صفة خاصة في الفرد الناشىء .

منزل في البادية

تزوج رجل من بني عامر بن صعصعة امرأة من قومه ، فخرج في بعض أسفاره ، ثم قدم وقد ولدت امرأته ، وكان خلفها حاملا . فنظر الى ابنه فاذا هو أحمر غضب أزب الحاجبين فدعاها وانتضى السيف وأنشأ يقول :

لا تمشطي رأسي ولا تفليني . وحاذري ذا الريق في يميني . واقتربي دونك خبريني .
ما شأنه أحمر كالهجين . خالف ألوان بني الجون .

فقالت تجيبه :

إن له من قبلي أجدادا . بيض الوجوه كرماً أنجاداً . ما ضرهم إن حضروا مجاداً .
او كافحوا يوم الوغى الأندادا . أن لا يكون لونهم السوادا .

قال العربي بلغة العلم لزوجه وقد شك أن الولد ابنه : لا تقتربي مني فلا تنفي رأسي ولا تمشطي شعري، وحاذري السيف اللامع (ذا الريق) في يميني ، فاني أراه أحمر غضب (شديد الحمرة) أزب الحاجبين (كثير الشعر فيهما) نخالف الجون (اي السود) وهو لوني ولون قومه ؟ فقالت تجيبه بلغة العلم أيضاً : لي أجداد بيض الوجوه انجاد (شجعان شداد البأس) لا يضرهم ان كانوا في مجاد (اي في معارضة وتذاكر بالمجد) او حاربوا الانداد (النظراء) ان يكونوا بيض الوجوه ؟ فصفة البياض في الولد موروثة عنهم ، فظهرت فيه نافرة (غالبة) لصفة السواد ميك التي ارتدت منفورة (مغلوبة مقهورة)

والمعتقد عامة أنّ بعض هذه المورثات قد تبيد بعضاً ، عند حدوث الالقاح . فالصبغيّات البائية، عندما تدخل البيضة الملقحة فلا تجد لها زميلاً تقترن به، حيث يكون النصف الآخر من عنصري الجنس وهو النازع إلى الأنوثة قد بادَ وفَني ، يتحقق إذ ذاك أن ينشأ فرد ذكر.

وقد كشف عن أنّ صفة إنتاج الذكور قد ترثها البنت عن أبيها ، وفي مثل هذه الحال تكون الأنثى مذكاراً ، بغير اعتبار لمن يستولدها من الذكور . وبالرغمُ مما يعتور هذا البحث الاحيائي من تعقد، فقد استبان للباحثَين « جُوون ونلسون » أن النزعة إلى إخلاف جنس بعينه، قد تنتقل في السلالات بمقتضى قانون مندل، وبذلك يمكن التحكم فيها .

ومحصل القول ان الذكورة صفة « نافرة » Dominant ، وبمقتضى قانون مندل الرياضي ينتج الجيل الثاني الناشيء عن الأبوين الأصليين ثلاثة ذكور تلقاء أنثى واحدة ، كما ينتج نبات البسلة ثلاث حبات سود وحبة بيضاء ، حذواً بحذو . فاذا استولدت أنثى من هذه الاناث من شقيقها ، فتغلب الصفة « النافرة » بتفوّق ، ويخرج نسلهما ذكوراً كله . وبهذه الطريقة استطاع المجربون في استيلاد ذباب الفاكهة أن يستولدوا نسلاً كله ذكور في ثمانية أجيال .

ثبت بذلك أن تعيين النسل في ذباب الفاكهة من المستطاع التحكم فيه إذا استهدينا بقوانين مندل في الوراثة . فهل يمكن تطبيق ذلك في الانسان . والجواب : انه لا يقوم حتى الآن سبب علمي يحملنا على الشك في إمكانه . ذلك بأن الانسان يحمل عنصر الوراثة اليائي ، كما يحمله ذباب الفاكهة .

إذا تزوّج ستة عشر زوجاً ، فولد كل منهم أربع بطون ، فان قانون المرجّحات الرياضية ، يحملنا على أن ننتظر أن يكون منها أسرة واحدة تنجب أربع بنات . ولكن الآباء في مثل هذه الحال لا تكون منتخبة — فانها عندما تزاوجت لم تكن قد زُوّجت بفرض انها تنجب جنساً معيّناً . على اننا نعرف جميعاً ان هنالك أسراً كثيرة ، يغلب في نسلها أحد الجنسين ، الذكور أو الاناث . وكثيراً ما نسمع ان أسرة « فلان » تنزع إلى الذكور وأسرة « علان » تنزع إلى الاناث . ولسنا فيما نسمع من ذلك إلاّ كمثل من يتلقى من ألسنة العامة درساً من أعمق ما توصل اليه علم الأحياء من بحث وتمحيص لحقيقة التناسل وتعيين جنس الانسال . والواقع في مثل هذه الحال ان الابوين البشريين يكونان قد انتخبا لا شعوريًّا ، في حين أن الابوين في ذبابة الفاكهة يكونان قد انتخبا عمداً أي اصطناعيًّا .

فاذا استطاع العلم أن يحكم التناسل في الانسان كما يحكمه في ذباب الفاكهة ، فأنت اذاً مخيّر في أن يكون لك ولد أم بنت ، على شرط أن تنتخب المرأة التي تنجب منها . فان مطلق نثى لا تكفي للحصول على النتيجة المرغوب فيها . إنما تجدي في ذلك أنثى ورثت القدرة على تعيين جنس النسل بصورة « نافرة » عن أبيها .

لماذا يحدث الآن أن طائفة من الأزواج تنسل ذكوراً وإناثاً في آن واحد ? ففي الأسر التي يغلب الذكور في نسلها ، يعلل المِنْدِليّون ذلك ، بأن صفة الذكورة نافرة في الزوجين ، وصفة الأنوثة منفورة . فاذا تزوج أبناء هذه الأسرة من أبناء أسر عرف أن النزعة في نسلها إلى الذكور ، كان الأذكار طابَعُها . وهكذا يمكن أن ننجب الاناث بحسب إرادتنا ، إذا عنينا بانتخاب الزوجين .

وقبل أن يصبح تطبيق قانون مندل على الانسان أمراً عمليًّا منتجاً ، بحيث يمكن إنجاب نسل من جنس معين ، ينبغي أن يسجل تاريخ كل أسرة وكل فرد من أفرادها . وبعد مرور عدد من الأجيال يسهل أن نزاوج أفراداً ينجبون الذكور أو الاناث باختيارنا . ولكن أنا لنا بالقانون الذي يحكم الانسان من حيث اختياره الجنسيّ ، على نفس الصورة التي يحكم بها المجربون ذبابة الفاكهة في مختبراتهم ?

طابع السياسة الدولية

في عالم ما بعد الحرب



قد يتبادر إلى ذهن القارىء من عنوان هذا المقال ، أن ثمت مجالاً فسيحاً من الحدس والوهم يسود مرامي البحث وعناصره ، وأن الفروض الطليقة من كل قيد أو رابط، هي التي تصوغ الاتجاهات السياسية لعالم ما بعد الحرب،وتمنحها خصائصها الوهمية وطابعها المبتدع .

غير أن منطق الواقع ، أو وحي الحوادث ، الذي تستهديه الأبحاث السياسية المعاصرة وتحكمه الاجتماعات الدولية المتعاقبة في شتى ما يعرض لها من مشاكل الاجتماع الانساني المتطور ، هو الذي يوطد الأسس الراكزة لجملة النواحي الجديدة وآفاق النشاط الموموقة في عالم الغد ، وهو الذي يُرجى لأن يُستخلص من مواضع النقص ومواطن الضعف في نظم الحاضر السياسية والاقتصادية ، مواد جديدة وعناصر حية ، يهتدي بها هذا العالم الجديد إلى تحقيق مثله المكنونة في واعيته الباطنة ، فتفتح لطموحه واستعلائه ، أهداف السعي إلى ما ينشد من كمال ونضج .

والحق أن للانسانية في كل مرحلة من مراحل الزمن ، وفي كل طور من أطوار التقدم ، حاسة وجدانية مشبوبة، تُصوّر لها في عالم الفكر المجرّد «مركبات الكمال» التي تعوز حياة الواقع وتُصلح من تشوّه أوضاعه . وهذا الأمر الشاهد — وإن تبدّى لها في صورة « المثالية المحلقة » التي كثيراً ما تصول عليها سطوة الواقع ، فتنأى بها عن حيز الامكان والقدرة ، وتقف بها عند حدود الأحلام والأماني — لا يزال النبع الدافق الذي ترده هذه الانسانية الهائمة كلما أزمتها عواصف الانقلابات والقلاقل أو شتى العوارض التي تنتاب ركب الحضارة في مراحل الانتقال وأزمنة التحول .

والمثاليّة التي نعني هنا هي ضرب من « اليوتوبيا » التي يسوق إليها التطوّر ، بل ويفرضها منطق الحياة على الأحياء ، فيستهدونها بباعث من نزعات الألهام والخيال التي تسيطر على الحياة باعتبارها فكرة ، محاولين أن يستخلصوا من تطبيقاتها العملية في مختلف

مجالات نشاطهم، بالقدر الذي تسمح به ظروف الحياة وملابساتها ، وقد يذهب الغالون منهم في « المثالية » مذهباً بعيداً ، لا تحتمله أقيسة الواقع وتأباه طبائع الأشياء .

ومشكلة الحضارة العالمية الراهنة، تنحصر في كيفية التوفيق بين هذا الضرب من «اليوتوپيا» وبين منطق الواقع ، أو بمعنى اخر ، بين منازع الكمال والاستعلاء المستكنة في ضمير الانسانية ووجدانها ، ومقتضيات المحيط المادي بنظمه وأوضاعه ومذاهبه .

هذا الأفق المثاليّ الذي يكشف عنه اقتران عالم الواقع بعالم المثال ، هو مناط الحضارة الانسانية المثلى ، ولون الحضارة التي ينشدها الناس في عالم الغد .

ولقد كان الانسان وما زال محفوزاً بغريزته الاجتماعية الى مشاركة أفراد جنسه لون الحياة التي فرضها عليه المحيط المادي على تفاوت مراتبها عَبْر حقب التاريخ الانساني المتتابعة. ولما كان الفرد المعتزل كائناً خياليًّا لا وجود له إلاَّ في مخيلة القائلين بهذا الوهم الجدليّ ، أمكننا أن نقطع باستحالة قيام مجتمع إنساني لا يكون قوامه روح التعاون وإرادة الحياة المتضامنة بين أفراده ، وأمكننا أن نقطع أيضاً بأن اطراد التضامن ودوامه بين أعضاء الجماعة لا يتحقق بغير ضمانات إجماعية تحميه من طغيان الوثبات التي تنشز على الارادة العامة للجماعة ، وتعارض رغبتها في أن تحيا متعاونة متضامنة يشد بعضها بعضاً .

ومن ثمَّ كان نشوء فكرة «السلطة» إرادة أخلاقية منبثقة من ضمير الجماعة، صوّرتها الحاجة وحدّدتها الخصائص الاجتماعية المركوزة في طبيعة الانسان . وهذه الحاجة هي انعكاس لشعور الخوف الغريزي الذي ينتاب الانسان عند انفعاله بدوافعه ، فيحفزه إلى الاحتيال لتجنب عواقبه ودفع أخطاره جهد الطاقة. ولقد كان لعامل « الخوف» فضل يذكر في ترقية غرائز التضامن والتعاون عند الانسان وإكمالها تدريجاً ، حتى وصلت أوج نمائها الاجتماعي في صورة « الدولة » ، مما حدى ببعض أعلام الفكر السياسي الحديث إلى أن يعزو نشوء الحضارات وتطوّرها إلى عامل الخوف وحده ، لبروزه وتفوقه على سائر العوامل الأخرى[1]

فالدولة بشقيها الطبيعيين ، السلطة الحاكمة والرعية المحكومة ، انعكاس واقعي لفكرة أخلاقية أصيلة في الطبع الانساني، قوامها إرادة الحياة في صورة أرقى؛ وهدفها حفظ هذه الصورة موصولة أبداً بالعوامل الاجتماعية التي تعين على استعلائها وتطورها حتى تماشي السنن التي تقضي بأن تجاوز الحياة نطاقها وتفوق نفسها على وجه الدوام .

ولعلَّ الذي يؤكد سيطرة الفكرة الأخلاقية على نشأة الدولة، ما نشاهده في كل مجتمع

(١) راجع H. Laski ; A Grammar of Politics, P. 20.

سياسي ، مهما كان حظه من مراتب التحضر ، من اقتران مبدأ « الجبر الاجتماعي » Cœrcion بحاسة الشعور العام، أو ما يمكن أن نسميه بالوعي « الجمعي » الذي يكاد يقوم من الجماعة مقام الضمير عند الفرد، وإن تفاوتت بالطبع معايير هذا الوعي ومثله العليا، بتفاوت حظوظ الرقي والاستنارة بين الجماعات .

فالدولة في جوهرها مزاج تألف من ازدواج جانبين بارزين من جوانب الطبيعة الانسانية ، وهما جانب الهيام بيوتوبيا المثل ، وجانب التقيد بمقتضيات الواقع والتزامات الحياة . والفكرة المثالية تتركز كما ذكرنا في إرادة الجماعة السياسية لحياة أرقى ، أما التزامات الواقع فتتمثل في الحرص على الاستعانة «بالقوة» كمبدإ ووسيلة، إلى بلوغ ما تهدف اليه تلك الارادة [1] من ممكنات .

وهكذا كانت «القوة» وما تزال قرين حق الحياة عند الأفراد والجماعات، وإن تفاوتت أقيستها فيما بينهم بتفاوت البواعث والغايات والأهداف .

بيد أن مراحل التحضر والرقي التي اجتازها الانسان على مدى الزمن ، عكست فيه شعور الايمان بجدوى « القوة » في تنظيم حياته إلى إحساس بالتوجس والحذر من شرورها ، بل لقد جاوزت الحذر إلى الخشية الدائمة من جانبها السلبي لطغيانه الدائب على نواحيها الموكولة بإقرار كل ما يرمي الاستقرار والتوازن في حياة الجماعة . ولما كان الانسان حريصاً على حريته ، مفطوراً على مناهضة كل ما يعوق انفساح مجال العمل أمام إرادته ، لم يجد بداً من استهداء حاسته الاخلاقية لترسم له ميزان التعادل بين كفة « القوة » ممثلة في سلطان « الجبر الاجتماعي » ، سواء أنهض به الفرد أم إجماع الأغلبية . وبين كفة « اليوتوپيا » ممثلة في نزوعه الأخلاقي إلى صورة أفضل لحياة الواقع . وفي هذا يقول الاستاذ « نيبور » :
«إن السياسة ستظل على مدى التاريخ ملتقى تتقابل عنده القوة بالضمير الانساني ، وثمت نجد المثل الأخلاقية تتصادم بالعوامل المكونة لسلطان الجبر المسيطر على الحياة الانسانية ، فهي لاتني ترقق من غلوائها ، حتى تقضي على تلك العناصر التي تعوق تحقيق التوازن والتعادل فيها » [2].

ومنذ أن نشبت الثورتان الأميركية والفرنسية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر

---

(١) راجع E. H. Carr ; Twenty years' Crisis, P. 124.
(٢) راجع R. Niebuhr; Moral Man and Immoral Society, P. 4, 77

* * * * * * * * * * *

واعظ يؤيد كوتون ماذر ــ Cotton Mather واعظ بيوريتاني (أي من المحضين) أيد بصلابة وشجاعة فكرة التطعيم اتقاء الجدري .

وعالم ينفي ولقد مضى في تأييد ذلك الكشف العلمي الخطير بالرغم مما نشر عنه من النشرات وقيام الجماهير بالتظاهر عليه ، وقد اتهموه بأنه يناصر الشيطان لانه بما يؤيد العلم ، يخرج العناية الآلهية من حياة البشر . ولكن «ماذر» ثبت في موقفه ولم يتزعزع ، وحمى بنفوذه ورجاله دكتور « زدبيل بويلستون » وهو طبيب علم نفسه بنفسه ، وكان في أثناء وباء بالجدري شديد الوطأة سنة ١٧٢١ ، قد طعم ابنه الوحيد ، وولداً آخر وخادمين أسودين . أما أبناء « ماذر » الستة عشر ، فقد أصيب أربعة منهم بالجدري من قبل .

وتلى ذلك صراع صحفي بين « ماذر » و « جيمس فرنكلين » شقيق بنيامين فرنكلين مكتشف مانعة الصواعق . واستمر ذلك الصراع بين أنصار الاول وأنصار الثاني . أولئك يؤيدون استخدام الطعم ، وهؤلاء يقاومون استخدامه ، وأنصار « ماذر » دينيون وعاظ ، وأنصار « فرنكلين » علمانيون . وهذا من روايات التاريخ الفذة . واعظ ديني يؤيد العلم ، وعالم يؤيد الدين .

* * * * * * * * * * *

أخذت طلائع « المثالية الجديدة » تصور لجزأ جديداً لحقوق الانسان، وتصوغ له الضمانات الكفيلة بالذياد عن حرياته من شتى ضروب العسف التي تنتاب المجتمع السياسي في فترات تدهوره وانتكاسه ، ومن ثمّ جازت الحضارة الانسانية ، بعد حقبة مديدة من الطغيان والجور ، بعصر « الفردية » التي تميزت بحقها المكتسب في أن تستقل باختيار لون الحياة التي تمكنها من استغلال قوى إنتاجها في محيط المجتمع . وقد كان لهذا الاتجاه الاجتماعي في مطالع القرن التاسع عشر ، رد فعل آخر أشد عمقاً وأقوى مظهراً من سالفه ، إذ انتظم الأفراد باعتبار أجناسهم ، وشمل الأجناس باعتبارها مجموعات سياسية ، ترغب في استكمال شخصياتها الدولية ، فانبعثت تيارات القومية من مهابها لتحقق وحدات الشعوب الأوربية المفككة ، ولتوجه السياسة العالمية وجهة جديدة متطرفة ، برزت خصائصها في أواخر القرن الماضي ، عند ما تلبدت في سماء الأفق الأوربي سحب الدعوة الى مناصرة الجامعات

العنصرية وجمع أشتاتها وتوجيه دفة السياسات القومية الى تحقيق برامج التوسع الاستعماري لاجتياز موارد الخامات (١).

وهكذا تمثلت فلسفة القوة من يومئذ في تيارين أصيلين كان لهما طابع بارز في تكييف العلاقات الدبلوماسية بين أمم المجتمع الدولي حتى نشوب الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨). وقد تمثل أولهما كما ذكرنا في استفحال شأن «الشعوبية العنصرية» على حين اتخذ الآخر مظهر الرغبة القومية في التوسع والامتلاك، حتى أطلق عليه كتاب السياسة في ذلك العصر «روح الامبريالزم» أو الرغبة في التسلط.

ولم يكن للعالم بدّ من أن يظفر طفرة معنوية جديدة يواجه بها رجحان كفة القوة رجحاناً ظاهراً على مثل الثورتين الامريكية والفرنسية، ويستعيد بها استقراره الروحي في ظل مثالية جديدة تحقق له ما عجزت الفلسفة الثورية القديمة عن تحقيقه وتوطيده. وكان أن تمخض هذا التطلع والقلق عن عاصفة الحرب العظمى الماضية التي حاولت أن ترسي من جديد قواعد الأخلاق، لتقيم عليها هيكلاً جديداً لنظم السياسة القومية والعالمية معاً.

وخرجت أميركا من الحرب لتبشر العالم المنزوف المحطم بـ «اليوتوبيا الولسونية» ذات الاربعة عشر مبدأ، فكانت «مثالية» ذات شقين، أحدهما قومي بحت، ويتمثل في مبدأ «تقرير المصير»، وثانيهما عالمي تحتضنه هيئة دولية عامة تضمن ميثاقها ودستورها جملة الوسائل والأساليب المؤكدة لاقرار السلام، وإحقاق العدل وإشاعة الوفاق بين عامة الأمم المشتركة في عضوية هذه الهيئة، التي سميت بعصبة الأمم.

وقد كانت العصبة بأغراضها الدولية الجديدة من نزع السلاح وتعزيز أساليب التقاضي والتحكيم والتطور الفقهي والاجتماعي بنظم الاستعمار، نمطاً رفيعاً من فلسفة الأخلاق الدولية ومحاولة طيبة لطبع السياسة العالمية بالتعاليم الانسانية المثلى. ولكن فشلها المؤلم في تحقيق رسالتها لم يكن في حقيقة وضعه سوى دليل بين على العجز أو القصور عن التوفيق بين فلسفة الأخلاق وفلسفة القوة، أو بمعنى آخر، بين النزعة المثالية وحقائق الواقع السياسية والاقتصادية التي يحفل بها المجتمع الدولي.

وإنهار التوازن العالمي مرةً أخرى واستشرت نزعات السلطان الفردي في الدول المغلوبة التي انطوت على نفسها لتستجيش رواقد القوميات وتلهب في الصدور عقيدة التعصب

(٢) راجع الفصلين الثاني والثالث من كتاب: E. Benes; Democracy To-day and To-morrow

العنصري، وتسخير الأخلاق الدولية وشتى وسائل التفوّق المادي، لاذكاء شعلة الحماس الوطني وعمت الضمير الانساني حَيْرة مطبقة، جعلته يتلفت ملهوفاً على ما يُقيله من عثاره ويحفظ له ماينهار من تراثه الأدبي، وهكذا جاءت الحرب العالمية الحاضرة ضربة لازب لاقرار التوازن الدولي، مرة أخرى، بين فلسفة الأخلاق كما تفهمها الانسانية الجديدة، وفلسفة القوة في الحدود والضوابط التي ترسمها حقائق الواقع في تراكبها وتطورها .

وليس بِدْعاً أن تجيء هذه الحرب مبشِّرة بلوْن جديدٍ من فلسفة القوة، ولكنها ليست قوة القوميات أو الجامعات العنصرية، ولا قوة الفرد الطاغية الذي يتحكم في إرادة ملايين من شعبه، بل هي قوة « الدولة العالمية » أو الوحدة الأممية بين الشعوب التي تؤمن بأن وضعها من الحياة لا يُفهم إلاّ على معنى المشاركة في إعزاز الأمن الدولي وتقوية مقومات الرخاء العالمي في سبيل النفع المشترك لشعوب البشرية كافة، بعد إذْ آمنت بإفلاس تلك السياسة التي تقصد الى تخطيط مناطق النفوذ وسيطرة سيادة الدول العظمى على سيادة الدول الصغيرة .

وكان إعلان ميثاق الأطلنطي بمثابة صَدْعٍ جديد لنظريات « الاكتفاء الذاتي » وسياسة « التجميع » ومدارات « المجال الحيوي » واستفحال شأن « السيادات القومية » وإيثار « سياسة العزلة » فلا جَرم عَدّه العالم بداية عهد جديد لمبدأ الصداقة مع التكافؤ في السيادات والتمتع بالنصيب المكافىء لرفع مستوى الحياة الانسانية في ظل اتحاد عالمي من جميع الامم، يعالج مشاكل الحضارة من اجتماعية وسياسية واقتصادية ومالية وعسكرية، ويستمد سلطانه وكيانه من قوة الضمير الأدبي ممثلاً في اتجاهات الرأي العام العالمي كله .

بل ثمت ما يؤكد هذا الاتجاه الاجتماعي نحو التضامن العالمي في أقوال رجالات السياسة الدولية وزعماء الامم المتحدة، فها هو ذا المارشال ستالين يعالن العالم أجمع في المادة الأولى من تصريحاته عن أغراض الحرب، بوجوب « إلغاء عدم المساواة بين الأجناس » . ثم يدلي الرئيس روزفلت خلال بيان ألقاه عن مقترحات مؤتمر « دمبارتن أوكس » بأن « الهدف الأساسي للهيئة الدولية المقترحة هو الاحتفاظ بالسلم والأمن الدوليين، وإيجاد الظروف التي تحقق السلام وخاصة « ونحن نعرف الآن حاجة الشعوب المحبة للسلام إلى مثل هذه الهيئة، وإلى روح الاتحاد العالمي التي سيحتاج اليها في الابقاء عليها » .

وإذا كان الفيلسوف الانجليزي « برتراند رسل » في تحليله الفلسفي لمعنى « القوة السياسية » وآثارها في مجالات النشاط الدولي، قد ذهب إلى تقسيمها أقساماً ثلاثة، جعل

لكل قسم منها نتيجته المحتومة في مصير المجتمع الدولي [(١)] ، فان « اليوتوپيا » السياسية الجديدة ممثلةً في مؤتمر « دمبرتن أوكس » قد جعلت من خصائص هذه « القوة » وأقسامها سياجاً جديداً للتوازن الدولي، بعد أن صاغت له دستوراً يوفق، في وحدة شاملة، بين نزعات الانسان المثالية وحقائق العالم الوضعي ، وخاصة بعد أن أثبتت لنا تجارب الواقع السياسي خلال العقود الأربعة الأخيرة ، ان كل خطة للسلام العالمي يجب ، لكي تستقر وتحقق أغراضها ، أن تنهض على الحقائق كما هي، لا كما يود خيال الساسة أن تكون .

فالقوة العسكرية التي عزا اليها « برتراند رسل » ، عند استفحالها وتفوقها ، شرور الحروب ومضانكها ، هي في منطق النظام العالمي الجديد وسيلة من وسائل الأمن البوليسي أو ضبط الرقابة الجزائية الساهرة . فبهذا المعنى لم يعد ثمة مجال لفهم « الدبلوماسية » على اعتبارها « المقدرة على شهر الحرب . ولم يعد ثمة مجال أيضاً لترديد ما يزعمه هتلر وأضرابه من الدكتاتوريين، من أن المحالفة التي لا تنطوي في صميمها على نية القتال والحرب، هي عبث لا معنى له ولا غناء فيه » [(٢)]

كذلك لم يعد للقوة الاقتصادية غرض قومي يُسلكها في حلقة مشتركة مع القوة العسكرية، أو بمعنى آخر لم تعد القوة الاقتصادية في منطق النظام الجديد، سناداً لمظاهر القوة العسكرية لتؤدي أغراضها لحساب الوطن الواحد او لحساب محور عسكري واحد . وبالتالي لم تعد النظم الاقتصادية والسياسات التجارية، التي ترسم للشعب الواحد مجاله الحيوي، ذات طابع قومي، باعتبارها وظيفة طبيعية من وظائف الدولة تنفرد وحدها بوضع برامجها غير متقيدة بمقتضيات الرخاء العالمي او ضروراته !

وستتخذ السياسة الاقتصادية في النظام العالمي الجديد ثلاث مظاهر رئيسية :

فأولى هذه المظاهر هو اتاحة الفرص الاقتصادية للشعوب المحرومة من نصيبها في موارد العالم ، حتى تستطيع أن ترقى بمستوى الحياة عند شعوبها ، وتكون عاملاً هاماً في الاستهلاك والمقدرة على الشراء . أما ثانيها فهو محاولة احلال التخصص الاقتصادي محل القومية الاقتصادية لتشجيع حركة المبادلات الدولية ، ويبقى المظهر الثالث : وهو يرمي إلى وضع نظم دولية مشتركة تكفل مراقبة أسواق العالم لصالح الامم كافة .

وهنا يؤدي بنا البحث إلى القسم الثالث من أقسام القوة السياسية ، ونعني به قوة الرأي أو سلطان الفكر . ولقد كان عهد العالم باستغلال هذه القوة في ميدان النشاط الدولي على

(١) راجع B. Russel ; Power : P 128 — 130.

(٢) R. G. Hawtrey ; Economic Aspects of Sovereignty. P 107

صورة منظمة خـلال الحرب العظمى الماضية ، حينما اشـتدت قوى الدعاية لخدمة أغراض الحرب، ولإقناع الشعوب بوجاهة مطالب المحاربين وعدالتها ومدى اتصالها بمصير الانسانية وسعادة الجنس البشري . ولما نشبت الحرب الحاضرة كان سـلاح الدعاية قد بلغ أوجه ، ونظمت له برامج واسعة ، ورصدت له ميزانيات ضخمة تـكفلت بها وزارات خاصـة ، وأصبحت الحرب في جوهرها عـراكاً بين المبادىء والآراء في سبيل السيادة على توجيه حضارة العالم .

أما اليوم فقد آمنت أمم الديمقراطيـة المتحالفة بأن حرية الفكر، يجب أن تكون في طليعة الأقانيم التي يستهديها العـالم المتحضر في علاج مشـكلاته القومية والعالمية ، ونادى رجالات السياسة الدولية بوجوب منح الصحافة في عالم الغد حرية شاملة تؤكدها ضمانات دولية قاطمة ، حتى تـُصان حُـرْمتها من نكـبات الأهواء الفردية .

وهكـذا يأخذ اتجاه السياسة الدولية طابعه الأصيل من « ميثاق الاطلنطي » ومقترحات مؤتمر « دمبارتن أوكس » ، [1] فتجيء عناصرها الانسانية ، في شتى نواحي الحياة الدولية المتضامنة تـكملة مثالية لفلسفة الثورتين الاميركية والفرنسية، وتتطور في ظلهما الدعوة إلى مناصرة حقوق الأفراد واعلانها ، إلى منـاصرة حقوق الشعوب والأمم التي عقت الطغيان وتجاربه .

يقول المستر « إذوارد ستيتينيوس » وزير خارجيـة الولايات المتحدة . « إن الاتفاق بين الدول الـكبيرة ركن أصيل للسلام ، ولـكن الفرصة التي تتيح للدول الصغيرة في خطة « دمبرتون أوكس » أن تقف من الدول الكبيرة ومن مسلكها موقف المراقب المحاسب، هي بلا ريب أعظم كثيراً مما يتاح لها في عالم غير منظم متروك نهباً لعوادي المعتدين » .

لقد جاءت المرحلة الحاسمة التي يتخلص فيها العالم ، ممثلاً في سياسته العالمية الجديدة، من أوهام الفوارق العنصرية والنعرات القومية والتعصب الثقافي . فهل يستطيع أن يدلـل بالعمل بعد القوْل ، على انهُ أهل لاعتنـاق هذه المثل العليا الجديدة فتقيله من عثاره ، وتشيع المحبة والوئام بين أبنائه في الشرق والغرب ، أم ما زال يعوزه هذا النضج المرتجى لبناء عالم الغد ، عالم الأخلاق الدولية المنبثقة من الضمير الانساني الحر ؟

إن جواباً شافياً على هذا معقود على نتائج مؤتمر « سان فرنسسكو » الذي سيعقد في الخامس والعشرين من هذا الشهر .

صلاح الدين الشريف

(١) راجع هذه المقترحات في نشرة الترجمة الرسمية لها (مكتب الاستعلامات الاميركي)

الابتلاء بالملك

عن عمر بن عبد العزيز لما وَلي الخلافة :

« أيها الناس : إني قد ابتليتُ بهذا الأمر[1] عن غير رأي كان منّي فيه، ولا طِلبَة ، ولا مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بَيْعَتي ، فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك . فمضى يقول:

« أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خَلَفٌ من كل شيء . وليس من تقوى الله، عزّ وجلّ، خَلَف . إعملوا لآخرتكم، فانه من عمل لآخرته كفاه الله، تبارك وتعالى ، أمر دنياه . واصلحوا سرائركم ، يُصلح الله الكريم عَلاَنيتَكُم . وأكثروا ذكرَ الموت، وأحسنوا الاستعداد، قبل أن ينزل بكم . فانه هادم اللّذات . وإن من لا يذكر من آبائه ، فيما بينه وبين آدم ، عليه السلام ، أباً حيّاً ، لمُعرقٌ في الموت . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عزّ وجلّ ، ولا في نبيها صلى الله عليه وسلم ، ولا في كِتَابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدّرهم . وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقّاً . إني لست بخازن . ولكني أضع حيث أُمِرْتُ . أيها الناس : إنه قدكان قبْلي ولاةٌ تَجْتَرُّون[2] مودتهم بأن تدفعوا بذلك ظُلمَهم عنكم . ألاَ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . من أطاع الله ، وَجَبت طاعته . ومن عَصى الله، فلا طاعة له . أطيعوني ما أطعت الله فيكم . فإذا عصَيْتُ الله ، فلا طاعة لي عليكم .

عن ابن الجوزي وابن عبد الحكم ، من سيرة عمر بن عبد العزيز

---

(١) أي بالخلافة (٢) تجتذبون



اصلاح الخط العربي

— ٢ —

٥ — اقتباس الاتراك الخط اللاتيني

ربَّ متسائل كيف استطاع الاتراك اذاً أن يبدلوا حروفهم من العربية الى اللاتينية؟ واننا اذ نجيب عن هذا السؤال لا بد لنا من الاشارة الى ان الدافع الذي حدا بالاتراك الى تبديل حروفهم لم يكن لغويا بحتاً . بل كان من جملة الدوافع ، رغبة الاتراك في الانقطاع عن الشرق ، وفصم علاقتهم بالمدنية العربية واللحاق بالغرب . أما نحن العرب فلست أرى ما يدعونا الى أن نحذو حذو الاتراك في هذا . فنحن وان كنا نريد اقتباس الشيء الكثير من الغرب ، لا نريد أن نفصم علاقتنا بماضينا ومدنيتنا ومجدنا حتى ولو كان ذلك في الامكان.

هذا بعض الجواب . والبعض الآخر مستمد من بحثنا الذي أسلفناه . فالحق ان اللغات التركية والفارسية والأفغانية والأردية ، لغات غير سامية ، تختلف عن هذه كل الاختلاف. والخط العربي دخيل عليها كما كان الخط الهجائي دخيلاً على اللغات الاوربية في أصله . ففي اللغة العربية ، أصوات غير موجودة فيها ، كما ان فيها اصواتاً غير موجودة في اللغة العربية. فلما جاء الاتراك الى الشرق الأدنى في إبان الدولة العباسية وبعدها واقتبسوا من الأمة العربية الدين والمدنية ، اقتبسوا أيضاً خطها وكثيراً من مفرداتها حتى أصبح ما يزيد على نصف المفردات التركية عربيًّا . ولما كان الكثير من هذه المفردات ينطوي على حروف لا يستطيع الاتراك التلفظ بها كالحاء والخاء والذال والظاء والعين والقاف ، ولما كانت عند الاتراك أصوات لا توجد لها رموز في الخط العربي كالبا والجيم والقاء والكا وال o وال e وال é كان من الطبيعي أن يحدث شيء غير قليل من التبلبل في اللغة التركية . ولايضاح ذلك نأخذ الكلمتين التاليتين : حلْق وخلْق ، فان فيهما ثلاثة حروف لا يستطيع الاتراك لفظها جيداً . فهم يلفظون الحاء والخاء كالهاء أو قريباً منها ، ويلفظون القاف مثل الكاف أو قريباً منها . ولذلك يصبح لفظ الكلمتين مثل لفظ كلمة هلك ، وفي ذلك

ما فيه من التبلبل . ومثل ذلك كثير في اللغة التركية إذا ما كتبت بالحروف العربية . واذا كان الاتراك قد حلوا مشكلة الپا والچيم والڤا، بوضع ثلاث نقاط تحت الباء والجيم وفوق الفاء وحلوا مشكلة الگا بوضع خط زائد على الكاف، إلا أنهم تركوا أصوات o و e é دون رموز خاصة . فاذا أضفنا الى هذا التبلبل في الاصوات اختلاف شكل الحرف العربي بحسب موقعه في الكلمة، وفقدان الحركات منه ، قدرنا ان نفهم ان الخط العربي لم يكن ملائماً للغة التركية كل الملاءمة، وقد يكون للاتراك شيء من العذر في محاولتهم ترك الخط العربي .

٦ — الاقتراحات [1]

نخلص من هذا البحث المسهب اذاً الى النقطة الأساسية التي بدأنا بها ، وهي ان الخط العربي خير ما تكتب به اللغة العربية . فانه مؤسس على أساس صوتي قويم تطابق حروفه أصواته أشد المطابقة ، ما عدا شواذ قليلة جداً ، وانه نشأ وترعرع مع نشوء اللغة العربية وأخواتها الساميات ، وأنه مستمد من طبيعتها منطبق عليها . وقد أدخلت عليه في صدر النهضة العربية الاسلامية تعديلات جعلته أقدر على كتابة الألفاظ العربية من قبل، دون أن تبدل في جوهره وأساسه . وإذا كانت فيه مشكلات اليوم، فعلينا حلها باصلاحه بنفس الروح التي أصلح بها من قبل ، أي بتعديله في تفاصيله دون أن يعمل ذلك على هدم أساسه القويم. واني لمقترح في هذا المقال مثل هذه التعديلات البسيطة في ذاتها ، ولكنني أعتقد انها تحل لنا جانباً مهمّاً من مشكلات الخط العربي دون أن تمسه في جوهره . وهي لبساطتها وقلة تبديلها في الخط الحاضر قد تكون أقرب الى أن يقبلها الجمهور العربي دون كثير تردد . وسأجمع هذه الاقتراحات حول نقاط خمس : (أ) تعديل أشكال الحروف . (ب) الحركات (ج) كتابة الهمزة (د) اضافة بعض الحروف والأصوات الجديدة التي تتطلبها العلوم الحديثة كما يتطلبها احتكاكنا بالعالم .(ه) بعض الاقتراحات في تحسين الاملاء. ولا بد لي من القول انني لا أدعي لهذه الاقتراحات ابتكاراً ولا أية صفة نهائية، بل هي اقتراحات مبدئية وضعت لغرض الدرس والمناقشة ، ولغرض بيان وجهة نظر فرد من الأفراد في الاتجاه الذي يمكن أن يتخذه اصلاح الخط العربي .

(أ) تعديل أشكال الحروف

الاكتفاء بشكل واحد لكل حرف

يتغير الحرف العربي بحسب موقعه في الكلمة أي تبعاً لكونه منفصلاً أو واقعاً في

---

(١) قصدنا من هذه الاقتراحات في الاصل ان تطبق على حروف الطباعة . أما حروف الخط اليدوي فقد تتبعها او قد تبقى كما هي الآن . وللخطاطين ان يتفننوا فيها ما شاءوا .

أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . ولذلك فلبعض الحروف شكلان على الأقل، ولمعظمها أربعة أشكال أو أكثر بحيث يبلغ مجموع أشكال الحروف نحو المئة شكل . فاذا اعتبرنا أن كل واحد من هذه الأشكال قد يكون مفتوحاً أو مضموماً أو مكسوراً أو مسكناً أو مشدداً أو منوناً بالفتح والضم والكسر، أو منوناً مع التشديد اجتمع لدينا أكثر من الف وثلاثمئة شكل تضطر المطبعة العربية على الاشتغال بها . ولما كانت جميع هذه الأشكال لا تتوفر الا في القليل من المطابع العربية، نتج عن ذلك عادة اغفال الحركات حتى في الحالات الضرورية.

ولا تنحصر الصعوبة في المطابع فقط ، ولكن هذا التلون في الحرف العربي، يكوّن أعظم مشكلة تعليمية على الاطفال والمعلمين في السنوات المدرسية الاولى . وليست الصعوبة أقل بكثير على الأميين الذين يتعلمون القراءة والكتابة وهم في سن الرشد . حتى يصح أن يقال إن هذه الحالة في الخط العربي هي من أهم العوامل التي تؤخر حركة مكافحة الأمية وانتشار القراءة والكتابة بين أبناء أمتنا صغارهم وكبارهم . وقد آن الأوان لاصلاح هذه الحال واصلاحها ميسور غير صعب . والغريب أنه لم يجر حتى الآن رغم بساطته . وما هذا الاصلاح الذي نشير اليه إلاّ الاكتفاء بشكل واحد من أشكال الحروف العربية بدلاً من أربعة أشكال .

وقد خطا صانعو آلات الكتابة العربية الخطوة الأولى في هذا المضمار، إذ اقتصروا من اشكال الحروف على اثنين، هما شكل الحرف الكامل وشكله في اول الكلمة (ب ، بـ مثلاً) واستغنوا عن النوعين المتصلين من الحروف (ـبـ ، ـب مثلاً) بأن جعلوا كل حرف يتصل بما بعده اتصالاً مباشراً . وهكذا أنزلوا اشكال الحروف العربية من المئة الى أقل من الخمسين، على أنهم لم يعالجوا مشكلة الحركات ، بل أهملوها بتاتاً وأصبحنا لا نستطيع تشكيل الكلمات عند كتابتها على الآلة الكاتبة . وهكذا مشوا في اصلاحهم الى منتصف الطريق فقط .

وقد آن لنا أن نخطو الخطوة الثانية التي يقتضيها المنطق في تبسيط الخط العربي ، وهي أن نكتفي من الحروف بشكل واحد هو شكل الحرف في أول الكلمة . فنكتب الباء بـ ، والجيم جـ ، والسين سـ ، والصاد صـ ، والعين عـ ، والفاء فـ ، والكاف كـ ، واللام لـ ، والميم مـ ، والنون نـ ، والهاء هـ ، والياء يـ ، مهما كان موقعها في الكلمة ، أي سواء أكانت منفصلة أم جاءت في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . ونكتب كل واحدة في الكلمات التالية على الطريقة المذكورة أدناه (الرسم ٢) : [1]

(١) أشكر الاستاذ منح الراسي رئيس تحرير جريدة الاسترن تايمس في بيروت كتابته لنماذج الحروف المقترحة بخطه الجميل مما زاد في رونقها ، كما أشكر تلميذي السابقين السيدين كمال الجبوري وخليل اسماعيل الخشالي كتابتهما لبعض النماذج السابقة .

الطريقة الحاضرة : مجلس يعرب مقام ملك يحزن دونه

الطريقة المقترحة : مجلس يعرب مقام ملك يحزن دونه

الطريقة الحاضرة : ينفذ عليَّ قراءة سميع صحيح

الطريقة المقترحة : ينفذ عليَّ قراءة سميع صحيح

(الرسم ٢)

إننا بهذا الاقتراح لا نكون قد فعلنا أكثر من حذف الزوائد التي تشوب الخط العربي ، ونجعله من الخطوط المعقدة الصعبة ، وإبقاء أساس الحروف وجوهرها . أي اننا نكون من جهة قد حذفنا الوصلات التي تصل الحروف بما قبلها وجعلنا الحروف تتصل بعضها مع بعض اتصالاً مباشراً ، ومن جهة أخرى نكون قد حذفنا أذناب الحروف وأبقينا أوائلها التي بها تتميز الحروف عن بعضها . وليس من الصعب على المسابك أن تصب الحروف بطريقة تجعلها تتصل بعضها ببعض عند الصف في المطابع . وإذا نجح أصحاب آلات الكتابة في ذلك فلا سبب لعدم النجاح فيه في الطباعة أيضاً .

ولاقتراحنا هذا البسيط عدة مزايا : (١) انه يسهل الطباعة العربية ، فبدلاً من مئات الأشكال من الحروف يقتصر منها على عدد يساوي حروف الهجاء (٢) انه يسهل تعلم القراءة والكتابة ، إذ ليس على المتعلم إلاَّ أن يتعلم شكلاً واحداً لكل حرف ، وبذلك نحل مشكلة مهمة من مشاكلنا التعليمية (٣) انه يجعل الكتابة العربية من أبسط الكتابات بين اللغات ان لم نقل أبسطها (٤) إنه رغم هذا التسهيل وهذه البساطة ، يحتفظ بجوهر الخط العربي فلا يحدث فيه تبديلاً عظيماً . (٥) في الامكان عمل الحروف في الطباعة على الطريقة التي نقترحها بحيث تكون إما متصلة بعضها ببعض ، كما هي الحال في حروفنا الحاضرة ، أو منفصلة فصلاً خفيفاً بحيث يسهل تعلم القراءة على المبتدئين .

ولعلَّ معترضاً يقول : انك نزعت من الخط العربي جماله . والجواب أولاً : ان الجمال أمر نسبي ، يعتمد على الالفة والتعوّد الى حد بعيد . ولاشك عندي انهُ بعد أن يألف الناس هذا الشكل الجديد من الحروف ، سيجدون فيه بالتدريج شيئاً من الجمال : وثانياً لا شك

عندي أيضاً ان الخطاطين والطباعين سيصنعون على مرور الزمن أساليب جميلة لكتابة هذه الحروف . وثالثاً ان ما نتوخاه من الفوائد في تبسيط الكتابة وتسهيل تعلم القراءة ، يبرر تضحية شيء غير كثير من جمال الكتابة .

(ب) الحركات

سبق لنا أن أشرنا الى النقص الذي يُنَوِّه به البعض في الكتابة العربية ، وهو ان الحركات لا تكتب في صلب الخط ، بل تضاف اليه اضافة ، بل هي تهمل في معظم الأحيان حتى أن الضليعين في اللغة أنفسهم قلما يسلمون من اللحن أو الخطأ في القراءة . ولا بد لنا من التسليم بصحة هذا النقد للخط العربي الى حد ما ، فان معاني الكلمات قد تختلف في اللغة العربية باختلاف حركة واحدة . أضف الى ذلك ان أواخر الكلمات تتبدل حركتها تبعاً لمواقعها من الاعراب . وهذا يوقع القارىء في اللحن المعيب المستهجن عند العرب ، وقد يؤدي الى سوء الفهم في بعض الأحيان . ولست بحاجة الى ضرب الأمثلة على هذا الأمر فهو معلوم ، وهو شيء لا تنفرد به العربية ، بل هو موجود في اللغات السامية الأخرى .

وإذا علمنا اننا في الدراسة الابتدائية لا نستطيع تعليم جميع قواعد اللغة العربية ، فضلاً عن تطبيقها على حسن القراءة والالقاء . واذا علمنا أننا لا يمكن ان نلقن للطلاب في ستة صفوف ابتدائية شوارد اللغة ومفرداتها وقواعدها إلى حدٍّ كافٍ ، علمنا انه إذا بقيت طريقة كتابة الحركات على ما هي سيبقى السواد الأعظم من الشعب الذي لا يدخل أكثر من المدارس الابتدائية محكوماً عليه بعدم المقدرة على القراءة المضبوطة دون لحن ، بل سيبقى المتعلمون فوق التعليم الابتدائي معرَّضين إلى اللحن والخطأ في القراءة بصوت جهوري . وهذا ما يدعو إلى التأمل والتفكير .

أجل لا بد لنا من التسليم بهذا النقص في الخط العربي ، ولكن لا بد لنا من القول أيضاً إن في هذا الرأي شيئاً من الغلوّ . ونحن أغلب ما نسمعه من الأجانب ، ومن كل من يضطر إلى تعلم العربية كبير السن ولم يرضع العربية منذ نعومة أظفاره . اما الذي تكون العربية لغة الأم عنده وينشأ عليها ، فانه يجتمع لديه زاد من ألوف الالفاظ العربية التي يتعلمها بالسماع . وقلما يخطىء في قراءتها فلا تراه يدعو الكاب « كِـاَـباً » ولا البئر « بَـئْراً » لانه تعلم هذه الكلمات على الوجه الصحيح فأصبح يلفظها بسليقته . كما انه يستعين بالمعنى عادةً في الاستدلال على صحة لفظ الكلمات . وهذان الأمران لا يستطيع الأجنبي عن اللغة العربية القيام بهما بسهولة . فالمشكلة تنحصر على الأغلب في لفظ أواخر الكلمات التي تتبدل تبعاً للاعراب ، وفي المفردات التي لا ترد في اللغة اليومية عادةً ، وفي المفردات التي تتعارض فيها

اللغة العامية مع اللغة الفصحى ، وفي مضارعات الأفعال الثلاثية ، وذلك في القراءة الجهورية على الأغلب . أما في القراءة الصامتة — ومعظم قراءتنا صامتة — فالانسان لا يجد عادة صعوبة في القراءة والفهم سـواء أوجدت الحركات أم لم توجد . هذا من ناحيـة ، ومن الناحية الأخرى ، إن عدم وجود الحركات في الخط العربي ، هو في الوقت نفسه مزية من مزاياه إذ هو اقتصاد في الجهد الكتابي ونوع من الاختزال . وهو الذي يجعل أحدنا حين كتابة خطاب أو مقال ، يستصعب تشكيل كل حرف مما يكتب ، بل يجد سهولة كبيرة في الكتابة باهمال الحركات .

أما في الطبع ، فلا شيء يمنع الطابعين نظريًّا من تشكيل كل حرف . وإذا كانوا يمتنعون الآن عن ذلك في الغالب ، فلأن الجمهور أولاً لا يلح في طلبه . وثانياً لأن طريقة سبك الحروف الحاضرة عقيمة تضطر الطابع الى شراء كميات زائدة من الحروف . فان الحروف تسبك الآن وحركاتها متصلة بها فيجبر الطابع أن يشتري من حرف الباء مثلاً عدة اشكال أولية ووسطية وأخيرة ومنفصلة ، وكل واحدة من هذه يجب ان يقتنيها بضم وفتح وكسر وسكون وشد وتنوين فتح أو ضم او كسر وتنوين مع التشديد . وفي هذا ما فيه من الاسراف من جهة والصعوبة في صف الحروف من جهة أخرى .

ان هذه المعضلة في الخط العربي دعت بعض الكتّاب الى أن يعرضوا اقتراحات مختلفة لمعالجتها . وأهم هذه الاقتراحات ، فكرة استبدال الحركات بالحروف ، فنكتب الفتحة ألفاً والضمة واواً والكسرة ياء ونضاعف هذه الحروف عندما تكون الحركة ممدودة أي حرف علة . وهكذا نكتب «كتابا» بدلاً من كَتَبَ «والكاتيبو» بدلاً من الكاتب الخ .

ونحن لا نرى هـذا الاقتراح موفقاً لثلاثة أسباب : أولاً لأنه يكاد يضـاعف عدد الحروف في الكتابة ، فيذهب باحدى مزايا الخط العربي وهي اختصاره .

وثانياً : لأنه يثير لنا مشكلة جديدة هي أعقد من مشكلتنا الحاضرة . واليك البيان : لقد كان في الامكان تطبيق مثل هذا الاقتراح لو ان الجمهور العربي بقي على لغته وسليقته الاولى في الجاهلية وصدر الاسلام ، ولم تبتعد لغته العامية عن لغته الفصحى هـذا البعد الذي نجده اليوم . وبهذه اللهجات المختلفة المتأصلة في كل قطر من الأقطار العربية ، بل في كل جزء من كل قطر . أما والحالة كما هي عليه اليوم ، والجمهور العربي ذو لهجات عامية مختلفة ، وأغلبه أمي ، والمتعلم منه لا يتقن قواعد النحو والاعراب ، فالأمر غير ذلك . إن نسبة المتعلمين عندنا ما زالت قليلة ، ونسبة من يتقن قواعد اللغة واعرابها اتقاناً جيداً قد لا تزيد على الواحد أو الاثنين في المئة من المتعلمين . ولنتصور أنصاف المتعلمين ، هؤلاء يحاولون وضع الحركات

حروفاً في أواسط الكلمات وأواخرها ، نفقه حينئذٍ مقدار الأخطاء والتبلبل الذي سيطرأ على كتابة أغلب الناس ، وخاصة في مكاتباتهم الخصوصية ، كما نفقه حيرة القارىء لمثل هذه الكتابة الخاطئة . إن القارىء العربي اليوم لا يجد صعوبة كبيرة في قراءة ما يكتب له إذا كان قريباً عن مداركه، ولا يجد ضيراً في تسكين الأواخر،فيسلم بذلك من معظم الأغلاط وهو يستطيع كتابة رسالة الى صديقه دون تشكيل ، ويسلم من معظم الاخطاء أيضاً . أما إذا طلب منه تثبيت حركة كل حرف مما يكتب،بطريقة الحروف أو بغيرها . فهناك الصعوبة ولا شك انها ستكون أشد وقعاً عليه ، وعلى من يقرأ كتابته من طريقة الكتابة الحاضرة .

وثالثاً : ان هذا الاقتراح ، وكل اقتراح غيره يحاول تثبيت الحركات برمتها حروفاً ، لا يلتئم مع طبيعة اللغة العربيـة خاصة وطبيعة اللغات السامية عامة . إن اللغة العربية لغة اشتقاقية في الدرجة الأولى. وهذا الاشتقاق يحدث بواحدة من طريقتين على الأكثر ، الأولى: وهي الغالبة هي طريقة التلاعب بالحركات،سواءٌ أكانت حركات قصيرة كالفتحة والضمة والكسرة والسكون ، أو ممدودة كالالف والواو والياء ، ويتبع ذلك تشديد بعض الحروف الصحيحة . فنشتق من وزن فَعَلَ مثلاً الاوزان الآتية : فَعُلَ ، فَعِلَ ، فَعلٌ فَعَل ، فُعُلٌ ، فِعَلٌ ، فُعَلٌ ، فاعلَ ، فاعِلٌ ، فِعال ، فُعال ، فَعال ، فَعيل فَعَيْلٌ ، فُوعِلَ ، فَعولٌ ، فُعولٌ ، فَعَّلَ ، فُعِّل ، فعَّال ، فِعيل الخ . والملاحظ في هذه المشتقات انها كلها لم تزد حرفاً صحيحاً على الأحرف الثلاثة الاولى ، وإنما تبدلت حركاتها القصيرة أو الطويلة (أحرف العلة) أو شدِّد أحد حروفها الصحيحة وليس التشديد إضافة حرف جديد بل مجرد توكيد حرف من الحروف. والطريقة الثانية للاشتقاق العربي هي زيادة حروف صحيحة في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها . وعن ذلك بعض أوزان الأفعال المزيدة كأفعل ، انفعل ، افتعل ، استفعل. أو بزيادة الميم في الأول كمفعل ومفعول، أو بزيادة التاء في الأخيرة كفعلة . أو بزيادة الميم والتاء معاً كمفعلة الخ . ولنلاحظ أيضاً ان هذا النوع من الاشتقاق يرافقه كذلك تلاعب بالحركات القصيرة أو الطويلة كالاشتقاق الأول فنقول : مَفعَل ، مُفعِل ، مِفعَل ، مِفعال مَفعيل ، مِفعيل ، مفعول مفيعل ، مَفاعل ، مُفاعِل، مُفاعَل، مفاعيل ، مَفعلة، مِفعلة الخ. وصفوة القول ان الاشتقاق العربي يحدث في الغالب بالتلاعب بالحركات ، وذلك بادخال الحركات المختلفة على الحروف الصحيحة الأصلية أو المزيدة في اول الكلمة أو وسطها أو آخرها . أي ان الكلمة العربية مرنة مائعة تتبدل طوع رغبة الانسان يشكلها كما يشاء وكما تشاء المعاني التي يريد التعبير عنها .

وليس هذا شأن الكلمة في اللغات الغربية . فان الكلمة الأصلية في اللغات الاوربية جامدة

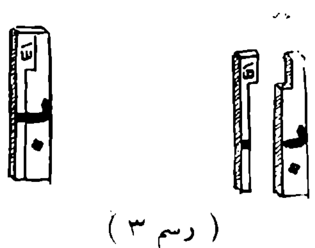
لا تتغير عادةً وانما يحدث الاشتقاق منها إما باضافة حروف في أولها (Prefix) كقولك enter, reenter في الانكليزية و Pressentir, sentir في الافرنسية و Versuchen, و Suchen في الألمانية . أو باضافة حروف الى آخر الكلمة Suffix كقولك commandant, command, commander, commanding الخ أو بوصل كلمتين أو أكثر بعضها ببعض كقولك في الانكليزية handbook وفي الافرنسيـة Portefeuille وفي الالمانيـة Dachshund . وأنت ترى أن الكلمة في اللغات الأوربية تبقى ثابتة لا تتبدل في جوهرها، سواء أ كان ذلك في حروفها الصحيحة أم في حروفها العلة . ولذلك كان من الطبيعي ان تثبت فيها عند الكتابة حروف العلة مع الحروف الصحيحة . أما الكلمة العربية، فلا تثبت فيها الا حروفها الصحيحة . أما حروف العلة (الطويلة والقصيرة) فهي في تبدل مستمر لا تستقر على حال . ولما كانت حروف العلة (بما فيها الحركات) ليست من الناحية الصوتية حروفاً مستقلة بل هي نوع من المد يدخل على الحروف الصحيحة ، ولا يمكن لفظها لوحدها دون اتصالها بالحروف الصحيحة ، لذلك كان من الطبيعي للعرب والساميين القدماء ، ان يحذفوا في كتاباتهم القصيرة منها ، أي الحركات . واذاً فحذف الحركات في الكتابة العربية أمر مساوق لطبيعة اللغة العربية، مستمد من هذه الطبيعة . ولنلاحظ ان معنى الكلمة في الجملة يقرر حركتها ، بقدر ما يساعد وجود الحركة عند الضرورة على فهم المعنى . وقد شكا البعض من أن القارىء العربي مضطر الى فهم المعنى أولاً قبل أن يستطيع تشكيل ما يقرأ على العكس من القراء في اللغات الأخرى ، وعزوا ذلك الى نظام الكتابة باهمال الحركات، والواقع انه ناتج عن طبيعة اللغة وتركيبها، وانما وضع نظام الكتابة موافقاً لهذا التركيب . ولن يغنينا تبديل نظام الحركات في الخط العربي غناءً كبيراً، ما دام نظام اللغة الأساسي كما هو .

وصفوة القول ان نظام الحركات في العربية أمرٌ مستمد من طبيعة اللغة وفيه حكمة أقل ما يمكن أن يقال فيها ، إنها تختصر الكتابة على الكاتب . والاستغناء عن نظام الحركات والاستعاضة عنها بعلامات أو رموز ثابتة ، يوقعنا في مشكلة هي أشد وقعاً من مشكلتنا الحاضرة .

وإذاً فما العمل ؟ أنبقي القديم على قدمه بابقاء نظام الحركات على ما هو ؟ ان في ذلك ولا شك تجاهلاً لا مسوغ له للمشكلة الحاضرة ، وهي مشكلة اللحن ، ومشكلة التباس المعنى أحياناً على القارىء . فلا بد اذاً من ايجاد علاج يخلصنا من هذين العيبين . ولعلّ في الاقتراحين التاليين ، ما يخفف هذين العيبين ، إن لم يزلهما بتاتاً . أما الأول فهو ان يقلع الكتاب والمطابع عن عادة إغفال الحركات اغفالاً تاماً فيضعوا الحركات في الكتابة

والطباعة حيث تقوم لها حاجة . فنضم الحرف الأول من الفعل المبني للمجهول في قولنا «ضُرب الرجل» لكي لا يقرأه القارىء مفتوحاً فيتبدل المعنى ، ونفتح الراء الوسطية من فعل عرَف، لأن أغلب الناس يقرأونها بالكسر خطأ ، ونضم ياء المضارعة في مضارع وزن أفعل، لأن أغلب الناس يفتحها خطأ . ونضع تنوين الفتح على التاء في قولنا « ان في الاتحاد لقوةً » لأن الكثيرين يخطئون في نصب اسم إن المؤخر إلى ما هنالك من عشرات الأمثلة . ويجب أن يتعوَّد الكتَّاب والطابعون الدقة في هذا الأمر فلا يهملونه . على ان هذا يقتضي أن تقتني المطابع مجموعات كاملة من الحروف المشكلة (عدا غير المشكلة) بجميع قياساتها . وبما ان عدد الحروف في كل مجموعة يقرب من الألف والثلاثمئة حرف، ففي هذا من الاسراف ومن التكاليف ما لا تستطيع تحمله إلاّ المطابع الكبيرة . ذلك ان الطريقة الحاضرة الشائعة في صب الحروف والشكل في عينة واحدة طريقة سقيمة ، وهي عدا ما فيها من الاسراف متعبة للطابع العربي تجعل تعلم الطباعة من أصعب الأمور على العامل . وهنا يأتي الاقتراح الثاني بشأن الحركات ، وهو فصل الحركات عن الحروف في الطباعة واعتبارها كأنها حروف مستقلة تُصب لوحدها وتصف مع الحروف (انظر الرسم ٣)

كيفية وضع الحروف والحركات في الطبّاعة



(رسم ٣)

ان مزية هذا الاقتراح انه يمكننا من وضع الحركات أينما شئنا ومتى شئنا ومهما كان مقياس الحروف (البنط) إذ أنه سيكون لكل مجموعة من الحروف حركاتها المستقلة تستعمل عند الحاجة . فان أردنا، جعلنا كل حرف مشكلاً ودفعنا بذلك كل لبس كما في طبع القرآن الكريم أو بعض الكتب المدرسية . وان شئنا لم نشكل إلاّ النزر اليسير من الحروف عند الضرورة . وهكذا نكون قد أبقينا اختصار الخط كما هو، وسهلنا وضع الحركات تسهيلا عظيماً فيصبح من الميسور اقتناء المطابع لها واستعمالها دون كثير من النفقات .

ان في اقتراح الاكتفاء بشكل واحد لكل حرف من الحروف العربية وفي اقتراح

نصل الحركات عن الحروف لاقتصاداً هائلاً للمطابع العربية . ذلك ان عدد الحروف ان يزيد على الخمسة والثلاثين حرفاً وعدد الحركات مع التنوين والتشديد هو ثلاث عشرة حركة ، فان أضفنا إلى ذلك النقطة والنقطتين والفارزة وعلامة السؤال الخ وجدنا ان مجموعة الحروف ستتراوح بين الستين والسبعين حرفاً ، وهذا العدد هو واحد من عشرين من عدد الحروف في المجموعات الحاضرة المشكلة تشكيلاً تاماً . وللقارىء أن يتصور مقدار تسهيل تعلم فن الطباعة على العمال وما يرافقه من انخفاض في عدد الأغلاط المطبعية ، التي لا تسلم منها أية مطبعة عربية اليوم مهما كانت متقنة .

دكتور متى عقراوي
عميد دار المعلمين العالية ببغداد

بين ملك وعالم

ان تصور عمود الصواعق الذي يمنع الصاعقة من أن تحل بالاحياء والمؤسسات المدنية ، قد طاف بعقل بنيامين فرنكلين عندما أكب على درس تأثير القضبان المعدنية المدببة في اقصاء الكهربية أو تفريغها . ولقد قلدت الجزر البريطانية أبناء الانجليز المهاجرين الى أميركا فأدخلت موانع الصواعق في بلادها . ولكن بعض علمائها كانوا يفضلون العمدان ذوي الرءوس المكورة ، على ذوي الرءوس المدببة ، في اجتذاب الكهربية الجوية .

وقام النزاع بين جدران الجمعية الملكية ، وامتد الى البيوت والمشارب ، حتى تدخلت الحكومة سنة ١٧٧٢ طالبة فض النزاع . فألفت لجنة للفحص والحكم في الموضوع . وانتهى بحثها فقضى أربعة بأفضلية العمدان المدببة ، ولكن خامسهم « بنيامين ولسون » كتب تقريراً منفرداً أيد فيه العمدان المكورة الرءوس . ومن ثم انتقل النزاع من ميدان العلم الى ميدان السياسة .

كان « بنيامين ولسون » من أصدقاء الملك جورج الثالث الاخصاء ، وكان غاضباً من تبجح المستعمرين في الناحية الاخرى من المحيط . وكان فرنكلين في نظره ثائراً خارجا على الامبراطورية . وتدخل الملك في الامر وأسر الى سير « جون برنجل » رئيس الجمعية الملكية ان يؤيد القائلين بأفضلية العمدان المكورة . ولكن هذا العالم الجليل قد أبان لجلالة ملكه ، في أدب واحترام ، انه بالرغم من رغبته الاكيدة في ارضائه — « لا يستطيع أن يقلب أوضاع الطبيعة »

فغضب الملك من وقاحة العالم وأمره ان يستقيل فاستقال . ومن أجل ان يظهر لرجال العلم ان عنادهم لا يفيد ، استبدل العمود المدبب الذي كان يحمي قصر « كيو » بعمود مكور . أما فرنكلين نفسه فتوارى مستخفياً ، لكي لا يغضب الملك ، ولا يقامر بالعلم .

كلمة الشاعر*

اللغة نشاط من حيث إنها إفصاح . والإفصاح ذهن يتحرك : هو فكرة أو صورة تسعى من المعقول إلى المحسوس . وعلى قدر تلك الحركة ينبسط التعبير . والحركة لا تكون في حدود الجامد . ومن جوامد الكلم تلك الجمل المطروقات على دوران الأيام حتى إن مفاداتها ركّت وغاياتها كلّت . فهي المصبوبات في قوالب من حديد صدئٍ يستعصي على التبدل والصقل ، والمنصوبات كالوساوس في وجه استقلال القلم . ووالله لولا سلطان هذه المطروقات الباغيات ما ضؤل أكثر من نصف شعرنا القديم ولا شحب جلّ شعرنا الحديث

ولو لم تكن اللغة حركةً ما خرجت ألفاظٌ من مدلولٍ إلى مدلول بحسب ما يطرأ على القوم في مرافق عيشهم ومسالك فكرهم . فحالُ القوم حال الألفاظ . ألا تذكرون لمحة أبي العلاء :

والبرايا لفظُ الزمان ولا بدَّ   له من تغيُّرٍ وانقلاب

هذا ، ولغة الشعر على التخصيص ذاهبة في الحركة ، لأن الشعر فيضان ورجفان ، فإما أن يتنزل المعنى من أعالي الأفق ، وإما أن يختلجَ الشعور في أقاصي الضمير : هنا ارتقاب الجائل في الأغوار ، وهناك استسلام إلى السائل من الأفلاك . هكذا الشعر : عمق ونور ، جوهرهما النقاء ، أعني الخلاص من الكثافة والكدارة . وإنما أصل النقاء صدقٌ ولطفٌ ، فالجولان في الضمير شرطه الصدق ، وأما اللطف فشرط السيل من الأفق .

لذلك تتميز لغة الشعر من لغة النثر : هذه ينقلها التعقل ، وتلك يُفلت بها الوجدان . وكيف لا تتميز لغة الشعر ، والشعرُ قوة متوهّمة يتجاذبُها الأمل واليأس وهي تحاول القبض على المطلَق والزائغ . من هنا عسفُ من يُقدم على حل المنظوم وعقد المنثور ، ومَّا منه أن خصائص الشعر وأغراضه لاحقة بمقاييس النثر ، وأنها تقع تحت التجزئة ، فترونه

---

* ألقي جزء من هذا البحث في الجامعة السورية بدمشق في ٢١/١٠/١٩٤٤ ، وألقي الجزء الآخر في القاعة الشرقية للجامعة الاميركية بالقاهرة في ٣ / ٣ / ١٩٤٥

يفرز المعنى من المبنى ، ويُنحّي البيت عن القصيد ، ويقيم الوزن دون نبرات الحروف .
الشعر — بخلاف النثر — خارج على النطق الجاري لأنه أقرب إلى لطافة الهمس ، وفي براعة الرمز أدخل . وإن توافقت الكلمات في النثر والشعر فإنما قيَمُها على تباين . أليس الشاعرُ أسبقَ من الناثر في الجري إلى التقديم والتأخير ، والتلويح والتمثيل ، والحذف والاضمار ، والوحي والاخفاء ؟ وعلى هذا إن جاز الاتباع في النثر فلا بد من الابتداع في الشعر ، لأن الشعر تجربة على غرار التجارب الصوفية . ولكلٍّ طريقته في الوجد والتواجد ثم إن الكشف يرفع لأحدكم — بين الخلوة والجلوة — عما لا يرفع لغيره : اختلاف من جهة الإحساس الدفين والإدراك الرهيف ، يتبَعُهُ اختلاف في التعبير والتصوير .

✡

من الثابت عند جمهرة الأدباء — جرياً على ما رأى القُدامى — أن الصياغة لا تحلو والديباجة لا تمتن الا من طريق الحفظ . فبالاضافة الى وفرة ما يروي الشاعر من القصائد والمقطوعات ينقاد اليه النظم . وذلك — في رأي الأدباء — لأن الاسلوب الذي نسج عليه الفصحاء الأولون مختزَن في حافظة الراوي ، وأن الطريقة التي سبكوا بها وحبكوا مرتسمة في مصوّرته . فلولا انطباع الأساليب على صفحة الدماغ ، وانتقاش الطرائق في تجويفةٍ من تجاويفه لتخلّف الطبعُ أو نزفت المادّة ، وتعسّف الأداء أو سخُفت العبارة .

والرأي عندي أن الحفظ إن مكّن الشاعرَ من مناهج النظم يحبسْ قريحته بين جدران المنقول ويغلّق عليه أبواب المسموع . وأخوفُ من هذا أن يُقبل المقبل على لون من ألوان الشعر فيحفظه أو يختارَ شاعراً أو شاعرين أو ثلاثة فينقطع لخواطرهم ، وإن برَعت : فمَثَلُه كمثل المدني الذي لم يركب نهراً ولم يطلع جبلاً ، فَدَمُه يُعوزه الدفقان . والشر بعد ذلك في أن ينجذبَ إلى الشعر اللّيّن والسهل وأن يأخذَه التغني وحده . والشرُّ كذلك في أن يَسهيم بالشعراء المتأخرين والمحدَثين ويقنعَ بالتلقي عنهم ، فيلتقط ألفاظاً وجملاً معدوداتٍ ، كالتي استحدثها شوقي واللبنانيون في المهجر ، فيهوّل بها على القارىء الذي ضاق وعاؤه كذلك .

وهذا هذا في المعاني الدوّارة في الشعر . وهي غالبة على الذهن الذي جعل الحفظ دأبه فاعتمده . بالله أيُّ زكّم بعدُ تشبيهُ الحبيب بالبدر والكريم بالغيث والشجاع بالأسد ؟ أوَ ينفَضكم بعدُ سهادُ العاشق النوّاح وثقَلُ ردفِ المعشوق ؟ ويجري مجرى المعاني الدوّارة الصورُ الجوّالةُ في الشعر القديم بين طرفي الحقيقة والمجاز . وقد بطَلت مادّة طائفةٍ منها

أو صارت لا توحي شيئاً في نفس ابن القرن العشرين . . . ولا أريد التبسط في مطروقات المعاني والصور ، فإن بحثي ههنا في اللفظ وحده .

ألا أين النشاط الذي أشرت إليه قبلُ في شعر من يحوك على المنوال المسمَّر منذ الزمان الاول،من حيث لا يشعر أو وهو يشعر ، وفي تقديره أنه ذو فصاحة وذو بلاغة لأنه يعارض الفحول ويراسل المطبوعين . والحق أنهم أئمة مجتهدون، وأما هو فنساخ عاجز وإن حذق النقل . وترونهُ إذا أراد الابتداع فهجم على تحريك خاطره ، يخش أن يكون من الخوارج فيُحجم ، شأنَ الورِع الذي نشأ على السجود يهاب الابتهالَ ووجهُه إلى السماء . وإن اتفق لهذا النظّام أن يستنبط تعبيراً أو تعبيرين في القصيدة كلها هلك رونقهما لضياعهما بين ألوانٍ شاحبة ، ألوانِ التراكيبِ البالية . فيقع عليه قولُ ابن الرومي في البحتري :

عبـد يغيرُ على الموتى فيسلبهم حرَّ الكلام بجيشٍ غير ذي لَجَب
ما إن تزال تراه لابساً حُللاً أسلاب قومٍ مضَوا في سالفِ الحُقبِ

ألا قد آن أن نرقُبَ الشاعر الذي في صدره قولُ أبي العلاء :

وإني وان كنت الأخيرَ زمانه

فيحوك ويوشّي على نحوٍ يخيَّل إلى أحدكم أنه غريب ! وما هو بغريب، ولكنه جارٍ على غير مثالٍ موقوف، ليس للمحفوظ سلطان عليه . وقد يستوحش أحدكم إذن لأنه تعوَّد سماعَ ما ألف . فاذا كان مستطرفَ الحسّ ، مستطلع الفكر ، أنس وتمتع ، وقد فطن لأنّ الشاعر لا يحسُن به أن يكون عبدَ ما قيل فيصبَّ خمره في كوب غيره .

ثم إن استقلال اللفظ يَفسح للمعنى لأنه يُطلق المعقول من أسْر المقول . فكثيراً ما تكون خمر الشاعر الحافظ لغيره أيضاً ، وذلك أن التركيب الراتب في الذهب يحدو التفكير ويغذو التمثيل ، فيستدعي المعنى ويستجلب الصورة ، كقول القائل عفواً واتباعاً : « غصن البان » و « غضّ الاهاب » و « الصخرة الصماء » . وأكثرُ ما يقع هـذا في القافية إذ تجدون الشاعر الحافظ يستفرغ من أوعيـة السابقين فيختم السمْط بالخرزة التي ثقبوها له وأحضروها . ومن العجيب أن البلاغيين يعدُّون هذا قدرة وحسنة . وقد آن أن نرى عكس ذلك ، فنرغب إلى الشاعر في أن ينظر إلى أبي تمام إذ يقول واصفاً لأبكار معانيه :

منزَّهةً عن السرَقَ المورَّى مكرمةً عن المعنى المعادِ

وفي أن يُطرح مثلاً ردَّ العجز على الصـدر ، إلاَّ إذا اقتضـاه السياق اقتضاءً فبرع المعنى به وزاد .

ولو كان في الزمن اتساع لضربتُ لكم في كل ما تقدَّم مثلاً قصيدة لابن الرومي قالها في مغنية اسمُـها «وحيد» . فهل لـكم أن ترجعوا اليها فتوازنوا بين ستة الأبيات الأوليات ومطلعُـها :

يا خليليّ تيمتني وحيدُ ففؤادي بها معنًّى عميدُ

وتسعةِ أبيات في مجرى القصيدة ، أولها :

ليَ حيث انصرفتُ منها رفيق من هواها وحيث حلّت قعيدُ

وآخرها : حسنُـها في العيون حسنٌ جديدٌ فلها في القلوب حبٌّ جديدُ

وفي هذا البيت رد للعجز على الصدر. ولـكنَّ فيه تعظيماً للمعنى، ذلك أن حسن وحيد المغنية فيه « كل ساعة تجديد » يولد في القلوب هوًى جديداً[1] .

فاذا أنتم وازنتم هذه الأبيات بتلك ، توضَّح لكم الشسعُ الذي بين نفَسٍ أفلت مستقلاً بتعبيره ، وآخرَ انحبس مذعناً لمحفوظه .

وصفوة هذه المقدمة أنه كما أننا أدركنا في علم التربية أن حشو الدماغ لا يخرّج التلميذ في فنّ من الفنون ، ولـكنْ يخمد فطنته وينضب رويته ، كذلك يحسن بنا أن ندرك أن استظهار الأشعار لا ينمّي ملـكة الشاعر، ولـكن يحدُّ قريحته ويبلّدُ بادرته مبنىً ومعنى جميعاً . فلا انطلاق ولا انسراح ، بل قعود وركود .

✡

وإذا قال قائل بالأمس أو اليوم : للداخل على ساحة الشعر أن يحفظ ما استطاع ثم ينسى ليستقلَّ بملـكته ويبتدع ، فإنما هو قول مرتجَل لا يثبت على التجربة من جهة ولا يرجح بين أيدي علماء النفس من جهة :

لا شك في أن النسيان سبيل التحرر مما يسدُّ على أحـدنا مساربَ الفـكر . وسلوان العاشق المتيَّـم خير مثل لهذا . ولـكنْ كما أن العاشق يستحيل عليه أن يسلو ما دام في إقبالٍ على معشوقهِ نشطٍ ، أو ذكرٍ له مطّـردٍ ، أو شغلٍ به مقيم ، كذلك يستحيل على الحافظ أن ينسى محفوظه وهو يتعهده بالقراءة أو بالاستذكار أو بالاستحسان. فانما البعد أول شروط

[1] ومن رد العجز على الصدر ترثرةً أو حشواً قول البحتري يمدح علي بن محمد بن الفياض :

عيل صبر المحب مما يلاقيه ولا غرو أن يعال اصطباره

أنجبته أحرار فارس حرة البيت والبيت خيره أحراره

النسيان ، وقديماً قالت العرب: « البعد مسلاة العاشق » . لذلك ينصح الناصحُ لمن ولّهه الحبُّ أن يمضي في الأرض، فيستشرف سماوات غير سماء الحبيب ويستروح أنساماً غير نسيمه.

فاذا حاول الحافظ أن يتباعدَ عن محفوظه بأن يهجره أو يهمله أو يتشاغل عنه ، شقّت المحاولة وبعد مرماها . وذلك لأنهُ ظلَّ زماناً يدأب في الاستظهار الصرّ ، فاجتمع قلبه على ما وعى مجتهداً ، وتشرَّب ذهنهُ ما تلقّـف عامداً ، بخلاف ما ينشأ عن الحفظ الحاصل عرَضاً من طريق القراءة[1]. ونتيجة ذلك الاستظهار أن المحفوظ يرسخ أيما رسوخ ، يزيد في ثباته طراءة الفتوة وأز المعاودة . والدليل على هذا أن أركز الذكريات هي أبعدها عهداً وأكثرها ترداداً بحسب ما بيَّـنته « سنة التقهقر » التي سنَّـها العالم النفساني ريبو Ribot في شأن انحلال الذاكرة[2].

ثم إن ذاكرة المستظهر الصرّ أقرب إلى الآلة ، تندفع حركتها اضطراراً . أو هي تعلو على الارادة فتزيغ من حكمها ، لأنها أصبحت عادةً قد لابست الذهن بالارتياض ولازمته بالممارسة . والعادة — في مصطلح علم النفس — « استعداد دائم مكتسَب لتكرار الأعمال نفسها وقبول التأثيرات بعينها » . فاذا اقتضت العادةُ الجهدَ والتنبـه في نشأتها فانما هي جمود عند غايتها . فمن أين انطلاق الملـكة وكيف يكون التوليد، وهذه الذاكرة تُـعدّ وتمدّ وتلهم وتدفع ؟ ذاكرة قويت ومَـرُعت ورَحِـبت وشمخت، مغتصبة حق الحس والفكر وحظ الخيال والخاطر .

لذلك من المستحيل أو من الشاق أن يتيسر لمن حفظ بهمة ونيّـة أن يخرج عن رق المنطبع على صفحة دماغه والمنتقش في تجويفة من تجاويفه . هو أسير ما طلبه وردده وارتاح اليه . ولا يثور عليه غير جبار عبقري ، فيناضله ، ولـكن هل يصرعه ؟ فهذا أبو تمام الذي أسمعتكم وصفه لأبكار معانيه ، والذي كان كثير الاتكاء على نفسه كما قال فيه إسحق بن إبرهيم الموصلي ومن بعده الصولي، منفرداً بصوغه حتى إن محمد بن عبد الملك الوزير رثاه بقوله :

وكنتَ ضريب وحدِك يا ابن أوسٍ[3]

فأبو تمام هذا انما احتذى تراكيب غيره أحياناً ولاذ بمعانيهم ، كما قد بيَّـن الآمدي في

(١) راجع مثلا بحث Gates وعنوانه : Recitation as a Factor in Memorizing, Archives of Psychology, 1917, No 40, p 104

(٢) راجع كتابه Les maladies de la mémoire, chap. 2

(٣) راجع «أخبار أبي تمام» للصولي ، ص ٢٢١ ، ٥٣ ، ٢٧٨

« موازنته » وبيّن غيره . وفي شعر أبي تمام هذا قال دعبل إن ثلثه سرقة ، ولكنّ في هذا القول غلوًّا ، فقد كان دعبل ممن يميل على أبي تمام [1] .

وفي رأيي أن حذو أبي تمام حذو غيره ممن سبقه ، وإلمامه بحسناتهم يرجعان الى سببين: الأول سعة حفظ أبي تمام وهو الذي اختار نفائس الشعر القديم في « ديوان الحماسة » . وأما الثاني فملازمته عمود الشعر الجاهلي ، وسيعرض لنا الكلام على هذا في ما يأتي من البحث .

ثم هذا ابن الرومي الذي يقول :

كم كلماتٍ حُكتُ أبرادَها وسطتُّها الحسنَ وطرَّفتها

كأنه يلمع إلى قدرته على الاشتقاق والاختراع ، هذا هو يعمل قصيدة في وحيد المغنية فينحبس نفسه تارةً ، وينفلت أخرى ، كما ذكرتُ لكم .

وانما حال ابن الرومي ههنا وأضرابه مثل المتنبي من حال أبي تمام .

✡

وإني أستأذنكم في التغلغل . فان للحفظ شأناً كبيراً عند جمهرة الأدباء .

إنما السبب في تعلق الاقدمين بالحفظ حتى إنهم جعلوه متكأ الملكة الشعرية تجدونه في ما أجمله ابن خلدون إذ قال في الفصل السابع والأربعين من المقدمة : « اعلم أن صناعة الكلام نظماً ونثراً إنما هي في الألفاظ لا في المعاني ، وإنما المعاني تبعٌ لها ، وهي أصل » . وهذا القول يرتد إلى ما سطره الجاحظ من قبل ، قال : « إن المعاني مطروحة في الطريق... وانما الشأن في إقامة الوزن وتحبير اللفظ ... »

والتحقيق أن في تغليب أكثر الأقدمين اللفظ على المعنى ، وأيضاً في تغليب بعضهم المعنى على اللفظ مفاضلة ، وفي المفاضلة تفريق . والفرق الذي أقاموه بين اللفظ والمعنى من قبيل الفرق الذي أقامه الفلاسفة بين الروح والبدن . وآية ذلك التشبيه قول ابن رشيق في « العمدة » [2] : « اللفظ جسم وروحه المعنى » ، وكذلك قول الجاحظ قبله في رسالة « الجد والهزل » [3] : اللفظ للمعنى بدن والمعنى للفظ روح ، ولو أعطى الله الأسماء بلا معان ، كان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ، وشيئاً لا حس فيه » .

(١) « أخبار أبي تمام » للصولي ص ٢٤٤

(٢) أول باب اللفظ والمعنى (٣) « مجموع رسائل الجاحظ » القاهرة ١٩٤٣ ص ٨٥

هذا رأي أصحابنا . غير أن الروح والبدن ليسا على الفرق الذي يتوهمه متوهم . فهل أذكركم ما انتهى اليه التفكير الحديث على أيدي علماء الحياة والفلاسفة الذين بينوا أن في المادة قوة [١] ، وفي مقدمة الفلاسفة : برجسُن Bergson فقد تناول المطلب الذي نحن بسبيله في ثلاثة كتب [٢] .

أجل يُخرج البدن من صفة الجمود ذلك النشاطُ الكامن في ثناياه والذي نحسُّه ونختبره بوساطة العضلات ونحن نسلط الحركة الجسمانية على الأشياء الخارجية . والنشاط لا يُعقل من غير القوة ، والقوةُ حياة ، والحياة أصلها الروح بمعناه الأوسع . فالمادة أُولى درجات الفكر من حيثُ إن كليهما استمرارٌ متحركٌ . هما من جوهر واحد ، وليس اختلافهما إلاّ من جهة الوجود : في الفكر ، لا تفتأ الحوادث تتجمع كأنها تريد الوثب ، وفي المادّة ، لا تنفك تتمدد كأنها تريد الراحة .

والذي أستخلصه من هذا أنه كما أن الروح والبدن ليسا على الفرق الذي يتوهمه متوهم كذلك اللفظ والمعنى هيهات أن يكونا على تباين أو تقابل — تخيلوا مجلس غناء ، فكأن اللفظ جرسٌ يتردد في ستائر المعنى . فاذا برز المعنى نبر الجرسُ ، وهذه هي الكلمة : خروجٌ التحمت فيه القوة بالفعل ، فأثر من طريق الحركة الدافقة .

لذلك تروني أعتسف الحديث بعض الاعتساف وأنا أذاكركم هنا في لفظ الشاعر . فليس هذا اللفظ بموجود مستقل بذاته عن ذات المعنى . فليكن هذا مني على سبيل الترخص في العرض ، ومقصدي الكلام في ذلك الجرس قبل أن ينبر [٣] .



الشاعر من يصوغ عبارته على حسب ما يستأنس حسُّه اللغوي بعفو طبعه ، فذلك تعبيره ، ومن هنا عظمة نفر من الشعراء الجاهليين والمخضرمين أصحاب القرائح الطلقة الغمرة . ولم

---

(١) Janet et Séailles, Histoire de la Philosophie, Suppl. Chap 16.

(٢) Bergson, Les données immédiates de la conscience-L'Evolution Créatrice - Matière et Mémoire.

(٣) ولأخي الاعز الاكرم الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني مقال في « اللفظ والمعنى » (المقتطف « التعريف والتنقيب » مايو ١٩٤٤) يرى فيه أيضاً أن اللفظ والمعنى لا يتجانبان . ولكل منا اسلوب في الدلالة والاستخلاص والغاية .

يغب الأمر أو بعض الأمر عن بصراء العرب . أفلا ترونهم يمدحون امرأ القيس بما جاء به من البدائع والبدائه . قالوا : له « قيد الأوابد » ، وله « سموتُ إليها سموَّ حباب الماء » . وهنالك غير هذا الشاعر وغير هذين المثلين ... ويا ليت الشعراء كانوا أكثر والأمثلة أوفر ! ثم إن أولئك النقاد ذموا من يطلق يده في شعر من تقدمه، ولـكنَّ لهم في السرقات الشعرية رأياً بل آراء كان في الود أن تـكون أقل تسمحاً ، ولولا قبولهم للتقليد وفرحهم ببقاء عمود الشعر ما تسمّـحوا .

وربما ذهب الشاعر في الاستقلال اللفظي حتى انه يجدد الـكلمات ويولد التعبيرات فيفجأ ويحير ، ذلك شأن شكسبير ومالارميه Mallarmé الفرنسي ، وان شئت فقل : ذلك شأن نفر من الصوفية عندنا ، فهذه أشعار التجلي بين أيديكم ، وهذا ابن سبعين الاندلسي ، وهو من المئة السابعة ، كان يقول بأن اللفظ يجب أن يوقظ السامع ويَبهته [1] . ثم إن في شعر أبي تمام شيئاً من هذا ، ألم يصف ثوباً من الكتان بهذه العبارة : «قصبيًّـا تسترجف الريح متنيه» ؟ ولغيره مثل هذه الفلتات، كقول ابن أبي ربيعة « نام صحبي وبات نومي أسيرا » .

وقد يرتجل الشاعر لغته فيسبَـح في ملـكوت كلمته ، ذلك ما ابتدعه أعجوبة القرن الماضي Rimbaud الفرنسي وقد نحا نحوه شعراء ما وراء الواقع les Surréalistes ، فأنشأوا أداءهم إنشاءً وتهوّسوا ، والحلاّج في أدبنا يجاريهم وهو في سبيلٍ غير سبيلهم ، وسأعود إلى لوامع الحلاج في آخر البحث .

✡

وليس الغرضُ من كل ذلك براعةَ الشاعر في استعمال اللفظ الغريب والمتروك دلالةً على إحصائه واستقصائه ، ولا في تذليـل القوافي الجوامح برهنةً على قدرته الفائقـة في نظم الـكلام — وهنا وهنا عيب أبي العلاء — ولا في التحسين والتزويق ابتغاءَ الزخرُف المحض ، ولا في الاستطراد والإسهاب حيث لا وجه لها رغبةً في سرد الألفاظ فتنزل منزلة الحشو أو الإقحام . ولـكنَّ الغرض من كل ذلك أن يُـعبِّـرَ الشـاعر التعبير الرائع ، الحافل ، الصادق ، الخاصّ بانفعاله الذاتي . وتصيبون هـذا التعبير في قول أبي النجم الراجز يصف زوال الشمس :

(١) أخبرني بذلك صديقي وأستاذي السابق المستشرق لويس ماسينيون L. Massignon

حتى إذا الشمس اجتلاها المجتلي بين سماطي شفقٍ مرعبَلِ [1]
صغواءَ [2] قد كادت ولمَّا تفعلِ فهي على الأفق كعين الأحول

وفي قول ابن الرومي في الخمر :

ومدامةٍ كحُشاشةِ النفسِ لطُفت عن الإدراك باللمسِ
لنسيمها في قلب شاربها روْحُ الرجاءِ وراحةُ اليأس

هذا ، ومن وسائل ذلك التعبير ابتكارُ اللفظ ، ولا أعني ابتكارَه من جهة التلفيق ، كما صنع بشار بن برد يوم جاء بلفظ « الشنفران » وقد سئل عن معناه ، فقال للسائلين : إنه من غريب الحمار فاذا لقيتموه فاسألوه عنه . فإنَّ هذا العبث ليس من الفن الصحيح في شيء وإن يَقدُرْه بعضُ الشعراء الغلاة في فرنسة ، وقد شقَّ لهم الباب رجل ذو بَدَوات اسمه Isidore Ducasse أو le comte de Lautréamont ، وعلى هذا أيضاً شعراء المذهب الاستقبالي les Futuristes .

إنما ابتكار اللفظ على جهة ما قال أبو العلاء :

وقد جدَّ أهلُ الملعَبين فأثَّلوا بناءً ولم يُعرَف لرافعه رسْمُ

وقد أراد بالملعبين : الليل والنهار [3] ، ولم أجده بهذا المعنى في كتب اللغة ، ولعلَّ أحدكم يهديني [4] .

وليس ابتكار اللفظ من طريق الكناية والمجاز على أنواعه سوى بعض المنشود . فأعلى من هذا وأبعدُ في انعقاد السحر أن يَخرج الشاعر التعبير عن النسج المتواتر . وسبيله تخيّر لفظ زاخرٍ بإلهام جديد ، وضمُّ الألفاظ بعضها إلى بعض ضمًّا غير معهود ، وإيثارُ الاشارات والتلويحات بحسَب هواجس الساعة ، فيصبح الأداء قريباً شاسعاً في آنٍ واحد. أما قربه فبأنس اللفظ وسلامة التركيب ، وأما شسعهُ فبما يستحضره اللفظ في الوهم ، ويقترحه التركيب في الفهم .

وليس يغيب عني أن في هذا عدواناً على ما سموه قديماً « عمود الشعر » وتعصبوا له بل

(١) ممزق (٢) الشمس تميل للغروب

(٣) قرأ ذلك في كتاب قديم الاستاذ طه الراوي من أدباء العراق ، وأخبرني به وقد غاب اسم الكتاب عنه

(٤) من مبتكرات أبي العلاء أيضاً : وابيض امات ارادت صريحه لاطفالها دون الغواني المرائع
وقد اراد بأبيض امات : الحليب

أكبروه وقدّسوه. حسبي أن أقول: ليس للشعر عمود راسخ: الشعر هزّة، وأصل الهزّة اضطراب، وما الفن الا هكذا من جهة الإلهام والتأثير جميعاً. ذلك ما انتهى اليه أهل التأمل في عهدنا، وعلى رأسهم الفيلسوف برجسن[١].

☆

وليست الحيلة في توليد الهزّة أن يقتصر الشاعر على القصد إلى « الجلجلة في جزالة والدندنة في حلاوة » (١) أو إلى الجناس في تأنق. إنما يحسن بنا اليوم ألا نقنع بالضجة ارتفعت أو خفضت. بل يخلق بنا أن نعدل عن بعض الحسّ الظاهر، عن رعدة الأذن، إلى كلّ الحسّ الباطن، إلى رجفة الوجدان. فالحيلة تكون في استعمال الكلمات من جهة قدرتهن على الأشياء الخارجية، فيتخطّى الشاعرُ مضيقَ المحسوس الملقى الينا ليسرح في فُسحة المدرَك المطويّ عنا. وبهذا يعود إلى صناعته الاولى، إلى الرُقية. ألم يقل الراجز قديماً، وهو رؤبة، لأبي بكر بن الحكم وكان راويةً شاعراً:

لقد خشيتُ أن تكون ساحرا   راويةً طوراً وطوراً شاعرا[٢]

ألم يكن لشاعرنا شيطان يحدثه، أوَلم تكن بينه وبين الجن مجاذبات؟

يعود الشاعر الى طرح الجسر بين عالمين عالَم الفكر والمبادىء وعالَم العبر والوقائع، بين الحقيقة والرمز. أوَما كان الشاعر والكاهن رجلاً واحداً في الأمم الغابرة؟ وهذا الهجاء عند العرب كان أولجَ في الكهانة[٣]. ألا قد فسد جوهر الشعر لما تناوله حذق الذهن واستبدّت به ضوضاء الضلوع.

والاستحضار الذي ألمعتَ اليه أولاً — أعني ما يستحضره اللفظ في الوهم — يكون من جانب صفات الصوت: قوة أو ضعف، تفخيم أو ترقيق ثم الأوزان وخصائصها. وبالجملة: طنين يتفاوت اهتزازه وانسجام أطرافه بتفاوت الطاقة التي تختزنها الحروف المنحبسات والمنطلقات ثم المصوّتات والصامتات. ومَثل النبرات في النطق كمثل الأصباغ في الذّهن، تتماسك بها الصورة أو تتفكك، تزهو أو تشحب، تغور أو تنفر. ولعلّ هذا التقارب الذي جرّ نفراً من شعراء الافرنج إلى تلوين بعض الحروف، فبدا لأحدهم — وهو رامبو Rimbaud — أن الألف سوداء والواو زرقاء إلى آخر ما بدا له.

---

(١) راجع مقالي « الشعور بالجمال عند برجسن » مجلة الثقافة، العدد الـ ١٢٥ سنة ١٩٤١

(٢) عن « البيان والتبيين » للجاحظ، القاهرة ١٩١١ ج ١ ص ١٢٣

(٣) انظر مادة « هجاء » في دائرة المعارف الاسلامية (طبعة هولاندة) بقلم ب. ف.

وأما الاقتراح — أعني ما يقترحه التركيب في الفهم — فيكون، أكثر ما يكون، من جانب تصويرات الوحي : أضواء وأفياء، مدّات وليّات . وبالجملة : تجاوب بين ما يعنيه ظاهر النطق وما يثار خلف حجاب السمع . فكأنما السامع يحيا — لحظةً — حياة اللفظ المنطوق بهِ . فإما حدث وإما حال، يسمى من الموضوع إلى الذات . وذلك بفضل التمثيل اللفظي، كقولكم « العصف » و « الرعد » وقولكم « نقَضه » و « صرَعه » . ومحاكاة الأصوات مندرجة في هذا الباب . ثم بفضل تداعي الأفكار في خفية من طريق القياس على مسموع سابق أو الانتباه لشعورٍ مدفونٍ نبشَه لفظ رجّاجٌ أو غير ذلك من الطرق مما لا أستطيع الاهتداءَ اليه أو الافصاح عنهُ لاتصاله بالحياة الغافية، أو كما يقول أهلُ العصر : « الحياة اللاواعية » .

هـذا، وبديهي أن الألفاظ المبتذلة والتراكيب المطروقة قد سلبها فرطُ الاستعمال قوّتها، وغصبها سحرها، فأمست فاترة باردة .

✡

وليس معنى ماتقدم أن الشاعر يستحدث في اللفظ على حسب ما يبدو له. فان وراء ابتكاراته علماً بأصول الصرف والنحو، ودرايةً بمواقع الكلمات . وهل نرضى عن فئة هابطين علينا من ناحية الارتجال يعدّون الخيال والموسيقى كلَّ الشعر، فيذهبون إلى أن اللفظ فضل وأن الصيغة وهمٌ، فلا حاجة إلى التمكن من أساليب الأداء . هؤلاء يصحُّ فيهم قولُ البحتري :

يا امرأ القيس لو رأيتَ حبيك الـــشعر يُغذى بماء لفظٍ ركيكِ[1]

وقد يتذرّع أهل هـذه الفئة بما سمّوه من باب التلفيق « التجديد » . على حين أن التجديد — وهو حال لاحقة — يفترض في ثناياه القديم — وهو حال سابقة . وإنما في الذي سبق مادة الكلام السليم، وليس في الذي يلحقُ إهلاك المادة ولكنَّ بهِ انعاشها . كذلك الأمر في التصوير، فان المصور المبتكر في جسَّات المرقم وطبقات اللون وهيئات الموضوع لايُقبل على ذلك إلاّ وقد أشربت عيناه وأنامله أصول الفن المتواتر . ولكم في Paul Cézanne أبي التصوير الحديث — كما يُلقب — خير مثل لهذا، ولكم في Picasso المفرط في الافتنان مثل آخر .

(١) من شعره غير المنشور، أورده الدكتور محمد صبري في «الشوامخ» القاهرة ١٩٤٤ ج ٢ ص ٧٢

وليس العلم بالصرف والنحو ومواقع الكلمات سوى المدخل الى الصناعة . فالشاعر مهما تهب ربات الشعر له من طلاقة القريحة فلا بد له من استشفاف سر اللغة زيادة على الاستكثار من فرائدها ببصارة وتحقيق . فكما أن المتنبي وأقرانه خرجوا الى البادية يأخذون اللغة من أفواه الخلص ، كذلك ينبغي للشاعر الحديث أن ينغمس في دواوين اللغة حتى تدور له سنن العرب في نطقها ، ويستقيم له جانب غير قليل من المفردات ، فيعرف كيف يشتق الكلام وينزله ويجريه . وكيف ينقله من صعيد الحقيقة الى أفق المجاز — والمجاز عصب الشعر . والشاعر في كل لغة خير من يشتق وينقل . فهو الخلاق البشري الأول يعينه في ذلك ذوق نعم وتمده سليقة صفت، بفضل قراءات مستبصرات تزود ذاكرة الشاعر عرضاً، من حيث لا يدري . حتى إذا هجمت لحظة القول بذات له الذاكرة مادة الكلام الأولى فألف ، وبين يديه قربت الأشباه وقرنت الأضداد فتلطف ،ثم وسعت له التخييل فاستطرف.هذه الذاكرة ــ على ضد ذاكرة المستظهر المصر ، وقد تقدمت صفتها في هذا البحث — تدفع غزارة الكم إلى رهافة الكيف . وعلى الكيف أن يختار وأن يتصرف وأن يستنبط . وسبيله أن يجبل مادة الماضي بروح الحاضر ، فيسلك نفضة الاحساس الطارئ في هدأة الحرف العاجز . وعلى هذا النحو يتلقى الهواجس ويتبصر الطوالع وقد نحّى عن ألفاظه ظل السآمة .

ولا بد أن تنبسط هذه القراءات على عهود شتى وفنون . يقرأ الشاعر الشعر الحسن كله ويقرأ النثر سواء جرى في الفن أو في الأدب أو في العلم . فان الشعر — على خلاف ما يظن الظانون — يشمل كل ما يضطرب في العالم . إذن بقيثاره حاجة الى الأوتار كلها . من حادّ الحادّ الى ثقيل الثقيل . ولولا هذا ما وسع الشعرُ — وهو فيضُ الروح الكليّة — تناغيم الكون النابض ، ما وسعها على أيدي سوفوكلس ودانتي وشكسبير وجوته وتاجور ومن لحق بمرتبتهم . وقد آنس أبو العلاء جوهر هذا الشعر ، ولا أشك أن ابن الرومي فطن له . لذلك نراهما أقدر شعرائنا على توليد الطريف بالتركيب الأخاذ المفاجئ ، حتى إن أبا العلاء حقيق بأن يُصنع لشعره ونثره الجاري مجرى الشعر معجمٌ خاص كما وقع لشعر شكسبير ، فمستنبطاتُ أبي العلاء وملاحنه كثيرة .

ومن هذا الباب أيضاً أن شعراء هذا الزمان في أوربة ولاسيما فرنسة وإنجلترة يستعملون في قصائدهم اصطلاحات العلوم والفنون كمثل الفلسفة والرسم والموسيقى والكيمياء والفيزياء . ومن قبلُ أمدت الصوفية عندنا لغة الشعر بطائفة من اصطلاحاتهم فأغنوها ، وأدخل أبو تمام والمتنبي ألفاظ الثقافة الرفيعة . ولكن جلّ نقادنا، عفا الله عنهم، ما رضُوا كل الرضا عن

المعري وابن الرومي وأبي تمام والمتنبي ولا عن الصوفية ، ولا طربوا لآثارهم إلاّ بمقدار ، لغلبة التقليد على موازينهم .

وهؤلاء الشعراء الأربعة وكذلك الصوفية لم ينصرفوا ولم يفتنّوا بقدر قوّتهم على التوليد وشغلِهم بالابتداع ، فشدّوا أوتاراً وأرخوا أوتاراً ، فإذا القيثارُ تحت عناقهم لم يترنم الترنم الأتمّ . وذلك لأنهم تخرجوا في أروقة الأولين وفي حلقاتهم تربعوا ، وقد وُلدوا وإطار الشعر بنسجه ومائه ووزنه وقافيته مكين ، فجاء تصرفهم وافتنانهم في حدود ذلك الإطار، ولم يفلقوه حتى في زاوية من زواياه . وأما الذين نثروا منهم كأبي العلاء والحلاج فلم يجدوا في سبيلهم عموداً راسخاً، فطاروا . هل قرأتم «الفصول والغايات» ، وهل قرأتم كتاب « الطواسين » ؟(١)

☆

وجملة البحث أن الشاعر سيّدُ قوله . وهو لا يكون كذلك الاّ اذا استطاع التعبير من ذات مَلكته في صدق وحفل وسَمة . فيسخّر الكلمات لغرضه ويروّض القوافي لنفسه، وإنما أنامله التي تجتذب الأفكار من المغاوص ، وتختطف الألطاف من المفاتن ، وتلتقط أنوار اللوامع والهواجم .

بشر فارس

---

(١) وازن هذين البيتين للحلاج (« أخبار الحلاج » باريس ١٩٣٦ ص ٢٨) :

عجبت لكلي كيف يحمله بعضي ومن ثقل بعضي ليس تحملني ارضي
لئن كان في بسط من الأرض مضجع فقلبي على بسط من الخلق في قبض

بهذه اللامعة النثرية في كتاب « الطواسين » باريس ١٩١٣ ص ٣٩ : « الناموس نعته ، والشموس ميدانه ، والنفوس إيوانه ، والأنوس حيوانه ، والمطموس شانه ، والمدروس عيانه ، والعروس بستانه والطموس بنيانه » . ففي البيتين اصطلاحات « الكلام » وغمزات التصوف مما هو خارج « عن الالفاظ المعروفة والامثلة المألوفة التي لا ينبغي للشاعر أن يعدوها ولا ان يستعمل غيرها » كما يقول ابن رشيق (« العمدة » باب اللفظ والمعنى) . ولكن البيتين منسوجان على الطريقة المتبعة بلاغةً وبياناً وبديعاً .

وأما اللامعة النثرية فهي « شطحة » واردات تتصل بمذهبَ شعراء ما وراء الواقع Surréalistes الذين أشرت اليهم ، وهم شعراء الرؤيا والسرحان يرون مع عمدتهم أندريه بريتون A. Breton إن « الالفاظ قد فرغت من اللعب ، وان بعضها أصبح ينزو على بعض » Les mots ont fini de jouer. Les mots font l'amour . فهذه اللامعة النثرية أجنبية عن الوضع الشعري العربي من جهة التصوير والتأليف بين الالفاظ . وللحلاج — وهو « الرفيق الاعلى » كما لقبه بعضهم — إسراءات أخرى سأعود اليها في بحث آخر .



الريف والزراعة
في الولايات المتحدة

أتينا في عدد مارس الماضي من المقتطف على بعض نواحي الزراعة في ريف الولايات المتحدة الأميركية . وفي هذا المقال نشرح جانبين هامين من الزراعة الأميركية ، رامين بذلك إلى تنبيه أذهان الأمم الشرقية التي تعيش من الزراعة وعليها ، وإلى إرشادها مما يتبع في البلدان الأخرى من نُظم جليلة أثبتت نجاحاً باهراً في زيادة الثروة القومية ورفع مستوى معيشة الفلاحين .

١ — الجمعيات التعاونية القروية

في الولايات المتحدة الأميركية جمعيات وشركات تعاونية يبلغ عددها زهاء ١٥٫٠٠٠ جمعية بعضها مملوكٌ للفلاحين وبعضها يدار تحت إشرافهم ، تقوم معظمها بتصريف المنتجات الزراعية ومزاولة أعمالٍ وثيقة الصلة بمصلحة الفلاحين . وتقوم فئة صغيرة منها بأعمال شركات التأمين ضد الحريق ، بينما تتولى فئة أخرى أعمال شركات الري والصرف .

وتدلّ الاحصاءات على أن ما يزيد على ثلاثة ملايين من فلاحي الولايات المتحدة أعضاء في هذه الجمعيات التعاونية . وان ما لا يقلّ عن نصف مليون من الفلاحين أيضاً يتتبعون الحركة التعاونية باهتمامٍ كبير . وتبلغ قيمة المنتجات الزراعية التي تقوم بتصريفها الجمعيات التعاونية حوالي ٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الريالات سنويًّا .

والجمعيات التعاونية الزراعية في الولايات المتحدة تدير أعمالها كأيّ مؤسسة تجارية أو كأيّ عملٍ فرديّ . والصفة الرئيسية للجمعيات الزراعية التعاونية هي أنها تدار لفائدة أعضائها لا كمساهمين ، بل كمنتجين .

وان الفوائد التي يجنيها أعضاء هذه الجمعيات التعاونية ، تنمو وتزداد لا للأموال التي يستثمرها الفلاحون فيها وحسب ، بل لرعايتهم ومراقبتهم لها . والغرض الأساسيّ من قيام هذه الجمعيات أن تبيع منتجات الفلاحين بأقصى سعرٍ ممكن ، وأن تمدّهم بأفضل المواد

الزراعيـة وأرخصها ، وأن تقوم بالخدمات الادارية التي تجعل عمليـات البيع والشراء أوفر ربحاً .

وفي كل ولاية من ولايات أميركا المتحدة أسواق تجارية تبتاع حاجاتهـا من الجمعيات التعاونية من لحوم وخضر وبقول ، وتقوم الجمعيات التعاونية بشراء علف الماشـية وسماد التربة وآلات الحصاد وغيرها مما يحتاج اليه الفلاحون .

وكان الفلاحون الأميركيون من خمسين عاماً يقومون بانتاج الأدوات اللازمة للصناعات الزراعية . غير أن بعض الجمعيات التعاونية تقوم الآن بصناعة الجبن والقشـدة في مصانع خاصة ، بينما تتولى مصانع أخرى تنقية الحبوب وطحنها . كذلك تقوم الجمعيات التعاونية بحلج القطن في المصانع التابعة لها ، وتقوم أيضاً بتوزيع البترول ومنتجاته .

وفي السنوات الأخيرة ، زاد عدد جمعيات الشراء التعاونية على عدد جمعيـات البيع التعاونية . وكان من نتيجة مدّ القرى بالآلات الزراعيـة أن زاد إنتاج الجمعيات التعاونية التي تتولى صناعة منتجات البترول زيادة كبيرة . كذلك نمت مصانع حلج القطن التعاونية نموًّا ملحوظاً حتى أصبحت تحلج نسبة كبيرة من المحصول السنوي .

ومع أن العمل الأساسي للجمعيـات التعاونية بيع المحصولات الزراعية وشراء المواد اللازمة للزراعة ، فانها تقوم بخدماتٍ كثيرة متنوعة تختلف بين أعمال الانتاج والادارة . ومن بين تلك الخدمات تقدير الأسعار ، ولفّ البضائع ، ونقلها ، وخزنها ، وحلج القطن ، وتمويل المشروعات ، والاعلان ، وإجراء التجـارب ، وإدارة بساتين الفاكهة ، ومحاربة الديدان ، وحماية البضـائع من التلف ، وإيجاد الأماكن اللازمة في المدن والقرى ليباشر الفلاحون فيها عمليات البيع والشراء بأنفسهم .

ب — ملـكية الاراضي

توفي في العـام الماضي مزارعٌ أميركي كبير يدعى « لودن » وخلف وراءه ثروةً من الأراضي الزراعية مساحتها ٢١٣ ألف فدان في ولاية أركانساس بأميركا . ومما يروى عن المستر لودن انه كان نابغةً في الزراعة وحجةً في المسائل المتعلقة بهذا الفنّ . فأقام معملاً كبيراً لانتاج اللبن في مزرعته الخاصة . وكانت محصولات مزارعه من أجود المحاصـيل وأفضـلها ، كما انه كان يقوم بتجارب متعددة في الحقول ، وله مشروعات كبيرة تبحث في الانتفاع بأشجار الغابات . وقد عرض عليه المستر كولدج ، الرئيس السابق للولايات المتحدة ، منصب وزير الزراعة ، ولـكنه رفضه مع ما رفضه من المناصب الـكبيرة التي عُـرِضت عليه في حياته الطويلة .

وأوصى المُزارِع بأن يؤول ٢١ ألف فدان من أراضيه بعد وفاته إلى « مؤسسة الريف الاميركي » ، وهي مؤسسة حُرَّة للبحوث الزراعية . وجاء في نصّ وصيته : « إنني أوصي بمزارعي لمؤسسة الريف ، وأنا عالمٌ بأن عدد السكان الريفيين ونوعهم ، يُعدّ عاملاً رئيسيًّا هامًّا في تقرير قوّة الشعب ونوعه وصحته . وأرجو بل أرغب في أن تقوم مؤسسة الريف بتحسين جميع نواحي الحياة الريفية حتى تزداد نسبة العناصر الممتازة في سكان بلادنا ويستطيع شعبنا أن يعيش في المزارع والحقول تحت ظروفٍ ملائمة تدفع بالحضارة قُدُماً . وهذا على ما أعتقد ، خير ضمانٍ لاستمرار المؤسسات الحرّة » .

واستطرد المستر لودن في وصيّته فقال : إنه يرجو أن يتحسن نظام تأجير الأراضي ، لأنه يتطلّع إلى تحسين العلاقة بين الملاك والمستأجرين ، وإتاحة الفرصة لعددٍ كبيرٍ من المستأجرين النابهين والصناعيين والمدبّرين بأن يصبحوا مُلاّكاً لمزارعهم الخاصّة .

ولتحقيق الغاية التي رمى إليها المُزارِع ، وهي زيادة عدد صغار المُلاّك ، تألفت لجنة لرسم الخطط ووضع الأسس . فاجتمع مجلس إدارة مؤسسة الريف ، ويتكوّن من رجلين من كبار مزارعي الحبوب وأحد تجار الماشية ، ورجل من أصحاب الصنائع القروية ، وعميد إحدى كليات الزراعة الأميركية الكبرى وتعاونوا على وضع البرنامج الذي يسيرون عليه .

وتسعى مؤسسة الريف إلى دراسة النواحي الاجتماعية للحياة الريفيّة في أميركا . وقد مدّها المزارع الاميركي بتفاصيل التجارب التي أجراها في مزارعه ، فذكر في وصيته : «أعتقد أن مؤسسة الريف يجب أن تهتمّ اهتماماً خاصًّا بالاسرة الريفيّة وبالمزارع الصغيرة الصالحة للأسَر . ولقد تتبعتُ باهتمام نموّ عدد المزارع الكبيرة ؛ غير أني أعتقد أن الإقطاعيات الصغيرة المتنوعة تستطيع أن تقاوم الأزمات المالية خيراً من المزارع الكبيرة التجارية ، وذلك لأن الفلاحين يستهلكون الموادّ التي ينتجونها فلا يتأثروا بارتفاع أسعار السوق » . وأشار المزارع الأميركي على مؤسسة الريف بأن تدرس وسائل تيسير حصول الأهلين على الأراضي وتسهيل مهمة سداد ديونهم .

وذلك مثال آخر للمجهودات الفرديّة والجماعية التي يقوم بها الأميركيون لتحسين حالة بلادهم الزراعية ، ورفع مستوى الشعب المادي .

وديع فلسطين

يناير استمد اسم الشهر الاول من شهور السنة الميلادية من اسم المعبود الروماني «يانوس» ، اله كل البدايات . وكان «يانوس» حامي الابواب والنوافذ ، وله وجهان ، وجه لكل من ناحيتي الباب . والكلمة الانجليزية -janitor- ومعناها بواب ، مستمدة من نفس المصدر ، لان من خصائص هذه الوظيفة ان يلاحظ صاحبها الابواب والمداخل من البيت.

الواجب

قصة عن اسكندر إزباخ

تطوَّعت لتكون في الصفوف الأمامية أول يوم في الحرب . كانت قد أتمت السابعة عشرة ، ولكنها أصبحت لرجال الجيش الأحمر ، الذين تعهدت جراحهم ، أختاً صغرى محبوبة مدللة ، تمر بيدها الناعمة الرخصة على جباههم المتوقدة .

وذات مرة ، بعد موقعة حامية الوطيس ، عهد الى الممرضة « تامارا كانيفنا » بترحيل جرحى رجال الجيش الأحمر وقواده . ووقف في الخارج سيارات نقل الصليب الأحمر في مكان مكشوف ، وربما كان هذا هو السبب في أن الفاشيين صمموا على تحطيمها ، عساهم يقضون على رجال الجيش الأحمر الذين تقلهم .

وكان سبع طائرات معادية تحوِّم فوق الطريق ، فلما لمحت سيارات النقل ، انقضت جميعاً . ها هي ذي على ٣٠٠ قدم ، ثم ١٥٠ — ١٠٠ — ٤٠ ، كادت تمس الارض ، ومرّت تلك الطيور المفترسة مبتعدة في الفضاء . ولكنها عادت ، ثم ابتعدت ، قاذفة قافلة النقل برصاصات محرقة .

جلست تمارا في مقعدها وكأنها سُمِّرت فيه ، منقطعة الأنفاس . وعامل الجرحى . غردّت لفائفهم وأصلحتها ، وأعطتهم ماء من صُواعها ، فهدئوا وشعروا بأنهم أحسن حالاً .

وانهمر الرصاص ، وطوّقت ألسنة النار سيارة النقل . وقفت السيارة وسط الغابة ، يندلع منها اللظى الحامي كأنها صواريخ عاتية . وتدافع الجرحى وسقطوا من فوق المحفات ، ورموا بعصائبهم بعيداً . ضاقت أنفاسهم وهم يبتلعون هواء مفعماً بالدخان ، محاولين أن يجروا إلى رئاتهم ما يسعفها بالحياة . لحظة واحدة فَقَدَتْ فيها « تمارا » حضور ذهنها . غابت عن نفسها لحظة ، فوثبت من السيارة المحترقة ، لتهرب ، الى الغابة ، فراراً من موت سريع محقق .

ما هذا ؟ عاد اليها صوابها فجاءة . فالى أين تهرب ، تاركة وراءها هؤلاء الجرحى الذين عهد اليها بهم ؟ هي الشيوعية الصغيرة المتطوعة . كيف تستطيع أن تحتمل الحياة بعد هذا ؟ كيف ترى الناس ويرونها ؟

اندفعت ثانية نحو السيارة ، وبيديها

الصغيرتين الضعيفتين ، بدأت تجر الجرحى الى الخارج . ساعدها السائق أول الأمر... ولـكن هنالك ... ها قد قدمت طيارات الاعداء ثانية . وللمرة الثانية أخذت تهاجم السيارة المشتعلة . . . وجرح السائق جرحاً مميتاً فسقط فاقد الوعي .

أصبحت « تمارا » وحيدة ولا معين لها . فريدة في الغابة المخيفة ، وأمامها سيارة بها جرحى ، أخذ منهم القنوط وضرب على قلوبهم اليأس ، وهم في أشد الحاجة الى يدها ، ورصاص الأعداء يئز من فوق الرؤوس .

خمسة عشرة مرة وثبت الى السيارة المشتعلة . خمسة عشرة مرة لفت ذراعيها الصغيرتين من حول جثمان جريح هامد الجسد فاقد القوة عظيم الهامة ، وسحبته بعيداً، جارة ركبتيها المتعبتين الى هزمة من الارض بمقربة من الغابة . ثم وقفت تلتقط أنفاسها ، وتشبع رئتيها بقليل من الهواء الصافي وتطفئ النار التي علقت بملابسها .

عمل شاق . يظهر انه مستحيل لأول وهلة . يلوح كأنه خارج عن طوق البشر . ولـكنه لم يكن فوق طاقة مخلوق بشري حقيق بالبشرية . فتاة لم يدخل الخوف قلبها، فهزمت النار، وهزمت معها الصقور الفاشية، بل استقوت على الموت نفسه .

كان بعض الجرحى في غيبوبة غائبين عن الوعي . وفتح البعض أعينهم مرسلين على ذلك الخيال الذي تجسم في صورة فتاة ، نظرات الحب والشكران ، جزاء ما جاهدت في سبيلهم .

« لا تقلقوا أيها الفتيان » — قالت ذلك هامسة وهي تحرك شفتيها الجافتين بصعوبة . « لا بأس . سيعود كل شيء إلى مجاريه الطبيعية . إني سوف لا أتركـكم أبداً . سوف لا أتخلّى عنكم » .

عيناها ، لاغيرهما ، هما اللتان كانتا تبتسمان لهم . عيناها الـكبيرتان المفعمتان بالعاطفة .

ظلّت السيارة تحترق طوال الوقت الذي كانت « تمارا » تنقل فيه الجرحى إلى الفجوة التي اختارتها لهم . وأخذت تمزق ثيابها المهلهلة ، غير آبهة بالآلام التي كانت تأكل أطرافها ، ومضت نصف حالمة تجري طوراً ، ثم تمشي متباطئة وزاحفة على ركبتيها إلى أول محلة للاسعاف . وبهمس متقطع، روت لهم الحادث ودلتهم على المكان، ثم سقطت غائبة عن الرشد .

لقد نجا الجرحى . خمسة عشر فتى ، نقلوا إلى المستشفى .

إن كثيراً منهم لم يعرفوا اسم تلك البطلة التي أنقذتهم بتفانيها وشجاعتها . إنها « تمارا كالنينا » . لعلك لا تنسى الاسم ثانية .

هي في فراش المرض ، وهي على شفا الموت : حروق أكلت أطرافها ، والتهاب

حادٌّ في صدرها . ولكنها انقذت من الموت . وأنقذت منه ، بعد إن أنقذت أرواحاً كثيراً .

سوف تعيش .

وعند ما يفكّر عظام الفنّانين من مواطنينا في إقامة أثر يخلدون به ذكرى الانتصار والمجد ، إلى جانب محاربينا ، إلى جانب جاستلو وماميدوف ، وإلى جانب طيارينا ورجال الدبابات وحملة البنادق والرماة ، اذاً فليقيموا إلى جانب هؤلاء جميعاً تمثال فتاة صغيرة ضئيلة على ذراعها شارة الصليب الأحمر . تمثالاً صغيراً للشيوعية الباسلة « تمارا كالنينا » .

بأمر المجلس الحربي في الميدان الشمالي الغربي ، قلدت « تمارا كالنينا » وسام لينين .

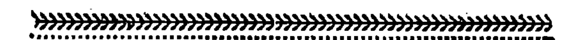
أسنانك والحلوى

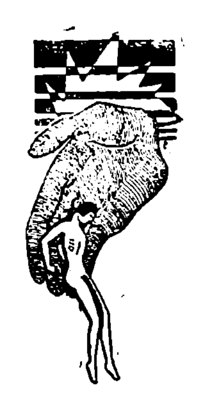
بالرغم من أن أطباء الإسنان غير متفقين على حقيقة السبب الذي يؤثر في الاسنان فيحللها ويفسدها ، فقد بدأ يتبين للباحثين ان كمية السكر المركز في الطعام ، لها أثر في ذلك . فان تخمر السكر في الفم تهيىء بيئة طيبة لتولد القصيات (البكتريا) المولدة للاحماض . وسواء أكانت القصيات أم الاحماض هي التي تؤثر في مينا الاسنان ، فان وجود الحمض في الفم له أثر كبير وعلاقة وثيقة بانحلال الاسنان .

في جامعة كاليفورنيا ، بحث أطباء الاسنان ١٢٥٠ مريضاً ظهر فيهم تأكل سريع في الاسنان بمعدل عشر فجوات في السنة . والى جانب هؤلاء انتخبوا ٢٥٠ مريضاً أسنانهم سليمة من التأكل . فاتضح من الفحص الطبي ان سبب التأكل يرجع الى التراكم الحمضي ، وان ذوي الاسنان السليمة أنواههم خالية من الاحماض .

حرم على الذين اشتكت أسنانهم بعض الاغذية ، وسرعان ما قل التأكل عندهم بنسبة ٨٧ في المئة في بضعة أسابيع ، وقل تكوين الفجوات . كذلك لم تتكون فجوات جديدة عند ٦٢ في المئة من أولئك الذين عرف انهم يصابون بمعدل عشر فجوات كل سنة ، و ١٨ في المئة أصيبوا بفجوة او فجوتين في خلال سنتين . وقد اتضح ان تحريم بعض الاغذية على الذين تأتكل أسنانهم ، قد أنزل نسبة الاصابة او محاها في ٨٠ في المئة منهم .

ما هو ذلك السر الغذائي ؟ يقول أطباء الاسنان ان السر هو في الحرمان من الاغذية الفحمائية (Carbohydrates) كالسكر والحلوى والمشروبات السكرية والتين والعسل والمربى والهلام المسكر وأمثال ذلك . وقد عوض الجسم عما يفقد بالامتناع عن هذه الاغذية من وحدات السعر ، باللبن ومنتجاته واللحم والسمك والخضر .





الضمان الاخلاقي

يتجه العالم اتجاهاً جديداً . يتجه نحو المساواة الاجتماعية والقضاء على الفوارق البعيدة بين الطبقات . يتجه إلى الاشتراك الفعلي القائم على أساس توزيع خيرات الأرض والصناعة على الكبير والصغير ، وعلى صاحب الأرض والفلاح ، وعلى صاحب العمل والعامل ، بما يكفل للجميع التخلص من خمسة عمالقة ، ذكرها سير بيفردج في مشروعه عن الضمان الاجتماعي . أما العمالقة[1] فهي الجهل والتعطل والمرض والحاجة والقذارة .

إن لكل انقلاب اجتماعي تطوراً عقليًّا يسبقه . وما الحوادث التي تقع في حيز الوجود غير انعكاسات فعلية ، لما يقوم في النفس بالقوّة . فكل الآراء والحقائق والاعتبارات والمقاييس التي تقاس بها الأشياء الانسانية، تظل موجودة بالقوة في تضاعيف النفس البشرية حتى تختمر ، فاذا اختمرت وكملت كل مهيئات خروجها إلى حيز الفعل، ظهرت آثارها العملية، وأصبحت حقيقة واقعة فاعلة لها آثارها الحسيَّة في الناحية المرغوب فيها.

وليس في دنيا الفكر من شيء هو أدنى إلى الخطأ ، وأبعد عن الصواب، من القول بأن الظواهر الاجتماعية ، وبوادر القلق وعدم الاستقرار ، انما هي أعراض تغذيها الدعايات المختلفة ، وان ليس لها شيء من صفات الجواهر الثابتة . ذلك بأن الوعي الاجتماعي لا يستجيب لدعاية ما لم يكن في هذه الدعاية رموز وإشارات تخاطبه وتتصل به، فتظهر استجابته لها في صور مختلفة من الظواهر النفسية والروحية . ولذا كان من أوجب الواجبات على رجال الدولة والمصلحين ، أن لا يهملوا تقصِّي سبب كل ظاهرة من تلك الظواهر ، وبلوغ أسبابها الصحيحة ، لأنها في الواقع استجابات الوعي، لدعايات لها أصولها الثابتة . وكما أن العَالِمَ لا يستحي أن يكب على حشرة دنيئة أو غلاف بزرة يدرسه ويفحص عن حقائقه تحت المجهر وفي أنبوبة الاختبار، كذلك لا ينبغي لمن يُنصِّب نفسه لتوجيه الجماعات ، أن لا يهمل أتفه الظواهر ، وقد تكون تلك الظواهر على تفاهتها ، مبعث النار الآكلة ومدرج العاصفة الهوجاء . والتاريخ شاهد عدل ، وكفى به شاهداً .

من الظواهر الحقيقية في هذا العصر، ونقصد بها الظواهر التي لها مصدر ثابت في النفس،

تغلب ملكة النقد على كثير غيرها من الملكات العقلية . وإن العصر الذي نعيش فيه لعصر النقد. فالقوانين والشرائع ، والحكومات والاحزاب ، والمعاهد والنظامات ، جميعها خضعت للنقد خضوعها في أزمان سالفة لغيره من الملكات العقلية . ولما كانت ملكة النقد تتطلب في أول ما تتطلب ، جوًّا من حرية الفكر تفرخ فيه ، وقسطاً وافراً من حرية القول والنشر، تجول في نواحيه وتتصل من طريقه بالجمعية ، كان أثرها في تكوين صور مختلفة من الوعي الاجتماعي أمرٌ محتوم واقع . فكل محاولة ترمي إلى تقييد حرية النقد في هذا العصر ، ليست بذاتها محاولة بائرة فحسب، فهي مع أنها محاولة بور مجدبة، من العوامل المؤدّية إلى حبس الانفعالات التي تجد لها في النقد متنفساً ومخرجاً ، فاذا حبست كانت الانفجارات المحطمة، نتيجة لازمة لتراكمها في ذلك الوعي . واذن ينبغي أن يكون لهذه القوة حساب في تصور كل سياسي وكل مصلح اجتماعي وكل باحث في تقدير الظروف التي تحيط بجمعية من الجمعيات الانسانية ، بمقتضى منزلتها من إدراك لحقوقها في الحياة ، وفي متعلقات الحياة من حرية واستقلال وحقوق وواجبات الى غير ذلك .

من هنا نبتت فكرة العمل على تحقيق الضمان الاجتماعي. ولهذا الضمان في الواقع صورتان: إحداهما اجتماعية وأخرى فلسفية . فالصورة الاجتماعية عبارة عن مختلف النظامات التي تنظم الحياة على قاعدة التخلص من عمالقة بيفردج الخمسة ، وما تستند اليه هذه النظامات من قوانين الدولة . والصورة الفلسفية عبارة عن تفسير عقلي للاسباب التي أدت الى العمل على تحقيق الضمان الاجتماعي . هي فعلاً تعبير عن حاجات تقوم في الوعي الاجتماعي، وفكرات اختمرت فيه وكادت تبرز الى حيز الوجود ، لتحقق ذاتيتها بالفعل ، بعد أن مضت كامنة بالقوة ، زمناً كافياً لأن تكون فاعلة . واذن فالعالم اليوم يعالج فتح باب ذلك المتجه الجديد الذي يتجه منه نحو المساواة الاجتماعية ، والقضاء على الفوارق البعيدة بين الطبقات . غير انه لا ينبغي ، مع وضوح ذلك ، أن نغفل عن أن الصورة الاجتماعية للضمان الاجتماعي انما تقوم على نظامات تدعمها قوانين ، فعلى أي شيء تقوم الصورة الفلسفية من ذلك الضمان ؟ تقوم على شيء واحد ، تقوم على ضمانات أخلاقية لها أصول ترعاها الجماعات وترعاها الدول . وكما أن القوانين التي تقوم عليها الصورة الاجتماعية من ذلك الضمان الاجتماعي ، إنما تستمد سلطتها من سلطة الدولة، وهي كفالة لا بأس بها، فان الحرية ينبغي أن تكون الركيزة التي تستند اليها الصورة الفلسفية من الضمان الاجتماعي . حرية الفكر وحرية القول، والنشر ، وحرية التدين ، وعلى رأسها جميعاً حرية النقد . ففي عالم أساس نظامه الضمان من تأثير العمالقة التي ذكرناها ، يجب أن يرتفع كل صوت بشكواه، ويرتفع كل فكر في سماواته، وأن يتصل كل انسان بخالقه من الطريق الذي يختاره، وأن يُطارد النقد كل محب للتسلط، وكل نزعة

تسلطية ، مطاردة المردة والشياطين في ملك سليمان .

إذا لم تتحقق الحرية بأوسع معانيها في حدود الشرائع ، بل وفي حدود الحاجات التي تظهر بتطور الحالات القائمة في البيئات الاجتماعيـة المختلفة ، فان كل ضمان اجتماعي، أو غير اجتماعي ، يكون تافه الأثر ، عرضة لتقلب الأهواء ، خاضعاً لتلاعب الذين يفسرون الشرائع على ما يشتهون ، لا على ما تشتهي حقائق الاجتماع ومطلوبات الحياة . ذلك بأنَّ الحرية هي الضمان الذي يتزوَّد به الفرد وتتزوَّد به الجماعة ، ليكون سلاحها المشهر على كل من يحاول العبث بقواعد الضمان الاجتماعي . أما إذا لم يتحقق ذلك ، فالضمان الاجتماعي يصبح قانوناً مشلولاً عند اللزوم ، منفذاً عند اللزوم أيضاً ، وبالجملة يصبح أشبه بالقانون الدولي الذي ساق الأمم إلى الحروب ، لا إلى السلام .

إنما الحرية هي القوة المنفِّـذة ، هي القوة الحارسة ، هي الضمان الأول لقيام كل ضمان اجتماعي على صورة يتحقق معها الغرض الذي من أجله صيغ ذلك الضمان في القالب الذي يصاغ به .

إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثال على ما سقنا القول فيه ، فان مثلنا الأول هو موظف الحكومة . هذا الموظف له في النظام الحاضر ضمانات خاصة أقرتها قوانين مالية ، مضافة الى القوانين العامة . وعلى الرغم من أن هـذه القوانين المالية قد كفلت للموظف حقوقه وحدّدت واجباته ، ولم تنص على حالة واحدة تحد من حرية الموظف بصفته عضواً في الهيئة الاجتماعية ، فان العرف الحكومي قد حدَّد من حرية الموظف تحديداً ضيق من حوله حلقة الحياة ، حتى كاد ذلك التضييق يذهب بكامل حريته . ففي الوقت الذي كفل القانون للموظف حقوقه وحدَّد واجباته ، اعتدى العرف على الموظف اعتداءً شنيعاً ، وأسفَّ في معاملته إسفافاً لا يرضي الضمير . اعتدى العرف على حريته ، فهو لا يستطيع أن يعبِّر عن رأي مخالف لرأي الحزب الغالب في الحكومة ، إلاَّ ويتلقفه قانون العرف بالتشريد ويطارده في عيشه وأولاده وبيته ، ويتعقبه تعقب الشرطة لمجرم اعتدى على المجتمع . واعتدى العرف على خلقه فجمله صورة مما يرضى عنهُ رجال الحكم ، وحفّـه بكل ما يحف به نظام بيروقراطي مستبدّ ، تراكبت فيه السلطات بعضها فوق بعض ، من عبودية التقيد بصفات خلقية خاصة . فاذا لم يكن في موظف الحكومة استعداد لبيع حريته وتكييف خلقه بالكيفية الحكومية ، وما يقتضيه نظام تراكب السلطات ، تلقاء ما يأخذ من القانون المالي ، فهو موظف ثائر على النظام ، فيلحقه الطّراد وينبذ من حلقة الموظفين الطيِّـبين . ولن يكون للضمان الاجتماعي وقوانينه ومقوماته من أثرٍ في سدّ حاجات الفرد والمجتمع ، أكثر مما يكون للقانون المالي من أثر في ضمان حياة الموظف ، إذا لم تقم من وراء ذلك ضمانات أخلاقية تضمن لكل فرد حرية رأيه ، بأوسع ما تحتمل حرية الرأي من المعاني ، بحيث لا يعاقب انسان على حريته

لا بالقانون ولا بالعرف ، ما دام استعماله لتلك الحرية في حدود القانون . بل لقد رأينا ان الكثيرين قد كوفئوا على رذائلهم ، ولم نقع على أمثلة تحقق فيها النفع لمن استمسكوا بمكارم الأخلاق ، وحققوا ذاتيتهم بتحقيق حريتهم .

كذلك الحال اذا فظرت في تبادل احترام الرأي بين الطوائف ممثلة في الافراد التي تتكوّن منها كل طائفة . ومما يجعل الضمان الاجتماعي في حاجة الى ضمان أخلاقي يعضده ويقويه ويجعله مثمراً الثمرة المرجوة ، أن بعض الطوائف قد تعتدي على بعض اعتداءات لا مبرر لها من عقل ولا موجب لها من فضيلة . فأهل الدين يرمون أحرار الرأي بالكفر والالحاد، وهو سلاح من أقوى الأسلحة المثيرة لحقد الجماهير ، وأحرار الرأي يرمون أهل الدين بالجمود والظلامية ، وهي سلاح من أمضى الاسلحة في تنفير أهل العلم ، وقد ينزل بمستوى الانسانية الى درجة لا تجيزها الشرائع الانسانية . فاذا لم يكن بين الطائفتين وازع أخلاقي ينزع بهما الى تحكيم العقل والمنطق فيما تختلفان فيه ، ويستنكر اللجوء الى مثل هذه الاسلحة الضارة العقيمة ، التي تضر باثارة الاحقاد ، ولا تنتج لأنها بطبعها عاقر لا تلد ، أصبح كل ضمان اجتماعي لا قيمة له ولا نفع فيه ولا قوة من ورائه، تسهر على تنفيذ قوانينه وشرائعه .

لا شك عندي في ان الاشياء الانسانية لن تبلغ الكمال ، بحسب ما يراه العقل كمالاً . ذلك بأن المثاليات تقفز بالانسان دائماً الى غايات عليا ، تتحول في العقل تحولاً بطيئاً الى مثاليات، يُنظَر اليها على اعتبار ان بلوغها الكمال . فاذا بلغها الانسان طفر به العقل طفرة أخرى ، خلفت ذلك الكمال وراءها ، وتخطته الى حالة بعدها ، يلوح للعقل انها حد الكمال . وهكذا تجد ان حياة الانسان عبارة عن طفرات تتالى وكمالات تتخيل، كل هذا لنساق خطوة بعد أخرى الى الأمام .

لقد نشدنا الضمان الاجتماعي ، وبدأت جماعات من أرقى جماعات المدنية الحديثة تأخذ بنظرياته ، وتعمل على تحقيقها . ذلك وجه من الكمال المدني نشده الانسان منذ عصور موغلة في القدم ، فلما لاح في الأفق أن تحقيقه ، أو على الأقل تحقيق مبادئه الأولية ، أصبح في حيز الامكان ، طفرنا الى القول بأن ذلك الضمان الاجتماعي لا يتحقق عمليًّا ويصبح ذا أثر ثابت في حياة الانسان ، الاّ اذا قام من ورائه ضمان أخلاقي أساسه الحرية واحترام الحقوق المعنوية ، احترامنا للحقوق المادية . ذلك ليكون لموظف الحكومة والمفكر الحر والعامل والصانع والتاجر، بل ولكل فرد من طوائف الجمعية ، ضمان حقيقيّ ، يجعل لحياته صفة الاستقرار، الذي لا تقوم جمعية انسانية ثابتة الاركان بغيره . استقرار اساسه حقوق تعطى وواجبات تطلب، وحريات تحترم بحيث يكون أخذ الحق والقيام بالواجب، بمنجاة عن تعنت الشهوات، محصن عن أفاعيل الميول الخسيسة التي أفسدت الحياة وتفسدها في عصرنا هذا .



النظام الاقطاعي

الذي ورثه الملك إخ — ان — آتون

الملك إخْ - إنْ - آتون ، أو كما يسميه كثير من كتّاب التاريخ المصري القديم ، اخناتون على سبيل التخفيف هو ابن الملك امنحتب الثالث من زوجته « تي » التي اختارها الملك من طبقة الشعب المصري لا الاسيوي ، كما زعم بعض المؤرخين ، فهي كريمة الأبوين المصريين يويا وتويا .

وأهم دافع حفزني للبحث في هذا الموضوع هو دراسة نظام الحكم في عصر هذا الملك وسابقيه من ملوك عصر التوحيد الثالث (الدولة الحديثة) وبيان مبلغ سلطة هؤلاء الملوك : أكانت استبدادية مطلقة حقًّا كما يقول المؤرخون أمثال بريستد وماير ويونكر وموريه وبتري وسائر الباحثين ، أم أن الرأي بعكس ذلك كما انتهت اليه بحوثي وعلى ما سأعرضه الآن

كان نظام الحكم في مصر القديمة يتوقف على مقدار ما تتصف به سلطة الملك من القوة والضعف . واذا عرفنا أن الحكومة والملك شيء واحد ، وأن الحكومة قديمًا كانت تتمثل في شخص واحد هو الملك وتتجمع في شخصه مختلف السلطات ، أدركنا ان الحكومات كانت تتغير حسب سلطة الملك قوة وضعفاً فتصبح مطلقة أو مقيدة بقوة أخرى - وهذه الظاهرة لم تقتصر على عصور الفراعنة المصريين ، بل نجد ما يشابهها في فرنسا في زمن الملك لويس الرابع عشر حينما ابتدع نظرية « الحكومة أنا وأنا الحكومة » .

والرأي السائد حتى الآن بين العلماء والباحثين أن سلطة الملوك في الفترة بين احمس الأول وإخ - ان - آتون كانت استبدادية مطلقة وان نفوذ الأمراء زال تماماً تبعاً لانضوائهم في خدمة الملك كمديرين لمقاطعاتهم .

ولكن عند التعمق في دراسة هذا العصر وبحثه يجد الفاحص المدقق ان هناك مشكلة دقيقة تواجه المؤرخ وهي هل كانت سلطة الملك ايخ - ان - آتون ومن سبقه من ملوك عصر التوحيد الثالث استبدادية مطلقة، أم كانت سلطتهم يضعفها وجود نظام اقطاعي خاص ؟ وبعبارة أخرى هل كان الملك ايخ - ان - آتون ومن سبقه من ملوك عصر التوحيد

الثالث منذ أيام تحتمس الثالث في قوتهم وسلطانهم كما يظهرهم التاريخ هم الواضعون لأساس النظام الاقطاعي الذي ظهر جليًّا في عهد الملوك الذين تولوا الحكم بعد تحتمس الثالث بحيث انه عند ما تولى ايخ - ان - آتون الملك ورث النظام الاقطاعي الخاص الذي كان على أيام سابقيه، والذي قيَّد من سلطتهم، خلافاً لما كان معروفاً عنهم من قبل ؟

للاجابة على هذا السؤال يجب أن نرجع قليلاً إلى الوراء ، فنجد انه يمكننا القول ان الملوك المصريين القدماء لم تبلغ سلطتهم من القوة مثل ما بلغت في عهد الملك احمس الأول ومن تلاه من الملوك حتى عهد تحتمس الثالث (لأنهم أصحاب الفضل في تخليص مصر من أيدي الغزاة فأمكنهم أن يركزوا في أيديهم كل السلطات المختلفة في مقر عاصمتهم طيبة) ولكن من سوء الحظ كان الملك احمس ومن خلفه من الملوك على عرش مصر يمنح الآلهة المتعددة في مختلف الأقاليم (أمثال آمون في طيبة ورع في عين شمس وبتاح في منف وهكذا) أراضٍ يجعل ملكيتها باسم الآلهة المختلفة ويلحق بها امتيازات كان الملوك يعتبرونها في بادىء الأمر اعترافاً بجميل هذه الآلهة على ما نالوه من نصر في حروبهم أو بعثاتهم .

وهنا نرى شيئين خطيرين . أولاً : ان الملوك وهبوا أراضٍ واسعة للآلهة في مختلف الأقاليم . ثانياً : ان الملوك أعفوا هذه الأراضي من الضرائب بل وأضافوا اليها امتيازات أخرى .

* * *

وقد زادت هذه الأراضي زيادة غير منتظرة ولم يصبح منحها اعترافاً بالجميل للآلهة، بل أصبح دليلاً على الضعف والتودد وانعكست الآية في عهد الملوك اللاحقين لعصر تحتمس الثالث ، فلم يعد الكهنة خاضعين لسلطان الملك كما كانوا في أول الأمر بل شعروا بنفوذهم وسلطانهم الذي أخذ في الازدياد في الوقت الذي أخذ فيه سلطان الملوك يضعف ويتقلص .

فما بوادر هذا الضعف من جانب الملوك وما هي مظاهر هذا الجاه وتلك السطوة من جانب رجال الدين ؟(أولاً) : لم تصبح ادارة المعابد بعد خاضعة لادارة الحكومة المركزية كما كانت من قبل، بل استقلت عنها تماماً . وبالتالي أصبح موظفو هذه المعابد ومديروها من الموظفين الدينيين تحت إمرة رئيس الكهنة في كل معبد .

وكانت ادارة هذه المعابد وأملاكها تتناول كثيراً من النواحي الزراعية والصناعية والفنية والاقتصادية والعلمية .

فمن الناحية الزراعية كان عدد كبير من العمال يعمل في زراعة الأرض والري والحصاد وتربية المواشي وشق الترع وغرس الحقول والحدائق بالفاكهة والأعناب .

ومن الناحية الصناعية كان عدد كبير يعمل في مستخرجات الماشية ومستخرجات الكروم وغيرها مثل عمال النسيج وعمال النبيذ .

ومن الناحية الفنية كان عدد كبير يعمل في بناء المعابد وملحقاتها وهندستها وفي النقش والنحت والرسم .

ومن الناحية العلمية ، كان عدد كبير أيضاً يعمل في علوم الدين وعلوم الفلك وفي الطب وشئون الكتابة والقضاء والهندسة والكيمياء والرياضيات .

أضف إلى ذلك ان جمهوراً عظيماً لا يستهان بعدده من الرجال، كان يعمل في كل معبد من هذه المعابد وملحقاتها في أعمال تتصل بالخبازة والحلاقة ومنهم الحلواني وصانع النعال والصائغ وحارق البخور وغالي الزيت وحامل المياه ومقدم القرابين .

يضاف إلى هؤلاء أيضاً أنواع من الخدم كالحارس والبواب .

أما فيما يختص بمدينة الأموات التابعة لكل رئيس كهنة فادارتها معروف أمرها للجميع.

ولم يكتف رجال الدين برعاية شؤون الدين وإدارة معابدهم بل كانت لهم في كثير من الأحيان صلات وثيقة بكثير من الأعمال الحكومية أو بعض المهام الملكية ، فكثيراً ما كانوا ينتدبون لادارتها أو للاشراف عليها ولعلّ من أهم الأمثلة التي تؤيد ذلك ما يلاحظ على ألقاب الكاهن الأكبر « حابوسنب »

بل وأكثر من ذلك أصبح منصب رئيس الكهنة وراثيًّا، فكان الخلف يعقب السلف دون أن يقوم نزاع أو خلاف كالذي كان يقوم عادةً بالنسبة لتوارث الملك في ذلك الحين .

وأظهر مثل لدينا على هذا كبير كهنة منف الذي مثّل سلالته على احدى الجدران في أربعة صفوف في كل صف منها خمسة عشر كاهناً من أفراد أسرته ، وظلوا جميعاً متربعين في منصب الرياسة الدينية في منف مايقرب من ألف وثلاثمائة عام تقريباً . وهناك قطعة أثرية أخرى بمتحف كوبنهاجن تمثل توارث كهنة عين شمس على هذا النسق .

أما كهنة آمون فقد نشر عنهم « لافيفر » الكثير كما هو معروف للجميع زد إلى ذلك أن سلطة الرئيس الديني لا تنتهي بوفاة الملك المعاصر له بل تستمر ولا تعتبر منتهية إلاّ بوفاة هذا الرئيس . وربما ازدادت بما يصيبهم من ثراء على أيدي الملك اللاحق، وبما يصيبهم من امتيازات جديدة وهدايا جديدة بصرف النظر عما وهبه لهم أسلافه . فيكدسون بذلك الأحجار الثمينة والذهب وتتكاثر الأراضي والمواشي ويزداد عدد اتباع كل معبد.

ولم يكتف الرؤساء الدينيون بكل ما نالوه من هذه الامتيازات بل أطلقوا على أنفسهم لقب أمير « حاتي عا » فتشبهوا بحكام المقاطعات في ألقابهم وفي نفوذهم .

(ثانياً) بينّا أن طبقات الكهنة أصبحت مستقلة عن السلطة المركزية . ولهذا الاستقلال مظاهر متعددة فمن الناحية السياسية تدرّج الأمر برؤساء المعابد إلى أن أصبحوا في وقت واحد يجمعون بين منصبي « الرئيس الديني لجميع معابد الهة في مصر العليا والسفلى » ومنصب « الوزير » وهو رئيس الدولة بعد الملك مباشرة أي أنه قد تطور نفوذ رجال الدين بالتدريج حتى أمكنهم الجمع بين السلطتين الدينية والزمنية أو الجمع بين السياسة والدين .

ويحدّثنا التاريخ أن « بتاح مس » كبير كهنة بتاح بمنف في عصر الملك أمنحتب الثالث جمع بين الوزارة ورئاسة كهنة بتاح بمنف ، كما أن « حابوسنب » كبير كهنة آمون في عصر الملكة « حاتشبسوت » قد جمع أيضاً بين الوزارة ورئاسة كهنة آمون بطيبه .

فأصبح رؤساء المعابد بذلك يشتركون اشتراكاً فعليّاً في حكم البلاد مع الملك .

ومن الناحية الادارية كان يقوم بادارة هذه المعابد وأملاكها من ضياع ومصانع وغيرها، رجال دينيون يخضعون مباشرةً للرئيس الديني الأعلى للمعبد لا للسلطة المركزية . وكان اختصاص هذا الرئيس يتسع ويضيق تبعاً لمقدار انتشار عبادة الاله القائم بعبادته وخدمته.

ومن الناحية الاقتصادية كانت معابدهم وما تملك من أرض وحيوان معفاة هي وباقي الموارد من الضرائب سنويّاً ، كما أن ميزانية هذه المعابد كانت منفصلة عن الميزانية العامة للدولة انفصالاً تامّاً، فكان لهذه المعابد بيوت للذهب وبيوت للفضة خاصة، ومخازن غلال خاصة ومراكب خاصة لجلب الدخل والخيرات من البلاد التابعة لهذه المعابد، غير بيوت الذهب والفضة ومخازن ومراكب الحكومة .

ومن الناحية الاجتماعية ، دلتنا النقوش على أن رؤساء المعابد كان لهم المقام الأول والاعتبار الأعظم . كما أن المعابد كانت تعتبر في ذلك الوقت بمثابة معاهد ثقافية تشبه دور العلم أو الجامعات في وقتنا هذا، وكان الرؤساء الدينيون يعتبرون كعمداء لهذه المعابد .

ومن الناحية القضائية كانت تمثل رجال الدين في مختلف المحاكم .

أما وقد رأينا الآن ما انتهى اليه أمر هؤلاء الرؤساء الدينيين، الذين يحق لنا أن نسميهم الكهنة الأمراء، من سلطان مطلق في ادارة معابدهم وعلى الشؤون المتعلقة بالمالية والقضاء ، نخرج بنتيجة واحدة وهي أن نفوذ هؤلاء الكهنة الامراء طغى على نفوذ الملك وتضاءلت هيبة الملك بجوار هيبتهم — حقَّ لنا أن نسمي هذه المعابد بدويلات داخل الدولة المصرية ، وان نسمي هؤلاء الرؤساء الدينيين « الكهنة الامراء » .

وكان طبيعيّاً ، وقد شبهنا هذه المعابد بدويلات ، ان يكون لكل منها بوليس خاص لمراقبة جميع الأعمال والعمال ولحفظ الأمن .

وكذلك كان طبيعيًّا ان يكون لكل منها جيش خاص يذود عنها ويدفع عنها اعتداءات المغيرين ، فكان وجود هذه الجيوش مما يقوي من هيبة الرؤساء الدينيين ويضعف من هيبة الملك .

زد إلى ذلك ان رؤساء المعابد كانوا هم رؤساء الجيوش ، في حين ان القاعدة ان الملك هو الرئيس الأعلى للجيش .

أصبح الكاهن الأعلى لكل معبد ، أو رئيس كل دويلة ، يزاحم الملك سلطته وسلطانه على البلاد .

فليس غريباً بعد كل ما رأيناه من مختلف المظاهر لازدياد سلطة الكهنة الامراء ، أن نحس بانكماش سلطان الملك وتضاؤل سلطته في هذه النواحي المتعددة التي سبق أن تكلمنا عليها

وأخيراً يجب ان نطرح السؤال الآتي : ما هي اركان النظام الاقطاعي وأهم خواصه وما مدى توافقها وانطباقها مع ما انتهى اليه حال الأمة والدولة المصرية وكهنتها عند ما ورث الملك ايخ — ان — آتون عرش مصر ؟

إن خواص النظام الاقطاعي وأركانه تنحصر في أربعة أمور رئيسية : (اولاً) الامارة — وقد رأينا ان الرئيس الديني انتهى الأمر به إلى لقب أمير (ثانياً) التوارث — وقد أصبح منصب الرئيس الديني وراثيًّا يتوارثه أولاده ثم أحفاده دون نزاع أو خلاف .

(ثالثاً) التعدد — وقد كان عدد هذه المعابد وممتلكاتها يتزايد للاله الواحد في جهات مختلفة فلما جاء ايخ — أن — آتون وجد عددها منتشراً في أجزاء مختلفة من أقاليم القطر المصري .

(رابعاً) الانفصال عن السلطة المركزية — وقد بيّنا سابقاً أن هذه المعابد كانت منفصلة عن السلطة المركزية من جميع نواحي النشاط السياسي والاداري والمالي والقضائي والحربي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي .

من هذه الخواص مجتمعة ومما رأيناه من انطباقها وتوافقها على ما كانت عليه الأمة المصرية ، وما وصلت اليه حال الكهنة حتى عهد الملك ايخ — ان — آتون يمكننا القول أن كلمة « نظام اقطاعي » تنطبق على هذه التركة التي ورثها الملك ايخ — إن — آتون مع فارق في بسيط، وهو أن هذا النوع الجديد من النظام الاقطاعي كان لأمراء المعابد بدلاً من أمراء المقاطعات المدنيين وذلك النظام الجديد من النظام الاقطاعي في هذا العهد يمكن تسميته بالانجليزية Temple Feudal System وبالفرنسية Féodalite de Temple وبالالمانية Templfürstendum والعربية « اقطاعيات المعابد » لأنه في هذا النظام الجديد حلّ المعبد

وممتلكاته محل القاطعة ومشتملاتها وحل الأمير الديني محل الأمير المدني .

والملاحظ أن هذه الظاهرة الجديدة ليست قاصرة على عهد الملك ايخ — ان — آتون فحسب ، بل إننا نجد لها نظيراً في كثير من العهود الفرعونية الاخرى.

ولما جاء ايخ — ان — آتون الى العرش أخيراً وجد الحال كما بينا ، وهو حال من النظام الاقطاعي الخاص ، جعل الملك الشاب لا يستسيغه بل وينتهز الفرص للايقاع بهؤلاء الأمراء الكهنة الذين أصبحوا خطراً على ملكه ، فشاء ان يتحرر من قيود هذا النظام الاقطاعي الذي ورثه عن أسلافه ، فثار ثورته المعروفة في السنة السادسة من حكمه حوالي سنة ١٣٧٧ قبل الميلاد ليتخلص من اولئك الكهنة الامراء ومن سلطانهم ، بل ومن معبوداتهم ، وكثيراً ما تلعب السياسة دورها تحت ستار من الدين .

دكتور باهور لبيب

أهم المراجع

Maj Sandman, Texts from the time of Akhenaten.

Én, Drio ton,Trois Documents d'époque Amarnienne

K. Sethe, Urkunden der 18. Dyn.

A. Moret, L'Egypte Pharaonique

(الجزء الثاني من مجموعة تاريخ الامة المصرية الذي نشر تحت رعاية المغفور له جلالة الملك فؤاد الاول باللغة الفرنسية)

Én. Drionton et Vandir, L'Histoire de Peuples Mediteranean.

Scharff und Seidl, Rechtsgeschichte der alten Aegypten

W. Wolf, Vorläufer dea Reformation Echnatons.

H. Schäfer, Amarna.

A. Erman, Die Religion der Aegypter

اختصر اذا أخذت تمارس الكتابة فاقتصر على المفيد من المعاني ، واكتب على قدر الحاجة ، أما اذا أطلت مضطراً فلخص ما أطلت فيه ، واوجز في عباراتك ، واجعل مختصرك رأساً لما تكتب اذا أردت الاطناب . ففي تسع حالات من عشر ، لا يقرأ لك إلا المختصر الذي لا تجهد نفسك في تسطيره

ان قصة الخلق في التوراة قد رويت في ٤٠٠ كلمة ، والوصايا العشر في ٢٩٧ كلمة وخطاب لنكان الخالد الذي ألقاه في جتسبرج كلماته ٢٦٦ . واعلان الاستقلال الاميركي ، كتب في ثلاث صفحات .



الاحلام والروح

نشر المقتطف الأغر في عدد فبراير سنة ١٩٤٥ مقالاً تحت عنوان « قمة الدنيا — إلهامك الروحي قد يرفعك لحظات اليها » ويتضمن هذا المقال حادثة واقعية تختص بأحلام تحققت رآها في نومه صاحب المقام الرفيع احمد محمد حسنين باشا يوم ضلّ طريقه في الصحراء في رحلة كشفية . وكانت معه في القافلة السيدة الكاتبة الجوّالة روزينا فوربس ، وقد روتها في كتابها « Gypsy of the Sun — غجرية الشمس » . وطلب المقتطف تعليلاً ممن يستطيع التعليل ، بشرط « أن لا ترد إلى المجهول الذي هو في الواقع اعتراف بالعجز عن التعليل » . فاليه التعليل : —

لكي نفسر طبيعة الاحلام يتحتم علينا أولاً أن نعرف طبيعة النوم . ولكي ندرك طبيعة النوم يجب أن نعرف طبيعة تكوين الانسان ، فنقول إن الانسان في الواقع جسد ونفس وروح ، فالجسد هو ما نرى وما نلمس ، والنفس جسم أثيري مطابق تمام المطابقة للجسد المادي خلية خلية ، والروح هي النفس والعقل المتلازمان دائماً أبداً . وقد استطاع العلماء تصوير أرواح الأحياء والموتى تصويراً فوتوغرافياً باستخدام الأشعة تحت الحمراء ، واستطاعوا وزنها وعرفوا تحليلها الذري والجزيئي ، لأن الروح لم تخرج عن كونها مادة لا تستجيب لها المشاعر تشتبك بالجسد اشتباك الماء بالعود الأخضر ، واستطاعوا كذلك تجسيد أرواح الموتى وأرواح الأحياء فيكون للحي المتجسدة روحه جسدان طبيعيان قد تفصل ما بينهما مسافات شاسعة . ونجد ذلك كله مشروحاً في الكتب الروحية الحديثة شرحاً مستخلصاً من التجارب المعملية . وقد يكون مستغرباً أن يحل جسمان (الجسد والروح) في مكان واحد في آن واحد ، ولكن الميكانيكا الموجية أثبتت خطأ القاعدة الطبيعية القائلة بذلك والتي تسمى قاعدة عدم التدخل ، وقالت انه يمكن لأكثر من جسمين أن تحل في مكان واحد ما دامت الأجسام من رتب اهتزاز متباينة .

ووصل العلماء إلى ذلك بعد أن أجروا تجارب أولية على أن هناك شيئاً ينسلخ من جسم الانسان ويجري أعمالاً وأحداثاً مادية . وكانت مدام كوري وزوجها العلامة كوري بين

جمهرة العلماء الذين أجروا في المعهد السيكولوجي بباريس تجارب معملية كهربية في هـذا الصدد ، فجاءت بثلاثة كشافات كهربية وشحنتها بالـكهربية فانفرجت الورقتان الذهبيتان لـكل كشاف بالطبع ، واستطاعت وسيطة روحية أن تفرغ الـكشافات الثلاثة في لحظة واحدة دون أن تلمسها . ويراجع في ذلك كتاب « بحوث معملية في الظواهر الروحية » تأليف العلامة السيكولوجي الدكتور هيربوارد كارنجتون، ومحاضر جمعية البحوث النفسية البريطانية ، و « موسوعة العلم الروحي » لمؤلفها العلامة الدكتور ناندور فودور . ولما كان الـكشاف الـكهربي لا بد أن يلمس لـكي تفرغ شحنته خلال إصبع الشخص الذي يلمسه إلى جسمه إلى الأرض ، فالنتيجة المنطقية لهـذه التجربة أن شيئاً ما انبثق من جسم الوسيطة البعيدة عن الـكشاف ثم لمسه ففرغت شحنته خلاله إلى جسم الوسيطة ثم إلى الأرض فاذا قلنا بعد هذا ، وبعد تجارب أخرى كثيرة لا يسمح المقام بشرحها ، ان الروح تنسلخ من البدن مع بقائها متصلة به لا نكون قد تخطينا الحق والواقع .

وترى الدكتور الـكسيس كاريل الحائز جائزة نوبل في الطب الجراحي والفسيولوجيا يقول في كتابه الفذ « الانسان ، ذلك المجهول » في الفصل الرابع الخاص بالمناشط العقلية : «في كثير من الحالات قد يتصل فرد آخر بشكل ما وقت الموت أو عند الخطر العظيم . ذلك أن الشخص المحتضر أو الذي يقع ضحية حادث ما يظهر لأحد أصدقائه بمظهره العادي حتى في حالة ما لم ينته الحادث بالموت ، ويسكت هـذا الشبح لا ينبس بشيء عادة ، وأحياناً يتكلم معلناً عن موته » .

ويروي العلامة باترزبي في كتابه النفيس « الانسان خارج جسده » الذي ظهر في شهر مارس سنة ١٩٤٣ أن أحد أعضـاء مجلس النواب الارلندي احتج يوماً لدى المجلس بأنه ليس عصفوراً ، وانه لا يستطيع أن يوجد في مكانين في آن واحد . ولـكن هـذا العمل العظيم إذا استحال على الطائر فقد أتاه غير مرة أعضاء مجلس النواب البريطاني . ذلك أن سير كارن راش رئي في مجلس النواب البريطاني بينما كان طريح الفراش في داره ، وأن سير جلبرت پاركر وسير آرثر هيتر قد رأياه . وقال سير جلبرت « لقد دهشت قليلاً حينما قابل راش هز رأسي بما بدا كأنه حماقة ، وقابل استفساره الهادئ بالصمت » . ومضى يقول انه حينما اختفى جسم صديقه فجأة وفي صمت أيقن أن ما رآه لم يكن إلاّ شبحاً ، وان راش لا بدّ أن يكون قد أمضه المرض وأضناه . وقال سير آرثر هيتر الذي رأى الشبح كذلك وحياه إنه لاحظ أن سير كارن راش كانت تعلو سحنته صفرة ، وانه جلس في مقعد بعيـد عن مقعده العادي .

وروي بارزبي كذلك أن الدكتور مارك مكدونيل قد ظهر في المجلس بينما كان مريضاً طريح الفراش في داره ، وقد رآه زملاؤه أعضاء مجلس النواب البريطاني في يومين متتاليين وهو يعطي صوته .

في ضوء هذا الذي مرّ بنا — على اقتضابه — نستطيع أن نفسر طبيعة النوم . فما هو النوم ؟ يقول الدكتوران السيكولوجيان ملدون وكارنجتون في كتابهما « طرح الجسم الروحي » عن النوم ما يأتي :

« قدم البحّاث فيما مضى عدة نظريات لتفسير النوم ، ولكنها رفضت كلها إذ لم يكن من بينها واحدة ملائمة تفي بالغرض . فمثلاً تلك النظريات المسماة النظريات الكيماوية تحاول تعليل النوم بافتراضها تكوين مواد سامة داخل الجسم خلال ساعات اليقظة ، ثم تقريرها أن النوم يبيد هذه المواد . وترمي بعض النظريات إلى أن سبب النوم حدوث حالات غريبة في دورة المخ الدموية ، ويقول بعضها إن النوم راجع إلى وجود غدد خاصة ، وبعضها ينسبه إلى الاسترخاء العضلي ، ويقول بعضها إن الحاجة إلى منبهات خارجية تكفي لاحداث نوم عميق .

« ولكن هذه النظريات كلها عجزت في الواقع عن تفسير الحقائق ، ومما لا شك فيه أننا لن نصل البتة الى نظرية صحيحة ملائمة تفسر النوم ما لم نسلم بوجود قوة حيوية ووجود روح آدمية قائمة بذاتها تنسحب كثيراً أو قليلاً من الجسم خلال ساعات النوم للحصول على تقوية وتغذية روحيتين خلال استيطانها الموقت في عالم الروح »

فالنوم على هذا الاعتبار طرح روحي مؤقت . ومعنى ذلك ان الروح خلال النوم تغادر الجسد ثم تمضي في سياحاتها فتجوب في عالم الروح وعالم المادة ، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى الذي نفهمه فترى من الأحداث الشيء الكثير وتكون خلال ذلك كله متصلة بالجسد المادي بحبل أثيري يستطيل وينكمش وينثني ويخترق الجدرانْ والحوائل المادية . فاذا أفلت هذا الحبل من الجسد حدث طرح روحي دائمي للروح أي موت. فالموت طرح روحي دائم والنوم طرح روحي مؤقت . ويرى اصحاب الجلاء البصري منا نحن الأحياء أرواح الموتى وأرواح الأحياء المطروحة . ويقول الله تعالى في كتابه العزيز « الله يتوفى الانفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى الى أجل مسمى »

وما دام النوم طرحاً روحيًّا مؤقتاً فان الأحلام ، وعلى الأخص أو على الأقل الأحلام الشاذة ، تكون سياحات بالروح في عالم الروح وعالم المادة . وفيما يلي مثل توضيحي :

كتبت إليّ من الاسكندرية الآنسة أبكار السقاف تستفسر عن بعض ما ترى من الظواهر الروحية ومن بينها الأحلام . وعبارة الآنسة الفاضلة تنم عن أدب عميق واطلاع واسع . وفيما يلي الجزء الخاص بالأحلام من خطاب محرر منها اليّ بتاريخ ٢ يناير سنة ١٩٤١ قالت :« هل لعالم الأحلام ، عالم الرؤيا ، حقيقة كتلك التي لعالم الروح ؟ إن لي أختاً تتنبأ لنا في أحلامها قبل حدوث الوقائع الحاسمة في التاريخ . أقول الوقائع الحاسمة إذ أننا في هذه الآونة نتمثل . فمثلاً تنبأت لنا قبل الحرب بشهور طويلة وقالت لنا إنها ستعلن يوم أول سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، وكذلك قالت ان في هذه الحرب فرنسا ستسلم .... وقد تحقق حلم آخر لها لعله على شيء من الغرابة يستحق الانتباه .

« كان لنا صديق يتردد على زيارتنا وإن كنا لم نزره في منزله ، وبيننا وبين المنزل مسافة لا بأس بها . وحدث أن مرض ذلك الصديق فأردنا عيادته . ولكننا لا نعرف منزله . وكانت ليلة وفي الصباح قالت لنا إنها رأت طريق المنزل في نومها وعرفت المنزل نفسه . وكان أن ذهبنا تحت إرشادها . ولما بلغت المنزل قالت « هذا هو الذي رأيته » ومن المدهش أنه كان هو !

« وغير ذلك حوادث أحلامها كثيرة جداً جداً . فهل لهذا علاقة بعالم الروح ، وهل هناك أية كتب ترشد لحل سر هذه الظواهر المحيرة ؟ لقد سألتها كيف تفهم من الأحلام ما الذي سيحدث فقالت إن هناك رجلاً تراه في المنام يقول لها ذلك ، هو نفس الرجل في كل حلم لا يتغير » .

ومما جاء في كتاب « طرح الجسم الروحي » ويعد غريباً في الأحلام قول أحد مؤلفيه وهو العالم ملدون « لقد رأيت في الحلم مرتين أني أنقل أشياء في منزلي ، وعند استيقاظي وجدت الأشياء قد نقلت فعلاً كما رأيت » وقوله « يتحدث الدكتور بيرنز عن رجل رأى في حلمه أنه يدفع باب حجرة في بيت بعيد عنه ، وقد كان الدفع من القوة بحيث كاد يعجز الموجودون في تلك الحجرة عن مقاومة الضغط ! ! »

فاذا اعترض معترض على حلم ملدون بأنه كان جولاناً خلال النوم لأن الأشياء نقلت في المنزل الذي ينام فيه فبماذا نعلل لحلم ذلك الرجل الذي رأى أنه يدفع باب حجرة في بيت بعيد عنه وشعر الموجودون بالدفع ؟ إنها الروح المطروحة دون شك .

بل أن ملدون يتحدث كذلك عن نوع من الطرح الروحي يقال له الطرح الارادي الواعي ، وفيه يطرح الانسان روحه طرحاً واعياً : وقد نهض بهذا الطرح كثيرون من بينهم الطبيب الذائع الصيت الدكتور الكسندر كانون . فقد كان يطرح روحه وهو في لندن ليقابل صديقاً له في الهند . ويراجع في ذلك كتابه « التأثير غير المنظور » وكتابه « القوى الكائنة » . ويقول ملدون إنه طرح روحه ذات مرة طرحاً واعياً ثم ذهب الي الحجرة

التي تنام فيها أمه وأخوه الصغير ودحرجهما من فوق الفراش . ويقول انه طرح روحه مرة من حجرة نومه الى فناء منزله الخلفي وكان هناك حوض من الزنك فطرقه طرقاً شديداً بمطرقة كانت ملقاة بجواره، ثم عاد مسرعاً إلى جسده مخترقاً الجدران اليه وثوى فيه بسرعة وسمع صوت الطرق بعد أن ثوى في جسده . ويلاحظ أن سرعة الروح أكبر من سرعة الضوء بمراحل فما بالك بالصوت . وقد سمع الصوت كذلك ثلاثة أشخاص .

وقد يسأل سائل وكيف استطاعت الروح الأثيرية المطروحة أن تؤثر في جسم المطرقة المادي فترفعه . وهنا يقول كارنجتون وملدون في الرد على السؤال ان قوة الارادة الخفية الواعية تجعل الجسم الأثيري يتصلب فيتمكن من احداث طرق أو دفع أو رفع أو ما إلى ذلك . ويضاف الى هذا أن من وهب الوساطة الروحية يكون أقدر من غيره على إحداث هذه الظواهر المادية عن طريق الروح .

ونعود بعد هذا - على اختصاره بل على اقتضابه - الى رؤى السيد احمد محمد حسنين باشا فنقول إن حالة الطرح الروحي ظاهرة كل الظهور . وتلك السيدة التي رآها في حلمه متشحة بالبياض روح تحنو عليه أسرعت اليه لتدله على طريق النجاة ، وقد مرت به وهي تستصحبه على ما شاهده في طريقه بروحه المطروحة في الحلم ثم رآه بعد ذلك في اليقظة . وقد تكون هذه السيدة روح احدى قريباته اللاتي انتقلن الى عالم الروح .

وليس غريباً أن يحمل معه السلسلة وأن يدفنها كما حمل ملدون المطرقة وقد يلقي هذا النقل شيئاً من الضوء على مسألة المجلوبات الروحية التي ينقلها الوسطاء الروحيون ، أو يجيئون بها في لحظة من أقاصي الجهات ، من أمثال المرحوم الشيخ سليم الطهطاوي . وليس غريباً كذلك أن يرى آثار الأقدام ، فالضغط الحادث على الرمل واللازم لاظهار آثار الأقدام أقل كثيراً من ضغط ذلك الحالم الذي رأى أنه يدفع باباً وكان الدفع من القوة بحيث عجز الموجودون عن مقاومته .

وأما التنبؤات فتجيء عن طريق تتبع أشعة الضوء في لوحة الفضاء والزمن . وكلما كان الروح المتقصي أقدر على تتبع هذه الاشعة واستخلاص ما ترسمه من حوادث كان أقدر على معرفة الاحداث المقبلة . ويلاحظ أن العلامة اينشتاين قال في نظريته عن النسبية باندماج الماضي والحاضر والمستقبل معاً ، وأثبت أن في الكون نقطاً لو وجد فيها عقل واع لرأي الماضي والحاضر والمستقبل .

وفي كتاب « تجربة في الزمن » لمؤلفه العلامة دان Dunne شرح مستفيض لهذه الاحلام التنبؤية فليرجع اليه من شاء .

فالأمر من ثمَّ مقبول ومعقول في حدود قضايا العلم الروحي الحديث والعلم الفيزيقي الحديث . والذي يمكن استخلاصه من هذه الحادثة هو أن السيد احمد محمد حسنين باشا وسيط روحي موهوب ، وان في استطاعته أن يدرّب نفسه على أنواع الوساطات الروحية ومن بينها الطرح الروحي الواعي .

والإلهام الروحي وساطة روحية ما في ذلك شك ، ويفسره القانون الروحي القائل بتجاذب الأشباه بين الأرواح سواء أكانت متجسدة أم طليقة . ولكن المسألة هنا لم تكن الهاماً بل طرحاً روحيّاً كما مرَّ بنا .

احمد فهمي أبو الخير

مدير ادارة السينما التعليمية بوزارة المعارف

* * * * * * * * * * *

امبركا تغبز دروين

في أوائل سنة ١٨٦٠ ظهرت في اميركا الطبعة الاولى من كتاب أصل الانواع . وبالرغم من السحب المعتمة التي جالت في جو اميركا السياسي حول مسألة تحرير العبيد ، فان ظهور كتاب « دروين » قد أحدث أثراً عظيماً في الناس . ولقد انقسم الناس ازاءه انقساماً شديداً ، وكان جل اتجاههم ديني صرف . فبين أيديهم كتاب يمكن تفسيره بما ينزل الانسان عن المرتبة التي درجت عليها القرون .

وقف أكثر رجال الدين موقف العداء من « أصل الانواع » ونبذوه على انه كفر والحاد ، ولكن بعضاً منهم قالوا بأن هذا الكتاب لا يسلب الانسان شيئاً من منزلته العليا في الوجود ، ولا يؤثر في رفعة الانسان من حيث أصله وتسلسله . ولقد قبل « هنري وارد بتشر » مبدأ التطور ، بالرغم من انه كان أعظم وعاظ عصره ، قائلا انه مفتاح كثير من أسرار الحياة .

ولم يقتصر الامر على رجال الدين ، بل جاراهم في ذلك رجال العلم . وان من أعظم احداث التاريخ الحديث أن « لويس أغاسيز » وهو من أكبر رجال علم الاحياء في أميركا ، قد انضم الى المقاومين لفكرة التطور الدروينية ، وأيده في ذلك زميله « جيمس روس لويد » ، قائلا انه من المحافظين الذين يؤيدون الدين وينبذون التطور .

لقد كان موقف اغاسيز موقفاً عجباً . فان هذا الرجل الذي يكشف عن السبب في حدوث العصر الجليدي ويعلله بأن قمة الارض الجليدية انحدرت من الشمال فغطت جزءاً عظيماً من شمال الكرة ، يقف عاجزاً عن تفهم نظرية بسيطة كنظرية النشوء !

وهو الذي اشتغل بحفريات الاسماك فجمع بقايا ١٥٠٠ نوع منها ، فلم تأته فكرة ان نوعاً قد يتطور فينشأ منه نوع آخر يقاربه تكويناً وقواماً ! ولكن القدر قد خبأ ذلك المجد ليكون من نصيب مواليدي طاف الدنيا على ظهر بارجة انجليزية ، كان فيها ضيفاً ، لا عالماً اصلياً ، هو شارلز روبرت دروين العظيم .

* * * * * * * * * * *

من أنواع النبات

الطبي



﴿ البَرَنجاسَف والبَرنجاسف ﴾ نبات من الفصيلة المركبة يعرف في مصر بالشيبة يشبه الافسنتين لهُ ورق دقاق بيض وصفر ويظهر في الربيع والصيف ويسمَّى « بالبزر الخراساني » وفي اصطلاح النباتيين Artemisia arborescens وبالانكليزية Shrubby wormwood وبالفرنسية Armoise en Arbre وهو مقوٍّ مدر للطمث طارد للدود

﴿ البُزور ﴾ اسم يطلق على « السُورنجان والسَورنجان » نبات من الفصيلة الزنبقية يكثر بالشام وأوربا وشمال افريقية اسمه النباتي Colchicum autumnale وبالانجليزية Meadow Saffron وبالفرنسية Colchique d'Automne; Tue—chien أصوله كالكمإ مستديرة بيضاء لينة تؤكل مشوية وهي تشتمل على شبه قلويّ يسمّى « كولشيسين » وتستعمل مسهلاً ومقيئاً ومنبّهاً موضعيًّا . والكولشيسين يحصل عليه من البزور أيضاً ويتداوى بهِ مضادًّا للألم العصبيّ ووجع المفاصل .

﴿ التُّربَد والتُّربَذ ﴾ أصول غليظة ودقيقة يُوتَى بها من الهند وهو نبات من الفصيلة الحمودية أو اللافة ينبت في بعض حدائق القاهرة والاسكندرية اسمه النباتيّ Ipoemaea Turpethum وبالانكليزية Indian jalap وبالفرنسية Turbith والتربد مسهل ويستعاض به عن الجَلَبَة

﴿ الثاريقة ﴾ هو الرَّنْد ويسمَّى الغَار في مصر شجرٌ طيِّب الرائحة من الفصيلة

الغارية اسمه النبـاتي Laurus nobilis وبالانـكايزية Laurel وبالفرنســية Laurier تستعمل أوراقه اليابسة وثماره العنبية للحصول على دُهن الغار الكثير المنافع .

﴿ ثاقِبُ الحَجَرِ ﴾ هو « البَسْفَايجُ » من الفصـيلة البوليبودية اسمه النبـاتي Polypodium vulgare وبالانـكايزية Common Polypody وبالفـرنسية Polypode de Chêne; Polypode commun عروق دقاق الى السواد والحمرة اليسيرة أو الى الخضرة ذات شعب كالدودة الكثيرة الأرجل في داخلها شيء كالفستق عفوصةً وحلاوةً تُلتقَـط من بين الصخور والأشجار الظليلة قيل تنفع للماليخوليا والجذام وتسمى « باضراس الـكلب » و « بالـكثير الارجل »

﴿ الثُّفَّـاءُ ﴾ الرَّشاد وقد يقال له الخردل أو الحرْف عشب من الفصيلة الصليبية ينبت في مصر وله اســتعمالات طبية اسمــه النباتي Nasturtium afficinale وبالانكليزية Water-cress وبالفرنسية Cresson de Fontaine .

﴿ الجَـسَّاد ﴾ الزَّعْفَران نباتٌ له أصلٌ كالبصل وزهرهُ أحمر الى الصفرة من الفصيلة السوسنية اسمه النباتي Crocus sativus وبالانـكايزية Saffron وبالفرنسية Safran Cultivé تشتمل السِمَات اليابسة من أزهاره على غلوكوســيد يُسمَّى « كروكتين » وتستعمل صِبْغاً أصفر في المأكولات وفي حانوت الحلويّـات وكذلك صبغة ودواءً طارداً للريح ومدرًّا للطمث

﴿ الجُمُسْفَرَم والجَمْسَفْرَم ﴾ ويقال له « رَيْحَانُ سُلَيْمَان » و « رِيْحَانٌ فارسيٌّ » نبات من الفصيلة الشفوية اسمه النباتي Ocimum gratissimum وبالانـكايزية Shrubby Basil وبالفرنسـية Basilic en Arbre قوّتهُ شبيهة بقوّة الشيح مفتّحٌ محلّلٌ للرياح . يوجد كثيراً في جبال أصفهان

﴿ الجَنَـاح الشاميُّ ﴾ الرَاسَن بالفارسية نباتٌ تنفرش أوراقه على الأرض وهي طويلةٌ تبلغ الورقة منها الى طول ذراع من الفصيلة المركبة ينبت بالولايات المتحدة الاميركية وأوربا

وآسيا الوسطى اسمه النباتي Inula Helenium وبالانكليزية Elecampane وبالفرنسية Aunée تشتمل أرومته على مواد كربوهيدراتية أي نشوية وهي عطرة الرائحة وتستعمل دواء دافعاً للبلغم (منفثاً) ومنبّهاً .

﴿ جوْزُ الجندُم وجوز جندَم ﴾ ويعرف « بخرْءِ الحمام » و « شحم الأرض » شجر ينبت في جزائر ملوك وجاوة من الفصيلة الجتّيفرية اسمه النباتي Garcinia Mangostana وبالانكليزية Mangosteen وبالفرنسية Mangoustan وهذا الجوز يؤكل فاكهة لذيذة وله قوة مبرّدة مطفئة مليّنة قليلاً ومضادة للأمراض الحفرية (الاسقربوطية) وقشره قابض طارد الدود .

﴿ الحارّة ﴾ الحُرْف ويسمّى في مصر الرَّشاد وحَبّ الرَشاد . وسمّي بالرشاد تفاؤلاً لان الحُرف معناه الحرمان . بقل من الفصيلة الصليبية اسمه النباتي Lepidium sativum وبالانكليزية Garden Cress وبالفرنسية Cresson Alénois له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

﴿ الحامُول ﴾ كما يسمى في مصر هو الكَشُوْث والكُشُوْث والكَشُوثَى والكَشوثاء وقد تضم الكاف فيهما والأكْشُوث وبالتاء المثناة في الكل . جنس نبات طفيلي من الفصيلة المحمودية أو اللافة يلتف على أنبتة أخر ولا عرق له في الأرض يشبه الليف المكّيّ لا ورق له وله زهر صغار بيض فيه مرارة وعفوصة اسمه النباتي Cuscuta وبالانكليزية Dodder وبالفرنسية Cuscute له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

﴿ حَبُّ الزَلم ﴾ معروف في مصر بالسُّقَيْط وفُلْفُل السودان وحب العزيز . جذور نبات من الفصيلة السعدية اسمه النباتي Cyperus esculentus وبالانكليزية Earth Almond; Rush Nut وبالفرنسية Amande de Terre; Souchet Comestible له منافع مذكورة في كتب الطب القديمة .

محمود مصطفى الدمياطي

مقاومة مرض الملاريا

العدول عن سياسة تجفيف حقول الارز

وتوفير مبالغ ضخمة على الدولة

وافق مجلس الوزراء في الشهر الماضي على مذكرة لصاحب المعالي الاستاذ ابراهيم عبد الهادي بك وزير الصحة متضمنة وجهة نظر الوزارة في امر زراعة الارز بالمملكة المصرية وذلك في حدود علاقتها بمرض الملاريا ومقاومته ننشرها فيما يلي :

أتشرف بأن أعرض على دولتكم وجهة نظر وزارة الصحة في امر زراعة الأرز بالقطر المصري وذلك في حدود علاقتها بمرض الملاريا ومقاومته .

١ — انه مع التسليم بأن مزارع الأرز من الامكنة الأكثر صلاحية لتوالد بعض أنواع البعوض الناقل لمرض الملاريا فقد استقرت سياسة الدولة على وجوب الاحتفاظ بتلك الزراعة لما لمحصول الأرز من قيمة في ثروة البلاد ووضعت التشريعات المتعددة والأوامر العسكرية المساعدة على منع انتشار المرض كالامر الخاص بردم البرك والمستنقعات ومنع احداث الحفر التي يتوالد فيها البعوض والقانون رقم (١) لسنة ١٩٣٦ الذي يعطي وزير الصحة بالاتفاق مع وزير الزراعة الحق في اصدار القرارات اللازمة لمنع زراعة الأرز في دائرة معينة من حدود أية مدينة أو قرية يسري على القانون المذكور .

٢ — ولقد كان رأي وزارة الصحة دائماً ولا يزال مستقراً على قصر زراعة الأرز بالمناطق الشمالية لأن برودة الجو بها نسبيًا تعرقل نمو يرقات البعوض وتطور طفيلي الملاريا داخله حتى انه في الشتاء لا تحدث عدوى جديدة بالملاريا ، ذلك فضلاً عن ان تلك المناطق قد اعتادت زراعته من قديم فاكتسب سكانها بمرور الزمن مناعة نسبية من الملاريا . أضف الى هذا اتساق نظام الصرف بها واعتياد الاهالي على استعمال المصارف كوسيلة لغسل تربة

الأرض من الاملاح لاستصلاحها الأمر الذي يساعد على تجفيف المزارع عند اللزوم وازالة المياه الآسنة مما يخفف زيادة توالد البعوض نوعاً .

٣ — على أن بعض الافكار في وزارتي الأشغال والزراعة كانت تحبذ منذ سنة ١٩٣٦ زراعة الارز في جنوب الدلتا بل في بعض بلاد الوجه القبلي .

٤ — وفي سنة ١٩٤٣ زادت وزارة الأشغال في تصريحات زراعة الارز ، ثم تلا ذلك ان اقترحت تجفيف مزارعه دوريًّا وكانت حالة المياه بادية القصور عن مواجهة المساحة الكبيرة التي زادتها التصاريح على غير سابقة .

وانه وان يكن اتخاذ قرار التجفيف قد لبس ثوب الدعوى بأنه في صالح زراعة الارز وزيادة غلتها على ضوء تجارب البرتغال كما قيل بأنه تقرر في صالح مقاومة الملاريا لأن التجفيف يقضي على توالد البعوض الناقل لها ، الا ان الحاجة الأولى لم تكن مفهومة كمبرر لتجفيف المزارع الضعيفة التربة الكثيرة الأملاح كأراضي شمال الدلتا . والرأي مجمع على أن تجفيفها معناه طغيان الاملاح على سطحها والقضاء على النبات او اضعافه كما وقع فعلاً ، وكانت النتيجة نقصاً في متوسط محصول الفدان .

كذلك فان عملية التجفيف التي لجأت اليها وزارة الأشغال رغم معارضة وزاة الصحة وأرصدت لها في سنة (١٩٤٣) ٥٠ الف جنيه كرتبات للمشرفين من عمال وزارة الزراعة على ملاحظتها هذه التجربة قد فشلت تماماً على التفصيل الآتي :

فمن الناحيــة الادارية ظهر ان ٢٥،١ في المــائة من زراعات الأرز لم تجفف في المواعيد المقررة .

ومن الناحية الصحية ثبت ان نسبة مزارع الارز التي بها يرقات البعوض الناقلة للملاريا ٣٠ر٦ ٪ سنة ١٩٤٣ بينما كانت هذه النسبة في العام السابق لقرار التجفيف ٢٥ر٧ ٪

ومما تقدم يثبت أن إجراء التجفيف لم ينتج أثراً ، لا من الناحية الاقتصادية ، ولا من الناحية الصحية .

٥ — وكان المأمول أن تضع هــذه التجربة الغالية الثمن حدًّا لمشروع تجفيف زراعات الارز ، إلاّ أنه تقرر اعادة تلك التجربة في سنة ١٩٤٤ — رغم معارضة وزارة الصحة — تقرر فتح اعتماد قدره ١٢٣٠٧٠ جنيهاً في الجزء الباقي من سنة ١٩٤٤ وفتح اعتماد سنوي قدره ٣٠٩٨٦٠ جنيهاً في ميزانية وزارة الزراعة لانشاء وظائف دائمة لموظفين يكون تجفيف زراعات الأرز أحد واجباتهم، وصدر الأمر العسكري رقم ٤٧٢ لسنة ١٩٤٤ بالاستمرار في

تجفيف زراعات الأرز دوريًّا لمقاومة البعوض وأبيحت زراعته في كل من الدلتا والفيوم ، ومنعت في باقي الوجه القبلي بناءً على الحاح وزارة الصحة .

وقد استمرت وزارة الصحة من جانبها في استقصاء نتائج تجربة التجفيف مرة أخرى فأوفدت ملاحظيها تحت اشراف طبيب اخصائي في الملاريا لفحص مزارع الأرز دوريًّا وبعد قيامه بمهمته قدَّم تقريره النهائي وكانت خلاصته ما يأتي : —

١ — ان ٨٤ر١ ٪ من مجموع زراعات الأرز التي فحصت وقدرها ٥٦٨٠ زراعة لم تجفف مخالفةً بذلك الأمر العسكري .

٢ — وجدت يرقات الأنوفيل الفرعوني ٢٦ر٥ ٪ من مزارع الأرز في يونيو سنة ١٩٤٤ وكانت في نفس الشهر من سنة (١٩٤٣) ٢٥ر٧ ٪ .

٣ — في جنوب الدلتا خصوصاً مديرية المنوفية،لا يمكن الزراع أن يجففوا أراضيهم ولو حاولوا في الجهات التي لم تمر بها المصارف العمومية،وهم في المناطق التي بها مصارف عمومية لا يتمكنون من التجفيف لعدم وجود المصارف الفرعية :

والآن وبعد طول التجارب الكثيرة التكاليف ، نرجو النظر في تقرير برنامج لزراعة الأرز يلحظ فيه الاعتبارات الآتية :

١ — منع زراعة الأرز في الوجه القبلي واستمرار الأمر القاضي بحظر زراعته هناك .

٢ — حصر زراعة الأرز في مناطق شمال الدلتا حيث وسائل الصرف كاملة والجو أصلح

٣ — العدول عن سياسة التجفيف التي لم تفد من الناحية الصحية ولا من الناحية الاقتصادية ، توفيراً للمبالغ الضخمة التي أرصدت لتنفيذها على غير جدوى وعدم تجديد الأمر العسكري الخاص بالتجفيف .

وأريد،وقد انتهيت من بسط الموضوع،ان أرفق مع هذه المذكرة بياناً من وزارة الزراعة وآخر من وزارة الأشغال تتبينون دولتكم منه نسبة المحصول في سنة ١٩٤٢ أو سنة ١٩٤٤ وعلاقة ذلك بنسبة المياه من جهة ومساحة الأرض التي صرح بزراعتها من جهة أخرى وهو مصداق لكل ما ذهبنا اليه .

كما ترون دولتكم ان كمية الأرز الناتج من مديرية الفيوم محدودة لا تؤثر شيئاً يذكر في مجموع المحصول العام ولا تقاس قيمتها بالقيمة الصحية المحققة من عدم زراعته هنالك هذا العام .

العالم المجهول

في قمة الدنيا

نقل المقتطف في شهر فبراير الماضي واقعة تحت عنوان « قمة الدنيا » عن كتاب روزيتا فوربس التي صحبت رفعة حسنين باشا في رحلته في الصحراء . وعنوان كتابها عرافة الشمس Gypsy of the Sun . وموضوع القصة رؤى رآها حسنين باشا في إبان تيه حملته في الصحراء ومعاناتها الظمأ لضلالها عن آبار الماء ، ونبوءات عن مستقبل رفعته المجيد . وفي سياق الحكاية أخبار التفريج لأزمات الرحلة المهلكة وتحقيق لنبوءات الرؤيا . وظهر ان بعض قراء هذه القصة أيقنوا بصحتها اعتماداً على إسنادها الصريح إلى اسم رائي الرؤيا حسنين باشا.

أما انها نشرت في كتاب « عرافة الشمس » للسيدة روزيتا فوربس فلا يهمنا كثيراً ، لأن هذه الكاتبة تبتغي ترويج كتابها بين قراء الانكليزية بنسج مثل هذه القصص التي تنطبق عليها تسمية الكتاب . ولكن القصة نشرت في المقتطف المعلوم انهُ أرقى مجلة علمية عربية مدققة في مباحثها فاكتسبت اعتباراً من القراء ، ولا سيما لأن المحرر علق عليها بهذه الجملة : — ألا يحق لنا أن نعتقد أن الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا فيغزو العالم المجهول من غير أن يدرك انه غزاه »

فنتمنى والحالة هذه أن نسمع القصة من قلم حسنين باشا لكي نرى كم هي مطابقة للواقع . وكذلك نود أن نرى ما هو رأي رفعته في تعليل الرؤيا هذه . ورفعته مثقف ثقافة عليا منزهة عن الأوهام . وإذا سكت رفعته عن رواية السيدة روزيتا فوربس في كتابها المنتشر في عالم آخر غير عالمنا فلا حرج ، ولكنهُ إذا سكت عن نشرها بلغتنا العربية فنخشى أن تغذي الأوهام الشائعة في عالمنا العربي .

بقيت كلمة أخرى استأذن حضرة المحرر أن يتسع صدره لها وهي بشأن تعليقه على القصة ان قوله : « ان الالهام الروحي قد يرفع الانسان لحظات يكون فيها فوق قمة الدنيا يغزو العالم المجهول » فمسألة فيها نظر أو نظرات .

ماذا يراد بالالهام الروحي ؟ من هو الملهم ومن هو الملهَم (بكسر الهاء في الأولى وفتحها بالثانية) . ولا بدَّ أن المراد برفع الانسان فوق قمة الدنيا ليغزو العالم المجهول هو روحه أو على الأصح هو عقله الباطن . أي ان الروح توعز إلى نفسها ان ترتقي إلى العالم المجهول . وهذا يحدو بنا إلى التساآل عمَّا هو العالم المجهول .

فان كنا نعرف شيئاً من ظاهرات هذا العالم المجهول فيجب علينا أن نعترف بوجوده

ولو كنا نجهل كنهه ، وعلينا أن نبحث عن سرّه . وان لم نكن نعرف شيئاً عن ظاهراته فلا يحق لنا أن نفترض وجوده، بل يجب أن ننكر وجوده . وإلاّ فيمكننا أن نفترض ألوفاً من المجهولات ونوجب على كل واحد أن يعترف بوجودها .

مثال ذلك ، يقول لك قائل : « لا تستطيع أن تنكر وجود الكهرباء فيما أنت تجهل سرّها » نعم لا أنكر وجود الكهرباء لأني أرى ظاهراتها وأشعر بوجودها في المصباح والترام والراديو، ولذلك أحكم بوجودها وان كنت أجهل سرها .

ولكني لا أستطيع أن أعترف بوجود عالم المجهول وأنا لا أرى ظاهرة منهُ تدل على وجوده أو على ماهيته . وإذا أريد أن تعتبر هذه الرؤى والأحلام ظاهرات هذا العالم المجهول . فلا بأس . ولكن هذه الظاهرات التي تدل عليه موجودة في أدمغة الرائين والحالمين وأمثالهم ، وليست فوق قمة الدنيا ، وما خرجت عن دائرة العقل، الذي هو من عمل خليات الدماغ لا غير . اذاً هذا العالم المجهول موجود في أدمغتهم .

واذا أريد بقمة الدنيا ما وراء الطبيعة، أي ما وراء الأكوان المادية المحدودة الحيّز ، فليس هناك إلاّ العدم أو الفضاء اللامتناهي . وان كان وراء العوالم المادية عوالم أخرى ، فلا ندري عنها شيئاً البتة ، ولا نستطيع الاتصال بها لأن مشاعرنا الخمس وحواسنا العقلية لا تتصل اليها . وبالتالي لا نعترف بوجود عالم مجهول مفروض إذ لا دليل لنا عليه .

نقولا الحداد

نظام الاكل

ان المآكل التي نتغذى بها ونعيش عليها مكونة من مواد زلالية ودهنية ونشوية وأملاح وماء ، وان الجسم البالغ يحتاج الى اقدار منها تختلف باختلاف العمل الذي يمارسه ، وان ما يولده الجرام الواحد من المواد الزلالية نحو ٤ وحدات حرارة والدهنية نحو ٩ والنشوية نحو ٤ ومعدل ما يستهلكه الجسم العامل نحو ثلاثة آلاف وحدة في اليوم .

ونسوق كلمة وجيزة عن النظام الذي يجب ان يعيش عليه الآكل عند ما يجلس الى المائدة. واحترام هذا النظام يعادل في أهميته الغذاء نفسه فعليك أن تغسل يديك ووجهك وفمك قبل ان تمد يدك الى الطعام . وهذا الشرط له أهمية عظيمة الشأن في عملية الهضم والصحة، تضارع أهمية الغذاء وما فيه من فائدة للجسم. فالحذار الحذار من اهماله او التردد في القيام به بدافع الجوع أو ضيق الوقت أو ماشا كل ذلك فقد يكلفك الاهمال فيه أضعاف ما دفعك اليه وحرضك عليه. فاذا كان الجوع هو الباعث الأول الى اهماله فقد تحرم من الأكل بسببه أياماً وأسابيع

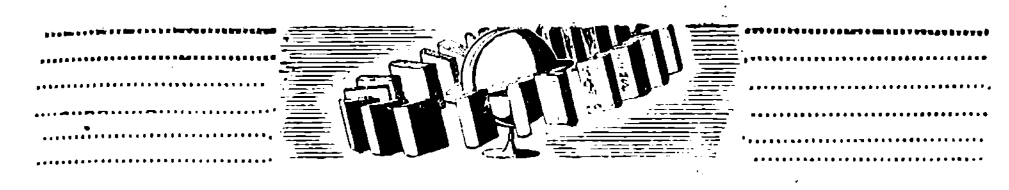
وتفقد من الوقت ان كان ضيق الوقت الذي حرّضك عليه؛أضعاف الوقت الذي اقتصدته في اهماله . والذي يهمل غسل يديه قبل الأكل يهمل الشرط الثاني وهو الاعتدال بمقدار ما يأكل ومضغ ما يأكل جيداً . والشرط الثالث هو ان تأكل في ميعاد فلا تتعداه ولا تقدمه ولا تؤخره لأي سبب من الاسباب ، وعلم الوقاية يقول في ضرورة الأخذ به والعمل بالنظام العام كاملاً وعلى أتم وجه . ومن أكل في غير نظام وعاش على غير قاعدة يتبعها في أكله وعمله ، تسوء صحته ويضطرب جهازه الهضمي بين حين وحين ، كما تجده مضطرباً في أعماله وأقواله، يأكل اليوم في الساعة الواحدة بعد الظهر ،وغداً في الرابعة، وبعده في العاشرة صباحاً، او لا يأكل الا في المساء او عند ما يشعر بالجوع ، وانه وعد بانجاز عمل كلف به لا ينجزه في الموعد الذي حدده ،، وان ضرب ميعاداً لمقابلة تخلف عن الموعد الذي ضربه ، وان أخذ منك كتاباً يطالعه فلا يرجعه اليك ولا يطالعه وهكذا تجده في كل أعماله متقلقلاً .

وأكثر الناس انتاجاً واستقراراً هو الذي يعيش ويأكل ويعمل بنظام ، ومن أكل بنظام عمل بنظام أيضاً .

وفي الكتب المنزلة يفرض الصوم على المؤمن بها لا لتجويعه واذلال نفسه فحسب ، وانما لتعويده على الأكل بنظام وخير ما في الصوم من فائدة يستفيد بها الصائم،هي ضبط مواعيد الأكل، وتنسيق المعيشة على قاعدة منظمة صحية ، واحترام مواعيد الأكل،لا تقديم فيها ولا تأخير . والأسرة التي تعيش على نظام في أكلها تنجب أولاداً منظمين، وفي الأرجح يكونون من الناجحين في أعمالهم العامة والخاصة . واذا عمّ النظام معيشة أمة استقام امرها وعلا شأنها، وارتفع مقامها بين الأمم ، ويقولون إن أسباب تقهقر الشرق عن الغرب، بعد ان كان متقدماً عليه هو الدين وتعصب أتباعه على مختلف مذاهبهم ونحلهم . والواقع أن الدين بريء وانما تقهقر الشرق يرجع الى عدم احترامه للنظام سواء كان في أكله أو معاملاته، كما نستطيع أن نقول إن أسباب تقدم الغرب هو احترامه للنظام في معيشته وسائر مرافق الحياة .

والخلاصة ان الأكل بنظام مقيد بميعاد ، مفضل على الأكل المطلق من التقييد . وان الطعام الناقص الذي نأكله بنظام خير من الطعام الكامل الذي نأكله بغير نظام . وان تقدم الغرب وتقهقر الشرق سببه أن الغرب يعيش ويعمل في نظام وان الشرق لا يتقيد في معيشته واعماله بنظام، واذا أردت أن ينهض الشرق من كبوته ويتقدم في حلبة العمران نظم معيشته ، وبث فيه روح الثقافة الصحية والاجتماعية : عليه أن يحترم الوقت الذي هو جزء من حياته وان يحرص على الوقت الذي يعادل بقيمته الحياة وأكثر ما في الحياة من مباهج .

الدكتور شخاشيرى



مكتبة المقتطف

الى توفيق الحكيم

أتذكر أيها الصديق يوم تلاقينا في ندوة الأستاذ العقاد ؟

أتذكر يوم أصدرت روايتك الأولى « أهل الكهف » فوقفت منك موقف المتحدي أدل القراء على المصدر الذي أغرت عليه فانتزعت منه فكرة تلك الرواية ، وكيف لم أنكر عليك براعتك في عرضك إياها عرضاً فنيًّا بديعاً ، وفي تقسيمها المحكم الدقيق ، وحوارها البالغ حدًّا من الجودة والاتقان؟

أتذكر يوم أصدرت قصتك الثانية « عودة الروح » وما قلته لك فيها بأنها سطور مرقعة من لغة سقيمة ، وتعابير مفككة ، واحصائيات فتوغرافية ، وصوَر ناصلة الألوان لفكرة قلقة مضطربة ؟

أتذكر يوم صارحتك القول في أين مقامك كأديب في كل ما كتبت حتى يومذاك ، وإن أقصوصة « أهل الفن » تحمل وحدها طابعك الشخصي ؟

إذا كنت تذكر ذلك ، فاعلم ان الشكوك قد لا بستني فيك ، وساورتني الريَب في أدبك فقد أخذت أتابع قراءة ما تؤلف وتنشر على الناس ولم يستقر لي قرار إلاّ يوم قرأت لك قصة « بيجماليون » فعندها قلت فيك . إنك أديب « صايغ » تحسن صناعة الصياغة الأدبية إحساناً مجيداً . أعني بذلك إذا أعطيت جوهرة ثمينة فأنت القادر العظيم على جعلها قلادة بارعة الفتنة الفنية تجمل بها أجمل عنق لأجمل سيدة .

***

تطوَّرت معرفتنا فتصادقنا . أخذت أتطلع إلى دخائل نفسك ، وأتلصص مكامن سريرتك لم تكن بالكتوم الحذور ، بل كنت الودود في صداقتك ، الجهور في اعلان سرك ، تطلق نفسك على سجيتها فتعبّر بأبسط بيان عما يجيش في صدرك ، ويضطرب في خاطرك .

لقد لمست فيك حياءً أصيلاً ، وشجاعة وهادئة ، ورغبة صدئة ، وشهوة مكبوتة .

نقلت لك : لقد وصموك بعداوة المرأة فأنت والله راغب فيها لو كانت لك رغبة ، غير عيوف عنها لو كانت لك شهوة ، ولقد كذّبتني ليلة التففنا حول خوان عليه سائل مقطّر يطلق اللسان من عقاله ، ويفتح مغاليق الأسرار ، فحكيت « لنا » حكاية مغامرة واقعية تنفي ما توهمته فيك ، وكادت تنهداتك تذهب بالغبار العالق في ذهني منك ، ودموعك تغسل ما سطرته في لوحة صدري عنك ، فشاقتني حكايتك ، فقلت « لكم » باني سأصور حكاية مغامرتك هذه لأنها نكات في صدري جرحاً توهمت انه اندمل ، فاستمهلتني ريثما أقرأ حكاية هذه المغامرة وقد خلدتها في كتاب أسميته « الرباط المقدس »

***

قرأت الكتاب فنسيت اني أقرأ لصديقي توفيق الحكيم ، بل فرحت لأني أقرأ لهذا الصديق الحكيم ، وتمنيت لو تضاعفت أعداد صفحاته لكنت قهرت النوم ، وتمردت على مفاتن الفجر الساحرة ، وبهاء شروق الشمس انجذاباً بقراءة هذه الحكاية البالغة حدّ الفتنة في العرض والسياق والتشويق والتصوير والمفاجأة والصراع والتفلسف والوصف والتحليل

انتزعت نفسي من مآخذ السحر ، وتجهمت لك تجهم الناقد . أخذت أقرأ القصة ثانية ، فما كدت أفرغ من قراءتها حتى تجلت لي أطوار حياتك الادبية على النحو الآتي :

١ — طور الاغارة على « الفكرة » ومثله رواية « أهل الكهف »

٢ — طور استعارة « الفكرة » ومثله رواية « بيجماليون »

٣ — طور الانفعال ومثله « الرباط المقدس »

وهناك طور وسط بين الثاني والثالث يحسن السكوت عنهُ ومثله « عودة الروح » وأخواتها .

هوذا دليل ناهض على انك يا صديقي غير راضٍ الرضى المطلق عن كل ما أعطيت وجددت في حياة الأدب والفن ، وان قصتك الانفعالية هذه « الرباط المقدس » قد لا تقف بك عند هذا الحد لأنك دائم التطور لا تستريح إلى الاستقرار ، وأزعم ان هذه الانفعالية ستدفع بك إلى اقتحام طور آخر هو « الواقعي » وعندها ستكون الحكيم الحكيم في الانطواء على النفس ، لا انطواءَ الزاهد بالحياة بل انطواء العارف بها المتمرد عليها ، وعندنا ستكون من البارعين في وصف الخلجات وما يمتّ إلى الأحاسيس والشعور والوجدان . وصفاً بسيطاً صادقاً يجعلنا نؤمن انك حييت حقًّا حياة الحبيب السعيد أو الشقي .

ليس المفروض بالقاص أن تكون قصته واقعية معروفة الأشخاص والمعالم بالذات . بل المحتوم عليه أن لا يخرج عن حدود ما هو ممكن في الحياة ، وهكذا فعلت . في قصة « الرباط

المقدس » ولكنك اعترفت ، أو بعبارة أصح انزلقت ففضحت ما كان يتمسس في ظلمات نفسك من ميل وشوق ورغبة وشهوة للمرأة التي تخافها وتجفل منها ، فوصفتها وصف غير النشوان برحيقها ، ولا المخمور من أنوثتها ، ولذلك سكبت عليها في الختام اللعنات خالدات ، وقذفت بها إلى درك الجحيم .

أنت لست إذن عدوّاً للمرأة يا صديقي ، بل هي التي ستجافيك ولا تناوحك لأنك لست كفؤاً للسيادة عليها .

***

ما رميت الى الوقوف من هذه القصة موقف المحلل المفصل لأدوارها . فقد فعل ذلك الأستاذ الكبير عباس العقاد ووفاها حقها من البيان والتوضيح نقداً وتقريظاً ، وقد حاول من قبل الناقد سيد قطب أن يقف هذا الموقف، ولكنهُ تعسر فانزلق فعاب خلوها من عنصر « الشك » كأن الشك عنصر أساسي لا تستقيم القصة بدونه !!! وانه لمن المؤسف حقّاً أن يهفو ناقد زكن كسيد قطب هذه الهفوة الشنيعة .

أعود فأقول اني ما إلى هذا الموقف رميت . ولا إلى هذا القصد اتجهت ، انما هي لمحات في التطور النفسي والفني استلمحتها فيك فسجلتها في هذه السطور .

يحلو بي أن أقول لك يا صديقي انك لم تعتق نفسك بعد من طور الاغارة على أفكار المفكرين ، ولم تقوَ بعد على الاستقلال بفكرك وحدك ظنّاً منك بأن كل ما هو غربي يصلح لأن يكون شرقيّاً واليك المثل :

قلت في خاتمة القصة بلسان راهب الفكر تدلل على انزلاق المرأة العصرية في مساوئ المدنية الحديثة وتعدد أسباب هذه المساوئ الخلقية « هكذا في عصورنا الحاضرة ضعفت تيارات الأديان عن صد تيار المرأة » !!!

تعرف جيّداً يا صديقي ان المرأة المسلمة غير ملزمة بأن تكون متدينة، فلا رجلها ولا رجال الدين يطالبونها باقامة الشعائر والفروض ، انما الذي يفعل ذلك هو رجال الاكليروس المسيحي ولهم على المرأة المسيحية وعلى الرجل أيضاً سلطان أي سلطان ، فاحتجاجك بالدليل النصراني على المرأة المسلمة، انما هو اقتباس غير موفق أو إغارة على فكرة طيبة لمصلح غربي، لا يليق بك اقحامها في جونا الشرقي والصاقها بالمرأة المصرية المسلمة .

سلامٌ عليك يا صديقي الحكيم يوم تعتق ذاتك من كل هذه القيود ، وسلامٌ عليك يوم تبعث فينا أدباً رفيعاً مبتدعاً من ينبوع نفسك الفياض فتكون قدوة لطلاب المثل العليا في الفن والذوق ، وتحية اخلاص من صديقك .

حبيب الزحلاوي

أساطير الحب والجمال عند الاغريق

للاستاذ دريني خشبه — مطبعة الرسالة — ٣٧٥ صفحة من القطع المتوسط

كان لسليمان البستاني فضل أي فضل في ترجمة الالياذة الى الشعر العربي، بعد أن ظلت محجوبة عن المكتبة العربية زماناً طويلاً. وكان له فضل أي فضل في مقدمة جليلة قدمها بين يدي الملحمة، فجاءت مقدمته كتاباً برمته يحتل مكانه في تاريخ الأدب.

وظهر بعد البستاني كاتب أخذ يشق سبيله الى منزلة الأديب عن سبيل تعريفنا بقصص فاتنة من الحب والجمال عند الأغريق. وكان الذين يقرءونه من حين الى حين في مجلة الرسالة يعجبون به، ويتشوقون الى تلك القصص التي عرف ناقلها كيف يلمس بها مواطن التقدير في قلوب القارئين.

هذا الكاتب الناقل هو الاستاذ دريني خشبه الذي يقدم اليوم الى المكتبة العربية السفر الأول من ديوان الأدب اليوناني. وهو على ما أعلم ماضٍ في سبيله الى تقديم أسفار أخر. حتى لقد أصبح حبّه لقراءة الأدب الأغريقي هوًى لازماً.

ولهذا الكتاب مقدمة أبان فيها الكاتب بعض أغراضه، وقدَّم لنفسه بعض العذر عما أورد من ألوان حب اغريقي، ليس من الصدق أن يتعمد الكاتب اخفاءَها. الا انه على الرغم من ذلك راعى أكرم تقاليدنا، وحرص على ألاّ يجرح أذواقنا بألوان لا تجري على موروث عادنا. وقد يكون المؤلف في هذا التصرف خالف منهج الصدق قليلاً، أو جار على مذهب الأمانة النقلية قليلاً. ولكنه ما جاوز الانصاف لأدبه العربي ولخلقه العربي ولسانه العربي، حين عمد الى حذف ما لا يتفق مع الطبع العربي الكريم.

وقديماً تحرَّج أدباء العربية في عصور الترجمة العباسية من نقل الأدب اليوناني الى الأدب العربي خشية ما فيه من آلهة وثنية لا تتفق مع فكرة الاسلام الموحدة. وقد يكون للقدماء من أدباء العرب عذر في تحرجهم، وهم لم ينفضوا غبار الوثنية عنهم الا منذ قرن وبعض قرن من الزمان... أما اليوم وقد أصبحت فكرة الآلهة موضعاً للتندر والسخرية في قلب الرجل الموحد، فلا ضير اذن من ان تعرض علينا تلك الآلهة كما كان يتصورها الأغريق، ولا ضير على التوحيد الصحيح من أن يقرأ آثار الوثنية المغمورة في أطياف شاردة من الخيال.

ولقد تصرَّف الأستاذ دريني خشبة تصرفاً آخر في النقل، فهو يعترف في مقدمة الكتاب بأنه ينقل نقل رواية لا نقل ترجمة، وكأنما أحسَّ صديقنا وهو يقدم على هذا الصنع ان اعتراضنا سيوجه اليه، وانه غير مفلت من النقاد. فأراد أن يدفع عن نفسه،

وان يتخذ « لهيئة الدفاع » عنه الاستاذ « توماس بلفنش » الانجليزي من أدباء القرن التاسع عشر . فاتخذه دريني خشبة دليله في نقل الأساطير واتخذ طريقته في الرواية لا في الترجمة . ومضى في سبيله مطمئنـا الى عمله ، معتذراً بأن ترجمة النقل قد يكون فيها من الجفاء والخشونة ما يباعد بينها وبين مساغ الذوق عند القارئين .

على ان هذا الدفاع قد لا يعفيه من النقد ، وقد يسلط عليه من يقول له انه أسرف في الرواية الى حد قد يباعد بينها وبين الاصل . فكأنه قد فرَّ من مباعدة عن الذوق الى مباعدة عن الأصل . ولكنه على كل حال قد أبدع في الرواية ، وأعانه على الابداع بيان قوي وأسلوب أخاذ يجري على الطبع العربي الاصيل .

والحق ان أسلوب دريني خشبة فيه من الجمال والقوة ما يجعله خليقاً بنقل الأدب اليوناني . وفيه من الحلاوة الفنية ما يناسب حلاوة هذه الأساطير . حتى لا نبعد عن الحق اذا قلنا ان «أساطير الحب والجمال» هي تحفة فنية للمكتبة العربية . ولا بدَّ انها لاقية من تقدير الأدباء والقراء ما يجتزي عن شكر الأستاذ ويقوم مقام ثوابه .

ولقد تميز الاستاذ الزيات صاحب الرسالة بأسلوب فني متفرد جعله مدرسة وحده . وجعل له تلاميذ يتأثرونه ويعشون على غراره . ولا يشك أحد في ان دريني خشبة متأثر في أسلوبه بأسلوب الزيات الى حدٍّ كبير . الاّ ان دريني يخلع على الالفاظ من الأغراق والمبالغة ما لا يحتمله المعنى وقد ينوء به . وهذا الاسراف في أسلوبه قد يعيبه ويجعل سبيل الناقدين اليه مطروقاً .

وهـذا الاغراق قد يدفعه ـ عن غير قصد ـ إلى التهاون في (استعمال) الأساليب . وهذا التهاون مما لا يجمل بأديب تقليديٍّ أن يصنعه . واذا جاز ذلك من المجددين الذين لا يبالون ـ في جهل وادعاء ـ بقيم الأسلوب الصحيح ، فانه لا يجوز من أديب مثل دريني خشبة رأينا منه في كل حالاته حفاظاً على اللغة .

وإلاّ فما باله يستعمل ص ٢٠ « فرأى الى الخنجر » وحرف الجر هنا لا لزوم له . ولكنه يأتي مع الفعل المنفي دلالة على التعجب كقوله تعالى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » . وقد وردت في القرآن على كثرة مع النفي لا مع الاثبات . وما أظن أني قرأتها في كتاب .

وفي ص ٣٦ « ولبث نركيسوس وحده يضرب أخماساً لأسداس » . فاستعملها بمعنى الحيرة والتردد في الأمر . وما قال بذلك شرّاح الأمثال العربية ـ راجع أمثال الميداني في شرح « يضرب أخماساً لأسداس »

وفي ص ٦٣ « منية القلب وهوية النفس » . وأظنها هوى النفس

وفي ٤٥ « يصمد للعصبة القوية » بمعنى يثبت . والفعل معناه يقصد لا يثبت كما شاع ذلك على السنة الكتّاب خطأ ، ومنه « الله الصمد » أي المقصود في الحاجات .

وفي ص ٣٣٢ «وانمرق إلى الكهوف» وهو استعمال غريب لا أدري وجهه . ففي اللغة انمرقت مفاصله أي ضعفت . والمؤلف يريد تسلل إلى الكهوف . ولم يرد في معجم تحت يدي .

وفي ص٣٤٧ « بالعبير الفياح » والصحيح « الفواح » لأن الفعل فاح يفوح لا فاح يفيح

بقيت في النفس كلمة . وأظن الأستاذ دريني لا يضيق بها ، لأن طلاب الكمال لا تضيق نفوسهم بكلمة الحق . فقد كانت الأساطير في حاجة إلى مقدمة علميـة تاريخيـة في نشأة الأساطير وعقيدة اليونان في الآلهة وتصديقهم لنزولها على الأرض تخوض المعارك وتدبر الخطط وتجري مع البشر فيما يجرون من أمور . ولعلَّ ذلك كان واجباً على من ينقل أساطير الأغريق إلى الأدب العربي بعد احتجابها عنه دهراً طويلاً . فتلك دراسة كانت تقف القارئ على كثير من أمور الفكر اليوناني . ولقد أنصف المستر Y. S. Marvin وزميلاه Mayar و Stawell حين قدموا بين يدي كتيبهم الصغير (مغامرات الأوديسة) . أما أن يمضي الأستاذ دريني في عرض القصص من غير تقديم تاريخي لها فذلك ما نرجو أن يستدركه في تراجمه المقبلة للادب اليوناني .

والحق أن المكتبة العربية قد ظفرت بهذا الكتاب الذي جمع بين براعة الفكر اليوناني في أساطير حبه . . . وبغضه أيضاً وبين قوة الأسلوب العربي وطواعيته لحسن التصوير .

محمد عبد الغني حسن

قواعد الهرموني : علم توافق الاصوات

بقلم أحمد بيومي — ١٦٢ صفحة ٢٢ × ١٥ طبع مطبعة التوكل بمصر

كتاب جديد يضيف ثروة قيمة إلى خزانة المكتبة العربية ، فان المؤلفات الموسيقية العربية هي من الندرة بمكان . ولستُ موسيقيًّا ولا ممن يمتّ إلى الموسيقى بسبب ، إلاّ ما تولع النفس به من حب السماع والشغف به . ولكن هذا الجهدُ الحي الذي اضطلع به الأستاذ بيومي في إخراج هذا الكتاب يقتضيني تنويهاً بتلك البراعة التي نسج بها كتابه ، وتلك الروح التي أوحت اليه أن يضع هذا الكتاب ليغذو الفن الشرقي ، وليضيف إلى كنوز العربية نفائس لا يستهان بها ، من المصطلحات الفنية التي وضعها أو أحياها . وهو إذ يقدّم هذا الكتاب بتقديم حسن ، يأبى إلاّ أن يجعل للعرب سابقة في هذا الفن الحديث ، وهو علم توافق الأصوات (Harmony) فينقل عن ابن سينا قوله : « التركيب هو ما يحدث بنقرة واحدة تستمر على وترين النغمة المطلوبة واتفاقهما على الذي بالكل أو الذي بالاربعة

أو الذي بالخمسة وعلى غير ذلك ، كأنهما يقعان في زمان واحد » . ويذكر من تاريخ هذا الفن عند الأوربيين أن الناس قديماً كانوا « يؤمون ساحة البابوات في الأعياد والمواسم يرتلون وينشدون الادعية والتهاني ، في جماعات تجمع بين أسنان مختلفة وأجناس متباينة ، وأصوات تتفاوت علواً وانخفاضاً ، ولينا وقوة ، ومرونة وصلابة . وعن هذا الجمع المختلط كان يصدر ما يصدر، فيسمعه السامع فيحس فيه انسجاماً ، ويلمس معه توافقاً . ومن هنا عنّ للاستاذ هوكبالد في القرن العاشر أن يوجه نظر المشتغلين بفن الموسيقى إلى هذه الظاهرة والانتفاع بها، فكانت نشأة علم الهرموني :وكان مبدأ الانتفاع بالاصوات المختلفة التي تكوّن مجتمعة أنغاماً فيها توافق وانسجام » .

وقد أتمّ الاستاذ المؤلف الجزء الأول من الكتاب في ١٦٢ صفحة تتخللها الرسوم الموسيقية وعقّب على فصول الكتاب بمسائل في الموسيقى التطبيقية . وقد لحظت أنه يبدأ هذه المسائل من يسار الكتاب إلى يمينه جرياً على ما هو متبع في المذكرة (النوتة) الأوربية وكان أولى به أن يعرب هذه الطريقة بأن يبدأ باليمين ، إذ ليست هناك أية ضرورة فنية لإيثار الطريقة الاوربية .

إن جهاد المؤلف في هذا الكتاب حقيق بكل حفاوة وتكريم وتهنئة ، كما أنه يستوجب شكر كل من يخدم اللغة العزيزة ويرعاها عبد السلام محمد هارون

الهجوم على اوربا

للملازم اول السيد فرج — ١١٩ صفحة من القطع الوسط — نشرته دار المعارف بمصر

للملازم أول السيد فرج نشاط محمود في نشر الثقافة العسكرية فقد أخرج عدة كتب عن الحرب المستعرة كان آخرها هذا الكتاب الذي تناول موضوعاً شغل أذهان الناس زمناً

فلقد بسط النازيون جناحيهم على القارة الاوربية وأقاموا ما أقاموا من حصون ومعاقل ثم أذاعوا على الناس ما اذاعوا عن قوة هذه الحصون والمعاقل وعن قوى ما لديهم من معدات واستعداد يقف حائلاً دون ان يخطو أقدام الديمقراطيات عتبة هذه القلعة. وظلّ غزو أوربا أملاً تتعلق به الانسانية الجريحة ليكون من ورائه نهاية آلامها ومتاعبها ولتقضي الديمقراطية على آثار الطغيان وترده الى صوابه حتى أقدمت جيوش الحلفاء على الغزو في صقلية اولاً ثم قفزت الى ايطاليا ثم هبطت على الجدار الاطامي فجعلته خرافة وقضت على حلم النازية.

هذه هي المواضع التي تناولها الكاتب الفاضل . وهي موضوعات تحتاج الى كثير من التوسع . فعسى ان يستطيع الكاتب — بعد انتهاء الحرب واستطاعة الحصول على كثير من الوثائق والتقارير — جعل كتابه أكثر اتساعاً وأكثر شرحاً.

الاسلام والنصرانية

مع العلم والمدنية

أصدرته « دار المنار » وهو من تأليف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده مع شرح وتعليق بقلم السيد محمد رشيد رضا والكتاب دائرة معارف إسلامية ردَّ فيه المؤلف على كثير من الشبهات التي ألصقت بالدين الاسلامي كما بيَّن حقيقة هذا الدين وخدمته للعلم والمدنية وقارن بينه في ذلك وبين المسيحية وذكر نبذة تاريخية لكل منهما . ثم بيَّن حالة المسلمين الحاضرة وبحث عللهم وأمراضهم الاجتماعية كما بين علاجها، فهو كتاب جدير باطلاع الباحثين في الأديان بوجهٍ عام ولا يستغنى عنهُ مسلم ولا مسلمة . وفي آخره بحث فريد في نوعه عن فلسفة ابن رشد ومذاهب المتكلمين بقلم المؤلف أيضاً . ويطلب من «دار المنار» بشارع الإنشا رقم ١٤ بالقاهرة . وثمن النسخة خمسة وعشرون قرشاً وأجرة البريد قرشان .

الليلة الثانية عشرة

للشاعر شكسبير وتعريب محمد عوض ابراهيم بك — نشرته دار المعارف

عني الاستاذ محمد عوض ابراهيم بك بنقل آثار شاعر الانجليز الخالد وليم شكسبير إلى العربية ، فها هو ينقل رواية أخرى من روايات هذا الشاعر هي « الليلة الثانية عشرة » وهذا عمل مشكور وجهد طيب . ولعلَّ المعرب الفاضل يولي ترجماته عناية باللغة بالاسلوب ليخلد أدب الشاعر في العربية كما خلد في لغات العالم الاخرى .

ضجعة العروس

قصة مصرية — بقلم ابراهيم عز الدين اسماعيل — مطبعة التوكل

هذه قصة طريفة لمأساة فتاة كتبها مؤلفها في مرارة وفي أسلوب جميل ونَفَس شاعري عذب ، ولكنه جرى فيها مجرى الأسلوب الانشائي . غير انها منبئة عن إشراق جميل في عالم القصة للاستاذ ابراهيم عز الدين اسماعيل مؤلف هذه القصة .

سحر أميركا

بقلم حسن فريد — ٦٨ صفحة من القطع الوسط — المطبعة العصرية

هي خواطر ومشاهد يسردها مؤلف هذا الكتاب بعد رحلته إلى المعرض العالمي الذي أقيم في نيويورك عام ١٩٣٩ وقد كتبها ـ على حد تعبيره ـ باللغة السهلة البسيطة وتخللها بعض الفكاهات والحوادث المثيرة . ولكن ما يكاد القارىء يطالع صفحاتها حتى يرى ان المؤلف عني بأشياء خاصة بهِ أكثر من العناية بالموضوع الذي يتبادر إلى ذهن القارىء من عنوان الكتاب .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

القلاع الطائرة

هي الطائرات الأميركية قاذفة القنابل التي تصنعها مصانع بوينج لتحلق في أقصى طبقات الجو . بل هي الطائرات الهائلة التي أحدثت أعظم انقلاب في الحرب الجوية العصرية في أوروبة وافريقية حيث كانت وما زالت تنهال قنابلها الفتاكة من القبة الزرقاء ، وهي تكاد تخفى عن أبصار أعدائها وتغيب عن أسماع مراقبيها على الغبراء . فلا غرو إن عُدَّت أغرب حادث في الحرب الحاضرة الشعواء

مبلغ ارتفاعها ومقدار وسقها

المعروف أن البارجة التي تبعد عن الناظر اليها من علو ٣٠٠٠٠ قدم ، يراها مثل حجم رأس الدبوس . أما الأهداف التي تفوق ذلك البعد فان مطلق المدفع عليها من ارتفاع ستة أميال وهو العلو الذي تبلغه هذه القاذفات لا بدَّ له من كشفها بالمقراب «تليسكوب» ومع ذلك فان القلاع الطائرة تقلُّ في ذلك الارتفاع حملاً ضخماً من القنابل تفوق زنتهُ ، وسق أية طائرة من الطائرات الحربية جميعاً . وكذلك سرعتها وبعدها وسلامتها من الأخطار ، تبزُّ كل الطائرات التي تطير في جوٍّ أخفض مما تحلق فيه القلاع الطائرة حيث تعمل أعمالاً محدودة. ومن ثمة تحققت أماني المخترعين الاميركيين الذين ابتدعوا هذا الضرب من الطائرات الحربية ، وذلك في زمن كان يسخر منهم فيه الخبراء الأجانب في فنّ الطيران ، لصعود تلك الطائرات إلى الطبقات الجوية السحيقة صعوداً كان الناقدون لا يرون لهُ موجباً . ولما أتيح للقلاع الطائرة التحليق إلى ٣٠٠٠٠ قدم ، لم يقنع مخترعوها بهذا الفوز الذي لم يسبق له نظير بل ظلوا يبذلون كل ما في وسعهم في سبيل قيام هذه القاذفات الجديدة بأعمالها الناجحة أيضاً عند ما ترتفع ارتفاعاً يتفاوت بين ٣٥٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ قدم موقنين أن منطقة القتال في المستقبل سوف تبلغ أخيراً ٥٠٠٠٠ أو ٦٠٠٠٠ قدم من الارتفاع أو ١٠ أميال أو أكثر فوق سطح الأرض .

ثياب الطيارين وخوذهم

وفي مثل تلك الارتفاعات العظيمة لا بدَّ للطيارين من ارتداء ثياب غريبة وخوذ

عجيبة الشكل ، تلائم خفة ضغط الهواء هناك ثم الاستعانة بغاز الاوكسجين المخزون لديهم تسهيلاً لمواصلة تنفسهم في خلال طيرانهم وكذلك وجوب مراعاة محادثة بعضهم بعضاً بأصوات مدوية في أجهزة التليفونات اللاسلكية التي يستعملونها .

أعظم منافع التحليق للقاذفات

وعليهم أيضاً اتقان تعلم الفنون الجديدة الخاصة بالقتال في أعلى طبقات الجو لأن الطائرات ورصاص البندقيات وقنابل المدافع جميعها تؤثر تأثيرات غريبة في الهواء البارد القليل الكثافة الذي تطير فيه هاتيك القاذفات الجهنمية . ولارتفاع القلاع الطائرة في الجو ارتفاعاً شاهقاً ، فوائد حربية جمة وذلك فوق ما ينجم عنه من الاقتصاد العظيم في النفقات الخاصة بالادارة ثم السرعة الفائقة لأن قاذفة القنابل تحلق فوق أغلب الأحوال الجوية جميعها ، فتسيطر عليها حيث تصير كمصطبة تصوب منها القنابل تصويباً محكماً نحو أهدافها . وقد ثبت ان المدافع المقاومة للطائرات لا تصيب تلك القاذفات الاميركية حتى في مستوى تحليقها الحالي . ثم ان الطائرات المعادية التي تطاردها ، في الجو لا تستطيع بلوغ شأوها في الارتفاع المشار اليه ، وهي ليست كثيرة العدد .

الاحوال الجوية في الطبقة العليا

ومن جهة أخرى إن درجة الحرارة العادية في علو ٣٥٠٠٠ الف قدم هي ٦٧ تحت الصفر ، ومقدار الضغط الجوي ٣ر٤٥ رطلاً فوق كل عقدة « بوصة » مربعة . وفي ذلك الارتفاع الشامخ لا يوجد غاز أوكسيجين كافٍ لمواصلة التنفس الضروري للحياة . وهذه الظروف مجتمعة ، وما يقترن بها من شتى المتاعب التي يتجشمها الطيارون كان لا بدَّ من تذليلها قبل الاعتماد على الاستفادة الفائدة المنشودة من تحليق القلاع الطائرة الى ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم ، وكانت هذه العقدة نفسها أصعب حلاً بلا شك عند اجتياز الخطوة التالية من التحسين ، ونعني بها بلوغ ارتفاع القاذفات ٣٥٠٠٠ قدم. ومنها أن زفير الطيار يتكاثف على نوافذ طائرته فيتجمد فوق مادته الشبيهة بالزجاج . ولذلك شرع في تجربة جعل تلك النوافذ مدفأة كانت أو غير مدفأة ، مزدوجة الألواح . ثم إن ضؤولة كثافة الهواء في ذلك الارتفاع تجعل اشعال محرك الطائرة عسير الأحكام وهذا مما يفضي الى وضع جهاز الاشعال في غلاف خاص يحوي هواء مضغوطاً . وكذلك التأثيرات الكهربية في المرتفعات السامقة تحدث كهربية احتكاكية تعرقل مسير المحادثات اللاسلكية .

تأثير الاجواء

في القلاع الطائرة ومعداتها

ثم إن الهواء الشديد البرودة يحدث تقلصاً في الطائرات ، ينجم عنه تحلل الدهان الذي تدهن به بغية التعمية أو الاستتار

الحربي ، فيتساقط مثل الهبرية « قشور الرأس العالقة ببصيلات الشعر » وذلك عند هبوط الطائرة على سطح الأرض . وحينئذٍ تجف أيضاً أحذية المطاط الواقية من التجمد ، فتتقصم وتتشقق شققاً . ولذلك رُئي جعل تلك المعدات جميعها من مواد جديدة لا يحملها البرد هشة ، صوناً للطائرات ووقاية لحياة ركابها ، إذ يتجمد الشحم المحيط بالبلي في محاور الأجهزة التي في جوف الطائرة ، كما تتجمد المفاتيح المدهونة بالشحم فتقاوم قادة الطائرات ، وكذلك يتجمد الزيت المودع في الزايت المستديرة في مراوح الطائرات ، ثم تهبط بغتة الابر المركبة على ميناء ضغط الزيت الذي في المحرك ، ولو كان ذلك الضغط سويًّا . وهذه الأمور جميعها مما يربك الطيارين . أما السائل الذي في الأجهزة المائية فلا يتأثر باختلاف درجات الحرارة التي تصادفه . غير انه لا بدَّ من اختراع قواعد جديدة لتركيب أغلب الزيوت والشحوم الأخر المستعملة في الطيران المرتفع . ويجب أن تقوم الأدوات جميعها المستعملة في الطائرات بوظائفها خير قيام في أشد درجات البرد ، كما تؤديها في درجة حرارة ١٥٠ فرنهيت .

الاحتياطات الواجبة لاجهزة الطيران ووقاية الطيارين

ثم ان زيادة الضغط في الفناطيس الخاصة بالوقود ، مضافة الى استعمال الانابيب الفائقة الحجم ، أمران ضروريان . ومثلها أنابيب الوقود اذ يجب جعل ثنياتها طويلة ملساء ، بدلاً من الثنيات الحادة التي توجد حول الزوايا لأن الوقود يتحول فقاقيع فقلا للحبس البخار ، وذلك في الزوايا الحادة وتسهيلاً لحل تلك العقد ، قامت الدائرة الخاصة بالطيران والغازات وضغطها وحركتها ، في شركة بوينج للطيران في مدينة سيتل بالولايات المتحدة الاميركية باجراء تجارب في الطيران بمجموعة كاملة من الملاحين اللازمين للطيران في ارتفاع ٣٥٠٠٠ قدم لأن الأحوال الجوية في ذلك العلو الفائق تكون شاقة جدًّا فتستوجب التذرع للوقاية من ضررها ، وذلك بزيادة عدد أقنعة الاكسجين دائماً فتوضع في حجرة الطيار لتستعمل عند حلول الطوارىء أي حينما يكسر الطيار أو يلوي عرضاً الانبوب الرقيق الموصل للاكسجين الى قناعه

عوض جندي

(استدراكان)

※ جاء في مقال الخطايا العشر المنشور في مقتطف مارس الماضي ذكر العالم ألكسيس كارل فكتب خطأ فرنسيس فنعتذر عن ذلك

※ ضاق نطاق المقتطف عن نشر بقية بحث الاستاذ ادوار مرقص « الاتحاد القومي » وموعدنا به العدد القادم .

ألغاز العلم

(تابع المنشور على الصفحة ٣٠٤)

وقد عمد عالم اميركي منذ سنوات ، إلى أن يسأل نفسَهُ ومعاونيه هذا السؤال : حين يصاب نسيج حيّ بجرح ما ، تنشط الخلايا المجاورة للخلايا المصابة ، فتتكاثر تكاثراً سريعاً ولا تعود الى حياتها السوية ونموّها المقيَّد ، إلاّ بعد أن يتولّد النسيج الجديد ويندمل الجرح . فلا بدَّ أن تكون هناك مادة تسيطر على حياة الخلية وتحركها حيناً بعد حين . فاذا كشفنا هذه المادة ، وما تفعل وكيف تفعلهُ ، فعسى أن نفوز بالمفتاح الذي يفتح أغلاق مغلقات الخلية . ثم خطا هو ومساعدوه الخطوة التالية :

أحدثوا أذًى في خلايا حية ثم راقبوا ما يقع لها ويتمُّ فيها . وقد استعملوا الأشعة التي فوق البنفسجي ، وهي مفيدة إذا كانت قوتها ومقاديرها يسيرة ، وهي فتاكة إذا كانت مقاديرها وقوتها كبيرة . فذهب هذا الباحث إلى إنهُ إذا استعملها في قوة ومقدار — فوق المفيد ودون الفتاك — حدث الأذى بالقدر المطلوب .

وقضت الجماعة سنوات ، ورجالها مكبون على أنابيب الاختبار تحت مصابيح الأشعة ، والخلايا المعالجة على هذا النحو تمرُّ أمامهم — خلايا انساج أجنة الفراخ ، وخلايا السحالي والسمك وأكباد الحيوان وما أشبه . جميعها عرضت لهذه الأشعة ، وكانوا إذا ما بلغ الضرر الواقع لها من التعرض للاشعة ، مرتبة معيَّنة ، يأخذونها ويغسلونها في محلول خاص . ثم ترشح الخلايا من المحلول . فاذا كان في هذه الخلايا مادة ما تولدت فيها بفعل الضرر الذي أصابها فيجب أن تكون في هذا المحلول المعقم الخالي من الخلايا .

وقد وجدوا مادة جرَّبوها بتغطيس قطعة من نسيج جنين فرخ — لم تعرض للاشعة — في هذا المحلول فإذا نشاط عجيب في نمو الخلايا وتكاثرها .

✡

فهل أباحت الخلية سرًّا من أسرار نموّها ؟

لسنا نعلم، وليس ثمة ريب في أن هذا البحث وعشرات من قبيلهِ ، تشغل عقول العلماء. وإلى أن يسفر عن كشف يؤيده العلماء ، يجب أن نعترف ، بأن العلم لم يزل مقصراً عن فهم نموّ الخلية وتكاثرها — وبخاصة سرّ خروجها على قيود النموّ السوي .

هدية المقتطف السنوية

لسنة ١٩٤٥

سبعة كتب في كتاب

قام المقتطف في حياته التي بلغت سبعين سنة ، وإلى جانب مجلداته التي بلغت ستة ومائة مجلد ، بخدمة أدبية لا تقل عن خدماته التي أداها للعالم العربي في حياته الطويلة بمجلداته تلك ، إذ جرى على أن يهدي مشتركيه كتاباً يعوّض به احتجاب المقتطف شهرين في نهاية كل سنة . وإذا استعرضت هدايا المقتطف منذ نشأته إلى اليوم وقعت على مكتبة كاملة في التاريخ الطبيعي والفلك والارتياد والكيمياء والموسيقى والأدب والقصص . وسيضم المقتطف إلى هذه الثروة الأدبية العلمية ثروة جديدة إذ يقدم لمشتركيه عن سنة ١٩٤٥ هدية ممتازة هي الجزء الثاني من كتاب

المنتخبات

بقلم العلامة الكبير احمد لطفي السيد باشا

الذي يضطلع اليوم برياسة مجمع فؤاد الأول للغة العربية بعد أن نشأ جيلاً برمته عند ما كان رئيساً وموجهاً لجامعة فؤاد الأول . هذا إلى مآثره الأدبية الأخرى التي يضفي بها على الأدب العربي لباساً جديداً بترجمة ارسطوطاليس ، يضاف اليها فصوله الباقية التي نشرها في « الجريدة » ومنها نستخلص هذه المنتخبات .

والجزء الثاني من هذه المنتخبات سبعة كتب في كتاب : وهذه موضوعاتها :

الكتاب الاول : في التربية والتعليم

التربية والتعليم — حالة التعليم عندنا — الى القائمين بالتربية والتعليم — مذاهب التربية — المذهب العلمي للتربية والتعليم

الكتاب الثاني : الى نواب الامة

الى نواب الأمة — حريتنا — الحرية ومذاهب الحكم — الاحزاب — حقوق الكافة وسلطة التشريع — حرية التعليم — حرية القضاء — حرية الصحافة — حرية الخطابة — حرية الاجتماع — مذهب الحرية مفيد للافراد وللامة جميعاً — خاتمة

الكتاب الثالث : مشاهدات عامة

اليأس — الحال الأخلاقية — حالنا الاقتصادية — حالنا السياسية — مشاهدة بسيكولوجية .

الكتاب الرابع : في اللغة العربية

التأليف باللغة العربية — الى الأمام : في اللغة أيضاً — اللغة العربية — رقوا لغتكم .

الكتاب الخامس : البنات والابناء

أبناؤنا وبناتنا — بناتنا وأبناؤنا — البنون والبنات — الى الفتيان : الوطنية .

الكتاب السادس : في التأمل

القدوة الحسنة — الآثار القديمة — آثار الجمال وجمال الآثار — ربيع الحياة — جني القطن — أول العام — الرجل السعيد — الرجل الصريح — زهر الربيع — الصداقة

الكتاب السابع : بحوث عامة

سلطة الأمة — في سبيل الارتقاء — الحرية — تضامننا — مصريتنا — المصرية — آمالنا — التقليد — سر تطور الأمم — الحرية الشخصية — خبز السجون — من أجل ذلك نطلب الدستور — حقوق الأمة — الكفاءة الاقتصادية — النظام الاقتصادي — وفاة فتحي زغلول باشا — وداع الوزارة — تأبين أحمد فتحي زغلول باشا — الحرب .

***

هذه سبعة كتب في كتاب تصلك هدية من المقتطف في آخر السنة . وسيتم طبع هذا الكتاب الفذ في حوالي ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

وترسل الهدية الى الذين سددوا قيمة الاشتراك عن سنة ١٩٤٥ وللمشتركين الجدد عن سنة كاملة . وثمن الكتاب لغير المشتركين أربعون قرشاً مصريًّا بخلاف البريد .

فهرس الجزء الرابع

من المجلد السادس بعد المائة

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السادس بعد المائة

١ مايو سنة ١٩٤٥ — ١٩ جماد أول سنة ١٣٦٤

المشكلة الاقتصادية الكبرى

في التسوية العالمية بعد الحرب

سوف تخرج قارة اوربا ، من محنة الحرب العالمية الثانية ، وقد تصدّعت أركان حياتها الاقتصادية . فليس في التاريخ ذكر حرب خلفت وراءها من الدمار ما خلفته هذه الحرب في أوربا . فأسباب المواصلات ممزقة ، ولقد تجد الفحم وخامات الصناعة فلا تستطيع أن تنقلها إلى المصانع . وقد ترى منتجات المصانع ومقادير الطعام مكدسة فلا تستطيع أن توصلها الى المستهلكين . والمصانع نفسها أنقاض . وكذلك محطات توليد الطاقة المحركة والمضيئة والجسور ومنشآت المرافيء ، وجانب كبير من الأراضي الزراعية ، تركتها الحرب كالقفر اليباب ، والناس أنهكتهم الحرب وأجاعتهم وأمرضتهم . فتعمير أوربا أمرٌ لا مفرَّ منه منعاً للفوضى أن تعصف بشعوبها . وتعميرها يجب أن يخضع — في رأي ثقات المفكرين — لقاعدتين . أما الأولى : فأن يكون التعمير ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي والحربي ، الذي غرضه أن يحول دون قيام قوة المانيا الحربية مرة أخرى ، وأما الثانية : فأن يكون أساساً يصلح لانتعاش الحياة الاقتصادية انتعاشاً يتيح لشعوب اوربا أن ترفع مستوى معيشتها رفعاً مطرداً ، ويضمن لها رخاء العيش ورضى النفس .

والقاعدتان متلازمتان ، لا ترجح إحداها الأخرى . فان لم تحقق القاعدة الأولى لم تطمئن النفوس الى سلامتها ، ولا انتعاش اقتصادي بغير هذا الاطمئنان . وان لم تحقق الثانية ، تأصلت القوى الاجتماعية التي تنخر في جذور الحياة الدولية وتمهد للحرب .

فالضائقة الاقتصادية من ناحية ، وعدم الاطمئنان إلى أسباب العيش ، هما خير تربة تنبت فيها بذور الحرب . وسوف ينتهي احتلال المانيا العسكري يوماً ما ، ويومئذٍ يتقلد الألمان زمام أمرهم ، ولكن هذا لا يحتمل أن يتم ، ولا يقدَّر له النجاح بعد أن يتم ، إلاّ إذا قام في أوربا بناء اقتصادي سياسي ، سليم مستقر ، يستطيع الشعب الالماني ، أن ينطوي فيه انطواء رضى ومشاركة . وليس الخطر في أوربا قاصراً على خطر انبعاث القوة الألمانية وحسب ، لأنهُ إذا تعطل ملايين عن العمل ، وأخذت الضائقة بخناق الملايين من الناس ، فلا بد أن تعمد أمة ما ، أو مجموعة من الأمم إلى أن تطلب الخلاص من طريق الحرب . فناحية الانشاء في التسوية الأوربية لها من خطر الشأن ما لناحية الأمن وصونه بالقوة .

وقد انحصر جانب من البحث ، في الوسائل الاقتصادية اللازمة ، للقضاء على أصول قدرة المانيا الحربية . واختلفت المقترحات ، من تدمير الصناعة الألمانية ، إلى تجزئة المانيا في الناحية الواحدة ، الى الحد من بعض صناعاتها التي لا بدَّ منها لشن الحرب . ومعظم هذه المقترحات ، لا يقوم على أصول من الواقع المعروف ، أو المستقبل المأمول .

ففي المقترحات ، المسندة الى مورجنتاو ، وزير مالية الولايات المتحدة ، يتلخص الرأي في القضاء على المانيا من حيث هي أمة صناعية . وهذا الرأي إذا صحَّ وتمَّ ، يعني أن يزداد عدد الذين يعيشون على الزراعة في المانيا ، من خُمس الشعب الى نصفه ؛ فترجع المانيا القهقرى الى ما كانت عليه منذ قرن ، حين كان عدد سكانها نصف ما هو الآن ، ويهبط مستوى العيش فيها . وأما مقترح تجزئة المانيا ، دويلات دويلات ، فلا يشجع على الأخذ به ، ما صارت اليه الدويلات التي قامت على أنقاض دولة هبسبرج في أعقاب الحرب العالمية الاولى . وأجزاء المانيا أكثر اتكالاً وتعويلاً بعضها على بعض ، وأوثق صلة بعضها ببعض مما كانت أجزاء دولة هبسبرج . وإذا نحن بينا وجوه الضعف في هذه المقترحات ، فان ما نبينه لا يمنع في حال من الاحوال ، تنفيذ هذه الخطة أو تلك ، إذا حزم الحلفاء أمرهم وتوسلوا بالشدة اللازمة . ولكنهم اذا فعلوا فيغلب على الرأي أن الاقتصاد الأوربي يتدهور ، والخاسر في تدهوره ، ليس الشعب الألماني وحسب ، بل العالم قاطبة .

وأما المقترحات الخاصة بالقضاء على طائفة دون غيرها من الصناعات الألمانية ، فإنفاذها ليس بالأمر الميسَّر . فهي قائمة على رأي خاطئ ، مؤداهُ أن في الدولة الصناعية الكبيرة — كألمانيا — أجزاءً من نظامها الاقتصادي ، لازمة للحرب ، كصناعة أدوات الصناعة ، وكرّات المحاور والنتروجين المثبت اللازم للمتفجرات ، والزيت الصناعي والمطاط الصناعي

وغيرها ، والرأي انهُ إذا قضي على هـذه الصناعات قضاء الأبد ، فان ألمانيا تفقد قدرتها على شنّ الحرب .

وليس ثمة ريب ، في أن الدول المنتظمة في الهيئة العالمية الجديدة ، تستطيع أن تدمّر المصانع التي تخصصت في صناعة السلاح والذخيرة ، ويغلب على الظن أن هذا ضروريٌّ لكي تتاح فرصةٌ يبنى فيهـا العالمَ بناءً جديداً ، وفي مقترحات دمبرتون أوكس نصٌّ على هيئةٍ تشرف على هـذا العمل . وقد يستغرب القارىء اذا عرف أن هذه الطائفة من المصـانع الألمانية ، جزءٌ قليلٌ من الصناعة الألمانية ، وأن منزلتها في قدرة ألمانيا الحربيـة ، ليست بالمنزلة الأولى . فالأصول التي تنهض عليها قدرة أمةٍ ما على شنّ الحرب ، هي صـناعاتها الهندسية والكيميائية ، وعمالها المدرّبون الحاذقون ، ومنشآت البحث العلمي والصناعي ، وطوائف الفنيين والمديرين . وقليلٌ من كل هذا ، يدخل في نطاق المصانع المتخصصة في صنع السلاح . فالجانب الأكبر من ذخيرة الحرب ، يصنع في أثناء الحرب ، في المصانع الهندسية والكيميائية العادية ، بعد توسيع نطاقها وضمّ ألوف من الرجال والنساء إلى عمالها المدرّبين. والحرب الحديثة ، تقتضي أن يكون جانبٌ كبيرٌ مما يحتاج اليه الجيش ، مؤلفاً من سيارات وقاطرات وأجهزة لاسلكية ومسالف وجرّارات ، وهي مما يصنع في مصانع لا تعدُّ في أيام السلم مصانع حربية ، مهما يبلغ منك التطرّف في التحديد والتعريف . وأجهزة الرادار ، التي تعدّ من أهم المعدّات الحربية ، تصنع في مصانع الراديو ، وأجهزة الطائرات في مصـانع السيارات والطائرات التي تصنع للسلم .

فالقدرة الحربية تزداد صلتـها توثقاً على الأيام بالانتاج الهندسي والكيميائي في أثناء السلم ، وقد يشقُّ على الظافر في الحرب ، أن يتخيَّر من شبكة هذا الانتاج موقعاً بعينه ويحكم بالقضاء عليه . فالقضاء على قدرة ألمانيا الحربية يعني القضـاءَ على جانبٍ كبير من صناعاتها الهندسية والكيميائية . ثم الحيلولة الدائمة دون بنائها . لأنهُ إذا لم تكن الحيلولة دائمة ، فالقدرة الحربية الألمانية تنهض حين تنهض على صناعةٍ أجدَّ وأكثر اتقاناً ومسايرة لتقدم العلم وأساليب الصناعة . فالقول بوجوب تدمير أصول الصناعة الحربية الألمانية ، يقتضي أن يكون التدمير شاملاً أو دائماً لكي يكون فعّـالاً .

ولما كانت القدرة الحربيـة والانتاج الهندسي والكيميائي في زمن السلم ، يكادان يكونان شيئاً واحداً ، كانت مشكلة تعمير أوربا الاقتصـادي على قاعدتين من تقليم أظافر الالمانية الحربية وتوفير الرخاء للقارة الأوربيـة ، مشكلة معقدة . وقد كانت المانيا ، حتى قبل أن نشبت الحرب ، متفوّقة على سائر أوربا في قدرتها الصناعية . فكان المانيا لا يزيدون

على خمس سكان القارة غرب روسيا ، ومع ذلك كانوا ينتجون ٦٠ في المئة من فحم أوربا ونصف حديدها الصب وصلبها ، وأكثر من نصف ألومينومها و٤٠ في المئة من أسمدتها وثلث حمضها الكبريتيك ، وكانت لها منزلة متفوقة في إنتاج الأجهزة الكهربية ، والآلات وأدوات الصناعة والقاطرات والأجهزة العلمية والبصرية وغيرها . وما يصدق على المنتجات يصدق على المصانع والمنتجين والمديرين . وقد كانت فرنسا تنافس المانيا في صناعة السيارات، والسويد في صناعة كرات المحاور ، وسويسرا في صناعة الساعات ، ولكن دول القارة الاوربية مجتمعة لم تكن تجاري المانيا في عدد منتجاتها الهندسية والكيمائية ولا في مقدارها وكذلك أصبحت حياة أوربا الاقتصادية مرتبطة أوثق ارتباط بالمانيا ، من ناحية الاتجار معها ، ومن ناحية الجماعات الصناعية التي كان للشركات الألمانية الكبيرة ، سهم كبير فيها وكلمة عالية .

فلما نشبت الحرب وانقادت الانتصارات الحربية للجيوش الالمانية في عهدها الأول ، عمد حكام المانيا ، إلى خطة قوامها أن تصبح أوربا وحدة اقتصادية فتكون المانيا قلبها الصناعي ، وتكون سائر البلاد الأوربية مناطق زراعة وصناعة صغيرة . ولكن اتساع نطاق الهجوم الجوّي البريطاني أولاً ثم البريطاني الاميركي ، جعل تفريق الصناعات الالمانية أمراً لا مفرَّ منهُ ، فعدل حكام المانيا عن الخطة الأولى ، وجعلوا يوسعون نطاق الصناعة في شرق أوربا ، ليجعلوها بعيدة عن القاذفات الحليفة . وقد تمَّ هذا التوسيع تحت إشراف شركاتهم الصناعية الكبيرة ، مثل مصانع هرمان جورنج ، وراينمنتال، وفاربن وغيرها ، ولم تراع فيه ، الحدود الجغرافية والسياسية ، فأصبحت الصناعة الأوربية مع تفريقها وحدة كبيرة ،وكانت تصنع أجزاءً في فرنسا وأخرى في بولندة أو سلوفاكيا ، ثم تجمَّع وتبنى منها الآلات الكاملة — دبابات أو طائرات او غيرها — في مكان ما بالمانيا ، وكانت لألمانية سيطرة تامة عليها من كلّ ناحية . وكذلك تمَّت سيطرة المانيا على الصناعة الأوربية .

ومن هنا منشأ المشكلة .

ان تعمير القارة الأوربية تعميراً اقتصاديًّا ، يقتضي تياراً مستمرًّا من شتَّى المنتجات الهندسية والكيميائية ويقتضي كذلك تنظيم شؤونها الاقتصادية على نطاق أوربي ، وتطبيق أحدث وسائل الإدارة لخفض النفقات العامة ، ومنع مضاعفة الجهد . فإذا أخفق تعمير أوربا وتجديد حياتها الاقتصادية ، وانحدرت إلى وهاد التخبُّط وضعف الكفاية والمنافسة السخيفة ، صارت أوربا قرحةً كبيرة في جسم العالم الاقتصادي . ولما كانت المانيا سابقة سائر البلاد الاوربية في شؤون الصناعة وتنظيمها وتدبيرها ، فكيف يستطاع أن يتم

تعمير أوربا تعميراً اقتصادياً على القواعد التي تقدم ذكرها ، دون أن يفضي ذلك نهوض قدرة المانيا الحربية مرة أخرى وعودتها سريعاً الى السيطرة على حياة أوربا الاقتصادية .

هذه هي المشكلة الاقتصادية الكبرى في التسوية العالمية التي تلي الحرب .

***

من الواضح أن هذا التعمير ، يجعل أوربا في حاجة الى المنتجات الصناعية زمناً طويلاً . ومن الواضح كذلك أن الألمان أقدر أمم أوربا على صنع هذه المنتجات ، ولكن السماح لهم بأن يفعلوا يثير مسائل سياسية بعيدة المدى . لأنه اذا سمح لألمانيا أن توفر لأوربا هذه المنتجات ، كان من المتعذر أن تفرض على أصول القدرة الحربية الألمانية ، قيود دقيقة زمناً طويلاً ، وأن تسد على المانيا طريق العودة الى السيطرة على حياة اوربا الاقتصادية . والأمران كلاهما — نهوض قدرتها الحربية ، وسيطرتها على الاقتصاد الاوربي — من الأمور التي يريد الحلفاء أن يمنعوها منعاً باتاً . ومعظم الذين كتبوا في هذا الموضوع يتجاهلون هذه المشكلة ، ويقترحون مقترحات شتى للقضاء على الصناعة الألمانية مع أن هذا القضاء لا يفضي الى الفاقة في المانيا وحسب ، بل الى الفاقة في أوربا أيضاً . وإذن فلا مفر من البحث عن حل آخر يقيم الوزن الكافي للحقائق الاقتصادية دون أن ينطوي على لين وعطف في معاملة الألمان .

وقد عرضت جريدة التيمس رأياً في هذا الصدد . فهي تقترح أن تعان دول أوربا الأخرى ، على رفع قدرتها الصناعية والفنية ، فيفضي ذلك إلى لون من الاستقرار في حياة أوربا الاقتصادية ويغري بالتعاون ، ويمهد لرفع مستوى العيش في القارة كلها . وهو في الوقت نفسه موائم للضرورات الحربية . فالاعتراض على تدمير الصناعة الألمانية ، يرجع إلى أن معظم الصناعات في زمن السلم هي أساس للصناعة الحربية في زمن الحرب . فتدميرها يفقر المانيا وأوربا ، ويعوق تعمير أوربا الاقتصادي ويجعل شعوب أوربا في حدود الفاقة . وبقاؤها يحفظ الأصول التي يمكن أن تنبعث منها قدرة المانيا الحربية مرة أخرى . وإذن فيحسن أن تعزز الصناعات في سائر بلاد القارة ، حتى تكون من ناحية أساساً للتعمير ورفع مستوى العيش ، ومن ناحية أخرى قواعد للقدرة الحربية توازن قدرة ألمانيا إن لزم الأمر . ولو كانت بولندة ودول الاتفاق الصغير ، تنتج اثني عشر مليوناً من الصلب ، في سنة ١٩٣٨ بدلاً من أربعة ملايين وحسب ، فلربما كان الألمان راجعوا أنفسهم مراراً قبل إقدامهم على أعمال الاعتداء .

ولذلك تقترح التيمس ، أن تجري الدول المتحدة ، في مواجهة هذه المشكلة ، على خطة ذات شعبتين . أما الأولى : فنزع سلاح المانيا نزعاً دائماً ، ويدخل في هذا القضاء على طائفة

الصناعات المتخصصة في الانتاج الحربي، كالزيت الصناعي والطائرات الحربية والمدافع والدبابات والصواريخ وكرّات المحاور وما أشبه، وأن تكون الرقابة الحليفة بالغة الدقة في تنفيذ هذا.
وأما الثانية: فبذل العون لدول أوربا الغربية والجنوبية والجنوبية الشرقية، لتعزيز قدرتها الصناعية. فهذه الدول تملك من اليد العاملة، ما يكفل لها إن عززت صناعتها واستطاعت أن تتماسك تماسكاً سياسيًّا، أن تمنع قيام خطر المانيا الحربية، ولو سمح لالمانيا بأن تحتفظ بصناعتها الهندسية والكيميائية لكي تعين الشعب الألماني على العيش ولكي تساهم في بناء أوربا الصناعي.

إن تعزيز القدرة الصناعية زمن السلم في دول أوربا التي لم تبلغ مبلغاً يذكر من التقدم الصناعي، يضمن أن يكون التعمير الاقتصادي ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي الحربيّ في أوربا بعد الحرب، وأساساً يصلح لانتعاش الحياة الاقتصادية، في أوربا وتوسيع نطاقها ورفع مستوى معيشتها، حتى لا يكون الفقر والعوز فيها والتعطل عن العمل تربةً تنبت فيها بذور الحرب.

ولكن تعزيز القدرة الصناعية في الدول الأوربية غير الألمانية، يطوي في ثناياه خطراً عظيماً، ذلك بأن الألمان قد يحسنون العمل السياسي والاقتصادي فينشئون صلة وثيقة بينهم وبين هذه الشعوب، بما يحتمل أن يكون لهم من شأن في تعمير هذه الدول، فيفيق العالم ذات صباح ليرى المانيا، مسيطرةً على دول، بذل العالم ما بذل في تعزيز قدرتها الصناعية، فتكون الطامّة أعظم يومئذٍ. ولاتقاء هذا الخطر، لا بدَّ في نظر التيمس من أمرين أما الأول: فأن تشارك بريطانيا والولايات المتحدة في هذا التعمير، عن طريق البنك الدولي للتعمير والتحسين، فتكون المانيا إحدى الدول الصناعية وحسب التي تشارك في هذا التعمير. وأما الثاني: فأن تبقى بريطانيا والولايات المتحدة وروسيا على يقظة وحذر دائمين. واذا جعلت مشروعات التعمير، جزءًا من خطة اقتصادية حربية منسّقة تتخذها الدول المتحدة، كان اجتناب هذا الخطر أيسر.

ولكن «اليسر» ليس مطلق المعنى. فاليسر، يقتضي تعاوناً طويل الأمد في مراقبة المانيا والدول التي يُبذل لها العون، فاذا كان ذلك مستطاعاً فهذه الخطة أهدى إلى حلّ هذه المشكلة المعقدة، من مجرَّد القضاء على قدرة المانيا الصناعية، لأن في هذا القضاء نقضاً لما تتوخاه الدول المتحدة، ولما يقضي به العقل، من تجديد حياة أوربا الاقتصادية وتوسيع نطاقها وتوفير الأسباب التي تضمن لشعوبها الأمن من الفاقة.

فؤاد صروف

الخبز

الخبز عماد الحياة لو صنعناه من القمحة كاملة كما أراده الله سبحانه ، ألف لنا غذاء مفيداً نافعاً.

ومطحون القمح بجميع أجزائه يتكون من الدقيق الأبيض ومن النخالة ، وهذه تتركب من دقائق خشنة صفراء اللون ، هي أغلفة القمح ، ومن دقائق أخرى دهنية الملمس مائلة الى الصفرة الشاحبة وهذه هي أجنة الحبوب .

والدقيق الأبيض لا يحتوي إلا على مادة نشوية نقية تتركب من الكربون والايدروجين والاوكسجين .

وأما النخالة فهي تتركب من الفيتامينات وبعض المركبات الهلامية الغرائية والفسفور والحديد والكلسيوم والسليكون واليود والنتروجين والكبريت والبوتاسيوم والمنجنيز .

وأنت اذا عرفت أن الفيتامينات تقيك شر الاصابة بأمراض عديدة مختلفة ، وان الفسفور يقوي أعصابك ، والحديد يمنع فقر الدم ، والكلسيوم يقوي العظام ، والأسنان والغضاريف ، ويحافظ على قلوية الدم ، والسليكون يمنع الصلع وسقوط الشعر ، واليود يغذي الغدد ، والنتروجين والكبريت ينميان الأنسجة ، والبوتاسيوم والمنجنيز من العناصر اللازمة لعمليات الجسم ووظائفه البيولوجية والفسيولوجية ، إذا عرفت كل هذا تألمت كثيراً من أن المدنية قدمت لك خبزها المصنوع من الدقيق الأبيض النقي الخالص غذاء تافهاً ، وفي الوقت نفسه سلبتك كل هذه العناصر الغذائية النافعة .

والنخالة التي نعاف أن نكمل بها دقيق خبزنا والتي نرميها للدواب والماشية ، كان يقول النبي صلوات الله عليه لكل من أتاه مريضاً « عليك بالبغيض النافع » وهذا البغيض النافع ما هو إلا نخالة مخلوطة بعسل النحل .

ومن خصائص نخالة القمح ان لها قدرة على امتصاص كميات كبيرة من الماء فتمنع تيبس الكتلة الغذائية في أثناء مرورها في الأمعاء ، وتساعد على انزلاق البراز الى الخارج فلا يحدث الامساك الذي يتسبب عادة من تناول الخبز المصنوع من الدقيق الابيض النقي .

ويتبين مما تقدم أن الخبز الكامل المصنوع من القمح بنخالته من سن وردة وغيرها يحوي جميع العناصر الغذائية الضرورية لحفظ صحة الانسان من الامراض التي تتسبب عن نقص الفيتامينات — ومن أمراض الاسنان والامساك والاملاح والروماتزم والبول السكري وفقر الدم .

لذلك لا تشغل بالك أن الحرب قد فرضت أكل خبز قريب بعض الشيء من الخبز الكامل — بل عود نفسك من الآن أكل الخبز الكامل في أيام الحرب والسلم معاً .

واعلم أن الخبز الابيض آفة المدنية وان الخبز الاسمر الكامل رسول الصحة .

وإذا أكلت الخبز فامضغه جيداً حتى يصير كالماء في فمك ، ومعنى هذا إنه قد اختلط بأكبر كمية ممكنة من اللعاب الذي يهضم المادة النشوية الموجودة بالخبز .

وكل الخبز مرة واحدة في اليوم ولا تأكله مع المواد البروتينية كاللحمة والفول وانما كله مع المواد الدهنية كالزبد أو المواد السكرية كالعسل الأسود وكله أيضاً مع الخضروات على اختلاف أنواعها مطبوخة أو غير مطبوخة كالسلاطة مثلا .

وأحسن الخبز ما كان مقدداً لأن نشاه يتحول الى مادة تسمى « ديكسترين » وهذه أسهل هضماً من النشا .

ان الخبز الذي أزاحت لك عنه غيوم المدنية الكاذبة هو الخبز الأول الهام الذي يحفظ عليك صحتك . صمم من بعد قراءة هذه السطور القليلة المتواضعة أن يكون الخبز الكامل رغيفك اليومي .

فهمي عطا الله

اذا ..

للشاعر الانكليزي الكبير رديارد كبلنج

« في عدد قديم من المقتطف الاغر قرأت الترجمة النثرية لهذه القصيدة وقد حاولت إذ ذاك أن أنظمها شعراً عربياً ، فكانت هذه الابيات »

إذا استطعت ـ دواماً ـ أن تكون على ... رباطة الجأش ، حين الكل يضطربُ
وكنتَ ذا ثقةٍ بالنفس تملؤها ... عزماً ، على حين تجري حولك الريبُ
وكنتَ تطمحُ .. لكن ليس يجعلك الـ ... ـطموح عبداً لنأيٍ منه تنتحبُ
وكنت تمعن في الأفكار تجعلها ... لا غايةً لنجاح ، بل هي السببُ !
وكنت تقدر في فوزٍ وفي فشلٍ ... بأن يجدد منك السعي والدأب
وكنت لست الذي يخشى مخاطرةً ... بكل أمرٍ إذا ما استوجب الطلبُ
وكنت تقدم للأهوال معتقداً ... أن التفوق بالاقدام يكتسبُ
وكنت فرداً وديعاً في كياسته ... مماشياً كل قوم بالذي يجب ...
لدى الجماهير لا تأبى مسايرةً ... مع التحفظ كي لا يعكس الأرب
وفي مصاحبة (الأقيال) ذا أدبٍ ... لا يستخفك اسفافٌ ولا لعبُ
وكنتَ لستَ بهيّابٍ ولا وجلٍ ... وليس يثنيه عن غاياته تعبُ
تأبى البطالة إحساساً بذلتها ... وتملأ الوقت فعلاً منك يُرتقبُ
إذا استطعت لهذا ... يا ابن بجدته ... فليس تعوزك المصقولة القضُبُ
فأنت أنت الفتى السامي بعزته ... فوق السماك اليه ترمق الشهبُ
وأنت أنت الذي تأتي الحياة له ... بكل ما يتمنى السادة النجبُ
لك التفوق في الأحياء قاطبةً ... ، لك النجاح ، لك العلياء والحسبُ

مكة : محمد سعيد العامودي



عالم المجهول

كما ان الشبح المنعكس من عدسة زجاجية على حائط ليس سوى صورة مكبرة من ذلك الشبح الكائن في العدسة ، كذلك النظريات الخاصة بهذا العالم ، ليست سوى صور مكبرة من نظريات العقل الانساني ، تسبك عادة على نماذج تستمد من تجاريبنا الذاتية كروزيار

لا نشك في اننا اذا انكرنا العالم المجهول ، نكون قد بعدنا جهد البعد عن أسلوب العلم نفسه . فان العلم لم يحط بكل شيء ، وميدانه محدود بالظاهرات المحسوسة دون الماهيات . فعالم الماهيات برمته عالم مجهول ، ولا يدعي العلم ان في مستطاعه ان يكشف سر الماهيات بطرقه المعروفة . وما دام العلم قاصراً عن ذلك ، فان من الطبيعي عند الذين يعرفون حدود العلم ، ويؤمنون بقصوره عن ادراك الماهيات، وحتى عن تعليل جميع الظاهرات ،أن يعترفوا بأن أشياء العالم المجهول لا ينبغي ان ترفض لأول وهلة، لأن العلم لا يتناولها بأسلوبه ، أو لأنها بعيدة عن أسلوب العلم .

ان نزعة العلم — Science — وطريقته ووجهة نظره ، وعلى الجملة كل ما يقع تحت مفهوم العلم من أشياء العقل البشري ، شيء حادث من مكتشفات الأعصر الحديثة . بل اننا لا نبالغ اذا قلنا مع القائلين بأن تحديد طريقة العلم ووضعها على قواعد خاصة ثابتة ،كان أبلغ أثراً وأعمق فائدة للانسان من أعظم المستكشفات الحديثة جميعاً ، اذ باستكشافها ، لم تعد قضايا العقل الانساني وكفاياته ، تتخالط ذلك التخالط الذي ظهر جلياً واضحاً في صفحات التاريخ طوال العصور الأولى .

مما لا مشاحة فيه ان جنوح العقل الى التساؤل عن حقيقة الأشياء ومصادرها ، وحوادث الكون وظاهرات الطبيعة ، كان في الواقع أول الضرورات الجوهرية التي أفضت بالانسان منذ أبعد العصور الى البحث وراء الحقيقة . فالانسان الأول عندما نزع به الفكر الى تصوير نظرياته الروحانية التي كان يعلل بها حقائق هذا الوجود ، لم يضع البزرة الأولى للدين وحده ، بل غرس مبادىء العلم وقضايا الفلسفة .

فالأساطير والخرافات ، قد تضمنت من العلم بزوراً ، كما حوت من الدين مبادىء . غير

ان العلم قد احتاج الى عصور متطاولة وموغلة في القدم، حتى أصبح له وجود مستقلٌ بذاته. فان نزعة العقل الى البحث ، ان كانت قد صورت منذ القدم مختلف صور الاديان ونظمت مبادىء الفلسفة الأولية ، فان العلم لم ينفصل عن الفلسفة ولم تفرق كفايات العقل بين قضايا الفلسفة ومبادىء العلم ونظرياته ، الاّ منذ عهد قريب .

إن كل الباحثين في تاريخ الفكر الانساني يعتقدون بحق ان فرنسيس باكون أول من وضع للعلم حدوداً فصلته عن الفلسفة . وذيوع « منطقه الحديث » يعد أول عهد العلم بالوجود المستقل . أما ما ندعوه اليوم « الاستكشاف العلمي » الراجع الى العكوف على درس الطبيعة ، فقد أدى بباكون الى القول بأن الطريقة المثلى التي يجب ان نمضي عليها في حل مشكلات الحياة ومسائلها ، هي الطريقة العملية المعارضة للطريقة الفلسفية ، التي ذاعت في القرون الوسطى ، وكانت تعمد الى المناقشات الكلامية ، والعلم الضروري .

ان من أخص ما نحتاج اليه في هذا الموطن أن نظهر الفرق بين نزعة العلم ونزعة الدين والفلسفة . أما الدين والفلسفة فنزعتهما ذاتية Subjective محدودة ، في انها تنسب ، أو تحاول ان تنسب ، قيمة ذاتية خاصة لحادثات الحياة وظواهرها ، وهي في أهم وجوهها عبارة عن معرفة الوجود بشكل عام مطلق مستمد من الرغبات والضرورات الراجعة الى الشعور أو الوعي الكامن ، والى روح الانسان اذ ترتد الى النظر في حياتها الداخلية أكثر من نظرها في عالم الطبيعة الخارجي . أما نزعة العلم فيقرر العلماء بأنها غير ذاتية ، بل موضوعية Objective عامة . والعلم ان كان في حقيقة وجوده ومرجعه ، وبحكم العقل الانساني ازاء الكون ، ذاتي كالدين والفلسفة ، الاّ ان موضوعية العلم تنحصر في انه ينظر في عالم الطبيعة الخارجي ، أكثر من نظره في طبيعة الروح المستترة المختفية وراء الظواهر المرئية .

يصل الدين كما تصل الفلسفة الى العالم المنظور مزودان بمطالب يحاولان من طريقها ان يخلقا جوًّا ملاءماً لمجموعة من الرغبات والانفعالات الخاصة . أما العلم فيظهر خلوًّا من كل شيء ولا يصل الى العالم، الاّ ليعرف الكون من طريق النظر في طبيعته . يترك العلم الطبيعة حرة في أن تلقي في روع كل بشر سرها ورواياتها بلغتها الخفية . أما الدين والفلسفة فلا ترضيان للطبيعة أن تتكلم بلغتها ، فيضعان لها لغة ، وينتحيان لها أسلوباً من البلاغة مخالفاً لبلاغتها ، يرجع في كل الحالات الى استيفاء أغراضه الأولية ، لا الى الترجمة عن حقائق الكون كما تريد الطبيعة ان تلقيها في روعنا .

ولعلهُ يكفينا في هذا البحث أن نعرف مما سبق القول فيه اننا لا نقصد بالعلم إلاّ كل ما خرج عن حيز الآداب والفن والدين والفلسفة . بحيث يكون ذا قواعد راهنة لا يتشابها

التغيير والتبديل . ولا شك عندي ان من أعظم ما كشف للعقل عنه في الأعصر الحديثة ، لا طريقة العلم ، ولكن تيقّن أهل العلم بأن للعلم حدوداً يقف عندها . فان هذا الكشف قد جعل العلم يترك ادعاءه بحق التفرد بالوجود والتسلط وحده على كفايات العقل البشري ، إذ بان لأهله أن وظيفة العلم تنحصر في « وصف » حقائق الكون . لأن العلم يتناول معرفة الظاهرات وآثارها وعلاقة بعضها ببعض ، وان وظيفته بعيدة عن « تفسير » الماهيات . بذلك نامت عاصفة العلم وانتصرت الطبيعة البشرية على نزعات الوهم التي سادتها زمناً ، وتحددت المعارف الانسانية بحسب كفايات العقل ، فترك للدين والفلسفة سلطانهما ، وحُدّد للعلم حيزه .

ولكنّ هنالك بعضاً من الذين لم يهتدوا بعد إلى تحديد كفايات العقل ، مَنْ يزالون ينكرون بأن هذه العاصفة ، عاصفة العلم ، قد نامت ، ولا يزالون يريدون أن يخضعوا طبيعة العقل إلى ناحية واحدة ، ناحية العلم الموضوعية ، مستبدّين غير محرَّرين من فورة القول بأن العلم هو الجدير وحده بأن يتبنّاه العقل .

أما هؤلاء فينكرون « العالم المجهول » ويقولون لا « مجهول » في عالم العلم ولا في عالم العقل . وهؤلاء نضع أمامهم ست مسائل من مئات المسائل ، ونتحداهم أن يثبتوا لنا انها لا تدخل في عالم المجهول، وان العلم يمكنهُ أن يفسرها بطرقه المعروفة فاذا استطاعوا فليس هنالك عالم مجهول ، وإذا عجزوا ، كان اعترافهم بالعجز ، اعترافاً بأن عالم المجهول أرحب وأوسع من عالم المعلوم ، واستتبع ذلك الاعتراف بحقيقة أخرى هي ان كل خطوة يخطوها العلم نحو معرفة شيء من عالم المجهول، إن ضيقت شيئاً مّا من أفق الجهل، فانها تزيد كثيراً من آفاق المجهولات .

١ — المسألة الأولى : الاعتقاد بوجود عالم خارج عن حيزك .

خذ مثلاً النكأة التي تكتب عليها . كيف تعرف أنها خارجة عن حيزك ؟ إذا نظرت اليها أو لمستها أو وقعت تحت حسك بحال من الأحوال ، فكل ما في مستطاعك أن تعرف منها ليس سوى مدركات حواس مختلفة موجودة فيك ، وليست خارجة عن حيزك . لا في لونها أو صورتها ، بل أيضاً في صلابتها وقوتها . والدليل على ذلك أن فقد أعصاب البصر يمنع عليك أن تراها . وان فقد أعصاب اللمس يمنع عليك أن تحس بها . وان فقد الحواس جميعها يمنع عليك أن تدرك أن لها وجوداً البتة . ذلك في حين انه وان لم يكن في مستطاعك أن تعرف من وجود تلك النكأة « علميّا » إلاّ إحساسات كائنة في حيزك ، إلاّ أن تركيب عقلك قد وضع على نظام يحملك على الاعتقاد بأنها كائنة في حيز خارج عنك . فاذا اعتقدت

بما يخالف ذلك ، وأخذت تؤدي عملك بما يوحي اليك به اعتقادك هذا ، كان ذلك دليلاً على ان ميزان العقل قد اختلّ وتفككت ألفته .

٢ — المسألة الثانيـة : وجود ذلك الشيء الذي ندعوه العقل في ذوات من البشر غير ذواتنا .

كيف أستطيع أن أعرف أن صـديقي الذي يماشيني يحوز شيئاً يقال له العقل ؟ اني لا أستطيع أن أراه أو أحس به أو أتناوله بتجربة اتخذ مجهر الطبيب أو مشرط الجراح أو مجهزات الكيماوي ، أداة لها . فاذا كان معتقدي في عقل صاحبي يعود إلى مقدار ما أستطيع أن أعرف منهُ علميًّا ، لما استطعت أن أعتقد في وجوده مطلقاً ، لأن مفخرة العلم ادعاؤه بأن كل مستنتجاته من المستطاع أن توضع تحت حكم الحواس . فان وجود العقل في صاحبي كوجود « واجب الوجود » : كلاهما اعتقاد إلزامي . إننا لا نستطيع أن نعرفه من طريق العلم ، وفي الوقت ذاته ملزمون بالاعتقاد به ، كأحد الفروض الضرورية الجوهرية التي يقوم عليها أكبر جزء من معرفتنا .

٣ — المسألة الثالثة : الاعتقاد في تفوق العقل على المادة ، والشجاعة على حب الملذات .

كيف ندرك أن العقل متفوق على المادة ، وان العواطف العقلية أزكى طبيعة من العواطف الحسية أو حب الذات ؟ كيف ندرك ان الشجاعة وكرم الأخلاق وتضـحية النفس ، أصفى طبيعة من حب الملاذ والخشونة والحسيات بضروبها ؟ ان خلايا المخ التي تنشأ من نشاطها وحركتها تلك الانفعالات والخصائص المختلفة ، كلها تماثل المـادة ، ولا تدرك ، كالمادة ، شيئاً من هذه الانفعالات ونعرف من جهة أخرى ، وبقدر ما يسمح لنا بهِ العلم الطبيعي ، ان هذه الخلايا متشابهة في المرتبة والقدر . ومع كل هذا نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بأن هنالك فرقاً في المرتبة واقعاً بين الانفعالات المتشاكلة ، ولولا هذا الاعتقاد لأصبحت العلوم والمجادلات الأدبية برمتها سخرية وتضليل . وهنالك تتعطل المصالح العظمى في حياة الانسان ، كالتفريق بين درجات الفضيلة والرذيلة ، والمدح والذم ، والشرف والاسفاف ، أو انها تصبح على الأقل أشياء غير واقعة أو مضادة للبديهة .

٤ — المسألة الرابعة : الاعتقاد في بقاء القوة . أي حقيقة أن كمية القوة الموجودة في الكون ثابتة لا تزيد ولا تنقص .

يقول العلامة هربرت سبنسر ، كبير مفكري العلماء في القرن الماضي ، إن هذا الاعتقاد أساس كل العلوم الحديثة ، وانه النبع الخفي الذي تستمد منه كل النواميس الطبيعية . يقول سبنسر إن كل النواميس الطبيعية الأخرى ليست سوى توابع تعود إلى هـذه الحقيقة

العظمى . وكل الاستنتاج العلمي « يفرض » ان القوة ثابتة ؛ لأنها إذا لم تكن كذلك ، أصبحت أدوات قياس الأبعاد ، التي هي في ذاتها عبارة عن قياس القوة الجاذبة ، وكل أدواتنا الأخرى التي نحقق بها استنتاجاتنا العلمية ، متغايرة بين يوم وآخر ، أو بين ساعة وأخرى ، وبذلك تصبح كل المعارف الطبيعية غير ممكنة . لذلك كان مبدأ بقاء القوة ، ولو لم نستطع أن نثبته علميًّا ، اعتقاداً إلزاميًّا . والعلامة « سبنسر » يعتقد أن هذا الفرض ، وان كان أساس العلم ، إلاّ أن العلم يعجز عن إدراكه . وهذا مثال حق يثبت قاعدة ان كثيراً مما لا يمكن أن يدركه العلم الطبيعي ، يجب أن يعتقد في وجوده . إذ لولا هذا الأمر ، لتحلّل ذلك الهيكل النظامي الذي ترتكز عليه معرفتنا .

٥ — المسألة الخامسة : الاعتقاد في أن المادة توجد بوجود قوّتى الجذب والدفع .

وهذه مسألة أخرى تحقق لدينا أن من الحقائق ما لا يفقهه العلم ، مع استحالة عدم الاعتقاد به .

أما ان قوتي الجذب والدفع حقيقة طبيعية ، فذلك ما لا سبيل إلى إدحاضه . فاننا إذا أخذنا جسما وأردنا أن نفصل بعض أجزائه عن بعض فانهُ يقاوم مجهودنا . وكذلك يقاومنا إذا أردنا أن نضغط أجزاءه ، مثبتاً بذلك انه إنما يتركب من دقائق تتجاذب وتتدافع في آن واحد . وإلى هذه الحقيقة تعود ظاهرة التفاعل وعدم التفاعل في العلم الطبيعي ، بل وفي أجزاء الطبيعة برمتها . ومع كل هذا فان هذه الحقيقة تعدو الادراك العلمي في تعليل كيف ان دقيقة واحدة تجذب أخرى في حين انها تدفعها وتقاومها .

وفي ذلك يقول « سبنسر » — « إننا لا نستطيع أن نأتي بقطعة من المادة يظهر فيها أن جزءاً يجذب آخر في حين انه يدفعهُ . ومع هذا ، فان الاعتقاد بذلك الزامي ضروري »

٦ — المسألة السادسة : الاعتقاد في السببية العلمية .

وهو عبارة عن الاعتقاد في إن كل نتيجة لا بد لها من سبب يناظرها في القيمة . وهو اعتقاد في حقيقة نساق الى اليقين بها ، ولا يمكن معرفتها من طريق علمي .

ليس في تتابع وقوع الظاهرات ما يسوقنا إلى الاعتقاد باتصالها اتصال العلة بالمعلول . وكل ما في مستطاعنا ان نرى ان هنالك سلسلة من سوابق ولواحق . ومع ذلك نجد أنفسنا مسوقين الى الاعتقاد بتلك الحلقات غير المرئية من السببيات التي ترابط بعض الأشياء ببعض ؛ ذلك الاعتقاد الذي يحفظ علينا ألفة العقل ونظامه . والسبب في ان حقيقة السببية العلمية لا تقتدر على الوصول الى الكشف عن ماهيتها ، راجع الى انها ليست غير مظهر من مظاهر بقاء القوة . وما دام بقاء القوة لا يمكن معرفته من طريق العلم ، فيتبع ذلك ان يمتنع على العلم

معرفة ماهية السببية . فاننا عند ما نقول إن نتيجة مَّا يجب ان يكون لها سبب ، فانما ننسى ان القوة التي يتكوَّن منها ذلك السبب لا بد من ان تكون قد استمدت من ناحية اخرى، أي ان لها سبباً عنه حدثت . فان نتيجة ما مثلاً قد تقع تحت حسنا، وقد نمثل لها بعدد أربعة، فاننا حينذاك نعتقد أيضاً ان اثنين واثنين او ثلاثة وواحداً ، لا بد من أن تتقدم وجودها . أما الاعتقاد بأن الاربعة يمكن وجودها من غير وجود اثنين واثنين أو ما يساويهما وجوداً سابقاً على الاربعة ، فاعتقاد بأن القوة قد حدثت بعد العدم ، وفي ذلك نكران لحقيقة بقاء القوة .

بذلك نرى ان القواعد الأولية التي تقوم عليها مدركاتنا ومعارفنا المنظومة ، يجب ان يعتقد بها ولو لم يكن في مستطاع العلم أن يعرفها .

أليست هذه عوالم مجهولة ، يعترف بها العلم ؟

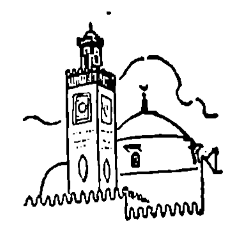
اسماعيل مظهر

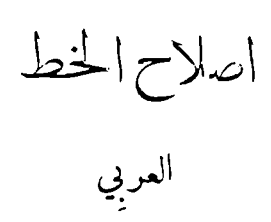
عن جزر ألوشيان

لأهل جزر الوشيان عادة في الزواج من أعجب ما يروي الاجتماعيون . فللرجل منهم حق التزوج من عدد من النساء بقدر ما يستطيع أن يكفل بالصيد . وللمرأة حق التزوج من عدد من الرجال بقدر ما تستطيع أن تخدم منهم في بيتها . والزوجات يؤخذن بالاسر أو بالشراء من الآباء . فاذا أسرت زوجة أو اشتريت أبق بها زوجها ، أي هرب بها واختفى عن الاعين ، تشبهاً بعادة جرى عليها انسان الكهوف منذ أزمان موغلة في القدم .

فاذا تزوج رجل من امرأة عمل جهده في أن يضم الى حريمه معها كل أخواتها الصغيرات وبنات عمومتها وخئولتها . وعلى العكس من ذلك ، فان امرأة متزوجة من رجل ما ، تصبح بحكم العادة زوجاً لاخوة بعلها وأبناء عمومته وخئولته أيضاً .

وعقاب الاولاد نادر . وصنف العقاب الشائع عندهم ، هو ذلك الصنف الشائع بين الاسكيمو عامة . فان الطفل اذا لج في البكاء والصخب ، عمدت أمه الى الماء فغطته فيه . فاذا كان الفصل شتاء ، غمرته في فجوة بين الثلوج ، فاذا احتواه الماء البارد المقرور فعل فيه ما يفعل السحر ، فكف عن البكاء وهدأت أعصابه .





— ٣ —

(ج) كتابة الهمزة

كتابة الهمزة من المعضلات الاملائية التي لا ضرورة لوجودها في اللغة العربية . فأنت قلما ترى بين عامة الناس الذين يحسنون القراءة والكتابة ، بل بين الكثيرين ممن بلغوا شأواً بعيداً في تعلم اللغة العربية ، من يتقن كتابة الهمزة دون ما خطأ لكثرة تعقد قواعدها . وقد يجد المدقق في هذه القواعد شيئاً من المنطق والتناسق كعادة قواعد الصرف والنحو العربيين . ولكن يجد أيضاً الهمزة هي في الناحية الصوتية صوت حلقي بسيط ولكنها من ناحية الكتابة مضطربة لا تستقر على حال . فهي كالطفل اليتيم الذي لا مأوى له ولا محل يطمئن اليه ، تكتب وحدها تارة ، وعلى الياء طوراً ، وعلى الواو آونة ، وعلى الألف حيناً . ثم هي على الألف في أول الكلمة قد تكتب فوقها أو تحتها . ولعلَّ شيئاً من التحليل لخصائص الهمزة ومقابلتها بالحروف الأخرى وبالصوت نفسه باللغات الاوربية يهدينا الى حل لمعضلة الهمزة، ينسجم مع ما نتوخاه من تبسيط الكتابة العربية وتيسيرها.

ان الهمزة في اللغات الاوربية لا ترد عادة الا في أول الكلمة عندما تبتدىء الكلمة بحرف علة . فاذا جاء حرف العلة في وسط الكلمة كان حرف مد ولم يلفظ همزة البتة . فحرف (e) في كلمة election يلفظ همزة في أول الكلمة ولكنه في وسطها حرف علة بحت ، أي حرف مد ، ولا تلفظ الهمزة في وسط الكلمة الا إذا كانت الكلمة مركبة مثل قولنا reelection ، maladministration وغيرها من الكلمات المماثلة التي تبتدىء الكلمة الثانية منها بحرف علة . وهي الى هذا يخفض فيها لفظ الهمزة في الوسط فتلفظ لينة في الغالب قريبة من لفظ حرف العلة . فالهمزة في اللغات الاوربية اذاً هي حرف علة يلفظ همزة في ابتداء الكلمة بحكم الضرورة .

أما الهمزة في اللغة العربية فلا يقتصر ورودها والالفظ بها في أول الكلمة ، بل هي كثيرة الورود جدًّا في وسط الكلمة وآخرها . فهي في العربية أقرب الى كونها حرفاً صحيحاً من كونها حرف علة . يدلك على ذلك انها تقبل الحركات جميعها من ضم وفتح وكسر وسكون وتنوين ثقيل أي علامة الشدة، كما تقبلها الحروف الصحيحة فنقول : أُميمة ، سأل، سُئِل، رأفة ، شيءٌ ، ترأّف . وهي تسبق أحرف العلة كما تسبقها الحروف الصحيحة فنقول : آمنَ (أ امنَ) ، إيمان ، مسؤول . على ان خاصية واحدة من خصائص الهمزة تجعلها شبيهة بحروف العلة في بعض الأحيان، فانها إن جاءت في وسط الكلمة مسكنة بعد ضم أو فتح أو كسر جاز في بعض الأحايين قلبها واواً أو الفاً أو ياءً . فلك أن تقول سؤددٌ وسوددٌ ، شأن أو شان ، سائل أو سايل وان كانت هذه الأحوال قليلة بالنسبة إلى الأحوال التي تلفظ فيها الهمزة مقطوعة صريحة ومما يقرِّب الهمزة من حروف العلة حذفها في اللفظ عندما ترد همزة وصل في أول الكلمة كأن تقول في « احتمال وبانقسام » .

والحق انها هنا ليست همزة حقيقية، بل صوتاً اقتضته ضرورة النطق بحرف العلة في أول الكلمة ، فاذا اتصل بما قبله حذف .

إن هذا التحليل يمهد لنا السبيل إلى ايجاد حل لمشكلة كتابة الهمزة . إن الأقدمين اعتبروا الهمزة أقرب إلى حروف العلة ولذلك اصطلحوا على كتابتها على أحرف العلة الثلاثة أو كتبوها وحدها ، وهم بذلك خلقوا لنا معضلة كتابة الهمزة وقواعدها المعقدة . ونحن نزعم ان الهمزة ليست حرف علة ، بل هي أقرب إلى أن تكون حرفاً صحيحاً . وهي كحرف صحيح ، يجب أن يكون لها رمز واحد ثابت ، كما لسائر الحروف الصحيحة . ونقترح لذلك أن توضع الهمزة على كرسي الياء فتكتب دائماً هكذا (ئـ) [1] أينما وجدت في وسط الكلمة وآخرها وتوضع عليها الحركات كما توضع على سائر الحروف الصحيحة . أما في أول الكلمة فنرى ابقاء كتابتها على الألف لأنها الطريقة المألوفة ولا صعوبة فيها ، ولأن أغلب الهمزات في أول الكلمة هي همزات وصل تحذف في النطق عند الاتصال بما قبلها فلا يبقى إلاّ الألف . وفي الرسم (٤) بعض كلمات مهموزة كتبت على هذه الطريقة مع وضع الشكل عليها عند الاقتضاء .

....

(١) اقترح علي أستاذي الفاضل أنيس الخوري المقدسي أستاذ اللغة العربية وآدابها في الجامعة الاميركية في بيروت بعد قراءته هذا المقال، أن تكتب الهمزة على الالف في أول الكلمة ، وعلى كرسي الهاء في وسطها ، ووحدها في آخر الكلمة

الوادي أمين إيمان الإيماد مُؤمِد مَؤمَد سُؤال وِئام رئبال

عمائم سَيِّدٌ شيدٌ عِبْءٌ سائد رجاءٌ تشائم برائة

الرسم ٤ — الطريقة المقترحة لكتابة الهمزة

وربَّ معترض أنَّ كتابة الهمزة على الطريقة الشائعة الآن تدلنا على حركتها أو حركة ما قبلها ، وهذا ما يفقدنا إياه أسلوب كتابتها المقترح هنا . وجوابنا هو ان شأنها في ذلك شأن جميع الحروف الصحيحة الأخرى ، فانها معرّضة للالتباس إذا لم تشكل ، وان العلاج الصحيح لهذا الأمر هو تحريك الهمزة أو ما يسبقها من الحروف عند الاقتضاء كما اقترحنا عند الكلام على الحركات ، وليس العلاج وضع قواعد عويصة ، لكتابة الهمزة هي أشد وطأة من الالتباس . وحينئذٍ لا نكون قد فعلنا سوى أننا حللنا مشكلة بخلق مشكلة أخرى . أما إذا عملنا بالاقتراح الجديد فاننا نكون قد حذفنا باباً عويصاً من أبواب الصرف ، قلما يتقنه أحد ، هو باب كتابة الهمزة وخلصنا من المعلمين والمتعلمين والناس أجمعين وجعلنا كتابتها أقرب إلى المنطق .

(د) اضافة بعض الحروف والاصوات

من المشاكل التي تعترض القارىء العربي في هـذا العصر ، عصر الاقتباس الجديد من الثقافات الأجنبية وتبادل الثقافات ، وعصر الاتصال بجميع أنحاء المعمور ، وتوارد المعلومات والأخبار بالكتب والجرائد والمجلات ، وعلى أجنحة البرق والراديو ، مشكلة ضبط الأسماء الأجنبية الداخلة على اللغة العربيـة وقراءتها قراءة صحيحة . ومن هذه أسماء المواقع الجغرافية التي تتقاطر علينا في كل يوم بالعشرات ، وأسماء الأعلام الأجانب من سـياسيين وعلماء وأدباء وغيرهم ، ومصطلحات العلوم المختلفة المنقولة على علاّتها في كتبنا العلمية . وقد كثر استعمال هذه في كتبنا ونشراتنا وأحاديثنا اليومية وتعدّدت أساليب لفظ الناس متعلمين وأميين للكلمة الواحدة ، حتى لم يعد يصح السكوت عن هـذه القضية . والسببان الأساسيان لسوء لفظ هذه الكلمات هما . أولاً : أنها تتضمن في كثير من الأحيان حروفاً وأصواتاً لا وجود لها في اللغة العربية . وثانياً : انها غير صادرة من المحيط العربي فهي إذاً غير مألوفة لديه .

ويهمنا هنا قضية الحروف والاصوات غير الموجودة في الهجاء العربي، وهي في رأينا أربعة حروف صحيحة، وحرفان من حروف العلة. أما الصحيحة فهي پـ (p)، چـ (ch الانكليزية)، ڤـ (v)، گ (Gu) . وأما العلة فهي (o) و (é , ai) . ولا شك في أن هنالك حروفاً وأصواتاً أخرى لا وجود لها عندنا كحرف (e) الصامت الافرنسي (ü الالماني) وحرف u، الرقيق الافرنسي (ü الالماني)وحرف (j) الافرنسي (zh الروسي) وغيرها . إلاّ أن هذه في نظرنا تقرب من الاصوات الموجودة عندنا قرباً كافياً يبرر اهمالها. واني مقتنع ان إدخال الاحرف الستة التي ذكرتها على هجائنا، يقرّبه من الكمال ويجعله صالحاً لكتابة كل ما يرد علينا تقريباً من الكلمات الاعجمية وضبطها ضبطاً ان لم يكن تامًّا فلا بأس بقربه من الاصل .

أما الاصوات الأربعة الصحيحة وهي پـ، چـ، ڤـ، گ [1] فقد سبقنا الأتراك يوم كانوا يكتبون بالحروف العربية إلى ايجاد رموز لها مستمدة من الخط العربي وليس لنا ما نزيد عليها. وإنما بقي أن نجد رموزاً لكل من الصوت o والصوت é ai ونحن نقترح واواً مقلوبة للأول (۶) تكون كبيرة عند ما تكون حرفاً وصغيرة تشبه الضمة المقلوبة (۶) عند ما تكون حركة . ونقترح وضع الرمز (ـہ) للدلالة على الصوت الثاني (é) فان كان حركة وضعناه مصغراً فوق الحرف (˜) وبهذا نستطيع كتابة ما نشاء من الأسماء الأجنبية أما إذا أردنا التنوين في هاتين الحركتين فنضاعفهما على هذا الشكل (۶۶) و (˜) .

وها نحن نعطي بعض الأمثلة على استعمال هذه الحروف (الرسم ٥)

چمبرلن پستەر سەباستەپول چايكەڤسكي

گلسوُرذي گەته داڤنچي الإنگليز كنستنزا

الرسم ٥ — كيفية ضبط الكلمات الاجنبية

....

(١) ان كتابة الصحف والمجلات والكتب المصرية لحرف (G) الاجنبي بحرف الجيم العربي في الكلمات الاعجمية مثل جمرك، انجليز، جوته، قد أدى الى سوء لفظ أمثال هذه الكلمات من قبل الجمهور العربي خارج مصر وخاصة من كان لا يعرف اللغات الاجنبية منه، فأصبحت هذه الكلمات تلفظ Jumruk، Injiliz، Joete) ولذلك نقترح ان نكتب الكلمات العربية الاصل بالجيم كالعادة فنكتب جاه، وجندي ويلفظها كل قطر بحسب لهجته . أما الكلمات الاجنبية فيعبر عن هذا الصوت فيها بحرف گ الجديد فنكتب گمرك، انگليز، گوته فيزول الالتباس .

(هـ) اقتراحات املائية

إن مشكلة الخط متصلة اتصالاً وثيقاً بمشكلة الاملاء، وما دام المراد تيسير الكتابة العربية فلا بأس من ايراد بضعة مقترحات املائية أخرى يكون من شأنها تيسير تعلم الاملاء العربي على المتعلمين . وها هي بعضها :

(١) اعادة الألف المحذوفة من بعض الكلمات كأسماء الاشارة . فنكتب هاذا ، وذالك وأولائك . كما أننا نكتب الآن هاتان ، وهاتيك . ومثل ذلك يجب ان نكتب عبد الرحمان بدلاً من عبد الرحمن . وقد جرى المحدثون على كتابة كلمات الصلاة والحياة والزكاة بالألف بدلاً من الواو .

(٢) حذف الألف الزائدة من الأفعال المجموعة في الماضي والمضارع والأمر فنكتب قالوا ، لم يقولو ، قولو ، كتبو ، ان يكتبو ، اكتبو بدون الف فنتخلص بذلك من غلطة شائعة في الاملاء . كما نتخلص من غلطة أخرى شاعت بين كتبة دواوين الحكومة خاصة وهي ان يضعوا الألف في آخر الجمع المذكر السالم المحذوف النون فتراهم يكتبون « موظفوا الحكومة » بالألف ولا الف هناك ، وانما قاسوها خطأً على الأفعال المجموعة .

(٣) الغاء الألف المقصورة الغاءً تامًّا وكتابة أواخر الكلمات المقصورة كلها بالألف الطويلة فنكتب مصطفا ، نها ، علا (حرف الجر) ، رما ، استغنا الخ . وبذلك نخلص من بضعة قواعد زائدة في الصرف والاملاء العربيين . ولا عبرة في القول بأن كتابة الأفعال الثلاثية بالألف الطويلة او المقصورة ، وضعت للدلالة على كون الفعل واوياً أو يائياً . فاننا عادة نسأل أنفسنا اولاً هل الفعل واوي أم يائي فنقرر ذلك تبعاً للسليقة، ثم نكتب الفعل باحدى الألفين . ولا نستعمل العكس الا في الأفعال القليلة الورود .

(٤) حذف الألف من كلمات مائة وخمسمائة فنكتب مئة وخمسمئة كما جرى عليه الكثيرون .

اننا نعتقد ان هذه الاقتراحات مع اقتراح كتابة الهمزة الذي سبق ذكره تخلص الاملاء العربي من معظم مشاكله وتخفف على المعلمين والمتعلمين في جميع البلاد العربية عملهم والمشكلة المهمة الباقية في الاملاء هي التمييز بين التاء الطويلة والتاء المربوطة . ويزاد عليها عند أهل العراق التمييز بين الضاد والظاء . وبذلك نجعل الاملاء العربي أيسر املاء في الدنيا تقريباً

اعلم ان فن التاريخ فن عزيز المطلب جم الفوائد شريف الغاية ، اذ هو يوقفنا علا احوال الماضين من الأمم في أخلاقهم ، والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم حتا تتم فائدة الاقتداء في ذالك لمن يرومه في احوال الدين والدنيا .

الرسم ٦ — وهو يبين ان التعديل المقترح يحتفظ بجوهر الخط العربي مع استعمال شكل واحد لكل حرف لا غير ومع تطبيق بعض الاقتراحات الاملائية

٧ — الخلاصة

لقد حاولنا في بحثنا أن نعالج مشكلة اصلاح الخط العربي فقرّرنا ان هذا الاصلاح ضرورة يحتمها العصر كما تحتمها ضرورة تعليم جميع أفراد الأمة العربية وإزالة الأمية من بينهم . ثم نظرنا في نشأة الخط العربي وقابلناه بالخط اللاتيني، فرأينا ان الخط العربي خير ما تكتب بهِ اللغة العربية لأنهُ نشأ معها ومع اخواتها الساميات ، وتطوَّر بتطورها فهو يفي بحاجاتها كما لا يفي بها أي خط آخر ، وتنطبق رموزه على أصواتها انطباقاً يكاد يكون تامًّا . ولذلك قررنا أن أي اصلاح للخط العربي يجب أن يستمد من روحه ويحتفظ بجوهره ولا يتناول تعديله إلاّ في بعض تفاصيله تعديلاً يؤدي إلى تسهيل تعلمه ، وتيسير طباعته ، وجعله أكثر انسياقاً ، لتدوين اللغة تدويناً أدق مما هو عليه الآن .

وقد اقترحنا لذلك خمسة اقتراحات أولها الاكتفاء بشكل واحد من أشكال الحروف هو شكل الحرف في أول الكلمة وبذلك تنزل أشكال الحروف من نحو المئة إلى نحو الثلاثين، وثانيهما فصل الحركة عن الحرف في الطبع فتصف الحركات كما تصف الحروف بعضها إلى بعض في الوقت الحاضر ، وبذلك لا يضطر أصحاب المطابع إلى تحمل النفقات التي يتطلبها اقتناء عشرات الأشكال من كل حرف ، ولا يضطر الطابع إلى اغفال الحركات لعدم وجود أحرف محركة عنده . وثالثها اعتبار الهمزة حرفاً صحيحاً تكتب على الألف في اول الكلمة

وعلى كرسي الياء في وسطها وآخرها . ورابعها اضافة ستة أحرف مستمدة من اللغات الأوربية تساعدنا على ضبط الأسماء الجغرافية وأسماء الأعلام والمصطلحات العلمية التي كثر

مۏسكو ـ اغارت القوات السۏڤيەتيە علا مدينە كرش في شبه جزيرە القريم وتتقدم الجيوش الروسيە باستمرار في ساحە نۏڤگۏرۏد .
لندن ـ يقول مراسل رۏيتر الدپلۏماسيۍ ان المستر چرچل ألقا بيانًا في مجلس العموم البريطاني

الرسم ٧ — كيف يمكن للقارىء العربي ان يقرأ الاخبار اليومية دون ان يخطىء في لفظ الاعلام الاجنبية والمواقع الجغرافية . ومثل هذا ينطبق على الاصطلاحات الاجنبية المنقولة الى اللغة العربية .

الحروف :
ا ٮ ب پ ت ث ج چ ح خ د ذ ر ز س ش
ص ض ط ظ ع غ ف ڤ ق ک گ ل م ن و
ه ة ۏ (o) ە (é, ai) لا

الحركات :
ـَ ـً ـُ ـٌ ـِ ـٍ ـۏ ـۏۏ ـۍ ـۍۍ ـْ ـّ

الرسم ٨ — الشكل النهائي للحروف والحركات المقترحة .

استعمالها في العربية . وأربعة من هذه الأحرف هي أحرف صحيحة وهي پ ، چ ، ڤ ، گ واثنان حرفا علة هما ۏ و ە وما يتبعهما من حركتين هما ، و . وأخيراً أتينا ببعض

الاقتراحات لتيسير الاملاء العربي هي اعادة الألف المحذوفة من أسماء الاشارة وأمثالها من الكلمات ، وحذف الالف الزائدة من الافعال المجموعة ، وحذف الالف المقصورة والاستعاضة عنها بالالف الطويلة في جميع الكلمات المقصورة أسماء كانت أم أفعالاً أم حروفاً ، وحذف الالف من كلمة مئة ومركباتها .

وها نحن نقدم للقارىء نموذجين من الكتابة على الأسلوب الذي نقترحه أحدهما فقرة من مقدمة ابن خلدون والثاني خبر برقي نشر في الجرائد ، (الرسم ٦ و ٧) وجدول كامل للحروف والحركات كما نقترح أن تكون (الرسم ٨) .

***

٨ — اصلاح الخط والحكومات العربية

وفي الختام لا بد من القول ان اصلاح الخط العربي ليس قضية اقتراح او مجهود شخصي ولا هو في شأن قطر عربي واحد ، إذ أن ما بين الاقطار العربية الآن من اتصال ثقافي وثيق وتبادل واسع للمطبوعات ، يمنع ان يستقل أي قطر في القيام بمشروع لاصلاح الخط . فلا بد اذاً من تعاون البلاد العربية وحكوماتها في هذا الأمر . ولعلَّ هذا الموضوع من أفيد الموضوعات التي يمكن بحثها في المؤتمر أو المؤتمرات الثقافية المقترح عقدها بين البلاد العربية فيؤلف المؤتمر هيئة من الخبراء لدرس موضوع اصلاح الخط وتمحيص جميع الاقتراحات المقدمة بشأنه ورفع تقرير ينطوي على اقتراحات عملية عن هذا الاصلاح . فان أقرها المؤتمر عملت الحكومات العربية على تطبيقها بأن تعممها في مطابعها الرسمية ، وبأن تساعد المطابع الخصوصية على تبديل حروفها ، إذ ان كثيراً من المطابع قد لا يستطيع تحمل نفقات تبديل الحروف بكاملها .

ان موضوع اصلاح الخط عظيم الأهمية للبلاد العربية ولمستقبلها الثقافي ، وقد تكون معالجته فاتحة حسنة للمؤتمرات الثقافية المؤمل اقامتها في المستقبل القريب .

دكتور متى عقراوي

عميد دار المعلمين العالية ببغداد

تحقيق

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

يضم هذا الكتيب النفيس طائفة من شعراء العرب الذين عرفوا بنسبتهم إلى أمهاتهم وهو ضرب من التأليف طريف ، يعالجه إمام من أئمة الاخبار والأنساب ورواية الشعر ، وهو محمد بن حبيب. ومن هذا الكتاب نسختان في دار الكتب المصرية ، إحداهما برقم ٦ مجاميع ش ، وهي التي رمزت إليها بحرف أ . والثانية برقم ٥٧ ش أدب ، وقد رمزت إليها برمز ب .

كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء

صنعة محمد بن حبيب وتصنيفه ، من رواية عثمان بن جني رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

قرأت على أخي محمد قال : سمعته يُقرأ على أبي عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة[1] قال : قرأت على ثعلب[2] قال : قال أبو جعفر محمد بن حبيب :[3]

---

(١) هو ابراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة العتكي الأزدي الواسطي ، أبو عبد الله الملقب نفطويه . كان عالماً بالعربية واللغة والحديث ، أخذ عن ثعلب والمبرد ، وكان فقيهاً على مذهب داود الظاهري رأساً فيه . وكان بينه وبين ابن دريد منافرة ، وهو القائل فيه :

ابن دريد بقره وفيه عي وشره

وله من التصانيف : إعراب القرآن . المقنع في النحو . الأمثال . المصادر . أمثال القرآن ، وغيرها . ولد سنة ٢٤٤ وتوفي سنة ٣٢٣ . انظر ارشاد الأريب ، وبغية الوعاة . وابن النديم ٧٨ .

(٢) هو أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني البغدادي ، أبو العباس ثعلب ، امام الكوفيين في النحو واللغة ، لازم ابن الأعرابي بضع عشرة سنة ، وسمع من محمد بن سلام الجمحي وسلمة بن عاصم ، وخلف ، وروى عنه اليزيدي والأخفش الأصغر ، ونفطويه ، وأبو عمر الزاهد . وكان بينه وبين المبرد منافرات . وأشهر تصانيفه كتاب الفصيح . ولد سنة ٢٠٠ وتوفي سنة ٢٩١ . انظر بغية الوعاة . وابن النديم ١١٠–١١١

(٣) هو محمد بن حبيب أبو جعفر . قال ياقوت : من علماء بغداد باللغة والشعر والأخبار والأنساب ، ثقة مؤدب ، ولا يعرف أبوه ، وحبيب أمه . روى كتب الكلبي وقطرب ، وكانت أمه مولاة لمحمد بن العباس الهاشمي . وقال ابن النديم مرة : أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو . ثم روى عن عبد العزيز الهاشمي قال كان محمد بن حبيب مولى لنا – يعني لبني العباس بن محمد وكانت أمه حبيب مولاة لنا . روى عن ابن الأعرابي وأبي عبيدة وأبي اليقظان ، وله مصنفات كثيرة أشهرها نقائض جرير والفرزدق . توفي بسامرا سنة ٢٤٥ . انظر ابن النديم ١٥٥ وبغية الوعاة . ومن نسبه تدرك سر اهتمامه بهذا البحث.

ذكر من نسب إلى أمه من الشعراء :

١ — (ابن شعوب) أمه شعوب من خزاعة ، واسمه عمرو بن سُمَيّ بن كعب ابن عبد شمس بن مالك بن جعونة بن عُويرة بن شجع بن عامر بن ليث بن بكر بن كنانة. وهو الذي يقول :

ماذا بالقليب قليب بدرٍ من القينات والشَّرْب الكرامِ
وماذا بالقليب قليب بدرٍ من الشِّيزى تكلَّلُ بالسَّنامِ
تحيِّي بالسلامة أمُّ بكرٍ وما لي بعد قومي من سلامِ
يخبِّرنا النبيُّ بأن سنحيا وكيف حياة أصداءٍ وهامِ

وله شعر كثير ، قاله وهو كافر ، ثم أسلم بعد .

٢ — و (ابن أم حَورِيّ) من بني الحارث بن همّام ، شاعر أغار على بني يربوع ، فلحقه منهم قوم ، فقاتلهم حتى أحرز غنيمته ، وقال :

نحن بني الحارث قد آلينا لا يُؤخذُ النهبُ الذي حوينا
أبالصياح عوَّلوا علينا إنا إذا صِيح بنا أبَيْنا
لا نجعلُ الطّعن بنقدٍ دَيْنا

٣ — و (عطّاف بن كبشة[1] الشيباني) ، قال لخاله عديّ بن ضبّ :

عديَّ بنَ ضبّ من تكن أنتَ خالَهُ أخا أمّه تُدلِجْ بلومٍ ركائبُه

وقال : وطالب وترٍ قد أتى الليلُ دونَهُ وما سَبْقُ وترٍ أدركَ اليومَ أو غدَا

وقال : أنا ابن الذي لم يُخزِني في حياته ولم يُخزِهِ عند الوفاة بلائيا

٤ — و (ابن طوعة) الشيباني ، واسمه ناصر بن عاصم[2] وأمه « طوعة » أمَة أو أخيذة من آل ذي الجدَّين ، قال[3] :

تعطّفَ اللّوم على عطّافِ بين بني الحارثِ والأحلافِ

٥ — و (ربيعة بن غزالة) الكندي[4] شاعرٌ حليف بني شيبان، وأمه غزالة . قال :

(١) في المؤتلف ٢٩٩ : « نشة » بالنون .

(٢) في المؤتلف ١٤٨ أن ابن طوعة الشيباني من آل ذي الجدين . ونصل بينه وبين ابن طوعة الفزاري ، ونسب هذا الفزاري نصر بن عاصم بن عقبة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري . وقد جعلهما ابن حبيب هنا واحداً . وانظر ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٣٣.

(٣) يهجو عطاف بن نشة الشيباني كما في المؤتلف ١٤٨ .

(٤) اسمه ربيعة بن عبد الله بن ربيعة بن سلمة بن الحارث بن سوم بن عدي بن أشرس بن شبيب ابن السكون ، شاعر جاهلي أدرك الاسلام فأسلم . وينسب أيضاً « السكونى » بفتح السين ، نسبة إلى السكون بن أشرس بن ثور بن كندي . انظر الاشتقاق ٢١١ والمؤتلف ١٢٥ والاصابة ٢٧٢٧ وألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٤٠.

كأني إذ وضعت الرحل فيهم   بمكة حيث حلَّ بها هشامُ [١]

٦ — و (ابن حجْلة الأسدي) وهي أمه ، واسمه عبد بن مُعَرّض، أحد بني ثعلبة ابن سعد بن دُودان من بني أسد ، شاعر ، وهو الذي يقول :

من أخطنهُ ولادتنا فإنا   ولدنا سيِّد الناس الوليدا [٢]

٧ — و (السِّندريّ بن عَيْساء [٣] الجعفري) وهي أمه ، أمَة لشريح بن الأحوص ابن جعفر [٤]. وهو الذي يقول :

هل فيكم يوم كيوم جبله   يوم أتتنا أسدٌ وحنظله
والمِلكان والقطينُ أزفلَه [٥]   نعلوهم بقضبٍ منتخَله
لم تعدُ أن أفرشَ عنها الصَّقله [٦]

وقال : أنا لمن يسأل عني السِّندَري   أنا الغلام الأحوصيُّ الجعفري

٨ — و (حبيب بن خدرة الهلالي) خارجي [٧] ، كان مع شبيب ، وذُكر انه أدرك الحكمين ، وبقي حتى أدرك الضحاك الذي أخذ بالكوفة . وقال :

نهيتُ بني فِهر غداة لقيتهم   وحتى نُصيب والظنون تطاعُ
فقلت لهم إن الجريبَ وراكساً   بها نعمٌ يرعى المرارَ رتاعُ [٨]
ولكن فيه السم إن ريعَ أهله   وإن يأته قومٌ هناك يراعُ

وقال : تفرقتم أن تذكوا لحيٍّ بيضة   فظلّ لكم يومٌ إلى الليل أشنع [٩]

---

(١) ا : « بهاشآم » تحريف .

(٢) أخطته ، هي أخطأته ، سهل همزتها ثم عاملها معاملة المعتل لحذف الألف للجازم. ب :«أخطأته» تحريف ، صوابه في ا .

(٣) عيساء ، مؤنث الأعيس ، وأصله في الابل الأبيض يخالط بياضه شقرة ، وبه سميت المرأة . وفي ا : « عبساء » بالموحدة ، تحريف . وقد جاء على الصواب الذي أثبت في كتاب ألقاب الشعراء الملحق بكتاب أسماء المغتالين من الأشراف لمحمد بن حبيب ، المحفوظ في دار الكتب المصرية برقم ٢٦٠٦ . انظر منه ص ١٣٤ وكذا الأغاني (١٥ : ٥٣).

(٤) في المؤتلف ١٢٥ أنه السندري بن يزيد بن شريح بن الأحوص بن جعفر بن كلاب ، وهو ينسب أيضاً « الكلابي » . وفي الأغاني ان « عيساء » اسم جدته.

(٥) الأزفلة : الجماعة من الناس

(٦) أي لم تجاوز أن أقلع عنها الصقلة . والرجز منسوب في اللسان (٨ : ٢٢١) الى يزيد بن عمرو ابن الصعق ، وفي معجم البلدان إلى رجل من بني عامر .

(٧) في القاموس : « حبيب بن خدرة تابعي » .

(٨) الجريب : واد كانت به وقعة لبني سعد بن ثعلبة . وفي الأصل : « الحريب » بالحاء ، تحريف . وقد أنشد هذا البيت ياقوت ونسبه إلى عمرو بن شأس الكندي . وعجزه عنده : « به إبل ترعى المرار »

(٩) صدر البيت محرف ، وموضع كلمة :« تذكوا » بياض في ب .

وقال : أصاحِ ترى بَرِيقاً هبّ وهنا يؤرّقني وأصحابي هجودُ

٩ — و (ابنَ عَيْزِرة الهذلي) وهو قيس بن خويلد[1] ، شاعر . قال :

لعمرك أنسى روعتي يوم أقتُدٍ وهل تتركاً نفسَ الأسير الروائعُ

وقال : يا حار إني يا ابن أمّ عميدُ كمدٌ كأني في الفؤاد لهيدُ

١٠ — و (قُطبة بن الزّبَعرا)[2] . وهي أمُّه . وهو قطبة بن زيد بن سعد بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مالك بن كنانة بن [القين بن] جسر ، شاعر قال :

حميتُ القوم قد علمت معدٌّ ومَن للقوم من مولىً و جارِ

حبوتُ بها قضاعة إنّ مثلي حقيقٌ أن يذبّ عن الذمارِ

ولستُ كمن يغمّز جانباه كغمز التّين تجنيه الجواري

وكان قطبة سيّد قضاعة في الجاهلية وأول الاسلام .

١١ — و (قيس بن الحُدادية) وهي أمه ، من محارب ، حضرمية[3] وله شعر . قال ابن الأعرابي : حداد من كنانة . وهو الذي يقول :[4]

أنا الذي أطرده مواليهْ وكلّهم بعد الصَّفاء قاليهْ

١٢ — و (عمرو بن الصماء الخزاعي) له شعر ، قال في حرب بينهم وبين كنانة :

إلاّ تعاجلني المنية أستقد مقاد جيادي من عُميرٍ ومعبدْ

ولو أدركتْ خيلي عُميراً ومعبدا ونُبهان ما آبوا بنا فلقٍ بعدي

لكانوا لأطراف القنا أو لنازعوا إلى الحيّ أعناق المطيّ المعضّدِ[5]

١٣ — (وعياض بن أم شهمة[6] الخزاعي) إسلامي قال :

....

(١) هو قيس بن خويلد بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل بن مدركة ، أخذته منهم وأخذ تأبط شرا سلاحه ، ثم أفلت قيس ، وأنشد أبياتاً رواها المرزباني في المعجم ٣٢٦ وأولها هذا البيت الذي رواه ابن حبيب .

(٢) كذا في ا لكن في ب : « الزبعرا » وأصلحها الناسخ : « الزعبرا » وظني أنها « الزبعراة ».

(٣) هو شاعر جاهلي فاتك صعلوك خليع ، خلعته خزاعة بسوق عكاظ وأشهدت على نفسها بخلعها اياه ، فلاتحتمل جريرة له ولا تطالب بجريرة يجرها أحد عليه. وهو قيس بن منقذ بن عمرو بن عبيد بن ضاطر ابن صالح بن حبشية بن سلول. انظر الأغاني (١٣ : ٢ — ٨) : وبنو حداد بضم الحاء وتخفيف الدال . انظر الاشتقاق ٢٧٧ وقد نسبه « قيس بن عمرو بن منقذ » . وفي ألقاب الشعراء لابن حبيب أن أمه من محارب بن خصفة . انظر ص ١٣٩.

(٤) قاله في الوقعة التي قتل فيها ، وهو يشير إلى ما كان من خلع قومه أياه .

(٥) ب : « كأطراف القنا ». وقد اختلفت ضروب الأبيات فأتى أوسطها صحيحاً بين ضربين مقبوضين.

(٦) في معجم المرزباني ٢٦٩ : « عياض بن أم سهمة » بالسين المهملة .

هاجتك أطلالٌ ومُستبتركُ قفرُ خلا منذ أجلى أهلها حجج عشرُ(١)

١٤ — و(العريان بن أم سهلة النبهاني) وهو من طيِّىء . قال :

لمن الديار غشيتها برماح فصَهابتين لجانب السِّرداحِ

لجنوب فيحان كان رسومها حُللٌ يمانيةٌ على ألواحِ

١٥ — و(ابن السَّجراء) من حُرقة جهينة . قال : وحرقة هم بنو خميس بن عامر بن مودوعة من جهينة ، كانوا حلفاء للحصين بن الحمام السهمي من بني سهم بن مرة ، وبشامة ابن الغدير السهمي . قال ابن سجراء يوم دارة موضوع :

لما أتانا جمعُ قيس وواجهت كتائب خرس بينهن زفيفُ

فلما علت دعوى خميس بن عامر وقد كلَّ مولانا وكاد يحيفُ

هممنا به ثم ارعوينا حفيظة فذلَّ بنا غاشٍ وعزَّ حليفُ

١٦ — و(حميد بن طاعة السكوني(٢)) قال :

ولما استقلَّ الحي في رونق الضحى قبضنَ الوصايا والحديث المجمجما

وكان لمُوحٍ من خصاصٍ ورقبةٍ مخافة أعداء وطرفا مقسَّما

ولما لحقنا لم يقل ذو ابانة لهم ولا ذو حاجة ما تيمما

من البيض مكسال إذا ما تلبست بعقل امرىء لم ينج منها مسلما

وقال لعمر بن الخطاب :

إنك مسترعًى وإنا رعيَّةٌ وإنك مدعوٌّ بسيماك يا عمرْ

لدى يوم شرٍّ شرُّه لشراره وخيرٌ لمن كانت معائشه الخيَرْ(٣)

وقال : ما إن رأينا مثلك ابن الخطاب أبرَّ بالدين وبالأحساب

بعد النبي صاحب الكتاب

١٧ — و(ابن الدمينة الخثعمي) واسمه عبد الله . وله شعر كثير(٤) .

١٨ — و(يزيد بن ضَبَّة) أمه ضَبَّة(٥) ، وأبوه مقسم ، وهو كثير الشعر ، وهو

---

(١) في الأصل : « حاجتك » محرف . وفي المرزباني : « ومنزلة قفر »

(٢) جعله الآمدي في ص ١٤٩ : « الشكوى » ، نسبة إلى « شكو » بفتح الشين وسكون الكاف ، وهو أبو بطن .

(٣) ا : «معائيشه » معائيش : جمع معيشة ، وفيها شذوذان ، همز الياء الأولى ، وإلحاق الياء الثانية وإلحاقها مذهب للكوفيين يجيزونه . وأثبت ما في ب .

(٤) انظر الاغاني (١٥ : ١٤٤ ــ ١٥٠) .

(٥) في ا : « ضنة » ، بالنون وفي ب : «ضنة» لكن أصلحت في النسخة فجعلت : « ضبة » بالباء .

مولى لثقيف . وهو الذي يقول :

مشيُ البريّ مع المقارف تهمة ويُرى البريّ مع السقيم فيُلطخُ

وهو الذي يقول :

صبا قلبي إلى هند وهند مثلها يصبي

١٩ — و (ابن الطَّثرية [١]) وهو ابن عبيد بن عمرو بن الحارث بن كعب بن سعد ابن زيد مناة بن تميم [٢] ، وهو الذي يقول :

ألا عتبت عليَّ وصرَّمتني وأعجبها ذوو اللمم الطوالِ

فاني يا ابنةَ السعدي أربي على فعل الوضيِّ من الرجالِ

٢٠ — و (ابن فسوة) فهو عُتيبة بن مرداس الكعبي [٣] . وإنما قيل له ابن فسوة لأنه نزل بهم رجل من عبد القيس يقال له ابن فسوة ، فكان يعيَّر به . فقال له مرداس : أنا أشتري منك هذا الاسم بكبش، فاشتراه ، فقال [أخو] عتيبة : [٤]

حوَّل مولانا علينا اسم أمه ألا ربَّ مولىً ناقص غير زائدِ

٢١ — و (ابن الهيجُمانة العبسي) لم نعرفه ، وذُكر أنّ الهيجمانة بنت العنبر بن عمرو بن تميم .

٢٢ — ومن شعراء ربيعة (ابن أم الحزنة العبدي) وأم حزنة أمه ، وهو ثعلبة بن حزْن بن زيد مناة بن الحارث بن ثعلبة بن سُليمة بن مالك بن عامر بن الحارث بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لُكيز بن أفصى بن عبد القيس . وله شعر كثير .

٢٣ — و (عمرو بن مَبردة) ، عبدي . [٥]

٢٤ — و (ابن الذيبة) وهي أمه، امرأة من فهم ، واسمه ربيعة بن عبد ياليل ، واسم الذيبة قِلابة ، فلقبت الذيبة . وهو الذي يقول :

....

(١) الطثرية : أمه ، من بني الطثر ، بالفتح ، وهم حي من اليمن . قال ابن خلكان : « الطثرية بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة » . وضبطها صاحب القاموس بالتحريك ، والوجه الاسكان كما جاءت مضبوطة به في نسخة ليدن من الشعراء . انظر شرح الحيوان (٦ : ١٣٧).

(٢) كذا ورد في النسختين، وهذا النسب يخالف ما في كتب التراجم ، فلعل في الكلام سقطاً .

(٣) في الأغاني (١٩ : ١٤٣) وكذلك ألقاب الشعراء لابن حبيب ص ١٢٨ ـ ١٢٩ : « عيينة » . ويدل على صواب ما هنا قول ابن قتيبة في الشعراء : « هو عتيبة ويقال عتبة » .

(٤) التكملة من كني الشعراء لابن حبيب ص ١٢٩ .

(٥) ذكره المرزباني في المعجم ٢٤٠ وقال : « هو أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز بن أفصى بن عبد القيس ... وهو إسلامي أنشد عبد الملك بن مروان لما استبق بنوه فسبق مسلمة — وكان ابن أمة — :

« نهيتكم أن تحملوا هُجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا »

إني لمن أنكرني ابن الذيبه كريمة عفيفة منسوبه

٢٥ — و (شبيب بن البرصاء[1]) ، وهي أمه . وهو شبيب بن يزيد بن جمرة[2] بن عوف بن أبي حارثة ، وأمه القرضابة بنت الحارث بن عوف بن أبي حارثة ، وأختها عمرة بنت الحارث أم عقيل بن علّفة[3] . وهو الذي يقول :

قامت وأعلى خلقها في ثيابها قضيبٌ وما تحت الازار كثيبُ

وقال: لا خير في العيدان إلاّ صلابها ولا ناهضات الطير إلاّ صقورُها

تبيّنُ أدبارُ الأمور إذا انقضت وتقبل أشباهاً عليك صدورُها

٢٦ — وبعض (بني أم قرفة) وأم قرفة اسمها فاطمة بنت ربيعة بن بدر الفزاري ، وأبوهم مالك بن حذيفة بن بدر تزوج ابنة عمه .

٢٧ — و(ابن ميادة المري) من بني غيظ بن مرة ، واسمه الرماحَ بن الأبرد بن ثوبان[4] كثير الشعر . وهو الذي يقول :

اِعرنْزِمي ميَّادُ للقوافي واستسمعيهنّ ولا تخافي[5]

وقال : الا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بحرّة ليلى حيثُ ربّتني أهلي

وهل أسمعنّ الدهر أصوات هجمةٍ تطالع من هجل قريب الى هجلِ[6]

يقال ربيت الصبي أربه ربا فأنا رابّ وهو مربوب ، وربيته أربّيه تربية فأنا مربّ وهو مربى ، وربّته أربّته تربيتاً فأنا مربّت وهو مربَّت . ويقال رَبيت في بني فلان وربوت فيهم وتربيت وتربّبت ، كله فصيح مقبول .

٢٨ - و (بشامة بن الغدير) وهي أمه ، وهو بشامة بن عمرو بن هلال[7] بن واثلة بن

---

(١) قال ابن دريد : « كان النبي صلى الله عليه وسلم خطب البرصاء إلى أبيها فقال : إن بها سوءاً — وهو كاذب — فرجع فوجد بها برصاً » وسماها ابن حبيب في ألقاب الشعراء ١٣٢ « أمامة بنت الحارث بن عوف » .

(٢) ويقال : «حمزة» ويقال : « خمرة » . انظر حواشي الاشتقاق ١٧٦ . وفي ألقاب الشعراء ١٣٢ : «حيوة» .

(٣) في الأصل : «علقمة» وهو تحريف . انظر حواشي الاشتقاق .

(٤) في الاغاني «أبرد بن توبان» وفي المؤتلف « ابرد بن ثريان» . وفي معجم البلدان : « الرماح ابن يزيد وقيل ابن الأبرد » . وفي ألقاب الشعراء ١٣٢ : « الرماح بن الأبرد بن مرداس » .

(٥) الاعرنزام : الاجتماع والتقبض . وفي الاصل : «أعزترحي» والصواب فيما أثبت كما صححت بذلك في ب . وفي ا : «واستسمهن» ، محرفة .

(٦) في معجم البلدان (٣ : ٢٦٠) : « من هجل خصيب » . وروى ياقوت هذين البيتين في خمسة أبيات قالها ابن ميادة حين استخلف الوليد بن يزيد بن عبد الملك فاستقدمه وأقام عنده دهراً ثم اشتاق إلى وطنه .

(٧) في الأصل : « ملاك » والصواب ما أثبت . وانظر المؤتلف ٦٦ ، ١٦٣ والمفضليات (١ : ٥٣ طبع المعارف) .

سهم بن مرة . كثير الشعر . وهو الذي يقول :

فإنكم وعطايا الرهان إذ جرّت الحرب جلاً جليلا
كثوب ابن بيض وقاهم به فسد على السالكين السبيلا[1]

٢٩ — وأخوه (أسعد بن الغدير) شاعر ، وهو خال أبي سلمى[2] زهير بن أبي سلمى الشاعر .

٣٠ — و (زميل بن أم دينار) أبوه أبير بن عبد مناف ، من مازن بن فزارة، وهو قاتل ابن دارة . وابن دارة اسمه سالم بن مسافع بن عقبة بن يربوع . هو دارة القمر ، سمي دارة ، شبه بدارة القمر لحسنه ، وهو من بني عبد الله بن غطفان . وزميل الذي يقول :

أبلغ فزارة أني قد شريت لهم مجد الحياة بسيفي بيع ذي الخلق
وقال : انا زميل قاتل ابن داره وكاشف المخزاة عن فزاره
ثم جعلت عقله البكاره

٣١ — و (قعنب بن أم صاحب الفزاري[3]) وهو الذي يقول :

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني سعي الفتى وهو مخبوء له القدرُ

وهو الذي هجا الوليد بن عبد الملك فقال :

فقدت الوليد وأنفاً له كَـثِيلِ البعير أبى أن يبولا

٣٢ — (وابن أم حزنة)[4] وأم حزنة أمه وهو ثعلبة بن حزن بن زيد مناة بن الحارث ابن ثعلبة بن سُليمة[5] بن مالك بن عامر بن الحارث بن [أنمار بن عمرو بن] وديعة بن لكيز ابن أفصى . شاعر ، وهو الذي يقول :

نهيتكم أن تحملوا هجناءكم على خيلكم يوم الرهان فتدركوا

٣٣ — و (بشر بن شلوة التغلبي) وشلوة أمه . وهو بشر بن سوادة[6] . وهو الذي

---

(١) انظر شرح البيتين في المفضليات (١:٥٨) .

(٢) أبو سلمى كنية زهير بن أبي سلمى ، كما في كنى الشعراء لابن حبيب ص ١٢٣ من مصورة دار الكتب . وقد زاد الشنقيطي كلمة : « أبي » قبل «زهير» فلم يتنبه إلى ما ذكرت .

(٣) هو قعنب بن ضمرة ، أخو بني سحيم بن عمرو بن خديج بن عوف بن ثعلبة بن بهثة كما في ألقاب الشعراء ص ١٣٣ . وقيل : أحد بني عبد الله بن غطفان ، وكان في أيام الوليد بن عبد الملك . انظر شرح التبريزي للحماسة (٤ : ٢٤) .

(٤) هذا تكرار لما سبق في رقم ٢٢ .

(٥) كذا ضبطت في الأصل بالضم . وفي الاشتقاق ٢٩٢ بفتح السين .

(٦) انظر المؤتلف ٦٠ . وضبطت « شلوة » في الأصل هنا بالفتح . وقال ابن حبيب في ألقاب الشعراء ١٣٦ : « أخو بني مالك بن بكر بن حبيب ».

يقول في يوم ذي قار ، وكان مع الفرس :

لما سمعت نداء مرة قد علا وأبو ربيعة في الغبار الأقتم

٣٤ — و (ابن الواقفية [١] السدوسي) ينسب إلى أمٍّ من أمهاته . وهو عبد الله ابن عبد العزي كليب[٢] بن الحارث بن سدوس ، شاعر قال :

أتاني عن أبي بكر ألوك يخب بها المبين والنذيرُ

وقال: ألمَّ خيال العامرية موهناً خيال بأعلى حضرموت غريبُ

أرى المرء أممى للحوادث غاية نوائبه تغتاله فيصوبُ

وقال يهجو ابن عنمة الضبي [٣] :

إن الشاعر الضبي عبد كزائدة النعامة مستعارُ

وقال يمدح الحوفزان [٤] :

لمن الديار بجانب الغمر آياتهنَّ كواضح السطرِ

يا حار أعطاك الإله كما أثنى عليك أخو بني جسرِ

فلأنت أكسبهم اذا افتقروا ولأنت أجودهم اذا تثري

٣٥ — و (ابن دغماء العجلي) أمه دغماء بنت مرة ، أخت جعونة بن مرة ، وهو الذي يقول لسويد بن حطان ، وكان سويد الضبعي نزل في بني عجل فانتسب إلى مرة أبي جعونة [٥] فقال أنا سويد بن حطان بن مرة ، فقال ابن دغماء :

لعمرك ما أدري وإني لسائل سويد بن حطان يمتّ وما أدري

---

(١) في الأصل : « الرافقية » . تحريف ، وهي بالواو نسبة إلى بني واقف ، وهم بطن من الأنصار ، وواقف لقب مالك بن امرىء القيس . انظر القاموس (وقف) والاشتقاق ٢٦٥ وانظر ابن قتيبة في المعارف ص ٥٠ .

(٢) كذا في الأصل . ولعله : « من بني كليب بن الحارث بن سدوس » .

(٣) هو عبد الله بن عنمة بن حرثان بن ثعلبة بن دؤيب بن السيد بن مالك بن بكر بن سعد ابن ضبة . « وعنمة » بفتح العين المهملة والنون والميم . وفي ا : « غنمة » محرف . قال البغدادي : «الظاهر أنه من المخضرمين » . الخزانة (٣: ٥٨٠) .

(٤) الحوفزان لقب له ، واسمه الحارث بن شريك بن مطر ، قالوا : «وإنما سمي الحوفزان لأن قيس بن عاصم اقتلعه عن سرجه بالرمح . وكل ما قلعته من موضعه فقد حفزته » . الاشتقاق ٢١٥ .

(٥) في الأصل : « مرة بن أبي جعونة » وكلمة « بن » مقحمة .

سوى أنكم دربتم فجريتم على دربة والضب يختل بالتمر [١]
فما أنتم منا ولا نحن منكم دعاوة كذب أنتم آخر الدهر

فغضب جعونة خال ابن دغماء ، فقال :

ان ابن دغماء الذي حدثته بيض الدجاجة لا يحس له أب
إلاّ الرماد فإنها اعتركت به بين الرماد وبين أمك تنسب [٢]

٣٦ — و (عبد المسيح بن عسلة الشيباني) أمه عسلة بنت عامر بن شراكة من غسان ، إليها ينسبون[٣] وهو شاعر . قال :

يا كعب إنك لو قصرت على حسن الندام وقلة الجرم
لصحوت والنمري يحسبها عم السماك وخالة النجم [٤]

٣٧ — وأخوه (حرملة بن عسلة) قال له المنذر بن ماء السماء : اهج الحارث بن أبي شمر . فقال :

ألم تر أني بلغت المشيـ ب في دار قومي عفّا كسوبا [٥]
وأنّ الإلــه تنصفتــه بألاّ أعقّ وألاّ أحوبا
وألاّ أكافر ذا نعمــةٍ وألاّ أخيبــه مستثيبــا
وغسّــان حيّ همُ والدي فهل ينسينهم أن أغيبا
فآزرْ بها بعض من يعتريك فإنّ لها من معدّ كليبا

---

(١) رواه الجاحظ في الحيوان (٦ : ٦٢) : « يحبل بالتمر » وقال : «فجعل صيده بالتمر كصيده لحبالة» . والضب والعقرب يعجبان بالتمر عجباً شديداً .

(٢) مما يزعم العرب أن بيض الطير يتولد حيناً من التراب ومن الريح . قال الجاحظ في الحيوان (٣ : ١٧١) : «والبيض الذي يتولد من الريح والتراب أصغر وألطف ، وهو في الطيب دون الآخر . ويكون بيض الريح من الدجاج والقبج والحمام والطاوس والاوز » .

(٣) أما أبوه فهو حكيم بن عفير بن طارق بن قيس بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان ابن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل . انظر المؤتلف ١٥٧ وشرح الأنباري للمفضليات ٥٥٦ وما ورد من التحقيق في المفضليات (٢ : ٧٨ طبع المعارف) .

(٤) انظر لفهم هذا البيت ما ورد في جو المفضليات.وفي الأصل : «والنمري يحسبه * عم السماك وخاله النجم »،وهو تحريف .

(٥) رواية الخزانة (٤ : ٢٣٠) : « بلغت المشيبا * وفي دار قومي» .

فانبرى عمارة بن العيّف العبديّ (١) من سليمة بن عبد القيس ، وهم حلفاء في بني شيبان في بني سعد ، فقال :

لا هم إنّ الحارث بن جبله عقّ أباه ظالماً وقتله
وأيّ فعل سيء لا فعله (٢).

٣٨ — و (عِتبان بن وَصيلة) وهي أمه (٣) . وهو عتبان بن شراحيل بن شريك ابن عبد الله بن الحصين بن أبي عمرو بن عوف بن مرة بن ذهل بن شيبان

٣٩ — و (عمرو بن الاطنابة) وهي أمه (٤) ، وهو الذي يقول :

قرت أحسابنا كرماً فأبدت لنا الضراء عن أدمٍ صحاحِ
ولم يُظهر لنا عُقَراتِ سوء جمودُ القطر أو بكء اللقاحِ

[في ختام نسخة (ا) تجز الكتاب والحمد لله رب العالمين . نقلت جميعه من نسخة نقلت جميعها من خط أبي الفتح عثمان بن جني وصححها رضي الدين الشاطبي رحمهما الله.

وفي نسخة (ب) : « قال في أصل هذا : تجز الكتاب . . الخ » وزاد : « وتجزت هذه النسخة في يوم الاثنين المبارك ١٤ صفر الخير سنة ١٣٠٠ بالمدينة المنورة رحم الله كاتبها ومستنسخها والمسلمين أجمعين].

عبد السلام محمد هارون

---

(١) ينسب الرجز أيضاً إلى «شهاب بن العيف» . وفي نسخة البغدادي من كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء :«عامر بن العيف» . (انظر الخزانة ٤ : ٢٣١)

(٢) انظر رواية الرجز وتمامه في الخزانة.

(٣) عتبان ، بكسر العين ، ووصيلة بفتح الواو . انظر الاشتقاق ٢١٦ . وفي معجم المرزباني ٢٦٦: «عتبان بن أصيلة ، ويقال وصيلة ، الشيباني.وأصيلة أمه وهي من بني محلم».وأورد من شعره قوله لعبد الملك ابن مروان :

فبلغ أمير المؤمنين رسالة وذو النصح لو يرعي إليه قريب
بأنك إلا ترض بكر بن وائل يكن لك يوم بالعراق عصيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فنا سويد والبطين وقعنب ومنا أمير المؤمنين شبيب

وللبيت الأخير قصة يتداولها الرواة .

(٤) عمرو بن الاطنابة شاعر جاهلي . وأمه الاطنابة بنت شهاب بن زبان ، من بني القين بن جسر وأبوه عامر بن زيد مناة بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج . انظر المرزباني ٢٠٣ والكنى والألقاب لابن حبيب ١٣٩ . وأصل الاطنابة سير يشد في وتر القوس العربية تحزق به . الاشتقاق ٢٦٨

فيلسوف العرب

والمعلم الثاني

تأليف الاستاذ مصطفى عبد الرازق باشا الرئيس الفخري للجمعية الفلسفية . والكتاب من منشورات الجمعية الفلسفية المصرية ، ويقع في ١٢٦ صفحة من القطع الكبير ، ونشرته دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م .

صدّر هذا الكتاب بعبارات غاية في الجودة ، إذ أشار حضرة رئيس الجمعية الدكتور علي عبد الواحد وافي ، وسكرتيرها العام الدكتور عثمان أمين إلى تهيب الناس من قراءة الفلسفة أخذاً منهم بفكرة فيها تجانب الصواب ، إذ خيل اليهم أن الفلسفة ترادف في اللغة الكلام الغامض والأقوال المبهمة والصيغ المعقدة والأفكار المجردة . جاء في ذلك التصدير :

« ولعلّ السبب في تهيب الناس لبحوث الفلسفة أن بعض المشتغلين بها قديماً وحديثاً قد عمدوا الى التعمية والابهام ، فصاغوا موضوعاتها في مصطلحات وعبارات غريبة ، وألقوا بذلك على حقائقها حجباً وأستاراً ، وبعدوا بها عن الحياة والواقع » .

« وإذا أراد الله بالفلسفة خيراً ألهم أهلها أن يسلكوا سبيلاً أخرى ، فيعنوا بالشئون الانسانية ، وبالأمور التي يتجه اليها التفكير في كل زمان ومكان ، ويعالجوا بحوثهم في أسلوب سائغ جذّاب يفتح باب الفلسفة على مصراعيه لجمهور المثقفين » اهـ ..... وهذه فاتحة مباركة إن شاء الله .

القصد من النقد المقابلة والتحليل ، وأساسه حرية الفكر . عنصران يقوم عليهما النقد الصحيح ، فاذا استطاع الناقد أن يتجرد مع هذا من أحاسيس التحامل والتحيز ، جاء نقده أقرب ما يكون إلى الغاية المرجوة من النقد ، وجاءت أحكامه أوفى ما يمكن من الترجيحات المعقولة . ذلك بأن ارسال الاحكام القطعية ، سواء أفي الفلسفة ، أم النقد ، ارسالاً لاتبرره المعلومات التي يقوم عليها الحكم ، هي من الأشياء التي أغمضت الفلسفة وأعمت النقد . لهذا نقتصر في نقد هذا الكتاب على جزء منه هو الخاص بالكندي فيلسوف العرب ، ثم نعود في عدد آخر الى نقد بقية أبواب الكتاب ، فان الفراغ والوقت لا يأذنان لنا بأكثر

من ذلك ، وقيمة الكتاب وقيمة مؤلفه ، تقضيان علينا بالنظر فيه نظراً يكون الى التقدير الصحيح جهد المستطاع .

يظهر لنا جليًّا من هذا الكتاب أن الكندي ، فيلسوف العرب ، قد ظلم حيًّا وميتاً . ظلم حيًّا لأنه أول فيلسوف من العرب اشتغل بالعلوم والآراء الأجنبية ، وكانت وقفاً على غير المسلمين من حرانيين وسريان ويهود حتى زمان ظهوره وأخذه بما لم يعتد العرب الاشتغال به من أشياء العقل . وظلم ميتاً لأن آثاره قد ضاعت فلم يبق منها ما يمكن أن يتخذ ركيزة لبحث يظهرنا على أصل حكمته . فكان بذلك أول عربي واجه العاصفة ، عاصفة الآراء التي قامت في عصره ، فألقته صريعاً وتركته في حياته موضع سخرية أهل الفراغ ، وبعد مماته موضع العطف من الأخلاف الذين لم يجدوا أمامهم من شيء يصلحون به ما أفسد الدهر من أمر الكندي ، الاّ رحمة من الله يستمطرونها عليه .

ان تضارب أقوال المصادر القديمة عن الكندي متناقضة ، وتحليلها والمقارنة بينها من أصعب الأشياء ، فهي نتف وعبارات مقتضبة لا تزوّدك بشيء اللهمّ إلاّ بفكرات متناثرة لا يصح أن تتخذ أساساً لنقد مستفيض قائم على نصوص شاملة

تقرأ في كتاب « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » : « ومما اشتهر من كتب بطليموس وخرج الى العربية كتاب الجغرافيا في المعمور من الأرض . وهذا الكتاب نقله الكندي الى العربية نقلاً جيداً ويوجد سريانيًّا » . وفي كتاب طبقات الأطباء نقلاً عن أبي معشر : « حذّاق الترجمة في الاسلام أربعة : حنين بن اسحق ، ويعقوب بن اسحاق الكندي ، وثابت بن قرة الحراني ، وعمر بن الفرخان الطبري » . وفي الفهرست لابن النديم : « فاضل دهره وواحد عصره في معرفة العلوم القديمة بأسرها » . ويقول صاحب كتاب أخبار الحكماء : « المشتهر في الملة الاسلامية بالتبحر في فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية » (انظر ص ٢٢)

وتقع في الكتاب على ما يناقض هذا تماماً . ففي ص ٢١ إن الكندي كان « يقتحم غمار الفلسفة وما اليها من العلوم المنقولة عن يونان وفارس والهند ، ولا يجد فيما يترجمه النقلة غنى ، فيحاول إن يَردَ هذه العلوم في منابعها ، ويتعلم اليونانية ، ويترجم بها ويصلح ما يترجمه غيره ، ويتصل بالثقافة اليونانية اتصالاً ظاهر الأثر في عواطفه وتفكيره » ..... حسن جدًّا . فهذا خبر مستوى الأجزاء . ولكن اقرأ ما يليه :

« قال المسعودي في مروج الذهب — وقد كان يعقوب الكندي يذهب في نسب يونان إلى ما ذكرنا : انه أخ لقحطان ويحتج لذلك بأخبار يذكرها في بدء الأشياء ، ويردها من حديث الآحاد والأفراد ، لا من حديث الاستفاضة والكثرة . وقد ردّ عليه أبو العباس

عبد الله بن محمد الناشي في قصيدة طويلة ووكّد خلاله نسب يونان بقحطان جاءَ فيها :

وتخلط يوناناً بقطحان ضلّـة لعمري لقد باعدت بينهما جدّاً

ومقابلة النقد هنا تظهرك على أشياء هي غاية في التناقض . فيلسوف يشتغل بحكمة اليونان وكان « يقتحم غمار الفلسفة وما يليها من العلوم المنقولة عن يونان وفارس والهند » — وقد تعلّـم اليونانية وترجمها وأصلح ما ترجمه غيره، يقول إن يونان أخ لقحطان، وشاعر يصحح له ما أخطأ فيه ! وكيف يتفق لمن لا يعرف أن يونان شيء وقحطان شيء آخر ، هذا أعجمي وذلك عربي ، ان يكون عارفاً باليونان وعلومهم ؟ والظاهر أن كثيراً من أهل العربية ، ومنهم الكندي ، كانوا يعتقدون أن يونان شخص لا قبيلة . وذلك يدل عقلاً على ان علمهم بتاريخ اليونان كان قريباً من لا شيء .

وجاء في ص ٢٤ : « ومع ممارسة الكندي للأدب وما إليه حتى قال صاحب كتاب « اخبار الحكماء » — وخدم الملوك مباشرة بالأدب — وحتى نقلوا عنه حكايات في نقد الشعر وفي الجدل في أسرار البلاغة العربية، وحتى ذكروا له أن له كتاباً في صَنْعَة البلاغة، مع ذلك فان الأدب لم يكن هو الميدان الذي ظهرت فيه مواهب الكندي وآثار عبقريته » .

ومع إننا لم نقع على موضع واحد في الكتاب ظهرت فيه آثار عبقرية الكندي في غير مجال الأدب ، فان في صحيفة ٢٦ ما يدلك على انه لم يكن بليغاً ولا أديباً في العربية : جاء ما يلي :

« روى عن ابن الانباري انه قال : ركب الكندي المتفلسف الى أبي العباس وقال له : إني أجد في كلام العرب حشواً . فقال له أبو العباس : في أي موضعٍ وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله قائم ، ثم يقولون : إن عبد الله لقائم : والالفاظ متكررة والمعنى واحد . فقال ابوالعباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الالفاظ : فقولهم عبد الله قائم : إخبار عن قيامه ، وقولهم : إن عبد الله قائم : جواب عن سؤال سائل ، وقولهم ان عبد الله لقائم ، جواب عن إنكار منكر لقيامه . فقد تكررت الالفاظ لتكرر المعاني ، قال : فما أحار المتفلسف جواباً » .

فكيف يتفق لمن لا يعرف مثل هذه المعاني الاساسية البسيطة في العربية، أن يكون ممارساً للأدب وصناعة البلاغة ؟ ولكن الظاهر اجمالاً ان الكندي بحكم أنه أول فيلسوف مسلم اشتغل بعلوم الاعاجم ، وأنت تعلم ماذا كانت الاعاجم في نظر العرب المسلمين ، قد حيكت من حوله شبكة من الدسائس ودبرت مؤامرة ، جائز أن تكون بقصد ، ولكن أكثرها كان بفعل عكسي من أفعال الوعي الديني قام في ذهن الناس في عصره ، فلفقت هذه الروايات عنه

جنة الشوك

وصل الينا ذلك الكتاب وعليه هذه الكلمات « الى مجلة المقتطف » وتحت هذه العبارة طبعة خاتم مطموسة لا تعرف لمن ، ولكن يتبيان من وضعها تحت العدسة المكبرة انها الاستاذ طه حسين . وليس هذا اهداء ، وانما هو أمر يصدره طه حسين لمجلة « المقتطف » او لغيرها من المجلات او الصحف ، والظروف تعبر عما يختفي وراء هذه العبارة من أوهام ، وكلها اوهام تثير في النفس العاقلة ، دواعي الابتسامات المرة .

قرأت في سنة ١٩١٣ بحثاً في ملحق جريدة التيمس الادبي عن محاضرة ألقاها الفيكونت هولدين اوف كاون حامل أختام الملك في بريطانيا العظمى عنوانها « القومية السامية » Higher Nationality . فاستهواني ذلك البحث ورغبني في الاطلاع على اصل المحاضرة ، فبحثت عن نسخة منها في جميع مكاتب القاهرة وكتبت أطلبها من الناشر فلم أفز بطائل . فكرت أن أكتب للفيكونت نفسه ، فجاءني منه نسخة عليها اهداء هذا نصه : « الى المحترم . . . أرجو أن تتقبلوا هذه الهدية المتواضعة من خادمكم المطيع : هولدين أوف كاون » وجاءني مع النسخة خطاب فيه بيان عن معنى كلمة المانية اضطر أن يستعملها بحرفها الالماني ، هي كلمة Sittlichkeit لانه لم يجد ما يقابلها في لغته ، وخشي أن يكون قد أوجز في بيانها ، فجاء بكتابه يزيدني بها شرحاً وتعريفاً .

وكذلك ترى ان المقابلة بين اهداء « جنة الشوك » للاستاذ طه حسين واهداء « القومية السامية » للفيكونت هولدين أوف كاون ، حامل أختام المملكة المتحدة البريطانية ، ومن أعاظم أدباء عصره وعلمائهم ، مما يثير في النفس العاقلة ، مرة ثانية ، دواعي الابتسامات المرة .

وسوف ننظر في هذا الكتاب ونقدره ، بالنقد الحر ، التقدير اللائق به وبمؤلفه ، ولن يكون لتلك الدواعي التي تثير هذه الابتسامات ، من أثر في نقدنا . ونود قبل أن نقدم على نقده ، أن نصف هذا الاهداء المصبوب في قالب أمر الى مجلة المقتطف ، فنقول فيه كلمة ، ملخصها انه يدل على إرتكاس سببه وعي باطن ، يحتاج إلى علاج .

تلفيقاً قُصِد به التأثير في موضعه من العلم ومنزلته من المجتمع ، ردًّا لأثره الفلسفي وقعوداً به عن الذيوع بين الناس . فينبغي اذن أن نأخذ كل ما يروى عن الكندي من مثل هذا بتحفظ شديد .

مثالنا على ذلك رواية الجاحظ عنه في البخلاء . جاء فيها .

وحدثني عمرو بن نهيوي : قال تغديت يوماً عند الكندي فدخل عليه رجل كان له جاراً ، وكان لي صديقاً ، فلم يعرض عليه الطعام ونحن نأكل . وكان أبخل من خلق الله . قال

فاستحيت منه : فقلت : سبحان الله لو دنوت فأصبت معنا مما نأكل : قال : قد والله فعلت . فقال الكندي ما بعد الله شيء . قال عمرو : فكتفه والله كتفاً لا يستطيع معه قبضاً ولا بسطاً ، وتركه ولو مدَّ يده الى الطعام كان كافراً ، ولكان قد جعل مع الله جل ذكره شيئاً » .

والذي نعتقده ان أكثر الروايات التي رواها الجاحظ في البخلاء مختلقة اختلاقاً أو كانت نكاتاً سائرة على الألسن فصاغها الجاحظ بقلمه المر ، ونسبها الى أعدائه . وكان معتزليًّا ، وأعداء المعتزلة كثيرون .

***

ينفي عن الكندي ذلك رواية أخرى (ص ٣٦) فقد روى الشهرزوري عن الكندي « من ملك نفسه ملك المملكة العظمى ، واستغنى عن المؤن . من كان كذلك ارتفع عنه الذم وحمده كل واحد ، وطاب عيشه » .... فكيف نوفق بين من يقول هذا وبين رواية الجاحظ ، والبخيل لا يملك نفسه ؟ أما إذا صحت رواية الجاحظ فالكندي ممن لا يؤمنون بالحكمة ، لأن من آمن بالحكمة كانت له فلسفة ، ومن يكون له فلسفة ، طبق نظرها على الفعل .

ومما يؤيد مذهبنا في الروايات التي رواها الجاحظ في البخلاء ما جاء في ص ٣٧ إذ يقول المؤلف :

« لا جرم كان الجاحظ يسخر من الكندي ويشنع عليه لبعد ما بين طباعيهما وبعد ما بين سبلهما في الحياة . وكان الجاحظ بصريًّا ، وكان الكندي كوفيًّا ، وبين أهل البلدين عداوة وتنافس . والجاحظ معتزلي ، ولم يكن يسلم من لذعاته إلاَّ من تحرَّم بحرمة الكلام »

مما يوصف بأكثر ما نقل عن الكندي من أمثال كلام الجاحظ وغيره ، عبارة نقلها المؤلف في ص ٣٩ : وقال يوماً لجارية كان يهواها : إني أرى فرط الاعتياصات من المتوقعات على طالبي المودّات مؤذن بعدم المعقولات . فنظرت اليه وكان ذا لحية طويلة فقالت : ان اللحى المسترخيات على صدور أهل الركاكات محتاجة الى المواسي الحالقات .

إن أثر الكذب في هذه الرواية لظاهر كل الظهور ، بيّن كل البيان . وإذن فكل الروايات التي ترمي إلى تشويه سمعة هذا الرجل الكبير مدخولة بالشك ، مغزوة بالريبة . وعلى ذلك فقس أكثرها أو كلها إن شئت . والسبب في ذلك ظاهر فان الكندي (على ما جاء في ص ٤١ من الكتاب) هو بلا ريب اول فيلسوف مسلم عربي اشتغل بالفلسفة التي كانت الى عهده

وقفاً على غير المسلم العربي .... لهذا كان الهدف الأول وموضع الخط الرئيسي، لقوة الدفع التي استجمعت من حوله كل قوى الرجعية في ذلك العصر .

***

من الروايات التي تظهرنا على شيء من علم الكندي ، والتي تدلنا على ان علمه بالحكمة لم يكن من العمق والقوة بحيث وضعه كثير من أصحاب الروايات، عبارة وردت في ص ٢٨ من ذلك الكتاب : قال الشهرزوري في كتاب (نزهة الأرواح) » — ذكر أبو سليمان السجزي انه اجتمع هو وجماعة من الحكماء عند الملك ابي جعفر بن بويه بسجستان، فجرى حديث فلاسفة الاسلام : فقال الملك : ما وجدنا فيهم على كثرتهم من يقوم في أنفسنا مقام سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس . فقيل له ولا الكندي ، قال : ولا الكندي ، فان الكندي على غزارته وجودة استنباطه ، رديء اللفظ ، قليل الحلاوة ، متوسط السيرة كثير الغارة على حكمة الفلاسفة » ..... وإذا صحت هذه الرواية بحروفها وضح لنا أن الكندي لم يكن صاحب فكرة مبتكرة في الفلسفة ، ولم يكن فيلسوفاً بالمعنى المعروف ، وانما كان ممن يغيرون على حكمة الفلاسفة فينسبونها لأنفسهم . ويؤيدنا في هذا المؤلف نفسه (ص ٣٠) حيث يقول : « والواقع أن الأصول التي كان يرجع الكندي اليها مترجمة كانت الى اللغة العربية أو غيرها ، أو موجودة في لغاتها الأصلية ، لم تكن تخلو من تحريف ومن غموض . وكان طبيعيًّا أن يجد الكندي عناء في استخلاصه معان منها سقيمة في نظر العقل منتظمة النسق » ... واذا كانت هذه مصادر علمه ، فما قولك في علمه نفسه .

ولقد أورد المؤلف بعض عبارات استدلّ منها على أن أسلوب الكندي كان فيه غموض . قال :

« والذي يلاحظ من أسلوب الكندي، اعتماداً على هذه المصادر الضئيلة، ان فيه غموضاً يأتي بعضه من أن الألفاظ الاصطلاحية الفلسفية لم تكن استقرت في نصابها ، وتحددت معانيها » . ولست أدري كيف نحكم بأن الغموض أتى من ناحية الألفاظ الاصطلاحية لأنها لم تحدد ، والذي وصل الينا من آثار الكندي قليل لا يواتينا بما نصدر به هذا الحكم من الاحتمالات . والأمثال التي أتى بها المؤلف تناقض هذا الحكم . قال (في ص ٢٩) :

« ومن أمثلة ذلك (أي الأمثلة على الغموض) ما جاء في كتاب أتولوجيا ص٢ » : واذ قد ثبت في اتفاق أفاضل الفلاسفة إن علل العالم القديمة البادية أربعة : وهي الهيولى والصورة والعلة الفاعلة ، والتمام ، والذي سماه التمام هو الذي سمي فيما بعد العلة الغائية ، كما يؤخذ من

سابق كلامه ولاحقه » اه ..... ولست أرى في ذلك غموضاً ، ولعله يريد : والعلة التمام ، تعقيباً على العلة الفاعلة ، لا سيما إنه قال : الهيولى والصورة والعلة الفاعلة والتمام ، فالتمام هنا مفهومها « العلة التمام » بالاضافة الى ما قبلها . وقد استعمل الكثيرون العلة التامة بدلاً من الغائية ، ولا فرق بين التمام والتام، فالكلام بيّن ظاهر لاغموض فيه . والذي يقرأ الفلسفة القديمة ينبغي له أن يوطن النفس على شيء من التبصر ونفوذ النظر ، وان لايتوقع أنه سوف يستقي حكمة القدماء ، كما يشرب كوباً من الماء البارد في يوم قائظ .

وجاء في الصحيفة نفسها : ومن أمثلة ذلك أيضاً : استعماله في كتاب « أتولوجيا » كلمة « مبسوط » بمعنى بسيط : وهذا هو النصّ : « وما الذي يمنع النفس اذا كانت في العالم الأعلى من أن تعلم الشيء المعلوم دفعةً واحدة، واحداً كان المعلوم أم كثيراً . لا يمنعها شيء من ذلك البتة ، لأنها مبسوطة ذات علم مبسوط . فعلم الشيء الواحد مبسوطاً كان أو مركباً دفعةً واحدة » ... والواقع انه لا يستدل من هذه العبارة مطلقاً على ان الكندي يقصد هنا ان علم الروح يكون بسيطاً بالمعنى الذي ندركه من البساطة أي الغرارة والأولية ، وانما يقصد انه لايمنع النفس مانع اذا كانت في العالم الأعلى من أن تعلم الشيء المعلوم دفعةً واحدة لا بالتدريج شيئاً بعد شيء ، سواء كان الشيء المعلوم واحداً أو كثيراً ، لأنها هنالك تكون مبسوطة أي غير مقيدة وعلمها مبسوط أي مفصل ، لا اجمال فيه فقد رمى هنا إلى التفصيل معبراً عن ذلك بكلمة مبسوط ، والمبسوط هو المفصل الواسع الذي لا اجمال ولا اقتضاب فيه . ومفهوم العبارة على هذا التفسير صحيح جليّ ، على الضد مما لو قلنا إنه أراد « البسيط » أي الأوّلي . وإذن لا يكون هنالك غموض فيما ورد بالكتاب من العبارات التي استدل بها على غموضه .

إما ما أورد المؤلف نقلاً عن « جِلْسُن » حيث يقول (ص ٢٩) « المعاني ضعيفة كأن الكندي كان يكابد في امتلاك ناصيتها بعناء » — فتدل على انه لم يهضم ما درس ولم يمثله تمثيلاً عقليًّا يكفي أن يضع الكندي مع الفلاسفة ، فكيف به يكون فيلسوف العرب ؟ الاّ ان يكون المعنى انه أول عربي مسلم اشتغل بالفلسفة .

هذا التناقض يسوقنا الى القول بأنّ الكندي شخصية غامضة، وان علمه مشوب بالشك ، وفلسفته مدخولة بالقلق محوطة بالريبة ، وانه يصعب ان نصدر فيه حكماً مقطوعاً بصحته ، وحالتنا من العلم بآثاره على ما وصف هذا الكتاب .

الزمان الوجودي

كتاب ظهر في المكتبة العربية ، ونال به مؤلفه الاستاذ عبدالرحمن بدوي درجة في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول ، فهنئه بها . ولقد عمدنا الى درس هذا الكتاب درساً يناسب منزلته من البحث وموضوعه من الاساسيات الفلسفية في الغيبيات : Metaphysics . وفي الحق ان الكتاب يمتاز بأسلوب كأنه الرصاص : صلب بارد ثقيل . أو كأنه الليل : مظلم هامد صفيق . ومن الحق أن نسجل اليوم ما سمعنا عن هذا الكتاب .

سمعنا ان الاستاذ لويس ماسينيون قال ان هذا الكتاب كالمرقعة المؤلفة من قصاصات بالية ، حاكها شخص ، فخيل اليه انه ناسجها . وروى لنا أحد الاساتذة أن هذا الكتاب استخلاص من عدة كتب ، ومداره كتاب في « الزمان والوجود » ألفه باحث الماني يدعى « هيدجر » : Heidegger وصلت منه نسخة فرنسية الى مصر ، اطلع عليها أحد أعضاء لجنة الامتحان ، فوجد ان المؤلف قد ترجم منه بالحرف أكثر من ثلاثين صحيفة متوالية من غير أن ينسب كلمة واحدة منها الى المرجع الذي أخذها منه ، ولما سئل في ذلك أجاب بأقرب أسلوب عملي : وهو السكوت .

أما التصدير العام الذي صدر به الكتاب فسطران هما : « غاية الموجود ان يجد ذاته وسط الوجود . وها هنا صورة اجمالية لمذهب فسرنا فيه الوجود على أساس الزمان ، وحاولنا تحقيق هذه الغاية للانسان »

وبالطبع لا يمكن لمن لم يقرأ الكتاب ويستطيع فهمه ، أن يعرف ما هو المقصود من عبارة « غاية الموجود أن يجد ذاته وسط الوجود » . ولعلي لا أبالغ اذا قلت انه قد يعجز عن فهمها حتى اذا قرأ الكتاب وفهمه . فلعبارة مخلخلة مائعة . فما المقصود بكلمة « غاية » أهي نهائية أم نسبية . وما المقصود « بالموجود » أكلي أم جزئي . وما المقصود « بوسط » أمادي أم معنوي . وما المقصود « بالوجود » أهيولاني أم روحاني ؟

ويقول ان الكتاب « صورة اجمالية لمذهب » ، واذن فالكتاب ليس في مذهب ولا في أساسية فلسفية ، وانما هو صورة اجمالية من مذهب ، حوول فيه تفسير الوجود على أساس الزمان وان المؤلف حاول تحقيق هذه الغاية للانسان . ومن هنا يظهر ان الكتاب برغم انه « صورة اجمالية » لمذهب ، فالعلة فيه محاولة أريد بها تحقيق غاية لم تحدد ، وان هذه الصورة الاجمالية وتلك المحاولة . قد استحق بهما مؤلف الكتاب درجة في الفلسفة ، ولقب أول فيلسوف مصري ، على ما يروى عن الاستاذ طه حسين ، ولعلها أسطورة .

ولقد يدلنا هذا التصدير على حالة نفسية غير مستقرة تفسيرها : انك اذا سألت المؤلف أهذا مذهب ؟ قال لا : انه صورة اجمالية من مذهب . واذا سألته أفيه أساسية فلسفية يدور من حولها المذهب قال لا : انها محاولة . فالكتاب اذن « صورة اجمالية » لمذهب فيه محاولة تحقيق شيء غامض مبهم » . وثمن هذا ، درجة في الفلسفة .

ولعلي لا أخطيء اذا تخيلت ان موجة من الرمزية المكفوفة تسوق أمامها الفكر في هذا العصر ، فتعدت الفن والادب الى الفلسفة . فقد يصور لك المصور صورة حيوان برأس فيل وقوائم حصان وقرن كركدن وذنب عقرب وأجنحة ظليم . فاذا سألته أي حيوان هذا قال : انه صورة اجمالية من حيوان . واذا سألته أي قصد قصدت من تصويره قال: انها محاولة لا صورة . فأمامك حيوان ولا حيوان ، ومحاولة ولا صورة . أما اذا سألت الفيلسوف : أهذا مذهب : قال انه صورة اجمالية من مذهب واذا سألته الى أي قصد رميت : قال انه محاولة بلا قصد . فأمامك مذهب ولا مذهب . ومحاولة ولا قصد .

وأظن اننا سوف نتقدم لرجال لجنة الامتحان بعبارات من هذا الكتاب غمضت علينا نسألهم تفسيرها ، حتى نكون فيما سوف ننقد من نقد ، بعيدين كل البعد عن كل عوامل الاعتساف ، أو التفرد بتفسير عبارات بلغ بها الغموض مبلغاً قصياً .



المرأة والمجتمع (*)

سيداتي سادتي : يسرني أن أقف الليلة محامياً عن المرأة ، مدافعاً عن حريتها ، مصححاً لكثير من الآراء الخاطئة التي أحاطت بقضيتها . والحق انني لست الاول في هذا ، فان كثيرين من الكتّاب الحديثين راجعوا الموضوع وغربلوه ، وراجعوا أصوله ، واستعرضوا المسألة بيولوجيًّا وفسيولوجيًّا، وسيكولوجيًّا، فأمكن أن يضعوا الكثير من الأمور في نصابها. ولقد تناول الباحثون دراسة المرأة : (أولاً) على ضوء الفروق الفسيولوجية والتشريحية بينها وبين الرجل . (ثانياً) على ضوء الفروق السيكولوجية بين المرأة والرجل . (ثالثاً) على ضوء الاحصائيات والأرقام . (رابعاً) على ضوء الوقائع المثبتة في التاريخ والسير . (خامساً) على ضوء البيانات والحقائق المستمدة من علم الحياة — وبخاصة ما جرى في سلسلة التطور — واني شخصيًّا أفضل أن أبدأ من هذه النقطة الأخيرة ؛ لأصل الى نقطة تهمني جدًّا في البحث ، وهي ان المشكلة كلها نشأت من ان الانثى رضيت أن يكون نصيبها من العمل حفظ الذرية ، بواسطة التناسل ، والسهر على النوع ورعايته خوفاً من انقراضه . وتركت للرجل النصف الثاني من العمل ، وهو جلب القوت ، والتنقل في سبيله ، والتفنن في اجتلابه . معنى ذلك أنها اضطلاعاً منها بالمسئولية الكبرى ، وهي حفظ النوع وانتشاره ، رضيت أن تبقى حيث هي في مكانها — على رأي الانكليز Tends & attends — ومعها أولادها ، في انتظار ما يأتي به الرجل ، أي انها رضيت في سبيل المصلحة العامة ان تعتمد على الرجل وتركت له أن يعولها اقتصاديًّا، مؤمنة بأن قيمة العمل المنوط بها جديرٌ بأن يعادل ما فقدته من حريتها الاقتصادية ، جديرٌ بأن ينسيها الأسر والقيود التي كبلتها بها الأمومة بالنسبة للحرية التي يملكها الرجل والتي أعطته صورة من صور السيادة أساء استعمالها فيما بعد . إن المسألة البيولوجية مشت على الوجه الآتي : كل الذين درسوا علم الحياة ، يعلمون أن الاميبا تنقسم عدة أقسام لا تلبث أن تنفصل ويصير كل منها جزءاً مستقلا . ولقد كان في الامكان أن تظل هذه الوسائل قائمة ، أي انقسام الخلايا ، ما دامت هذه هي الطريقة

(*) ألقيت بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول في شهر ابريل

التي يتكوّن بواسطتها الجنين وينمو . . . ولـكن الذي جرى أن الطبيعة ، حرصاً منها على الذرية ، رأت في مرحلة التطور الثانية ، ان يبقى الصغار على الأم حتى ينضجوا ، ورأت كذلك ان من الجائز ان يعطوا عملاً بدل بقائهم على الأم عاطلين ، فلما أعطوا عملاً مختلفاً تميزوا ، ولما تميزوا ، صار هناك ذكر وأنثى بعد ان كانوا متشابهين ، فلما انفصلوا عن الأم صار كل نصف يبحث عن نصفه الضائع ، وهذا هو الحب في أول حواشيه . فاذا التقى الذكر بالأنثى ابتلعته انثى وطوته في داخلها ، ثم جعلت حولها سوراً يتكوّن في داخله المخلوق الجديد ، وكل ذلك يحدث في مكان أمين . . . هو ما نسميه نحن الآن Home أو Foyer . من ذلك الوقت اصطبغت بصبغة الأمومة ، واصطبغ الرجل بصبغة الحارس الحامي للذمار الجالب للقوت المتفنن المغامر . ومن ذلك الوقت صارت الأمومة صبغة الانثى التي لا تفارقها — وصارت الحركة والمغامرة ومظاهر القوة من خصائص الرجل التي لا تفارقه . . . وصارت العاطفة الطابع الخاص للمرأة ، بصفتها أمّـا تضم حولها صغارها برباط المحبة ، وتجتذب الذكر بصفات العطف والحنان . وصار التعقل والتخيل والتحايل والابتداع أشياءً أساسية في حياة الرجل ومنطبقة على طبيعة عمله الذي وصفناه وهو طلب الرزق وجلب القوت ...

وما دامت الحياة في أساسها استجابة لعوامل خاصة ، فقد صارت فسيولوجية الانثى عند ما تطوّرت وصارت امرأة انسانة ، مماشية لخصائصها كامرأة ، وصار تشريحها عند ما تطورت مماشياً لخصائصها كامرأة ، وصارت سيكولوجيتها ، مطابقة لوصفها كأم تتناسل وتكلف بتربية الأولاد والسهر عليهم ، ولما كانت الحياة كذلك تفاعلاً بين الشخص والوسط ، فقد كان خُـلـقُ المرأة ـ من حيث ان الخلُـق ـ هو كيفية تصرف ، استجابة لعوامل الوسط .

ولقد كانت استجابتها لـكل ما كلفت به كاملة ورائعة . وقامت بواجبها على أتم ما يمكن وساعدتها الطبيعة أحسن مساعدة ، فمن جهة الفسيولوجيا منحتها تركيباً فسيولوجيّـا مطابقاً كل المطابقة لما أعدت له ، فان تركيبها العصبي في شدة حساسيته ، وفي استجابته السريعة للمؤثرات ، والغدد الصمّ في المرأة وافرازاتهـا المدهشة ، كل ذلك وغيره ، ساعدهـا على أن تؤدي وظيفة المرأة الأم أحسن تأدية . ومن جهة التشريح : أثبت علم التشريح المقارن ان المرأة هي التي تحمل علم التطور . ولقد قال هافيلوك : أليس بحق أن المرأة هي التي تحمل علم شباب الانسانية . بدليل ان في الطفل والمرأة تركيب الرأس وغير ذلك من دلائل التطور ، تدل على أن التطور هو فيهما وبهما . . . وأما الانسان البالغ ، فـكلما تقدم في العمر ، ينحدر شكله الى شكل القرود ، فهو بذلك يمثل مرحلة سالفة ..

فمن يقول إن المرأة أقل في أي صفة تشريحية أو فسيولوجية فهو مخطىء . . . واذا

اعتقد أحد ان الرجل يزيد في صفة من هذه الصفات عن المرأة فقد ضلَّ الصواب . فلقد نسمع من يقول إن وزن المخ يختلف ، أو أن هذا العضو أو ذاك أكبر في الرجل من المرأة . ان المرأة مخلوق كامل في نفسه ، ومن حيث وظيفته كامرأة — والرجل في ناحية تام التركيب كرجل ، فلا معنى اذاً للتفاضل .

نأتي الآن لنقطة هامة جداً ، وهي مسألة السيكولوجية . وهذا أهم ركن في موضوعنا هذا . لقد نشأت الخصائص السيكولوجية للمرأة من شيئين — الاول : طبيعتها كامرأة ، والثاني : من وظيفتها كأم — ولقد قال الباحث ڤارنج انه في عدة قبائل كان الرجل مكافاً بما تقوم به الأم الآن من تكاليف البيت والسهر على الأولاد ، والأم مكلفة بما يقوم به الرجل الآن من السعي وراء القوت . فكان للرجل خصال المرأة ، وللمرأة خصال الرجل . . ومن يدري لعله لو طال العهد بذلك لحدث ما نسميه الخصائص الثانوية للجنس ، أي لالتحت المرأة ونعم جلد الرجل ورقّ صوته . . . وعلى كل يقول ڤارنج : انه من الظلم أن نجعل وجهاً للمقارنة في عصرنا الحاضر بين المرأة وبين مدنية ، هي في الواقع « مدنية رجال » ! إذ الصواب أن نقارن بين مدنيتين ، واحدة من صنع المرأة والأخرى من صنع الرجل ...

أما وظيفة المرأة فجعلت مركزها الاجتماعي الحالي مخالفاً لمركز الرجل . ولم يكن كذلك في العصور القديمة ، فان حركة مطالبة المرأة بحقوقها ، حركة حديثة جداً ، والسبب في ذلك ان مركز المرأة قديماً كان مركزاً لا جدال في أهميته في العائلة . فقد كانت هي التي تحيك ، وتطبخ ، وتقوم بالجملة بكل احتياجات المنزل ، وكان الرجل يأوي الى هذا المكان الذي هو كله . وكل شيء فيه ، من صنع ، يدي المرأة وتدبيرها . فلما أخذ العالم يصير ميكانيكيًّا صناعيًّا ، أخذت أغلب الأشياء التي صنعتها المرأة بيديها في المنزل ، تصنع في الخارج ، وتشترى من السوق ، وزاد على ذلك ان الرجل نفسه هجر ذلك الوكر الذي كانت المرأة تتفنن في اعداده ، رويداً رويداً ، لأنه شغل بمهام العصر الميكانيكي الصناعي واندمج فيه ، وقد مرّ عليه وقت كان هو هو ذاته يعمل بيديه ويخلق من فكره . فصار آليًّا ، استعبدته الآلة وقضت على فنه . ولكنها لم تقلل من غروره واحساسه بالسيادة والسلطة .

الخلاصة من ذلك ان المركز الاجتماعي للمرأة تقلقل بتقلقل القيمة التي كانت لها في البيت والعائلة . وبتغير العصر وصيرورته آليًّا ميكانيكيًّا . ولما أخذت المرأة تنادي بحقها ، كانت في الواقع تنادي بوضعها في مكانها الذي كانت قيمته عالية ومُقدرة ، فصار الرجل يتهمها بسوء الخُلق ، والخروج على المألوف ، ويندد بصيحتها ، وأخيراً صار هناك من يقول إن المرأة يجب أن تعود إلى المنزل ، وفاتهم شيء يجب أن يلتفتوا إليه ، فاتهم شيء

عميت عنه أعينهم ، وهو أن العالم تغير بتاتاً ، وإن المرأة لا تستطيع أن تعود لما كانت عليه منذ آلاف السنين ، بل يجب أن نجد حلاً يتفق مع أمرين : طبيعتها كامرأة، ومركزها الجديد في العالم الحديث المتغير . يجب أن نضع الخمر القديم في زجاجات جديدة . أما من يقول ان ذكاءها أقل من الرجل فهو واهم . ما هو الذكاء ؟؟ الذكاء هو سرعة الادراك ، وسعة الخيال ، والانتباه . أما سرعة الادراك فواضح جداً في المرأة ، بل إنا لنجد ذلك في روايات كثيرة ، فانه اذا ارتبك الرجل والمرأة في موقف ما ، فان المرأة هي التي تلمح شبح الخطر ، وهي التي تنقذ الموقف ، ومن سرعة الادراك ما يسمى بالتأثرات الثانوية ، أي مقدار ثبات المدركات الحسية في اللاشعور . فلقد ثبت ان المرأة يبقى في ذاكرتها الأثر الصغير لمدة طويلة . أما الخيال ، فلا ينقصها ، وان كان الرجل يمتاز عنها فيه . ويبقى الانتباه ، Interest . وأعتقد أن كل ما يعاب على المرأة من جهة عدم نجاحها في العلوم والرياضيات ، ليس ناشئاً من قصور ذكائها ، بل من عدم ميلها وانتباهها لهذه الناحية ، لأنها لا تتفق وعاطفتها السيكولوجية المبنية على الانفعال . والانفعال لا يُعنى بالتجريد ، بقدر ما يعنى بالحقائق الجامدة Concrete

ينقلنا هذا إلى انفعال المرأة Emotion فان تركيبها كأم ، جعل العاطفة محور حياتها ، وغددها جميعاً تخصصت لذلك . وطبيعة الانفعال تميل إلى النظر للحقائق والجوامد .

ومن هذا كانت المرأة مقتصدة أكثر من الرجل ، لأنها تميل إلى الجمع والتجميد .

ومن هذا كانت المرأة لا تميل إلى التحليل ، بل الى الأخذ بجملة الشيء .

فاذا أحبت أحبت بلا تشريح ولا تدقيق . وإذا نظرت في حساب نظرت للجملة . وإذا نظرت لقضية سألت عن النتيجة . وإذا اقتنعت لم تقتنع بالكلام والشرح ، بل بحقيقة ملموسة ، كهدية أو فستان . من هذا يتضح أن المرأة عملية ، بينما الرجل خيالي .

ولقد اتضح من الأرقام والبيانات في المدارس والجامعات ان البنات أميل إلى النظام ، وأكثر اجتهاداً وأحسن نتيجة ، وان كان ينقصهن الخَلْقُ والابتكار ، ويختلفن عن الذكور في أنهن يستطعن أن يركزن فكرهن في أكثر من شيء واحد في وقت واحد ، وذلك لضيق الوعي عندهن . ولكن الاختلاف ناشيء على كل حال من أن المرأة ذات طبيعة انفعالية لا تساعد على التجريد والتخيل . وكذلك لا تساعد حدة الانفعالات على النبوغ في الفنون والآداب ، لأن الفن الخالد محتاج إلى انفعال لا يغمر الوعي ويغرقه .

فهؤلاء الذين يقولون ان ذكاء المرأة ناقص يتكلمون عن الذكاء ككمية ، بينما الذكاء عناصر تكون معاً مزيجاً اسمه (ذكاء) والصفة هي التي تختلف . وبينما الذين يقولون ان

المرأة لا تنفع لهذا الشيء أو ذاك، يجهلون طبيعة المرأة كل الجهل . فان في طبيعتها ما يؤهلها لأعظم الأعمال . خذوا مثلاً، طبيعتها العملية، وخذوا مثلاً نجاحها في المسائل الاقتصادية، وخذوا مثلاً اهتمامها بالحقائق الملموسة، وإيمانها بالواقع المحسوس، هذه الفضائل بقيت محصورة في دائرة العائلة، وعلى مرّ الأجيال، نسيت هاته الفضائل، وصارت البنت تنمو في وسط تسمع فيه تحقيرها بأذنيها، وترى تفضيل الذكور عليها، وكثيراً ما تسمع ذمًّا في جنسها كله، مما أضاف إلى الثورة الحاضرة، وجعل للمرأة عذراً في المناداة بحقوقها، والواقع انها لا تنادي بحقوق، وانما تنادي باستعادة مكان ضائع، والاعتراف بفضائل أنكرت.

فاذا نظرنا إلى المجتمع، الذي تنادي بالدخول في غماره، وجدناه مكوّناً من شيئين: أحدهما كمالي وهو الفنون والآداب . فاذا سلمنا جدلاً أنها بطبيعتها لا تنبغ فيهما لأن الفن والأدب يستلزمان مؤهلات خاصة، نتركهما للرجل يتمتع بهما ويخلد فيهما - والثاني ضروري - بل هو المجتمع بأجمعه، وهو الصناعة والسياسة . ومن جهة الصناعة فحسبكم روسيا الحديثة، فان المرأة أثبتت هناك ان هذا مجالها، ونجاحها في المسائل الصناعية جعل لها مكاناً ممتازاً، ومن يدري ربما كان انتاج روسيا الرائع في الآلات وغيرها هو من زيادة الأيدي باقبال النساء على الصناعة . ولقد أقبلنَ عليها بدون أن يضايقهنَّ الحمل والولادة، فقد تكفلت الحكومة بمراعاة الحوامل، والالتفات للأولاد، حتى لا يكون منهم عائق للأمهات .

أما من جهة السياسة فقد راجع «برداخ» عصور النساء اللواتي تولينَ الحكم . فوجد ان عصورهنَّ من أزهى عصور التاريخ . وذكر ذلك انه في اكثر القبائل نجد النساء هنَّ اللاتي يتولينَ حل المشاكل ويتفاهمنَ على المسائل الكبرى .

وكذلك اثبتت البيانات الحديثة، وبخاصة في الحرب الحاضرة، نجاح المرأة في الأعمال الكتابية والادارية . اذا كانت هذه هي المرأة : هي السبب في عمران العالم، وهي التي قبلت التضحية، وهي التي رضيت باستعباد الرجل على شرط ان تحفظ قيمتها - وقد ظلمها الرجل، وأشاع انها قاصرة العقل، وأنكر عليها مواهبها - وحين يتغير العصر، وتعصف بالدنيا احوال جديدة، وحين تريد هي أن تبذل مواهبها الكامنة وتقدم استعداداتها للمشاركة في اصلاح العالم، يجيء من يقول لها : مكانك البيت ! فنلتفت لنرى « البيت ». فاذا الحال غير الحال . . تراه مقفراً وقد خلا من معاني العائلة، وترى الرجل في حياته الجديدة، حياة العمل وحيداً، وتجده مرتبكاً، وقد ستر متاعبه بأنانية كاذبة ؟ أليس لها الحق في أن تقتحم هذا المجتمع ؟ أعتقد أن لها الحق وأعتقد أنها ستفوز . . . .

دكتور ابرهيم ناجي



الاتحاد القومي

داؤه وأدواؤه (1)

— ٢ —

تنبهت أمم أوربا منذ مئتي سنة وأكثر الى وجوب التخلي عن نعراتهم الدينية والطائفية وحصر تلك النعرات، وما بنيت عليه من عقيدة الدين ورسومه ورموزه ضمن نطاقها الطبيعي أي المعابد، وما يتصل بذلك عن قرب كمعاملة رجال الدين والدور الأسقفية والأوقاف المنتمية اليها ونحو هذه الامور . وأما في ماخلاها ، وهو القسم الأكبر من مظاهر المعيشة وأحوال الحياة ، فقد أقاموا الرابطة الوطنية مقام تلك النعرات، وحمدوا كل الحمد مغبة هذا التعديل وهذا الاستبدال كما حصلوا عليه من راحة أيديهم وراحة بالهم وطيب سمعتهم في المدنية والرقي ومن معـزة جانبهم ونيلهم الشيء الـكثير من ربح مادي ومعنوي . أفلم يكفنـا نحن اننا تأخرنا في هذا السبيل النبيل مئتي سنة عن أمم اوربا ، وهم في الاصل تلاميذ وطننا برقيهم وتنورهم . تلاميذ هذا الشرق اليائس وأبنائه عند احتكاك أجدادهم بأجدادنا في أثناء الحروب الصليبية بسورية ولبنان وفلسطين ، مدة تقارب مئتي سنة وكان منتهاها في نحو سنة ١٣٠٠ للميلاد . ثم باحتكاك الأجداد بالأجداد في بلاد الأندلس مدة ٧٥٠ سنة . وكان منتهاها في نحو سنة ١٤٧٠ للميلاد . وهذا التبدل المجيد المعقول بتغليب الرابطة الوطنية على كل رابطة سواها لم يقتصر على المشهور من أمم الغرب المبتدئة ذرة العلم والأدب والفلسفة والفن والصـناعة، بل تجاوزه إلى أمة صغيرة غير عظيمة الحظ من هذه المزايا وهي مثلنا شرقية بتقاليدها ومشاربها وان حسبت أوروبية بموقع بلادها وأريد بها الأمة الالبانية أو الأرناؤوطية . فان الالباني شـديد الحرص والغيرة على رابطته الوطنية والقومية . قليل المبالاة بكل رابطة تخالفها . أفتكون عقولنا في استيعاب هـذا الناموس العمراني دون عقول الارناؤوط عشاق الطبنجة واليطقان ؟ .

ان الغربة التي تحرم صـاحبها قوته ومعزته بحرمانه الاستناد إلى أهله ومحبيه ومراجع تربيته ومواقع غبطتهِ ، ومن ثمّ تجعله بعيداً عن الغرور والطمع والعدوان ، هي خير محك المرء في استجلاء ميوله الطبيعية وفي استلهام وجدانه وغريزته . هذا شأن الغربة التي تصفي

النفس البشرية من كثير من أكدارها وأقذارها وتوسع نطاق معلوماتها عند اطلاعها على أشياء جمة كانت محتجبة عنها . استفتوا الغربة ومن يقاسون كربتها ووحشتها في ما نحن بصدده يخبركم كل مغترب مهاجر، وأنا كنت أحدهم، ان عاطفة الحب الوطني في أعماق نفسه تنتفض من تحت رمادها، وتتأجج نارها ويسطع نورها أضعاف ما كانت عليه، فيعلم حينئذٍ علم اليقين ان الرابطة الوطنية ليس من رابطة تمادلها أو تقاربها في عموميات الحياة ، حتى إذا لقي أحد أبناء وطنه ولو لم يكن من عشرائه وأشكاله، شمله بوده وعطفه، وبذل مجهوده في إرضائه ونفعه .

ولا شك ان الذي أسلفنا ذكره من شأن النعرات الطائفية وتقاليدها بحسب العائق الأعظم في سبيل اتحادنا الوطني الذي هو شرط أساسي لا بد منهُ لأجل استحقاقنا الاستقلال وانتفاعنا بهِ واطمئناننا عليه . ولكن لا بدَّ لي من الاعتراف بأنه يعترض اتحادنا الوطني مع هذا العائق الأعظم عوائق أخرى لا يجوز غض النظر عنها وان كانت دونه سطوةً وتأثيراً ولاسيما عائقان منها . أولاً : ما تعوَّده أبناء الطائفتين في بلادنا من تفرقة وانقسام في مظاهر المعيشة من مساكنة ومعاشرة ومجالس لهو يومية واجتماعات مختلفة ونحو ذلك . فقد تعوَّدوا ان يتنحى بعضهم عن بعض في معظم هذه الأحوال . وضرورة الاتحاد تقضي بإنماء الألفة . وانماء الألفة يقضي بإبطال هذا التنحي، واقامة التمازج الكافي مقامه . والعائق الثاني: حرص أفراد من أبناء وطننا على ابقاء النعرات الطائفية بيننا مع ما فيها من عار ومضار وسعيهم في تحقيق هذه الأمنية، لأنهم يتوقعون اذا فقدوها أن يفقدوا جل ما لهم من حول وطول ومغنم . ولهؤلاء الأفراد أتباع وأعوان ينصرونهم وأناس بسطاء تجوز عليهم حججهم الزائفة . ولكن ينتظر أن يكون بين هذه الفئات أصحاب فضل وفضيلة يرضون أن يضحوا بشيء من مصلحتهم الخصوصية في سبيل مصلحة الوطن العامة . واما الباقون فلا بدَّ من اجتذابهم الى السبيل السوي بالتي هي أحسن ، وإلاّ فبالتي هي أخشن ....

وصلت الآن إلى شرط جوهري لا يقل في سمو شأنه عما تقدم معنا بيانه . وهذا الشرط هو أن يحصر نصارى العرب في بلادنا آمالهم بقوميتهم وبمن يترأسون هذه القومية ومن ينضوون تحت لوائها، حين يرون منهم اخلاصاً وروحاً وطنية نزيهة لا تجعل أقل تمييز بين فئات الوطن . ويدخل في هذه الناحية من بحثنا الحاضر الأبيات التالية من قصيدة لي نظمتها في مقام اقتضاها ولعلّ المقام الحاضر أجدر بها من ذاك :

وطنية الشهم الكريم يمينه	ويقينه ولو اللئيم ارتابا
وطنيـة الشهم الكريم نخاره	ونضاره ان داء فقر نابا

وطنية الشهم الكريم تصونه من أن يضيع الفهم والآدابا
فهو الذي يعطي القريب حسابه وهو الذي يعطي الغريب حسابا
يدري لهذا حقه في أرضه ولذاك حق الضيف يقرع بابا
لا تظهروا بالحزم ضعفاً لا ولا بالعزم عنفاً جائراً صخابا
هذي هي الوطنية المثلى التي تبغي رجالاً لم تكن أنصابا
هذي هي الوطنية المثلى التي تروي القلوب وتبرىء الأوصابا

***

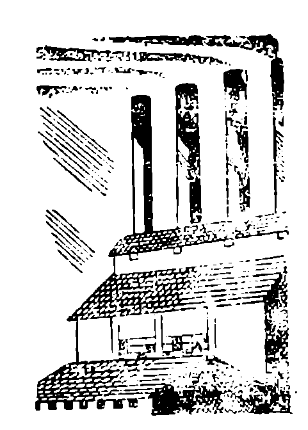
ولا بد لنا هنا من التصدي لملاحظة تخطر على بال كثيرين ومؤداها ان الطائفة الاسلامية في بلادنا هي اكبر الطوائف الدينية وأقواها ، فلا غرو ان يكون لها حق التصدر والامتياز في كل أمر من أمورنا وكل حالة من أحوالنا .

والجواب على هذه الملاحظة إيجابي محض . فالطائفة الاسلامية هي أكبر وأعظم طوائف هذا الوطن فلها حق الصدارة والامتياز . وهي حاصلة اليوم على هذا الحق بكيانها المعنوي في التعيينات والانتخابات والتشريعات وغير ذلك من مظاهر رسمية وشبه رسمية ما دمنا جارين في هذه الأمور على النسبة الطائفية ، وهو مجرى خطر قبيح مخجل كما تقدم معنا بيانه. والأمل ان نتخلص من هذه الخطة في أقرب وقت . وهيهات ان يفقد اخواننا المسلمون شيئاً اذا فقد من بيننا هذا التدبير الوبيل . فان لهم من كثرة عددهم وكثرة أهل العلم والفهم فيهم ونشاطهم ونضج تجاربهم واختباراتهم، ما يصون حقوق افرادهم كل الصيانة، فيظل مجموع ما يحرزونه فوق كل مجموع آخر ، ويظل لممثلي الدين بينهم حق التقدم في المواقف والأحوال التي لها علاقة طبيعية بالدين والطائفة ، دون ان تسطو على ما هو خارج عن هذه العلاقة مما نشاهده في خططنا الحاضرة .

إلاّ ان المسلمين والنصارى اذا ألغوا من بينهم قاعدة النسبة الطائفية في الأعمال والمعاملات فهم لا يفقدون إلاّ شيئاً واحداً . أتعلمون ما ذلك الشيء أيها السادة والاخوان ؟ انهم يفقدون حينئذٍ الخطر الداهم على جسم وطنهم الشريف وروحه الطاهرة .

ادوار مرقص

عضو المجمع العلمي العربي



إعداد الفرد
لتأسيس مجتمع صالح

لا أكون مبالغاً اذا قلت ان هذا الموضوع يشغل في الوقت الحاضر جميع الأذهان . بل سيظل شاغلاً لها ما دام الفرد عندنا على هذا الوضع وفي هذه الحال التي نرى . وان كنت في ريب من هذا ، فتسمّع الى الناس في الطريق وفي غير الطريق . في مجتمعاتهم الخاصة والعامة ، فاذا يقولون ؟ انهم يسبون هذا الزمن ويلعنون الناس . ويستجيرون بالله من فساد الأخلاق وخراب الذمم ، والكل تقريباً في تشاؤم وقليل من تراه متفائلاً ينتظر صلاح الحال . وهذه الثورة الفكرية هي في نظري أول مراتب الكمال . فما دمنا نطمح إلى الرقي وما دامت مصر ترى أن تساهم بنصيب في رفع المستوى الانساني ، ينبغي أن نعمل جادين في سبيل إيجاد فرد قوي يتكوّن منه مجتمع صالح لتلك الحياة الجديدة التي ستخلفها لنا هذه الحرب العبوس . ينبغي ان نعمل حذرين مما لا يتفق فيها مع ما ورثناه من عرف صحيح .

وسأبني كلمتي في هذا الموضوع على أساسين اثنين : —

الأول : إن الحضارات كلها تقوم على الفرد ، بمعنى ان العلم الذي أوجد الطائرة أو المذياع أو الكهرباء ، هو نتيجة عمل الفرد أولاً ، لا عمل جماعة . وعلى ذلك يجب أن تقوم الدولة على خدمة الفرد ، وأن تسير الأوضاع فيها على ذلك لا على نظم من مقتضاها أن يضيع الفرد في الدولة .

الثاني : ان سعادة الفرد خاضعة للظروف والأحوال التي تحيط به ، لا أن سعادته خاضعة لاستعداده النفسي فحسب ، كما يذهب بعض فلاسفة الأخلاق . وعلى هذا سأطرح من حسابي من يدين بهذا المذهب الأخير ، لأنهم أقلية لا يصح أن نأخذ بهم حكماً عامّـا .

ولننظر الآن الى الواقع من أمر الفرد في مجتمعنا الحالي ، وذلك بالنظر إلى ما يحيط به من حيث الصحة والمرض والغنى والفقر ، والعلم والجهل . ثم ننظر فيما يجب أن يكون عليه الفرد لتأسيس مجتمع صالح لهذه الحياة الجديدة التي سنتقابله حتماً بعد أن تضع هذه الحرب أوزارها.

فهل الظروف المحيطة بالفرد عندنا الآن ترضى عنها عزتنا القومية وماضينا المجيد ؟ وهل من شأنها أن يشعر الانسان معها في الأغلب الأعم ، بحسٍ مريح أو بحسٍ مؤلم ؟ إذا نظرنا إليها من حيث الصحة والمرض رأينا عجباً . فلقد أثبت المغفور له المرحوم عبد الواحد الوكيل بك في محاضرة له بناءً عن احصاء سنة ١٩٣٨ أن في مصر من الأمراض ما لو قسم على عدد السكان لخرج كل فرد بثلاثة أمراض . وأثبت أن مصر في وفيات الأطفال متأخرة حتى عن الهند . وأن ٧٥ ٪ من عدد السكان مصابون بمرض البلهارسيا و٥٠ ٪ بالانكلستوما . ومثل هذه النسبة الأخيرة مصابون بالديدان المعوية . وأحسبني من هذه الناحية لست في حاجة الى الكلام بعد هذه الأرقام وبعد هذه النتيجة التي تعتبر وصمة في جبين الأمة بأسرها . فهذه الأمراض تحط من قيمة الفرد مادياً ومعنوياً ، فهي من ناحية لا تمكنه من الموازنة بين انتاجه واستهلاكه،ومن ناحية تجعله في شذوذ خلقي بحيث لا يستريح معه غيره في عشرة أو معاملة . وكل ذلك وبال وخسران .

***

وإذا نظرنا في واقع الأمر مع هذا الفرد من جهة الغنى والفقر رأينا حالاً ليست بأحسن مما قد رأينا . ذلك أن النظام الاقتصادي في هذا البلد قائم على أساس ليس من شأنه أن يحقق للفرد حياة سعيدة . وإلا فأي نظام ذلك الذي يقضي بأن يأخذ ٩٣ ٪ من الملاك ٢٠ ٪ من الأراضي الزراعية، ثم يقضي بالباقي وهو ٨٠ ٪ من مجموع الاراضي لـ ٧ ٪ من عدد الملاك . ولست أقصد هنا أن نسلب مالكاً حقاً مكتسباً . فانا لو قسمنا الاراضي على الأفراد بالتساوي لما خرج الفرد الواحد بعشر قراريط . بل أقصد أن أقول إن هذا النظام نشأ عنه بعد النسبة بين طبقات الشعب. فعلى من يريد أن يعد الفرد لمجتمع صالح — والكل طبعاً مريد — عليه أن يعمل أولاً وقبل كل شيء على التقريب بين طبقات الشعب، ويكون ذلك من طريق الضرائب التصاعدية بحيث يعفى منها الفقراء وصغار الموظفين، على أن يتحمل الضريبة كبار الأغنياء بنسبة تتصاعد بزيادة الثروة . هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى لا يجوز أن تبيح الدولة لزيد من الناس أن يمتلك من الأرض القابلة للاصلاح من غير أن تشترط عليه اصلاحها في زمن محدود. فانا نرى فلاناً من الناس يمتلك من هذه الأرض ما يربو على الألف، ثم يتركها للزمن على حد تعبيره من غير أن يجري فيها إصلاحاً يذكر، وبجواره من الأسر ما لو وزعت عليهم هذه الأرض ملكيات صغيرة ، لأصلحوها واستثمروها وعادت عليهم بالخير وعلى المجتمع بالأمن .

ننظر بعد ذلك الى الظروف المحيطة بالفرد عندنا من حيث العلم والجهل . وهنا سوف لا أنظر إليها من جهة الكم أو الكيف ، بل سأنظر إلى النتيجة التي يخرج الفرد بها عندنا

من هذا التعليم . فقديماً قالوا : « القدم يدل على المسير » فهل واقع الأمر نتيجة لهذا التعليم، أن الفرد يخرج من هذه المرحلة مزوداً بالعادات والآداب العامة التي يكون لها أثر صالح في سلوكه الشخصي ، يقربه من الفضيلة ويبعده عن الرذيلة ؟

هل يخرج الفرد من هذا التعليم قادراً على أن يشق لنفسه طريقاً قويّاً في الحياة ؟ هل يخرج الفرد من هذا التعليم مغرماً بالاطلاع والبحث الشخصي بعد المدرسة ؟ هل خلق هذا التعليم للفرد عقلية ممتازة بالنظام الذي يظهر أثره في حياة الفرد والأسرة ؟ هل هدانا هذا التعليم إلى حل مشاكلنا الاجتماعية ؟ وهل أخرج لنا هذا التعليم فرداً مستقلاً في عمله حرّاً في رأيه ذا شخصية محترمة له إرادة وفكر لا يخجل ولا يتردد ولا يخاف من مسابقة نظرائه في المجتمعات الطيبة ؟ الأحوال والأرقام تنطق بالعكس . فمثلاً كان عدد المتعطلين عندنا في سنة (١٩٢٧) ٢١٦٢٤٣ أتدرون كم وصلوا في تعداد سنة ١٩٣٧ ؟ إنهم وصلوا ٤٧٨٤٨٦ أي الى الضعف تقريباً، وفي كم سنة؟ في عشر سنوات. وهذه نتيجة ليس من شك في أنها تقلق بال الغيورين على شؤون هذا البلد .

أنظروا إلى المرافق الحيوية في البلاد تروها ليست في أيدينا ولو كان توجيه التعليم عندنا حسناً لما كان هذا . نحن لا نزال عيالاً على غيرنا حتى في السماد الكيماوي ، بالرغم من أن بلادنا زراعية . أنت حينما تمشي في شوارع القاهرة الكبرى تكاد تسلم بأنك غريب في بلدك . أين نحن في هذه الناحية إذاً، ممن يحاولون الآن إسماع الصم بوساطة الأسنان؟ وأين نحن ممن يحاولون إخضاع الطبيعة لتجمع لهم غيومها في مكان واحد وتفرغ ما بها فيه . إنهم الآن يحاولون اختزان أشعة الشمس لما رأوا أن مادة الوقود يخشى من نفادها في هذه الحرب الضروس التي لا تبقي ولا تذر . الحق أن هذه الناحية هي الأخرى تحتاج إلى وضع جديد يلائم روح العصر، ويتمشى مع ما ورثنا من عرف صحيح .

***

نستطيع إذاً بعد هذا العرض السريع أن نقول إن الظروف المحيطة بالفرد عندنا ليس من شأنها أن توجد فرداً سعيداً يحيا حياة فاضلة — وطبعاً نفتح باب الاستثناء لأقليّة، هي في الواقع مثل للفرد الفاضل عندنا بلا نزاع — لذلك لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الأفراد عندنا الآن يحيون حياة مبعثرة مرتبكة مضطربة ليس فيها انسجام حتى بين أعضاء الأسرة الواحدة . بل هناك خصام وتنازع وشقاق وفوضى جرّتها علينا هذه الظروف المحيطة بالفرد . اترك الأسرة وانظر إلى نفسك في خارج بيتك وفي عملك، أترى في عملك اطمئناناً ؟ كلاّ ، بل

هناك حقد وحسد ودس ونفاق وكذب . لماذا ؟ لأن الظروف المحيطة بنا كوّنتنا على هـذا الوضع . هذا ولأن العدل الاجتماعي لم يُنَـفَّـذ بعد بكل ما تحمل هذه الـكلمة من مدلول . لذلك لا تعجب إذا أنت قد رأيت الـكذاب الذي يشيع عنك السوء لحاجة في نفسه . ولا تعجب إذا أنت قد رأيت المتزلف الذي يشبع شهوته على حسابك . وفي النهاية لا تعجب إذا أنت قد رأيت مجتمعاً مريضاً . وما دمنا نعترف للفرد بحق الحياة ، فالطريق إذاً لاعداده إعداداً حسناً أحد أمرين اثنين لا ثالث لهما : إما أن نعده شريراً خبيثاً جباناً سارقاً منافقاً ليلائم بينه وبين بيئته ، ويكيف نفسه وفق هذه الظروف المحيطة به ليعيش كما تدفعه الغريزة . وهذا طبعاً لا يرضى عنه دين ، ولا ترضى عنه فضيلة ، بل ولا يرضى عنه عقل سليم ، بقطع النظر عن الدين والفضيلة : فالفسق مثلاً لو لم يحرمه الدين لحرمته الفطرة السليمة . وإما أن نحسّن للفرد هذه الظروف المحيطة به ، وهذا هو الاصلاح من بابه . أما أن نترك الظروف تنخر في عظام الافراد ونفوسهم ونطلب منهم بالـكلام والـكلام فحسب ، أن يكوّنوا لنا مجتمعاً صالحاً ، فهذا الغالط للعقل ، ومنطق معكوس ، ووضع للشيء في غير موضعه .

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مضرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

والاَّ فـكيف تطلب من الفرد ألاَّ يسرق وأنت تسرقه . كيف تطلب منه ان يعدل وأنت تظلمه . وكيف تطلب منه أن يزهد في الدنيا وأنت منها متخوم . علموا الأفراد معنى العدل برفع الظلم عنهم . علموهم معنى الحرية برفع الاستبداد عنهم . علموهم معنى الصدق بعدم الـكذب عليهم . وما أحوجنا في هذه الناحية الى القدوة الصالحة وضرب الأمثال حين نوجه الأفراد .

***

ولتحسين هذه الظروف المحيطة بالفرد ، ينبغي أن نتجه الى التجارة والصناعة بجوار الزراعة وأن نجعل التربية هي الغرض من التعليم ، لا مجرد حشو الذهن بمعلومات فارغة لا تنفع الانسان حين يخرج الى معترك الحياة . والآن وإلى أن نحسن هذه الظروف ، ينبغي أن نعلن الحرب على أنفسنا ، فليتعرّف كل منا عيوب نفسه ، وليحاربها بغير هوادة حتى يردها الى الصراط السوي ، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

منصور رجب
المدرس في كلية أصول الدين



ذوقوا فتذكم

نشرت مجلة ساينس ديجست Science Digest الاميركية في عددها الصادر في شهر مارس الماضي مقالاً بعنوان : « الاسترخاء طريق المصريين في الحياة » نكتفي بترجمة فقرات منه والتعليق عليها ، فان ترجمة ذلك المقال بحروفه أمرٌ يجر الى أشياء نتحرز من الخوض فيها . قال الكاتب :

« منذ آلاف من السنين ، وضع المصريون مشروعاً حكومياً لتشييد المباني ، فأنتج ذلك المشروع الاهرام وأبا الهول . وإذا خدم المصري صديقاً مدفوعاً لذلك بدافع الكرم ، فقد لا يتورّع عن أن يطلب ما يسميه البقشيش . وليس هذا لأنه في الحقيقة يريد بقشيشاً ، بل لأنه يريد أن يعد العلاقة بصاحبه بمثابة كلام يستهويه به » .

«ان احتقار المصري للمال يظهر جليًّا من أسلوبه في التجارة . فاذا فرض ان رجلاً طماعاً أخذ يتاجر ، فانه يجتهد أولاً في أن يقع على شيء يحتاج اليه الناس ويشتريه بأقل مما يساوي ، ثم يبيعه بأكثر مما اشتراه به ، وليس المصري كذلك . فان المصري إذا اراد الاتجار يعمل بطريقة مصرية فذة . فيجمع قليلاً من زمارات الغاب القديمة ويضمها بعضها الى بعض أو يحصل على عناكب مصنوعة من الجص أو زجاجة فارغة من زجاجات الوسكي يضع فيها سمكات ويمشي بها في الطرق العامة باحثاً عمن يبيعها اليه » .

« لا شيء حقير عند المصري ، فلا يمعن فيه تأملاً واستبصاراً . فانه يقف أحقاباً متطاولة ليقرر بأية قدميه يبدأ المشي . وقد يظل ساعات جالساً ليقرر هل يقوم » .

« يتكلم المصريون لغة لا يشاركهم فيها أحد . ويدل على جمالها ذلك المدى الواسع الذي يستعملونها فيه . فانهم يتكلمون بغير توقف وبحماسة . واللغة المصرية المكتوبة أشبه شيء بخط محسن من الاختزال ، وقد نشأت بالطبع مع الفراعنة . ويحب المصريون الصور المتحركة الاميركية ومسرحيات وليم شكسبير ولاسيما عُطَيل » . (وقد خصّ الكاتب مسرحية عُطَيل بالذكر لأن بطلها من البربر وفيها تصوير لناحية الشهوة الجنسية وحب الانتقام والفتك)

ولا أدل على جهل ذلك الكاتب من قوله ان المصريين كالألمانيين ، يعتقدون ان تخميش الوجه يدل على حسن الخلق ، فيخمشون وجوههم

« ان صداقة المصريين تمتد الى جميع الحيوانات كبيرة وصغيرة ، من الجمل الى الصرصور . ويجدون في الحمار وسيلة أمثل من السيارات للجولان في أنحاء بلادهم »

« ان هذه الحمير هي من مملوكات هذه الأمة المتوارثة . فان حماراً مصريًّا من الصنف الجيد قد يحمل مصريًّا أثقل منهُ وزناً . فاذا ركب أب مصري حماره جلس على مؤخرة ظهره وبقية الأسرة من أمامه »

« ان المعزى دائمة في مصر . وقد تعيش في المدن أو في الأقاليم في داخل البيوت أو في خارجها ، بمقتضى حالة الجو . وقد يعامل المصريون حتى الحشرات ، معاملة القديس فرنسيس للعصافير » .

« يغشى القاهرة قطعان من البواشق الأليفة تعيش على كرم الناس . والعصافير تجثم على الموائد وتقتات بفتاتها ، وللمصريين عيون سود ، ولون يختلف من لون القهوة الممزوجة باللبن الى لون الفحم الحجري » .

« لعلمه بانه يعامل أناسي فيهم رصانة وتعقل ، تجد ان الذباب المصري آلف من غيره من الذباب في أماكن أخرى . فبدلاً من أن يطير مؤزًّا لاقل سبب ، يشعر الذباب المصري إنه في بيته ، إذا ما وقف على جبهة واجتهد في أن يبني عشه هنالك » ...

* * *

إذا قيل هذا عن مصر في هذا العصر ، فانه يدل على ان الكاتب وأمثاله إنما يستغلون شهوة الجمهور المضلل في أميركا ليكسبوا المال من أخس وجوه الكسب . فان مصر التي أنشأت أقدم مدنيَّة عرفها العالم وكانت ضفاف نيلها مرصعة بالمدن والهياكل والمعابد عند ما كانت القارة الأميركية خواء خلاء يسكنها البهور والقاطور والبوماء تتقبل هذه الهدية من ذلك الكاتب كما يتقبل البحر الواسع الجيفة المنتنة . فكم من جيفة ابتلعها البحر ، وكم من جيف سوف يبتلعها على مرّ الزمن ، فلم تكدّر من صفوه ولم تغيّر من طبعه .

إن الوجوه التي يعشش فيها الذباب في مصر لأشرف الف مرة ومرة ، من تلك الوجوه التي نعرفها في شيكاغو وعصابات شيكاغو . من وجوه آل كابوني وديلنجر وأمثالها من عصابات الكوكلوكس كلان . إن هذه الوجوه وجوه بريئة ، والجباه التي يقف عليها الذباب لا تمر بها ذكريات كذكريات استئصال الهنود الحمر ، وذكريات حروب الاستئصال التي شنها أهل جنوب أميركا على سكان أميركا الاصليين واذا أردت أيها القارىء ان تعرف شيئاً من

تعالى الله . لا ندري أصحيح ما نعلم من طبائع الاشياء ، أم **عقدة التربية** نحن بيننا وبين الواقع حجاب من الاصلاح اللفظي ، وان وسائطنا لادراك الحقائق ليست إلا حواسنا غير الكاملة المتغيرة في كل لحظة. ليكن ما نعلم منطبقاً على الواقع من أمر تلك المعلومات . فهل نحن نعلم شيئاً كثيراً من خواص الاجسام التي بين أيدينا نتخذها موضوعات للتحليل والتركيب والمشاهدات ؟ وهل نحن نعلم طبائع ما فيها من القوى ذات الآثار المادية اليومية والمستمرة في حياتنا الدنيا حتى نستطيع أن نكيف نفس الطفل ، تلك النفس الطلقة المتمردة ، وذلك العقل الوثاب الذي لا يقر على شيء ، مع اننا لا نستطيع مشاهدتنا أن نضع قانوناً ثابتاً لحركات الطفل المادية . فانه ينط في البيت وفي الارض من هنا الى هنا ، ولو شددنا وثاقه لظلت تلعب أطرافه في كل الاتجاهات .

ليس معنى ذلك أن نكف عن البحث في قوانين التربية ونيأس نهائياً من الوصول الى اكتشاف الغرض الاخير ، والوسائل المؤدية لهذا الغرض لنحصل على المثل الأعلى للرجل . ذلك ما لا نريد ، وفي ظني اننا لو أردنا لما استطعنا تنفيذ تلك الارادة ، لان هذا الشوق الى الكمال يظهر عليه انه بعض طبائعنا . ولكننا نرمي بما نقول الى أن التربية الانسانية عقدة ما ظنناها حلت الى الآن ، فلا بد أن يكون الخوض فيها مصحوباً بالمحاسبة بعض الشيء . ويكون تقرير خير الطرائق بغلبة الظن لا بالصورة القطعية .

احمد لطفي السيد باشا

نقلا عن الجزء الثاني من « المنتخبات » هدية المقتطف المقبلة

تاريخ هذه الوجوه التي لا يعشش فيها الذباب ، فارجع الى كتاب « سياحة حول الأرض » للعلامة داروين لتعرف كيف يكون فن القتل وفن الافناء بدم أبرد من أن يحس به الذباب الذي لا يعشش في وجوه أولئك .

نعم اننا لم نخترع المدفع الرشاش، ولا البارجة الحربية، ولا القنابل السامة . وخير لنا ان يعشش الذباب في وجوهنا من أن يخترع لنا التاريخ ذباباً خاصاً يرصع به جباهنا تلقاء تلك المخترعات ، أشبه بذاك الذي سيخترعه لاولئك الذين نشأوا مدنية صناعية مادية، ثم أخذوا يقوضونها ، لأن أرواحهم لا تحتمل الذباب، إذا أراد أن يعشش في وجوههم

إن مصر والشرق العربي كله من ورائها لن تنمى حسنة تأتيها من إنسان . ولكنها لن تتجاوز عن سيئة ترمى بها . وان الامة الأميركية الحرة ، لتنظر الى أمثال هذا الكاتب نظرة استخفاف ، عالمة ان تبادل الاحترام بين الشعوب أساس المودة والاخاء وتبادل المنافع .



الانجليزية الاساسية

يكثر الكلام في هذه الأيام عن لغة جديدة تسمى « الانجليزية الاساسية » أو Basic English . وكلمات هذه اللغة انجليزية ولكنها ليست كل الانجليزية، إذ هي لغة كاملة بمعنى ما، أي من حيث التعبير عن الحاجات المألوفة سواء بالحديث أم بالكتابة . وكلماتها ٩٤٦ كلمة مختارة من الكلمات الانجليزية التي يجري استعمالها أكثر من غيرها، كما تمتاز أيضاً بوضوح معانيها، وقواعدها هي قواعد اللغة الانجليزية ، بحيث ان من يتحدث بها أو يقرأ بعض مؤلفاتها من الانجليز أو الأميركيين، لا يشعر بأنه يقرأ لغة جديدة تقل كلماتها عن الف كلمة.

وقد كثر الاهتمام هذه الأيام بهذه اللغة التي وضعها صاحبها « أوجدين » منذ أكثر من خمس عشرة سنة . والسبب في هذا الاهتمام يعود إلى الاتجاهات والفكريات الجديدة التي بعثتها هذه الحرب . فان الدنيا كلها تكاد تلهج بلهجة فكرية واحدة ، هي ان هذا الكوكب يحتاج الى نظام للأمن العام يعمه كله، فلا يجوز لأمة أن تثب فجأة الى الغزو والفتح كما فعلت المانيا . وهذا الاتجاه هو الذي نجده في ميثاق الاطلنطي، وفي الحريات الأربع، وفي كثير من خطب الرئيس روزفلت، وتصريحات المسئولين في الأمم المتحدة .

ولا بد أن الاتجاه نحو نظام كوكبي ، يعم فيه الأمن والطمأنينة جميع الأمم الصغيرة والكبيرة ، يبعث أيضاً الاهتمام أو على الأقل التفكير في لغة عامة . وليس هذا التفكير جديداً في أيامنا ؛ وليست الحرب القائمة السبب الوحيد فيه . فاننا كلنا نذكر لغة « اسبيرانتو » ولغة « نوفالي » اللتين حاول الذين وصفوهما وروجوا لهما ، تعميمها بغير نجاح كبير . والميزة الكبرى لكل من هاتين اللغتين انها تحتوي كلمات ترجع في أصولها وتأليف جملها إلى اللغات الاوربية بحيث ان الانجليزي أو الفرنسي أو الهولندي أو الالماني لا يجد مشقة كبيرة في تعلمها . ولكن كلاً من اللغتين جديدة . أما « الانجليزية الاساسية » فليست جديدة ، لأن الذي يتعلم الانجليزية يعرف كلماتها ولا يجد كلمة واحدة غريبة فيها . وقد كان غرض « أوجدين » واضع هذه اللغة أن يهتدي الى لغة اقتصادية تحوي جميع الكلمات الضرورية ، بحيث يمكن الأجنبي أن يتعلمها في نحو شهرين أو ثلاثة أشهر . وقد جمع نحو تسعمئة كلمة عني باختيارها

عناية كبيرة جدًّا . وحسب أن المتعلم لا يحتاج الى أكثر من شهرين إذا كان سيستظهر خمس عشرة كلمة كل يوم أو ثلاثة أشهر إذا كان سيستظهر عشر كلمات فقط كل يوم . ومما يدل على قيمة هذه اللغة انه أمكن تأليف الكتب الجدية بها في العلوم والآداب والاجتماع والتاريخ الخ .

ويجب هنا أن نزيل التباساً . فان « الانجليزية الأساسية » ليست كل ما يجب على المتعلم أن يتعلم . ولكنها هي البداية التي تمكن المبتدىء من قراءة أكثر من مئة كتاب ألفت بها، وأيضاً من التوسع بتعلم كلمات أخر . والنجاح الأول يحفز على الاستمرار في التوسع والدراسة . ولذلك فان المستر « أوجدين » الذي وضع ٩٤٦ كلمة قد ألف معجماً يحوي عشرين ألف كلمة مشروحة بالانجليزية الأساسية .

وكلمة « الأساسية » تعني ان اللغة تتصف بصفة الأساس . وهي كذلك . وقد قصد المؤلف إلى هذه الغاية . ولكنه مع هذا يقول ان الكلمة Basic مؤلفة من حرف B لكلمة بريتش أي بريطاني . وحرف A لكلمة اميركان أي أميركي . وحرف S لكلمة سينس أي العلم . وحرف I لكلمة انْتَرْنَاشْنَال أي الدولي أو العالمي . وحرف C لكلمة كوميرشيال أي التجاري . فكلمة « بيسيك » تعني انها لغة بريطانية اميركية علمية عالمية تجارية .

واللغة كلها مؤلفة من ٩٤٦ كلمة انجليزية ، وليس فيها من الأفعال سوى ثمانية عشر فعلاً ، وسائر الكلمات أسماء وحروف وظروف الخ . وقد اختيرت هذه الكلمات باعتبار إنها ضرورية كثيرة الاستعمال . فنحن نجد فعل Will بمعنى يريد، ولكننا لا نجد فعل Shall بهذا المعنى ، لأن الأول قد أغنى عن الثاني . ونحن الذين تعلمنا الانجليزية وحطمنا رءوسنا في تفهم الفروق الرقيقة الدقيقة بين Shall و Will نأسف لأننا لم ندرك « الانجليزية الأساسية » .

والآن لا بدّ أن نتساءل : كيف اختار المستر « أوجدين » هذه الكلمات والى أي المبادىء استند ؟

والاجابة على هذا التساؤل نقول : ان المستر « أوجدين » قبل أن يكون لغويًّا كان من رجال السيكلوجية أي علم النفس المعدودين . وقد وجد نفسه انه وهو يؤلف كتاب « معنى المعنى » انه استغرق في دراسات حملته على أن يبحث الكلمات من حيث قيمتها في التفكير . فوجد أن بعضها يؤدي الى الدقة والفهم . وبعضها لا يؤدي الى غير الغموض والابهام . ووجد ان في الانجليزية من المترادفات واشباه المترادفات ، ما يمكن الاستغناء عنه دون أي نقص أو خلل يصيب التعبير . ففكر في إيجاد لغة يتيسر تعلمها في أقل الوقت وبأقل المجهود ، فكانت « الانجليزية الأساسية »

والباعث الأصلي ان « أوجدين » أراد الوصول الى لغة دقيقة مُحكَمة تؤدي المعنى الذي نريد

بلا زيادة وبلا نقص، كما يدل على ذلك اسم كتابه « معنى المعنى » فهو في هذا الكتاب يشرح التغيرات التي تطرأ على معاني الكلمة بانتقالها من مناخ ذهني الى مناخ ذهني آخر . وبعد عناء ودراسة فكر في إيجاد لغة حسنة يتيسر تعلمها في أقل الوقت وبأقل المجهود . فكانت « الانجليزية الاساسية »

ففي اللغة الانجليزية مثلاً كلتا small و little بمعنى واحد تقريباً ، وكذلك large و big وكذلك commence و begin وكذلك band, riblon, strip وكذلك skin, rind, jacleet, peel وكذلك thread, toine, cord, string, rope فهو يستغني بكلمة عن هذه المترادفات . فهو يأخذ thread بمعنى خيط فيسمي الحبل « خيط ثخين » a thick thread ويستغني بذلك عن rope و cord و twine; و strip وهو يستعمل skin بمعنى جلد للانسان والشجرة والثمرة .

والغرض الأول من « الانجليزية الأساسية » هو تيسير اللغة لمن يريد تعلمها من الغرباء عنها ، وكذلك تيسيرها للمبتدئين من أبنائها . أما الغرض الثاني فهو امكان استعمالها لغة اضافية لجميع أبناء الامم الأخرى . لأنها تفضل لغتي الاسبيرانتو والنوفالي . اذ هي تمتاز منهما بانها كما قلنا — ليست جديدة إذ ينطق بها أكثر من مئتي مليون، وهي حافلة بالمؤلفات والصحف . في حين ليست للغتين الآخريين شيء يستحق الذكر من المؤلفات أو الصحف . وقد أدخل المستر «أوجدين» في لغته اكثر من خمسين كلمة تستعمل في جميع اللغات مثل تليفون . اتومبيل . تلغراف . راديو . بار . هوتيل . كاوب . فالأجنبي الذي ينوي تعلم « الأساسية » يجد قبل أن يتعلم منها حرفاً، انه يعرف نحو خمسين كلمة منها، لأنها كانت جميعها في لغته الأصلية.

ثم هو عندما يتعلم هذه اللغة يستطيع أن يتوسع . وهو في توسعه سيحتاج إلى كل كلمة من « الأساسية » إذ ليست فيها كلمة مضيعة أو مخزونة أو نادرة الاستعمال ، كما هو الشأن في جميع لغات العالم .

وقد اختار «أوجدين» لهذه اللغة ثمانية عشر فعلاً ، واستغنى عن جميع الافعال الأخر في اللغة الانجليزية . وأفعاله هذه هي

Come, get, give, go, keep, let, make, put, seem, take, lie, do, say, see, send, begin, may, will

وقد نعجب كيف يمكن أن تكفي ثمانية عشر فعلاً للغة ! ولكن « أوجدين » يستعمل الأسماء الكثيرة مع الأفعال القليلة ، فيصل منها إلى كل ما يحتاج اليه المتكلم أو الكاتب في الحاجات المألوفة . ولننظر مثلاً إلى فعل go فان هذا الفعل يمكنه أن يؤدي نحو عشرين معنى فنقول مثلاً :

يحيط	go round
يعبر	go across
يسافر	go away
يتعقب	go after
يعود	go again
يهجم على	go against
يسبق	go before
يمر	go by
ينزل	go down
يذهب ليحضر	go for
يجري	go very fast
يدخل	go in
يتابع	go on
يطوف	go from place to place
يخرج	go out
يخترق	go through
يزور	go to
يصعد	go up
يشاكل	go with

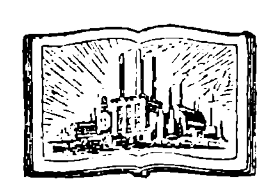
وفي اللغة الانجليزية نحو أربعة آلاف فعل، ولكن «أوجدين» يقول ان استعمال ثمانية عشر فعلاً يقوم مقامها، أوعلى الأقل يقوم مقام أكثرها وهو هنا بمثابة من يستعمل فعل ذهب فيقول:

ذهبت حول الحديقة بدلاً من طوّفت. وذهبت من جانب الى آخر بدلاً من عبرت.
وذهبت الى الاسكندرية بدلاً من سافرت. وذهبت خلفه بدلاً من تعقبت.
وذهبت الى سفح الجبل بدلاً من نزلت. وذهبت الى قمة الجبل بدلاً من صعدت.
وذهبت بسرعة بدلاً من عدوت. وذهبت الى منزله بدلاً من زرته.
وذهبت خارج الغرفة بدلاً من خرجت. وذهبت الى الغرفة بدلاً من دخلت.

وواضح ان ثمانية عشر فعلاً تستطيع أن تؤدي مع نحو ثمانمئة اسم وحرف وظرف، آلافاً من المعاني، اذا اتبعنا هذا الأسلوب. وهذا الاقتصاد في الكلمات يشجع الاجانب على تعلم الانجليزية. فان اللغة كلها تكتب كلماتها في ورقة واحدة تلحق بالكتب المؤلفة بهذه اللغة، وهي كما قلنا تزيد على مئة كتاب تعالج الفنون والعلوم والآداب وتترجم مجلداتها من مئة صفحة الى أربعمئة أو خمسمئة صفحة.

وسواء قدّر لهذه اللغة أن يتعلمها أبناء الأمم الأخرى أم لا، فانهُ من الجلي أن الطريقة التي ألفت بها، تجعل تعلمها للمبتدئين ميسراً. وكثير ممن شرعوا في تعلم الانجليزية انقطعوا عن متابعة الدراسة وهم في وسط الطريق لوفرة ما فيها من كلمات تزحم الذهن وتبلبله، مع أن القليل من هذه الكلمات المختارة في «الانجليزية الأساسية» يكفي للتعبير الدقيق والفهم الصحيح. وإذا كان المبتدىء سيجد نفسه قادراً على أن يقرأ نحو مئة كتاب في مختلف المعارف البشرية، فانه سيتجرأ ويتغلغل في الانجليزية، وعندئذٍ تنفتح أمامه مملكة كبرى من ممالك الفكر، لا يقل ما يطبع فيها في اليوم عن مئتي كتاب جديد.

سلامه موسى



الاتجاه الحضاري

لديمقراطية الغد

تجوز الانسانية اليوم مرحلة حاسمة من مراحل تاريخها الحافل ، وتشرئب أعناق روّادها والمهيمنين على أقدارها إلى رحاب الآفاق الجديدة ، ليتلمسوا من بين أحداث الحاضر ووقائع الماضي أوضاع الحقائق السياسية والاقتصادية التي يجب أن يقوم عليها عالم الغد ، وهو عالم عقدت عليه هذه الانسانية آمالها الكبار ، عساها تنعم في ظلاله بحياة رخاء وإخاء وسلام لا يقصر لها أجل .

واستقراء الأدوار التاريخية التي جازت بها الحضارة الانسانية في مختلف صورها وعصورها ومناشيء تكوينها ، يقطع بأن هذه الحضارة المتحركة ستظل محكومة بقانون أبدي هو قانون التطور الاجتماعي ، بمظهريه المادي والروحي .

فمادية التاريخ ، سواء على الوضع الماركسي المتطرف ، أو الوضع الرأسمالي الجشع ، أو الوضع الاشتراكي المعتدل ، ليست سوى السناد الجوهري أو المادي لشتى نظم العمران التي تناوبت عالمنا الأرضي منذ فجر حضاراته . أما روحية التاريخ أو حركة العقل في مسالك الزمن ، على حدّ ما ذهب اليه الفيلسوف «هجل» ، فهي الصورة أو الأسلوب الذي تتطور به الأحداث المادية لتاريخ الانسان ، والقالب الذي تنصب فيه اتجاهات نشاطه في هذه الحياة ، ومن هنا كان العقل والمادة كلاهما ملاك الحياة الانسانية كلها ، لا عمل لقانون التطور إلا بهما جميعاً ، وإن تفاوتت بينهما النسب والاوضاع حيناً وتقاربت حيناً آخر ، على حسب الظروف والملابسات وخصائص البيئات .

والحق أن فلسفة التاريخ الحضاري كله ، قوامها نزعة سيكولوجية مركوزة في أعماق الفطرة الانسانية ، تحفز قواها وملكاتها إلى نشدان ما يكمل نواحي النقص الكامن في طياتها ، وتستهدي بها هذه الفطرة إلى تحقيق التجاوب بين عناصر الشخصية الانسانية وعناصر المحيط الخارجي كله . وبمعنى آخر بين عالم المُثُل الذي تتجمع في رحابه أحاسيس النفس ورغباتها ، وعالم الواقع الذي يباين في كثير من أوضاعه وحقائقه ، خيالات الانسان .

ومن ثمّ كانت الحياة الانسانية سلسلة موصولة الحلقات متلاحقة الأدوار من الانقلابات المادية (١) والثورات العقلية والروحية (٢) ، ولعلّ هذه الانقلابات والثورات تكون بمثابة التجديد والبسط لتلك النزعة السيكولوجية العميقة التي تهدف بالانسان الى دوام التطلع الى تجديد القيم التي تحكمه وتخط له اقداره ، والى التسامي الأبدي الى بعث رواقد المثل المكبوتة في أعماق وعيه الباطن ، ليراها ممثلة في شرائعه ونظمه وأساليبه المادية في استغلال الحياة . هذا الانسياق الحثيث وراء نزعة الكمال الروحي ، وذلك الدأب المتصل في سبيل الهيمنة المادية على قوى الحياة ، هما الطابع المميز لحركة التطوّر التاريخي التي انتظمت أجيال البشرية في ظل أنماطها الحضارية المتلاحقة ، وهي حركة تنطق بروعة هذا الكفاح الهائل ، تبذله النفس الانسانية لتحقق به لذاتها مستوًى اجتماعيًّا أقوم وأرفع ، وتستوفي به ما ينقص شخصيتها من عناصر تقدمية وصفات سلوكية ، تؤهلها لملاحقة موجات التطور ومسايرة وثباتها القريبة والبعيدة ما استطاعت إليها سبيلاً .

والشخصية الانسانية المحفوزة الى أن تستوفي بالتطور حظها من المدركات والتجارب ، وإلى أن تحقق في العالم الخارجي مكنوناتها التي أنضجها التأمل والنظر ، هي الشخصية الاجتماعية المتوازنة ، التي يكون في مقدورها أن ترسم لذاتها مجالات النشاط والحرية ، أو بمعنى آخر حدود الحق والواجب ، حقها على المجتمع أو الدولة وواجبها إزاءها .

وحدود الحق والواجب على وجهٍ عام ، لا تعدو استعداد الفرد وتهيؤه لادراك حقيقة الروابط والعلاقات التي تصله ببقية أفراد مجتمعه ، ليبادلهم تضامناً معنويًّا وحسيًّا قوامه فهمه لالتزاماته الاجتماعية والقومية بوصفه عضواً في مجتمع مدني ، وكذلك فهمه لالتزامات دولته إزاء سائر الدول ، بوصفها عضواً في مجتمع دولي متشابك الأواصر والعلاقات ، ولن يؤتي هذا الفهم نتائجه ، إلاّ إذا بني على قواعد مستقيمة قوامها ثقافة اجتماعية حرة ، تؤكدها شواهدُ إنسانية عامة ، وتضبطها مبادىء عالمية مشتركة ، تساهم في اعتناقها واعلائها شعوب العالم المتمدين كله لا فرق بين أجناسها وأوطانها جميعاً .

ولعلّ من الشواهد الاجتماعية التي تكاد تجري مجرى البداهة في تاريخ الحضارة ، استحالة تدرج هذا التطور في مدارج سلمية ، وإباءه للانسياق في سلسلة من الاطرادات الهادئة المطمئنة ، ومن ثمّ تراءت لنا حلقات التطوّر التاريخي المتعاقبة ، في صور متباينة

(١) فالعصور التي توالت منذ العصر الحجري الى البرونزي الى الحديدي الى العصر الحاضر عصر القوى الكهرطيسية الخارقة ، ليست جميعاً الا سلسلة انقلابات مادية متعاقبة في تاريخ الانسان

(٢) كالاديان السماوية والعقائد الوضعية وشتى المبادىء الاجتماعية الاخرى التي خضع لها الانسان .

من الالتواءات والانقلابات التي نستبين في وقائعها وأحداثها عناصر داوية للكفاح والصراع في سبيل الغَلَب والبقاء .

وكما أن من الجائز أن يظل دأبُ الحضارة الانسانية وسعيُها إلى الوصول إلى مثلها العليا منوطاً بهذا الكفاح الملحوظ في تاريخها ، فان من الجائز أيضاً أن نرجّح ظهور عوامل فعّالة قد تقلّل من حدته وتطامن من عنفوانه ، وخاصةً وأن الانسانية تستشعر اليوم بحدس يقرب من اليقين الصائب ، انها تجوز بعصر من عصور الاستنارة واليقظة، يعينها على أن تفيد من اتجاهات هذا التطور وانقلاباته منذ عصر الثورتين الاميركية والفرنسية، فعصر الحرب العظمى الماضية ، فهذه الحرب العالمية المعاصرة.

وثمة ما يؤكد هذا الأمل المرتجى في ظهور هذه العوامل الخيّرة التي تطب أدواء البشرية وتخفف من نكبات الحضارة . على أن التفاؤل المطلق أو التشاؤم المحض، لا يمكن اتخاذ أيهما معياراً سليماً لقياس مذاهب الحياة الانسانية أو ميزاناً دقيقاً لتقدير طبيعة الخصائص والمشكلات التي ينطوي عليها الاجتماع البشري . فليست الحياة الانسانية معركة لاهبة من الصراع الحيواني فحسب ، وليست هي كفاحاً دامياً تؤجج هواجه غريزة إفناء الذات التي يحدّثنا عنها علم النفس ، ويعزوها إلى الصفات البدائية التي تسربت في أغوار الانسان منذ عصور همجيته البائدة ، بل انه الى جانب هذه الغريزة الكامنة غريزة أخرى تعارضها ولا تني تكظم ثوائرها ، هي غريزة حب الذات والحرص على حفظها من عوارض الهلاك والفناء .

وغريزة المحافظة على الذات هي التي حفزت الانسان الى إيثار التعاون والتضامن مع أبناء جنسه ، ورققت حواشي الحياة وعمرتها بالتراحم والمحبة الى الحدّ الذي يرجى معه إقالة الانسانية من عثارها في أعقاب الانقلابات الدامية والحروب المدمرة التي تهدد مصاير الحضارة ، وهكذا تحيل هذه الغريزة عوامل الحروب الى عوامل للسلام ، وتطلع على العالم بمُثُلٍ جديدة وأوضاع أقوم، تعزز جوانب الخير في شخصية الانسان ، وترفع مستوى حياته مراتب ودرجات .

جاءت الثورة الفرنسية الكبرى في أعقاب أختها الأميركية بانقلاب اجتماعي زلزل قوائم الحياة في مؤخرات القرن الثامن عشر ، وأخذ يتجه بالحضارة الأوروبية وجهة جديدة لم تكن تعرفها من قبل ، وان كانت أماراتها قد ظلت مستترة في أعماق الضمائر التي أضناها شذوذ أوضاع الحياة، وفداحة مظالمها في ظل الطغيان الفردي الغاشم ، حتى جاءت أفكار الكتّاب والفلاسفة، وهم طلائع التقدم ورواد البعث الجديد ، يفسرون مكنونات النفس الاوروبية المكبوتة ، في صور مثالية رائعة، هي مبادىء الحرية والاخاء والمساواة ، ونادوا

بها حقوقاً طبيعية أبدية للانسان، في كل زمان ومكان.

غير أن بيئة المجتمع الاوروبي لم تكن مهيأة يومئذٍ لتمثيل هذه المبادىء واستهوائها في تطبيقات الحياة والعمل، فالتفكك الاجتماعي بين الطبقات ظلّ ضارباً أطنابه خلال شطر كبير من عصر الانقلاب الصناعي في القرن التاسع عشر، والطبقة الوسطى التي ألهبت أتون هذه الثورة واضطلعت بتوجيه أقدار المجتمع الثوري في فرنسا سامت الحياة الاجتماعية في ظل أوضاع « البورجوازية » مستهدية بأغراض نظامٍ سياسي يمكن أن ننعته باسم « الديمقراطية الرأسمالية » التي تجعل فرص الحياة وقفاً على طبقة الرأسماليين من رجال المال والأعمال، وهكذا أخذ « المشروع الاقتصادي » في صورة « الانتاج الكبير » مظهر الاستغلال الفاحش، تثرى به طبقة على حساب أخرى، ويهيء للطبقة الممتازة كافة فرص الحياة من تربية وثراء وعمل رابح وحظٍ موفور من سلطان السياسة وجاه الأحزاب.

وظلت العلاقة بين طبقة « السادة » وطبقة « المسودين »، أو بمعنى آخر بين طبقة أرباب الأعمال وطبقة العمال، ملتزمة حدود هذا الوضع الناشز، حتى هيأت ظروف الحضارة الصناعية الجديدة، في النصف الثاني من القرن الماضي، أذهان الناس لاستشعار مساوىء الحياة على هـذا النحو الظالم، ومن ثمّ توالت حركات « النقابية » في شتى أشكالها تغزو المجتمع الأوربي وتؤثر في اتجاهات نظمه السياسية، وترسم حدوداً جديدة للعلاقات التي يجب أن تربط بين الطبقات.

وانبعثت في الأفق الأوربي نزعة المذاهب الاشتراكية لتبشر الطبقـات المهيضة بحلم العدالة الاجتماعية، واستحلّ متطرفو الاشتراكيين وسائل العنف الثوري لتحقيق هذه العدالة على الأوضاع التي صوّرتها كتابات دعاتهم وجعلتها شرطاً أوليًّا لرجحان كفة العدل والحق والمساواة على كفة الجور والباطل والاستبداد في المجتمع البشري.

وشبت الحرب العالمية الماضية في ظل عراكٍ لاهب بين هذين المبدأين الاجتماعيين، مبدأ الفردية على المعنى الذي أرادته ثورة فرنسا الكبرى من جعل قوة الفرد الاساسي الذي يبني عليه المجتمع، ومبدأ الاشتراكية على المعاني المتعددة التي أتاحت لها الظهور، ما جدّ من ظروف اقتصادية في ظل ذلك الانقلاب الصناعي الكبير. فمن ناحية السياسة القومية إذن، كان الفرد الاوربي، وكذلك أخوه الأميركي بطل الحرب الأهلية عام ١٨٦٠ والحرب العظمى عام (١٩١٤ — ١٩١٨) يجاهدان ليحررا الحياة الاجتماعية من آثار المظالم الاقتصادية ما استطاعا السبيل إلى هذا التحرير، ويصوغان لهذه الحياة « يوتوبيا » جديدة يقوم فيها توزيع الانتاج واستهلاك ثمراته على مبادىء ديمقراطية عادلة تحارب شرور العوز والفقر،

تلك التي كانت وما تزال مصيبة المجتمع البشري في شتى أطوار حضارته .

أما من ناحية السياسة الدولية فقد كان المظنون أن تكون هذه الحرب العالمية الماضية فاتحة عصر جديد للاخاء الشعوبي تمحي فيه فوارق العناصر والاجناس وتندمج فيه تخوم الأوطان والقوميات ، وبهذا تحقق آمال هذه البشرية العانية في أحلام السلام والوئام .

لقد جاءت تلك الحرب لتصفية التركة الاستعمارية في ظاهر الأمر ، وان باينت الحقيقة المرة ، هذا الظاهر الخداع ونبت عنه ، إذ كان أول ما ألهب جذوتها نزعات « الامبريالزم » والتزاحم الاقتصادي على مناجح الطبيعة فيما وراء البحار ، وموالاة خدمة الأغراض التي أتاحها عصر الكشوف الجغرافية في مطالع عهد الاستنارة في اوربة ، تلك الأغراض التي ترمي الى الفتح للامتلاك والاستغلال والاثراء !

لقد علل دعاة التوسع الاستعماري في أواخر القرن الماضي حرص الدول الكبرى على ممتلكاتها بنظرية اجتماعية مصطنعة ، قوامها ان الاستعمار ركن من أركان الحضارة ، ولما كان من اخص ما يعيب هذه الحضارة ذات الطابع العالمي الشامل عدم استغراق مبادئها لشعوب البشرية كافة ، كان حتماً مقضيّاً على شعوب الحضارة ان تستعمر الشعوب المتأخرة عنها لتسوسها وتنظم حياتها وتنهض بمرافقها ، ثم لتردها من بعدُ الى حظيرة الانسانية المتمدينة ، أمماً مصقولة راقية !

كانت هذه « الحقيقة » المزعومة ماثلة سافرة أمام أعلام السياسة العالمية في مؤتمر السلام عام ١٩١٩ ولم يكن امامهم من سبيل الى انكارها دفعة واحدة ، او لعلّ رجة الحرب الهائلة لم تكن كافية لأحداث تطور بعيد في سبيل الاخاء الشعوبي العام ، ومن ثمت اضطروا أمام وعودهم ومواثيقهم أن يحوّروا في صور الاستعمار وأشكاله ، ليوفقوا قدر الطاقة بين مبادىء ولسون الأربعة عشر وأسس هيئة السلام الجديدة ، وبين حقائق الأوضاع الدولية في ظل نظام الاستعمار . وعلى ذلك ابتكروا ما سموه بالوصاية أو الانتداب أو الحكم الذاتي ، وسائر هذه النظم التي عدوها مرحلة انتقال لا بد منه كي يُعدوا الدول الخاضعة له للاضطلاع بأعباء الاستقلال ، وممارسة حقوق السيادة ، وكسب القدرة على ملاحقة رَكْب الحضارة .

ومن أسف أن تجيء الأوضاع الجديدة والنظم المستحدثة في ظل تركة مثقلة بالمشكلات المتخلفة عن تلك الحرب ، سواء أفي المحيط القومي أو الدولي ، مثاراً لسلسلة جديدة من الاضطرابات السياسية والأزمات الاقتصادية تلاحقت في أعقابها هزّات اجتماعية مهدت بدورها لاثارة حرب عالمية أخرى جاءت أهوَل من الحرب الأولى وأبشع نكيرا .

لم يتجه ساسة العالم إلى رفع مستوى الحياة الانسانية في ظل رفاهية اقتصادية وتقدم

اجتماعي يقيلان هـذه الانسانية المفككة من حضيضها الأوهد ، اللهمّ إلاّ محاولات نظرية وجهود طيبة ، وإن كانت متواضعة ، أرادت أن تثبت بها عصبة الأمم كيانها وتبرّر وجودها في ناحية جليلة من نواحي العمران البشري ، هي ناحية الاصلاح الاجتماعي الذي ينتظم شعوب البشرية بغير ما فارق في الدين والجنس والوطن .

جاءت النكسات السياسية في صورة انقلابات فاجعة في نظم الحكم ، حوّرت الأوضاع الدستورية وزلزلت قوائم الديمقراطية في الأمم التي خرجت مهيضة الجناح من تلك الحرب العالمية الأولى ، ومهّدت من ثمت لقيام نظم الطغيان في أسلوب دكتاتوري شلّ إرادة الفرد واهتضم شخصيته وسخرها للدولة ممثلةً في حاكمها المطلق ، الذي رفعه الشعب المخدوع إلى أعلى مراتب التقديس والعبادة .

وسايرت الانقلابات الاجتماعية تلك النّكسات السياسية مسايرة الظل لجسمه ، لأنهما لم يمهّدا لغير لون واحد من ألوان الجهاد ، هو جهاد العدوان البربري والصراع الحيواني على إهدار حقوق الأمم وسلب مرافق الشعوب وحرياتها في سبيل ما زعموه « منادح للحياة » !

وكأنما استشعرت الانسانية المتحضرة شذوذ ما فرض عليها من أوضاع للحياة ، لا تلائم طبيعة العيش في ظل الحضارة ، وأحست فداحة العبء الذي فرضته هذه الأوضاع على الأفراد بعد أن حرمتهم حقهم الآدمي المعقول في فرص عادلة لحياة خصبة مثمرة ، حياةٍ اجتماعية مطمئنة تجعل الانسان يجاوز نفسه ، ساعياً بالفكر والعمل وراء الحق والخير والكمال ، فتطلبت الفيض والتنفس في لونٍ آخر للجهاد .

أرادت هذه الانسانية ان تتنفس إذن لتفرّج عنها أوجاعها وتفرز خبائثها وترحض عن جراحها نجيعها الفاسد ، فامتشقت السلاح مرة أخرى وخاضت معركة الحياة والموت لتعيد إلى القيم الانسانية حرمةً ، طاحت بها هذه النكسات العارضة في سير الحضارة .

وجاء وحي الجهاد الجديد في ظل هذه الحرب العالمية الثانية ، ذا آثار بعيدة ونتائج قيمة أدت إلى تطورات ذات بال في اتجاهات السياسة العالمية وأحدثت تقدماً محسوساً في مجالات الاصلاح الاجتماعي والتعاون الانساني العام .

وكأنما أراد ساسة العالم الديمقراطي ألاّ تسبقهم عجلة الحوادث وتزحمهم مشاكل السلام وتبلبل أفكارهم عقده ومفاجاءاته . فبدأوا بتحديد أهداف الانسانية من وراء هذه الحرب ثم أخذوا يطبون لها بألوان العلاج في نواحي السياسة والاقتصاد والاجتماع ، حتى تخرج هذه الانسانية من الحرب وقد برئت من أدوائها وعيوبها ما استطاعت إلى هذا الأمل العزيز من سبيل .

ولسنا هنا في حاجة إلى تكرار ما سبق أن سجله الباحثون من تفاصيل الأحداث العالمية التي تعاقبت بعد ذلك ، ولا نحن بصدد ترديد نظريات التفاؤل والتشاؤم ومراقبة أثرها في سير العمران البشري وبعث رواقد الحياة أو تعويقها فيه ، وإنما سبيلنا هو تصوير الأهداف وتسجيل الخصائص البارزة التي ستعطي لحضارة المستقبل طابعها الخاص ، مستهدين بهدى التطورات التي ما زال بعضها آخذاً برقاب بعض حتى ساعة كتابة هذه السطور .

١ — تطور نظم الاستعمار وسياسة الحكم وسيادة الدول

ليس من شك أن ثمت تطوراً ملموساً بدأت تنداح دائرته في محيط السياسة العالمية من حيث علاقة الشعوب الكبيرة بالشعوب الصغيرة . وسواء أكانت النظريات السياسية الجديدة التي يجري وفقها هذا التطوّر بمثابة عودٌ إلى نظم الماضي بعد تحويرها وتعديلها لملاءمة الظروف الجديدة ، أو كان أفق التعاون الدولي سيطالعنا بصور جديدة معقولة قوامها العدالة الدولية الى أقصى ما يستطيع أن يصل اليه ضمير الانسان في ظروفه المادية والأدبية الحاضرة ، فانه مما لاريب فيه ان الاتجاهات السياسية التي ستعم عالم ما بعد الحرب ستنطوي على أقصى صور التفاهم والتسامح والتعاون بين شعوب العالم كبيرها والصغير ، وخاصة وقد أظهرت هذه الحرب ضرورة إيجاد هذا التعاون لتخليص الأمم المنكوبة والشعوب المنهوكة من عقابيل هذا الصراع ومغباته الحالكة .

ولا شك أيضاً ان المجتمع الدولي سوف يتخلص إلى حدٍّ كبير من شرور السيادات الباغية التي كانت تغذيها العصبيات القومية وأحلام الجامعات العنصرية وأساطير التفاضل بين الأصول والأجناس . وسيكون ميزان النظر الجديد إلى مشكلة السيادة قائماً على أساس مرافق عالمية ومصالح دولية مشتركة وتضحيات تساهم فيها الامم جميعاً لتحقيق أقصى ما تستطيعه للعالم من سلام ورخاء . ولعلَّ أبرز خصائص الطابع الديمقراطي الحديث هو تحقيق هيئة دولية عامة تكون بمثابة « برلمان » لأمم العالم ، على ان يُزَوَّدَ في دستوره بقواعد وحقوق وسلطات تخرج به عن مجرّد الأوضاع الصورية والمذاهب النظرية إلى مجال التطبيق الحاسم الذي يصون حرماته إجماعٌ دوليٌّ على توحيد علاج المشاكل العالمية من حيث المبادىء العامة ، والقضاء على العدوان والبغي ، والمساهمة الفعَّالة في نشاط هذا المجلس من النواحي الاجتماعية والاقتصادية الأخرى . وها نحن أولاء في انتظار نتائج مؤتمر سان فرنسيسكو الذي سيناقش مبادىء مؤتمر دمبرتون اوكس ، راجين أن يكون مظهراً مشرّفاً رائعاً للتعاون بين أمم العالم، المكافحة في سبيل إقرار حقوق الانسانية وحرياتها .

ب — اشتراكية التضامن الاجتماعي

وإذا كانت الانسانية تكافح اليوم في سبيل إقرار قواعد جديدة للقانون الدولي تحتكم إليها الشعوب كافة ، فأنها تكافح أيضاً في سبيل أقداس اجتماعيـة وأخلاقية تحكم وتنظم الروابط والصلات بين أعضاء كل مجتمع بشري . فما نسميه بربرية الفوضى الدولية التي تحكم القوة الغاشمة وتغلبها على حق العهود والمواثيق ، ليس إلا مظهراً لوضع قومي آخر هو فوضى النزاع بين الطبقات في المجتمع الواحـد ، وانعكاساً واضحاً لحقيقة الصراع الاجتماعي الدائم بين هذه الطبقات .

إن أمثل أسلوب لديمقراطية الحكم هو الذي ينزل الى صعيد الحقائق ليستكشف أدواء الجماعة ويتعرّف الى أسبابها ليعالجها لا بأساليب الارتجال والدجل ، بل ببصائر التجارب وسلاح العلم، والايمان بأن الحياة أخذ ورد ، وبمعنى آخر يجب ان يصل المجتمع الانساني إلى حالة من التوازن والعدالة يحصل كل فرد في ظلها على ما يحتاج اليه ، لا ليكفي ضرورياته هو وأسرته فحسب ، بل ليرقى كذلك بالمستوى الاجتماعي الذي له ولأسرته . ومن شأن هذا الوضع ان يقفنا على حقيقة معنى التضامن الاجتماعي الذي تمليه روح هذا العصر ، وهو تضامن يقتضي تهيئة الفرص التي كانت ظروف الحياة الاجتماعية الماضية تجعلها وقفاً على الطبقات الممتازة المثرية دون سواها . فحق الحياة الطبيعي هو حق الانسان في أن يوفر له مجتمعه الغذاء والكساء والمأوى والعمل والحصول على نصيبه من ثمرات التقدم والرقي . والناس ما عاشوا في مجتمع الا ليتمتعوا بحق الحياة ويصونوا حرمة الآدمية وكرامتها في أسلوب هذه الحياة وصورتها . والمصالح الفردية المتعاكسة يجب أن تكون مصالح متضامنة يكمل بعضها بعضاً، وإلا انهارت قيم التضامن في الجماعة، وتقوّض بناؤها.

لهذا لم يكن عجيباً أن نلمس مظاهر الكفاح الحكومي تتعدد جوانبه في الأمم الراقية لمحاولة القضـاء على العوز والفقر الذي يحول بين الفرد وبين نصيبه من الصـحة والغذاء والتربية من يوم أن ينشأ في مهده إلى ساعة دَرْجه في لحده، حتى لقد حقّ لنا أن نسمي هذا العصر بعصر الضمان الاجتماعي الحديث.

إن رفع مستوى المعيشـة للشعوب أصبح هدفاً قوميّـاً وعالميّـاً معاً . فهـذه انجلترا تشفق مقـدماً من أهوال مشكلات السلام وما قد تعرّض المجتمع البريطاني إليه من أخطار الاضطرابات والقلاقل المنذرة بعواصف اجتماعية لا تبقي ولا تذر ، فنراها من ثمت تسارع إلى دراسة قواعد السياسة الاجتماعية السليمة التي يجب أن تنظم الصـلات والروابط بين

طبقات المجتمع الانجليزي ، وتتمخض دراساتها عن مشروعها العظيم المسمى باسم واضعه السير وليم بيفردج لتقضي به على عمالقة العوز والمرض والجهل والقذارة والتعطل التي لا يتحقق للجمعية البشرية معها ضمان اجتماعي ، ما دامت هذه العمالقة تسيطر على حياة الانسانية ، كما قال أستاذنا الفاضل رئيس تحرير هذه المجلة ولسوف تتوازن دخول الأفراد وحقوقهم الاجتماعية والسياسية بفضل هذا المشروع،لو صدقت النية على إنفاذه وتحقيقه واقتباس الدول لما يتفق من مبادئه مع ظروفها .

ورفع مستوى المعيشة هدف عالمي أيضاً ، وحسبنا ان يسجل ميثاق الاطلنطي في بند أساسي من بنوده الاربعة ، عزم الدول المتحالفة على مساعدة الشعوب لتتحرر من العوز والفقر . ولقد تألفت اللجان الدولية التي نيطت بها مهام اجتماعية جسيمة سيتقرر بها المصير العمراني للعالم ، وتعددت نواحي نشاطها ، فواحدة للمساعدة والتعمير،وأخرى لحل المشاكل الاقتصادية والمالية ، وثالثة لدراسة الوسائل المنشطة للمرافق العامية من زراعة وصناعة وتجارة ومواد خام وهكذا

والاعتقاد السائد اليوم هو أن الفقر إذا حلّ في مكان سرت عدواه الى أماكن أخرى ، فهو يكون محليًّا في بداية أمره ، ثم يصبح أهليًّا فوطنيًّا ، ومع مضي الزمن يستحيل الى داء عالمي ، وذلك لأن الانسان لا يستطيع أن يعيش وحيداً بمعزل عن الناس في هذه الحياة فالاتجاهات الاقتصادية لها طابع الشمول والعموم على الدوام .

حـ — حرية الرأي والاعتقاد

كفلت الدساتير القومية في كافة الأمم المتحضرة تلك الحريات الفردية التي لا يستقيم بغيرها تقدم اجتماعي أو رخاء مادي . ولقد أحاط كثير من هذه الدساتير تلك الحريات والحقوق بضمانات تشريعية كافية .

ولم تكن حركة الدساتير التي ظلت مشبوبة الأوار طوال القرن الماضي ومطالع هذا القرن،سوى انعكاس قوي لنزعة التحرر الفردي والاستماتة في سبيل اجتياز الحقوق التي تفرضها كرامة الحياة على الآدميين ، ولم يكن انقلاب الثورة الفرنسية الكبرى وما تبعها من انقلابات سياسية واجتماعية إلاّ استطراداً لصور هذه النزعة الفطرية في سبيل الخلاص من ربقة الضغط والاستبداد وتكميم الأفواه ومحاربة العقائد .

لقد واجه العالم في أعقاب الحرب العالمية الماضية نكسة قوية من نكسات الحضارة كانت أعراضها تلك الأنماط الدكتاتورية التي قضت على أسمى مبادىء النظام الديمقراطي ونعني به مبدأ الحرية في أشمل معانيه .

وإذا كان أروع مظهر تتراءى فيه الحرية الانسانية هو حرية القول والرأي ممثلة في معاهد التربية ودور العلم وسلطان الصحافة ، فليس بعسير علينا أن نتصور مدى النكبات الفادحة التي أصابت الحضارة عند ما فرضت بعض الدول القيود والسدود والأغلال على هذه الحرية . لقد أثبتت وقائع التاريخ أن المستحيل بعينه،هو أن يحكم شعب أو يقوم له نظام وهو محروم من حرية القول والرأي . ذلك لأن الناس كما قال بعضهم أو كما يقول الواقع،يتنفسون بعقولهم مثلما يتنفسون برئاتهم ، فلا جرم كانت هذه الحرية أولى دعائم الحضارة الانسانية وكانت لها أيضاً مرتبة الصدارة في استحثاث خطوات تقدمها .

ولقد جاءت أحداث الكفاح الحالي مدللة في منطقها بأصرح دلالة على أن الحضارة الانسانية لا تقبل بطبيعتها انتكاساً يسلبها ما جاهدت القرون والأجيال من أجله ، كما ان عوامل التقدم والارتقاء المبثوثة في روحها تأبى تحكم القوة وتنبذ شريعة الغابة .

لقد عددت لنا الحضارة الحديثة وسائل التعبير عن الفكر في شتى اتجاهاته . فثمة الطباعة التي تربت في حجرها الصحافة ، وهناك « السينما » ذات السلطان الساحر على نفوس الجماهير ، وجاء « الذياع » و « التليفزيون » يكملان ما كان ينقص الانسان من أسباب التعبير والتصوير عن الافكار والمشاعر والآراء .

ان الاتجاه الديمقراطي لحضارة الغد لا يمكن أن يمهد طريقهُ ولا تذلل عوائقه ، إلاّ إذا نظمت أمم العالم المتحضر هذه الحرية،وجعلتها الناموس الأول في نظام حياتها .

فاذا كان ميثاق الاطلنطي قد عرف خطورة مشاكل القوت والكساء عند الافراد والجماعات، فهو قد عرف أيضاً هذه الخطورة لقوت العقول والاذهان . وليس شك في أن كل من جاهد في هذا السبيل الشريف ستقدر له الانسانية ، أنه كان من صنّاع التاريخ وبناة الحضارة .

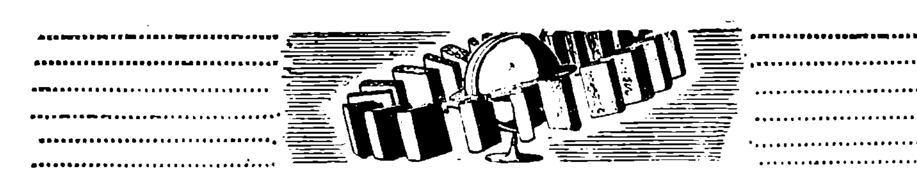
صلاح الدين الشريف

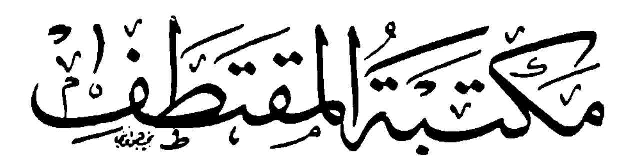
﴿ مصادر المقال ﴾

(١) E. Benes : Democracy to-day & to-morow

(٢) H. G. wells : The Rights of Man

(٣) مجموعة خطب ومقالات بالانكليزية لكل من تشرشل وروزفلت وسمز ويلز





ابن رشد الفيلسوف

حلقة من سلسلة « أعلام الاسلام » التي تنشرها لجنة دائرة المعارف الاسلامية . تأليف الاستاذ محمد يوسف موسى — ١١٨ صفحة من القطع الصغير : ١٩٤٥

حلقة من سلسلة « أعلام الاسلام » وضعها حضرة الأستاذ محمد يوسف موسى المدرس بكلية أصول الدين ، والمعروف للقراء بكتاب « فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلتها بالفلسفة الاغريقية » وكتاب « تاريخ الأخلاق » وغيرهما من البحوث القيمة . وكنا بحاجة حقاً الى كتاب في ابن رشد يعين الطلاب على دراسته بعد أن نفد كتاب فرح انطون ، سيما ان المستشرقين إجمالاً يعنون بابن رشد شارح أرسطو أكثر من عنايتهم بمحاولته التوفيق بين الفلسفة والدين ، تلك المحاولة التي قال ليون جوتييه بحق أنها « معقد الطرافة في الفلسفة الاسلامية » (ص ٣١) والتي لم يوفق هذا المستشرق الى عرضها عرضاً شاملاً . وقد جعل منها حضرة المؤلف موضوع كتابه بعد الترجمة للفيلسوف والتأريخ لعصره ، تأريخاً مستوعباً في إجمال ، فقال ان « رسالة ابن رشد كانت الانتصاف للفلسفة بعد ما لقيت من الغزالي ، والتوفيق بينها وبين الدين » (٢٦) ثم حصر المسائل (٣٧) وعالجها واحدة بعد أخرى علاجاً منهجيًّا موفقاً وبأسلوب رصين واضح ، مستنداً الى المراجع الأصيلة الموثوق بها . فكانت النتيجة أن ابن رشد لم يفلح في تبرئة الفلسفة من تهمة الكفر في المسائل الثلاث التي ذكرها الغزالي ، وهي القول بقدم العالم ، وقصر علم الله على الكليات ، وانكار بعث الأجساد ، وأنه من ثمت لم يتم له ما أراد من الانتصاف للفلسفة . وما كان هناك سوى طريق واحد للانتصاف لها ، هو تعديل مواقف الفلسفة اليونانية في هذه المسائل . واعتقادنا ان هذا التعديل ممكن بالفلسفة نفسها أي بالاستدلال العقلي فحسب ، وان الغزالي وفق اليه في كتاب « تهافت الفلاسفة » فكان أكثر حرية وأكثر ابتكاراً من الفلاسفة . وقد يكون لحملته المنيفة على الفلسفة نصيب كبير فيما أصابها من بعده في العالم الاسلامي . ولكن

عذره انه أراد الدفاع عن الدين ، وهذا حق له لا ينكره عليه أحد ، وانه ظن الفلسفة كلا لا يتجزأ فاعتبرها عدوة الدين ، وهذا ظن وصل اليه من الفلاسفة أنفسهم الذين اقتصروا على ترديد أقوال اليونان معتقدين انها كالبنيان المرصوص لا يمس حجر منه إلاّ انهار كله .

هذا ، ومن الحق أن نشير إلى الفصل الذي عقده لبيان أثر ابن رشد الفيلسوف من بعده في الشرق والغرب ، وبيّن فيه في استقراء العوامل التي من أجلها لم ينتفع الشرق بجهوده في سبيل الفلسفة والتوفيق بينها وبين الدين ، بينما كان أثره في الغرب كبيراً وعظيماً حتى كان كبار مفكريه يختصمون من أجله . .

وأخيراً ينبهنا الأستاذ المؤلف الى ان كتابه ليس « رسالة خاصة عن ابن رشد وفلسفته » (٩٨) ، ولعله مقبل هذه الأيام على هذه الرسالة الخاصة كما نرجو ، فان ابن رشد حقيق بدراسة مفصلة عميقة ، والمؤلف قمين بالقيام بها .

يوسف كرم

* * *

[المقتطف] — نعقب برأي المقتطف في هذا الكتاب ، فقد رأينا فيه أشياء لا ينبغي أن تفلت من حلقة النقد في عصرنا هذا .

أصدر الامام المحدّث الفقيه ابو عمر تقي الدين الشهرزوري المعروف بابن الصلاح المتوفى سنة ٦٤٣ هـ . فتوى بتحريم المنطق والفلسفة ، فكان لهذه الفتوى خطر وسلطان ظلا قويتين دهراً طويلاً . سئل عن حكم الله فيمن يشتغل بكتب ابن سينا وتصانيفه فقال : «من فعل ذلك فقد غدر بدينه وتعرّض للفتنة العظمى » . لأن ابن سينا : « لم يكن من العلماء ، بل كان من شياطين الأنس »

وفي فتوى أخرى يقول : « إن الفلسفة أسّ السفه والانحلال ، ومادّة الحيرة والضلال ومثار الزيغ والزندقة،ومن تفلسف فقد عميت بصيرته عن محاسن الشريعة ، ومن تلبّس بها تعليماً وتعلّماً قارنه الخذلان والحرمان ، واستحوذ عليه الشيطان » — وقضى بأن الواجب على السلطان أن — « يعرض من ظهر منهم اعتقاد الفلاسفة على السيف أو الاسلام ، لتخمد نارهم ، وتمحى آثارهم » .

كانت هذه هي روح الدين في عصر ابن رشد ، وإن أردت أن تخفف شيئاً من حدّة القول فقل كانت هذه هي روح رجال الدين ، وهي أشبه بالروح التي أملت على النّصارى في العصور الوسطى أن يضعوا نظاماً يقال له نظام الفهرست الذي يتضمن الكتب التي يحظر على المؤمنين من النصارى قراءتها ، وكان منها كتب كوبرنيكوس وغليليو وجوردانو برونو وغيرهم.

تلك إذن كانت روح العصر التي أحاطت بابن رشد ، وهي روح عتية قاسية لا تترك من أثر لروح التفكير الحر ، بل لروح الاسلام ذاته الذي حضَّ على اطلاق الفكر اطلاقاً سوَّد فيه الارادة البشرية تسويداً قد يضيق به بعض الظلاميين من أهل زماننا هذا ، على النقيض مما جاء في القرآن وآيته العظمى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فيؤمن ومن شاء فليكفر » .

من الظلم إن نسوق النقد في آثار الماضي فنقيسها على حالات عصرنا . وللنقد ثلاثة أساليب تخضع لها الآراء الفلسفية ، بل وكل الآراء والأساسيات التي تنزع إلى التأمل . فجمهورية أفلاطون بما فيها من ألوان الرأي وضروب النظر ، يمكن أن يخضعها الناقد جميعاً إلى هذه الأساليب ، ليكشف عما فيها من الخطأ والصواب . وهذه الأساليب هي :

الأسلوب المذهبي . وهو طريقة للحكم في مستفادات العقل الانساني ، وان بعدت عن فكر الناقد وعصره ، بمقتضى تلاؤمها وموافقتها للمبادىء التي قال بها باكون او اسبينوزا او هيجل او ميل ، مقيسة على أفضل ما يتعلق به الناقد من المتجهات العقلية .

ثم الأسلوب الانتقائي او التلفيقي او التوفيقي : وهو أسلوب يرمي إلى ان ينتقي الناقد من المذاهب المتنابذة او المتعارضة ، ذريرات الحق المتناثرة في ثناياها ، بحسب ما يراه منها حقاً . وهو اسلوب يشيع في العصور التي تقوى فيها نزعة القراءة وتتسع فيها المعلومات ويكثر شحن الأذهان بالآراء والفكرات ، ولكن يندر أن يكون للمعلومات المستجمعة على هذه الصورة قوة أولية خاصة بها . ومثلها مذهب الأفلاطونية الجديدة كما عرفوا في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، أو كما عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر . وأهم نقائص هذا الأسلوب الرسيسة فيه ، هي نزعته الى تشويه المذهب الأصلي الذي يدعي أهل هذا الأسلوب انهم يعملون على تبيانه وجلاء غوامضه ، حتى يمكن بذلك ان يلفق أو يؤلف بين أحسن ما فيه ، وبين العناصر الأولية في نظام فلسفي آخر مسلّم وموثق به من ناحية الناقد .

هذان أسلوبان نقديان نحّيا الطريق في القرن العشرين ، بتأثير نظرية هيجل الثابتة التي كوَّنها في ما دعاه « روح العصر » الدائمة التغير المستمرَّة الفيض والتدفق ، لأسلوب ثالث في النقد ، هو الأسلوب التاريخي . وهو أسلوب يحملنا على ان نرد المذهب الذي نكب على نقده او الأثر الفلسفي الذي انحدر الينا من مخلفات الماضي البعيد ، كجمهورية أفلاطون مثلاً ، بقدر المستطاع وجهد ما يصل الجهد ، الى مجموعة الحالات العقلية والاجتماعية والمادية التي أحاطت به حال نشوئه ، إذا ما أردنا صادقين أن نتفهمه ونتفقه فيه . فان هنالك بضع مسائل اقناعية نستطيع بقوتها أن نحكم من طريقها من أشياء العقل أسوية هي أم غير سوية ،

لدى أول تأمل نحصره فيها، كما أنها تمدنا بمعنى يتقبله العقل من ناحية أصلها وكيفية نشوئها.

أول هذه المسائل اعتقادنا بأن لكل عصر عبقرية خاصة به، أشبه شيء بعبقرية الأفراد، وان لكل عصر صورة عامة او « طابع عام » يستمد من الحالات التي تدمغ كل ما ينتج في ذلك العصر من عمل او فن او تجديد او تأمل او دين او اخلاق، بل ويدمغ وجوه الناس انفسهم، وانه ما من شيء استخلص الانسان من طبيعة نفسه، يمكن ان يفهم حق الفهم ويدرك حق الادراك، الا في عصره الذي نشأ فيه، ومن ينبوعه الأصيل الذي خرجه من تضاعيف تلك الحركة الدائمة التي يختص بها هذا النظام الدنيوي، وان أسمى ما ينبغي أن يتعرف اليه من يتصدى لدرس المذاهب الفلسفية، انما هو تنمية « الملكة التاريخية » في نفسه.

إن كل شيء في الوجود هو مقولة منطقية قائمة بذاتها من مقولات الضرورة القاسرة. لذلك ترى أن العقائد مهما ضربت في الخيال، ومشت مع التصور الصرف، كشيوعية أفلاطون مثلاً، أو تلفيقية بن رشد، انما تقع على أصولها الطبيعية، إذا ما رددتها الى تلك المقولات. وما نقصد بمقولات الضرورة الا الحالات التي أحاطت بها، والتي لم تخرج تلك العقائد عن أن تكون جزءاً منها، ونبذة من مجموعها.

***

وإذن فلقد نظلم ابن رشد أبين الظلم ونتعسف معه كل تعسف، إذا لم نمض في نظر مذهبه محيطين بحالات عصره متشبعين بجملة الحالات التي قامت في بيئته حتى نستطيع أن ندرك طرفاً من ذلك التضارب الذي شاع في مذهبه تلقاء التوفيق بين الشريعة والحكمة، حتى لقد اضطر الى القول بأن الشرع شرعين، شرع لمن هو من حقه التأويل، وشرع لمن ليس من حقه ذلك، كل هذا تحت تأثير مثل تلك الفتوى التي أصدرها الشهرزوري في عصره كما سنرى في سياق نقدنا هذا. بل نقول، ونحن على يقين، أن ابن رشد كان ضحية عصره. فان الذي يستوعب منطق أرسطوطاليس ويعلق على كتبه، لا شك يأبى عليه ذلك المنطق كما يأبى عليه عقله الممتاز، أن يقع في مثل ما وقع فيه ابن رشد من تضارب في الرأي وضعف في التدليل، عندما تكلم في ضرورة التأويل، تأويل الشرع ليسير في ركاب الحكمة. هذه نظريتنا في ابن رشد. نظرية تقوم على أن مذهبه في التأويل هو نبات عصره لا نبات عقله، هو مستفاد الحالات التي قامت في بيئته، لا مستفاد عقيدته الحقيقية. وانما هو في ذلك مضطر الى القول بتعليل يستند اليه في اشتغاله بالحكمة، يبرر به عند أهل « عصره » موقفه من الاخذ بعلم اليونان وحكمتهم. فلجأ الى التعمل، واصطناع مذهب

التأويل ، وهو يعلم أن مذهبه فيه سنادة يستند اليها في اشتغاله بالحكمة . هو مسألة ظاهرية يخفي وراءها قصداً يمنعه « روح عصره » أن يجاهر به . وعلى هذا الرأي سنمضي في نقد ابن رشد لا كما صوَّره الاستاذ الفاضل مؤلف الكتاب .

أول نقد نوجهه إلى هذا الكتاب ان المؤلف لم يتخذ الملكة التاريخية أساساً لعرض مذهب ابن رشد . بل انه وجه كل همّه إلى مقابلته بالغزالي في تهافت الفلاسفة ، متخذاً من موقف خصمه أداة لعرض مذهبه ، من غير أن يحاول الالمام بشيء من الأسباب التي اضطرت ابن رشد الى ركوب ذلك المركب الخشن ، مركب القول بتأويل الشرع ، ليوافق الحكمة .

ولعمري كيف يستطيع ناقد يحاول نقد ابن رشد نقداً قائماً على مقتضيات « الملكة التاريخية » أن يعلل السبب في أن يركب هذا الفيلسوف ذلك المركب الخشن ، لو لم يقم من ورائه ومن حوله من يقول « السيف أو الاسلام » لمن يظهر منه اعتقاد الفلاسفة ! وأي شيء كان يحمل ذلك الفيلسوف العبقري على أن يكتب « تهافت التهافت » وهو يعلم ان الغزالي ما كتب « تهافت الفلاسفة » إلاّ متحاملاً على أهل الحكمة ، وانه لم يقصد بهم إلاّ سوء السمعة وإغراء الجماهير بهم ، وإيقاظ روح الفتنة الدينية . وإلاّ فاذا يكون علم الكلام الاسلامي ، إذا أخرجنا منه مبادىء الحكمة اليونانية ، وبخاصة قضايا المنطق كما وضعه أرسطو ؟ ولكن هل يستطيع ابن رشد أن يقول ان علم الكلام الاسلامي هو حكمة يونانية في قالب اسلامي ؟ لا شك في أن ابن رشد كان يعلم هذا حق العلم ، ويدركه حق الادراك ، ولو انه استشمَّ شيئاً من ريح الحرية الفكرية في جوه الذي احتواه ، إذن لما حرَّك قلمه بكلمة واحدة يرد بها على الغزالي . ولكن « السيف أو الاسلام » ! ذلك هو الحافز الذي اختفى وراء كتابه « فصل المقال » ، والذي حمله على أن يقول بالتأويل ، ليخفف بذلك توازن الكفتين ، كفة الشرع ، وكفة الحكمة . فذلك دينه بحكم البيئة ، وتلك هوايته بحكم الصناعة .

بهذا وحده نستطيع أن نردَّ قول المؤلف الفاضل إنَّ — « الاحساس بالحاجة إلى التوفيق بين الفلسفة ، والحكمة والشريعة عاطفة طبيعية يحس بها كل من عني بالبحث في هاتين الناحيتين ، ومحاولة هذا التوفيق تعتبر إلى حدٍّ ما واجباً لازم الاداء وأمراً ينساق اليه الفيلسوف المتدين صاحب العقيدة التي لها قداستها في رأيه ، وذلك لأكثر من عامل واحد الخ » . . (ص ٣٢) .

فليس هناك من شيء يقال له « عاطفة طبيعية » تدعو الى التوفيق بين الفلسفة والحكمة.

أما ذلك الاحساس عند ابن رشد فكان ضرورة أملتها عليه قاعدة « السيف أو الاسلام ». وهي قاعدة لا تترك للحكمة مجالاً للحياة إلاّ بالتزلف للشريعة . أما في عصرنا هـذا فليس لهـذا الاحساس من وجود البتة . فإما الشريعة ، وإما الحكمة . يختار بينهما العقل لأنه حرّ تحميه روح العصر وقوانينه في أن يفكر كيف يشاء وأن يؤيد ما يشاء أو ينفي ما يشاء بغير حساب . ولو ان ابن رشد قد يبعث اليوم ويعلم ان قاعدة « السيف أو الاسلام » قد دالت دولتها ، واننا نتفكر في خلق السماوات والارض بعقول حرّة طليقة من قيود عصره ، إذن لقال بأن دينه الحكمة ، وظلّ مع ذلك مسلماً له ما لبقية المسلمين وعليه ما عليهم .

يجري ذلك المجرى قول المؤلف الفاضل (ص ٣٣) — « واذا كانت محاولة التوفيق بين الوحي والعقل ، مما لا يجد منه بُـدّاً كل من يشتغل بالفلسفة بصفة عامة ، فهي كذلك بالنسبة لفلاسفة الاسلام » .. والظاهر من هذا إن المؤلف قد انتقل بعقله وروحه إلى عصر ابن رشد ، فابتلعه ذلك العصر ، وترك من ورائه القرن العشرين بما فيه . ذلك بأن الفلسفة ليست ملازمة ولا مقسورة على أن تماشي الوحي ، ولا الوحي مقسور على أن يماشي الفلسفة . ولا كل مشتغل بالفلسفة مضطر الى التوفيق بينهـا وبين الوحي ، وان ما بين الفلسفة وبين الوحي ، لأقرب منه ما بين السماء والأرض . فالفلسـفة منطق وفكر ، والوحي تسليم على طول الخط .

يؤيدنا في أن الفارق بين الفلسـفة والوحي كبير قول المؤلف (ص ٣٥) إن الشقة بعيدة ... « بين الدين وفلسفة ارسطو في كثير من المسائل ، كمسألة الالوهية وتحديد صفات الله وخصائصه ، وخلق العالم وقدمه وحدوثه والصلة بينه وبين الله ، والنفس وخلودها » .

إن ابن رشد لم يذهب مذهب التأويل للتوفيق بين الشريعة والحكمة الاّ متصنعاً مضطرّاً اتقاء لحالات قامت في عصره ، ومذهبه الفلسفي لا يستقرأ مما كتب في هذه الناحيـة إن كان من الممكن استقراؤه على الاطلاق . يؤيدنا في هذا قول المؤلف (ص ٣٥) إن من العوامل التي اضطرت المشتغلين بالحـكمة الى التوفيق بينها وبين الشريعة ..... « مهـاجمة كثير من رجال الدين للبحوث العلمية الحرة التي لا تتقيد في نتائجها بأية عقيدة مقررة سابقاً ، ويضاف الى هـذا تعصب الشعب والأمراء أحياناً من المفكرين الاحرار مدفوعين بدوافع مختلفة لا تتصل بالدين في الحقيقة في أكثر الأحيان » .... وكذلك ..... « الرغبة في أن يكونوا بنجوة من هذا التعصب وآثاره ، ليستطيعوا العمل في هدوء ، ولئلاّ يتحاماهم الناس حين يرون أو يظنون انهم على غير وفاق مع الشريعة والدين » ..... وأيّـاً من حكمة ، مهما كان نوعها أو منحجهـا ، تقع تحت مثل هذه العوامل والمؤثرات ، ان تنتج من ثمرة حرة ولن

تكون سبيلاً الى معرفة حقيقة الرأي الذي قام في أذهان القائلين بها على وجه التحقيق والتمام . ولقد تتضح من نفس الأقوال التي ذهب إليها المؤلف ونقلناها آنفاً ، ان هؤلاء المؤولين كانوا في حقيقة أمرهم انتقائيين،والانتقائية أخطر الأساليب التي تعالج بها الحكمة فانها كما قلنا من قبل في تقسيم أساليب النقد ، تنزع دائماً إلى تشويه المذاهب الاصلية ، لأنها مهما أخذ فيها بالحيطة والحذر وموازنة الآراء ، لا بد من أن تعمد ، قصداً أو اتفاقاً ، إلى التضحية بناحية من الناحيتين التي يرغب في التوفيق بينهما . اما ابن رشد فقد ضحّى بالشريعة، لأنه جعلها شريعتين،اذ إضطر أن يقول بأن الشرع ظاهر وباطن،لكل منهما أهله. وسبب ذلك أن الناس مختلفون في الفطر والعقول . (ص ٤٠) .... » ومن أجل ذلك يقسم فيلسوف قرطبة الناس ثلاث طوائف : الخطابيون وهم الكثرة الغالبة السهلة الاقتناع التي تصدق بالأدلة الخطابية ، وأهل الجدل — ومنهم المتكلمون — الذين ارتفعوا حقاً عن العامة ولكنهم لم يصلوا لمرتبة أهل البرهان الحقيقي ، والبرهانيون بطبائعهم المواتية وبالحكمة التي راضوا عقولهم عليها وأخذوا أنفسهم بها » (ص ٤١) ..... وتقسيم ابن رشد هذا تقسيم اجتهاديّ قد يستطيع أي انسان أن يجادله فيه بالتي هي أحسن وبالتي هي أسوأ ، مادام أن التقسيم اختياري لا ضابط له ولا قانون يحكمه ، لا من جهة العقل ولا جهة النقل

***

اما إذا أردنا أن نسوق القول في هذا النقد فنتناول كل ما عنّ لنا فيه من رأي لاحتجنا الى الكثير من الوقت والفراغ . ولكن حسبنا أن نكون بهذا قد عثرنا على مفتاح « ابن رشد » . وفي الكتاب مواضع عديدة تؤيد مذهبنا الذي نذهب إليه قد يعثر عليها القارىء الناقد بسهولة فلا داعي لنقلها هنا . ولا شك عندي في أن هذا الكتاب جديرٌ بالبحث والدرس ، وإن مؤلفه الفاضل ليستحق على ما بذل فيه من جهد أطيب الثناء .

بوشكين

أمير شعراء روسيا

تأليف نجاتي صدقي — مطبعة المعارف — ١٣٤ صفحة من القطع الصغير

كانت المكتبة العربية لا تسمع عن أدباء الروس إلاَّ قليلاً : ولا تعرف عنهم إلاَّ أقل من القليل . على حين تَمُوجُ تلك المكتبة ذاتها بأسماء كثيرة في الأدبين الانجليزي والفرنسي .

وعلة ذلك يسيرة: فقد مكّن اتصال الشرق العربي بانجلترة وفرنسة من معرفة لغتي القوم ودراستهما والترجمة عنهما والتأثر بأدبهما الى حد نرى أثره واضحاً في انتاجنا الحديث .

أما الروس فقد كان دون الوصول الى ثقافتهم أهوال ... فاللغة مجهولة ، والطريق إليهم نائية . ومذهبهم الجديد أراب فيهم الظنون فقطع ما بينهم وبين غيرهم .

ولا شك أن هذه القطيعة زادت من جهلنا بأدب القوم وزادت من تخلفنا عن متابعة لون من الأدب له في العالم الواسع مكانته وقدره .

وهذا تخلف ما كان يجيزه جهلنا باللغة الروسية : فان كثيراً من روائعها قد ترجم الى الانجليزية والفرنسية . فكان من السهل أن يترجم إلى العربية . حتى يتيح ذلك للأدب العربي المعاصر اطلاعاً واسعاً على ألوان شتى من الثقافة الأوربية .

والتقريب بين البلاد المتباينة ليس من عمل السياسيين أو الدبلوماسيين وحدهم . فقد يكون للأدباء من ذلك حظ عظيم . فحين يترجم أديب عربي لشاعر روسي مثلاً فانه لاشك يمهد طريقاً للتعارف الانساني بين بلاده وبلد المترجَم له وتلك من خُطى التقارب بين الشعوب .

على أنك لو نظرت إلى المسألة من وجهة الأدب المحض لوجدت من العيب أن تجهل أمة أدب أمة : وأن تقف إحداها من الأخرى بمنعزل بعيد ....

وفي الأدب الروسي — على قدر ما أعلم — روح انساني وفيه عاطفة بشرية وفيه حيوية انعكست على موقف الروس في دفاعهم المجيد عن أرضهم الحبيبة .

ولقد أتاحت الظروف لشاب عربي أن يتعلم الروسية في وطنها . وأن يظفر من أدبها بنصيب يجعله حريصاً على نقل أطايبه إلى لغته العربية . وفي ذلك الصنيع وفاء من ناحيتين: وفاء الكاتب لعربيته ، ووفاؤه للغة ثقافته . وما أجمل الوفاء من الأدباء ...

بدأ الأستاذ نجاتي صدقي — من أدباء فلسطين — بتعريف الشاعر الروسي بوشكين الى قراء العربية تعريفاً يلقي اضواء ساطعة على هذا الشاعر الذي لم تظفر المكتبة العربية قبل ذلك بترجمة مفصلة لحياته . وإذا كان بوشكين يقول في قصيدته « التمثال » (سيجتاز صيتي روسيا العظمى . وسيذكرني فيها كل لسان كائن : من صقلبي وفنلندي ومن تونغوزي وكالميكي !) فان الأستاذ نجاتي صدقي يحق له أن يفتخر بأنه جعل صيت بوشكين يجتاز حدود الروسيا الى كل صقع عربي سيقع فيه حتماً هذا الكتاب .

ولما كانت حياة بوشكين تتصل بتاريخ روسيا القيصرية في القرن التاسع عشر فان الأستاذ نجاتي استطاع ان يعرض حياة القيصرية في ذلك العهد عرضاً يحمل القارىء على بينة من حياة الشعب وحياة البلاط . وهما حياتان كان من الضروري أن يظهر في خلالهما شاعر مثل بوشكين استطاع أن يحس آلام الشعب واستطاع ان يرى بعينيه حياة البلاط وأن يسمع في أبهائها أنغام الترف والشبع على حساب أنات الجوع والحرمان ...

ولقد وفق المؤلف في تصوير نفسية بوشكين تصويراً يشيع في النفس الأبية الممتنعة أجمل معاني الآباء والكرامة البشرية . والمؤلف لا يدع ظاهرة من ظواهر الكرامة والحرية عند بوشكين الا جلاها في ثوب أنيق فيه من الايحاء ما هو خليق بالكاتب الكريم . فهذا الشاعر الحر تفرض عليه وظيفة صغيرة تحت سلطان الكونت فورونتشوف المتكبر المتعجرف المزور من صلف . ولكن بوشكين نفسه نفس حرّ ترى المذلة كفراً . فيقابل سلطان المتعجرف بكرامة الكريم ، وهنا تصطدم الكبرياء الكاذبة مع الحرية الأصيلة . وهنا تظهر نذالة الموظف الكبير مع الموظف الصغير ... ولكن بوشكين يقف موقف الرجل بما تحمله الكلمة من معانٍ .

ويثور الرئيس الصلف فيرسل الشاعر الموظف في حملة لمقاومة الجراد ويكلفه كتابة تقرير عن مهمته ... كما يفعل الرؤساء المتعجرفون مع أباة الضيم في ذلك الزمان ، وفي زماننا هذا . وفي كل زمن ومكان ... ولكن بوشكين يذهب في الحملة ويكتب التقرير في هذه الكلمات : « طارت الجرادة ثم هبطت ، ثم طارت ثم هبطت ، ثم أكلت ، ثم طارت ! . . . مع الاحترام . بوشكين »

***

وحياة بوشكين في هذا الكتاب النفيس هي قصة الآباء المنيع يجري في تاريخ شاعر لم يعرف الذلة في حياته القصيرة ولم يرد أن يعترف بها . فهو ثائر على الأرض وثائر على السماء ... ولقد كان هيّناً على بوشكين أن يصادف العيش المريء لو انه كان يسعى للعيش الدنيء . وما أشبهه في ذلك بامرىء القيس أمير الشعر العربي القديم حيث يقول .

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني ـ ولم أطلب ـ قليل من المال

ختم المؤلف كتابه بقصيدتين من شعر بوشكين احداهما « النبي » والأخرى « الطلسم » ولو أنه أطال مدى الاختيار لأمتع القراء بكثير من شعر بوشكين ، وهو شعر لم يُتح لكثير من قراء العربية أن يعرفوه ، وقصيدتان من شعر شاعر كانت حياته كلها غناء وأنيناً

لا تكفيان للتعريف بأدبه . ولعلّ المؤلف يتدارك ذلك فيما هو بسبيله من تعريفنا بالأدب الروسيّ والأدباء الروس في ثمراته المقبلة .

ولقد ازدحم الكتاب بأعلام روسية كثيرة لم يدَعْها المؤلف من غير تعريف بها . فجعل في ذيل الكتاب فهرساً بها وعرّفها الى القراء في ايجاز تعريفاً ينشر الضوء على مواقفها . والحق أن الكتاب ليس تاريخاً لشاعر فحسب ، ولكنه تاريخ موجز شائق لحياة روسيا في الثلث الأول من القرن التاسع عشر .

ولم يسلم الكتاب — على العناية بطبعه في دار المعارف — من أخطاء مطبعية كثيرة لم نتعودها من هذه الدار التي عُرفت باتقانها ودقتها . وليس بعذر أن الكتاب الشهري الصغير تخرجه العجلة على هذه الصورة . فنحن نقرأ مجموعة فلاماريون Flammarion الفرنسية المسلسلة ومجموعة The Kings Treasuries الانجليزية فلا نجد فيها خطأً واحداً .

والحق أن النفس العربية الظامئة الى الحرية في عالم لا تصح فيه الحياة إلاّ للأحرار لتستقبل هذا الكتاب وهي مشتاقة الى الحرية التي هي من أصول الطبع العربي .

ولقد أنصف الاستاذ نجاتي صدقي حين استهل انتاجه الأدبي بهذه الصفحات المنطوية على كثير من مبادىء الحرية الانسانية عند شاعر حر كبير . فنهنئه بما أخرج وننتظر من عمله الجديد في عالم الأدب الروسي خيراً كثيراً .

محمد عبد الغني حسن

• كتاب الاغاني • تأليف أبي الفرج الاصفهاني

٢٠ × ٢٨ سم ٤٨٧ ص دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٣٨

صدر الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني الجليل الحافل بعد ارتقاب طويل كاد يورث اليأس في نفوس المقبلين على عيون الأدب العربي القديم . وفي هذا الجزء اخبار النابغة ونسبه والحارث بن حلزة وعمرو بن كلثوم وأوس بن حجر وعائشة بنت طلحة وعمرو بن شاس والاقيشر واعشى بني تغلب وابي النضير والعبلي وأبي جلدة وحلوية ثم ذكر اتصال الجهال بين جرير والأخطل ، ومقتل زهير بن جذيمة ، ومقتل خالد بن جعفر ، وخبر الحارث وعمرو بن الاطنابة ، وتوبة بن الحمير مع ليلى وذكر فضله . ويلي ذلك المصادر المختلفة التي عودتنا دار الكتب وضعها وضعاً محكماً .

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

كيف تدور محركات قاذفات القنابل

تتسنى ادارة محركات القلاع الطائرة بكباس هوائي توربيني ايجابي اخترع لهذه الغاية . وهو يدار باطلاق غازات المحرك ، وهذا الكباس هو الذي يكبس الهواء القليل الكثافة في مخزن الهواء حيث يمزج بالبنزين . وعند ما تحين الفرصة للبنزين ، يتحوّل بالحرارة تحولاً وئيداً ، غازاً في الفنطاس ، وذلك في المرتفعات الشاهقة .

قاذفات القنابل طراز B — ١٧ E

وقاذفات القنابل التي من طراز بوينج الجديد الموسوم برقم B ١٧ E هي من أحدث النماذج وأكبرها حجماً وأشدها فتكاً بأعدائها . وقد بذّت سابقاتها من النماذج . بل هي الأنماط التي تقوم بانتاجها بالجملة مصانع أميركا . وفي سقف جسم كل منها وقعره برجان قويان للمدافع الصغيرة وبرج آخر في ذنبها . وسطوح ذنبها واسعة جداً قصد زيادة توازنها كطائرات الركاب .

التجارب الارضية تغني عن الجوية

وتقوم مصانع بوينج ودوجلاس وغيرها من المصانع بمقدار كبير من مباحثها الخاصة بالطبقة الطخرورية الجوية [1] وذلك على سطح الأرض حقيقة ، إذ أن التجربة الوحيدة الجوية لطيران قاذفة القنابل التي من نوع القلاع الطائرة تبلغ نفقاتها زهاء ألف ريال في كل ساعة من زمن طيرانها الاختباري . ولهذا السبب تستغني الشركات عن التجارب الجوية بالتجارب الأرضية بأن تستخدم حجراً كبيرة للضغط يفرغ منها الهواء تفريغاً مساوياً له تقريباً في الطبقات العليا من الجو ، حيث تستطيع ادارة الشركة توليد ضغط صناعي منخفض يعادل ما يوجد في ارتفاع ٦٠٠٠٠ قدم في

....

(١) طبقة جوية عليا متساوية الحرارة يتفاوت ارتفاعها في المنطقة المعتدلة من ٦ الى ٨ أميال ويبلغ علوها في المنطقة الاستوائية ١١ ميلا . وفي المنطقتين القطبيتين ٤ أميال . وتقع تحتها طبقتان هما تروبوسفير وتروبوبوز

الجو . وفي وسعها أيضاً تبريد الحجر الى درجة ٧٠ تحت الصفر أو أقل منها . وقد أنشأ مصنع بوينج لذلك الغرض حجرة تشمل برودة الطبقة الطخرورية وحالتها الجوية ، مبطنة بغلاف من الفلين ثخانته ١٢ بوصة ، حيث يتاح خفض الضغط والحرارة الى درجتهما في الارتفاع المنشود تماماً .

قاعة التبريد وحجرة الضغط

ومما يجدر ذكره أن قاعة التبريد التي انشأتها شركة بوينج بلغت من الرحابة مبلغاً يتاح فيه تجربة جهاز القيادة لمجموعة ذنب طائرة بحجمه الطبيعي . وفي قاعة دوجلاس الخاصة بالتبريد ، يرتدي عمال المباحث ثياباً من جلود الخيل مبطنة بالصوف ، تعلوها خوذ من معدن الاليومينيم ، ذات نوافذ من البلكسي جلاس[1] لا يغشاها الضباب حيث يزودون بتليفونات داخلية . واجتناباً لتعرض العمال للاصابة بالالتهاب الرئوي ، تراهم يتنفسون هواءً مدفئاً بأجسامهم أي بالزفير الذي يخرج من أنوفهم ، ثم يتبدد من الصمامات التي في الخوذ التي تعلو رؤوسهم ولا يسمح لأي طيار منهم باختباره منفرداً في الصندوق الثلجي حيث تنخفض درجة حرارته تحت الصفر ، بل يعين له رقيب ليراقبه دائماً عن كثب وذلك من خارج تلك القاعة القارة عن طريق نافذة زجاجية مؤلفة من أربعة ألواح يعلو بعضها بعضاً ، وهذا إلى جانب مواصلة دراسة كيفية تأثر المواد التي تصنع منها القلاع الطائرة حينما تتوغل في طبقات السماء .

وما زالت المباحث دائرة أيضاً في أحوال الطيارين وطرق وقايتهم من الاخطار الجوية حيث لا بدَّ لهم من استنشاق الاكسيجين فان هم تركوا نوافذ الطائرة مفتوحة لكي يديروا منها مدافعهم ، فلا مناص لهم من لبس الثياب والقفافيز المدفأة بالكهربية لأن الطيار حينما يبلغ ارتفاع ٣٠٠٠٠ قدم عن سطح الأرض ، يفقد رشده في أقل من دقيقة واحدة ، هذا إذا حرم من الأوكسيجين . وإن حصل عليه حينئذٍ أخذ يتألم من ضعف الضغط الجوي . ولذلك يحتاج الطيارون بغية القيام بأعمالهم على ما يرام عند صعودهم الى علو ٣٥٠٠٠ قدم أو ما يزيد عليها ، الى بعض أنواع الضغط الصناعي . ولعلَّ حجرة الضغط التي تستعملها طائرات الجو التي من طراز بوينج أصلح حل لهذه المعضلة . ومع ذلك فثمة عقدة أخرى هي خطر انخفاض ضغط الهواء بغتة عندما ينشق جسم الطائرة بضربة تصيبها من عدوها .

عوض جندي

---

(١) البلكسي جلاس plexiglass ـ ألواح لتغطية ما يبيح هبوط الطائرات ، ومقاعد الطيارين وحجب القيادة ونوافذ الطائرات وأبراج مدافعها وذلك لخفة هذه المادة (التي هي من العجائن الكيميائية) ثم لمقاومتها للريح ولشفوفها . وهي عامل خطير لتيسير الرؤية والبلاكسي جلاس من طائفة الصموغ الصناعية .

أقمشة غير منسوجة

من أخبار العلم الأميركية أن القوات الأميركية المسلّحة تستهلك نوعاً جديداً ممتازاً من الأقمشة إسمه «ماسلين» Masslin وهو قماش غير منسوج يمكن انتاجه بعمل عجينة من تيلة القطن ومزجها بسائلٍ لزج (لا يزال يُعدُّ سرّاً من أسرار الحرب) واتباع نظام يشبه إلى حدٍّ كبير النظام المتبع في صناعة الورق بآلاتٍ تشبه آلات هذه الصناعة. والأقمشة الناتجة عن هذه العملية، علاوة على كونها متينة ملساء، فإنها خفيفة الوزن إذ تزن القطعة التي طولها ١٤ ياردة إلى ١٦ ياردة رطلاً واحداً. وهي مع ذلك رخيصة لدرجة تبعث على الدهشة، سهلة التعقيم، تتشرّب السوائل بدرجةٍ عالية، وتصبح وهي مبللة أمتن منها وهي جافة.

ولما كان إنتاج هذا النوع من الأقمشة أسرع من انتاج الأقمشة المنسوجة وأيسر منها، وكانت خالية من المسامّ والفتحات، فقد أصبحت تتفوّق على جميع انواع الملابس المضادة للحوامض والحرائق والمواد الكيميائية الملتهبة. و «للماسلين» مستقبل مضمون، غير أن انتفاع الأهلين به رهين بانتهاء الحرب.

عصر العجائن

أصبح منتجو السيارات في الولايات المتحدة الأميركية يعتقدون أن سيارات المستقبل سوف تصنع من العجائن لأنها أخف وزناً وأكثر صلابة وأزهد قيمة وأجمل شكلاً من السيارات المعدنيّة. والعجائن — كما يفهم من اسمها — تصنع من تيلة القطن أو لبّ الخشب أو الحشائش والأعشاب ويسهل تلوينها وتشكيلها تحت تأثير الضغط في قوالب خاصة.[1] وتملك شركة فورد للسيارات في الوقت الحالي امتياز إنتاج هياكل للسيارات من العجائن. ويمكن الحصول على العجائن حالياً دون نَصَبٍ لأن مخلفات صناعة الورق وعيدان الذرة وكيزانها وتبن القمح والشعير ونشارة الخشب أصبحت اليوم أساساً لعجائن ذات مستقبل مضمون النجاح. كما أن مخلفات المدابغ أصبحت تُعدُّ أساساً لنوع جديد من العجائن أثارت مميزاته الجمة اغتباط العلماء وترحيبهم.

وسيصبح في الامكان إنتاج طائرات مصنوعة هياكلها من العجائن لأن التجارب التي أجريت على هذا النوع من الطائرات نجحت نجاحاً باهراً وسيصبح من الميسور أيضاً إنتاج عدسات القراءة وزجاج النظارات الطبية غير القابلة للكسر من العجائن. وحتى الصحف أمكن طباعتها بواسطة حروف طباعة مصنوعة من العجائن كما أمكن إنتاج الأقمشة وصحاف المائدة وعدد لا يحصى من الأدوات التي نستعملها في حياتنا اليومية من العجائن الكيميائية.

وديع فلسطين

[1] راجع مقال «العجائن» للاستاذ أمين ابراهيم كحيل. مقتطف يونيو ١٩٤٤

فهرس الجزء الخامس

من المجلد السادس بعد المائة

المقتطف

الجزء الاول من المجلد السابع بعد المائة

١ يونيو سنة ١٩٤٥ — ٢٠ جماد ثاني سنة ١٣٦٤

مجلس الاقتصاد والاجتماع

في الهيئة العالمية الجديدة

بين السلام والرخاء صلة وثيقة . ولكنها ليست صلة مطّردة . فإنْ لم يضمن الأمن ، وتطمئنَّ الشعوب إلى سلامتها ، ظلَّ الانتعاش الاقتصادي وهماً من الأوهام ، أو ظلَّ على الأقل قائماً على أساس مضطرب . وإنْ لم يتمّ الانتعاش الاقتصادي ، تأصلت في أحضان الفاقة ، تلك القوى الاجتماعية الهدّامة التي تنخر في جذور الحياة الدولية وتمهّد للحرب . فالضائقة الاقتصادية ، وعدم الاطمئنان إلى أسباب العيش ، هي خير تربةٍ تنبت فيها الأحوال التي تهدّ من أركان الحياة الدولية الطيبة ، وتذهب بقوتها ، فيرتفع الطغاة إلى الذروة ، ويقيمون طبقة على طبقة ، وأمة على أمة . ولكنَّ الرخاءَ لا يلازم بطبيعة الحال إقرار السلام وضمان الأمن ، فكلُّ مشروع غرضهُ تنظيم السلام ، يجب أن ينطوي على مشروعات تتيح للرخاء أن يزدهر ، لكي تظفر كلُّ أمّة ، بما يضمن لرجالها ونسائها ، عيشاً فوقَ مستوى الكفاف ، وعملاً مستمرًّا ، وفرصاً وافية للراحة والمتعة ، وتربية الاولاد. وقد يضيق نظر أمة من الامم ، فتعتقد أنها قادرة على تحقيق هذه الأغراض ، وحدها، وبغير تعاون وتبادل . ولكنَّ جميع عبر التاريخ الحديث تقوم حجة ناهضةً ، على أن هذا مستحيل. فليس بين الامم أمة ما — حتى ولا الاميركية أو الروسية — تملك في أراضيها جميع الموارد اللازمة لتبلغ في إنتاجها أقصاهُ ، فلا بدَّ لها من أن تستورد ، وإذا استوردت فلا بدَّ لها من أن تصدر ، واذن فلا بدَّ لها من أسواق . وحين تقوم صلة أمةٍ ما بالأمم الاخرى على أساس الاستيراد والإصدار ، صار رخاء كلّ أمةٍ جزءاً من الرخاءِ العام أي إن الرخاء

لا يتجزأ . وقد جربت طائفة من الدول ، طريقة « الاكتفاء » — على تفاوت بينها ، وهي طريقة الاستغناء عن العالم بقدر المستطاع ، فلا تستورد الدولة إلاّ ما تعجز عن الفوز به في أرضها ، سواء من موارد طبيعية كان ذلك ، أم من موارد صناعيــة وضع العلم أركانها . والغرض البادي هو رفع مستوى عيش الشعب ، بإغنائه عن العالم . ولــكن النتيجة هي خفض مستوى المعيشة لأن جميع هذه الأعواض تقتضي من النفقة أكثر مما تقتضيه مثيلاتها المستخرجة من مواردها الطبيعية ولو نقلت من أقاصي الأرض . وسياسة الاكتفاء تقتضي قيوداً كثيرة ، من رخص الاستيراد والإصدار وتحديد مبالغ المال التي تنفق هنا أو هناك وهذه لا يمكن أن تفرض فرضاً دقيقاً ، إلاّ إذا كان الحكم دكتاتوريّـا . والحــكم الدكتاتوري يقتضي الاســتبداد والتحكم وكم الأفواه وقدع العقول واستثارة الغرائز والأهواء ، والتأهب للحرب فانحطاط مستوى المعيشة يجاريه انحطاط مستوى الحياة المعنوية كذلك .

ومن هنا ما نُـصّ عليه في مشروع الهيئة العالمية الجديدة من إنشاء مجلس الاقتصاد والاجتماع ، على أن يضمّ تحت جناحيــه هيئات اقتصــادية واجتماعية شتى بعضها أنشىء وبعض في دور الانشاء مثل هيئة العمل الدولية ، وصندوق النقد الدولي ، وبنك التعمير والتحسين ، ومكتب الأمم المتحدة للطعام والزراعة ، وهيئة النقل الجوي وغيرها .

***

أما هيئة العمل الدولية ، فتكاد تكون الهيئة الوحيــدة بين الهيئات الدولية الكثيرة التي أنشئت بعــد الحرب العالمية الأولى ، التي استطاعت أن تقاوي تقلّـب الدهر بين يسر وعسر ، وسلامٍ مستقرّ أو مضطرب ، وحرب مستعرة ، وحققت بعض ما عقد عليهــا من رجاء . وقد كان همّـها الاول أن تضمن لــكل رجلٍ قادرٍ على العمــل ، حقّ العمل ، وأحوالاً صحية يعمل فيها ، وجزاءً عادلاً عن عمله ، وضماناً لهُ ولأسرته إن تعطّـل عن العمل أو عجز عنهُ لتقدم السن به أو إصابته بعاهة أو مرض . ثم كان همّـها الثاني أن تنشىء الصلات الاقتصادية والصناعية بين الامم وأن توثقها ، حتى تكون ركناً من الاركان التي يقوم عليها صرح السلام . فالصلة بين السلام والعدل الاجتماعي ، كالصلة بين السلام والرخاء صلة وثيقة .

وقد أنشئت هيئة العمل الدولية في سنة ١٩١٩ على انها جزء من التسوية العامة التي تمت في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية . والنصوص الخاصة بها تقع في القسم الثالث عشر من معاهدة فرساي فمطلع هذا القسم من المعاهدة ينص على ان الدول المتعاقدة قد أسست هذه الهيئة مدفوعة بشعور العدل والانسانية والرغبة في الحصول على سلام العالم الدائم .

ثم يقول إن أحوال العمل والعمال القائمة تنطوي على جور وحرمان لطوائف كبيرة من الناس من شأنها أن تجعل السلام والاتساق العالميين محفوفين بالخطر وتحتم العمل على تحسين هذه الأحوال .

ولذلك انشئت هيئة العمل الدولية على انها علاج لهذه الحالة .

وقد ورد في المادة ٤٣٧ من معاهدة فرساي بعض القواعد التي يجب ان تجري عليها هذه الهيئة في تحقيق القصد منها . وأولاها أن العمل يجب ألاّ يحسب سلعة أو مادة من سلع التجارة ومواردها » . ثم هناك قواعد أخرى وضعت للمحافظة على حسن العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال منها دفع الأجور الوافية وتحديد ساعات العمل والغاء عمل الأطفال وجعل الأجور للنساء والرجال واحدة اذا كان العمل واحداً وحماية حقوق العمال الأجانب وغيرها .

تتألف هيئة العمل الدولية بوجه عام من الدول المنتظمة في عصبة الأمم أي ان الانتظام في العصبة يعني الانتظام فيها . ولكن العكس لا يصح . أي ان الانتظام في هيئة العمل الدولي لا يعني ولا يقتضي الانتظام في العصبة . فألمانيا كانت عضواً في هيئة العمل الدولي قبل ان تنتظم في العصبة سنة ١٩٢٥ ، والبرازيل كانت لا تزال عضواً فيها قبل الحرب مع انها انسحبت من العصبة . وقد انتظمت الولايات المتحدة عضواً فيها سنة ١٩٣٤ ، مع أنها لم تنتظم في العصبة .

الاّ ان بين العصبة وهيئة العمل فرقاً . فالعصبة مجلس تشترك فيه الحكومات فقط . وأما الهيئة فتشترك فيها الحكومات وجماعات العمال وأصحاب الأعمال . وكل دولة مشتركة فيها يحق لها ان تبعث اليها بأربعة مندوبين منهم مندوبان يمثلان الحكومة والمندوبان الآخران تعينهما الحكومة بالاتفاق مع الجماعات الصناعية إذا كانت قائمة فيمثل أحدهما العمال والآخر أصحاب العمل .

وهي ثلاثة أقسام : القسم (الاول) يعرف باسم المؤتمر العام وهو مؤلف من جميع ممثلي الدول المنتظمة فيه على أساس أربعة ممثلين لكل دولة . والقسم (الثاني) مجلس الادارة وقد كان عدد أعضائه أربعة وعشرين عضواً ١٢ عضواً منهم يمثلون الحكومات ، وستة أعضاء يمثلون جماعات العمال ، والستة الآخرون يمثلون جماعات أصحاب العمل . والقسم (الثالث) مكتب العمل الدولي .

وقد وصفت هيئة العمل الدولية خطأً بأنها انشئت لسن قوانين دولية للعمال والعمل . ولكنها في الواقع لا تملك سلطة تشريعية لأن الدول تحتفظ بسيادتها الخاصة في شؤون

العمل احتفاظها بها في الشؤون السياسية ، ولم تتخلَّ عنها لأي مجلس دولي ، وليس لمؤتمر العمل الدولي الاّ أن يقترح فله أن يتخذ قرارات وأن يدعو الى الأخذ بها ، وله أن يضع مشروعات قوانين وعلى الحكومات المنتظمة في المكتب ان تعرض هذه المشروعات على مجالسها التشريعية في حدود معينة من الزمن . ولكن الواجب على الحكومات المختلفة لا يتعدى هذا الفرض . وللسلطات التشريعية في أي دولة أن ترفض المشروع أو أن تقره أو أن لا تتخذ أي قرار حياله . بل لأي حكومة أن تشير على المجالس التشريعية برفض أي مشروع ولو كان مندوبها قد وافق عليه في مكتب العمل نفسه . وقد حدث ما هو من هذا القبيل مراراً .

وقد أقرت هيئة العمل الدولية عشرات من مشروعات القوانين بلغت سبعة وستين عند نشوب الحرب عدا المقترحات والتوصيات التي اقترحتها أو أوصت بها . وقد عرضت هذه جميعاً على المجالس النيابية في الدول المنتظمة في الهيئة وفقاً لقانونها ولكن يصح القول بأن الدول تلكأت أولاً في ابرامها بوجه عام . ومع ذلك فلم تكد تهل سنة ١٩٤١ حتى كان عدد ما صدق عليه من مشروعات القوانين في شتى دول الأعضاء ٨٧٩ تصديقاً ، وبعض الموضوعات التي شملتها هذه المشروعات — تنظيم وتحديد ساعات العمل ، تحديد أدنى أجور للعمل ، وساعات الراحة كل أسبوع ، الاجازات السنوية ، العمل ليلاً للنساء والاطفال ، عمر الاطفال في الصناعة ، والتأمين الاجتماعي ، وغيرها .

وقد كانت الدول الفاشستية ناقمة على هيئة العمل الدولية ، فانسحبت منها المانيا النازية فايطاليا الفاشستية فاليابان . وحين ضاق خناق المانيا وايطاليا على سويسرا — مقرّ العصبة والهيئة — نقلت هيئة العمل مقرّها من قارة أوربا الى كندا . ولم تلبث في مُقرها الجديد ، حتى أخذت تحذر طوائف العمال في القارتين الامريكيتين ، خطر الدعاية النازية ، وحين عقدت دول الجامعة الامريكية مؤتمرها في هافانا في جزيرة كوبا ، في مستهلّ الحرب ، نبهت هيئة العمل الدولية ، ممثلي الجمهوريات الامريكية ، إلى أن « حماة الدمقراطية يجب أن يتسلحوا ويستيقظوا » واعترف أعضاء المؤتمر بقيمة هذا التنبيه فقطعوا عهداً « بتأييد الحكومات والشعوب في القارة الاميركية تأييداً لا يضعف ، لكي تواصل هيئة العمل الدولية مساعيها دون أن يلمَّ بها وَهَن »

***

وقد حرصت هذه الهيئة خلال الحرب ، على أن تسهر على صون ما أدركه العمال من التقدم الاجتماعي وتوسيع نطاقه . وليس ثمة دولة مهما تكن صغيرة لا تظفر من الهيئة باهتمامها ، ولا دولة مهما تكن كبيرة وقوية ، تستطيع أن تهمل طويلاً المسائل التي تعنى بها

الهيئة . فالحياة التي ستنبثق من أتون الحرب ، مرتبطة أوثق ارتباط بالمنشآت العالمية التي ينتظر قيامها ، وبشدة ما توليها إياهُ جماهير الناس من ثقة وتأييد وولاء .

ورجال هذه الهيئة يشعرون شعوراً صادقاً بعظم التبعة الواقعة على كواهلهم ، وتعقيد المشكلات التي ما فتئت الهيئة تعالجها منذ ربع قرن أو يزيد ، وقد أضيفت اليها مشكلات أخرى ، تتصل بأحوال العمل والعمال في البلاد التي اكتوت بنار الحرب في أوربا ، وملايين العمال الذين رُحلوا من بلادهم إلى المانيا ، إما بالقوة وإما بالاغراء ، وإحياء الجماعات التي كان للعمال وأصحاب العمل ممثلون فيها ، وانشاء المكاتب التي توجه العامل الى العمل الذي يطلبهُ أو يطيقهُ ، والحثّ على بسط نظام الضمان الاجتماعي للعمال وما أشبه .

وقد عقدت هيئة العمل الدولية في ابريل ومايو من سنة ١٩٤٤ مؤتمرها السادس والعشرين في فلادلفيا ، فأسفر هـذا المؤتمر عن وثيقة اجتماعية خطيرة أطلق عليها اسم « دستور فلادلفيا » وهي تقرر ان العمل حق وليس سلعةً ، وان الفاقة في أي مكان خطر يهدّد الرخاءَ في كلّ مكان ، وأن الحرب على الفاقة يجب أن تشنّ في كل أمة ، وأن توحد المساعي الدولية لتعزيز الخير العام ، وأن جميع الناس بصرف النظر عن السلالة والعقيدة والجنس ، يحق لهم أن يطلبوا العيش الرضيّ والنموّ الروحي في أحوال توفر لهم الحرية والكرامة والامن والمساواة ، وأن تحقيق هذا الغرض يجب أن يكون الهدف الاول لكل سياسة قومية ودولية ، وأن جميع السياسات القومية والدولية ، وجميع الاجراءات ولا سيما الاقتصادي والمالي منها ، يجب أن تقاس قيمتهُ بمقياس ما يسديهِ من خدمة إلى تحقيق هذا الهدف ، وأن على هيئة العمل الدولية ، أن تستوفي بحث هذه السياسات ، على ضوء ما يرجى منها لتحقيق هذه الأغراض وأن تنشر قراراتها وتوصياتها وتضمّ اليها ما تراهُ موافقاً .

والقسم الأخير من دستور فلادلفيا ينطوي على قرارات خاصة بأحوال العمل والتدريب والمساومة المشتركة والضمان الاجتماعي والتأمين على الحياة والصحة ورعاية الحوامل والأمهات والأطفال ، وتوفير الغذاء والمأوى وأسباب التسلية والتثقف والتربية .

وحين استقبل الرئيس روزفلت في وشنطن أعضاء المؤتمر بعد ارفضاضهِ خاطبهم فقال : لقد أيّدتم ولاءكم لمبادئ هي أركان في صرح السلام ... ولخصتم في تصريحكم آمال عصرٍ اكتوى بنار حربين عالميتين . وإني لأعتقد أن الأجيال المقبلة ستعدُّ « دستور فلادلفيا » علماً بارزاً في تفكير البشر ، ويسرني أن اغتنم هـذه الفرصة ، لأوافق على موادهِ المفصلة باسم الولايات المتحدة . وأرجو أن لايطول الزمن قبل أن توافق على مبادئهِ المفصّلة جميع الامم المتحدة » .

وستكون هيئة العمل الدولية ، إحدى الهيئات التي تضمها الهيئة العالمية الجديدة ، تحت جناحيها، وتتولى رعايتها العامة الجمعية العمومية . وتاريخ هيئة العمل الدولية وما لها من مآثر في خدمة قضايا العمال يعزز الرجاء بأنها ستساهم منذ اليوم في توفير الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي تؤاتي السلام . وخدمة التعمير الاقتصادي والاجتماعي بعد الحرب .

***

وفي شهر يوليو من سنة ١٩٤٤ اجتمع في بلدة بريتون وذز في ولاية نيوهامشير بالولايات المتحدة مؤتمر مالي حضره ممثلو أربع وأربعين دولة . وقد وضع هذا المؤتمر مقترحات لمعالجة الناحية المالية من مشكلات العالم الاقتصادية بعد الحرب ، وكان في طليعة هذه المقترحات «صندوق دولي للنقد» مهمته إقرار ضروب النقد بعد الحرب، وصلتها بعضها ببعض لتيسير التبادل بين الأمم على أساس من نقد غير مضطرب ، ويليه « البنك الدولي للتعمير والتحسين » وإحدى مهامه ضمان القروض الخاصة التي تعقد بالأساليب المألوفة . فأوربا — مثلاً — قد خرجت من محنة الحرب العالمية الثانية وقد تصدعت أركان حياتها الاقتصادية فليس في التاريخ ذكر حرب خلفت وراءها من الدمار ما خلفته هذه الحرب . فأسباب المواصلات ممزقة ، ولقد تجد الفحم فلا تستطيع أن تنقله إلى المصانع . وقد ترى منتجات المصانع ومقادير الطعام مكدسة فلا تستطيع ان توصل مقادير وافية منها إلى المستهلكين . والمصانع نفسها أنقاض، وكذلك محطات توليد الطاقة المحركة والمضيئة، والجسور ومنشآت المرافىء . وقد تركت الحرب جزءاً كبيراً من الاراضي الزراعية كالقفر اليباب ، والناس أنهكتهم الحرب وأجاعتهم وأمرضتهم ، فتعمير أوربا أمر لا مفر منه منعاً للفوضى أن تعصف بشعوبها ، وإقامة لركن أصيل من أركان الاقتصاد الدولي إنتاجاً واستهلاكاً .

وليس هذا التعمير بالأمر السهل ، إذ يجب أن يخضع لقاعدتين متلازمتين ، على مجلس الاقتصاد والاجتماع ومجلس الدول الظافرة ، أن يوفقا بينهما . ففي الناحية الواحدة ، يجب أن يكون التعمير ملازماً ومؤيداً للتنظيم السياسي والحربي الذي غرضه أن يحول دون قيام قوة المانيا الحربية مرة أخرى ، وفي الناحية الأخرى يجب أن يكون أساساً لانتعاش الحياة الاقتصادية انتعاشاً يتيح لشعوب اوربا أن ترفع مستوى معيشتها رفعاً مطرداً ويضمن لها رخاء العيش ورضى النفس .

وعلى « البنك الدولي للتعمير والتحسين » في هذا العمل من ناحيته المالية تبعة عظيمة . ولنفرض أن هيئة أهلية في إحدى الدول المتوسطة — يوجسلافيا — أرادت أن تنشىء مشروعاً كبيراً لتوليد الطاقة الكهربائية من مياه أحد أنهارها . وهي لا تملك المال اللازم

لذلك ولا المعدات الضخمة. فلو لم يكن ثمة بنك دولي مهمته أن يعاون على هذا التعمير، لذهب ممثلو يوجوسلافيا إلى سوق المال في لندن ونيويورك ليحاولوا عقد قرض مع بنك كبير أو مع كتلة من البنوك في إحداهما أو فيهما كلتيهما . ولكن هذا البنك أو هذه الكتلة من البنوك ، لا سيطرة لها على شؤون يوجسلافيا الداخلية . إن هي إلا منشآت مالية خاصة ، ومهمة مديريها أن يضمنوا لمساهميها ما لهم وأقصى ربح ممكن ، فتفرض على يوجوسلافيا شروطاً مرهقة أو مستحيل التسليم بها ، فيما يتعلق بالفائدة واستهلاك القرض وضمانه . وقد يعقد القرض وقد لا يعقد . فان لم يعقد حرمت يوجسلافيا انشاء مشروع عمراني مفيد يزيد قدرتها على الانتاج ويرفع على الزمن مستوى معيشة أهلها . وإنّ عُقد فربّما عجزت يوجسلافيا عن النهوض بالتزاماتها ، فيخسر أصحاب المال ، كلَّ مالهم أو بعضهُ .

ثم لنفرض أن السعي لعقد هذا القرض تمّ وهذا البنك الدولي حقيقة قائمة . فماذا يحدث . يذهب ممثلو الدولة التي تريد عقد القرض ، إلى لجنة القروض في البنك ، وتطلب المال من البنك ، فتسألهم اللجنة ثلاثة أسئلة . أولاً — هل المال لمنشآت منتجة ، ثانياً — أيقصد به لاغراض حربية أو هل يمكن أن يستعمل لأغراضٍ حربية ، وثالثاً — هل تضمن الحكومة اليوجسلافية هذا القرض ، فاذا كان الجواب عن السؤالين الأول والثالث بالايجاب، وعن الثاني بالنفي ، قرّر البنك أن يعقد القرض ، أو على الأرجح أن يضمنه للبنوك التي تعقدهُ ، فتكون شروطهُ أقلّ إرهاقاً ، ويأخذ البنك لقاء عمله هذا أجراً قيمتهُ واحد في المئة في السنة .

فإذا طبّقت عمل البنك الدولي على عشرات من هذه المشروعات العمرانية في أوربا ، علمت مبلغ نصيبه في عمل التعمير الاقتصادي والاجتماعي .

وقد قال مورجنتاو وزير مالية الولايات المتحدة ، في وصف النتائج التي أسفر عنها مؤتمر بريتون ودز : لقد وضعنا نظاماً يتيح للناس في كل مكان ان يتبادلوا السلع تبادلاً حرّاً . على أساس من الانصاف والاستمرار . . . وخطونا الخطوة الأولى التي تمكّن أمم العالم من أن يساعد بعضها بعضاً في التقدم الاقتصادي تقدماً ينفعها ويزيد ثروتها جميعاً » ولم تكن الوفود التي حضرت المؤتمر مفوّضة فالمشروع مطروح لإقراره ، وبرغم ما وجه إليه من نقد ، يلوح أن إقرارهُ مضمون

فؤاد صروف

قواعد النظام المالي

- ١ -

الخراج

الخراج لغة ، حصيلة الضريبة المفروضة على قطعة أرض أو عبد . واصطلاحاً هو الضريبة المفروضة على الأرض ، على المشهور . ويمتد هذا التعريف حتى يشمل الجزية كذلك بحسب رأي البعض . وهو من أموال الفيء ، ويفرض ابتداءً على الذميين . مثله كمثل الجزية ، ولكنه لا يسقط بالاسلام في حين انها تسقط به ، وهذا ما يميزه عن الجزية

وأكثر مؤرخي العرب يستعملون كلمة « خراج » وهم يعنون الايرادات ، على ان هذه الكلمة بالمعنى الحقيقي لها ، تدل على ما يجبى من الأرض المزروعة . وهذا يعزى الى ما للخراج من خطر وشأن في المالية العامة الاسلامية ، اذ يكوّن الجزء الأعظم من ايرادات الدولة ، بل كانت جميع الايرادات الأخرى لا تعد بجانبه شيئاً مذكوراً ، فلا بدع ان يسمي هؤلاء الكتّاب مجموع الجباية خراجاً ، باطلاق مدلول الجزء على الكل .

١ - منشأ الخراج

الأرض التي يستولي عليها المسلمون تنقسم من وجهة طريقة الاستيلاء عليها قسمين ، أرض الصلح ، وأرض العنوة . فأما أرض الصلح فهي التي طلب أصحابها الأمان والدخول في ذمة المسلمين مقابل مقدار من الأموال يتفق عليه الطرفان ، وعلى هذا تضم بلادهم الى دار الاسلام ويعدون رعايا الدولة الاسلامية ، ويجب احترام ما صولحوا عليه ولا يجوز للامام قطعاً الخروج على شروط الصلح ، اذ يعد هذا نكثاً بالعهد الاسلامي .

وأما أرض العنوة فهي البلاد التي استولى عليها المسلمون غلبةً وقهراً ، وقد صار في شأن هذه الأرض جدل عنيف ونقاش طويل ، وانقسم المسلمون فيها فريقين .

الفريق الأول - يقول بتطبيق قاعدة الغنائم عليها ، أي تُخَمَّس ، فيعطى الخمس

للدولة لينفق في مصارفه،وتفرق أربعة الأخماس الباقية على من حضروا القتال ، اذ لا معنى البتة للتفرقة بين ما يستولى عليه المسلمون من المنقول في السلاح والنقود ، وبين العقار كالارض ويرى الفريق الآخر ان الارض يجب أن تظل في أيدي أصحابها يستثمرونها ويفرض عليها الامام ، مقابل هذا ، مقداراً يؤدونه على حسب ما يراه،وبذلك تكون فيئاً للمسلمين جميعاً على كرّ السنين وتعاقب الدهور .

وسنبسط رأي كل فريق متخذين مثلين بارزين : العراق ومصر .

ا — فتح العراق : لما فتح المسلمون العراق (السواد) استشار عمر بن الخطاب الصحابة فيما يجب عمله بشأنه فرأوا أن يقسموه ، وكان بلال بن رباح أشدهم في ذلك ، ومن قوله لعمر « اقسم الارضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر » ، وقال آخرون بان هذا حق من حقوقهم تجب قسمته بينهم، فكان عمر يجيب : « فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء وحيزت ، ما هذا برأي » . فقال له عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الأرض الا مما أفاء الله عليهم . فقال عمر : « ما هو الا كما تقول ولست أرى ذلك ، والله لا يقع بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين ، إذا قسمت الارض العراق والشام فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ، فأكثروا على عمر وقالوا « أتقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولابناء أبنائهم ولم يحضروا » . فكان عمر لا يزيد على أن يقول هذا رأيي ، قالوا فاستشر . فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا وانقسموا فريقين ، فريقاً يرى رأيه وآخر يخالفه . فأرسل الى عشرة من الانصار من كرامهم وأشرافهم فلما اجتمعوا قال : « اني رأيت أنه لم يبق شيء يفتح بعد أرض كسرى ، وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم فقسمت ما غنم من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه . قد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفي رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي بعدهم . أرأيتم هذه الثغور لا بدّ لها من رجال يلزمونها ، أرأيتم هذه المدن العظام الشام والجزيرة والكوفة والبصرة لا بدّ لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الارضون فقالوا « الرأي رأيك » فنعم ما قلت.وما رأيت إن لم تشحن هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجري عليهم ما يتقوون به ، رجع أهل الكفر إلى مدنهم . « فقال » قد بان لي الأمر فمن لي برجل له جزالة عقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون . فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف،فولاه عمر بساحة أرض العراق فأدت جباية سواد الكوفة

قبل أن يموت عمر بعام مائة الف الف درهم،والدرهم يومئـذٍ درهم ودانقان ونصف ، وكان وزن الدرهم وزن المثقال [١]

***

هذا مجملما ذكره ابويوسفعن هذا الحادث الخطير في الاسلام آثرت ايراده على علاته لأضع صورة واضحة للقارئ الكريم عن التيارين اللذين كانا يتجاذبان هـذا الموضوع والنقاش الذي دار بشأنه والذيانتهى بفوز رأي عمر، أي بوقف الأرض على الصالح العام. والواقع ان عمر كان يكره تملك المسلمين للارض ويخشى إذا تملك العرب الأراضي واشتغلوا بالزراعة استكانوا للدعة واستطابوا رغد المدنية فيهملون فرض الجهـاد . فحرّم عليهم اقتناء الضيـاع والزراعة لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملـكون من عبيد وأموال ، كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال .

ومهما يكن من أمر فقد كان رأي عمر هذا خيراً للعرب عامة وأهالي البلاد المفتوحة بصفة خاصة ولا سيما إذا لوحظ أنه إذا قسمت الأرض بين الفاتحين لم يستطع هؤلاء استغلالها بمثل المقدرة التي كان أصحابهـا الأولون يبذلونها ، لجهل العرب بأصول زراعتها وعمارتها . وفي هـذا يقول أبو يوسف « وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هـذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقوَ الجيوش علىالسير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الـكفر الى مدنهم إذا خلت من المقاتلة . . . الخ »

ب — فتح مصر : لما تمَّ فتحالعرب لمصراختلف في شأنها ، عنوةً كان فتحها ، أم صلحاً ذا عهد وشرط . وقد ثار الجدل الذي قام عقب فتح العراق بشأن تقسيم البلاد بين الفاتحين كما مرّ بنا ، إذ طلب فريق الفاتحين وعلى رأسهم الزبير بن العوام قسمة البلاد فأبى عمرو بن العاص ذلك وكتب الى عمرفي هذا الشأن فردَّ عليه بقوله « حتى يغزو منها حبَـل الحبَـلة » [٢] على ان مصر عوملت كما عوملت العراق فتركت الأرض في أيدي أصحابهـا يستغلونها ويدفعون عنها مقداراً معلوماً كان في أول أمره دينارين . وبذلك أصبح الأمر قاعدة عامة اتخذها العرب في كل بلد فتحوه . وتتبين أهمية اعتبار البلد فتحت عنوةً أو صلحاً عنـد البحث في تقدير الخراج .

---

(١) ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم القاضي « الخراج » صفحة ١٤ — ١٦

(٢) ابن عبد الحكم فتوح مصر صفحة ٨٤ — ٨٨

٢ — تقدير الخراج

الأرض التي صولح عليها أهلها ، يؤدون عنهـا ما تعهدوا بأدائه ولا يجوز للامام أن يستأدى أكثر منه في جميع الأحوال ، سواء زادت غلتهم أو قلت ، ساد الرخاء أو امحلت البلاد . أما الارض التي فتحت عنوةً فاتبع العرب نحوها احدى طريقتين . خراج الوظيفة أو خراج المقاسمة .

وخراج المقاسمة عبارة عن جباية مقـدار نسبي من محصول الأرض كالنصف أو الثلث أو الربع أو الخمس . أما خراج الوظيفة فمقداره ثابت يفرض على الأرض ، وهذا المقدار كمية من المحصول أو النقد ، أو محصول مساحات معينة من أرض أو عدد معلوم من الأشجار . ويفرض الخراج على الأرض بصرف النظر عن كون المالك قاصراً أو بالغاً ، حراً أو عبـداً ، رجلاً أو امرأة ، مسلماً أو ذمياً. ويتفرع على ذلك إنه إذا أسلم مالك ذمي أو باع أرضـه لمسلم فلا يتغير وضع الأرض ، أي يجبي منها الخراج [1] — وسنفرق في كلامنا على سعر الضريبة بين القواعد الشرعية وبين ما أتبع فعلاً .

١ — القواعد الشرعية : نسب الأداء تجبي من جميع الأراضي الصالحة للزراعة والسهلة الري على الوجه الآتي : ـ (المذهب الحنفي) صاع من الشعير أو التمر ودرهم عن كل جريب من الشعير أو القمح (الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربعة) . ويرى الشافعي أربعة من القمح وعن جريب الشعير درهمان . وتؤدى النسبة عن جريب الرطبة خمسة دراهم ، ولـكن الشافعي يراها ستة وعن كل جريب من الأشجار الملتفة المتشابكة وكروم العنب والنخيل عشرة. ولـكن الشافعي يراها ثمانية ويرى الماوردي (المذهب المالكي) عن الأشجار عشرة وعن النخيل ثمانية دراهم وعن قصب السكر ستة دراهم .

ويشترط في فرض الضريبة على الأشجار أن تكون كثيفة الانبات متشابكة إلى درجة يتعذر معها زرع المسافات التي تتخللهـا . أما إذا كانت متباعدة وقائمة في حقول فتعفى من الضريبة ، إذ تؤدي في هذه الحالة ضريبة الأرض المزروعة [2] .

وقد حدَّد فقهاء المذهب الحنفي النسبة القصوى لضريبـة الخراج بما يسمونه « غاية الطاقة » بالنصف من المحصول كله ، ويتفرَّع على هذا ألا يجوز فرض ضريبة تتعدى هـذه النسبة المقررة ، وينتج عن هـذا المبدأ أيضاً إمكان انقاص الخراج إلى الحد الذي تطبقه

---

(١) يرى الامام مالك وجوب رفع الخراج في هذه الحالة أسوة بالجزية

(٢) الفتح جزء ٥ صفحة ٢٨٢

الأرض . ولا يجيز فقهاء هـذا المذهب زيادة النسب التي قررها عمر حتى لو كانت الأرض تحتمل نسبة أعلى . وقد ورد في الدر (ص ٣٦٥) انه لا يجوز بحال من الأحوال أن يتعدى الخراج الخمس حداً أدنى والنصف حداً أعلى.

وإذاً فرضت الضريبـة للمرة الأولى تحت الحـكم الاسلامي . فأبو حنيفة وأبو يوسف يريان أنه لا يزال من غير الجائز شرعاً وضع حـدود تجاوز ما استنه عمر. ويدللان على ذلك بأنه خاطب عامليه على السواد (العراق) عثمان وحذيفة بقوله « إنه يخشى أن يكون قد حمل الأرض ما لا تطيق فأجاباه بانهما حملاها ما تطيق وانهما لو شاءا لحملاها اكثر وتطيقه . فهذه العبارة تبين أنه يجوز انقاص النسبة اذا كانت الأرض لا تحتملها ، ولـكن من جهة أخرى لا تجوز زيادتها حتى لو استطاعت تحمل النسبة الجديدة . إذ أن عمر على الرغم من علمه بأن الأرض يمكنها تحمل نسبة أعلى ، رفض زيادة النسبة القائمة .

ويطالعنا رأي يباين الآراء السالفة وهو رأي احمد بن الحسن الذي يقول بجواز فرض النسبة العالية ما دامت قد وضعت على أساس طاقة الأرض واحتمالها [1]

واذا كان المحصول لم يرد فيـه نص شرعي فان المـاوردي يرى جواز تأدية النسـبة المفروضة على المحصول الأقرب إليه في المظهر وأوجه الانتفاع

ب — ما أتبع فعلاً في فرض الخراج

أمر عمر بمسح أرض السواد فبلغت ستة وثلاثين الف جريب فوضع على جريب الزرع درهماً وقفيزاً [2] وعلى الـكرم عشرة دراهم وعلى الرطبة خمسة دراهم وعلى النخل ثمانية دراهم وعلى قصب السكر ستة دراهم وعلى الشعير درهمين .

وقد تحسنت الأحوال الاقتصادية في العراق في عهد العباسيين إذ جعلوه مركز دولتهم فلما تولى المنصور رأى أن استبقاء الخراج عليه بالمساحة لا يلائم حالة السكان فجعل خراج الحنطة والشعير (وهما أكثر غلات العراق مقاسمة) وأبقى اليسير من الحبوب والنخل والشجر على قاعدة المساحة ، فاذا زادت الغلة زاد الخراج واذا نقصت نقص .

٢ — خراج المقاسمة : سنأخذ مثلين بارزين هما العراق ومصر .

فأما العراق فقد مرَّ بنا ما فعله المنصور . وقد استمر الحال على هذا الى أيام المهدي (١٥٦ـ١٦٩هـ) الذي جعل المقاسمة بالنصف في الأرض التي تسقى بالأمطار وبالربع في الأرض التي تسقى بالدواليب وبالثلث في الأرض التي تسقى بالدوالي ، وبقي خراج النخل والـكرم

---

(١) الهداية صفحة ٢٨

(٢) الجريب ٣٦٠٠ ذراع مربعة والقفيز عشر الجريب اي ٣٦٠ ذراعاً مربعة . ويعبرون عن القفيز وزناً بثمانية أرطال ويقدرون قيمته بثلاثة دراهم (انظر الماوردي في الاحكام السلطانية صفحة ١٣٧)

والشجر على المساحة كما كانت أيام المنصور، وفضل بعضه على بعض باعتبار قربه من الأسواق والعرض [١] وقد زاد الهادي هذا الخراج فيما بعد الى أن أصبح ٦٠ ٪ من غلة الأرض. وفي عهد الرشيد أرجع الخراج الى ما كان عليه أيام المهدي. ولما تولى المأمون جعل الخراج ٤٠ ٪ من المحصول وخفض كذلك خراج بعض البلاد الاخرى.

أما في مصر فقد ذكر ابن عبد الحكم [٢] انه كان يجتمع عرفاء كل قرية (أهل الرأي فيها) اذا ما دعت الدواعي لانقاص الخراج أو لزيادته فيتناظرون في العمار والخراب. فاذا انتهى نقاشهم وجدلهم بوجوب الزيادة مثلاً اجتمعوا هم ورؤساء القرى الأخرى ووزعوا الزيادة على جميع القرى كل على حسب طاقتها واحتمالها وتبعاً لسعة مزارعها، ثم ترجع كل قرية بقسمهم فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدآتهم من جملة الأرض، ثم يخرج منها عدد أيام الضيافة للمسلمين ونزول السلطان. فاذا فرغوا نظروا الى ما في كل قرية من الصناع والاجراء فقسموا عليهم بقدر احتمالهم - فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها، ثم ينظرون ما بقي من الخراج فيقسمونه بينهم على عدد الارض، ثم يقسمون ذلك بين من يريد الزرع منهم كلٌ على قدر طاقته، فان عجز أحد وشكا ضعفاً عن زرع أرضه وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال وان كان منهم من يريد الزيادة أعطي ما عجز عنه أهل الضعف فان تشاحنوا قسموا ذلك على عدتهم. ويستنتج مما رواه ابن عبد الحكم ان عمرو بن العاص فرض على كل فدان مزروع حبًّا نصف أردب قمح وويبتين من الشعير ومجموع ذلك خمس ويبات من الحبوب عن كل فدان مساحته ٥٩٢٩ متراً مربعاً أي سبع كيلات عن كل فدان مساحته ٤٢٠٠ متر مربع. أما الأرض المزروعة برسيماً فلم يفرض عليها خراج.

٣ — العوامل التي تحدد الضريبة [٣]

إن على واضع الخراج على مساحة ما من الأرض أن يأخذ في اعتباره طاقة الأرض على تحمل الضريبة. وهذه الطاقة تتغير بتغير عوامل ثلاث: فأول هذه العوامل يتعلق بالأرض نفسها أي نوعها. فهو يؤثر في نوع المحصول وكميته. والعامل الثاني نوع المحصول الذي يؤثر في ثمنه ودرجة الاقبال عليه. والثالث يتعلق بطريقة الري. فالمحصول الذي يرويه ماء يحمل على ظهور الحيوان أو بواسطة آلة رافعة لا يستوي من حيث الجهد المبذول في ريه مع

---

(١) البلاذري «فتوح البلدان» صفحة ٢٩١ ووارد أيضاً في الماوردي «الاحكام السلطانية»

(٢) ابن عبد الحكم «فتوح مصر» صفحة ١٥٢ — ١٥٣

(٣) الاحكام السلطانية للماوردي صفحة ١٣٣ - ١٣٥، وانظر كذلك الاحكام السلطانية للقاضي أبي يعلي الفراء الحنبلي صفحة ١٥١-١٥٢

المحصول الذي يروى بماء الانهار الجارية أو الأمطار .ويقوم الري على أربع طرائق :

١ — الري بدون الاستعانة بأداة ما ويكون ذلك بواسطة الماء الجاري الصادر من الينابيع أو الأنهار بتحويله عن مجراه الى الحقل . وهذه الوسيلة هي أكثر الوسائل ربحاً وأجزلها عائدة ، كما انها أقلها كلفة ، لأن الماء يحوّل الى الارض اذا احتيج اليه ويحول عنها اذا ما بطلت الحاجة اليه .

٢ — الري باستخدام واسطة كأن يحمل على ظهور الحيوان أو يحصل عليه بواسطة رافعة . وتلك الوسيلة هي أشق الوسائل وأكثرها كلفة .

٣ — الري الطبيعي بواسطة الامطار أو البرد أو الطل .

٤ — الري بواسطة رطوبة التربة أو الماء الكامن في جوف التربة ، في هذه الحالة تروى المحاصيل بواسطة جذورها .

ويعتبر الري بواسطة القنوات من القسم الاول اذا كان الماء المستخدم جارياً ، ومن القسم الثاني اذا لم يكن كذلك . والري بواسطة الماء المستخرج من الآبار يقع في القسم الثاني اذا كان يجلب على ظهور الحيوان وفي القسم الأول اذا وصل الارض بواسطة القنوات

نخلص من ذلك الى القول بأن على واضع الخراج مراعاة العوامل الثلاثة سالفة الذكر أي طبيعة الارض ونوع المحصول وطريقة الري . وبذلك تتحقق وتصان مصلحة فريقي المكلفين بالاداء والمنتفعين منه . وقد ذكر بعضهم عاملاً رابعاً يتعلق ببعد الارض عن المدن والاسواق . ودللوا على ذلك بأن ثمن الارض يطرد ارتفاعاً وهبوطاً مع قربها أو بعدها عن مراكز التعويض بيد أن آخرين يردون على هذا الرأي بأن هذه الحالة تنطبق فقط اذا ما كان الخراج يؤدى نقداً ، ولا يكون كذلك اذا ما كان يؤدى عيناً في حين أن العوامل الثلاثة سالفة الذكر لها أثرها في كلتا الحالتين .

واذا ما فرض الخراج على أساس المبادىء سالفة الذكر فانه يقرر تبعاً لاجزل الطرائق عائدة - يفرض على مساحة الارض اجمالاً . وأما على الجزء المزروع من الارض فحسب واما أخيراً على المحصول . وتتخذ السنة القمرية لحساب الخراج اذا فرض على الارض برمتها . واذا فرض على الجزء المزروع اتخذت السنة الشمسية في الحساب ، أمّا اذا فرض على المحصول فلا يستحق إلاّ منذ نضجه وتهيئته للاستهلاك . وإذا ما اتبعت طريقة من طرائق فرض الخراج سالفة الذكر فلا يجوز تغييرها والأخذ بطريقة أخرى ولكن تستمر دواماً بلا تبديل طالما لم يتغير وضع الأرض . أما اذا تغير وضع الارض فيفرق بين حالتين .

الأولى — حالة ما اذا كان التغير الحادث راجعاً الى فعل صادر عن صاحب الارض ترتبت

عليه زيادة الطاقة الانتاجية للأرض . كماء يحول اليها من نهر أو حفر بئر . والعكس إذا ما ترتب على هذا الفعل هبوط طاقتها الانتاجية كإهمال زرعها أو استخدام وسائل قاصرة في ذلك . وفي الحالة الأولى لا يزاد الخراج بزيادة الطاقة الانتاجية ، وفي الحالة الثانية يلزم صاحب الأرض بالعناية بزراعتها لئلا تصبح بوراً .

الثانية — إذا حدث التغير نتيجة لعمل خارج عن ارادة صاحب الأرض بسبب حادث طبيعي طارئ سواء نجمت عنه فائدة للأرض أو ضرر لها فيفرق بين حالتين : —

١ — اذا أحدث التغير ضرراً كانخساف الأرض أو جفاف ماء النهر فان كان الاصلاح ممكناً فعلى الامام القيام به بالاستعانة بالدخل المخصص للأعمال ذات النفع العام ويرفع الخراج عن صاحب الأرض طوال الوقت الذي تظل خلاله عطلاً من الزرع . أما إذا لم يكن الاصلاح ممكناً بأن تصبح الأرض غير صالحة للزرع فيرفع الخراج عنها نهائياً ، اللهمّ إلاّ إذا أمكن الانتفاع بها في أغراض أخرى كالصيد أو الرعي وفي هذه الحالة يؤدى الخراج عليها كما يؤدى على الأرض المماثلة لها .

٢ — وإذا حدث من الجهة الأخرى أن أفاد التغير الأرض بأن تبع النهر مجرى جديداً فأصبحت الأرض تروى بالماء الجاري بعد ان كانت تروى ريّاً صناعيّاً ، فللامام الخيار في زيادة مقدار الضريبة أو ابقائها على ما هي عليه حسبما يتفق والصالح العام . ويشترط في ذلك أن يتحقق للتغير صفة الدوام والثبات أما إذا كان التغير وقتيّاً فالضريبة تبقى على ما كانت عليه.

وإذا ما تعذر زرع الأرض سنويّاً بأن لزم تركها بدون زراعة لاراحتها السنة التالية لزراعتها ، فيجب تطبيق أكثر الطرائق الآتية اتفاقاً مع الصالح العام . إما يفرض على الأرض نصف السعر الشائع وإما تعتبر وحدتا المساحة (جريبان) وحدة واحدة (جريباً واحداً) وبذلك يتفادى تقاضي شيء على الجزء غير المزروع . أو أخيراً يفرض السعر على الجزء المزروع فحسب. وإذا أقدم أحد المكلفين بدون اذن من الامام على استبدال نوع ما من المحصول يؤدى عليه سعر عال بآخر يؤدى عليه سعر أقل فانه يجبر على الاستمرار في أداء السعر الأعلى لأنه مسؤول عن هبوط السعر .

وإذا ما زرع شخص في حقله كروماً أو أشجاراً مشابهة لها ، فانه يستمر على أداء خراج المحاصيل إلى أن تحمل الأشجار ثماراً وعندئذ يؤدى على الجريب منها عشر دراهم ، وإذا ما بلغت قيمة المحصول عشرين درهماً أو أكثر أو أقل من ذلك ، يؤدى نصف هذه القيمة بشرط أن لا تقل عما يعادل قفيزاً من الحنطة ودرهماً ، إذ أن هذا هو الحد الأدنى الذي يؤدى عليه جريب من الأرض القابلة للزراعة . « يتبع »

فؤاد محمد شبل

أفتونا ....

نشرنا في العدد السابق من المقتطف كلمة عن كتاب « الزمان الوجودي » تأليف الاستاذ عبد الرحمن بدوي ، ووعدنا القراء بنقل عبارات من هذا الكتاب نتقدم بها لحضرات الاساتذة المبجلين أعضاء هيئة الامتحان الذي انتهى باعطاء صاحب هذه الرسالة درجة في الفلسفة من جامعة فؤاد الاول ، لعلهم يستطيعون أن يفسروا لنا بعض مغمضاتها ، فنستنير بها في نقد هذا الكتاب .

وقبل أن نمضي في نقل هذه العبارات أود أن أشير الى أن حضرة المؤلف الفاضل لم يذكر المصطلحات الاعجمية المقابلة للمصطلحات العربية التي استعملها في الكتاب ، حتى يكون الناقد على بينة بما بين يديه من مصطلحات بلغ ببعضها الغموض مبلغاً عظيماً . ولقد شذ المؤلف عن هذه القاعدة في كلمتي intuition وinstinct فدل بهذا الشذوذ غير المقصود على انه لم يدرك شيئاً من سر الاصطلاح الفلسفي ، فاذا قسنا بقية مصطلحات الكتاب على ما شذ فيه فذكر أصله الاعجمي ، وضح لنا ان نقد الكتاب من المستحيلات وان فهمه أعقد من ذنب الضب .

ففي ص ٩٢ : « عيان يناظر : intuition » . وفي ص ١٨١ : « هي ما يسميه باسم intuition أو الغريزة — من شأن الـ intuition أو الغريزة . . . فكأن ترجمة كلمة intuition مرة بلفظة « عيان » ومرة بلفظة « غريزة » ، . . والغريزة instinct لا شك فيها ولا ريب ، وكلمة « عيان » بعيدة عن intuition بعد الثريا عن سهيل .

فاذا كان المؤلف قد جرى في كتابه على هذا التخليط في استعمال المصطلحات فعلى الزمان وعلى الوجود السلام . اما اذا تفضل فزودنا بالاصول الاعجمية التي تقابل مصطلحاته ننظر فيها من وجوه ما تحتمل من المعنى الفلسفي والمعنى اللغوي ، فانه بذلك يخدم الادب ويخدم نفسه أكبر خدمة .

والى الاساتذة أعضاء هيئة الامتحان نتقدم بالعبارات الآتية وقد غمضت علينا كما غمض كثير غيرها ، لعلهم يزودوننا بما يفتح مغاليقها ، ولاشك في أن لهم فيها رأياً ، وقد منحوا كاتبها درجة في الفلسفة .

ص ١٣٥ : لاوجود إلا بالزمان . والزمان سر التناهي . فكل وجود لفناء . ولكن الفناء تحقق الامكان . وكل تحقق بالفعل . والفعل هو الخلق . فالتناهي اذن خلاق .

ص ١٠٦ : ان الشعور بالوجود لايكون قوياً عن طريق الفكر المجرد . لان الفكر المجرد انتزاع النفس من تيار الوجود الحي ، وانعزال في مملكة أخرى تذهب منها الحياة المتوترة الحادة ، ولا يسودها عمل وحركة ، بل صيغ خارجية عن الوجود لا تنبض بدمه . انما يبلغ الشعور بالوجود أعلى درجة في حالة العقل الباطن الذي أنشب أظفاره في الحياة المضطربة ، أي في حالة النزوع المشبوب العاطفة ، فهي حالة تنسب اذن الى الارادة والعاطفة ، أولى من انتسابها الى العقل والفكر . ولذا يجب أن ننشدها في مقولات العاطفة والارادة ، نضعها مكان مقولات العقل التي لم يعن الفلاسفة بغيرها حتى الآن .

ص ١٨٢ : أفكار لتكوين ظاهريات خالصة وفلسفة ظاهرياتية ??? .

ص ١٨٤ : ومنطق الوجدان منطق التوتر . ولذا نرفض مبدأ عدم التناقض الذي يقوم عليه المنطق العقلي ، بالنسبة الى الوجود الذاتي؛ لأن هذا المنطق العقلي لا ينطبق إلا على الوجود الفزيائي . ذلك أن العقل في بحثه الفزيائي يعمل دائماً الى نشدان الهوية في كل مايتناوله .

ص ١٨٥ : أما المنطق الذي نقول به فلا يقول برفع طاقاً ، بل بالعكس : يحتفظ للتقابل بكل حدته وتوتره ، ولذا فضلنا تسميته « منطق التوتر » . وتبعاً لهذا فان المقولة الثلاثة من كل ثلوث مقولات ، الى وحدة التوتر ، هي المعيار الاصلي والمبدأ الرئيسي الذي يقوم عليه هذا المنطق الجديد .

افتونا يأولي الألباب !!! .



وعلم آدم الاسماء !

قرأت بمزيد الاهتمام ما كتبه الدكتور أحمد زكي بك في عددي يناير وفبراير الماضيين [1] عن اللغات التي تصلح والتي لا تصلح لتكون لغة التفاهم بين الشعوب. ولقد انتهى في بحثه الى الأخذ بأن اللغة الانكليزية هي اللغة الصالحة لذلك. ولكنه اعترض في نفس الوقت على أن هجاء هذه اللغة — أي الانكليزية — عسير. وأنا أقول إن هجاءها عسير جداً ويكاد يكون عقبة كأداء في سبيل قبولها لغة عالمية للتفاهم. وأزيد على ما قاله الدكتور زكي بك ان النطق بها من أصعب الأمور، فان لم تعاشر الانكليز، صعب عليك اكتساب لهجتهم الصحيحة. وقد يختلف في بعض الأحيان أبناء هذه اللغة أنفسهم على نطق كلمات منها، بل يكاد يكون من المستحيل اصلاح هجائها، فقد عجز الأميركان عن ذلك، ولم يغيروا إلا في هجاء بعض كلمات لا أهمية لها، فأبدلوا centre بـ center و through بـ thru ولكن ما السبيل الى اقناع أي مبتدىء في تعلم اللغة الانكليزية ان thought تنطق « ثُوطْ » وان enough تنطق « إنَـفْ » ؟؟؟

أذكر اني وُجدت مع بعض الانكليز بمسرح في لندن حيث كان يمثل أحد الانكليز بلهجة أجنبية لقيامه بدور أجنبي. فما أشد ما دهشت عندما طلب مني أحد أصدقائي الانكليز أن أفسر له كلمات هذا الممثل الذي كان ينطق لغته بلهجة أجنبية ! فلغة صعبة النطق كهذه لا تصلح قطعاً ان تكون لغة تفاهم وإن حكم أبناؤها البحار !

هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، فاني أوافق الدكتور زكي بك في اعتراضه على معظم اللغات التي ذكرها . فاللغة الفرنسية مثلاً ، التي تعد منذ قرنين تقريباً اللغة الرسمية بين الحكومات والملوك ، لن تكون لغة تفاهم إلاّ بين بعض الطبقات الخاصة من الأمم ، فهي بلا شك أصعب اللغات نحواً ، وأقل تبديل في موضع حرف يغير معنى الكلمة ، بل الجملة بأكملها ، هذا رغماً عما نعرفه في هذه اللغة من الدقة المتناهية في التعبير عن المعاني ، مما جعلها اللغة الوحيدة الصالحة للمعاهدات التي تكتب بحيث لا تقبل الالتباس . أما اللغات الأخرى

---

(١) من مجلة الهلال الشهرية.

كالروسية والألمانية ومجموعة اللغات الهندية والصينية ، فقد أظهر الدكتور زكي بك الأسباب التي تحول دون قبول احداها لغة عالمية

المطلوب اذاً لغة تستوفي الشروط الآتية :

(١) سهولة النحو (٢) النطق (٣) الهجاء (٤) الكتابة (٥) قابلية التطور

إني أرى ان اللغة التي تستوفي هذه الشروط هي اللغة التركية .

فأولاً : من جهة النحو : نجد أن للغة التركية قواعد من أسهل ما يكون ، فلا استثناءات قطعيًّا ولا مذكر ولا مؤنث ولا جماد . فبعد أن تقرأ عشرة الابواب أو الاثني عشر باباً من قواعد هذه اللغة ، لا يمكن أن تخطىء أو تنسى ما قرأت ، فلا تغيير ولا تبديل في الكلمة ان كانت فاعلاً أو مفعولاً . أما الفعل فكوّن من مادة أصلية يزاد اليها أحرف اذا أردت ماضياً أو مضارعاً : مفرداً كان أو جمعاً . ففعل أخذ يتكون من المادة الأصلية : آل بمعنى خُذْ فني الماضي المفرد المخاطب يزاد عليها «دم» فتقول :« آلـدِمْ » اي أخذتُ والمضارع آليرمْ:«آخذ» وإذا قلت :« آلـديرْدمْ » وأضفت الاحرف« دير » لكلمة كان المعنى : أخذْتُ أي جعلته يأخذ . فتجد أمامك دائماً المادة الأصلية باقية في ابتداء الكلمة يزاد اليها أحرف لتصريف الافعال .

ثانياً : الآن واللغة التركية تكتب بالحروف اللاتينية لا يمكن بأي حال من الأحوال ارتكاب اخطاء في النطق . خذ مثلاً كلمة « كورك » فان كتابتها بالأحرف العربية على هذا النمط ونطقها المتعدد كان موضع التباس مستديم، فحسب قراءتها في الجملة ، تكون بمعنى فرو أو مجداف أو معْول . أما الآن فقد تكونت منها ثلاث كلمات مختلفة النطق تماماً . فاذا نطقت Kürk فالمعنى فرو و Körek معْول و gevrek مجداف وامتنع بذلك الخلط في المعنى واللفظ والنطق

زد إلى ذلك أن كتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية قد قرّبها لأكثر اللغات الاوربية ، فضلاً عما كان بها من تقارب بينها وبين اللغات الشرقية . ففيها الآن ال ö الموجودة في كلمة hören الألمانية وال ü كما تنطق في كلمة dur الفرنسية وال ç كما في كلمة much الانكليزية أو Nicheyo الروسية كما لم تزل العين والقاف والخاء العربية لها أحرف لاتينية تقابلها، أليست هذه من المؤهلات الجوهرية لجعل هذه اللغة متداولة بين الامم ؟

ثالثاً : الهجاء في اللغة التركية بعد كتابتها بالأحرف اللاتينية أسهل هجاء من أية لغة على وجه البسيطة ، فكل حرف يُنطق، ولا وجود لحروف ساكنة كما في اللغة الفرنسية أو الانكليزية حتى انها فاقت اللغات الألمانية والايطالية في سهولة هجائها ففيما كلمة Station

تُنطق «ستاسيون» في الفرنسية و«ستيشن» في الانكليزية ، وجب علينا أن نعرف ان هذه الكلمة مشتقة من كلمة Statio اللاتينية ، وعليه نكتبها بهذه الطريقة ، لعلمنا أن التاء موجودة في الأصل . اما في التركية فانك تكتب الآن كما تنطق وتنطق كما هو مكتوب أمامك ، فكُتبت هذه الكلمة هكذا Stasion وإذا أردت بعد ذلك التبحّر في أصول اللغة ، فلك التعمق ما شئت للوصول إلى أصلها وفصلها .

رابعاً : ظهر من التجارب أن الحروف اللاتينية هي أسهل حروف للكتابة . فان الالفاظ المصوَّرة في اللغة الصينية تحتاج إلى وقتٍ ومهارة في الرسم . والأحرف العربية زخرفية ومختزلة وغير واضحة ، واليونانية متعبة للنظر ، والالمانية يتعذر قراءتها الاّ بمجهود ، حتى أن الألمان والروس واليابان واليونان قرروا منذ أمد غير بعيد الأخذ بالأحرف اللاتينية توفيراً للجهد والوقت .

خامساً : اللغة التركية الحديثة ، غير اللغة التركية القديمة ، فانها مجموعة متناسقة من الكلمات التركية القديمة زيد إليها بعض كلمات فارسية ، ثم أدخلت عليها كلمات عربية مع الدين الاسلامي . ونظراً لما للشعب التركي من علاقة الجوار بأوربا ، فقد اقتبس كلمات يونانية قديمة وحديثة ، وأخذ ألفاظاً عن الصقالبة والجرمان والفرنجة أي ان هذه اللغة جمعت بين الأصل المغولي واللغات السامية والآرية والسلافية . فبعد كتابتها بالأحرف اللاتينية ، وثبت إلى الأمام وثبة هائلة . فعندما كان الأتراك يكتبون بالحروف العربية ، كانوا يترجمون الاصطلاحات العلمية الحديثة إلى العربية الفصحى ، ثم يدمجونها في لغتهم . اما الآن فقد أدخلت الاصطلاحات العلمية والطبية والهندسية والكيميائية ، كما هي في جميع لغات العالم المتمدين . واذا وقع نظرك على كتاب في الكيمياء باللغة الاسبانية مثلاً ، ثم على كتاب في الكيمياء باللغة الانكليزية ، ثم على ثالث في نفس المادة باللغة التركية ، وجدت درجة التشابه الشديد بين هذه الكتب . لقد صارت اذاً هذه اللغة قابلة للتطور ولا شيء يمنع العلماء في تركيا الآن من أخذ أي اصطلاح حديث على علاته أو إدخاله في اللغة كما يفعل الفرنسيون اذا ما اكتشف عالم روسي ميكروباً جديداً وأعطاه اسماً مشتقاً من اليونانية القديمة ، أو كما يفعل كيميائي من البرتغال اذا ما سمى كيميائي دانماركي مادة مكتشفة حديثاً باسم روعيت فيه الصفة العالمية .

هنا يحتمل ان يعترض أنصار الاسبرانتو أو اللغات التي تشابهها قائلين : لماذا نختار لغة دون أخرى من اللغات الموجودة في العالم ولا نخلق لغة عالمية ؟ وجوابي على هذا أنه ما الداعي للبحث عن لغة جديدة لن يتم صقلها إلاّ بعد مئات السنين ، وأمامنا لغة قد برهنت على سهولتها من جميع الوجوه ؟ !

حمى الحمام

نشرت صحيفة جمعية الاطباء الاميركية مقالا عن حمى الحمام Ornithosis وأيدت ان المشاهدة قد دلت على ان مرض حمى الحمام في الانسان ، وهو مشابه لمرض الببغاء Psittacosis ، يصيب الانسان بنسبة أكبر مما يقدر الاطباء ، وأن أكثر الحالات التي تشخص بأنها التهاب رئوي فيروسي هي في الحقيقة حمى الحمام ، وان البنسلين ناجع في علاج هذه الحمى .

ويقول دكتور « تورجاسن » ان التجاريب قد دلت على ان عقار البنسلين قد دل على انه شاف شفاء أكيداً من مرض الحمام بتجارب أجراها على الفئران . ويقول بأن مرض الحمام ومرض الببغاء متشابهان في أعراضهما كل التشابه ، وربما كان اختلافهما ينحصر في نوع الفيروس ومصدر العدوى .

وقد تكلم دكتور « تورجاسن » عن حالة رجل عمره ٤٣ سنة يربي الحمام في حظيرة اتخذها خلف منزله ، فأصابه المرض وشفاه البنسلين .

قبل نشوب هذه الحرب ببضع سنوات ، هاجر مئات من الأساتذة الألمان وحطوا رحالهم في الاستانة ، فما كان من أتاتورك بثاقب ذهنه ، إلاّ أن رأى ما يمكن جنيه من الفائدة ، إذا اكتسب ثقافة هؤلاء العلماء لشعبه . فاختار منهم الأفذاذ ، أي ما يربو على الاربعين عالماً . وطلب منهم الالتحاق بالجامعات التركية وأغراهم بالمال على أن يدرّسوا باللغة التركية ، وترك لهم الوقت الكافي لدراسة اللغة ، دون تحديد المدة اللازمة لتعلمها وبأجر كامل ، ابتداءً من قبولهم الالتحاق بالجامعات المذكورة . وهنا نرى العجب العجاب : فانه نظراً لسهولة هذه اللغة نحواً وصرفاً ونطقاً وكتابةً وهجاءً ، تسنى للأغلبية الساحقة من هؤلاء العلماء القاء محاضرات على تلاميذهم باللغة التركية بعد انقضاء ثلاثة شهور

أظن أن الدكتور زكي بك يوافقني تمام الموافقة ، اذا استنتجنا مما ذكرناه ، أن هذه اللغة هي اللغة الوحيدة الصالحة لان تكون لغة عالمية للتفاهم ، وبعبارة أوضح اللغة الثانية لجميع الشعوب .

دكتور : توفيق صادق سليط



الاتحاد القومي

داؤه وأدواؤه [1]

— ٣٠ —

ينبغي في هذه الناحية أن أعرض لشبهة اجتماعية خداعة قد تحوم في أذهان بعض الناس فتنشب مخالبها في أذهان آخرين. تلك الشبهة هي الخلط بين حق الجماعة في كيانها المعنوي، وحق كل فرد من أفرادها في حياته الخصوصية. ان حق الجماعة المعنوي لا يجوز سريانه الى كل فرد من أفرادها. فاذا قلنا إن لهذه الطائفة الكبيرة حق التفوق على أختها، تلك الطائفة الصغيرة في مظاهر وأمور رسمية وشبه رسمية، فلا يستنتج من ذلك أن أي فرد كان من الاولى، يجب أن يتفوق على أي فرد كان من الثانية. وبعبارة أبسط وأوضح، نقول ان للطائفة الاسلامية الكبيرة حق التفوق والامتياز. ولكن ليس معنى ذلك أن كل فرد من أفرادها يجب أن يدعي لنفسه أو يدعي له غيره حق التقدم على كل فرد آخر من كل طائفة أخرى. وصواب هذه النظرية قريب من البديهيات، إذا تأملنا منه قليلاً. فمن منا نحن اللاذقيين مثلاً ترضى نفسه ويقتنع وجدانه بوجوب تقديم أي دمشقي كان أو أي حلبي أو أي بيروتي على أي لاذقي كان بحجة أن دمشق أو حلب أو بيروت هي أعظم وأهم وأعمر من مدينتنا اللاذقية. هيهات هيهات! فان ابن هذه المدينة لم تندغم في شخصه مدينته. كما أن ابن تلك الطائفة لم تندغم في شخصه طائفته.

ومما يعوز أبناء الوطن في أثناء تعاملهم وتعاشرهم، أن يتحمل بعضهم بعضاً في كثير من الهفوات والزلات غير الصادرة عن روية وسبق إصرار، فان في أدبنا العربي ما يحثنا على النهج القويم حتى قال عنترة العبسي:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

وقال شاعر آخر جاهلي عرف بالفضل والحمية مع جمال الوجه واسمه المقنع الكندي:

وإن الذي بيني وبين بني ابي وبين بني عمي لمختلف جداً
إذا أكلوا لحمي وفرتُ لحومهم وإن هم هووا غيّي هويت لهم رشدا

(١) نشر البحثان السالفان بمقتطف شهري مارس ومايو ١٩٤٥

وإن زجروا طيراً بنحسٍ تمرّ بي زجرت لهم طيراً تمر بهم سعدا
لهم جل مالي ان تتابع لي غنى فان قلّ مالي لم أكلفهم رفدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وقال غيره وأظنه الوزير المهلبي :

تناس ذنوب قومك إن ذكر الذنوب اذا قَدُمْنَ من الذنوب

وارتقى الى درجة أعلى في مكارم الأخلاق من قال :

إذا بدوت من صاحب لك زلة فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

ومن ذلك النهج الشريف ، التجاهل والتغافل في كل مقام يقتضيهما . وأول من أشار إلى ذلك في ما طالعناه ورويناه مؤسس الدولة الأموية معاوية بن ابي سفيان حيث قال : «حتام نتخادع للناس وهم يظنون انهم يخدعوننا ؟ »

أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

ليس الغبيّ بسيدٍ في قومهِ لكنَّ سيد قومه المتغابي

وقد فصل مجمله وجلا رونقه الشاعر أبو شراعة بقوله :

وإذا الكريم أتيته بخديعةٍ ورأيته في ما تروم يسارعُ
فاعلم بانك لست تخدع عاقلاً لكنه من فضله يتخادع

ونظر فيه الأمير أبو فراس الحمداني، وكان في ساعة غضب واشمئزاز لما ناله من إجحاف وسوءِ معاملة فقال : مبرهناً على انه وهو في معظم طور الشبيبة ممن يتأنون ويصبرون ويكظمون الغيظ :

تغابيتُ عن قومي فظنوا غباوتي بمفرق أغبانا حصى وترابُ
ولو عرفوني مثل معرفتي بهم إذن علموا أني شهدت وغابوا

وبناءً على ما تقدم معنا ذكره، يحتاج الوطن الى تأسيس جمعية وطنية في كل مدينة من مدنه، لكي تعمل بهذه المبادىء، فيقتدي بها أهل المدينة وملحقاتها ، وعلى وجه خاص لكي تسعى بالوسائل الفعالة الى مكافحة العوائق الأربعة . التي أشرنا إليها :مكافحة النعرات الطائفية، ومكافحة عادات التجنب والنفور في عاداتنا المعاشية ، ومكافحة مساعي من لا يروقهم هذا الاخاء العام وهذا الاتفاق التام ، ومكافحة من يظهرون، بغير ضرورة ولا مسوّغ واضح ضعف ثقة بالسلطة الوطنية ومروءة الخواص من أبناء الوطن . وينبغي أن يكون بين جمعياتنا الوطنية التي تؤسس لأجل هذه الأغراض ترابط وتفاهم وتعاون وثيق العرى بتبادل الرسائل

وزيارات الوفود لأجل توحيد الكلمة وتوحيد السعي . ولا بد أن يكون لهذه الجمعيات مركز رئيسي في دمشق أو مركزان رئيسيان متحالفان في دمشق وبيروت، حسبما يستقر رأي أبناء بلادنا بهذا الشأن .

وقبل الخروج من البحث الحاضر يطيب لي أن أعزز الموضوع بشيء من الشعر وهو جزء من قصيدة لي وطنية اقتضاها المقام يوم القائها . والخطاب فيها مصوب على وجه خاص الى أعيان الوطنيين وعقلائهم :

عليكم سادتي بنيَ الرجاء ... فلمْ لا يستقيم لنا البناء ؟
إذا عقلاؤنا خذلوا حمام ... فدنيانا وما كنها هباء
وما تجدي الرجال ولا عقول ... وما تجدي العقول ولا وفاء
أتعجبك الحقول وليس روض ... أتعجبك الرياض وليس ماء
فياعقلاؤنا عطفاً علينا ... إذا ما خان مسعانا النماء
ومزروع الوداد لكم ومنكم ... وفيكم وهو يعوزه اعتناء
ألا فتعاهدوه بكل عونَ ... تحالفه العزة والسناء
ولا تدعو الجمال بهُ لبأس ... فداء اليأس ليس له دواء
إذا مشروعنا قصدَ اتحاد ... تعزز فالفخار لكم جزاء
وما أنتم إذا أبدى قصوراً ... من العار المحتم أبرياء
أرأسُ منى الديار ومشتهاها ... نجافيه فينكرنا الآباء ؟
ونطمع أن نعد رجال حزم ... فكيف إذن يكون الأغبياء ؟
معاذ الله ، ذلك لن نراه ... وفيكم نخوة ولكم مضاء

هذه حقائق راهنة تحثنا بصوت عالٍ مهيب ملؤه الصواب والحكمة والاخلاص أن نجتمع كلنا كتلة قومية واحدة على اختلاف أدياننا ومذاهبنا، فنتقي مواضع الأذية والخطر والعار . كذلكم أمنيتنا الذهبية التي نتلمسها ، وكذلكم مثلنا الأعلى الذي نسعى إليه ولنا أمل وطيد بالحصول عليه ولو بالتدريج ، ولكنه تدريج مطرد سريع الخطى بفضل وجود عقلاء محنكين بين أظهرنا وبفضل ما انطوت عليه الشريعة الاسلامية من جرثومة الخير والمرونة وروح التسامح مماشاةً للاحوال الطارئة، ومراعاةً لكل مكان وكل زمان . ومن ثمَّ لقبت بحق الشريعة السمحاء حتى قالوا : « ان المؤمن لا يكون الاَّ هيِّناً ليِّناً » وحتى ورد في الأحاديث النبوية الشريفة : « ان المنبتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » والمراد بالمنبتِّ المنقطع عن رفاقه في السفر . والمراد بالظهر ظهر دابتهِ . فالحديث يشير بهذا التشبيه الجليل

* * * * * * * * * * *

من حكم التأمل

نسمع الفيلسوف النظري يقول لابنه : يا ابني : ساعد نفسك على شوقها الى الكمال . ولا كمال في المادة . انما الكمال في تصفية النفس الناطقة ، والبعد بها عن الانغماس في شهوات هذا العالم السفلي ، الذي مصيره للفساد . صل لربك ، يعنك على تطهير نفسك من أرجاس الشهوات . واعلم اننا ما عشنا لنأكل ، بل نحن لا نأكل إلا لنعيش . فاقصد في طلب الرزق ، وحسبك منه الكفاف ، واسرف في تهذيب نفسك ، ان صح ان في الخير سرفا . رض نفسك على الخير بحسابها على كل ما تعمل حساباً عسيراً . وساعد عاطفة حب الجمال والكمال في قلبك على تعطيل الشهوات السبعية . ان لنفسك عليك حقاً في مساعدتها على أن لا تنزل كثيراً عن المستوى العالي الذي نزلت منه الى جسدك الفاني ، وللناس عليك حق ارشادهم الى الغاية التي خلقوا لها ، وهي الوصول الى الكمال اللائق بهذا الانسان الذي كرمه الله وشرفه على جميع مخلوقاته . ولا تجزع لطارقة تنزل بك ، بل اني لاعجب لامرىء ينتظر من عالم الفساد غير المحن التي يمتحن الله بها عباده الصابرين . ولا تترك فرصة الموت تأتيك في الدفاع عن مظلوم أو القيام بحماية وطنك الا انتهزتها وحسوت فيها كأس الموت سائغاً . فان الموت خمر الصالح يشربها فتنقله من عالم الشرور والمحنة الى نعيم مقيم . ذلك هو الكمال الذي نبغيه من عالم النقص . وما كنا الا لنموت . ولا شك عندنا في أن النتيجة اللازمة ، تابعة في الصحة والفساد لمقدماتها الضرورية . فالنفس التي أحسنت عملا ترجع الى عالمها القدسي ، قريرة العين بما تلقى من النعيم . أما من أساءت استعمال قدرتها ونسيت الرجعى الى خالقها ـ أعيذك بالعقل الاول ـ لا تصيب بهذا الانتقال الا عذاباً أليماً .

احمد لطفي السيد باشا

نقلا عن الجزء الثاني من « المنتخبات » هدية المقتطف المقبلة

* * * * * * * * * * *

في قالب الاستعارة التمثيلية ، اشارة بليغة الى سوء المصير الذي ينتظر كل امرىء متصلب يبتعد في سلوكه عن خطة العدل والاعتدال .

هذا جل ما استصوبت الادلاء به أمامكم مدفوعاً بعامل الاخاء الوطني والغيرة القومية ، وقد اخترت صراحة اللهجة مع المحافظة على شرط اللياقة والتأدب مخترقاً الموضوع في صلبه وزواياه غير مكتنف بالطواف حواليه كما يفعل الاكثرون . ولعلَّ ما أدليت به كافٍ لتذكير الناسي وتنبيه الغافل . والله في عون العبد ، ما دام العبد في عون أخيه .

اللاذقية

ادوار مرقص

عضو المجمع العلمي في سورية

المساء

للدجى في صفحة الأفق لواءُ وعلى الأرض من الليل رداءُ
يستسرُّ الكون في ثوب الدجى كدفين الشوق يخفيه الاباء
أو كداجي الحقد في صدر الفتى جاثماً يطويه خبٌّ ورياء
والدجى في الافق مغض ساكتٌ كحليف الداء أضناه العياء
كم معانٍ للدجى في صمته ومن الصمت بيان وأداء
ليت شعري كيف يأتي صامت بالذي قصر عنه الشعراء

***

تحسب الجوزاء روضاً ممرعاً شوشت أيكته ريحٌ رُخاء
ينثني الأيك من برح الجوى كشوقٍ هاجه وهناً حداء
فاضطلنى من لوعة الوجد على كبد قرَّح جنبيها البكاء
أو كا العذراء ماست خفراً وبعينيها ادكارٌ ورجاء
ولضاحي النجم من رَيِّقه جدة المصباح يذكيه الضياء
وكأنّ النهر في زرقته ساطع الفجر إذا شاعت ذكاء
لست تدري أسماء أطلعت لجة الماء ام الجوزاء ماء
وحواشي الليل أفواف ، لها في مسد الأفق نشرٌ وانطواء
فهي حيناً علمٌ منتشرٌ وعلى الغبراء درع وغطاء
وهي حيناً لمعنًى برقع هاضه الدهر وللعاري كساء

***

نام من في الكون الاّ موجعاً شفه السهد وأصماه البلاء
كلما عاوده من أمسه لاعج الوجد نزا في الصدر داء
يطبق الجفن على أحلامه مستعيداً ذكر من غال القضاء
فيخال النار توري صدره ومن الذكرى شجون وعناء
والدجى في الأفق مغض ساكتٌ كحليف الداء أضناه العياء

دمشق عبد الله مردم بك



نشأة سيادة مصر

على البحار

في بلدٍ كمصر ، يخترقه نهر عظيم ، صالح للملاحة طول أيام السنة ، لا ينفك يجري من أقصى الوادي الى أقصاه ، ولا يتسع عرض ضفافه المأهولة في مواضع كثيرة إلاّ إلى مسافات قريبة ، كان حتماً مقضيّاً أن تكون الملاحة النهرية فيه قائمة منذ فجر التاريخ وان تبقى عماد المواصلات عند الأهلين على مرّ السنين .

وكان حين نظر المصريون الأقدمون الى ما تنتجه أرض مصر ، لم يجدوا خيراً من قصب الغاب والبردي ، يصلحان لأن يتخذ منهما بعد جفافهما مواد أولية ، لبناء ما لتجاوز في تسميته بالمراكب النهرية أو المعابر ، فكانوا إذا شدوا هذه المواد بعضها الى بعض ، استوت شيئاً أشبه ما يكون بمعبرة غفل ، يقطعون بها النهر طولاً وعرضاً على نحو ما يفعل اليوم بعض سكان أعالي النيل . وإذ كانت هذه المعابر عرضة للعطب السريع لضعف مادة بنائها ، فقد ساعد ذلك على ازدياد في نموّ صناعتها ، كما ساعد على اضطراد التجديد والتحسين فيها . وهكذا تطوّرت هذه الصناعة من « شد » معابر غفل ، الى بناء سفن نهرية . وكان قدماء المصريين قد اكتسبوا خبرة ثمينة في فن الملاحة النهرية قبل أن تتاح لهم فرصة ليستبدلوا أعواد قصب الغاب والبردي ، بأنواع من الخشب في بناء السفن . وهدتهم تجاريبهم الى الاحتفاظ بطابع خاص لسفنهم التي كانوا يبتنونها ، ووفقوا آخر الأمر الى إيجاد نموذج يردون اليه كل سفينة أية كانت ، فتفي بكل غرض وتتسع لكل حجم وتلائم كل مطلب . وقد أجادوا بناء كل أنواع السفن ، حتى يخوت الملوك التي تحوي من أسباب الرفاهية والترف أدقها وأبلغها . صنعوها وأجادوا صنعها . جرى ذلك في مصر قبل اليوم بأربعة آلاف سنة أو يزيد .

وكانت قد قضت ظروف الحال على أهل مصر بأن ينموا ، باديء ذي بدء ، الملاحة النهرية فولوها عنايتهم حتى ازدهرت وأينعت . إلاّ أن شدة العناية بها وبنموها وازدهارها أعاق تقدم الملاحة البحرية . ويرجع سبب مبالغتهم في العناية بأمر الملاحة النهرية الى عوامل شتى ، من بينها السياسة الخارجية التي اتبعها ملوك الفراعنة الأول . غير ان طبيعة البلاد ما كانت

لتجيز تقييد الملاحة البحرية بحال . فالبحر يحتضن مصر من الشمال كما يحتضنها من الشرق وقد أدرك خطورة ذلك الموقف أهل مصر ، فارتسموا لأنفسهم سياسة جديدة في الملاحة ، وكان ذلك عام ٣٠٠٠ قبل ميلاد المسيح ، حين وجدوا أن النيل يكاد يكتظ بكثرة السفائن التي تسير فيه ، وانه صار لمصر عمارة نهرية غاية في القوة والبأس . وليس أدل على مبلغ تكاثر السفائن في مصر من كلمة وردت ضمن خطاب رفعه ثري شعر بدنو الأجل ، إلى القضاة الاثنين والأربعين الذين يتولون محاكمته في الآخرة ، هذا بعض نصه :

« . . . . وقد أعطيت خبزاً للجائع وماء للعطشان وثياباً للعاري وزورقاً لمن ليس له مركب . . . » . وإذ كان تكاثر السفائن قد بلغ حد التَّصَدُّق بها ، فلا عجب أن يضيق بها النيل ، وان يعمل المصريون ليجوبوا بحار الأمم المجاورة . وكأن كل شيء في مصر قد مهد لأهلها العمل على جوب البحار . فكانت الحياة في هذا البلد كما هي اليوم قائمة كلها الاّ فيما ندر ، على ضفاف النيل وما يتفرّع منه ، وكان كل عمل في مصر ، له بالنيل صلة . وكان المركب النهري يأتي في المرتبة الأولى من بين وسائل المواصلات، وقَعَ ذلك لأن كل مصري كان منذ الصغر أليف النيل ، أليف الملاحة . ومع هذا فما كان النيل بالنهر الوديع الهادئ على مدار أيام السنة . فله في بعض الأحايين ثورات حادة وغضبات مخيفة ، وبه أماكن شديدة الخطورة . وهكذا كانت الملاحة في النيل بمثابة مدرسة تعلّم فيها المصريون كيف يكافحون الرياح والأمواج ، وكيف يتّقون مواضع الخطر . فلم يلقوا حين خرجوا إلى عرض البحر أية صعوبة . والراجح عندي أن فينيقية كانت أول بلاد وقعت عليها عيون الملاحين المصريين .

وإذ خفي علينا الزمن الذي بدا فيه المصريون يرسلون عمارتهم البحرية إلى فينيقية، كما خفي علينا موعد وصول أول سفينة مصرية الى تلك الشواطىء السورية ، فمن الثابت أن مصر كانت تستورد في العصور الخوالي قدوراً فينيقية ملأى بزيت الأرز اللبناني . وقد وجد بعض هذه القدور في « عبيده » Abydos ضمن ما حوته مقابر ملوك الأسرة المصرية الأولى ، التي حكمت في القرن الثلاثين قبل ميلاد المسيح . وهذه القدور هي بعض ما جلبته الحملة المصرية التي بعث بها الملك « ساهور » Sahure إلى فينيقية . وما من شك في أن استيراد البضائع من بلاد الفينيقيين كان يجري قبل ذلك التاريخ . ذلك لأن زيت الأرز رغم استحالة الحصول عليه إلاّ من خارج البلاد المصرية، فقد كان مُدْرَجاً ضمن أقدم قائمة عرفت ، حوت أنواع القربان التي كان يتقرّب بها المصريون إلى أربابهم . وإذاً فقد كانت السفن البحرية تجري بين أرض النيل وبلاد الفينيقيين ، حاملة البضائع والركاب بين القطرين

منذ أقدم العصور . وما من ريب في أن هذه السفن كانت من صنع مصر ، يديرها ملاحون مصريون ، وتحمل الجنسية المصرية . ذلك لأن الفينيقيين لم يكن لهم ذكر في التاريخ حتى القرن العاشر قبل ميلاد المسيح . ويرى أشد المؤرخين تحيزاً لفينيقية بان الفينيقيين كانوا حتى القرن الحادي والعشرين قبل ميلاد المسيح على حظٍّ من الثقافة والرقي أقل من القليل ، ولم تكن الظروف قد تهيأت لهم بعد لأن يخطو الخطوة الأبجدية نحو مدنيتهم ، التي جاءت بعد ذلك بعدة قرون . وكأن مصر جابت البحار قبل أن تصحو فينيقية بنحو عشرة آلاف سنة على الأقل . وفي ذكر هذه الحقائق وحدها ، ما يكفي لانهيار دعوى بعض المغرضين القائلين بأن مصر ، منذ أقدم عصورها ، كانت تعتمد على الفينيقيين في الملاحة . واذاً فلا شك في أن مصر كانت تصدّر إلى فينيقية على سفن مصرية ، يديرها ملاحون مصريون ، بضائع مما جملته أيدي صناعها المهرة ، كما كانت تستورد منها كل ما يمكن الحصول عليه من مواد خام وأخصها الأخشاب . فقد كانت بلادهم غنية بالغابات غنى لا يماثلها فيه إلاّ البلاد الشمالية من القارة الأوربية في عصرنا الحاضر .

ولعلّ أقدم وثيقة وصلت الينا تحدثنا عن سير السفن المصرية إلى بلاد فينيقية ما أظهرته النقوش المصرية التي ترجع إلى القرن التاسع والعشرين قبل ميلاد المسيح ، والتي جاء فيها انه قامت لعهد الملك « سنفرو » Snofru أو ما بين عام ٢٨٤٠ و ٢٨١٦ قبل ميلاد المسيح حملة بحرية فاقت كل ما قبلها ، مكوّنة من أربعين سفينة مصرية ، حُمّلت في مياه فينيقية بأخشاب الأرز ، فوصلت سالمة إلى المياه المصرية .

وما إن انقضت مائة وخمسون سنة على ذلك التاريخ حتى أخذ المصريون في رسم سفنهم نقشاً على قبور ملوكهم . وذلك لأول مرة في تاريخهم ، بل ولعلها كذلك في تاريخ العالم ، وفي هذا دليل قوي واضح على ما كان للملاحة من منزلة في نفوس المصريين . والناظر إلى مقبرة « ساهور » الذي حكم بين عام ٢٦٧٣ وعام ٢٦٦١ قبل ميلاد المسيح يبهره حتماً جمال السفينة المنقوشة على تلك المقبرة . تلك السفينة التي يقول عنها رجال البحر في عصرنا هذا : « انها سفينة بحرية لاشك في ذلك . وان المصريين اكتسبوا البتة قبل بنائها بعدة سنوات ، خبرة فائقة في فن الملاحة البحرية ، وعرفوا ما تتطلبه هـذه الملاحة من مستلزمات في السفينة فأقاموها » .

وهكذا ما كاد القرن العشرين قبل ميلاد المسيح يستهل ، حتى كانت سفائن مصر تمخر عباب البحر المتوسط وتجوب أرجاءه وتتبادل مع بلاده البضائع على نحو ما كانت تفعل مع بلاد الفينيقيين . إلاّ ان سير السفائن المصرية بين مصر وجزيرة قبرص جرى قبل

ذلك التاريخ بأمد طويل، وذلك حين وجد المصريون معدن النحاس موفوراً في هذه الجزيرة وكانت صناعة النحاس في مصر قائمة منذ أقدم العصور. وكان كل اعتماد مصر في هذه الصناعة على مناجم النحاس في شبه جزيرة سينا، التي استغلها المصريون منذ نحو ٣٠٠٠ سنة قبل ميلاد المسيح. فلما عثروا على النحاس في قبرص رحبت به الصناعة المصرية. وليس أدل على ذلك من تعدد خطابات ملك «الاسيا قبرص» إلى الملك «أمينوفيس الرابع» Amenophis تلك الخطابات التي وجدت في خزائن دار المحفوظات بمدينة العمارنة التي تشير الى مقادير النحاس التي استوردتها مصر من الجزيرة. أما البضائع المصرية فكان التجار ينقلونها الى قبرص، فيتهافت أهلها على اقتنائها. كذلك كان يفد على مصر من حين لآخر تجار وسواح من الاسيا.

واذا كان هذا مبلغ رواج الملاحة بين مصر وقبرص، فقد كانت الملاحة بين مصر وجزيرة كريت أنشط وأقوى. وما كانت المصنوعات المصرية لتعم هذه الجزيرة فحسب، بل كانت منتشرة عن طريقها في بقية جزر بحر ايجة. وقديماً استورد المصريون من كريت وعن طريقها ما وجدوه من مواد أولية في الجزر اليونانية، ومن بينها الأحجار الثمينة التي اشتهرت بها جزائر أوْلِيَ. ويكفي دليلاً على قدم نشاط الملاحة المصرية في منطقة الجزر اليونانية، القول بأن الأحجار الثمينة التي وجدت في مقابر الأسرة المصرية الأولى، مصدرها الأوحد جزائر أوْلي هذه. غير ان العلاقات التجارية، وبالتالي الملاحة البحرية بين مصر وكريت، لم تزدهر إلا في عصر الأسرة الثامنة عشرة او حوالي سنة ١٥٠٠ قبل ميلاد المسيح.

هذا وكان قد طرأ على بناء السفن في بدء عهد الأسرة السادسة المصرية بعض التعديل. ثم أخذ بهذا التعديل شيئاً فشيئاً الى ان عمّ كافة السفن النهرية، كما عمّ السفن البحرية. ولعلّ أوثق مصدر يمكن الرجوع اليه في شأن نماذج السفن البحرية وكيفية استخدامها خلال القرن الثالث عشر قبل ميلاد المسيح، ما نجده من رسوم في الدير البحري تصوّر لنا العمارة البحرية التي بعثت بها الملكة «حتشبسوت» Hatschapsut الى بلاط «بنط» Punt على الساحل الصومالي. وقد لا يهمنا تفاصيل ما أجري على السفن في مصر من تعديل في بنائها. فالملاحون والاختصاصيون به أولى. ولكن قد يلفت نظرنا شيء واحد، وهو ان السفينة المصرية في ذلك العهد كانت تحوي عدة أشرعة بأحجام مختلفة، يستخدم كل منها حسب قوة الريح واتجاه سير السفينة. وما كانت السفن الشراعية التي استخدمت في البحر الابيض المتوسط بعد ذلك خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر بعد ميلاد المسيح، إلا شبيهة بالسفن المصرية شبهاً وثيقاً. بل ولا زالت هذه النماذج من السفن هي المفضلة على غيرها عند الملاحين اليونانيين في البحر المتوسط وعند العرب في البحر الأحمر.

وكان من الطبيعي أن تجوب سفائن مصر البحر المتوسط قبل ان ترتاد مياه البحر الأحمر . وذلك لأسباب أهمها أن سكان مصر يعيشون في كنف النيل وعلى ضفافه ، والنيل ينتهي الى البحر المتوسط . وان المناطق الآهلة بالسكان بعيدة عن البحر الأحمر الذي يفصله عن وادي النيل صحراء محرقة . ورغم هذا كله فقد ارتاد الملاحون المصريون البحر الأحمر منذ أقدم الأزمنة . والثابت أنهم خرجوا من ضفاف النيل قرب مدينة قفط Koptos الى البحر الأحمر، ليبتنوا على شواطئه سفناً . وكان يحتم هذا عليهم أن ينقلوا من قفط ، كل ما يحتاجون اليه من مواد لبناء السفن، وكذلك الماء والغذاء لكل الذين يعملون في هذه الصناعة . ولكي نقدّر عملهم هذا حق قدره ، يجب ألاّ نغفل ذكر أن أقرب مسافة بين النيل والبحر الأحمر ، أو ما بين قفط والقصير هي مسير أربعة أيام ، وان السبيل إليها غير مطروق . وقد أحرقته الشمس وأوحشته الصحراء التي لا ماء فيها البتة . وعند ما يصل الانسان إلى البحر يجد شاطىء البحر قحلاً كالصحراء . وهكذا كان يرسل من النيل إلى البحر على ظهور الحمير وغيرها من الانعام وعلى أكتاف الآدميين ، كل المواد والأدوات اللازمة لبناء المراكب ، وكذلك الماء والغذاء واللباس وحاجة المساكن التي أعدت لآلاف ممن يعملون في بناء السفن، ثم ما يكفي من ذلك كله للرحلة البحرية ، فضلاً عن السلع التي كانت تحملها هذه السفن الى البلاد الخارجية . وقد يبدو لنا ونحن نعيش في عصر السرعة ان ذلك لا يتم إلاّ في شهور ولكن « أوني » Uni يذكر لنا أن المصريين ابتنوا مركباً بحريّاً كبيراً في سبعة عشر يوماً فقط .

وإذا كانت الملاحة في البحر الأحمر اليوم ، رغم استخدامنا كل الوسائل العلمية الحديثة ، من كتب موسوعة في فن الملاحة البحرية ومن خرائط مفصلة وارشادات جمة ، لا زالت محفوفة بالمخاطر والصعوبات ، فأحرى بها ان تكون كذلك في قديم العصور . ذلك بأن جوّ البحر الأحمر حارٌ شديد الحرارة الى الحد الذي لا يطاق ، ثم هو مشبع بالرطوبة ليل نهار . وزيادة على ذلك فالشعاب الكثيفة تمتد على جانبيه مسافات طويلة وتنتشر في نحو ثلث مساحته، وكذلك المرجان الجاثم في قاعه يرتفع الى نحو متر ونصف قبيل مستوى سطح الماء . ورغم ذلك فقد كانت الملاحة بين مصر وبلاد « بُنْط » منتظمة السير مما يدل على أن الملاحة البحرية عند المصريين الأقدمين بلغت أوجها . وتدل الحملة الكبيرة التي قامت بها العمارة البحرية في عهد الملك « ساهور » والتي جلبت كميات وفيرة من المنتجات الاستوائية ، على صدق ذلك . وأقوى دليل على هذا تلك النقوش التي نراها على مقبرة « كْنِيمْحُوتَب» Knemhotep والتي تشير إلى أن سير الملاحة الى بُنْط كان قائماً ومنظماً

وان عدد السفن الذاهبة إليها والراجعة منها كان كبيراً. ولم يكن «كْنِـمْـحُـوتَب» هذا إلاّ رفيقاً لسيده، أحد أمراء البحر الذي قاد سفنه الى بنط إحدى عشرة مرة. ولم تكن قيادة السفن بالأمر الهين إذ ذاك، فقد كان المصريون يعنون كل العناية بدراسة الملاحة علميًّا وعمليًّا ليخرجوا ملاحين تفقهوا في دراسة اليابس والماء، على حدّ تعبيرهم.

وكانت أن بقيت صلة مصر ببلاد بنط لا تنقطع حتى نهاية الأسرة الثانية عشر. ثم تراخت تلك الصلة لمدة غير قصيرة. فلما ان جاءت الملكة «حتـشَبْـسوت» أمرت بارسال حملة بحرية إلى بُنط قوامها خمس مراكب. ومن رسوم على معبد الدير البحري نرى كيف كان أهل مصر يقدمون القربان لهاتور Hator لكي ترسل الرياح لها مؤاتية. وفي صورة أخرى نرى هذه السفن ثانية قريبة من شاطىء تلك البلاد النائية وهي تشحن من بُنط ما حصلت عليه من بضائم. وفي صورة ثالثة نرى هذه السفن نفسها وقد أتمت رحلة موفقة تسير بأقصى سرعتها نحو طيبة وهي نهاية الرحلة. ومن الغريب أن المصريين الأقدمين لم يذكروا لنا شيئاً عن مشاق هذه الرحلة أو أخطارها، رغم أن المبالغة تشيع في كثير من آدابهم. ولعلّ أخطار ومشاق السفن في البحر لكثرتها، صارت من عاديات الامور عندهم، فأغفلوا ذكرها. كذلك لم نعرف أية طريق سلكته هذه الحملة البحرية: هل انتهت الى مينا على البحر الأحمر كما كان متبعاً من قبل ثم نقلت السفن وما حملت بطريق البر الى قفط، ثم سارت في النيل الى طيبة؟ أم قد كان لدلتا النيل قناة تصل بين الفرع الأيمن للنيل وخليج السويس، كي يتيسر للسفن مواصلة السير الى طيبة؟ من الثابت أن «سيزوستريس» Sesostris حفر قناة كهذه، ولكنا لا نعرف أكانت قائمة في عهد «حتـشَبْـسوت» أم أن الرمال التي لا تنفك الرياح تحملها في مواسم معينة من السنة، عطلت السير فيها فردمت بفعل الزمن. هذا ما لم يقطع فيه برأي الى اليوم. أما في عهد «رمسيس الثالث» فقد كان الملاحون حين يرجعون من «بنط» ينتهون الى القصير على البحر الأحمر، ثم يسيرون برًّا إلى قفط.

وفي عهد الملكة «حتـشَبْـسوت» وعصر الملك «توت موزيس» الثالث Thutmosis أي منذ عام ١٥٠١ حتى عام ١٤٤٧ قبل ميلاد المسيح، بلغت الملاحة البحرية في مصر أوجها مرة أخرى، واتسعت وتعددت رحلاتها. ولكن منذ بدء انحطاط الصناعة وما تلاها من كساد التجارة، أخذت الملاحة البحرية تتقلص شيئاً فشيئاً، ثم بدأ سقوط الدولة المصرية. وكان أن تسربت الصناعة والتجارة والملاحة البحرية من أيدي المصريين الى غيرهم من الاجانب. ثم ما كان القرن العاشر قبل ميلاد المسيح ليبتدىء، حتى اختفى الأسطول التجاري

اقطع العصب تذهب الالم

ان قطع بعض الاعصاب السمبتاوية التي تحتكم في بعض الاحساسات المتصلة بأطراف تؤثر فيها هذه الاعصاب: علاج من أنجع العلاجات التي تقف بعض الآلام العصبية المحرقة : Causalgia وهي من أشد الآلام التي يشعر معها المصاب ان بأعصابه احتراقاً مؤلماً شديداً . وقد نشر ذلك في صحيفة الجمعية الطبية الاميركية ، طبيبان من جراحي الجيش . فقد ذكر الكابتن جوشوا سبيجل والكابتن جاك ميلوفسكي ، ان هذا الالم العصبي قد يحدث عقب جراح تصيب بعض الجنود . فأجروا لستة جنود عملية قطع العصب السمبتاوي المتصل بالجزء المتألم ، فزال الالم . اما السبب الذي يحدث هذا الالم فليس معروفاً معرفة تحقيق .

المصري من البحار . وفي أسطورة مصرية قديمة وصف لهذه المأساة مريع . ومن ثمَّ انتقل زمام البحر الى الفينيقيين . ولكن لم ينم أهل مصر على ذلك ، بل حاولوا السيطرة على البحار مرة أخرى ، وقطعوا في ذلك خطوات موفقة قبيل ميلاد المسيح . إلاَّ أن عوامل مختلفة أحبطت أعمالهم . وليس هذا مقام الاسترسال في بحث ذلك ، ولا من أجله كتب هذا المقال ، وانما أردت أن أبين ما طبع عليه اهل مصر من حبهم البحار ، وما كان لهم من شأن في الملاحة البحرية ، وكيف تمت لهم سيادة البحار ، وإذا ذكرت هذا كله ، فلكي نؤمن بأن بدايتنا الجديدة في الملاحة البحرية قد تقودنا الى سيادة البحار مرة أخرى ، لو اننا اتعظنا بماضي تاريخنا ، وسرنا بنفس الحزم وفي نفس الطريق الذي جعل من المصريين سادة للبحار .

ابراهيم ابراهيم يوسف

﴿ المراجع ﴾

I — A. Kocster ; Seefahrten deratten Aegypter

II — Ermann; Geschichte der Alterhum, Aegypter

III — Brestead; History of old Egypt.

IV— Eduard Meyer; Egyptische Geschich

V — عبد القادر حمزة : على هامش التاريخ المصري

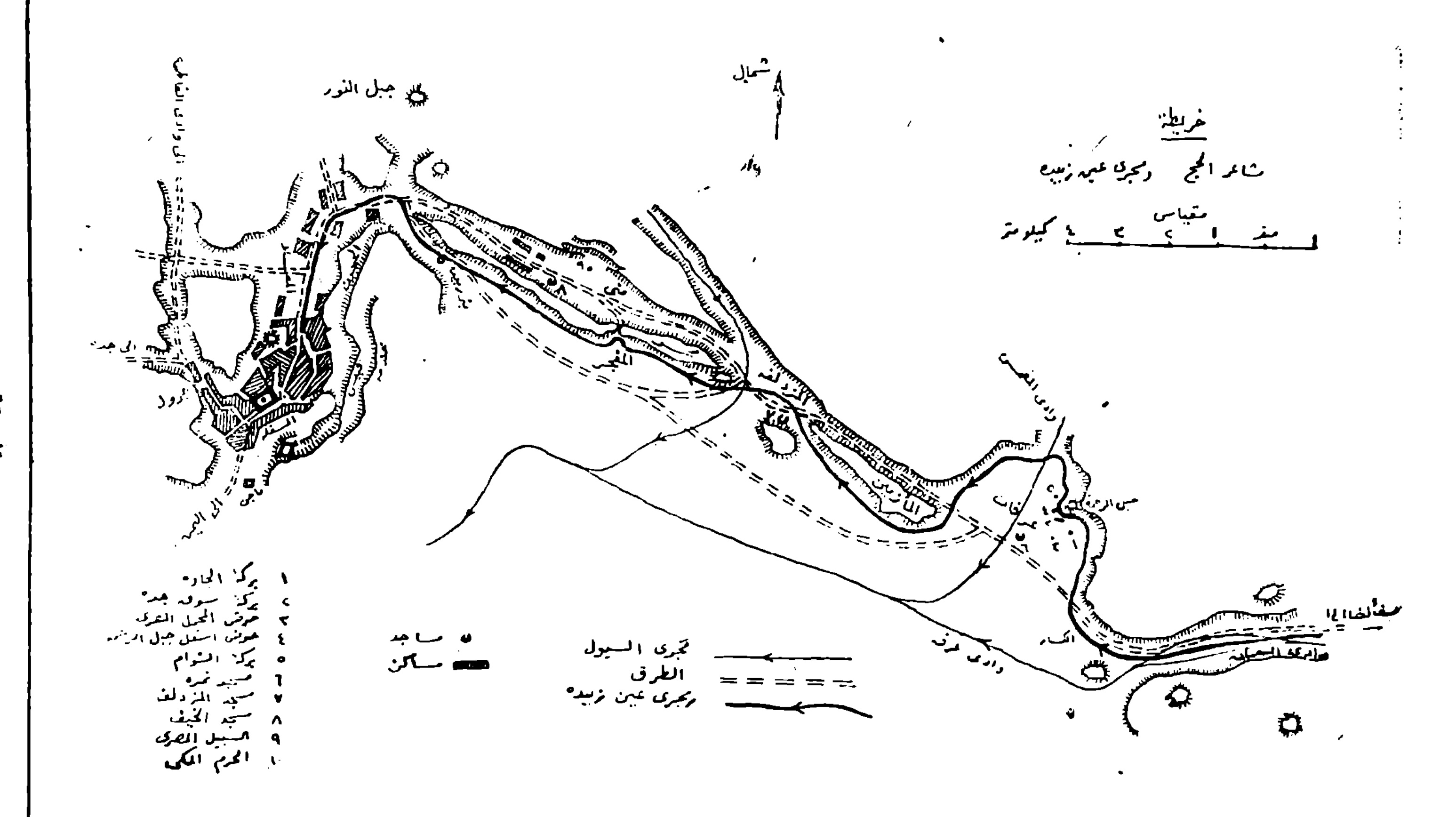
عين زبيدة
في مكة

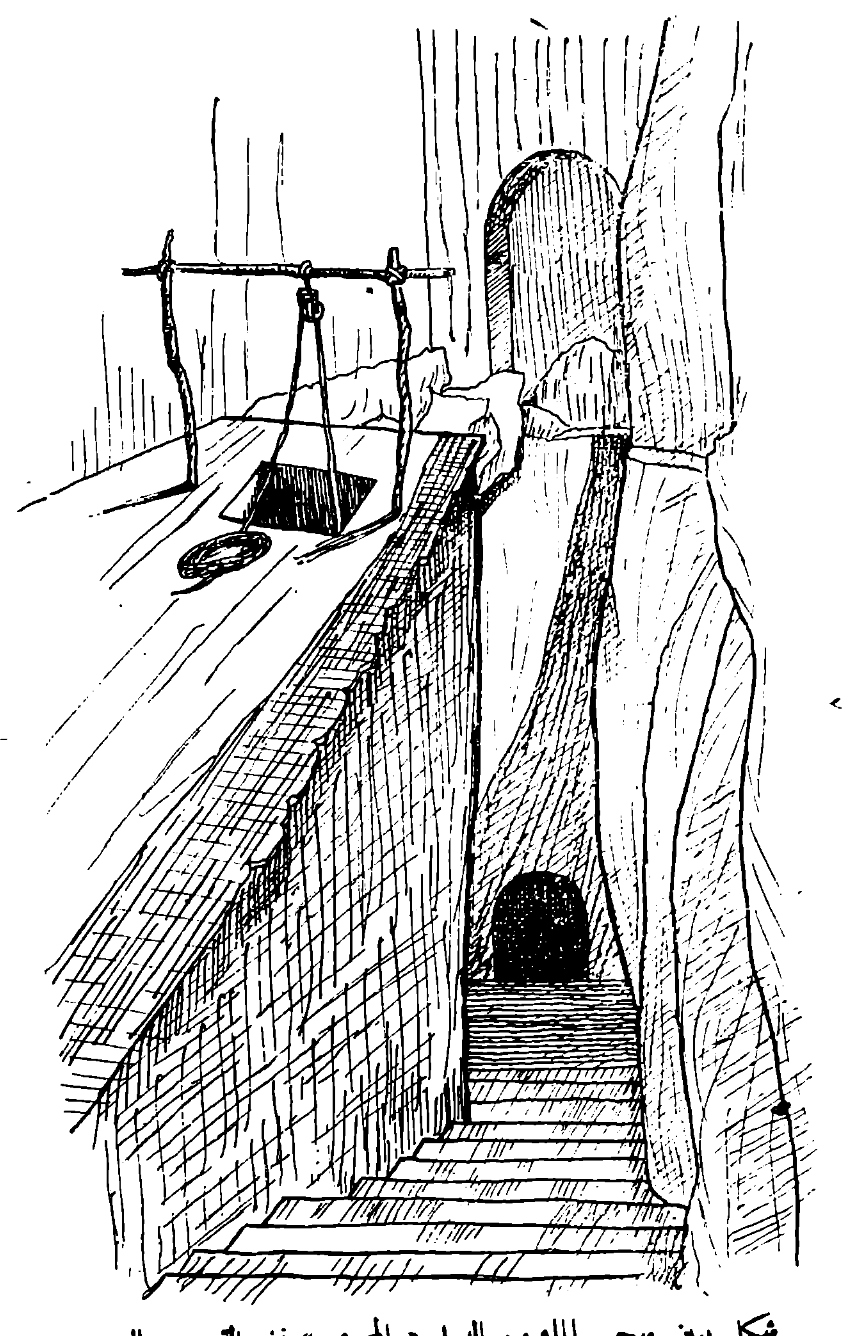
١ — لمحة تاريخية

إن مجرى عين زبيدة عمل هندسي جليل جمع بين العظمة والبساطة ، تُجمع بواسطة مياه الأمطار التي تهطل في وادي النعمان أو على قمم الجبال المحيطة به في قناة مبنية . ومبدأ القناة في بطن وادي النعمان ، ثم بعد مرورها بوادي عرفات والمزدلفة واقترابها من مِنىً ، تتجه نحو مكة وتتفرّع فيها ، فيستقي منها الحجاج في أيام الحج . وأما أهل مكة فهي بين أيديهم طوال السنة .

ويرجع الفضل في انشائها إلى السيدة زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد. وقصة ذلك أن السقاية — وهي السهر على تمتع الحجاج بكفايتهم من الماء — كانت من مفاخر العرب ، إذ كانوا يتسابقون الى تولي أمرها . وقد تناقلتها بيوتات قريش إلى أن أبقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني العباس . فلما جاءت السيدة زبيدة إلى الحج ورأت ما يعانيه الحجاج وأهل مكة من المتاعب في الحصول على المياه التي كانت تُجلب على ظهور الدواب من الآبار العميقة ، أمرت بالبحث عن موردٍ للماء غزير وعذب . فأُرشدت إلى عيونٍ عدة في وادي حنين كانت ترويه . فأمرت أن تُشترى تلك العيون فيُحول ماؤها إلى قناة واحدة تجري حتى قلب مكة . ولكن القناة لم تكن تمر بمشاعر الحج (عرفات والمزدلفة ومنى) فرأت السيدة زبيدة أن تأمر ببناء مجرى آخر لإمداد المشاعر بالمياه ، فأنشئت سنة ١٨٠ هـ عين النعمان من طرف جبل كَرَى من جبال الطائف حتى مكان قريب من جنوب منى . ولم يمكن إيصالها إلى مكة لوجود صخر صلب في طريقها يتعذر نقره .

وقد تعهد هذا المجرى الحكامُ من خلفاء الأمم الإسلامية وسلاطينها بالترميم والتعمير واستمرَّ الماء يجري فيها حتى الدولة العثمانية (سنة ٩٢٣ هـ) فأُهملت العيون فتهدمت وجفَّ ماؤها (سنة ٩٣٠ هـ) وعاد الناس الى أخذ الماء من الآبار . ثم لجأوا إلى السلطان سليمان القانوني (سنة ٩٦٩ هـ) فأمر بتعمير عين النعمان ، وإنشاء قناة جديدة (سنة ٩٧٩ هـ)


خريطة
مشاعر الحج ومجرى عين زبيدة
مقياس
صفر ١ ٢ ٣ ٤ كيلومتر
شمال
جبل النور
مجرى السيول
الطرق
مجرى عين زبيده
مساجد
مساكن
٣ حوض المحمل المصري
٥ بركة الشام
٦ مسجد نمره
٧ مسجد المزدلفه
٨ مسجد الخيف
٩ السبيل المصري
١٠ الحرم المكي



شكل يبين سحب الماء من الدبل « المجرى » في حالة سحق العمق

لايصال الميـاه إلى مكة تمر في جوف الصخر الذي أمكن حفره بايقاد نيرانٍ على سطحه لكي يتشقق .

وأهملت عين حنين بعد ذلك ، وأصبحت عين النعمان تروي المشاعر الثلاثة ومكة ومساحات قليلة من الأراضي الزراعية ، وهي تسمى الآن عين زبيدة .

وقد تراوح الخراب والتعمير هذا المجرى بسبب السيول والزلازل أو الاهمال، ثم بفضل العناية تبعاً لتغير الحكام واختلاف نزعاتهم، حتى تألفت لجنة للإشراف على العين وموالاتها بالإصلاح والتوسيع (سنة ١٢٩٥ هـ) .

ولما دخلت البـلاد في حكم الملك ابن السعود (١٣٤٣ هـ) أيّـد الملك اللجنة التي كانت موجودة وحملها على صيانة مآخذ الماء ومباني المجرى .

٢ – طريقة إسالة الماء في المجرى

ليست هذه العين نبعاً طبيعيًّـا فتتدفق من أعالي الجبـال لتجري في الشعاب والأودية وتكوّن الأنهار ، بل هي من تدبير الانسان بتسخيره للموارد الطبيعية وتذليلها لارادته . فوادي النعمان تحيط به جبال شامخة أحجارها صوانية تهطل عليها الأمطار فتسيل إلى الوادي وتغور في رماله الكثيفة إلى أن تصل إلى طبقة صخرية لا تستطيع المياه أن تنفذ منها ، فتمتصها الرمال في الطبقات السفلية ثم تنحدر بطبيعتها بحسب الميـل الذي في سطح الطبقة الصخرية .

فان حفر في الرمال حتى تبلغ الطبقات الرملية الممتصة للمياه وأنشىء مجرى (« الدبل » في لغة الحجاز) قاعه منحدر وجوانبه مفرغة اللحامات ، فان الماء يتسرب من الرمال الى داخل « الدبل » ويجري فيه جهة الانحدار . وإن ألحقت بالمجرى فروع متشعبة في جهات الوادي (وهذه الفروع في لغة الحجاز يقال لها شحاحيت) زاد مقدار الماء المتسرب الى « الدبل » . ثم ان جعل قدر الانحدار في المجرى أقل من قدر انحدار سطح الماء الجوفي بلغ « الدبل » نقطة يلتقي فيها بأعلى منسوب لسطح الماء ، فيدخل في الرمل الجاف . وان أنشىء « الدبل » من بناء أصم بعد ذلك أمكن تسيير الماء وتوجيهه الى حيث يراد . وهذه هي الطريقة المستعملة في أنحاء الحجاز لجمع المياه من بطون الأودية وجلبها للبلاد (وتسمى «العيون») . وهي نفس الطريقة التي تجمع بها مياه وادي النعمان فتجري في « الدبل » مارة بالأودية وفي سفح الجبال، الى ان تصل مكة ، وعين الزرقاء بالمدينة المنورة يجمع ماؤها بهذه الطريقة أيضاً .

عبن الطبيعة

وقعت حادثة لم يسمع بمثلها في تاريخ الطب في أميركا ، هي حادثة ميلاد طفل سوي حي تكون أثناء تخلقه خارج أعضاء أمه التناسلية.

ولقد روى هذه الحادثة طبيب من لوس انجليس ونشرتها صحيفة شيكاغو صن . حدث ذلك في مستشفى انفيلوس . والأم هي مدام بيسي ووكر ، عمرها ٢٣ سنة ، وابنتها المولودة اريس جان وزنت سبعة أرطال ونصف عند ولادتها . ووصف دكتور ر . ب جنكنس حالة هذه الوضع بأنها « حمل بطني خارج الرحم » فقال ان الجنين لم يتخلق في الرحم أو القنوات الفلوبية ، بل في تجويف البطن ، حيث أفسحت له الطبيعة مكاناً الى جانب جهاز الأم الهضمي . والظاهرة الشاذة استكشفها دكتور جنكنس عند ما استعد لاجراء العملية القيصرية لينقذ الطفل ، وكان قد مر علوه ٢٣ يوماً أزيد من الزمن الحملي .

ولكن الاطباء المساعدين أخذوا بالعجب مما رأوا . فان الرحم كان في حالة سوية وليس بها أي أثر من آثار التأثر بالحمل . وزاد عجبهم عند ما برز اليهم الطفل صارخاً بقوة غير معهودة . ولكن مشكلتهم الكبرى انحصرت في كيف وجدت البيضة الملقحة طريقها من القناة الفلوبية مخترقة جدار البطن الضيق الى جزء من الجسم لا يمكن الوصول اليه إلا بعملية جراحية . ثم مشكلة أخرى ، كيف اغتذى الجنين أثناء الحمل

قال دكتور جنكنس : « من أجل ان ذلك الكيس الذي يحوي كل جنين قبل الولادة كان مملوءاً بحلول كامل من الدم ، بدلا من الماء ، أعتقد أن الطبيعة قد أعدت للجنين دورة دموية خاصة جرت بين ذلك الكيس والام ، وان الجنين غذي بطريقة النضح أو الامتصاص من البيئة الدموية التي أسعفت بها الطبيعة ذلك الكائن في عزلته تلك .

لا بد من أن الطبيعة تكون قد احتاطت فبذلت جهدها في الاحتفاظ بحياة الام وحياة الجنين معاً . فان الكيس الذي حوى ذلك الدم كان أكثر صفاقة وتماسكاً من المعتاد . ولو انه انفجر في جوف الام ، اذن لقتلها بسرعة . ولقد أدلى دكتور جنكنس بهذا الامر الى رصفائه الاطباء في جمعية كاليفورنيا الطبية ، فقرروا بالاجماع ان هذه الحالة فريدة في بابها وانهم لم يعهدوا لها نظيراً .

وقد يجري الدبل في جوف الأرض في أعماق سحيقة أو دانية ، فتشق في أعلاه فتحات على مسافات مختلفة تتصل بسطح الأرض ببناء أسطواني كبناء الآبار (يسمى « خرزات ») . وهي لازمة للتهوية أو للوصول الى « الدبل » لأجل التنظيف او الترميم .

وقد يجري الدبل على سطح الأرض فيجعل له سقف به فتحات يؤخذ منها الماء ، ويعمل له فروع تصب في خزانات أو صهاريج يستقي منها الناس .

عثمان رفقي رستم

كبير مهندسي مصلحة الآثار المصرية



حق غريق
في بحر من الباطل

لأمر ما يطيب لبعض الناس أن ينتحل أقوالاً يعزوها لغيره ، أو يبدع من نسج خياله صوراً لا تمت إلى واقع الأمر بصلة، ثم لا تلبث هذه الأقوال او هذه الصور ان تأخذ على توالي الأيام عند بعض النـاس صفة الحقيقة،فينقلها مفترضاً صحتها من غير ان يتعرض لها بتحقيق او على الأقل يقدمها في ثوب من الحيطة والحذر كما تقضي الأمانة العلمية .

ومن ذلك ما وقع فيه ابن ابي اصيبعة في كتاب طبقات الأطبـاء نقلاً عن اسحاق بن حنين خاصـًا بنـطافورس بن الملك روفـطانس وارسطوطاليس اليتيم مما سيأتي ذكره.وأثبت أستاذنا الجليل حضرة صاحب المعالي احمد لطفي السيد باشا في تصديره لـكتاب الأخلاق لأرسطو انه منتحل بقوله :

« والواقع ان أرسطو لم ينتقل مدة الطلب من أثينا ، وكانت أثينـا طوال ذلك الحين جمهورية ليس فيها ملك،فيأمر أفلاطون بتعليم ابنه،ولا ابن ملك ليعلمه أفلاطون فيتلقف أرسطو ، الذي جعلته هذه القصة خادماً ما كان يلقيه الاستاذ على ابن الملك، كل ذلك لم يكن، بل لم يكن منه إلا شيء واحد هو ان الشاب أرسطو ذكي مجتهد . وهذا حق غريق في بحر من الباطل»

وبعد : فأقدم القصة نفسها نقلاً عن كتاب طبقات الأطباء نفسه مردفة بمقالة ارسطو او المنسوبة إلى أرسطو في ذلك اليوم . وإني إذ أنشر بعد القصة هذا المقال الممتع حقـًا ، والذي هو من عيون الأدب الرفيع بلا نزاع ، لا اقصد من نشره التعرض له من جهة الباعث الذي حمل اسحاق اوغير اسحاق على إسناد هذا القيل الى ذلك الاسم الضخم،اسم ارسطوطاليس، وانما مقصودي من هـذا النشر هو أن أسهل الاطلاع على هـذا المقـال الممتع لمن يحب أن يروّض نفسه في سلوكه على ضوء ما فيه من حكم وآداب . ولمن يحب أن يلقح فهمه بهذه النتائج البـاهرة ، أضع بين يديه هذه المادة الغزيرة ضانـًا بها على من سوف يقرؤها لمجرد التسلية.من غير ان يأخذ نفسه بالرياضة عليها، فقد كان أرسطو يرى والحق ما يراه انه لا فائدة من العلم بما هي الفضيلة علماً نظريـًا دون رياضة النفس على حيازتهـا واستمهالها.

واليكم الآن القصة وما سطـر حنين من إجابة لأرسطوطاليس في ذلك اليوم .

اتخذ روفسطانس الملك بيتاً للحكمة وفرشه لابنه نطافورس وأمر أفلاطون بملازمته

وتعليمه، وكان نطافورس غلاماً متخلفاً قليل الفهم بطيء الحفظ ، وكان أرسطوطاليس غلاماً يتيماً قد سمت به همته الى خدمة أفلاطون الحكيم،وكان ذكيًا فهماً جادًا معبراً. وكانَ افلاطون يعلم نطافورس الحكمة والآداب فكان ما يتعلمه اليوم ينساه غداً ولا يعبر حرفاً واحداً . وكان أرسطوطاليس يتلقف ما يلقى الى نطافورس فيحفظه ويرسخ في صدره ويعي ذلك سرًّا من أفلاطون ويحفظه،وأفلاطون لا يعلم بذلك من سر أرسطوطاليس وضميره،حتى اذا كان يوم العيد زين بيت الذهب [1]

وألبس نطافورس الحلى والحلل وحضر الملك روفسطانس وأهل المملكة وأفلاطون وتلاميذه. فلما انقضت الصلاة صعد أفلاطون الحكيم ونطافورس الى مرتبة الشرف ودراسة الحكم على الاشهاد والملوك ، فلم يؤد الغلام نطافورس شيئاً من الحكمة ولا نطق بحرف من الآداب فأسقط في يد افلاطون ، واعتذر الى الناس بأنه لم يمتحن علمه، ولا عرف مقدار فهمه ، وانه كان واثقاً بحكمته وفطنته،ثم دعا من ينوب عن نطافورس من تلاميذه فقام ارسطوطاليس وصعد الدرج بغير زينة ولا استعداد في اثوابه المبتذلة ، فهدر كما يهدر الطير وأتى بأنواع الحكمة والادب الذي ألقاه أفلاطون الى نطافورس لم يترك منه حرفاً فقال افلاطون للملك : هذه هي الحكمة التي لقنتها نطافورس قد وعاها أرسطوطاليس سرًّا فما حيلتي في الرزق والحرمان . وكان الملك في ذلك اليوم يرشح ابنه للملك فأمر باصطناع أرسطوطاليس ولم يرشح ابنه للملك وانصرف الجمع في ذلك عن استحسان ما أتى به أرسطوطاليس والتعجب من الرزق والحرمان .

مقالة أرسطوطاليس وما نُسبَ اليه في ذلك اليوم

لبارئنا التقديس والاعظام والاجلال والاكرام .

أيها الاشهاد : العلم موهبة الباري ، والحكمة عطية من يعطي ويمنع ، ويحط ويرفع ، والتفاضل في الدنيا والتفاخر هما بالحكمة التي هي روح الحياة ومادة العقل الرباني العلوي .

أنا اروسطوطاليس ابن فيلوبيس اليتيم خادم نطافورس ابن الملك العظيم . حفظت ووعيت والتسبيح والتقديس لمعلم الصواب ومسبب الأسباب .

أيها الاشهاد : بالعقول تتفاضل الناس لا بالأصول ، وعيت عن افلاطون الحكيم : الحكمة رأس العلوم ، والآداب تلقيح الافهام ونتائج الأذهان ، وبالفكر الثاقب يدرك الرأي العازب ، وبالتأني تسهل المطالب ، وبلين الكلم تدوم المودة في الصدور ، ويخفض

---

(١) يقال ان الملوك من اليونانية وغيرها كانت تعلم أولادها الحكمة والفلسفة في بيوت الذهب هذه وكانت هذه البيوت تزين بالصور لارتياح القلوب اليها واشتياق النظر الى رؤيتها فاذا حفظ المتعلم من أولاد الملوك علما أو حكمة أو أدباً صعد على منبر في يوم العيد أمام أهل المملكة بعد انقضاء الصلاة فيتكلم بالحكمة التي حفظها على رءوس الاشهاد وعليه التاج وحلل الجوهر.وبعد ذلك يعد حكيما على قدر ذكائه وفهمه

الجناح تتم الأمور ، وبسعة الأخلاق يطيب العيش ويكمل السرور ، وبحسن الصمت جلال الهيبة ، وباصابة المنطق يعظم القدر ويرتقي الشرف ، وبالانصاف يجب التواصل ، وبالتواضع تكثر المحبة ، وبالعفاف تزكو الاعمال ، وبالافضال يكون السؤدد ، وبالعدل يقهر العدو ، وبالحلم تكثر الانصار ، وبالرفق تستخدم القلوب ، وبالايثار يستوجب اسم الجود ، وبالانعام يستحق اسم الكرم ، وبالوفاء يدوم الاخاء ، وبالصدق يتم الفضل ، وبحسن الاعتبار تضرب الامثال ، والايام تفيد الحكم . يستوجب الزيادة من عرف نقص الدنيا ، ومن الساعات تتولد الآفات ، وبالعافية يوجد طيب الطعام والشراب ، وبحلول المكاره ينتقص العيش وتتكدر النعم ، وبالمن يكفر الاحسان ، وبالجحد للانعام يجب الحرمان ، صديق الملول زائل عنه ، المسيء الخلق مخاطر صاحبه ، الضيق الباع حسير النظر ، البخيل ذليل وإن كان غنيًّا والجواد عزيز وان كان مقلاًّ ، الطمع الفقر الحاضر ، اليأس الغنى الظاهر ، لا أدري نصف العلم ، السرعة في الجواب توجب العثار ، التروّي في الأمور يبعث على البصائر ، الرياضة تشحذ القريحة ، الأدب يغني عن الحسب ، التقوى شعار العالم ، الرياء لبوس الجاهل ، مقاساة الأحمق عذاب الروح ، الاستهتار بالنساء فعل النوكي ، الاشتغال بالغائب تضييع الأوقات ، المتعرض للبلاء مخاطر بنفسه ، التمني سبب الحسرة ، الصبر تأييد العزم وثمرة الفرج وتمحيق المحنة ، صديق الجاهل مغرور ، المخاطر خائب ، من عرف نفسه لم يضع بين الناس ، من زاد علمه على عقله كان علمه وبالاً عليه ، المجرب أحكم من الطبيب ، إذا فاتك الأدب فالزم الصمت . من لم ينفعه العلم لم يأمن ضرر الجهل ، من تأنى لم يندم ، من افتخر ارتطم ، من عجل تورّط ، من تفكر سلم ، من روى غنم ، من سأل علم ، من حمل ما لا يطيق ارتبك . التجارب ليس لها غاية والعاقل منها في زيادة ، للعادة على كل أحد سلطان ، وكل شيء يستطاع نقله الاّ الطباع ، وكل شيء تتهيأ فيه حيلة الاّ القضاء ، من عرف بالحكمة لحظته العيون بالوقار . قد يكتفى من حظ البلاغة بالايجاز ، يؤتى الناطق من سوء فهم السامع ، من وجد برد اليقين أغناه عن المنازعة في السؤال ، ومن عدم درك ذلك كان مغموراً بالجهل ومفتوناً بعجب الرأي . ومعدولاً بالهوى عند باب التثبت ، ومصروفاً بسوء العادة عن تفضيل التعليم ، الجزع عند مصائب الاخوان أحمد من الصبر وصبر المرء على مصيبته أحمد من جزعه ، ليس شيء أقرب الى تغيير النعم من الاقامة على الظلم ، من طلب خدمة السلطان بغير أدب خرج من السلامة الى العطب . الارتقاء الى السؤدد صعب ، والانحطاط الى الدناءة سهل »

تلك هي القصة وهذه هي المقالة ولعلي بنشرها أصادف مَنْ نفسه مستعدة لهذه الكلمة ملاءمة لها فتهتدي بهديها ، وهذا آخر غرضنا من نشرها والسلام .

منصور رجب

المدرس بكلية أصول الدين



الرأي العام الاجتماعى
وكيف نكوّنه في مصر

تكوين الرأي العام سواء أكان سياسيًّا أم اجتماعيًّا أم اقتصاديًّا، يجب أن يجري على أسلوب واحد وبأسباب سيكلوجية واحدة ولغاية واحدة، هي خير الأمة ورقيها بإيجاد وجدان يقظ لتطورها وسعادتها .

والرأي العام بالطبع هو الرأي الناطق، أي رأي المتعلمين الذين يستطيعون درس الحوادث ويستطيعون أيضاً التكلم فيها . وهذان الشرطان ضروريان لايجاد رأي عام مهما كان نوعه .

١ — القدرة على الدرس بتوافر الوسائل للتعليم والاستنارة .

٢ — والقدرة على الافصاح بتوافر الوسائل للتعبير عن الرأي .

وإذا فقدنا أحد هذين الشرطين فقدنا الرأي العام . ففي الأمم الدكتاتورية مثلاً وسائل لاتحصى للتعلم كالمدارس وغيرها . ولكن أفراد هذه الأمم يحال بينهم وبين التعبير عن آرائهم، ولذلك لايمكن أن يكون لهم رأي عام. وكذلك نجد في الأمم الجاهلة التي لم تنتشر فيها وسائل التعلم، حرية في التعبير عن الرأي، ولكن هذه الحرية لا قيمة لها ولا انتفاع بها للجهل المخيم على العقول . ولذلك ليس لها رأي عام وكثير من الأمم الآسيوية على هذه الحال، لأن الأمية تتفشى فيها .

ولا عبرة بالقول بأن الأمة حرة في التعبير عن آرائها اذا كانت جاهلة لأن الرأي لا يتكوّن الا بالمعرفة بوسائل النشر في جرائد ومجلات ومحطات اذاعية وكتب ومجالس الخ .

ولهذا السبب يمكن أن نقول إن الرأي العام في مصر ليس رأياً عامًّا ، وانما هو رأي خاص، لأن الرأي الناطق، الرأي المتعلم الذي وصل الى المعرفة لايزيد اصحابه على نحو ١٠ أو ١٥ في المئة من مجموع الأمة، بل ربما كانوا أقل من هذا، وهم أولئك الذين تعلموا في مؤسسات التعليم الابتدائية والثانوية والجامعية كلها أو بعضها . أما خريجو التعليم الالزامي فلا أستطيع أن أقول إنهم متعلمون وإنهم وصلوا من المعرفة حدًّا يسمح لهم بتأليف رأي عام في شؤوننا الاجتماعية أو الاقتصادية . فهم والأميون سواء من هذه الناحية .

الرأي العام في مصر هو رأي ١٠ أو ١٥ في المئة من الأمة . رأي أقلية صغيرة متعلمة

رأي خاص . فاذا شئنا إيجاد رأي عام ، فلا مفر من أن نعلم الأمة كلها تعليماً عصرياً بحيث يستطيع خريجو هذا التعليم أن يدرسوا مشكلات مصر بالروح العصري في ضوء القيم والاعتبارات العالمية . وهذا أمل لا يزال بعيداً . ولكن ليس معنى هذا أن ننفض أيدينا ونقول : ليس عندنا رأي عام فلا يجدينا بحث هذا الموضوع . لأن الواقع أن هذه الأقلية تقوم بتكوين الرأي العام لأن جمهور الأميين، يسير خلفها ويرضى — من حيث يدري أو لا يدري بحكمها .

والمفهوم من الموضوع الذي نتحدث عنه أننا نرغب في رأي اجتماعي حسن ونبحث الوسائل التي تؤدي الى تحقيقه . فما هو الرأي الاجتماعي الحسن !

الرأي الاجتماعي الحسن في سنة ١٩٤٤ هو غير الرأي الاجتماعي الحسن في سنة ١٨٤٤، وهو غير الرأي الاجتماعي الحسن في سنة ٢٠٤٤ لأننا لا نستطيع أن نتخيل « الحسن » مطلقاً غير مقيد بزمان أو مكان . وقصارى ما نقول فيه إنه شعور اجتماعي حسن أو انه عواطف اجتماعية بارة ، أو إنه اتجاه إلى الخير في جمهور الأمة المستنير ، ثم فوق ذلك رغبة في تحقيق هذا الخير .

ولسنا في حاجة الى أن نشرح ما هو خير الأمة لأننا إذا تقيدنا بالزمان والمكان عرفنا هذا الخير . اما إذا تطوحنا في الغيبيات عن الخير المطلق فاننا لن نعرفه، او لن نتفق على ماهيته . ومع ذلك نستطيع أن نقول إن صحة الاجسام واستنارة العقول ووفرة المساكن والملابس الصحية كلها خير لا نختلف فيه ، ولكننا نختلف مثلاً في ماهية العائلة الحسنة أو التعليم الحسن ، بل أحياناً نختلف في منفعة الحروب وضررها ، بل منا من يعتقد أن الفقر مفيد لبعض الناس، وإن العلاج الناجع للجريمة، ليس سوى السجن والمشنقة.

و الرأي العام الاجتماعي « الحسن » يجب أن تكون له رؤيا وأن يستنير ببصيرة مثقفة في كل هذه الشئون. والرؤيا والبصيرة كلتاهما تتكونان بالمرونة العصرية المقيدة بالزمان والمكان.

والمعارف هي المواد الخام التي يتألف منها الرأي العام . وقسم كبير من هذه المعارف، بل أحياناً أصولها نتناولها من المدارس والجامعات . فإذا اختلفت هذه المدارس والجامعات في المعارف التي تعلمها لتلاميذها وطلبتها، فان الرأي العام يجب أن يختلف . وإذا كان الاختلاف بين أكثرية وأقلية فان هذا الاختلاف ينفع لانه يعود بمثابة السم القليل الذي ينبه ولا يقتل . ولكل أقلية لهذا السبب مهمة اجتماعية حسنة إذ لا ضرر على الجسم الاجتماعي من قليل من الزرنيخ بل هو يتقوى به . ولكن إذا كان الاختلاف بين طائفتين متساويتين أو تقاربان المساواة، فانه، أي الاختلاف يضر، لانه يشق الأمة فيكون كذلك الاختلاف الذي

ينشأ من فريقين متساويين في البرلمان يمنع كل منهما الآخر من العمل . وهذا هو ما نرى آثاره أحياناً في شئوننا الاجتماعية بين فريق المتعلمين مثلاً في الجامعة الأزهرية وبين فريق المتعلمين في جامعة فؤاد الأول،دون انتقاص لاحدى الجامعتين.وحسبنا مسألة خلافية واحدة تدلنا على هذا الانشقاق وهي أيضاً رمز لغيرها من الخلافات . فمن وقت لآخر وخاصة أيام الصيف نسمع رأيين :

أحدهما ينضوي الى مجموعة من المعارف تؤلف ثقافة معينة وتنتهي إلى ايجاد رأي اجتماعي خلاصته أن النساء سيدات وآنسات يتبذلن على الشواطىء ويكشفن من اجسامهن جزءاً كبيراً ، وإن هذا السلوك يخالف تقاليدنا ونحتاج لهذا السبب إلى تقييد الاستحمام بقيود وشروط .

والرأي الآخر يقول إن الاستحمام على الشواطىء يحتاج إلى التشجيع،لأن تعرض المرأة للشمس يمكنها من إدخال فيتامين (د) وهو ضروري للصحة الحسنة،فيجب عليها أن تبقى على الشواطىء أطول ما يمكن من الوقت وأن تكشف من جسمها أكثر ما يمكن . فهنا نظران مختلفان يتساويان في القوة ويحدثان خلافاً يقلقل ويزعزع .

ولكي نكوّن « رأياً عامًّا اجتماعيًّا » حسناً في هذا الموضوع أو في غيره يجب أن نعتبر الزمان والمكان، وإن نعتمد على المعارف العلمية العصرية، ولكن إذا كان جمهور كبير في الأمة يعارض المعارف العلمية العصرية ، ويرفض اعتبار الزمان والمكان ، فان تكوين رأي عام اجتماعي يعود من المشكلات والمشقات الكبرى .

ولنذكر مثالاً آخر وهو التناقض بين رأي اجتماعي قديم ونظام اقتصادي حديث، فنحن في الوقت الحاضر نتألم من الاخبار المحزنة عن تفشّي الملاريا القاتلة في المديريات العليا من الصعيد . وكان أبرز ما في هذه المأساة أن السكان في هذه الأصقاع الموبوءة على غاية من الفاقة حتى قيل ان بعضهم يأخذ الكينين من أطباء الصحة فيبيعه لكي يشتري الخبز ، وحتى ان الحكومة باعتهم الدقيق بنصف ثمنه .

وظروف مصر الحاضرة تنادي بالحاجة الى العمال والأجور عالية ، فكيف يفتقر جمهور كبير من أبناء وطننا الى الطعام .

الجواب سهل وهو ان بعض أبناء الصعيد يلتزمون ثقافة قديمة وآراء بل عقائد اجتماعية لاتتفق وكسب العيش في عصرنا . ففي الوجه البحري تعمل المرأة الى جانب الرجل بلا عيب ولا عار وكلاهما يتكسب، فلا فقر قاتل يؤدي الى الجوع . ولكن في المديريات العليا من الصعيد يأنف الرجل من إن تعمل زوجته أو ابنته أو أخته وتتكسب لأن هذا يعيبه ويشينه .

ولذلك يجب عليه ان يقتسم أجرته معهن وهي لا تكفي ، فلا يكون سوى الجوع للجميع ، هو وهن ثم المرض ثم الموت ، وهذا هو الآن مأساة الصعيد .

آراء بل عقائد اجتماعية قديمة ، تحول دون الأخذ بالروح العصري . فلكي نكوّن رأياً اجتماعيًّا حسناً في مصر ، يجب ان نكافح هذه العقائد الاجتماعية .

ويجب ان نقول عقائد اجتماعية وليس آراء اجتماعية ، لأن سكان أسوان وقنا وسوهاج لا يرتأون الرأي عن العرض او عمل المرأة او الثأر ، بل يعتقدون العقيدة . ولكنهم ليسوا مع ذلك شاذين لأن ما نسميه «رأياً عامًّا» في أية أمة مهما بلغت حضارتها ، انما هو مجموعة العقائد العامة أو هو رأي قائم على أسس من هذه العقائد العامة .

وأنا أؤثر عبارة « العقل العام » على عبارة « الرأي العام » لأن العبارة الاولى تنطوي على العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التي يتكوّن منها جميعاً «عقل عام» للامة نكاد نتكهن بالرأي الذي تنتهي اليه في حادث معين إذا عرفناها ، أي إذا عرفنا هذه العقائد والعادات الذهنية والحدود اللغوية التي لا يمكن فرداً ان يتحرر منها مهما ظن انه حر وانه لا يبالي المجتمع الذي يعيش فيه .

وتعجبني هنا كلمة جون دوي عن التفاعل بين الفرد والمجتمع . فهو يقول : ان الفرد الى المجتمع كالطفل الى العائلة . فهو يعطي المجتمع من الآراء ويأخذ منه من الآراء أيضاً بمقدار ما يعطي الطفل لعائلته من كلمات الطفولة الجديدة وما يأخذ منها من مئات الكلمات التي يتحدث بها .

فحين نتكلم عن ايجاد « رأي عام اجتماعي » يجب ان نذكر هذا . يجب أن نذكر أننا في أسر عادات ذهنية وعقائد تبدأ من أتفه أعمالنا إلى أجلها . من الأسلوب الذي نتبع في تناول طعامنا الى طريقة التحدث الى مَن هم أكبر منا مقاماً الى ارتياء الرأي من حرية المرأة او ديمقراطية الحكم . وهذه العادات الذهنية مع ما يرافقها من كلمات تحمل كل منها شحنة عاطفية تقرر لنا السلوك الاجتماعي فنغضب أو نسر ونخاطر أو نفر من حيث نعتقد أن عواطف الغضب والسرور والمخاطرة والفرار انما هي جميعها من منبع نفوسنا وليست منعكسة من المجتمع علينا . وليس شك في أن الصعيدي في قنا أو جرجا حين يقتل أخته أو أمه للعرض ، يعتقد أنه حر في هذا الاجراء ولا يمر بخاطره أنه تربى على عادات ذهنية وتعلم ألفاظاً معينة جعلته يرتكب جريمته . ولو أنه كان قد عاش في مجتمع آخر في إحدى مدن الوجه البحري أو قراه ، لما وجد في لفظة العرض هذه الشحنة العاطفية الملتهبة التي يرتكب بسببها نحو ثلاثمائة جريمة قتل في مديريات الصعيد كل عام .

وكلمات اللغة الموروثة والعقائد والعادات الذهنية لا نحسها جميعها، لأنها منا بمنابة العدسة التي ننظر من خلالها الى الأشياء والناس فلا نراها هي. أي لا نرى العدسة التي تكبر أو تشوه لنا الأشياء والناس. أو بكلمة أخرى نقول أن الشحنات العاطفية التي تحملها ألفاظ اللغة والعقائد والعادات الذهنية قد انحدرت الى العقل الباطن فلا نحس المجتمع الذي أورثناها

فحين نفكر في تكوين رأي عام اجتماعي يجب أن نذكر كل هذا، ويجب ألا نضحك حين نقرأ أن أحد الزنوج من الكهنة في أفريقيا السوداء يقدم نفسه راضياً بالقتل لأنه أحس أن بقاءه حيًّا يؤخر المطر وأن موته سينعش الزرع بالغيث. كلانا قد آمن بعقائد مجتمعه وتلبس بها من حيث لا يدري.

ولكن مع كل هذه الصعوبات يجب أن نفكر وندبر الوسائل لايجاد رأي عام اجتماعي حسن. رأي عام مستنير.

والرأي العام المستنير الحسن يجب أن يكون في عصرنا رأياً عالميًّا لأننا لا نعيش منفصلين عن العالم. فاذا كان قد وسع مصر قبل ٨٠٠ أو ٧٠٠ سنة أن تكون لها عادات قومية وثقافة مصرية، فلا يسعنا نحن الآن ان نستقل باجتماع خاص يخالف الاجتماع البشري العالمي.

كان العالم قبل ٨٠٠ سنة منفصلة أممه، قد شطحت المسافات بين كل قطر وآخر. وقد احتاجت جيوش ريتشارد قلب الأسد الى عام كامل لكي تسافر من انكلترا الى فلسطين فكان الانفصال تقرره عوامل جغرافية. أما الآن فيمكن السفر بين هذين القطرين في نصف يوم بالطائرة. فالاتصال بين قطر وآخر والوحدة الاجتماعية لهما ما يبررهما. والنظام الاقتصادي الذي يعم الدنيا سوف يعمم عن قريب نظاماً اجتماعيًّا عامًّا.

وقد اضطررنا في السياسة الى الأخذ بالاتجاه العالمي كما يثبت ذلك انضمامنا الى ميثاق الاطلنطي فأثبتنا بذلك أننا متمدنون عصريون، قد نقلنا السياسة المصرية من النظر القروي الى النظر العالمي. واجتماعنا — مثل سياستنا — يجب أن يتجه هذا الاتجاه.

ولكن يجب ألا ننسى أن الرأي السياسي قد يتغير بسهولة لانجد مثلها في تغيير الرأي الاجتماعي، عقيدة راسخة تحمل شحنة عاطفية تتصل بالسلوك الجنسي أو المقام الاجتماعي أو الاحساس الديني. ويزاد على ذلك ان ذوي الرأي السياسي — حتى حين يكاد هذا الرأي أن يكون عقيدة — هم أقلية صغيرة مثقفة قد اتسعت آفاقها الذهنية الى حد ما. فهي تقبل التغير. ولكن العقائد الاجتماعية تفشو بين الأكثرية الساحقة من الأمة. وهي أكثرية غير متعلمة لم تتدرب أذهانها على الجدل ولم تعرف قيمة الشك فتكز الصعبة الذين

أشرنا اليهم يعيشون بعقائد اجتماعية لها قوة اليقين، ولكن ليس لهم آراء سياسية عن الحرب أو السلم أو التغيرات المنتظرة منهما .

ومهمة الأقلية المثقفة في مصر أن تغير العقائد الاجتماعية عند هذه الأكثرية . ومع أن هذا مجهود شاق فانه واجب، بل هو رسالة يحملها كل مصري مثقف . واذا كان اسماعيل باشا قد استطاع أن ينير الأمة وينقلها من الشرق الى الغرب وان كان قد أدّى الثمن باهظاً . فاننا نستطيع أن نسلك سبيله وخاصة أننا نعرف أن مسافة غير قصيرة قد قطعت . فقد استطاع اسماعيل ان يؤسس المدارس للبنات وان يدخل قانون نابليون وأن يوجد نظاماً عصريًّا للحكومة، بل انه غير الزي الشرقي فأحاله الى زي غربي . ويجب ألاَّ ننتقص هذا الاصلاح الأخير، لأن الزي الذهني كثيراً ما يتبع الزي الجسمي .

لقد وجد اسماعيل الأمة وهي على مستوى الظلام الذي كانت تعيش فيه أيام القرون الوسطى فأيقظها وأنعشها وبعثها أمة عصرية اوكالعصرية. فمهمتنا دون مهمته وواجبنا أخف من واجبه . ولكن يجب ان نذكر انه اول من حاول تغيير العقائد الاجتماعية وقد غيرها وأعظم محاولة قام بها مصري بعد اسماعيل في تغيير العقائد الاجتماعية هو بالطبع قاسم امين .

ولكن « العقائد الاجتماعية » هي كما قلنا عقائد وليست آراء فهي تحتاج لكي نغيرها الى كثير من التكرار والايحاء والقدوة . ذلك لاننا لن نستطيع ان نغير عقائد الجمهور ونحمله على الاصلاح في العائلة والزواج والطلاق والتعليم والعمال والنظام الديمقراطي للحكومة والمجتمع الاّ بعد مجهودات متكررة في الدعاية بالكتاب والصحيفة والراديوفون والسينماتوغراف والمسرح . ولهذين الأخيرين قوتهما الايحائية العظيمة وقدرتهما على تغيير العقائد . ولكن يجب أن يكون الى جنب هذا حكومة يقظة نيرة تنتهز الفرص لحمل البرلمان على سن القوانين التي تنقح وتغير في العادات الاجتماعية اي تفعل ما فعله اسماعيل بدون برلمان، بل بدون دعاية سابقة من أي نوع .

في أيام اسماعيل سبقت الحكومة الرأي العام وأصلحت اصلاح المستبد، ولكن ليست هذه حالنا الآن، ولسنا نحب ان نعود . على ان هناك اشياء في وقتنا سبق فيها المجتمع الحكومة كما نرى مثلاً في اصلاح الوقف وفي غيره فان الحكومة هي المتخلفة والمجتمع هو المتقدم . وقد نضج للاصلاح، ولكنها لا تلبي ولا تعجل .

وكما استطاعت الأقلية المستنيرة ان تقنع المجتمع بضرورة اصلاح الوقف وان تحمل الحكومة على ان تتهيأ — في بطء — لهذا الاصلاح كذلك تستطيع هذه الأقلية التي تتولى توجيه الرأي العام أن توحي العقائد الاجتماعية الجديدة او « تكوّن رأياً عامًّا اجتماعيًّا »

وهذا الذي نقول هو ما فكرت فيه بالفعل هذه الاقلية المستنيرة حين أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ثم ألحقتها بمجلة الشؤون الاجتماعية . ففي أواخر سنة ١٩٣٩ دعيت الى التحرير بهذه المجلة فلبيت الدعوة في رغبة حارة لأن اجعل منها دعاية اجتماعية عصرية ورأيت أن خير ما يجب ان اقوم به أن أنقل القارىء من النظر القروي للاصلاح الى النظر العالمي " وذلك بأن اعرض طرق الاصلاح التي اتبعت في امم اوربا وأميركا المتمدنة . اي ان المجلة تعود سجلا دائماً او معرضاً وافياً للاصلاحات الاجتماعية في سويسرا وأسوج ودنمرك وبريطانيا والولايات المتحدة وغيرها في كل ما يتعلق بالتعليم والاسرة والزواج والطلاق ورعاية الأطفال والرقي الصحي والكفالات الاجتماعية للعامل وبناء المساكن ومعالجة الجريمة ونظم الضرائب التدريجية والاتجاهات الصناعية الى غير ذلك .

ورأيت ان في عرض هذه الاصلاحات مجردة بلا دعوة الى التقليد ايحاءً حسناً يبعث الاقلية المستنيرة على التفكير في اصلاح وطننا بتوجيهات اجتماعية جديدة . والواقع اننا لا نحتاج الى الابتكار في التطور الاجتماعي كما لا نحتاج الى الابتكار في التطور الصناعي او المالي . لأن تخلفنا او وقف رقينا منذ ايام اسماعيل يجب ان يحملنا على الاسراع في درس الاصلاحات الاجتماعية في الامم المتمدنة التي لم يسوء حظها كما ساء حظنا ، ولم يقف تطورها كما وقف تطورنا ، فما علينا لا نزيد على النقل مع التنقيح او بلا تنقيح . وغايتنا واضحة وهي الغاية التي رسمها اسماعيل حين قال « لم تعد بلادي من افريقيا انما هي الآن من اوربا » .

***

فلكي نكوّن رأياً اجتماعيًّا عامًّا في مصر يجب قبل كل شيء ان نجعل الاقلية المستنيرة تتجه نحو الغرب ، وان نجعل من شرح الاصلاحات الاجتماعية هناك مادة أولية نصنع منها ونصوغ اصلاحاتنا . وهذا الاتجاه يحملنا على مكافحة أشأم لفظة في مصر في وقتنا وهي القول بأننا أمة شرقية . فان هذه اللفظة قد أحدثت في بعضنا عقدة نفسية تحملنا نقف معارضين مناوئين ، ليس للاصلاحات الأوربية فقط بل للمعيشة العصرية ، كأننا لسنا من البشر المتمدنين . وهذه العقدة تتخلل مجتمعنا كما لو كانت سرطاناً يمتد ويتفرع فيجب مثلاً ألاّ تستحم السيدات والآنسات لأنهنّ شرقيات . ويجب ألاّ تتعلم المرأة التعليم الجامعي لأنها شرقية . ويجب ألاّ نؤمن بهذا الاصلاح ولا نصطنع هذه العادات لاننا شرقيون لنا تقاليدنا الخاصة الخ .

ولو أن اسماعيل باشا كان قد اتجه هذه الوجهة وقال مثل هذا القول لبقينا الى الآن في

أسر الظلام. ظلام القرون الوسطى. فالرأي العام الاجتماعي الذي نحتاج إليه هو الرأي العام المصري، الرأي العام العالمي الذي يعم عالم المتمدنين في هذا الكوكب. وقد انضممنا الى ميثاق الاطلنطي في الحقوق الأساسية. وبودي لو يخترع ميثاق اطلنطي آخر في الحقوق الاجتماعية ننضم إليه ونشارك به المتمدنين في رفاهيتهم. ومع ذلك فاننا يجب ألا نهمل القيم الاجتماعية في الميثاق القائم. وأكبر ما في هذا الميثاق شأناً من حيث القيمة الاجتماعية هو الحريات الاربع، إذ أن إحدى هذه الحريات هي التحرر من العوز، وهي تنطوي على كثير من الحقوق الاجتماعية.

وكلاهما، أي ميثاق الاطلنطي والحريات الاربع، يرمزان إلى المستقبل. فنحن نتجه وجهة عالمية وسوف نتكلم بلغة واحدة في الاصلاح الاجتماعي. بل منا الآن طبقة صغيرة العدد ولكنها تنمو وتتكاثر وتنظر هذا النظر في الشئون السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وأفراد هذه الطبقة يؤلفون في مصر الرأي العام المستنير المتطور. ومعرفتهم بالمجتمعات الراقية في أوربا وأميركا يجعل وجدانهم بمساوىء مجتمعنا عميقاً موجعاً. وهم لذلك صوت صارخ وسخط لا ينقطع على أحوالنا. ومن هنا الكراهة التي يكتسبون من بعض الفئات الراكدة الجاهلة المستقرة، أولئك الذين لا يدرون أن الرجل المهذب في عصرنا هو الرجل العالمي، والمجتمع المهذَّب هو المجتمع العالمي

ولكي نكوّن رأياً اجتماعياً في مصر يجب ان تجد هذه الطبقة المستنيرة في الأمة الحرية في الدعاية الاجتماعية، كما يجب على افرادها ان يحسوا مسؤوليتهم الشاقة السامية وينشطوا إلى انجاز التزاماتهم، ويجب ان يكون لهم اثر في الجريدة والمجلة والكتاب والراديوفون والسينماتوغراف والمسرح.

وللتلخيص أقول.

١ — ان الرأي العام هو على الدوام رأي خاص، لانه رأي فئة صغيرة قد حصلت على المعرفة المستنيرة مع القدرة على التعبير. وهذه الفئة الصغيرة تقود جمهور الأمة. وحال التعليم في مصر يجعل هذه الفئة صغيرة جداً.

٢ — الرأي العام الناضج يحتاج الى شيئين: هما المعرفة والحرية. فيجب ألا نضع أية عقبة في سبيلهما.

٣ — الرأي العام يختلف باختلاف المعرفة. لانها هي المادة الأولية التي يتألف منها الرأي. فالرأي الذي يرتئيه خريج الأزهر لا شك مختلف عن الرأي الذي يرتئيه خريج جامعة فؤاد، لأن المعرفة مختلفة.

٤ — إذا كان الاختلاف بين أقلية وأكثرية فهو مفيد،لأنه لايشل الأكثرية عن العمل ولكنه ينبهها ويحفزها . فإن الاختلاف بين طبقتين متساويتين في العدد والمكانة مضر لأنه يشل الأمة كلها عن الاصلاح . وبخاصة إذا كانت المعرفة التي اوجدت هاتين الطبقتين تختلف في الأصول إحداهما شرقية تقليدية،والأخرى عصرية علمية . لأن التصادم هنا مرجح والتسوية شاقة .

٥ — كثير من متاعبنا في مصر يعود إلى أننا نقول شرق وغرب . وذلك الصعيدي الذي يستنكر استخدام بنته أو أخته أو زوجته ويكلف نفسه اطعامهن مع عجزه ، انما يلتزم ثقافة شرقية لم تعد تليق بالعصر الحديث . ومهمة الطبقة التي حصلت على المعرفة والتي تنشد في مصر مجتمعاً علمياً ، هي مكافحة هذه الثقافة.

٦ — تكوين الرأي العام السياسي أسهل من تكوين الرأي العام الاجتماعي، لأن الأمة تلتزم عادات اجتماعية كأنها شعائر دينية يصعب عليها تركها . ولذلك نحتاج في إيجاد رأي عام حسن، أن نغرس عقائد جديدة .

٧ — المجتمع العلمي الذي ننشده هو المجتمع العالمي الذي يسير مع الأمم المتمدنة في الرقي الاجتماعي ، وهو في عصرنا مجتمع أوروبا وأميركا ولذلك يجب أن تكون هذه وجهتنا كما كانت وجهة اسماعيل باشا وقاسم أمين .

٨ — لقد انضممنا الى ميثاق الاطلنطي . وهو ميثاق أكثره سياسي وأقله اجتماعي. فيجب أن ننضم أيضاً الى الحريات الاربع، لأن بعضها يحمل كفالات اجتماعية كبيرة القيمة. واتجاهنا هذا هو اتجاه علمي وعالمي معاً .

وكان يمكنني بدلاً من هذا التلخيص، بل بدلاً من هذه المقالة كلها ، أن أوجز فأقول إن الغاية الأولى والأخيرة من تكوين رأي عام اجتماعي أن يؤدي هذا الرأي في النهاية الى ما نسميه « المجتمع العلمي » الذي تستغل فيه المواهب البشرية والطبيعية بشكل يمنع التبذير والضياع : تبذير الصحة والذهن وضياع الثروة .

ونحن نصف المعارف الدقيقة التي ينتفي منها الخطأ بأنها « علمية » فالمجتمع العلمي هو المجتمع الذي يقوم على المعارف الدقيقة . ولا يمكن أن نحصل على هذه المعارف إلا مع الحرية التامة .

فلكي نكوّن رأياً عامًّا اجتماعيًّا، نحتاج إلى جمع المعارف، ثم الى حرية الاستنتاج كما هو الشأن في العلوم الجيولوجية او البيولوجية او الكيميائية .

سلامه موسى



جنة الشوك (*)

نوّهنا بهذا الكتاب في عدد المقتطف السابق ووعدنا بنقده وتقديره التقدير اللائق به وبمؤلفه . والحقيقة ان الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير . أما من حيث الأسلوب فهو أسلوب الدكتور طه حسين حيث ينطلق بعض الأحيان انطلاق السهم إذا صدر عن عقيدة ، فان صدر عن تعمل تعثر ومضى يترنح ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة ، فيشعرك بأنه يتعمل وأنه يريد أن يصل الى غرض يحاول أن يخفيه محاذراً أن يُسبين ، يقظاً لئلاّ تنم عن غرضه كلمة أو عبارة ، فاذا اجتاز هذه المرحلة الشاقة العسيرة التي قد تشعرك أن أنفاسه كادت تنقطع فيها ، انطلق مرة أخرى انطلاق السهم ، فهو يفرض على نفسه هذه العبودية بعض الزمن ،حتى إذا ضاق بها ذرعاً خانته الارادة وضاق صدره بما فرض على نفسه من تلك القيود ، فانفجر كأنما هو حبيس انفرجت عن نفسه أعواد حديدية كانت تكبت مشاعرها وأهواءها ، فراح يمرح في رحاب الحرية ، فلا يلبث أن يظهرك على ما حاول أن يخفي في نفسه، والطبع مبديه .

وليس هذا الكتاب نسيجاً وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير ، بل هو نسيج وحده بين كتب الدكتور طه حسين . فهو من حيث أنه أدب شيء جديد ، ومن حيث أنه سياسة أسلوب رمزي يغشى عليه الغموض وتضارب المعاني بعض الأحيان،ويفلت منه زمام الرمزية أحياناً أخر،فيظهر مكشوفاً مفضوح الأغراض . ومن حيث أنه تهكم سبيل قد يقود بعض الشباب أو الكثير منهم ، وهم الذين يتملقهم المؤلف في القدمة ، الى مزالق وعرة وإلى اتجاهات خلقية أراد المؤلف أن يحاربها فلم تمكنه الرمزية التي ساق فيها عباراته من اظهار غرضه ، فساق القول بحيث يظهر أنه يؤيد الناحية التي حاول أن ينفيها ، والقادرون من شباب هذا الجيل على استخلاص المعاني المستترة قلائل ، بعد أن غمرتهم موجات الأدب الأصفر المعروف . ومن حيث انه اجتماع فيه دعوة قوية الى الاشتراكية وتوقع الفورات

(*) من مطبوعات دار المعارف للطباعة والنشر تأليف الدكتور طه حسين ٢١٦ صفحة من القطع الصغير

المحطمة . ومن حيث أنه خطة فيه بشارة سافرة بحرب الطبقات . ومن حيث انه هجاء، رجرجة في بعض المواضع كأنه الزئبق ، وصارم صافي الحديدة كأنه الشعاع في مواضع أخرى.رجرجة اذا حاول ان يساوم ، وصارم إذا أراد أن يبيع بيع السماح .

***

أما ناحية الأدب في هذا الكتاب فلا تخرج عن أنها تجديد في الصورة والوضع . أما الأسلوب فشائع عند العامة في أمثالهم وأقوالهم واشاراتهم الخفيـة ، إذا أرادوا أن يغمضوا ولا يبينوا . ويكفي أن يوفق الأديب الى الابتكار في الصورة وفي الوضع . فان هذا في الواقع لهو الابتكار بعينه . أما القول بأن الابتكار خلق من العدم فإفراط هو في الحقيقة بُعد عن كل انصاف.

أنظر كيف يقول في السياسة : ان فلاناً يطلب الجلاء السريع بعد الحرب ، وانه يطلب هذا حتى يلي الحكم أو يشارك فيه (ص ٦٣) الساسة عندنا يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع (ص ٦٥) للضرورات أحكامها ، والرجوع الى الباطل أنفع وأجدى من التمادي في الحق ص (٨٩) لِمَ تسند عظائم الأمور الى قوم لا يعقلونها ، ولا يقدرون على النهوض بها، ولا بأيسر منها ؟ لأن السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعد (ص ١٠٣) أيُّ وعود الرجال أشبه بوعود النساء ؟ وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم (ص ١٢٨) . قال لبيد (ص ١٥٣) .

ذهب الذين يُـعاش في أكنافهم وبقيت في خَـلْـفٍ كجلد الأجرب

فلى من يرمز المؤلف ؟ من الذين ذهبوا وكان يعاش في أكنافهم ، ومن الذين بقوا وهم كجلد الأجرب ؟ لا ندري ! فقدتقلب المؤلف بين جميع الأحزاب السياسية عملاً بحكمته (الضرورات تبيح المحظورات : ص ٣٤) .

تخيل المؤلف رئيس عصابة فرّق أصحابه للسطو فعاد كل منهم بحصة تختلف عن حصة صاحبه من المسروقات ، وأراد أصحـاب القلـة أن يساووا أصحاب الـكثرة في القسمة ، وهمَّ اللصوص أن يجادلوا الرئيس ، فاضطرهم الى الصمت والاذعان، لأنه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره الى الشرطة (ص ١٦٥) .... ندرك هنا أن الشرطة مرموز بها إلى الشعب المسروق ، أما من هم اللصوص ؟ فالمؤلف ولا شك أعرف الناس بهم . أهم القلة والـكثرة جميعاً !

فلان يتملق حزب الـكثرة وحزب القلة جميعاً ! لماذا ؟ لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتـاجان اليه (ص ١٨٨) فمن هوذا ؟ نتخيل ، ولنا الحق أن نتخيـَّل، أنه كاتب

يتصل بالعوام . أما الاسم فعند رمزية الأستاذ المؤلف ، وهو بالطبع أعرف النــاس به أيضاً .

اترك السياســة وانظره كيف يقول في التهكــم : أدّبتنا الحيــاة بأن الضرورات تبيح المحظورات (ص ٣٤) ونحن لا ندري أي ضرب من ضروب الحيــاة أدبنا هذا الأدب الا حياة الوصولية والانتهازية . وهو ضرب من الأخلاق أجاد المؤلف وصفه في الكتاب كأنه به خبير .

وثب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشــمال . لماذا ؟ لأنه يئس من رضا الحكام فابتغى رضا الشعب ! ذلك بالرغم من أنه يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس ! فان مُــدّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى اليمين ، فوثبة أخرى تردّه من رضا الحكام إلى ما يريد . وما دام الانسان قادراً على أن يذهب ويجيء ، فلا جنــاح عليه في أن يذهب ويجيء . أما المبدأ فوسيلة لا غاية (ص ٦٤) ..... وفي هذا عبارة تدل على أنه يعني شخصاً أو أشخاصاً من الحزب الوطني ، وأكبر الظن أن طه حسين آخر من ينبغي له أن يحملق في هؤلاء .

الحياة قد علمتنا أن الضرروات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجفو من جفاه السلطان . فقد تصدّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنّــى (ص ٧٤) ويقول إن طريق الرقي في مناصب الدولة إسداء الثناء إلى غير الاكفــاء ، وإهداء الهجاء إلى ذوي الغَــنَــاء ، وقذف المحصنات والخوض في الأعراض بغير الحق (ولست أدري متى كان الخوض في الأعراض حقّــا) وجفوة الصديق وخيانة الخليل (ص ١٠٧) ... قرأت فيما قرأت من شعر كاتول (شاعر روماني رسم اسمه الحقيقي قاطُلّــس) مقطوعة يهيّــيء فيهــا نفسه للموت ، بل يحث فيها نفسه على الموت ، لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رَقِــيَــا إلى منصب القنصل . فأعجبتني سخريته اللاذعة ، كما أعجبني قول الشاعر العربي .

تأهّــبوا للحَــدَثِ النازلِ قد قُــرِىء الشعر على كامِــلِ (ص ١٤٢)

وكامِلٌ هذا ، على ما يظهر ، إنسان أنعم عليه برتبة ومنصب علمي خطير ، فعد المؤلف هذا حدَثاً نازلاً ينبغي أن يتأهب الناس لدفعه ، لأن « كامِلا » إذا أصبح منصوراً ، ففي ذلك ضياع لفهمي وفهم المؤلف وفهم الناس . ولا شك أن ذلك يكون من « الحدَث الــكبار » كما يقول بشّــار .

إذا صُــرف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر في النــاس جميعاً . فاذا رُدّ اليه أطلق

لسانه بالثناء على الناس جميعاً . لأنه يسخط فلا يقول الآ شراً ، ويرضى فلا يقول الآ خيراً ، وقد حيل بينه وبين خير الأمور ، وخير الأمور أوسطها (ص ١٧٥) ..... وهذا الضرب من التهكم غث ولا شبهة . فان محصله إنك إذا توسطت في القدح والثناء ، بحق وبغير حق بالضرورة ، كنت في خير الأمور . وليس في هذا خير على اطلاق القول . ومن هذا وأمثاله مما نقلنا عن الكتاب ، ترى ان ناحية التهكم فيه مضت في صورة نصائح خطيرة النتائج شديدة الأثر في الأخلاق .

وفي الكتاب نزعة اشتراكية وتوقع لخطوب اجتماعية جسام وفورات محطمة تحرق الاخضر واليابس وتأتي على النائم والقائم . يقول : أعرف أوعية لا تمتلىء وآنية لا تفيض ، هي خزائن الأغنياء وعقول العلماء وجهنم ! ولكن أناءً واحداً قد يفيض فيصبح مضرباً للامثال ، ومصدراً للعبر وبعيد الأثر في حياة الأجيال . ألا تذكر سيل العَرِم (ص ٣٠/٣١) أما السيل فهو الشعب الثائر ، وأما العرم فقوة الثورة الاجتماعية المحطمة .

قال المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها فقد بشمن وما تفنى العناقيد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البَشَم فلا يزيدها الآ نهماً ، كأن بطونها تلك الآنية التي أشارت إليها الأساطير اليونانية والتي ليس إلى ملئها سبيل . أما النواطير فسل المتنبي عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب . وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً بل قل أن الشعب يقظان نائم . يقظان لأنه يعمل وينتج ، ونائم لأنه لا يحمي ثمار عمله من هذه الثعالب (ص ١٣٦) .... وفي هذا تصوير رائع لتفاضل الطبقات ، كأنما هو يقول أيها النواطير (التي هي الشعب) تنبهي للثعالب التي تنهشك فذوديها عن ثمراتك . وإذا أردت المزيد من هذا فانظر ص ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . ولكن إذا أردت أن تلمس الدعوة إلى أشياء وأشياء فاقرأ ما كتب تحت عنوان « رعيَّة » (ص ٩٣) ان الشعب سيد نفسه وانه مصدر السلطات (حسن) وانه بذلك هو الراعي وهو الرعيَّة (أحسن) بذلك يحدثهُ الدستور ، وهو ان لم يصدق الدستور اليوم ، فقد يصدق غداً . واقرأ في (ص ١٩٤) : ما دام في الأرض سادة يملكون مئات الألوف ، وخَدم لا يملكون شيئاً وفرص للهو ينفق فيها المال ، فكل العصور واحدة وان طال الزمن .

وفي الكتاب هجاء يعتقد المؤلف أنه أشد فنون الأدب ملاءمة لعصر الانتقال الذي نحن فيه (وعسى أن لا يضيق بالهجاء ذرعاً إذا كان صادق العقيدة في ذلك) .

ومن أمثلة الهجاء أن فلاناً يرى نفسه حاكماً بالطبع (ص ٧٩)، الصفوة الممتازة من المثقفين

تكرم كاتباً يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب (ص ٨٥) فلان قاطع الناس غير واحد منهم ، فلعله ينتظر منه نفعاً فهو يستبقيه حتى يبلغ آخر ما عنده ، ثم يلحق بالآخرين (ص ١١٦) ، عصر الانتقال : أشد فنون الأدب له ملاءمة فن الهجاء (ص ١٢٥) ، من الوزراء من يتخذون زينة (ص ١٢٧) ويقصد المؤلف انهم كالأشياء الأليفة وإصص الزهور والخزف القديم مثلاً . فلان يخلـط في كتابه عن حياة النبي (صلعم) تخليطاً شديداً ، لأنه عرض لما لا يحسن من الأمر ، وقال فيه بغير علم (١٣٠) ولعله يرمز الى صديق قديم قارضه الثناء ، أو بالحري انهما تقارضا الثناء على صفحات الجرائد زمناً ، فلما وصلا تدابرا ، ولم يبق أحدهما على صاحبه عندما فرغت الجعبة ، وقول المؤلف في عبارة « نفع » ص ١١٦ خير ما يقرأ ختاماً لصداقتهما ، وانظر قوله : شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى ، هو شعب ناهض يسعى الى المجد بخطو سريع !! (ص ١٥٦) أما المؤلف فليس من الشبان وليس من الشيوخ ، فهو الذي يقول «أنا» إذا سأل سائل : « أليس منكم رجل رشيد » . ومزكي نفسه يقرئك السلام

وقد يتفق للمؤلف ان يحاول رسم صورة لشخص فيزل ، وإذا به يصور نفسه . . وإذا شئت من ذلك شيئاً فاقرأ «وصول» (ص ٣٧) ، واقرأ «غيره» ص (٩٥) ، فان المؤلف في هذه المقطوعة «خاصة» قد نم عن نفسه بجلاء . فانها تدل على انفعال ذاتي ، لا انفعال موضوعي . والانفعال الموضوعي انفعال يقوم برواية أو خبر نتلقاه ، أما الذاتي فهو ذلك الذي يصوره المؤلف . ودليلنا على ذلك كما أسلفنا مقطوعة «وصول» ص ٣٧ واليك هي :

« لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى صار شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرة ملتوية ، يغمرها ضوء الشمس من وراء نقاب من السحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلام قاتم فاحم في كثير من أجزائها . فلما ارتقى الى القمة واطمأن في مكانه منها ، نسي ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ، وعاش ليومه الذي هو فيه» .

« نسي الماضي فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل فلم يتحفظ ، ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس، فلم يأمن إلى أحد ، وإذا هو مضطر الى أن يظهر الحب لقوم يبغضهم أشد البغض ، وإذا الناس من حوله مضطرون إلى أن يظهروا له حباً متهالكاً وليضمروا له بغضاً مهلكاً ، واذا الاسباب بينه وبين الناس ترث ، حتى ان أيسر الأمر لينتهي بها الى الانقطاع » .

«قال الفتى لاستاذه : لقد سمعت منك، ولكني لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثني بالألغاز منذ حين ، فماذا تعني وإلام تريد ؟

« قال الشيخ : إن حب الاستطلاع إن نفع في بعض الوقت فقد يضر في بعضه الآخر . وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هي مرايا تنتصب للناس ، فلينظر فيها من يشاء ، وليُعرض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها . فقد ينظر فيها من يحب الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى ، لأنه يرى نفسه » . انتهى «وصول»

قال دمنة : كان صاحب هذه الصورة حرًّا دستوريًّا ، فشنَّ غارة شعواء على سعد وصحبه من الوفديين في جريدة اسمها « مصر » ، وأخذ الدستوريون يؤيدونه ، حتى إن رئيس وزارة منهم أحدث أزمة سياسية أمام مجلس النواب ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصعَّد في طريق وعرة ملتوية ، فلما علم أنه تسنم أعلى ما يمكن أن يصعدوه من الدرجات، انكفأ إلى أصحاب سعد من الوفديين ، وشنَّ غارته الشعواء على الدستوريين عندما شعر بأنه ليس لديهم درجات يصعدها، وأمعن في ذلك حتى لقد همَّ بان يطعن أحدهم، وهو له أستاذ وكفيل وناصح ، عند ما استقال من الجامعة احتجاجاً على وزارة أرادت أن تسلب استقلال الجامعة ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصعَّد في طريق وعرة ملتوية . استغفر الله ، انه لم يهم فقط بطعن أستاذه وكفيله ، بل لقد طعنه بالفعل . ثم ارتد الى الأحرار الدستوريين بعض الزمن لما وجد عندهم درجات يصعِّد فيها ، ثم رجع إلى أنصار سعد ، لما فرغت درجات أصحابه الأوَّلين .

ما هذه المرآة ؟ هي إحدى المرايا التي يطل فيها المؤلف ، فيرى صورة نفسه . وما هو الحافز المستتر وراء هذا التغاضي المتبادل بين الناحيتين ، ناحية حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ، وفلان هذا ؟ الحافز أنه يحتاج الى الحزبين ، وأن الحزبين يحتاجان إليه (ص ١٨٨) ها هو ذا مفتاح نفسه . أستغفر الله ثانيةً ، بل وقُفل نفسه أيضاً.

وفي الكتاب مواضع للنقد من حيث الاسلوب ومن حيث التفكير . أما في مجموعه فعمل أدبي يحفز الى تحريك الفكر . وجدير بجهد أدبي يحرك الفكر ، ان يكون له أثره الثابت في الحياة .

جملة القول أن طه حسين قد أعطى بذلك الكتاب مفتاح نفسه ، فاقرأه فيه رمزاً وحقيقة ، وأبين ما تقرأه فيه إذا ضاق صدره بالرموز، فانه حينذاك يُسفر، فتتضح ملامحه. ولله الحمد فقد عرفنا انه اشتراكي ولم نكن نعرف ذلك ، وعرفنا انه يعتقد ان الهجو أدب عصور الانتقال .

المـــاء

الماء هو العنصر الثاني الضروري للحياة بعد الهواء . فالانسان يستطيع أن يعيش بغير طعام عدة أيام . ولكنه لا يمكنه أن يبقى في الحياة بغير الماء إلا ساعات معدودات .

وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه المنزل الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » لأن حوالي ٨٠ ٪ من تركيب الكائنات الحية على اختلاف أنواعها يتكون منه . والانسان أول هذه الكائنات ، فالماء يكون الجزء الأكبر من تركيب أنسجته ودمه وافرازات غدده المختلفة

وماء الجسم يستعمل دائما في اتمام وظائفه الفسيولوجية . فهو يخرج من الجلد عرقاً ، ومن الكليتين بولا ، ومن الرئتين بخار ماء ، ومن الغدد افرازات مختلفة . كما انه يستعمل في عمليات الهضم من بدء افراز اللعاب على الطعام ، الى انصباب العصارات المعدية على الكتلة الغذائية ، الى التمثيل الغذائي ، ثم نقل الدم والغذاء لأنسجة الجسم المختلفة ، وأيضاً في عملية اخراج فضلات الطعام .

وينبغي أن يعوض هذا الماء المستعمل في وظائف الجسم ، وإلا نقصت نسبة الماء فيه ، فتتعطل وظائفه الحيوية ، أو تتم على وجه ناقص مبتور ، يترتب عليه ضعف الجسم في أجهزته المختلفة . وما الجسم الذي لا يمد بحاجته من الماء ، إلا كتربة جافة ينقصها الرواء .

وفئة كثيرة من الناس لا تمد أجسامها بالماء الضروري لها . فيصابون بفقر الدم . لأن قلة الماء معناه قلة الدم ، كما يصابون بالامساك لأن الامساك سببه الاحتياج الى الماء ، وتمتقع ألوانهم وتضعف أعصابهم ، وتنبعث من أفواههم رائحة كريهة . وتنقص افرازات غددهم الحيوية كاللعاب والمرارة والبنكرياس والعصارة المعدية وغيرها . ويحتاج الانسان الى اثني عشر كوباً من الماء كل يوم على الأقل لتعويض ما يفقده الجسم في اتمام وظائفه المختلفة . والماء أعظم منق للدم . وهو يمنع تراكم المواد الضارة بالقولون ، ويحفظ الجهاز الهضمي وكذا الأجهزة الأخرى من الجسم صحيحة نظيفة ، مما يكسبها مناعة ضد فتك الجراثيم وعبثها .

« فاشرب الماء بشره ولا تأكل بشره » وهذا نصح كريم فاه به الرسول صلوات الله عليه في حديث شريف له . وخير نظام لشرب الماء أن تتبع فيه الطريقة الآتية : —

١ — بعد الاستيقاظ من النوم صباحاً اشرب بقدر ما تستطيع بعد أن تغسل أسنانك .

٢ — لا تشرب على الأكل ، حتى لا تغسل طعامك ، ولكن بعده بثلاث ساعات اشرب ما شئت من الماء القراح .

٣ — انقطع عن شرب الماء قبل الأكل بنصف ساعة ، حتى تعد الجهاز الهضمي للاحساس الطبيعي بالجوع .

٤ — اشرب كمية قليلة جداً من الماء في نهاية الأكل ، حتى تلين الكتلة الغذائية .

٥ — اذا شربت الماء مصه كما يشرب الطفل لبن أمه . واحفظ الماء قليلا في فمك وأنت تشربه .

٦ — اشرب بكثرة ، ولكن كميات قليلة في كل مرة ، وضع في محل عملك ، أو على مكتبك ابريق ماء واشرب كوباً منه بين الفينة والأخرى ، وعود نفسك أن تشرب دون أن تحس العطش

٧ — اشرب قدحاً من الماء قبل أن تنام .

اتبع هذا النظام شتاء وصيفاً ، فلا يصيبك على الاطلاق تصلب في الشرايين ، ولا ضغط في الدم ، ولا املاح ، ولا حصوات في الكلى ، أو في غيرها ، ولا امساك ، وما يترتب عليه من أمراض مختلفة عديدة . ولقد سئلت مرة من رجال الصحافة ببلاد الانكليز يوم كنت بها أحاول عبور المانش عن سر صحتي ، فأجبت « انه فن شرب الماء » . فكيف تشرب الماء ، ومتى تشرب به ، فن من فنون الصحة ، فتعلمه مما بينته لك . واذا ذكرت لك الماء كشراب ، فأنا لا أنسى ذكره لك ، كأداة لتنظيف جسمك . فعليك بالوضوء والاستحمام كل يوم ، تعش صحيحا قوياً ، لا تمرض غير مرضة الموت .

فهمي عطا الله



القلب وأمراضه

القلب عضو عضلي موضعه منتصف الصدر ، بين الرئتين ، مائلاً الى اليسار على هيئة مخروط ذروته الى أسفل ومرتكز على الحجاب الحاجز . وهو يعمل عمل مضخة ماصة — كابسة، فيجذب الدم من الاوردة ويدفعه الى الشرايين وينشأ من ذلك صوت يُدرك بالسمع يسمى بضربات القلب التي تكون منتظمة في الحالة الصحية ، وبالعكس في الحالة المرضية .

وعلل القلب او آفاته كثيرة ، عسرة التمييز لما تقتضيه معرفتها كما لا يخفى من العلم الواسع والخبرة الطويلة نظراً الى التغيرات التشريحية التي تطرأ سواء على غشائه الباطن (كالتهاب الشغاف مثلاً) ، أو على غشائه الخارج (التهاب التامور) ، او على عضلة القلب نفسه عند ما يصاب بالالتهاب ايضاً . زد على ذلك أنهُ قد تعتري القلب اضطرابات وظيفية في جهازه العصبي والدوراني دون غيرهما فتسبب المريض الخفقان وذبحة الصدر (ألم الفؤاد) ، ويغلب حدوث هذه الأعراض عادةً في المتقدمين في السن وتتميز بألم حاد ناخس مع عسر شديد في التنفس وضيق لا يوصف ، ويشعر المصاب كأن الموت قد جاءه ، ويدل ذلك غالباً على علة أصلية في القلب .

ولما كانت علل هذا العضو كثيرة كما قلنا وكان المجال قصيراً لسردها هنا بالتفصيل رأينا أن نكتفي بذكر أسبابها الرئيسية مما تهم القراء معرفته مع قطع النظر عن تقسيمها العلمي على اصطلاح الاطباء .

١ — أمراض القلب الخَلْقِية : يشاهد أحياناً في بعض الحالات الموروثة أن العوامل المرضية التي تؤثر في القلب والأوعية الدموية وتظهر في الجنين وهو في بطن أمه تستمر بادية فيه حتى بعد الولادة فيقال لها اذ ذاك خَلْقِية ، ونذكر من هذه الأمراض الخلقية مثلاً الاتصال غير الطبيعي الذي يوجد بين الأذينين . والواقع انه توجد فتحة بين الأذين الأيسر والاذين الأيمن في حياة الجنين تدعى « فتحة بوطال » ، بيد انها تلتحم في الحالة الطبيعية وتنسد قبيل الولادة ولا يبقى قط أي اشتراك بين الأذينين . وهكذا قل عن البطينين : فقد يحدث أحياناً اشتراك بينهما مع عدم نمو الصمامات الموجودة بين كل من الأذين والبطين

المجاور له . أو انه يوجد ايضاً ضيق في فتحة الأوعية الدموية الغليظة عند محل اتصالها بالقلب الخ . غير ان هذه التشويهات الخلقية تعد لحسن الحظ نادرة .

٢ — الوراثة : وهي ان بعض الاشخاص يأتون للعالم ولا يشكون او لا يبدو عليهم ظاهريـا أي مرض من ناحية القلب ، ومع ذلك فقلبهم هذا ليست له تلك المقاومة الموجودة عند الأشخاص الاصحاء السليمين . ولا يقتصر ذلك على القلب فحسب ، بل يتعداه الى الاعضاء الاخرى من الجسم . هذا وتوجد أسر يكون جميع أفرادها مصابين بضعف من ناحية القلب ، واذا تتبعنا الذريات المتعاقبة من هذه الأسر يتضح لنا انه بالرغم من المظاهر الصحية الخارجية التي يتمتع بها أفرادها ، فالجدة والأم والولد، يشكون غالباً اضطرابات قلبية لا يوجد لها سبب او لا يمكن تعليل حدوثها الا للانتقال الوراثي للمرض .

فكما أنه توجد أمراض شتى تنتقل بالاستعداد الوراثي من الوالدين الى الأولاد كالتدرن مثلاً ، والسرطان والداء الخنزيري والداء الزهري والتهاب المفـاصل وعلل الجهاز العصبي (كالصرع والخوريا والفالج والجنون والسكتة) والتشويه الخَلْـقِـي والعمى والصمم والربو والامفيزيما وداء السكر والشيب والصلع وسقوط الاسنان الخ) ، كذلك تكون الحالة ايضاً في أمراض القلب، فيولد الطفل وعنده استعداد لهذه الأمراض ، وقد تشتد وتنمو أعراضها بعوامل وأسباب كثيرة متنوعة وتلعب منذ الطفولة الأولى دوراً سـيئاً في سير أمراض القلب وتجعل قلب السليم عليلاً . ونذكر في الدرجة الأولى بين تلك العوامل والأسـباب الأمراض المعدية .

٣ — الأمراض المعدية : أخص هـذه الأمراض ما له علاقة بموضوع بحثنا اليوم هو الرثية المفصلية الحادة والحمى القرمزية والحمرة وذات الرئة وتسمم الدم . أما البرداء (الملاريا) فانفعال القلب بها على ما يظهر يكون أخف وطأة — بعكس النزلة الوافدة (الانفلونزا) التي تلعب دوراً خطيراً في نموّ أمراض القلب واشـتدادها ، وعدد كبير جدّاً من الأشخاص شوهدوا فعلاً مستهدفين لاضطرابات وعلل قلبية خطيرة نتيجة اصابتهم بهذا الداء الوافدي في عام ١٨٩٢ و ١٩١٨ — ١٩١٩ ، ثم في لندن عام ١٩٢٩ حيث تفشى في بقاع كثيرة من الارض وأودى بحياة اللايين من السكان . ولا يفوتنا كذلك ذكر الذّباح Angina الذي وان كانت تبدو لنا أعراضه سليمة العاقبة، لـكنه كثيراً ما يؤدي الى الاضطرابات القلبية نفسها . والعوامل المرضية التي تحـدث أعراض الأمراض ، وأعني بها الـكروبات المعدية ، تعمل على تسبيب الحمى والالتهاب، وهي إما أن تدخل مباشرةً في الدم وتنتشر فيه وتحدث ظواهر المرض ، أو ان تولد فيـه مادة تسمى بالتوكسين ، أي السم ، فينتشر في الدورة

الدموية ويحدث أعراض المرض أيضاً . ولما كان القلب كما هو معلوم المركز الرئيس لدوران الدم في الجسم وفيه يجب أن تمر كل الكتلة الدموية ، فيكون بطبيعة الأمر متأثراً بسموم تلك الجراثيم والمكروبات ومفاعيلها الضارة تأثراً بليغاً — وهذا ما يؤول الى احداث التهابات وتقلصات والتصاقات وعلى الخصوص في الصمامات، حيث يكون مفعول تلك المكروبات شديداً لدرجة ان هذه الصمامات تغدو غير كافية أو عاجزة عن القيام بعملها كما ينبغي بالدقة المطلوبة مثلما يجب في الحالة الطبيعيـة : أي سدّ فتحات القلب وتأمين سير الدم وانسيابه ومنعه من الرجوع الى الوراء . فضلاً عن ذلك فعضل القلب نفسـه قد يستهدف بدوره للمرض عند ما تحدث تلك الأمراض المعدية في الصغر : ففي هذه الحالة يبقى المصاب مريضاً الى النهاية . ولحسن الحظ ليس لمعظم العلل المذكورة تلك النتائج السيئة على القلب ، حتى الرثية المفصلية (الروماتزم) نفسها تترك القلب غالباً صحيحاً سالماً، بفضل العناية والمداراة والحمية اللازمة .

٤ — اضطرابات القلب من أصل عصبي : يجب أن نذكر هنا ما للسن (من السن السادسة الى سن العشرين) عند الطلاب خلال مدة الدراسة من التأثير السيء أيضاً على وظائف القلب والذي يعودّ منشؤهُ الى الجهاز العصبي ، ويمكن القول هنا ان أسباب هـذه الاضطرابات القلبية هي نفس الاسـباب التي تؤدي الى حدوث العصبية والتهيج والنوراستنيا في تلك السن . وقد يكون للتربية السيئة تأثير يذكر على حياة الطفل العصبية حتى في دور الرضاعة . وهكذا قل عن الاجهاد العقلي السابق لأوانه ، وعدم كفاية النوم ، والافراط في الأكل ولاسيما الاكل الدسم الذي يلقي على القلب والمعدة أعباءً تؤدي الى اختلال الجهاز الهضمي والدورة الدموية . أما عند الشبان والكهول فان الحياة الجلوسية ، واهمال الرياضة البدنية ، ومشقة الاعمال المنهكة ، والطعام غير الكافي والمكوث ساعات طويلة في الكتابة والعزف على البيانو ، والتدخين واحتساء الخمر والسهرات الطويلة المتكررة والاسراف في الشهوات وعلى الخصوص اضطراب البال ، تكون سبباً في احـداث كثير من الامراض العصبية والصدرية والقلبية . وبكلمة واحدة كل ما يُتعب أو يسبب تهيجاً للجهاز العصبي له أبلغ التأثير على القلب وجميع الذين يشكون اضطرابات من هذه الناحية في سن الكبر، يجب ان يُعزى منشؤها الى سن الصغر في غالب الأحيان . ومن النادر أن الامراض المعدية المعوية في هذه السن، يكون لها تأثير يذكر على القلب.

٥ — الرمع (الخلوروس) Chlorose : هو نوع من الأنيميا لهُ بدوره أهمية كبرى في احداث كثير من الاضطرابات القلبيـة وسببهُ تبديل في تركيب الدم وأعني بذلك نقص

مقدار الهموغلوبين (اليَحْمُور : وهي المادة الملونة للدم) الذي تحتويه كريات الدم الحمر ، ويتسبب نقص اليحمور نفسه من نقص الحديد في الدم .

وهذا المرض غالباً ما يصيب النساء وعلى الأخص الفتيات أو الشابات، إما من سوء المعيشة أو من أسباب عامة أو شخصية مضادة للصحة أو من كثرة الحمل وزيادة الإرضاع. وهذه الحالة كثيراً ما تكون مصحوبة باضطراب الطمث . والناظر المصاب يراه شاحب اللون إلى الاخضرار ، مصفرّ الشفتين وملتحم العين الجفني ، ويشعر غالباً بالضعف والتعب وفقد الشهية للطعام وخفقان القلب ودوار الرأس أحياناً . وأغلب ما تشاهد هذه الحالة المرضية عند المعدمات الفقيرات الحال : كالخادمات والعاملات في المصانع والبائعات في المخازن والطاهيات والكوّايات repasseuses الخ . ويحدث أحياناً لحسن الحظ أن تزول هذه الأعراض شيئاً فشيئاً بعد مدة من الزمن باتباع القواعد الصحية وحسن التغذية وتبديل الهواء واستعمال بعض المستحضرات الطبية كالحديد أو الكينا مع الحديد والزرنيخ. وزيت السمك الخ فينال المصاب الشفاء التام

٦ — الاجهاد : ولا يبرح عن الذهن أيضاً ما لبعض الرياضات البدنية في أيامنا هذه من التأثير الفعال على وظائف القلب عند ما تكون هذه الرياضات عنيفة شاقة وبقدر ما تكون الرياضات البدنية مفيدة لذيذة جذابة (كالركض والمشي بسرعة والسباحة وتسلق الجبال الخ) عند ما يمارسها الانسان باعتدال ، تكون بالعكس مضرّة ومسبّبة لتضخم القلب وضعفه عند ما يساء استعمالها . ويكفيَ أن يعتري المرء الاجهاد مرة كي يبقى أثر ذلك فيه مدة طويلة من الزمن .

ولا يفوتنا كذلك ما للإفراط في التدخين في وقتنا هذا من التأثير السيء في إحداث مثل هذه الاضطرابات ، ولا سيما اذا قورن بضروب الملذات الأخرى في الشبيبة والانهماك في الرغبات الجنسية .

فقد أحصى العلماء ١٩ نوعاً من السم في الدخان وكل نوع منها له مفعول قتّال، ولا سيما النيكوتين وأوكسيد الكربون وحامض البروسيك والبيريدين . فهي سموم مفسدة للقلب وهادمة للصحة ، مضعفة للارادة مخدرة للاعصاب ، مسبّبة لأمراض الحلق والصدر ومساعدة على الاصابة بالسل . وبالاجمال نقول إنها تقتل حيوية الانسان وتقلل من مقاومته للأمراض .

وتأتي أيضاً في دورَي الشبيبة والكهولة عوامل أخرى تؤثر بدورها في إحداث أمراض القلب أو اضطراباته ، ومَصْدَرُها المشقة التي يعانيها الانسان في مكافحة صعوبات الحياة ،

والمسؤوليات الكثيرة ، والاضطرابات ، والهموم اليومية ، وارتفاع تكاليف الحياة ، وازدياد المنافسة مع تناقص الدخل الذي يضطر الرجال أن يُقبلوا على العمل المضني بكلياتهم خوفاً مما يخبؤه المستقبل علاوة على ذلك : كثرة التفكير في الامور المالية للحصول على الذهب خصوصاً عند الذين تهمهم أسعار البورصة ، ثم المجازفات التجارية الجامحة التي تؤدي الى الاجهاد العقلي وانشغال الفكر . فهذه كلها لها تأثير فعال أيضاً على حالة القلب العصبية . وفي غالب الأحيان تكون هذه العوامل مجتمعة . فبعض الأشخاص مثلاً يضاف الى أتعابهم الجسمية المنهكة ، الافراط في تناول المشروبات الكحولية . والبعض الآخر ، وهم الذين تكون حالتهم العقلية متوترة بالمسؤوليات الكبرى والاضطرابات المستمرة ، يضاف إليها الاسراف في الملذات والشهوات الجنسية .

وأخيراً قد تتسبب أمراض القلب من إجهاد الجسم ولو مرة واحدة عندما يقوم بعض الاشخاص فجأة بتمارين رياضية دون أن يكونوا معتادين عليها أو ممارسين لها : كتسلق الجبال والجولات الطويلة وما شابه ذلك من الرياضات التي تتطلب مجهودات عضلية عنيفة فوق الطاقة .

٧ — المشروبات الكحولية : لا يخفى ما لتأثير هذه المشروبات في الجسم واضرارها بصحة الانسان . فقد أجمع رأي المدققين من جماهير الأطباء والحكماء وعلماء الاجتماع من ذوي العقول السليمة والآراء الصائبة على مضار المسكرات جسماً وعقلاً ، بتركها مدمني هذه المشروبات فريسة لجيوش العلل والأسقام كأمراض القلب والدماغ والمعدة والكبد والصدر وحالات سوء الهضم والهزال والجنون والخمول والبله والبلادة والشلل وغير ذلك من الآفات والاضطرابات . و « القوة » التي يعتقد بعضهم انها تأتي من تعاطي المشروبات الروحية ليست إلاّ وهماً خداعاً . وقد اتضح بالتجارب العديدة ان شارب الخمر أقل من غيره اقتداراً وكفاءة على الاستمرار على العمل لما يعتريه من الخمول والانحطاط في القوى والميل الى التشرد ومخالفة الأوامر وفقدان قوة المقاومة وجعل الجسم أشد قبولاً للامراض الوبائية . عدا ذلك فقلب شارب الخمر يكون أسرع في دقاته ويزيد مقدار الدم المقذوف في وقت معلوم ، وهذا يسبب تعب القلب .

وقد أبدت التقارير الموثوق بها ان للجعة (البيرة) بصورة خاصة ، إذا أكثر الانسان من تعاطيها ، أسوأ التأثير على القلب وتحدث فيه اضطرابات أشد مفعولاً من مفعول الخمر والكحول .

٨ — السن : لتقدم السن ، ولاسيما الشيخوخة ، تأثير مهم أيضاً في احداث الاضطرابات

القلبية المشار اليها حتى عند الأشخاص الذين عاشوا عيشة منتظمة ولم يجهدوا قلبهم بشغل فوق طاقته . أما منشأ هذه الاضطرابات فهو تصلب الشرايين الذي يصيب القلب ولاسيما الشرايين ، فتضعف هذه الأوعية الدموية شيئاً فشيئاً وتفقد نعومتها ومرونتها ثم تخترقها بعدئذٍ الأملاح الكلسية فتصير صلبة . وفي الدور المتقدم من المرض يمتد ترسيب الجير ليس إلى جدران الأوعية فحسب بل وأيضاً الى الأغشية المبطنة للقلب . والأضرار التي تحدثها هذه الحالة تجعل الشرايين أخيراً سريعة العطب والانكسار وقابلة للانفجار . أو أن تصاب جدرانها بالسماكة والتصلب لدرجة يتعذر مرور الدم فيها — الأمر الذي يترتب عليه أضرار بليغة واضطرابات خطيرة، غالباً ما تؤدي الى الوفاة.

ومجمل القول ان القسم الأعظم من أمراض القلب واضطرابات الدورة الدموية التي تحدث في النصف الثاني من حياة الانسان، يكون مرتبطاً بتصلب الشرايين .

***

أنواع أمراض القلب وتشخيصها

بعد ان بينا في ما سبق من الأسباب الرئيسة لاضطرابات القلب او أمراضه بقي علينا ان نذكر هنا أنواع هذه الأمراض وتشخيصها . وهذه الأنواع كثيرة متعددة لا يتسع المجال هنا لشرحها بالتفصيل ولذا نكتفي بذكر أهمها وهي : تضخم القلب . التهاب الشغاف (باطن القلب) وعلى الخصوص التهاب الصمامات . تمدد القلب. حؤول (أو تنكُّس) القلب الشحمي Dégénérescene graisseuse . التهابات عضلة القلب الحادة والزمنة. التهاب التامور (غشاء القلب الظاهر) ثم أمراض القلب الناشئة من أصل عصبي .

ولننظر الآن في ما يختص بتشخيص أمراض القلب وتعيين محل علله وماهيتها وأصلها وتمييزها الخ . فهذا كله لا يتأتى الاّ بعد البحث الوافي والاعتناء والتروي . ولما كانت معرفة ذلك تابعة بالكلية لتمييز المرض أولاً ، كان التشخيص في المقام الأول من واجبات الطبيب ومداراً لمداواة المريض، والتصرف مع أهله الذين يريدون استعلام العلة ومدتها وعواقبها . وللاطباء كما هو معلوم طرق خاصة لمعرفة أمراض القلب نذكر منها اولاً : « الطرْق » أو « القرْع » percussion الذي ابتكره الطبيب النمسوي Avenbrugger في عام ١٧٦١ فرأى أهميته وفوائده وعمل على تعميمه فانتشر استعماله في المانيا بواسطة Skoda وتلامذته،

ثم انتشر بعدها في فرنسا بواسطة Laennec و Barth و Roger و Peter و Lasègue و Grancher وغيرهم . وبفضل هذه الطريقة في فحص المريض يمكننا ان نرسم دائرة القلب على الصدر ونعرف تغييرات حجمه مع حالة الأذينين والبطينين . وقد ساعد على تأييد التشخيص بالنظر استعمال أشعة إكس المجهولة في الطب ويكفي لذلك فحص ظل القلب المنعكس على الحاجز écran . أما ما يختص بفحص ضربات القلب بالسماع Stethoscope فهو معروف ولا يحتاج شرحه أيضاً الى تبيان . فقد كان اكتشافه للمرة الأولى في عام ١٨١٩ بواسطة Laennec و Stokes و Skoda و Barth و Bouilland و Trousseau و Potain الذين عمموا استعماله ووصفوه وصفاً مسهباً . فبفضل السماع يمكننا ان نتأكد مما إذا كانت ضربات القلب طبيعية أو غير طبيعية ، أو اننا نسمع بالعكس نفخات أو احتكاكات كما هي الحالة في أمراض الصمامات أو التهاب التامور . فاذا حدثت مثلاً نفخات Souffles بدلاً من « تيك تاك » الطبيعية كان ذلك دليلاً على اصابة الصمامات بالمرض أو على نقص في عملها كما هي الحالة في الاصابة بالتهاب الشغاف (باطن القلب) . فتجاويف القلب التي يجب أن تغلق اغلاقاً محكماً ، يغدو هذا الاغلاق في حالة التهاب الصمامات ، ناقصاً ، فيتبع الدم حينئذٍ مجرى غير طبيعي . وقد تصاب الصمامات أيضاً بالضيق والانكماش على أثر بعض العوامل الالتهابية مما تؤول نتيجته إلى حدوث موجات أو دفعات دموية ، عند كل انقباض في القلب ، ويكون حجم هذه الموجات والدفعات ناقصاً .

* * *

وأخيراً يجب أن نذكر بعض الأعراض عند المصابين بالاضطرابات القلبية مثل الخفقان والتشنج والثقل أو الضغط في منطقة القلب مع الشعور بالألم عند قمته في موازاة حلمة الثدي وهي اضطرابات وظيفية محضة منشؤها جهاز القلب العصبي والدوراني . ومن النادر أن يهتم المريض بمعرفة سبب أو أسباب هذه الاضطرابات ، بل كل ما يهتم به هو أن يعرف كيف ينظم حياته وفقاً لحالته الصحية الراهنة . وربما تطرقنا في مقالنا المقبل الى ذكر التدابير الواقية لاجتناب مثل هذه الاضطرابات القلبية للاسترشاد والعمل بها اتماماً للفائدة .

الدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو : العراق



الاحلام والروح

تحت هذا العنوان قرأت في مقتطف ابريل ١٩٤٥ مقالاً لحضرة الأديب الأستاذ احمد فهمي ابي الخير واستغربت ما فيه من اقوال لا تقف لدى محك العلم الحديث الذي لا يثبت أمامه شيء مما يخرج عن دائرة الطبيعة . والعقل لا يقتنع بأن وراء الطبيعة شيئاً غيرها إذ ليس ثمت ظاهرات تدل على وجود شيء وراءها

يقول الأستاذ ابو الخير : « الانسان في الواقع جسد ونفس وروح »

اما انه جسد فهو (كما قال) ما نرى ونلمس . واما انه نفس وروح، فليس في ظاهراته ما يدل على شيء يسمى نفساً او روحاً . والنفس والروح في لغتنا، لفظان مترادفان لشيء لا نعرف ما هو ، ولا تعريف علمي له ، ولا أدلة حسية على وجوده

على ان الذي نعرفه جيداً ، ويعرفه كل بشر عاقل هو ان الانسان مؤلف من ثلاث مقوّمات : جسد، وحياة، وعقل . اما الجسد فمادة محسوسة بالحواس الخمس لا شك في وجودها . واما الحياة فعمل كيماويّ من اعمال المادة . وهذا العمل يظهر لنا في توالد الاحياء ونموها وموتها وفي تحركها ايضاً . هذه هي ظاهرات الحياة في الانسان والحيوان والنبات . واما العقل فهو ايضاً عمل فسيولوجي من اعمال خليات الدماغ ، وظاهراته التصور والتخيل والتذكر والاستدلال الى غير ذلك مما يسميه علماء العقل « القوى العقلية »[1]

الجسد يرتد بعد الموت الى عناصره الكيميائية التي تؤلف منها . وحركة الحياة تبطل بعد الموت بانحلال الآلة التي كانت تتحرك بها . كما ان سير السيارة يبطل بتلف المحرك وسائر ادوات السيارة . وكذلك العمل العقلي يبطل بطلاناً كلياً بعد الموت بتوقف حركة الحياة في الدماغ . ويمكن ان يتوقف العمل العقلي برهة بتوقف حركة الخليات الدماغية الوقتي : إما بفعل المخدر او المسكر او النوم العميق الذي يرتاح فيه الجهاز العصبي كله من العمل . وليس النوم بالسر

(١) راجع مقال « عالم المجهول » بمقتطف مايو ١٩٤٥

العويص الذي يحتـاج الى تفسير . فا هو إلاّ هـذه الراحة . وأما كيف يحدث ففي كتب الفسيولوجيا تعليل واضح له

غير هذه المقوّمات الثلاث لا نرى في الانسان مقوّماً رابعاً يسمى روحاً او نفساً أو أي اسم آخر . وما طرأت فـكرة الروح على الانسان الاول الاّ لما صـار يرى الاحلام ويتذكرها . فـكان اذا رأى في المنام طيف ابيه الميت ثم تفقده في الصحو في رمسه ولم يجد الاّ جيفة متهدمة ، يحار في فهم هذا الطيف وفي تفسير سره . فـكان يظنه شيئاً موجوداً حقيقة . ولـكنه لا يفهم سره . فسماه روحاً او نفساً . وأخيراً لما نبغ الانسان في العلم ، صار يفهم ان هذا الطيف الذي يراه في الاحلام او في الرؤى التخيلية ،ما هو الاّ خيال من اختراع المخيلة لايخرج عن كونه عملاً من اعمال خليات الدماغ . فعالم الأحلام والأرواح هو في كرة الدماغ وليس في خارجها البتة .

***

نحن نعترف بوجود مادة الجسد لاننا نشعر بها . ونعترف بوجود الحياة لأننا نحس بظاهراتها كالتوالد والنمو والموت، وان كنا لانزال نجهل سر الحياة . ونعترف بوجود العقل لاننا نحس او ندرك أفعاله كالتصور والتذكر والاستدلال الخ . ولـكننا لا نحس بوجود ظاهرات تدلنا على وجود شيء رابع فينا يسمونه روحاً .

ولذلك نسأل الذين يدّعون انهم يستحضرون الأرواح او يحاولون اثبات وجودها — نسألهم ان يخبرونا «ما هي الروح»

لا تستطيع ان تثبت لي وجود شيء قبل أن تخبرني ما هو هذا الشيء الذي تريد أن تقنعني بوجوده .

يقول حضرة الأستاذ ان النفس (او الروح) جسم اثيري مطابق تمام المطابقة للجسد المادي خليةً خليةً . يعني ان للانسان بدنين متداخلين بدن مادي مؤلف من عناصر كيميائية وبدن أثيري مؤلف من الأثير . وبحسب هذا الزعم يمكن أن ينفصل البدنان الواحد عن الآخر: إما بالموت وإمّا في الحياة بظروف خاصة . فمع أي البدنين تذهب الحياة ؟ ومع أيهما يذهب العقل ؟ أم ان كلاًّ من الحياة والعقل ينشطران شطرين بين البدنين .

وما لنا ولهذا التفنيد في الزعم . نسأل الزاعمين ما هي الظاهرات المحسوسة الدالة على وجود بدن اثيري متغلغل في البدن المادي ؟ — لا ظاهرات البتة .

بل قبل التماس الدليل على البدن الأثيري نطالب اثبات وجود الاثير نفسه . الأثير نفسه لا ظاهرات له البتة، تدل على وجوده . وقد حاول احد العلماء الكبار هو ميكلسن اكتشاف

سرعة الاجرام في الاثير بعملية حاذقة . فأخفق . لان العملية اسفرت عن عدم وجود اثير . وكانت عمليته هذه سبباً في اكتشاف اينشطين ناموس النسبية .

وقد افترض علماء القرن الثامن عشر وجود مادة خفيفة لا وزن لها تملأ الفضاء قابلة للتموّج سموها اثيراً ، لكي يعللوا بها بعض ظاهرات الطبيعة . فكون فرض الاثير يسهل تعليل بعض الظاهرات الطبيعية ، لا يثبت وجود الاثير . لانه متى امكن تعليلها بدونه يسقط . ولذلك لما امكن اينشطين وغيره من العلماء ان يفسروا اكثر تلك الظاهرات من غير الاستعانة بالأثير ، قالوا استغنينا عن فرض الأثير .

الأثير مفروض فرضاً ولا برهان حسي عندنا على وجوده . وما دام لا برهان حسي عندنا على وجوده ، فلا قيمة للزعم ان للانسان بدناً اثيريّاً وهو النفس او الروح .

وبناءً على ما تقدم لا قيمة لدعوى بعض الروحانيين انهم استطاعوا تصوير هذه الارواح الاثيرية أو هذه الابدان الاثيرية . ولا قيمة لكل ما يقوله بعض الناس المحسوبين علماء مهما ذكروا له من أدلة وبراهين وما ادعوه من مشاهدات وشواهد وزعموه من رؤى وأحلام ذات شأن . لان الأساس الذي يبنون مزاعمهم عليه وهو الأثير لا وجود له او على الأقل لا اثبات لوجوده . وما تلك المزاعم والرؤى والاحلام الاّ اوهام في الادمغة فقط . واما إذا راموا ان يفرضوا فروضاً ويؤيدوها بدعاوى مشاهدات ورؤى واحلام ، فيمكن اعتبار جميع خرافات العوام السذّج ايضاً مشاهدات تؤيد تلك الفروض وتؤيد ما تشاء من الوف الفروض التي لا نهاية لها .

الانسان يستطيع ان يعلم كل ما يدخل الى دماغه عن طرق مشاعره الخمسة ، وجميع حواسه الباطنة ، ومدركاته العقلية مستمدة من معلومات تلك المشاعر ومستندة اليها . ومشاعره لا تحس الاّ فيما هو من طبائع المادة فقط . لا تحس شيئاً خارجاً عن المادة . وبذلك لا يمكن ان يعرف العقل شيئاً خارجاً عن المادة . فان كان الأثير ضرباً من الهيولى (اصل المادة) مهما كان لطيفاً ، فلا بد من ان تحس به حواسنا ولو بطريقة غير مباشرة كالكهربا والمغنطيسية والجاذبية . وحينئذٍ يقع تحت حكم العقل وتصرف قواه . واذن فالبدن الاثيري بهذا الاعتبار ليس إلاّ مادة قابلة التغير والانحلال والتفكك ، ولا يمكن هذا ان يتصرف تصرفاً مخالفاً لنواميس المادة . فلا يمكن ان يوجد في مكانين في وقت واحد ، ولا يمكن ان يتمرد على الزمان والمكان . فلا يمكن أن يكون في الماضي والمستقبل معاً . ولا يمكن أن يعمل عملاً خارقاً مما ينسب الى الارواح من الخوارق .

نقولا الحداد

مهداة الى محمود تيمور

... الى الوراء

كنت أحسب أني فرغت من تقرير مسألة رواية « أهل الكهف » لمصنفها صديقنا الاستاذ توفيق الحكيم حين قلت ، بعيد ظهورها ، انها مأخوذة عن كتاب اسمه « الالتفات الى الوراء » لمؤلفه ادوارد بيلامي طبعة « توخنتز »

Looking Backward, (١) by Edward Bellamy. Collection of British Authors Tauschnitz Edition, vol. 2690, 1887—1890.

وماكان يخطر لي ببال انك ستقف مني ، بعد سنوات عدة ، لتقول لي انك غير مقتنع بعد ، من صحة ما ذهبت اليه في أمر هذه القصة ، وحجتك في عدم الاقتناع ، انك لم تجد الكتاب الانجليزي في مكاتب القاهرة ! !

أما ان الكتاب موجود او غير موجود في مكاتبنا فهذا امر لا يعنيني ، لأن الناقد ليس مكلفاً باقتناء عشرات من نسخ كل كتاب ينقده أو يستند اليه في نقده يقدمها لكل أديب يطيب له الاطلاع عليها ليتأكد من صدق دعواه ، بل هو مكلف باقامة الدليل . والذي يهمني قبل كل شيء هو معرفة انتشار روح الجد في العمل عند الأدباء ، وميزان الصدق عندهم في التحري والتنقيب توصلاً الى الحقيقة .

تعلم يا صديقي أن السرقات الادبية ، وان تنوعت أوصافها ، تختلف باختلاف أمزجة السارقين ، ولعلّ أفضح السرقات الأدبية تلك التي ينتزعها الأديب من أماكن يتوهم أنها مجهولة ومظان منسية ، فيقدمها على اعتبار أنها من طهي دماغه وعصارة تفكيره ، واليك الآن أدلة مقتطفة من الكتابين للمقارنة بين ما هو وارد في كتاب « الالتفات الى الوراء » وبين رواية « اهل الكهف » .

أفعل ذلك وأنا افرض بحسن نية ، انك قرأت رواية « اهل الكهف » وهكذا بحسن اطلاعك على ملخص وجيز لرواية « الالتفات الى الوراء » لتقبض على طرفي الحبل ، كما يقال ، ولا اقول لسماع كلام الخصمين لأن صديقنا الاستاذ توفيق الحكيم سكت سكوتاً طويلاً على التهمة التي ألصقتها به ولم يدفعها عنه ، ولكنه قال لي مرة انه لم يقرأ كتاب « الالتفات الى الوراء » ؟.

(١) طبع في امريكا حديثاً بطبعة Modern Library No 22

شاب من الأثرياء مصاب بالأرق ينوّم كل ليلة تنويماً مغنطيسيًّا على طريقة اليسماريزم، أحبَّ فتاة واتفق معها على البناء بها، وقبيل حفلة الزواج اشتعلت النار في المنزل الذي كان يسكنه، فأكلت كل شيء فيه ولكنها لم تصل « الى البدروم » الذي اتخذه هذا الشاب مأوًى له لبعده عن الجلبة والضوضاء، وقد ظنَّ ان الرجل مات احتراقاً.

تُـرك البيت المحترق المتهدّم مدة مئة عام أو أزيد، ثم صحت عزيمة جيل من الورثة على اعادة بناء هذا البيت، وعند ما فتح « البدروم » وُجد فيه جثمان ذلك الشاب مسجى في سريره والى جانبه اوراق تدل تواريخها على انصرام مئة عام وأزيد، وان الشاب انما هو نائم نوماً مغنطيسيًّا. هنا تبتدىء حوادث الرواية وتنجلي مواقفها بالمقارنة.

(١) بطل قصة الالتفات الى الوراء ينام مئة عام وأزيد نوماً مغنطيسيًّا ويستيقظ استيقاظاً علميًّا.

وأبطال « اهل الكهف » ينامون ثلاثمائة عام ويستيقظون بفعل ربهم.

(٢) بطلة الالتفات الى الوراء فتاة غنية أحبها فتىً غنيّ كان على أهبة الاقتران بها إلاَّ ان كارثة الحريق التي نزلت ببيته جعلتها تعتقد انه مات فحزنت عليه وارتدت ثياب الحداد مدة أربع عشرة سنة وبعدها تزوجت.

وبطلة اهل الكهف أميرة اعتنقت النصرانية حبًّا بشاب نصراني يعمل في ديوان أبيها الملك الوثني، فلما لجأ الشاب الى الكهف هرباً من فتنة اشترك فيها تلقاء والدها وانقطعت أخباره عن الأميرة، ارتدت المسوح حزناً عليه.

(٣) في رواية أهل الكهف يذهب « يمليخا » بعد يقظته الى أسواق طرسوس ثم يعود فيقص على صاحبيه ما رأى « قلت لكما لا تسألاني اليوم شيئاً » لقد صرتما أنتما أيضاً غريبين عني. أنتما البقية الباقية بعد ان مضى كل شيء كالحلم، آه لو رأيتماني وقد أحاط بي الناس في ثياب غريبة مختلفة على وجوههم ملامح غريبة » وقال أيضاً « وان كنتما لا تحسّان بعد بالهرم، فاني بدأت أحس بوقر ثلاثمائة عام ترزح تحتها نفسي »

ينسل بطل الالتفات إلى الوراء من البيت. فيذهب الى المدينة، يتنقل من شارع إلى شارع، فيجد انقلاباً عظيماً في الأشخاص والأشياء وفي طبائعها أيضاً فيعود إلى البيت وهو على حال من الاضطراب والغمّ، يقلّبه الواقع بين كفيّ التعقل والخبل، القناعة والشدة، اليقظة والحلم، وتعاوده آلام السنين المئة والأربع عشرة التي نامها فباعدت بينه وبين الجيل الحاضر: يحسّ انه مخلوق كباقي الناس غير انه يختلف عنهم بازدواج الشخصية ازدواجاً متناقضاً، ويشعر انه يحمل ثقل قرن كامل

(٤) في رواية أهل الكهف يصرخ « هرموش » في وجه صاحبه قائلاً « كني هراء ، ولدي قد مات ولا شيء يربطني بهذا العالم ، هذه الحياة الجديدة لا مكان لي فيها » فيجيبه صديقه قائلاً بعد حوار « لا تفكر في هذا ، عدْ كما كنت أمس ، واسخر مما تسمع ، هاته الأعوام الثلاثمائة إن هي إلاّ كلمات وأعداد وأرقام ، ماذا تستطيع الأرقام أن تغيّر من احساسك بالحياة » .

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يعود بطل القصة الى « البدروم » يجيل الطرف في نواحيه فيناجي نفسه قائلاً :هاهو ذا مكاني الوحيد، هاهو ذا المكان الذي احتواني قبل مئة عام فلا بق فيه إلى الأبد ، لقد مات الماضي ، ولم يعد لي مكان ولا معنى في الوجود ، لا أنا ميت مع الأموات ولا حي مع الأحياء

(٥) في رواية أهل الكهف يودع « مشلينا » الأميرة «بريسكا» الوداع الأخير قائلاً : « الآن أرى مصيبتي وأحس بعظم ما نالني ، لا يرموش ولا يمليخا » . رزئا بمثل هذا ، إن بيني وبينك خطوة ، بيني وبينك شبه ليلة ، والليلة أجيال (كذا) أمدّ يدي إليك وأنا أراكِ حية أمامي فيحول بيننا كائن جبار عجيب هو التاريخ».

وفي قصة الالتفات إلى الوراء يدور حوار بين بطل الرواية وبطلتها يقول الأول فيه « إني لأشعر بالوحشة الجاثمة على صدري . أليس موقفي من الحياة أشد وأعجب من موقف أي إنسان على الأرض ؟ موقف تُشل الألفاظ وتُفلج الكلمات في وصفه ، فلمَ لا أكون مستوحشاً ومتهجناً كل شيء حتى وجودي ونفسي أيضاً » ويقول لها « إن لطفك ودعتك وحنانك تكاد تنسيني حقيقة الأمر الواقع . وتكاد توهمني ان في طوقي الاندماج في جيلكم ونسيان الكائن التاريخي العجيب فأكون مثلكم أشعر بمثل ما تشعرون ، ولكني سمعت خطبة في المذياع[1] دار مذيعها البارع حول قصتي أقنعتني أن من العبث إزال الوهم منزلة الحقيقة . إذن ما أبعد الشقة بيننا ، بل ما أبعدها بيني وبينك».

(٦) يجد «مشلينا» أحد أبطال أهل الكهف في عنق الاميرة « بريسكا » الحفيدة ذات الصليب والسلسلة الذهبيين اللذين أهداهما إلى « بريسكا » الجدة

وبطلة قصة الالتفات الى الوراء تجد في عنق بطل الرواية سلسلة ذهبية فيها ايقونة بداخلها صورة جدتها خطيبته

(٧) في رواية اهل الكهف يقول المربي « غالياس » للاميرة « بريسكا » تنبأ عرّاف ساعة مولدك بأنك ستشبهين ابنة الملك دقيانوس الأميرة القديسة خلقاً وايماناً، فتسأله بلهفة:

---

(١) تنبأ مؤلف قصة الالتفات الى الوراء بالمذياع منذ عام ١٨٨٧

« ترى هذا العرّاف قد صدق ، أو تراني أشبهها حقيقة ؟ ما أقساك يا فالياس ، انك لا تحس مبلغ رغبتي في معرفة تلك التي يزعمون اني أشبهها . أصحيح يا فالياس ان هـذا الصليب الذهبي الذي أحمله في جيدي منذ الطفولة كان صليبها » ؟.

وفي قصة الالتفات الى الوراء تقول والدة بطلة الرواية لبطل الرواية « تدعوك ظروف الحال وسرعة تقلبه الى معرفة من هي ابنتي وما هو سرها ، فأنا أقول لك انها بنت حفيدة خطيبتك واننا أسميناها باسم جدتها البعيدة تيمناً بذكراها ، فلما كبرت ابنتي أخذت تبحث عن كل شيء له علاقة بجدتها ، وكان في جملة ما وجدته في متروكاتها خطابات منك لجدتها وصورة لك احتفظت بها ، كما وجدنا في عنقك سلسلة ذهبية فيها أيقونة عليهـا صورة خطيبتك الجدة ».

(٨) في رواية أهل الكهف تخاطب الاميرة بريسكا قائلةً ان ابنة دقيانوس الاميرة القديسة كانت تقول كلما أرغموها على الزواج انها مرتبطة بعهد مقدس لن تخونه .

وفي قصة الالتفات الى الوراء قالت والدة بطلة الرواية عن ابنتها « لقد أقامت خطاباتك لجدتها صورة لك في ذهنها ولذلك كانت تقول انها عاهدت النفس ألاّ تتزوج إلاّ اذا عثرت على رجل يضارعك في النبل وسموّ الأخلاق .

(٩) تستيقظ عوامل سعادة الحياة ، ويشع الفرح في نفس بطلة قصـة الالتفات الى الوراء ساعة اكتشاف شخصية الرجل الذي أحبَّ جدتها بأمانة واخلاص فترتمي بين ذراعيه تهبه قلبها وتقول له « كنت أعتقد أحياناً ان روح جدتي يستقر فيّ . وكثيراً ما كنت أتوهم أني هي ، وهي أنا ، وان لا أحداً منا يعرف من هو الآخر .

وفي رواية أهل الكهف تقول بطلة الرواية لبطلها « انك تمزج شخصيتي بشخصية جدتي ، انك لا تراني أنا ، بل تراها هي فيّ ، نعم وجدت ورأيت وأحببت كل ما هو لها »

(١٠) ثم تلحق به الى الكهف تبحث عنه بين الجثث فاذا به يردد صوتها بصوت خافت فتأخذ رأسه بيديها وتدعوه بلهفة جنونية الى الحياة قائلةً « عش » عش لي لا تمت ، اني أحبك » فيجيبها « لا نفع الآن بعـد أن فعل الزمن فعلته ، فتقول « ان القلب أقوى من الزمن ، وان ليس يهمها أن يكون حبه مصوباً الى الأميرة جدتها التي تشبهها وتقول من يدري لعلي هي ان هـذا الشبه ليس مصادفة ، ومقابلتنا ليست مصادفة كذلك ، انك بعثت لي وبعثت أنا لك بعثاً من نوع آخر »

وفي قصة الالتفات الى الوراء تخاطب بطلة القصة بطلها قائلة « ألست تعتقد أن الروح يعود أحياناً الى هذا العالم ليتم العمل الذي كان قريباً من غاية الوجود ؟ أقول لك اني كنت

البنسيلين واحتقان الزور

أثبت طبيبان انجليزيان هما دكتور الكسندر . ب . مكجريجور ودكتور دافيد .ا. لونج في مقال نشرته الصحيفة الطبية البريطانية ان اعطاء المرضى الذين يشكون احتقان الزور والتهاب اللوزتين وغيرهما من الاصابات الميكروبيـة التي تصيب الحلق وما يجاوره ، أقراصاً مصنوعة من مادة البنسيلين تمتص في الفم أشبه بالاقراص التي تمتص في حالات السعال ، علاج ناجع لهذه الحالات

فان الالم والحمى وجراثيم المرض قد زالت في أربعة وعشرين ساعة في بعض الحالات. وأجريت تجاريب في ٢٥ مريضاً عولجوا بالبنسيلين فزالت عنهم أعراض المرض في ٢٤ ساعة والتأمت بثور الحلق في خمسة أيام وكانوا يشكون تشقق اللسان والحلق .كذلك كل المظاهر الدالة على وجود جراثيم مرضية . ولم يظهر على الذين عولجوا أي عرض يدل على احتمال عودة المرض، والمعروف أن جيوب اللثة ، حتى بعد شفائها بالعلاج العادي ، قد تعود بعد زمن الى الظهور، وان اللثة بعد الشفاء تكون عرضة للاصابة بسهولة.

وفي حالات أخرى حصل المعالجون على نتائج مرضية جداً بعد ٢٤ ساعة في حالات الاحتقان اللوزي المسبب عن الميكروب السبحي Streptococcus ، خفت الاصابة وزالت الحمى . وشخص بالغ استطاع أن يأكل غذاء جافاً بعد ٢٤ ساعة من علاجه بالبنسيلين ، وكان مصاباً اصابة حادة بالحمى القرمزية

أعتقد أحياناً ان روح جدتي يستقر فيَّ . وهل تستغرب أن يكون لي هذا الشعور ، وأن تكون حياتي قد تأثرت بها وبك أنت دون أن أراها وقبل أن أراك » .

ألا يكفيك يا صديقي العزيز ان أنقل اليك هذه المواقف التي نقلها صديقنا العزيز توفيق الى روايته عن تلك القصة الرائعة !

في النصرانية حكاية عن أحد حواري المسيح يدعى توما ، وهذا قال لزملائه « اذا كنت لا أرى أثر الحربة في جنب المسيح وأضع أصبعي في أمكنة المسامير في يديه ورجليه، فلن أؤمن بقيامته من الأموات » ويقال ان المسيح ظهر لتوما وقال له « طوبى لمن لم يرني وآمن بي »

حبيب الزحلاوي



من أنواع النبات

الطبي

﴿حَبُّ الفَهْم﴾ هو البَلادِر والبَلاذِر ثمر شجر من الفصيلة الأَنَقَارديَّة ينبت في جزائر الهند الشرقية اسمه النباتي Semecarpus Anacardium وبالانكليزية Marking Nut Tree وبالفرنسية Anacarde Oriental عصارة ثمره المرّ تستعمل صبغاً أسود لعمل إشارات على الأثواب وغيرها وله منافع عرفها الاطباء القدماء

﴿حَبُّ القَلْتِ﴾ هو الماش الهندي بزر نبات من الفصيلة القَرْنيَّة اسمه النباتيّ Dolichos biflorus وبالانكليزية Horse Gram وبالفرنسية Dolic biflore ينبت في قُلَّة الجبل بمَدْرَاس في الهند حيث تقلّ المياه . وهذه البزور حارَّة لاذعة يتداوى بها الهنود .

﴿حَبُّ الكُلَى﴾ بزور جَنْبَة أي شجيرة من الفصيلة القرنية اسمها النباتي Anagyris fœtida وبالانكليزية Bean Trefoil وبالفرنسية Bois Puant وهذه البزور تشتمل على شبه قلويّ يسمَّى « اناجيرين » من مركباته هيدروبروميد الاناجيرين وهو منبّه للقلب . وقد تستعمل البزور ضد أوجاع الكليتين والأوراق مسهلة للبطن.

﴿حَبّ هان﴾ هو الحَبَّهان ويقال له الهال ثمر نبات من الفصيلة الزنجبيلية أو السكيتامنية ينبت في المنطقة الحارّة من أفريقية اسمه النباتي Amomum Melegueta وبالانكليزية Melegueta Pepper . Grains of Paradise وبالفرنسية Graine de Paradis ;Minguette

ويطلق الحَبَّهان أحياناً على ثمر نبات آخر ينبت في جزائر الهند الشرقية من الفصيلة نفسها اسمه النباتي Elettaria Cardamomum وبالانكليزية Lesser Cardamom وبالفرنسية Petit Cardamome وهو المعروف باسم القَرْدَبُون والقَرْدَمانا على ما سيأتي في مقال آخر . وكلا النوعين من العطر والأفاويه مقوّيان للمعدة والكبد .

﴿ الجَرْشَاء ﴾ معروفة في مصر بالجِرْجير ويقال الجِرْجِر والجَرْجَر ويُعرف عند العامّة بالفُجَيلة نبات يزرع من الفصيلة الصليبية اسمه النباتي Eruca sativa وبالانكليزية Rocket وبالفرنسية Roquette قيل إن أكله مضاد لداء الخفر (الاسقربوط)

﴿ الحزَنبل ﴾ نبات عطري مرّ الطعم من فصيلة القَيْصوم والبعيثران (المركبة) اسمه النباتي Achillea Millefolium وبالانكليزية Milfoil; Nosebleed وبالفرنسية Herbe aux Charpentiers; Millefeuille وهو منبه قليلاً ونافع للجروح وفي تفتيح السدد وتحليل الرياح وذكر له ابن فائد أربعاً وثمانين منفعة . يشتمل على شبه قلوي يسمى « اشيلين » يتداوى به أحياناً مضاداً للحمى .

﴿ الحسَك ﴾ ويقال له حمّص الأمير وضرسُ العجوز نبات له أشواك قوية من الفصيلة الزيجوفيلية ينبت بطبيعته في مصر اسمه النباتي Tribulus terrestris وبالانكليزية Turkey—blossom وبالفرنسية Trubule terrestre وهو مفتح ومدرّ للبول

﴿ حصا لُبانٌ ذكرٌ ﴾ هو الكندُر وباليونانية خندروس ضرب من العلك أي صمغ شجر منه نوع يكون بجبال اليمن والصومال من الفصيلة البخورية اسم جنسه النباتي Boswellia وبالانكليزية Incense Tree وهذا الصمغ يستعمل في الروائح العطرية وبخوراً ويتداوى به مدرّاً للطمث .

﴿ الحضُض ﴾ هو النبات المعروف في مصر بالعوْسج من الفصيلة الباذنجانية اسم جنسه النباتي Lycium وبالانكليزية Box Thorn وبالفرنسية Liciet; Lyciet تشتمل أوراق

نوع منه على شبه قلويّ يسمى « ليسين » يتداوى به ويطلق الحضض على نبات آخر من الفصيلة النبقية اسمه النباتي Rhamnus infectoria وبالانكليزية Dwarf Buckthorn وبالفرنسية Nerprun des Teinturiers يشتمل على عصارة تصنع منها أقراص قابضة .

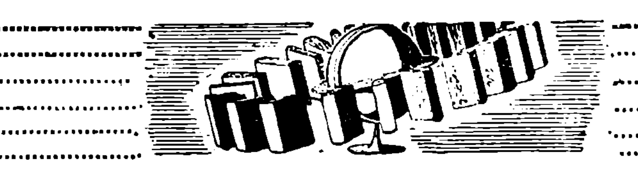
﴿ الخامِشَةُ ﴾ الشيْطَرَج معرَّب چيتَرك بالفارسية شجيرة صغيرة من الفصيلة الرصاصيَّة ذات أزهار بيض وجذور طوال رطيبة مرَّة ومُسمَّة يستعملها أهالي الهند أحياناً في أغراض غير مشروعة . اسمها النباتي Plumbago zeylanica وبالفرنسية Dentelaire de Ceylan

﴿ خُبْزُ الغُرَابِ ﴾ البَهَارُ والعُرَارُ ويقال له عَيْنُ البَقَر (كاوْچَشْم الفارسيَّة) وبَهَارُ البرّ . نبت من الفصيلة المركّبة طيب الريح جعد ينبت أيام الربيع ورده أصفر الورق أحمر الوسط أسمن من ورق البابونج . اسمه النباتي Anacyclus radiata وبالفرنسية Camomille de Valence استعمله الأطباء قديماً في أمراض العيون .

﴿ الخَرْقُ والخَرْقَةُ ﴾ عشب قصير زحّاف من الفصيلة الرجليَّة معروف في مصر بالرجلة ويقال له العرفج والبقلة الحمقاء . قيل لها ذلك لأنها لا تنبت إلاّ في مسيل الماء فيقتلعها الماء ويذهب بها . ومنه المثل هو أحمق من رجلة . اسمها النباتي Portulaca oleracea وبالانكليزية Purslane وبالفرنسية Pourpier والرجلة تستعمل خضراً بسبب خاصَّتها المبرّدة والمضادَّة لفساد الدم (الاسكوربوط)

﴿ الخِلال ﴾ حشيشة تسمى بالخلال المأموني لأن المأمون كان يتخلّل بها ويقال لها الإذْخِر والإِذخِر وحَلْفَة مَكَّة وطيب العَرب من الفصيلة النجيلية اسمها النباتي Andropogon Schoenanthus وبالانكليزية Lemon Grass وبالفرنسية Citronnelle; Roseau de la Mecque; Jonc Odorant اعتبره الأقدمون محللاً ومفتحاً ومقطعاً ومنضجاً للاخلاط اللزجة ونافعاً للفالج واللقوة والنسيان .

محمود مصطفى الدمياطي



مكتبة المقتطف

نتلقى كثيراً من الكتب المؤلفة والمترجمة حتى لقد يضيق الفراغ الذي نخصصه لباب المكتبة عن استيعاب النقود التي نعقدها عن هذه الكتب . فآثرنا أن نجعل مكتبة المقتطف بابين الاول للنقد والثاني للتنويه ، فننوه بجميع الكتب التي تصلنا في الباب الثاني ، وننقد ما ننقد منها في الباب الاول . هذا فضلا عما ننشر في باب المقالات من النقود المطولة .

فلسفة الاخلاق في الاسلام
وصلاتها بالفلسفة الاغريقية

تأليف الاستاذ محمد يوسف موسى — مطبعة الرسالة — ٣٠٤ صفحة من القطع الوسط
الطبعة الثانية — نشر دار الكتب الاهلية

بحث طريف يستهويك حقـًا إذ تقبل على قراءته ، فأنت تمضي فيـه مضياً ، لأنه عجب ، وأنه يجري في سهولة ويسر امتاز بهما المؤلف في كتابته وما يطالع به جمهور قارئيه . وقد وجدت الطبعة الأولى من اقبـال القراء ما دفعه أن يصدر هـذه الثانية متضمنة زيادات وتعديلات وتحقيقات قيمة .

وقد بدأ الاستاذ كتابه بفصل إضافي يؤرخ فيه الأخلاق في الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة، واستطاع أن يجد توافقاً بين نظرية سقراط في أن «الفضيلة المعرفة» وبين قول زهير:

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه   إلى مطمئن البر لا يتجمجم

ثم هو يعرض أخلاق العرب مستشهداً بشعرهم وحكمهم ووصاياهم، وذلك في إيجازٍ يود القارئ لو طال ، ولـكن طبيعة الكتاب لا تحتمل الإسهاب في هذا الوجه ، فعسى أن يوفق المؤلف إليه في كتاب خاص يقرن فيه بين فلسفة البداوة العربية و بين الفلسفات الخلقية الأخرى.

وقد استشهد المؤلف في الـكلام على معرفة الخير والشر بقول زهير :

الستر دون الفاحشـات ولا   يلقاك دون الخير من سـتر

وفهم منه أنه «يريد أن يجعل استحياء المرء من أمره ورغبته في ستره، أمارة أنه شر»

والحق أن زهيراً لم يرد ذلك ، وإنما عنى أن بين الممدوح وبين الفاحشات ستراً من الحياء ، ولا ستر بينه وبين الخير [1] ، ولم يقصد به تقرير مبدأ ، أو تنويهاً بمذهب خلقي .

وقد اختار الاستاذ ثلاثة من فلاسفة الإسلام يمثلون ثلاث مذاهب مختلفة في المبادىء الأخلاقية ، فمسكويه يمثل للأخلاق الفلسفية الصريحة ، والغزالي يمثل للأخلاق الفلسفية الدينية ، وابن عربي يمثل للأخلاق المبنية على التصوف . ورسم صورة عاجلة للحالة العامة في عصور هؤلاء الفلاسفة .

بيد أن جعل « مسكويه » ممثلاً للأخلاق الفلسفية الصريحة قد يتضاءل بعض الشيء حينما يتكلم المؤلف على « نزعته التوفيقية » بين ما يختار من آراء وبين ما يناسبها من حكم الدين والشريعة ، لأنها كما يقول مسكويه ص ١٠٩ « هي التي تقوّم الأحداث ، وتعوّدهم الأفعال المرضية ، وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل والبلوغ للسعادة » فمسكويه لا يمثل الأخلاق الفلسفية الصريحة بكل ما يدل عليه هذا التعبير ، بل هو ينظر دائماً إلى الدين في الوقت الذي ينظر فيه إلى الفلسفة .

وقد وفق الأستاذ أيما توفيق في الرد على من زعم « أن الضمير لا وجود له في ذاته » وأن الغزالي أغفله فيما أغفل وساق لذلك أدلة قوية في ص ١٣٨ — ١٤٢ . ولكنه لم يوفق في التعبير عن الغزالي في ص ١٩٤ بأنه يعمل على « انتهاب آراء غيره » فإن للإمام الغزالي احترامه بين المفكرين والباحثين ، فليس يصلح أن يقال فيه حين يرتضي رأي غيره أن يقال إنه إنتهبه واغتصبه ، أو سرقه كما يفهم من التلميح في ص ١٩٩ . وذلك لأن الرأي مشاع مشترك بين الناس ، ولأن استعمال الغزالي ألفاظ غيره كلها أو بعضها لا يعد سرقة وانتهاباً ، فان ذلك انما يصح أن ينسب الى صغار المفكرين المتسولين ، لا إلى من لهم دنيا عريضة من الآراء والمبادىء . وكثيراً ما يشتد الوعي والحفظ عند المفكر حتى يكتب الصفحات العديدة من آراء غيره وكلامه ، ناسياً انه كلام هذا المفكر أو ذاك ، وذلك لشدة التباس هذه الآراء بنفسه وتمكنها من قلبه .

وفي كلامه على التفسير المنسوب لابن عربي يقول في ص ٢٢٣ : « على أن في نفس هذا التفسير دليلاً ماديًّا يجعله لغير ابن عربي (قطعاً) ، ذلك انه في تفسير قول الله تعالى في سورة القصص : « واضْمُمْ إليكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ » يذكر المؤلف نقلاً عمن سمعه عن شيخه المولى نور الدين عبد الصمد . ولا يعنينا هنا ذكر هذا النقل ، انما الذي يعنينا ان نور الدين عبد الصمد هذا توفي في حدود عام ٦٩٠ هـ فلا يمكن ان يكون شيخاً لابن

(١) أنظر ديوان زهير بشرح الشلنتمري ص ٦٤ .

عربي الذي توفي عام ٦٣٨ . والأمر بعد هذا لا يحتاج الى دليل آخر .

وليس هذا دليلاً قطعيًّا كما ذكر الأستاذ ، فان المتتبع للمخطوطات العربية يلفي كثيراً من الحواشي التي أدخلت في اصلاب الكتب الأصيلة وخفيت على بعض القارئين . ولست أذهب بذلك الى أن التفسير لابن عربي ، بل أقول : إن هذا النوع من الاستدلال استئناسي ظني ، لا قطعي يقيني .

كما ان الأستاذ في رده على مسكويه ص ٩٢ في قوله ان التفضل لم يخرج عن شرط العدالة التي هي وسط بين طرفيها المعلومين ، وانما هو « احتياط حازم من صاحبه ليأمن التقصير ويصيب الوسط » قال ناقداً ذلك : « . . . واعتقد انه لم يصب الحز . قد يكون التفضل احتياطاً فيما يشتبه فيه العدل . أما في الأمور التي هي كمسائل الحساب في وقتها وضبطها ، أو التي هي من قبيل الحساب ، كشريكين ربحا مائة من الجنيهات — يريد الدنانير — فرضي أحدهما أن يأخذ لنفسه أربعين فقط ، فلا أدري كيف ولماذا يكون الاحتياط ؟ ! » .

وهذا المثل الذي ساقه ليس من الدقة بمكان ، فان الشركة أيضاً مظنة للاحتياط حين القسمة ، فقد يظن أحد الشريكين أن زميله أولى بالزيادة لما بذل من جهد ذاتي أو معنوي فيما عاد على الشركة من أرباح .

وذكر الاستاذ في ص ٨٢ تعليقاً على قول مسكويه « فيعف ويشجع ويحكم » بقوله « لعلها من حكم بضم الكاف إذا صار حكيماً » ولا ريب في هذا التفسير الذي ذكره ، حتى يستدعي « لعل » وأشباهها .

وفي ص ١٠٨ ذكر من كلام مسكويه : « والشره والخمود » صوابها « الشِّرَّة » بكسر الشين وتشديد الراء المفتوحة ، وهي النشاط . وفي الحديث : « إن لهذا القرآن شِرَّة ، ثم إن للناس عنه فترة » وهي التي تقابل الخمود ، لا الشره .

وذكر الاستاذ في ص ١٠٧ المثل العامي : « صديقك يمضغ لك الزلط » وليس أولى بهذا المقام من المثل الفصيح : « وعين الرضا عن كل عيب كليلة » .

وذكر أيضاً في ختام كتابه فهرس المراجع الهامة ، مرتبة حسب ورودها في البحث ، ومما يسترعي النظر أنه جرى على هذه الطريقة أيضاً في كتابه القيم : « ابن رشد الفيلسوف » . وترتيب هذه المراجع حسب ورودها في البحث ليس له قيمة فهرسية خاصة ، وكان أولى به أن يرتبها على حروف المعجم ، وهو فاعل إن شاء الله .

وقد ذكر في ص ٨٧ من مراجعه « الإمتاع » نشر الأستاذ السندوبي ولا ريب أنه يريد « المقابسات » لا الإمتاع .

ثم نعود أدراجنا إلى عنوان الكتاب فنجد فيه كلة « الفلسفة الإغريقية » وليس كذلك يقولها العرب . والأجدر أن تجعل « الفلسفة اليونانية » .

وبعد فالأستاذ الجليل محمد يوسف موسى حقيق بأن يهنأ بهذه (الطبعة الثانية) من كتابه ، حري بكل تقدير وتكريم .

عبد السلام محمد هارون

الشرع واللغة

للأستاذ الشيخ أحمد شاكر

الأستاذ احمد شاكر من العلماء الذين أوتوا حظًّا كبيراً من الشجاعة في القول ، والبصر في الدفاع عن الحق ، والالتزام لما يوجبه أدب البحث والمناظرة ، ورسالته هذه مع لطف حجمها ، تمثل هذه الخصائص فيه .

فقد نشر سعادة عبد العزيز فهمي باشا اقتراحه كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية ، وتناوله من الناحية الفنية كثير بالرد ما بين غال ومعتدل ، أما الاستاذ شاكر فقد ترك هذه الناحية ، وتناول مسائل ثلاث — أقحمها الباشا في كلامه إقحاماً — هي في الصميم من القرآن والدين والتشريع والاجتماع ، وهي من الخطورة بحيث لا ينبغي لمسلم يعتز بدينه ويغار على شريعته ويريد الخير لأمته أن يغفلها أو يتهاون فيها .

١ — أولى هذه المسائل ما ذهب سعادة الباشا من موافقة المستشرقين في ان الجانب الأكبر من القراءات التي نزل القرآن بها فيما نعتقد يرجع الى خصائص الخط العربي التي تجعل رسم الكلمة الواحدة قد يقرأ بأشكال مختلفة ، وبخاصة حين يضاف الى هذا فقدان النقط والشكل والاعراب . وقد كان رد الأستاذ على هذه الفرية ردًّا محكماً مؤيداً بالدليل .

٢ — والمسألة الثانية هي ماذكره عن الباشا بحروفه من ان الدين عقيدة وعبادة فحسب ، وأما الشريعة فليست في شيء منه ، وإذاً فلنا ان نختار ما نرى من قوانين اوربا ص٤٢ـ٦٠) .

ولا أريد ان ألخص ما جاء به الأستاذ في هذا القسم القوي جدًّا من الرسالة ، فذلك يذهب بالكثير من جماله وجلاله ، وخير للقارىء ان يقرأه كله بنفسه . ولكني أذكر انه من العجيب المؤلم ، او السخرية اللاذعة ، أن يذهب الباشا هذا المذهب في فهم الدين الاسلامي فيذهب بشطره ، ويسوّي بينه وبين ما سبقه من أديان !

٣ — والمسألة الثالثة هي وجوب أن يكون الكتاب والسنة مصدر القوانين في مصر وقد جاء في ذلك بمحاضرة كان أعدّها منذ سنين وحيل بينه وبين القائها . وقد تكلم فيها عن أثر القوانين الأجنبية إذا حكمت بها الامة زمناً طويلاً ، هذه القوانين التي عملت على

صبغ الأمة صبغة إلحادية ، والتي كان منها ان زادت الجرائم ما دام المجرم لا يشعر بإثم أو خوف من الله أن إتيح له أن يتفلت له من القانون .

والأستاذ الفاضل لا يدعو في هذه الناحية الى التقاليد بل لا يدعو الا الى اختيار الخير من آراء المشرعين المسلمين ومن آراء رجال القانون مما يدخل تحت قواعد الكتاب والسنة

وبعد ، فهذه رسالة قيمة يشع منها نور الاخلاص للدين والحق ، وتشيع فيها الرغبة في العمل لما فيه خير الامة في حاضرها ومستقبلها . والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .

محمد يوسف موسى

---

١ — مشكلة البطالة : تأليف حسين حمدي عضو مكتب البحوث الفنية بوزارة الشئون الاجتماعيـة ، بحث علمي ودراسة مقارنة ، نشرته جماعة الكتاب، ويطلب من مكتبة النهضة المصرية ٤٣٢ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٤

٢ — أسرار المراهقة في الفتاة : تأليف الدكتور أندراوس شخاشيري ، حوار دار بين والدة وابنتها حيناً وبين والد وابنته حيناً آخر على دور المراهقة في الفتاة وما يجب أن تكون عليه من صحة جيدة ونظام حسن في معيشتها وما يجب عليها أن تعلمه عنه وتعمل به وهي في هذا الدور الخطير الذي لا شك انه ركن كبير الشأن يقوم عليه نظام صحتها وسعادتها، الطبعة الثانية ، ٨٨ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥

٣ — الانجليز كما عرفتهم : تأليف أمين المميز ، مطالعـات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني ، الجزء الأول ، طبع بمطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية ، بغداد ، ٣١٢ صفحة من القطع الكبير . ستة فصول في العدل والقضاء والرأي العام والتربية والرياضـة والدين الخ . لم يذكر به سنة الطبع

٤ — القومية والعروبة : تأليف نقولا زيادة خريج جامعة لندن والأستاذ بالكلية العربية والمدرسة الرشيدية ببيت المقدس . نشرته مكتبة الطاهر بيافا وطبع بمطبعة اللواء بالقدس ، ١٠٦ صفحة من القطع الاصغر . ١٩٤٥

٥ — ساعات الصمت : تأليف الاستاذ محمد أمين حسونة ، شعاره : الصمت عدة الأرواح الكبيرة وغذاء المفكرين . مقالات في النقد والتأمل ، ١٧٢ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٥ القاهرة

٦ — الأسرة والمجتمع : تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي . أستاذ علم الاجتماع بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول . التزمت طبعه ونشره دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه . والكتاب من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية . ١٤٢ صفحة من القطع الأوسط ، ١٩٤٥ القاهرة .

٧ — نساء عاشقات : بقلم صلاح الدين المنجد ، من منشورات أصدقاء الكتاب ، مطبعة الترقي بدمشق ، الطبعة الأولى ، ٩٦ صفحة من القطع الاوسط ، ١٩٤٥

٨ — البلاغة العصرية واللغة العربية : تأليف الأستاذ الكبير سلامه موسى ، نشرته المطبعة العصريَّة ، ١٤٨ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥ ، القاهرة . وهذا الكتاب من الكتب الفذة الجديرة بالدرس والنقد ، وسنفرد لدرسه مقالاً خاصًّا في عدد مقبل من المقتطف .

٩ — الشوق العائد : مجموعة شعر للاستاذ الشاعر علي محمود طه المهندس . نشرته دار احياء الكتب العربية لأصحابها عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

وهذه المجموعة من عيون الشعر الحديث وكفى ان مؤلفها شاعرنا الكبير علي محمود طه، والطبع غاية في الاتقان ، والغلاف قطعة فنية رائعة جديرة بان تصدر عن ريشة الفنان عبد العزيز خالد درويش . أخرجته شركة فن الطباعة في ثوب رائع من الفن الصحيح ، ١٣٠ صفحة من القطع الأوسط .

١٠ — الحريَّة : مجموعة شعر من تأليف يوسف الخال ، من منشورات دار الكتاب ، ١٠٠ صفحة من القطع الصغير ، طرابلس الشام ، ١٩٤٤

١١ — الصهيونية : تأليف أنور كامل . وهو مهدى إلى المجاهدين الأحرار الذين بذلوا دماءهم في فلسطين دفاعاً عن قضية العرب . مطبعة الاعتماد ، القاهرة ، ٦٤ صفحة من القطع الأوسط ، ١٩٤٥

١٢ — روح التربية والتعليم : تأليف محمد عطية الابراشي خريج جامعتي اكستر ولندن وأستاذ التربية وعلم النفس بدار العلوم . نشرته دار احياء الكتب العربية بالقاهرة . الطبعة الثانية : ١٩٤٤ ، ٢٧٦ صفحة من القطع الأوسط

١٣ — الرحالة المسلمون في العصور الوسطى : للدكتور زكي محمد حسن ، نشرته دار المعارف بمصر . والكتاب مطبوع أنفر طبع وقد نقل رسومه الاستاذ فريد شافعي المهندس

بالقصور الملكية والمدرس المنتدب بمعهد الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول، ١٩٢ صفحة من القطع الصغير ، ١٩٤٥

١٤ — التعليم في رأي القابسي : تأليف الدكتور احمد فؤاد الاهواني وملحق به الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين واحكام المعلمين والمتعلمين لأبي الحسن علي بن محمد بن خلف القابسي . نشرته مكتبة الخانجي بمصر . وطبع بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ٣٢٨ صفحة من القطع الكبير ، ١٩٤٥

١٥ — ذكرى الأفغاني في العراق : بقلم عبد المحسن القصاب المحامي(١٣٦٤هـ-١٩٤٥م) أصدرته ببغداد مطبعة الرشيد ، ١٦٨ صفحة من القطع المتوسط .

١٦ — مرايا الناس : تأليف السيدة الفاضلة وداد سكاكيني ، من منشورات لجنة النشر للجامعيين ، وتوزعه مكتبة مصر بالقاهرة ، ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، (١٩٤٥) . وسنعود الى نقده بما يستحق من العناية .

١٧ — البيادر : للاستاذ ميخائيل نعيمه ، التزمت طبعه ونشره دار المعارف بمصر ، ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط ، ولنا نظرة أخرى فيه .

١٨ — توفيق الحكيم : تأليف المرحوم الدكتور اسماعيل ادهم والدكتور ابراهيم ناجي التزمت طبعه ونشره دار سعد مصر للطباعة والنشر ، (١٩٤٥) ، وهو نقد وتحليل وعرض ، ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط .

١٩ — في تلك الأيام عاش المعري : تأليف عبد الرحمن جبير ، نشرته المطبعة الوطنية بحلب ، ٨٨ صفحة من القطع الأوسط ، (١٩٤٥) .

٢٠ — مشكلة الفلاح : من مطبوعات لجنة نشر الثقافة الحديثة ، صدر عن دار القرن العشرين للنشر — القاهرة (١٩٤٥) ٨٠ صفحة من القطع الصغير ، ولنا عودة الى هذا الكتاب .

٢١ — الروائع لشعراء الجيل : الجزء الاول من مطبوعات لجنة التأليف والترجمة الحديثة تأليف الشاعر النابه الاستاذ محمد فهمي أهداه الى أرواح الثلاثة الخالدين من شعراء الجيل م . ع الهمشري وأبو القاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير . وسنعقد فصلاً في نقد هذا الكتاب ننشره في عدد مقبل من المقتطف .

باب الأخبار العلمية

البنسلين

تتبعت المقتطف تجارب البنسلين، ووافت قراءها تباعاً بأنباء تأثيره في مختلف الأمراض

وقد أفضى حضرة صاحب السعادة الدكتور علي توفيق شوشه باشا وكيل وزارة الصحة، بحديث إلى مندوب «الاهرام» ذكر فيه نتائج البحوث التي اجريت في معمل الرمد التذكاري بالجيزة لعلاج الرمد بمادة البنسلين، فقال:

«يعد الرمد الصديدي من أهم العوامل التي تؤدي إلى فقدان البصر، وخاصة إذا كان ناشئاً عن عدوى «الجونوكوك» وميكروب السيلان، فلما كشف البنسلين، وعرف تأثيره العجيب في علاج السيلان، كان من الطبيعي أن يتجه التفكير إلى استخدامه في هذا النوع من الأرماد الصديدية، ما دام الميكروب المسبب لها واحداً. وقد جرب البنسلين في شكل قطرة ومرهم، توضع مراراً في العين، فوجد تأثيره ضعيفاً وفائدته محدودة. لذلك رؤي تجربته بطريق الحقن. فاستعمل حقناً في العضل كل أربع ساعات لمدة ٢٤ ساعة واقتصرت التجارب على الرمد الصديدي الناشئ من ميكروب الجونوكوك وحده.

وقد اختيرت لهذا الغرض، ثلاث حالات لاشخاص تتفاوت أعمارهم ودرجة إصابتهم. إحداها لغلام في التاسعة من عمره، والثانية لطفلة عمرها أربع سنوات. والثالثة لرجل عمره ٤٥ سنة. وكانت إصابة الغلام برمد صديدي خفيف غير مصحوب بمضاعفات، وقد أظهر الجونوكوك عند هذا الغلام قوة مقاومة شديدة للبنسلين، فلم يختف الميكروب من عينه إلا بعد عشر ساعات، أي بعد ثالث حقنة. ومع أن الحالة تحسنت من الوجهة الاكلينيكية — إذ قلّت الإفرازات واختفى ورم الجفون واحتقان الملتحمة، واستطاع المريض فتح عينيه، فقد ظهر الميكروب ثانية بعد ٢٥ ساعة من آخر حقنة.

وكان الرمد الصديدي عند الطفلة مصحوباً بقرحة خفيفة في العين اليسرى وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث ساعات من أول حقنة، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة من الوجهة الاكلينيكية ولكن بقيت القرحة كما هي، ثم عاد الميكروب إلى الظهور بعد ٢٤ ساعة من آخر حقنة.

أما إصابة الرجل فكانت أشد. وذلك إن الرمد الصديدي عنده كان مصحوباً بقرحة مع فتق (قرحة منبثقة) في العين اليسرى. وقد اختفى الميكروب بعد ثلاث

ساعات أيضاً ، وتحسنت حالة الجفون والملتحمة وخاصة في العين اليمنى ، إلاّ أن القرحة والفتق القرحي واحتقان العين وما بها من الآلام ، كل هذه لم تتحسّن ، وكذلك ظهر الميكروب بعد ٤٨ ساعة من آخر حقنة .

وقد وضعت الحالات الثلاث التي تقدّم ذكرها موضع الملاحظة والفحص ثلاثة أيام أخرى . بدون أي علاج . فلما لم يختف الميكروب ولم تلتئم القروح ، أجريت بعض العلاجات النوعية ثلاثة أيام فاختفى الميكروب من أول يوم ، والتأمت القروح .

وقد تبين أن الوقت الذي أعطيت فيه الحقن (وهو ٢٤ ساعة) لم يكن كافياً . ولهذا أجريت التجربة في حالتين ، وأعطيت الحقن لهما مدة ٤٨ ساعة ليلاً ونهاراً . فشوهد التحسن من الناحية الاكلينيكية إلاّ أن هذه الطريقة كانت متعبة وغير عملية لأنها تستدعي تخصيص طبيب لاعطاء الحقن ليلاً كل ثلاث ساعات. وهذا يتعذر تنفيذه إذا كان عدد المرضى كثيراً ، كما هي الحال في الأرماد الصديدية . وهنا قال الدكتور شوشة باشا :

والخلاصة أننا وجدنا أن هناك تأثيراً لمادة البنسلين في الأرماد الصديدية البسيطة ، والتي لا تكون مصحوبة بالمضاعفات التي يسببها ميكروب الجونوكوك ، غير أن طريقة العلاج به تحتاج إلى تخصيص أداة طبية تتفرّغ لحقن المريض ليل نهار مما يجعل تنفيذها من الوجهة العملية غير مستطاع ، وخاصةً اذا لاحظنا أن حالات الارماد الصديدية كثيرة الانتشار في المدن والريف

ثم اختتم الدكتور شوشة باشا حديثه قائلاً : « وأرى أن أذكر لهذه المناسبة ، أن كثرة انتشار الرمد في مصر ، حملتني على التفكير في استخدام بعض المركبات النوعية التي أثبتت التجارب والمشاهدات شدة تأثيرها ، على ألاّ يكون استخدامها مقصوراً على المستشفيات الرمدية ، بل يشمل ذلك جميع الوحدات التابعة للوزارة في الأقاليم

عودة الى دولاب الخزاف

وردت الأنباء من بلاد الدنيا الجديدة بأن المصانع الاميركية أصبحت تعتمد اليوم على آلات صناعية قديمة العهد في انتاج أحدث الأسلحة الحربية . فدولاب الخزّاف مثلاً ، الذي يسوي به الخزاف آنيته يرجع تاريخ اختراعه الى عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد ورغم ذلك فان العمال الاميركيين يستخدمون في صناعة القنابل أجهزة مماثلة لدولاب الخزاف ليستطيعوا بواسطتها تشكيل القنابل حسبما تقتضي الحاجة . وقد برهن هذا الاسلوب الانتاجي على زيادة كبيرة في انتاج القذائف، كما انه خفض نسبة « الخردة » لأن عملية تسخين المعادن لدرجة المرونة جعلت من المتيسر انتاج قذائف متقنة الصنع مضبوطة الأبعاد .

وديع فلسطين

دراسة الفيرس

ميكروسكوب يكبر ٥٠ الف ضعف

قد تؤدي الاكتشافات الحديثة عن الأحياء المتناهية الدقة من الميكروبات والفيرس الى القضاء على عدد من الأمراض الخبيثة . فان فحص هذه الاحياء بالميكروسكوب الكهربائي أتاح للطب فهماً عميقاً لحياتها الغامضة ، وألقى ضوء ووضح كيف تعيش وكيف تعمل .

فقد قال الدكتوران ستيوارت مود وتوماس اندرسن في النشرة الأخيرة للجمعية الطبية الاميركية ان الانسان لم يستطع مشاهدة هذه الأحياء العادية ذات الخلية الواحدة لعدة قرون خلت . ولهذا لم يستطع مقاومتها. أما الآن وبفضل هذا الميكروسكوب المضيء فتيسر له دراسة هذه الاحياء التي كانت تنفذ لدقتها من المرشحات .

فان الميكروسكوب الكهربائي يكبر حجمها الى ٥٠٫٠٠٠ ضعف فأتاح للطب بما أعطاه من معلومات عنها أن يقاتلها ويوقف ضررها . فقد تيسر بواسطته رؤية جدران الخلايا وميز بين رؤوس الاحياء وأذنابها مثل ميكروبات حمى التيفوس .

***

ومن هذه الدراسات تبين ان بعض هذه الاحياء تتطفل على خلايا الجسم بينما يعيش غيرها دون عائل مستغلاً ضوء الشمس والكبريت أو الامونيا كمصدر لنشاطه . وتتناول الابحاث الميكروسكوبية الكهربائية الآن البحث عن مصدر الاجسام الضارة التي يفرزها الفيرس الذي ربما أدّى وجوده في الخلية الى فقد توازنها الكيماوي .

صور للمجموعات الشمسية

التقط مرصد ولسن في السنوات الأخيرة عدة صور لبعض المجموعات الشمسية تعتبر من أدق الصور التي سجلت حتى الآن . ولأن بعض هذه المجموعات تبعد عن الأرض ٣٠٠ بليون بليون ميل فان التقاط صورها احتاج إلى فتح عدسة آلة التصوير مدة ٧٥ ليلة . لوحظ أثناءها ان حركة الآلة تتمشى بالدقة مع الأشعة المقبلة من المجموعات الشمسية

وكان الغرض من تسجيل هذه الصور اكتشاف التغيير الذي يحدث في الالوان المنعكسة من المخروطات الزجاجية . ولهذا كان من الضروري جداً ملاحظة دقة التصوير ووضوح الصور ففتحت العدسة ١ إلى ٣٠ من البوصة أي أصغر من رأس الدبوس

التنبؤ بالمرض قبل حدوثه

سجلت معامل ديبونت بأميركا جهازاً لتسجيل أصوات القلب سهل الحمل يتاح بواسطته الكشف عن الأمراض التي قد تصيب الانسان قبل حدوثها بمدة طويلة وذلك عن طريق التغييرات التي تنتاب الدورة الدموية . وهذه الآلة الكهربائية ترسل علامات الاضطراب في الدورة الدموية . فقبل أن يشعر الانسان بأي تعب يستطيع هذا الجهاز ان يبين المرض الذي سيصاب به

وهذه الأصوات دقيقة جدًّا لا تستطيع أجهزة ضغط الدم المعروفة تسجيلها. ويتكوَّن هذا الجهاز من ميكروفون يثبت الى صدر الانسان وقرص قياس مدرَّج أو شريط حسَّاس يسجل الجهاز على أحدهما حركات القلب

الشيكولاتة أحسن وسط للفيتامينات

تهتم مصانع الشيكولاتة باعداد قوالب خاصة منها لعلاج الأطفال في اوربا المحررة من أمراض سوء التغذية ، فبعد عدة أبحاث طبية وكيماوية وجد العلماء ان زبدة الكاكاو هي أحسن وسط تعيش فيه الفيتامينات محتفظة بموادها الضرورية لاعادة الصحة والنشاط لمن فقدوها نتيجة لسوء التغذية المستمر . وقالب زنته أوقية واحدة من هذه الشيكولاته مزوَّد بفيتامينات (ا) و (ب ا) و (ح) و (د) يكفي لتزويد الطفل يوماً كاملاً بكل حاجته من الغذاء .

وجرِّبت هذه الشكولاتة في اطفال جزيرة مالطة ممن تتراوح أعمارهم بين ٧ سنوات و ١٤ سنة ممن قاسوا سوء التغذية فترةً طويلة اثناء حصارها فكانت النتائج باهرة . وعلى هذا الأساس توزِّع القوات المتحالفة كميات كبيرة من الشيكولاتة على البلدان التي تحررها من اوربا

غلام يخترع طائرة

اخترع شاب اميركي في التاسعة عشرة من عمره طرازاً جديداً من الطائرات التي تهبط وترتفع عموديًّا وليس لها ذيل . ولها محركان فوقها، ويدوران في اتجاهين متضادين، وطول الطائرة ١٢ قدماً ، وطول كل من المحركين ٢٥ قدماً . وقد بدأ هذا الشاب في وضع تصميمها عند ما كان غلاماً عمره ١٦ سنة فقط .

ويقول بعض اخصائيي الطيران أنها قد تصبح طائرة المستقبل

لكشف عيوب المعادن

سجل أحد المخترعين آلة للكشف عن عيوب المعادن بالموجات الصوتية ، فعند ما تختبر هذه الآلة قطعة من الصلب مثلاً فانها تطلق موجتها التي ان صادفت عيباً ارتدت وسجلت الآلة وقت رجوعها . وبه يحدد موضع العيب .

وتختبر هذه الآلة قطعة من المعدن طولها ١٠ أقدام في ثانية واحدة

القراءة في الظلام

يستطيع البحارة وقادة الجيوش قراءة خرطهم في الظلام الدامس ، فقد اكتشف الكيماويون مادة مضيئة ان أضيفت إلى حبر الطباعة أرسلت الكلمات المطبوعة شعاعاً في الظلام ، وان أضيفت هذه المادة إلى مواد صناعة الورق أضيئت صفحاته . وفي كلتي الحالتين تسهل القراءة وهو مايتبع في ميادين القتال وأثناء سير السفن في الظلام

سيارات ما بعد الحرب

صنعت إحدى شركات السيارات سيارة تسع لركوب ثلاثة أشخاص وهي تزن ٤٥٠ كيلو، ومصنوعة من الألومينيوم والمنجنيز والدوراليوم ، ويكفيها جالون واحد من البنزين لقطع مسافة ٤٠ ميلاً ومحركاتها مجهزة بآلة تبريد هوائي .

ثلاث عمليات دفعة واحدة

يستعمل بعض المزارعين الاميركيين آلة تحرث وتعزق وتمهد الأرض في عملية واحدة ويغوص سلاحها في الأرض ست بوصات

مكواة آلية

افتنت مصانع المكاوي في تصميم نوع جديد من المكاوي الكهربائية ، فصنعت مكواة ملابس انسيابية الشكل ، لا تحتاج لتشغيلها الى رفعها من مكانها فانها دائماً ترتكز على أحد طرفيها،وما عليك إلا دفعها الى الاتجاه الذي تريده .

فناجين الشاي من العجائن

صنعت فناجين الشاي وأطباقه من العجائن (الباغة) فأثبتت انها أصلح من مثيلتها من الصيني لانها ليست سهلة الكسر كما انها تحتفظ بشكلها الظريف مدة طويلة

قارب لا يغرق

ظلَّ رجال البحرية البريطانية سنتين يحاولون اغراق أحد قوارب النجاة التي اخترعها أحد المهندسين ولكن جهودهم ذهبت أدراج الرياح . فان ملأه بماء البحر وحده لا يكفي لاغراقه . جرَّبوا تحميله بأثقال كثيرة هبطت به إلى قاع البحيرة ، فلما أزيلت الأثقال طفى القارب إلى سطح الماء مرة أخرى . أما مادة هذا القارب فمن الاسرار العسكرية

أنابيب ماء من الغاب

استعيض في الصين عن أنابيب الماء المعدنية بأنابيب من غاب البامبو فاستطاعت القوات الأميركية مد أنابيب ماء طولها ٦٠٠ قدم في مقاطعة يونان في الصين .

فقد لاحظ الأميركيون ان هذا النوع من الغاب ينمو بكثرة في تلك الجهات وانه صالح لهذه العملية فأعدوه لهذا الغرض ، وأنشأوا منه أول خط مائي لمد القوات العسكرية بالماء اللازم لها من الينابيع . وبذلك وفروا ما زنته ٦٧٨ رطل من الأنابيب المعدنية فضلاً عن نفقات صنعها ونقلها

ماء عذب من البحر الملح

اذا غرقت سفينة ولجأ بحارتها ومسافروها الى قوارب الانقاذ فانهم يستطيعون الحصول على ماء عذب من ماء البحر الملح . وذلك بأن يغمروا قطعة من القماش في مائه ثم يضعونها تحت غطاء لا ينفذ منه البخار ومرتفع عنها قليلاً . فان الماء العالق بقطعة القماش سيتبخر بفعل حرارة الشمس ثم يتكثف على شكل نقط ماء تسيل إلى حافة الغطاء المصنوعة على شكل أنابيب تجمعها في أي أناء ليشربه الناس الى أن يأتيهم الفرج

التليفزيون في المستقبل

صممت احدى شركات الاذاعة اللاسلكية جهازاً صغيراً للنشر بعد الحرب وهو عبارة عن راديو مصوَّر (تليفيزيون) . وليس من الضروري أن تجلس بجوار الجهاز اثناء الاذاعة فانه يسجلها بطريقة آلية على سلك دقيق من الصلب تستطيع استعادة سماعها في أي وقت تشاء

الاذاعة وأوجه القمر

أعلن أخيراً ان نقاء الاصوات ووضوحها في أجهزة الاذاعة له صلة باختلاف أوجه القمر فتتحسن من التربيع الأول الى ما قبل البدر الكامل بقليل ، ومن التربيع الاخير إلى ما قبل ظهور الهلال بأيام .

فوزي الشتوي

فهرس الجزء الاول

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الثاني من المجلد السابع بعد المائة

١ يوليو سنة ١٩٤٥ — ٢١ رجب سنة ١٣٦٤

الفيلسوف الباكي

هيرقليطس الايوني (١)

« هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها هي شمعة كادت تذهب . أما السماوات ، التي خيل للناس انها ثابتة لا تتغير ، فانها لا تعرف من معنى الأبدية ، إلا أبدية انها مسوقة في مجرى الأشياء » .

أناتول فرانس : في حديقة ابيقور

لا طفرة في الطبيعة . لا تعرف الطبيعة الطفرة ، لا في عالم الانتاج الفكري ، ولا في عالم التوليد العضوي . كذلك نجد في عالم الفلسفة ان « البدايات المطلقة » هي في حكم المستحيلات . وإنك مهما عيَّنت مبتدأ هذه الفكرة أو ذلك المذهب ، أو حدَّدْت منتهى أحدها ، كمذهب « التذكّر » — Reminiscence أو مذهب « الدَّلف المستمر » — Perpetual flux أو نظرية « الاستقراء » ، أو النظرة الفلسفية بوجهٍ عام ، فإن الأخصائي في مستطاعه دائماً أن يقع على اشارة أو مبتدأ لذاك المذهب أو تلك النزعة الفلسفية . فان أكثر أعمال التحليل العقلي غرارة ، تحتاج إلى زمان حتى تتكوَّن وتبدأ في الظهور . والمعرفة التأملية في أبسط مظاهرها ، والتجريدات التي تبلغ من التفاهة بحيث يتعذر علينا أن نعتقد أن عقلاً بشريًّا قد يخلو منها ، ينبغي لها أن تنشأ ثم تنمو ، ولكن بصعوبة وجهد جاهد . والفلسفة نفسها ، عقلية أو أدبية ، لها ممهداتها ومذلّلات سبلها وسوابقها ، مُصوَّرَة في الشِّعر الذي يسبق ظهورها في العادة . فعبارة من العبارات التعميمية القوية مثل التي لحظها

(١) صورة فلسفية سوف نعقب عليها بصور أخرى حتى تجلو هذا الفيلسوف العظيم في لوحة ظاهرة الاجزاء .

«هيرقليطس» عندما نظر في تدفق الوجود وعدم استقراره فقال — « الأشياء تدلف بعضها في إثر بعض » (١) — Panta rei — قد تحدث شيئاً من التيقظ بجدتها في بعض العصور، ولكنها تثبت في العقول، لأنه يختفي من وراء أرومتها الفكرية، غريزة طبيعية من غرائز العقل، لم تستكمل قوامها ولم تحز كل قوتها .

***

اعتقد الكثيرون أن « أفلاطون » هو خالق الفلسفة . ولا مرية في أنه قد اصطنع في عالم الفلسفة تقدماً عظيماً ، نقلها من خشونة البدايات التي نلحظها في البحوث العلمية التي ذاعت عند اليونيين أو الالياويين ، إلى تلك الآفاق العليا التي ظهرت فيها الفلسفة كاسية حلة الأدب الرفيع، فكأنه بلغ بالفلسفة غاية من غاياتها العليا . وإنَّ نظرةً في عالم المعرفة ذلك النظر الموسوعي الشامل ، لأكثر من خطوة ارتقائية . فلم يمر بالعقل البشري من قبلها نظرة بزتها قوة أو جمالاً أو تغلغلاً في صميم الأشياء ، بحيث يمكن أن تقرن بها . وما حمل أفلاطون قد يلوح ، مع التأمل ، كأنه ابتكار صرف من المبتكرات التي يفخر بها العقل البشري في فجر حياته . ولكن الحقيقة ان الدنيا التي ولجها أفلاطون ، كانت تعج بالمذاهب والخلافات الفلسفية ، وتضج بالمنابذات الطائفية ، ومبادئ المدارس المتباينة . وكذلك اللغة ومذاهب الفكر ،كانت قد نالت منها السفسطة ، والجو الذي استنشق أفلاطون عبيره لم يكن جواً خالصاً من ذرات تأمل مريض .

في كتاب « طيماوس » Timaeus الذي عالج فيه أصل الكون ، ظهر أفلاطون بمظهر الناقد الانتقائي ، أكثر منه مؤلفاً لنظرية حديثة في الفلسفة ، كما يدل على ذلك تلك الحيرة التي لابسته عند ما مضى ينتقل من نظرية الى أخرى تنقضها ، وكما أننا قد نرى أن ذلك الكتاب قد أصبح كمختزن حشدت فيه كل النظريات الفوسيقية ،كذلك يخيل الينا ، إذا ما قرأنا كتابه فرمنيدس — Parmenides — ان كل المشكلات الميتافيزيقية (الغيبية) قد مرت بعقل أفلاطون وهو مكبٌّ على تسطير ذلك الكتاب . ندرك من ذلك أن بعض النتائج التي وصل اليها غيره من المفكرين السابقين عليه ، ولو انها كانت قد ماتت وذهب ريحها ، قد دخلت في فلسفته فكونت أجزاء من هيكلها . ترى ذلك أينما وليت وجهك في أنحاء ما كتب ، لا على الصورة التي ترى بها الاجزاء المنتحلة القديمة تزين واجهة بناء جديد متفرقة بين نواحيه ، ولكن تجدها منتثرة هنا ثم هنالك أشبه بالبقايا الدقيقة المستمدة منه حياة عضوية قديمة ، امتصت ثم مُثِّلت ، فكانت في حياة جديدة ، جزءاً مقوماً منها .

(١) اضطررنا إلى رسم بعض الالفاظ اليونانية بحروف لاتينية للضرورة

إن مبادئه الأساسية وفكراته الجوهرية التي قام عليها مذهبه ، تدفع بنا الى الرجوع سعياً ، لا الى أسلافه الأقربين ، ولا الى معلمه العميق الغور سقراط ، الذي عاش في صفحات ماكتب أفلاطون ، ولـكن إلى مدارس متفرقة سبقته فأكبت على التأمل الفكري في اغريقية وأيونيا وايطاليا . ومن قبل هؤلاء قد نرجع الى عصر الشعر ، ذلك العصر الذي نرى فيه بدايات الفلسفة تـكاد تبدو من ضباب الزمن ، وهي لا تكاد تعرف ، حتى من قيمة ذاتها شيئاً.

ثم مد نظرك لأبعد من هذه الفلسفة غير الواعية لحقيقة ما هي ، وانغمر في ضمير الزمان الى تلك البدايات التي تمثلت في الميول العقلية والخلجات النفسية وترامى قوى الفكر الى حجب العالم، تجد أن هذه الأشياء قد شهدت ميلاد فـكرات تمت الى فـكرات أفلاطون بنسب ، منحدرة اليه من مدنيات عتيقة موغلة في القدم ، من الهند ومصر، وتجد فوق ذلك أن هذه الفكرات لا تزال حتى اليوم تؤثر أثرها المحتوم في عالم التأمل .

مَثَل فكرات أفلاطون، كاللغة التي استعملها ، كلاهما اصطبغ بصبغة الجهد، ونمّتا عن أثر العناية والدقة ، بالرغم من أن لهذه الفكرات وتلك اللغة ، أصحاب قدماء ، ترجع اليهم نشأتهما. وقلما نُتّهم بالمغالاة إذا قلنا إن أفلاطون بالرغم من الجدة التي نلحظها في لغته الفلسفية، فان كل موضوعات الحـكمة التي تكلم فيها ليس فيها من جديد صرف . أو نقول إن آثار أفلاطون الفلسفية ، كـكل نواتج العبقرية البشرية الاثينية ، ما يلوح فيها انه جديد ، انما هو قديم بمعنى مـّا ، هو تعليق أو تحشية، مثلها كالثوب الجديد الذي ينسج من خيوط قديمة استعملت من قبل في ثوب آخر ، او كمثل كائن حي ، عاشت جزئياته التي منها يتألف وماتت، مرات عديدة على كرّ الزمان .

ليس من جديد إلاّ ذلك المبدأ الخالد الذي يهب الحياة ويؤلف بين عناصرها . الجديد هو الصورة المرئية ، واللون الذي تجلى فيه تلك الصورة ، والقوة التعبيرية التي تلابس الفكرات الذائمة ، بما يدخل عليها من المجانسة والتوفيق والألفة . وبعبارة أخرى نقول ان الصورة هي الجديدة .

وبعد فان الأمر في خلق أدب فلسفي جديد ، كالأمر في خلق أي أثر فني، يوحي إلينا أن الصورة بأوسع معانيها ، هي كل شيء ، وإن المادة التي يتألف منها من حيث الجدّة ، لاشيء.

هنالك ثلاثة أساليب بها تنقد الآراء الفلسفية ، بل وكل الآراء التي تنزع الى التأمل . فكل المذاهب والآراء التي بثت في جمهورية افلاطون مثلاً ، يمكن أن يخضعها الناقد جميعاً الى هذه الأساليب ليكشف عما فيها من الخطأ أو الصواب . وهذه الأساليب النقدية هي :

الأسلوب المذهبي : وهو طريقة للحكم في مستفادات العقل الانساني ، وإن بعدت عن

فكر الناقد وعصره ، بمقتضى تلاؤمها أو تناقضها مع المبادىء التي قال بها باكون أو اسپينوزا أو مل أو هيجل أو غيرهم ، مقيسة على أفضل ما يتعلق به الناقد من المتجهات العقلية .

ثم الأسلوب الانتقائي أو التوفيقي : وهو أسلوب يرمي الى أن يلتقط الناقد من المذاهب المتنابذة أو المتعارضة ، ذُرَيْرات الحق المتناثرة في ثناياها بحسب ما يراه منها حقاً . وهو أسلوب يشيع في العصور التي تقوى فيها نزعة القراءة وتتسع فيها المعلومات ، ويكثر شحن الاذهان بالآراء والفكرات ، ولكن بغير أن يكون للمعلومات المستجمعة على هذه الصورة قوة أولية خاصة بها ، ومثلها مذهب الافلاطونية الجديدة كما شاع في مدرسة الاسكندرية في القرن الثالث الميلادي ، أو كما عاش في فلورنسا في القرن الخامس عشر . وأهم نقائص هذا الأسلوب الرئيسة فيه ، هي نزعته الى تشويه المذهب الأصلي الذي يحاول تبيانه وجلاء غوامضه ، لكي يلفق أو يؤلف بين أحسن ما فيه ، وبين العناصر الاولية في نظام فلسفي آخر مسلمٍ وموثق به من ناحية الناقد .

هذان الأسلوبان النقديان نحّيا الطريق في القرن العشرين ، بتأثير نظرية هيجل الثابتة التي كوّنها فيما دعاه « روح العصر » ، وهي روح دائمة التغير مستمرة الفيض والتدفق ، لأسلوب ثالث في النقد ، هو الأسلوب التاريخي . وهو أسلوب يحملنا على أن نردّ المذهب الذي نكب على نقده أو الأثر الفلسفي الذي انحدر الينا من مخلفات الماضي ، كجمهورية أفلاطون مثلاً ، بقدر المستطاع وجهد ما يصل الجهد ، إلى مجموعة الحالات العقلية والاجتماعية والمادية التي أحاطت به حال نشوئه . هذا إذا ما أردنا صادقين ان نتفهمه ونتفقه فيه . فان هنالك بضعة مبادىء اقناعية بقوتها ، نستطيع أن نحكم من طريقها في أشياء العقل : أسويّة هي أم لا سويّة ، لدى أول تأمل نحصره فيها ، كما أنها تمدنا بمعنى يقبله العقل من ناحية أصلها وكيفية نشوئها .

أول هذه المبادىء انه ينبغي لنا أن نعتقد أن لكل عصر عبقرية خاصة ، أشبه بعبقرية الأفراد ، وان لكل عصر « صورة عامة » أو « طابع عام » يستمد من الحالات التي تدمغ كل ما ينتج في ذلك العصر من عمل أو فن أو تجديد أو تأمل أو دين أو أخلاق ، بل ويدمغ وجوه الناس أنفسهم ، وانه ما من شيء استخلصه الانسان من طبيعة نفسه ، يمكن أن يفهم حق الفهم ويدرك حق الادراك ، إلاّ في عصره الذي نشأ فيه ، ومن ينبوعه الأصيل الذي خرّجه من تضاعيف تلك الحركة الدائمة التي يختص بها هذا النظام الدنيوي ، وان أسمى ما ينبغي أن ينصرف اليه من يتصدى لدرس المذاهب الفلسفية ، انما هو تنمية « الملكة التاريخية » في نفسه .

ان كل شيء في الوجود هو مقولة منطقية قائمة بذاتها من مقولات الضرورة القاسرة . لذلك ترى أن العقائد مهما ضربت في الخيال ، ومشت مع التصور ، « كشيوعية » أفلاطون مثلاً ، انما تقع على أصولها الطبيعية إذا ما رددتها الى تلك المقولات ، وما نقصد بالمقولات هنا إلا الحالات التي أحاطت بها ، والتي لم تخرج تلك العقائد عن أن تكون جزءًا منها ، ونبذة من مجموعها .

***

في الحياة الفكرية ، كما هي الحال في الحياة العضوية ، ترى ان كل كائن ، بما فيه من خصائص ، سويّة ولا سويّة ، انما هو خاضع في حتمية وجوده وهيئته ، لحكم «البيئة» . واذن يكون خير ما يعكف عليه دارس أفلاطون ، لا أن يؤيده في نقاش فلسفي ، ولا أن يعتنق آراءه أو يرفضها ، أو يكيفها ، أو أن يتلمس الأعذار عمّا يظهر في أفلاطون انه ضلال عن الحق ، أو ان يزوّد عقله ببراهين وأدلة تؤيد نظرية أو معتقداً يكوّنه هو في مخيلته ، كلاّ ، انما ينحصر واجبه في أن يتتبع ، بفهم وبغير تحيز ، التساوق الذهني فيما يقرأ ، كما يتتبع حركات اللاعبين في ملعب عام . وخير من ذلك لكل من يقرأ أثراً من آثار العقل البارزة ، مثل رواية هملت أو منظومة دانتي أو جمهورية أفلاطون ، ان يلحظ أنه انما يرقب من خلال السطور عقلاً جباراً قويًّا فياضاً ، يحاول أن يترجم عن نفسه ، وهو محوط بمجموعة معقدة من الحالات ، لا يمكن أن تتكرر في الواقع مرة أخرى . مجموعة اختصت ، ذات عصر ، بصفات متعارضة ، فكانت لينة خشنة ، دمثة هوجاء في وقت معاً ، وان تلك الترجمة قد صبت في قالب عمل أدبي عظيم ، هو تلك السطور التي تجول في أنحائها ناظراه .

إن الأسلوب الطبيعي في نقد أفلاطون ، هو أن نضعه في موضعه الطبيعي ، فيكون بمثابة نتيجة لمقدمات هي حركات الفكر التي ذاعت في عصره ونزعات التأمل الاغريقي والحياة الاغريقية عامة . تلك هي طريقة الأسلوب التاريخي ، وهو الأسلوب السليم في نقد أفلاطون ، وعليه ينبغي أن نقيس . وما أفلاطون هنا غير مثلٍ اخترناه

***

أول ما يبهرك إذا ما مضيت تنظر في جمهورية أفلاطون ، بملكة تاريخية ، حقيقة أن بعضاً من فكراتها الأساسية قد استمدت من مفكرين تقدموه ، قد يتفق أن يصلنا عن بعضهم معلومات مستقلة عن ما نستقيه من الجمهورية .

في مدى الحياة الاغريقية الخاصة بصور النشاط الفكري ، تقع هنا أو هناك على مفكر يعكس عن فكره عملاً من أعمال الوعي الفلسفي ، عمل يقوم به المفكر ببساطة ، لأنه نتاج

التأثير المستمد من العالم المنظور الدائم الفعل في ما يحيط به من الأشياء . ومن أسلاف أفلاطون الذين تقدموه في عالم الفكر ، وهم كثيرون ، فئة أضفى عليها الفكر في العصور الحديثة شيئاً من القيمة وخصها بقسط من الأثر ، تلقاه ما كتب الفيلسوف هيجل وغيره من المعقبين على مذاهب الفلسفة ، فنجد فكراتهم ، وربما نجد ألفاظهم بذاتها ، مبثوثة في متن أفلاطون . وقد تبرز جلية واضحة في صفحات الجمهورية . منهم فيثاغورس ، الذي قد يلوح للبعض كأنه انساناً نصف خرافي ، صاحب المذهب المعروف في العدد والموسيقى ، وفرمِنيدَس ، الذي يقول فيه أفلاطون تبجيلاً « ابي فرمِنيدَس » — رأس المدرسة الالياوية ، ثم ثالثهم هيرقليطس القائل بنظرية « الدَّلْف المستمر » . ثلاثة من كبار المعلمين ، ينبغي ان نسلم بأن كل ما وصل الينا عنهم من التعاليم إنما هي أشتات فيها غموض . ولكن طريقة واحدة ، تجعلنا نُقَيِّم مخلفاتهم ونستخلص ما علموا به استخلاصاً فيه بعض الدقة والتحديد ، هو استقراؤهم من خلال ما كتب افلاطون .

هيرقليطس فيلسوف كتب فلسفته نثراً ، ولكن في تضاعيف ما نثر روحاً من الشعر تشيع فيه ، فنصف فلسفته مصوغ في قالب شعري منثور ، وتأمل صبّ في قالب نثري فيه روح الشعر ، ونصفها معلومات تعميمية ، أداها في أسلوب فيه عبوس وابهام ، ولكنها منعشة للفكر ، محركة للتأمل نافذة إلى أعماق النفس . ولا ننسى مع هذا أن بعض النقاد قد رأوا ان نثره ، في بعض المواضع ، كان مثالاً احتذاه أفلاطون ، فهو بذلك أحد الذين يعتبرهم أفلاطون آباءه في الفكر والحكمة . لذلك نقول إن أثره في أفلاطون — وأفلاطون في أول أمره من الهراقلة[1] — قد عمل في عقل أفلاطون وأثر فيه بقوة التضاد والركس العقلي (أي رد الفعل) . فان وقوف أفلاطون موقف الضد والخصم من كل مذهب فلسفي قال بمبدأ « الحركة » ، قد كان بمثابة « الفكرة الثابتة » التي لا يمكن أن يتولاها الوهن أو يؤثر فيها الدليل والبرهان .

هيرقليطس ، فيلسوف من أهل « أفسوس » ويكفي أن نعرف من أفسوس أنها احدى المدن الاثني عشرة التي ألفت الحلف الايونيّ . مات قبل أن يولد أفلاطون بحوالي أربعين سنة . وكانت أفسوس في ذلك العصر مقرّ الحركة الدينية ومهبط أهل الدين في إيونيا ، وكانت قد تخلصت منذ قريب من مستبدين استبدوا بها وقضوا على حريتها زمناً . أما هيرقليطس ، فمن أسرة قديمة كريمة الأرومة ، فهو نبيل بمولده ، سيد بمركزه الاجتماعي ، كريم الخلق بطبعه . فكان في جوّ تلك الديمقراطية الاغريقية الحديثة المرتجة غير المستقرة ،

(١) أتباع هيرقليطس

والتي لم تثبت أصولها بعد في نفوس الافارقة ، كمرآة انعكست عليها الصور القائمة من حولها من غير أن تؤثر تلك الصور في صفائها بشيء، رغم انها كانت عنيفة هوجاء ، وكذلك ظلّ هذا الرجل ، بالرغم من اضطراب حالات عصره، محتفظاً بهدوء نفسه ، وسلام روحه . وربما يكون قد حدث في تلك البيئة ، على قدم عهدها وقربها من أوليات الحركة الفكرية ، مثل ما نراه قد حدث في غيرها من البيئات قريبة العهد بزماننا ، من تناسُخ مذاهب الفكر وتغيرها على وجه الدوام ، هذا يجيء ، وذلك يذهب، دوراً بعد دور، بمقتضى المسالك التي يتجه فيها الفكر ، وهي مسالك ، شدّ ما تغمض علينا أسبابها .

تقوم الامبراطوريات فتزهو وتزهر ، ثم تضمحل وتموت . وبالقياس على ذلك ، وان كان مع الفارق ، اضمحلّت في مدينة أفسوس طائفة النبلاء ، وبالحري طائفة ذوي المصالح الحقيقية ، كما نعرفهم في عصرنا هذا . وفي غمرة تلك الأحداث ، وفي وسط ذلك القلق البادي في حياة الاغريق لدى أول عهدهم بفتوة الفكر ، ولفتوة الفكر انطلاقاتها العنيفة كفتوة الحياة تماماً ، تقع على رجل من أشد تلك الطبقة النبيلة كبراً وعزة ، ضمّ الى ارستوقراطية المولد والنشأة ، أرستوقراطية المواهب العقلية : تقع على هيرقليطس ، يعمل ويبشر ، بالرغم من موضعه هذا ، بحرية الفكر المطلقة ويؤيدها ، ويطلبها غير مقيدة بقيد ولا معلقة بشرط . ولكنه برغم هذا كله ، على ما نتصور من أمره ، يشعر بالخيبة والحزن ، إذ يرى أن تأملاته الفلسفية لا تلقي على ما حوله من العقول والأشياء ، إلاّ بأشعة ضعيفة حائلة اللون . وفي فصول تلك المسرحية التي يمثل أدوارها أشخاصٌ بعدوا عن الفكر الفلسفي، وحرموا نعمة التأمل في حقيقة الاشياء ، حتى لقد عدموا الشعور بما كان قائماً من حالات الدنيا الحافّة بهم فمضوا لها منكرين ، كان هيرقليطس وحده الانسان المفكر الواعي بذاته .

يتأمَّل . وفي تأملاته خصائص ذلك الحزن الذي يملك زمام الشباب اذا اضطرّ الى التأمل وأفعمتهُ دنيا الانسان ودنيا الطبيعة ، بغذاء للتأمل . وفي لحظة يشعر بأنهُ قد عمّر وانهُ أصبح شيخاً ، وأن حرارة الدنيا التي سلبتهُ صفة الشباب ، قد أخذت تتناقص، وأنّ قرّها قد أصبح في حناياه .

ومع هذا فان هيرقليطس ، قد مضى مترفعاً عن العامة ، مبتعداً عن السوقة ، ليفكّر ويتأمل . كان ذلك في عصر نقول انهُ ربيع التاريخ الاغريقي ، والدنيا من حوله تمر مرّ السحاب ، والحياة تتدفق في تيارها المنسجم الدائم ، فانعكس من هذه الأشياء على فكره صور كوّنت لباب تأمله وعناصر فلسفته التي لم تتخذ صورة البحوث المطولة ولا صبت في

قالب مذهب ، بل كانت أقوالاً تدور حول فكرة أساسية من الدألف المستمر ، وأن كل الأشياء تزول ولا شيء يبقى .

(Panta chowrei kai ouden munei)

مرَّ من قبل هيرقليطس بحّاث وفلاسفة من طابع آخر . فلاسفة طبيعيّون ، تطوّحوا مع ظنون جريئة متناقضة في حقيقة ما تتألف منه العناصر الأولية ، ودنيا الأشياء المرئية ، والشمس والنجوم والحيوان ، وتسللوا من ذلك الى البحث في ما تتألف منه أرواحهم وابدانهم . كان هؤلاء جزءًا من عالم التجديد الاغريقي في ذلك العصر ، عصر الانطلاق العقلي . كانوا بمثابة مجموعة من المغامرات العقلية ، وقعت في أرض مجهولة أو بحر غير مطروق .

إن المُحَصّلة العقلية التي أدى اليها تفلسف هؤلاء كانت فوضى غامرة عبّرت عن روح الشباب المتوثبة الموهوبة المتمردة . ولا ننسى ان كلمة «شباب» في اليونانية (Neotys) قد عبرت عن الغرور والنزق . وقد مضت تلك الروح متسائلة قابلة رافضة قاطعة مترجرجة متعلقة ببينات لجّة غامضة ، متمردة على النظام ، بعيدة عن اتباع أسلوب معين ، مطلقة من القيود ، إباحية غير مسئولة . هذه الآراء ، بحكم حلولها ثم ذهابها ، وتلك التخيلات التي صيغت في حقيقة الدنيا وما يختفي وراء ظواهر الدنيا المحسوسة ، كانت بطبعها عناصر مائعة تتموج على صفحة الوجود .

نعم . نقول « صفحة » الوجود . ولكن أمن شيء يختفي وراء هذه « الصفحة » المرئية ؟ ذلك ماينكر وجوده هيرقليطس . بشّر بذلك لسامعيه وقارئيه . ليس من شيء الا « الحركة الدائمة » ، في الأشياء وفي الآراء التي تتعلق بتلك الأشياء . تلك الفلسفة الحزينة الواعية بذاتها ، فلسفة هيرقليطس الشاب الذي تقدمت به المعرفة فوق سنيه ، وفي ذلك الوسط الذي مثل شباب العقل في شباب دنيا الفكر ، لم يستطع ذلك الفيلسوف أن يستقوى على ثبات تلك الفكرة في نفسه ، فكرة « الحركة الدائمة » أو « الدألف المستمر » .

أليست هذه الفكرة بذاتها دليلاً على الحركة المستمرة ؟ أليست حركة انتقال من الماضي الميت ، الذي عاش لُحَيْظَة أسلمت به الى « الحاضر » ، هذا الذي سوف يموت أيضاً ، قبل ان نتمكن من أن نشير إليه بقولنا « هاهوذا » ؟

عقلٌ تحليلي من أقوى ما أبدعت الطبيعة من العقول تناول المعلومات وتناول العقل ، وأحاط بكل المعارف التي ذاعت في زمانه ، وحدّد الفكر تحديداً منطقيًّا عاملاً . ذلك ما وُهِبَه هيرقليطس من هبات الطبيعة . ففي يجر وراءه الأشخاص والأشياء من عالم الحركة

الظاهرية الجزئية الى عالم آخر من الحركة الكلية ، حتى ليخيّل إليك انه حاول أيضاً أن يجر الأرض من تحت قدميك ، فيقذف بها في تيار تلك الحركة الجارفة .

***

إليك مبدأ الفساد ، وإليك مبدأ الزوال ، المبثوثان في كل ظواهر الطبيعة . أليسا هما المبدآن المنبثّان في تضاعيف العناصر الأولية التي تتكوّن منها المادة والتي تتكوّن منها النفس ؟

في كتاب إقراطيلوس : يقول سقراط . « ما من أحد عَبَر مرتين فوق مجرى واحد » هذا التغيّر السريع ، اذا لم يجعل المعرفة مستحيلة استحالة مطلقة ، فانه يجعلها على الأقل نسبية في مجموعها ، أي انها تصبح غير ذات قيمة كما يقول أفلاطون . وبذلك يصبح الانسان وسط هـذا العالم المتدفق ، وعند نقطة الزّوال ، تلك التي تحتكم في المكان والزمان ، مقياس كل الأشياء .

من عبارات أخرى في كتاب « إقراطيلوس » يمكن إن نفهم وجهاً آخر من مذهب هيرقليطس . وجه ينحصر في محاولة حاولهـا عساه يردّ ذلك الوجود الذي تغمره فوضى « الدلف المستمر » ، وجوداً نظيماً ذا قوانين وسنناً تحكمه ، فلعلّ هنالك « ألفة دوريّـة » Antiphonal rythm أو منطقاً كونيًّا يضبط الوجود فيتجانس فيه التنقل من حركة إلى حركة ، كما لو كان ذلك المنطق تأليفاً موسيقيًّا معقّـداً ، يربط معاً وفي جملة واحدة ، جميع تلك القوامس المتنابذة المتباينة صورها ، والتي يمضي فيها التباين إلى غير نهاية أو غاية .

كان هذا بمثابة اعتراف ، حتى من ناحيـة ذوي الفلسفة التي تنكر التّسـاوق وتجحد الاتساق، بضرورة ان تعود الى الوجود رتابته، بعد ان غمرته الفوضى المائمة غير المستقرّة، فوضى الطيرة الى الدلف أي الحركة

ولـكن اذا كان الفيلسوف الباكي ، وهو رأس المتشائمين ، قد يجد في خضوع الوجود كله لمبدأ التغيّر وعدم الثبات ، مُسْتَمَـدًّا يستمد منه بواعث حزنه وألمه ، فأجدر به ، ولا ريب ، ان يكون أشد حزناً عندما يرى ان أذن الانسان قد سُدّت ، وان عقله قد استغلق ، فلا هو يسمع ، ولا هو يفقه ، من ذلك اللحن الحزين المنساب في ارجاء الكون ، شيئاً .

اسماعيل مظهر

لا شك يعتورنا شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصوِّر عقل الانسان في العصر القديم ، حيث

من حديقة أبيقور

أُعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك ، ان الأرض في مركز النظام الدنيوي ، وان كل الكواكب يدرنَ من حولها . لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما خيل اليه انه رأى بعيني رأسه وشمَّ بذات أنفه ، أدخنة الكِبْرِيت تنبعث من جهنم ، مُفْلِتة من خلال صدع في الصخور . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثني عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك عطارد والزهرة التي زارها دانتي في يوم « الجمعة » الحزينة من سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التي تُعَلَّق فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن وراء هذه ، رأى بعيني عقله ، السماء التاسعة او الفلك التاسع ، مقر القديسين ، ثم المحرك الأول أو الفلك البلوري ، ثم في النهاية المَطْهَر ، مقام المنعمين واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، أن يتلقفها مَلَكَان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه في طهر الطفل الوليد ، فتغسل بالتعميد وتعطر بزيت السر المقدس .

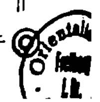
في ذلك العصر لم يكن لله من اولاد غير الانسان . أما بقية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولية وفي صورة شعرية ، فكأنما هي كاتدرائية عظيمة . فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد تتخيله في مجموعه ، وبمختلف صوره وحركاته ، كأنه آلة مركبة من آلات عدَّة .

أما الآن فقد قوّضنا الافلاك الاثني عشر، وكذلك الكواكب التي كان الانسان يولد في ظلها سعيداً أو شقياً، مُشتري الحياة او زُحَليها. أما القبة الصُّلبة التي هي السماء، فقد تهشمت وتطايرت شظايا في اعتبارنا. وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية. فلا نجد اليوم ذلك المطهر مستقر الصالحين والملائكة، قائماً من خلف السيارات بل مئات الملايين من الشموس، تحوطها من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة. وفي وسط تلك العوالم اللانهائية يقع عالمنا، كأنه ذرّة من غاز، وأرضنا كأنها ذرّة من طين.

العوالم تموت، لانها تولد. انها تولد وتموت إلى غير نهاية. والخلق بحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال، لا بدّ من أن يعتوره التغير بغير انقطاع. إن الشموس تنطفىء، فلا نقدر ان نقول اذا كانت بنات الضوء هذه، تبدأ بموتها على هذه الصورة، حياةً اخرى في صورة سيارات، فتكون حياتها الجديدة حياة مفعمة بالخير. كما لا نقدر ان نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارةً أخرى. كل ما نعرف أن السكون غير كائن، لا في السماء ولا في الارض، وان سنة العمل والجهد تحكم العوالم، وتقدّر مصايرها الى ما لا نهاية.

هنالك شموس انطفأت أمام أعيننا، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب. أما السماوات التي خُيّل للناس انها ثابتة لا تتغير، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية، اللهمّ الاّ أبدية انها مسوقة في مجرى الاشياء.

من حديقة أبيقور : أناتول فرانس



قواعد النظام المالي الاسلامي

الخراج

— ٢ —

٤ — استحقاق الخراج

يستحق الخراج بصرف النظر عما اذا كان المالك يزرع أرضه او لا يزرعها ، بشرط ان تكون لديه القدرة على ذلك . إذ ان الداعي لفرض الخراج هو قدرة الأرض الانتاجية ، وصاحب الأرض بقعوده ان زرعها رغماً عن قابليتها للانتاج قد جرد المنتفعين من الخراج من الريع المستحق لهم . على ان الامام مالك يرى انه ليس على حائز الأرض خراج اذا لم تزرع الارض سواء أكان لديه العذر في القعود عن زراعتها أم لم يكن لديه ذلك .

وإذا لم يكن في قدرة المالك زراعة ارضه لافتقاره الى الوسائل التي تمكنه من ذلك فللامام الحق في ان يقطع الأرض لزارع آخر بطريق المزارعة[1] ويرى أبو حنيفة انه عند ما يهجر أهل الخراج أراضيهم فللامام زرعها لحساب الخزانة العامة (بيت المال) او اقطاعها ، وبذلك يكون الدخل الناتج منها كله للامة . واذا لم يتيسر ذلك فللامام ان يبيع الأرض ويجبي الخراج من الثمن المتحصل ويرد الباقي لصاحبها . ويجوز لصاحب الأرض استعادة أرضه اذا أمكنه ذلك اللهمّ الاّ اذا كانت قد بيعت .

ويرى الماوردي انه اذا باين الخراج المفروض على الأرض المحصول الناتج بسبب صاحب الأرض ، فتجبى أقل الفئات الممكن جبايتها ، وذلك لأنه عوضاً عن اهمال الزراعة اهمالاً كليّاً قد زرع المحصول الخاضع لأقل الفئات . وهذا العمل يدخل في نطاق حقه

(١) المزارعة اتفاق بين صاحب الارض وأحد المزارعين مقتضاه أن يقوم الأخير بزرع الارض لقاء أداء جزء من المحصول لصاحبها ، وتسمى أيضاً مخابرة وهذا اللفظ ينصب فقط على زرع الحبوب ويقابله المعاملة والمساقاة في حالة الشجر كما ان المضارعة تقابل معنى المزارعة في حالة التجارة إذ تعني شركة بين رب المال وبين التاجر « المضارع » الذي يشترك بعمله لقاء جزء من الارباح

الشرعي . وثمة رأي لأبي يوسف القاضي يتلخص في انه عند ما يكون صاحب الأرض عاجزاً عن زراعتها فعلى بيت المال أن يقرضه المبالغ التي يحتاج اليها لذلك . واذا ما افتقر صاحب الأرض الى وسائل الزراعة الصالحة فيجب الاشارة عليه بتأجيرها لآخر او يكف يده عنها كي تتحول إلى آخر يمكنه زراعتها وعمارتها ، ويبرر الماوردي ذلك بقوله إنه لا يجوز أن تصبح الأرض بوراً حتى ولو كان خراجها يدفع ، فقد تستحيل الى أرض موات . ويوافق صاحب كتاب الدر على الرأي السابق بتحفظ مؤداه ، إنه لا يطبق إلا على الخراج المعين (خراج الوظيفة) فحسب بشرط أن لا يحال بين صاحب الأرض وبين زراعة أرضه ولا يستحق خراج على الأرض إذا منع من ذلك، وكان الخراج من النوع النسبي والقاسمة.

وإذا كان أحد أجزاء الأرض غابة حافلة بالصيد ولا يمكن زراعتها فيعفى هذا الجزء من الخراج ، وكذلك الحال في الأجزاء التي تنمو فيها نباتات البوص أو أشجار الصنوبر والصفصاف وماشابهها أي الأشجار التي لا تحمل فاكهة . اللهمَّ إلاّ إذا أمكن إزالتها وزراعة الأرض المتخلفة عن ذلك ، ففي هذه الحالة يجبر صاحب الأرض على تأدية الخراج . ويسري نفس المبدأ إذا كانت هناك رواسب ملحية في الأرض تحول دون زراعتها .

وإذا امتلك شخص قرية واقعة في أرض خراجية فلا يؤدي الخراج على منازلها سواء أكان يؤجرها أم لا . كذلك الحال إذا ما حول جزءاً من مسكنه (إذا كان موجوداً في بلد أهله مسلمون) إلى مزرعة فلا يؤدي خراجاً ، إذ ما زال هذا الجزء يعتبر جزءاً من الدار والدور لا يؤدى عليها خراج . على إنه إذا ما حول مسكنه كله إلى حقل وجبت عليه الضريبة . والمرجع في حالتي الفرض والاعفاء ، الى الحالة التي كانت عليها الارض وقت الفتح ، إذ تظل كما هي على مرّ الأزمان . وتطبيقاً لهذه القاعدة أيضاً إذا حول فرد أرضه الخراجية إلى مسكن فانه يؤدى عليه الخراج مثله مثل الأرض سواء بسواء .

ويستحق الخراج مرة كل عام حتى ولو كانت الارض تنتج أكثر من محصول في السنة . ومنشأ هذه القاعدة سنَّة عمر ، إذ كان يجبي الخراج مرة في العام من جهة ، وإلى أن الأرض تنتج بوجه عام محصولاً واحداً في السنة ، والقاعدة تستخلص من الحالات العامة لا الخاصة

ومن الجدير بالذكر ان هذه القاعدة يجوز تطبيقها في حالة الخراج الثابت (الوظيفة) أما الخراج النسبي فهو كالعشر، تجبى الضريبة كلما نضج المحصول[1] .

---

(١) ترى الحنفية أن الارض الخاضعة للخراج لا يجوز أن يؤدى عليها العشر بأي حال من الاحوال في حين تجيز المالكية والشافعية اجتماع الضريبتين

ا — اسقاط الخراج : يسقط الخراج إذا ما هلك جميع المحصول نتيجة لنوازل طبيعية لا يمكن تلافيها كانخساف الارض والبرد القارس والحر اللافح .. الخ . ويبقى الخراج قائماً إذا هلك المحصول نتيجة لأحداث يمكن تلافيها كالطيور الجارحة أو اذا هلك بعد حصاده . ويرى بعض الكتّاب جواز رفع الضريبة إذا هلك جميع المحصول ولم يكن ثمة متسع لزرع محصول آخر قبل انقضاء السنة .

وإذا هلك جزء من المحصول فحسب ، فالضريبة بتمامها واجبة الأداء فاذا كان الباقي يعادل نصف الخراج فيؤخذ نصف المقدار الموجود من المحصول ولا اعتبار للمقدار إذا كان الجزء الباقي أقل من الخراج . وكثير من كتّاب الفقه الحنفي يرون أن أقوم ما يتبع في هذا السبيل أن يطرح من المحصول قبل أي شيء آخر نفقات الزارع ثم يتبع ما سبق بيانه .

ويعللون اسقاط الضريبة في حالة هلاك المحصول بقولهم إن المزارع جدير بالعون والمساعدة وأنه إذا لم تعاونه الدولة فقد يؤدي هذا الى هلاكه وفي هذا ما فيه من الخسارة التي تعود بالنقص في حصيلة الجباية آخر الأمر ، يضاف الى ذلك أنه مما يؤثر عن ملوك الفرس انهم كانوا في حالة هلاك المحصول يمنحون أصحاب الأراضي المنكوبة النفقات التي بذلوها في زرع المحصول فتجب مساعدة الزراع – من باب أولى – في الاسلام . فان لم يكن يمنحهم ما أنفقوه فلا أقل من اسقاط الضريبة المفروضة على الأرض . هذا ومن قواعد الخراج انه لا يستحق إلاّ اذا توفر جني فائدة من الارض والفائدة في حالتنا هذه معدومة .

ب — انتقال الملكية وأثره في اداء الضريبة : إذا ما باع صاحب الأرض أرضه خلال السنة فان الخراج يستحق على المشتري اذا كان في العام فسحة لزرع الأرض وإلاّ استحق الخراج على البائع . بيد أن هذه القاعدة تجوز اذا بيعت الارض وهي خالية من الزرع وإذا بيعت الارض مزروعة وعليها محصولها قبل نضجه فالخراج يستحق على المشتري بداهة ، وبالعكس اذا نضج الزرع وحصد فتعامل الارض كما لو كانت خالية من الزرع . وان انتقلت ملكية الارض مراراً ولو لم تبق في حوزة مالك أكثر من ثلاثة شهور فلا يستحق الخراج على أي من البائعين . ويحدد بعض الفقهاء المدة الكافية للزراعة بثلاثة أشهر وهي المدة الكافية لزراعة القمح والشعير ويتخذون هذه المدة أساساً لتقدير مدد المحاصيل الأخرى .

والخراج النسبي كالخراج الثابت فيما يتعلق بالاستملاك ، ولكنه كالعشر في جميع الوجوه الأخرى . وينتج عن ذلك أن كل محصول يدخل في نطاق نظام العشر يجوز اخضاعه كذلك لنظام الخراج النسبي ، وهو كالعشر كذلك لا يستحق كلما أنضجت الأرض محصولاً . كما أن الضريبة تسقط إذا ما هلك المحصول ولو كان بعد الحصاد الى غير ذلك من القواعد الخاصة بالعشر

والقاعدة أن وجود الدين لا يبرّر اعفاء الأرض من الخراج. ومن ثمّ فان ديناً خراجياً. من أي نوع لا ينقضي بموت صاحب الارض ولكنه يجبى من ورثته[1].

ويرى الماوردي (انظر الأحكام السلطانية) ويجاريه في ذلك الشافعي (في كتاب الأم) انه إذا أجرت الأرض الخراجية بمقابل أو بغير مقابل فان الضريبة تجبى من صاحب الارض لا من صاحب الاجارة. ولا يوافق أبو حنيفة على هذا الرأي إذ يرى أن الضريبة تجبى من صاحب الاجارة اذا أعطيت له الارض بدون مقابل وتجبى من صاحب الارض في الحالة الأخرى.

جـ — تقسيط الضريبة والاعفاء منها في حالة العجز: يرى أبو حنيفة جباية الخراج مقسطاً بأن يجبى من كل محصول حصته النسبية من خراج العام، مثال ذلك: اذا كانت هناك أرض تنتج في السنة محصولين متماثلين في الاعتبار وأوقات حصادهما متباينة، فانه إذا جبيت الضريبة على المحصول الأول فيجب عليه نصفها فحسب، ويجبى النصف الآخر عند نضج المحصول الثاني . . وهكذا.

واذا عجز أحد الناس عن أداء ما في ذمته من الخراج، فيمهل حتى تستقيم حاله. ويربط أبو حنيفة استحقاق الخراج بالقدرة على أدائه، وبالتالي يسقط إذا ما تعذر الأداء. واذا ما تأخر المكلف عن اداء ما في ذمته من الخراج على الرغم من قدرته على الاداء فيحبس حتى يؤديه، اللهمّ إلاّ اذا وجد لديه مال يقوم باداء ما عليه. وهنا يباع بعض ماله أو كله ويسوى الدين الذي عليه بالمتحصل من ثمن البيع كما يحدث بالنسبة لتسوية المطالب المادية. فاذا لم يكن لدى المدين سوى أرض الخراج فللامام أن يبيع ما يكفي لاداء الدين أو يؤجر الارض ويسوي الدين بالمتحصل من الاجارة ويرد الباقي لصاحب الارض. وللسلطان الاستيلاء على محصول الارض حتى يجبي الخراج.

ويجوز أداء الخراج معجلاً لعام أو عامين. فان حدث بعدئذ أن تلف الزرع لسبب من الاسباب، ردّ الخراج لصاحب الارض. ويجوز أن يبقى محسوباً كخراج للسنة التالية.

واذا جبي العصاة أو الخوارج الخراج فليس للامام جبايته ثانية اذا ما استعاد سلطانه على المكلفين، إذ أن مبدأ الضريبة يقوم على الحماية.

د — لا تقبل في الاداء سوى العملة الفضية أو الذهبية التي لم يدخلها غش أي التي لم

(١) ورد في المبسوط ان الخراج يسقط عند موت صاحب الارض قبل حلول موعد جبايته ولا يجبى من ورثته، مطبقاً في ذلك قاعدة خراج الرؤوس (الجزية) ويفسر ذلك بأن خراج الارض فيه معنى الاخضاع، هذا ولا تجوز جبايته من الورثة فرغماً عن تملكهم الارض لا يمكنهم زراعتها.

يدخل في تركيبها معدن أقل في القيمة . وينتج عن هذه القاعدة انه لا تقبل سوى العملة الموسومة بخاتم السلطان . ويتفرّع عن ذلك عدم جواز الأداء بالسبائك إذ لا يمكن القطع بصحتها إلاّ بالصهر . ولا يجوز التشبث بطلب الاداء بعملة معينة وإلاّ عدّ هذا تعسفاً . ولا يقبل الأداء بالدراهم والدنانير المكسورة (أي التي أصابها النحات الشديد) .

واذا كان الخراج نسبيًّا فكل عيار يصلح لهذا الغرض . واذا كان ثابتاً فقد اختلف الفقهاء في تعيين الخراج . فورد في العلمكيرية مثلاً أن المكيال الواجب هو الصاع .

أما الماوردي فيرى انه إذا جبي الخراج من ناحية لأول مرة فيستخدم مكيال هذه الناحية أساساً للجباية .

أما عن مسح الارض فالمقياس الشائع هو الجريب ويساوي ٣٦٠٠ ذراع والذراع يساوي سبع قبضات . ويستحسن بعض الكتّاب استخدام المقياس الشائع في الناحية المجبي منها الخراج .

وعند الاختلاف في نوع الارض «عشرية أو خراجية» فيرجع الى مسجلي الديوان الذين يجب أن يكونوا من أهل التقوى والورع وأهلاً للثقة . وجباة الخراج كجباة الزكاة يتناولون مرتباتهم من متحصلات الخراج . وهذا يصدق أيضاً على المسّاح

***

٥ — ارتفاع الخراج

يراد بهذا الاصطلاح في المالية العامة الاسلامية مقدار المتحصل من ضريبة الخراج سنويًّا ، وهذا أمر صعب تقديره ، فقد خلط أكثر المؤرخين العرب بين الخراج وبين ضرائب أخرى ، فكثيراً ما كانوا يجمعون الجزية والخراج أو الخراج والعشور .. الخ تحت اسم الخراج .

واستكمالاً للبحث أذكر أمثلة من جباية الأعمال في الدولة الاسلامية :

فالسواد (أي العراق) بلغ ارتفاع خراجه في أيام عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ ١٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم، وفي أيام عبيد الله بن زياد سنة ٦٢هـ ١٣٥٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم، وفي أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٥ هـ ١٨٨٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم، وجباه عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ درهم .

أما عن مصر فقد جباها عمرو بن العاص ٩٢٫٠٠٠٫٠٠٠ ديناراً أي ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠

درهم . ولكن يظهر من عبارة المقريزي أنها مبلغ الجزية وحدها باعتبار دينارين عن كل رجل . واختلفت مقدار جباية مصر بعد ذلك وضعف أمر ماليتها .

أما بلاد الشام فقد بلغ خراجها أيام عبد الملك بن مروان ٠٠٠ر٧٢٠ر١ دينار.

وقد أورد المغفور له سمو الأمير عمر طوسون في مؤلفه مالية مصر صفحة ٣٣٠ جدولاً لخص ما ذكره كتاب العرب عن مقادير الخراج في العصر العربي ، أضع صورة منه أمام القارىء الكريم تتمة للموضوع .

المصادر	الحكام	الخراج بالجنيه المصري
ابن عبد الحكم (فتوح مصر)	عمر بن الخطاب	٨١٦ر٦٦٦
اليعقوبي (البلدان)	« «	٤٢٠ر٠٠٠
البلاذري (فتوح البلدان)	« «	٣ر٣٠٠ر٠٠٠
الكندي (فضائل مصر)	هشام بن عبد الملك	٢ر٤٠٠ر٠٠٠
المقريزي (خططه)	المأمون	٢ر٥٥٤ر٠٠٠
ابن وصيف شاه (نشق الأزهار)	احمد بن طولون	٢ر٥٨٠ر٠٠٠
« « «	المعتز بالله	٤٨٠ر٠٠٠
المقريزي	الأخشيد محمد	١ر٢٠٠ر٠٠٠
ابن حوقل (المسالك والممالك)	المعز لدين الله	١ر٩٢٠ر٠٠٠
ابو صالح الارمني (الكنائس)	المستنصر بالله	١ر٨٧٢ر٠٠٠
المقريزي	صلاح الدين الأيوبي	٢ر٧٩١ر٠٠٠
ابن الجيعان	حسام الدين لوجين	٦ر٤٨٦ر٩٥٠
«	الناصر محمد	٥ر٦٥٦ر٩٧٣

اما خراج الدولة الاسلامية فقد أورد العلامة ابن خلدون قائمة يمكن تقسيمها الى قسمين : قسم يشمل جباية أقاليم المشرق وعملتها الأساسية الفضة ووحدتها الدرهم الفضي . والقسم الآخر يشمل جباية أقاليم المغرب وعملتها الأساسية الذهب ووحدتها الدينار الذهبي [1]

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٥٤ الفصل الثامن عشر «في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها وأصلها»

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
السواد	٢٧٫٨٠٠٫٠٠٠	٢٠٠ حلة نجرانية
		٢٤٠ رطلاً من طين الختم
كسكر	١١٫٦٠٠٫٠٠٠	
كولار دجلة	٢٠٫٨٠٠٫٠٠٠	
حلوان	٤٫٨٠٠٫٠٠٠	
الأهواز	٢٥٫٠٠٠٫٠٠٠	٣٠٠٠٠ رطل سكر
		٣٠٠٠٠ قارورة ماء ورد
فارس	٢٧٫٠٠٠٫٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل زيت أسود
كرمان	٤٫٢٠٠٫٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يماني
		٢٠٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠٫٠٠٠	
السند وما يليه	١١٫٥٠٠٫٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
سجستان	٤٫٠٠٠٫٠٠٠	٣٠٠ ثقب معين
		٢٠ رطل من الفانيد
		٢٠٠٠ نقرة فضة
		٤٠٠٠ برزون
خراسان	٢٨٫٠٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق
		٢٠٠٠٠ ثوب متاع
		٣٠٠٠٠ رطل اهليلج
جرجان	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ شقة ابريسم
قومس	١٫٥٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
		٦٠٠ قطعة فرش طبري
طبرستان والرويان	٦٫٣٠٠٫٠٠٠	٢٠٠ كساء و ٥٠ ثوباً
		٣٠٠ منديل و ٢٠٠ جام
الري	١٢٫٠٠٠٫٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
همدان	١١٫٣٠٠٫٠٠٠	١٠٠٠ رب الرمانين
ماها البصرة والكوفة	١٠٫٧٠٠٫٠٠٠	

الاقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	من الدراهم	
ماسبذان والريان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	
شهرزور	٦ر٧٠٠ر٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
اذربيجان	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق ١٢٠٠٠ زق عسل
الجزيرة وما يليها من اعمال الفرات	٣٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠ بزاة ٢٠ كساء ٢٠ قسط محفور ٥٣٠ رطل رقم ١٠٠٠٠ رطل من المسايح السرماهي
أرمنية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠٠ رطل صونج ٢٠٠ بغل ٣٠ مهراً
برقة	١ر٠٠٠ر٠٠٠	
افريقية	١٣ر٠٠٠ر٠٠٠	١٢٠ بساط
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠ر٠٠٠	١٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠ر٠٠٠	
الأردن	٩٧ر٠٠٠	
فلسطين	٣١٠ر٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢ر١٢٠ر٠٠٠	
اليمن	٣٧٠ر٠٠٠	سوى المتاع الذي لم يذكر
الحجاز	٣٠٠ر٠٠٠	
	٤ر٨١٧ر٠٠٠	ديناراً وتساوى ٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً وهو تقديره في ذلك العصر
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢ر٢٥٥ر٠٠٠	
يضاف اليه جباية الاقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨ر٦٠٠ر٠٠٠	
الجملة	٣٩٠ر٨٥٥ر٠٠٠	درهم

فمجموع الجباية الواردة في هذه القائمة ٤٠٠ مليون درهم تقريباً عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته . وهذا الرقم يكاد يماثل الرقم الذي أورده قدامه بن جعفر في كتابه « الخراج وصنعة الكتابة » عن الخراج في عصر المعتصم إذ بلغت الجباية في سنة من سني هـذا العصر ٣٥٠ و٢٩١ و ٣٨٨ درهماً مع وجوب ملاحظة الفارق بين عصر المأمون الزاهر وعصر المعتصم الذي ابتدأت الدولة فيه في التقهقر والاضمحلال . والواقع ليس هذا الرقم غريباً على دولة كانت تشمل معظم العالم المتمدين في ذلك الوقت

٦ — ديوان الخراج

لما فتح المسلمون الشـام ومصر والعراق وغيرها لم يغيروا شيئاً في دواوين هذه البـلاد بل أبقوها على ما كانت عليه . فكان الديوان في مصر يكتب بالقبطية وفي الشام بالرومية وفي العراق بالفارسية ، كما ظلّ كتّـاب الديوان من أهل البـلاد ، وكان العرب يراقبون أعمـال الدواوين ويستولون على جبايتها فحسب . ولما آل الحكم لبني أمية وظهر في المسلمين مهرة في الـكتابة ونابغون في الحساب فابتدأ نقل الديوان الى العربية وحدث هـذا لأول مرة في أيام الحجاج إذ أمر صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية ، وأما ديوان الشام فنقل في عهد هشام بن عبد الملك نقله ابو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك[1] وتمّ نقل ديوان مصر على عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ .

وأما الحجاز فقد كان ديوانه في المدينة على ما وضعه عمر بن الخطاب

وكان الخلفاء يتولون النظر في أمر الخراج ويراقبون سير الجباية ، فلما أفضى الأمر إلى الدولة العباسية وضعوا ديواناً مركزيـاً للخراج يشمل ما تحته من دواوين الاعمال وضعه السفاح وعهد بامره الى خالد بن برمك . وكان في جملة تصرفه فيها أنهم كانوا يضمنون مبلغ الخراج لأولادهم وأهلهم (أي يعطونه التزاماً) . وأصبح ديوان الخراج في أيدي الوزراء مثل غيره من الدواوين حتى اذا ضعفت الدولة العباسية وصارت أمورها إلى الأمراء أبطلت الدواوين في أيام الراضي بالله[2] .

فؤاد محمد شبل

اللاحق الصحافي للمفوضية المصرية بموسكو

(١) مقدمة ابن خلدون صفحة ٢١٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي الجزء الاول صفحة ٢١٢ ومقدمة ابن خلدون صفحة ٢١٢

عالم المجهول أيضا

الوجود الذي نعرفه أو نعرف شيئاً عنه أو أشياء ، هو الوجود المادي . نعرفه مباشرةً بواسطة ظاهراته التي تؤثر في مشاعرنا كما هو معلوم . ونعرفه أيضاً بواسطة فعله في حواسنا الباطنة . نعرف ان الحياة موجودة لأنها من أفعال المادة الكيمياوية ونرى من ظاهراتها الولادة والنمو والموت . ونعرف ان العقل موجود لأنه من فعل الخليات الدماغية وهي مادية وظاهراته القوى العقلية . ونعرف ان الحب والشجاعة والفضيلة الخ موجودة لأنها من أفعال العقل الذي هو من أثار الخليات الدماغية التي هي من مركبات المادة الكيمياوية . فكل ما نعرفه إنما هو ظاهرات المادة المختلفة التي تدلنا على ان هناك أسراراً عرفناها بعد ان كنا نجهلها وأسراراً لا نزال نجهلها ونؤمل أننا سنعرفها . أعني أن هناك أسراراً في الطبيعة نجهلها ولكن لها ظاهرات تدل عليها ونؤمل اننا سنكتشفها كما كشفنا غيرها . ولولا الظاهرات لما عرفنا أن هناك أسراراً .

مثال ذلك : كنا نجهل سرّاً سميناه الألفة الكيمية وهو سر اتحاد عنصر دون آخر أو اتحاد عنصر بعنصر أقوى من اتحاده بعنصر آخر . فعبارة الألفة الكيمياوية مبهمة لم تفسر السر . ما هي إلاّ تسمية للسرّ الغامض . فلما اكتشفت النظرية الكهربية ، (الالكترونية) انكشف ذلك السرّ واتضح ذلك الغامض

الجاذبية سر لا يزال غامضاً . وما اكتشف نيوتن الاّ قانونها ومستلزماته . ولكن الظاهرات التي تدل على وجودها عديدة

فاذا كان المراد بعالم المجهول عالم الأسرار الغامضة التي تدل على وجودها ظاهرات المادة أو ظاهرات مفاعيلها، فلا بأس أن تسمى هذه الأسرار الغامضة عالم المجهول . ولكن أليس الأفضل أن نسميها العالم الغامض أو عالم الغوامض

ولكن اذا كان ثمت عالم وهمي لا ظاهرات له إلاّ أخيلة في أدمغة فريق من الناس السذّج الذين تراءت لهم رؤى لمرض في أدمغتهم أو لهوس في عقولهم كعالم الجن مثلاً ، فهذا عالم

موهوم غير موجود في الطبيعة بتاتاً ولا وراء الطبيعة . ومهما ادعى المأخوذون به من الظاهرات التي يستدلون بها عليه فلا يثبت التحقيق والبحث والتحري ، الا أنه عالم وهمي موجود في عقولهم فقط

ومثله عالم الأرواح . فما الاعتقاد به الاّ تقليد موروث منذ قدم الانسان . ومنشؤه اختراعات المخيلة في أحلام المنام أو أحلام اليقظة . ومهما ادعى الطوافون في هذا العالم من رؤية الأرواح واستحضارها وظهورها واتصالها بعالمنا وانتقالها من جوّ الى جوّ ومن زمان إلى زمان فعند التحقيق نجد ان هذه الدعاوى ليست الا أوهاماً نشأت في عقول ذويها لسقم في ناحيتي التصور والاستنتاج فيها . وقد تكون أحياناً شعوذة ممن يدّعيها تجوز على عقول المؤمنين بها

فهذا عالم مجهول لا ظاهرات له تدل على وجوده الاّ تلك الأوهام الخدّاعة ولا وجود له في الطبيعة ولا وراء الطبيعة

فالمجهول في عالم المادة الذي تدل على وجوده ظاهرات صادرة منه يحسن أن تسميه «عالم الغامض» لأنه يحتمل ان يكتشف سرّه يوماً ما فينتقل من عالم الغموض الى عالم المعرفة . من ذلك أن أسلافنا القدماء كانوا يرون من ظاهرات الطبيعة ان قبة السماء كلها تدور من الشرق الى الغرب حول الأرض . وما زالوا يأخذون بهذه الظاهرة على علاتها الى أن اكتشفوا أن الأرض لا السماء تدور على محورها وثبتت لهم هذه الحقيقة بالبراهين التي لا تقبل الشك.

وقس على هذا مئات والوفاً من ظاهرات الغوامض التي اكتشف الانسان أسرارها فأصبحت في عوالم المعلومات

هذه العوالم الغامضة لا توجد الاّ في صميم الطبيعة المادية . ولا ريب انها كثيرة . واذا كشفنا سرّاً منها بدت لنا اسرار أخرى . ولكن ما يُزعَم من عوالم المجهول في ما وراء الطبيعة ، لا وجود له اذ لا ظاهرات تدل عليه

فنرجو ممن يزعمون وجود الجن والأرواح وغيرها ان يرشدونا الى الظاهرات التي تدل عليها لكي نبحث عن أسرارها ، فان لم تكن لها ظاهرات فليست موجودة ، لأن مشاعرنا وحواسنا هي مصنوعات الظاهرات . وبغير تأثير الظاهرات يستحيل أن نعرف شيئاً . ولا نستطيع أن نزعم وجوداً لا ظاهرات له فعالم المجهول هذا لا وجود له

نقولا الحداد

المباراة والتعاون .

الصراع بينهما وأيهما يسود

مشكلة العصر الحاضر تتشكل في صور مختلفة . فهي أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية . ولكنها في الأساس اقتصادية

فالنظام الاقتصادي هو الذي يحيل الأمم الزراعية أمماً صناعية ، فيحدث الغنى الفاحش والفقر الفاحش . ويحدث التعطل . وتحدث الحرب . ويحدث الانقلاب الأخلاقي بل الروحي في الشباب، حين ينتقلون من الجو الزراعي ، جو القدر ، جو الاستسلام ، جو الجمود إلى الجو الصناعي ، جو الاستقلال الروحي ، جو الاختراع ، جو التغير

ولكن إذا كانت الأمم الصناعية هي أمم التجدد والاختراع ، فهي أيضاً أمم الحرب . فقد ورثت هذه الأمم نظام المباراة أو الامتلاك الفردي من العصر الزراعي واستبقته . فنقلت أخلاقاً زراعية الى مجتمع صناعي . مع إن كل ما في هذا المجتمع، يصرخ بالتعاون

والمباراة ممكنة أو لا يشق تحملها في مجتمع زراعي بدائي . ولكنها قاتلة في مجتمع صناعي يعيش بآلات القوة ، إذ هي تثمر الفاقة والاستعمار والمبادئ الامبراطورية والحرب

ولا يمكن لأمة تعيش على مبدأ المباراة الاقتصادية أن تجحد الحرب . لأن المباراة من حيث هي أسلوب لكسب العيش وجمع الثروة ، تنتهي إلى قمتها وتتبلور في أقصى منطقها ونهاية تطورها الى الحرب

والعالم العصري يعيش في مجتمع يدعو الأفراد إلى المباراة ويدعو الأمم إلى المباراة . فالمباراة منطقه وأخلاقه بل فضيلته . والفاشية والنازية هما المعقل الأخير لنظام المباراة وكراهة التعاون . هما الدعوة إلى لم الشعث لانقاذ واستبقاء نظام المباراة والسعي الحر للكسب بين الأفراد والأمم . وكلتاهما تتغنى بفضائل الحرب

ولكن الأمم الديمقراطية أيضاً تتغنى بفضائل الحرب . لأن الحرب جزء من منطق اقتصادها . فقد ألقى السر آرثر كيث خطبة في جامعة أبردين سنة ١٩٣١ قال فيها أشياء كثيرة . منها قوله : « تصون الطبيعة البستان البشري بالتقليم . والحرب هي أداة هذا التقليم. ولا يسعنا أن نستغني عن خدمتها »

وأقرب الحروب الينا هي الحرب الكبرى التي هبت عام ١٩١٤ والتي كانت ترجع إلى مباراة اقتصادية بين المانيا من ناحية وبريطانيا وفرنسا من ناحية أخرى . والحرب القائمة الآن هي إضماراً أو تصريحاً ترجع أيضاً الى مباراة اقتصادية بين الامم التي تسمي نفسها « محرومة » وهي اليابان والمانيا وايطاليا ، وبين الامم الاخرى التي تملك المستعمرات والمواد الخامة والاسواق وهي فرنسا وهولندا وبريطانيا والولايات المتحدة . وقد انتهت الامم التي تسمي نفسها « محرومة » الى الفاشية التي تحمي مبدأ المباراة لكي تحمي الحرب التي هي منطق المباراة وتبلورها ، ثم تستخدم الحرب لنيل أغراضها.

ويجب ألاّ نفكر في قيمة هذه الادعاءات التي ادعتها الامم « المحرومة » لان الزعم هنا كالوهم وكالحقيقة . فالثري الذي يملك مليون جنيه قد ينتحر لانه خسر نصف هذا المليون . مع ان ما تبقى له يكفي الف نفس . ولن تستطيع اقناعه بسهولة بشأن هذا الجنون الذي يدفعه الى الانتحار .

ما هو السبب الاقتصادي للحرب القائمة ؟

هو أزمة ١٩٢٩ . هو الاختناق الاقتصادي الذي شعرت به الامم عقب هذه الازمة أو توهمته . ويجب أن أكرر هنا انه يجب ألاّ نفصل بين الشعور الحقيقي وبين التوهم الكاذب . والواقع أن أزمة ١٩٢٩ كانت برهان الرخاء واليسر اللذين لم تبلغهما البشرية قط . لان الانتاج الزراعي والصناعي زاد وفاض حتى احتاج الأمر الى احراق أو اتلاف بعض المنتجات . ولو ان العالم كان في نظام اشتراكي لصفق وهلل لهذا الخير العميم . ولكن نظام المباراة يمنع الآن من زيادة الاستهلاك مع انه قد زاد الانتاج الى حد الحاجة الى احراق بعض المنتجات أو اتلافها .

في عام ١٩٢٩ ابتدأت الازمة في أعظم الامم في الرقي الصناعي وهي الولايات المتحدة حيث مبدأ المباراة ديانة محترمة . ديانة تقول بتنازع البقاء التطبيقي . ثم امتدت الازمة حتى أصابت سائر العالم . وعندئذٍ رأينا اليابان تستولي على منشوريا عام ١٩٣١ ، وايطاليا على الحبشة عام ١٩٣٥ ، واليابان على الصين عام ١٩٣٧ ، والمانيا على النمسا عام ١٩٣٨ ، ثم المانيا على السوديت عام ١٩٣٨ .

وفي عام ١٩٣٩ نشبت الحرب الحاضرة نشوباً رسمياً . أما النشوب الحقيقي فكان في عام ١٩٣١ عند ما أغارت اليابان على منشوريا .

وقد كانت هناك « عصبة الامم » لمنع هذه الحروب أو هذه الاعتداءات . ولكن منطق المباراة في العالم كان أقوى من منطق عصبة الامم . المباراة معيشة وتصرف في المعاملة وأسلوب في الحياة ، تناقض جميعها عظات عصبة الامم . والاخلاق أي أخلاق السلم التي كانت

عصبة الأمم تريد منها للعالم كانت تنكرها المعيشة أي معيشة الحرب الاقتصادية التي يمارسها العالم أفراداً وأمماً

ومن هنا سكوت العالم على اعتداء اليابانيين والايطاليين والألمان على الأقطار التي استولوا عليها . بل من هنا سكوت الدول الديمقراطية على اعتداء المانيا وايطاليا على اسبانيا الجمهورية

ففي اسبانيا كدنا نرى حكومة قائمة أوشكت أن تقول « لا » لمبدأ المباراة العام في العالم . وأن تستبدل به تعاوناً أو مساواة اقتصادية . ثم رأينا ثائراً على هذه الحكومة في شخص فرانكو . فهبت الفاشية والنازية تساعدان هذا الثائر لاستبقاء مبدأ المباراة ومكافحة مبدأ التعاون . وسكتت الدول الديمقراطية .

فلماذا سكتت الدول الديمقراطية التي تؤمن بالوطنية على اعتداء الفاشية والنازية على أسبانيا ؟

سكتت لأنها وجدت نفسها بين عاملين :

عامل الدفاع عن الوطنية واحترام الحدود الجغرافية .

وعامل الدفاع عن مبدأ المباراة أي نظام رأس المال .

وتغلب العامل الثاني على العامل الأول . فقد كانت الحروب تثار من أمة على أمة . حروباً وطنية . ولكن منذ أكثر من عشرين سنة بدأت كل أمة تشعر بحرب أهليـة صامتة أو صاخبة هي حرب الطبقات . وأصبح كل فرد ينقسمه ولاءان ولاء للوطن . وولاء للطبقة التي ينتسب اليها .

وهنا قليل من التفسير . فان الحضارة القائمة في عصرنا ثمرة ثورتين هما :

١ — الثورة الفرنسية التي تقول بالاخاء والمساواة والحرية .

٢ — والثورة الصناعية التي تقول بالتفاوت الاقتصادي .

الثورتان متناقضتان . واحدة للاخاء . وأخرى للصراع . واحدة للحرية السياسية . وأخرى للاستعباد الاقتصادي .

والنازية والفاشية بل أحياناً الديمقراطية حين ترى هذا التناقض بين الثورتين تصرح بكراهتها لمبادىء الثورة الفرنسية . وذلك حين ترى ان نية الشعوب قد انعقدت على تنفيذ المبادىء الفرنسية وعلى أن يعيشوا في أخاء ومساواة وحرية .

ولكن كيف يمكن أخاء ومساواة وحرية إذا كانت الامم تعيش بالمباراة ؟ برأس المال الذي يحارب رأس مال آخر في سوق قريبة أم نائيـة ؟ أو برأس مال يستثمر في صـناعة تحتاج الى المواد الخامة الرخيصة والى رق الاستعمار والى استغلال الشعوب المتأخرة ؟

كانت عصبة الامم قمة ضئيلة من التعاون فوق هرم ضخم من المباراة .

انظر مثلاً الى هذه الكلمة التي أنقلها عن الدكتور ماكس سالفادوري من صفحة ٢٤٦

من عدد فبراير ١٩٤٠ من مجلة هاربر حيث يقول في فضائل الاستعمار :

« ان الرقي الاجتماعي بين الوطنيين سيكون له أثر سيء في استعمار البيض لهم . إذ كلما ارتفعت حضارة الوطنيين زادت قدرتهم على مزاحمة الاوربيين في ألوان من النشاط يعيش بها هؤلاء الاوربيون » اه .

فيجب لهذا السبب أن يمنع الوطنيون من الصناعات الكاسبة وأن يقتصروا على الزراعة. فنحن نرى هنا مبدأ بل ديانة التفاوت البشري، ديانة السادة والعبيد، ديانة الأغنياء والفقراء، ديانة المباراة للكسب ثم للحرب، ديانة تنازع البقاء بأسلحة الحضارة وليس بأسلحة الطبيعة .

قبل أشهر قرأت في إحدى المجلات الدينية المسيحية مقالاً ينعي فيه كاتبه على أبناء العصر الحاضر ايمانهم بنظرية داروين . وهو يرى أن هذا الايمان هو الذي انتهى منطقه الى الحرب . وليس شك في أن الحرب هي المسرح الأكبر لتنازع البقاء . ولكن المتأمل لهذه النظرية — نظرية تنازع البقاء — وكيف وصل اليها داروين والعصر الذي عاش فيه وهو العصر الذهبي للمباراة الاقتصادية (ظهر كتاب أصل الأنواع سنة ١٨٥٩) لا يتمالك من الشعور بأن داروين قد تأثر بالمجتمع التجاري الصناعي فنقل قواعده ومبادئه الى الطبيعة ونظر الى وحشية الغابة من خلال حضارة مانشستر . وقد نظر هوكسلي بعين داروين حين قال : « الطبيعة حمراء بين الناب والمخلب » . ولكن هوكسلي كان شهماً وكافراً معاً . فقال أيضاً في شهامة رائعة وان تكن عقيمة « يجب ان نتحدى سيرة الكون » أي على فرض أن الكون يسير على مبدأ الناب والمخلب والطبيعة الحمراء بالدم، فاننا نستطيع ان نتحدى هذه الوحشية ونسير على مبدأ الحب والتعاون والاخاء .

ولكن الواقع اننا لا نحتاج الى هذا التحدي . فان في الطبيعة من التعاون والحب أكثر جداً مما فيها من التنازع والقتال . كما أثبت ذلك كروبتكين وجديس وكثيرون غيرهما .

***

وضعت عشرات بل مئات الكتب هذه السنوات الأخيرة بل هذه الاشهر الأخيرة عن الوسائل التي يمكن ان تلغى بها الحروب ويعمم بها السلام. والمقترحات كثيرة ولكنها تتلخص فيما يلي :

(١) احياء عصبة الامم (٢) ايجاد ضمانات جديدة للحرية الانسانية (٣) ايجاد اتحاد اوربي أو عالمي (٤) الاشتراكية .

***

فاما عصبة الأمم فقد أثبتت انها أداة عرجاء لمنع الحروب . لأنها قصدت الى تحقيق السلام على الورق . ولم تبال الأسس الاقتصادية التي يبنى عليها المجتمع . فكانت الدعوة الى الاخاء في جنيف تصطدم بمذهب المباراة في الصين واسبانيا وأفريقيا وأوربا . تعاون

بالكلام على القمة الصغيرة التي تطير بأضعف ريح، وتنازع راسخ بالعمل في الاساس . والآن وقد أوصدت أبوابها نشعر انها ذكرى أسيفة وحلم شريف . ومنا من يقول انها كانت هيئة اخلاقية تقول هذا خطأ . ولكنها تعجز عن تصحيحه ، لأنها كانت محرومة من أداة التنفيذ إذ لم يكن لها جيش أو طائرات او أسطول . ولكن لنفرض انه كانت لها هذه القوات ثم كانت الأمم والأفراد تسير على مذهب المباراة الذي كان لا بد أن يبعث التحاسد بين الأمم كما يبعث التحاسد بين الأفراد . ألا يكون التسلح السري كما حدث في ألمانيا — ثم الانشقاق ثم الحرب ؟

ولا ينكر أنه إذا ألفت عصبة جديدة على مبادىء نزيهة بحيث لا يجوز لاحدى الدول أن تستغلها وبحيث تصير لها قوة حربية كبيرة — لا ينكر انها تستطيع ان تمنع الحروب او تحد منها . ولكن من منا يحب استقراراً للعالم على حاله الحاضرة من المظالم الاستعمارية والمالية ؟ لو أن هذه العصبة التي ماتت كانت مسلحة لاستخدم سلاحها لضغط بعض الامم المتأخرة وابقائها في التأخر ومنعها عن الاستقلال .

أما ايجاد ضمانات جديدة كأنها دستور انساني جديد فهذا ما يقول به الكاتب الانجليزي ولز وأنا ألخص هنا هذا الدستور الذي سماه «حقوق الانسان» في جميع أنحاء العالم :

١ — حق العمل الذي يختاره الانسان ويعيش به .

٢ — حق الفراغ بتحديد ساعات العمل مع تزويد العامل بأجر الفراغ الذي يمكنه من الاستمتاع به .

٣ — حق العاملين في الانتفاع بكامل انتاجهم .

٤ — حق الصحة الذهنية والجسمية باستعمال جميع الوسائل العلاجية .

٥ — حق المرأة في أن تقوم بأمومتها على أحسن الوجوه .

٦ — حق التعليم الحر للجنسين لجميع الشعوب بالمجان .

٧ — حق تزويد العائلة فوراً عند موت عائلها بما يقيتها .

٨ — حق المعاش قبل الشيخوخة .

٩ — حق الحرية في الخطاب والاجتماع والصحافة وحرية المظاهرات

١٠ — حق الانتقاد لجميع فروع الحكومة والدعاية للاصلاح .

١١ — حق الانتخاب عند بلوغ الثامنة عشرة بدون التمييز بين الجنسين .

١٢ — حرية الشخص ومراسلاته .

وهذه « لوحة » جديدة من حقوق الانسان تتفق وحال العالم في القرن العشرين . وقد سبقتها لوحات أخرى بحقوق أخرى . وولز بالطبع لا ينسى انه يجب ايجاد هيئة لتنفيذها .

وهو أعظم كاتب في عصرنا ينظر النظرة العالمية . وهو بريطاني يدعو الى الغاء الامبراطورية البريطانية . وجمهوري يطلب الغاء العرش البريطاني . وهو حين ينص في المادة الثالثة من هذه الحقوق على «حق العاملين في الانتفاع بكامل انتاجهم» انما ينص في الواقع على الاشتراكية.

وكان يكفي هذا النص لايجاد عالم جديد يحتوي عفواً ، وبلا تعيين ، جميع الحقوق الأخرى . ولذلك ليس لي اعتراض على هذه المقترحات . وكل ما أستطيع أن أقوله أنهُ كان يجب تأكيد هذه المادة الثالثة وابرازها أكثر من سائر المواد .

***

وأما ايجاد اتحاد أوربي أو اتحاد ديمقراطيات العالم في القارات الخمس فمن الحلول التي كثر الكلام أو اللغط فيها حديثاً. ودعاة الاتحاد يذكرون على الدوام « الاتحاد السويسري » باعتباره النظام الأمثل حيث نجد أربع لغات ومذهبين بل أكثر من المذاهب الدينية . ومع اختلاف اللغة والمذهب يعيش السكان راضين بل مغتبطين باتحادهم .

ولا ينمى دعاة الاتحاد ان الوطنية حديثة في أوربا وانها أي أوربا ، كانت أيام القرون الوسطى في « اتحاد مسيحي » وان الراية الوطنية أو الطوطم الوطني لم يكن له الولاء الذي يؤدي الى الحرب في عصرنا . وهناك من يحس الاختلاف في الأنظمة الحكومية والفكريات الاقتصادية كاختلاف الاشتراكية السوفيتية من النازية الألمانية واختلافهما معاً ، من الديمقراطية ، فيقول بالاتحاد بين الديمقراطيات فقط . ولكن اذا صحَّ هذا الاتحاد فانه عندئذٍ يقسم أوربا معسكرين أو ثلاثة معسكرات . فلا يكون سلام .

وحتى عند ما نتغاضى عن هذه الاختلافات ونعتقد امكان الاتحاد بين جميع الدول الاوربية يبقى أمامنا هذه الدول الأخرى في القارات الأخرى . بل يبقى أمامنا هذا الشك في بقاء الاستعمار وفي المبادىء الاستعمارية التي يحمل عبئها ويكتوي بنارها الافريقيون والآسيويون . وعندئذٍ يكون تعميم السلام قسراً للاستغلال الاوربي . بل عندئذٍ تصبح الحرب الواجب الاول على كل افريقي أو اسيوي يطلب الحرية .

أما اتحاد العالم كله فمن الاغراض البعيدة التي يمكن تقريبها بايجاد نظام اقتصادي تدريجي يجعل أمم العالم تعتنق فكريات اجتماعية متشابهة لتشابه نظامي الانتاج والتوزيع . وهذا يجرنا الى الحل الوحيد المعقول .

هذا الحل هو التعاون ، أي ان وسائل الانتاج الزراعي والصناعي تصبح ملكاً للشعب بدلاً من أن تكون ملكاً للافراد أو للشركات . وينشأ هذا النظام كاملاً في الامم الصناعية المتقدمة مثل المانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الاميركية . وينشأ متدرجاً في الامم التي لم يدركها العصر الصناعي بآلاته وفكرياته . وعندئذٍ يأخذ التعاون في المعاش

مكان المباراة . فتزول الاخلاق التي تولدت من المباراة : أخلاق التفاوت الاقتصادي بين فرد وفرد . بحيث يكسب الواحد في اليوم مقدار ما يكسبه آخر في خمس سنوات . فيكون الحسد والمرض والجهل والجريمة . وتزول أخلاق التفاوت بين أمة وأمة . فلا تكون أمة صناعية سائدة وأمة زراعيـة خادمة . ويزول التوسع الامبراطوري وخطف الاسواق والمواد الخامة وانشاء الشركات التي يعيش مساهموها في باريس أو بروكسيل لاستغلال العامل الكادح الجائع في جاوة أو سنغال .

لقد نشأنا على أن نقول : « الاقتصاد السياسي » وهو كذلك سـياسي بل حربي . لأن الحرب هي السياسـة العنيفة . والساسة في عصرنا يفهمون هـذا الاقتصاد من حيث انه حركات مالية تجري في عواصم اوربا لخطف الـكاوتشوك او البترول أو القطن أو القصدير او النحاس من قطر افريقي أو أسيوي ضعيف يمكن استغلال عماله بعشرين أو ثلاثين مليماً في اليوم . وهذا الاستغلال تقوم به شركات أو حتى أفراد يؤيدهم الاسطول والجيش والطائرات . فهو اقتصاد سياسي لاغش فيه ، وليس فيه شيء من مبادىء الاقتصاد الانساني . وقد عرفت أمم آسيا وأفريقيا ثمرات هذا الاقتصاد المرة . وكلنا يذكر أننا حفرنا قناة السويس بأيدينا بل بأظافرنا ودفنت أجسام آبائنا في طينها ثم لم نتنفع منها بعشر بل بجزء من مئة مما ينتفع به المساهم في رومة أو باريس أو غيرهما .

هذا الاقتصاد السياسي هو اقتصاد الخطف والنهب، اقتصاد الغنى والفقر، اقتصاد العامل الجائع والثري المتعطل ، اقتصاد المباراة بين فرد وفرد ، وبين أمة وأمة ، اقتصاد المباراة التي تؤدي في النهاية الى الحرب للاستيلاء على المواد الخامة والأسواق وللاستعمار ، اقتصاد رأس المال الحر ، اقتصاد تنازع البقاء الذي يجب أن تستبدل به الاقتصاد « الانساني » الاقتصاد الذي ينشأ على التعاون ويؤدي في النهاية الى السلم . لأن الآراء والفكريات والعقائد والفلسفات والآداب والمذاهب انما هي ثمرات المعيشة التي نعيشها . فاذا كنا نعيش بالمباراة نتبارى في المدرسة بالامتحانات ، ثم في المجتمع بالأثراء والمناصب والمقامات ، وننشأ على أن يضمر كل منا ان يكون أفضل من غيره ثروة ومقاماً ، فان منطق هذه المعيشة ينتهي الى الحرب التي هي قمة المباراة . بل ان هذه المعيشة قد أوجدت في نفوسنا عواطف تلتذ المباراة وتطلبها كما نرى في سباق الخيل وغيره .

ولكن اذا كنا نعيش بالتعاون فان روح المباراة يموت وتموت معهُ شركات الاستغلال العالمية التي تبعث على الاستعمار وتموت الحرب ويموت هذا التفاوت الذي يجعل بعض الناس يمرضون بكثرة الطعام وبعضاً آخر يموتون بقلته . ويزول التعطل : تعطل الفقراء الذين لا يجدون عملاً ، وتعطل الاغنياء الذين لا يحتاجون الى عمل .

إن أوربا تتشنج بحركات هتلر . وكلنا يتساءل : كيف يهزم هذا الطاغية بعد أن دجج المانيا بل أوربا بالسلاح وبعد أن علم الألمان الفن الدموي للجزارة البشرية حتى ضُروا عليها [1]

يُهزم بالقوة الروحية، بريح التعاون التي تهب على أوربا فتدخل المصانع وتهمس في أذن العمال : هنا عصر جديد : مساواة وتعاون وحب ، ومقاطعة أبدية للحرب . هنا شيء يستحق القاء السلاح . هنا اقتصاد انساني، وليس اقتصاداً سياسيًّا يدبره الساسة عن الاستعمار والمواد الخامة والامتيازات

إننا نعيش في أيام تاريخيــة وضوضاء التاريخ تصخب فوقنا، والحوادث تسير على إيقاع سريع حتى ليرتبك الذهن وتختلط الأشباح . ولذلك نحتاج إلى دقة البصيرة لكي نقرأ المستقبل ونرى الرؤيا الصافية . فالحرب في نشاط . ولكن السياسة في جمود . كأن الساسة يخشون رؤيا المستقبل . وفي إحشاء الذهن الاوربي قوات بركانية تختفي تحت السطح وتنتظر الاشتعال والانفجار . وليس هناك قوة روحية تستطيع بعث هذا الاشتعال والانفجار للخير غير قوة التعاون . وعندئذٍ لا تكون هذه الحرب حشرجة الموت للحضارة بل مخاض الميلاد لانبجاس اجتماعي جديد . واذا وثق العمال في أوربا بأنهم سيجدون التعاون إذا تركوا هتلر وموسوليني ، فانهم لن يبقوا معهما لحظة بل سرعان ما ينفضونهما . ثم يعقد الصلح وسيكون صلح السلام الدائم لأن الفكريات الجديدة ستكون فكريات التعاون والحب والرضى بالمساواة . وقد يقال ان الانتصار الحربي ممكن ، وليس شك في هذا ولكن يجب أن نتساءل : هل الصلح عندئذٍ يكون وعداً أم وعيداً ؟ وهل من البعيد أن تكسب الديمقراطية الحرب ثم تكسب الفاشية الصلح ؟

إن الانتصار الحقيقي هو الانتصار الروحي ، الانتصار الذي ينبع من القلوب ، هو الانتصار الذي ينشأ من الرغبة في الخير وعقد النية على الرضى بالمساواة، والاقلاع عن زهو التاريخ بالاقلاع عن الاستعمار والتوسع وانشاء الشركات التي تنبسط شباكها على الأقطار بل القارات . وهذا الانتصار يحتاج الى تضحيات كبيرة في المال . ولكن مهما كبرت التضحية بالمال ، هي دون التضحية بالدم

لقد وصلنا الى طور الانهيار في النظام الاقتصادي الحاضر، الى نقطة تطورية في التاريخ وقيام الفاشية والنازية هو البرهان على هذا الانهيار الذي كان يتوقاه هتلر وموسوليني بقوة السلاح والديكتاتورية الغاشمة . والعالم قد نضج للعصر الجديد وهو ظامىء اليه . والعصر الجديد هو نظام التعاون في الانتاج والاستهلاك فيمحى الفقر . ومتى محي الفقر زال التحاسد . وزالت الرغبة في الحرب .

سلامه موسى

---

(١) كتب هذا المقال قبل ان تلقي المانيا السلاح



انسان الفِطَحْل

Pithecanthropus erectus.

بحث لغوي علمي

Etym., Pithecanthropus (Gr. pithekos = an ape) and (Gr. anthropos = man) . erectus, L. = upright, erect. Cass. Lat. Dict. p. 196

الاسم العلمي الأعجمي مكوَّن من كلمتين : الأولى Pithecanthropus وهي مركبة من كلمتين يونانيتين (pithecos) أي سعدان أو قرد و (anthropos) أي انسان ، والثانية لاطينية (erectus) أي معتدل او منتصب . فالاسم الجنسي « انسان الفطحل » ، والمعتدل : الصفة المميزة للنوع .

والفِطَحْلُ : دهر لم يخلق فيه الناس بعد (القاموس ٣١ : ٤) . وجاء في لسان العرب (٤٢ : ١٤) الفِطَحْل على وزن الهِزَبْر : دهر لم يخلق الناس فيه بعد . وزمن الفِطَحْل زمن نوح . وسئل رؤبة عن قوله زمن الفِطَحْل . فقال : أيام كانت الحجارة رطاباً . روى أن رؤبة بن العجاج نزل ماءً من المياه ، فأراد أن يتزوج امرأة ، فقالت له المرأة ما سنُّك ؟ ما مالك ؟ فأنشأ يقول :

لما ازدَرَت نقدي وقلّت إبلي ... تألّقت واتّصلت بعُكلِ
تسألني عن السنين كَمْ لي ... فقلت لو عُمِّرت عُمرَ الحِسلِ
أو عمر نوح زمن الفِطَحْلِ ... والصخر مبتَلٌّ كطين الوَحْلِ
أو انني أوتيت عِلْمَ الحُكلِ ... عِلمَ سليمان كلام النملِ
كنت رهين هَرَمٍ أو قَتْلِ

جاء في معجم شرف ص ٦٤٩ :

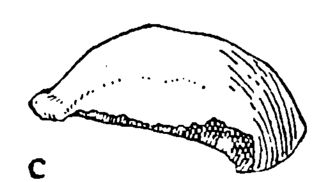
Pithecanthropi (pl. of pithecanthropus) = Ape-men

« القرود الشبيهة بالانسان . البشر قبل التاريخ » : اهـ . ولنا على هذا التعريف مأخذان :
الاول : ان « القرود الشبيهة بالانسان » هي التي سماها المواليديون : Simiidae

ووضعنا لها في العربية اصطلاح « الأشباه » ، ليشعر المطّلع انها أشباه الانسان ، ولا إنسانية .

الثاني : ان « البشر قبل التاريخ » يطلق عليهم اصطلاح : Pre - historic men وهم بشر فعلاً ، ولا « قردية » فيهم ، وعصرهم قريب نسبيًّا ، على الضد من « انسان الفطحل » فان تاريخه بعيد جدًّا . ويدلك على هذا ان الاستاذ « هكل » الالماني يعتقد أو هو يظن أنه الحلقة الحادية بعد العشرين من حلقات التطور التي تصل «البشريات» Anthropoidea بالانسان : Homo





الرسم الأعلى : صورة متخيلة لانسان الفطحل .
الرسم الثاني : الصاقورة التي عثر عليها الاستاذ دبوا في جاوه .

وجاء في معجم الحيوان المعلوف ص ١٩٠

الانسان القردي : اسم وضعه هكل من باب الحدس ، ثم كشف عظام الحيوان الآتي ذكره ، فسموه بهذا الاسم : P. erectus الانسان القردي المنتصب ، « قرد الزاج » اهـ .

ويعتقد بعض العلماء ان إنسان الفطحل وجد في نهاية الدور الثاني (١) : من الادوار الارضية (٢) وإنه تأصل من البشريات (٣) بأن بدأ يعتدل في مشيته ويكتسب قوة غير عادية في ساقيه ، بالاستعمال . ومضى في التطور حتى تحول الطرفان الاماميان ذراعين ينتهيان بيدين معدتين لغيرما أعدتا له في أسلافه ، وتحول الطرفان الخلفيان ساقين ينتهيان بقدمين أعدتا للمشي

(١) Tertiary period (٢) Geological Ages (٣) Anthropoidea

اعتدالاً . على ان انسان الفطحل لم يحرز القدرة الانسانية على استعمال لغة مفصَّلة القاطع ، مع ما يقتضيه ذلك من نشوء قوتي الوعي وتكوين الفكرات .(١)

وذكر سير « أرثر كيث » في الفصل الذي عقده في كتاب « التاريخ العام » ص ١٥٥ ج ١ وعنوانه « نشوء الانسان من صور الحياة الدنيا » : فقال ان اصطلاح : Pithecanthropus يساوي قولك Ape-man اي الانسان القردي ، غير أن معجم أكسفورد الكبير (ص ٩١٩ : ٧) قد أشار عند ذكر هذا الاصطلاح ، بعد ان فسّر اشتقاقه ، الى أن الاصطلاح يحتمل معنيين : إما الانسان القردي وإما القرد الانساني ، فقد جاء به ما نصه :

An ape-man, or man-like ape ; name given by Haeckel (1868) to a hypothetical link between the apes and man.

ولهذا جريت زمناً على تسميته « القرد البشري المعتدل » ، بالرغم من أن عبارة « الانسان القردي المعتدل » أصح ترجمة للاصطلاح الأعجمي . وكنت راعيت في ذلك ضرورة تعيين الاضافة . فان عبارة « القرد البشري المعتدل » تُشعر بالتدرج من القردية الى الانسانية ، وفاق ما وقع في الطبيعة أخذاً بسنة التطور . ولا أشك في أن هذا المعنى هو الذي قصد إليه هكل عند ما وضع الاصطلاح .

غير اني عدلت عن هذه العبارة ، وسميته « إنسان الفطَحل » ، نسبةً إلى زمن الفطَحل والمقصود به في اللغة « دهر لم يخلق فيه الناس بعد » . وفي النسبة إليه دلالة عريقة على المقصود . ويدلنا على ذلك شاهد ننقله عن العلامة هكل واليك هو :

Qout, These Ape-like men, or Pithecanthropi, very probably existed toward the end of the Tertiary period. (٢) They originated out of the Man-like Apes, or Anthropoides, by becoming completely habituated to an upright walk, and by the corresponding stronger differentiation of both pairs of legs.

Haeckel (trans.) History of Creation, 11, 293.

وقال الأستاذ بدَرْدْ : Beddard في كتابه « الثدييات » ص ٥٨٤ ما يلي :

« انسان الفطَحْل حيوان قارب الطابع البشري ، أكثر مما قاربه أيٌّ من القردة

---

(١) Encyclopedic Dictionary 5341-5

(٢) الدور الثاني : يجوز لنا أن نسمي الازمان الجيولوجية : Geological Ages (الادوار الارضية) ، لانها العصور التي تعين مدارج أو أدواراً خاصة في تاريخ تكوين طبقات الارض فتكون كالآتي :

الدور الاول : Primary period — الدور الثناوي Secondary period

الدور الثاني : Tertiary period — الدور الرباعي Quarternary period

في القاموس المحيط (١٦٣ : ١) وسق ثلث الثلث أي بعد الثنيا ؛ وثلث الناقة ولدها الثالث .

البشرية . وقد حدّد الواليديون [١] هذا الجنس اعتماداً على ضرسين ، وصاقورة [٢] ناقصة، وعظم فخذي [٣]، وجدت في أواسط جاوة ، مطمورة في قاع من الرّماد البركاني ، قيل ان تاريخه يرجع الى العصر الاجدّ أو الأجدَد [٤] ، وتبلغ سعة الصاقورة ثلاثة أرباع متوسط سعة مثيلتها في الانسان . ومن مميزات هذا الحيوان انسطاح الجبهة وانخفاضها ، وبروز الحيود [٥] التي تكون فوق الحجاج [٦] ويبلغ طول الفخذ ٤٥٥ مليمتراً ، وهو معتدل ، فيدل بصورته هذه ، على ان الحيوان كان يمشي معتدلاً » . اهـ .

ومنذ أن وقع الاستاذ « دُبْوا » Dubois على هذا الكنز العلمي العظيم أضيف الاسم النوعي اي المميز للنوع erectus الى الاسم الجنسي الذي أطلقه هكل على حلقته الوهمية Pithecanthropus فأصبح المصطلح ما هو . ويكون تعيين الدلالة العلمية كما قلنا في أول البحث، هو أن انسان المطحل اسم للجنس ويقابله Pithecanthropus وتمييز النوع الذي اكتشف الأستاذ « دبوا » آثاره هذه انه معتدل : erectus .

وقال العلامة « له كونت » Le Conte في جريدة « العلم » العام الشهرية عدد فبراير سنة ١٩٠٠ ما يلي :

« لقد اعتقد أن الانسان هو الانسان منذ أبعد عصور التاريخ . ذلك بأنه لم يكن قد عُثر على حلقات تربطه بشيء من البشريات . غير ان دكتور « دُبْوا » قد كشف في جاوة عن صاقورة وسنَّيْن وعظم فخذ ، ظهر من بحثها إنها لحيوان هو حلقة وسطى ، أطلق عليها الكاشف اسم P. erectus أمَّا المشكلة الباقية أمام العلم أزاء هذا الاستكشاف الآن، فتنحصر في الحكم على صفات هذا الحيوان : أقردٌ هو أشبه بالانسان من أي قرد معروف ، أم انسان أشبه بالقرد من أي كائن بشري عرف ؟ أما العصر الذي عاش فيه هذا الحيوان ، فأواخر العصر الأجَدّ (وهو آخر عصر في الدور الثلثي من الأدوار الارضية) أو أوائل الدور الرُّباعي » .

أعظم ما يدل عليه هذا الكشف العلمي، أنّ الانسان متطور عن صورة حيوانية أدنأ من صورته التي عرف بها في أواسط الدور الرباعي ، وهو الدّور الذي سادت فيه الرئيسات أي القردة والسعادين على غيرها من صور الحياة، بما بث فيها من قوة الذكاء وسعة الحيلة وبدايات الاحساس الأدبي

(١) Naturalists (٢) Calvarium : صاقورة الجمجمة باطن القحف المشرف فوق الدماغ كأنه قعر قصعة (شرف ص ١٧١) (٣) Femur (٤) Pliocene : انظر معجم سنشوري : Century ج ٤ ص ٤٥٦ ، فان الكلمة مكونة من حرفين يونانيين (Plion) أي زائد أو فائق و (Kainos) أي جديد ، ومدلوله فائق الجدة (٥) Ridges (٦) Orbit : العظم المشرف فوق العينين

ووصفه بعض الواليديين تحت عنوان « انسان جاوه » : Java Man فقال :

« إن أول انسان وصل اليه علمنا حتى الآن هو « إنسان جاوه » الذي عرف في الأوساط العلمية باسم « إنسان الفـطـحـل » Pithecanthropus ، لأن به شبهاً كبيراً من القرود العليا. ولقد عاش هذا الانسان منـذ مليون سنة . وفي سـنة ١٨٩١ أخذت العـالم هزة عنيفة باستكشاف جزء من جمجمته وعـظـم فخذه . وفي ذلك الزمن ظن قليلون أن هذه الجمجمة ذات المخايل القردية ، لا يمكن أن تكون لانسان . فهي من حيث الحجم لا تتجاوز نصف جمجمة الانسـان الحديث . وعلى الرغم من أن حجم الجمجمة لا يتخذ قياساً للكفايات العقلية ، فان النزول عن مـستوى حجم خاص للدماغ يدل على ان الانسان أقرب إلى البدائية منه الى الرقي العقلي . كذلك تدل تلافيف الدماغ وعمق الحزوز المخية على الذكاء والقدرة العقلية . وهنا نجد ان إنسان الفطحل أقل في هـذه الصفات من كل طراز حصلنا عليه من الســلالات البشرية » .

« وهذه الجمجمة منطامنة ومسطوحة الى حدٍ غير مألوف ، والجبهة متراجعة ، والجزء التالي للجبهة من الدماغ قليل النماء أوّلي التكوين . وكل منطقة من المناطق ذوات العلاقة بالذكاء والفراهة ، تلك التي تنمو في الأطفال آخر شيء ، كانت ضئيلة قميئة . وإنسان الفطحل بالرغم من أنه كان بطيء الحركة غليظ النظر ، فانه كان حائزاً لصفة من الصفات الرئيسة التي تمتاز بها السلالات البشرية ، صفة أنه كان حائزاً قدرة بدائية على الكلام . ولقد عرف الواليديون ذلك من الآثار التي خلفها الدماغ مطبوعة على الجمجمة ، حيث رأوا أن منطقة الكلام ، وتكون فوق موضع الأذن ، منتفخة بعض الشيء »

« يغلب أن أحدنا لو قدر له أن يرى « انسان جاوه » دائماً يمشي مشي الرسيف في جنب غابة ملتفة الشجر ، إذن لأخـذ بمنظره ، ولملـكه الرعب والفزع . فان هذا الحيوان كان ولا بد بمثابة شبح مخيف . ذلك بأن بدنه لم يتابع مخه في النماء . فان وجهه ، بحيوده الجبهية البارزة ، وعينيه الغائرتين ، وأنفه العريض الأفطس ، وفـكيه البارزين ، وذقنه المرتدة وجبهته المتراجعة ، كل ذا يرسم لك صورة مفزعة مريبة . وكانت رأسه تنغض دائماً الى الأمام ومن ورائها رقبة قصيرة غليظة ، فتلوح كأنها ارتكزت على كتفيه . وكان يستعصي عليه ان يرفع رأسه ويقف معتدلاً . فان فقاره لم يكن قد تطور الى حدٍ يمكنه من الاعتدال . أما هيئته وقسماته وانحناء ركبتيه ، فربما أنستنا انه احد عجائب الدنيا . ولكنه في الحقيقة بزرة الانسانية الأولى ، وأول جذر امتد منحرفاً عن دوحة القرود ، ليكون اصلاً للبشرية الحديثة »

لا تدخن

التدخين صحة تهدم ، ومال يحرق ، والذين يشيعون انه يساعد على الهضم أو يعين على التعادل الخفي ، كذبة آثمون . لأن التدخين معول فتاك يهدم بسمومه الصحة ، وليست سمومه قليلا عددها ، فهي تسعة عشر سماً ، ومن بينها « الفوروفورال » الذي لم يكتشف له العلم الحديث الى الآن ترياقاً .

وبسبب الالتهابات المستمرة الناجمة عن امتصاص هذه السموم ، تحدث تغييرات مرضية واستحالات متنوعة في أنسجة الجسم ، وفي غدده الافرازية ، ثم تصلباً في نسيج الشرايين . ويتبع ذلك مضاعفة القلب لجهوده حتى يستطيع أن يدفع الدم الى هذه الشرايين المتصلبة ، مما يتسبب عنه سرعة النبض والخفقان القلبي الذي يصاب به عادة المدخنون .

وليس القلب وحده هدفاً لسهام التدخين القتالة الطائشة ، وانما الكبد ، والكلى ، والمعدة ، والرئة ، والأعصاب والبصر ، والاسنان ، كلها من ضحاياه أيضاً .

والتدخين كثيراً مايسبب ذبحة صدرية ، تظهر عند المدخنين ما بين سن الخامسة والاربعين والخامسة والخمسين ، كما يسبب أيضاً الامساك ، والصداع ، والحموضة والدوخة ، وفقدان الشهية ، والهبوط الجنسي ، والهستريا ، والنورستانيا ، والتهابات الفم ، والحنجرة ، واللثة ، ويزيد من سرعة الانفعالات النفسية الغاضبة ، ويساعد على الاصابة السريعة بأمراض البرد ، لأنه يحدث التهاباً باللوز ، ويزيد النزلات الشعبية ، ويسبب التهابات في القصبة الهوائية والشعب ، وقد ينجم عنه نزيف دموي عند المصابين بأمراض في الرئة ، كما أن المدخن سريع الشعور بالتعب .

ومعظم قرح المعدة ، وكذلك قرح الرئة ، ترجع أسبابها الى التدخين ، ثم ان الدكتور « جراي » قد وجد ان ٩٦ ٪ من حالات سرطان الشفة ، واللسان ، والحلق ، التي مرت به كانت في المدخنين .

وقد اكتشف الدكتوران « مول » و « فلينت » ان التدخين ينقص من افراز الببسين والرينين مما يسبب عدم هضم المواد الزلالية ، وهذا هو السبب في أن النحيف اذا أقلع عن التدخين يزيد الى وزنه بضعة كيلو جرامات .

وقد قام الدكتور « ماك نللي » ببحث في هولندا حيث ينتشر التدخين أكثر من أي مملكة أوروبية أخرى فوجد ان نسبة الموتى من سرطان المعدة ، ضعفها في بلاد الانجليز وهي الامة التالية لهولندا في غرامها بالتدخين .

وللاقلاع عن التدخين سبع طرق : —

١ — الارادة

٢ — احلال عادة أخرى مكان التدخين كوضع قطع الحلوى في علبة السجاير نفسها وأخذ واحدة منها كلما ألحت الرغبة الى التدخين .

٣ — صيام الفاكهة لمدة يومين ، لا يؤكل خلالهما غير فاكهة الموسم ، في الوجبات الثلاث كما يشرب كميات كبيرة من الماء .

٤ — ترك الطعام قبل الشبع ، لأن ملء البطون يدعو الى التدخين .

٥ — غسل اللسان وتنظيفه جيداً بالفرشاة .

٦ — لكي لا يستطعم الانسان الدخان ويكرهه ، يمضمض بمحلول نترات الفضة $\frac{1}{1000}$ بضعة مرات يومياً .

٧ — التنفس العميق بالبطن وليس بالصدر ، ثلاثين مرة كل صباح أمام النافذة مفتوحة .

فهمي عطا الله

الاسرة والمجتمع (1)

من المعتقدات الخاطئة ولا شك ، معتقد ان الأسرة نظام طبيعي فطري يرجع الى الغريزة أو بالأحرى الى غريزة بعينها ، ينبغي إذا ما أنعمنا النظر قليلاً في تحليلها ، أن ندعوها غريزة الأسرة . وليس من ذلك شيء في عالم الحياة على اطلاق القول . أما الحقيقة فالقول بأن الأسرة نظام تعاوني اقتصادي ، كان في منشئه الاول تعاونياً صرفاً كما نرى في الجماعات البدائية حيث انصرف النساء الى القيام بكل حاجات الجماعة ، ما عدا الصيد والدفاع عن النفس ، فكانت هذه من اختصاص الرجل . ومع نشوء المدنيات وتطورها نشأ العامل الاقتصادي بالاضافة الى العامل التعاوني . فالأسرة في نظامنا الحاضر نظام تعاوني اقتصادي أخذت رابطته تنحل شيئاً بعد شيء ، وقد يأتي زمن تنحل فيه هذه العقدة التعاونية الاقتصادية انحلالاً تاماً .

دليلنا على ذلك ملموس فالآصرة التي تربط الأسرة في هذا العصر أساسها الرفاهية الاقتصادية . ولهذه الرفاهية الاقتصادية قانون ثابت . فكلما تهيأت للاسرة مسببات الرفاهية الاقتصادية ، ضعفت الناحية التعاونية ، وأصبحت الرابطة الأسرية مسألة موازنة بين مصالح مادية صرفة . واذا ضؤلت مسببات الرفاهية الاقتصادية قويت الناحية التعاونية بضرورة الحال ، وأصبحت الرابطة الأسرية مسألة حاجة تقتضيها نزعة الاحتفاظ بالذات ، ومواجهة مطلوبات الحياة بقوة تستمد من ذلك التعاون .

إذا حللنا هذا القانون بشيء من العمق اتضحت لنا حقيقته اتضاحاً أقوى وأظهر . فاذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة الرجل واستأثر بها ، ضعفت رابطة الأسرة ، لأن المرأة لا تجد لها مصلحة في الابقاء على هذه الرابطة التي تعود منفعتها على الرجل وحده .

(1) من مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية تأليف الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية الفلسفية. التزمت طبعه ونشره دار أحياء الكتب العربية بمصر ، ١٤٤ صفحة من القطع الأوسط : ١٩٤٥

وعكس ذلك مطرد أيضاً ، أي اذا كانت الرفاهية الاقتصادية مصدرها ثروة المرأة واستأثرت بها دونه . فاذا ضعف المؤثر الاقتصادي وأخذ المؤثر التعاوني سبيله الى العمل في النظام الأسري ، تعذر على هذه العقدة التي نسميها الأسرة البقاء ما لم يقم كل من طرفيها بنصيبه من وجوه هذا التعاون . فأسرة ما ضعف في تكوينها العامل الاقتصادي لن تقوم بغير التعاون ، فاذا لم يتزن طرفاها في الاضطلاع بمقتضياته ، ضعفت رابطة الأسرة وربما انحلت تماماً .

عاملان اذن لا غيرهما كانا السبب في نشوء ما نسميه الأسرة : التعاون ابتداءً ، ثم الاقتصاد تعقيباً . وهما عاملان يتزايلان ، بمعنى ان أحدهما اذا قوي ضعف الآخر ، وهكذا دواليك الى حيث لا انتهاء .

***

لا نستطيع أن ننكر أن هنالك أثراً غريزيًّا يتقدَّم ذلك النظام الذي نسميه « الأسرة » ذلك هو أثر غريزة حفظ الذات وما يترتب عليها من غريزة حفظ النوع . غير ان العلاقة بين الأسرة وبين الأثر الغريزي الظاهر في حفظ الذات وحفظ النوع هي أشبه بالعلاقة بين فن الطهي وغريزة الاغتذاء . فالاغتذاء وطلب القوت غريزة ، ولكن الصورة التي يُهيَّأ بها الغذاء ، ليست أكثر من فعل ثانوي تطلبته ظروف تطورية معروفة . أضف الى ذلك أن غريزة حفظ الذات والنوع هي فعل فزيولوجي (وظائفي) في حين أن الأسرة ظاهرة بعيدة كل البعد عن تلك الغريزة الوظائفية ، وما هي غير مظهر اجتماعي اقتضته ظروف طارئة ، يتغير ولا شك بتغيرها ويتكيف بمقتضياتها . فليس فيه اذن من صفة الثبات الغريزي شيء اطلاقاً .

***

إن نظام الأسرة الذي قام كما أسلفنا على ضرورة تعاونية ابتداءً ومنفعة اقتصادية تعقيباً ، بمقتضى تطور الحالات المدنية التي مرَّ بها الانسان ، قد يتكيف بحسب النظام الاقتصادي القائم في كل جماعة من الجماعات . فالأسرة من حيث الرابطة والاتصال وقوة التماسك في نظام رأسمالي ، غيرها تماماً في نظام شيوعي . وهي في مجتمع يعترف للمرأة بحق الملك والعمل والانتاج ، غيرها من مجتمع ينكر على المرأة هذه الحقوق . وما القوانين والشرائع التي نظمت الأسرة برابطة الزواج وأواصر القرابة الا نتيجة التشريع من جانب واحد من جانبي الجمعية ، جانب الرجل الذي استعمل دائماً حق الأقوى ، وسن شرائع الأسرة على أساس

الاحتفاظ بسلطانه على المرأة ، ومرت بشرائعه تلك أطوار متعاقبة اتجهت في جميع مظاهرها جهة واحدة ، هي جهة السيطرة على الشطر الأضعف من شطري المجتمع ، فتناوبت ذلك الشطر ألوان من السياسات أشبه بتلك التي تناوبت سياسة الاسترقاق في كثير من أمم الأرض

***

قلنا من قبل انه لا يوجد من شيء يقال له « غريزة الأسرة » حتى يقال بأن النظام الأسري غريزي، أي فيه ثبات الغريزة وخصائصها . وليس في علم النفس ولا في علم الاجتماع ولا في علوم الأحياء قاطبة شيء يدعى «غريزة الاسرة» . وإذن يكون هذا النظام انساني وضعي صرف، فيه كل صفات الأشياء الانسانية الوضعية القائمة اول شيء على عدم الاستقرار، المتغيرة بمقتضى الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، الخاضعة لضروب السياسات المدنية في مختلف العصور . وما أبعد شيء هذه صفته عن أن يكون غريزة . زد الى ذلك ان ليس في نظام الأسرة من ناحية واحدة ينطبق عليها تعريف الغريزة كما هي معروفة في علم الأحياء أو النفس

أعتقد فوق ذلك أن الأسرة كما نظمتها القوانين والشرائع وكما هي قائمة اليوم ، بل وكما عاشت في بعض العصور البدائية، كانت مانعاً صد الطبيعة عن ان تجري على هذا الحيوان الناطق حكم سننها الطبيعية التي أدت إلى نشوء الأنواع ، فعاقت بذلك ، وبخاصة في عصور التمدن التي سيطرت فيها القوانين والشرائع، نماء الصفات العليا في الانسان، صفات العقلية الممتازة والفن الرفيع والخلق الفاضل وما الى ذلك .

فان من الثابت ان الصفات الأدبية تورث كما تورث الصفات البدنية تماماً . وقد ثبت ذلك ببحوث العلامة « فرنسيس غالتون »[1] و « داروين »[2] وشترتون هل »[3] وغيرهم . والصفات الممتازة في الأفراد قد تظهر فجأة كما ثبت ذلك ببحوث كثيرين من المشتغلين بعلم الوراثة ، فاذا لم تحفظ هذه الصفات بالانتخاب الصناعي ، فقدت قوتها وخصائصها ، وظلت تظهر في فترات متقطعة متباعدة ثم تختفي في ذلك البحر اللجي من الصفات التي هي أدنى منها ، ولا يخرج منها سلالة برأسها إلا بتأثير عوامل طبيعية لا تتيسر للانسان الآن في بقعة من بقاع الأرض ، وان يسرت في ما سلف من الأحقاب .

ولقد استطاع الانسان ان يخرج سلالات من الحيوان وضروباً من النبات ذوات صفات

(١) Hereditary Genius (٢) Descent of Man
(٣) Heredity and Selection in Sociology

جديدة ممتازة بالانتخاب الصناعي(١) والانتخاب اللاشعوري(٢). وذلك مبحث مستفيض في نشوء السلالات ليس هذا موضع شرحه. ولكن الذي يعنينا هنا هو القول بان شرائع الزواج والأسرة قد تتطور بحكم العلم الى ما يشبه ذلك في المستقبل. بل إني أقول ان هذا ينبغي أن يكون مذهباً اجتماعيًّا يقصد به توليد سلالات ممتازة بالانتخاب الصناعي من أفراد النوع البشري. وسوف آخذ في تأليف كتاب في هذا المذهب عما قريب.

لقد أثبت سير فرنسيس غالتون ان وراثة الصفات الادبية والفنّية أمر ثابت علميًّا وعمليًّا، ودلل على مذهبه باحصائيات مستفيضة جمعها عن أسر انجليزية توارثت القضاء والسياسة والقيادة والأدب والشعر والموسيقى والتصوير واللاهوت وغير ذلك. فأي مانع يحول دون الاحتكام في هذه الظاهرة لتصبح يوماً ما العامل الأول في تكوين فئات ممتازة من النوع البشري تتوارث النبوغ جيلاً بعد جيل؟

ذلك دليل آخر على أن الأسرة ليست نظاماً أبديًّا غريزيًّا كما يقول البعض، وإنما هي نظام مدني صرف شرَّع له شطر واحد من شطري الجمعية، فانحدر إلينا على الصورة التي نراها اليوم، ونرى معها كيف تؤثر فيها عوامل المجتمع تأثيراً يثبت لدينا انها أبعد شيء عن ان تكون غريزة أو نتاج غريزة، وأنها متغيّرة متقلبة بحسب النوازع الاجتماعية

***

والكتاب حسن الأسلوب واضح العبارة. غير ان لنا على بعض المصطلحات التي استعملت فيه ملاحظات منها استعماله كلمة « وحدانية (ص ٦٨) كقوله — « وحدانية الزوجة مع تعدد الأزواج » ، ومن الممكن أن يكتفي بعبارة «تعدد الأزواج »، وكقوله « وحدانية الزوج مع تعدد الزوجات» ، ويكتفي في ذلك بعبارة« تعدد الزوجات » ، الى غير ذلك. ثم ان لفظة « وحدانية » أصبحت من المصطلحات المخصصة تخصصاً دقيقاً جدًّا في الفلسفة القديمة فاذا ذكرت دلّت على «وحدانية الله» ، بحيث اذا ذكرت غير مضافة ، دلت على هذا المعنى بغير حاجة الى بيان الإضافة. ويحسن ان لا تستعمل في غير ما تخصصت له.

(١) Artificial Selection

(٢) Unconscious Selection.



الاحلام والروح

قرأت في مقتطف يونيو سنة ١٩٤٥ تحت هذا العنوان ما كتبه حضرة الفاضل الاستاذ نقولا الحداد تعليقاً على ما نشره المقتطف لي تحت نفس العنوان في عدد ابريل . وكل ما كتبه معروف لا جديد فيه لأنه ترديد للآراء المادية التي سادت عقول العلماء في القرن التاسع عشر والتي اندثرت اليوم إزاء الفتوح الحديثة في العلم . والظاهر أن حضرة الكاتب الفاضل لم يصل إلى علمه بعد أن الكون المادي قد تبخر حتى في ضوء علم الفيزيقا الحديثة . وإخاله لم يقرأ لأنيشتاين كتابه « تطور الفيزيقا » الذي ألفه بالاشتراك مع العالم إنفلد ، ولا كتاب « الفيزيقا والفلسفة » لمؤلفه العلامة جينز ، ولا كتابي « طبيعة العالم الفيزيقي » و « المسالك الجديدة في العلم » لمؤلفهما العلامة أدنجتون . فلقد نادى هؤلاء العلماء الأعلام في كتبهم تلك بانهيار المذهب الآلي القائل بآلية الكون فحطموا الكون المادي تحطيماً . وإخاله كذلك لم يقرأ رأي اينشتاين الأخير في الأثير، ففي محاضرة له عن «الأثير والنسبية» وضح موقفه فقال : —

« أعود فأقول إنه تبعاً لنظرية النسبية العامة يكون الفضاء قد وهب صفات فيزيقية ، وفي هذا المعنى يوجد أثير . وتبعاً لهذه النظرية العامة لا يمكن تخيل الفضاء بغير أثير ، لأنه في هذا الفضاء لا يتعذر انتشار الضوء فحسب، بل يستحيل وجود معايير للفضاء والزمن (قضبان قياس وساعات) ، ولا توجد من ثمت أية فترات فضا زمنية بالمعنى الفيزيقي . ولكن هذا الأثير لا يصح أن يُظن أنه قد وهب الصفة المميزة للاوساط التي يمكن أن توزن باعتباره متألفاً من أجزاء يمكن سحبها خلال الزمن . أما فكرة الحركة فلا يمكن تطبيقها عليه » .

ومحاضرة اينشتاين هذه مطبوعة .

وإخال الأستاذ نقولا الحداد لم يسمع أيضاً بذلك « العلم الروحي الحديث في الجامعات » ويكفي أن ألفت نظره الى كراسي أنشئت له في جامعة بون بألمانيا ، وفي جامعة كمبردج بانجلترا ، وفي عشرين جامعة في أميركا . وقد يسره أن يعلم أن هذه الدراسة الروحية قد

أنشئت في كمبردج سنة ١٩٤٠ ، ويشرف عليها العلامة الدكتور بروض أستاذ الفلسفة فيها ، وأن منهج الدراسة هو : —

« فحص الظواهر العقلية أو الجسمانية التي تبدو لأول وهلة كأنها تشير أولاً الى وجود قوى معرفة أو فعل خارقة للعادة في بني الانسان خلال حياتهم الراهنة ، وثانياً الى بقاء عقل الانسان بعد الموت الجسماني » . أي أن أساس البحث هو من جهة القوى الوساطية ومن جهة أخرى بقاء الشخصية والوعي بعد الموت .

ولو شخص حضرة الاستاذ نقولا الحداد إلى جامعة لندن لراقه أو راعهُ أن يرى فيها حجرة لتحضير الأرواح هي الأولى من نوعها في الجامعات ، وقد جهزت بأحدث الاجهزة العلمية الدقيقة . ولكنه قد يرى صورة لهذه الحجرة في كتاب « خمسون من سني البحث الروحي » الصادر سنة ١٩٣٩ لمؤلفه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية .

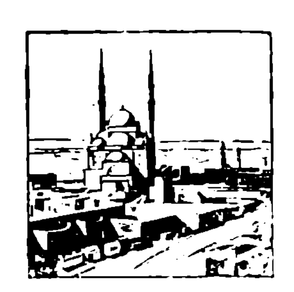
فليس في الأمر إذن دعاوى خرافية ساذجة وما إلى ذلك من بديع الحجج المادية ، وإنما هناك علم تعجز عن إدراكه العقول المتشبثة بالمادة حتى بعد أن حطم العلم الحديث الكون المادي .

ومع كل هذا لنفرض جدلاً صدق ما ينادي به حضرة الأستاذ نقولا الحداد ، ونرجوه أن يعلل لذلك الحادث الذي أثار هذا النقاش وهو الحادث الخاص برفعة حسنين باشا ، ونؤكد له انه حادث حقيقي ، وقد رددته أخيراً مجلة « الدنيا الجديدة » في عدد مايو الماضي . نعم فليعلل له في ضوء معلوماته ان استطاع . وهو لن يستطيع . وليبتعد عن ذكر الوهم والخرافة لأن ذلك لا يتضمن برهاناً ، وليجتنب التكرار فان « معاداة المعادات » أمر معروف .

وبقي أن أقول انني لم أضمن مقالي الأول شيئاً قلت عنه إنه « وراء الطبيعة » لأنه لا يوجد شيء وراء الطبيعة ، وإنما هناك قوانين الله الأزلية الطبيعية ، وهذه تنكشف الفينة بعد الفينة للعقل العلمي الفاحص وعلى قدر نضجه . والروح مادة لا تستجيب لها المشاعر ، وقد وصل العلم الى تصويرها بالفوتوغرافيا والأشعة تحت الحمراء ، والى وزنها كما وصل الى تصوير سيول الكهارب المختلفة والى وزنها ، ولا يخفى أن تلك الكهارب مادة لا تستجيب لها المشاعر مع أنها أساس المادة المحسوسة ، وهي اللبنات التي منها يتألف الكون المادي المنظور .

احمد فهمي أبو الخير

مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف



مسجد المدرسة العزية

بالجسر الابيض

مقدمة

نشر المعهد الفرنسي بدمشق كتاب « ثمار المقاصد » ليوسف بن عبد الهادي عن مساجد دمشق « تحقيق وتعليق » الاستاذ أسعد طلس . وفي هذا المقال والمقالات التالية له تصحيح لبعض ما وقع فيه الاستاذ أسعد من أخطاء مع التعريف بهذه المساجد وتحقيق تاريخها ومواقعها .

يقول يوسف بن عبد الهادي في ص ١٥٤ ، ١٥٥ من كتاب « ثمار المقاصد » المحلة الحادية والعشرون (بالصالحية) : حارة الجسر وبها عدة مساجد ... الرابع : مسجد بالمدرسة العزية » اه

ويعلق على ذلك الأستاذ أسعد طلس بالهامش رقم ٣ ص ١٥٥ بقوله :

« هي التربة العزية البدرانية الحزية ولعل المؤلف (أي ابن عبد الهادى) أطلق عليها اسم مدرسة لأن واقفها وقف فيها درساً ومكتبة » . اه

ثم ينقل الأستاذ بعد ذلك عن النعيمي [1] عبارة هذا نصها : « هي بالصالحية عند جامع الافرم أنشأها حمزه بن موسى بن احمد بن الحسين بن بدران ... المعروف بابن شيخ السلامية مدرس الحنبلية . قال ابن قاضي شهبه وقف درساً بتربته بالصالحية وكتباً وعين لذلك الشيخ زين الدين بن رجب توفى سنة ٧٦٧ هـ ودفن عند جده ووالده بتربته » اه

---

(١) هو محي الدين أبو المفاخر عبد القادر بن محمد بن عمر بن محمد بن يوسف بن عبد الله بن نعيم النعيمي المتوفى سنة ٩٢٧ هجرية = ١٥٢١ ميلادية وهو مؤلف كتاب « تنبيه الطالب وارشاد الدارس لاحوال مواضع الفائدة بدمشق كدور القرآن والحديث والمدارس » ويشمل هذا الكتاب علاوة على ذلك كما ورد في صحيفة ١٥ بالجزء الاول منه ما يلتحق بذلك من الربط (جمع رباط) والخوانق (جمع خانقاه) والترب والزوايا من بيان أماكنها وأوقات انشائها وتراجم واقفيها وذكر أوقافهم وشروطهم الخ . والنسخة التي اعتمدنا عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في مجلدين ضخمين ونحن نشكر للمجمع السماح لنا بالانتفاع بهذا المؤلف القيم في دراستنا لمساجد دمشق ومعاهدها الاثرية .

﴿ التصحيح ﴾ — ونحن نقول للأستاذ أسعد ان ابن عبد الهادي حين أراد أن يتكلم عن مساجد ومحلات الصالحية قال انها تبلغ اكثر من ثلاثين محلة (أنظر ص ١٤٥) كانت محلة الجسر هي الحادية والعشرين وحارة الفواخير وجامع الأفرم الخامسة والثلاثين وحارة الحواكير والردادين السادسة والثلاثين منها . ولا بد ان الاستاذ اطلع على كلام ابن عبدالهادي ووعاه جيداً حين نشر كتابه « المساجد » .

فلا ندري اذن كيف تكون المدرسة العزية بالجسر الأبيض هي نفسها المدرسة العزية بحارة جامع الأفرم ؟ واذا كان الأستاذ وجد بالنعيمي فصلاً عن مدرسة تسمى العزية أفلم يكن الأجدر به أن يبحث عن عزية يكون موقعها بالجسر لا بمحلة أخرى بعيدة عنها ؟

لذلك فالعزية التي يعنيها ابن عبد الهادي هي غير التربة العزية البدرانية الحزية التي يشير إليها الأستاذ أسعد بهامشه وينقل عن النعيمي التعريف بها .

***

إننا اذا حصرنا الآثار والمعاهد التي وصل إلينا علمها وكانت تقع في محلة الجسر الأبيض لوجدنا من أعظمها الخانقاه [1] العزية :

يقول النعيمي بالجزء الثاني من الدارس ص ٣٧٠ في باب الخوانق (جمع خانقاه)

فصل الخانقا العزية بالجسر الأبيض [2] : هي قبلي دار عبد الباسط وغربي (المدرسة) الماردانية ومدرسة الخواجا ابراهيم الأسعردي بغرب . قال ابن شداد : خانقاه على نهر ثورا انشاء الأمير عز الدين ايدمر الظاهري نائب السلطنة بدمشق » اهـ

وقد اطلع النعيمي على وثيقة وقفها وذكر أعيان هذا الوقف وقال « انها تربة ومسجد ورباط بالجسر الأبيض »

ولذلك عقد عنها فصلاً خاصاً بباب الترب تحت عنوان التربة الايدمرية الثانية (جـ ٢ ص ٤٣١) . وقال « هي بالخانقاه العزية عند الجسر الأبيض أنشأها عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ » اهـ

---

(١) الخانقاه ـ جمعها خوانق أو خانقاهات : هي معهد ينزل فيه الصوفية والفقراء يشبه في هندسته بناء المدارس وبه حجرات لاقامة النزلاء فيه وله شيخ يتولى شئونه الدينية والتعليمية والادارية .

(٢) عن الخانقاه العزية . انظر (مخطوط) الدارس للنعيمي جـ ٢ ص ٣٧٠ و (مخطوط) منادمة الاطلال للشيخ عبد القادر بدران جـ ٢ ص ٣٥٨ — ٣٥٩ . (ومنه نسخة بالتصوير الشمسي بدائرة أوقاف دمشق) و (مخطوط) مختصر المنادمة لبدران . نسخة دائرة أوقاف دمشق . و (مخطوط) المروج السندسية لابن كنان ص ١٩ و ص ٢٤ و ص ٧٩ (ومنه نسخة بالتصوير الشمسي بالمجمع العلمي العربي بدمشق) ودامسكس . لولزنجر ووتزنجر جـ ٢ ص ١١٥ . وسوفير (المجلة الاسيوية) مجلد ١٨٩٥ ص ٢٨٤ وهامش ٧٩ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧

ونقول أن بقايا هذه المدرسة والخانقاه والرباط والتربة كانت موجودة حتى أواخر القرن الماضي وأوائل هـذا القرن ، فقد زارها ماكس فان برشم العالم الأثري الشهير ونقل النقش التاريخي الذي كان منقوشاً عليهـا باسم ايدمر الظاهري [1] وكان بابها على يسار المصعد من دمشق الى الصالحية بجوار الجسر الأبيض على نهر ثورا

كما ان الشيخ عبدالقادر بدران [2] وصفها في مختصر كتابه المنادمة بقوله :

« وهي الآن خربة ولم يبق منها سوى القبة وهي بجانب الجسر من الغرب » اهـ

ونقول نحن ان ذلك جميعه قد زال الآن وأصبح موضعها أبنية مستحدثة .

***

من هو الامير عز الدين ايدمر الظاهري

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٧٠ جـ ١٣ ص ٢٦١ :

« وفي أواخر المحرم (سنة ٦٧٠) ركب السلطان الظاهر بيبرس في نفر يسير من الخاصكية والامراء من الديار المصرية حتى قدم الـكرك واستصحب نائبها معه إلى دمشق فدخلها في ثاني عشر صفر ومعه الامير عز الدين ايدمر نائب الـكرك فولاه نيابة دمشق وعزل عنها جمال الدين اقوش النجيبي في رابع عشر صفر .. الخ »

ويقول العلموي [3] في مختصر الدارس ص ٩٩ / ١٠٠

« ولم يزل بدمشق نائباً الى ان مات الظاهر وولي ابنه السعيد فاستمر ايدمر في نيـابة دمشق . ولما جاءها السعيد وتغيرت خواطر الأمراء عليه وطلبوا منه ابعاد الخاصكية فلم

---

(١) انظر هامش رقم ٧٩ ص ٣٠٦ ـ ٣٠٧ بالمجلة الاسيوية مجلد ١٨٩٥ وفيه ترجمة هذا النقش

(٢) هو الشيخ عبد القادر بدران الدوماني الدمشقي أصله من قرية دوما بجوار دمشق وكان ينزل بدار الحديث الاشرفية شرقي القلعة بالعصرونية وفيها ألف كتابه الشهير « منادمة الأطلال ومسامرة الخيال » في آثار دمشق والموجود منه في العالم نسخة وحيدة بمصر بالمكتبة التيمورية . وقد أهدى منهـا المرحوم العلامة احمد تيمور باشا نسخة بالتصوير الشمسي لدائرة أوقاف دمشق هي التي اعتمدت عليها في أبحاثي أثناء وجودي بدمشق . وقد توفى ١٣٤٦ هـ — ١٩٢٧ م . وقد كنت علمت وأنا بدمشق أن تركة الفقيد كانت تحتوي على نسخة بخط الفقيد عند الشيخ يس الرواف فاتصلت بحضرته فنقل لي ذلك . والنسخة الموجودة على ما بها من أخطاء كثيرة ـ أساسها في الغالب جهل الناسخ ـ تعد مرجعاً ذا قيمة لدراسة معاهد دمشق من الوجهتين التاريخية والاثرية . وللشيخ بدران عدا ذلك مختصر الكتابه المنادمة كانت توجد منه نسخة وحيدة بدائرة أوقاف دمشق اشترتها ـ أخيراً كما علمت ـ المكتبة الظاهرية بدمشق . وللشيخ كتاب آخر مطبوع هو تهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر .

(٣) هو الشيخ عبد الباسط العلموي المتوفى ٩٨١ هـ وقد اختصر كتاب الدارس للنعيمي والنسخة التي اعتمدنا عليها هي مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق وبالمكتبة التيمورية بالقاهرة نسخة أخرى من هـذا الكتاب . وقد ترجمه الى الفرنسوية مسيو سوفير ونشره تباعاً بالمجلة الاسيوية من ١٨٩٤ الى ١٨٩٦

بجيبهم خوفاً من سوء العاقبة ساروا الى برج الصفر وترددت الرسل بينهم ... »

وانتهى الأمر بأن خلع الملك السعيد نفسه في ١٧ شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٨ (١) ... ومسك الأمير ايدمر الظاهري نائب الشـام واعتقل بالقلعة عنـد نائبها وكان نائبها إذ ذاك علم الدين سنجر الدواداري وأحيط على أموال نائب الشام وحواصله وجاء على نيابة الشام الأمير شمس الدين سنقر الأشقر في أبهة عظيمة .. الخ

وقال في الشذرات (٢) : وقد حبس مرة ثم أطلق فلبس عمامة مدورة وسكن بمدرسته عند الجسر الأبيض وتوفى في ربيع الأول سنة ٧٠٠ ﻫ ودفن بتربته . ا ﻫ

المدارس العزية بالصالحية

اذا كان الاستاذ أسـعد يبحث عن أية تربة تسمى العزية ليضمها بمحلة الجسر ويقول هذه هي التي عناها ابن عبد الهادي فقد كانت أمامه ترب عزية أخرى بالصالحية ربما كانت إحداها أحق بأن يختارها لأنها في منتصف الطريق بين محلة الجسر التي يتكلم عنها ابن عبد الهادي ، ومحلة الأفرم التي تقع فيها التربة العزية البدرانية الحزية التي اختارها حضرته

وهذه التربة العزية التي نعنيها هي التربة العزية الايدمرية الأولى بمحلة السكة لصاحبها الأمير عز الدين ايدمر بن عبد الله الملـكي الصالحي . توفى بالقلعة سنة ٦٦٧ ﻫ ودفن بتربته بالقرب من المدرسة اليغمورية .

وهناك تربة عزية أخرى بالصالحية (بالسفح) انشأها عبد العزيز بن منصور بن وداعة الصاحب عز الدين الحلبي المتوفى سنة ٦٦٦ ﻫ . وله تربة ومسجد بقاسيون بالصالحيـة ويسمى مسجده مسجد الحلبي او الحلبيين .

وثمة تربة عزية ثالثة بالصالحية أيضاً كانت تقع بمنطقة الحواكير بالمهاجرين — صالحية هي التربة العزية الايبكية الحموية للامير عز الدين ايبك الحموي المتوفى سنة ٧٠٣ ﻫ

***

فهذه الترب العزية جميعاً بما فيها التي بالجسر والتي بالأفرم عدتها خمس ترب تخير منها الأستاذ أسعد تلك التي بالأفرم ضارباً صفحاً عن تحديد المؤلف موضعها بمحلة الجسر ظنـّا منه انها هي وحدها التي يمكن أن يطلق عليها اسم مدرسة لأن واقفها «وقف فيها درساً ومكتبة ».

والحقيقة ان المدارس والربط والخوانق ودور الحديث ودور القرآن والزوايا كانت

---

(١) انظر تفصيل ذلك في تاريخ ابن كثير « البداية والنهاية مجلد ١٣ ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ حوادث ٦٧٨

(٢) انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب لعبد الحي بن العماد الحنبلي ج ٥ ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧

جميعها معاهد دين ودرس وعبادة علاوة على ان بها مدافن خاصة لأصحابها وكذلك يمكن أن يعد من هذا القبيل الترب التي كان يبنيها أصحابها ليدفنوا فيها، فقد كانوا يقفون عليها الكتب والأوقاف الدارة للتعليم وتلاوة القرآن الكريم وعبادة الله . فلم تكن المدرسة العزية البدرانية الحزية التي اختارها الأستاذ أسعد هي وحدها التي أوقف عليها درس ومكتبة

وفيما يلي بعض الأمثلة على ما نقول :

اولاً : تربة العيني : الملاصقة لتربة عصمة الدين خاتون والجامع الجديد بالصالحية قبلي المدرسة الجهاركسية بزقاق المقدم والدلامية أنشأها الخواجة ابو بكر بن العيني ثم أوقف عليها ولده عبد الرحمن بن العيني اوقافاً ورتب في الايوان مدرساً . وعشرة من الفقراء ووقتاً في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا احنافاً ووقف كتبه عليها ... الخ

ثانياً : التربة البزورية : بسفح قاسيون . فوق سوق القطن أنشأها محفوظ بن معتوق البغدادي المعروف بابن البزوري وأوقف عليها كتبه . وكان تاجراً سرياً ومحدثاً جمع تاريخاً جعله ذيلاً على المنتظم في تاريخ الامم للحافظ بن الجوزي وتوفى سنة ٦٩٤ ودفن بها .

ثالثاً : التربة البهنسية : بسفح قاسيون . بناها المجد البهنسي وزير الملك الاشرف توفى سنة ٦٢٨ . . . ودفن بتربته وكان قد أجرى عليها أوقافاً جيدة دارة وجعل كتبه وقفاً عليها .

وكل من يطلع على كتاب ابن عبد الهادي يعرف ان أكثر المساجد الموجودة به يمكن أن تسمى ترباً أو مدارس ويندر أن ينشىء أحد الناس في ذلك العصر مؤسسة خيرية للتعليم والعبادة إلا ويبني له فيها مدفناً خاصاً حتى تحل عليه بركة العلم والقرآن الذي يتلى فيها ودعاء من ينتفع بخيرها .

***

وخلاصة القول أن المدرسة العزية بالجسر التي يعنيها ابن عبد الهادي هي مدرسة (ورباط وخانقاه وتربة) عز الدين ايدمر الظاهري المتوفى سنة ٧٠٠ هـ . وليست العزية البدرانية الحزية التي يذكرها الأستاذ أسعد بهامش رقم ٣ بصحيفة رقم ١٥٥ إذ أن هذه الأخيرة تقع بمحلة الأفرم وهي محلة أخرى غير محلة الجسر الأبيض .

القاهرة — العميد محمد رجب

الحمامة المفقودة

أخلاصةَ اللطف التي لا تلمسُ ... إنْ كنتِ من نسم فذا نتنفَّسُ

أو كنتِ موجاً كهرطيسيًّا فما ... بال النخامُ لديك لا يتكهرسُ (1)

اوكان عنصركِ الأثير ففيم لا ... تتكسر الأنوار فيه فيؤنسُ (2)

أو كنت من غير الهيولى ما اهتدى ... يوماً اليك الخاطر المتحسسُ

أو لا فدارك عالم الوهم الذي ... نشأت به منذ القديم الأنفسُ

نظروك في الأحلام أول مرةٍ ... شبحاً لميت زارهم يتكلّم

واستيقظوا لم يبصروكِ ولم يروا ... في الرمس الاّ جيفةً تتهدَّمُ

سألوا عن الرؤيا فقال عريفهم (3) ... ذي روحه ظهرت لكم تتجسم

وتساءلوا ما الروح قال مفسراً ... طيفٌ يطوف وصورة تتوهم

صدقوا وما ضلُّوا فليس الرو ... حُ الاّ الطيف في سنة الكرى تتوسم

بنت الخيالِ سليلة الوهم التي ... صاغتك من عدمٍ مخيلة الورى

ولدتك ألياف الدماغ . ولم تني ... طفلاً يلازم مهده متسترا

إن كنت ذاتاً في الطبيعة فاظهري ... أو أظهري أثراً لذاتك مضمرا

(1) الكهرسة هي امواج كهربائية مغنطيسية كأمواج الراديو والنور وما وراء البنفسجي وما تحت الاحمر الخ .

(2) اذا كانت الروح جسما اثيرياً متكتلا متغلغلا في الجسم المادي فلا بد ان تتكسر الانوار في هذا الجسم الاثيري كما تتكسر في مرورها من وسط لطيف الى وسط كثيف وبالعكس كما تتكسر في مرورها من الهواء الى الماء بدليل ان الملعقة ترى مكسورة في كوبة الماء . وتؤنس أي ترى كقولكم آنست في الحي ناراً

(3) عرافهم

حار الأنام بما ادعوا لك من سنىً بحثوا وسرك فيهم لن يظهرا
قد ضيعوك وأنت فيهم لمعة عجباً أغشهمُ خفاؤك أدهرا

ناء الأنام بعبء ما حملتهم تعبوا وما نبذوك في الشدّات
مستمسكين بحبل وصلك غرةً مهما وَهى في ساعة الأزمات
وإذا مللت وصالهم ألقيتهم عن عاتقيك نُفَاضة الذرات
تشقين وحدكِ في الخلود وحظهم منه بلا ألم فناء الذاتِ
الجسم يجرم في مدى شهواته وتُحمّلين عقوبة الشهوات

لا تفخري بسموّ قدرك فالذي تتفاخرين به اختراع خيالِ
ما أنتِ بين الترّهات حقيقةً إلاّ تعلة واسعِ الآمالِ
أغراك المجد الذي اورثته قلق الضمير وسورة البلبالِ
فلطالما كبح الهوى متكافاً يخشى عليك الخلد في الأهوالِ
يفديك للاخرى بدنياه وفي الدارين لم تلقي اليه ببالِ

أخسرته دنياه كيما تربحي الأخرى وأنتِ وهذه عدمانِ
لولاك لا يحيا حياة تقشف تنجيك من دينونة الديانِ
فعل الفضائل إنما هو عدّة للعالم الحالي لا الثاني
هو للسلام وللهناءة يُبتَغى لا مطمعاً في رحمة الرحمن
فهنا الحساب هنا العقاب هنا الثواب هنا الجحيم هنا نعيم جنانِ

نقولا الحداد

التهيج الانفعالي

بعض النظريات الحديثة فيه (١)

« التهيج الانفعالي من الظاهرات السيكولوجية التي لاقت عناية متزايدة ممن تقدم من علماء النفس وممن تأخر منهم . وقد وضعت عدة نظريات حاول بها واضعوها تعليل هذه الظاهرة تعليلا علميا . وفي هذا البحث يستعرض الاستاذ موكدلي أهم تلك النظريات التي وضعت لتعليل العوامل المسببة للانفعالات النفسية . وهذه النظريات وان لم تفسر أسباب تلك العوامل إلا انها تلقي ضوء عليها فتمهد السبيل لمن يروم التوسع بالبحث عنها »

نظرية الانفعالات النفسية

سبق أن قلنا ان لكل ظاهرة شعورية عوامل ثلاثة : الادراك والنزوع والوجدان . وما الانفعال النفسي إلاّ حالة نفسية يتغلب فيها عامل الوجدان على العوامل الأخرى، على ان هذا العامل مهما بلغت شدته لن يبطل تأثيرات العوامل الأخرى وإن كان أبرزها عملاً وأكثرها تأثيراً، فاننا لا نخاف لشعورنا بالخوف فقط، بل لشعورنا بالخطر المحدق بنا، وخوفنا هذا يستفزنا للهرب أو للمكوث في الموضع الذي نحن فيه تبعاً لنوعية الخطر المهدد لنا

ولا تظهر الانفعالات الشديدة على الانسان إلاّ عند ما تقاوم دوافعه الوجدانية مقاومة وقتية فيتعذر عليه من أثر ذلك اتيان أي سلوك مغاير لتلك الانفعالات . فمثلاً اذا ما لحق ثور هائج براكض أثناء ما يكون في حلبة السباق فان هذا الراكض سيولي الأدبار محاولاً الافلات مما أحدق به من خطر، ولكن الخوف لن يستولى عليه ما لم يتأكد من أن الثور على مقربةٍ منه وان هناك ثمة عوائق تحول دون نجاته منه . وتدل هذه الظاهرة على مرونة سلوك الانسان وعلى سرعة تغيره تلك المرونة التي تميز سلوك الانسان عن سلوك الحيوانات العليا.

ويعزى سلوك الحيوانات الدنيا الى « سلسلة الأعمال » المنعكسة » (٢) : وذلك لأن الاستجابة المماثلة للأعمال المنعكسة التي يتابع بعضها بعضاً لا تعطي مجالاً كافياً لتغير سلوك

---

(١) الاستاذ موكدلي الحاضر في علم النفس والفلسفة بكلية مورلي بلندن (٢) Chain Reflexes

الحيوانات الدنيا عند ما يتغير المحيط الموجود فيه . الا ان الحيوانات بارتقائها سلم التطور استعاضت بكيفية تدريجية بطيئة عن سلسلة الاعمال المنعكسة بالتلمس [1] حتى صارت الانفعالات أساساً للتعلم . فمثلاً إذا ما تولدت في نفس القارىء دوافع تدفعه للبروز على أقرانه في المبادىء الرياضية فان تلك الدوافع والانفعالات تجعله يكثر من التمرينات البدنية لتقوية عضلاته فيتسنى له القيام بما لا يستطيع غيره القيام به .

والواضع لنظرية الانفعالات هذه هو الدكتور دريفر [2] أحد أقطاب المذهب الهورمي أو مذهب الدوافع في علم النفس. ويتذكر القارىء أن الأستاذ ماكدوجل الواضع لأصول هذا المذهب يعتقد بأن الانفعالات المعقدة يمكن تحليلها الى انفعالات أولية تؤلف نواة كل منها غريزة من الغرائز أي ان تلك النواة تثير في نفس الشخص ميلاً فطرياً للقيام بأنواع خاصة في الأعمال عند ما يتكرر حدوث ظروف معينة .

أهم أنواع الغرائز

ويرى ماكدوجل ان أهم الميول الفطرية للانسان والانفعالات اللازمة لها هي : الهرب (الخوف) والبحث عن الطعام (شهوة الطعام) والنفور (التقزز) والاستطلاع (التعجب) والكفاح (الغضب) والأثرة النفسية (الشعور بالرفعة) والخضوع (الشعور بالضعة أو الخيبة) والحنو (التعاطف) والتكاثر (التهيج الجنسي) والاجتماع (الشعور بالعزلة) .

وكل من هذه الميول والانفعالات اللازمة لها يثير ظروفاً معينة تختلف عما سبقها في الانفعال، فالميل للكفاح والغضب مثلاً يمكن أن يثارا عند جميع الأحداث والناشئين اذا ما ضغط على أي عضو من أعضائهم. وبعد ان تتسع دائرة فهم الانسان فيحيط بمعاني الأشياء ويدرك الظروف التي تتكرر عليه ، يسهل عليه اثارة الميل الواحد في عدد من الظروف المختلفة . وقد يثير الظرف الواحد عدداً من تلك الميول مرة واحدة . وفي مثل هذا الحال تكون الانفعالات اللازمة لها كثيرة التعقيد . فالاستحسان الذي يبديه الانسان لشيء من الأشياء أو لحال من الأحوال مزيج من التعجب والشعور بالضعة وهذا الانفعال المعقد ناجم عن اثارة ميلي الاستطلاع والخضوع معاً .

ويجمع الباحثون النفسيون على ان أهم عامل يؤثر في الأفعال الانفعالية هو « النغمة الوجدانية » [3] ويقصد بهذا التعبير شدة الحالة الوجدانية للانسان فقد تكون الانفعالات ملذة وقد تكون مؤلمة فاذا ما اجتاز التهيج الانفعالي مستوى خاصاً لشدته شعر الانسان

(١) Trial & Error (٢) Dr. Drever (٣) Affective Ion

بالتألم . وما دمنا آخذين بالرأي القائل بأن الانفعالات ترتبط بالميول النزوعية الأولية ، وان التهيج الانفعالي يبلغ شدته عند ما يقاوم العمل النزوعي أو يحبط فعله فليس من العسير علينا أن نقرر بأن الألم الناجم عن الانفعالات الشديدة ليس إلاّ تعديل للنغمة الوجدانية بالنسبة لاستطاعة الفرد لتحقيق نزوعه أو لعجزه عن ذلك ، فاذا ما حقق نزوعه شعر باللذة وإذا ما خاف شعر بالألم . ومن منا لا يتألم عندما يمنع عن مشاهدة أمر واقع أو معرفة خبر حادث . وقديماً قيل المرء حريص على ما منع .

ولذكاء الانسان ولبعد نظره أثر كبير بتحقيق ناحية النزوع عن أعماله الشعورية وهذا ما دعى البعض من الباحثين للاعتقاد بأن ليست جميع الحالات العقلية المعروفة انفعالات مثل الخوف أو الغضب وانما بعضها مظاهر مختلفة للذة والألم — نوعي النغمة الوجدانية الاساسيين . وذلك لأن الأفعال الانفعالية كالخوف أو التعجب أو الغضب لا تقترن باللذة ذاتها أو الألم نفسه وانما تقترن بتغيرات دقيقة لهذين العاملين بحسب ما يتوقعه الفرد المنفعل من النتائج . فمثلاً عندما يتأخر طفل عن موعد رجوعه من المدرسة فان والدته لا تخشى حدوث أمر خطر له فقط ، بل تتصوره في وسط الخطر ، وبهذا تشعر بنوع من الألم ملازم لشعورها بالخوف على طفلها . والحقيقة ان ما يشعر به الانسان من ثقة في النفس أو رجاء أو قلق أو قنوط أو يأس فشعور بمظاهر النغمة الوجدانية مرافقة لميوله النزوعية المستهدفة أموراً ستقع في مستقبل حياته . أما ما يشعر به من ندم أو أسف أو حزن فمظاهر للنغمة الوجدانية يشعر بها عندما تتجه دوافعه النفسانية نحو ما حدث أو ما مضى من أعماله .

داروين والانفعالات

تترابط الانفعالات بأنواع مختلفة من السلوك كالركض عند الخوف والضرب عند الغضب، كذلك تكون مصحوبة بتغيرات في ملامح الوجه ، كالضحك عند الفرح ، والتقطيب عند الاستياء، وقلب الشفة السفلى عند الاستهزاء، وغير ذلك من تغيرات الملامح وبحسب مايذهب اليه داروين صاحب نظرية التطور ان أغلب حركات الوجه عند الانفعال آثار لحركات كانت في الأصل ذات فوائد للافراد وللجماعات . فقلب الشفة عند الاستهزاء مثلاً أثر لحركة بدائية تشبه التكشير عن الأسنان عند ما كان يحاول الانسان البدائي نهش فريسته . وان أصل حركة الأنف عند التقزز حركة كان يأتيها الانسان الأول عندما يشم رائحة مهيجة نفاذة . ويعتقد داروين ان حركات الانسان تتكيف بمبلغ تأثير الوسط الاجتماعي المحيط به وان هذا الوسط وحده يدعو للسلوك سلوكاً خاصًّا في ظروف خاصة . وهذا السبب

ذاته هو الذي يدعونا في كثير من المناسبات لتغير ملامحنا عند الانفعال وهو ذاته الذي يجعلنا نسيطر على سحنتنا عند ما نكون في وسط لا نرغب أن يرانا منفعلين ، مخفين تغيرات ملامحنا الظاهرية لكي لا تنم عن انفعالاتنا النفسانية . وهذا ما يجعل الحكم على انفعالات الانسان من تدقيق ملامح وجهه حكماً خاطئاً .

على ان هناك هيئات دقيقة في ملامحنا لا نستطيع أن نخفيها عندما ننفعل . ففي حالات انفعالية كثيرة تتضاعف فعالية الغدد العرقية فتتغير من جراء ذلك الحالات الكهربائية الخاصة بالجلد وتقاس هذه التغيرات الجلدية بجهاز خاص لا يختلف كثيراً عن الجلفانومتر . ويسمي البعض من الباحثين هذه التغيرات « بالانفعالات المنعكسة الجلفانية النفسية »[1] .

وبالاستعانة بالجهاز المذكور سهل على الباحثين درس التغيرات الانفعالية من تبدل نسبة ($\frac{ش}{ز}$) الناتجة عن قسمة زمن الشهيق في التنفس (ش) على زمن الزفير فيه (ز) . وهذه النسبة ثابتة في الحالات الطبيعية فهي لا تزيد على (٠ر٧٠) فأي اختلال في الحالات الانفعالية يؤدي الى تغير هذه النسبة . وقد دلت التجارب الدقيقة على ان الحالات العقلية المعقدة الناتجة عن كذب الانسان تنقص من تلك النسبة . وكذلك يحدث مثل هذا التأثير عند ما يضحك الانسان ضحكاً عالياً أو عند ما يستغرق في حل مسألة حسابية حلاً ذهنياً .

التعاون بين العقل والجسم

وتدل الابحاث النفسية التجريبية على ان التهييج الانفعالي يكون مصحوباً دائماً بتغيرات جسمية معقدة بعضها ظاهر أتم ظهور وبعضها خفي . فقد فحصت قطة بالأشعة السينية بعد ما امتلئت معدتها بالطعام فشوهدت معدتها تختض خضاً متزناً ، ثم فحصت بعد ما فوجئت بكلب يحاول الهجوم عليها فبدت عليها علامات الغضب الظاهرية ووجدت ان حركة معدتها توقفت توقفاً نهائياً دام أكثر من خمسة عشر دقيقة بعد أن أبعد الكلب عن القطة . وان حركة قلبها تضاعفت فارتفع ضغط دمها وأخذت كبدها تفرز للدم كميات غير قليلة من السكر المخزون بها لتعوض عما استهلك في تحريك عضلات جسمها .

وجميع هذه التغيرات الجسمية تبعث في نفس الحيوان القدرة على العراك وتظهر عليه معالم الغضب . وتعزى حقيقة هذه التغيرات الى فعاليتين : فعالية العصب السمپاثوي من

....

(١) Psycho - Galvan ic Reflexes

الجهاز العصبي وفعالية الكظرين [1] — الغدتين الصغيرتين الواقعتين فوق الكلية — والكظران غدتان من الغدد الصم (الغدد التي لا أقنية لها وتفرز مواد كيميائية معقدة التركيب تدعى الهرمونات) تفرزان مادتي الكورتين [2] والادرينالين [3] . والمادة الأخيرة هي التي اشتركت مع الأعصاب السمپاثوية لاحداث التغيرات الداخلية في جسم القطة المسببة لانفعالاتها النفسية .

ويسعى الباحثون المعاصرون لاكتشاف كل واحد من التغيرات الجسمية المختلفة المسببة لمختلف الانفعالات النفسانية ولكن ابحاثهم هذه لم تؤد بهم الى نتائج حاسمة . ويعزى السبب في ذلك الى أن التغيرات الجسمية التي تحدث عند الغضب تحدث أيضاً عند الخوف أو عند أي فعالية عقلية شديدة كما انها تحدث في أجسام لاعبي كرة القدم قبيل دخولهم ميادين اللعب وفي أجسام الطلاب الذين سيدخلون امتحاناً من الامتحانات . وكما لا يخفى ان الانفعال النفسي الذي يشعر به لاعب الكرة أو داخل الامتحان لا يمكن أن ندعوه خوفاً أو غضباً . ومما يزيد في صعوبة البحث عن الانفعالات ان هناك طائفة منها كالسرور أو حب الاستطلاع لا تكون مصحوبة بأية تغيرات جسمية .

نظرية جيمس — لانغ

ومن أشهر النظريات الخاصة بالانفعالات النفسية نظرية جيمس — لانغ [4] . وقد سميت بهذا الاسم لانها في نتائج تفكير كل من الفسيولوجي الدنماركي الأستاذ لانغ والسيكولوجي الأميركي المعروف الأستاذ وليم جيمس . فقد توصل هذان العالمان لوضع اسس هذه النظرية بزمن واحد دون أن يكونا على اتصال ببعضهما . وتتلخص نظريتهما بان الانفعالات تتألف من كتلة من التأثيرات الحسية تحدثها مختلف أقسام الجسم الخارجية منها والباطنية وتعزى الاختلافات بين نوعية الانفعالات لتباين نوعية التأثيرات الحسية الحاصلة من التغيرات الجسمية المختلفة .

والواقع ان جيمس غيَّر من وجهة نظره بشكل يعاكس منطوق هذه النظرية فما ذهب اليه إننا لا نبكي لشعورنا بالحزن ولا نحاول ضرب الآخرين لشعورنا بالغضب ولكننا نحزن عندما نبكي ونغضب عندما نحاول ضرب الآخرين . ومما يقرره اننا ان جردنا الانفعالات من جميع التغيرات الجسمية لا يبقى أثر للانفعالات . ولقد جاء في الجزء الثاني من كتابه

(١) Adrenals (٢) Cortin (٣) Adrenaline (٤) James - Lang Theory

« أصول علم النفس » [١] « اني لا استطيع تصور انفعالات مجردة عن التغيرات الجسمية وكلما ازددت في التمعن بحالاتي النفسية كلما ازددت ايماناً بأن ما أظهر به من مزاج أو ما أظهره من حب للاشياء او كلف بها فانما ظواهر لتغيرات جسمية خاصة وما أن تفارقني تلك التغيرات حتى تنعدم حياتي الوجدانية فأصبح كائناً ذا تفكير ونزوع فقط » .

وقد أجريت تجارب عدة لمعرفة مقدار صحة نظرية جيمس . لانغ أهمها تلك التي أجراها السر شارلس شيرنجتون [٢] فما قام به هذا الباحث الكبير ان قطع بعض الاعصاب الخاصة المتصلة بالفعاليات الداخلية لجسم كلب لحرم الكلب بذلك من الشعور بالاحساسات الداخلية ومع ذلك لم يظهر على الحيوان أي تغيير في سلوكه الانفعالي عند ما أحيط بظروف معينة وأجرى كانون [٣] مثل هذه التجارب على القطط ومن تجاربه انه قطع الأعصاب الخاصة بالتغيرات العضوية الداخلية وبذلك حال دون حدوث تلك التغيرات عند ما تهيج القطط فتبدو عليها جميع معالم الانفعالات النفسية . وجميع هذه التجارب لا تمكننا من ادراك ما يتولى الحيوان من شعور أثناء التجارب ، ذلك لأن الحيوانات عاجزة عن الافصاح عن شعورها الخاص، وهذا ما جعل الباحثين يركنون الى الانسان لاثبات مقدار ما في نظرية جيمس — لانغ من حقيقة .

وأظهر التجارب التي أجريت على الانسان تلك التي حقن بها عدد من الشبان بكميات متفاوتة من مادة الادرينالين ، المركب الكيمائي الذي يحدث تغيرات داخلية ترافق التهيجات الانفعالية الظاهرة على الانسان . فما صرح به بعض اولئك الشبان انه كان يشعر بعدما حقن بتلك المادة « كأنه » بين جماعة من الناس تشاهد لعباً مهيجاً أو سباقاً حماسيًّا وادعى بعضهم انه كان يشعر « كأنه في وجل من أمره وباضطراب لحادث موهوم او « كأنه » يتوقع حدوث أمر ممر أو « كأنه » يريد البكاء دون أن يعرف السبب الداعي لذلك . ويظهر من هذا ان الأشخاص الذين يحقنون بالادرينالين لا ينفعلون انفعالاً حقيقيًّا وانما يشعرون « كأنهم منفعلين » .

ونظرة واحدة الى نتائج هذه التجارب تكفي لادراك عدم ملاءمتها ونظرية جيمس — لانغ القائلة بأن التغيرات الداخلية تثير في النفس انفعالات مختلفة متعددة . ويستدل من تلك النتائج على أن عوامل الادراك والنزوع في التهيج الانفعالي ليست الا أجزاء كاملة للانفعال ، وان اختلاف نوعية تلك الانفعالات تعزى الى اختلاف تلك العوامل . ان التجارب التي أجريت على الانسان تكشف الستار عن ناحية من نواحي طبيعة العلاقة بين

(١) Principles of Psychology (٢) Sir Charles Sherrington (٣) Cannon

الانفعالات والأمزجة . فالادرينالين وان لم يكن كافياً لاثارة تهيج انفعالي أصلي في الانسان الاّ ان من حقن به يكون أكثر قابلية للتهيج الانفعالي من اولئك الذين لم يحقنوا به . ويستنتج من هذه بأن أمزجتنا في الحقيقة ليست الاّ آثار من تهيجاتنا الانفعالية تظل ظاهرة على وجوهنا أو فيما نأتيه من الأعمال طالما تبقى في أجسامنا العوامل المسببة لتلك الانفعالات وتتجلى الصلة الوثقى بين الأمزجة والانفعالات من النعوت التي تنعت بها أمزجة الناس في أحاديثنا العامة ، تلك النعوت التي نشتقها من أسماء الانفعالات المماثلة لها فكثيراً ما تسمعنا نقول ان فلاناً غضوب أو انه مرح وهلم جرًّا.

الامزجة وعلاقة الغدد الصم بها

ان الأمزجة كما تبدو لنا خارج المختبرات ليست الاّ مظهر ناجم عن اثارة انفعال غير كامل التكوين . فالرجل الذي يحدث له في محل شغله ما يغضبه او يزعجه ، ثم يرى ضرورة اخفاء غضبه وانزعاجه لوجود من يستاء لذلك يرجع اواره ونفسه تكاد تتفزز من ذلك الغضب المكبوت ، فما ان يواجه امرأ لا يستحسنه حتى يظهر عليه الغضب تارةً أخرى . ويعزى هذا الحال الى استمرار الحالات الجسمية اللازمة للانفعالات على ما هي عليه حتى بعد انتقال الشخص المنفعل من الوسط الذي سبب له ذلك الاضطراب النفسي . أما ظهور الانفعال تارة أخرى فيعزى إلى زوال العوامل المقيدة للانفعالات . والحقيقة ان الأمزجة تحافظ على الانفعالات وتكون السبب في ظهورها مرة أخرى . فالشخص الذي يركل قطة تعترض سبيله لا بد وان يكون قد سبق وتأثر من حادث أو من فعل سبب له الحنق والانزعاج . وعمله هذا صورة ناطقة للامزجة التي تحدثها الانفعالات المقيدة ولكيفية احتفاظ الأمزجة بالانفعالات ريثما تسنح الفرصة المناسبة لظهورها ثانية . وكان المتقدمون من العلماء يعتقدون بأن المظاهر النزوعية الوجدانية للحياة العقلية تعبر بعض التعبير عما يحدث في داخل جسم الانسان من تغيرات . واعتقادهم هذا جعلهم يصنفون الافراد بحسب تلك التغيرات . فما كان يعلمه هيبوكريتس الطبيب اليوناني المعروف ان الجسم يحتوي أربعة اخلاط [1] او سوائل هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء،وان صحة الجسم تعتمد على مبلغ أنسجام ما يمتزج من هذه السوائل الاربعة فيه . وادعى جالينوس أشهر اطباء اليونان ان للانسان أربعة أمزجة كما له أربعة أخلاط كل مزاج ناجم عن خلط من تلك الأخلاط ، فمن الناس من يكون دموي المزاج ، ومنهم من يكون سوداويه أو بلغميه أو صفراويه .

---

(١) Humours

ولكن الاكتشافات الفسيولوجيـة الحديثة المتصلة بوظائف الغدد الصم دلت على ان أمزجة الانسان ليست الا مظاهر لمجموع شخصية ناجمة عن تغيرات داخليـة متأتية عن افرازات الغدد الصم، لكن العلمـاء لم يجمعوا بعد على ان افرازات الغدد الصم وحدها المسببة لاختـلاف الأمزجة، مع انهم مجمعون على ان التغيرات الطارئة على فعالية هذه الغدد تؤثر على سلوكنـا وتصرفاتنا وعلى شخصياتنا بصورة عامة. ولا يسعنا ها هنا التبسط في البحث عن هذه الغدد مكتفين بالاشارة اليها اشارة مجملة [1]. وقد أشرنا سابقاً الى الدور المهم الذي يلعبـه الكظران في التهيج الانفعالي وللانسـان غير الـكظرين من الغدد الصم: الغدد الدرقية [2] والغدد قرب الدرقية [3]، وهذه المجموعتان في الغدد تستقران في الرقبـة قرب الحنجرة. والغدة النخامية [4] في الجمجمة قرب قاعدة الدماغ والغدة التيموسية [5] أو الصعترية في الصدر، والغدد التناسلية [6] — الخصيتان في الذكر والمبيضان في الانثى. فاذا ما اعتور الغدة الدرقية تلف أو مرض أصاب الشخص بله وفقدان الذاكرة وقلة في كفاءته التفكيرية. وفقدان هذه الغدة عند الاحداث يسبب لهم البله الدائم أو ما يسمى بالكريتنسم [7]. اما الغدد التناسلية فانها تسيطر على فعالياتنا التناسلية. وفقدان هذه الغدد أو ضعفها يؤدي الى انعدام الصفـات التناسلية الثانوية كنمو الشعر على الذقن وخشونة الصوت في الذكور. والرقة وارتفاع ترديد الصوت في الاناث. وللغدة النخامية تأثير كبير على نمو الجسم فأقل تغير في كميات افراز الفص الامامي من الغدة يسبب تغيراً ظاهراً في السلوك وزيادة هذا الافراز تجعل الشخص كثير الحركة شديد الحدة وقلتها تجعله بطيء الحركة خاص الفعالية كثير الخوف والحذر. هذه الحقائق وغيرها مما لا يتسع لذكرها المجال أدَّت بالبعض من العلماء للاعتقاد بأن الغدد الصم مفتاح سلوك الانسان وسر شخصيته.

نظرية كريشمر

ويعتقد الدكتور كريشمر [8] بان أمزجتنـا ليست من منتجات غددنا الصم فحسب بل نتيجة لجميع الفعاليات الـكيميائية للجسم. ويذهب هذا الباحث الـكبير الى ان الناس من حيث بناءهم الجسمي، يصنفون ثلاثة أصناف: أصحاب البنية الضعيفة [9] وأصحاب البنية الرياضية [10] وأصحاب البنية المترهلة [11]. أما أفراد الصنف الاول فهزيلة أجسامهم، معتدلة قاماتهم ضيقة أكتافهم واسعة صدورهم ضعيفة عضلاتهم، ويمتاز أفراد الصنف الثاني بحسن

---

(١) ومن أراد الاطلاع على الموضوع بصورة شافية فليراجع كتاب «الغدد الصم وتأثيرها في شخصياتنا» تأليف المعرب

Gonads (٦) Thymus (٥) Pituitry (٤) Parathyroids (٣) Thyroids (٢)
Athletic (١٠) Asthenic (٩) Dr. E. Kretschmer (٨) Cretinism (٧)
Pyknic (١١)

تكوين بنيتهم وباعتدال قاماتهم أو بطولها وبقوة بدنية تفوق المعدل . أما أفراد الصنف الثالث فيتصفون بقصر القامة أو باعتدالها وبضخامة الأعضاء وببروز الجوف البطني وبظهور السمنة على أجسامهم .

ويصنف كريشمر الجنون الى صنفين أيضاً الجنون السوداوي الحاد [1] والشيزوفرينيا أو الجنون الخفيف [2] ففي الصنف الاول تكون حالات المريض سريعة التبدل تتنقل بين الابتهاج الكلي والكآبة الكلية تنقلاً فجائيًّا فعندما يكون في حالة الابتهاج الكلي تظهر عليه معالم الفرح الشديد والحركة الكثيرة وعدم تمركز انتباهه ، وعندما يكون في حالة الكآبة الكلية يبدو كثير التأمل تلوح على وجهه آثار الكآبة والبؤس . أما المصابون بالجنون الخفيف فانهم ينتقلون بأفكارهم انتقالاً كليًّا عن المحيط الذي يعيشون فيه فكأنهم يعيشون في خيال أو كأنهم في عالم وهمي لا صلة له بهذا العالم الذي نحن فيه .

وبحسب ما يذهب اليه كريشمر ان الذين يصابون بالجنون الخفيف هم الذين كانوا يعيشون عيشة انفرادية لا يستطيبون حركة أو فعالية ، مستسلمين للخمول والكسل ، ومن شأن هؤلاء شديدي الكتمان يسود الشذوذ طباعهم . والمصابون بالجنون السوداوي هم الذين كانوا في حياتهم السوية كثيري المرح منغمرين في لجة المجتمعات والمنتديات ومن شأنهم أن يكونوا سريعي التأثير شديدي الحساسية . وقد استنتج كريشمر من دراسة حياة المصابين بالأمراض العصبية أن ثمة ارتباطاً بين أولئك الذين يصابون بالجنون السوداوي وبين أصحاب البنية المترهلة ، وان هناك علاقة وثقى بين المصابين بالشيزوفرينا أو الجنون الخفيف وبين أصحاب البنية الضعيفة الهزيلة أو أصحاب البنية الرياضية .

ويرى الدكتور كريشمر أيضاً ان للناس مزاجين السيكلوثيمي [3] والشيزوثيمي [4] . فالسيكلوثيمي من الناس من كان كثير الاختلاط أنيس المعشر سريع التفرد والتبدل تارةً يكون كثير الانشراح والابتهاج ، وأخرى يكون شديد الكآبة وجسمه أميل الى الترهل في الاعتدال . أما الشيزوثيمي منهم فمن كان هزيل الجسم أو ذا بنية رياضية قليل الاختلاط كثير الكتمان قليل الانفعال يخفي بين حنايا نفسه ما ينتابه من هموم ومن محن وآلام . أما المزاج الغالب على الناس فمؤلف من مزيج غير متناسب من صفات تينك المزاجين .

والخلاصة ان المصابين بالجنون السوداوي وبالجنون الخفيف يعتبرون ممثلين لطرفي مقياس يشير لجميع الاختلافات المزاجية والدرجة الوسطى بهذا القياس فتشير للأشخاص المتزنين الذين لهم عقلية سوية . وكذلك يمكن اتخاذ مقياس بهذا القياس للاختلافات الجسمية

---

(1) Manie-Depressive Insanity (2) Schizophrenia or Dementia Praecox

(3) Cyclothymes (4) Schizothymes

وهذا القياس يتراوح بين أقصى أنواع شذوذ الجسم المترهل وبين أقصى أنواع شذوذ الجسم المزيل . ويرى كريشمر ان هذه الاختلافات في الامزجة وفي البناء الجسمي تتوقف على مجموعتين من المواد الكيميائية التي تفرزها الغدد الصم الى الدم ، تمثل الواحدة منهما الصنف السيكلوثيمي وتمثل الأخرى الصنف الشيزوثيمي على ان الدكتور كريشمر يسلم مع الباحثين الآخرين في هذا الميدان بأن أبحاثنا السيكولوجية والفسيولوجية بهذه الناحية في البحث العلمي ما زالت غير كاملة لصعوبة البحث ولتعقيده . ومما يزيد في هذه الصعوبة ان التجارب التي تجري على الأشخاص لقياس مبلغ اختلافاتهم المزاجية تؤثر في سلوكهم فتكيفها تكيفاً مؤقتاً وهذا ما يجعل الباحثين يشكون في نتائج تلك التجارب .

حسن السلمان

معجزات جديدة في الجراحة

طبيب يتحسس بأصابعه اللطيفة جزءاً كشف عنه من دماغ مريض بعد فتح الجمجمة ، فاذا اهتدى الى حيث يريد ثبت هناك رقاً خفيفاً من مادة أشبه بالمطاط ليقوم مقام جزء من الغشاء الذي يحجب الدماغ . ان هذا الرق لشيء أثمن قيمة مما هو في الحقيقة . ذلك بأنه قد يأتي يوم يمكن أن يستخدم فيه لاعادة بناء أجزاء من الجسم أصابها التهتك والفساد .

من خصائص هذا الرق انه مرن فيتمدد الى ثلاثة أضعاف بعديه طولا وعرضاً ، ثم يعود الى حجمه الاصلي . وهو لا يحتوي على مطاط . انه مصنوع من مادة يقال لها « فبروجن » Fibrogen وهي مادة في الدم تساعده على التخثر وتكوين كتلة جامدة تمنع تدفق الدم . سمي هذا الرق : الرق الفبريني Fibrin Film ويصنع في شرائح رقيقة لينة أو في قوام ورق البرشمان أو تكون طيات أسطوانية . وخصائصه الآلية يمكن التحكم فيها وضبطها بحيث يحدد مقدار الزمن الذي يمتصه فيه الجسم الحي . وهذه الرقوق المرنة أشبه شيء من حيث الخصائص الآلية ، بالرباطات العضوية المرنة التي تكون في الرقبة ، فاذا غلظت شابهت الشعر أو الصوف في خاصياتهما . وبزيادة التخلخل في ذراتها يمكن الحصول على ضروب مختلفة من الفبرين Fibrin تشابه تراكيب مختلفة من تراكيب الجسم .

هذه واحدة من المعجزات التي اكتشفت في دم الانسان في الاشهر القليلة المنصرمة ، وهي بلا شك احدى الامجاد الطبية في عصرنا هذا ، وسوف يكون لها آثار فذة في الصحة العامة . والعمل في سبيل معرفة ما سوف يؤدي اليه هذا الاكتشاف من الممكنات الطبية يجري الآن بواسطة نخبة من الكيميائيين بتوجيه الاستاذ إدون كوهن في كلية هارفرد الطبية .

ومن هذه الممكنات ما اكتشف حديثاً وسمي « زبد الفبرين » Fibrin Foam وهي مادة أشبه شيء بالقطن المنفوش استعملت بنجاح في وقف تدفق الدم من الجروح ، حتى ان انبثاق الدم من أوعية دموية تهتكت وقطعت تقطيعاً ، يقف بمجرد استعمال هذه المادة وقفاً تاماً سريعاً . أضف الى ذلك ان هذه المادة يمكن تركها في الجروح لانها مستخلصة من بروتينات الدم فيمتصها الجسم من غير حدوث أي ركس (رد فعل) في الجسم .



من أنواع النبات

الطبي

﴿ الداذي ﴾ الهيوفاريقون عشب من الفصيلة الهيوفاريقونية اسمه النباتي Hypericum perforatum وبالانكليزية St. John's Wort وبالفرنسية Millepertuis; Herbe de Saint Jean زوره مرّة وهو عطر محرّك كان كثير الاعتبار عند الأقدمين في تخفيف الوجع .

﴿ ذَنَبُ الثَّعْلَبِ ﴾ نبات يشبه ذنبه معروف بلِسَان الحَمَل في مصر عريض الورق أصفر الزهر حبّه كالحماض من الفصيلة البلانتجنيّة اسمه النباتي Plantago major وبالانكليزية Waybread وبالفرنسية Grand Plantain تستعمل سنيبلاته غذاء للطيور وهو قابض وقيل طارد للحمى وتستعمل أوراقه اليابسة كخلاصتها السائلة مدرّة للبول .

﴿ ذَنَبُ الخَيْلِ ﴾ عشب من الفصيلة الاكويستية اسمه النباتي Equisetum arvense وبالانكليزية Field Horse-tail وبالفرنسية Prêle des champs وهو قابض قليلاً وقاطع لنزف الدم ومتوفر فيه السليكا (اوكسيد السليكون) .

﴿ ذُو خَمْسِ أصابعَ ﴾ البَنْجَنْكُشْت معرَّب پَنْج انْكُشْت بالفارسية أي خمس أصابع . ويقال الفَنْجَنْكُشْت والبَنْجَنْجَشْت والبَنْجَكُشْت وباليونانية أغْنُس معناه الطاهر أو العفيف ، ويسمى في مصر كَفّ مَرْيَم وفي مفردات ابن البيطار الأرْنَد وحَبّ الفَقْد شجيرة من الفصيلة الفربينيّة تزرع في الحدائق المصرية وتنبت في الواحة الصغيرة أوراقها مفصصة تشبه الأصابع وأزهارها في سنابل طوال بيض تضرب الى اللون البنفسجي اسمها النباتي Vitex Agnus-castur وبالانكليزية Chaste-tree وبالفرنسية Gattilier ; Arbre au poivre وهذه الشجيرة كانت رمز الى الطهارة أو العفة عند الأقدمين فقد عدوها مضادة التحريض للشهوة ولكن الأجدر اعتبارها محركة لها على رأي الأطباء عدا فوائد أخر ذكرتها كتب الطب القديمة .

﴿ الرسينون ﴾ السليخة شجرة متوسطة من الفصيلة الغارية اسمها النباتي Cinnamemum Cassia وبالانكليزية Cassia tree, Cassia وبالفرنسية Laurier casse, Casse يبلغ ارتفاعها ٤٠ — ٥٠ قدماً . أوراقها مثل الحربة طوال قابلة التكسير . قريبة الشبه بالقرفة ووطنها الهند الصينية وما والاها حيث تغرس . عرفت منذ أقدم العصور كتابل ، وورد ذكرها في التوراة ، وفي كتابات الاغريق الأقدمين وضمن أنبتة الصين قديماً منذ ٢٧٠٠ ق . م . وهذه الشجرة بأ كلها عطرة تنشرح لها النفس. يستعمل قلفها عوضاً عن القرفة الحقيقية إلا انه يعتبر أحط درجة . وهي تزرع في وطنها عادة من أجل قلفها وثمارها الفجة (براعمها) وأوراقها التي يحصل منها على دهن بالتقطير فيتداوى بالبراعم ويدخل القلف ضمن التوابل .

﴿ زبيبُ الجَبَل ﴾ هو حبّ الرأس نبات من الفصيلة الشقيقية وطنه أوربا وآسيا الصغرى اسمه النباتي Delphinium Staphisagria وبالانكليزية Stavesacre وبالفرنسية Staphisaigre, Staphysaigre, Dauphinelle بزوره الناضجة تشتمل على عدد من شبه القلويات وتستعمل من الظاهر لابادة الحشرات . وهي تنتج بالأخص شبه القلوي المسمى « ديلفينين » وهو بلورات عادمة اللون تذوب في الكحول والايثير والكلوروفورم ويستعمل في الطب مضاداً للتشنج والتقلص والألم العصبي .

﴿ الزَرُنبة ﴾ هو الزرنبد والزَرُنباد وعرْق الكافور عشب معمر من الفصيلة الزنجبيلية يشبه السُعد اسمه النباتي Curcuma Zedoaria وبالانجليزية Zedoary وبالفرنسية Zérumbet-ou Zédoaire وطنه جزائر الهند الشرقية وأصوله الجافة عطرة تشتمل على دهن متصعّد وراتينج ومادة غروية وهي كالزنجبيل يتداوى بها معدية ومخرجة للارياح .

﴿ السنانير ﴾ اسم يطلق في مصر على الأملج معرب آمله بالفارسية ويقال الاهليلج الاملج . والأطباء يسمونه الأملج الهندي . وهو ثمر شجيرة من الفصيلة الافوزبية اسمه النباتي Phyllanthus Emblica وبالانكليزية Emblic Myrabolan وبالفرنسية Myrobalan Emblic تنبت في جزيرة سرنديب (سيلان) والهند واللايو والصين وغيرها. أوراقها ريشية ظريفة ولذا قد تزرع الشجيرة في الحدائق للتزيين ثمارها خضر كروية حامضة الواحدة منها في حجم « البلية » ونواتها كبيرة نسبيّاً مرغوب فيها لعمل المربيات . وهي مليّنة مبرّدة . وفي الهند تستعمل الثمار والأوراق وقشر الساق في الدباغة .

محمود مصطفى الدمياطي

باب المراسلة والمناظرة

مجلة علم النفس

والزمان الوجودي

حركة مباركة تلك التي حفزت جماعة من أهل هذا الجيل إلى تكوين الجمعية الفلسفية المصرية وتأليف جماعة علم النفس التكاملي وإنشاء مجلتها التي نحن بصددها الآن ، ولقد تفضلت جماعة علم النفس فأهدتنا العدد الأول من هذه المجلة التي نرجو لها طول العمر، لتكون أداة فعّالة في نشر المعرفة والعلم ، ومجالاً لذوي الاختصاص يقررون على صفحاتها المبادىء ويتساجلون في الآراء وينهلون من موارد الثقافة ، فينشرونها في الناس ضياءً منيراً وأشعة لمّاعة فيّاضة بالخير والبركة .

أبْرَكُ من هذا كلّه ان يكون لهذه الجماعة ومجلتها ظهيراً خطير الشأن ممثلاً في شخص أميرة جليلة القدر هي الأميرة شيوه‌كار ، فاليها نوجه وافر الشكر على نهضتها وأخذها بيد العلم في زمان قلّ فيه نصراء العلم وغاض معين الوفاء للمعرفة وشاع فيه الدجل والدجاجلة ، فكان عملها هذا نبراساً يستضاء به ونهجاً يُتَأَسّى به ، فإلى سموها أوفر الشكران على ما أسدت للعلم وما تسدي لغيره من نواحي الحياة في هذه البلاد . ومن قبل انتعش العلم وزهى الفن وأثمر الأدب في ظل ظهراء كان منهم أمراء وأميرات وأناسٌ من عامة الشعب أذلوا المال للعلم فزال المال ومات الجاه وبقيت ذكراهم بالعلم وحده .

وفد على عمر بن الخطاب أحد أبناء هرم بن سنان ، فسأله عمر أن يسمعه شيئاً من مدائح زهير بنْ أبي سلمى في أبيه ، فلما فعل قال عمر : والله لقد كان يجزل فيكم القول ، فردَّ عليه ابن هَـرِم قائلاً : ووالله لقد كنا نجزل له العطاء : فأسكته عمر بقوله :

« ذهب ما أعطيتموه ، وبقي ما أعطاكم »

بقي بعد ذلك خصومة لم نكن من جناتها علم الله ، ولكن « مجلة علم النفس » بادرتنا بها ، إذ نشرت في صفحة ٨٠ من عددها الأول عبارات عن كتاب « الزمان الوجودي » تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي عرّضت فيها بالمقتطف ومحرّر المقتطف ، وبهرت هذه العبارات بامضاء ي . م ، فأرادت أن تخفي اسم الكاتب وهو ولا شك دكتور يوسف

مراد أحد رئيسي تحريرها ومدرس علم النفس بجامعة فؤاد الأول .

وقبل ان نعرض الى ما جاء في هذه العبارات خاصًّا بالمقتطف ، يحملنا الواجب الصحفي والأمانة العلمية أن نتناول المجلة نفسها بالكلام والنقد ، فان بعض أوضاعها وما نشرته من البحوث فيه من المآخذ ما لا ينبغي أن يفلت من النقد ، فان تصدير هذا العدد بكلمات من أربعة باشاوات أمرٌ لا يخلو من اتجاه ، ما كان لرجال يعملون للتكامل النفسي أن يلجئوا اليه ، فان فيه دلالة على شعور بالنقص في رجال يتمثلون الكمال ، وفي عصر لم يصبح فيه للالقاب ذلك الرنين الذي خيل لمحرري هذه المجلة ان يكون له أثر في عقول الناقدين . فنحن في عصر لا قيمة فيه لشيء غير الحق والحرية . أما استخدام الالقاب والأسماء واستجداء النفع بها ، فأمرٌ مضى زمنه وانقضى عَهْدهُ . وأثر الاستجداء في عبارات هؤلاء بين ظاهر ، وأكبر الأدلة عليه تصدير المجلة بكلمات هؤلاء ، كأنما يقال للناس : انظروا ، هؤلاء الأبطال يناصروننا . عفواً . لقد مضى زمن عبادة الأشخاص . وردّ الى القيمة الذاتية اعتبارها في عصر حرية الفكر .

كذلك وقع في مواضع من المجلة هنات لغوية وأسلوبية كثيرة كقول بعضهم « كريات حمراء » وهي قطعاً « كريات حُمْر » ولا شيء غير ذلك في لغة العرب . كذلك استعمل لفظ « عُصَاب » للدلالة على معنى لفظ Neurosis الأعجمي اشتقاقاً من « عَصَب » وهو اسم جامد فلا مانع من الاشتقاق منه . ولكن المصيبة أن يُنسَبَ اليه فيقول الكاتب « عُصابيُّون » أي المرضى بالعُصاب . وجاء من صيغة « فُعال » في اللغة أسماء أمراض كثيرة مثل زكام وصداع وزحار ، فهل يقال للمزكومين زكاميون وللمصدوعين صداعيون وللمزحورين زحاريون ؟ إنما هذا عبث باللغة بل إجرام يستحق العقاب لو ان في القانون مادة تعاقب من يمعن في العبث باللغة ، كالمادة التي تعاقب من يمعن في العبث بالأمن العام .

قال دكتور يوسف مراد بالذات : (ص ٨١) — « ... وقد برع حقًّا (أي مؤلف كتاب الزمان الوجودي) في محاولته تهيئة ذات القارىء لاختبار هذه الآنات من الديمومة التي تكون نسيج الوجود ولتَوَجُّدها ، أقصد ادراكها بالوجدان » ا هـ . وإذن يكون لفظ « التوجُّد » عنده مساوياً لقولك « الادراك بالوجدان » أو « الادراك الوجداني » ولاشك في أن هذا اللفظ كأنما استمدَّ من معاجم كتَّاب الأقباط في عصر محمد علي .

وجاء في ص ٦١ عبارة : « ملخصة عن كتاب Self Analysis K. Horney حلل نفسك » .

ولست أعلم كيف يكون عارفاً بالانجليزية من يترجم Self Analysis بعبارة « حلل نفسك » . ألم يقرأ صبري جرجس صاحب ذلك المقال عبارة « اعرف نفسك » : know thyself ؟ فانها وزان « حلل نفسك » في العربية ، ولكنها في الانجليزية مختلفة عن Self Analysis كل الاختلاف ، وهذه ترجمتها « تحليل الذات » لا « حلل نفسك » . أما « حلل نفسك » فانجليزيتها Analyse thyself . فاذا كان هذا كله في عنوان مقال ، فما بالك بما في المقال نفسه ؟

وفي ص ٢٥ : العضلات الملساء : وهي المُلْس ، والغدد الصماء : وهي الصمّ . وقال الغدد الادرينالينية ، وهذه الغدد مصيبة عظمى . فهما غدّتان لا غدد ، وهذا خطأ علمي ، ثم انهما في العربية الكُظْرين . انظر لسان العرب ص ٤٥٨ ج ٦ : والكُظر والكُظرَة شحم الكليتين المحيط بهما والكظرَة أيضاً الشحمة التي قدام الكلية فاذا انتزعت الكلية كان موضعها كظراً وهما الكظران » .

وجاء في دائرة المعارف البريطانية ص ١٧٩ ج ١ طبعة ١٤

Adrenal Glands, two flattened yellowish brown bodies, about 2 in long which lie on the upper anterior surface of the kidneys, called also suprarenal glands.

ثم هي اذا عرّبتها قلت « أدرينال » فاذا نسبت اليها فهي « أدرينالية » فلماذا نقول « أدرينالينية » أي ننسب الى المنسوب اليه في اللغة الأعجمية adrenalin اذا لم نكن على جهل باللغتين ؟

يا قوم : إذا كانت بيوتكم من زجاج ، فلماذا ترجمون الناس بالحجارة ؟ يا قوم قلتم في ص ٢٥ : التوازن الهرموني ، وهي في العربية التوازن التّسوري ، ولا أذكر لكم المصدر فابحثوا بأنفسكم واطلعوا ، قبل أن تؤلفوا ، على آداب عصركم ان كنتم مؤمنين برسالتكم .

ولا شك كذلك في انه من حقنا أن نناقش دكتور يوسف مراد الحساب على كل كلمة وردت في نقده هذا . فقد دلّ به أولاً انه غير متصل بثقافة عصره . في مصر على الأقل ، فقد كان من الواجب عليه أن يعرف أن محرر هذه الصحيفة لم يخضع يوماً من الأيام لوحي غير وحي ضميره وعقله ، ثلاثة عقود ونيفاً من الزمان اشتغل فيها بالصحافة والتأليف والترجمة والنشر ، فتعريض يوسف مراد في نقده بأن جماعة أوحت اليه بنقد الكتاب مهاترة ، لا تجديه نفعاً ولا تفيد صاحب « الزمان الوجودي » شيئاً ، لأن صاحب هذا الكتاب حتى لو فرض جدلاً بأن في صفحات كتابه هذا جوهرة من جواهر الفكر النادرة ، فليس محرر هذه

المجلة ولا أصدقاؤه ، ملزمين بأن يبحثوا عن هذه الجوهرة في صندوق من صناديق القمامة وضعها فيه المؤلف وأمعن في اخفائها بين محتوياته .

يقول الاستاذ يوسف مراد (ص ٨١) ما نصه : « فصاحبها (أي صاحب المقتطف وفي الحق انه محررها) لم يشأ أو لم يستطع أن ينقد الكتاب وما فيه من مذهب وأفكار ، فراح يلفق أخباراً عن آراء أناس فيه لست أدري كيف سوَّلت له نفسه أن ينسب اليهم هذه المزاعم » اهـ . وفي الحق ان نفسي ما سوّلت لي شيئاً ، وانما ذكرت أقوالاً قيلت في « الزمان الوجودي » أمام فئة من أهل الرأي والمكانة السامية في هذا العصر ، فنقلتها وكنت أميناً في النقل . ذلك بعد أن اطلعت على ذلك الكتاب وأبديت فيه رأياً ، فكان ما نقلت عنهم تعزيزاً لرأيي فيه .

ثم يقول الاستاذ مراد (ص ٨٢) مانصه :«ثمّ حاول (أي محرّر المقتطف) أن يدّعي شيئاً من العلم بالفلسفة فذهب يناقش تصدير الكتاب بعبارات هي أبلغ دليل على أن صاحبها بينه وبين الفلسفة وفهمها مراحل طويلة » اهـ .

ولقد تجنى دكتور مراد على محرّر هذه المجلة أعظم التجني في عبارته هذه . فاني لم ادّع العلم بالفلسفة ولا بغير الفلسفة ، إذ ليس في ما نقدت به ذلك الكتاب شيئاً يدل على هذه الدعوى . فاستاذ علم النفس دكتور يوسف مراد تخيل اني ادعيت شيئاً ، ثم راح يتجنى به عليَّ كأنه أمرٌ واقع . وأظن أن هذا مرض نفسي ، يعرف الدكتور طبعاً اسمه الأعجمي . ولعمرك كيف يكون موقف النقد والنقّاد في هذا العصر ، اذا كان مآل كل نقد ان يخرج للناقد من يقول له أنت « جاهل » ، من غير أن يفند نقده بحقائق علمية واقعة أو نظريات مقبولة في العقل . واني لأرجو أن يعتقد دكتور يوسف مراد ان ألقابه العلمية لا تغني عنه أمام الحق شيئاً . فإما الحجة وإما الاعتراف بالعجز او بالحق ، والاعتراف بالحق أولى بمحبي الحكمة . ولعلَّ يوسف مراد لم يكتب في هذا النقد الآحرفي ى م . واليك الدليل :

دكتور مراد لديه لقب في الآداب ، وهو مدرّس علم النفس بجامعة فؤاد الأول . وليس من بين ألقابه ما يدل على ان له صلة بالفلسفة وبخاصة الميتافيزيقا التي يترجم عن مذهب فيها كتاب الزمان الوجودي . واذن فالمنطق يساوي بيني وبينه في الجهل بالفلسفة ، فكيف به يحكم على نقدي بأنه بعيد عن الفلسفة واني بيني وبين فهم الفلسفة مراحل طويلة ، وهو لا يفضلني علماً بالفلسفة ، ولا أفضله جهلاً بها ؟

ولكني لا أستطيع ان أنكر ان دكتور مراد عالم بعلم النفس ومدرس لهذا العلم بجامعة فؤاد الاول ، وليس له في هذا العلم من المؤلفات غير كتيِّب نشر في مجموعة « إقرأ » عنوانه

«شفاء النفس» . وفي «شفاء النفس» ما يؤذي النفس . جاء في ص ٩٥ من ذلك الكتاب:

« تمتاز فلسفة فرويد (وليس لفرويد فلسفة وانما له مذهب في التحليل النفسي) بكونها ميكانيكية (ولعمرك ما هي الفلسفة الميكانيكية ؟) فانها تنظر الى الانسان كأنه آلة عديمة الحرية خاضعة كل الخضوع لقوى خفية لا يمكن التغلب عليها الا بالحيلة » . اه .

وجاء في ص ٩٧ : « أما فلسفة ادلر فهي على نقيض فلسفة فرويد ، تمتاز بكونها غائية اختيارية تفاؤلية . ونعلم ان المذهب الغائي أو مذهب العلة الغائية على نقيض المذهب الميكانيكي » . اه

وإذن فدكتور مراد مصمم مرتين على نعت مذهب فرويد بأنه ميكانيكي . والحق يأستاذ علم النفس، استغفر الله ، بل مدرس علم النفس، غير ذلك . واليك الدليل :

جاء في كتاب : المدخل الى التحليل النفسي ما يلي .

Introduction à la Psychoanalyse, traduction française, P. 67.

« لا نريد أن نصف ونبوب الظاهرات لا غير ، بل نريد أيضاً أن ننظر فيها على انها دلالات على أثر القوى التي تعمل في النفس ، وعلى انها مظهر للنزعات التي ترمي الى هدف محدود ، والتي تعمل سواء أفي اتجاه واحد أم في اتجاهات متقابلة ، اننا نسعى ان نكون فكرة ديناميكية Conception dynamique للظاهرات النفسية » .

وقال العالمان هسنار وريجس : A. Hesnard, E. Regis ضمن فصل عنوانه : Le Psychodynamisme في كتابهما La Psychoanalyse ما يأتي :

et l'on pourrai appliquer le terme Psychodynamisme à cette conception dynamique de l'esprit

ذلك بعد أن عرضا المذاهب التي تقدمت مذهب فرويد ونقداها ، ثم قررا مذهب فرويد على هذا النحو .

واليك مزيداً . فقد جاء في كتاب الأستاذ روبرت وودورث Robert S. Woodworth وهو أستاذ علم النفس بجامعة كولمبيا ص ١٧٠ ف ٥ طبع Methuen, London, 1931 ما يأتي بالنص :

Freud's mental mechanisms of defence mechanisms — better called (١) dynamisms, as there is nothing mechanistic about them—are useful concepts in the psychology of personality.

(١) See W. Healy, A. F. Bronner, A. M. Bowers, The Structure and Meaning of Psycho-analysis (Judge Baker Foundation, 1930, p. 192)

ومحور هذه العبارة قول المؤلف (نقلاً عن ثلاثة أساتذة هم « هيلي » و « برونر » و « بوورز ») ان الأولى أن يقال dynamics بدلاً من mechanics لأنّ ما يتكلم فيه فرويد لا يمت الى الفكرة الآلية بسبب . والفرق بين بحوث الظواهر النَّفْسيآلية ، وبحوث الظواهر النَّفْسيحَرَكية ، معروفٌ مذكور في مظانّ هذا العلم .

واني لأرجو أن لا يتبادر الى ذهن الدكتور أن هذين الاصطلاحين يجريان على قاعدة الكتّاب الأقباط في دواوين محمد علي الكبير ، بل هما يجريان على قاعدة عربية سليمة هي قاعدة « التركيب المزجي » كقولك بُخْتَنَصَّر ومَعْديكرب وحَضْرَمَوْت وبَعْلَبَك . فالأول : نَفْسِيآلي Psychomechanic والثاني نَفْسِيحَرَكي Psychodynamic . كذلك لا ينبغي ان يتبادر الى ذهن الدكتور الفاضل اني أجهل ان علم الميكانيكا قسمان : علم الأجسام الساكنة Statics وعلم الأجسام المتحركة dynamics ، ومن هذين المعنيين أخذ الذين انتحلوا المصطلحين في علوم النفس والاجتماع وغيرها ، وطبقوهما فيها بمعنى مجازيّ صرف . ومقولة الميكانيكا تنصرف الى القسمين معاً : السكون والحركة .

وبعد : فاذا كان الدكتور لا يفضلني علماً بالفلسفة ، ولا أفضله جهلاً بها ، فكيف به في نفس علمه ؟ أيحق لي أن أقول انه يجهل مثل هذه الفروق المفصلة بين مرامي المصطلحات التي يستعملها في علمه نفسه ؟ معاذ الله . فيوسف مراد دكتور في الآداب ومدرس علم النفس بجامعة فؤاد الأوّل . ومع هذا فمن الجائز أن يكون قد نقل كتابه « شفاء النفس » عمن لم يحسن الوقوف على مثل هذه الفروق الدقيقة في معاني المصطلحات وما تؤدّي اليه من الفروق العلمية فزلّ وضلّ . وناقل الكفر ليس بكافر على كل حال .

بقي بعد ذلك ان دكتور يوسف مراد ترجم الجزء الثالث من كتاب الطب التجريبي تأليف « كلود برنار » الذي أخرجته وزارة المعارف مطبوعاً باشرافه فضلاً عن اشتراكه في الترجمة . وبعد الاشراف والمراجعة ظهر في الجزء الذي ترجمه الدكتور مذهب جديد لم يقل به « كلود برنار » إذ جاء فيه ان للانسان قلبين قلباً أيمن وقلباً أيسر ، نقضاً للمذهب القديم القائل « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » . فلما نبهنا على هذا الخطإ الفاحش في عدد فبراير الماضي من المقتطف ، خرج دكتور مراد « بالصمت عن لا ونَعَم » ، وجاء اليوم يهز قلمه المنعوت بالدكتوراه وبفن تدريس علم النفس ، يدافع عن عبد الرحمن بدوي ، فكان مثله كالملك الحزين في قصة كليلة ودمنة اذ قال له الثعلب بعد أن فاز به :
يا عدوّ نفسك : ترى الرأي للحمامة وتعجز عنه لنفسك ؟

وليته تريث واطمأن فلم يتورّط . لقد يرى هـذا الدكتور ان نعتنا أسلوب « الزمان الوجودي » انه كالرصاص : صلب بارد ثقيل ، من مفاخر الـكتاب . من مفاخر الـكتاب ان لا يفهم وان يكون كالرصاص . وان لا يعي ما فيـه عقل ولا قلب ، وان المؤلف ألغز الـكتاب ترفعاً به عن العامّـة ، لأنه « عمل فلسفي رائع يحتاج فهمه وتقديره إلى جهد وملكة » . ولماذا لا يقول دكتور مراد هـذا القول للعلامة الـكسيس كارل ؟ فقد شرح في كتابه « الانسان ذلك المجهول » نفس الفـكرة التي أنزلها عبد الرحمن بدوي منزلة الطلسمات والاحاجي ، وفصّلها في وريقات قليلة ، فكأ نك تتلقى عنه الوحي إذ يوحى . واذا كان دكتور مراد لم يصله خبر ذلك فليقرأ الفصل الخامس من ذلك الـكتاب فانه ولا شك سيستفيد فائدة جلّـى ويعرف ان علاقة الزمان بالنفس البشرية لا تحتـاج الى « منطق التّـوتّـر » (أعيذك منه بالعقل الأوّل) ولا الى « الديالـيتكيّـة التوتّرية » ، ولا الى غير ذلك من معالم « الفلسفة الظاهريانية » على حد ما يقول دكتورك بدوي . واليك اسم الـكتاب ان كنت جاهله ، وناشره ان كنت لا تعرفه ، وعنوان الفصل وموقعه ، وسنة الطبع أيضاً ؟

Man : The Unknown : by Alexis Carrel, pub. Hamish Hamilton Ltd, 90 Great Russell Str., London, 1935 ; chap. 5, "Inward Time pp 159—190.

اقرأ هنالك سحر الـكلام وسحر المنطق وسحر العلم ، واستوعب صلة الزمان بالوجود النفسيّ كأ نك تنهل من مورد عذب في يوم قائظ .

لماذا لم يلغز « كارل » ما كتب في « الزمن الباطن » ؟ لأنه عالم يفقه ما يقول : ولماذا ألغز بدوي ما كتب في الزمان الوجودي ؟ لأنه دكتور بأمر الجامعة المصرية ، وفيلسوف بأمر طه حسين ، الذي لا يعرف من الفلسفـة الاّ بقدر ما يعرف دكتور مراد وبقدر ما أعرف أنا ، فهو يستوي معنا في الجهل بها ، ومع هذا فهو يوزع ألقاب الفلسفة على الفلاسفة حتى لقد قال دكتور مراد في (ص ٨١) من مجلة علم النفس .

« وقد استحق الدكتور عبد الرحمن بدوي عن جدارة ما لقبه به الدكتور طه حسين بك حينما قال ، في أثناء مناقشة هـذه الرسالة في كلية الآداب لدرجة الماجستير : إنه أول فيلسوف مصري ، ويحق لمصر فعلاً أن تفخر بفيلسوفها الشاب » . اهـ

ومَـثَـلُ يوسف مراد وطه حسين هنا ، كالطفيلي الذي يتشفـع به طفيلي مثله ، انتصاراً لثالثٍ دلّ الواقع على عجزه عن ستر تطفله ، فاتخذها دريئة يحمّي بهـا على صندوق القمامة الذي يدعى ان به جوهرة لم يرها أحد من الناس . وإنما هي أثر الوهم إذا جسدته الدعاية .

ترجم «هنري كوربن» عن هيدجر مختارات نشرها بعنوان « ما الميتافيزيقا » ونشرها في سنة ١٩٣٧ ، صُدِّرَت بالآتي :

Qu'est—ce Que La Metaphysique ? Par Martin Heidegger. Suivi d'extrait sur l'être et le temps et d'une conférence sur Hölderlin. Traduit de l'allemand avec un avant propos et des notes par Henry Corbin.

والفصل الثالث من هذه المجموعة بعنوان .

Extraits du livre sur L'Etre et le Temps

من صحيفة ١١٥ الى صحيفة ٢٠٨ . والظاهر من عناوين الفصول التي ترجمها « كوربن » ان الدكتور بدوي قد سطا على هيدجر هذا، فأخذ من كتابه جزءاً ضمنه رسالة « الموت » التي نال بها الماجستير ، وجزءاً ضمنه رسالته التي نال بها الدكتوراه . واليك عناوين بعض الفصول عن ترجمة « كوربن » دلالة على ذلك :

(1) L'Etre - pour - la mort et la possibilité pour la réalité — humaine de former un tout.

(2) L'impossibilité apparente de saisir et de déterminer ontologiquement ce qu'est la totalité achevée d'une realité - humaine.

(3) L'expérience possible de la mort des autres et la possibilité de saisir une realité - humaine totale

(4) L'Etre - pour - la — mort et la banalité quotidienne de la réalité — humaine.

وقد نقل « كوربن » في منتخبه هذا ١٣ قطعة متفرقة من كتاب هيدجر في « الوجود والزمان » وعناوين هذه القطع برهان حي ناطق على اصالة دكتور بدوي في النقل من جهة وفي تخليط ما يمكن فهمه في الأصل ويستعصى في النقل من جهة أخرى . أما اننا لا نعرف الالمانية كما يقول يوسف مراد محاولاً أن ينتقصنا ، فهذا لا ينفي أن عبد الرحمن بدوي قد أقام وليمة غثة للناس على حساب هيدجر وغيره من الالمانيين ، ولا نريد بذكر هذه الترجمة الا ان أحد الاساتذة أعضاء لجنة الامتحان جابهه بأنه ترجم حرفياً عن هيدجر وأثبت في كتابه صفحات عديدة وردت في المنتخب المترجم الى الفرنسية بدون اشارة الى مصدرها. أما ان النقل كان عن الأصل الالماني او غيره ، فانه نقل وكفى .

نضيف الى يوسف مراد فوق ذلك ان مؤلف « الزمان الوجودي » يرجع في ص ١٥١ من كتابه هذا الى الترجمة الفرنسية عمل كوربن ، ويعتذر بانه لم يحصل على الأصل الالماني . فا

قولك أيها الصوّل الجوّال ؟ وقد اتضح لنا في هذا النقد ان ما نقل إلى الفرنسية أزيد من ١٠٠ صفحة لا ثلاثين كما تدعي أيها الدكتور الفاضل !

... وهل يريد يوسف مراد ان ندله على مراجع فرنسية أخرى أخذ عنها بدوي ولم يذكرها. ندله على بحث في الزمان نشرته مجلة فرنسية اسمها Recherches Philosophique ؟ كذلك نجد بدوي يتكلم في زمانه الوجودي في ص ٢١٢ عن « التاريخية الكيفية » وهو نقل صريح عن هيجل، ثم من كلام هيدجر في كتابه « الوجود والزمان » . اما « الكيفية » فسبقه بها مئات من الألمان اصحاب مذهب « الفينومنلوجية » مثل مكس شيلر وهوسرل وهيدجر نفسه .

ولقدْ عجبت لماذا يتولى يوسف مراد الدفاع عن عبد الرحمن بدوي ويذهب به الحمس في الدفاع عنه هذا المذهب العجيب ، ويحتّر في الذود عن زمانه الوجودي ذلك الاحترار ، حتى قرأت مقدمة المجلة التي أودعها الأستاذ مراد ذلك السرُ . والسر راجع الى تبادل الاستخفاء وراء المؤلفين الاوربيين . أما وقد سطا بدوي على هيدجر الالماني ، فقد هيئت الفرصة لمراد أن يسطو على صاحب مذهب علم النفس التكاملي ، كما يدعوه ، فيقفا ليقول الأول إنه صاحب مذهب في الفلسفة، ويقف الثاني ليقول انه صاحب مذهب مبتكر في علم النفس، وذلك بمرأى ومسمع من أساتذة الجامعة ومدرسيها في نهاية عام دراسيّ ، كما حدثني أحد الثقاة .

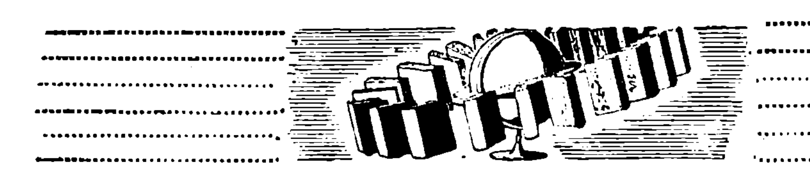
وأنت إذا قرأت صحيفتي ١١ و ١٢ من الجزء الأول من مجلة علم النفس شعرت بأن دكتور مراد يحاول أن يوهمك بأنه صاحب مذهب حقيقة في علم النفس وأن هذا المذهب يدعى علم النفس التكاملي، ويتسرب بأسلوب استخفائي ، متسللاً الى فهمك تسلل من يتشح بالظلام ليسلب خفية ، حتى يلقي في روعك انه مبتكر ذلك المذهب ، ناسياً انه بذلك إنما يسطو بجرأة على مذهب الاستاذ « وليم م . مارستون » وينتحله من غير أن يعرف للخجل حمرة ولا صفرة ، عاقداً مع عبد الرحمن بدوي معاهدة على الاستخفاء ثم السّلب .

أما كتاب الأستاذ « مارستون » فاليك وصفه وعنوانه :

Integrative Psychology : A Study of Unit Response, By William M. Marston, in collaboration with C. D. King and E. H. Marston. Pub. London Kegan Paul, Trench, & Trubner Co. Ltd. 1931.

يا قوم : إذا كانت بيوتكم من خزف ، فان بيد الناس حجارة من صوّان ، بل حجارة من سجيل .

اسماعيل مظهر



مكتبة المقتطف

التعليم في رأي القابسي

من علماء القرن الرابع

لأحمد فؤاد الاهواني — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ٣١٨ صفحة

هذا الكتاب هو رسالة قدمها الأستاذ احمد فؤاد الأهواني لينال درجة الدكتوراة من جامعة فؤاد الأول . وقد ظفر بالدرجة العلمية ، ولم يبق إلاّ أن يظفر كتابه بما يستحق من النقد بعد أن أصبح من حق القراء أن يقرءوه وأن يقولوا فيه كلاماً هو — على كل حال — دليل الحفاوة به وحسن القبول له .

وهذا الكتاب ينقسم قسمين : نص الكتاب القابسي – من علماء القرن الرابع – في تفصيل أحوال المتعلمين وأحكام المعلمين ويقع في ٧٧ صفحة من الكتاب . والقسم الآخر مناقشة « لآراء القابسي وعرض لها وموازنة بينها وبين الحديث من آراء التربية والتعليم . ويقع هذا القسم في ٢٤٠ صفحة من الكتاب .

وقد أحسن الدكتور الأهواني في نشر كتاب القابسي نفسه . فقد كان مخطوطاً في المكتبة الأهلية بباريس . ويظهر أنه ليس منه نسخة أخرى في مكتبات العالم المعروفة . لجهد أن تكون في دار الكتب المصرية نسخة شمسية . وأفلح جهده . ولكنه لم يكتف بذلك . بل أخذ القابسي وقرأه وصحبه طويلاً وتابعه في كل رأي يعرضه أو حكم يسوقه ورأى أن يُقدّم القابسي الى قراء العربية في حدود نصوصه ونصّ عبارته ، وأن يقدمه إليهم في الوقت نفسه مشروحاً ومعروضاً عرضاً علميًّا ومناقشاً فيما تعرَّض له من الآراء والأحكام .

فخرج بذلك العمل كتاب ضخم يحمل كتابين ، ومجهود يتوزع مجهودين .

والحق أن نشر النصّ لم يُحوج الدكتور إلى كبير من التعب أو العسر . فان النموذج

الخطي الذي نشره من هذا المخطوط يبدو جميل الخط واضح القراءة . فلم تكن هناك إلاّ صعوبات التحريف في النسخ . وهي صعوبات ذلّل الدكتور بعضها وترك بعضها راضياً من ذلك الترك بأن يكتب في الهامش هذه العبارة « كذا في الاصل »

وهذا الرضى من الناشر لا يعفيه من أن يتعرّض قليلاً للوم اللائمين ، فالدكتور محقق قبل أن يكون طابعاً أو ناشراً . ولو أنه أتعب نفسه قليلاً في الوقوف عند بعض الكلم المحرف لاستطاع أن يصل إلى شيء قريب من الأصل وليس الأصل كله . وقد فعل ذلك في بعض الكلمات فكان موفقاً في تصحيحه . .

أما البحث الذي وقفه الدكتور على كتاب القابسي فذلك عمل اقتضاه تعباً وعمراً . وإن القارىء ليرى آثار الجهد في كل صفحة من صفحات البحث . وما من المبالغة أن نقول في كل عبارة .

والحق أن في صديقنا الأهواني صبراً على البحث ودأباً على التنقير حتى لأعرف أنه ينفق الساعات في البحث عن كلمة .

وربّ قائل يقول ان رسالة القابسي الصغيرة الحجم ما كانت تستحق هذا العناء الضخم من الدكتور الأهواني ، وما كانت تستحق هذه المئات من الصفحات . . ! وقد يكون في ذلك بعض الحق ! فان في هذا البحث الطويل مواطن معادة مكرورة ولم تكن هناك حاجة ملحة الى التكرار الذي يشعر به قارىء الكتاب حتى ليبين ذلك في الصفحة الواحدة وبين بضعة من السطور .

ففي ص ٦٣ « وهم — الجرمان — أيضاً فقراء لأنهم كانوا يعيشون عيشة البداوة لذلك قبلوا مع السرور هذا المذهب الجديد — المسيحية — الذي يمجد الفقر والبساطة » . وبعد سطرين اثنين في الصفحة نفسها « كيف وجدت المسيحية أرضاً خصبة بين الشعوب الجرمانية ؟ السر في هذا يرجع أن مبادىء المسيحية حققت آمالهم ووجدوا فيها الراحه الخلقية التي لم يعثروا عليها في مكان آخر »

وفي ص ٦٥ « ذلك أن الطالب في الأزمنة القديمة كان يتلقى العلم على مدرسين مختلفين لا رابطة بينهم ، فهو يذهب إلى معلم اللغة ... وإلى عازف القيثارة ... والى معلم الخطابة » . وبعد بضعة أسطر — وبالضبط بعد خمسة أسطر — يقول : —

« وكان التلميذ في اليونان والرومان يتلقى علومه على مدرسين متباينين لا تجمعهم صلة .. فواحد يعلمه القراءة وآخر يقوّم لسانه وثالث يلقنه الموسيقى »

أليس في هذا تكرار واطالة للكلام . ثم ما الفرق بين الأزمنة القديمة » « وأزمنة

اليونان والرومان ؟ » أليست كلها من القديم . أم أن القدم هنا درجات بعضها خلف بعض ؟ ؟

ومن أمثلة الاطالة في الكتاب التعرض لنظام التعليم عند اليونان والرومان بكلام طويل، مع أن خلاصته في صفحتي ٦٦ . ٦٧ كانت تغني الغناء كله .

والتعميم في الأحكام في مقام يقتضي الدقة العلمية التاريخية غير جائز إلاّ من العابرين في علومهم غير الراسخين ، وما أظن الدكتور الأهواني من هؤلاء ، فهو دقيق وهو أمين على الحقائق العلمية .

فكيف يجوز له أن يقول في تعميم غريب « وبقيت جزيرة العرب يعبد أهلها الأوثان ويسجدون للاصنام » — ص ٦٩ — مع أن المسيحية واليهودية كانتا في نجران واليمن ويثرب ، كما كانت المسيحية وحدها في مملكتي الحيرة والغساسنة ؟

وفي الكتاب فصل عن « الكتاتيب في الاسلام » . وهو فصل يبدو فيه أثر تحصيل كبير . إلاّ أنه كان ينقصه ما نشر في ص ٥١ حول انتشار الكتاتيب بعد الصدر الأول من الاسلام . فان هذا الكلام كان موضعه في ص ٥٧ أوجب من موضعه في ص ٥١ . حتى يخرج الفصل كله مستوياً تاماً بذاته بدلاً من هذا التفكك .

والمؤلف يطيل في بعض المواطن من غير حاجة الى تطويل . ويوجز في مواطن أخرى حيث تدعو الحاجة الى البسط والاسهاب لا الى الشح والايجاز . ففي ص ٣٨ أراد أن يثبت — في كلام طويل — أن القابسي من علماء القرن الرابع لا الخامس لأنه توفي سنة ٤٠٣ !! وتلك بديهية ما كانت تحتاج الى مثل هذا الاسراف في الكلام . وما كانت تحتاج الى مثل هذه العبارة الخطابية « ثم أن عالماً يولد في سنة ٣٢٤ ويتوفى في سنة ٤٠٣ لجديرٌ أن يعد من علماء القرن الرابع لا الخامس لأن معظم حياته وفتوّة شبابه وبأس رجولته واكتمال علمه وعقله وعمله وقع في ذلك القرن » !!! طبعاً أيها الصديق !

ومن أمثلة الايجاز العجيب ما وقع في ص ٧٦ . فقد أراد أن يرد السر في انتهاء تعليم الصبيان الى أهل السنة « الى أسباب كثيرة » . ثم اكتفى من هذه الأسباب الكثيرة بسببين اثنين ... فما هذا الاسراف في الوعد ياأخي والبخل بالموعود ؟؟

وفي بعض أحكامك ياأخي تناقض لا أدري بمَ أعلله . فقد ذكرت في ص ٧٦ « أن كثيراً من المفكرين في الاسلام ترفعوا عن تعليم الصبيان ... وقد صرّح بذلك أصحاب رسائل اخوان الصفا » . وفي ص ٢٠٥ عدت تقول « ولعلهم — اخوان الصفا — تركوا

الصبيـان وشأنهم يتعلمون في الكتاتيب لأن تعليمهم يتم بالتحفيظ لا بالتفهيم » . فلم يكن ذلك ترفعاً كما قلت في ص ٧٦ ؟؟ !

بقيت بعد ذلك أخطاء مطبعية لو صححتها لأنصفت الى كتابك . ولـكنها ليست كثيرة . منها

ص ١٤ : — الفهرمة . وهي الفهرس أو الفهرست بالتاء المفتوحة ، ص ٨٧ سطر ٢٠ : ـ يعلمنهن والصحيح يعلمونهن ، ص ١٦ : ـ عمّر والصحيح عُمِّر بالبناء للمجهول ، ص ٢٠٨ : ابن مسكوية بالتاء . وهي بالهاء ، ص ٣٢١ : ـ تاريخ التمدن الاسلامي أربعة أجزاء ـ والصحيح أنها خمسة .

وعلى الرغم مما بدا في كتابك أو بدا لي فيه فهو عمل طيب وجهد كثير . وما أكثر انصافك وأنت تناقش « كارا دي فو » وخليـل طوطح والدكتور ابراهيم سلامه والقابسي نفسه فأرى الحق بجانبك في كثير من المواضع ، وأرى فيك من النصرة لقومك ما تشكرك عليه العروبة أطيب الشكر وما يثني عليك العلم به أحسن الثناء .

• • •

٢ — مرايا الناس

للسيدة وداد سكاكيني

مطبعة ومكتبة مصر — ١٥٣ صفحة من القطع المتوسط

قرأت للسيدة وداد سكاكيني حفنةً من المقالات في تاريخ الأدب موزّعة بين صحف سوريا ومصر فلفتني منها شيئان : — قوة في التعبير ما كنت أتوقعهـا من امرأة كاتبة ، ومعرفة بالتاريخ الأدبي ترجّحُ قوة أسلوبها وقوة تعبيرها : فقلت في نفسي : سيُرجى من هذه السيدة للأدب العربي خير كثير .

وما أخطأني التوقع ولا كذبتني الفراسة ، فقـد أخرجت المطبعة العربية مجموعة من القصص الصغيرة باسم هـذه السيدة . وشاء فضلها أن تشرفني باهداء نسخة منهـا . وقد صنعت بي خيراً حينما فعلت ذلك . فـا كنت أنتوي أن أحتجز لنفسي نسخة بالشراء ، لأنني مُعْرِض عن قراءة كثير من القصص التي يكتبها الناس في هذه الأيام .

وأول ما زهدني في قراءة قصص كثير من قصاص اليوم استهتارهم باللغة والأسلوب استهتاراً يخشى منه الطغيان على النثر الرفيع . فلا تجد في كثير مما يكتبون إلاّ ارتطاماً في حمأة الجهل باللغة وأسرار الأساليب . وجل ذخيرتهم من الكتابة ألفاظ يديرونها ويقلبونها

كالببغاء ولا يعرفون مواضعها من الكلام لعجز في ثقافتهم اللغوية . فهي من حيث كونها ألفاظاً قائمة بذاتها — منتهبة من هنا ومن هناك . أما ازال هذه الألفاظ منازلها ووضعها مواضعها من الكلام فذلك ما لا يعنيهم ، لأنهم يحفظون ألفاظاً ولا يعرفون كيف يستعملونها : وذلك شر ما يمنى به الكاتب .

ويتبع الجهل باللغة جهل آخر بالنحو الصحيح . فاجراء الكلام عندهم على القواعد النحوية فيه تضييق عليهم ومضايقة لهم ، لأنهم لم يعدوا أنفسهم أو لم يعدهم تعليمهم للسلامة من أخطاء النحو .

وما رأينا اجتراء على الأصول كما يجترىء هؤلاء المتكاتبون ، وما سمعنا أن قاصاً في أي بلد من بلدان الله العاقلة يطلع على الناس بكتاب وأداته اللغوية معطلة مفلوجة .

وشيء آخر زهدني في القصة العربية ، وهو خروجها على قواعد الفن القصصي الصحيح . فانك لتقرأ القصة الغربية فتعرف رأسها من ذيلها وترى فيها التحليل ومتابعة الحوادث والتشويق والعقدة والصدق في الاداء . ولا تنس الأسلوب فتجد في ذلك كله متاعاً ولذاذة.

وخير القصاص من جمع باعتدال بين صحة الأسلوب وقواعد الفن القصصي . فاذا طغى الأسلوب فهناك انشاء ولا فن ، وإذا طغى الفن فهناك قصة ولا أسلوب . . . ولقد كان في بداية توفيق الحكيم طغيان الفن على الأسلوب واللغة . إلاّ أنهُ أخذ يدلف في قصصه الأخيرة الى التقريب بين الاثنين . وهو سائر في ذلك الى غاية نحمدها له ويحمدها له الأداء العربي الصحيح .

وفي بداية السيدة وداد طغيان الأسلوب واللغة على الفن . وما في ذلك بأس أول الأمر. ففي ذكائها وحسن استعدادها ما يبشرنا بمقامها المحمود في عالم القصة .

ولا أحسبها من ذلك يائسة ولا خائفة . فقد عرفت من كلمة الأمير مصطفى الشهابي في تقديم كتابها أن نقده لكتابها الأول « الخطرات » كان أليماً على نفسها . إلاّ انه افادها وجعلها أكثر توفراً على اتقان فنها .

والحق أنها في هذه المجموعة الجديدة متقنة محسنة . وما أبرها وهي تصف بنات جنسها وتحنو على من لم تساعفهنَّ الاقدار بالأمل المنشود عند كل فتاة . وفي قصة « هاجر » يبدو عطفها على هذه الفتاة التي راحت ضحية الأقدار . فظلّت على عنوسها بينما ظفرت أختاها بالزواج السعيد .

وقصة « الضرتان » تمثل المرأة الشرقية حينما تصبح ضرة فتتحالف مع عدوتها على زوج واحد يمثل العدو المشترك .

وجل قصص الكتاب يدور حول المرأة الشرقية في أدوار حياتها : فتاة كانت أم زوجة أم أرملة. متعلمة كانت أم جاهلة . والمؤلفة في ذلك بارعة قادرة . وهل أقدر على وصف المرأة وتحليلها إلاّ امرأة مثلها ؟

والمرأة الشرقية هي المرأة في كل قطر شرقي ما دمنَ خاضعات لعقلية وتقاليد وبيئة تكاد تكون واحدة . وفي مصر والعراق وفلسطين كثيرات من أمثال هاجر والشيخة عطية وعطرشان وغيرهنَّ إلاَّ أن أسماء الأماكن ووصف بعض العادات يخلع على الكتاب ثوباً سوريًّا بحتاً .

ولستُ مع من يرون في ذلك بأساً فالقصص العربي يجب أن يكون وحدة في أصوله . أما ما عدا ذلك من مميزات الاقليم وفروق اللباس وتباين العادات المحلية فلا بأس من اظهاره. فان القاصة الاسترالية المشهورة « مس هنري هاندل ريتشاردسون » تصبغ أدبها كله بصبغة استرالية موضعية . ولم يمنعها ذلك أن تأخذ مكانتها في القصة الانجليزية .

على أن لتلك « المحلية » أثراً في الأدب العربي كله . فهي تصور لبيئة هي جزء من الوطن العربي الأكبر ولقد أحسنت السيدة وداد عرضها لمن لم تتح لهم الأقدار زيارة تلك الأقطار.

ومع حرص السيدة على التنوق في ألفاظها وأسلوبها ولغتها فان أخطاء قليلة وقعت في الكتاب لا بأس من الاشارة إليها . ولو أنها كانت ممن يستهين بالتوجيه أو يغضب للتصحيح ما حفلنا بتنبيهها إليها .

ففي ص ٢١ : العنوسة البغيضة . وفي كتب اللغة العنوس لا العنوسة

وفي ٣٩ : فرط بالشيء وهو يتعدى بفي . قال تعالى « ما فرَّطنا في الكتاب من شيء »

وفي ص ٣٣ : كأنهن كالملائكة . واجتماع أداتين للتشبيه في تشبيه واحد هو من عجيب الكلام . والصحيح : كأنهنَّ ملائكة .

وفي ص ٤٣ : عند أي عيلة تخدم . فهي تستعمل العيلة بمعنى العائلة والأسرة . .

والعيلة الفقر . قال تعالى « وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله »

وفي كثير من صفحات الكتاب : يكاد أن . ووقوع أن في خبر يكاد أقل كثيراً من حذفها . وذلك في الشعر . أما في النثر فالأعلى حذفها . وقد جرى القرآن — وهو أفصح الكلام — على هذا . راجع سورة النور آية ٣٥ ، والنساء آية ٧٧ ، والأعراف آية ١٤٩ . وكثيراً غيرها . ولكنها في الحق هنوات لا تشوّه مراياك الصقيلة الجميلة التي فيها من صفاء ذهنك ونصوع فكرتك شيء كثير .

محمد عبد الغني حسن

تعقيب على نقد كتاب

فلسفة الأخلاق في الاسلام وصلاتها بالفلسفة الاغريقية

تناول الاستاذ عبد السلام هارون الطبعة الثانية من كتابي هذا بالنقد فكان ذلك عناية طيبة مشكورة منه ، وقد أفدت من نقده الحق كثيراً ، إلاّ أني أستأذنه في كلمات :

١ — حين جعلت « مسكويه » مثلاً للأخلاق الفلسفية الصريحة اردت بذلك أنه كان صريحاً في اعلان أخذه عن الاغريق وتأثره بهم ، ولم أرد بالصراحة هنا ان مذهبه كان فلسفيًّا صرفاً لا يشوبه شيء من الدين .

٢ — في الكلام عن العفة ، وهي فضيلة القوة الشهوية ، يذكر المؤلفون قديماً وحديثاً أنها وسط بين رذيلتين ، هما : الشَّرَهُ والخمود ، لا الشِّرَّةُ التي هي النشاط كما يقول الأستاذ . ذلك بأن الشَّرَه هو الرذيلة التي تكون من إفراط القوة الشهوية ، وهو رذيلة دائماً بينما الشِّرَّةُ أي النشاط ممدوح في أغلب الأحوال .

هذا ، وللأستاذ خالص الشكر والتقدير .

محمد يوسف موسى

البلاغة العصرية واللغة العربية

تأليف سلامه موسى — المطبعة العصرية — ١٤٨ صفحة مصقولة من القطع الصغير

الكاتب الكبير الأستاذ سلامه موسى رجل عوّدنا دائماً أن يفكر تفكيراً يسبق به عصره ، ويطفر طفرات واسعة الى الأمام تبدو غريبة للوهلة الأولى ، ولكن سرعان ما تثبت الأيام نجابة رأيه وعمق تفكيره . ومن تلك الطفرات التقدمية البارعة ، ذلك الكتاب الجديد الذي جاد به قلمه بعد أن آثر الانزواء زمناً ليس بالقصير ، وأعني به كتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » الذي فتح فيه الأستاذ سلامه فتوحات جديدة ونحا نحواً جديداً يحمل القارىء على أن يهزّ رأسه موافقاً مرة ، ويفغر فاه داهشاً مرة أخرى .

فقد دعا المؤلف الى « التميُّع » في اللغة العربية بدل التجمد ، والى توقي المترادفات لأنها « ثرثرة صبيانية يضيع بها الوقت » والى التغلب على عقبة الاعراب في اللغة العربية لأن الاعراب « لعبة بهلوانية للذهن واللسان ولن نحسنها الاّ بعد ان نربي عضلات قوية تستجيب بسرعة » ودعا كذلك الى أن نجعل اللغة العربية لغة علم لا لغة وجدان ، أي أن نخاطب العقل لا القلب ، ودعا الى هجرة « أحافير اللغة » لأن اللغة التي تلابس المجتمع هي لغة السوق والمكتب والنادي والكتاب والجريدة لا لغة المعجمات التي تصان وتحفظ كما تصان لغة

الكهنة في المعابد عند المتوحشين . وقال ان اللغـة العربية ليست محددة ، فإن معظم كلماتها مسيبة في المعنى تحتمل هذا المعنى ونصفه ، فضـلاً عن معنيين مشابهين . ودعا الى التجديد الدائم المستمر في اللغة لأنها بمثابة النقود التي نتعامل بها ، وكثيراً ما يكون فيها النقد الزائف أو القديم الذي بلي وانمسح منه نقشه . واللغة الحيّة تتفاعل مع المجتمع فتنحط بانحطاطه وترتقي بارتقائه ، أي انها تتطور . وحين تتطوّر ينشأ بينها وبين المجتمع اتصال فسيولوجي ووظائف عضوية كما بين اليد والذهن ، كلاهما يخدم الآخر وينتفع به . ودعا الأستاذ سـلامه إلى تعليم الطلاب أسلوباً اقتصاديـاً مضغوطاً دون أن نحمّل التلميـذ عبء كلمات لا ينتفع بهـا في تفكيره العصري . وأنحى باللائمة على الذين يسمون إلى ترجمة التعبيرات والمصطلحات العلمية إلى اللغة العربية ، وقال ان في ذلك خروجاً على العرف المتواضع عليه في جميع أرجاء العالم ، ولاجدوى من إضاعة الوقت في محاولة تعريب المصطلحات العلمية ، لأن اللغة لا يمكن لها أن تعيش مستكفية لا تستمد التعبير الحسن من غيرها من اللغات . ثم قارن المؤلف بين اللغة العربية وزميلتها الانجليزية وأبان أن متعلم العربية يلاقي عقبات لا يلقى مثلها متعلّـم الانجليزية . ومنها أن عدد حروف الكـتابة تزيد عندنا على مئة حرف لأن لكل حرف شكلاً معيناً يتبع موقعه في الـكلمة . وفي لغتنـا يجب أن نميّـز الجنس . أما الانجليزية فلغة غير جنسيّـة . وثمة مشكلة أخرى في اللغة العربية ، وهي مشكلة تمييز الأرقام والتثنية ، ثم مشكلة الجمع والهمزة والتنوين والتصغير وغيرها من المصاعب التي تفوق الحصر .

وأعتقد أن الصديق الكبير محقّ في كثير مما دعا اليـه ، لأن التباين بين لغة الكتابة ولغة الحديث في مصر وفي البلدان الناطقة بالعربية كبير جداً يدعونا الى الاهتمام بالتقريب بينهما صيانةً للغة التي تهدف قبل كل شيء الى الفهم . ولتفسير ذلك يقول الأسـتاذ سلامة اننا ينبغي أن نصل يوماً ما في سائر الموضوعات الى لغةٍ تنقل الينا الفكرة الفنية أو العلمية أو الفلسفية بمثل الدقة والسهولة اللتين ننقل بهما الى أذهاننا عدد الألف أو المليون .

والحق أنني قرأت كتاب الاستاذ سلامة بشوّق ولذة ، وأقبلت على درس ما جاء فيه من نظريات باهتمام أثارته في نفسي تلك الأفكار التي إذ أوحيت الى المؤلف عكف على تدوينها ونشرها . وكثيراً ما كنت أتوقف لحظات عند كل عبارة ، ولا أملك إلاّ أن أبدي اعجابي بحسن صياغتها مع دقة تعبيرها واصالة فكر كاتبها . وقد حدّد المؤلف في مستهل كتابه غايته من كتابته فقال ان مصنفه « بجميع فصوله هو بحث سيكولوجي في القيم اللغوية . وإذا كان هذا يجرّ الى أبحاثٍ أخرى اجتماعية أو تاريخية ، فان الغاية الأولى يجب أن تبقى ماثلة وهي اننا ننظر الى اللغة خلال العدسة السيكولوجية » . وأحسب أن هذا النهج جديد على اللغة العربية

غير أن الأستاذ سلامة لم يرد أن يختتم بحثه دون الاشارة الى مشروع معالي عبدالعزيز فهمي باشا الخاص بكتابة اللغة العربية بحروف لاتينية . فأثنى على المشروع وشايعه الى حدٍّ ما ووصفه بأنه قفزة واسعة الى الأمام . وإني وإن سلمت معه ان اللغة العربية ليس من السهل الوقوف على خباياها ولا من اليسير امتلاك ناصيتها ، إلاّ اني لا أميل الى ابتداع حروف جديدة للكتابة تزيد مشكلات اللغة تعقيداً . وإذا كان لا مناص لنا من استعمال الحروف اللاتينية ، فخيرٌ لنا أن نهجر العربية الى الانجليزية أو الفرنسية مثلاً ، من أن نحاول ترقيعها بحروف لا هي باللاتينية ولا هي بالعربية ، فنخسر العربية ونسيء الى اللاتينية .

وكتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » مكتظ بالآراء التي يحسن أن لا يمرّ عليها القارىء مرّ الكرام . فهو يتحدّى ويطلب النزال والصراع ، ويدعو جهاراً الى المصاولة والمبارزة . فلعلّ في هذه الاشارة ما يشحذ الأقلام لتفنيد آراء الأستاذ سلامه والانتفاع بها ، فهي ثمار لخبرة نصف قرن .

هذا وقد أهدى المؤلف كتابه إلى الأستاذ احمد أمين بك لانه أوحى من حيث لا يدري بتأليف هذا الكتاب . فقد نشر الأستاذ احمد أمين مقالاً عن اللغة العربية في « الثقافة » واطلع عليه الأستاذ سلامه موسى ، فعنّ له أن يتوسع ويتبحر في شرح ما أوجزه الكاتب وخرج من هذا العناء بكتاب « البلاغة العصرية واللغة العربية » .

إنه كتاب جدير بالقراءة والدرس للمتعة والفائدة والاطلاع على ما فيه من توجيهات صائبة

وديع فلسطين

نفر - رس - إس

قصة بقلم سمو الاميرة شيوه كار — ترجمها عن الفرنسية الاستاذ اميل مراد

لصاحبة السمو الأميرة شيوه كار جهود موفقة في عالم الكتابة الى جانب الجهود العظيمة التي تبذلها في سبيل الخير ، ومنذ عام أو أكثر تناولنا في هذه المجلة كتابها النفيس عن جدّها العظيم محمد علي ، وها نحن نكتب عن قصة استوحتها من جلال التاريخ المصري القديم وهي تصور غرام الملك نى أوسر رع براقصة صغيرة .

وقد استطاع خيال سمو الأميرة أن يرسم في إطار جميل عهداً من عهود الفراعنة الزاهر أو على حد قول الآب دريتون « انطلق هذا الخيال حرًّا مصبوغاً بصبغة التاريخ القديم — هي قصة خيالية مؤثرة لأميرة سالفة تقصها أميرة حالية ، قصة خلابة كقصص ألف ليلة وليلة ولكن سياقها بسيط منسق كالرسوم الأثرية » . وقد ترجمها في أسلوب لطيف الأستاذ اميل مراد وأخرجتها دار المعارف في نسق مطبوعاتها الجميلة .

الروائع لشعراء الجيل

أصدر الشاعر الأستاذ محمد فهمي الجزء الأول من مجموعة الروائع لشعراء الجيل متضمناً نخبة من قصائد الشاعرين النابغين م. ع. الهمشري وأبو قاسم الشابي مع دراسة تحليلية لكل منهما وانه لما يشرف الجيل الجديد ان يضطلع شعراؤه بحمل رسالة الشعر العربي بعد شوقي وحافظ والزهاوي وأمثالهم من شيوخ الشعر وأعلامه. والشاهد أن أغلب انتاج المدرسة الحديثة في الشعر التي من أقطابها الشاعران م. الهمشري وأبو القاسم الشابي يتميز بطابع الشخصية والأصالة. فالشاعر الحديث قد تنحى شيئاً فشيئاً عن الوصف المباشر للبيئة والمجتمع الذي يعيش فيه كما كان الشاهد في أشعار أولئك الأعلام السابقين وجعل أكثر همه الانطواء على أحاسيسه النفسية والانصات إلى أعماق وجدانه حيث يتسمع صدى خطوات الزمن وأثر الهزات العاطفية، ثم يترجمها كما يحسها في هاتيك الأعماق لا كما تحدث في الحياة السافرة. وان قصائد النبي المجهول، وفي ظل وادي الموت، والصباح الجديد، وغيرها من شعر أبي القاسم لأبرز دليل. اسمعه يقول في النبي المجهول.

في صباح الحياة ضمّختُ أكوا　　بي وأترعتها بخمرة نفسي
ثم قدّمتها اليك فأهرقت (م) رحيقي ودستَ يا شعبُ كأسي
فتألمت ... ثم أسكتُّ آلامـ　　ـي وكفكفت من شعوري وحسي
ثم نضّدت من أزاهير قلبي　　باقة لم يمسها أي انسي
ثم قدّمتها اليك فمزّقت　　ورودي ودستها أي دوس!
ثم ألبستني من الحزن ثوباً　　وبشوك الصخور توجت رأسي

ونرى الهمشري يقول في قصيدته جنا الفاتنة: —

ها هو الليل قد أتى فتعالي　　نتهادى على ضفاف الرمالِ
فنسيم المساء يسرق عطراً　　من رياضٍ سحيقة في الخيال
نضر المغرب الذكيّ رباها　　فهي تحكي مدينة الاحلامِ
نفحت في الخيال منها زهورٌ　　غير منظورة من الاوهام!

واستمع الى الشابي يقول في قصيدته صلوات في هيكل الحب: —

عذبة أنت كالطفولة كالاحلام　　كاللحن كالصبـــاح الجديدِ
كالسماء الضحوك كالليلة القمراء　　كالورد كابتسام الوليد ...

وفي قصيدته في ظل وادي الموت: —

نحن نمشي وحولنا هاته الأكـــوان .. نمشي لـكن لأية غايه؟..
نحن نشدو مع العصافير للشمـــس وهذا الربيع ينفخ نايه
نحن نتلو روايةُ الـكون للمو ت ولـكن...ماذا ختام الروايه ؟

وفي قصائد الهمشري المُفرَّد والعَـوْدة . واليَمامة . نشاهد إحساساً بالطبيعة وامتزاجاً بها هو في المدرسة الحـديثة نتيجة الفرار من دنيا الناس والعزوف عن ضجيج المجتمع والانصات الى الاصداء الهاتفة في قرار النفس . . والشاهد في مجموعة الروائع ان كلاً من الشاعرين الهمشري والشابي قد أطلق لخياله العنان يخلق ما شاء في أجواء متراميـة من الاحساس الطليق وفي شاطيء الاعراف للهمشري نرى قوة التخيل قد وصلت الى ابداع عالم ثانٍ (عالم الموت) حيث يسترسل الشاعر في وصفه بمهـارة وقدرة حتى لنـكاد نحسه وتستشفه بوجدانك فيقول في وصف شاطيء الأعراف (شاطيء الفناء) .

يستريح الزمان والموت فيـــه بعـد طول التطواف والجولانِ
وكأن الزمان خامره الخو ف فأضحى مع الردى في احتضان
وتلاشى به رويداً رويداً ثم أهوى عليـــه كالوسنان
فاذا بالفنـاء يحـكم فرداً فوضويًّا على جلال المكان ... !

***

وتواتيـك أنَّـةٌ وعويل من ظلام الـكهوف والغيران
أهي شكوى الأحلام يصرعها المو ت وشكوى مما تقاسي الأماني ؟
أم هي الروح تستغيث وتبكي من عدو في الموت ذي شنآن
أم هو الموت في الظلام يغنـي أم عزيفٌ يدوي من الجنان ؟ !

ان الرمزية الشائعة في الشعر الحديث المشوبة بالاحساس الرومانطيقي لتتجلى بأوضح بيان في أشعار أعلام المدرسة الحديثة واننا لو قارنا هذه الظاهرة الشعرية بما كان عليـه الشعر الانجليزي والفرنسي في القرن التاسع عشر لوجدنا تقارباً مدهشاً ولـكن لا عجب فهذه الفترات هي بلا شك فترات التحول العنيف في نفسية الأمم .

ان قصائد المديح والحفلات التي كانت شائعة في الشعر الى وقت قريب لتختفي في أشعار أعلام المدرسة الحديثة اختفاء يكاد يكون تامًّا فلا تضم هذه الأشعار إلاّ كنوزاً من المشاعر والآلام والأشجان تتدفق في خلال السطور وتتفجر بها الألفاظ فتشيع في النفس فيضاً من الجمال والنشوة والتسامي .

مختار الوكيل

باب الأخبار العلمية

من معجزات العلوم والفنون

المخترعات العصرية مصدر ارتقاء المدنية والراحة البيتية

ما من شك أن البيوت التي سوف تبنى حينما يستتب السلام ، في آفاق العالم ، ستبلغ مئات الملايين . ومن المحقق أنها ستحوي مرافق جمة ومعدات شتى من ثمار الحرب الحالية ، ولا غرو فقد أعاق استعار نيران القتال ، تشييد المنازل ، بيد انه لم يصدف ذوي العبقريات عن منتجاتهم الطريفة .

أشعة ما دون الاحمر (١)

تجفف الدهانات وتدفىء القاعات والحمامات

وأول هاتيك المستحدثات ، مصابيح أشعة ما تحت الأحمر ، وهي المستعملة حالياً في المصانع الحربية لتجفيف الدهانات التي تدهن بها السيارات والدبابات الحربية ، وذلك في دقائق يسيرة ، بدلاً من وسائل التجفيف العتيقة ، التي كانت تقتضي ساعات كثيرة . وقد تساءل العلماء قائلين : « لماذا لا نتنفع بهذا النوع من المصابيح في بيوتنا وما المانع من كوننا نلحق كلاً منها بمرشح ضوئي ، ثم نركب مفاتيحها في بؤر الضوء الكهربي ، المثبتة في حيطان منازلنا ، وبخاصة في حجر نومنا وغرف حماماتنا ، لنقشع عنها قر الشتاء ، على الفور ! ? اننا لفاعلون ، إذن ، في القريب العاجل ، ولا عجب فقد تبين لنا بالتجارب التي قمنا بها ، أن في وسع كل امرئ ترك جميع نوافذ داره مفتوحة ، وان هبطت حرارة الجو الى درجة ٤٠ فرنهيت . ومع ذلك يظل جسمه دافئاً ما دام مغموراً بأشعة ما دون الأحمر التي تصدر من أجهزتها التي تركب في حيطان بيته وأرضية حجره .

مواقد للطهي بأشعة ما دون الاحمر

ومن هذا القبيل مثال آخر هو كيفية قيام المصابيح التي استعملت في خلال الحرب الحاضرة ، بحل المشكلات التي تجبه الأنام في أزمنة السلام . وقد تكشف هذا الاختراع

....

(١) هي الاشعة التي تصدر من الاجسام الساخنة وهي خفية تحت الاحمر في الطيف الشمسي . وموجاتها أطول منها في الاشعة الحمر المرئية ، وذبذباتها أقل من ٤٠٠ بليون في الثانية . وأسهل وصف لها انها الاشعة غير المرئية التي تنبعث من المكاوي الساخنة التي تكوى بها الملابس .

حينما أسقط أحد العلماء ، بيضتين وبضع شرائح نيئة من لحم الخنزير ، على عدسة مقلوبة من عدسات الفانوس الأمامي ، ذي الشعاعة المحكمة الاغلاق لقاذفة من قاذفات القنابل الجيش الاميركي ، فنضجت البيضتان وشرائح اللحم في هنيهة . فاستخدام أشعة الضوء إذن في تعجيل الطبخ ، هو من المخترعات الحديثة التي سوف تعم مطابخ بيوت العظماء عقب انتهاء الحرب الراهنة الشعواء

إدخار حرارة الشمس نهاراً للتدفئة بها ليلاً

ولا يألو العلماء جهداً في إعداد المعدات العلمية التي تكفل تدفئة البيوت شتاء لسكانها ، وذلك بأساليب أخرى . إذ يقوم المهندسون المعماريون باستخدام حرارة الشمس لتلك الغاية حيث يستعينون على خزنها باستعمال نوافذ ذات ألواح كبيرة من الزجاج أو قوالب من الزجاج « على شكل قوالب الطوب » لبناء الحيطان المواجهة للجهة القبلية للبيت ، توخياً لاقتباسها جُلّ حرارة الشمس التي تنزل عليها ثم جعل سقوف تلك البيوت المرتقبة معلقة فوق المباني بهيئة بالون تخفيفاً للقيظ في فصل الصيف .

جهاز للتدفئة والترطيب الجويين

وقد نال أحد المخترعين امتيازاً باختراع جهاز للتسخين يستعمل للتبريد أيضاً وذلك أن حرارة الشمس تؤثر في ملفات الأنابيب الموضوعة في خزان في غرفة فوق سطح المنزل نهاراً . وللخزان مفاتيح اتوماتيكية تعكس العملية ليلاً . وينشأ هذا عن معادن ومواد كيميائية خاصة تخزن الحرارة أو الرطوبة في الخزانات بحسب الرغبة

تدفئة البيوت بالحرارة المشعة

ويتيسر انتفاع البيوت الجديدة بالحرارة المشعة ، التي تركب أنابيبها في باطن حيطانها أو تحت ألواح أرضية حجرها أو خلف وزراتها ، فيشعر المرء بالدفء الذي تولده دون حرارتها . وقد تكشف لخبراء صناعة الفخار أن أرضية البيت وحيطانه اذا كانت من الفخار المدهون ، سهل تنظيفها بقطعة نسيج مبللة بالماء ، وصارت أصلح شيء لتركيب أجهزة الحرارة المشعة .

التسخين بالصمامات الكهربية

أما التسخين بالصمامات الكهربية فقد سبق أن استعمل في الحرب الدائرة الرحى فهو إذن من الوسائل الميسورة ، غير أنه ما يزال فادح النفقات ، بحيث لا يمكن تعميم انتشاره . ومع ذلك فان جهاز ميجاثرم Megatherm الذي هو أقل استهلاكاً للتيار الكهربي ، من الموقد الكهربي ، يشوي شرائح اللحم في بضع ثوانٍ وتقتضي هذه الطريقة تركيب مفتاح الجهاز في بؤر التيار

الكهربي المألوفة . ثم وضع الطعام الزمع إنضاجه بين اللوحتين المعدنيتين المثبتتين في الجهاز نفسه .

جهاز يوقد بالبنزين فيدفىء ٢٠ حجرة

هذا وقد اخترعت للقوات المحاربة في حومات الوغى ، أجهزة صغيرة كثيرة قوية . وسوف تمد للبيوت حينما تنتهي الحرب الحالية . ومنها جهاز يقل ثقله عن ٢٥ رطلاً انكليزيًّا ، يوقد بالبنزين فيستطيع تدفئة بيت مؤلف من ٢٠ حجرة

صناديق أوتوماتيكية للرسائل البرقية

ومن المخترعات المفيدة صناديق أوتوماتيكية للرسائل البرقية معدّة لخدمة الشعب بحيث اذا اعتزم امرؤ زيارة قريبه أو صديقه ، أصبح في وسعه ابلاغه نبأ قدومه ببرقية . وما عليه عندئذٍ إلاّ الاتجاه صوب الصندوق الذي أشرنا اليه ، حيث يكتب رسالته المقصودة، ثم يضغط زرًّا مثبتاً في الصندوق، ويلقي في ثغرته القرطاس المدونة فيه الرسالة فتنتقل صورتها مكتوبة طبق أصلها الى أقرب مكتب للتلغراف .

ثياب من النيلون Nylon

تمكن علماء الكيمياء في بضع السنين الماضية من انتاج ثمرة هي أينع ثمارهم وأعني بها النيلون ، وهو شعر من الشعور الصناعية الجديدة التي قوامها الفحم الحجري والهواء والماء — اذ أنتج الكيميائيون من هذه العناصر العامة الجزيلة ، شعراً لا يبعد أن يصير منافساً قويًّا للحرير الطبيعي . وقد نسجت من هذه المادة جوارب ، كادت تبلغ الهدف الذي كان ينشده مخترعو المنسوجات ، وهو صنع جورب شفاف مزدوج الخيوط ، ينافس الجورب المثلث الخيوط متانة ، والنيلون أول مادة صالحة للاستعمال في ميدان الشعر الصناعي ، الذي يستخرج من المواد غير العضوية . أما سائر الشعور فتتركب من المواد العضوية أي المواد المتخذة أصلاً من الاحياء ، نباتات كانت أو حيوانات . ويتسنى مدّ النيلون خيوطاً أدق من خيوط الحرير الطبيعي . ومظهره وملمسه يشبهان حرير دود القز ، ولكنه أمتن منه وأشد مرونة. وأضحت الغانيات يكتسين من قمة الرأس ، الى أخمص القدم ، بمنسوجات النيلون ، ويتظللن بظلل منه ويتقمصن قمصانه ويتدثرن بمعاطره وقاية من المطر . ثم يحتذين أحذية منه، نعالها من المطاط الصناعي، وكعوبها من العجائن الكيميائية . وستغدو بنائق النيلون المطوية من أحدث الأزياء للنساء فلا يضطررن إلى كيها من حين إلى آخر، بل يكتفين بضغطها بأيديهن لازالة ما يطرأ عليها من التغضن (الكرمشة) ، وستكون ملابسهن مقاومة للبلل والتجعد ، إذ تعالج بمواد تقيها الاحتراق وتكسبها متانة مثلها في بنائق قمصان الرجال

وأكمامهم التي تتخذ من نسيج النيلون أيضاً فتعيش زمناً يفوقه في سائر الثياب. وسيأتي يوم قريب جداً يلبس فيه الرجال كذلك قبعات لبـاد من نسيج اللبن. وستحدث تطورات في الأزياء تفضي الى جعل الغيد يتخذنَ من شعر النيلون حشوات لشعورهنّ بدلاً من فروعهنّ، فيظهرنَ بمظهر أنيق جذاب يبذ شعرهنّ الطبيعي.

العجائن الكيميائية وغيرها
في الدور المصرية

وأصبح في وسع صاحب السيارة حينما يقصد إلى بيته مسرعاً مخترقاً طريقه المعتاد أن يحمل المصابيح الأمامية لسيارته عند بلوغه داره، توقظ العيون الكهربية المركبة فيها، فتضيء له مستودع سيارته وتقرع جرس بابه فيفتح له وكذلك تقوم العيون الكهربية بفتح الباب الأمامي للمسكن فاذا أتيح لك ولوج مثل ذلك البيت المجهز بهذه المخترعات المدهشة، استرعت أبصارك رياشه العجيبة التي لا تؤثر فيه تقلبات الجو وهي من المصنوعات التي اخترعت في غضون الحرب. ومن مميزاتها انها لا تتجعد وان هطل عليها المطر مدراراً، بل تزداد بهاءً. ولا يؤثر فيها الحر ولا الحشرات. وهناك تشاهد أيضاً «سدف» من نسيج لا تؤثر فيه النيران وحجباً «برفانات» لا يؤثر فيها الصدأ لكونها مصنوعة من العجائن الكيميائية ومدهونة بدهانات ملائمة لألوان حيطان البيت، وهذه الصبغات أيضاً من العجائن الكيميائية. وفي حجرة الاستراحة تجد مصباحاً تنبعث منه أشعة ما وراء البنفسجي لابادة ما عساه يكون قد علق بثيابك من جراثيم الطريق. ثم تشاهد منضدة فوقها مصباح آخر من الالومينيم فيروقك منظره فتبادر الى فحصه. (ولا يخفى عليك أن هذا الفلز سيصير بعد انتهاء الحرب، أكثر المعادن انتشاراً وأزهدها ثمناً) ومبعث الاضاءة في ذلك المصباح اداة على شكل نعل الفرس بدلاً من الفتيلة المألوفة. فيصدر منه ضوء متألق، فتوقن حينئذٍ أن النقل اللاسلكي للتيار الكهربي، قد غدا حقيقة ثابتة. وسوف تكون غرف الدار رحيبة، وربما يخيل اليك أنها أرحب من حقيقتها. وذلك نتيجة المباحث التي اضطلع بها المخترعون في زمن الحرب لتنسيق أثاث البيوت، إذ اخترعوا منسوجات توشى بها الحيطان للزينة تشع منها اضواء معتدلة التألق، فاذا خطر لك التحقق منها، ففحصتها عن كثب، تبين لك أنها نسيج من شعر الزجاج، وهو خيوط دقيقة لا تحترق ولا تتمدد، سهلة التنظيف بخرقة مبللة بالماء، لتزيل ما يلتصق بها من الغبار وآثار الأصابع.

ومن العجائن الكيميائية يصنع نوع من خشب البلاكاش، تتخذ منه أفاريز وحدوات للحيطان تفوق الفولاذ متانة.

وكذلك تصلح المجائن الكيميائية لصنع ورق لتغطية الحيطان البيتية فتروق الناظر اليها . واذا أمعنت في استجلائها ظهر لك أنها مغشاة بغشاء رقيق شفاف من المجائن الكيميائية ، يسهل تنظيفه بالماء والصابون . وقد تبصر صندوقاً مزخرفاً مستنداً إلى إحدى زوايا الحجرة ، فتظنه جهاز الراديو المبصر الجديد ، ذا العدسة المصنوعة من المجائن الكيميائية التي تعرض منها المشاهد على ستار مربع مساحته ٦ × ٦ أقدام فاذا فتحته اتضح لك انه جهاز خشبي مقشوط مزخرف وضع في قاعة الاستقبال خصوصاً للمشروبات المرطبة

الزجاج اللين والاثاثات العجينية

واذا خطر لك بعدئذٍ أن تطل من نافذة فاتكأت عليها ، لتتأمل هطول المطر حينئذٍ، رأيت النافذة تنحني تحت ساعديك ، فيستولي عليك الذعر ، حتى توقن أنه الزجاج السحري المتين الذي يتاح حنيه إلى درجة ٢٠ دون تحطيمه . واذا عمدت الى بحث كنه أثاث البيت ، تبين لك أنه مجموعة متناسقة من المجائن الكيميائية الشفافة وألواح زجاجية ومصنوعات من الاليومينيم . ولا تلبث ربة الدار أن تخف الى لقائك معتذرة عن غيابها فتصارحك القول انها كانت مشغولة بطهي العشاء وغسل الكساء وتغذية الطفل . وانها تؤدي هذه الاعمال جميعها في آن واحد . ولا يبعد أن تشك في صدق أقوالها ولكنك إذا أردت معرفة اليقين فرافقتها الى حجرة أطفالها ، شاهدت هناك خزانة فيها مصباح لأشعة ما فوق البنفسجي لتطهير زجاجات الرضاعة من الجراثيم التي تغشاها .

جهاز البريسيبيترون Precipitron وتكييف الهواء

ثم ترى جهاز البريسيبيترون لتنقية الحجر من الغبار ولتطهير حلقات المطاط اللينة التي يعضها الأطفال . وكذلك كرسي الاب المنتفخ بالهواء . وهو من المخترعات التي اقتبست من أطواف المطاط الخاصة التي تستعملها قوات السلاح الجوي . ثم تنتقل بك ربة الدار الى غرفة نوم الضيوف حيث تجد آلة غريبة الشكل فتظنها أول وهلة جهاز صقل الأرضية مودعاً في زاويتها ؛ فتؤكد لك مضيفتك من فورها أن ما تراه إنما هو جهاز متنقل لتكييف الهواء .

حشايا البابلفيل Bubblfil

وإذا رقدت على السرير ، ألفيته ، ثابتاً كل الثبات ، وثيراً جداً ، فلا يسعك إلاّ ابداء إعجابك به ، فلا تلبث ربة الدار حتى تنبئك أنك جالس على حشية البابلفيل وهو نوع من السيلوفان Cellophane « الورق المتين الصقيل الشفاف الذي تلف به علب السجائر وغيرها » منفوخ بالهواء ، يشبه جاكتات الانقاذ المستعملة في الحرب الراهنة وهو يحل محل الاسفنج الطبيعي .

مطابخ خالية من الخدم

أما المطابخ الخالية من الخدم فحدّث عنها ولا حرج حيث يوجد فيها خزائن مبنية في الحيطان لخزن مواد الطعام المختلفة . وثمة جهاز لتبريد الأطعمة ، تبلغ مساحته ١٢ قدماً مكعبة ، يتصل بالسقف الداخلي للمطبخ ويحتوي على أغذية مبردة محفوظة في علب ، وذلك على رف علوه ست أقدام . أما الخضراوات وقناني المحفوظات ففي قعر الجهاز

ثم إن اطارات النوافذ التي تصنع من الأليومينيم ، وكذلك إطارات ألواح الزجاج التي تتخذ من المعدن نفسه ، وكذلك شيش النوافذ الأليومينيم ، تزيد رونق الحمامات العصرية كما يزداد رواؤها بنظافتها وبجمال رفوف اللوسيت Lucite الشفافة التي تجفف عليها المناشف ، وبأطباق الصابون التي تصنع أيضاً من هاتيك العجائن الكيميائية .

وفي المطبخ جهاز آخر لتكييف الزبدة ، ابتغاء الاحتفاظ بها غضة . وفي جهاز التبريد أيضاً مصباح صغير من طراز Sterilamp. استريلامب لأشعة ما وراء البنفسجي ، وذلك لتليين اللحوم الطازجة .

ويجهز المطبخ أيضاً بجهاز لاراحة ربة الدار من العناء ، إذ يقوم بتقديم الطعام وغسل الأطباق حيث يوضع الطعام الساخن في قسم التسخين والطعام البارد في قسم التبريد وتوجد الأطباق التي غسلت بعد آخر وجبة للطعام في القسم الخاص بها . ولذلك يحول هذا الجهاز المتحرك ، على عجلاته ، الى السفرة حيث يقدّم الطعام على الأطباق التي يحملها . وبعد انتهاء الأكل يعاد وضع الأطباق في تلك العربة ثم ترحّل الى المطبخ حيث يشرع الجهاز الغسّال في غسلها .

هذا وقد تمّ صنع مجموعة أدوات مطبخ بأسرها من الفولاذ الذي لا يصدأ . ويحتوي جهاز مزج السوائل الذي يركبُ في باطن حائط المطبخ ، على آلة لتقشير البطاطس . ثم إن لوحة كي الملابس الصغيرة المستترة في الحائط ، مغشاة بطبقة من الازبستوس Asbestos وهو نسيج معدني لا يحترق ويستعمل في أزمنة الحرب لتغشية ثياب مطفئي الحريق في السفن التي تحمل الطائرات. وصناديق الخبز والكعك تشبّع بمادة الميكوبان Mycoban لمنع تعفن محتوياتها . وتصنع الآن أباريق شفافة للشاي من العجائن الكيميائية ، فيستطيع الذي يحضر الشاي أو شاربه التيقن ، هل افرزت أوراقه إفرازاً تامًّا أو ناقصاً . وتركب على بالوعات المطابخ آلة كهربية تتصرف فيما يصل الى البالوعة من فضلات الطعام وقامات الدار .

وبعض هذه المخترعات التي سردناها ، هو من الأشياء المرتقبة بعد أن تضع الحرب الراهنة أوزارها . وهي باهظة الثمن حالياً ولكن أسعارها ستخفض حينما يشتد الاقبال عليها ، ويتسع نطاق صناعتها .

عوض جندي

فهرس الجزء الثاني

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الثالث من المجلد السابع بعد المائة

١ اغسطس سنة ١٩٤٥ — ٢٢ شعبان سنة ١٣٦٤

العلم والفلسفة

في عدانا وامر

أسلوب العلم

كان غرض رجال العلم الى مستهل هذا القرن ، أن يكشفوا نواميس الطبيعة العامة . وكان اسلوبهم أن يجرّبوا التجارب المحكمة المضبوطة وان يراقبوا نتائجها ، فاذا أعيدت التجارب في نفس الأحوال التي أحاطت بها حين أجريت اولاً ، وأفضت الى النتائج نفسها ، اتخذت تلك النتائج ، على انها حقيقة علمية .

وكان العالم ، يستند الى نتائج تجاربه ، أو الى علم من سبقه في وضع نظرية أو تعليل لتلك النتائج . وقد يكون التعليل في مبدإ الأمر ، « فرضاً » او «حزراً» ، ثم يمضي في امتحان فرضه او حزره بتجارب أخرى . فاذا خلص من ذلك الى نظرية ترضيه وتتفق معها جميع الحقائق المعروفة ، حكم بأنه وصل إلى حل المشكلة التي يبحثها—اي ادرك الغرض من بحثه الخاص

والنظرية الصالحة ، هي النظرية التي لا تقتصر على تعليل الحقائق المعروفة وحسب ، بل تنطوي أيضاً على تمكين العالم من استكشاف المجهول أو جانب يسير منه ، أو معرفة النتائج التي قد تسفر عنها تجارب جديدة لم تجرب بعدُ . والفائدة الأولى التي تجنى من نظرية صالحة هي هذا : تمكينها العالم ان يتكهن بنتائج تسفر عنها تجارب لم تزل في طيّ الغيب. وما علينا إلاّ أن نلقي نظرة على مآثر نيوتن العظيمة وكيف مكنت أقطاب الطبيعة الرياضية ، من تطبيق

نواميس الحركة التي كشفها نيوتن ، على الاجرام السماوية ، وكيف أقنعهم هذا التطبيق بأن جميع الظواهر الطبيعية مربوطة بعضها ربطاً محكماً برباط العلة والمعلول . فاذا عرفت سرعة الأجرام السماوية ومواقعها وكتلها ، ففي وسع العالم أن يحكم حكماً دقيقاً أين يكون موقعها في أي زمن في المستقبل . ففكرة « السببية » أو «العلة والمعلول» ما فتئت مغروسة في أذهان الناس منذ عهد بعيد. وليس ما يحمله المجرم من تبعة أعماله، ولا الايمان بقيمة التعليم والتربية ولا الكثير من الألفاظ في شتى اللغات ، سوى نواحٍ من دليل راسخ على ايماننا بالعلة والمعلول . وكل العلم المأثور عن القرن التاسع عشر كان الى مستهل هذا القرن ، مؤيداً لفكرة « السببية » في فهم الظواهر الطبيعية .

وأما الفلاسفة الذين يتخذون لفكرهم ميادين شتى غير ميدان العلم ، فكانوا مختلفين رأياً ومنهم من ذهب إلى أبعد حد ، في قوله ان كل شيء قد أرسي على وضع لا يتبدَّل منذ كان الكون ، وان الاختيار وحرية الارادة أمرٌ مستحيل . وذهب بعضهم إلى أن صلة العلة والمعلول بين الظواهر والأشياء، ليست إلاَّ وهماً من الأوهام .

وقد كان ميدان العلم في نظر علماء القرن التاسع عشر ، ميداناً غير محدود . وكان من العلماء من يرى أنه اذا بلغ علم الرجل بظواهر الطبيعة الكونية والبشرية مبلغ الكمال ، ففي وسعه أن يحكم حكماً دقيقاً ، حتى على مستقبل شؤون الناس . وقد قال امبير — مثلا — انه اذا علمنا مواقع جميع الذرات في الكون وسرعة كل منها ، كان في وسعنا — من الوجهة النظرية — ان نعلم مستقبل الكون قاطبة . ولكن تحقيق ذلك من الوجهة العملية مستحيل، لأننا عاجزون عن ان نظفر بهذه المعرفة الكاملة الشاملة ، وليس في الزمن متسع للقيام بكل العمليات الرياضية التي يقتضيها مثل هذا التكهن .

المعادلة نموذج

ولم يلبث العلماء حتى أخرجوا للناس نظرية الحركة في الغازات وبمقتضاها تتحرك جزيئات الغاز حركة سريعة ، ويصدم بعضها بعضاً على الدوام . وقد وجدوا أنهم يستطيعون أن يدركوا « تصرف » الغاز اذا بنوا تقديرهم على معدل حركة جزيئاته ، ولم يكن يهمهم الحركة الخاصة بجزيء مفرد بل كان يهمّهم معدل حركة عدد وفير من الجزيئات ، أي أدركوا ما للاحصاء من قيمة في العلم الطبيعي ، لا تختلف عن قيمته في شركات التأمين .

والنظريات العلمية تفرغ عادةً في قالب نموذج نستطيع أن نتصوره . والعالم لا يعمد على الغالب الى التفكير في هذا الجهاز الضخم المعقد الذي هو الكون، بل يختار من عناصره ما هو

أدنى إلى عنايته ، ويحصر ذهنه فيه . ومن هنا ما عمد اليه الكيميائي — مثلاً — من وضع النظرية الذرية ، فقال ان كل المادة في الكون مؤلفة من ذرات أنواعها متعددة كتعدد العناصر. وكان الرأي أنها كرات صغيرة ، ولكن لم يعنَ أحد بالقول في المادة التي تتألف منها هذه الكرات . فلما خرجت النظرية التالية ، القائمة على أن الذرات مؤلفة من كهربات سالبة الشحنة ، ونوى موجبة الشحنة ، لم يجد الكيميائي ، في هذا التطور شيئاً يلزمه أن يغير رأيه الاول ، لانه في الدائرة الخاصة التي يعنى بها ، لم يكن تركيب الذرة نفسها شيئاً يحتاج الى معرفته.

وإننا لنرى المدرّسين في كثير من المدارس يطلبون إلى الصغار من تلاميذهم أن يصنعوا نماذج للطائرات . ويجب أن تكون هذه النماذج ، مطابقة في شكلها العام ، لأصناف الطائرات المعروفة ، حتى يتسنى لمن يرى النموذج ، أن يتبيَّن الطائرة التي يمثلها ، ان كان يعرف تلك الطائرة . وليس يهمّ الصغير ولا الكبير ، أن يكون النموذج من خشب أو ورق مقوًّى أو غير ذلك .

ومعظم النماذج التي يصنعها العلماء لأغراضهم العلمية ، هي نماذج ذهنية أو صور عقلية . فلما وضع ماكسويل النظرية الكهربية المغنطيسية ليفسر بها خواص الضوء ، فكّر في وسط تعبره هذه الأمواج الكهربية المغنطيسية . فدعى الوسط « الأثير » . وكان الرأي أن خواصّه كخواص الجسم الصلب المرن . والباعث على صنع هذا « النموذج » الذهني للأثير ، أو على تشبيه الأثير بالجسم الصلب المرن ، هو أن العلماء في عصر ماكسويل ، كانوا معنيين عناية عظيمة بنظرية المرونة في الأجسام الصلبة . فالمجال الكهربي والمجال المغنطيسي يُفهمان أو يقرّبان من الأذهان ، باتخاذ نموذج مفهوم من الصور الشائعة . أما في هذا العصر فيندر بين طلاب العلم من يعرف شيئاً كثيراً ، أو من تعمق في دراسة مرونة الأجسام الصلبة . ولذلك انقلبت الآية . فصار العلماء يفسّرون خواص المرونة في الأجسام الصلبة ، بما يعرف عن القوى الكهربية بين الذرات التي تتألف منها تلك الأجسام .

وكل طالب من طلاب الهندسة المسطحة ، يصنع نموذجاً في ذهنه ، كلّما فكّر في مثلّث . ولكن ليس لأضلاع المثلث ، عرض ولا ارتفاع . فحين نصنع هذا « النموذج » في الذهن ، أو على الورق ، نجرّده من كل صفة إلاّ الصفات التي يهمّنا أمرها .

وليس ثمة من يجهل أن معظم نواميس الطبيعة يفرغ في قوالب معادلات رياضية ولكن المعادلة الرياضية ، هي أيضاً نموذج من نوع خاص .

والصفة الأصلية التي يتصف بها النموذج . هي أن يشبه في بعض النواحي المطلوبة ، حالة جعلناها موضع نظر وبحث . وهذا يعني أن كلّ نظرية تقريباً ، تنطوي على شيء من التحكم ،

وأنها مقيدة بطائفة من القيود ، تفرضها عليها رغبتنا في أن تكون النظرية نموذجاً لحالة معيّنة دون حالات أخرى .

وقد شهد المشتغلون بالعلم ، انقلاباً خطيراً في الثلث الأول من القرن العشرين ، يستند إلى نظرية اينشتين في النسبية ونظرية بلانك في مقادير الطاقة (كوانتم) . وعسى أن تكون أهم ناحية في هذا الانقلاب ، امتناع العلماء عن الايمان بأن للألفاظ والصور الذهنية ، معاني مطلقة . فالعالم لا يعنى بمسألة الوجود . وهو لا يسأل : « أثمة للذرة وجود حقيقي »؟. وانك لتفتح معجماً فترى تعريفاً — أو على التدقيق بعض تعريف — للذرة . وأما مجموع ما يعرف عن الذرة ، فعند العلماء المتوفرين ولم يتقدم أحدهم بتعريف جامع مانع . ثم ماذا تعني لفظة « الوجود » ؟ . إنها من مسائل ما وراء الطبيعة ، والعالم الحديث لا يهتم — في نطاق علمه الخاص — بشؤون ما وراء الطبيعة . ثمّ لا بدّ في العلم من وصف دقيق محكم لما يحدث ، فاذا ذكرت « الطول » و « الزمن » لم يكن لهما من معنى على الاطلاق ، إلاّ إذا اتفق العلماء على الأساليب التي يجب أن تتبع في قياس المسافة والوقت .

الاحصاء والاحتمال أساس

وقد انقضت سنون كثيرة ، منذ طلع بلانك واينشتين بنظريتيهما بدا خلالها أن التوفيق مستحيلٌ بين « نظرية المقدار » وعلم الطبيعة المأثور عن القرن التاسع عشر . ولكن حين تقدّم هيزنبرج وبوهر ، بمبدإ عدم التثبت زال هذا التناقض . وجوهر هذا المبدإ ، أنك لا تستطيع أن تقيس قياساً دقيقاً موقع دقيقة أصيلة من دقائق المادة ، وسرعتها في آنٍ واحدٍ . في وسعك أن تقيس سرعتها ، أو تعين موقعها ، ولكن أن تحدّد الاثنين كليهما في آنٍ واحدٍ ، أمرٌ مستحيل . فانهار الأساس الذي بنى أمبير حكمهُ عليه ، من أن معرفة مستقبل الكون ممكنة ، إذا علمنا سرعات جميع الذرات ومواقعها وكُتلها . فكتلتها تتغيّر وفقاً لسرعتها ، ومعرفة سرعتها وموقعها في وقت ما شيء مستحيل .

فاذا أخذنا بمبدإ « عدم التثبت » — وقد قبله علماء الرياضة والطبيعة — كان جلُّ ما نستطيع أن نقول عن حركة أية ذرية في المستقبل ، هو : ان هناك احتمالاً كبيراً أن تكون كذا وكذا . فالاحتمال الرياضي أصبح عنصراً أصيلاً في كل حساب . وبتغيير الأحوال التي تحيط بكل ذرة ، كتغيير الطاقة التي تؤثر فيها في لحظةٍ ما ، يتغير ذلك الاحتمال . وقد يبلغ الاحتمال مبلغاً عظيماً ، فكأنه والحتم سواء . ولكنه ليس دائماً كذلك .

فأسفر هذا التطوّر الخطير في علم الطبيعة الحديث ، عن انه كاد يقضي على « السببية » او « العلة والمعلول » .

ومن الطبيعي أن نسأل : إذا لم يكن ثمة « علة ومعلول » فكيف تمكن امراء الطبيعة في القرون الماضية منذ نيوتن ، من استكشاف نواميس الطبيعة وصياغتها هذه الصياغة الدقيقة المحكمة ، التي تصدق على أحوال الكون ، وتمكن العلماء من التنبؤ بالأحداث المقبلة ، كالكسوف والخسوف وما أشبه ؟ والجواب البسيط عن هذا السؤال، هو أن الطبيعي القديم اختار لدراسته موضوعات من ميادين البحث التي يرجى له فيها أعظم نجاح . فقد كان غرضه العام أن يكشف نواميس الطبيعة العامة . فدبر أمر تجاربه على وجه يمكنه من كشف النواميس التي تتحكم في الأشياء التي كان يبحث عنها . وقد تمكن من إدراك ما يريد ، باشتغاله بظواهر تتوقف على عدد عظيم من الذرات ، لا على ذرات مفردة وحسب . ففي تلك الحالة ، تسوّى الفروق بين الذرات المفردة ، ويظفر الباحث بمعدل ينطبق على المجموعة الكبيرة من الذرات . أي انه يعالج الاحتمال ، لمجموعة كبيرة من الذرات ، كما يفعل رئيس قسم الاحصاء في شركة تأمين . فهذا الرئيس لا يستطيع أن يعلم مدى عمر فرد مؤمَّن على حياته ، ولكنه يستطيع أن يعلم — إلى حدٍّ دقيق — مدى عمر جماعة من المؤمنين ، من طبقةٍ واحدةٍ من العمر ، وعلى أساس هذه المعرفة ، تبنى جداول التأمين وتقرر الأقساط لكل مؤمن ، وقلما تخطيء الشركة خطأً كبيراً ، ولو فعلت لأفلست.

عناق العلم والفلسفة

هذه الناحية من التطور الأصيل في أركان العلم وقواعد أسلوبه أوحت بتقارب بين العلم والفلسفة . ففي العصور القديمة ، كانت المعارف الانسانية قليلة التنوع ، فكان حكماء الاغريق القدماء ، أو العرب منذ ألف سنة ، فلاسفة ومصلحين ورياضيين وطبيعيين وأطباء أحياناً ، وكان بعضهم علاوة على ذلك ساسة او جنوداً او تجاراً . فهذا دليل على وحدة المعرفة ، أو على وحدة المعرفة والعمل .

وقد كان طبيعيًّا ان تكون المعرفة وحدة غير مجزأة ، لما كانت العلوم في مهدها . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض ، وتتحيز مباحثها إلاّ في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها . وقد كان من أثر وحدة المعرفة ، والصلة الوثيقة بين العلم والفلسفة ، في عقول العباقرة ، أن طفرت الفلسفة إلى الأمام في عهد الاغريق وبعدهم .

فلما انشقّت الهوّة بين العلم والفلسفة ، أصبح العلم متصلا أوثق اتصال بالعقل المجرد ، قائماً عليه ، وأما شئون السلوك وأدب النفس، فالعلماء قالوا إنهم لا يعنون بها في بحوثهم ولا يعدّونها جزءاً من غرض العلم، ولا يمكن قياسها أو وزنها بأسلوب العلم . فلما تمت للعلم سلسلة

من الانتصارات الباهرة ، تمهدت السبيل لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكيًّا ماديًّا وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة ، لأن الشيء لا يكون حقيقيًّا إلاّ اذا كان كالمادة مما تدركه الحواس ، ولو كان الادراك نظريًّا كادراك الكهيربات . وظلت هذه النظرة سائدة — على تفاوت في سيادتها — الى أوائل القرن العشرين .

أما وقد أصبحت المادة — في نظر طبيعة القرن العشرين — خليطاً من الزمان والمكان والتموُّج ، فالأساس الذي قام عليهِ علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب أن تنطبق على خواص الأشياء كما تدركها الحواس ، فليس ثمة حائل يحول دون حسبان ما يوحى بهِ الاختبار أو حسّ الجمال ، في عداد الحقائق . وكذلك مُهِّد الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفيًّا جديداً .

وقد كانت النتيجة الأولى التي أسفر عنها هذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة يبحثون أحياناً عن حلول لمشكلاتهم الخاصة في المناطق التي وراء علم الطبيعة المأثور ، والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء ، استرعتهم أساليب العلوم ونتائجها وإننا لنرى فلكيين وطبيعيين ورياضيين من مقام ادنغتن وجينز وبلانك واينشتين ومليكن لا يحسبون عالم المادة ذا كيانٍ مستقلّ عن العقل ، وموقفهم هذا نقيض موقف أسلافهم في النصف الثاني من القرن الماضي ، إذ كانوا يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكلّ ما عداها شبحاً من الأشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو أبعث على العجب إذ نعلم أن المادة كانت في نظر السابقين خاضعة خضوعاً أعمى للنواميس الميكانيكية ، ولكنها كما بيّنا في هذا الفصل متصفة بنوع من حرية الإرادة وفقاً لمقتضيات مبدإ عدم التثبت . والفيلسوفان وايتهيد ورسل يعلّقان على هذه الناحية من خواص المادة شأناً خطيراً .

ومن نتائج هذا التحوّل ، وأثره في علوم الأحياء أن الحياة لا يمكن أن تكون نتيجة لأفعال المادة الجامدة وحسب ، سائرة سيراً أعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيء أساسي مبدع ولها قصدها الخاص ، ومن هنا نشأت فلسفة التطوّر المبدع أو الخالق ، وفلسفة البزوغ ، وأقطابهما برجسون ووايتهيد والكسندر وغيرهم .

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية من أعظم آيات الحياة الفكرية في هذا العصر ، فليس أحدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الأخرى ، بل هما عضوان حيّان في جسم حيّ واحد هو جسم المعرفة الانسانية .

فؤاد صروف

التاريخ عمل انساني

بحث في المدنية الغربية وقالبها التاريخي

شبه مجرى التاريخ بنهرٍ عظيم ، ينبع من مصدر قديم ضارب في مظان الزمن ، متخذاً مجراه في سهول أسيا [1] ، ماضياً برفق وهوادة خلال القرون ، مستجمعاً مياهه من روافد جديدة اتصلت به على الطريق ، حتى إذا ما بلغ عصرنا الحاضر ، اتسع بعظمة ، وفاض بقوة فغمر الدنيا بأسرها .

من الناس من جسَّد هذا الفيض ، وجعل له شخصية وذاتية ، وفرض له ارادة خالقة تتجه نحو النشوء والتطور ، متبعة سنتها الخاصة بها ، نازعة نحو بلوغ غاية مقصودة معينة. تكلم هؤلاء فيما سموه منطق الآراء ، واعتبروا الانسان والمدنية برمتها، أدوات سلبية ، سخرها ذلك « الموجود العظيم » ، للوصول الى غاياته . غير أن الباحث الذي يأخذ بزمامه مثل هذا التفسير لسير التاريخ ، يصعب عليه استبانة شيء من ذلك السوق الهادىء النظيم في الحوادث التي اعتورت الانسانية ، ويشعر ، فوق كل شيء ، ان اعتبار الانسان أداة سلبية صنعت بها الاشياء ، وبلغ بها الى الغايات ، إنما هو في الواقع تزييف صرف لحقيقة ثابتة ، حقيقة ان الانسان هو الذي صنع التاريخ ، وأن التاريخ لم يصنع الانسان .

لقد شيد الانسان المدنية ، واستقصى بصبر بالغ وجهد وافر ، كل طريق يصطنع به المستحدثات والاشياء ، ونصب كل النصب عاملاً مجدّاً في استنباط كل رأي واستخلاص كل فكرة نعتبرها اليوم جزءاً من ميراثنا عن الأزمان السالفة . عمِلَ الانسان عملاً متصلاً متأثراً بالبيئة التي حوته ، وبقدر ما وصل الى يده من الوسائل ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة وسلالة سلالة ، ولا أثر لموجود كليٍّ يقال له « الانسانية [2] » فيما بنى وشيد ، وأثث ونجد. إن المعتقدات والمثاليات التي تعيش عليها الدنيا الجديدة في العصر الحاضر ، وبمقتضاها

---

(١) اشارة الى ان الانسان نشأ في آسيا

(٢) « الانسانية » هنا يقصد بها موجود كلي يقول به الفيبيون . والقول بوجود الكليات مذهب فلسفي ، ينابذه مبدأ فلسفي آخر ينفيه ، هو القول بعدم وجود الكليات .

العمل ، ليست هبة من الآلهة ، كما جرت على ذلك الأسطورة القديمة ، وانما هي نتاج جهدٍ بذله أجيال متعاقبة .

وهي فوق ذلك ليست نتيجة تجمّع بطيء متصل الأثر ، ككرة الثلج كلما زدتها ثلجاً زادت حجماً وتكوراً ، فان أمماً برمتها وسلالات بجملتها ، قد جهدت ما جهدت في استنباط آراء وقضايا عقلية ، ثم اختفت من الوجود ، غير مخلفة في عقول القرون المتأخرة غير أثر تافه ، وما تبقى مما خلف هؤلاء ، تلقفه جماعات أخر وأمعنَ فيه النظر وأدغمنهُ في بقية معتقداتهم ، ومن ثمَّ تلقفها أناس آخرون ، فحوّروا فيها ، وبدّلوا من قوامها ، وعدّلوا في قوالبها .

حُوول عديد من البدايات ، وكثير من الاشياء ذوات القيمة قد فقدت وزالت ، وكثير من الاشياء النافعة ، وحتى الضارّة ، قد اكتنزت وبولغ في العناية بها . ومن المستطاع الآن ، بما بين أيدينا من المصادر ، وبجهد الباحثين المتواصل وكدّهم ، أن نرجع سعياً إلى الماضي السّحيق ، وان نؤلف صورة لحقيقة ما كان عليه كثير من الحضارات ، وأن نُجَسِّمها كُلاً كاملاً مُتَّصِل القَسَمَات .

إن مثل هذا الجهد يطبعنا دائماً بطابع العجب من كثرة ما كشفنا عنه من خبايا الماضي . فقد نعلم من طريقه ان المصريين الذي عاشوا في الألف الرابعة قبل الميلاد ، وان الأمم التي عاصرت البابليين ، كانوا صورة مما نحن الآن ، وبكلمة موجزة : كانوا أناسيّ فيهم مثل إنسانيتنا ، ولكن الكلام في ذلك ليس من شأننا في بحث نريد ان نلمّ فيه بحقيقة الانسان في العصر الحاضر ، وكيف تكوّن على الصورة التي نراها .

إنّ مدنيتنا هي في الواقع مزيج مما استطاع أسلافنا أن يفوزوا به من تلك الثقافات الوضاحة الرّائقة ، مضافاً إليها ما استطاعوا أن يضيفوه إلى المادة التي تلقوها عن السابقين . وإننا لنفهم ذلك الهيكل الكلّي ، إذا بدأنا بالنظر في أمم العالم القديم ، وحاولنا أن نَتَبَصّر كيف استطاعوا أن يستجمعوا كنوز الماضي ؟

المدنية الغربية وقالبها التاريخي

عند ما نتكلم عن الحضارة متحدثين صفاتها ، فانما نعني بها جملة الأشياء الاعتقاديّة والعمليّة الدائمة في أوربا وفي غيرها من بقاع الكرة الأرضية ، التي يأهل بها سلالات من الأصل الاوربيّ . وإرضاء لبعض الأغراض نقرّر أن قولنا هذا ينظر إلى النصرانية ، ولأغراض أخرى نقرّر إنه ينظر إلى البلاد التي مسّتها الثورة الصناعية .

هذه هي الحضارة التي بفضل فوزها ببعض علوم تطبيقيّـة استطاعت أن تخترع المدفع السريع والبارجة الحربية ، فكان لها شيء من التسلط غير المستقر على أرجاء الأرض . وأنها لحضارة فتية بالقياس على الحضارات ، فليس لهـا تاريخ متصل الاّ من الف سنة ، ولكنها في هذه الفترة قد انتابها من التطور والتغاير أكثر مما نال غيرها من حضارات العالم . وبالرغم من أنها استملكت العلم منـذ ثلاثة قرون ، فانها لم تملك مزايا معيّنة بيّـنة على غيرها من ضروب الثقافات ، إلاّ في مئة العام المنصرمة . ففي نهـاية القرن الثامن عشر ، لم يَـرَ اهل الصين في أوربا من شيء يمكن أن يستفيد منه علماً . ولا يزال كثير من المفكرين يشكّـون في انه لم يكن على صواب . ولـكن الواقع انّ هذه هي الحضارة التي ورثناها والتي نخضع ويخضع لها معنا العالم كله . وقبل أن نمضي في سرد الظروف التي أدّت الى نشوئها ونمائها ، يكون من الفائدة أن ننعم النظر في بداياتها التاريخية الصحيحة .

الحضارة الغربية ثمرة مجهود أجيـال من البشر ، وبخاصّـة ، أولئك الذين قطنوا شمال أوربّـا الغربي ، الذين وجدوا هنالك بعد أن انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى الانحلال عقليّـا واجتماعيّـا . وهي تمثل مزيجاً من الآراء المنتحلة من العالم الهلّـيني ، والعادات والأمزجة التي وسمها عقل الهمج الذين غزوا تلك الامبراطوريّـة وقوّضوا قائمها .

إن لانحلال الامبراطورية الرومانية ، بحضارتها العقلية والمادية ، أسباباً كثيرة معقدة ملتبسة ، لم يكن غزو الهمج الاّ سبباً مكمّـلاً لها ، ان لم يحتمل أن يكون نتيجة لا سبباً وكان من نتائج انحلالها ان مركز الحياة العقليّـة أخذ يرتد نحو الشرق شيئاً بعد شيء ، حتى استقرّ في القسطنطينية مدينة الهلينيين والأغارقة . هذا ونجد أن غرب أوربّـا قد تولاّه كثير من العوامل ، من أهمها الغزو الاسـلامي الذي اجتاح جزءاً عظيماً من حوض البحر المتوسط ، فاضطرّ مركز القوة في الغرب أن يرتد نحو الشمال شيئاً بعد شيء ، حيث استقرّ في زمن شارلمان في فرنسا وغربي المانيا .

ان السلالات التي أهلت بها تلك البقاع لم تكن في غالبيتها من الأرومات التي اقامت الحضارة القديمة ، بل خليطاً من الغاليين القدماء ، الذين مدنهم الرومان في مستهل العهد النصراني ، وعدداً اقل من الغزاة « التيوتون » الذين هبطوا من الشرق .

وإذا نظرت في إيطاليا الرومانية واسبانيا وجنوبي فرنسا ، وجدت ان الهمج النازحين قد كوّنوا جزءاً لا يستهان به من مجموع السكان .

ان الارتداد نحو الشمال قد دلّ على ان الأمم الغربية بنشوئها تدرجاً من الخليط الذي تألف من تلك العناصر وبروزها من ثناياه ، كانت على وجه عام من سلالة أقرب عهداً بالحضارة

من أمم البحر المتوسط وفوق هذا ، فانها قد قطنت اقليماً قليل الاحتشاد بالآهلين ، وفي كنف حالات اجتماعية كانت لا تزال مشابهة لتلك التي أحاطت بروّاد القارة الاميركية لدى أول استعمارها . هذا في حين ان الحياة الاجتماعية في الجنوب كانت قد أخذت تنزع الى الخشونة درجة بعد أخرى . وقلّ ان نقع على انحراف فيه شذوذ يخرج بالحياة عن اطراد الثقافة القديمة في ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا وتواصلها ، رغماً لحق بالأسس الاقتصادية التي كانت لتلك الثقافة من الانحلال والفساد . أما في الشمال فان الغاية التي اتجه فيها أهله ، منذ أيام الغزو الروماني ومن بعده ، قد انحصرت في اقامة حياة اجتماعية نظيمة في بقعة لم تشهد إلاّ نماءً حضاريًّا نسبيًّا ، كما اتجهت الى هضم وتمثيل ثقافة الدنيا الحافة بالبحر المتوسط ، بقدر ما يمكن من العجلة .

إن صدمة الهمج الذين قبضوا على زمام الحكم ، قد عاقت سير النظام الذي كان قد قفز نحو الكمال بخطًى واسعة في ظل الحكم الروماني . وقد جاء زمن يغلب ان يكون قد حصل فيه انتكاس بين ، ورجوع الى الوراء . ولقد نستطيع ان نكوّن فكرة عن ذلك الموقف ، إذا قرناه بما وقع في اميركا في أوائل القرن التاسع عشر . فشمال أوربا قد ينظر الى ما عرف في ذلك الوقت بوادي المسيسبي وغربي الولايات المتحدة ، وإيطاليا والجنوب ينظران الى شاطىء الاطلنطي ، وكان فيهما ثقافة أرقى مما كان في الاولى . أما القسطنطينية والشرق ، فينظران إلى اوربا ، وفيهما نواة الحياة المدنية ومركزها .

ان الجمعية التي قطنت غربي اوربا كانت جمعية ارتياد ، وقد جاهدت في سبيل تكوين مملكة جديدة ، ولم تجد في اثناء جهادها من الوقت ما تصرفه في سد حاجات العقل . ومن أجل ذلك دُمِغَتْ بكل ما في اصطلاح « العصور المظلمة » من المعاني . ففي شمال اوربا الشرقي ، كان العصر عصر « ظلامية » ، لا لأن الناس لم يكونوا على قسط وافر من النشاط والقدرة ، ولا لقلة ما كان يتوقع من حياة طيبة مستكفية تنال بفضل ذلك الجهد وتلك المقدرة ، ولكن لأن أهل تلك البقاع كانوا حينذاك ، كأهل تخوم اميركا ، قد صرفوا كل ما لديهم من جهد لتحقيقُ أغراض كان من الواجب تحقيقها ، قبل ان تتجه المطامع إلى الأمل في وجود جمعية متنوّرة مثقفة .

بذلك ارتدّ مركز الغرب الحيوي الى بقاع أهلت بسلالات من حقنا ان ندعوها الأمم الغربية . وهم أمم شغلت ، في أول ما شغلت به ، بتنشئة حياتها المدنية في بلاد قليلة السكان مهملة المرافق . على ان القليل منها من استطاع ان يحصل على فراغ صرفهُ في تحصيل ثقافة بلغت من الرقي مبلغ ثقافة الدولة الرومانية قبيل انحلالها . وانحصرت هذه الاقلية في الكهان

وبعض سكان المدن من النبلاء . ولكن وجد الى جانب هؤلاء زمر وفيرة من الجهلاء والخشوشنين صرفتهم مهام الحياة عن مباشرة مثل هذه النعائم ، مثلهم كمثل أميركا المستعمرة ، فقد كان في مدنها الشاطئية جماعات متنورة رفيعة الثقافة ، كما كان في داخليتها روّاد خصوا بالقوة والذكاء ، ولكنهم كانوا جهلة مظلمين .

وكانت أمم الغرب ، في اكثر الأمم عاجزة عن استيعاب او تمثيل (١) كثير من المقومات الثقافية ، على الرغم من انه حيثما انتشر سلطان الكنيسة ، ازدهر العلم والفن وبلغا درجة كبيرة من الرقيّ . ولقد اضطرت هذه الأمم أن تعيش خمسمئة سنة ، عيش الروّاد المستعمرين ، فلم تهدأ بينهم المناجزات في ظلال الحرجات والاجمات والسهول في غربيّ أوربا ، بعيدين عن مؤثرات التيارات الفكرية التي اندفقت في تضاعيف ذلك العصر ، بعدَ سكان كاليفورنيا أو أوستراليا عنها منذ جيلين فرطا من الزمان .

فلو انه وجد في ذلك الزمان بقعة غصت بالمعامل أو أفعمتها رؤوس الأموال وتطلعت الى الأسواق ، إذن لنظر أصحابها الى هؤلاء الغربيين نظرة أنهم من « السلالات المتأخرة » ، ولكثر الكتّاب الذين يقيمون البراهين على أنها ، لعجزها عن استيعاب العلم واستمداد المعرفة من العالم الهلّيني ، وقصورها ، بعد انسلاخ قرون ، عن أن تفوز من النصرانية إلاّ بسطحيات خشنة غليظة ، هي بحكم الطبع غير كفيلة بأن تحمل أمانة الثقافات الشرقية إلاّ بقدر ما يستطيع أن يحمل منها همجي من السود أو الصفر .

لا شك في أن هؤلاء الكتّاب يكونون قد أخطأوا تقدير الموقف . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن فهمنا انه من المتعذر طبعاً أن ندرك أن بناة المدنية الغربية قد بدأوا بناءهم مما يقرب من اللاشيء ، ثم مضوا في نشوئهم بمثل ذلك البطء المضني . وانه لمن أبعد الأشياء عن إرضاء كبرياء شعب من الشعوب ، أن يعترف بأن كنوز المعرفة التي اختطّ اليها طريقه بعد لأيٍ وتعب لتكون أساساً لحضارته ، قد أهملت ونبذت من قبل مئات من السنين ، بل كادت تنمى ويعفّي عليها الزمن .

ان كنوز اغريقية والشرق ، تلك التي وصل الى لبابها الرومان في أقل من أربعة قرون أو خمسة ، والتي هضمتها ومثلتها الشعوب السامّية بغير كبير عناء ، قد اقتضت من شعوب الغرب ضعف ذلك الزمن ، حتى يصلوها بفطرتهم . فلم يكونوا قبيل القرن الثاني عشر ، قد بلغوا بعد من الرشد مبلغاً استطاعوا عنده ان يفقهوا معاني الآراء القديمة ، ولم يساووا

....

(١) التمثيل فعل فزيولوجي مؤداه ان الجسم الحي يحول الاغذية بعد هضمها عناصر تندمج في عناصره والمعنى المقصود هنا حدوث فعل مشابه لهذا في عالم الفكر .

من حيث القدرة الذهنية ، رجال الاسكندرية او القسطنطينية او روما الذين ظهروا قبل ذلك بألف سنة، ولم يصلوا من حيث المدنية الى ما وصل اليه الهنود واهل الصين قبل العصر المسيحي بقرون عديدة ، إلاّ في حدود القرن السادس عشر . وربما كان شأن السلالات كشأن الافراد ، كلما طال عصر طفولتهم ، طالت مقدرتهم على متابعة الدرس والتفقه في حين يكون غيرهم قد بلغوا أقصى مبالغ القدرة على الاستيعاب ، فاستفرغوا كل مواردهم الطبيعية .

اما القول بأن هذه الامم المؤتشبة [1] التي سكنت الغرب ، كانت قد اقامت في حدود القرن الثالث عشر جمعية فيها جمال وفيها فخامة ، جمعية تحمل في تضاعيفها من الخصائص ما يجلب لها عطف كثير من القلوب في عصرنا هذا ، وبخاصة لأنها ملكت اشياء فقدناها وكانت لا تقدر بثمن ، فذلك من الحقائق التي لا يدخلها الريب ، ولا تحتمل المماراة . ولكنها على الرغم مما كان فيها من جمال وفخامة ، فانها كانت خدنة جاهلة ، وفيها صبغة الحداثة . جمعية من الروّاد ، حاربت وجالدت للخروج من ماضٍ صرفته ، كادّة ناصبة ، في سبيل البقاء من ناحيتين : الناحية الطبيعية والناحية الروحية .

فاذا اعتبرنا ان القرن الحادي عشر هو نهاية تلك «العصور المظلمة» التي جهدت خلالها الامم الغربية لتحقق لحياتها دعامة تقوم عليها من الوجهة الطبيعية ، وجب علينا ان نسلم بأن هذه الامم كانت ، حتى ذلك العصر ، أشبه بالطليعة في الحياة الانسانية . ففي غابات فرنسا البدائية ، عاش بضعة ملايين من البشر الأقوياء يفلحون الارض ، ولم يكن في مجاهل انجلترا اكثر من مليون . وكانت الوحوش ما تزال تطوّف بعمرات القرى الصغيرة والدساكر ذات الأسواق . وكان هنالك فن بدائي مجبب الطابع ، ولكن الدرس والاكباب على استيعاب المعرفة ، ورفاهة العيش المدنيّ ، كانت بعيدة عنهم ، بعدها عن مستعمرات تخوم وادي المسسبيّ في عصر واشنطون .

على حدود الشرق ، تربعت القسطنطينية على عرش إغريقية وروما بعد ان ورثتهما ، فكانت بالرغم من حياتها الجامدة المستحجرة ، أعلى ثقافة ، وأفخم مدنية من كل ما تقع عليه في رحاب الغرب . غير ان الورثة الحقيقيين الذين تلقوا أمانة المعرفة عن القدماء ، لم يكونوا في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وإنما كانوا في بغداد عاصمة الخلافة العربية ، وموئل العلم الاغريقي ، ومنزل النشاط العقلي ومستقر الحكمة . ذلك بأنها تلقت الفلسفة الهلينية والعلوم الطبيعية بصدرها الرحيب ، عند ما طاردهما التعصب النصراني في القسطنطينية

ولقد احتضن الغزاة المحمديون في اسبانيا الثقافة الهلينية ، مؤتمين بنظرائهم في بغداد

....

(١) المختلطة المؤلفة من عناصر مختلفة

الاجهاد العصبي

الاجهاد العصبي مرض يصيب الجسم والعقل معاً . ولقد زادت أعراض هذا المرض بزيادة حاجات الحياة الحديثة ، وبخاصة في هذه الفترة التي اضطربت فيها أوتار الحياة العادية . وهذا الجهد ، بل هذا التوتر العصبي مع ما يتبعه من تعب جسمي يؤثر في صحتك البدنية ، كما يؤثر في سعادتك العقلية وطمأنينة بالك وراحة قلبك .

ومهما تكن الاسباب الباعثة على هذا التعب فالنتيجة انه ضرب من « التسمم الذهني » يؤثر في الجهاز العصبي ، وبذلك يكيف مزاج الانسان تكييفاً سيئاً ، فاذا جنحت الى الراحة والدعة فاستجممت ، فان « سموم التعب » يمتصها الجسم ثم يطردها فتعود الى حالتك السوية مرة أخرى .

ومن الناس من يستمر في العمل مجهداً جسمه وأعصابه من غير ان يفكر في راحة ترد اليه العافية . وهنالك فريق آخر من الناس يشعرون بأنهم في تعب وجهد من غير أن يستطيعوا ان يعرفوا سبب ذلك . وفي كلتا الحالتين تقع على أعراض تكاد تكون واحدة : انهاك مفرط ، وقابلية للتهيج ، وسوء الهضم ، والصداع ، وآلام غير معروفة المصدر او السبب . فاذا أنست في نفسك بعض هذه الاعراض فاعلم انك مقدم على طور من الانهاك العصبي فاذا أهملت علاج هذه الاعراض ، فانك ولا شك تساق الى نتائج أبلغ أثراً .

أما السبب في أن بعض الناس قد يصيبهم الانهاك العصبي ، فراجع الى انهم يهملون الخلود الى الراحة اذا شعروا بحاجة اليها . والوصايا الصحية التالية هي علاج ناجع في مثل هذه الحالات

(١) لا تتجاوز حد احتمالك من التعب (٢) اتخذ عادة الراحة وافتن في أسبابها (٣) الزم الاعتدال في كل أعمالك (٤) أرح ذهنك المجهد بالرياضة (٥) تعلم كيف تضبط عواطفك (٦) أبعد عن قلبك ما تتوقع من مخاوف (٧) خذ من الراحة والنوم قسطك المطلوب (٨) نظم غذاءك (٩) الخص عن نفسك طبياً في دورات منظمة (١٠) اغرس في نفسك عادة اتباع الانظمة الصحية .

فعمرت بها معاهد قرطبة وغرناطة كما نظر علماء البربر من خلال مدنهم العامرة ، ومكتباتهم المفعمة بألوان الكتب والمجلدات ، باستخفاف وعدم اكتراث إلى الشمال ، حيث قطن أولئك الفلاحون ، سكان فرنسا والمانيا .

ولكن ، من أجل أن نستكشف مستقرّ الحضارات الحقيقيَّة التي نشأها وغذاها تواصل الحياة وطول العهد بالرفاهة الماديّة والنشاط الروحي ، وجب علينا أن نضرب نحو الشرق ممعنين فيه لا بعد من تلك البقاع التي نشأت فيها الحضارة السامية على ضفاف الرافدين ، وأن نضرب في الأرض حتى نصل إلى الهند والى الصين ، فهنالك نقع على مُثل من الحضارة ، تتضاءل الى جانبها كل ما تضمنت أوربّا ، بل هي تقمأ [1] وتذل ، حتى لتكاد تتوارى .

اسماعيل مظهر

(١) تصغر



مقتل مالك بن نويرة

وموقف خالد بن الوليد

أصدر سعادة الدكتور محمد باشا هيكل بضعة كتب في التاريخ الإسلامي ، في الصدر الأول . وكان عملاً ناجحاً ، ناجحاً من ناحية النفاق تماماً ، فما يكاد الكتاب منها يصدر حتى تتخطفه الأيدي ، وحتى تكاد نسخه تنفد من السوق . وناجحاً من الناحية العلمية بعض النجاح . ولو لم يكن من أثره إلا أن يحبب إلى شبابنا ، الذين كدنا نفقدهم ، قراءة سيرة رسولهم ، وأخبار قومهم وسلفهم . وكانوا من قبل يعرضون عن دينهم وعن عروبتهم ، ويتمسحون في أوروبة ويقدسونها ، ويجهلون كل ميزة لقومهم ، بل يكادون ينكرون أنهم أمة من الأمم ! لو لم يكن من أثره إلا هذا لكفى .

وقد تناول الباحثون المحققون كتابه الأول « حياة محمد » بالنقد ، وطال الجدال حوله حتى لقد ذهب ذاهبون إلى أنه منقول أو مقتبس أو مترجم عن كتاب بهذا الاسم لمستشرق يدعى درمنغهام ، ولم يكن لنا سبيل إلى تحقيق ما قالوا ، إذ لم نطلع على كتاب درمنغهام ، عن جهل منا باللغة التي كتب بها . وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية أخيراً ، وظهر من عهد قريب ، وسيكون لنا في ظهوره فرصة نحقق بها ما رمي به كتاب الباشا ، فنقرن فصوله وأبحاثه إلى مثيلاتها من الكتاب المترجم ، فنعرف ما أخذ أحدهما عن سلفه ، بعد أن عرفنا أنه أخذ منه اسم الكتاب « حياة محمد » ، وإن كان الكتابان — فيما يبدو لنا — متباينين ، وسنرى في ذلك رأينا إن شاء الله .

وكان فيما قرأنا من هذه الكتب ، كتاب « الصديق أبو بكر » فأعجبنا منهُ حسن سرده للحوادث ، والعناية بعرضها عرضاً جيداً مدوّقاً . وأبين مزاياه قوة المؤلف ومقدرته في تلخيص الروايات وجمعها ، وفي الاقتباس والتضمين ، حتى ليبدو الكلام نسقاً متقارباً ، فإذا ما تأمله العارف وضح له الفرق بين الكلام المقتبس والكلام المؤلف ، وقد استيقنّا من ذلك في مواضع كثيرة ، قرنّا فيها قصّهُ للوقائع إلى نصوص الأقدمين من المؤرخين ، خصوصاً ابن جرير الطبري .

ولهذه الطريقة الطريفة فائدة نحرص عليها ، أن يمرن القارئون المحدثون على قراءة النصوص العالية القوية البليغة ، التي تحدث بها الفصحاء والبلغاء من الرواة والمؤرخين السابقين ، مما كاد يهجره أهل هذا العصر .

وكان لنا على كتابه هذا مآخذ ، بعضها هين ، لا يغض من قيمته ، وبعضها خطير . وأخطرها — فيما أرى — وأبعدها مدًى في الإبطال ، صنيعه فيما كان بين خالد بن الوليد ومالك بن نويرة ، وحبه الإتيان بما لم يأت به الأوائل في الدفاع عن خالد ، فجاء حقيقة بما لم يأت به الأوائل ! !

فقد لخّص المؤلف — أو اقتبس — الروايات التي وردت في وقعة خالد ومالك ، وذكر تضارب الأخبار فيها ، ولكنهُ أتى في بعض الرواية بشيء لم نجد عليه دليلاً ، وما نظنه يصح ، فلو أنه صحّ لم يكن لخالد عذر ، ولم يكن أبو بكر ليعذره ، ولوجب عليه أن يأخذه بدم مالك بن نويرة . فقد قال المؤلف (ص ١٤٥) : «إلى هنا تتفق الروايات ، ومن هنا يبدأ اختلافها . قال أبو قتادة : إن القوم أقروا بالزكاة وإيتائها . وقال غيره : بل أنكروها وأصرُّوا على منعها » ! !

ولم يكن شيء من هذا ، فيما نعلم ، فقد كان من عهد أبي بكر إلى جيوشه في حروب الردة : « إذا نزلتم منزلاً فأذّنوا وأقيموا ، فان أذّن القوم وأقاموا فكفوا عنهم وإن لم يفعلوا فلا شيء إلاّ الغارة ، ثم تقتلوا كل قِتْلَةٍ ، الحرقَ فما سواه ، وإن أجابوكم إلى داعية الاسلام فسائلوهم ، فإن أقرّوا بالزكاة فاقبلوا منهم ، وإن أبَوْها فلا شيء إلاّ الغارة ، ولا كلمة » .
وهذا هو المعقول البديهيّ المعروف من شرعة الاسلام ، ومن أخبار الخلاف بين أبي بكر وعمر في قتال مانعي الزكاة المرتدين ، فقد كان عمر يظن أن منع الزكاة ليس ردةً ، وأن إظهار الاسلام وإقام الصلاة كافيان في حقن الدماء ، فأقام أبو بكر عليه الحجة ، حتى اطمأنّ إلى أن أداء الزكاة كإقام الصلاة شرط في صحة الاسلام ، فقال عمر : « فوالله ما هو إلاّ أن قد شرح الله صدر أبي بكر فعرفتُ أنهُ الحق » .

فلو أن أبا قتادة ومن معه ، الذين خالفوا على خالد ، قبل مسيره الى البُطاح[1] وبعده ، وبعد أخذ مالك بن نويرة ، شهدوا أن مالكاً وقومه «أقرُّوا بالزكاة وإيتائها» لم يكن خالد ليأمر بقتل رئيسهم مالكٍ إن شاء الله ، فانما كان مسيره ليرجعهم إلى الاسلام وليأخذ منهم الزكاة ، فاذا بعد أن يعطوا ما سار اليهم من أجله ؟ لا شيء إلاّ العدوان وسفك الدم الحرام ،

---

(١) البطاح : بضم الباء ، وقد ضبطت في الكتاب (ص ١٣٦) بكسرها ، وهو خطأ .

ونعيذ بالله خالداً ومَن معه من ذلك . فهذه رواية لم نرها في شيء مما بين أيدينا من المصادر ، ولا تكون صحيحة أبداً ، فما ندري من أين جاء بها المؤلف !!

وقد ساق المؤلف مسير خالد هـذا المساق : « ثم إنه أزمع السير إلى البطاح يلقي فيها مالك بن نويرة ومن كان معه في مثل تردده . وعرف الأنصار هـذا العزم منه فترددوا وقالوا : ما هـذا بعهد الخليفة إلينا ، إنما عهده إنْ نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا . وأجابهم خالد : إن يكن عهد اليكم هـذا فقد عهد إليّ أن أمضي ، وأنا الامير وإليّ تنتهي الاخبـار ، ولو أنه لم يأتني كتاب ولا أمر ، ثم رأيت فرصةً إن أعلمته بها فاتتني لم أعلمه حتى أنتهزها ، وكذلك إذا ابتلينا بأمر لم يعهد لنا فيه ، لم ندع أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به ، وهذا مالك بن نويرة بحيالنا ، وأنا قاصدٌ له بمن معي من المهاجرين والتابعين لهم باحسان ، ولست أكرهكم » . (ص ١٤٣ — ١٤٤)

وهـذا النص نقله المؤلف من تاريخ الطبري (٣ : ٢٤١ طبعة الحسينية) واختصره بعض الاختصار ، وحرّفه بعض التحريف ، وإن أتى بجملته ومعناه تقريباً ، ولا بأس . ولكنّ في هذه الرواية شيئاً من الشـذوذ ، تحتاج معه الى نقد وفحص . فليس من منطق الحروب ولا منطق الولايات أن يعهد الامير الاكبر أو القائد الاعلى الى من دونه من القواد والولاة بعهدٍ ثم يعهدَ في الوقت نفسه الى الجند أو إلى من دون القائد والوالي ممن يأتمرون بأمره — : بعهد آخر خاصٍّ بهم ، بل المعروف في الدنيا كلها ، وفي تاريخ الولايات في صدر الاسلام خاصـة ، أن الامير أو القائد له الطاعة الكاملة على من هو في ولايته من الجند والقواد ، حتى لو كانوا أرفع درجةً منه أو أقدم اسلاماً وهجرة . والمثل على ذلك حاضرة ، يعرفها كل من قرأ شيئاً من التاريخ . فهذه الرواية إما أن يكون فيها شيء من الخطأ من رواتها ، وإما أن يكون أبو قتادة رضي الله عنـه ومن معه من الانصار سمعوا شيئاً من أبي بكر ، ظنوه عهداً خاصّـا اليهم فأخطؤوا سمعه أو فهمه ، ثم أخطؤوا فيما ذهبوا اليـه من الخلاف على خالد ، فلما استبانوا خطأهم ، بعد أن سار وتركهم ، أرسلوا وراءه من استمهله حتى أدركوه ، ندماً على ما كان منهم ، ودخلوا معه في أمره .

وفي الطبري رواية أخرى تساير منطق الحوادث ، وتساير منطق العهود والولايات (٣ : ٢٢٥) فهي تقول : « لما أراح أسامة وجندُه ظهرهم ، وجمّـوا ، وقد جاءت صدقاتٌ كثيرة تفضـل عنهم ، قطع أبو بكر البعوثَ وعَقَـد الالوية ، فعقد أحد عشر لواءً ، عَقد لخالد بن الوليـد وأمره بطـليحة بن خـويلد ، فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبُـطاح إن أقام له » . فهذا هو العهد الصحيح ، وهو المعقول في شأن الولاة والقواد ، أن يكون

العهد لهم ، وأن تصدر الأوامر اليهم ، لا الى مَن دونهم من القادة أو الجند .

ولسنا نأخذ على المؤلف أن أتى بتلك الرواية ، ولكنا كنا ننتظر منه أن ينقدها ويظهر ما فيها من ضعف ، ونأخذ عليه أنْ أعرض عن الرواية الصحيحة التي تصوّر الأمر تصويراً منطقيًّا معقولاً ، وتفسر تلك الرواية وتظهر ما فيها من ضعف أو وهم .

ومما يدل على ضعف تلك الرواية أو بطلانها أن أبا قتادة بعد أن عاد هو ومن معه الى خالد ، وبعد مقتل مالك بن نويرة ، عاد إلى سخطه على خالد ، لجادلهُ في مقتل مالك بن نويرة ، يقول الطبري (٣ : ٢٤٢) وصاحب الأغاني (١٤ . ٦٥ طبعة الساسي) : « فزبره خالد ، فغضب ومضى حتى أتى أبا بكر ، فغضب عليه أبو بكر ، حتى كلمهُ عمر فيه ، فلم يرضَ إلاّ أن يرجع اليه ، فرجع اليه حتى قدم معه المدينة » . فهذا الخليفة ، وهو القائد الأعلى إذ ذاك ، يغضب على أبي قتادة ، على فضله وسابقته ، أن خالف عن أمر أميره وقائده ، وأن ترك الجيش ورجع إلى المدينة يشكو أميره ، لم يقبل له عذراً ، ولم يسمع له شكوى ، وأبى إلاّ ان يرجع إلى أميره يكون في طاعته ، لم يمنعهُ من ذلك شفاعة عمر ، فأطاع وكان مع أميره حتى وردا المدينة معاً ، بعد تمام الغزو الذي خرجوا له .

أفرأيتم هذا يلائم تلك الرواية : أن أبا بكر عهد إلى أبي قتادة ومن معهُ من الأنصار عهداً خاصًّا لا يعلمهُ أميرهم خالد ؟ ! وأين احتجاج أبي قتادة بأنهُ إنما صنع هذا طاعة للعهد الخاص به ، وماذا يكون جواب أبي بكر إن حجَّهُ أبو قتادة بما عهد اليه به ؟ !

ولست أدري لماذا أعرض المؤلف عن هذا النص القاطع أيضاً ؟ إلاّ أن يكون يسوقُ الروايات والأخبار كما يحب ويَرى !

ثم قصَّ المؤلف قصة مقتل مالك بن نويرة ، وتزوج خالد أو تسرّيه امرأة مالك بعد قتله ، وحكى الروايات المتضاربة التي وردت في ذلك ، ويطول القول لو أردنا أن نفصل ما فصلهُ أو نجملهُ . ولكن الثابت من مجموع الروايات أن ضرار بن الأزور الأسديّ قتل مالكاً ، فبعضها يجعل هذا القتل عن خطأ في فهم اللغة ! تزعم الرواية أن خالداً أمر منادياً فنادى « دافئوا أسراكم ، وكان في لغة كنانة اذا قالوا : دافأنا الرجل وأدفئوه فذلك معنى اقتلوه ، وفي لغة غيرهم أدفئوه من الدفء ، فظنَّ القوم أنهُ يريد القتل ، فقتلوه . فقتل ضرار بن الأزور مالكا » (عن الأغاني ١٤ : ٦٥ والطبري ٣ : ٢٤٢) . وهذه رواية باطلة ، تشبه أن تكون من خيالات الأدباء وفكاهاتهم ، وبطلانها ظاهر من أول سياقها ، فانها تبدأ بأن الخيل جاءت إلى خالد « بمالك بن نويرة وفيهم أبو قتادة ، وكان ممن شهد أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا ، فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم » وقد بيّنا فيما مضى من قبل أن الأذان وإقام الصلاة

مع منع الزكاة لا يحقن الدم ولا يمنع من الحكم عليهم بحكم الردة . فاختلاف السرية — في هذه الرواية — أو اتفاقها على أنهم أذنوا وأقاموا وصلوا لا يقدم ولا يؤخر ، إذا كانوا لا يزالون مصرين على منع الزكاة . وانما هذه الرواية أشبه بالأحاجي والألاعيب .

وتذهب الروايات غيرها إلى أن خالداً جادل مالكاً وطاوله ، فلما استيقن من أمره أمر بقتله ، وان اختلفت ألفاظها فيما حكت من الحوار بينهما . ففي تاريخ الطبري (٣ : ٢٤٣) : « وكان خالد يعتذر في قتله أنهُ قال وهو يراجعهُ : ما إخال صاحبكم إلاّ وقد كان يقول كذا وكذا ، قال : أو ما تعده لك صاحباً ؟ ! . ثم قدمه فضرب عنقه وأعناق أصحابه » . وفي تاريخ ابن كثير (٦ : ٣٢٢) : « ويقال بل استدعى خالد مالكَ بن نويرة فأنَّبه على ما صدر منه من متابعة سَجَاح — المتنبئة الكاذبة — وعلى منعه الزكاة ، وقال ألم تعلم أنها قرينة الصلاة ؟ فقال مالك : إن صاحبكم كان يزعم ذلك ! فقال : أهو صاحبنا وليس بصاحبك ؟ يا ضرار اضرب عنقه » . وفي ابن خلكان (٢ : ٢٢٧ طبعة بولاق) : فكلمه خالد في معناها — يعني الزكاة — فقال مالك : إني آتي بالصلاة دون الزكاة . فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً ، لا تقبل واحدة دون أخرى ؟ فقال مالك قد كان صاحبك يقول ذلك ! قال خالد : وما تراه لك صاحباً ! والله لقد هممت أن أضرب عنقك . ثم تجاولا بالكلام طويلاً . فقال له خالد : إني قاتلك . قال : أو بذلك أمرك صاحبك ! قال وهذه بعد تلك ، والله لأقتلنك » .

وفي رواية لصاحب الخزانة (١ : ٢٣٧ طبعة بولاق) عن رسالة لأبي رياش أحمد بن أبي هاشم القيسي أن أبا بكر بعث خالد بن الوليد « وأمره أن لا يأتي الناسَ إلاّ عند صلاة الغداة ، فمن سمع فيهم مؤذناً كفَّ عنهم ، ومن لم يسمع فيهم مؤذناً استحلهم ، وعزم عليه ليقتلنَّ مالكاً إن أخذه » وأن خالداً لما أخذ مالكاً قال له : « يا ابن نويرة هلمَّ إلى الاسلام . قال مالك : وتعطيني ماذا ؟ قال : ذمة الله وذمة رسوله وذمة أبي بكر وذمة خالد بن الوليد . فأقبل مالك وأعطاه بيديه ، وعلى خالد تلك العزمة من أبي بكر . قال : يا مالك إني قاتلك . قال : لا تقتلني . قال : لا أستطيع غير ذلك . قال : فأت ما لا تستطيع إلاّ اياه . فقدمهُ إلى الناس فتهيبوا قتله . وقال المهاجرون : أتقتل رجلاً مسلماً ! غير ضرار بن الأزور الأسدي من بني كوز ، فانه قام فقتله » .

فهذه الروايات وغيرها تدل على أن خالداً لم يقتل مالكاً إلا بعد حوار وجدال ، وأنه لم يقتل لخطإ في فهم الأمر بالدفء كما تزعم الرواية الأولى . وان كان في الرواية الأخيرة ما يفهم منه أن خالداً أمّن مالكاً وأعطاه الذمة ، فيكون قتله بعد ذلك غدراً ، ولكنها لا تدل هي ولا غيرها على أنه عاد إلى الاسلام وأقر بالزكاة . وهذه الرواية تساير ما روي

ابن خلكان وغيره أن متمم بن نويرة جاء إلى أبي بكر يستعديه على خالد ويعتب على أبي بكر ، قال ابن خلكان : « فلما بلغه مقتل أخيه حضر الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى الصبح خلف أبي بكر الصديق ، فلما فرغ من صلاته وانفتل في محرابه ، قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سِيَةِ قوسه ، ثم أنشد :

نِعْمَ القتيلُ إذا الرياح تناوحتْ خلفَ البيوت قَتَلتَ يا ابن الأزْوَرِ
أدعوتَـهُ بالله ثم غـدَرْتَـهُ لو هو دعاك بذمةٍ لم يَغْدِرِ

وأومأ الى أبي بكر ، فقال : والله ما دعوتُـهُ ولا غدرتُـهُ » .

وأكثر الروايات وأرجحها تدل على أن خالداً كان موقناً من ردة مالك ، وإصراره على منع الزكاة ، ولم توجد رواية قط تثبت إثباتاً قاطعاً أن مالـكاً رجع عن ردته ، وأعطى مقاده مخلصاً للدين ، وإنما أعطى مقاده مغلوباً على أمره ، وكان يرجو أن يضع يده في يد أبي بكر لعله يجد عنده عطفاً أو ليناً ، فلم يمكنه خالد من ذلك ، وأخذه بالعزم وقتله .

وهذا متمم أخو مالك لم يدَّع قط أن أخاه قتل بعد توبةٍ ، إنما ادعى أن خالداً غدر به ، بل هو يدعي في شعره أن الغدر كان من ضرار بن الأزور ، وإنما أشار الى أبي بكر أن كان هو الامير الأكبر ، فهو المسؤول عن أعمال عماله ، خالدٍ فمن دونه . ولو أيقن متمم أن أخاه تاب عن ردته وأقرَّ بالزكاة كما أقرَّ بالصلاة ، لـكان له قول غير هذا القول ، وشأن غير هذا الشأن . وكذلك كان قوله حين قال له عمر : «لوددت أنك رثيت أخي زيداً بمثل ما رثيت به مالـكاً أخاك ، فقال : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته . فقال عمر : ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته» (ابن خلـكان ١ : ٢٢٨ والأغاني ١٤ : ٦٨) فهذه الرواية تدل على أن متمماً لم يكن يجزم بأن أخاه مات مسلماً ، إن لم تدل على معرفته بأنه قتل في ردته . لأن زيد بن الخطاب ، أخا عمر بن الخطاب ، قتل شهيداً يوم اليمامة ، فيشير متمم إلى هذا ، أن زيداً صار الى الجنة ، إذ قتل شهيداً مسلماً ، ويشك — على الأقل — في أن مصير أخيه مالك كمصير زيد .

فلم يك خالد متجنياً ولا عادياً ، وإنما كان حازماً سريع الفصل ، يعرف ما يأتي وما يدع ويرى الاسلام في خطر من دعاة الردة ، ويرى الموقف على حقيقته بنظرة رجل الحرب ، ويعرف عواقب التردد او التهاون ، ويعرف خصمه مالـكاً ، ويعرف قوته وأثره في قومه ، والشاهدُ يرى ما لا يرى الغائب . فلن يؤخذ على خالد ، إن كان عليه فيما أتى مأخذ ، إلاّ أنه تسرَّع ، أو تأول فأخطأ ، ولا حرج .

وأما ما يرجف به المرجفون ، من أنه إنما صنع هذا بمالك ، رغبةً في امرأته ليلى بنت

سنان، وأنه كان بينهما هوًى في الجاهلية، فما نظنه إلاّ من نسج الخيال ، ومن أقوال الأعداء المغرضين . فالثابت ان خالداً أخذ ليلى سبياً بعد مقتل زوجها ، وأنه بنى عليها بعد انقضاء طهرها ، وبعض الرواة يعبر عن هذا بالزواج ، ففي الطبري (٣ : ٢٤٢) « وتزوّج خالد أم تميم ابنة المنهال — هكذا سميت في هذه الرواية — وتركها لينقضي طهرها ، وكانت العرب تكره النساء في الحرب وتعايره » وهذا تعبير شاذ يذهب الثقة بهذه الرواية وأمثالها. فان كراهة العرب النساء في الحرب — إن صحت — لا تكون حجة في الاسلام ، وهو تشريع أنفٌ ، لا يقرّ كثيراً من تقاليد العرب في الجاهلية ، بل ينهاهم عن أكثر ما كانوا عليه وما كان عليه آباؤهم من قبل .

والظاهر من سياق الروايات في الوقعة وما دار حولها ، أن خالداً سبى نساءَ القوم ، أي أخذهنَّ رقيقاً غنيمة ، كحكم الاسلام في حرب الكفار والمشركين . واصطفى لنفسه من السبي امرأة مالك ، والاسلام يجيز ذلك ، وأنهُ استبرأها بحيضة واحدة ، ثم دخل بها . وهذا عمل مشروع جائز ، لا مغمز فيه ولا مطعن ، وأن أعداءه والمخالفين عليه رأوا في هذا العمل فرصتهم ، فانتهزوها ، وذهبوا يزعمون أن مالك بن نويرة مسلم ، وأن خالداً قتله من أجل امرأته، وذهبوا ينسجون حول هذا الأكاذيب ، حتى بلغوا بذلك عمر ، وكان سيء الظن بخالد ، ولم تكن بينهما مودة ، يقول صاحب الأغاني (١٤ : ٦٦) : « فلما بلغ قتلهم عمر بن الخطاب تكلم فيه عند ابي بكر ، وقال : عدو الله عدا على امرىء مسلم فقتله ثم نزا على امرأته » وأكثر عمر في ذلك على أبي بكر ، حتى قال له : « هبه يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » . وحمى أبو بكر قائده العظيم من الأراجيف ، وقضى على الفتنة بأن أدّى دية مالك ، وكتب الى خالد برد السبي (الطبري ٣ : ٢٤٢) فهذا من أبي بكر سياسة واحتياط ، فان كان القوم قد تابوا ورجعوا إلى الاسلام ، كما يزعم خصوم خالد والمخالفون عليه ، فالدية للقتل الخطأ ، والسبي يرد على أهله ، وإن تكن الأخرى لم يكن بذلك بأس .

وتجري بعض الروايات بأن أبا بكر أمر خالداً أن يفارق امرأة مالك (الاصابة ٦: ٣٦-٣٧) ولكني لا أظنها رواية ثابتة ، فان أكثر الروايات على أن أبا بكر حين جاءه خالد واعتذر اليه ، عذره « وتجاوز عنهُ ما كان في حربه تلك » . (الطبرى ٣ : ٢٤٣ والاغاني ١٤ : ٦٦) ويروي صاحب الخزانة عن رسالة أبي رياش (١ : ٢٣٨) : « وأخذ خالد بن الوليد ليلى بنت سنان امرأة مالك، وابنها جراد بن مالك فأقدمهما المدينة ، ودخلها وقد غرز سهمين في عمامته، فكأن عمر غضب حين رأى السهمين ، فقام فأتى عليًّا فقال : إن في حق الله أن يقاد هذا بمالك ، قتل رجلاً مسلماً ثم نزا على امرأته كما ينزو الحمارَ ! ثم قاما فأتيا طلحة ، فتتابعوا على

ذلك ، فقال أبو بكر : سيف سله الله لا أكون أول من أغمده ، أكل أمره الى الله . فلما قام عمر بالأمر وفد عليه متمم فاستعداه على خالد ، فقال : لا أرد شيئاً صنعه أبو بكر ، فقال متمم قد كنت تزعم أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ؟ فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلت ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاه أبو بكر . ورد عليه ليلى وابنها جراداً » .

ومجموع هذه الروايات وغيرها مما لم نذكر ، يدل على أن امرأة مالك كانت سبياً ، كغيرها من النساء اللائي غنمن في الحرب ، وأن خالداً أخذها هي وابنها ملك يمين ، لم يتزوجها بعد مقتل زوجها ، كما يوهم ظاهر بعض الروايات . وحكم السبي والرقيق في الشريعة معروف ، يخالف حكم الزوجة . فالزوجة إذا توفي عنها زوجها لا يحل زواجها إلا أن تنقضي عدتها ، إن كانت حاملاً بوضع حملها ، وإن كانت غير حامل تربصت أربعة أشهر وعشرة أيام ، لا يجوز غير ذلك . فاذا عقد عليها في حملها أو قبل انقضاء الأربعة الأشهر والعشرة الأيام كان العقد باطلاً ، وكان قربانهـا سفاحاً حراماً . وأما السبي والرقيق فانه يحل ملكها ملك يمين وإن كانت حاملاً ، لأنه لا عدة عليها إذا سُبيت ، وإنما يحرم حرمة قطعية أن يقربها مالكها إن كانت حاملاً قبل أن تضع حملها ، وإن كانت غير حامل حتى تحيض حيضة واحدة .

هذه أحكام بديهية في الشريعة ، لا يعذر أحد بجهلها ، فلا أدري كيف خفيت على المؤلف العلامة الكبير ، حتى جزم في غير تردد ولا احتياط بأن خالداً تزوج امرأة مالك وأنه « نزا عليها قبل انقضاء عدتها » !!

ولست أتجنى عليه أو أحمل كلامه على محمل سيء ، بل حاولت أن أحمله على أحسن محامله ، لأنزهه عن هذا الذي قال ، فلم أستطع . وهاكم نص كلامه في توجيه الخلاف بين أبي بكر وعمر ، ثم الاعتذار عن خالد ، قال في (ص ١٥١) ما نصه بالحرف الواحد :

« الرأي عندي في هذا الخلاف أنه كان اختلافاً في السياسة التي يجب أن تُتّبع في هذا الموقف . وهو اختلاف يتفق وطبائع الرجلين . أما عمر ، وكان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالداً عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها ، فلا يصح بقاؤه في قيادة الجيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، ويسيء إلى مكانتهم بين العرب ولا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أثم مع ليلى . ولو صح أن تأول فأخطأ في أمر مالك ، وهذا ما لا يجيزه عمر ، فحسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد . وليس ينهض عذراً له أنه سيف الله ، وأنه القائد الذي يسير النصر في ركابه ، فلو أن مثل هذا العذر نهض لأبيحت لخالد وأمثاله المحارم ، ولكان ذلك أسوأ مثل يضرب المسلمين في احترام كتاب الله . لذلك

لم يفتأ عمر يُعيد على أبي بكر ويلحّ حتى استدعى خالداً وعنّفه على فعلته أما أبو بكر فكان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن . وما قَتْلُ رجل أو طائفة من الرجال لخطأ في التأويل أو لغير خطأ ، والخطر محيق بالدولة كلها ، والثورة ناشبة في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، وهذا القائد الذي يُتَّهم بأنه أخطأ من أعظم القوى التي يُدفع بها البلاء ويُتقى بها الخطر ! وما التزوج من امرأة على اختلاف تقاليد العرب ، بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها ، إذا وقع ذلك من فاتح غزا فحقّ له بحكم الغزو أن تكون له سَبَايا يصبحن ملك يمينه ! ! إن الترمُّت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد ، وبخاصة إذا كان ذلك يضر بالدولة أو يعرضها للخطر » !

ولقد ترون ما أرى ، أن هذا المؤلف لبس رداءَ المحامي النابه ، وأخذ بقلم الكاتب الحزبي القدير ، وهما صناعتاه المفضلتان ، اللتان مارسهما طول حياته حتى بلغتا به ما بلغ ، وهما اللتان تحملان صاحبهما — عن غير قصدٍ — على أن ينظر للأمر من ناحية واحدة ، فيبالغ فيها حتى يبلغ الغاية في القوة ، حتى إذا ما أراد أن ينظر إليه من الناحية الأخرى غلبته ناحيته الأولى حتى يبلغ الغاية في الضعف ! ! فلا يكاد يصل إلى تحقيق ، ثم يضطرب في يده ميزان العدل .

وهكذا كان شأنه هنا ، اتجه به تحقيقه عن غير قصدٍ إلى أنّ عملَ خالد جريمة ، فصوَّرها أقوى تصوير ، وخفي عليه الفرقُ بين الزواج والسبي ، وخفي عليه الفرق بين العدّة والاستبراء ، وخفي عليه حكم الاسلام فيمن تزوج امرأةً في عدّتها ، أو قارب ثيباً من الرقيق قبل أن يستبرئها ، وخفي عليه بعد ذلك كثير من مقاصد الاسلام وأحكامه ، ومن خُلُق المسلمين الاولين وسيرهم ، فذهب يجزم بأن خالداً « عدا على امرىء مسلم ونزا على امرأته قبل انقضاء عدتها » ينسب ذلك الى عمر ، لا يشك فيه ، ويجزم بأن الذي كان من خالد زواج ثم دخول قبل انقضاء العدة ، ثم يصوّر أثر ذلك في قيادة الجيش وفي مكانة المسلمين بين العرب ، ثم يرى رأي عمر أن الحدّ على خالد واجب . فلما أن أراد أن يدافع عن خالد ، ويبرّر فعل أبي بكر في التجاوز عنه ، تخاذل ثم تخاذل حتى جثا على ركبتيه ، فلم يصنع شيئاً ، إلاّ أن أتى بما لا يقره شرع ولا عدل ، لا في دين الاسلام ولا في سائر الأديان ، فقد أتى بما لم يأت به الأوائل ! !

وسأزيد الأمر بياناً حتى لا يخفى على من لا يعرف شيئاً من أحكام الاسلام . فقتل المرء المسلم عمداً جريمة من أكبر الكبائر ، يجب فيها القصاص ، لا يملك أحد العفو عنه إلا وليّ الدم من عصبة القتيل وحده ، لا يملكه خليفة ولا ملك ولا دولة . وتزوج المرأة في عدة

زوجها بعد موت أو طلاق ، زواج باطل لا أثر له، وقربان المرأة بسببه زنا ليس فيه شبهة، ويجب فيه الحدّ ، الرجم على المحصن والجلد على غيره . لا يملك أحد ابداً العفو عنه ، لا صاحب العرض ، ولا المرأة ، ولا الدولة ، لا أحد قط . وكذلك حكم قربان الأمة السبية في الحرب إذا كانت ثيباً قبل استبرائها بحيضة واحدة . ثم هذه المحرمات القطعيــة البديهية التحريم إذا وقع فيها أحد إنما يجب عليه ما يجب فيها من الحد أو القصاص ، إذا كان لا ينكر أنها حرام . أما إذا أنكر أنها حرام واستحلها فان حكمه في الشريعة أن يكون مرتداً خارجاً من الاسلام ، وحكم المرتد معروف . وكذلك يجري حكم الردة على من عرف وقوع ذلك وأقره ورآه أمراً هيناً لا إثم فيه أو فيه إثم قليل . لأنه ينكر أمراً معلوماً من الدين بالضرورة .

ثم هذا الدين في عهد أبي بكر وعمر ، كان ديناً فقط ، لم تشبه شائبة السياسة ولا شائبة الدنيا والغرور بها ، وكان هؤلاء الناس إنما قاموا يقاتلون في سبيل الله ، يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، يقاتلون لترسخ قواعد الاسلام وأخلاقه وآدابه في العرب أولاً ، ثم في سائر الامم من بعد . فاذا بدؤوا في أول أمرهم — كما يصوّرهم المؤلف — بالتهاون في أدق شيء عند العربي ، وهو العرض وما يمسّ النساء ، وفي كبيرتين من أكبر الكبائر ، القتل والزنا ، فأنّى يستقيم لهم الدين ، وأنّى يرجون من الله النصر ؟ ثم ممن يكون هذا التهاون ؟ من أبي بكر ؟ حتى يرميه المؤلف بأنه « كان يرى الموقف أخطر من أن يقام فيه لمثل هذه الأمور وزن » وأنه « ما التزوج من امرأة على خلاف تقاليد العرب بل ما الدخول بها قبل أن يتم طهرها » !! أتظنون أيها الناس أن يستطيع رجل من عامة المسلمين ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، فضلاً عن أبي بكر ، أن يرى هذا الرأي ، ثم يزعمَ أنهُ مسلم، أو يزعمَ له أحد أنهُ مسلم ؟ !

أبو بكر يقول لعمر « هبهُ يا عمر تأوّل فأخطأ ، فارفع لسانك عن خالد » وهذا هو الحق ، وتأول خالد واضح لمن فهم شرائع الاسلام وحقائقه، أيقن من ردة مالك بن نويرة ، ولم يوقن من توبته إلا بما شهد له ناس أنهم سمعوا الأذان في ناحيته، وإلاّ قوله لخالد في بعض الروايات أنهُ مسلم ، ولم يشهد أحد لمالك أنهُ أقرّ بالزكاة ، ولم يقل هو ذلك أيضاً ، بل قال لخالد : « إني آتي الصلاة دون الزكاة » . ثم تفلت منهُ بعض كلمات تنبيء عن إصراره ، فلا يرى خالد مناصاً من قتله ، فتكون نساؤه سبياً بحكم الشريعة، ثم نجد أخاه متمم بن نويرة لا يكاد يرثيه بكلمة تنبيء عن إسلامه ، بل يدّعي غدر خالد وغدر ضرار ، ويصرّح بالفرق بين استشهاد زيد أخي عمر ومقتل مالك أخيه. أفلا يكون في كل هذا عذر ومتأوّل لخالد ؟!

ثم بعد هذا كله تبقى ليلى وابنها في يد خالد ملك يمين ، مدة خلافة أبي بكر ، وبعض

خلافة عمر ، حتى يأتي متمم بن نويرة فيستعدي عمر على خالد ، وقد صار الخليفةَ وليَّ الأمر ، فلا يعديه عمر ، ويأبى أن يغير حكم أبي بكر ، ولكنهُ يرضيه بأن يردّ عليه امرأة أخيه وابنها . ولسنا نفهم هذا الردّ الا بأن عمر طلب إلى خالد أن ينزل عنهما ، وهما ملك يمينه ، فيرضى ولا يأبى ، استجابةً لرغبة عمر ، لا طاعةً لحكمه ، فليس في سلطان أمير المؤمنين أن يأخذ أموال الناس كرهاً ، ولم يكن ذلك من عملهم ولا من خلقهم . أفيظن ظانٌّ أن الصدر الأول من أصحاب رسول الله كانوا يقرّونَ خالداً على استبقاء ليلى امرأة مالك ، وهم يعلمون أنها تعاشره بعقد باطل حرام ، كما يصور المؤلف زواجه إياها قبل تمام طهرها ؟! اللهمَّ غفراً .

لشدّ ما أخشى أن يكون المؤلف تأثر بما قرأ من أخبار نابليون وغيره من ملوك أوروبة ، في مباذلهم وإسفافهم ، وبما كتب الكاتبون من الافرنج في الاعتذار عنهم لتخفيف آثامهم ، بما كان لهم من عظمة ، وبما أسدوا إلى أممهم من فتوح وأيادٍ ، حتى يظن بالمسلمين الاولين أنهم أمثال هؤلاء فيقول : « إني التزمت في تطبيق التشريع لا يجب أن يتناول النوابغ والعظماء من أمثال خالد » ! ! ! وهذا قول يهدم كلَّ دين وكلَّ خلق .

إن هذه النظرية ، نظرية تبرير الجرائم والمنكرات ، بعظمة العظماء ، ونبوغ النوابغ ، وارتفاع الزعماء ، وآثار القادة والكبراء ، نظرية خطيرة ، لا تقوم معها للامم قائمة ، تنحدر بها إلى مهاوي الشهوات ، وتنتهي بها إلى الإباحية ثم إلى الانحلال ، كما انحلت فرنسة وغيرها من الامم ، بما استرسل كبراؤهم وزعماؤهم في التبذل والترف ، وتبعهم العامة والدهماء ، (وإذا أردنا أن نهلك قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً) . ومعاذ الله أن نظن مثل ذلك بالصدر الأول من الصحابة والتابعين ، عهد أبي بكر وعمر ، وسيرهم معروفة ، وآثارهم مشاهدة ، وفضلهم على العالم كله لا ينكر .

وليت المؤلف الفاضل يشرح لنا في هذا الأمر وجهة نظره ، ويبين لنا لحساب مَنْ يقرّر هذه النظرية الخطرة المدمرة ؟!

أما قسوة عمر في اتهام خالد عند أبي بكر ، فإنها قسوة الرجل العادل الحازم ، لم يشهد الأمر بنفسه ، ولم يكُ قاضياً فيه ، إنما بلغهُ أمر ، فكان لسان الاتهام ، يقرّر ما سمع ويعرضهُ على الخليفة ولي الأمر ، والخليفة بما يملك من سلطة القضاء ، سأل خالداً عما نسب إليه ، وسمع قول أبي قتادة وغيره ، ثم حكم بما استبان له ، فعذرَ خالداً ، ولم يجد في عمله موضعاً للقصاص ، ولا موجباً للحدّ . فكان حكماً قاطعاً ، لا يجوز لعمر ولا لغيره أن يستأنف النظر فيه ، ولذلك قال لمتمم في خلافته « لا أرد شيئاً صنعهُ أبو بكر » فقال متمم : قد كنت تزعم

أن لو كنت مكان أبي بكر أقدته به ، فقال عمر : لو كنت ذلك اليوم بمكاني اليوم لفعلتُ ، ولكني لا أرد شيئاً أمضاهُ أبو بكر » . وما نظن عمر يفعل ما كان يريد لو كان خليفةً ذلك اليوم ، إنما هو يبين عن رأيه في أمر قد نظر إليهِ من جانب واحد ، هو جانب الاتهـام ، ولعلهُ لو قد سمع الطرف الآخر ، طرف الدفاع ، ونظر إلى الأمر من الجانبين كما نظر إليهِ أبو بكر ، لانتهى إلى ما انتهى إليه حكم أبي بكر . وفي مثل هذا تختلف أنظار القضاة ، ويختلف اجتهاد المجتهدين ، في وزن الأدلة ، وتقدير البراهين . فلن تكون كلمة عمر وحدها حجة على خالد ، تثبت عليهِ إجراماً لم يثبت عند الحاكم ، وقد برّأه الحاكم مما نسب إليهِ ، وان تكون كلمة عمر وحدها حجة على أبي بكر ، حتى يُتهم بالتهاون في شأن جرم يوجب الحدّ أو القصاص ، وبأنهُ كان يتزمت في تطبيق التشريع على العامة والدهماء ، ولا يتزمت في تطبيقهِ على النوابغ والعظماء ! ! كفعل ساسة هذا العصر !

ومع هذا كله فان عمر رجع عن كل ما كان يظن بخالد وينسبهُ إليهِ ، فقد روى ابن سعد في الطبقات الكبير (٧/٢/١٢١) باسناد من أصح الأسانيد التي يصححها المحدّثون في رواية السنّة أنهُ : « لما ماتَ خالد بن الوليد قال عمر : يرحم الله أبا سليمان ، لقد كنا نظن بهِ أموراً ما كانت » وليس بعد هذه الشهادة شهادة ، من رجل كان من أشدّ الناس قسوة على خالد ، وكان لسان الاتهام في هذه الوقعة بعينها . رضي الله عنهم جميعاً .

وبعد : فان كتاب المؤلف لا يزال مع هذا كتاباً قيماً ، جديراً بما نال من تقدير ، أفدنا منهُ فوائد جمة ، وأعجبنا بكثير من أبحاثه ، ووقفت عند كثير من روائعهِ ، مغتبطاً متذوّقاً ما فيها من بلاغة ، مهتزّاً بما صدقت في الوصف ، وبما احتوت من قوة التصوير . ومن أحسن كلماته التي أوفى فيها على الغاية ، وأطلتُ الوقوف عندها ، كلمة أقتبسها هنا ، لتكون دستوراً لكثير من الباحثين والكاتبين ، علهم ينتفعون بها ، ويتعظون بما وعظهم المؤلف فيها . قال (ص ٣٣) : « فما أكثر الذين لا يؤمنون بالكثير من آراء النـاس ويرونها ميناً باطلاً وحديث خرافة ، ثم يكتمون ذلك أو يتظاهرون بنقيضهِ ، التماساً للعافية ، وجرّاً للمنفعة ، وحرصاً على ما بينهم وبين الناس من تجارة . وأنت لا تجد هذا النّفاق في سواد الناس وعامتهم ما تجده في المثقفين منهم ، بل إنك لتجدهُ فيمن نصبوا أنفسهم لزعامة النـاس والابانة لهم عن وجه الحق في الحياة » .

أحمد محمد شاكر

التغذية الصحيحة

الناس جميعاً يأكلون ، ولكن هناك بين الآكلين من يبني صرح قوته بطعامه ، ويينهم من يحفر بأسنانه قبره .

والفريق الأول فئة قليلة ، هداها الله سبحانه ، الى فنون التغذية الصحيحة فعرفوها ، واتخذوها عقيدة لهم ، لا يحيدون عن اتباع نظمها لسبب من الاسباب مؤمنين بأن لا طريق للصحة الا بها ، ولا سبيل للقوة بغيرها ، موقنين بأنها ينبوع حياة جار يبعث في المستقي منه ماء الشباب دواماً .

وأما الفريق الثاني ، وهم غالبية الناس ، فقد انحدروا الى طريق معوج فيه امتلاء لبطونهم بضروب التغذية الخاطئة ، فمضوا بأقدام سريعة نحو المرض الدائم ، ومن ثم الى مقابرهم الأنيقة التي شيدوها بما ابتلعوه من أطعمة ميتة ذات ألوان شهية قتالة ، وبما شربوه من سموم طلية فتاكة .

وهذه الفئة الكثيرة نسيت أن الطريق الى الصحة مستقيمة معبدة سهلة ، لا مفاوز فيها ولا منعطفات ، وليس اليها غير مسلك واحد ، وهو العود الى الطبيعة في هوائها وشمسها ومائها ، في ثمارها وخيراتها وجمالها . وقد فاتهم أيضاً أن سر الصحة والقوة والسعادة هي في أحضان الطبيعة عندما نهرع اليها في مرحنا ولعبنا ، ورياضتنا وراحتنا ، ثم في آخر اليوم لما نجيء الى المنام المبكر الهادىء ، ونحن من الطبيعة سكارى ، قد احتسينا من كؤوسها رحيقاً وسحراً حلالا .

ان الطبيعة وحدها هي المعلم الأول الذي يلقننا ان الصحة ثروة من السماء ، لها أرباحها الطائلة التي نستطيع أن ننفق منها الى القسعين من العمر ، لا بل وأكثر ، والطبيعة هي التي تعلمنا ان لا ننفق صحتنا هدراً ، والا كنا من المرضى العليلين .

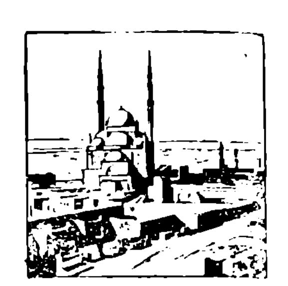
وعندي لو ان المدنية سمعت لصوت الطبيعة المنادي الى ما فيه نفع البشرية ، فوجهت هذه المدنية عنايتها الى فنون التغذية الصحيحة ، وكيفية نشرها بين الناس كما وجهتها الى تلك المخترعات الحديثة لسعدت الانسانية بهذي أكثر من سعادتها بتلك . الا أن الله سبحانه قد أراد بالانسان أن يحرر من عبودية التغذية الخاطئة ، فأرسل شعاعاً من رحمته ، دفع بعض عباقرة أمريكا أمثال « لصت » و « هوسر » و « بنجامين » فأخذوا على عواتقهم اداء رسالة مقدسة ، وبدأوا حركة مباركة نحو الدعاية للتغذية الصحيحة ، وشاء الله تعالى ، أن يكلل بالفوز صادق مسعاهم ، والحق انا مدينون لهذه المدرسة الحديثة بكل ما غذونا به عقولنا من هذا الفن النافع المفيد .

والتغذية الصحيحة يجب أن تتكون من مواد زلالية ونشوية وسكرية ودهنية وعناصر معدنية وفيتامينات والنسبة الصحية لهذه المواد كما توصل اليها الدكتور « دوجلاس تومسون » في أبحاثه يجب أن تتكون من ١٠ ٪ مواد زلالية و ١٠ ٪ مواد سكرية ونشوية و ١٠ ٪ مواد دهنية و ٢٠ ٪ فاكهة و ٥٠ ٪ خضروات على أن يكون ٩٠ ٪ من مجموع هذه الاطعمة قلوياً و ١٠ ٪ منها حمضياً .

والمواد الزلالية هي بانية الأنسجة العضلية وتوجد في اللحم والسمك والبيض واللبن والجبن والبقول والمواد النشوية والسكرية وتولد النشاط والحركة وأنفعها ما كان في الخبز الكامل والعسل الأسود والنحل والمواد الدهنيـة وتولد الحرارة وهي في الزبد والزيت وأما العناصر المعدنية والفيتامينات فهي أهمها جميعاً حيث تقوم على دعائمها أسس التغذية الصحيحة وهي في الفاكهة والخضر والبقول وأنواع البندق والفواكه المجففة واللبن ومستخرجاته وهذي جميعها قوام الغذاء الكامل الصحي .

وكل من يروم حفظ صحته ، أو ينشد عودها من جديد ، عليه أن يحرص أشد الحرص على أن تكون هذه الأغذية بين طعامه ينتقي منها ماينتقي اليوم ، ويصنف منها مايصنف لآخر

فهمي عطا الله



مسجد المدرسة السامرية

بالشاغور بدمشق

هذا هو المقال الثاني في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الخاص بمساجد دمشق الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد طلس

يقول ابن عبد الهادي في ص ١٠٧ :

«وثمّ مساجد لم يذكرها (اي ابن شداد المؤرخ الذي ينقل عنه ابن عبد الهادي) . . . الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي » اهـ .

* * *

ولم يعلق الأستاذ أسعد على ذلك بشيء مطلقاً فلم يخبرنا أين كانت تقع هذه المدرسة بمدينة دمشق ؟ ومن هو الصاموي (بالصاد والواو) الذي أنشأها ؟ وأي نوع من المدارس أو المعاهد كانت ؟ وفي أي عهد بنيت ؟ الى غير ذلك من المعلومات التي لا غنى عنها لقارىء كتابه،والتي يعتبر تحقيقها أول الواجبات المفروضة على من يتصدى لنشر مخطوط يكاد يكون سجلاً احصائيّاً لمساجد دمشق ومحلاتها لا يمكن لغير اخصائي في دراسة آثار دمشق ومعاهدها وخططها وتاريخها الانتفاع به الا اذا وضعت تحت نظره جميع البيانات التي تجلو له هذه النقط جميعاً بحيث يستطيع ان يفيد من الكتاب الفائدة المقصودة بنشره والتعليق عليه والتذييل له .

والآن نتقدم لبيان ذلك فنقول :

لم نجد بين جميع مساجد دمشق ومعاهدها وآثارها القديمة القائمة حتى الآن معهداً واحداً باسم ابن الصاموي هذا وراجعنا جميع اوراقنا ومذكراتنا عن حارات دمشق ومحلاتها وأزقتها ودروبها فلم نجد واحداً منها يحمل هذا الاسم . ولم نجد أحداً من المؤرخين او الجغرافيين او الأدباء ذكره أو أشار اليه ، فرجعنا الى الفصل الذي ورد فيه ذكر هذا المسجد في كتاب ابن عبد الهادي فوجدنا الرجل بدأ من صحيفة رقم ١٠٣ يذكر مساجد حي الشاغور بجميع محلاته بما في ذلك المساجد الموجودة بجهة القبلة وباب الصغير فيقول :

الأول : مسجد على باب الصغير ملاصق للسور يعرف بمسجد شجاع الخ .

الثاني : مسجد يعرف بعبد الملك بالشاغور .. الخ .

الثالث : مسجد العنابة بالشاغور الخ .

حتى يصل الى المسجد الثالث عشر فيقول : مسجد يعرف بقبلية النور خارج باب الشاغور ثم يذكر مساجد مقبرة باب الصغير وقبور آل البيت .

ويقول في المسجد الرابع والعشرين : مسجد المماق شرقي الشاغور الخ .

حتى ينتهي الى المسجد السادس والعشرين وهو آخر ما ينقله عن ابن شداد ، ثم يأخذ في أن يضيف من عنده ما لم يذكره ابن شداد من مساجد هذه المنطقة فيقول :

الأول : مسجد في المقبرة (اي مقبرة باب الصغير) يعرف بقبر ويس الخ .

ثم يعدد مساجد اخرى بهذه المقبرة حتى يصل الى المسجد الخامس فيقول :

الخامس : مسجد بالمدرسة التي في اول درب الشاغور من جهة باب الجابية .

السادس : مسجد في التربة التي تحت ذلك من الغرب .

السابع : مسجد تجاه ذلك من الشرق .

الثامن : مسجد في مدرسة ابن الصاموي الخ . اه

إذن كانت هذه المدرسة بلا شك في حي الشاغور الى شرق باب الجابية . فهل كانت في هذه المنطقة مدرسة او تربة او دار حديث او دار قرآن او رباط او خانقاه او مسجد او زقاق يحمل اسم ابن الصاموي هذا ؟

لقد وجدنا ابن العماد الحنبلي يقول في كتابه شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٣ في وفيات سنة ٦٤١ هـ ما نصه :

«فيها (اي توفي في سنة ٦٤١ هـ) الصدر الرئيس جمال الدين محمد بن عقيل بن كروس محتسب دمشق . كان كيساً متواضعاً دفن بداره بدرب السامري . والله اعلم » اه

ووجدنا النعيمي يترجم لداري حديث كانتا تقعان بحي الشاغور هذا . احداهما المدرسة الكروسية . والثانية المدرسة السامرية ويقول انهما كانتا متجاورتين وان موضعهما كان غربي مأذنة الشحم . يقول النعيمي ما ملخصه :

فصل دار الحديث الكروسية :[1] غربي مأذنة الشحم . قال الحافظ ابن كثير [2] : في سنة

(١) عن دار الحديث الكروسية انظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ١٣٠ / ١٣٢ (مخطوط) . ومختصر الدارس للعلموي ص ١١ (مخطوط) ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ٧٥ و ٧٦ (مخطوط)

(٢) انظر ترجمة محمد بن عقيل بن كروس في ابن كثير ج ١٣ ص ١٦٣ في وفيات سنة ٦٤١ هـ . وكذلك في شذرات الذهب ج ٥ ص ٢١٣

٦٤١ هـ (توفي) واقف الكروسية محمد بن عقيل بن كروس جمال الدين محتسب دمشق . . .
وتوفي بداره التي جعلها مدرسة (شافعية) وله دار حديث ا هـ

وقال الصفدي في وافيه : المحتسب ابن كروس محمد بن عقيل بن عبد الواحد بن احمد بن حمزه بن كروس جمال الدين أبو المكارم السلمي الدمشقي ... توفي ٦٤١ هـ ، ا هـ

وقد عاد النعيمي في باب مدارس الشافعية وعقد فصلاً خاصًّا بالمدرسة الكروسية الشافعية ذكر فيه موضعها كما يلي :

المدرسة الكروسية (الشافعية) [٣] التي إلى جانب السامرية الشافعية » ا هـ

أما المدرسة السامرية : فلم يذكرها النعيمي بمدارس الشافعيــة في فصل خاص وإن كان عني بترجمتها في دور الحديث قال :

فصل دار الحــديث السامرية [٤] : وبها خانقاه وقفهـا الصدر الــكبير سيف الدين ابو العباس احمد بن محمد بن علي بن جعفر البغدادي السامري بفتح الميم وتشديد الراء نسبةً إلى مدينة سرَّ من رأى (سامرّا) وهي بلدة على الدجلة وينسب إليها أيضاً بلفظ السُّرَّمرّي وهي إلى جانب دار الحديث الكروسية بدمشق.وكانت داره التي يسكن فيها فدفن بهـا بعد أن وقفها دار حديث وخانقاه . وكان قد انتقل الى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة.وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام بناها من حجـارة منحوتة كلها . وكان السامري كثير الأموال حسن الأخلاق معظماً عند الدولة جميل المعاشرة[٥] له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة.توفي رحمه الله يوم الاثنين ثامن عشر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة (٦٩٦ هـ).وقد كان له ببغداد حظوة عنــد الوزير ابن العلقمي وامتدح (الخليفة) المستعصم وخلع عليــه خلعة سوداء سنية . ثم قدم دمشق في أيام الناصر صــاحب حلب فحظي عنده أيضاً فسعى فيــه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها باب مصــادمة (ولعلها مصادرة) الملك لهم بعشرين الف دينار فعظموه جدًّا وتوسلوا به الى أغراضهم...الخ » . ا هـ

....

(٣) عن المدرسة الكروسية الشافعية أنظر الدارس للنعيمي ج ١ ص ٦٤٩ — ٦٥١ ومختصر الدارس للعلموي ص ٤٧ ومنادمة الاطلال لبدران ج ١ ص ١٩٦ . وعن التربة الكروسية أنظر منادمة الاطلال ج ٢ ص ٤٣٦

(٤) عن دار الحديث السامرية وبها خانقاه أنظر النعيمي ج ١ ص ٩٤ والعلموي ص ٩ وبدران ج ١ ص ٥٦

(٥) في النعيمي : جميل الاشعار . وقد صححناها عن ابن كثير (ج ١٣ ص ٣٥١) الذي ينقل عنه النعيمي هذه الترجمة حتى تستقيم العبارة لانه يقول بعد ذلك « له أشعار رائقة » فتكون صحة العبارة هكذا : جميل المعاشرة له أشعار رائقة ومبتكرات فائقة ... الخ

وقد ترجم له ابن كثير في وفيات [٦] سنة ٦٩٦ كما ذكر في حوادث [٧] سنة ٦٨٦ قصة طلبه إلى مصر ومصادرته بأموال باهظة.

• • •

لم يبق هناك أقل شك في أن مسجد المدرسة الصاموية الذي يعنيه ابن عبد الهادي هو المدرسة الشافعية (والخانقاه ودار الحديث) السامرية المجاورة لدار الحديث (والمدرسة الشافعية) الكروسية . وان هذا السامري هو الذي أطلق اسمه على الزقاق الذي كانت تقع فيه المدرسة الكروسية . فأين يوجد هذا الزقاق الآن بدمشق ؟

إننا إذا سرنا الآن بسوق مدحت باشا متجهين نحو الشرق حتى تقاطعه مع شارع سوق البزورية واستمررنا في طريقنا في شارع مأذنة الشحم حتى الناصية الجنوبية الغربية لخان النحاسين فاننا نجد طريقاً يسمى زقاق السلمي متجهاً الى الجنوب ممعناً في حي الشاغور

وقد وجدنا الصفدي يقول في وافيه : ان المحتسب بن كروس محمد بن عقيل صاحب المدرسة الكروسية كان يسمى جمال الدين أبا المكارم السلمي .

فلا شك إن هذا الزقاق الواقع « غربي مأذنة الشحم » هو نفسه الذي كانت تقع فيه مدرسة ابن كروس السلمي وهو نفسه درب السامري الذي ذكره ابن العماد الحنبلي بقوله « ودفن ابن كروس بداره بدرب السامري » . وهذه الدار هي التي يقول النعيمي ان ابن كروس جعلها مدرسة شافعية ودار حديث .

ويستنتج من ذلك جميعه إن هذا الدرب سمي أولاً باسم السلمي حين سكنه وأوقف فيه مدرسته ودفن بها سنة ٦٤١ هـ . ثم لما بنى السامري مدرسته بجوار المدرسة الكروسية ودفن بها سنة ٦٩٦ هـ سمي هذا الدرب باسم السامري فكلا الاسمين في نظرنا كانا يطلقان على درب واحد . على إن اسم السامري قد زال من أفواه العامة وبقي اسم السلمي . والظاهر أن ذلك لصعوبة نطق الأول وسهولة الثاني على الألسن . والآن لا يزال هذا الزقاق يسمى باسم السلمي وباسم الدسوقي نسبة الى المرحوم الشيخ الدسوقي » [٨]

• • •

ماذا تبقى من هاتين المدرستين للآن :

يقول الشيخ عبد القادر بدران عن دار الحديث الكروسية في كتابه منادمة الأطلال

---

(٦) ابن كثير ج ١٣ ص ٣٥١ (٧) ابن كثير ج ١٣ ص ٣١٠

(٨) يقول العلموي في مختصر الدارس ص ٩ في فصل دار الحديث السامرية « هي بالقرب من محلة مأذنة الشحم بزقاق المرحوم الشيخ المسلك الدسوقي » ا هـ مما يدل على ان هذا الدرب كان يسمى باسم الدسوقي في عهد العلموي المتوفى سنة ٩٨١ هـ .

جـ ١ ص ٧٥ و ٧٦ : « هذه المدرسة ذهبت أحاديثها إلاّ من القرطاس وضمّنتها أيدي المختلسين إليها . . . ولقد خفي عليَّ مكانها أولاً ثم ظفرت به فاذا هي بمحل يقال له الآن زقاق السلمي غربي مأذنة الشحم . ولما تأملتها وجدت حائطها الشرقي باقياً وبه بركة ماء (أي سبيل) مبنية بحجارة ضخمة على طراز قديم وهندسة معجبة ونقوش بديعة وعن يمينها ويسارها عمودان لطيفان . . . وصدرها من الحجر المعجن وبابها لم يزل باقياً إلاّ انه مسدود وبعد ثماني خطوات من البركة الى الجنوب حجرة لطيفة بلا سقف ولا شباك على الطريق وبها قبر مصبوغ بالمغرة يقولون انه قبر السلمي وعن شمالها أثر في الجدار ينادي على أنهُ كانْ مدرسة ولعلها أختها السامرية التي أصابها ما أصاب أختها « اي الكروسية » اهـ

وقال في مختصر المنادمة[٩] عن هذه المدرسة بعد ان لخص ما تقدم : ولعلها هي بيت السباعي وقد أخبرت أن المحراب كان في هذه الدار »

وقال عن دار الحديث السامرية في منادمة الأطلال جـ ١ ص ٥٦ :

« هي بالقرب من مأذنة الشحم بزقاق المرحوم الشيخ الدسوقي وبها خانقاه أيضاً وهي التي الى جانب الكروسية ... وهذا الزقاق مشهور الآن بزقاق السلمي وهو مقابل للزقاق الذي هو وراء سوق البزورية من جهة الشرق . وقدْ صارت الآن داراً للسكنى فامحى أثرها واندرست أطلالها ولم يبق منها سوى أحجار في أساس جدار تشير اليها ... » اهـ

• • •

اننا نود قبل ان نمضي في بحث بقايا هاتين المدرستين ان نترحم على الاستاذ الفاضل المرحوم الشيخ عبد القادر بدران الدوماني الدمشقي وان نذكره بالخير ونخصهُ بالثناء لجهده العظيم في تحري الدقة في تحقيق وضبط مواقع الآثار بدمشق . ولا شك انه عانى ما عانيناه من المتاعب والصعاب في هذا السبيل بمدينة دمشق حيث يكثر الاعتداء على المباني الأثرية واختلاسها وتشويهها واضاعة معالمها عمداً من النهابين والمختلسين الذين يتفننون في محو الكتابات والنقوش الأثرية بازالتها او تغطيتها بطبقة من الطين او الاسمنت او رفعها من مكانها وإعادة بنائها بالحائط بحيث يخفى وجهها المنقوش بداخل الحائط . وفي سد الأبواب والنوافذ القديمة سدّاً كليّاً او جزئيّاً بحيث تخالف الحالة التي كانت عليها او فتح فتحات جديدة واخفاء معالم الجدران القديمة المبنية بالحجارة الضخمة بازالتها او أجزاء منها او طليها بطبقة تخفي البناء الأصلي او ازالة الزخارف العلوية والشرافات والمقرنصات والقباب لبناء الطبقات العليا الى غير ذلك من الأساليب والطرق والوسائل التي ظلّ العمل جارياً بها طوال قرون

---

(٩) مختصر المنادمة للشيخ عبد القادر بدران (مخطوط)

عدة حتى عهد قريب ، حتى زال من الوجود كثير من الآثار الجميلة الهامة التي كانت تزدان بها دمشق ويتغنى بعظمتها وبهائها المؤرخون الذين شاهدوها وترجموا لها وينعيها ويتحسر على زوالها من أتوا بعدهم ممن آلمهم اختلاسها او تشويهها او هدمها وازالتها . ونستمر في بحثنا فنقول :

إننا إذا دخلنا في زقاق السلمي ونظرنا إلى اليمين وجدنا بالصف الغربي بالمنازل رقم ١٠ و ١٤ و ١٦ و ٢٢ ما يلفت نظرنا.

فنجد في المنزل رقم ١٠ فتحة قد بنيت جوانبها بالحجارة الضخمة ولها عتب ضخم أيضاً ونجد الجدار بجوارها قد بني من نفس نوع الحجارة مما يميزها من بقية الجدران والابنية المجاورة . ثم نجد جداراً أثرياً سفلياً يبدأ من المنزل رقم ١٤ ويستمر جنوباً حتى المنزل رقم ١٦ومن بعده السبيل الجميل الذي يشير إليه بدران يتلوه جدار أثري هو واجهة مدفن الشيخ السلمي ومن بعده المنزل رقم ٢٢ المعروف ببيت السباعي .

وقد ذهبنا إلى هناك وتقابلنا مع صاحب هذا المنزل فسمح لنا حضرته بمعاينة المدفن فوجدناه ساحة سماوية صغيرة بها قبر وواجهتها على زقاق السلمي من الحجارة الضخمة وبها باب ونافذة يتلوها من الشمال السبيل أو البحرة البديعة الزخارف يحف بها عمودان جميلان ثم يستمر الجدار الأثري من أسفل من نفس نوع هذه الحجارة والبناء في المنزل رقم ١٦ حتى المنزل رقم ١٤

أما المحراب الذي يقول الشيخ بدران إنه قيل له انه ببيت السباعي فقد سألنا عنه . فأجابنا صاحب البيت (أو ساكنه الذي تقابلنا معه) بالنفي ولم نجد له أثراً بالمدفن الذي به القبر. ولا استطعنا بأية وسيلة للتحقق من وجوده ببيت السباعي أو غيره من الجيران لما هو معلوم من صعوبة دخول المنازل الاسلامية لعدة الحجاب المفروض على النساء فيها ولما يتوجسه أصحابها من شر من جراء مثل هذه الابحاث الأثرية في أبنية قديمة لما قد تنتهي إليه من نتائج يخشاها أصحاب هذه الأبنية وقطانها .

هذا هو كل ما تبقى من البناء أو الأبنية الأثرية التي كانت تشغل المنطقة الممتدة من المنزل رقم ١٠ حتى آخر المنزل رقم ١٦ وربما كانت تمتد إلى أبعد من ذلك شمالاً أو جنوباً ولكنها قد اختلست وأدخلت في دور السكنى

ولكن هل يمكن مع ذلك ان نجد من الظواهر المعمارية أو الزخرفية أو الحقائق التاريخية ما يساعدنا على الحكم بأن هذه الجدران هي حقيقة البقية الباقية من المدرستين الكروسية والسامرية ؟

ان البراهين والحقائق التي يمكن ان تساعدنا في اثبات ذلك هي :

أولاً : البرهان التاريخي المستمد من رواية النعيمي عن موقع هاتين المدرستين متجاورتين «غربي مأذنة الشحم» وهذا ينطبق تماماً على الموقع الحالي لبقايا المدرستين المذكورتين بزقاق السامري (على رواية ابن العماد الحنبلي) المعروف باسم زقاق السلمي أو الدسوقي. (على رواية العلموي).

ثانياً : الرواية المتواترة عند أهل الحي بأن هذا القبر هو قبر السلمي. وقد سمي الزقاق باسمه. وقد كان صاحب المدرسة الكروسية يسمى محمد بن عقيل السلمي (كما يقول الصفدي) مما يدل على أن المدرسة الكروسية كانت بهذا الموضع. لما جرت به العادة في ذلك الوقت من وقف المنازل الخاصة مدارس ودفن أصحابها بها وتسمية الأزقة والدروب باسماء (الأولياء) المشهورين بها.

ثالثاً : ان هذه البحرة (او السبيل) المجاورة للمدفن على امتداد الواجهة بزخارفها البديعة وخاصة الجزء العلوي منها تذكرنا بالطرز الزخرفية التي كانت سائدة بدمشق في منتصف القرن السابع الهجري. وهي تعد في نظرنا — بحسب ما وصل اليه علمنا — أجمل بحرة من العصر الأيوبي بدمشق وغيرها من المدن الاسلامية العديدة التي أتيحت لنا فرصة زيارتها ودراسة آثارها. ولا تشبهها في طرازها وزخرفتها بقية البحرات الأخرى بدمشق التي أنشئت بعد ذلك في العهدين المملوكي والتركي. فان هذه البحرات قد خضعت لأساليب العمارة وفنون الزخرفة الغالبة في هذين العهدين من أمثال البناء بالمداميك الرفيعة من الحجر الابلق (الأبيض والأسود أو الأصفر والأسود على التعاقب) أو زخرفة أجزائها العليا بمقرنصات دقيقة بديعة مدلاة أو تحلية العقود بصنج على شكل الوسائد المتراصة أو نقش الشارات والرنوك عليها او تحليتها بالنقوش الهندسية او العناصر النباتية او الفسيفساء الجصية او الخطوط المملوكية او العثمانية الخ . . . علاوة على ان الكثير من هذه البحرات مؤرخة من العهدين المملوكي والتركي. مما لا يجعل هناك اي شك في نسبتها للعصور التي بنيت فيها.

رابعاً : ان البناء بالكتل الضخمة والمداميك العريضة كان من مزايا العمارة الأيوبية وان العصرين المملوكي والتركي يتميزان بالبناء بالحجر الابلق والمداميك الرفيعة فيما عدا الأبنية الحربية والتحصينات. وقد رأينا ان واجهة مدفن السلمي والجدار الى جانب السبيل وبقايا الجدار السفلي الممتد حتى المنزل رقم ١٤ مبنية جميعاً بمداميك عريضة ايوبية مما يثبت ان هذا الجدار هو من بقايا هاتين المدرستين.

وخلاصة القول ان المدرستين الكروسية، والسامرية كانتا تقعان بزقاق السلمي هذا، الأولى الى الجنوب وبها البحرة (أي السبيل) والثانية الى الشمال منها.

وان الاسم الصحيح الذي كان يجب أن ينشر في كتاب «ثمار المقاصد» هو ابن السامري

سلالة تنهار سكان أوستراليا الاصليون من أقدم السلالات البشرية . يعيش هذا
الانسان كما كان يعيش منذ آلاف من السنين ، ويقول الاجياليون :
للانقراض Arthropologists وهم الذين يبحثون في طبائع اجيال البشر انه
.... ربما لا يتغير فيظل كما هو حتى ينقرض ويفنى من الوجود . وقد لا يطول
انتظارنا وقوع هذا الحادث .

عند ما استعمرت هذه القارة أخذ ذلك الانسان ينطوي مرتداً نحو الشمال شيئاً بعد شيء حيث اتخذ من تلك الانحاء معاقله الاخيرة ازاء المدنية . وفي أوستراليا الآن نصف مليون من هذه السلالة ، غير ان هذا العدد آخذ في التناقص سنة بعد سنة ، ولا يزال أفرادها عاكفين على عاداتهم القبلية واحتفالاتهم الدينية وشرائعهم الخاصة بالاسرة والتعامل .

وسوف يظلون على نزعتهم في مواجهة البيض وقتلهم اذا خيل اليهم ان هنالك ما يمس شرائعهم القبلية من النظامات . ومنذ عهد قريب وقع فلول من البيض في قبضة هؤلاء البدائيين، فدفعوا ثمن تدخلهم غالياً جداً ، إذ فقدوا حياتهم جزاء ما أرادوا بهم من اصلاح . وشاءت حكومة أوستراليا أن تحاكم المجرمين بمقتضى قوانين البيض المدنية ، ولكن اتضح ان رجال هذه القبائل الذين قدموا للمحاكمة ، لم يفقهوا مما يجري من حولهم شيئاً . وظهر انهم يعتقدون انه من حقهم أن يقتلوا اذا مست عاداتهم بصورة من الصور .

ان قانون « بقاء الاصلح » هو القانون السائد في حياة هذه القبائل . وعلى شبابهم أن يثبت بلوغه طور الرجولة بأن يقتل وأن ينهب ويغتصب . وليس لونهم السواد ، بل هم الى الصحمة : وهي بضم الصاد سواد الى صفرة أو غبرة أو سواد قليل . فاذا أزيل ما على البدن من الشحم المفرز مع العرق ، كان لونهم أغبر أو أحمر الى الدكنة . وليس فيه شيء من الجمال . أما لون عيونهم فالسواد الى الغبرة ، وبياضها الى الصفرة . وهم سلالات بدوية متنقلة وعيشهم بالصيد . فلم يزرعوا أرضاً ولم يفلحوا شيئاً من محاصيل الزراعة . ويأكلون النمل الى جانب ما يأكلون من الكناجر والخنازير البرية والثعابين والفيران وعسل النحل وكل ضروب الحشرات . فاذا فدح بهم الجوع أكل بعضهم بعضاً .

وقد يعمل بعضهم في مرابي الحيوان التي يملكها البيض ، غير انهم لا يلبثون غير قليل حتى يعودوا الى حياتهم البدوية . وتعمل الحكومة الاسترالية على وضع قواعد تحميهم بها من الفناء كالقواعد التي وضعتها حكومة الولايات المتحدة لحماية الهنود الحمر . غير أن الاجياليين يعتقدون أنه ما من شيء يحميهم من الانقراض .

(صاحب المدرسة السامرية) لا ابن الصاموي كما ذكره الأستاذ أسعد .

وقد علمنا من ترجمة السامري ان اصله من سامرّا وانه كانت له حظوة عند الوزير ابن العلقمي ببغداد وانه امتدح الخليفة المستعصم فخلع عليه خلعة سوداء سنية . ثم رحل بعد ذلك الى دمشق واستوطنها وأنشأ بها مدرسته التي مات ودفن بها .

القاهرة السيد محمد رجب

وقع تحريف في الصفحة ١٣٤ — س ١ من مقتطف يوليو الماضي في كلمة برج الصفر وصوابها مرج الصفر

عن هيني : شاعر الحب والجمال والحرية

قارئي بعد حين لا تضحك[1]

« كلمات قديمة كأنها كتبت اليوم »

قارئي العزيز : ليفهم كل منا صاحبه، مرّة وبلا ردّة إنني لم أبجّل في حياتي فعلاً. إنما أبجّله هو الروح الانساني . ما الفعل إلاّ الوشاح الذي يتشح به الروح . وما التاريخ إلاّ الأسمال الخلقة التي خلعها الروح الانساني . غير ان الحب قد يتصل ، بعض الأحيان ، بالقبّعات والأردية القديمة . فأراني أحب عباءة مارنجو [2]

« نحن الآن في ساحة موقعة مارنجو »

لشد ما اضطرب قلبي في صدري عندما فاه السائق بهذه الكلمات . كنت قد غادرت « ميلان » في الليلة السابقة ، برفقة لتوانيّ رفيع الأدب ، كريم الخلق ، تظاهر بأنه روسيّ. وفي صبيحة اليوم التالي شهدت الشمس تبزغ على ساحة الموقعة المشهورة .

هنا شرب الجنرال « بونابرت » جرعة مترعة من كأس الصيت والشهرة فأسكرته ، ومضى في سكرته حتى أصبح قنصلاً ، ثم عاهلاً ، ثم غازياً عالمياً ، ولم يفق من سكرته هذه إلاّ من فوق صخور القديسة هيلانة . ولسنا بأحسن منه حالاً . فقد نسكر نحن أيضاً ونشاطره أحلامه ، ثم نفيق . وفي تعاسة الصحوة نؤخذ بمختلف ضروب النظر والفكر اليقظ —وكأني أعجب هل أصبح المجد الحربي لهواً قديماً ، وان الحروب قد لبست معنى أنبل من معناها القديم ، فذهبت ومعها نابليون ، الذي قد يكون — آخر الغزاة ؟

يظهر كما لو أنّ لبانات روحيّة ، أكثر منها ماديّة ، قد علق بها الانسان في هذا العصر ، وكما لو أن التاريخ الانساني قد تحوّل فلم يصبح حديث اللصوص، بل حديث الفكر، وكما لو أن القومية ، ذلك الصمام الذي حذق الأمراء ، ذوو الأطماع والشهوات ، كيف يستخدمونه قضاء لأغراضهم ، القومية بما فيها من غرور وبغض ؛ قد بليت وعلاها العفن

(1) From "Journey from Munich to Genoa, 18

(٢) مارنجو قرية على ثلاثة أميال جنوب شرق اليساندريا في ايطاليا ، واشتهرت بموقعة ١٤ من يونيه سنة ١٨٠٠ التي أتم بها نابليون هزيمة شمال ايطاليا ، وكان نابليون يرتدي عباءة رافقته في منفاه بجزيرة القديسة هيلانة . ولما مات كانت بجواره ، فسجي بها.

نرى في كل يوم إن بعض حماقات القومية يختفي إثر بعض ، وان كل مقوماتها الخشنة قد مضت تنحل ، وتغيب في شمولية الحضارة الأوربيّة . أصبحنا ولا نرى في أوربا من أمم بل نرى أحزاباً ، نكبر فيها أنها بالرغم من اختلاف اللون وتباين اللغة ، قد تعرف ، بل وقد تفهم ، بعضها بعضاً جدّ المعرفة . وكما إننا نعلم أن هنالك سياسة ماديّة تنتحيها الدول، نعرف أن هنالك سياسة روحانية تؤيدها الاحزاب .

بالرغم من أن السياسة الدولية قد تقلب أتفه المشاحنات التي تقع بين أقل الامم شأناً ، حرباً أوربية شاملة يشترك فيها الجميع بحماسة تضطرم بشدة أو بضعف ، بحسب ما يختص وراءها من مصالح ، فانه من المستحيل في هذا العصر أن تقع في طرف من أطراف العالم مشاحنة، مهما تفهت وذلت ، لا تنجلي فيها تضمينات روحية واسعة النطاق، تعبّر عنها تلك السياسة الحزبية ، ومن غير ان تضطر أشد الاحزاب تنافراً وبعداً عن التآلف ، الى الاشتراك فيها تأييداً أو نفياً .

بمقتضى هذه السياسة الحزبية ، التي أدعوها سياسة الرّوح ، لأن لباناتها أقل ماديّة وعُدَدُها في التنابذ ليست مصبوبة من معدن مصهور ، وبمقتضى انها تنظم الامم صفين متقابلين ، كما تفعل الدول السياسية تماماً ، أدرك أن هنالك معسكرين متشاحنين ، آخذين في النماء والنشوء ، يتحاربان ، بالكلمات ، ويتقاذفان بالنظرات . إن نداءات الحرب بينهما تختلف يوماً بعد يوم ، كما يختلف الذين يمثلونهما آونةً بعد أخرى . وكذلك الفوضى ، فانها لا تنقصهما . فالغالب ان أعظم الخلافات قد تزيد ولا تنقص ، بفضل الزعماء الذين يحرّكون تلك السياسة الرّوحية (١) .

ولكن ..... بالرغم من أن المعقول قد تخطيء ، فان القلوب قد تشعر بما تحتاج اليه ؟ وإن الزمن لكفيل بأداء واجبه الأعظم . فما هو ذلك الواجب الاسمى الذي يضطلع به زماننا . إنه التحرير !

لا تحرير أهل ارلاندا أو اليونان أو يهود فرنكفورت أو سود جزائر الهند الغربية أو غير هؤلاء من الأجيال المستبد بهم ، بل تحرير العالم كله ، وبخاصة أوربا التي استطاعت أن تحظى بنفوذ الأغلبيات ، وهي اليوم تمزق أصفادها لتفلت من براثن الأرستوقراطية الحمر .

إن بعض المرتدين عن دين الحرية من الفلاسفة ، قد يحاولون إن يحيكوا من المنطق أقسى القيود وأعتى الأصفاد ، ليبرهنوا على ان الملايين من الناس قد ولدوا ليكونوا دواب للحمل ، يستخدمها بضعة آلاف من الارستوقراطيين .

---

(١) يشير الى نشوء الأحزاب الاجتماعية التي رمت الى القضاء على تفاضل الطبقات .

إنهم لم يقنعونا ، أو يظهروا ، كما قال فولتير ، إن الأولين قد ولدوا وعلى ظهورهم السروج ، وان الآخرين قد ولدوا وفي أكعابهم المهاميز .

لكل عصر واجبه . ذلك الواجب الذي تتحرك الدنيا نحوه لانجازه . قد يمكن أن تكون الفوارق والامتيازات التي خلفها عصر الاقطاع في أوربا ضروزة فيما مضى من الزمن، وقد تقول انها كانت حالة محتومة اقتضتها ضرورات التقدم نحو الحضارة . ولكنها الآن تعرقل أوربا وتتركها تتعثر ، فتثير كل القلوب التي تقدس الحرية .

إن الفرنسيين، وهم أكثر الشعوب اجتماعية، كانوا بالضرورة أشد تأثراً بهذه الفوارق ، لما لحظوا فيها من عداء للمبدأ الاجتماعي . فسعوا الى تحقيق المساواة ، وعمدوا الى الاطاحة في غير عنف ، ولكن بثبات وعزم ، برؤوس أولئك الذين أرادوا أن يؤيدوا الفوارق بين الطبقات بكل ثمن ، وكانت ثورتهم أول اشارة للانسانية كي تهب إلى حرب التحرير .

فلنمجد أهل فرنسا !

لقد عنوا كل عناية بأعظم حاجتين من حاجات الجمعية البشرية : الغذاء الطيب ، والمساواة المدنية . لقد خطوا أعظم الخطوات في أمرين الطهي والحرية .

وإذا قدر لنا أن نجلس جميعاً مرحين متساوين في وليمة نضع فيها أساس التفاهم — وأي شيء أرضى للنفس من صحابة من الانداد حول مائدة ممتعة ؟ إذن فلنشرب نخب فرنسا اولاً .

غير أني اتوقع انه سوف يمر بعض الزمن قبل أن تقام هذه الوليمة ، وقبل ان يتم تحرير الناس جميعاً . ولكنها لا بد آتية لا ريب فيها . فاذا أتت فسوف نجلس الى مائدة واحدة ونحن متساوون وفي سلام . سنتحد حينذاك . واذا اتحدنا شرعنا نحارب غير ذلك من شرور الدنيا ، وربما شرعنا في النهاية نحارب الموت نفسه ، ولو ان نظامه في المساواة لا يرمينا بمسبة أنكى من تلك التي يرمينا بها مذهب تفاضل الطبقات، الذي يعتنقه الارستقراطيون.

قارئي بعد حين لا تضحك !

ان كل عصر يظن إن معركته التي يخوض غمارها هي أثمن المعارك جميعاً . ان هذه الحقيقة التي تنطوي عليها عقيدة العصر . انها تعيش وتموت فيه . وكذلك نحن . سوف نعيش ونموت في هذا الدين ، دين الحرية . ولقد تكون الحرية أخلق بهذا الاسم من ذلك الخيال الفارغ الذي يضفى عليه هذا الاسم

ليظهر لنا ان معركتنا القدسة التي نخوضها هي أثمن المعارك التي شهدتها الأرض . ذلك على الرغم من إن القياس التاريخي يوحي الينا بأن أحفادنا سوف ينظرون اليها ، نفس تلك النظرة الهازئة التي نلقيها على معارك أسلافنا الأولين ، الذين قاتلوا أشباه الذين نقاتلهم اليوم من السعالي والعمالقة والأغوال .

أهل الذمة

في العصر الفاطمي

من المبادىء التي اتبعها المعز لدين الله الفاطمي منذ فتحه مصر حرية العقيدة إذ جعلها حقًّا للمصريين جميعاً فكان لليهود دينهم وللنصارى دينهم ، وكان الناس في عهده وفي عهد من أتى بعده من الخلفاء الفاطميين ، متساوين تربطهم رابطة انسانية واحدة ، وتظلهم راية واحدة هي راية الوطن . ولا غرو فالدين الاسلامي ترك للذميين الحرية التامة في اتباع احكام دينهم وبذلك قضى على معظم الخلافات التي كثيراً ما فرّقت بين المسلمين وأهل الذمة

والخليفة الفاطمي انما يتبع في هذه الحرية سنة المسلمين منذ فتح عمرو بن العاص مصر ايام الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هـ (٦٤١ م) ويطبق الشريعة الغراء التي تقرّر المساواة التامة بين المسلمين وذوي العهد في كل شيء دنيوي والتي تجعل الود موصولاً بين أتباع موسى وعيسى ومحمد . فقد قال تعالى « لكم دينكم ولي دين »[1] . وقال ايضاً « لا اكراه في الدين »[2] . وقال تعالى « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »[3] وغيرها من الآيات الكريمة ، التي تدل دلالة واضحة على تسامح الدين الاسلامي مع الذميين ، وان الله خلق الانسان حرًّا مختاراً ان شاء آمن وان شاء كفر « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر »[4] ويقول النبي صلى الله عليه وسلم « من آذى يهوديًّا او نصرانيًّا كنت خصماً له يوم القيامة »[5] ويقول « استوصوا بالقبط خيراً ، فان لهم ذمّة ورحماً »[6]

(١) الآية ٦ من سورة الكافرين رقم ١٠٩ (٢) الآية ٢٥٦ من سورة البقرة رقم ٢

(٣) الآية ٩٩ من سورة « يونس » رقم ١٠ (٤) الآية ٢٨ من سورة الكهف رقم ١٨

(٥) السيوطي حسن المحاضرة ص ٦٧ ودائرة المعارف الاسلامية المجلد الثالث ص ١٠٧ نقلا عن البلاذري المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ص ١٦٢

(٦) أما الذمة فلأن الرسول عليه السلام تسرى منهم مارية القبطية التي أهداها اليه المقوقس فولدت له ولده ابراهيم في ذى الحجة سنة ٨ هـ. أما أختها « سيرين » فقد وهبها النبي عليه الصلاة والسلام الى « حسان ابن ثابت » . مات ابراهيم وعمره ١٦ شهراً وقيل ١٨ شهراً وصلى عليه الرسول ودفنه بالبقيع . أما الرحم فلأن هاجر ام اسماعيل بن ابراهيم من القبط . ولقد اتبع الفاطميون سنة نبيهم فتزوج مثلا العزيز بالله بنصرانية وعين أخويها بطريركين ملكيين أحدهما باسكندرية والآخر ببيت المقدس . الكندي فضائل مصر المخطوط ورقة ٣ ويحيى بن سعيد الانطاكي التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ١٤٤ — ١٤٥ وابن الاثير أسد الغابة جـ ١ ص ٣٨ — ٣٩

ويقول عليه الصلاة والسلام « وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم » ويرد على الذين قالوا كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله بقوله « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة » (١)

ونرى أن هذا الحديث موضوع وضعه الأقباط ، وهو يبين بكل جرأة الدور الذي يقوم به الكتاب النصارى في الدولة الاسلامية

ولقد أوجدت المعيشة المشتركة بين المسلمين وأهل الذمة منذ البداية نوعاً من التسامح ، وآثر أصحاب الأديان المختلفة أن يعيشوا متقاربين متفاهمين ، ولكن المعز لدين الله نماها هو وغيره من الخلفاء الفاطميين ، فكان أهل الذمة في زمنه أحراراً في تقاليدهم وعاداتهم لا يضيق عليهم إلا اذا دعت المصلحة العامة لهذا التضييق . فمثلاً أبطل المعز لدين الله مهرجان ليلة الغطاس إذ شاهد بنفسه مايحصل فيه ليلاً من المفاسد من قصره الذي كان يشرف على النيل إذ تجاهر الناس فيها بشرب الخمر وأفرطوا في اللهو والفساد . كذلك منع المعز لدين الله القبط من صب الماء على الناس في الطرقات يوم النوروز (أو النيروز) ، ومنع الناس من ايقاد النار في تلك الليلة لما يأتون من الافراطات . يؤيدنا في هذا الرأي ان هذا الخليفة كان يحتفل بمواسم النصارى فيضرب خمسمائة دينار ذهباً (عشرة آلاف خروبة)، ويفرقها على جميع أرباب الرسوم يوم خميس العهد الذي يسميه العامة « خميس العدس » والذي فيه يتهادى النصارى قبل الفصح بثلاثة أيام ، كما كان من رسوم الدولة ان تفرق المتارد التي بها السمك والزلابية والبوري في عيد الميلاد المسيحي على أرباب الدولة من اصحاب السيوف والأقلام ، كما كانت تفرق الدولة النارنج والليمون والقصب والسمك وغيرها برسوم مقررة لكل واحد من ارباب السيوف والأقلام في يوم الغطاس (١١ طوبة) (٢)

إنهم جميعاً في الانسانية اخوان وأعوان . لذلك رأى الخليفة الفاطمي ، كما رأى المسلمون من قبله ، ان العقيدة يجب أن تترك امرها لعلام الغيوب وحده ، لأن النبي عليه السلام يقول « اتقوا دعوة المظلوم وان كان كافراً فليس بينها وبين الله حجاب » ويقول ايضاً « من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته او انتقصه او أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه ، فأنا حجيجه يوم القيامة » (٣)

ومن الأمور التي انزعج لها المسلمون أيام الدولة الفاطمية كثرة عدد العمال والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الاسلامية ، حتى كان النصارى واليهود هم الذين يحكمون المسلمين

(١) السيوطي حسن المحاضرة ص ٤ و ٩ (٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٤٦ والمقريزي الخطط ج ٢ ص ٣٩١ — ٣٩٢ وابن اياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٦ و ٥٩ (٣) أبو يوسف الخراج ص ١٤٥

في بلاد الاسلام . نعم إن الشكوى من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين وأموالهم شكوى قديمة ، ولكن هذه السياسة وان اختلفت ليناً وشدة ورأفة وعنفاً على توالي الأيام ، فانها مكنت أهل الذّمة من الحصول على المناصب الدسمة في الدولة ، فكان منهم الوزراء وأرباب المناصب العالية وبذلك جمعوا ثروات طائلة واصبحوا ذوي سلطان ونفوذ .
وتحدّثنا المصادر التاريخية عن كثير من أهل الذمة تولوا أرفع المناصب في الدولة الفاطمية وعوملوا برفق وعناية من خلفائهم فتمكنوا من مرافق الدولة وعظم نفوذهم وسلطانهم فكثر لديهم المال . فمثلاً كان طبيب المعز لدين الله قبل ولايته للعهد « اسحق بن سليمان اليهودي » طبيب المنصور والد المعز، ثم بعد موت والده اتخذ « موسى بن العازار » طبيباً له [1] . كذلك استوزر المعز من اهل الذمة « ابا الفرج يعقوب بن كلس » [2] الذي كان يهوديًا وأسلم فكان متفوقاً في المالية ماهراً في الادارة ، وضع نظم الادارة الفاطمية بمصر وانتعشت البلاد في عهده وكان الرخاء وافراً في وادي النيل . ولما مرض ابن كلس مرض الموت ركب العزيز بالله اليه وعاده وقال له « وددْت انك تباع فأبتاعك بملكي وولدي » ولما توفى سنة ٣٨٠ هـ حضر الخليفة جنازته وصلى عليه وألحده في قبره وكان دفنه في قبة بدار الخليفة كان قد بناها لنفسه [3] ولا ادل على ثروته من انها احتوت من الجواهر الثمينة

....

(١) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٤٥ والقلقشندي صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٩٦ والمقريزي اتعاظ الحنفا ص ٥٧

(٢) Lane Poole a History of Eygpt in the Middle Ages p. 120 —Margolouth Cairo, p. 41-42—Mann, The J ws, p. 17

كان أبو الفرج يعقوب بن كلس يوسف الملقب بابن كلس (٣١٨ — ٣٨٠ هـ و ٩٣٠ — ٩٩١ م) يهودياً من أهل بغداد فيه فطنة وذكاء خرج الى الشام بالرملة في شبابه واشتغل بها في التجارة وأثقلته ديون عجز عن ادائها فهرب منها بعد مدة الى مصر فرأى منه كافور الاخشيدي فطنة سياسية ومعرفة بتصريف الشؤون فقال « لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً » فأسلم سنة ٣٥٠ وقيل سنة ٣٥٦ هـ على يد كافور ولما مات كافور قبض عليه الوزير « جعفر بن الفرات » وزجه في السجن وصادر أمواله لانه كان يحسده ويعاديه فما زال يسعى ويبذل الاموال حتى أفرج عنه وفر من مصر سنة ٣٥٧ هـ (٩٦٨ م) الى المغرب. ودعا المعز الى فتح مصر بعد أن وصف له غناها واضطراب أحوالها وضعفها . ولما دخل المعز مصر ليتملكها دخل معه وترقى ابن كلس حتى وصل عنده الى منصب الوساطة وأصبح حجة في العلوم الاسلامية بفضل ذكائه وانكبابه على العمل . ولقد ألف ابن كلس كتاباً في الفقه على مذهب الفاطميين وهو المعروف بالرسالة الوزيرية نسبة الى مؤلفها الوزير يجلس بنفسه في الناس عامتهم وخاصتهم لقراءتها وكان أول من فكر في اتخاذ الجامع الازهر معهداً للدراسة المنتظمة . ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٤٠ و ج ٣ ص ٣٩١ — ٣٩٦ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٢٠ و ٢١ و ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ و ٤٢٠ وابو المحاسن النجوم الزاهرة ج ١ ص ٥١ و ج ٤ ص ١٥٨ وابن طاهر أخبار الدول المنقطعة ورقة ٤٧ — ٤٨ و ٥١ — ٥٢

(٣) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٤٩ وابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦

ما قدر قيمته بمائة الف دينار ، وقيل ٤٠٠ الف دينار [1] . وكان اقطاعه من العزيز بالله الف دينار وله اربعة آلاف غلام من العبيد والمماليك [2] ولما مات ابن كلس رد العزيز بالله النظر في الأموال الى عيسى بن نسطورس المسيحي [3] ثم رفعه الى منصب الوساطة .

وكان مَنَشَّا بن ابراهيم القزّاز اليهودي والياً على الشام ايام الخليفة العزيز بالله ، وكان طبيب هذا الخليفة وطبيب والده الحاكم بأمر الله « ابو الفتح سهل بن مُقَشّر النصراني المصري . ولما مرض الحاكم وداواه ابن مقشّر اعطاه عشرة آلاف دينار [4]

ورقي « فهد بن ابراهيم » النصراني الى منصب الوزارة للحاكم بأمر الله بعد ان كان كاتباً ولقب بالرئيس وخلع عليه الخلع وحُمل على بغلة وقيد بين يديه بغلة اخرى وحمل بين يديه عشرون ثوباً .

كذلك تقلد الوزارة « منصور بن عبدون » النصراني سنة ٤٠٠ ه كما تقلدها زُرعه ابن نسطورس المتوفى سنة ٤٠٣ ه وهو اخو عيسى بن نسطورس السالف الذكر ايام الخليفة الحاكم بأمر الله .

وفي ايام الخليفة المستنصر تولى الوزارة « ابو سعد منصور بن ابي اليمن سورس بن مكرواه بن زنبور النصراني الذي كان نصرانيًّا وأسلم ، كذلك تولى ابو سعد التستري وكان يهوديًّا فأسلم نظارة أم الخليفة المستنصر الخاصة .

وكان ابو نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب وزيراً للخليفة الآمر بأحكام الله وقد امر هذا الخليفة ان يعمل لأبي نجاح بتنيس ودمياط ملابس مخصوصة له من الصوف الأبيض المنسوج بالذهب ليلبسها ومن فوقها العفافير الديباج وسمح له ان يركب الحمير بسروج محلاة بالذهب والفضة وكان يُشم ريحه من مسافة بعيدة لتطيبه بالمسك يوميًّا [5] ؟ كما تقلد الأحزم بن ابي زكريا أمر الدواوين أيام الخليفة الحافظ كذلك عهد هذا الخليفة الى بهرام الأرمني النصراني سنة ٥٢٩ ه بالوزارة وعهد الى اخيه المعروف بالباساك بولاية قوص . ولما مات بهرام سنة ٥٣٥ ه حزن الحافظ لدين الله عليه حزناً شديداً وأخرجه عند صلاة الظهر في تابوت

---

(١) ابن منجب الصيرفي الاشارة الى من نال الوزارة ص ٢٣ (٢) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٣ ص ٣٩٥ والعيني عقد الجمان القسم الثالث ج ١٩ ورقة ٤١٩ — ٤٢٠ و Lane Poole, A, History of Egypt. p. 119 (٣) ابن خلدون العبر ج ٤ ص ٥٥ والسيوطي ج ٢ ص ١١٦

(٤) ابن العبري مختصر تاريخ الدولة (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ والاستاذ عنان الحاكم ص ٣٧ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٥ والدكتور حسن ابرهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢٠٥ نقلا عن يحيى بن سعيد ص ١٨٥ — ١٨٦ (٥) ابن طاهر أخبار الدول المنقطعة المخطوط ورقة ٥١ — ٥٢ و٧٥ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٦ و ٧١ والنويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ والعيني عقد الجمان المخطوط المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠

عليه الديباج وحوله النصارى يبخرون باللبان والسندروس والعود وخرج الناس كلهم مشاة بحيث لم يتأخر منهم احد من الاعيان . وخرج الخليفة راكباً بغلة خلفه والقسس يقرأون الانجيل ولقد بكى الخليفة بكاءً شديداً عليه عندما وضع في قبره[1] ولا شك ان المسلمين كانوا يكرهون ان يكون احد من اهل الذمة في منصب رفيع كالوزارة ، لا سيما وان من رسوم هذا المنصب ان يصعد الوزير مع الامام المنبر في الأعياد ليزرّر عليه المَزَرّة (الستارة) الحاجبة له عن الرعية ، وغير ذلك من الأمور التي تتصل بعوائد المسلمين الدينية مما اضطر الخليفة ان يضع تقليداً جديداً ، يتعهد الى القاضي في القيام بمثل هذه المهامّ عندما يكون الوزير من اهل الذمة [2] غير ان اهل الذمة عندما ولاهم الخلفاء الفاطميون اكبر المناصب في الدولة أظهروا محاباة ظاهرة لبني ملّتهم فعينوهم في المناصب الحكومية ومنعوا المسلمين اصحاب الاغلبية العظمى في البلاد من ان يستخدموا ، فكانوا بذلك العاملين على بث شعور الكراهية والبغض بينهم وبين المسلمين فتذمر المسلمون وقاموا بالاحتجاج عند الخليفة بين الفينة والفينة فكان ذلك سبباً في اعتزالهم واقصائهم عن مناصب النفوذ ، كذلك سخط المسلمون على أهل الذمة في العصر الفاطمي لأنهم تمكنوا من جمع الثروات ووقفوا قسماً كبيراً من أراضي مصر على الكنائس والأديرة ، ولأنهم تسلطوا على عقول الخلفاء .

فاذا قسا خليفة فاطمي على أحد من أهل الذمة فانما كان يقسو في اعتقادنا تحت ضغط الرأي العام الاسلامي ، الذي كثيراً ما آلمه محاباة نفر من أهل الذمة وايثاره بكل النفوذ والسلطان وحرمان المسلمين من حقهم الطبيعي في تقلد الوظائف العامة ومن هنا نشأ القبض على بعض أهل الذمة وحبسهم وعزلهم ومصادرة أموالهم وقتلهم أحياناً .

تحدّثنا المصادر التاريخية انه وقفت امرأة في طريق الخليفة العزيز بالله (وقيل صورة مصنوعة على هيئة امرأة) بقصة (شكاية) فيها « يا مولاي بالذي أعزّ النصارى بعيسى ابن نسطورس واليهود بمنشا بن ابراهيم القزاز وأذل المسلمين بك ، ألا نظرت في أمري »[3]

لأن عيسى مال الى النصارى وقلدهم الاعمال والدواوين ومنع المسلمين منها وسلك مسلكه

---

(١) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٨٤ والداودار زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة المخطوط ورقة ١٧٥ — ١٧٦ والعيني عقد الجمان المخطوط ورقة ٤١٩ — ٤٢١ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٥٨ وانظر Lane-Poole, A. History of Eyg]titpn he Middle Ages p.121

(٢) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٧٩ (٣) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وأبو الفدا المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ١٣١ وخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١١١ — ١١٢ والعيني عقد الجمان ورقة ٤٢١ — ٤٢٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

منفّـا بالشام فرفع اليهود واستخدمهم وبذلك استولى اليهود والنصـارى على الدولة واعتزوا بهما وآذوا المسلمين

وسواء أصحت هذه الرواية ام كانت مختلقة لأنها رويت لأكثر من خليفة فنسبت الى العزيز بالله احياناً (١) والى الحاكم بأمر الله احياناً اخرى (٢) فهي لدينا ذات مغزى هي ان نفوذ اهل الذمة طغى واستمانتهم ببني جنسهم ازدادت حتى تكوّن في مصر رأي عام يقول بالحد من سلطانهم وعدم اصطناعهم لبني جنسهم

فمثلاً عيسى بن نسطورس حابى أهل ملته وعينهم في الوظائف الهامة بعد ان عزل الكتبة وجباة الضرائب من المسلمين . ولما عوتب في ذلك قال « إن شريعتنـا متقدمة ، والدولة كانت لنا ثم صارت اليكم ، فجرتم علينا بالجزية والذلة فمتى كان منكم الينا احسان حتى تطالبونا بمثله ان مانعناكم قاتلتمونا ، وان سالمناكم أهنتمونا إذا وجدنا لكم فرصة ، فاذا تتوقعون أن نصنع بكم » (٣) ؟

لذلك لما عاد ابن نسطورس الى منصبه اشترط عليه استخدام المسلمين (٤) أما منشّا ابن ابراهيم القزّار فقد اتبع نفس سياسة ابن نسطورس ببلاد الشام بالنسبة لأهل ملته اليهود فملأ الوظائف بهم وخفّض الضرائب المفروضة عليهم (٥) أما أبو سعد التّستّري اليهودي فقد تعسف بالمسلمين وحابى أهل ملته حتى كان المسلمون يحلفون بهذه العبارة « وحق النعمة على بني اسرائيل » وهذا ما حدا بالشاعر أن يقول في هذا اليهودي :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر اني نصحت لكم تهوّدوا قد تهوّد الفلك (٦)

ويقول الدكتور حسن ابراهيم حسن ان هـذا الشاعر يحتمل أن يكون الرضي بن البواب (٧) وهو شاعر معاصر .

وما حدا بالشاعر الحسن بن بشر الدمشقي أن يقول :

تنصرْ فالتنصر دينُ حقّ عليه زماننا هـذا يدلُّ

(١) ابن طاهر أخبار الدول المتقطعة المخطوط ورقة ٥٢ و ٥٣ (٢) الذهبي تاريخ الاسلام المخطوط ج ٣ ورقة ٢٨٧ (٣) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٠ (٤) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٤٩
(٥) Mann, The jews in Egypt & Palestine under the Fatimid Caliphs pp. 19 — 20
(٦) ابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ١ و ٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٩ والسيوطي حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٦ (٧) الدكتور حسن ابراهيم حسن الفاطميون في مصر ص ٢١١

وقل بثلاثة عزُّوا وجلّوا وعطّل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أبٌ وهذا عزيز ابن روح القدس فضل

أما ابو نجاح بن قنا النصراني الراهب فانه لم يبق أحد من المسلمين أيام الخليفة الآمر إلاّ ناله منه مكروه من ضرب أو نهب أموال (١) .

ولما قرّب الخليفة الحافظ « الاحزم بن أبي زكريا » النصراني اليه وأولاه أمر الدواوين أعاد لكتاب النصارى تجبرهم وركبوا البغلات الرائعة والخيول المسوّمة بالسروج المحلاة باللجم الثقيلة وضايقوا المسلمين في أرزاقهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية واتخذوا العبيد والمماليك والجواري من المسلمين والمسلمات وفي ذلك يقول ابن الخلال :

اذا حكم النصارى في الفروج وغالوا بالبغال وبالسروج
وذلت دولة الاسلام طرّاً وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك ان عزمت على الخروج (٢)

وعند ما تولى بهرام الارمني الوزارة سنة ٥٢٩ هـ أيام الخليفة الحافظ وكان بهرام نصرانيًّا فولى الارمن ومكنهم من إهانة المسلمين ، فلما اشتد ضرره بالمسلمين ، جمعهم رضوان بن ولخش لمحاربته (٣)

كذلك أمر الخليفة الحافظ بكف أيدي النصارى عند ما انتقم الكاتب النصراني من الموفق بن الخلال « ضامن العدية » وجعله يدفع ظلماً خراج أرض الاجام مع انه ليس له أرض زراعية بالناحية (٤) ويقول أوليري O'Leary (٥) ان الفاطميين بالغوا في استخدام أهل الذمة في المناصب المدنية أكثر مما جرت به العادة من قبل .

ولا غرو فقد اشتهر أهل الذمة ولا سيما الاقباط بدرايتهم في الأعمال الكتابية والحسابية فكانوا يستخدمون في فروع الادارات المختلفة واحتكروا الوظائف المالية في الدواوين الفاطمية لمهارتهم في الحساب حتى قال ابن الحاج (٦)

لعن النصارى واليهود فانهم بلغوا بمكرهمو بنا الآمال
خرجوا اطباء وحساباً لكي يتقسموا الارواح والاموال

ونرى أن الحركات التي يقصد بها مقاومة أهل الذمة في العصر الفاطمي كانت موجهة

---

(١) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٨٧ (٢) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٢٥٠ (٣) العيني عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٩٢ وعلي مبارك باشا الخطط التوفيقية ج ١ ص ١٧ (٤) المقريزي الخطط ج ٢ ص ٢٤٩

(٥) O'Leary de Lacy, a short History of the Fatimid Khalifate p.114

(٦) ابن الحاج المدخل ج ٤ ص ١١٥

إلى محاربة تسلطهم على المسلمين ، إذ إن سيطرة الذمي على المسلم أمر غير مألوف للمسلمين وكان يحدث من ذلك القليل من الشاغبات بين المسلمين وأهل الذمة نتيجة تجبر المتصرفين منهم وايذائهم للمسلمين. وهذا ما دعى الخليفة الفاطمي أيضاً إن يمنعهم من الاحتفال ببعض أعيادهم وبتنفيذ الأوامر التي تقضي بشد الزنار ولبس الغيار وان لا يظهر يهودي بغير غيار (١) وكما لبس اليهود البراطيل الطويلة لبس النصارى البرانس فتعقبهم الجمهور وآذاهم وأغفل العهد أو الميثاق الذي أعطي لهم من قديم الزمن فاتخذ الغوغاء سوء معاملتهم للمسلمين ذريعة لنهبهم وسلبهم ولقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٤٠٣ هـ بهدم كنائسهم بالديار المصرية (٢) فهدمت عدة كنائس وأديرة .

كما تحرش المسلمون في الطرقات بكل من يُرى من أهل الذمة بغير الزي الذي رسم له أن يظهر به . هذا الشعور العدائي . في نفوس المسلمين من ايثار أهل الذمة عليهم كان يزيد ويعظم كلما ولي رجل من أهل الذمة منصباً له جاه وسلطان . ومع ذلك فقد تمتع اليهود والنصارى (٣) بصفة عامة بحريتهم الدينية في أغلب العصر الفاطمي وشجع الخلفاء اقامة الكنائس والبيع والاديار (٤)

لقد لقي أهل الذمة من الخلفاء الفاطميين كل مودة وعطف ورعاية في الحياة وبعد الموت ، وكما أستعين بأهل الذمة في الدواوين كذلك أستعين بهم في الأعمال الأخرى فمثلا كان منهم أطباء الخليفة وكان لهم منزلة سامية عنده

(١) المقريزي اتعاظ الحنفا ص ٨٧ ففي سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بأمر الله مثلا أن تعمل في أعناق النصارى الصلبان بحيث تكون ظاهرة على صدورهم وأفرد الحاكم بأمر الله لليهود حارة زويلة ليسكنوها ولا يخالطوا المسلمين

وفي سنة ٤٨٤ هـ لما استطال أهل الذمة على المسلمين ألزمهم الخليفة المستنصر بلبس الغيار (علامة أهل الذمة) والزنانير وتعليق الدرهم الرصاص في أعناقهم مكتوب عليها ذمي وفي أعناق نسائهم في الحمامات ليعرفن بها وأن يلبسن الخفاف فرداً أسود وفرداً أحمر وخلخالا في أرجلهن فذلوا وقمعوا . الذهبي: تاريخ الاسلام ج ٣ ص ٢٥٣ و ٢٧٢ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ — ١٧٩ و ج ٥ ص ١٣١ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٥١ — ٥٣ وذخيرة الاعلام المخطوط ورقة ١٦

Mann, The jews in Egypt p. 33 & Betler, the Arab conquest of Egypt p. 448

(٢) النويري نهاية الارب ج ٢٦ ورقة ٥٧ (٣) زاد بلاط الخليفة العزيز بالله في إكرام النصارى وكان للخليفة أصهار منهم Lane Poole, the Story of Cairo p. 121

وانظر Lane Poole, A history of Egypt in the Middle Ages p. 169

(٤) الاستاذ عنان الحاكم بأمر الله نقلا عن أبي صالح الارمني ص ٣٩ أ و ٤١ ب

وانظر Arnold, the Preaching of Islam chapter 3 & Lane Poole, the Story of Cairo p, 121

نقل الدم وشفاء الامراض

وضح لرجال الطب في العهد الاخير ان نقل الدم يكون علاجاً جديداً يشفي الامراض النوعية ، أي التي يسببها جراثيم معروفة او فيروسات (مترشحات) غير مرئية بالمجاهر . فانه من المعروف ان البلاسما ، وهي الجزء المائع من الدم ، قد انقذت من الموت آلافاً من الجنود بأن حصنتهم من الصدمات المرضية المميتة . كذلك نعرف ان هذه البلاسما تحتوي على قدر من البروتينات المعقدة التركيب أحدها المعروف باسم (غما جلوبولين) Gamma globulin الذي يحتوي على الاجسام المضادة Antibsdeis التي تقي من الامراض او تقاومها وقد تشفيها . وتوجد هذه الاجسام المضادة في الجلوبولين بنسبة ٢٥ ضعفاً أزيد من كثافة الدم وحقن الجلوبولين المحتوي على هذه الاجسام في افراد معرضين للاصابة بمرض اوم مرضى به بالفعل ، اما ان يمنع الاصابة ، واما ان يحول سير المرض .

وتستعمل الآن مادة (غما جلوبولين) في اتقاء مرض الحصبة ، وهو كذلك ذو أثر كبير في حالات اليرقان المعدي وهو مرض كثير الانتشار بين الجنود ، وربما كان ذا أثر في مقاومة أمراض أخرى فيروسية لم يعرف بعد شيء من طبائعها .

ولا يخامرنا شك في أنه ان صدر مرسوم بشأن أهل الذمة فإنما كان صدوره لاعادة المستبد منهم الى حظيرة القانون ولم يكن ابداً نتيجة تعصب ديني فأفرج مثلاً الخليفة العزيز بالله عن ابن نسطورس بتأثير ابنته « سيدة الملك » وزوجته النصرانية ، بعد إن اشترط عليه ألا يحابي أهل ملته وان يستخدم المسلمين في الدواوين فلما لم يرتدع أهل الذمة شنق العزيز بالله منشا على أبواب دمشق ، كما ضرب الحاكم بأمر الله عنق ابن نسطورس لما استجار الناس به من سوء فعله (١)

كذلك لما نال الناس من أبي نجاح بن قنا النصراني المعروف بالراهب من الجور والظلم واستباحه الأموال الشيء الكثير قتل ، ولما أساء بهرام النصراني السيرة سجنه الحافظ ثم أطلقه فترهب (٢)

وعلى ذلك فلم يفرق الخليفة الفاطمي في دولته بين المسلم والنصراني واليهودي بل كان عهده عهد سلام ووئام بين رعاياه جميعاً مسلمين وغير مسلمين وبذلك تمتع أهل الذمة براحة البال من حيث عقائدهم الدينية .

عطية مصطفى مشرفة

(١) ابن الاثير الكامل ج ٩ ص ٤٣ وابن ميسر أخبار مصر ج ٢ ص ٥٤ و ٨١ والعيني عقد الجمان المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٢٠ وابن إياس بدائع الزهور ج ١ ص ٤٨ — ٤٩

(٢) العيني المجلد الاول ج ١٨ ورقة ٩١ والمجلد الثالث ج ١٩ ورقة ٤٢٢ و ٤٦٧ وأبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٥ — ١١٦.



القلب وأمراضه[1]

١ — كيف نتقي أمراض القلب

للوقاية من أمراض القلب لا بدَّ من ملاحظة النقاط التالية :

١ — ﴿ الطفولية الأولى ﴾ : العناية بصحة القلب يجب أن تبدأ منذ الأيام الأولى من الحياة وذلك بإزالة جميع الأسبـاب التي تنشأ من اضطرابات الجهـاز الهضمي أو اضطرابات الجهاز العصبي . فأنيميا الأطفال مثلاً التي تتسبب من رداءة التغذية العامة نتيجـة حدوث التهاب معوي ، لها بلا ريب أسوأ التأثير على تغذية القلب ونموّه وتبدو نتائجها السيئة هذه حتى في السنين الأولى من حياة الطفل . أما إذا حرصنا بالعكس على حُسن تغذية هذا الطفل وكافحنا أسباب الاختلالات الهضمية التي تنتابه نجعلهُ في الوقت نفسه في مأمن من الاصابة بأمراض القلب التي ستعتريه فيما إذا استمرت عندهُ تلك الاضطرابات .

ولا ينبغي أن يبرح عن الذهن أيضاً ما لمراعاة الشروط الصحيـة إبان إنتشار الامراض المعدية التي تصيب الأطفال خاصة وضرورة التقيد بها — وذلك بعزل المصابين منهم ، وتطهير الأماكن واستعمال طرق التعقيم المعروفة . فمكافحة القرمزية أو الخنّـاق مثلاً تقي بلا شك عدداً عظيماً من الأطفال من الاصابة بمرض القلب إن لم نقل من الموت أحيـاناً ، والخناق نفسه تعقبه حالة من ضعف القلب تدوم مدة طويلة من الزمن ، وقد يصاب هذا العضو نفسه بالشلل . ومع ذلك فشفاء المصاب ممكن غالباً بفضل العناية اللازمة والعلاج والتدابير الفعالة في مكافحة الأمراض المعدية .

٢ — ﴿ الرثية المفصلية ﴾ : هذا الداء الوبيل الفتّـاك يُـعدّ من أفتك العلل المـكروبية

(١) تتمة البحث المنشور في مقتطف يونيو ١٩٤٥

فهو يسبب كثيراً من أمراض القلب وعلى الخصوص التهاب الصمامات ، ومما يؤسف له إننا لم نتقدم حتى اليوم التقدم الكافي في مكافحته واستئصال شأفته . فألوف من المصابين يقضون نحبهم سنويّاً نتيجة زحفه القاتل وغاراته المميتة . وألوف غيرهم يبقون تحت رحمته متعلقين بخيوط واهية من خيوط الحياة بعد أن أتلف صمامات قلوبهم تلفاً بليغاً وترك فيها ندوباً مختلفة . ولا بد على كل حال من الاستمرار في مضاعفة الجهود لدرء أخطاره والقضاء عليه قضاءً مبرماً بفضل طرق العلاج الحديثة ولا سيما باستعمال البنسلين والهيبارين اللذان ثبتت الآن على ما يظهر فوائدهما العلمية .

٣ — ﴿ عمل القلب ﴾ : ومن أهم الأمور لسلامة القلب وانتظام عمله وبقائه بحالة صحية جيدة هو حفظ الموازنة بين العمل والراحة . وعدم ارهاقه بالعمل المضني فوق طاقته . فالأشخاص الذين يضطرون بحكم مهنتهم أن يبقوا مدة طويلة وقوفاً أو جالسين ، فضلاً عن أنهم يكونوا معرّضين للاصابة بالدوالي أو البواسير بسبب اضطرابات الدورة الدموية في الأطراف السفلى أو البطن أو الشرج ، يغدو قلبهم في أغلب الأحيان عاجزاً عن القيام بأي مجهود عضلي يزيد عن الحد اللازم . فاذا ما أراد ذوو الحياة الجلوسية مثلاً المشي بسرعة أو الذهاب إلى إحدى النزهات الخلوية الطويلة ، أو تسلق الجبال الخ فليس في النادر أن يصابوا بعوارض أو اضطرابات مزعجة من ناحية القلب كالخفقان وضيق الصدر وعسر التنفس نتيجة ضعف القلب وقلة الرياضة البدنية أو عدمها . ومتى كان ذلك أصبح متعذراً على القلب نفسه القيام بالعمل المطلوب منه لاتمام الدورة الدموية خلال المجهود العضلي . ولا مراء في أن الأشخاص الذين يمارسون الرياضة البدنية بانتظام وبدون مشقة أو اجهاد ، ولاسيما في الهواء الطلق ، تكون قلوبهم أشد احتمالاً وأكثر مقاومة من قلوب الأشخاص القعودين أو ذوي الحياة الجلوسية . وبهذا الصدد نقول ان أفضل أنواع الرياضة هو ما ينبه القلب والرئتين كالركض والمشي بسرعة والمطاردة والوثب وركوب الخيل والانزلاق على الجليد ، فهي تحرك العضلات (عضلات الزراعين والفخذين والظهر) وتلائم الحالة الصحية أكثر من ضروب الحركات الاخرى لأن جميع أعضاء البنية تتحرك به ولاسيما أعضاء التجويف الصدري . وهذه كلها ليست لمجرد التسلية واللهو وقتل الوقت بل هي ضرورية لصحة الجسم وحسن سريان الدم وتقوية العضلات وانتظام الهضم وتهدئة الأعصاب وبقية الأعضاء للقيام بعملها خير قيام. ولكي تأتي هذه فعلاً بالفائدة المنشودة يجب أن تمارس في الحقول والأرياف ان أمكن ذلك وليس في المدن الكبرى . وكم من الأشخاص يقضون العام بكامله دون أن تتاح لهم فرصة لتمرين عضلاتهم بالأعمال اليدوية المفيدة المسلية مثل حرث الارض أو زرعها ، أو

أعمال النجارة اليدوية الخفيفة ، أو رفع الأثقال الخ . وبديهي انه لا يمكننا أن نقابل هذه الأعمال اليدوية بالتي يقوم بها العمال عادةً في المعامل والمصانع بقرب الآلات في أماكن محصورة قليلة الهواء . وقد تبين بالاستقراء ان عمل اليدين مما لا بدّ منهُ لتقوية الرئتين وان الذين يعيشون عيشة القعود تكون عضلهم ضعيفة وعظامهم موثقة التركيب وخصوصاً عظام فقرات الظهر والالواح والضلوع فينحني الظهر ويهبط الكتفان وبسبب ذلك تضعف جميع الوظائف الحيوية في الجسم ، ويزداد هذا الضعف حين يتناول الجهاز العصبي . ويا حبذا لو تأسست في المدن الكبرى شركات أو نوادي خاصة بالتمارين العضلية المنظمة في الهواء الطلق التي تعود على الانسان بالفوائد الصحية العميمة ، ولاسيما للقلب ، فيغدو هذا أكثر قوة ومناعة . ومهما تكن مشاغل الانسان كثيرة في المدن ففي استطاعته الرحيل عنها مدة من الصيف على الأقل للتمتع بالهواء النقي وممارسة الرياضات المنوه عنها . أما اذا تعذر ذلك فيجب أن تخصص ساعة كل يوم ينصرف فيها الانسان الى الرياضة ليبقى محتفظاً بصحته ونشاطه .

أما من حيث ركوب الدراجات وصعود الجبال والسباحة والتجذيف والفروسية فلا تقل أيضاً فوائدها الصحية للجسم وللقلب أيضاً ما دامت تمارس باعتدال وضمن حدود معقولة ، وبعكس ذلك فانها تأتي بأسوأ النتائج على هذا العضو . فكثيرون من الشبان في عصرنا هذا مصابون بضعف في قلوبهم وقليلو المقاومة البدنية ، نراهم يجازفون ببعض المسابقات الشاقة مثل سباق الدراجات وتسلق الجبال ورفع الأثقال وغير ذلك دون أن يأبهوا لمبلغ الضرر الذي ينتابهم من ناحية القلب . ولذلك يجدر بهؤلاء الشبان عند قيامهم بمثل هذه التمارين العنيفة أن يتنبهوا غاية التنبه الى حالة قلبهم وعدم الاستمرار على متابعة هذه الرياضات عند الشعور بضيق الصدر أو الخفقان أو عسر التنفس الدالة كلها على عجز القلب ومجهوداته .

٤ — ﴿ انتخاب المهنة ﴾ لا مندوحة عن درس حالة الطفل أو الشاب العصبية لمعرفة ما اذا كان يوجد عنده استعداد لبعض الحالات العصبية بغية انتقاء المهنة التي تلائم حالته الصحية حرصاً على صحة قلبه . فليس أضر من اعطاء شاب منهوك القوى محطم الأعصاب او مصاب بفقر الدم مثلاً مهنة لا قدرة لجسمه او لقلبه على احتمالها او القيام بأعبائها . ومن الضروري ان يأخذ هؤلاء المتعبين المنهوكين القسط اللازم والكافي من النوم والراحة ليلاً ، وان تنظم طريقة خاصة معقولة لمعيشتهم من جهة الأكل والشرب والنوم والراحة والعمل لئلاّ يسيروا من سيء الى أسوأ .

٢ – علاج المصابين بأمراض القلب

هل يمكن شفاء هذه الأمراض وإلى أي حد يا ترى ؟ الجواب نعم يمكن ذلك الى حدّ ما وذلك بمساعدة المريض على التخلص كليًّا او جزئيًّا من العوارض والأسباب التي تنتابه ، وجعل قلبه أحسن حالاً من ذي قبل . فالمصاب بالقلاب (مرض القلب) كغيره من المصابين بالأمراض الأخرى ، يتوقف شفاؤه في غالب الأحيان على كيفية العلاج وعلى العوامل والظروف التي تحيط به ، والبيئة التي يعيش فيها ، وعما اذا كان يعطي لقلبه القسط اللازم من الراحة او بالعكس . فلا بد والحالة هذه من تنظيم معيشته حسبما تتطلبه حالته الصحية الراهنة ، وبعبارة أخرى «يجب ان يكون هو طبيب نفسه» . ففي كثير من الاحايين قد أدَّت طرق العلاج وحسن المداواة الى نتائج باهرة في ظروف كان أمل الشفاء أو التحسن ميؤوساً منهما . والغرض الاساسي الذي يجب أن نرمي اليه هو العمل على تقوية القلب ما أمكن بالوسائل اللازمة نسبةً الى حالة المصاب وإلى طراز معيشته وبذلك يمكنه ان يسترجع شيئاً فشيئاً قوته ونشاطه والقيام بعمله على أحسن حال ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى يجب ان نقول هنا ان كثيراً من أمراض القلب يكون مزمناً ، وأخرى يكون سيرها سريعاً كما هي الحالة مثلاً في التهاب الشغاف (باطن القلب) او في حالة التهاب التامور (غشاء القلب الخارجي) كما اننا نكون في حالات اخرى ازاء اضطرابات قد مضى على وجودها زمن طويل وتبقى ملازمة المريض الى النهاية . ولا بد كذلك من القول أن معظم التغيرات التي تطرأ على وظائف القلب ليست في الواقع الاّ نتيجة حدوث التهاب في الصمامات وفي جدران الشرايين والأوردة التي أخذت بطبيعتها شكلاً نهائيًّا بعد ان تركت ندوباً فيها .

ولنلق الآن نظرة عاجلة على بعض الاضطرابات القلبية وعما يجب اتخاذه من التدابير والوسائط الصحية للاسترشاد والعمل بها .

﴿ الخفقان ﴾ هو عبارة عن نبضات قلب سريعة متواترة وأشد قوة مما في الحالة الطبيعية وهو يأتي على هيئة نوب تدوم من بضع دقائق الى عدة ساعات ، والمريض ليس فقط يشعر بها بل انه يتألم ايضاً منها . ويصاحب هذه الحالة ضيق في التنفس وعرق وبرودة الاطراف وأحياناً الغثيان أي الميل الى القيء او الاغماء . اسبابه عديدة أخصها التأثرات القوية العصبية والخوف والانفعالات النفسانية والافراط في الأشغال العقلية ، او السهر الطويل ، او الاكثار من شرب الشاي والقهوة والتدخين والمشروبات الروحية ، والهموم والمشاغل الفكرية . وقد يحدث الخفقان ايضاً من سوء الهضم والأرياح البطنية وفقر الدم والهستريا

والنور استثنيـا وقطع الحيض ومدة الحمل . وهو يصاحب بعض الأمراض القلبية مثل التهاب التامور ، والتهاب الشغاف والصمامات مع التهـاب عضلة القلب نفسه ، ولا يدل على علة في هذا العضو الاّ إذا رافقته أعراض أخرى لا يستطيع أن يميزها إلاّ الطبيب الحاذق .

﴿ الاسعافات الطبية الوقتية ﴾ : اجتناب الاسباب المار ذكرها ما أمكن . وفي مدة النوبة يُـترك المريض براحة تامة في غرفة مظلمة نوعاً وبعيدة عن الجلبة والضوضاء والحركات المزعجة ، ويكون نومهُ على ظهره أو على جانبه الأيمن بحيث يكون أعلى جسمه مرتفعاً قليلاً عن أسفله ثم يحلّ ما هو ضيق في اللباس حول العنق والصدر ، ويُـسقى قليلاً من ماء الزهر أو ماء الورد المضاف اليه قليلاً من الإيثر ، وتدلك أطرافه بالـكحول أو الـكولونيا . وإن كان مصاباً بالامساك يُـعطى مسهلاً من سلفات الصودا أو تُـعمل له حقنة شرجية . ثم توضع له على منطقة القلب في المـكان الذي يشعر فيه بالخفقان المـكمدات الباردة بواسطة منشفة او قطعة قماش مطوية بشكل منديل الجيب ومبتلة بالماء البارد . ويُـستحسن اضافة مقدار قليل من الخل أو العرق أو الـكولونيا إلى هذا الماء لزيادة مفعوله ، ويكرر عمل هذه المـكمدات مرات كثيرة في اليوم إذا لزم الأمر . واذا تـكرر حدوث النوب يوضع للمريض على منطقة القلب كيس مطاطي مملوء بالثلج او بالماء البارد ويترك نحو نصف ساعة ثم يُـرفع . ويمكن تـكرار استعماله إذا اقتضت الضرورة لذلك .

اما الخفقان الذي هو من أصل عصبي فيمكن مكافحته ايضاً وذلك باستعمال الوضعيات او اللفائف الرطبة حول الجذع ، او ايضاً استعمال الحمامات الدافئة للمقعد (٢٥ الى ٣٠ درجة مئوية) او الحمامات الباردة (١٤ الى ١٨ درجة مئوية) . اما من جهة استعمال الدواء وغير ذلك من الارشادات فموكول امرها الى الطبيب ، ويجب انتدابه في الحال عند حدوث النوبة للبحث عن السبب الحقيقي الذي أدى الى حدوث الخفقان والعمل على ازالته

﴿ الأوجاع في منطقة القلب ﴾ من أفيد الطرق لازالة هذه الأوجاع عند الذين يصابون بهـا هو وضع كيس مطاطي مملوء بالثلج على منطقة القلب . ويمكن كذلك للغرض نفسه استعمال المحوّلات على الجلد révulsions cutanées وعلى الخصوص اللبخ الخردلية ، أو استعمال أوراق الخردل التي تباع جاهزة في الصيدليات وأحسنها أوراق خردل Rigollo فتوضع منها اثنتان على الأقل الواحدة بجانب الأخرى على منطقة القلب بعد غمس الورقة أولاً في ماء ساخن مدة بضع ثوانٍ ، ثم توضع في الجهة التي بها الخردل على المحل المعين ، وتُـمسك باليد او تُـربط حتى يحصل تأثير منها اي حتى ظهور احمرار على الجلد ويشعر المصاب بمفعولها الشديد ثم تنزع بعد ذلك من مكانها . ويمكن تـكرار استعمال هذه اللبخ او اوراق الخردل اذا

لزم الأمر بوضع اخرى في اماكن بعيدة عن الأولى كبطن الساقين مثلاً .

وتزداد فائدة هذه اللبخ والحولات الخردلية بنوع خاص في حالة حدوث حصر الصدر (عبقة الصدر) وعسر التنفس عند المصاب وبوضع منها على بطن الساقين . كما انه يمكن أيضاً في هذه الحالة وضع كمادات حارة جداً على منطقة القلب ، أو فرك الظهر أيضاً بفوط مغموسة بماء حار جداً . وحتى وصول الطبيب يُعطى المصاب فنجاناً من القهوة السوداء القوية مضافاً اليها ١٠ الى ٣٠ نقطة من محلول هوفمان . أما استعمال المورفين حقناً تحت الجلد فموكول أمره الى الطبيب إذا رأى لزوماً لذلك . كما انه لا يجوز اعطاء البروءور تحت أي شكل كان بدون موافقة الطبيب أيضاً . وقد أفاد في كثير من الاحيان اعطاء المصاب قدحاً من الليمونادة المثلجة التي هي من أحسن المسكنات . واذا لم تأت الوسائط المذكورة بالفائدة المرجوة فيلجأ إذ ذاك الى فرك راحة اليدين والقدمين بالكحول أو الكولونيا ، أو تغطيسها بالماء الحار وحدهُ أو مضافاً اليه قليلاً من الخردل وذلك لمدة بضع دقائق ، ويجب تكرار ذلك مرات عديدة اذا لزم الأمر . واذا بدت على المصاب أعراض اختناق أو عسر التنفس فيجب فتح الأبواب والنوافذ لدخول الهواء ما أمكن ، وتهوئة وجه المصاب بالمروحة ، ومن النادر أن تؤدي نوب القلب الى الوفاة إلاّ إذا تكرر حدوثها وباتت خطراً حقيقيًّا على حياة المصاب وفي هذه الحالة تحدث الوفاة خلال بضع ثوان في أثناء النوبة . وعلى كل يجب أن يخلد مثل هؤلاء المصابين الى الراحة التامة والهدوء الشامل وكلما قلّ عدد الأشخاص حولهم كان ذلك أفضل لهم . وقد كانوا قبلاً يستعملون الفصاد في أحوال كهذه ، غير أن هذه الطريقة صُرف النظر عنها حاليًا ولم يلجأ اليها الأطباء إلاّ في ظروف نادرة جدًّا .

وفي بعض الأحيان يأخذ المرض لسوء الحظ شكلاً خطيراً وتبدو على المريض أعراض ضعف القلب وعدم قدرته على العمل Asystolie ، ثم تزداد هذه الاعراض شيئاً فشيئاً وبدون انقطاع مما ينذر بحدوث اضطرابات من ناحية الدورة الدموية فيمسي القلب غير قادر على الانقباض أو التقلص بالقوة الكافية لافراغ تجويفاته من الدم إفراغاً كاملا مما تؤول نتيجتهُ الى تمدد هذه التجويفات وبالتالي عدم وصول مقدار الدم بالكفاية الى مختلف الأعضاء ، ثم ان الذي يصل الى هذه لا يكون حاملاً إلاّ مقداراً قليلاً من الاوكسجين فيحدث إذ ذاك هبوطاً محسوساً في ضغط الدم وضعفاً في قوة التيار الدموي ، والقلب نفسه يغدو إذ ذاك عاجزاً عن التغلب على المقاومة أو الضغط الواقع عليه فينشأ عن هذه الحالة ركود دموي في مختلف أنحاء الجسم وعلى الخصوص في الرئتين حيث تزداد أعراض ضيق التنفس عند المريض . وذات الركود الدموي يحدث أيضاً في الاطراف السفلى (الساقين

والكواحل) ، ثم تبدو الوزمة وهذه تمتد شيئاً فشيئاً الى البطن فالقسم الاعلى من الجسم). وسبب ذلك ان الاوردة تتمدد من اجتماع الدم فيها فينفذ السائل من جدرانها الى الاجزاء المجاورة . ثم تتناول هذه الوزمة الكبد والمعدة والامعاء ، ويكون مجرى اللمف متأخراً والاضطرابات الوظيفية شاملة . وفي الدور المتقدم للمرض يزداد تجمع السائل في النسيج الخلوي تحت الجلد وفي البريطون وغشاء الرئة والتامور . وبكلمة واحدة يحصل استسقاء عام في كل انحاء الجسم من ارتشاح القسم المائي في الدم من جدران الاوردة في النسيج الخلوي وفي تجاويف الجسد بسبب عاقة الدورة الدموية . لكن بالرغم من هذا كله ففي الامكان تلطيف هذه الحالة واراحة المريض وعلاج قلبه العليل . ولا ينكر ان معظم هؤلاء المرضى الذين يصلون الى هذه الدرجة من العجز والاعياء يجب ان يحاطوا بالعناية الفائقة والرعاية التامة ويأخذوا حظّاً عظيماً من الراحة . فاذا ما توفرت لهم فعلاً هذه الشروط الجوهرية ، مقرونة بالملاجات اللازمة التي يصفها الطبيب ، أمكن حينئذٍ تحسين حالتهم وحفظهم مدة طويلة في حالة صحية مرضية نوعاً فوق ما كانوا يقدرون بعد أن كان يخشى ان يتخطفهم الموت في بضعة أيام .

﴿ الأدوية ﴾ : يجب أن نقول هنا ان عدداً كبيراً من المصابين اصابات خفيفة بأمراض القلب ليسوا في حاجة الى تعاطي الأدوية او فقط الى تعاطي بعضها عند مساس الحاجة اليها . كما ان الذين لا يزال قلبهم يقوم بوظيفته على أحسن حال بالرغم من اصابة الصمامات بالمرض يمكنهم ايضاً الاستغناء عن الأدوية سنوات عديدة . أما حالات المرض الخطيرة التي يكون فيها القلب ضعيفاً جدّاً ولا سيما اذا كان مقروناً هذا بوجود استسقاء او ارتشاح عام في الجسم فاستعمال الادوية أمرٌ ضروري ولا يمكن الاستغناء عنه . فالديجيتال يؤدي في هذه الحالة أحسن الخدمات ، والعدد العديد من الأطباء يعتمدونه خصوصاً في مكافحة ضعف القلب ، بل أنه يعتبر في نظر الكثيرين منهم من أثمن الأدوية في العالم بشرط ألاّ يساء استعماله وأن يتم ذلك تحت اشراف الطبيب بنفسه .

ويرجع الفضلَ الأكبر في اكتشاف خواص الديجيتال الفسيولوجية الموجودة في أوراق هذا النبات الى الطبيب البافاري ليونار فوش Léonar Fuchs في عام ١٥٤٩ . ولم يمض على اكتشافه زمن طويل حتى عرف اكتشافه هذا في انكلترا . أما في فرنسا فلم يعرف ويبتدىء انتشاره الاّ في عام ١٨٢٢ حيث قام علماؤها وعلى رأسهم F. Frank و Lancelot و Homol وغيرهم بدرس خواص هذا النبات درساً وافياً . وقد أيدت الاختبارات العديدة أن الديجيتال أطال حياة الألوف من المصابين بالقلاب ويُستعمل في جميع حالات ضعف

عضلة القلب ، والخفقان وسرعة دقات هذا العضو (Tachycardie) ، وهبوط ضغط الدم ، وعدم انتظام النبض وسرعته الخ ويؤخذ اما مسحوقاً أو منقوعاً (منقوع الاوراق) أو بشكل حبوب أو سائلاً (صبغة الديجيتال) الخ . وعلى كل لا يجوز استعماله مطلقاً كما قلنا الاّ باشارة الطبيب الذي هو نفسه يصف المقدار اللازم في "دواء وفقاً لحالة المريض الراهنة وللمدة التي يراها ضرورية للعلاج به . ذلك ان الديجيتال يتجمع بالسهولة في الجسم ولا يتخلص هذا منه إلاّ بعد بضعة أيام . وقد أيدت الاختبارات ان غرامين من الديجيتال تتطلب ٨ إلى ١٠ ايام كي يتخلص الجسم منها — وهذا ما يبرهن لنا كيفية تراكم هذا الدواء في الجسم عند ما تعطى منه مقادير زائدة . ولذلك لا يصح استعماله مدة طويلة دفعاً لحدوث أعراض تسمم خطيرة كثيراً ما تكون وبالاً على المريض نفسه — بخلاف المقادير القليلة منه فانها تأتي بأحسن النتائج . ومجمل القول ان الديجيتال يقوي وينظم ضربات القلب فيأخذ هذا العضو في تفريغ محتوياته تماماً من الدم الذي يصل اليه ، ثم انه يرفع ضغط الدم الى المستوى الطبيعي ، والدورة الدموية تسترجع بدورها قوتها ونشاطها ، كما ان جميع أعراض ضيق الصدر وعسر التنفس تخف تدريجاً عند المريض بفضل الديجيتال الذي يفعل فيها حقّاً ما يفعل السحر ! وبنفس الوقت يأخذ الورم ان يقل شيئاً فشيئاً ويستعيد المصاب راحته المنشودة ويستطيع ان ينام نوماً مريحاً نوعاً ما .

أما الاستسقاء نفسه المسبب عن ضعف القلب والذي قد يبلغ احياناً نحو عشر لترات فيكافح بالبزل وهذا من متعلقات الطبيب . ويساعد على ذلك استعمال الطرق الطبيعية وأعني بذلك الافراز بواسطة الكلى والجلد . ولهذه الغاية يعطى بعض العرّقات او النباتات المدرّة للبول مثل حبوب العرعر baies de genevrier . فيؤخذ قدر ملعقة حساء من هذه الحبوب وتدق وتوضع في كوب ماء حار جدًّا وتصفى ثم يتناول المريض هذه الخلاصة . وهكذا قل عن النباتات الأخرى المعرقة والمدرة للبول . وعلى كل فأمراض القلب سواء أكانت ناشئة عن امراض معدية ام غيرها فتتطلب من بداية الأمر الراحة التامة التي هي احسن علاج للمريض والتي تمهد السبيل للشفاء ، ثم اتباع النصائح والارشادات الأخرى التي يراها الطبيب موافقة في مثل هذه الأحوال .

الدكتور عبده رزق

طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو : العراق

القديم
وأثره في الحديث

إن من يزور « روما » فيترك حي « الكوروسو » ، وينحدر مطوفاً نحو « التيبر » مخترقاً ذلك التيه المؤلف من الأزقة الضيقة المفعمة بفتيان عاصمة ايطاليا الحديثة وشيوخها ، يمسه ضربٌ من الغبطة في تتبع تلك السجلات الصخرية التي خلفتها الأجيال المتعاقبة من الرومان ، والذين يجوس اليوم اخلافهم خلال ديارهم . فاذا استدار بعد ذلك دورة ، وقف أمام حَرَجَةٍ من الأعمدة الاخاذة ، برغم تهدمها ، أعمدة المدرَّج العظيم الذي شيد عند ما عرف ذلك المكان باسم « كامبوس مارتيوس » وكان مسرح اللهو لرعايا الأمبراطور « هدريانوس » .

بين الأعمدة جدران شيدت من كتل عظيمة من الصخر « التيبورتي » ، نقضت من بناء امبراطوري آخر ، وبني هنالك ليكون حصناً غليظ الهيئة مظلم الجنبات ، في تلك الأيام التي كان يهب فيها أسر من مثل « أورسيني » أو « كولونا » الى السيف ، اذا وقع التشاحن على انتخاب « ليون » أو « غريغوري » لمقام البابوية .

هنالك قد تقع على طنف رفيع الفن من عصر النهضة ، صنع في حياة « برامنتي » أو « ميكلنجيلو » . بينا ترى هنا أو هناك شيئاً من ملاط المرمر فوق بناء « الآتوسنتو » وقد تسلخ وانقشر بما صادف من عنف رجال « غاريبالدي » ذوي القمصان الحمر ، أو رجال « موسوليني » ذوي القمصان السود .

ثم اعبر شارعاً مزدحماً وانعطف الى زقاق يفصل صرحين من الصروح المعروف أمرها في القصص ، فانك تقع على احتفال « فاشستي » أقيم أمام قبر « فتريو إمانويل » في كنيسة « سانتا ماريا روتوندا » ؟ وكانت من قبل مدفناً تكريمياً أقامه « هدريانوس » تخليداً لذكرى الفرق الرومانية ، التي غزت كل آلهة الشرق .

عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، استعمر الأخلاف ما شيد الأسلاف ، وحوّروا عمائرهم بمقتضى أغراضهم ، فاحتفظوا بها بعض الأحيان كاملة كما هي ، وقوّضوها حيناً آخر ، وأقاموا بأنقاضها عمائر حديثة . هذا والحياة مندفقة ، جياشة ، تزدحم بدورات الوجود والأمل والفشل والموت ، في ظل عاهل أو سيد أو بابا أو ملك أو أفاق مستبد ، سواء في ذلك مظاهر نشاطها الحديث ، أو مظاهر تعفيتها على ما انقضى من الأعمار .

وفي الحق أن «روما» مدينة خالدة .خالدة بقدمها ، في صورها وجدرانها المدعمة ، خالدة بحدائقها ، في آمالها ومراميها ، وكأني بها رمز الانسانية التي اقتبلت تلك المدنية ، فهي صرحها ومركزها .

ذلك بأن تاريخ المدنية البشرية ، انما هو قصة تشابه ما روينا ، جهدٌ يبذل وآثارٌ تقام ثم تتكيف وتضخم على الاستمرار ، وتمضي في سبيل يلائم بينها وبين مجاري الحياة . رواية الجدران القديمة يهدمها الزمن ثم تتقوّض ، ثم تبنى ثانية في صور جديدة . رواية الإفك والعدوان تمتد بهما أيدي الهمج الخشنة الغليظة الى الآثار القديمة ، رواية الكنائس التي يحوطها بالعناية المؤمنون ، والقصور والدساكر تسوىَ بالأرض لتعبد طريقاً ، رواية المجالس التشريعية تلتئم في أبهاء القصور التي شيدها أمراء عصر النهضة ، والدعوة الشيوعية تضج بها النوادي التي عمرها أشراف « روما » .

أما إذا كان أثر القديم في الحديث غير بين في جميع النواحي ، بيانه في مدينة الكرسي البابوي ، فانه من الحقائق الثابتة أن الآراء والمعتقدات والغايات والمثاليات التي ينطوي عليها صدر فلاح في أقصى الغرب من أميركا ، أو عامل في أقصى الجنوب من استراليا ، إنما فيها إثارات وبقايا من الأشياء التي ورثت خلال العصور المتتالية ، صبت في قوالب جديدة لتلائم حاجات الزارع الأميركي ، والعامل الاوستر الي . ولو جلت جولة في نواحي العقل الحديث ، لانكشف لك مما فيه من تراكب العقائد وتراكمها طبقة على طبقة ، وقد ظل ذلك مطرداً غير منقطع خلال الأحقاب المتطاولة ولاستبان لك ما فيه من أشتات الآراء المستجمعة من هنا ومن هناك ، وقد حبكت معاً ثم شيدت بناءً قام أساسه على قسط وافٍ من دواعي الانحلال والتضعضع ، وفي جدرانه عدد من الثغرات ، ولكن من ورائه قوة العقل تعمل على تدعيم ذلك الأساس وسد تلك الثغرات ، ليكون ذلك الهيكل في مجموعه قادراً على تلبية قوامر الحاجة ، والقيام بوظيفة الحمى والسكن ، حتى تأتي القوة التي ترفعه درجة أخرى نحو الكمال .

فقد يعتقد الانسان في العصر الحاضر ان ذرّة الزئبق يمكن تحويلها الى ذرّة ذهب ،

وأن عيسى الناصري قد قام من بين الموتى وانه الآن جالس الى يمين الذات العلية ، ذات الله ، وأنه من الفخر أن يموت الانسان في ميدان الحرب دفاعاً عن وطنه ، وأن كل المشاحنات التي تقوم بين الدول ينبغي أن تعالج وتفض في محكمة عالمية ، وان الاتحادات بأنواعها وبمختلف صورها يجب أن تحل وتلغى ، وان دنيا الحياة الانسانية ينبغي أن يفسح المجال فيها للديمقراطية حتى تظل سالمة آمنة . ومع كل هذا فان الانسان الحديث ليؤمن بهذه الأشياء ، وليس في نفسه غير خيال ضعيف عن أصل نشوئها ومعانيها وقيمتها لحياته التي يحياها . خيال أشبه بما يقوم في نفس الطفل الروماني ، الذي يمرح بين الآثار المخلفة عن أسلافه الأولين .

• • •

ان من بواعث الابتهاج والغبطة أن نكشف القناع عن نواحي العقل الحديث وثناياه وشعابه المستخفية في تضاعيف الجيل الحاضر ، وأن نفحص عن كل خيط من الخيوط التي تؤلف سداه ولحمته ، وأن نتعقب بداياته منذ أول ظهورها منسوجة على نول الزمان . ان ذلك لأبهج للنفس وأرخى للعقل من جولة في جنبات « روما » وإن ذلك لأكثر من باعث على الابتهاج والغبطة . إن له لوزناً كبيراً ، عند من يريد أن يتفهم حقيقة الحياة الحافة به ، ويفقه طبيعة قواها العقلية ، ويتبين ما يحتمل أن يندفق فيه تيارها من الاتجاهات ، ولعله يأخذ المجداف في يده ، فيمخر فيه .

إن الآراء لمن أبقى الأشياء التي تمخضت عنها المدنية . والآراء التي تحوم اليوم في العقول الحديثة ، لها أصولها الممتدة إلى ماضٍ لا تعيه الذكريات . ومن طريق العقل يستطيع الانسان أن يصل نفسه بآباء عريقين في القدم . وان صلته بهم عن طريق العقل ، لأوثق حتى من صلته بهم عن طريق الاتصال الطبيعي والعلاقة السلالية . ويصدق هذا خاصة على أميركا . فانها برغم ماضيها القريب هي جزء من المدنية الاوروبية ، كروما نفسها . ومن أجل أن نفهم حقيقة العلم والدين والفن والمثاليات الأدبية في العالم الحديث ، ونقيمها ونقدرها حق قدرها ينبغي أن نستوعب عظائم ما وصل اليه الانسان في سالف عصوره ، تلك العظائم التي شيدت ذلك الصرح الفسيح ، الذي تطوف في أنحائه اليوم الروح الانسانية .

إن الحاجة الملحة في أن نحلل معتقدات الانسان ونتتبع بداياتها ، إنما ترجع الى حقيقة أن الآراء ليست كآلهة « أوليمبوس » ، باقية أبدية ، ثابتة دائمة الشباب . وهذه الحقيقة على ما لها من بالغ القيمة والأثر ، قد أغفلها العديد الغالب من الباحثين . إنها ككل الأشياء البشرية ، تولد وتنمو وتنضج ، وقد تموت .

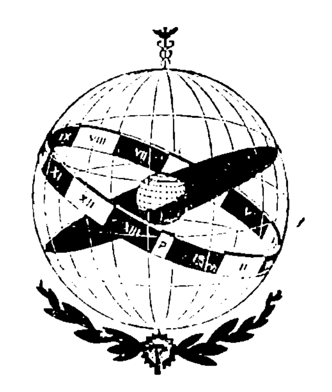
للآراء صفة الحياة ، وكل ما هو حي ، لا بدَّ له من بيئة ينتعش فيها ويعيش ، كما ينبغي له أن يتكيَّف بها . والناس ينظرون في مجمل معتقداتهم ، نظرتهم إلى التلال التي يرفعون اليها أبصارهم ، فكأنها ثابتة غير متغيرة ، وكأن كل انحراف عنها ، انحراف لا يقرُّه الطبع ولا يجيزه العقل . أو انهم يتخذونها كما يتخذون قطع النقد المسبوك من خالص الذهب ، فيعتقدون انها صالحة للتعامل بها في كل زمان ومكان . فالنصرانية والعلم والديمقراطية والملكية الخاصة ، على ما يتخيلون ، كانت ولمّ تزل ، وسوف تكون ولا تزول . فالانقلابات التي يعترفون بأنها واقعة في عالم الأشياء المادية ، لا يرى إلاّ الأقلون منهم ، أن مثلها قد يقع في عالم الروح ، الذي هو أقل وضوحاً من عالم المادة . وليس ذلك لأنهُ من المتعذر ان ندرك ان الانسان قد اعتقد في عصر مَّا عكس ما يعتقد اليوم ، ولكن لأنه من المتعذر علينا أن ندرك انه اعتقد حقيقة بتلك المفارقات البعيدة عن العقل ، وانه آمن بها وأخلص لها ، إيماننا وإخلاصنا لما نعزّ ونحترم من يقينيَّاتنا ، وربما لم يقم عنده من الدلائل على صحتها إلاّ النزر اليسير .

إن تعقب تاريخ هذه المعتقدات في نشوئها وتطورها النمائي ، قد يولد فينا حسًّا ندرك به شيئاً من التلاؤم الذي يقوم بين الآراء وقوالبها الأولى ، ونعرف به أن صحتها انما تستقرأ من بيئاتها التي نشأتها ، وان منفعتها تظل ، ما دامت تلك البيئة تغذيها وتربيها .

• • •

إذا شبَّهنا عقول الناس بنقوش تراكبت فيها المعتقد فوق المعتقد تراكب اللون فوق اللون ، كان من مهامّ العقل البشري الكبرى أن يفقه تاريخ حياة هذه المعتقدات ، ولماذا وجدت ، وهل من حقها أن توجد ، أم انه ينبغي أن تنبذ وتهمل ؟ ما هي تلك الموجات الفكرية العظيمة والآمال المتوثبة التي خلفت من ورائها تلك الرواسب المتراكمة ؟ عن أيٍّ من الاشياء عبرت عند ما حملها الفيضان ، وما قيمة الأشياء التي خلفتها للعصر الحاضر ، وما هو الجديد الذي ينبغي للانسان أن يبحث عنه ، ليقوم بواجبه نحو تجديد الحضارة ؟ ذلك التجديد الذي لا ينقضي أمده ، ولا تنتهي دورته .

إذا انتهى المرء الى معرفة المواد التي تهيئها له الدنيا الحافّة به ، والمصادر النفسية الحالة فيه ومنها يستمد ، بقي عليه أن يستوعب الماضي ، ويعرف أثره في الحاضر ، ثم يتفهَّمه ويحكمه ، حتى تكون له السيادة عليه .



أساطير القدماء
ودلالتها

إن أساطير القدماء وعقائدهم وخيالاتهم، قد تمدنا بأداة ندرك بها الفرق بين ما أكبَّ القدماء وأهل العصور الوسطى على اليقين به، وبين العقائد والأفكار التي تذيع في هذا العصر. ان تلك الاشياء كانت في العصور الأولى من المسلمات التي لا تحتمل الشك، في حين أنها وان كان لها مثيلات تنتشر اليوم بين الطبقات الدنيا، فانها أشياء قد دخلت بالشك عند الأوساط من الناس، ورفضها أهل الطبقات المنتقاة.

ولا شك في أن بعض الناس يعتقدون اليوم في أهل كثير من البلاد النائية عن مواقعهم الجغرافية، معتقدات أساسها الوهم والخيال، غير أنها خيالات وأوهام نشك في أنها قد تبلغ من الخطأ مبلغ تلك التي ذاعت في القرن الثامن عشر مثلاً. وان هذا لهو «المقياس» الذي نقيس عليه مقدار ما أثر الأسلوب العلمي في العقول، من حيث القضاء على الوهم والخيال في أدمغة الناس.

الانسان الذي عاش منذ ستة قرون مضينَ، غير انسان الزمن الحاضر. كان في عقله متسع لأن يصدق أي شيء وان يتقبل كل ما ينقل اليه، مصدقاً به مسلماً بكل ما هو منابذ لطبيعة الأشياء أو بعيد عن مألوف الواقع، إذا ما نقل اليه عن سلطة يحترمها أو مصدر يجله. وكيف يستطيع ان يرفض أقصوصة تقص عليه أو واقعة تنقل اليه، وهو في حياته اليومية على انتظار ما يقع فيها بين لحظة وأخرى من معجزات وخوارق، كلها على النقيض من سياق الأشياء الطبيعية؟

من فوقه في السماء، ومن تحته في الأرض، عوالم مفعمة بجواهر عاقلة مريدة، شياطين وملائكة وسلائل عجيبة التكوين من أنسال الآلهة، وفوق ما فيه من استعداد إلى تلبية نداء

الله أو الشيطان — إذ كان يتعذر على القلب ان يحكم أية من الناحيتين تناديه — فيقودانه حيناً الى الخير والخلاص ، وحيناً الى الخطيئات واللعنات .

القديسون والذين هم على اتصال بالقوة القدسية هم صنائع الله الذين أمدهم بقوة من عنده على اصطناع الخوارق والأعاجيب والمعجزات ، لتكون وسيلة الى ايقاظ الورع والتقوى في نفوس المؤمنين ، وإلى جنبهم الشيطان وعماله يشنون حرباً مستمرة لاهوادة فيها ليزعزعوا ما ثبت في أطهر القلوب وأنقى الأفئدة من بواعث الخير والطيبة والاستسلام .

إن هذا الاعتقاد الثابت في امكان حدوث المعجزات ، قد أنشأ في عقليته اتجاهاً اصطبغت به كل الأشياء في العصور الوسطى ، من الحوادث البسيطة في مجرى الحياة ، الى الوقائع الكونية التي تصرفها العناية الالـهية . وعلى العكس من هذا كله نجد العلم الحديث ، فانه لا يبحث وراء الغاية التي من أجلها وجدت الاشياء في هذه الدنيا ، ولا يجري وراء المعنى الذي يختبيء خلف وجودها . إنه يصف « كيف » تحدث الأشياء « ولماذا » تحدث .

يقول « سنتايانا » :

قد نتكلم بعض الأحيان كما لو ان القول بخرافة الخوارق او الاعتقاد في المعجزة ، هو في ذاته رفض لشمولية القانون الطبيعي ، او وحي توحي به الينا رغبة في تشويش تجاربنا وقمع قدرتنا الفكرية او العقلية . وليس من فرض هو أبعد عن الحقيقة من هذا الفرض . فان كل خرافة انما هي شذيرة صغيرة من العلم ، يبعثها في أنفسنا رغبة في ان نفهم وان نتطلع ونستنبيء وان نحتكم في شيء من خفايا العالم المنظور . وقوى الفضيلة أو قوى الفرد الحي ، أقرب الى الفهم وأطوع على الاستيعاب من السنن الآلية الشاملة القريبة منا . اذا عرفنا ذلك علمنا أن أساس الخرافة والمعجزة امر قريب من أنفسنا وعقولنا . قد يرى الانسان في المعجزة طريقاً الى طلب الرحمة ، او وسيلة الى اثبات وجود السلطة العليا في الخلق أو رغبة من نوع ما تجبرنا على الاعتقاد بها . وعلى الضد من ذلك ، نجد ان قانوناً آلياً ان كان في الواقع تسجيلاً لما يجري في العادة ، فهو في ظاهر نظام الاشياء أمر لا عقل ولا رشد فيه . فان حادثاً من حوادث الطبيعة يستعصي على التفسير ، ولا يستظهر منها قصد معين معروف ، لا يدخل في نطاق المعجزة . على ان ما يدهشنا من أمر المعجزة والاعتقاد فيها ، انه على العكس مما رأينا فيها من قبل ، قد يرى الآن ان لها أساساً صحيحاً حقاً برّر الاعتقاد فيها زماناً ما .

من ثمت نجد أهل القرون الوسطى في توثبهم إلى فهم الدنيا الحافة بهم ، قد أيقنوا بأن القصد يختفي من وراء الاشياء ، والغاية تكمن خلف ظواهرها ، وان هذا القصد وتلك الغاية قد يكتشفان عند حدوث أي حادث . كذلك رأى أن ارادة الله هي السبب الغائي لوجود الكون ، وان هذه الارادة إن استعصى على العقل الكشف عن معضلاتها ، فانها على الأقل تهيء للانسان فرصة الوقوف على معنى الأشياء وصبغتها العقلية .

لا شك في أن الانسان الذي يعيش في مثل هذا الجو ، من شأنه أن يفعم الدنيا المحيطة به بذوات عاقلة يتخيل وجودها وقوات روحية يتصورها ، ويتوقع حدوث ما لا يمكن توقعه من أحداث الدنيا ، ويضفي على كل ذلك قيمة موهومة وكذلك لا يبعد على ذهنه أن يقبل فكرة أن هذه الذوات وتلك الأرواح قد تعمل على اثبات وجودها وتحقيق أثرها باحداث خوارق ومعجزات .

• • •

ان حياة القديسين ، وكانت من أشهر ما يخاطب القلوب في العصور الوسطى ، تزخر بذكر أشياء خارقة للطبيعة ، وقد سجلت في المخلفات التي تركها هؤلاء القديسين وأقيمت لاحياء ذكراها الاحتفالات ونظمت المهرجانات ولا مشاحة في أن هذه الخوارق كانت الطريق المعبد الى القداسة .

أما الشيطان وأنصار الشيطان، فكانت أشياء حقيقية واقعة في معتقدهم ثابتة في روعهم، وأن قدرة الله وقوة ملائكته كانت كثيرة ما تعبأ بين آونة وأخرى لتعلن عليهم الحرب بعد الحرب والغارة بعد الغارة . وكانت مخلفات القديسين وتبريك الكنيسة والصلوات والتوسل والعطايا والتضحيات ، كانت الأشياء التي يلجأ اليها إذا حزب الأمر وثار ثائر الفوضى .

فسن القديس بطرس ، ودم باسيل ، وشعر دنيس ، وجثمان القديس مرقص الذي سرقه البحارة البندقيون ليكون في كاتدرائيتهم المرصعة بالجواهر على صفاف ضحاضحهم ، وبيت العذراء مريم الذي طار بمعجزة عبر البحر الى « لورتو » عامة ذا قد اتخذت مصادر تستمد منها القوة التي يمكن بها رد البغي الانساني والغواية الشيطانية . ولقد رغب الناس في هذه رغبة محمومة حتى أن القديس لويس الفرنسي قد أراح نفسه بالاعتقاد بأن حملته الصليبية كانت فوزاً مبيناً وعملاً خالداً ، بالرغم من انه لم يهبط الأرض المقدسة ، لأنه استطاع أن يحضر معه قطعة من خشب الصليب الحقيقي الذي صلب عليه المسيح .

• • •

ولقد روى غريغوري الكبير قصة عن قديس ، تمثل بجلاء فكر الناس ومعتقداتهم في العصور الوسطى :

في جبل مرسيتوس ، باقليم كامبانيا ، عاش رجل محترم اسمه مارتين سنوات عديدة في كهف ضيق . ولقد عرفه الكثيرون منا وأصبحوا شهداء على أعماله . ولقد سمعت عنه الكثير ، من البابا نيلاغيوس سلفي وغيره من رجال الدين الذين رووا ما اتصل بهم من وقائعه . وها هي ذي أولى معجزاته : فانه لم يكد يستقر في رأس

ذلك الجبل، متخذاً شقاً من شقوقه مستقراً له ، حتى انبثق ينبوع من الماء الجاري يكفي لسد حاجاته حتى يقوم بخدمة الله ، وكان جري الماء على قصد ، فلا أقل ولا أكثر مما يحتاج .... ولكن عدو الانسان القديم حقد على الرجل قوته ومنزلته، فعمل على أن يخرج هذا الرجل من كهفه متخذاً من شيطانيته وميله سبيلا الى ذلك. وقد حل في جثمان ثعبان ، وهو له صديق ، وحاول أن يفزع الراهب ويخيفه ويروعه ، عسى أن يهرب من مأواه هذا ، فجاء مع الشفق وانطرح أمام القديس عند ما كان يصلي ، ونام الى جنبه عندما أراد أن يستريح ولكن الرجل لم يذعر ولم ينزعج ، وقد يمد أصبع يده الى فم الحية أو يمد اليه قدمه ويقول له : « اذا أردت أن تنهشني فاني لا أمنعك » . وبعد أن ظلت هذه الاشياء تجري ثلاث سنوات ، اختفى عدو الانسان الاقدم فجاءة منهزماً أمام قوة احتماله وصبره . واتخذ الثعبان طريقه من فوق الجبل الى مهواه صاخباً ، فأحرق اللهب الذي خرج منه جميع الاشجار التي كانت في ذلك المكان » .

• • •

مثل هذه الارواح الشريرة يعيش في الجحيم ، موئل العذاب الذي سوف يلقف أولئك الذين لم يقوموا بواجبهم نحو الله . ولقد سعدت جهنم العبرانيـة Gehenna بكثير من عناية الانسان في تلك العصور ، فوصفت أكمل وصف ، واختبرت مجلاتها ومفصلاتها أتم اختبار ، وارتيدت جنباتها القصية وأصقاعها الجحيمية ، وأضفيت عليها كل الاوصاف التي تخيلها القدماء والهمج . أما السماء فكانت بعيدة جهد البعد ، نائية كل النأي ، هنالك فيما بعد القبة الزرقاء وفيما وراء كل الكواكب المرئية . ولكن قدرة الله قد تمتد فتصل الى كل ركن من أركان الوجود ، والى كل وقب مهما ذلَّ وصغر من وقوب العالم المخلوق .

وكثيراً ما كان الناس يستمعون الى ما سوف يحل بهم من عقاب اذا عصوا ومن ثواب اذا أطاعوا ، وقلما كانوا يصغون الى شيء من هـذا من غير أن ترتعد فرائصهم فزعاً وروعاً . وكان هذا العالم ، عالم الغيب ، قريب كل القرب من مشاعر ريفي من الفلاحين أو تاجر من المدنيين ، بل ربما كان أقرب اليـه ، على ما يخيّل اليه عقله وشعوره ، من بلاد كبلاد الهند ، أو من روما نفسها ، حتى لقد كان يتخيل المرء انه على عتبة الآخرة ، وانها أقرب اليه من حبل الوريد . على انه لا ينبغي أن يسبق الى حدسنا ان انسان ذلك العصر العادي أو الراهب الديني ، قد أمضى حياته أكثر حذراً وأمعن تقيـة ترقباً لتلك الدار الأخرى التي سوف ينتقل اليها ، أو ان التحقق من حدوث العقاب والثواب بعد الموت قد كان من بواعث الاحتكام في رغباته وشهواته ؟

لا شك في انه عمل على أن ينال الحلّ absolution وغفران الخطيئات ، وان نياته كانت ولا شك على أنقى ما يمكن بحكم الطبع البشري . ولكن الجنة وجهنم ، كانتا من الأشياء

الواقعة لامحالة — وإن كل منكم إلاّ واردها — وانهما كمثل الأشياء التي تقع بالانسان من غير أن يكون له اختيار فيهـا كأن يولد وأن يموت . وما دام الأمر كذلك ، فليس من الفطنة أن يعنت الانسان نفسه في التفكير فيما هو محتوم انه يقع ، وان كان قريب الوقوع .

أما أشياؤه الدنيوية فاستوت على مجموعة من العادات والعرف والآراء المتـداولة بين الناس تداول النقد ، من غير أن يشرئب ذلك الانسان الى مجـالات جديدة من العمل أو أغوار جديدة من الفـكر .

على هذه الصورة كانت دنيا الأوساط من الناس في العصور الوسطى . وهي دنيا لاتبعد كثيراً عن دنيا كثير من أهل الريف في هذا العصر . وفي هذا دلالة على ان حركة « التنوير » الذهني قد مضت وئيدة الخطوات ، وان الخطوات التي خطتها ، كانت في مكان دون مكان .

أما الباحثون في علم الانسان فيقولون ان تيارات العقول التي عاشت في مثل تلك الدنيـا ، انمـا تعطينا صورة من تلك الخصائص العامة الشاملة التي تختص بها المعتقدات الانسانية حينما تعذر على العقل أن يتهذب باستيعاب التحقيقات العلمية . إن « العقلية البدائية » ، انما دعيت كذلك استناداً الى ما يستدل به عليها من عقلية أهل القبائل المتأخرة التي تعيش في العصر الحاضر . وهذه العقلية بذاتها هي التي دفعت بها عقول أهل العصور الوسطى ، فاحتكت في تـكييف البيانات العقلية ، حتى عند أرقاهم فهماً وأحدهم ذكاءً .

• • •

بالنظر في هذه المعتقدات التي ترجع الى تلك الأزمان القصية تجد ان انسان العصر الحديث ، إنما هو في حقيقة أمره كثير الصلة شديد القرب من همج تلك العصور ، لأنه لا يزال أبعد ما يكون عن شكية أهل العلم التجريبية . وان الخاصية الشاملة التي يتعلق بها هذا القالب العقلي ، سواء أوقعت عليها في جزر البحار الجنوبية ، أو في العصور الوسطى ، أو عند الخشابين في حرجات عصرك الحاضر ، انما تنحصر في افراط في الاعتقاد وتفسير كل حادث من حوادث الحياة تفسيراً تأثريًّا انفعاليًّـا ، وثقة يقينية في حقيقة تلك المعتقدات ، وكراهة عنيفـة في وضع هذه الأشياء موضع البحث ، أو جرها الى مجال الاختبار . وبالاختصار نقول ان مثل هذا العقل انما « يفهم » معنى كل الأشياء ، ولكنه في الوقت ذاته لا يعرف معرفة تحقيق الاَّ مفصلات تتعلق بحياته اليومية المحدودة فهو من الجهل بالعالم بحيث يمكن أن تسلم به أتفه الأخطاء ، إلى أنكى الاخطار .

النظام الحزبي

في بريطانيا

نظرة تاريخية تحليلية

﴿ موالون ومعارضون ﴾ تنقسم البلاد عادةً الى أحزاب إذا فرّقت الخلافات السياسية بين أبنائها ، والوطنية دائماً هي المصدر الأول للحزبية ، أما في انجلترا فقد نشأت الحزبية من الخلافات الدينية. ففي سنة ١٥٣٣ قامت الكنيسة الانجليكانية القومية الرسمية بعد أن تحررت من سلطة البابوية وأصبحت خاضعة خضوعاً مباشراً للملك ، تستمد منه سلطانها ويعين هو رجالها ، وكانت تقوم الى جانب كنيسة الملك كنائس أخرى لا تخضع للبابا أو الملك ، إنما تتبع نظام الاصلاح الذي نادى به لوثر وكالفن ، وقد عرف أتباع تلك الكنائس بالمعارضين ، بالنسبة لغيرهم من الموالين للعرش وكنيسة العرش ، وكان النزاع بين الفريقين شديداً ، وقد أصدر البرلمان — وأغلبيته من الموالين — في النصف الثاني من القرن السابع عشر عدة قوانين تعسفية ضد المعارضين ، منها ما يمنعهم من حرية العبادة ، أو يحول بينهم وبين شغل أية وظيفة في الدولة ، أو يحرّم عليهم إنشاء المدارس ، فكان من شأن ذلك أن زاد حقد المعارضين على الملك وكنيسته .

﴿ « ويج » و « توري » ﴾ وحوالي سنة ١٦٧٥ تكوّنت جماعة سياسية أطلقت على نفسها اسم « جماعة الشريط الأخضر » جعلت هدفها مقاومة حزب الملك ، لما بدا من اعوجاج في سياسة الملك نحو فرنسا ونحو الكاثوليك ، فبادر أتباع الكنائس المعارضة بالانضمام الى هذه الجماعة ، فنشأ عن الفريقين حزب جديد قوي منظم يعمل على اضعاف نفوذ الملكيين الذين من ناحيتهم كان يجمعهم حزب لا يقل قوة وتنظيماً ، وقد أطلق الملكيون على المعارضين تهكماً بهم لفظة (ويج Whigs) كما أطلق المعارضون على الملكيين تهكماً بهم كذلك لفظة (توري Tories) وكلا اللفظين من ألفاظ السباب ، ويتضمنان معنى الخروج عن مبادىء الشرف واللفظ الاول من أصل اسكتلندي ، أما الثاني فمن أصل ارلندي. وهكذا وضعت أصول الحزبية في انجلترا

﴿ محافظون وأحرار ﴾ وعقب ثورة ١٦٨٩ أعلنت الحريات العامة في المملكة فقرّب ذلك بين الحزبين من حيث ولائهما للعرش والدستور ، ولم تبق بينهما إلاّ خلافات مبدئية

بسيطة ، وكان كل من الحزبين يتكون من طبقة النبلاء ملاك الأرض أو كبار التجار ، غير ان الثورة الصناعية التي عمت اوربا خلقت طبقة جديدة ، البورجوازية الصناعية التي أخذ نفوذها يقوى وبدأت تطالب بتعديل اللوائح البرلمانية فيما يتعلق بحقوق الانتخاب والتمثيل النيابي وقد قوي ساعد حزب « Whig » بهذا العنصر الجديد ، فاتجه نحو سياسة من الحرية أوسع ، تشمل الحرية السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية ، ولما كان طابع الحرية هو أهم ما يميز خطة الحزب فقد أطلق على نفسه اسم حزب الأحرار وذلك منذ سنة ١٨٣٢ .

أما حزب « Tory » فبعد أن قاوم مطالب الرأسمالية الصناعية . وقد فشل في مقاومته اضطر أن يسلم للامر الواقع ، وكان على رأسه السير (روبرت بل) ، وهو من أصحاب المصانع ، الذي استطاع ان يستميل الى نظرياته المعتدلة عدداً كبيراً من أفراد الحزب ، وكانت لفظة « Tory » قد أصبحت مكروهة لماضيها غير الحميد ، فرأى أعضاء الحزب أن يستبدلوا بها لفظة أخرى ، ألطف وأخف وقعاً في نفوس الشعب وأقرب معنى إلى روح الحزب ، فاختاروا لأنفسهم اسم المحافظين ، وكان ذلك في سنة ١٨٣٤ .

﴿ المحافظون ﴾ والواقع ان معنى المحافظة لا يتفق كل الاتفاق مع روح الحزب بعد سنة ١٨٣٤ ، فقد أخذ الحزب يتجه نحو سياسة جديدة ترمي الى مراجعة الانظمة العتيقة لتبين أخطاء الماضي وإدخال ما يلزم من تعديل واصلاح بغير تقيد بالتقاليد وبغير تطرف وتسرع ، فهي سياسة اصلاحية تدرجية حذرة .

ومنذ أواخر القرن التاسع عشر ظهر على الحزب طابع جديد هو التمسك بالوحدة والاخاء ، ففي سنة ١٩٢٢ عند ما قامت حركة ارلندا الحرة ، تشبث المحافظون بفكرة وحدة (المملكة المتحدة) ، وفي أيام دزرائيلي وجوزيف تشمبرلن تعلق المحافظون بفكرة وحدة الامبراطورية البريطانية وتقوية هذه الوحدة بالعلائق الاقتصادية ، وفي أيامنا هذه يدعو المحافظون الى التجانس بين طبقات الأمة وعناصرها ، وهم يعضدون الملكية الفردية والمنشآت الخاصة ، ولما كان معظمهم ملاكاً زراعيين فهم يولون الأرض والزراعة كل اهتمامهم ، هذا على الرغم من أن كثيراً منهم أصبحوا من الرأسماليين الصناعيين ، وليس حزب المحافظين مقصوراً على طبقات أو فئات خاصة ، فباب الانضمام اليه مفتوح لأي نوع من الأعضاء من أي الطبقات كانوا ، فهو حزب التآلف والتوافق يريد أن يجمع عناصر الأمة في وحدة أساسها الاخاء — لا المساواة — وأن يسير بالأمة في طريق الاصلاح بالتدرج والاعتدال لا عن طريق الثورة والتطرف ، هذا مع الاحتفاظ بالاطار — أو الشكل — التاريخي الذي نشأت الأمة البريطانية في داخله .

﴿ الاحرار ﴾ أما حزب الاحرار فجوهر فكرته الدفاع عن الحرية ، فقد دافع عن الحرية الدينية وعن حق المعارضين للكنيسة القومية في العبادة ، والتمتع بحقوقهم المدنية كاملة ، ثم دافع عن الحرية السياسية وعن حق كل فرد في اعطاء صوته ، وعن حق مجلس العموم في أن تكون له الكلمة الأخيرة الفاصلة في شؤون الامة ، ثم دافع عن الحرية الفردية حرية الفكر وحرية العمل في حدود الدستور والقانون ، وقد دعا الاحرار في بادىء الأمر الى الحرية الاقتصادية ، إلا أنهم بعد أن اتسعت الحركة العمالية ، رأوا أن للعمال حرية يجب أن تصان ، وأن هذه الحرية لا تصان إلا اذا تغير النظام الاقتصادي ، ففكروا في برنامج اقتصادي ديمقراطي يوفقون فيه بين حرية المنشآت الفردية وبين مصلحة العمال ، وطالب الحزب بأن يكون للعامل نصيب من أرباح المنشأة يمكنه مع الزمن اقتناء ملك خاص ، ويتضح وجه التقارب بين الاحرار والاشتراكيين في أمرين : في تعضيدهم وتحبيذهم لاشتراكية جميع المنشآت التي تستطيع الدولة ادارتها خيراً من الافراد ، ثم في محاولة ادخال مبدأ التعاون الاجتماعي ، إلا أن هناك عوامل كثيرة جدت كان من شأنها إضعاف مركز هذا الحزب، فقد تكوّن الحزب أصلاً لتحقيق الحرية الدينية والسياسية والاجتماعية، وقد تمّ له ما أراد ، أما الحرية الاقتصادية فبعد أن دعا اليها انتهى الى تقييدها ، فكأنما هو يلغي نفسه بنفسه ، خصوصاً وان حزباً جديداً فتيّاً اقتحم ميدان السياسة البريطانية داعياً إلى تقييد الملكية الصناعية ، مثله مثل حزب الاحرار ولكن بصورة أوضح وعزم أشد ونشاط أقوى ، ذلك هو حزب العمال .

﴿ حزب جديد ﴾ كانت الامة تتوق الى سن قوانين اجتماعية ديمقراطية تحد من امتيازات الملاك الزراعيين ، وتحد من غلواء الكنيسة الرسمية ، وتعمل على تحسين حالة العمال، وتنظم توزيع الثروة الاقتصادية ، وتساعد على إظهار إرادة الشعب ؛ وكانت الامة ترتقب تحقيق تلك الآمال على يد حزب الاحرار . والواقع أن عدداً غير قليل من الاحرار أخذوا يسيرون في طريق الاشتراكية المعتدلة ، كما دعا بعض مفكريهم الى تغيير نظرية الحرية الاقتصادية والمنافسة الفردية ، كما دافع بعضهم عن الناحية الانسانية في الانتاج الصناعي وكان للأدباء الانجليز أمثال (شو) و (ولز) نصيب كبير في هذه الدعوة .

ثم قامت حركة كبيرة تنتقد احتكار بعض النبلاء للأرض والزراعة وانحصار الملكية العقارية في المدن في أيدي عدد محدود من الارستقراطيين الأثرياء ، كما زاد نشاط اتحادات العمال ، وكانت الحركة العمالية تمتاز بالخصومة المستمرة بين العمال وأصحاب العمل أكثر منها بين العمال وبين الدولة ، إلا أن العمال بدأوا في ١٨٩٠ يشعرون بأن الحكومة لا تؤازرهم،

ونشأ التنافر بينهم وبينها ، وفي نفس الوقت كانت الماركسية قد اتسع مداها في بريطانيا .

ففي ١٨٨١ تكوّن (الاتحاد الاجتماعي الديمقراطي) يضم العناصر المثقفة ويرمي الى نشر الشيوعية بين الشعب ، وفي ١٨٨٣ تأسست (الجمعية الفابية) تدعو الى اشتراكية الصناعة والارض والحكومة ، وفي ١٨٩٣ تكوّن (حزب العمال المستقلين) وقد بنى سياسته على الشيوعية المنقحة ، وفي ١٩٠١ اتحدت كل تلك الهيئات وانضم اليها جميع اتحادات العمال ، فنشأ حزب جديد قوي هو المعروف اليوم بحزب العمال .

﴿ العمال ﴾ تلك هي الظروف التي نشأ فيها (حزب العمال) البريطاني الذي أخذ نفوذه يطغى على حزب الاحرار وصار المحافظون يحسبون له كل حساب . وكلمة العمال هنا لا تعني عمال المصانع فحسب ، بل تشمل كذلك أصحاب المهن العقلية أمثال الاطباء والمدرسين والمحامين والصحفيين .

ونحن اذا درسنا سياسة حزب العمال على ضوء التصريحات التي أدلى بها زعماؤه ، استطعنا أن نقول انه حزب اشتراكي يرمي الى جعل وسائل الانتاج من الملكية العامة ، والى البحث عن خير النظم التي تستطيع الامة بها أن تدير وتراقب الصناعات والمنشآت ، إلاّ أن هذه المراقبة وتلك الادارة من جانب الامة ، ليس الغرض منهما مجرد تطبيق النظرية الاشتراكية من حيث هي نظرية ، إنما الغرض منهما الوصول الى حل عملي لرفع الضيق ومنع أسباب الشكوى ، وتحقيق المساواة الاجتماعية ، فرغبة الحزب إذن هي تحرير الشعب من القيود السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي كان يرزح تحتها ، وهو يهتم بتلك الفئة من الشعب التي يرتبط مصيرها ارتباطاً مباشراً بالقدر الذي تؤديه من العمل للحصول على ضرورات الحياة .

يسعى حزب العمال الى ازالة الفوارق بين أفراد الامة ، وهو في ذلك انما يتبع سياسة الحزبين الآخرين ولكن بنشاط أوفر وحماس أشد ، نظراً لحداثته ، وهو يكاد يكون اليوم أقوى الاحزاب البريطانية ، ومما زاد نفوذه انتصار روسيا العظيم في الحرب الاخيرة وظهورها بمظهر أقوى الدول الاوربية قاطبة ، وروسيا كما نعرف هي حاملة لواء الاشتراكية وحزب العمال كما رأينا آخذ بهذه النظرية ، وهو يعتبر نفسه اليوم الحزب الوحيد الذي يمكنه أن يتفاهم مع روسيا ، كما صرّح بذلك زعماؤه .

هذه نظرة عاجلة لتاريخ نشأة الاحزاب في بريطانيا وتطورها وسياستها ، وقد رأينا أن وجه التقارب كبير بين حزبي الاحرار والعمال ، لذلك يرى كثير من الكتّاب السياسيين أن بريطانيا لا تعرف اليوم في الواقع الاّ حزبين رئيسيين هما حزب العمال وحزب المحافظين .

ايليا نعمان حكيم



من أنواع النبات
الطبي

﴿ السُنْبُل ﴾ ويقال له سُنْبُل الطِّيب والسنبل الهندي وسنبل العصافير والناردين يطلق على نباتين طيبي الرائحة يتداوى بهما . الأول من الفصيلة النجيلية ينبت في المنطقة الحارة اسمه النباتي Andropogon or Cymbopogon Nardus وبالانكليزية Ginger Grass وبالفرنسية Spicanard, ou Nard Indien يستخلص منه بالتقطير دُهن متصعّد يدخل في صناعة الصابون العطر ويستعمل في طرد البعوض . والثاني عشب من الفصيلة الناليريانية ينبت في منطقة جبال هيمالايا اسمه النباتي Nardostachys Jatamansi وبالانكليزية Spikenard وبالفرنسية Lavande Indienne و Nard Indien وبالسنسكريتية « جتالا » و « جتاماسي » و « جتامانسي » استعمل جذره العطري منبهاً .

﴿ السيساليون ﴾ ويقال السيسالي من Séseli باليونانية هو الانجدان الرومي نبات من الفصيلة الخيمية اسمه النباتي Seseli tortuosum وبالانكليزية French Hartwort وبالفرنسية Séséli de Marseille يُتداوى ببزوره مخرجة للارياح ومضادة للدود .

﴿ السَيسَبان ﴾ شجيرة مصرية من الفصيلة القرنية سريعة النمو وتنبت في المناطق الحارة . أوراقها ريشية مضاعفة ظريفة وأزهارها صفر . اسمها النباتي Sesbania aegyptiaca وبالانكليزية Egyptian Sesban وبالفرنسية Sesban, ou Sesbanée تستعمل أوراقها مسهلة مثل السنا المكّي .

﴿ الشرنب الحجازي ﴾ هو الشبرُم عن الفارسية نبات من الفصيلة الاوفوربية له حب كالعدس أوراقه تشبه الطرخون أو العرعر . موطنه في منطقة البحر المتوسط وفي اسبانية

اسمه النباتي Euphorbia Pithyusa وبالفرنسية Euphorbe Pithyuse و Euphorbe à feuilles de genévrier لم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة

﴿ الشثم ﴾ معرّب جشم بالفارسية ويسمى في السودان حبة العين وحبّ العين . واسمه العلمي Cassia Absus من الفصيلة القرنية وهو حبّ صغير أسود مستطيل يذرّ سحيقه في العين عقيب الرمد ليخصمه وأهل السودان يتداوون به أيضاً من مرض جلديّ يسمى القوباء Ringworm مسبَّب عن فطر .

﴿ الشَّلْشَكَة ﴾ اسم يطلق على الجنطيانا وهو نبات من الفصيلة الجنطيانية منبته في أوربا وآسيا الصغرى في قلل الجبال الشامخة . اسمه النباتي Gentiana lutea وبالانكليزية Yellow-Gentian وبالفرنسية Grande gentiane و Gentiane Jaune . أصله شبيه بأصل الزراوند يستعمل يابساً في الطب مقوّياً مرّاً ومعديًّا وتستخلص منه مادة تسمى أروماتين يستعاض بها عن حشيشة الدينار في صناعة الجعة (البيرة) .

﴿ الشونيز ﴾ ويقال الشهنيز معروف في مصر بالحبة السوداء وحبة البركة وبالكمون الأسود حبٌّ نبات من الفصيلة الشقيقية منبته في منطقة البحر المتوسط ويزرع في مصر اسمه النباتي Nigella sativa وبالانكليزية Black Cumin وبالفرنسية Nigelle Cultivée و Toute-épice وهذا الحبّ عطر يتداوى بسحيقه مخرجاً للأرياح ومعديًّا ومدرًّا للعاب ويدخل في تركيب السعوط معطساً كما يستخلص منهُ شبه قلويّ يسمى نيجلّين .

﴿ الشيطَرَج ﴾ معرّب جيترك بالفارسية نبات من الفصيلة الصليبية منبته في أوربا وشمال آسيا والمشرق وقد تأقلم في مصر بحدائق القاهرة العتيقة اسمه النباتي Lepidium latifolium وبالانكليزية Dittander وبالفرنسية Cresson, ou Passerage à large feuilles وهو غير الخامشة المذكورة في مقال سابق . ولم أعثر على ما ينسب اليه الأطباء من خواص في الكتب الحديثة .

محمود مصطفى الدمياطي

باب المراسلة والمناظرة

الارواح

عاد حضرة الفاضل الأستاذ احمد فهمي أبو الخير يناقشني في موضوع الروح تأييداً لعقيدة تحضير الأرواح . وقد اكتشف من مقالي السابق ان كل ما كتبته معروف لا جديد فيه لأنه ترديد للآراء السابقة التي سادت عقول العلماء في القرن التاسع عشر والتي اندثرت اليوم ازاء الفتوح الحديثة في العلم .

بالطبع لم أخترع كلاماً وأقوالاً ونظريات وانما اعتمدت في مقالي على ما تلقفته من كتابات كبار العلماء . واكتشف اني لم اطلع على مؤلفات تجينز وادينغتون واينشطين . بل اطلعت على مؤلفات الأولين وغيرها مثل بلانك والسير اوليفر لودج وبرتراند رسل وعلى بعض ما كتبه اينشطين. ولم أرَ انهم نادوا بانهيار مذهب آلية الكون لحطموا الكون المادي تحطيماً . وقال انه لم يصل الى علمي أن الكون المادي تبخر تحت ضوء علم الفيزيقيا الحديثة . نعم لم يصل هذا الى علمي لأنه لاهو ولا أنا تحطمنا وتبخرنا مع أننا نحن من الكون المادي.

يريد جناب الأستاذ اثبات وجود الروح باثبات تحطيم المادة . يعني ان المادة غير موجودة وان الروح وحدها موجودة . فليرشدنا الى أي مؤلف يتبسط بهذا الوضوع . نحن نعلم أن الفلاسفة التصوريين يعتقدون أن الكون الذي نراه لا وجود له إلاّ في عقولنا. ولهم في ذلك تفسيرات فلسفية . فهل يعني الأستاذ هذا ؟

ثم انه نقل عبارة من مقال لاينشطين عن « الأثير والنسبية » راجعتها مراراً فغمضت عني بعض آياتها ولاسيما قوله : « لا توجد من ثمت أية فترات فضاء زمنية بالمعنى الفيزيقي » فما هي فترات الفضاء الزمنية ؟ هل هي فترات زمكانية Space-time .

أما الاثير . فاني من أنصاره . وانما لا برهان عندنا على وجوده إلاّ أن بعض الظاهرات الطبيعية لا تعلل إلاّ بوجوده كأمواج النور العامدة لخط اتجاهها Transversal وغيرها أيضاً . ولهذا اعتقد ان الأثير موجود فعلاً وان كان ثمت لا برهان على وجوده ، موجود لأن به تستقيم حركات المادة .

واينشطين لم يجحد الأثير جحداً باتّا وإنما لما رأى ان عملية ميكلسن لم تكتشف سرعة الأرض في الاثير قال ان نظرية النسبية تصح من غير حاجة الى الأثير .

ولكن أي أثير هو ؟ ما هو ؟ هو ما ذهب اليه علماء هذا العصر من انه الذرة الصغرى

التي تألفت منها المادة والتي تنحل اليها أخيراً . فقد ذهب تجينز وادينغتون واينشطين وغيرهما ان الالكترون الذي هو الجوهر الأصغر السلبي في المادة التي نعالجها متى أطبق على البروتون وهو جوهر آخر ايجابي انفرطا الى فوتونات تذهب في الفضاء شعاعاً . الالكترون ينحل الى عشرة آلاف فوتون . وكما كان البروتون يساوي ١٨٤٠ ألكتروناً كان ينحل الى هذا الرقم مضروباً بعشرة آلاف . وفي رأيهم أن الفوتون هو ذرّة الاثير . والاثير مادة ، فما هو غريب عن المادة .

وفي كتاب Ether and Realty للسير اوليفر لودج ما يستفاد منه ذلك أيضاً .

بناءً عليه إذا كانت الروح هيكلاً أثيريّاً مطابقاً للهيكل الجسدي المادي خلية خلية فالروح إذن شيء مادي . وقد صرّح بهذا القول حضرة الاستاذ أبي الخير نفسه في ردّه بقوله :

« الروح مادة لا تستجيب لها المشاعر . وقد وصل العلم الى تصويرها بالفوتوغرافيا والأشعة الحمر والى وزنها كما وصل الى تصوير سيول الكهرباء المختلفة ووزنها الخ »

فاذا كانت الروح مادة فهي اذن غير الروح التي يعنيها اللاهوتيون وفلاسفة الأديان

دعنا من الروح اللاهوتية والفلسفية وخلّنا في الروح المادية التي تصور فوتوغرافيّاً والتي يشير اليها الاستاذ أبو الخير . هي ما نريد برهاناً على وجودها .

لاثبات الروح الاثيرية يوجه الاستاذ أبو الخير نظرنا الى العلم الروحي الحديث في الجامعات لانه يعتقد اني لم أسمع بهِ . ولعله يظنني من أهل نيام نيام لم أتتبع الحركة العلمية العالمية .

ولا أدري ان كان يعني بالعلم الروحي سبيرتيزم او Psychic research او شيئاً آخر . ويلفت نظري إلى كراسي لهذا العلم أنشئت في بعض جامعات اوربا الكبرى والى حجرة تحضير الأرواح في جامعة لندن .

فاشكر له توجيهه هذا ونصحه . وليسمح لي ان أقول له ان وجود هذه المعاهد الروحية والعقلية ليست برهاناً على وجود الروح اثيرية وغير أثيرية . وانما هي دلالة على اهتمام العلماء في البحث العلمي فيما يلاحظونه من الظاهرات العقلية وفيما يزعمه الزاعمون من الظاهرات الروحانية . فهم الآن في طريق البحث . الى الآن لم يثبت العلماء بالقواعد والطرق العلمية وجود الروح وماهيتها وخلودها الى غير ذلك . نحن صابرون منتظرون حين يدق ناقوس البشائر بظفرهم علميّاً بالروح فيكون ذلك الحين عيداً عظيماً عند جميع البشر .

بقي أن الاستاذ أبا الخير يطلب مني أن اعلل الحادث الذي أثار هذه المناقشة وهي رؤيا رفعة حسنين باشا . وهو يعتقد اني لا أستطيع تعليلها ويؤكد لي أنه حادث حقيقي بدليل أن مجلة الدنيا الجديدة رددته — ما شاء الله .

نعم أؤكد لحضرة الأستاذ اني لا استطيع ان أعلل ذلك الحادث لانه لم يحدث . ومن يستطيع أن يعلل ما لم يحدث الاّ في مخيلة راويه . لا أكذّب الراوي . هو صادق فيما روى ولكنه كان مخدوعاً فيما رأى شأن جميع الرؤى . ومثلها كثير كل يوم مع كثيرين من الناس . أقول ان تلك الرؤيا وغيرها هي وهم انخدع به الواهم . فعلى حضرته أن يثبت انه حقيقةٌ وليس عليَّ أن أثبت أنه وهم .

الفرصة سانحة الآن لأن أروي حكاية تدور حول وهم من هذه الاوهام .

كان هوديني مشعوذاً أميركيًّا مشهوراً . وقد دهش الناس بما عمله من الشعوذات العجيبة وكان من شعوذاته انه يستحضر الارواح .

ولما قدم عهده وفرغ وطابه من عملياته التي لا تكاد تحصى عاد يكررها ويشفعها بتفسير لها . أي كان يعمل العملية ثم يفسر للشاهدين كيف عملها وكيف خدع أبصارهم . فكان هذا التفسير أدهش لهم من العملية . ولذلك كانت عمليات تحضير الارواح عنده شعوذة . وأكد لهم ان كل دعوى من دعاوي محضري الارواح انما هي زور وبهتان .

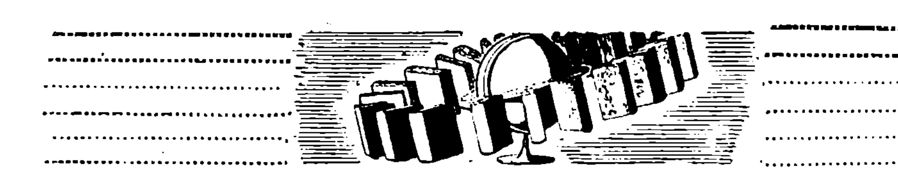
فثار عليه أنصار تحضير الارواح وشجبوه . فلم يناقشهم وانما كتب بعض أسطر في ورقة وأودع الورقة في علبة وختمها وسلمها لجمعية المباحث النفسية . ثم طلب الى الجمعية أن تعلن بعد موته ان تحت يدها علبة تحتوي على كتابة من هوديني . فمن يستطيع ان يحضر روح هوديني ويستمليه ما في تلك الورقة فله جائزة ٤٥٠٠ ريال إذا طابق ما قاله ما كتبه. وتقدم الى الجمعية أستاذ أرواح ايطالي مدعياً انه يستحضر روح هوديني ويستنطقه مضمون الورقة. وعقدت جمعية المباحث النفسية اجتماعاً في دار مجلة الاكتشاف والاختراع في نيويورك حضرها علماء وصحفيون . وأعد الأستاذ الروحاني القاعة كما شاء من حيث التعتيم وتسويد الجدران ونحو ذلك وأرسل شاشة لكي تظهر عليها صورة هوديني ويسمع صوته منها .

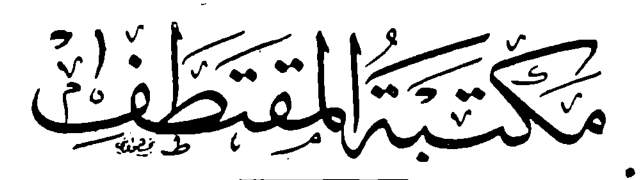
وجاهد هذا الأستاذ مستعيناً برفيقته نحو ٣ ساعات بعد الظهر فلم ينجح. وأخيراً أعلنت رفيقته ان الأستاذ تعب فترجو تأجيل الجلسة الى حين آخر .

وفي اليوم التالي منحت الجرائد ذلك الأستاذ الروحاني حقه من التهكم والسخرية .

كان ذلك منذ نحو عشرين سنة وقد قرأت الخبر في مجلة الاكتشاف والاختراع . وأظن أن العلبة المختومة لا تزال في حوزة الجمعية معروضة لمن يطمع بجائزتها . فلعلَّ أستاذنا أبا الخير يود أن يجرب حظه لا طمعاً بالجائزة بل رغبة في تقديم البرهان الدامغ على صحة علم استحضار الارواح وليكن الله معه .

نقولا الحداد





الفلسفة الرواقية [1]

للدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب

هذا الكتاب احدى علامات الوقت في مصر والشرق العربي . موضوعه مدرسة واحدة من مدارس الفلسفة اليونانية ، يعرض المؤلف كل ما يتصل بها في قرابة ثلثمائة صفحة بالقطع الكبير ، ويحيل في الهوامش الى مراجع يونانية ولاتينية وفرنسية وانجليزية والمانية وعربية ، ويصادف معظم مسائل الفلسفة وتاريخها ، ويقف عند كل منها وقفة العارف المحص الموازن ، ويختتم بثبت جامع للمراجع في اللغات المذكورة مع ملاحظات عليها ، وبكشاف للاصطلاحات اليونانية ومقابلاتها العربية واللاتينية والفرنسية . كل هذا يعني أنه قد صار بيننا بحاث هيأوا أنفسهم للبحث العلمي الدقيق وأحاطوا بمظانه وحذقوا طرائقه . وهو يعني فوق ذلك أن قد صار بين أبناء العربية جمهور يقبل على البحوث العلمية ، فيجد المؤلفون في تقديره بعض العوض مما يعانون . وهذه ثمرة التعليم الجامعي في أقل من عشرين سنة ، نخليق بالذين قاموا عليه أن يغتبطوا بها أشد اغتباط .

يعرض المؤلف ترجمات زعماء الرواقية في اليونان والرومان ، ويفصل آراءهم ، ويناقش مختلف الاقوال فيها ، بما لا يدع حاجة للاستزادة، ويستغرق في ذلك أكثر من ثلثي الكتاب. ثم يعرض لآثار الرواقية ، فيتحدث عن أثرها في التشريع الروماني وفي المسيحية وفي الاسلام وفي عصر النهضة وعند ديكارت وسبينوزا . وكنا نتوقع أن يصل الى كانت ، وفلسفته الخلقية مدينة للرواقية بالشيء الكثير ، ولكنه لم يفعل . على ان الدكتور عثمان أمين أشار صراحة الى رواقية كانت (ص ١٠) فنستطيع أن نقول ان كتابه جاء صورة كاملة للمدرسة في نفسها وفي تاريخها .

---

(١) الكتاب الثاني من سلسلة « أعلام الفلسفة » الناشر مكتبة الخانجي سنة ١٩٤٥

واذا سمحنا لنفسنا بالتعقيب عليه ، وفاءً لحق النقد العلمي ، قلنا اننا وقفنا فيه عند أمور : منها ما نرى انه لا يذكر لغير المؤلف لاننا نقدر أن يكون له فيه رأي ، ومنها ما نرى الافصاح عنه هنا . وجملة ما سنورده ترجع الى رغبةٍ في تقريظ الرواقية تفند بالمؤلف فيغلو، فيكاد القارئ يتوهم انه لم يكن قبلها فلسفة ، وان كل فلسفة بل كل تفكير جاء بعدها كان صدًى لها . وقد نلتمس لحضرته بعض العذر في طول عشرته المدرسة وانعام النظر في تعاليمها ونشدان المثل الأعلى في الأخلاق ، ولكن شيئاً من الأناة كان واجباً .

يرى حضرته اننا « اذا رجعنا الى آراء المسيحيين أنفسهم وجدنا منهم من يرى في المذاهب الرواقية « تمهيداً » للانجيل ، بل لقد ظهر باللغة الالمانية كتاب ذهب فيه صاحبه الى أبعد من هذا ، فقرر ان « الرواقية أصل المسيحية » وجعل هذه العبارة نفسها عنوان كتابه» (ص ٢٢٢) . وكان خليقاً بصديقنا أن يورد أولاً الفوارق العميقة التي تفصل بين المسيحية والرواقية . فالرواقية تقول بوحدة الوجود أو بتأليه المادة ، وبالضرورة المطلقة ، وبفناء الشخصية الإنسانية بعد الموت ، وبجواز الانتحار ، وتقول المسيحية بالروحية ، وبإله مفارق للمادة ، وبالحرية في الله والانسان ، وبنفس انسانية روحية خالدة ، وبعناية الهية فعالة ، وبانكار الانتحار ، عدا عقائدها الخاصة التي لا يقابلها شيء في الرواقية . وكان خليقاً به ثانياً أن يستوفي المراجع في هذه النقطة . ونحن نحب أن يميز كتابنا بين المسيحيين مولداً والمسيحيين عقيدة ، فإن من بين أولئك كتاباً ملحدين متحاملين فلا تؤخذ أقوالهم على علاتها ، بل اذا قورنت بالردود عليها تبددت كالهباء . ونحب أن يميزوا بين أقدار الكتاب ، فإن منهم الخطير ومنهم الصغير ، ومنهم من ارتفع صيته لسبب من الاسباب ثم سقط ، مثل رنان الذي ينعته المؤلف بأنه « حجة الباحثين في أصول المسيحية» (ص ١٨٢) . وأقل ما أقول فيه الآن إن أحداً من المعنيين بهذه الاصول لا يذكره أو يرجع اليه ابتغاءَ العلم . هذه مسائل دقيقة عسيرة للغاية نحب أن يتحاشى كتابنا الخوض فيها فيتحاشوا الزلل . ولا نرى بأساً في أن ندل على مثال بسيط لما يستهدف له الكاتب في عقد الموازنات : ففي ص ٢٢٧ يقول المؤلف « ان بين المثل الأعلى الرواقي والمسيحي فرقاً عميقاً : فالرواقيون يرون أن الفضيلة عبارة عن مجاراة الفطرة الطبيعية ... أما المسيحي فيرى أن الفضيلة عبارة عن مكافحة الطبيعة » والحقيقة ان لفظ الطبيعة مشترك بين الطبيعتين الحسية والعقلية ، وأن المسيحي يرى مكافحة الطبيعة الحسية ، كما يكافحها الرواقي ، لتغليب الطبيعة العقلية التي يعنيها الرواقي . فالطرفان متفقان ولا خلاف بينهما البتة في هذه النقطة . فناهيك بالمقارنة بين أقوال الرواقيين وأقوال الاناجيل ورسائل بولس . يبقى أن

كثيرين من المسيحيين ، الذين تنصروا بعد رواقية وأفلاطونية ، وغيرهم من بعدهم ، أفادوا من الرواقية في تفصيل القول في الفضائل ، وأخذوا عنهم بعض الاصطلاحات ، وهذا ما كان يستطيع حضرة المؤلف ان يستقصيه ، وهذا شيء آخر غير جوهر العقيدة .

وفي الكتاب أمثلة أخرى على هذا الغلو في الاشادة بالرواقية . منها قول حضرته مع الأستاذ جلسون إن نظرية المعاني الفطرية « وردت على لسان ديكارت حاملة طابع أصلها الرواقي » (ص ٢٥٩) : وإذا سلمنا بهذا كان لزاماً علينا أن نلاحظ أن النظرية أفلاطونية قبل ان كانت رواقية . ومنها هذه العبارة « لكن انكار الأشياء اللاجسمية عند الرواقيين لا يفيد انكارهم للروحانيات ، بل كل ما في الأمر أنهم يجعلون من الروح جسماً من الأجسام » (ص ٢٨٢) ! ومنها اضافة الفضل الى الرواقيين في أفكار عامة مشتركة بين العقول ، كالتي يذكرها في ص ٢٧١ وفي غيرها ، وتوارد الخواطر ظاهرة معروفة خصوصاً في الأخلاقيات وفضل الأفلاطونية سابق ولاحق ، وفضل أرسطو غير منكور .

على أننا نريد أن نعلق ان هذه التحفظات لا تنال بحال من قيمة الكتاب ، فان قيمته كبيرة . يتجلى فيه علم غزير معروض بأسلوب رصين رشيق ، وتنساب فيه حرارة روحية صادقة تنفذ الى نفس القارىء فتسمو بها الى الخير . فهو خدمة جليلة علمية وخلقية . وإنه ليلذ لنا أن نهنىء صديقنا الدكتور عثمان أمين مخلصين بهذا التوفيق الجميل .

يوسف كرم

Muhammad Abduh

Essai sur ses idées philosophiques et religieuses

par Dr· Osman Amin

طبع بمطبعة مصر بالقاهرة وبه مقدمة لمعالي مصطفى عبد الرازق باشا

هذا الكتاب ألفه بالفرنسية الدكتور عثمان أمين المدرس بكلية الآداب ، وهو بحث مستفيض في آراء الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الفلسفية والدينية والاجتماعية وقد تقدم به المؤلف لنيل اجازة الدكتوراة فظفر بها مع مرتبة الشرف الممتازة .

ولقد أنصف الأستاذ المؤلف في وضع هذا الكتاب بالفرنسية ليعرّف علماءنا ومصلحينا وقادة الرأي فينا الى الأجانب وليلقي ضوءاً على نواحي النهضة في بلادنا .

وسنعود في فرصة أخرى الى توفية هذا الكتاب القيم حقه من الدرس والتقدير

الانجليز كما عرفتهم

مطالعات ومشاهدات عن المجتمع البريطاني

تأليف أمين المميز — مطبعة السكك الحديدية للحكومة العراقية — ٣٣٢ صفحة من القطع الكبير — الطبعة الاولى سنة ١٩٤٤

من السنن المتبعة في السلك السياسي العراقي أن يؤلف الموظف فيه رسالة عن الأمة التي انتدب للعمل في بلادها وان يكون تأليفه بلغة الأمة نفسها وهذه سنّة محمودة فقد كان من ثمراتها هذا الكتاب النفيس الذي ألفه الأستاذ أمين المميز وهو من كبار رجال السلك السياسي العراقي . ألفه لما كان يعمل في المفوضية العراقية في لندن ثم ترجمه الى العربية ببعض التصرف ووضع مقدمة الكتاب فخامة السيد توفيق السويدي بك وفخامته من خيار رجال العراق علماً وفضلاً وله منزلة ممتازة في علمه وفضله وحكمه . ولقد ولي رياسة الوزارة العراقية عدة مرات بعد ما كان من كبار رجال الحقوق . وقد أثنى فخامته على المؤلف بما هو أهل له وأشار الى فائدة الكتاب وفائدة التعارف التي يحدثها بين العرب والانجليز فقال :

« وإذا تعرّف الجمهور العراقي الى صديقه وحليفه الجمهور الانجليزي يكون من السهل تقوية أواصر المودة بينهما وخدمة المصالح المشتركة التي تأسست لحسن الحظ وتوطدت أسسها لا بين العراق وحده وبريطانيا بل بين العالم العربي وبينها . وفي ذلك ما لا يقدّر من منافع تعود بالخير العميم على الجميع » .

والمؤلف الفاضل يضرب على هذه النغمة بجلاء في خاتمة مقدمته فيقول :

« نحن مقبلون على عالم جديد وحياة جديدة ستختلف في كثير من النواحي عن الحياة التي اعتادها عالمنا السالف . وعلينا ان نعد العدة ونتنكب السلاح لمواجهة هذا العالم الجديد. وحريٌّ بنا نحن معاشر العرب أن ندرك أننا أقرب بتفكيرنا وآمالنا ومطامحنا ومثلنا العليا وطرق حياتنا ونظمنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية الى العالم الانجلوسكسوني من أية مجموعة دولية أخرى . فعلينا إذن أن نتفاهم ونتعاون ونتبادل الرأي والشعور والمصلحة معه بالدرجة الأولى ان أردنا أن نحقق مهمتنا ونؤمن خيرنا وسعادتنا ونحتل المركز اللائق بنا بين مجموعات الشعوب العالمية »

وبعد ذلك بحث المؤلف عن التشابه بين العراقي والانجليزي فقال : « فلو قارنا بين طبيعة الفرد العراقي وطبيعة الفرد الانجليزي لرأينا الفرق البين بينهما ، فتباين الأحوال الجوية والمناخ القاري ذي الصيف الحار جدًّا والشتاء البارد جدًّا جعل من العراقي فرداً سريع

التأثر والانفعال تسيره العاطفة في كثير من الأحيان . أما الانجليزي فهو على العكس من ذلك بارد الطبع بطيء التأثر الى درجة انه يوصف بالبلادة » . ثم قارن بين العراقيين والانجليز في تعلم اللغات واتقانها في صفحتي ١٧ و ١٨ ولم يفته أن يظهر للعرب فضلاً على الانجليز في اقتباسهم العلم عن العرب في صفحة ١٤. ولما تكلم عن مشكلات الانجليز أشار الى المشكلة الفلسطينية في صفحتي ٢١٠ و ٢١١ فقال : — « وفي هذه الامبراطورية التي أغدقنا عليها آيات الوصف والاعجاب ثلاث قضايا معقدة ما زالت أعقد من ذنب الضب ولم تتوصل أدمغة الساسة الى ايجاد حل لها وهذه القضايا هي : القضية الفلسطينية، والقضية الارلندية، والقضية الهندية . فالقضية الأولى نشأت منذ أن استحوذت بريطانيا على الأراضي المقدسة بحجة « الانتداب » فخلقت ما يسمى بالقضية الفلسطينية تلك القضية التي أصبحت الآن ليست قضية فلسطينية وانما قضية بين العرب والصهيونيين ، بين الاسلام واليهود ، بين انجلترا وأميركا ، بين الشرق والغرب . وبكلام أوضح بين الحق والباطل . والبحث فيها خارج عن نطاق موضوعنا هذا والأفضل أن نترك أمرها لغيرنا » .

والكتاب مقسم الى أربعة فصول استوفى المؤلف البحث فيها عن الرجل الانجليزي والمرأة الانجليزية وحياة الانجليز السياسية والاجتماعية . وقد أسهب في ذلك كثيراً . واذا شئنا الاسهاب في سرد ما امتاز به الكتاب من معارف ومعلومات طارفة وتليدة احتجنا لمساحة لا تتسع لنا هنا ولوقت كبير . فنقول اجمالاً ان للكتاب لذة كتب السياحة والوصف وهو مع هذا كتاب له روح التحقيق والاستقصاء وفيه حرية متسمة في نقد ما رآه خليقاً بالنقد والتنبيه الى مافيه فائدة لبريطانيا الحليفة وللبلاد العربية جملة وتفصيلاً . وقد استحق المؤلف الثناء والاعجاب .

محي الدين رضا

زمزم الغريقة

لمحمد كاظم المحرر بالاهرام — ١١١ صفحة من القطع المتوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية بمصر

يمتاز هذا الكتاب بميزتين : كثرة التحقيق وحلاوة الأسلوب . أما التحقيق فليس غريباً على مؤلفه الفاضل فقد عرفته الصحافة الرفيعة كيف يتحرى الدقة في الأخبار وكيف يكون أميناً عليها . وأما الاسلوب فليس فيه تكلف ولا اغراب . ولكنه عذب ينساب في خلال الكتاب انسياب الجدول المترقرق .

والمؤلف وصّاف بارع يغريك حديثه من سطر الى سطر ومن صفحة الى أخرى حتى أتي على الكتاب كله في جلسة واحدة . فهو بارع حين يصف البحر الهادىء حيناً والمضطر

حيناً آخر ، وهو بارع حين يصف زمزم وقد تلقفتها أمواج المحيط . وهو بارع حين يصور لك حياة الظلام في العذاب . . . . وهو بارع حين يعود بالمعتقلين الى وطنهم العزيز لينشقوا نسمات الحرية من جديد .

لقد ذهبت زمزم الى قضائها المحتوم وبقي كتاب « زمزم الغريقة » أثراً باقياً لها . فنهنىء المؤلف على كتابه ، ونشكر دار احياء الكتب العربية على معونتها الصادقة لنشر الآداب والعلوم .

١ — الحياة الروحية في الاسلام

للدكتور محمد مصطفى حلمي مدرس الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الاول
١٦٠ صفحة من القطع الوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية

٢ — الملامتية والصوفية وأهل الفتوة

للدكتور أبو العلا عفيفي أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فاروق الاول
١٢٥ صفحة من القطع الوسط — طبع بدار احياء الكتب العربية

فكرة موفقة ، ونهضة مباركة ، فأما الفكرة فهي قيام الجمعية الفلسفية المصرية بما أخذته على نفسها من إصدار تلك السلسلة القيمة من المؤلفات يشرف على إصدارها عالمان جليلان هما الدكتور علي عبد الواحد وافي رئيس الجمعية ، والدكتور عثمان أمين سكرتيرها العام ، ولعلمهما الواسع وخلقهما النبيل أثر ملحوظ في نجاح تلك الفكرة ... ولدار إحياء الكتب العربية التي أخذت على عاتقها إخراج هذه السلسلة فضل لا يجحد في تدعيم تلك الفكرة .

وأما النهضة المباركة فمظهرها في هذه الحيوية المتدفقة في آثار تلك الجمعية ، فلقد أخرجت خمسة مؤلفات قيمة ولما تمض على تكوينها بضعة أشهر ، وأمامها سلسلة من المؤلفات النفيسة قدمها مؤلفوها اليها لتتابع إخراجها .

ولقد شاءت المصادفة أن يخرج من مؤلفات هذه الجمعية كتابان متتاليان يبحثان في عالم واحد هو عالم الروحية الاسلامية .

وانها لفكرة جميلة أن يصدر هذان الكتابان ، وقد هدت المادية أعصاب العالم وقوضت أركانه وزعزعت إيمانه حرب طاحنة غلبت فيها شهوات الجسد وأطماعه روح الخير في الناس فاندفعوا وراء أطماعهم وماديتهم يصطرعون ويهدمون ويحطمون حتى أنفسهم لا يردعهم هاتف روحي ولا يعصمهم مثل من أمثلة الانسانية المتجردة عن أطماعها .

فأما الكتاب الأول فقد تناول فيه مؤلفه الفاضل الحياة الروحية في الاسلام تلك الحياة « التي يخضع فيها الانسان لألوان مختلفة من مجاهدة النفس وكشف حجاب الحس ، وتصفية القلب وتنقيته من أدران الشهوة والهوى ، وقطع العلائق المادية التي تفسد عليه صلته بربه ، وصلته بأشباهه ، ثم هي بعد هذا كله تأمل في الكون ، ومشاهدة لمبدع الكون مشاهدة سبيلها الفناء عن النفس البشرية ، وقوامها البقاء في الذات الالهية ، والاتحاد بالحقيقة العلية ، والتحقق بمعرفتها معرفة يقينية لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها » . وبيّن كيف نشأت هذه الحياة من تحنث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ثم تناول حياة محمد النفسية وأحواله وأقواله في الزهد والتقشف مما كان له أثر في حياة أصحابه والتابعين له .

وانتقل بعد ذلك الى الكلام على مصادر الحياة الروحية الاسلامية ، وناقش كل مصدر ، وهو يميل الى مسايرة الحياة العربية في الجاهلية عند الكشف عن مصدر الروحية بحيث يمكن القول بأن حياة الزهاد والصوفية في الاسلام إنما هي استمرار لهذه الحياة الخشنة التي كان يحياها العرب الجاهليون ، وهو بهذا يرى ان بذور الروحية الاسلامية نشأت في الجزيرة العربية ولم تتلق أصولها من مصادر هندية أو فارسية أو نصرانية أو يونانية . . . ثم تناول بعد ذلك زهاد القرنين الاولين للهجرة وخصائص الحياة الروحية للزهاد وعرض لناحيتين من الزهد في حياة زاهدين : الحسن البصري تمثيلاً للزهد مع الخوف ، ورابعة العدوية تمثيلاً للزهد مع الحب . ثم تكلم عن الصوفية والتصوف وعن معناها . ثم انتقل من ذلك الى خصائص التصوف في القرنين الثالث والرابع والصراع الذي قام بين الفقهاء والصوفية ومذهب الحلاّج ؛ حتى أشرف على القرن الخامس فتناول حياة الغزالي الروحية وتطرق البحث الى علم الكلام والفلسفة وتصنيف العلوم والمعرفة والسعادة عند الغزالي ، ثم تناول خصائص التصوف في القرنين السادس والسابع وتكلم عن رجاله السهروردي وابن عربي والفارض — وللمؤلف دراسة واسعة عن هذا الشاعر الالهي لم نسعد بقراءتها بعد — وابن سبعين حتى انتهى به البحث الى التصوف بعد القرن السابع والى ما أصابه بعد ذلك من تدهور وانحطاط وبذلك تمت الناحية التاريخية من هذا البحث القيم ، ولعل الوقت لا يطول على اخراج القسم الثاني من هذا البحث في الناحية الموضوعية

• • •

أما الكتاب الثاني الذي وضعه الدكتور ابو العلا عفيفي فقد قصره على الكلام على

الملامتية والصوفية وأهل الفتوة . والملامتية فرقة من فرق الصوفية ظهرت بمدينة نيسابور بخراسان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة تقوم فكرتها على اتهام النفس ولومها في كل ما يصدر منها من قول أو عمل ومحاربة الرياء . واذا كانت غاية الصوفية — في مقارنة السهروردي — الفناء في الله ورؤية الخلق بعين الزوال لا تمنيهم النفس ولا اخلاصها ولا الخلق وآراؤهم لان سلطان الحقيقة يستولي عليهم فلا يشاهدون عيناً ولا رسماً . أما الملامتية فأهل صحو وإدراك يرون ان الغاية من الطريق الاخلاص في الأعمال وتحريرها من معاني الرياء . وأما الفتوة فاسم أطلق على مجموعة من الفضائل وكانت في الصدر الأول من الاسلام أمراً فردياً ولم يعرف لها نظام اجتماعي الا في عصر متأخر . . . وقد تناول المؤلف في في القسم الأول من كتابه مذهب الملامتية ونشأته التاريخية والصلة بين تعاليمها وتعاليم الصوفية وأهل الفتوة كما تناول أصولها وفلسفتها في النفس . وانتقل في القسم الثاني الى رسالة الملامتية التي ألفها أبو عبد الرحمن السلمي وقد مهد لها بدراسة مستفيضة عن مؤلفها ومنزلته من تاريخ التصوف وتلاميذه وتصانيفه .

• • •

وختام القول ان المؤلفين الفاضلين قد أحسنا صنعاً باخراج هاتين الدراستين النفيستين في الروحية الاسلامية في هذا الزمن الذي يجب ان تقوى فيه عوامل الخير ومحاربة النفس . وقد أحسنت الجمعية الفلسفية في اصدارها هاتين الحلقتين موصولتين . وهو جهد مشكور

حسن كامل الصيرفي

١

مشكلات الاطفال اليومية

للدكتور دجلاس توم وترجمة الاستاذ اسحاق رمزي — صفحاته ٣٠٤ صفحة من الحجم الكبير — طبع بدار المعارف بمصر

كتاب عملي يعرض كافة المسائل التي تعرض لسلوك الأطفال وتربيتهم وهو يهم الآباء والامهات والأطباء والمعلمين الاطلاع عليه لما فيه من الفوائد والبحوث السيكولوجية وما فيه من عرض وتحليل لأسس الصحة العقلية والنفسية .

وسنعود في عدد تالٍ الى دراسة هذا المؤلف النفيس

١ — شخصيات ومذاهب فلسفية

للدكتور عثمان أمين — ١٦٠ صفحة من الحجم المتوسط — دار احياء الكتب العربية بمصر

العقل بطبعه ميّال الى المعرفة طموح الى زيادتها ، لا يقنع بكشف ما ، بل يشرئب الى المزيد ويتطلع دواماً الى آفاق جديدة . هـذا ما تمليه علينا الطبيعة الانسانية الصحيحة التي تأبى إلاّ أن تستغلّ كل عضو من أعضاء الجسم فيما خلق له وتسرف في هـذا الاستغلال مخافة أن يتراكم عليه الصدأ ويبلى بطول الوقت . ولن يجـد العقل غذاءً دسماً يملأ زواياه وينتشر في خلاياه كالفلسفة . فالفلسفة غذاء ذهنيّ شهي كلما هضمته زاد شوقك إلى سواه ، وما أنت بقانع مهما اتسع عقلك له .

ويطيب للعقل أن يسبح فيما وراء الطبيعة محاولاً أن يتفهّـم كنهها ويدرك ما خفي عنه منها ويسبر غورها ويتفرّس في أسرارها وخباياها لعله يوفق الى استجلاء ما غمض عليـه وتعليل ما أشـكل على الحواس . وما الفلسفة إلاّ حب المعرفة والسعي لادراكها بأساليب ومناهج شتى وتتوسل الى ذلك بالمنطق مرة ، وبالحواس أخرى ، وبالاستنتاج مرة ثالثة .

والفيلسوف بطبعه لا يمقت إلاّ كل مختزن للمعرفة ضنين بهـا على الآخرين ، فما الأثرة من سجايا الفلاسفة ، وإنما الايثار والمشاركة . لذلك رأى الدكتوران علي عبد الواحد وافي وعثمان أمين أن يصدرا سلسلة من المؤلفات الفلسفية يشرف عليهـا من علٍ معالي الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ليستطيع المبتدئون في الفلسفة أن يشقوا طريقهم بين خضمها وليلمّ الذين يتهيبون الفلسفة بما يهيء لهم سبيل الاقبال على مناهلها وورود ينابيعها .

وأصدر صديقنا الدكتور عثمان أمين أستاذ تاريخ الفلسفة في كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول كتاباً يجمع الى سهولة التعبير عمق المادة ودقة الرواية وإصالة الفكر وجمال العرض . وتناول في « شخصـيات ومذاهب فلسفية » طائفة من الفلاسفة ، سرد سيرتهم وفصّـل مناهجهم ودفع عن بعضهم ما لحقهم من إتهامات . واختار أن يعرض فلاسفة من اليونان ، فتحـدث عن السوفسطائيين الجـدليين الذين يتاجرون بالكلام وبالمنطق ، وعن سقراط الأخلاقيّ الشجاع الذي أبى أن يهرب من السجن لينقذ حياته وآثر الموت الشريف على الحياة الذليلة . ثم عرض فلاسفة من الاسلام فتحدّث عن الفارابي الذي بدأ شبابه متفلسفاً وقضى كهولته متفنناً وختم حياته متصوّفاً ، وعن ابن سينا الذي تقلد مناصب الوزارة والرياسة ولم يسلم من جناية السياسة عليـه ، وعن ابن رشد النابغة الذي كتب نحواً من عشرة آلاف ورقة وتبحر في الشروح والبحوث الدينية والفلسفية وكان بعيد الأثر في فلسفة الغرب . ثم تناول الدكتور عثمان أمين فيلسوفين أوربيين هما ديكارت زعيم المدرسة العقلية وصاحب نظرية الشك في كل شيء ، وهيوم التجريبيّ الاختباري الناقد :

فالكتاب لم يقتصر على عصر معين أو فيلسوف معين، بل وسع دائرة بحثه ليستطيع القارىء أن يلم بمدارس فلسفية منوعة وأساليب متباينة . فقرأنا فيه عن فلاسفة ماديين وعن آخرين أخلاقيين وغيرهم عقليين وعمليين ونظريين ، وسمعنا عن اليونان والاسلام وفرنسا وانجلترا ، وما كل هذا الجهد وكل هذا العناء الاّ ليتذوق القارىء حلاوة الفلسفة وليشارك الفلاسفة فيما يهدفون اليه من حب للمعرفة وسعي حثيث لادراكها ومتعة في النفاذ الى أعماقها السحيقة .

ولم يكتف الدكتور عثمان أمين بسرد النظريات الفلسفية مجردة من الشهيات ، بل لجأ الى مدّ كتابه بطائفة من الحوادث الطريفة عن كل فيلسوف . فقال عن ابن سينا انه كان بارعاً في الطب النفساني ، فجيء اليه برجل أصيب بالماليخوليا ليعالجه . وكانت العلة قد اشتدت على المريض حتى سيطر عليه الاعتقاد انه أصبح بقرة ، فشرع يقلد الأبقار في خوارها ويشرب معها ممتنعاً عن مؤاكلة بني الانسان . فقال ابن سينا للمريض : « هلمّ نذبحك ما دمت أصبحت بقرة » فأجاب المريض : « افعل ما تشاء » فأمر ابن سينا بأن يقيد المريض بحبل وأن يلقى على الأرض ويؤتى بسكين حاد . فلما جيء بالسكين ، أهوى به على المريض كأنه يريد ذبحه . فلما قرب من نحره قال له : « ما بال هذه البقرة هزيلة ! انها لا تصلح للذبح » فقال المريض : « انها تصلح للذبح فاذبح » ولكن ابن سينا أبى أن يذبحها حتى تمتلىء لحماً وشحماً . وأشار على « البقرة » أن تأكل كثيراً وتشرب كما يأكل الناس ويشربون . فسأل المريض : « أوتذبحني إن فعلت وأصبحت سميناً ؟ » فأجاب بالايجاب . وأخذ المريض يأكل ويشرب كثيراً ويعاشر الآدميين حتى برىء من علته وردّ اليه صوابه ! .

ولعل أجمل ما في كتاب «شخصيات ومذاهب فلسفية» الفصل الذي أفرده الدكتور عثمان أمين لديكارت ، فهذا رجل بدأ نهجه الفلسفي بالشك في كل شيء حتى في ذاته ، وانتهى باليقين القائم على دعائم لا تقبل النقض ولا تتسرّب اليها الريب .

أما فيما يختص بترجمة المصطلحات الفلسفية ، فالحق أن المؤلف أجاد كل الاجادة في اختيارها ، غير اني كنت أوثر أن يستعمل كلمة « الكائن » بدلاً من « الوجود » لتؤدي معنى Being وكلمة « الايحاء » بدلاً من « الحدس » لتؤدي معنى Intuition وكلمة « الاستنتاج » بدلاً من « الاستنباط » لتؤدي معنى Deduction .

وكتاب « شخصيات ومذاهب فلسفية » نموذج موفق للفلسفة المبسطة . والدكتور عثمان أمين نموذج صادق للشباب الوثاب . وقد جال من قبل جولات موفقة في رسائله « ديكارت » و « محمد عبده » و « الفلسفة الرواقية » وما زالت جعبته عامرة يمد المجلات بما يتدفق من فيضها .

٢ — ابرهيم الكاتب

تاليف ابرهيم عبد القادر المازني — ٣٠٨ ص . من الحجم الكبير — مكتبة مصر بالفجالة

ليس من ينكر على الكاتب الكبير الأستاذ ابرهيم عبد القادر المازني فضله على الأدب العربي وهو الذي سخر قلمه في خدمة الضاد زمناً يربو على ربع قرن . فهو كاتب خفيف الظل ، سهل العبارة ، دقيق التصوير ، صادق الرواية ، صريح حتى ليفتح لك قلبه على مصراعيه في أول لقاء . فهو يقبض على أزمة اللغة ويملك نواصيها ويتحكم في بيانها ، فيخلق من الكلمات معانٍ دقيقة معبرة ، ويبعث من مُـوَات اللفظ شخوصاً تراهم رأي العين البصيرة النافذة التي لاتترك شاردة ولا واردة ، ولا تغيب عنها حركة مهما قلَّ شأنها ، ولا تهمل تعبيراً من تعبيرات الوجه أو حركة من حركات الجسم الا رصدته وأحسنت تبيانه .

والأستاذ المازني رجل حياة ، شغوف بالواقع ، عزوف عن المغالاة والمبالغة . فتجيء جميع كتاباته طبيعية لاتصنع فيها ولا ادعاء، تعكس صوراً لاتنقصها الحياة ولا تعوزها الصراحة .
على هذا المنوال عوَّدنا الصديق الكبير في كل ما تخط يده ، فما فتيء يرجع إلى الدنيا في كل ما يكتب ، يستقي منها مادته ويصوغها في قوالب بعيدة عن التحيز او المجافاة . ومن يقرأ كتبه « ابرهيم الكاتب » و « ابرهيم الثاني » و « عود على بدء » و و . الخ يرى هذا جليًّا .

ومنذ نحو خمسة عشر عاماً خرج الأستاذ المازني على العالم العربي بكتابه الرائع « ابرهيم الكاتب » الذي أودعه عصارة قلبه ونفسه وفكره ، فصوَّر فيه حوادث أغلب الظن أنها عرضت له وكان هو بطلها أو ضحيتها على الاصح . وسلك في كتابته مسلكاً يدفع السأم عن القارىء ويطرد الملال عنه . « فابرهيم الكاتب » قصة كثيرة الفصول ، بل هي في الحق مجموعة قصص شُدَّت الى بعضها البعض بحبكة قصصية بارعة خلقت منها رواية تامة الفصول تجمع الى صدق التصوير جمال المعاني وبساطة الحياة ورصانة الاسلوب ، وكيف لا يكون هذا واللغة قد لانت للاستاذ المازني وطاوعته وأسلمته قيادها ؟ .

واليوم يطلع علينا الاستاذ الكبير بالطبعة الثانية من ذاك الكتاب ، لم يدخل عليها تعديلاً ما لانه رأى أن روايته أصبحت من الآثار الأدبية المعتمدة التي لا يحق له أن يتناولها بالتعديل أو التحريف . ولا تزال الرواية تحتفظ بجدتها ، ولا تزال شخوصها تتمتع بصحة وارفة ، فلم يشخ « ابرهيم » وهو البطل ؛ ولم يَحُلُّ المشيب هامة « شوشو » ولم تنل الايام من « الشيخ علي » ولم يمرض « الدكتور محمود » ولم تتخلَّ الطفلة « زوزو » عن طفولتها ، وإنما استطاعت الرواية لفرط جودتها الابقاء على رونقها والاحتفاظ بالحياة تدبُّ في أوصالها .

وديع فلسطين

باب الأخبار العلمية

العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية

ألقى الأستاذ الدكتور أحمد زكي بك المدير العام لمصلحة الكيمياء محاضرة عن « العوامل الاقتصادية في الصناعات الكيميائية » قال فيها : ان صناعة حامض الكبريتيك في مصر مهددة أكبر تهديد بعد الحرب إذا لم تكن لها حماية . ومن أسباب ذلك ان خاماتها (الكبريت أو البيريت أو الجبس) لم تثبت البحوث الجيولوجية القليلة وجودها في مصر ، كما أن قلة الانتاج المصري بالنسبة لنظائره في الخارج يزيد في ثمن انتاج الطن بمقارنته الى الثمن العالمي .

صناعة الورق

وقال الدكتور زكي بك ان صناعة الورق في مصر تنهض على قش الأرز . وهذا لا ينتج إلا الصنف الخسيس من الورق . فلا بد لهذه الصناعة من أن تتطلع الى خامات مصرية أخرى كمصاصة القصب ونبات البردي إن أمكن استنباته في مصر . ولا بد كذلك من تجديد الصناعة حتى تتحمل منافسة الخارج ولا مناص من مضاعفة الانتاج تخفيضاً لثمن الورق .

صناعة الكحول

أما صناعة الكحول ، فانها تعتمد في الأغلب على الميلاس (العسل الأسود) المتخلف من صناعة السكر . وقد يدخل في هذه الصناعة بعد الحرب عامل منافسة جديد شديد . فلسوف يتمخض السلم عن صنع الكحول من نشارة الخشب ومن الحطب المتخلف من قطع الشجر في الغابات . والولايات المتحدة تنتج من ذلك ٣٠ مليون طن يمكن تحويل نسبة كبيرة منه الى سكر فالى كحول ، وقد تم هذا فعلاً . ويقدر ثمن الكحول الناتج بنحو نصف ثمنه قبل الحرب وهذا تحول كبير . وتستخدم الولايات المتحدة الآن نحو أربع مئة مليون جالون من الكحول في صناعة المطاط الصناعي .

صناعة الصودا

وقال المحاضر ان انتاج العالم من الصودا بلغ في عام ١٩٣٧ نحو ١٧ مليون طن وان خامتها العالمية العظمى هي ملح الطعام (كلورور الصوديوم) . وثمة طريقتان متنافستان لانتاج الصودا أقدمهما طريقة

ملفاي ، وتعتمد على النوشادر والجير وأحدثهما طريقة الكهرباء وتعتمد على قوة كهربائية رخيصة . أما في مصر ، فان الصودا تستخرج بطريقة بدائية من وادي النطرون نهي والحال كذلك لا يمكن أن تفي إلاّ بالقليل من حاجة البلاد .

المواد الصناعية

ثم تحدث المحاضر عن المواد الصناعية Synthetics فقال انها تستخرج من مواد كيميائية أهم مصدر لها قطران الفحم وقد تسببت هذه الصناعة الجديدة في تغير الصورة الاقتصادية للصناعات الكيميائية تغيراً كبيراً . ودلل على ذلك بصناعة النيلج لان تحضير هذه المادة من قطران الفحم قضى على صناعة النيلج في الهند ومصدرها الشجر المزروع . وأشار الى الحرير الصناعي وقد بلغ الانتاج العالمي منه عام ١٩٤٠ نحو مليون ومئتي الف طن ، وكاد يكون معدوماً في الحرب الماضية . أما اللدائن أو المجائن الكيميائية Plastics فكان ينتج منها في عام ١٩٢٠ نحو خمسة ملايين من الارطال ، فأصبح انتاجها عام ١٩٤٠ نحواً من مئتي مليون رطل .

وثمة صناعة المطاط الصناعي الذي ينتج اليوم من الكحول ومن زيت البترول بعد تحطيمه Cracking . والمطاط الصناعي يمتاز كثيراً عن الطبيعي فضلاً عن ان الصانع يستطيع أن يتحكم في خواصه على الوجه الذي يبغي .

وتحدث زكي بك عن البنسلين الذي تنفق على صناعته اليوم مئات الالوف من الجنيهات . فقال : متى اهتدى البحث الكيميائي قريباً الى معرفة تركيبه وصناعته من مواده الاولية (مثل قطران الفحم أو غيره) ألغيت المصانع التي أنشئت الآن وضاعت جميع النفقات التي صرفت سدى . وعندئذٍ ينخفض ثمن البنسلين الى ثمن الاسبرين ويصبح في متناول الفقير قبل الغني .

المطاط الصناعي

تنبأ الدكتور جودفري كولدويل Godfrey Caldwell بشركة المطاط الامريكية في ولاية ساوث كارولينا بأن مجال استخدام المطاط الصناعي بعد الحرب سيكون واسعاً جداً . وقال ان الخبرة التي كسبها علماء الكيمياء من انتاج المطاط الصناعي في السنوات الثلاث الاخيرة تزيد كثيراً على الخبرة التي كسبوها من انتاج المطاط الطبيعي في ثلاثين سنة . وقال إن البوتيل Butyl وهو أحدث أنواع المطاط الصناعي أثبت انه يمتاز بكثير عن المطاط الطبيعي ولاسيما في صناعة اطارات السيارات الداخلية ، وذلك لانه يقاوم الحرارة العالية ويقاوم عوامل التمزق ويقاوم رطوبة الجو .

أشعة اكس في الحرب

أذاعت مصلحة الانتاج الحربي الاميركية أن حاجات الحرب أسفرت عن استنباط استعمالات جديدة وأنواع جديدة منوعة من آلات رنتجن (إكس) في ميادين الطب والصناعة .

ولم تكن أشعة إكس تستخدم في الكشف عن المواد الصناعية أو المنتجات الآلية قبل الحرب ، على الرغم من أن هذه الأساليب كانت معروفة من ثلاثين عاماً . ويحتاج إنتاج معظم مواد الحرب تقريباً الى الكشف عليها بوساطة أشعة إكس ، فقد ساهمت في الحرب بقسط كبير . واستخدمت آلات الأشعة من أوزان مختلفة تتفاوت بين بضعة أرطال وعدد من الأطنان وتتفاوت قوة التيار الكهربائي المستخدم فيها بين أربعة آلاف ومليونين من الفولطات .

ومن المنتجات التي تجتاز اختبار أشعة اكس يومياً للتثبت من صلاحيتها ما يلي : قطع الآلات وألواح الفولاذ اللازمة لبناء البوارج ورصاص البنادق والقنابل من عيار عشرة بوصات . وفائدة هذا الاختبار التثبت من أن التركيب الداخلي لهذه المواد خالٍ من العيوب . ويلاحظ ان العينات التي تجري عليها هذه الاختبارات لا تتعرّض لتلفٍ أو فساد بسبب أشعة إكس .

ترقية زراعة القطن

نشرت جريدة « وول ستريت جورنال » أن العلماء الاميركيين الذين يتوفرون على شؤون القطن توصلوا إلى تحسين حالة القطن واستحداث أساليب جديدة في زراعته وصناعته من شأنها أن تكسب القطن الطبيعي بعض الصفات الجيدة المتوفرة في منافسة القطن الصناعي ، مع احتفاظ نبات القطن في الوقت عينه بالمميزات التي ينفرد بها . وسيؤدي هذا إلى كشف مئات من الاستعمالات الجديدة لمنسوجات القطن .

علماء ألمانيا يحاكمون كمجرمي حرب

جاء في برقية لاحدى وكالات الانباء الاميركية من لندن ان لجنة محاكمة مجرمي الحرب المؤلفة من ممثلي الأمم المتحدة تبحث موضوع ادراج أسماء العلماء والأطباء الالمانيين البارزين في قائمة مجرمي الحرب تمهيداً لمحاكمتهم لأنهم تسببوا في وفاة ألوف من الرجال والنساء بما أجروه عليهم من تجارب علمية .

وديع فلسطين

اخترع موقد كهربي للطبخ ، فيه مصباح متألق ولوحة زجاجية مربعة ذات إطار لفحص الطعام . ويحتوي على ساعة اعتيادية واخرى مثل ساعات السباق .

ثم تقصد ربة البيت إلى خزانة الأغذية المثلجة حيث تنتقي العشاء المرغوب من الرفوف المحتوية على الفطائر المبردة ، غير المخبوزة ، واللحمة المفرومة والليمون الهندي والسرطان وفلينو السمك والدجاج والمخللات ، وفواكه المنطقة الحارة واللحوم وطيور الصيد البرية

وتتناول من رف آخر علبة قشدة فتفتحها لتعرّض مشتملاتها السائلة للهواء فتتحوّل قشدة مخفوقة . ثم تجفف البطاطس المهروسة ، وكذلك يوضع البن المسحوق أقراصاً صغيرة تلف بورق السيلوفان . وهذه يمكن جعلها قهوة تشرب حالاً باسقاطها في الماء الساخن .

ثم تجيء ربة الدار فتجلس معك الى مائدة مغطاة بنسيج لا تؤثر فيه النار ومرصعة بصحون خفيفة من العجائن الكيميائية ، مشفوعة بشوك وملاعق عجينية وسكاكين بمقابض منها أيضاً .

وبعد انتهاء العشاء ، يحل دور الترويح عن النفس ، فتسمع اسطوانات ، مطربة هي بكرات سلك ممغنط ، وكل بكرة منها ملفوف عليها سلك يزيد طوله على ميلين . وتحتوي كل واحدة منها على برنامج للغناء يُلقى في ساعة بلا انقطاع .

وتستعمل الآن بدل هذه الأجهزة والآلات التي وصفناها ، مئات من الأجهزة والمخترعات الصغيرة التي هي من ثمار مباحث زمن الحرب الحالية . وقد تم اتقانها لتنافس غيرها وتفوقها في أسواق العالم . وبعضها مؤسس على مبادىء الرائد اللاسلكي . ولا جرم أن العلم سيثمر ثمرات عجيبة جداً حينما تنشر ألوية السلام على العالم .

الراديو المبصر أو المصور

وقد يعروك الدهش إذ ترى ربة الدار ترحب بمقدمك وهي واقفة في مطبخها تطهي طعامها ، وذلك الترحيب يصدر من طريق جهاز لنقل الصوت يركب في حجرة تحت المطبخ خصص أصلاً لنقل ضوضاء الأطفال حينما يستيقظون في حجرتهم فتسمعهم أمهم . وحينما يستقر بك المقام ، في دار مضيفتك ، ترجوك رفع التكليف ثم تصارحك القول بأنها قد راقبت حضورك من قبل بلوغك مسكنها ، وذلك عن طريق مطبخها بوساطة ستار الراديو المبصر المركب في واجهة البيت وهو من المخترعات الغالية القيمة حتى الآن .

عوض جندي

فهرس الجزء الثالث

من المجلد السابع بعد المائة

المقتطف

الجزء الرابع من المجلد السابع بعد المائة

١ نوفمبر سنة ١٩٤٥ — ٢٦ ذي القعدة سنة ١٣٦٤

طبقة من نور

وأخرى من ظلام في العصور الوسطى

كان الفرق بين الآراء التي تجول في عقول الأوساط من الناس، وبين الذين خصوا باستيعاب أرقى ضروب المعرفة الذائعة في العصور الوسطى، كبيراً شاسعاً. على أن مثل هذا الفرق قد وجد دائماً بين الزمرتين، وهو في عصرنا هذا، بالرغم من نظام المدارس والتدريس، لا يزال واسعاً عميقاً، كما كان في تلك العصور. غير أن بعض الظروف قد جعلت ذلك الفرق في العصور الوسطى، أوسع بعض الشيء مما هو الآن. ذلك بأن غالبية الناس إذ ذاك كانوا الى الخشونة، تسترقهم الصناعات اليدوية أو الفلاحة، فلم يزايلوا ديارهم الأصلية التي نشأوا فيها. اللهمّ الاّ إذا دعتهم الحاجة الى الخروج لمغزاة يزجهم في غمراتها سيد الأقطاع الذي يملك رقابهم. كانوا يجهلون القراءة. ولو أنهم عرفوها إذن لما وجدوا كتباً ولا مخطوطات يعكفون عليها، فظلوا من حيث العلم بأحوال الدنيا الخارجة عن دنياهم الضيقة، واقفين عند ما يتلقفون من أقوال المهاجرين وعابري السبيل والتجار. وفي الحق ان صلتهم بالمعرفة كانت مقصورة على قسيس القرية. وكان قساوسة القرى أقل رجال « الأكايروس » علماً وأعجزهم عن التعليم. كانوا في شغل شاغل وفي فقر مدقع، حتى ليتعذر على أحدهم الحصول على مخطوط يكب عليه. وكانوا محتقرين في نظر الذين هم أعلى منهم مرتبة في الكنيسة، ومن الديّارين، على السواء.

إن اتصال الفلاحين وعمال المصانع في العصر الحاضر بالعالم الحافّ بهم، ووقوفهم على

أخبار الدنيا والآراء التي تذيع فيهم عن طريق الصحف والمجلات والصور المتحركة ، دع عنك تعليم المدارس ، لم يتهيأ مثله للناس منذ ستة قرون فرطنَ من الزمان . أضف الى ذلك أن طبقة المتعلمين كانت نسبتها بالقياس على المجموع أقل منها الآن . فاننا بالرغم مما نقرأ من أن آلاف الطلاب كانوا في ذلك العصر يغشون جامعة باريس أو جامعة بولونيا ، فإن عدد الجامعات الكبرى ذات الأثر الثقافي ، حتى جدود القرن الرابع عشر ، لم يتجاوز اثنتى عشرة جامعة في كل أوربا ، إن لم يكن أقل . وكانت جميعها ، على التقريب ، واقعة تحت سلطان رجال الدين . وهم طائفة انحصر فيهم كل ما نسميه اليوم وظائف السياسة والشرع والتعليم ، ومعنى هذا أنهم كانوا منفصلين عن بقية أفراد الجمعية وطبقاتها ، فلا يختلطون بغيرهم إلا قليلاً ، فضلاً عن اعتقادهم القائم على فكرة الرعاية الكنسية التي أوحت اليهم بأن العلم مجالهم وحدهم وصناعتهم المحتكرة ، وأن تدخل عامة الناس فيه أمرٌ لا يخلو من خطر ينبغي أن يتقى بصرفهم عنه وإبعادهم عن سبيله . يأتي فوق ذلك حقيقة أن الكتب التي ظنَّ أن بها إثارة من العلم المدرسي والمدونات والمراجع ، كانت جميعاً مكتوبة باللسان اللاتيني ، وكان مجهولاً من العامة حتى في ايطاليا نفسها . وكذلك الانجيل ، وكان من دعائم العلم في كل العصور الوسطى ، كان مكتوباً باللغة اللاتينية كما عرفها القديس « يـيروم » . أما ترجمته الى اللغة المتداولة فكان مقدمة لحركة الاصلاح الديني التي قام بها لوثر ، وكان بقاؤه في اللاتينية وحدها من العوائق التي صدت مقدمي الاصلاح الديني ، من أمثال «ويكليف» و «هوس» عن بلوغ أهدافهم في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر . ولم يكن ليصل الى العامة من صور التبشير النصراني التي يمكن أن تسعها عقولهم ، قبل ظهور القساوسة المستجدين من الدومينيكيين والفرنسسكانيين في أوائل القرن الثالث عشر ، إلا إثاراتٌ ونتف لا غناء فيها. واما أكثر ما يتصل بهؤلاء القساوسة من الشهرة ، فإنما يرجع الى بعثاتهم التي جابت أنحاء أوربا ، ورغبتهم في اقتسام علمهم مع الناس .

كانت الطبقات العليا ، بطبيعة الحال ، غير منقطعة كل الانقطاع عن خزائن الحكمة الذائعة . ففي خلال العهد الأخير من العصور الوسطى ، كان أسياد الاقطاعات يقرأون ويكتبون ، جرياً على عادة أتبعت ، كما أُلِّفت للهوهم أقاصيص وأغنيات وحكايات للتسلية عن سياحات ومخاطرات ، وهي من الأشياء التي تؤلف جزءاً عظيماً مما تفخر به الآداب الأوربية الأولى . كذلك كان نواب المدن وكبار رجالها متعلمين تعليماً لا بأس به . وفي الحقيقة ان العثور على طبقة متعلمة تعليماً ثقافيّاً ، قد اقتصر في الغالب على كبار رجال الأسر التجارية ورجال البلديات والموظفين الذين كان يحتاج اليهم في معالجة مشاكل التجارة والحياة

التجارية . فإن دانتي الفلورنسي، وهو ابن مسجل عقود ، انما هو المثل العالي لذلك الضرب من التعليم الذي ذاع في المدن، وبخاصة مدن شمال ايطاليا العامرة في القرن الثالث عشر . ولقد كان في المانيا وفي الفلاندر طبقة مثل هذه تمثل أرقى ما وصل اليه التثقيف في المدن الكبرى.

من هذه الطبقات خرج أعاظم الذين تحمسوا لآداب العالم القديم واحتضنوها وعملوا على تفهمها . أولئك كانوا أوائل النشوريين[1] في عصر النهضة . وبنشوء هذه الطبقة القارئة، نشأت آداب واسعة تناولت العلوم المبسطة ، ونوع آخر من الأدب جمع بين التسلية والتثقيف . وكان من الطبيعي أن تتجه العقول الى أنواع الثقافات الأدبية التي فيها شيء من الروعة أو الغرابة .

من أمثال الكتب التي ذاعت في ذلك العصر كتاب – Romaunt of the Rose – الذي ترجم الى كثير من اللغات وترجمه « شوسر » الى الانجليزية . وكذلك كتاب — Image of the World الذي وضعه برونيتو لاتيني أستاذ دانتي وكتاب Romance of Sidrach وكتاب Treasure — Properties of Things — الذي وضعه بارتولوميو الإنجليزي وكثير غيرهم ممن قلدوهم . وهؤلاء لم يكونوا في عصرهم أقرب الى مراقي الثقافة العليا، علمية وأدبية ، من كثير ممن يكتبون على صحف « العلم المبسط » التي تنشر في عصرنا هذا . ان هذه ليست إلا نفايات إذا قيست بالموسوعات الثقافية التي وضعها البرت الكبير أو القديس توماس الاكويني .

إذا رجعنا إلى عقائد الرجل العادي في حقيقة العالم، فاننا نجد أن آراءه من حيث تأمله في حقيقة البيئة التي وضعه الله فيها ليقضي حياته الفانية ، كانت خليطاً من مشاهدات ، إن دلت على فطنة ورجاحة عقل، فانها في مجموعها قد علقت بتلك الأشياء التي وقعت تحت حسه وفي دائرة حياته المحدودة، وأثرت في حياته اليومية وطبيعة عمله ، وقصص خيالية وخرافات كونها فيما تخيل من أمور تبعد عن عصره أو عن عقله ، سواء أفي الزمن أم في المكان ، وعقيدة مستمدة مما الفها في حقيقة الأشياء التي بعدت عن مجال تجاربه وعجز عن تعليلها ، وكانت حرفية الانجيل ، مفسرة على ما يرضي أهواء الأخيلة السائدة ، هي المرجع الذي يستمد منه مهيئات تلك العقيدة .

خلق الله العالم ، كما ثبت في مخيلة ذلك الرجل العادي ، في ستة أيام ، جرياً على التقليد العبراني القديم ، فخرج كاملاً بكل تفاصيله، وثبت كما خلق فلم يقع عليه أي تغاير أو نشوء.

(١) Humanists

وان التغير الذي نلحظه في حياتنا هذه انما يقتصر على حياة الانسان وعلى أعماله . خيل اليه أن الأرض سهلٌ عظيم ، يحيط به من جميع الجهات لج من الماء . ومن فوقها امتدت القبة السماوية ، التي سبحت فيها الشمس والقمر والسيارات ، وفي جنباتها الفسيحة استقرَّ ملائكة يحملون النجوم الثوابت ، كأنها المصابيح .

أما حركات السيارات فكان علمه بها أرقى من علم الانسان العادي في زماننا هذا ، ذلك بأنه عاش في العراء ، فاذا غربت الشمس ، عزَّ عليه أن يجد ما يستضيء به ، فشغل نفسه بالتطلع الى السماء ، حتى استطاع أن يقف على مجرى تلك الكواكب السيارة ، وطبيعة حركتها ، ونشأت فيه غريزة الفلاح التي حملته على أن يدرس علاقة حركاتها تلك بحالات الطقس والرياح . ناهيك بما علم من مبادئ التنجيم ، وهي مبادئ انحدرت اليه من أبعد الازمان ، وكانت قد نشأت في تلك البلاد التي يدعوها « بلاد الكفّار » — ويقصد بهم العرب — فاعتمد عليها واتخذها ، كما اتخذها غيره من أهل القرون الأولى ، هادياً في العمل وموجهاً في الزراعة ووسيلة للشفاء ، ومستقرأً للمستقبل . أما المجازات المشرقية التي وردت في كتب العهد القديم ، فقد فهمها بحرفيتها ، وربما كان قد عطف على ذلك الاسقف القديم الذي قال :

ليست السماء كرة ، بل خيمة أو مظلة « انه هو ... الذي مد السماوات حجاباً ، وبسطها خيمة نعيش فيها » . تقول الكتب المقدسة إن لها قبة . وليس للكرة قبة . وكذلك كتب : علت الشمس عن الارض عند ما هبط لوط أرض صوغر(١) Zoar . الارض منبسطة ، والشمس لا تمر من تحتها خلال الليل ، بل تمر بالاجزاء الشمالية ، كما لو كان يحجبها جدار . والشمس تغرب ومن ثم تسرع الى المكان الذي منه تشرق » .

***

اتخذ الراهب « قوزماس » من هذه التعبيرات أداةً ، وأكبَّ في القرن السادس على تأليف كتاب ذاع صيته وانتشر بين الناس على اختلاف طبقاتهم حتى القرن الثاني عشر ، فصوَّر الدنيا في هيئة خيمة عظيمة مستطيلة الشكل ، مملوءة بالماء ، ومنها يتساقط المطر على الارض .

غير ان كثيراً من الذين وصلت الى أيديهم كتب العلوم المبسطة في القرنين الثاني عشر

(١) واذ أشرقت الشمس على الارض دخل لوط الى صوغر . فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء . وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الارض . ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح . تكوين : ١٩ : ٢٣ الى ٢٦ .

والثالث عشر ، كان علمهم أقوم من علم هـذا الراهب والذين أخـذوا عنه . فقد بُرْهِن بسهولة على أن الارض كروية ، وان من حولها تدور الأفلاك والسيارات .

جاء في كتيِّب من مخلفات القرن العاشر :

في اليوم الثاني خلق الله السماء وسميت القبة ، وهي مرئية بالعين ، هيولية القوام . ومع هذا فقد يتفق ان لا نراها لعظم ارتفاعها وتراكم السحاب وضعف أبصارنا . تقيم السماء في صدرها الدنيا برمتها وهي لا تنفك تدور من حولنا ، بأسرع مما تدور أية من عجلات الطواحين ، وهي من تحت الارض كما هي من فوقها ، على بعد واحد . انها مستديرة من كل أطرافها ، كاملة البناء ، تامة الخلق مرصعة بالنجوم . وفي الحق ان الشمس تمشي بأمر الله بين السماء والارض فتعلو نهاراً وتهبط ليلا . وهي دائمة الحركة من حول الارض ، وبذلك تضيء الجزء الاسفل من الارض عند ما يكون ليل في جزئها الاعلا . والشمس عظيمة الحجم فائقة القدر ، وانها على ما تقول الكتب ، بعرض الارض واتساعها ، ولكنها تظهر صغيرة لبعدها عن أبصارنا . والاشياء كلما بعدت عنا ، ظهرت أصغر حجماً مما هي . والقمر والنجوم تستمد ضوءها من الشمس . والشمس في السماء نظير مخلصنا المسيح في الارض ، فانه شمس الحق والتقوى . أما الكواكب والنجوم فهي في السماء ، نظير المؤمنين بالله في الارض .

السماوات من فوق الأرض ، وتبعد عنها بعداً شاسعاً عظيماً ، حتى أن حجراً كبيراً اذا هبط من السماء ، فانه لا يصل الى الأرض في أقل من مئة سنـة . ولا شك في أن أكثر المتعلمين كانوا على إلمـام بالمبادئ الأولية التي قام عليهـا الفلك اليوناني ، وهو علم اقتصر الاشتغال به على فئة من المنقطعين للدرس ، ولو أنه كان في ذلك العصر مطوقاً بالأساطير مندفناً في الخرافات .

في سفر « سدراك » أن الشهب المنقضـة على الأرض ، هي مدارج الرياح ، أو هي الرطوبات التي تنفثها الأرض فتصعد من صدرها حتى تصل طبقات الهواء العليا ، أو ربما تكون أقباساً من النار يرمي بها الملائكة الطيبون الملائكة المغضوب عليهم ، إذا أرادوا أن يدخلوا خلسة ملكوت السماء .

إن الرجل العـادي لم يكن ليعرف شيئاً من الجغرافيا ، اللهمَّ إلاّ ما يتلقفه من أفواه المسافرين ، وكان من الغرارة بحيث يقبل أي شيء يروى له عن البلاد البعيدة عن محيطـه ، وما تأهل به من أقوام غرباء ، شأنه في ذلك شأن أمثـاله في عصرنا هذا . ولا ينبغي أن يغرب عن فهمنا ان كل الأقاصيص المثيرة التي ذاعت في « العصور الوسطى » انما استمدت أصلاً من كتب القدماء ، من الرومان أمثال بلينيوس ومن اليونان بعد العصر القديم ، وهي أقاصيص نتخذها مثالاً للمعتقدات التي ذاعت في الحضارة القديمة والعصور الوسطى . والحقيقة انها لا تدل على تأخر عقلي أو انحطاط ذهني ، بل تدل على انها أرقى ما وصل

اليه العقل البشري في ذلك العصر ، اللهمَّ الاّ فئة من المختارين في العلم .

فهنالك السواطير (١) على مثال الانسان،منسريو الانوف ، مقرنو الجباه ، بأرجل أشبه شيء بأرجل الماعز . ولقد رأى القديس «انتوني» واحداً منها في الفلاة .... ان هذه الوحوش الغريبة ذوو قدرة على الغوص في الماء . وقد سمي بعضها « المكلبات » — Cynocephali (٢) —لان رءوسها كرءوس الكلاب ، ويظهرون في تصرفاتهم أشبه بالسوائم منهم بالانسان . وقد يسمى بعضهم «مستديرات العين» Cyclops (٣) ووسموا بذلك لان لكل منهم عيناً واحدة تستقر في وسط الجبهة ، وقد يكون بعضهم بغير رءوس أو أنوف ، وعيونهم في أكتافهم ، ولبعضهم وجوه مسطوحة بغير خياشيم ، والشفاه السفلى قد تمتد وتطول حتى تغطي وجوههم ، اذا ما أحرتهم الشمس . وفي«إسقوثيا» — Scythia(٤) — أقوام منهم أذانيون (٥) أي عظام الاذان ضخامها،حتى انهم قد ينشروا آذانهم فينطون بها كل أبدانهم .وهؤلاء يسمون: Panchios (٦)

في أثيوبيا غير هؤلاء خلق كل منهم بقدم واحدة ، غير انها من العظم والضخامة ، بحيث يستطيعون أن يستظلوا بظلها اذا ما استلقوا على ظهورهم ورفعوا أقدامهم الى أعلا ، ليتقوا بها حرارة الشمس. وهم مع ذلك عداؤون، في سرعة كلاب الصيد عدواً ، ولذا سماهم الاغارقة Cynopods (٧) أي الكلابية الارجل، اشارة الى السرعة لاالى الصورة . وهنالك من ينبسط جلد كفوف أرجلهم الى ما وراء أقدامهم، ولهم ثمانية أصابع في كل قدم ، فيستطيعون بذلك الجولان والتنقل في جنبات صحراء لوبيا ».



***

ولم تكن الغرائب المروية عن السوائم والنباتات بأقل مما ذكرنا غرابة :

(١) Satyrs : were natnre-dieties or daemons of mountain forests and streams, of a subordinate or sabaltern character, and therefore especially the attendants of Dionysus, like whom they represented the luxuriant vital powers of nature. etc. Class. Dict. 842.

(٢) Cynocephali — Dog's Heads : Class. Dict. 263.

(٣) Cyclops — round-eyed. In Greek Mythology, a race of one-eyed giants, represented in the Homeric cycle of legends as Cicilian shepherds. Cent. Encycl. p. 299.

(٤) Scythia : a name applied to very different countries at different times. Class. Dict. 855.

(٥) اذانيون : ورجل أذاني وآذن عظيم الاذن طويلها ونعجة أذناء وكبش آذن. القاموس المحيط ٤:١٩٥

(٦) Panchios : Panchion (Panshon) Encycl. Dict. p. 365 Vol. V. Panshon : (Perhaps a corrupt, of puncheon). An earthenware vessel wider at the top than at the bottoms, used for holding milk, and other purposes. Encycl. Dict. p. 369 Vol. V.
وفي الاسم اشارة الى الصفة الخرافية التي تخيلها أهل تلك الازمان

(٧) Cynopods : Gr. Kuon = dog + pod = foot.
أي الذين أقدامهم مثل أقدام الكلاب

يقول ابن سينا ان الدب تلد قطعة من اللحم ناقصة التكوين كريهة الصورة ، فتلحس الام تلك الجزلة وتصور الاعضاء باللحس ... فان الفلو يكون قطعة من اللحم لا تزيد عن الفأر حجماً ، وليس له عينان أو أذنان ، فتلحس الام هذه القطعة من اللحم وتصور منها الفلو . ومن أعجب الاشياء التي تروى عن « ثيوفراسطوس » ان لحم الدب اذا أخذ في حالة ما يكون الدب في خدره الشتائي وطبخ ، فلا يبقى منه في القدر غير كمية قليلة من الاخلاط : humours

ويروى شيء آخر هو غاية في العجب : في بعض بقاع من بلادهم ، يصطاد الاثيوبيون الفيل بالطريقة الاتية : يذهب الى الحرجة فتاتان عذراوان ليس عليهما لباس البتة ، بحلولتا الشعر ، فتحمل احداهما جرة والاخرى سيفاً ، ثم تأخذان في الغناء منفردتين ، فيطرب الفيل بصوت الغناء ، ويقبل نحوهما ويلحس حلمتيهما ، ثم يغشى عليه النوم فيخر صريعاً من نشوة الغناء . فتنتهز احداهما هذه الفرصة وتحز رقبته أو جنبه بالسيف ، وتتلقى الاخرى دمه في الجرة ، وبهذا الدم يصبغ الناس ثيابهم ويلونونها بهذه الطريقة .

التنين أعظم الحيات وكثيراً ما ينوي فيخرج من كهفه ، ويرتفع في الهواء ، فيتحرك الهواء بحركته ، وكذلك البحر ، فانه يتلوث بسمه . وله قنزعة وفم صغير ، ويستنشق الهواء من أنابيب صغيرة ، وله أسنان كالمنشار . وله قوة وبطش ، لا في أسنانه وحدها ، وانما في ذنبه أيضاً ، وله قدرة على القضم واللدغ فيقضم بأسنانه ويلدغ بحمته ، على ان ما فيه من كمية السم أقل مما في بقية الحيات .

وقد يحدث ان يجتمع أربعة أو خمسة منهم ، فيصلون أذنابهم بعضها ببعض ويحكمون وصلتها ، ثم يرفعون رؤوسهم ، ثم يحلقون فيقطعون البحار ويجتازون الانهار طلباً للرزق الطيب من اللحم . وبين التنين والفيل عداوة مؤصلة . فاذا تصاولا يصيب الفيل الانهاك قبيل النهاية فيعمي بدمه ، فاذا سقط على التنين ، قتله بثقل جسمه . والسبب في أن التنين يطلب الفيل ان دم الفيل بارد ، فيرغب فيه التنين ليتبرد به .

يقول القديس « ييروم » إن التنين وحش عطشان شديد التعطش الى الماء ، وقلما يجد من الماء مايكفي لاطفاء ظمئه ، فيفغر فاه نحو الجهة التي يهب منها الهواء ، لعله يخفف بذلك شيئاً مما يحس من ألم العطش . وهذا هو السبب في ان التنين اذا رأى السفن تدفعها الرياح ، مضى نحوها طلباً للهواء الذي يدل عليه امتلاء أشرعتها به ، وقد يقلب السفن أحياناً بقوة جسمانه ، اذ يصطدم بالاشرعة . فاذا رأى الملاحون التنين يقترب منهم ، وقد يعرفون ذلك بتضخم الامواه التي من حولهم وانتفاخها ، فانهم يسرعون بطي الاشرعة ، وبذلك يسلمون من شره .

وعلى هذا النمط تجري الأقاصيص عن عجائب الأرض ، وكلها تفيض بصور شتى من الخيال والتصوير . فان نمّت عن شيء فانما تنم عن سعة في الأفق ، ولو انها خيالات .

***

فن الأشياء التي رواهـا « بارتولوميو الانجليزي » عن انجلترا ، ان هذه الجزيرة التي تحيط بها المياه من كل جوانبها ، هي من أعظم جزر البحار ، وان نبلاء طروادة Troy وكبراءها بعد أن تحطمت مدينتهم وأصبحت انقاضاً ، غادروها ومعهم أسطول بحري عظيم ، ونزلوا

تلك الجزيرة معتصمين بجبالها المشمخرة ، وانهم فعلوا ذلك بايعاء من إلاهتهم « فَلاَّس » Pallas ، فقاتلوا عمالقة الجزيرة الذين عمروها منذ أزمان بعيدة وتغلبوا عليهم ، بالحيلة حيناً وبالقوة حيناً آخر ، حتى أتموا اخضاع الجزيرة لأمرهم ، وسموها أرض بريطانيا نسبة الى « بروطه » Brute أميرهم الأعلى .

***

فاذا وصف انجلترا في عصره وصفها وصفاً فيه دقة في التعبير . فقال انها ركن الدنيا ، وهو يقصد بذلك ركن أوربا ، وانها أرض لا تحتاج الى غيرها في حين أن غيرها يحتاج اليها ، وان أهلها محبون للحرية مقدسون للصدق والاستقامة ، ولكن الأرض نفسها هي التي بثت فيهم روح الحرية وعلمتهم الصدق بروائها وحسن منظرها وطلاوة اقليمها ، فدتهم البيئة الطبيعية بهذه الصفات وغرستها في فطرتهم . وكذلك اذا تكلم عن فرنسا ، فانه يخلط تاريخها القديم بالأساطير ، فاذا وصفها كما كانت في عصره ، تكلم فيها بشيء من موضوعية الذهن وتوخي الواقع بقدر المستطاع .

فاذا انتقل من ذلك الى الكلام في الهند طغت عليه الأسطورة وتغلب عليه الخيال . فقال ان الهند أغنى بلاد الأرض ولكنها مع ذلك أكثرها أعاجيب . ويقول إن بلينيوس قد صدق عند ما قال إن الهند أرض المدهشات . ففيها أعظم الوحوش وأعظم كلاب الصيد. أما أشجارها فقد تعلو وتسمق حتى ان واقفاً تحت شجرة إذا أطلق سهماً من قوسه ، فقد لا يبلغ السهم في رميته قمة الشجرة . وذلك هو السبب في الغنى الذي تنعم به هذه الأرض، وفي اعتدال الاقليم والهواء وغزارة الماء . وقد تمتد أشجار التين هنالك ، حتى أن كتائب برمتها قد تستظل بواحدة منها وتقيم تحتها ولائم وأعياداً . وهنالك أنواع من القصب تعلو وترتفع حتى أن الفلك الواحد من قصبة منها ، قد يحمل ثلاثة رجال عبر الماء اذا تشبثوا به . ومن أقوام الهند قوم لا تلد نساؤهم غير مرة واحدة ، فاذا وضعن كان أولادهن بيض الرؤوس شيباً منذ الولادة . وفي شرقي الهند حيث ينبع « نهر الكنج » قوم من الهنود لا أفواه لهم ، يكتسون بالمواد النباتية ويغتذون بالروائح والمشمومات التي يستنشقونها بخياشيمهم ، فهم لا يأكلون ولا يشربون ، وان الروائح الكريهة تقتلهم .

اسماعيل مظهر

موضوع يهم الوالدين

الفطـــام

الفطام هو تعويد الطفل هجر ثدي أمه أو مرضعته واعطاءه لبناً خارجيّاً أو طعاماً آخر غير اللبن . وتختلف السن التي يبتدئ فيها الفطام باختلاف البلدان ، فقديماً ، وحتى أيامنا هذه أيضاً ، كان فطام الطفل يبدأ حينما يبلغ الثانيـة أو الثالثـة من عمره ، ولا نزال نرى بعض الشعوب في أنحـاء الشرق الأقصى تترك أطفالها يرضعون ثدي أمهاتهم حتى السنة الخامسة أو السادسة . وهناك أيضاً شعوب أخرى من الأسكيمو يرضع أطفالهـا إلى السنة الثامنة أو العـاشرة ، وغيرهم إلى السنة الخامسة عشرة ، لكن الآراء الحديثـة والتجـارب العديدة دلّت على ان الطفل لا يستفيد فائدة ما من الرضاعة بعد الشهر التاسع من عمره ، بل بالعكس اذا استمررنا على ارضاعه لبن أمه بعد تلك السن، فمن الجائز أن يصاب بالأنيميا نظراً لعدم وجود مقدار الحديد الذي يحتاجه الطفل في لبن أمه . صحيح ان ثدي الأم أو المرضع يفرز اللبن كالعادة ، ولكن عناصرهُ المغذية تفقد ولا تعود تصلح للطفل .

ومن هذا كله نرى ان الحدّ الكافي لارضاع الطفل هو الشهر التاسع من عمره — اذا كانت صحته جيدة . ومن الأطباء من يستحسن فطام الطفل في نهاية السنة الأولى من الرضاعة. وعلى كل حال لا يجوز فطـام الطفل قبل نهاية الشهر التاسع لئلاً يتعرض لأمراض شديدة سوف يأتي البحث عنها . والأوفق أن يكون الفطام تدريجيّاً ويبتدئ ، كما قلنا ، من الشهر التاسع، فيعطى مرة أو مرتين في اليوم بعض الأطعمة المصنوعة باللبن أو باحدى المواد النشوية بدلاً من الرضعات الطبيعية او الصناعية ، وبالتدريج تنقص وجبات الرضاعة الطبيعية ويستعاض عنها بالمساحيق النشوية : كدقيق القمح او دقيق الأرز او الشعير او الذرة او البطاطس او الأراروط مثلاً ،مطبوخة بالسكر او بمرق اللحم الى أن يترك الطفل ثدي أمه من تلقاء نفسه بدون أن يشعر بتعب او ارتباك ما في أمعائه . وفي ذلك الحين يكون ثديا الأم قد تعوّدا ترك الارضاع، ويكون افراز اللبن قد قلّ منهما شيئاً فشيئاً .

ويمكن أيضاً تعويد الطفل على التغذي بلبن البقر او الجاموس او غيرهما ابتداءً من الشهر السادس من عمره حتى تألف معدته الرضاع الصناعي ، ولا ترتبك حالته الهضمية عند فصله عن ثدي أمه . فيُعطى الطفل مثلاً وجبة من لبن البقر او الجاموس المخفف بالماء المبرَّد الى درجة حرارة الجسم، وذلك بدلاً من رضعة الثدي الطبيعي، ويستمر على ذلك ثلاثة او اربعة أيام ، ثم يعطى بعد ذلك وجبتين من الطعام المعوّض للبن أمه ، ويستمر على هذا المنوال في زيادة عدد الرضعات الصناعية وتقليل عدد الرضعات الطبيعية الى أن يفصل الطفل عن ثدي أمه بتاتاً في نهاية الشهر التاسع

وهنا يجدر بنا الحذر من الفطام الفجائي ، اذ ان مثل هذا العمل حادث خطر محزن ومؤلم للطفل . فهو يرى نفسه بعد ان كان متمتعاً بلبن أمه وثديها بالأمس ، قد حُرم منه اليوم بدون انذار او ذنب فيثور ضد ذلك ويبكي ويرفض ما يُقدم له من الأطعمة مهما كان نوعها وان كان متعوداً أكلها من قبل ، وقد يتقيأها اذا أُرغم على أكلها . ويستمر أحياناً في رفض الأكل حتى يضعف او يمرض . وهذا ما يدعو الى اتباع نظام الفطام التدريجي في كل الاحوال ولو كانت سن الطفل كبيرة، ويُستحسن ان يخرج الطفل من البيت كثيراً حتى يتلهى عن أمه ومرضعته

والذي تجب ملاحظته هنا هو ان حرارة الصيف غالباً ما تعكر أمزجة الاطفال وتسبب اضطراباً في معداتهم ، ولهذا يقتضي تدارك هذه الحالة لئلا تؤدي الى عواقب سيئة، وعدم فطم الطفل في أشهر الصيف الشديدة الحرارة ، ذلك لأن اللبن يكون أكثر تعرضاً للتلوث بالجراثيم في هذا الفصل . كذلك عدم فطمه في أثناء بروز أية سن من أسنانه ، وخصوصاً اذا كان مصاباً بقيء او اسهال او في دور النقاهة من أي مرض من الأمراض . وأحسن طريقة لذلك هو الغاء كل طعام مدة يوم او يومين في فصل الصيف ، فيقتصر فيهما على اعطاء الطفل حساء الخضر ، وتحضيرها يكون على الوجه التالي :

يؤخذ قدر ملعقة حساء من كل من العدس والذرة والقمح المجروشة ، والحمص والشعير المجروش ، ويُغلى كل ذلك في ثلاثة لترات ماء مدة ثلاث ساعات . ولما تنضج يصفَّى من هذا المغلي نحو ثلاث لترات وتملَّح وتقدَّم للاطفال .

ويمكن أيضاً أخذ ٦٠ غراماً من البطاطا ، و ٤٥ غراماً من الجزر و ١٥ غراماً من اللفت و ٦ غرامات من الفاصوليا و ٦ غرامات من الحمص اليابس ، وتغلى كلها مدة أربع ساعات في لتر من الماء ، ثم يصفَّى منها لتراً من الحساء ويُملّح . اما كمية الحساء الواجب اطعامها للطفل في كل وجبة فمنوط بعمره وبحالة امعائه — أي مقدار الارتباك الحاصل له . والعادة

أن يعطى صحناً غير مملوء . اما اذا كان رضيعاً فيوضع له في مصاصته نحو ١٥٠ غراماً كل ساعتين ونصف ساعة بدلاً من الرضعات الطبيعية . ولا يجب أن تحفظ هذه الحساء أكثر من اربعة وعشرين ساعة ، وتعتبر هذه الحساء نفسها أحسن غذاء أيضاً للمراهقين المصابين بالحمى التيفية او بالالتهاب المعوي الحاد وغيره من الأمراض المعوية .

﴿ الحالات الموجبة فصل الطفل عن ثدي أمه ﴾ في بعض الأحيان يُضطر الى فصل الطفل فجأةً عن ثدي أمه قبل انقضاء الشهر التاسع ، سواءٌ كان لقلة مقدار لبنها ، أو لجفافه من ثديها ، او بسبب التعب ، او الضعف يعتريهـا في جسمها ، او لاصابتها بمرض يمنعها عن ارضاعه ، او ايضاً لوجود أسباب عائلية او اجتماعية خاصة الخ . ففي هذه الحالات يُستعاض عن الارضاع الطبيعي بالارضاع الصناعي . وأحسن الألبان التي يتحملها الطفل بعد لبن أمه هو لبن البقرة الصحيحة ، ويأتي في الدرجة الثانية لبن الجاموس المخفف بالماء المغلي قبلاً — بعد تبريده الى درجة حرارة الجسم . وسواءٌ كان هذا اللبن او ذاك يجب تخفيفه قبل اعطائه للطفل ، وكلما كانت نسبة الماء كثيرة في اللبن يقلّ احتمال اصابة الطفل بالارتباكات الهضمية

ويحترس من اعطاء الطفل الأطعمة النشوية قبل بلوغه الشهر السادس من عمره ، لأنه لا يستطيع ان يهضمها مهما يكن نوعها ، بل انها تكون كالسمّ لعدم تـكوُّن المادة التي تحوّل النشا الى سكر وتجعله صالحاً للهضم حتى ذاك التاريخ . فان اربعة اخماس الاطفال الذين يموتون في أشهر السنة الأولى بعد الولادة سبب موتهم الطعام ، لأن الذين يربونهم يحسبونهم قادرين على هضم الأطعمة النباتية كالخبز و النشا لأنها اذا كانت ليّنة لا تحتاج الى مضغ ، فلا يبخلون عليهم بها . وهذا خطأ ، فان الطفل لا يستطيع أن يهضم المواد النشوية مهما يكن نوعها . فاذا بلغ الشهر السادس فما فوق يجوز حينئذٍ أن يضاف الى اللبن الذي يرضـعه قليلا من الأطعمة النشوية كالاراروط مطبوخاً بالسكر أو بمرق اللحم .

أما كيفية صنع الاغذية الصناعية فكما يلي : تضـاف ملعقة صغيرة من أحد المساحيق النشوية التي أتينا على ذكرها الى كمية من الماء البارد وتمزج به مزجاً جيداً ، ثم يسكب هذا المزيج شيئاً فشيئاً في إناء يحتوي ١٢٠ أو ١٥٠ غراماً من اللبن المغلي ، ويغلى على النار مدة عشر دقائق ، وفي خلالها يمخض بالملعقة ليمتزج جيداً ويضاف اليـه قليل من الملح أو السكر . وبعد مدة قصيرة يضاف اليـه قليل من الزبد ويتناوله الطفل بالملعقة . فاذا أصيب بامساك مثلاً يعطى مسحوق الشعير . واذا أصيب باسهال يعطى مسحوق الأرز . واذا كان مصاباً بضعف البنية أو بفقر الدم يعطى مسحوق الخرطال Avoine . وعلى كل يعطى الطفل قبل بلوغه الشهر العـاشر نوعاً واحداً من الأغذية النشوية ، وتستأنف الرضاعة من

الثدي أو من المرضع ، وتكون الفترة بين الطعام النشوي ونوبة رضّاعة الطفل كافية لتتمكن معدة الطفل فيها من الهضم .

وقد لوحظ أن الاطفال يميلون كثيراً الى الاطعمة المطبوخة بمسحوق الكاكاو ، لكن هذه كثيراً ما تسبب لهم امساكاً وتهيجاً ، فضلاً عن انها تجعلهم يكرهون المساحيق الغذائية الأخرى نظراً الى الفرق بين مذاق هذين النوعين من الاطعمة .

ولما يبلغ الطفل الشهر الخامس عشر من عمره يستحسن تنويع طعامه ، فيعطى مثلاً خمس وجبات يوميًّا : ثلاث منها ٢٠٠ غرام من اللبن ، ومرة واحدة من الأمراق الخفيفة الخالية من الدهن (كل يوم نوع واحد) ، ومرة أيضاً بيضة واحدة مع البطاطا المسلوقة المدهوكة purée أو أحد الاطايب كالنشا المحلى بالسكر ، أو (كريمة) مصنوعة بالبيض واللبن والسكر .

وعند ما يبلغ الشهر الثامن عشر من عمره يعطى ٤ وجبات يوميًّا فقط في أوقات محدودة ، أي الساعة السابعة صباحاً، والساعة الثانية عشرة ظهراً ، والرابعة عصراً، والسابعة مساءً . ففي الصباح مثلاً يأكل الخبز واللبن والبيض ، أو الخبز والزبد والمربى . وفي الظهر يأكل لب الخبز مغموساً بمرق اللحم ، والسمك والارز والجبن الحلو والخضر والفواكه الناضجة والمطبوخة . وفي الأصيل الزبد والخبز والمربى . وفي المساء الحساء والخبز واللبن وما يشبه ذلك من الطعام الساخن .

واذا جاع الطفل بين وجبة ووجبة يعطى كسرة خبز وكأساً من اللبن . ولا بدَّ من تنويع الأكل كما قلنا، وإلاَّ عافه الطفل كما يعافه البالغ.

فللفطام اذاً كما ترى أهمية كبرى من ناحية مستقبل الطفل خصوصاً وان هذا يكون معرضاً في خلاله لأغلب الاضطرابات المعدية المعوية التي تؤثر في حياته تأثيراً بالغاً ، وليست هذه الاضطرابات إلاَّ نتيجة أخطاء التغذية . وكم من الأغلاط تقع فيها غالباً الأمهات الشابات سواء وقت ارضاع الطفل من الثدي، أو وقت فطامه أيضاً، لجهلهنَّ اتباع التغذية الصحيحة له وتطبيقها وفقاً لحالته الصحية مما تؤدي نتيجته الى اصابة الطفل بالقبض أو الاسهال أو القيء أو قلة الشهوة للطعام الخ . لذلك يجب أن نبحث عن الأخطاء الناتجة عن سوء تدبير الغذاء ونعمل على ازالتها ما أمكن — وهذا لا يتم إلاَّ باصلاح القانون الغذائي وتعيين مواعيد محدودة لطعام الطفل مع استعمال بعض الادوية اذا اقتضت الحاجة اليها ، مع العلم ان هذه الأدوية ليست إلاَّ كمساعد فقط بصورة مؤقتة لاعادة الشيء سريعاً الى حالته الأولى ، لأن مفعولها لا يزيل الاَّ الأعراض وليس السبب، وبازالة السبب يزول المسبَّب .

ومن هذا كله ندرك أهمية العناية بتغذية الطفل خلال مدة الفطام واتباع القانون الصحي في تغذيته وهذا أفيد بكثير من استعمال الأدوية لمعالجة ما ينتابه من الارتباكات الهضمية وغيرها فيما اذا لم يراعَ أي نظام في تغذيته وفي نوع الطعام الموافق نسبةً لسنه .

﴿ عوارض الفطام الباكر ﴾ ويجدر بنا هنا قبل ختام هذا المقال أن نأتي على ذكر بعض العوارض الناجمة عن الفطام الباكر . وهذه العوارض تظهر في اليوم الخامس عشر الى اليوم الخامس والعشرين بعد فصل الطفل الرضيع عن ثدي أمه ، وفي بعض الأحيان يكون ظهورها في اليوم الثاني او الثالث الذي يستعاض فيه عن لبن الأم باللبن الصناعي . ففي هذه الحالة الأخيرة يفقد الطفل من وزنه حوالي ٣٠٠ غرام او اكثر من ذلك ، غير ان هذه الخسارة تكون وقتية ، والطفل لا يلبث أن يسترجع بعدها وزنه الأول . وبالعكس لما تبدو الأعراض متأخرة فالحالة تكون شديدة الخطورة وغالباً ما تؤدي الى الوفاة . وبوجهٍ عام اذا مضى اليوم الخامس والعشرون على الفطام ولم يحدث في خلالها عارض للطفل ، فلا يبقى ثمة من خطر عليه من هذه الناحية ، ويمكنه أن يتحمل بعدها الرضاع الصناعي بالراحة والسهولة .

وأهم العوارض التي تحدث على أثر الفطام الباكر هو ، كما قلنا ، هبوط الوزن . ففي الحالات البسيطة يبقى عادةً وزن الطفل على حاله مدة اسبوع واحد الى اسبوعين . اما في الحالات الخطيرة فيخسر الطفل من وزنه في الأيام الثلاثة الأولى ٨٠٠ غرام تقريباً دون حدوث اي اضطراب معدي او معوي فيه . فالطفل الذي كنت تراه حتى وقت ابتداء الارضاع الصناعي بشوشاً طروباً لعوباً ، ووزنه منتظم ، وينام ويهضم طعامه جيداً بدون تجشؤ او قيئات ، وبرازه طبيعيًّا لا رائحة فيه — تراه الآن يتبدَّل فجأةً بين عشية وضحاها بدون سبب ظاهر ، فيضعف ويهزل ويفقد من وزنه ٥٠ ثم ٨٠ ثم ١٠٠ او ٢٠٠ غرام فأكثر . وقد تبلغ هذه الخسارة من وزنه كيلو غراماً واحداً وأكثر أحياناً ، بتقدُّم الوقت . وفي تلك الأثناء تظهر عوارض أخرى فتكسب الحالة شكلاً خاصًّا . وأهم هذه العوارض الضعف الذي يزداد يوماً بعد آخر بسرعة فائقة . واذا نظرنا الى الطفل نجدهُ غائر العينين ومنظره منظر شيخ هرم ، وبطنه منكمش وجلده متجعد ولونه شاحب وأغشيته المخاطية باهتة ولسانه جاف وهيئته حزينة كالحة . وفضلاً عن ذلك نراه يميل دائماً الى النعاس ويفقد شهوة الطعام ، وقد ترتفع الحمى فيه الى ٣٨ و ٣٩ بل ٤٠ درجة مئوية ، وينتهي الأمر أخيراً بموته عاجلاً ، بعد ان يفقد ربع او خمس وزنه . كل هذه الأعراض تحدث والطفل لا يصاب بأي اضطراب معوي او قبض ، ولا قيء ولا تبدُّل في حالة برازه .

لكن في كثير من الحالات لا ينتهي الأمر بالوفاة ، والطفل بعد ان يهبط وزن جسمه

كما قلنا لا يلبث أن يستعيد وزنه الأول شيئاً فشيئاً وتعود شهوته للطعام الى حالها ، ويغدو أكله سهلاً ويعود نموه تدريجاً الى حالته الطبيعية وتزول بعدئذٍ الأعراض الأخرى .

فما السبب يا ترى الذي يؤدي الى عوارض الفطام هذه التي تظهر بدون اضطراب في الهضم ولا قبض ولا قيئات ولا أي مرض آخر ؟ هذا ما لا يزال أمره مجهولاً . والغالب أن حرمان الطفل من لبن أمه يحرمه بعض أنواع الفيتامينات اللازمة له ، ويؤيد ذلك زوال خطر الاعراض المنوّه بها سريعاً حينما يعود الطفل نفسه الى ثدي أمه . ولا بد من التنويه هنا ايضاً وفي هذا الصدد بأن عوارض الفطام الآنف ذكرها تزول تدريجاً ، باعطاء الطفل في مدة الـ ٢٥ أو الـ ٣٠ يوماً التي تعقب الفطام للباكر : ٥٠ الى ١٢٠ غراماً يومياً من لبن أمه أو لبن امرأة أخرى صحيحة البنية .

الدكتور عبده رزق

طبيب مستشفى الميناء والملاحة بالفاو (العراق)

من أدب الغرب

سياسة انجلترا الخارجية

BRITISH FOREIGN POLICY. By Sir Edward Grigg, M. P. Hutchinson. 7s. 6d.

كان سير إدوارد جريج سكرتيراً خاصاً لمستر لويد جورج في خلال عامي ١٩٢١ و١٩٢٢ فأهله ذلك الى الوقوف على داخلية السياسة الامبراطورية في اثناء ذلك الزمن الذي عدل السياسة الاوربية بما جعلها متقدمة للحرب العالمية الثانية التي بدأت في ١٩٣٩

ونظريته التي يدور من حولها البحث في ذلك الكتاب هي قوله بأن الخطأ الاكبر الذي ارتكبه الحلفاء في عهد السلام الاول (أي عقب الحرب العالمية الاولى) هو إرهاق فرنسا ، وكان هذا الارهاق نتيجة لسوء تقدير المانيا من ناحية بريطانيا والولايات المتحدة من جهة ، وإقصاء روسيا عن الميدان السياسي من أخرى .

وأخذاً بهذه النظرية يمضي في بحثه مستهدياً بهذه النظرية الواقعية ، حاثاً على ان لا تغيب عن أذهان الساسة في تدعيم نظام السلام الجديد ، وان تكون القاعدة التي تأتم بها بريطانيا خاصة والامم المتحالفة عامة

ولا ريب في أن الشرق العربي بعد هذه الحرب وتكوين جامعة الامم العربية وفوز اكثر شعوبه بنوع من الاستقلال السياسي ، ينبغي ان يوجه اهتماماً اكبر الى السياسة الاوربية ، باعتبارها عاملا مؤثراً فيه ، ينعم اذا سادها السلام ويألم اذا اضطربت أحواله . ولقد يأتي يوم إذا فهمنا اتجاهات السياسة الاوربية على حقيقتها ، أن تصبح عاملا فعالا في توجيه نواحي منها ، هي النواحي ذوات العلاقة المباشرة برفاهية الشرق وتقدمه سياسياً واقتصادياً .

الصباح

أطلَّ الصباح وثوبُ الدُّجى على الأرض منعقدٌ مسبلُ
فحلَّت يدُ الصبح ما أحكمت يدُ الليل نسجاً وما تغزلُ
وحالت بهيم الدُّجى مجمراً بمنهمرٍ من لظًى يهملُ
فللنور إثر الرُّبى منهلٌ يسيل ودون السَّما مشعلُ
تنفست الأرض عند الضحى كأنَّ جناحَ الدُّجى الجندلُ
وساور عطفَ الربى هزةٌ من الطَّيش واصطفقَ الجدولُ
فللغصن من مرحٍ رقصةٌ وللطَّير قرآنُه المُنزَلُ
وللريح في الروض شكوى الحزين إذا عصف الوجد في الأضلعِ

***

تدفق بالنور رحبُ الفضاء تَدَفُّقَ سيلٍ جرى واصطفقْ
إذا عصف الضوء في جانب من الأفق خِلتَ خضمًّا غَدَقْ
وتحسب ما احمرَّ من غربه حريقاً يشبُّ بجنح الغسقْ
أو البرق أومض خلف الدجى على غاربٍ من لظًى وائتلقْ
وإنْ قَدَحَ الفجرُ أضواءَه حسبتَ إزار الظلام احترقْ
فما كنت تعلم من روعةٍ أبحرٌ طغا أم حريقٌ دفقْ
تساقَطَ نظمُ جُمَانِ الضياء تساقُطَ غيثٍ بليلٍ ودقْ
فهبَّتْ طيور الربى في الضحى تُرَجِّع أنشودةَ الموجعِ

***

تنبهت الأرضُ من هجعةٍ على غَمْرِ ضَوْءِ الضحى المشرقِ
فجاشت بأعطافها سوْرَةٌ من الوجد والأمل الشيِّقِ
وكادت لِمَا جاش في صدرها من الشوق تجْهَرُ بالمنطقِ

وتلق الأزاهر قد فتّحتْ إلى النُّور مُقْلَةَ مُستوثقِ
تراقب ما سال فوق الثّرى من الفجر في لهفة المشفقِ
فتنكس بالرأس كالمطرقِ وتغمض بالجفن كالمُحنَقِ
وتملك أعطافَها هِزّةٌ من الزهو والعجب المغرقِ
وموج الضحى زاخرٌ غربُه على يانع الشفق الممتعِ

***

جرى ذائبُ الفجر فوق الثرى كما لو بأرضٍ خِضَمٌ زخرْ
إذا لمع الضوء في جدولٍ حسبت به قبساً من شررْ
فما كنت تدري أماءٌ جرى على الأرض أم لجّةٌ من سقرْ
تلاطَمَ ذوب نضار الضّحى تلاطُمَ سيل بقفر هدرْ
وإن راحت البُهْمُ تبغي الورود لتطفئ بالماء جمر الوحرْ
ترى البُهْمَ من حيرة أمسكتْ عن الماء مما رأت من صورْ
فلم تك تدري أماءٌ يسيل أم النور يلمع لمع الدررْ
فيمسكها الشك مما رأت وتدفعها ذلّة المطامعِ

***

أرى الكون من جذلٍ بالضحى تبسم عن أمل زاهرِ
وأشرق بالبشر ثغرُ الزمان وشعّتْ به بسمة الظافرِ
وراح الهزار على غصنه يُرجّع لحنَ الهوى الساحرِ
وماست على نغمات الهوى غصونٌ بقادمتي طائرِ
ولكنّ قلبيَ لا يأتلي من الوجد يزفر كالثائرِ
يحن إلى عهده الغابرِ ويبكي على ربعه الداثرِ
ويخفقُ في أضلعي كالذبيح تقنّصهُ مخلبُ الكاسرِ
اذا بارق شعَّ في مقلة تساقط من شجنٍ مدمعي

دمشق عدنان مردم بك

بحث معجمي : في الفلسفة واللاهوت

الافلاطونية الجديدة : Neo-Platonism

١ — مذهب فلسفي وديني ، يتألف من مزيج من الآراء الافلاطونية ومبادئ من التألّه الشرقي . وكانت نشأة هذا المذهب في الاسكندرية خلال القرن الثالث الميلادي ، ومن أكبر رؤوسه أفلوطين Plotinus الذي يدعوه العرب « الشيخ الاسكندري » وفرفوريوس الصوري Porphyry ، وإفروقلوس Proclus : ويقول العلامة « ليكي » Lecky إن الافلاطونية الجديدة وضروب الفلسفة المتصلة بها، كانت في جوهرها وحدية.[1] تفى بذلك في كتابه تاريخ الخلقيات الأوربية .

Neoplatonism and the Philosophies that were allied to it were fundamentally pantheistic.

٢ — يقول لوس G. H. Lewes : إن ما في هذا المذهب من التجديد ينحصر في اتخاذ الجدليات الافلاطونية مرشداً (ا) في بحث التألّه [٢] والوحدية [٣] (ب) وفي جعل العقل مبرراً للعقيدة (ح) وأن معتنقيه من حيث الجدليات كانوا أفلاطونيين ، ومن حيث فكرة التثليث كانوا تألهيين، ومن حيث مبدئهم في الفيض أو الاشراق[٤] كانوا وحديين، أي من أصحاب القول بوحدة الوجود .

(٣) تدرجت الافلاطونية الجديدة في أدوار ثلاثة : الاول : عصر أمّونيوس سقاس[٥] وأفلوطين في القرن الثالث، والثاني : عصر فرفوريوس الصوري وإيامبليخوس[٦] في القرن الرابع ، والثالث : عصر إفروقلوس.

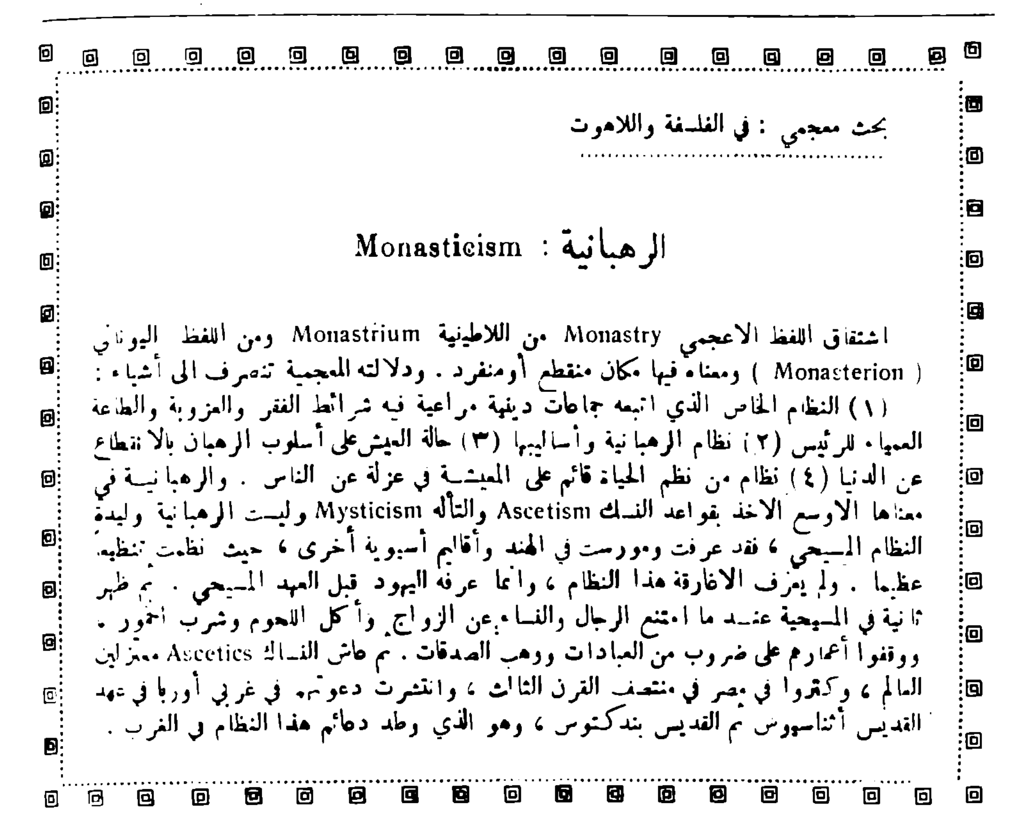
وقد انقرضت مدرسة الاسكندرية في عصر يوستنيانوس [٧] (٤٨٣ — ٥٦٥) م.

وعن دائرة المعارف البريطانية :

With the exception of Epicureanism, which was always treated as the moral enemy of neoplatonism, there is no outstanding earlier systern which did not contribute something to the new phiosophy. Encycl. Brit. (9th Ed.) XVII, 333.

ومن هنا يتضح أن كاتب المادة في المعلمة البريطانية يعتقد أن الابيقورية اعتبرت العدو

Ammonius Saccas (٥) Emanation (٤) Pantheism (٣) Mysticism (٢) Pantheistic (١)
Justinian (٧) Iamblichus (٦)



بحث معجمي : في الفلسفة واللاهوت

الرهبانية : Monasticism

اشتقاق اللفظ الاعجمي Monastry من اللاطينية Monastrium ومن اللفظ اليوناني (Monasterion) ومعناه فيها مكان منقطع أومنفرد . ودلالته المعجمية تنصرف الى أشياء :

(١) النظام الخاص الذي اتبعه جماعات دينية مراعية فيه شرائط الفقر والعزوبة والطاعة العمياء للرئيس (٢) نظام الرهبانية وأساليبها (٣) حالة العيش على أسلوب الرهبان بالانقطاع عن الدنيا (٤) نظام من نظم الحياة قائم على المعيشة في عزلة عن الناس . والرهبانية في معناها الاوسع الاخذ بقواعد النسك Ascetism والتأله Mysticism وليست الرهبانية وليدة النظام المسيحي ، فقد عرفت وموروست في الهند وأقاليم أسيوية أخرى ، حيث نظمت تنظيماً عظيماً . ولم يعرف الاغارقة هذا النظام ، وانما عرفه اليهود قبل العهد المسيحي . ثم ظهر ثانية في المسيحية عندما امتنع الرجال والنساء عن الزواج وأكل اللحوم وشرب الخمور ، ووقفوا أعمارهم على ضروب من العبادات ووهب الصدقات . ثم عاش النساك Ascetics معتزلين العالم ، وكثروا في مصر في منتصف القرن الثالث ، وانتشرت دعوتهم في غربي أوربا في عهد القديس أثناسيوس ثم القديس بندكتوس ، وهو الذي وطد دعائم هذا النظام في الغرب .

الاول للأفلاطونية الجديدة ، وانه فيما عداها لم تترك الافلاطونية الجديدة من مذهب سبقها لم تأخذ منه نتفاً وأطرافاً .

(٤) قوام هذا المذهب الفلسفي عناصر أفلاطونية مدخولة بمعتقدات شرقيـة . وتأثر في عصوره المتأخرة بفلسفة فيلون [٨] والأدرية [٩] والنصرانية . وقد أيد الافلاطونيـة الجديدة بصورتها الاولى كثير من أعلام النصارى مثل كليمان [١٠] الاسكندري وأوريغن، [١١] وقد ختم تاريخ هذا المذهب في القرن السادس المسيحي .

---

(٨) Philo (٩) Gnosticism (١٠) Clement (١١) Origen

واذا أردت التوسع فارجع الى مادة Justinianus : في معجم الاعلام القديمة تأليف Smith والمعجم الانسيكلوبيدي .Encyclopaedic Dict ص ١٨ ج ٥ ومعجم سنتشوري .Century Dict ص ١٢١٩ ج٢ مادة Consul & ConsulshiP وفي غلق مدارس أثينا في عصر يوستنيانوس عد الى تاريخ مؤرخي العالم Historians History of the World ص ٨٥ ج ٧ ، وعن أوريغن عد الى الجزء الاول من تاريخ الكنيسة المصرية History of the Church of Egypt تأليف E. L. Butcher

نهضة أوربا

في القرن الثاني عشر

أساسها اللاهوتي ثم الفكري

تدرجاً وعلى مر العصور ، وضعت أوربا أساس حياة ثقافية خاصة بها . ولقد زودت الزراعة شعوب الغرب بفضلة من الرفاهية ، تحولت نزعة الى اجتناء ثمرات بعيدة عن مجرد الحاجات الموضعية . فنمت المدن ذوات الأسواق واتسعت لتبادل السلع الأهلية وتوزيع البضائع الكمالية المجلوبة من الشرق . ومع وجود أهل المدن وانتشار الرفاهية والمصالح المادية بدأ التطلع العقلي لحقق وجوده ، وأثبت ذاتيته ، بالنظر في العقائد السائدة ، والولع الروحي نحو الحكمة المفتقدة .

لقد بدأ تسارع الحياة الروحية بتأسس دير كلوني Cluny العظيم في القرن العاشر ، فأدى الى الاصلاحات التي بدلت الكنيسة من نظام موضعي ، الى نظام بابوي شامل فيه عشرات من المؤسسات التي آنس الناس في ظلها متسعاً لسد حاجات التطلع العقلي والنفسي ، وكانت في العصور المظلمة نظاماً قام على دير هنا ودير هناك ، استقرفيها ديارون انصرفوا الى المخطوطات القديمة يستعمقون في طياتها ، كلما سمحت لهم ظروف الفراغ من قطع أشجار الغابات أو زراعة الأرض ضاعف ذلك من عدد أولئك الذين تسلطت عليهم الشهوة العقلية ، كما هيأت البيئة لتفريخ الميول الجديدة في الفكر . فنشأت ثقافة شعبية تبدت في أدب الغناء والقصص حتى غزت القصور الاقطاعية وبيوت الأثرياء من التجار في المدن . أضف الى هذا أن مجازفة التوسع التي نعرفها باسم الحروب الصليبية ، كانت مبدأ احتكاك الكثيرين من أهل الغرب بالحضارات الشرقية الراقية ، لحضارة العرب والبربر ، كما كان غزو قوات الصليبية الرابعة لمدينة القسطنطينية (١٢٠٣ — ١٢٠٤) أول تماس فعلي لرجالها بحضارة إغريقية ، وبالحرى بحضارة الروم .

ولكن مهما كان لهذه الحوادث من قيمة وأهمية ، فانه خليق بنا أن نعترف انه ليس من احتكاك أو نظام ، كان السبب في بلوغ الشعوب الغربية حد الرشد ، بل كان السبب في ذلك نماء الجمعية الأوربية في العصور الوسطى ، نماءً مطرداً وان كان بطيئاً ، وبخاصة في حياتها الاقتصادية . منذ بداءة القرن الثاني عشر وفي أثناء القرن الثالث عشر ، استطاع رجال أوربا الغربية

أن يقيموا حضارة فيها نظام وفيها ألفة وتجانس. واذا سقنا القول في مجمل العقائد والمعاملات، فانما نشير بذلك عامة الى الحياة الثقافية في القرون الوسطى. وانه لما يثير العجب ان ذلك العصر قد شهد أول خطوة خطتها الشعوب التي تحكم الآن كرة الأرض، نحو تنشئة ما يقال «بجتوز» إنه «حضارة» أو «ثقافة». ولن نقع على فترة، حتى ولا على لحظة واحدة منذ نهضة القرن الثاني عشر حتى الآن، يمكن أن يشار اليها فيقال إن قوى التطور في الغرب قد وقفت فلم تتابع سيرها، أو أن النماء العقلي والاقتصادي قد تبدل فصار حياة سكون أو همود في حياة تلك الشعوب، أشبه بذلك الذي شهد في حياة الصين والهند أو الشرق بوجه عام، أحقاباً برمتها في التاريخ.

لقد عملت الطاقة البشرية، كما عمل الذكاء الانساني منذ ذلك العصر، فعدل وبدل، وازاد وأربى من وراثات تلك الشعوب، ثم تسارع ذلك فبلغ في هذا العصر أعظم مبالغة. ولا شك في أن هنالك آراء عامة وأخرى رسيسة من الآراء التي امتازت بها العصور الوسطى كما كان هناك وجهات من النظر، ظلت جامدة نسبيًّا، ومضت ثابتة قروناً عديدة. هذه الآراء والمثاليات، هي بذاتها وفي الحق، أساس النصرانية الحديثة ومنماها. ولقد ظل كثير منها رسيساً في معتقدات العديد الغالب من الناس حتى الجيل الفارط، ولقد قُبِل بعضها، فاتخذ على انه من الأشياء الجوهرية في عصرنا هذا.

فاذا وقف الرجل الغربي اليوم موقف من ينظر الى العقل الاوربي في العصور الوسطى نظرة انه غريب عنه دخيل عليه، فان ما وقع خلال الزمان منذ تلك العصور الى اليوم من الانقلابات والتغيرات وما تخللها من تعديلات وفقت بين مختلف نواحي الفكر، لا يمكن أن تفهم حتى الفهم إلاّ في ضوء الماضي وما فرط من عمر تلك الحضارة. والغالب أن أقوم طريق لتفهم حقيقة الآراء والعقائد، أن يفقه الباحث انها ارتكاسات — reactions — برزت استجابة لعوامل خاصة.

أما واننا سوف نبدأ البحث بالقرن الثالث عشر، فواجب علينا أن نصور كيف تبدت الحياة الانسانية لأهل ذلك العصر، وماذا كان شعورهم تلقاءها. سوف نبين عما ظل ثابتاً مطرداً من مفصلات تلك الحياة وماتقوض منها وباد، كما اننا سوف نبين عن تلك المستكشفات المتتالية التي بدلت من حياة دنيا العصور الوسطى وخلقت منها دنيانا التي نعيش فيها.

قارن «أناتول فرانس» في كتابه «حديقة أبيقور» مبيناً الفرق بين دنيا العصور الوسطى، ودنيانا الحديثة، فقال:

لا شك يعتورنا شيء من الانفعال اذا أردنا أن نصور عقل الانسان في العصر القديم، حيث اعتقد اعتقاداً لا يوهنه الشك أن الارض في مركز النظام الدنيوي، وان كل الكواكب تدور من حولها.

لقد شعر تحت قدميه بأرواح الذين أصابتهم اللعنة يتقلبون في النار ألماً ، وربما قد خيل اليه انه رأى بعيني رأسه ، وشم بذات أنفه ، أدخنة الكبريت تنبعث من جهنم ، منفلتة من خلال صدع من الصخور . فاذا رفع رأسه الى أعلا تطلع الى الافلاك الاثنى عشر ، الى فلك العناصر وفيه الهواء والنار ، ثم أفلاك القمر وعطارد والزهرة التى زارها « دانتى » فى يوم الجمعة الحزينة سنة ١٣٠٠ ، ثم أفلاك الشمس والمريخ والمشتري وزحل ، ثم القبة الزرقاء التى تعلق فيها النجوم كأنها المصابيح . ومن خلف هذه ، رأى بعيني عقله ، السماء التاسعة او الفلك التاسع مستقر القديسين ، ثم المحرك الاول او الفلك البلوري (١) ، ثم فى النهاية المطهر (٢) مقام المنعمين ، واليه تتطلع نفسه بعد الموت ، ان يتلقفها ملكان يلبسان البياض ، كما لو كانت نفسه قد طهر الطفل الوليد ، فتغسل بالتعميد ، وتمطر بزيت السر المقدس ، (٣) فى ذلك العصر لم يكن لله من أولاد غير الانسان ، أما بقية خلقه فقد نظم بطريقة أقرب الى الطفولة ، وفى صورة شعرية ، فكأنها كاتدرائية (٤) عظيمة ، فاذا تصورنا الكون على ذلك ، ألفيناه بسيطاً ، حتى لقد نتخيله فى مجموعه وبمختلف صوره وحركاته ، كأنه جملة ساعات مصورة تحركها آلات .

اما الان فقد قوضنا الافلاك الاثنى عشر ، وكذلك الكواكب التى كان يولد الانسان فى ظلها سعيداً او شقياً ، مشتري الحياة او زحلها . اما القبة الصلبة التى هي السماء ، فقد تهشمت وتطايرت شظاياها فى اعتبارنا ، وبذلك اخترقت العيون والافكار أغوار الكون اللانهائية ، فلا نجد اليوم ذلك المطهر ، مستقر الصالحين والملائكة ، قائماً من خلف السيارات ، بل مئات الملايين من الشموس ، تحوطها من الاقمار والتوابع ما لا تراه العين المجردة . وفى وسط تلك العوالم اللانهائية يقع عالمنا ، كأنه ذرة من غاز ، وأرضنا كأنها ذرة من طين .

العوالم تموت لانها تولد ، انها تولد وتموت الى غير نهاية . والخلق ، بحكم انه ناقص وبعيد عن الكمال ، لا بد من أن يعتوره التغير بغير انقطاع . ان الشموس تنطفىء ، فلا نقدر ان نقول اذا كانت بنات الضوء هذه ، تبدأ بموتها على هذه الصورة ، حياة أخرى فى صورة سيارات ، فتكون حياتها الجديدة حياة مفيدة مفعمة بالخير ، كما لا نقدر أن نقول ما اذا كانت السيارات قد تنحل فتصير شموساً تارة أخرى . كل ما نعرف ان السكون غير كائن ، لا فى السماء ولا فى الارض ، وان سنة العمل والجهد ، تحكم العوالم وتقدر مصايرها الى ما لا نهاية .

هنالك شموس انطفأت امام أعيننا ، وأخرى تومض بضعف كأنها لهب شمعة كادت تذهب . أما السماوات ، التى خيل للناس انها ثابتة لا تتغير ، فانها لا تعرف شيئاً من معنى الابدية ، الا أبدية انها مسوقة فى مجرى الاشياء . . The Garden of Epicurus, by Anatole France.

غير أن أهم ما يدور بأذهاننا عن ذلك الكون المركب في هيئة صندوق ، والذي تخيله عقل الانسان المتخلف في العصور الوسطى ، إنما هو الغاية الأساسية التي من أجلها وجد غاية أن يكون مسرحاً لتمثيل تلك المأساة التي هيأها الله لسلالة آدم . ومهما يكن من أمر معرفة الانسان في العصور الوسطى وضيقها ، فان الشك لم يتسرب الى نفسه إزاء أمر واحد : هو أن الأرض والسماوات وكل الأشياء التي فيهن ، قد خلقت له حتى يحيي حياته ، ويصطنع فيها مصيره الأخير .

أما رواية ذلك الخلق ، والمناظر المثيرة التي وقعت فيه ، والصور التي عبرت بجلاء عما قام في ذهن الانسان انه سوف يقع ، فكانت أشياء معروفة لديه مروية في أسطورة أو نصة ، فملأت أفكاره وأفعمتها ، كما أفعمت صورها الكاتدرائيات العظمى ، نحتاً في الحجر أو تصويراً على الجدران .

Cathedral (٤) Sacraments (٣) Empeyrean (٢) Primum Mobile or Crystalline (١)

على أنك إذا أردت أن تعرف كيف فقه الرجل الوسط الذكاء حقيقة التاريخ ، وكيف أمل أن يكون مصير الانسان ، فان الفيلسوف « سنتيانا » يرويه لنا في قالب طريف ، أخذاً من الصورة التي أثبتها الأسقف « بوسويه » في كتابه « بحث في التاريخ العام »[1] الذي ألفه في أواخر القرن السابع عشر ، واليك ما قال :

كان في البدء ، على ما تروى القصة اللاهوتية ، ملك سماوي عظيم ، تحيط به حاشية ذوو أجنحة من موسيقيين وأتوار[2]. وجد ذلك الملك من أزل الآزلين ولكنه كان مصمماً خلال كل أزليته وعندما تأتي الساعة المناسبة ، أن تخلق كائنات زمانية[3] على أن تكون صورة ناقصة منه بنسب متفاوتة . هذه الكائنات ، التي كان الانسان أعظمها شأناً ، بدأت سيرتها الأولى سنة ٤٠٠٤ ق. م. وانها سوف تعيش زمناً غير محدود . ولكن يحتمل أن الاتساق الزماني سوف لا ينفصم حتى تجيء سنة ٤٠٠٤ بعد الميلاد .

إن هذه المأساة قد بدأت ، وسوف تختتم ، بصورتين فيهما فخامة وروعة .

فأول شيء ، وطوعاً لكلمة الله ، أخذت الشمس والقمر والنجوم والأرض مع ما يتبعها من نبات وحيوان ، مركزها المقسوم لها ، وطفرت الطبيعة الى الوجود بكل ما فيها من السنن والقوانين ، وخلق الله أول انسان من طين ، وخلق أول امرأة من أحد أضلاعه ، عندما كان في نوم عميق ووضع الاثنين في حديقة حيث كان في مستطاعهما أن يريا الله الفينة بعد الفينة ، وحيث كانا يتنزهان في رطوبة المساء . وجعلهما يتبوآن منها حيث يشاءان وأن يأكلا من ثمارها التي غرسها فيها ، وأمرهما أن لا يقربا شجرة معينة ، ولكنهما بتغرير شيطان ، انتهكا ذلك الأمر ، فأخرجا من هذا الفردوس تتبعهما لعنة الله . فالرجل يعيش بعرق جبينه ، والمرأة تحمل وتلد وتتألم . والأولاد الذين يلدونهما يرثون ، منذ أن يستقروا في رحم الأم تلك الطبائع المسفة التي اكتسبها أبواهم انما هم ولدوا ليخطئوا ويحدثوا الموت والفوضى ، حينما يكونون وأينما يكونون ، في أنفسهم ، وفيما حولهم من الأشياء .

ولكن الله ، حذر أن يندثر ذلك العمل الذي عملت يداه ، صمم أن يستنقذ بعض بني آدم ويردهم الى الحياة الطبيعية . على أن هذا الاستنقاذ كان سيحدث في النهاية مع أحفاد حواء ، الذين قدر لهم أن تطأ أقدامهم رأس الأفعى [4]. ولكن هذا الاستنقاذ كان سوف يقع بحوادث جزئية سبقت في علم الله . فكان لا بد من أن يستنقذ نوح من الطوفان ، ولوط من سدوم ، واسحق من التضحية ، وموسى من مصر ، والأسرى اليهود من بابل ، وكذلك كل الذين يؤمنون بفساد الكفر والوثنية .

(1) Discourse on Universal History.

(٢) الاتوار : الرسل ، واحدها تور : رسول (٣) محدثة لا أزلية ولا ابدية

(٤) التي تشكلت في صورة الشيطان وأغرت حواء وآدم على الاكل من الشجرة المحرمة .

هنالك قبيلة واحدة أخرجت من زمرة الانسانية منذ البداءة لتكون حفيظة على كلمة الله مشيدة بذكره موصية بأحكامه ، محيية لوصاياه ، مذكرة بوعوده ، في حين أن بقية الانسانية، قد نبذت،فسلطت عليها نقائصها الطبيعية ورذائلها النفسية،فمضت تنحدر شيئاً بعد شيء في غور الجرائم والمغررات .

ان الطوفان الذي أرسل ليغسلهم من هذه الحماقات لم يفد فيهم شيئاً . جدد الطوفان الدنيا وبرزت الأرض بعده على صدر الماء مطهرة،ولكن هذا التجديد قد خلف من ورائه وبصورة أزلية ، إثارات من الانتقام الالهي . فالى الزمن الذي حدث فيه الطوفان كانت الدنيا والمخلوقات في خشونة تقاوم فواعل الطبيعة ، ولكن الله قد أمر أن نعم هذا الطوفان الأرض ويغطيها . ويطول مكثه عليها ، فماعت كل العصارات ، فتشبع الهواء بالماء ، فنشأت بذلك زوائل جديدة ، واستحدثت بواعث أخرى من الفساد والفوضى ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، بل ان صلابة الخلق الأصلي أصابها ضعف ووهن ، فأخذت الحياة الانسانية تتناقص في مداها . بعد أن كانت حياة الفرد قد تبلغ ألف عام . وكذلك فقدت الأعشاب والجذور خصائصها الأولى وتأثيراتها الفطرية ، فبدل طعام الانسان بطعام أخشن وأصلب ، وأكل لحم الحيوان .

خيم الموت على الحياة ، وشعر الناس بأنهم مأخوذين بالأيدي والأذقان . ولكنهم لم يزدادوا على مر الأيام إلا شقاوة وعناداً ، فكان من الطبيعي أن تلم بهم على الأيام شقاوات جديدة . ولقد قدّر عليهم تقييد طعامهم أن ينحدروا الى الفساد والتنكس ، ومع امعانهم في هذا وتمكن الضعف في نفوسهم ، زادوا نهماً وتعطشاً للدماء .

من ثمّ كان في الوجود روحان ، أو فئتان ، أو كما قال القديس أوغسطين ، مدينتان ، في هذه الدنيا : مدينة الشيطان، وهي مهما بلغت من الفن أو الحرب أو الفلسفة ، فانها مدينة منتكسة كافرة بعيدة عن التقوى . ان مسراتها ليست أكثر من قناع يحجب حقيقتها ، وجمالها طلاء كاذب . انها ملعونة في عين الرّب ، كما هي ملعونة في عين التّقي لما فيها من غرور وقساوة وتعاسة منبثة في تضاعيفها ، وجهلها بكل ما ينبغي أن يعرف مما يؤهل بالانسان الى الخلود والحياة الأبدية .

الى جانب هذه المدنية كانت مدينة الله ، التي وعد بها أرواح أولئك الذين قدّر لهم الخلاص . كانت مفقودة في ذلك التيه الذي صورنا به مدينة الشيطان ، أو كانت على الأقل غير مستبانة إلا كسراب . هي مدينة مهما بلغ من استخفائها وتواضعها لأهل الأرض ، فان الموعودين بها وغاياتها وأصولها الأولى ، ثابتة في اللانهاية . ممن وعد بهذه المدينة البطارقة والأنبياء ، أولئك الذين ظلوا طوال أعمارهم قانتين صاغين الى تلك الايحاءات التي إن ظهرت

لهم أول الأمر ملفوفة بضباب البداية ، فقد انتظروا بصبر وجلد الخلاص الأكبر الذي لا بدَّ ان يأتيهم يوماً مّـا . من أهل هـذه المدينة أولئك المجوس الذين تتبعوا تنقل النجم حتى استقر فوق الحظيرة في بيت لحم ، وسمعان الذي توقع خلاص بني اسرائيل ، ويوحنا المعمدان الذي توقع مثل ذلك وشق طريقـه الى الحق قوياً مستقيماً ، وبطرس الذي لم يستشف ألوهية المسيح من قوى لحمه ودمه ، وإنما فاض الأب بها عليه من السماء . ذلك بأن الخلاص لم يأت إلاَّ بعد أن تهيأ له الزمان ، وانه ليس كما يقول اليهود الشهوانيون ، عبارة عن فعل دنيوي استردت به الأرض شبابها وقوتهـا ، بل حدث بتجسّـد ابن الله في مريم العذراء ، وموته على الصليب ، وهبوطه الى جهنم ، ثم رفعه الى السماء في اليوم الثالث من موته ، على ما تقول الأناجيل . والى هذه المدينة أيضاً ينتسب أولئك الذين يؤمنون برسالة المسيح وحقيقتها وأثرها ، والذين يلتجئون الى فضله ويستمطرون هدايتـه ، ويتتبعون وصاياه بكراهة هذه الدنيا والزهد فيها .

ليس التاريخ في حقيقته وماهيته إلاَّ رواية الصراع الهائل الذي قام بين تينك المدينتين ويرمز لهما بفضيلتين : إحداهما طبيعية ، والأخرى فوقيطَـبَـعيَّـة . أو هما بالايجاز فضيلة الشهادة ، وفضيلة الغيب . أو هما فلسفتان : إحداهما عقلية ، والأخرى وحييّـة . هما ضربان من الجمال : أحدهما جسداني ، والآخر روحانيّ . أو جُلالتان : إحداهما زمانية ، والأخرى أبدية ، أو نظامان أحدهما الدنيا ، والآخر الـكنيسة .

المدينتان مختلفتـان كل الاختلاف متنابذتان كل التنابذ ، أجنبيتان في أساسهما ، إحداهما من الأخرى ، برغم ما قد يلوح بينهما من الترابط أو التفاهم بعض الأحيان .

ستظلان متنابذتين متجالدتين أزماناً بعد أزمان ، حتى يأتي يوم الحصـاد . وما يوم الحصاد ذاك إلاَّ كمثل اليوم الذي تتفق فيه الحنطة والشيلم على اقتسام الارض ، فينبت كل منهما في مكان يقسم له ، فيتفاهمان بعد طول الصراع ، على اقتسام الأرض .

أما أولئك الذين اعتقدوا أن أشياء الدين انما هي خيالية ولا حقيقة لها ، فسيرون الله يوم الحساب ، وقد أخذتهم الرجفة ، هابطاً من سحاب السماء ، والملائكة ينفخون في الصور ، وقد خرج الناس من قبورهم كأنهم جراد منتشر ، ليلقى كل منهم جزاء ما عمل ، فالناجون يدخلون في ملـكوت الله ونعيمه ، تحف بهم حاشية ترتل الأناشـيد حتى يصلوا الى عالم كله ضياء ، في حين يكون الذين أصابتهم اللعنة يتضورون ألماً ، صارخين صاخبين ، منكسين في صور وحوش كريهة المنظر شائهة الوجوه ، تلفهم نار لواحة للبشر ، لا تبقي ولا تذر

المدينتان في تناقض وتضاد ، في الحقيقة وفي الجوهر ، ولهذا فلا بدّ من أن تنفصلا في النهاية ، ولا بدّ لـكل منهما أن تحمل ثمراتها الطبيعية نامّـة عن حقيقتها .

المذهب العقلي : Rationalism

العقلي (ج : العقليون) Rationalist(s)

المذهب العقلي : Rationalism

١ — المعنى العام : (١) الاعتقاد بتفوق العقل في الحكم على المعتقد والسلوك، على العكس من القول بخضوع العقل لسلطان ما . (٢) التفكير الذاتي اي الحر .

في اللاهوت : (١) اسلوب يرمي الى تفسير قضايا التاريخ المقدس المقول ان فيه أثراً فوقيطبعياً Supernatural بطريقة مطابقة للعقل . (٢) القول بأن العقل هو المرشد الاوحد في الحكم على المسائل الدينية . (٣) مبدأ استخدام التفكير العقلي في نقد مذاهب الدين . (٤) إخضاع المذاهب الدينية، وتفسيرات الكتب المقدسة، لنقد العقل الانساني او الفهم، ورفض القول بسلطان العقيدة على أنه مناقض للعقل وحرية الضمير .

٢ — في العصر الحديث : مذهب يؤيد النظريات والمبادىء التي تنكر الوحي، سواء أكان فوقيطبعياً Supernatural او مفروضاً بسلطان ما، ويقضي بأن العقل وحده، دون احتياج الى الاستعانة بالهام، قادر على ادراك كل الحقائق الدينية التي يمكن ادراكها .

والمذهب العقلي باعتباره نظاماً لاهوتياً، يقضي بان العقل هو الحكم الوحيد بل العلة النهائية الصحيحة التي ينبغي ان تحكم في مشكلات الدين ومسائله . وبهذا يكون المذهب مناقضاً لمذهب التأله : Mysticism القائل بأن في الانسان قوة روحانية تستعلي على موهبتي الادراك والعقل

أما باعتباره نظاماً مذهبياً اعتقادياً، فيتضمن كل المبادىء التي قامت على الفلسفة العقلية . غير انه يرفض السلطة المستمدة من الكتب المقدسة وأصول النصرانية، القول باستمدادها من الفوقيطبيعة، في حين يسلم بفكرة وجود الله وخلود النفس على انهما من الفكرات الترجيحية او التغليبية، ولكنه يقضي، الى جانب هذا، بان مبادىء الخلق Moral حقائق لا تقبل الجدل . اما من حيث تفسير الكتب المقدسة، فالمذهب العقلي على ان هذه الكتب نفسها تؤيده وتتضمن مبادئه، فتنفي عنها عناصر القداسة والفوقيطبيعيات

واصطلاح « المذهب العقلي » Rationalism لا يخلو من غموض . ذلك بان وجوه استعماله ومدلولاته في الجدليات اللاهوتية الحديثة، قد كثر التحوير فيها حتى امتدت الى نواح غير محددة الاغراض والمعاني

٣ — في البعديطبيعيات او الغيبيات: Metaphysics

(١) الاعتقاد بوجود معرفة بديئية : a priori (٢) القول بان المعرفة لا تتكون بفعل الاشياء الخارجية على الحواس لا غير، بل يتألف بعضها من التكيف الطبيعي الذي يتكيفه العقل، فيدرك الاشياء على وجهها الصحيح

العقلي : العقليون : Rationalist

(١) المعنى العام : من يتبع وحي العقل، ويرفض الخضوع للسلطان في التفكير والتأمل . (٢) من يعتقد في استعلاء العقل على المنقول والمأثور . (٣) من له كفاية التفكير العقلي . (٤) مجهز بكفاية العقل . (٥) من في قدرته أن يستخدم كفاية العقل بأسلوب صحيح . (٦) فاره (١) في الحكم على حقيقة الاشياء . (٧) عاقل . (٨) رشيد .

(٢) عقليو النصارى : من يعتقدون أن كفاياتهم العقلية فوق تصورهم النصراني .

في اللاهوت : من يطبق قواعد النقد العقلي على كل ما يقرر بسلطان البعديطبيعية أو قداسة الوحي، وعلى التعين أحد رجال المذهب أو الحزب الذي ظهر في ألمانيا في القرن الثامن عشر، ومبدؤه الاول الاستمساك بأن العقل الانساني مستقل بذاته، وانه من غير استعانة بضرب من الوحي القدسي، في مستطاعه الوصول الى الحقائق الممكنة، وان الكتب المقدسة مادة أولية للوصول الى الحق، من طريق البحث والمقارنة والاثبات والنفي، وليست وحياً منزلاً .

(١) فره ككرم : فراهة وفراهية : حذق، فهو فاره بين الفروهة ج فره كركع : القاموس (٤:٢٨٩)

الوساطة والمحسوبية

والاستثناء

الوساطة هي التوسط بين اثنين طالب ومطلوب منه، أو ذي حاجة ومن عنده الحاجة، والمتوسط يسمى وسيطاً وواسطة، وقد رُزقَ لفظ الواسطة هذا أكبر حظ من الذيوع والانتشار، فقلما يدور حديث حول قضاء المصالح والوظائف والأعمال في دواوين الحكومة بدون أن يجري لفظ الواسطة على الألسنة يراد به أحياناً الوسيط وأحياناً الوساطة، كأنْ يقال: لا بدَّ من الواسطة: ابحث لك عن واسطة: لا يقضى أمر إلاّ بواسطة: المدار على الواسطة: ونحو ذلك. والمفهوم من معنى الوساطة أنها تكون بين ثلاثة طالب ومطلوب منه ووسيطٍ بينهما، والمفهوم من معناها كذلك أن يكون للوسيط دالّة على من بيده الحاجة أو له عليه سلطان، وأنه يستطيع بهذه الدالة أو بهذا السلطان أنْ يضطرَّ من بيده الحاجة الى أن يتخلى عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة الوسيط وعزمه فيحقق رغبة الطالب.

والمحسوبية في العرف علاقة بين اثنين أحدهما محسوب ويكون صغيراً قدراً، والآخر محسوب عليه ويكون كبيراً قدراً، أما هذه العلاقة فهي قرابة أو مصاهرة أو صداقة أو خدمات يؤديها المحسوب للمحسوب عليه، وهذه العلاقة تقتضي أن يتخلى المحسوب عليه للمحسوب عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة المحسوب وعزمه بدون وسيط بينهما.

فالوساطة والمحسوبية يجتمعان في أنَّ كلاًّ منهما يضطرُّ من بيده الامر أن يتخلى عن إرادته وعزمه ويخضع لارادة غيره وعزمه، ويفترقان في أنَّ الوساطة فيها وسيط وأن المحسوبية لا وسيط فيها، والأصل فيهما مخالفة الحق والعدل.

والاستثناء في العرف هو مخالفة القوانين والقواعد في شؤون الدولة العامة كالتوظيف والترقيات والعلاوات والتنقلات وتوزيع الاعمال ونحو ذلك، وهو في ذاته حسن وضرورة لا بدَّ منها لأن القوانين والقواعد العامة ناقصة إذ لا يمكن أن تشمل كل المستحقين فهو مكمِّل لنقصها. وإنما يذمّ الاستثناء إذا كان نتيجة للمحسوبية أو الوساطة ومخالفاً للحق والعدل.

ونحن — معاشر المصريين — لا نكاد نعول في جلب المصالح ودفع المضار إلاّ على لوساطة والمحسوبية. فالولد حين يأبى والده أن يوافقه على ما يريد يعتمد على منزلة عنده

وهي من المحسوبية ويلح ، فان لم ينجح محمد الى الوسيلة الثانية وهي الوساطة ، فيبحث له عن واسطة من الأسرة أو من غيرها حتى يضطر الوالد الى الموافقة . وكذلك جميع آحاد الأسرة الأقربين والأبعدين . والمرءوس حين يأبى رئيسه أن يوافقه على ما يطلب ولم يكن له عليه محسوبية يسارع الى البحث عن واسطة له دالة على الرئيس أو له عليه سلطان ، فيضطره الى الموافقة.وكذلك كل الناس فالزراع والصناع مع أصحاب المزارع والمصانع والمشتري مع البائع والمستأجر مع المالك والجمهور مع الحكام وغيرهم إذا أراد أحد من أحد شيئاً لا يوافق عليه المطلوب منه، ولم يكن للطالب على المطلوب منه محسوبية لجأ الطالب الى الوساطة فيقضى الأمر

هذا شأننا يدرج عليه أطفالنا ويراهن عليه كبارنا في حياتينا المنزلية والاجتماعية منذ مئات السنين، للآن حتى صار عقيدة راسخة وخلقاً ثابتاً فينا لا يكاد مصري يسلم منه ، فان أبى انسان أبي النفس أن يستغل المحسوبية أو أن يستعين بواسطة على قضاء ما يريد لا يسلم من أن يرغمه غيره ارغاماً على أن يتوسط له في أمر أو أن ينزل على ارادة وسيط إن كان ممن بيدهم الامور . انها خلة عامة، فقلما تجد من لا يفكر في محسوبية أو في وساطة .

وهاتان الخلتان المحسوبية والوساطة من مستلزمات القرابة والصداقة والمصاهرة والصنيعة. فاذا رزق انسان جاهاً أو سلطاناً كان عليه أن يفكر فيمن حوله من الأقرباء والاصدقاء والأصهار وذوي الخدمات ممن يعلقون عليه الآمال، والويل كل الويل له اذا تخلى عن واحد منهم فلم يؤثره بخير لا يستحقه الا لانه قريب أو صديق أو صهر أو ذو خدمات ، والويل كل الويل لكل واحد من هؤلاء إذا لم يتوسط لدى من رزق هذا الجاه او السلطان لمن يطمع في وساطته عنده .

وان من مستلزمات هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة في الأصل انجاز المطالب المنافية للحق والعدل . وإذ كان الجمهور المصري يدين بهما فقد أصبح من بيده حق من حقوق الناس لا يرده لاصحابه إلا بواحدة منهما بالمحسوبية أو بالوساطة. فكثيراً ما تبقى الحقوق معطلة حتى تنجزها المحسوبية أو الوساطة، وبذلك أصبحت المحسوبية والوساطة وسيلتين لقضاء المصالح ماكان منها باطلاً وماكان منها حقاً .

وإنا لندفع ثمن هاتين الخلتين الذميمتين فاحشاً فادحاً لانهما شر معاول الهدم للنظام الاجتماعي وأقساها ، إنها تستل بناءه حجراً فحجراً، حتى تأتي عليه من القواعد بما تجني على الطالب والمطلوب منه والوسيط وعلى الامة .

فأما المطلوب منه فانه يضطر الى أن يتخلى عن ارادته وعزمه ويخضع لارادة غيره وعزمه فينقض اليوم ما أبرمه أمس، أو يبرم اليوم ما نقضه أمس، ويغير ما عقد عليه النية وأمر عليه

من قول أو عمل، فان كان ما رجع عنه هو الباطل وما رجع اليه هو الحق، فهو مذموم لأنه لم يتحر الحق والعدل في أعماله حتى جاءه المحسوب أو الوسيط فرده الى الصواب، وإن كان ما رجع عنه هو الحق وما رجع اليه هو الباطل فهو أذم لأنه قوض بيديه وهو عالم عامد أركان الحق والعدل وأقام على أنقاضها صروح الظلم والباطل وآثر ارضاء المحسوب أو الوسيط طمعاً في خير يرجوه أو اتقاء لشر يخشاه على ارضاء ضميره

وقد يتفاقم شر المحسوبية والوساطة فيضطر بعض القابضين على أزمة المصالح العامة الى ان ينظروا الى هذه المصالح بمنظارين أحدهما يرون به الناحية العامة التي يجب أن يقصدوها والآخر الناحية الخاصة وما قد يكون فيها من ارضاء هذا أو اغضاب ذاك، وما قد يكون في هذا أو ذاك من خير يرتجى، أو شر يتقى، فيؤثرون من تلقاء أنفسهم المصالح الخاصة على المصالح العامة ويصبح هذا دأبهم وفي هذا وحده شر الأضرار تصيب المطلوب منه أولاً والأمة ثانياً.

وأما الوسيط فقد يضطر الى الكذب والخديعة والملق والنفاق ويقف مواقف المذلة والهوان، وقد يمتلىء غروراً ويضرى على الاستخفاف بالمصالح العامة وإيثار المصالح الخاصة عليها

وأما الطالب فان كلاً من المحسوبية والوساطة تميت في نفسه خير الخلال وهي الاعتزاز بالنفس والثقة بها والاعتماد عليها دون غيرها في جلب المصالح ودفع المضار، ومن راض نفسه على احداها باء بالخسران المبين، لأنه ينصرف عن خير وسائل التقدم والرفعة في هذه الحياة الدنيا، وهي الجدّ والاجتهاد وتوخي أمثل الطرق للنجاح.

وفيما يصيب هؤلاء الثلاثة من أذًى، أذًى أبلغ للأمة بما يتضافرون عليه من هدم الحق والعدل وهما أساس الملك، وبما يجنون على أنفسهم من آثار المحسوبية والوساطة السيئة وهم أعضاء في جسم الامة، والجسم اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، فعليهم وعلى الأمة معهم يقع وزر هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة وما ينشأ عنهما من استثناء وغيره، لأنهما من الخلات المتأصلة فيها، والأمراض الوبيلة الفتاكة بها، وهي غافلة عنهما لا تفكر في أسبابهما وفي القضاء على هذه الأسباب. واذا حمّل من بيده الأمر اذا خالف الحق والعدل مكرهاً تحت تأثير الوساطة نصيباً من الوزر، فان الوسيط اذا ألحّ وأصرّ يحمل نصيبين، وصاحب الحاجة إذا كان في غنًى يحمل ثلاثة، والأمة تحمل ستة أنصبة تعدل أنصبة الثلاثة.

أما أسباب تفشي هاتين الخلتين الذميمتين فينا فيمكن اجمالها في ثلاثة:

السبب الأول — الحكم الفردي المطلق الظالم: فالحاكم المطلق الظالم يستأثر بكل خير في

البلاد ولا يختص بما عنده منه إلا للمقربين ذوي المحسوبية ومن يتخذ من هؤلاء المقربين ومن غيرهم من وسطاء . وهذا من شأنه أن يحمل الناس على الذل والخضوع لمن بيده السلطان لتكون لهم عليه محسوبية ومن لا يُوَفق لهذه المحسوبية يلجأ الى الوساطة .

وقد قضت مصر التعسة القرون الطوال تحت هذا الحكم الفردي المطلق الظالم في أكثر عهوده ، وأقرب هذه العهود من عصرنا الحاضر العهد التركي الذي دام خمسة قرون ونحو نصف قرن . ثم عصر الاحتلال البريطاني، فأي بيئة أخصب من هذه البيئة، وأي ظرف أصلح من هذا الظرف، لانتعاش هاتين الخلتين المحسوبية والوساطة اللتين يُنال بكل منهما ما عند الحاكم الفردي الظالم من خير ويتقى بكل منهما ما يخشى منه من شر .

وقد عاش أجدادنا العرب كسائر الأمم القديمة بالحكومة الفردية المستبدة الظالمة . وكان آحاد الأمة لا يعوّلون في جلب الخير لأنفسهم وفي دفع الشر عنها إلا على الزلفى والمحسوبية عند أمرائهم وعظمائهم ممن بيدهم نفعهم وضرهم من البشر، أو على التوسط بمن هم أعلى منهم حرمة ومنزلة عند هؤلاء الأمراء والعظماء ، فأيّ ظرف أصلح من هذا الظرف ، وأي بيئة أخصب من هذه البيئة لانتعاش هاتين الخلتين الذميمتين، المحسوبية والوساطة في أجدادنا العرب

وقد تجاوز أجدادنا الفراعنة مراتب السيادة الانسانية الى مرتبة السيادة الالهية فكان كل فرعون ملكاً وإلهاً معاً بيده ملكوت السموات والأرض وحياة الناس في الأولى والآخرة. لا يتحرك مصري حركة ولا يسكن سكنة إلاّ اذا طلب المعونة من فرعونه؛ ملكه وإلهه معاً . بالزلفى والمحسوبية إن كان ممن يستحقها أو بوساطة واسطة من هؤلاء المقرّبين المحسوبين وهم الكهنة فأيّ ظرف أصلح من هذا الظرف ، وأي بيئة أخصب من هذه البيئة لانتعاش هاتين الخلتين الذميمتين المحسوبية والوساطة في أجدادنا الفراعنة .

فنحن — معاشر المصريين — في ماضينا القريب وفي ماضينا البعيد ، من ناحيتي أجدادنا العرب وأجدادنا الفراعنة، عشنا عيشة ملائمة كل الملاءمة لانتعاش خلتي المحسوبية والوساطة الذميمتين كل الانتعاش .

السبب الثاني — فساد التربية فساداً عامّاً شاملاً :

فأما التربية العقلية فقد ترك العامة وهم سواد الأمة الأعظم في جهالة جهلاء وضلالة عمياء لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يعرفون ألزم ما يلزم من الحقائق العلمية التي تكتنفهم آثارها وتقوم عليها أعمالهم، ولا من الحقوق والواجبات الوطنية فانقطعت صلتهم بالحياة انقطاعاً تامّاً وانبعثوا في ميادين البدع والخرافات والأوهام والضلالات الواسعة انبعاث الحُمُر الضالة يلجؤون في أتفه الأشياء وفي أشد المحن الى من يتوسمون فيه النفع والضرّ

لا من الأحياء فحسب ، بل من الأحياء ومن الأموات متخذين عندهم الزلفى والمحسوبية أو الوساطة ، ولعلَّ ذلك من آثار وثنية أجدادنا العرب والفراعنة .

وأما التربية الجسدية فلا وزن لها ولا رعاية وإن سواد المصريين الأعظم لفي معيشة ضنك غذاءً ولباساً وفراشاً وغطاءً ومساكن ونظاماً ، وهم من ذلك في ضعف جسدي شديد وفي أمراض قتالة . وحسبنا أن الفحص الطبي للتجنيد أثبت أن تسعين في المائة من المرشحين للتجنيد لا يصلون للجندية لضعف أجسامهم وضعف الجسم من شأنه مع ذلك أن يضعف النفس والعقل ويعوق الضعيف عن الكسب ويضطره الى الاستعانة بغيره بالزلفى والمحسوبية أو بالوساطة لأجل أن يعيش .

وأما التربية الخلقية فليست أحسن حظاً من أختيها بل هي أسوأ منهما لاهمالها وللمعاول التي تهدم بنيانها كالشهوات التي ركّبت فينا فهي تدفعنا الى ما يرضيها ، وقد يكون محظوراً ، ولما يكتنفنا من مغريات ومفسدات ، ولما لاضمحلال الأجسام والعقول من تأثير سيء في الأخلاق ، وأبرز ما في أخلاقنا من عيوب الاتكال . إننا أمة لا تعرف معنى ولا سبيلاً الى التربية الاستقلالية فكلنا ، عامة وخاصة ، إلاّ من عصم الله ، إتكاليون نعتمد في حياتنا على غيرنا لا على أنفسنا ، وهذا الاتكال أكبر باعث على التماس الزلفى والمحسوبية والوساطة ولعله أثر من آثار الوثنية وسوء فهم التوكل في الشريعة الاسلامية .

والسبب الثالث — هو الفقر : والفقر لا يكون إلاّ عن عجز عن الكسب إما لضعف الجسم وإما لضعف العقل . والعجز عن الكسب يدفع الانسان دفعاً الى الاستعانة بغيره والاستعانة تضطره الى الزلفى والمحسوبية والى التماس الوساطة .

من ذلك يتضح أن المحسوبية والوساطة وما ينشأ عنهما من إيثار من لا يستحق على من يستحق واختصاصه بالخير دونه مرضان قديمان متأصلان في الأمة المصرية تأصلاً عميقاً وأن لها أسباباً ثلاثة قوية كل القوة ، وهي الحكم الفردي الاستبدادي الجائر ، وسوء التربية بضروبها الثلاثة ، والفقر .

أما القضاء على هذه الأسباب فيكون بالوسائل الآتية :

الوسيلة الأولى : نشر التعليم وتعميمه بين الشعب كله بأكبر قسط منه ممكن ، فان التعليم كفيل بأن يوقظ ما في أبناء الشعب من ذكاء ومواهب عقلية كامنة ويقوي مداركهم وينير بصائرهم ويعينهم على ترقية أعمالهم ومستوى معيشتهم وفي نشر التعليم وتعميمه معوان على القضاء على الفقر والمرض .

الوسيلة الثانية : نشر الصناعة وتعميمها وإن لنا في ميدان الصناعات لمجالاً واسعاً كل

السعة، فالصناعة خير الوسائل لتربية الأمم لأنها تحيي روح الكد والعمل والنظام والتعاون والاعتماد على النفس والصبر واحتمال المتاعب والاحتيال لحل المشكلات والدقة والذوق السليم والتفكير وغير ذلك من جميل الصفات ، وهي فوق ذلك كله ترفع السواد الأعظم من الشعب من هوة الفقر التي ألقته فيها الزراعة .

الوسيلة الثالثة: رفع الأجور والاخذ بنظام التأمين الاجتماعي وكفالة أبناء غير القادرين من الشعب باطعامهم وكسوتهم وتعليمهم .

الوسيلة الرابعة : إبقاء الحكم الجمعي المقيّد وهو الحكم الدستوري القائم الآن مع اصلاحه بتحريره من سيئاتنا، فان أخلاقنا وعاداتنا وتقاليدنا طغت عليه فكادت تجعله حكماً فرديًا فى ثوب جمعي ، وحكماً مطلقاً فى ثوب مقيد، وهـذا الاصلاح لازم لذاته ولأن القوانين التي يضعها ويقرها المجلسان لاتصير جزءًا من الشريعة الاسلامية واجب الطاعة إلا إذا روعي فى تكوين المجلسين ثلاثة أمور خطيرة . الامر الاول: حرية الناخب حرية تامة وهو لايستطيع أن يملك هـذه الحرية إلا بالحكومة العادلة وبتحرره من الفقر والضعف الجسدي والنفسي وبتعلمه القراءة والكتابة ونصيباً محموداً من الثقافة يساوي التعليمين الاولي والابتدائي وشيئاً من الثانوي بدون لغة أجنبيـة . الامر الثاني: حرية النائب وهو لا يمكن أن يملكها هو الآخر كاملة الا بقدر محمود من الثقافة وبقيام الأحزاب وهي عماد الحياة الدستورية على المبادىء ،لا على الاشخاص، وباستقرار المجلسين وعدم تعرضهما للحل الا بمضي المدة القانونية وبكف الناخبين وغيرهم إذا تعلموا واغتنوا عن ضغطهم على النواب بالطلبات التي تضطرهم الى استجداء الهيئة التنفيذية التي يراقبونها ويوجهونها . الامر الثالث: أن يكون في كل من المجلسين فريق من علماء الاسلام العاملين الذين يعرفون الشريعة الاسلامية حق المعرفة ويعملون بها أصـدق العمل ليبصروا المجلسين بما قد يخفى عليهما من أحكامها ليتمشى التشريع فيهما على ضوئها ويصير المجلسان بهذين الفريقين هم اولي الأمر المقصودين بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم » ويجب على المسلمين طاعتهم فيما يشرعون .

ولعلك تقدر بعد ذلك كلـه خطورة المحسوبيـة والوساطـة وخطورة أسبابهما ووسائل علاجها [1] .

عبد الله أمين

....

(١) فى هذا المقال مقتبسات من مجلة المنار لصاحبها أخي وأستاذي السيد الامام محمد رشيد رضا

الحيتان

Cetacea = Whales and Dolphins. From Gr. Cete = any monster or large fish, particularly a whale.

جاء في معجم الحيوان للمعلوف ص ٥٨ : « رتبة الحيتان ، حيوانات بحرية لبونة تشمل البال والهركول وعجل البحر والعنبر والدلفين وغيرها » — وفي معجم شرف ص ٢٠٠ : «السيتيا ، الحيوانات القيطية، رتبة الحيوانات الثدية البحرية ، تشبه الاسماك ، منها العنبر : odontoceti والحيتان ذوات السنام الكندارة Hump-backed whales ، او الحدباء والدلفين والبال » ا هـ . وقول شرف « السيتيا » خطأ في التعريب .

***

الحيتان قبيلة (١) من الثدييات ذوات الرحم : monodelphia ، وتلحق بالفواره : Educabilia وتشمل الحيتان والدلافين والبال وغيرها . والعائشة منها اليوم قبيلتان (٢) : الاولى المسننات : Denticete ، والثانية السبليات : mysticete . وأجناس هذه القبيلة وأنواعها كثيرة ، ويحصرها المواليديون عادة في عشر فصائل (٣) .

تمتاز هذه الحيوانات بأن الحوض والاطراف الخلفية منضمرة قليلا أو كثيراً بحسب الاجناس ، ولها جسم يشبه جسم السمك ، معد للسبح في الماء ، وينتهي بذنب أفقي الوضع . والاطراف الامامية قصيرة ، أشبه بزعانف السمك ، ومن أصابعها أصبع تزيد فيه السلاميات على ثلاث ، والرقبة قصيرة . أما فقارات الرقبة ، فقد يكون عدد منها ملتصقاً بعضه ببعض ، وهذا العدد يزيد وينقص بحسب الاجناس . وهي من الحيوانات الثدية ، تلد وترضع صغارها ، والامهات من أرأم ما يعرف في عالم الحيوان .

ولقد عدد الاستاذ «بورادايل» : Borradaile : الصفات المميزة لقبيلة الحيتان ، وحصرها في أبواب هي :

(١) الجسم مكون على غرار الاسماك ، وليس لها آذان نابية ، أو اطراف مؤخرية او فرو . ولكن لها ادمة ناعمة تهيؤها للسبح بسرعة خلال الماء .

(٢) الاطراف المؤخرية قد استحالت اعضاء دافعة لها وظيفة الزعانف الجنبية في الاسماك .

(٣) يغلب ان يكون لها زعنفة ظهرية .

(٤) للذنب اسطوانتان عريضتان تزيدان من قدرتها على السبح ، ولكنهما أفقيتين ، لا رأسيتين كما في الاسماك ، وبذلك تزداد قدرتها على حركتي الصعود والهبوط ، وهما حركتان ضروريتان لها ، لحاجتها الى استنشاق الهواء .

(٥) الخيشومان في اعلا الرأس،حتى لا تحتاج إلا لرفع جزء من الجسم فويق الماء ، ويمكن سدها بجهاز خاص

(٦) الحلقوم مستطيل ويلتقي بالمنخرين المؤخرين، فيكونان مسلكاً ينفذ منه الهواء الى الرئتين ، وبذلك يمكن غلق الفم في اثناء التنفس تحت الماء .

(٧) للمجموع الوعائي ضفائر كثيرة : ritia mirabilia ، ويرجح ان تكون وظيفتها اختزان كمية كبيرة من الدم ، فينتج عن ذلك اختزان كمية كبيرة من الاكسجين .

(٨) وجود طبقة سميكة من الشحم تحت الجلد ، للاحتفاظ بحرارة الجسم ، فيعوض ذلك عليها ما تفقده من الحرارة بسبب تجرد الجسم من الشعر ، كما تجعل الجسم اكثر قدرة على العوم .

(٩) العظام خفيفة .

(١٠) العيون صغيرة .

(١١) غدد الدمع والعرق واللعاب فاقدة ، إذ لا فائدة منها لاحياء تعيش وتغتذي في الماء .

---

(١) Order (٢) Sub-orders (٣) بصيغة التصغير في العربية : Families

تولستوي

ان البلاد الروسية التي خاضت غمار حرت طاحنة كانت ولا تزال وطن الادباء ومنبت الكتبة والشعراء الذين ظهروا كواكب لامعة فأناروا حالك ليل من الجهل خيم على تلك البلاد طويلاً وهم كما قال فيهم كاتب فرنسي كبير« انه اذا وضعت الامبراطورية الروسية في كفة ميزان ووضع ادباؤها وشعراؤها في كفة أخرى رجحت كفتهم لانهم لا يكتبون بل يوحون، ولا يقولون بل يفعلون، فأدبهم هو وحي النفس والقلب المتألمين. فاذا غمسوا القلم فبدم القلب وذوب النفس»

واذا ذكر ادباء الامة الروسية وفلاسفتها كان تولستوي الزعيم المقدم. او على حد التعبير الروسي انه « الرجل الواقف على برج الادب العاجي » وهاكم نبذة من حياته.

ان سنة ١٨٢٩ لم تنزل هاوية الابد قبل ان اكتحلت عيناها برؤية تولستوي طفلاً تحبوه آلهة الفن والآداب أثمن عطاياها، وشهر آب من تلك السنة لم تتصرم انفاسه قبل ان اودع ذمة الدنيا مولود الفلسفة نابغة من نوابغ العالم

في وياسانا يابوليانا، تلك القرية الصغرى المجهولة في رقعة البلاد الروسية ولد رسول الفن فاعتزت بعد خمول وشرفت بعد ضعة وأصبحت كبيرة بين البلاد الروسية بل بين بلدان العالم أجمع

ان القدر، وما أمرّ قضاء القدر، شاء ان يلقي على هذا الطفل الدروس، فحرمه ابوين متحدرين من أشرف البيوتات الروسية، فكفلته عمة له كانت له الام الرءوم، وظل يذكرها طول حياته. دعت له نخبة من الاساتذة تخرجوه في العلوم واللغات. ولما حان الوقت لادخاله الجامعة ارسل الى جامعة قازان. الا ان عهده لم يطل فيها اذ دعي الى الجندية دفاعاً عن وطنه. لان حرب القرم نشبت اذ ذاك. فخاض غمارها وشرى وباع على حد قول عنترة الفوارس. أوحت الينا تلك الحرب مواضيع عديدة عالجها بعقل الفيلسوف وقلم الاديب، فجاءت قصصاً متينة المبنى بليغة المعنى شيقة الاسلوب، أو كما قال فيها احد المعجبين بها انها« وعاء ذهبي للحقيقة وبيت للحكمة» عرفت بقصص من سفستوبل

طارت شهرة هذه القصص في الآفاق الروسية وأقبل الناس على قراءتها إقبالهم على الماء النمير، وتوقعوا لكاتبها تسلم صولجان الكتابة، فتم له ذلك وأصبح الهلال بدراً كاملاً

ولما وضعت تلك الحرب أوزارها عاد الى بطرسبرج او لينين غراد كما يدعونها اليوم، واذا بنوادي الادب ودور الجامعات تتسابق الى دعوته وتحسب انتسابه اليها شرفاً ما بعده شرف، وفتحت له قصور العظماء وردهات الكبراء، فاغترف من ملاذ الحياة بكلتا اليدين وطابت له

مناهل تلك العاصمة الصاخبة بمظاهر الشرف والبذخ ، وقف على حياة الخاصة والعامة وما يتخلل الاولى من فساد وما عليه الثانية من بؤس وشقاء

فعافت نفسه الحياة الاولى الجوفاء وعز عليه ان يرى الحق عبداً والباطل سيداً والرذيلة فضيلة والفضيلة معرة وجموداً والنفس منغمسة في حمأة المفاسد ، فهجر تلك العاصمة ووجهته قريته المتواضعة ، فتزوج من امرأة جاءت له ببنين وبنات ، وعكف على الكتابة معالجاً مواضيع عديدة اجتماعية وادبية وتاريخية وفلسفية وأبرزها في ثوب من الروايات قشيب ، فعلا نجمه وأتته الشهرة تجرر أذيالها منقادة اليه

ترى ما الفكرة التي تخللت كل مؤلفاته وما واسطة العقد في رواياته ؟

وما الغاية من استخدامه القلم ؟ الربح الجزيل ؟ وهو الغني الكبير ! انه نفسه يكفينا مؤونة البحث عن هذه الفكرة التي ملكت عليه زمام القلب والعقل ، انها فكرة الحق والجهاد في سبيله ، الحق الذي جرأه فما بالى بسطوة عظيم ولا عبئ بسخط كاهن قديم . كانت فكرة الحق المحور الذي تدور عليه مؤلفاته جميعها كبيرها وصغيرها ، فانفتحت لتلك الصيحة أذان صم وأقضت تلك الصخرة مضاجع الكثيرين من ذوي السلطان العالمي والروحي . واتهم كما اتهم صنوه في القديم سقراط الفيلسوف اليوناني ، انه يفسد الشبيبة فكادوا له كثيراً ، وضاقت نفسه بما رحبت بدسائس أولئك الاقوام فرفع الصوت جهرة مهدداً انه سيغادر أرض روسيا الى انكلترا موطن الاحرار وموئل الفكر ، كما قال في ندائه الى بني قومه ، ولو وقف الامر عند هذا الحد لهان ، الا انه رأى ان الحق الذي نشده حياته كلها يقضي عليه ان يشاطر الفلاحين أرضه الواسعة فحاول ذلك فهبت عائلته تعارض فكرته هذه وترى فيها القضاء على هنائها اذ يسلبها مورد عيش رغيد ويساويها بالفلاح الوضيع فتكدر صفو حياته ، وصمد لتلك الصدمة وساوى نفسه بالفلاح فارتدى ملابسه وعاش عيشه يشق الارض بمحراثه ويخالطهم مخالطة رفعت شأنه في عيونهم ، ثم نصب نفسه استاذاً لابنائهم ، فأنشأ مدرسة قام هو بنفقاتها واختط للتربية خطة جديدة مبتكرة أخذ بها الكثيرون في تربية نشئهم في الكثير من البلدان الاوربية ، ومن شاء الاطلاع على اساليبه في التدريس فعليه ان يقرأ كتابه « مدرسة ياسانا بوليانا » المترجم الى معظم اللغات الحية . وأصبحت تلك القرية كعبة يؤمها الناس من كل فج عميق بينهم الاساتذة والعلماء والادباء ورجال الفكر . وكثيرون من طلبة الجامعات حذوا حذوه وعاشوا عيشته مهتدين بهديه وفي هذه الآونة أخرج روايته « الحرب والسلام »

ويجدر بي ان اذكر شيئاً عنها وهي غرة مؤلفاته وعنوانها ينبئك عن موضوعها ، انه عالج فيها مشكلة الحرب وما يحول دون السلام معتقداً ان فكرة الفرد المستبد هي مثار كل حرب ، وذلك الفرد هو نابليون الكبير والبطل الثاني القائد الروسي كوتوزوف . فنابليون

الاول تدور أعماله على محور ارادته ولا يقيم للنتائج السيئة وزناً ولو خرب العالم وغرق أبناؤه في بحار من الدم والحديد ما دامت ارادته الدافعة الى ذلك

والثاني شيخ علت به السن مفكر جد مفكر ، ويطيل التفكير لا يعارض في حسن ولا يسمح بضار ، ويرى ان سوق الجنود الى ساحات القتال لا يسلم أمره الى رجل واحد ، ثم يمضي في وصف القتال أبلغ وصف . وأبطال هذه الرواية عديدون ومختلفون مهنة ونظراً الى الحياة فهي نهر تصب فيه جداول عديدة من نزعات النفس ورغائب القلب ، وانك إذا قرأتها لا تقول ما أعجب هذه الرواية وما أغرب ترتيبها التاريخي، بل تشعر انك نفسك واحد من أولئك الابطال وأنهم ينطقون عما تشعر به ولهم صلة شديدة بك ، أو كما قيل تقرأ فيها نفسك ، وكل من قرأها اعترف أن مؤلفها رسول الفن ونبي الادب وهو نفسه كان معجباً بها أيما إعجاب وكان كلما قرأ منها شيئاً على زوجه حرك رأسه قائلاً « صوفيا » وحق الله ان الشيخ يكتب حسناً ،انها انجيل ثان لاوروبا . واني عند كتابتها كنت أبقي قطعة من جسدي في الدواة . وله روايات أخرى مثل البعث، وانا كارينينا ،وكتاب دوائر القراءة وهو كتاب اقتطفه مما استحسنه من آراء وأقوال لكبار الفلاسفة والعلماء والادباء فجاء في جزئين وجعل لكل يوم من أيام السنة فصلاً خاصاً وفي آخر كل أسبوع قصة أو بحث ، منه ما عربه بنفسه، ومنه ما لخصه لكبار الادباء . ومنه ما وضعه بنفسه. وإذا علمت أيها القارىء الكريم أن تولستوي قرأ في حياته أربعة عشر الف كتاب في لغات متعددة وترك على هوامشها تعليقات كثيرة أدركت ما لهذا الكتاب من أهمية ، فهو كما يقول فيه الروس أنفسهم . دائرة معارف للنفس والقلب ، النفس السابحة في فضاء اللانهاية والقلب النابض بحب الانسان ، ففي هذا الكتاب حكمة الانسان في شتى العصور ، ولكل أمة هدفها الاعلى في حياتها فيه ، فهو لم يكتب لأمة من الأمم ولا لجنس من الاجناس بل للانسانية جمعاء . لأن مؤلفه رسول الانسانية فلا غرو إذا رأينا المرحوم شاعر النيل حافظ ابراهيم يرثيه بهذه الأبيات مكبراً وفاته ومعظماً حكمته :

ولست أبالي حين أبكيك للورى ... حوالك جنان أم حوالك سعير
فاني أحب النابغين لعلمهم ... وأعشق روض الفكر وهو نضير
حياة الورى حرب وأنت تريدها ... سلاماً وأسباب الكفاح كثير
تحاول رفع الشر والشر واقع ... وتطلب محض الخير وهو عسير

هذا هو تولستوي ، وما تولستوي ممن يستوفى حقه من البحث في مقال وجيز مثل هذا وما ذكرناه قليل من كثير .

أديب سعادة خوري

المذنبات

ماذا تعرف عنها

اعتقد القدماء أن المذنبات نذر سماوية ، هي مقدمات لحرب أو وباء أو موت أو غير ذلك من الكوارث التي تحل ببني الانسان . وفي رواية يوليوس قيصر لشكسبير تقول كلبورنيا لقيصر : « عند ما يموت الدهماء لا ترى المذنبات » .

مر بأرضنا هذه أكثر من ألف مذنب ، ذلك منذ علمنا السنين والحساب ، منها اربعمئة غشيت جوناً قبل ان يعرف المقراب (التلسكوب) . وقلما تظل المذنبات التي تظهر لاهل الارض مرئية أكثر من بضعة أسابيع ، ولكن المراصد قد تتبعها سنين عدداً . وجميع المذنبات من بنات النظام الشمسي وتتبع في دوراتها افلاكاً من حول الشمس كبقية السيارات . غير ان هذه الافلاك مستطيلة استطالات تبعد أكثر المذنبات بعداً شاسعاً عن الشمس ، وبخاصة عندما يكون المذنب في المنحني المقابل للمحترق المقابل للشمس .

ما هو المحترق ؟ . الثابت أن السيارات تدور حول الشمس في افلاك اهليلجية الشمس ثابتة في احدى محترقيها . والمحترق في الشكل الاهليلجي ، وهو شكل بيضي ، احدى نقطتين تقع كل منهما في ناحية من ناحيتي الاهليلج عند أعظم استطالة فيه . فاذا انحدرت المذنبات مبتعدة عن الشمس متخذة سمتها نحو المحترق الآخر مخترقة طريقها بين السيارات ، فان مداراتها تتأثر بجذب تلك السيارات فيتغير بذلك شكل افلاكها بعض الاحيان ، فتصبح هذلولية (١) أو شلجمية (٢) بدلاً من ان تظل أهليلجية . ولذا فهي قد تهيم في الفضاء ولن تعود الى محيط الارض ثانية .

من المذنبات حوالي خمسين مذنباً لها أفلاك تستغرق دورتها أقل من قرن ، لتعود الى حيث ترى من محيط الارض . واعظم هذه المذنبات هو مذنب « هالى » الذي يتم دورته حول فلكه في خمسة وسبعين سنة ، وكان آخر ما ظهر لاهل الارض في شهر مايو سنة ١٩١٠ ، ولاح ذنبه قبيل الفجر ممتداً في روعة وجلال من أفق الارض الى سمت السماء .

واذناب المذنبات تمتد دوماً الى الجهة المخالفة لموقع الشمس . والسبب في ذلك ان الذنب يدفع عن نقطة الرأس بضغط الاشعة المنبعثة من الشمس . والمذنبات ، على العكس من السيارات اضواؤها ذاتية ، غير مكتسبة من ضوء الشمس . وهي ليست كالشهب التي تحترق من جراء اصطدامها بجو الارض

ولا تقترب المذنبات من الارض اقتراباً يدخلها في منطقة الارض ، ولكن حدث سنة ١٩١٠ ان اقترب ذنب مذنب « هالى » من تلك المنطقة . ولكن الذنب كان من اللطافة بحيث لم يشعر به سكان الارض ، بل انه لم يحدث أي ضرر ، وكذلك لايحدث ذنب أي مذنب آخر ضرراً ما ، ولو ان القدماء كانوا يتطيرون به أشد الطيرة . وقد يشتد لمعان بعض المذنبات ، فترى في وضح النهار كما حدث في المذنب الذي ظهر سنة ١٨٨٢ ، وهي السنة التي احتل فيها الانجليز قطرنا المصري

والمعتقد ان المذنبات تتألف من مجموعات عظيمة العدد من الحبيبات النيزكية تتجمع بقوة الجذب الذاتي . فاذا اقتربت هذه المجموعات من الشمس تسخن بأشعتها . اما الغازات التي تتضمنها تلك الحبيبات فتنفصل عنها ومن ثمت يدفعها ضغط اشعة الشمس الى الجهة المضادة فيتكون منها الذنب . وبذلك يشتد لمعان الذنب كلما اقترب من الشمس ، فاذا اخذ يتباعد عنها ، متبعاً فلكه غير النظيم ليبدأ رحلة قد تبلغ بلايين الاميال وإلى لاعودة ، يأخذ لمعان نقطة الرأس في التضاؤل شيئاً بعد شيء حتى يصير لا شيء .

Parabolic (٢) Hyperbolic (١)



الفقر

صديق الحضارة الاغريقية [1]

كل البدايات غامضة : إما لدقتها وإما لتفاهتها الظاهرية . وهي لا تستعصي على الادراك ، وان أفلتت في الغالب من الملاحظة . لذلك فان مصادر التاريخ ، ينبغي أن تستخلص تتابعاً ، خطوة بعد خطوة . انه يجب أن تفتقد في نبعها الأول ، كتيار في غدير ، ينبع من منحدرات جبل شاهق . هـذه الخطوات أو الدرجات هي ما ندعوه الاستنباط . والاستنباط نوعان : يقتضي أنه إما أن يستمد منه أسباب ، وإما أن يستمد منه مسببات .

ان الاستنباطات التي هي من هذا الطراز لا مفرّ منها ، ولـكن يغلب أن تكون خاطئة . فانه بالرغم من ان كل سبب أو علة مستقلة ، تحدث باطراد نفس النتيجة ، فان هذه القضية إذا عكست لا تصح نتائجها دائماً . فان كل مسبب أو معلول لا يكون باطراد نتيجة سبب واحد بعينه . والحالة التي يشير إليها إصطلاح « تعـدد الأسباب » لها أثر ذو بال ، وليست هي في عالم الفكر ، بأقل منها فعلاً في عالم الـكون الطبيعي . ولـكن العملية المضادة لهذا السياق ، نتائجها أقرب الى الصحة في الغالب . ذلك بأنها تبـدأ بجملة من الأسباب ، أي بمتوالية منظومة من العوامل القوية الواضحة، ظاهرة أو سهلة الظهور ، مستبانة أوقريبة الاستبانة، بحيث تكون قد أثرت في الحوادث المراد معالجتها ، وليس فيها من موضع للشك ، إلاّ في مقدار التأثير الذي لها في هذه الحوادث .

في مثل موقفنا هذا ، حيث تعالج الحياة العقلية العليا في أمة ، ينبغي أن يحتل المـكان الأول من اعتبارنا ، حالاتها الجغرافية ، وصفات مواطنها وخصائصها .

(١) نقلا عن كتاب Greek Thinkers : a History of ancient Philosophy

By : Theodor Gomperz :

Professor of Emeritus at the University of Vienna, and Member of the Imperial Academy; Hon. LL. D., Dublin and Cambridge; Hon. PH. D., Konigsberg; Corresponding member of the British Academy for the Promotion of Philosophical, Historical and Philological Studies.

إلاّس [(١)] أرض جبلية يحيط بها البحر كأنه منطقة . ومُحُلُّ ثراها راجع إلى ضيق وديانها النهرية . وفي هذا نقع على أول مفتاح نعالج به أول باب يسلم بنا الى بعض الظواهر الرئيسة للتطور الاليني الصحيح .

فن الواضح مثلاً ان أية بزرة من بزور الحضارة كان يتفق أن تزرع هنالك ، قد تجد سكناً دائماً وظرفاً مواتياً . فان تخومها الجبلية هي بمثابة جدران مشيدة تكسر من حدة تيارات الغزو ، تلك التي تجد في السهول مرتعاً خصباً تمرع فيه . وكل إقليم من أقاليمها الجبلية هو بذاته مستقر مثالي له أثره في تنشئة الثقافة ، وفي كل منها قدرة خاصة على توليد طراز برأسه من طرز تلك التفردية الفذة القوية الممتازة ، التي انقلبت في النهاية عاملاً مكوناً لحضارة الأغارقة المنوعة الصور ، العديدة الجوانب ، كما كانت عاملاً معوقاً ، منع قواها السياسية عن التركز والاتحاد ، فاقليم أرقاديا مثلاً ، وهو إقليم أصابه الترهل والخدر الريفي كان له نقيضه على الشاطىء المقابل حيث يمتد البحر ، ويلتوي ثم يدور .

شواطىء إلاّس أطول من شواطىء اسبانيا ، ومساحة أرضها أقل من البرتغال . أضف إلى ذلك حالات أخرى كملت بها تلك الهبات الطبيعية المتفرقة . فان تجارات متباينة الأنواع والضروب ، وصناعات متفرقة الغايات، كانت معروفة بمقربة منها . فهنالك فلاحون ورعاة، وقناصون وفلاحون ، تكاثروا ونموا بجوارها ، فأنتج التخالط العائلي بين إلاّس وهؤلاء، خلال أجيال درجت ، محصلة من المواهب العقليّة والكفايات ، كانت ثمرة لفعل التكامل الذي حدث بذلك الاختلاط . أضف إلى ذلك إن حوريّات السماء ، اللواتي أشرفن على ميلاد إغريقية ، لم يكن في مستطاعهن أن يضعنَ في مهدها من هديّة يحبّينها بها، أعظم من « الفقر الذي ظلّ على وجه الدوام ، صديقها الحميم » .

لقد عمل الفقر من ثلاث جهات مختلفات ليقويّ في حضارتها روح الارتقاء . عمل في صورة مِنخَاس اضطرها إلى إبراز كل قواها . وعمل في صورة مانع صرف عنها الغزو الخارجيّ ، لأن الأرض المحلة لا مطمع فيها ، وهي حقيقة لاحظها عن أقليم « أتّيكا » ، فيلسوف المؤرخين القدماء ، وعمل في الثالثة ، وهي الأهم ، في صورة حافز قوي لا يقاوم صرف أهلها نحو التجارة وفن البحار والهجرة وإقامة المستعمرات [(٢)]

(١) إلاس Hellas أو إلنس Hellenes أو إغريقية : Graecia : وقد دلت كلة إلاس في الجغرافية القديمة عند اليونان على الامكنة التي قطنها الاليليون من الدنيا القديمة حيثما كانوا . فسكان هورينة في شمال افريقية أو سيراقوز في صقلية أو طرنطوم في ايطاليا أو أزميرنة في آسيا الصغرى، كانت تنضوي تحت اسم إلاس ، ولكن جغرافيي اللاطين قصروا دلالتها على أواسط إفريقية وأخرجوا منها الفيلوبونيز وكل ما يقع شمالي خليج مالية . والى هذا يشير العلامة جومبرتز في وصف إلاس

(٢) Cp. Bursian, Geographie von Griechenland, ; i. 5-8; hissen, Italische Landeskunde,;. 216 : "Nowhere else in so restricted an area is so striking a variety of

إن الخلجان التي هي أصلح المرافئ على شبه الجزيرة الاغريقية ، تواجه منافذها الشرق ، والجزائر والجزيرات المتناثرة في هذا الصقع ، هي بمثابة درجات من الصخر ، تُسْلم إلى مقار الحضارات الآسيوية القديمة . يجوز أن يقال إن أغريقية تنظر إلى الشرق وإلى الجنوب، ويستند ظهرها إلى الغرب وإلى الشمال ، بما يقوم فيهما من حالات أشبه بأن تكون همجية .

حالة أخرى ، هي من حالات الحظ الاستثنائي الطيب ، يمكن أن تضاف إلى تلك الامتيازات الطبيعية . قامت إغريقية الطفلة في جانب ، والحضارات التي تعجز الذكريات عن تلمس بداياتها في جانب إزاءها . فمن ذا الذي قسم له أن يربط بينهما ؟ لقد وجدت الحلقة الرابطة ، وكأنها اختيرت عمداً لتقوم بتلك المهمة التاريخية . أولئك المخاطرون الأشداء الأيّدُون الذين اقتحموا البحر، تجار فينيقية ، الذين هم إن لم يكونوا من شعب ذي شأن من الناحية السياسية، فإنهم من شعب ملىء جرأة وصلابة وطمعاً في الكسب . حدث إذن أن الأغارقة قد استمدوا عناصر الثقافة من بابلونيا ومصر، من غير أن يدفعوا ضريبة الاستقلال عن بقية الدنيا . والفوائد التي تجنى من مثل هذا الظرف ظاهرة لا تحتاج إلى بينات . فإن الأمة المحبوة بمثل ذلك تهيأ في العادة بمنهج ارتقائي ثابت الخطا مطرد السوق ، وتطور متصل غير منفصم الحلقات ، ومناعة نسبية عن التضحية بمواردها القومية . وإذا أردت برهاناً على صحة هذه النظرية ، فاعتبر مصير الكيلت Celts : والجرمان الذين استعبدتهم روما في البرهة التي مدنتهم فيها ، أو اعتبر مصير القبائل الهمجية في عصرنا هذا ، وهي التي تتلقى مراحم المدنية من يدي أوربا الكالية القدرة ، وكثيراً ما تنزل بهم اللعنات .

ومع هذا فإن المؤثر الفاصل في نشوء الحياة العقلية عند الأغارقة ، ينبغي أن يفتقد في نظامهم الاستعماري . فإن الاستعمار الأغريقي قد وجد في كل وقت ، وفي ظل كل ضرب من ضروب الحكومة . فالملوكية ، وقد قطعت عهدها في تشاحن مستمر ، كثيراً ما شهدت متوطنين أخلوا مواطنهم لقبائل مهاجرة ، باحثين عن مواطن جديدة وراء البحار . وحكومة الأقلية التي قامت على التحالف الثابت بين نبل المولد وامتلاك الأرض ، مضت على سياسة إبعاد أولئك « السادة المساكين » لأنهم رمز القلق ومبعث الفوضى ، فزودوهم بأملاك في بقاع أجنبية، حيث تبعتهم إليها وشيكاً تنابذ الأحزاب ، وتطاحن العصبيات والفساد والقتل. في نفس ذلك الوقت ، تطلب نماء التجارة البحرية عند الأغارقة ، وتكاثر الانتاج

bays, promontories, mountain ranges, valleys, plains, highlands of all kinds to be found„. Cp., too, G. Perrot, Révue des Deux Mondes Feb., 1892 : Se sol et le climat de la Grèce," especially p. 544. For the "Poverty... her familiar friend„ cp. Herodotus, vii. 102; and for the most philosophical historian....„ cp. Thucydides, i.2.
عن « الفقر وانه صديقها الحميم» انظر هيرودوتس ج ٧ : ص ١٠٢ ؛ «فيلسوف المؤرخين القدماء»: ثوثوقوديدس : انظره ج١ ص ٢ .

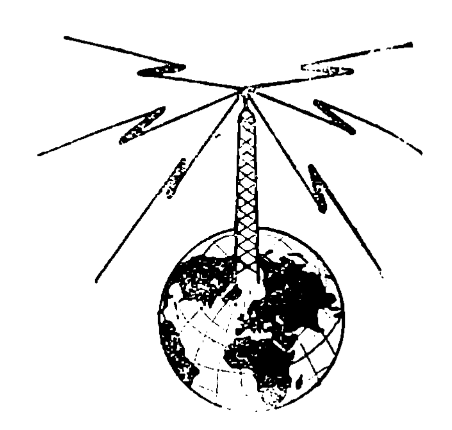
الصناعي ، وزيادة عدد السكان ، ضرورة تأسيس مراكز ثابتة للتجارة وطرق آمنة لاستيراد مواد الغذاء . استخدمت هذه المسالك بذاتها، وبخاصة في ظل الديمقراطية ، لاغاثة المعدمين ذوي الخصاصة ، وتسريح الزائد من السكان . بذلك ، وفي زمان مبكر من بداية تحضرهم ، نشأ الاغارقة تلك الحلقة العظيمة من المستعمرات التي إمتدت من مواطن القوزاق على نهر الدن إلى الواحات الصحراوية ، ومن شواطىء البحر الاسود الشرقية ، إلى سواحل إسبانيا .

قد نقول أغريقية العظيمة ، إذا قصدنا بذلك الجزء اللاتيني من جنوبي إيطاليا . أما إغريقية العظمى ، فمدلولها مجموعة المستعمرات في خارج بلاد « إلاس » . إن عدد هذه المستعمرات وتنوعها ، قد حققا بطريق عملي ، ما يتوقع عادة من نشاط يصيب أينما شئت من بزور حضارية ، فتفرخ وتنمو ، إذا ألقيت في أرض ملائمة . ولقد ساعد على تحقيق ذلك والتوسع فيه ، وبلوغه درجة من الرقي والبهاء فذة باهرة ، طبيعة تلك المستعمرات ،والاسلوب الذي اتبع في تأسيسها . فان مواقعها قد اختيرت بعناية ، فقامت في نقط ساحلية منحت التجارة أعظم اليسر ، ووهبتها أضخم المرافق.وكان المهاجرون أنفسهم في الاكثر من عنصر الشباب ، وفيهم نزوع إلى الخشونة وميل إلى الجرأة، فورثوا أخلافهم ، صفاتهم الفردية العليا . أما أولئك الذين هاجروا من بقاع لم تضف الطبيعة على أهلها مثل ذلك من الصفات، والذين عاشوا في ظل السلطة والسيادة ، وفي حمى الفراغ والخمول، فلم يدفع بهم من دافع إلى مغادرة مواطنهم ، غير الحاجة والفقر .

زد إلى ذلك إن دولة مدينية (City-state) بعينها ، إن بادرت إلى تأسيس المستعمرات، فانها كانت تتزود في الغالب ، بطائفة كبيرة من الاجانب ، فيقع بذلك بين القبائل الالينية المتفرقة تلاقح ، يعززه فيما بعد تلاقح يتلوه ، بدماء غير إلّينية ، بحكم الضرورة التي تفرضها زيادة عدد الرجال زيادة كبيرة على عدد النساء ، بين رواد المهاجرين لدى أول هجرتهم .

بمقتضى ذلك ، كانت كل مستعمرة كانها بوتقة أدت غرض التجربة والاختبار . فالعناصر الاغريقية وغير الاغريقية ، ظلت تتلاقح بنسب مختلفة ، وكانت نتيجة هذه التجربة ، ما شهدناه مطبقاً في حياتهم العملية من قوة الاحتمال والمقاومة.أما العادات المحلية والاساطير القبلية ، فزالت بفضل ما اتصفت به الجاليات من حس كان أرهف ، وذوق كان أسمى . واتصال هؤلاء بحضارات أجنبية ، مهما كانت فجة من حيث النماء والتطور ، ما كان ليحدث إلا إتساعاً في الافق العقلي ، بعيد المدى ، قصيّ المرامي[1].

(1) On the extension of the geographical horizon, co. further H. Berger, Gaschichte der wissenschaftlichen Erdkunde, i. 16. Ed. Meyer, Geschichte Egyptens, 367. Settlers from Samos in the Libyan Desert are mentioned by Herodotus, iii, 26.
ذكر هيرودوتس ان مستعمرين من صاموس هبطوا صحراء لوبيا : ج ٣ ص ٢٦



تيار المغنطيس

حملت الينا مجلة انكليزية نبأً علميًّا خطيراً نظن أنه سيبدأ صفحة مشرقة جديدة في تاريخ العلم ، وربما أدت نتائج هذا الكشف الى ممكنات واسعة النطاق يعود تطبيقها على الانسانية والمجتمع بخير عميم ونفع كبير . وما أظن العالم العلميّ إلاَّ قد قابل هذا النبأ بهزة إعجاب واستغراب . ولذا نود اشراك قراء المقتطف الأغر في التفكير فيه وتقدير بعض احتمالات استغلاله في الصناعة والحياة .

تمَّ هذا الكشف على يدي العالم النمسوي إهرنهافت Ehrenhaft ، وهو عالم ذائع الصيت ملحوظ المكانة في المقامات العلمية، وكان قد هرب فيمن هرب من ظلم النازي القاسي لما احتل وطنه النمسا . ولجأ الى أميركة وسكن نيويورك حيث يقوم بتجاربه الجديدة فأصبح ضيف شرف على حكومة الولايات المتحدة .

يقول هذا العالم مسنداً قوله الى الشواهد والبراهين التجريبية — بأن المغنطيس يسري وقوته تتحرك كما تسري وتتحرك قوة الكهربا . ووجه الغرابة والجدة في هذا الرأي أن النظريات القديمة والحديثة تجمع على أن قوة المغنطيس ساكنة لا تنتقل أو تبدي أي نوع من الحركة الطبيعية ، فيكون الاتجاه مقصوراً على هذه القوة . وهي لا تعلن عن نفسها في الجسم الممغنط نفسه كما يمكن أن تظهر شواهد واضحة على السلك النحاسي الذي تسري فيه الكهربا كالتوهج أو ارتفاع درجة الحرارة أو ارتجاج جسم اللامس . ويتسنى لأقطاب المغنطيس الدائمة أن تحتفظ بقوتها الى أجل طويل دون أن تستنفد منها قدراً ملحوظاً . فتفرق هذه النظريات الكلاسيكية — إن صح التعبير — بين القوة الكهربية والقوة المغنطيسية ، في أن الأولى سيل جارف من الالكترونات المتدافعة السارية في سلك النحاس أو أي جسم موصل عند ما تكون الدائرة مغلقة . أما الدائرة المغنطيسية فلا حركة فيها وحينما نتحدث عن خطوط القوة المغنطيسية التي تنقبض وتمتد ، فانما نتحدث عن شيء وهمي لا ميزة له إلاَّ وصف المجال المحيط بالقطب ، ولكن لا وجود ذاتي لها في حقيقة الواقع .

وبينما تكون البطارية جزءًا مهمًّا في الدائرة الكهربية ، تدفع نتيجة التفاعل الكيماوي بين عناصرها الأساسية الشحنات الكهربية عبر الأسلاك ، تكون القوة المغنطيسية كيفما كانت الاتصالات التي تربط قطبيها، مغلقة على نفسها لا يظهر فيها أي انتقال للجزئيات أو أي نوع آخر من الحركة .

أما اهرنهافت فقد برهن على أن في الامكان حفز القوة المغنطيسية على السريان ، بحيث ينتج ما يمكن أن يسمى بالتيار المغنطيسي الذي لم يكن معروفاً من قبل . وكانت إحدى التجارب التي تعزز رأيه بسيطة مقنعة ، وقد أجراها على مشهد حافل من علماء أمريكا اللامعين. وفي مستطاع طالب المدرسة الثانوية أن يعيدها بنفسه إذا أخذ قطعة من الحديد وألقاها في ماء محمض - ممزوج بقطرات من حامض قوي كحامض الكلوردريك أو حامض الكبريتيك ... - فانبعثت فقاعات غاز الايدروجين وفق المعادلة .

$$H_2SO_4 + Fe \rightarrow FeSO_4 + H_2 \uparrow$$

وهذا التفاعل يشبه طريقة استحضار الايدروجين في المختبر عند إلقاء قطع الخارصين التجاري المحبب في الحامض المخفف . ويتم التفاعل لأن الحديد أو الخارصين أعلى من الهيدروجين في جدول الاحلال . فيحل كل منهما محله ويتحد مع جذر الحامض على حين ينطلق الايدروجين حرًّا .

أخذ إهرنهافت قطعة الحديد ومغنطها ثم ألقاها في الحامض مرة أخرى، فلم تنبعث فقاعات الايدروجين وحدها ، وإنما رافقتها فقاعات غاز الأكسجين أيضاً . ولا شك أن هذه التجربة تعيد إلى الأذهان طريقة فولتا في تحليل الماء كهربيًّا إلى عنصريه الأساسيين الأكسجين والايدروجين . فكأنما سرى في الماء المحمض تيار يشبه التيار الكهربي ويسعه تحليل الماء أيضاً . وليس هذا التيار الجديد —كما هو واضح— تياراً كهربيًّا . فيكون اهرنهافت قد برهن بذلك على وجود تيار مغنطيسي ، أي أن القوة المغنطيسية تسري وتتحرك وتفعل

كان قضيب المغنطيس لعبة ساذجة يعبث بها التلاميذ ، ولكنها منذ الآن مستودع غني بالطاقة ، وما إن يضع العلم يديه على مفاتيح هذا المستودع حتى يفضي بابه إلى نتائج عملية غير متوقعة، ربما يفيد منها كل فرد ، وتكون المشكلة بعد ذلك مشكلة صنع المغنطيس القوي وخزن طاقته إلى أن تمس الحاجة لاستهلاكها . ولدينا ثلاث طرق بسيطة للمغنطة : أولاها أن يوضع قضيب الحديد في اتجاه شمالي جنوبي ، ثم يطرق قليلاً فيؤثر مجال الارض — وهي مغنطيس جسيم — في القضيب ويولد فيه قوة مغنطيسية : إلا أن هذه القوة ضعيفة لا يمكن الاستفادة منها عمليًّا . والطريقة الثانية دلك القضيب في اتجاه واحد بقضيب آخر قوي

المغنطيسية. وهذه الطريقة ايضاً لا تجدي لأن مشكلة الحصول على قوة مغنطيسية كبيرة لا تزال تبقى غير محلولة . أما الطريقة الثالثة ففيها الخير كل الخير ، وبها يتيسر صنع مغنطيس قوي ، وهي تتلخص في أن يحاط قضيب الحديد أو أي سبيكة معدنية من خواصها الاحتفاظ بقوة المغنطيس ، يحاط القضيب بملف كثير الدورات يحمل تياراً كهربائيًّا عالياً ، فبعد لحظة قصيرة من اقفال الدائرة يتحول الحديد الميت مغنطيسيًّا قويًّا حيًّا . وقد رأت الحرب الحاضرة تقدماً عظيماً في تعميم المغنطيس الضئيل الحجم الذي يخزن طاقة كبيرة بالنسبة لحجمه ووزنه .

***

لا نستطيع أن نتكهن باحتمالات الفوائد العملية التي قد تنجم عن تسخير التيار المغنطيسي . فقد نستغني عن خطوط التواصل الكهربية التي توزع القدرة المولدة في محطة مركزية ، بأن نلجأ الى هذه القدرة الجديدة ونولد من تيارها النور والحرارة وغيرها من الحاجات المنزلية . وربما حمل كل فرد في المستقبل في جيبه قضيباً ممغنطاً صغيراً كما يحمل اليوم مصباح الكهربا اليدوي ويستعمله عند الحاجة في أغراض مختلفة ، بفارق واحد : هو أن هذا المنبع الجديد للطاقة أقوى وأفعل . وحينما نستهلك الطاقة في القضيب نعود به الى المخزن ونشحنه مرة أخرى كما نفعل بمراكم السيارة أو بطاريات الراديو الرصاصية ، ولكننا في الحالة الأولى لا ننتظر وقتاً طويلاً للحصول على قوة المغنطيس لأن شحنها لا يستغرق أكثر من بضع ثوان .

***

كان أمير الكهربا « فراداي » العالم الانكليزي المشهور يجري تجاربه ويحاضر جمهوراً من المستمعين . وما إن انتهى حتى ابتدرته إحدى السيدات قائلة : « ولكن ما فائدة ذلك ؟ » فأجاب : « أتستطيعين يا سيدتي أن تقولي ما فائدة الطفل ساعة ولادته » كانت تجاربه تقوم حول ماهية التأثير الكهرطيسي . وقد نجم عن كشوفه الدينامو (المحرك والمولد) وكلنا نقدر قيمة سيطرة الانسان على توليد الكهربا ونقلها وتوزيعها ليسعد بها المجتمع وتتحول الصناعة وتتقدم .

لقد انبثق فجر العصر الكهربي باكتشافات « فراداي » هذه ، أفلا يصح لنا أن نظن إذا ثبتت النتائج لبحوث اهرنهافت — أن فجر العصر المغنطيسي يوشك أن ينبثق وتطلع شمسه مشرقة زاهية . إن المستقبل مفعم بكل جديد ومن يعش يره .

فاضل السالم
السلط — شرق الاردن

مدينة الشمس

Prof. Hermann Junker deduced from known data that Heliopolis must be in the neighborhood of Helwan. Science Digest, June, 1945.

يقول علماء الخطط (الخططيون) Archaeologists انهم قد توصلوا الى حل لغز من اعظم ألغاز التاريخ القديم — ذلك بأنهم عينوا موقع مدينة الشمس القديمة ، عاصمة مصر التي درست منذ اكثر من ٦٠٠٠ سنة مضين .

يقول دكتور ايتين دريوتون مدير دار الآثار المصرية ، ان خططياً مصرياً يعمل على تحقيق النظرية التي روجها استاذ الماني في برلين ، قد سقط على نقش في قبر قديم يؤيد بالدليل المادي ان مدينة الشمس القديمة كانت بمقربة من حلوان ، على عشرين ميلا جنوبي مدينة القاهرة .

كان من رأي الاستاذ « هرمن يونكر » الذي عمل في مصلحة الآثار المصرية ، وعلى استنتاجات استندت من معلومات عديدة ، ان مدينة الشمس كانت* في مكان ما بمقربة من حلوان . وقد وصل الى مصر من طريق البلاد المحايدة في اثناء الحرب ملخص محاضرة له ايد فيها هذه النظرية . وقد اصبحت هذه النظرية الآن حقيقة واقعة .

إن مساحة عظيمة من القبور التي لم تكن قد حقق امرها من قبل ، قد اتضح انها مدينة الموتى : Necropolis وبالحري مدافن مدينة الشمس ، اما المدينة نفسها ، فلم يعثر على مكانها الاصلي بعد .

* الخططي المصري ، صاحب هذا الكشف ، هو الاستاذ زكي سعد ، الذي يعمل برعاية جلالة الملك فاروق وقد بدأ بحوثه بالحفر بين القبور بمقربة من حلوان ، فكشف عن قبر يرجع تاريخه الى عصر الاسرة الحادية عشرة وعليه نقش معناه ان هذا القبر قد اقيم ليرقد صاحبه بين « عظماء مدينة الشمس » : Heliopolis

والمعروف انه كان لمدينة الشمس مكان مرموق وأثر ثابت في العصر الغامض السابق على العصر الفرعوني ، ولكن قليلا ما يعرف عن تلك المدينة التي درست في خلال الحروب التي أدت الى اتحاد مصر العليا ومصر السفلى حوالي سنة ٥٠٠٠ ق . م .

وكان من عادة المصريين الفراعنة ان يدفنوا موتاهم في الناحية الغربية — اي في الضفة الغربية من النيل. ويقول دكتور دريوتون ان سكان مدينة الشمس كانوا من عباد الشمس ومذهبهم مخالف لمذهب الفراعنة ، وقبورهم لا تقع في الناحية الشرقية فحسب ، بل في شرقي المدينة الاصلية ذاتها .

اما القبر الذي عثر فيه على النقش الذي ورد فيه اسم مدينة الشمس ، فيرجع الى عهد الاسرة الحادية عشرة اي حوالي سنة ٣٠٠٠ ق . م . ولكن هنالك قبوراً ترجع الى عهد الاسرة الاولى اي حوالي ٢٠٠٠ سنة قبل عهد تلك الاسرة ، اي حوالي الزمن الذي درست فيه مدينة الشمس .

Condensed from The New York Times, by Sam Pope Brewer.



القواعد الاساسية

في تأليف معجم لغوي تاريخي (١)

تألفت لجنة بمجمع فؤاد الاول للغة العربية سميت لجنة المعجم ، اجتمعت ونظرت في انواع المعاجم التي تحتاج اليها اللغة العربية ، وبخاصة المعجم اللغوي التاريخي الذي يجمع شتات المفردات التي استعملت في اللغة منذ عصور الجاهلية الى الآن ، وبيان المعاني التي تعاقبت على الالفاظ في الاستعمال اللغوي مرتبة بحسب العصور ، واظهار المعاني الحقيقية من المعاني المجازية ، الى غير ذلك من الاشياء التي تجعل ذلك المعجم سجلا للغة وتاريخ ألفاظها ، وتطور معانيها ، والفصل بين الفصيح والمولد والمعرب والمنقول من اللغات الاخرى . وكان الاستاذ الدكتور ا. فيشر قد بدأ في كتابة معجمه اللغوي التاريخي الذي انتهى به الى آخر القرن الثالث الهجري ، وتنقل جزءاً من جزازاته الى مصر ، ولا تزال محفوظة بدار المجمع ، فاتجهت النية الى ان يعقب المجمع على عمل الاستاذ فيشر فيبدأ معجمه بالقرن الرابع الهجري الى الآن . ولهذا الغرض كلفت بأن اضع تقريراً عن الطريقة التي تتبع والخطوات التي تتخذ للبدء في تأليف هذا المعجم ، فلم أجد طريقة اجدى من الرجوع الى مقدمة معجم اكسفورد اللغوي التاريخي لاستخلاص منها القواعد التي جرى عليها مؤلفوه والطرق التي اتبعوها ، فاستخلصت من تلك المقدمة تقريراً قدمته للجنة المعجم في اوائل سنة ١٩٣٩ ثم استقلت من المجمع في صيف ذلك العام . وظل العمل في هذا المعجم الخطير، الذي لا يجمع شتات لغتنا غيره ، واقفاً عند هذا . فاذا نشرت على صفحات المقتطف ما استخلصت من مقدمة معجم اكسفورد في هذا الظرف ، فاني انما أفعل ذلك وكلي امل في ان يشمر المجمع عن ساعده ويرسل دعواه الى العالم العربي كله ليؤيده في هذا الجهد الذي سوف يكون ، إذا تم ، سجلا للغة وتاريخ مفرداتها وعاملا يؤيد جامعة العرب . وعندي ان أعظم ما تخدم به جامعة العرب شيئان : معجم لغوي تاريخي ، ومعلمة كبرى أي دائرة معارف تجمع الى العلوم والآداب الحديثة ، آداب العرب وتاريخهم . شيئان من اعظم مقومات الجنسية العربية ، ومصر ، بتأييد العرب ، أقدر الامم العربية على الاضطلاع بهما .

اسماعيل مظهر

***

بدأ العمل في معجم اكسفورد اللغوي التاريخي الحديث في سنة ١٨٥٩ ، وتم طبعه في ١٩ من ابريل سنة ١٩٢٨ ، فكأن العمل فيه قد استغرق قرابة سبعين عاماً . ولم يشرف طبعه على التمام حتى كانت نسخه قد نفدت ، فأعيد طبعه ، وظهرت طبعته الثانية في سنة ١٩٣٣ فزيد اليها ملحق يكمل ما استدرك على الطبعة الأولى . ولقد نال القائمون بهذا العمل الفذ من التشاريف ، ما يجدر أن يصدر عن شعب يعرف قدر لغته ويعرف أن اللغة جزء لا يتجزأ من القومية . فقامت الاقاديميا البريطانية بصك مُدَلاَّة نقشت عليها صورة أول من قام على

(١) مستخلصة من مقدمة معجم اكسفورد الحديث للغة الانجليزية ومقدمة الى لجنة المعجم بمجمع فؤاد الاول للغة العربية

تحرير هذا المعجم من العلماء تخليداً لذكراه ، وأضفيت الألقاب العلمية على كثير ممن تولوا العمل فيه ، وكان لهم في تحريره أثر رئيس

***

وكان السبب الذي حدا علماء اللغة من الانجليز الى القول بضرورة تأليف معجم جديد على قواعد جديدة شعورهم بأن معاجم اللغة الانجليزية، منذ بداءة القرن السابع عشر ،كانت تقصر عن ادراك أغراض الأدباء وأهل العلم باللغة والفنون ، وان الزمن كلما تقدم بالأدب الانجليزي ازدادت المعاجم قصوراً عن ادراك اغراضه والقيام على حاجاته بما يحقق الغرض منها ، حتى لقد شبه معجم « كودري » Cawdrey الذي طبع في سنة ١٦٠٤ الى جانب معجم أكسفورد الحديث، بالبزرة اذا قيست بشجرة البلوط العظيمة

ولقد كان السبب الأول في عظم ما تجد من فرق بين تلك البزرة الدنيئة وتلك الشجرة العظيمة ، دخول ثلاثة مبادىء جديدة في تأليف المعجمات الانجليزية : فان مؤلفي المعاجم كانوا قد عكفوا على الطريقة القديمة في جمع المفردات الغريبة التي لا تعرض لعامة الناس ، على اعتبار أن ما بقي من الكلمات هي من البيان والتداول بحيث لاينبغي ان تدخل في معجم اللغة الانجليزية، ولكن عدل عن هذه الطريقة في القرن السابع عشر وأخذت المعاجم تتسع لكثير من الالفاظ التى كان يرى أن اثباتها غير ضروري . وفي القرن الثامن عشر ألِف جامعو المعاجم طريقة إثبات جميع الالفاظ التي يمكن أن تتداول في اللغة . أما الخطوة التالية لهذه فقد خطاها الاديب الكبير « جونسون » Johnson إذ عمد الى إثبات الشواهد التي توضح التعريفات الموضوعة للالفاظ وتؤيدها ، ثم أعاد النظر في معجمه وأضاف اليه ، في ملحق ، كل الالفاظ التى كان قد أهملها ، وأثبتها بشواهدها .وأكمل هذا البناء العلامة اللغوي « رتشاردسون » Richardson بخطوة ثالثة هي التوضيح التاريخي للالفاظ ، واتباعاً لهذه الطرق ، وجب أن يكون المعجم الكامل للغة الانجليزية ، كتاباً من أضخم الكتب العالمية

ومن العجيب أن معجم « رتشاردسون » لم ينل مايستحق من التفات العلماء وربما كان ذلك لنقص مّا في طريقته . ولقد أمضى نحو اربعين سنة منذ أن ظهر الجزء الاول من معجمه في « المعلمة الجامعة » Encyclopaedia Metropolitana قبل أن تقبل الجمعية اللغوية النظرية التاريخية في وضع المعجمات قبولاً تامّاً، وكذلك لم يؤثر طبع معجم «رتشاردسون» مستقلاً عن تلك المعلمة في سنة ١٨٣٦ — ١٨٣٧ أي أثر في المعجميين (أي مؤلفي المعاجم) Lexicographers الذين ظلوا يتبعون نفس القواعد التى اتبعها « جونسون » في انجلترا ، و « وبستر » في امريكا . ومن العجيب ان تلك الثروة الهائلة من الشواهد التى أتى بها

«رتشاردسون» لم ينتفع بها وظلت غير مستخدمة في أغراض اللغة، في حين انها كانت مستودعاً طبيعيـًّا خصباً يمد كل من فتش في جوانبه بجواهر لغوية حديثة وقديمة ، تضاف الى ما جمعه « جونسون » وأتباعه .

كانت الخطوة التالية بعد تلك الأربعين من السنين التي مضت على ظهور معجم «رتشاردسون» حتى اقتنعت الجمعيـة اللغوية بضرورة اتبـاع المبدأ التـاريخي في تأليف المعجمات ، أن عهدت الجمعية الى لجنة مؤلفـة من ثلاثة من أعضائها بأن يجمعوا الالفاظ الانجليزية غير المسجلة في المعجمات ، وأن يقدموا بذلك تقريراً عند انعقاد الجمعية في شهر نوفمبر من سنة ١٨٥٧ . وكان السبب في ذلك أن الجمعيـة أرادت أن تثبت في ملحق للمعاجم جميع الالفاظ التي أهملها « جونسون » و « رتشاردسون »

غير أن هذه اللجنة لم تتقـدم تقريرها اذ ذاك . ولـكن أحد أعضائها وهو الاسقف « ترنش » Trench قرأ جزءًا من كلمة ألقاها في « بعض النقائص في المعجمات الانجليزية » في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٥٧ وأجل تقديم تقرير اللجنة الى الثالث من شهر ديسمبر التالي. فأعطى هذا التأجيل فرصة طيبة للاسقف « ترنش » لـكي يقرأ الجزء البـاقي من كلمته على الجمعية في اليوم التاسع عشر من نوفمبر من تلك السنة فأصدرت الجمعية قراراً على أثر سماعها تلك الـكلمة (تضمن أنها طلبت من أسقف وستمنستر أن يطبع كلمته الثمينة المفيدة وانه وافق على قرار اللجنة) فطبعت تحت العنوان الآتي : —

On some deficiencies in our English Dictionaries, Being the substance of two papers read before the Philological Society, Nov. 5 and Nov. 19, 1857. By Richard Chenevix Trench, D. D. Dean of Westminster.

ويقول كاتب المقدمة في معجم أكسفورد الحديث إنه بالرغم من مضي ثلاثة أرباع قرن (١٩٢٨) على ما كتب الاسقف « ترنش » ، وبالرغم من تقدم البحوث والدراسات الانجليزية في أثناء ذلك ، فان ما ارتأى الاسقف « ترنش » من آراء، لا يزال حافظاً لقيمته العلمية باعتباره أساساً لما يجب أن يكون عليه المعجم الـكامل للغة الانجليزية . ثم قال حرفيـًّا :

« ولا يقرأ أحد (ما كتب ترنش) حتى يدرك على أية صورة من الجلاء والبيان استطاع أن يستشف كل التفاصيل التي ألف على مقتضاها معجم الجمعية، وكانت جميعها على التحقيق نتيجة للمذهب التاريخي الذي جعله الأساس الثابت المعقول لعمل المعجم » .

وقبل ان انتقل الى الـكلام في شيء آخر، آمل ان توصي لجنة المعجم بهذا المجمع الموقر بالحصول على هذا البحث الذي اتخذ اساساً لوضع معجم اكسفورد الحديث ، لعلنا بدرسه نفيد من العلم ما لا يتيسر لنا بدراسة هذه المقدمة وحدها ، وأقترح الاتصال بالاستاذ « جب » بجامعة اكسفورد وتكليفه الحصول على نسخة منه وارسالها الينا .

***

في الثالث من شهر ديسمبر التأمت الجمعية اللغوية ، وقرىء عليها تقرير اللجنة التي عهد اليها البحث في « نقائص المعاجم الانجليزية » فقررت حفظه واستعاضت عن بحثه بأن قررت أنه سوف يعرض على الجمعية عما قريب مشروع كبير لتأليف معجم حديث كامل للغة الإنجليزية . ذلك بأن بحث الاسقف « ترنش » كان قد أقنع الجمعية بما تضمن من آراء ومقترحات ، وأبان أنه لا معدى للجمعية عن القيام بتأليف معجم حديث ، إذا هي أرادت أن تكفي حاجة اللغة الانجليزية .

ولم تضع الجمعية وقتاً في تنفيذ الفكرة الجديدة ، ولم تستخف بضخامة العمل التي هي مقدمة عليه ، ولا بعدد السنين التي تلزم لاكماله ، بل بالتي ينبغي أن تنفق قبل البدء به . وفي السابع من شهر يناير سنة ١٨٥٨ أصدرت الجمعية القرارات الآتية .

١ — يستعاض عن الملحق الذي أقرت الجمعية تأليفه تعقيباً على المعاجم الانجليزية المأثورة ، بتأليف معجم حديث للغة الانجليزية باشراف الجمعية اللغوية .

٢ — يعهد بعمل المعجم الى لجنتين : الاولى لجنة أدبية تاريخية : والثانية اشتقاقية ، وفي حالة الشك في حقيقة أية مادة ، يكون حكم اللجنة الادبية التاريخية نهائيًّا ومقبولاً (وكانت اللجنة الاولى مؤلفة من ثلاثة أعضاء والثانية من عضوين)

٣ — تشكر الجمعية جميع الذين اشتركوا متطوعين للعمل مع « لجنة الالفاظ غير المسجلة » وتطلب مساعدتهم ومساعدة متطوعين آخرين للعمل الجديد . ويتلو ذلك ثلاث قرارات إدارية لا حاجة لنا بذكرها هنا ، لأنها تتعلق بالطبع وتمويل المشروع بأموال الجمعية وغير ذلك .

***

ومما هو ثابت في القرار الثالث ، نجد أن — « لجنة الألفاظ غير المسجلة » ، كانت قد نجحت نجاحاً كبيراً أثناء حياتها القصيرة ، في اذكاء روح الاهتمام بعمل اللجنة وفي تطوع مساعدين يعملون على تنفيذه . وأشار الى ذلك الأسقف « ترنش » في بحثه الذي ألمنا اليه، فأثبت في نهايته كلمات تشجيع فقال : « واني لأذكر أن ستة وسبعين متطوعاً قد انضموا فعلاً الى اللجنة ، مطالبين بتعيين نصيبهم من العمل . وان واحداً وعشرين ومائة من المؤلفين الانجليز قد وزعت مؤلفاتهم على هؤلاء المتطوعين ، وقد اختص في حالات عديدة متطوع منهم بكامل المؤلفات الصادرة عن مؤلف بعينه . وأزيد على ذلك أن واحداً وثلاثين عملاً كاملاً قد ردت الى اللجنة حتى الآن » — ثم يقول كاتب مقدمة معجم اكسفورد الحديث : « وبهذا وضع نظام القراء المتطوعين الذين لولا مساعدتهم الفعالة، لما تم استجماع المادة اللازمة

لتأليف معجم الجمعية اللغوية ، اللهمّ إلاّ بمبالغ طائلة من المال وأحقاب مديدة من الزمن ، لو لم يوفرها المتطوعون لاستحال انجاز العمل » .

ومضى زمن قبل أن أتيح للجمعية نشْر تفاصيل عملها العظيم . ففي سنة ١٨٥٩ نشرت مقترحات لنشر معجم انجليزي حديث تقوم به الجمعية اللغوية . وقد يتضح من هذا المنشور مبلغ ما أنفق في تصميم هذا المعجم من الاستغراق في الدرس والتفكير ،واختتم بذكر الأسس التي سيقوم عليها المعجم ، وقد اكتفى كاتب المقدمة بذكر الأول والرابع منها باعتبارهما لب الموضوع : وهما .

١ — ان الحاجة التي ينبغي أن تتوفر في أي معجم ، أن يتضمن كل كلمة استعملت في آداب اللغة التي يتناولها .

٢ — في معالجة كل لفظ بذاته، يجب أن تتبع الطريقة التاريخية بغير استثناء . ويتضمن المنشور عدا ذلك ارشادات للمتطوعين من جامعي الألفاظ بحسب ما اتفق عليه في اللجان الأدبية والتاريخية والاشتقاقية . ثم تنظيمات آلية وعملية (تتبع في تدوين الألفاظ) ، ويتلو ذلك كله قوائم الكتب (أي المراجع) تدل كل قائمة منها على مقدار ما بذل في وضعها من جهد ومشقة . وقد نظمت كالآتي :

الأولى — قائمة بالمراجع الانجليزية المطبوعة من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٥٢٦

الثانية — قائمة بمراجع العصر الثاني أي من سنة ١٥٢٦ الى سنة ١٦٧٤ .

الثالثة — قائمة بمراجع العصر الثالث أي من سنة ١٦٧٤ الى سنة ١٨٥٨ .

ولقد روعي في اختيار هذا التقسيم حادثان تاريخيان الأول : طبع العهد الجديد (الأناجيل) بالانجليزية في سنة ١٥٢٦، والثاني وفاة الشاعر ملتن « Milton » في سنة ١٦٧٤ . ويرجع هذا الاختيار الى «هنري كولردج» H. Coleridge ، غير أنه وقع أيضاً عن مصادفة، أن هذين التاريخين هما مبدأ الزيادة العظمى في مفردات اللغة الانجليزية ، فأقرّا واتبعا في تبويب المؤلفات بحسبهما .

وبدأ عمل المتطوعين يثمر ويؤتي أكله ، ويزود اللجنة بمادة تعمل على بحثها وتحقيقها. ففي شهر ابريل من سنة ١٨٥٩ نشرت الجمعية تقريراً يتضمن أسئلة عن معالجة بعض المعضلات الاشتقاقية وكثير من العبارات الصعبة في الكتب الانجليزية القديمة ووزعته على أعضاء الجمعية وعلى المراسلين العاملين في المعجم ، وطلبت منهم تأويلها . ولقد قام « كولردج » باستخلاص ما له قيمة علمية من الردود التي تلقتها لجنة المعجم والتي رؤي انه من المفيد أن تطبع وتنشر ، وتقدّم بهذه الخلاصة الى الجمعية اللغوية في بحث عنوانه :

« محاولات اتبيان أصول بعض الكلمات الصعبة والعبارات الغامضة عند كتاب الانجليز .
وفي العاشر من شهر نوفمبر من تلك السنة نفسها قدم « كولردج » ، وكان قد عيّن محرراً للمعجم ، تقريراً عن « معجم الجمعية » المراد تأليفه فكان من نتائجه أن أصدرت الجمعية في الثامن من ديسمبر ثلاثة قرارات :

الأول — تأليف لجنة تضع قواعد يسترشد بها محرر المعجم .

الثاني — تأليف اللجنة من سبعة علماء لوضع هذه القواعد .

الثالث — الترخيص للجنة بطبع القواعد التي تضعها اللجنة وأن توزع نسخاً منها على أعضاء الجمعية . وأن تعين إحدى الليالي المخصصة لاتئام الجمعية ليناقش الأعضاء في تلك القواعد .

فأخذت اللجنة ، وبالحري أخذ « كولردج » بالنيابة عنها ، توًّا في تحرير تلك القواعد ثم ناقشت فيها الجمعية متوسعة في بعضها مهذبة للبعض الآخر في جلسات عقدت في شهر ديسمبر من سنة ١٨٥٩،ويناير من سنة ١٨٦٠ ، ثم أعيد النظر فيها ونوقشت مرة أخرى في شهري ابريل ومايو من سنة ١٨٦٠ ، ثم طبعت نهائيًا بعنوان : « قواعد معجمية لغوية : أو الأسس التي ينبغي أن تراعى في تحرير المعجم الانجليزي الحديث الذي تصدره الجمعية اللغوية » — وهذا عنوانه في الانجليزية :

Canones Lexicographici, or rules to be observed in editing the new English Dictionary of the Philological Society.

وقبل ان انتقل الى الكلام في مسائل اخرى اقرر انه ينبغي لنا الحصول على هذه القواعد المعجمية اللغوية — لعلنا نسترشد بأشياء فيها تساعدنا على وضع قواعد في تأليف معجمنا ربما غابت عنا وانتفع بها مؤلفو المعجم الانجليزي ، ويمكن الحصول عليها اذا اتصلنا بالاستاذ « جب » بجامعة اكسفورد .

***

وكان العمل كلما تقدمت به السنون ، ازداد القائمون بأمر المعجم بصيرة بحقيقته وعظمته وضخامته . فان محرره الأول « هنري كولردج » قد بدأ بتحرير جزء من حرف الألف في سنة ١٨٦١ ليكون مثالاً يحتذى في تحرير مواد المعجم . ولكن اتضح أن كل عمل من هذا القبيل ، انما يكون سابقاً لأوانه حتى يتم جمع أكثر مواد المعجم من المظان الأدبية واللغوية . وحتى بعد ذلك ، لا يمكن أن يكون تحرير المواد نهائيًّا وكاملاً ، وانما يكون تمهيداً لتحريرها بحيث يضاف الى كل مادة ما يعثر عليه في المظان من الاستعمالات في أثناء قراءة الكتب المعتمد عليها والمتخذة أصولاً لجمع مواد المعجم . ومن هذا يتضح لنا أن معجماً لغويًّا تاريخيًّا انما هو عمل موصول أوله بآخره . فقد يحتاج محرر المعجم الى إضافة

استعمال لكلمة في مؤلف ظهر في آخر عصور اللغة ، ولا يكون لهذا الاستعمال مثيل فيما تقدم من الأزمان .

وفي ١٢ من يوليو سنة ١٨٦١ ، جمع « فورنيوال » Furnivall ، المحرر الذي عمل في المعجم بعد « كولردج » ، الذي مات في تلك السنة وله من العمر احدى وثلاثون سنة ، أسماء الكتب التي قرئت حتى ذلك التاريخ ، فوقعت في قائمة عدد صفحاتها أربعة وعشرون ، ومما جاء فيها يتضح أن عدد الكتب التي قرئت من العصر الأول كان ١٤٣ كتاباً ، ومن العصر الثاني ٤٨٦ كتاباً ، ومن العصر الثالث ٨١ كتاباً .

وكان « كولردج » قبيل وفاته قد بدأ يجمع الألفاظ في قوائم سميت « أصول المقارنة» إذ بها يتضح مقدار العمل اللازم لكل حرف من حروف المعجم على حدة ، وما ينبغي أن يبذل في سبيل تحريره من كدّ ونصب ، حتى إذا أريد بعد ذلك توزيع الحروف المختلفة على عدد من المحررين ، أمكن توزيعها بحيث يتوازى عمل كل منهم على وجه التقريب . وكان يذكر في هذه القوائم التي سميت « أصول المقارنة » عدد الجزازات الخاصة بكل مادة بذاتها مع معرفة الشواهد المفرغة في تلك الجزازات وما هو متفق منها، وما هو مختلف.

وفي أوائل سنة ١٨٦٢ تقدم « فورنيوال » محرر المعجم بمقترحات الى الجمعية اللغوية قبلت برمتها وهذه هي :

١ — تأليف معجم صغير يكون تمهيداً للمعجم الكبير ، ويتخذ العمل فيه أصلاً جديداً من أصول الموازنة يتناول كل العصور التي سيؤرخها المعجم الأعظم .

٢ — أن يكون المعجم الصغير مختصراً للمعجم الكبير وأن يتناول النواحي النطقية والانتقادية والاشتقاقية وأصول الكلمات والبوادىء والكواسع Prefixes and Suffixes والتعريفات وما في بعض الكلمات من الجناس ، وأن يذكر مع كل مادة شاهد أو شواهد لا يتجاوز الواحد منها بضع كلمات مع ذكر التاريخ والمؤلف المأخوذ عنه الشاهد . وذلك من المادة المستجمعة حتى ذلك التاريخ . فاذا كان ما جمع لم يذكر شواهد بعض المواد استعين على ذلك ببعض المصادر الوثيقة التي تكون في متناول المحرر وأضيف اليها كل الأمثال والمعاني التي يحتاج اليها .

٣ — أن يعهد المحرر حسب اختياره بالشواهد المستجمعة عنده الى بعض المراسلين أو الى بعض المتطوعين ، وأن يختار من يثق بهم ليكونوا معاونين له في تحرير هذا المعجم المختصر.

وكانت الفكرة الأساسية في تأليف هذا المعجم المختصر ، هو التمهيد للمعجم الكبير ومرانة على العمل فيه .

في سنة ١٨٧٩ تولى « جيمس موري » James Murray : تحرير المعجم . وكانت الجزازات المستجمعة من المظان المقروءة قد ازدادت وضخمت وأصبح من الضروري تنظيمها بحيث يمكن الاستفادة منها استفادة عاجلة عند الحاجة ، فمضى ينظمها وكوَّن لها أماكن خاصة تتسع للجزازات مبوّبة تبويباً أبجديَّـا ، وأنشأ لذلك مكتباً Scriptorium جمع الى قاطر الجزازات موائد للتحرير ، وأخرى للمراجعة وعكف على تنظيم هذا العمل العظيم تنظيماً يحقق الانتفاع بالمادة المجموعة ، مع الاقتصاد في الوقت قدر المستطاع .

وحتى عند بلوغ هذه المرحلة شعر القائمون على المعجم بأنهم في حاجة الى قرّاء متطوعين فطبعت دعوة الى العالم الانجليزي في شهر ابريل سنة ١٨٧٩ بطلب المساعدة لاتمام « المعجم الانجليزي الحديث » ، وسرعان ما تقدم الى الجمعية الف قارىء جدد ، وأخذ جمع المادة اللغوية بعد ذلك يسير بخطوات سريعة محققة النتائج .

***

ولقد اتبع في جمع مادة هذا المعجم طريقة نظمت على أساس عملي قام بتنفيذها المتطوعون ومساعدو التحرير . وكان من البين بديئًـا أن أول خطوة في سبيل تأليف معجم جديد للغة الانجليزية هي استجماع شواهد وثيقة من الأدب الانجليزي في خلال عصور اللغة المختلفة . وكان «جونسون» و «ريتشاردسون » قد انتقيا من المادة التي استجمعاها ، ومن الظاهر ان هذا الانتقاء ينبغي أن يكون له حدود عملية يسير بمقتضاها ، بصرف النظر عن سعة المادة التي ينتقى منها ، وفي هذه الحالة كان الاشراف على ما ينتقى من الشواهد أمراً غير يسير . وكان الضمان الوحيد لعلاج هذه الصعوبة هي أن يكون من عناية بعض القرّاء وقوة تمييزهم وسمو ذوقهم الأدبي ، ما يمكن أن يسد نقائص الآخرين .

ومن الارشادات التي نشرت في سنة ١٨٥٨ وسنة ١٨٧٩ أمكن الوصول الى اتساق في الأسلوب الذي يتبع في عرض الشواهد . فكل شاهد يكتب في جزازة هي عبارة عن ربع فرخ من الورق (ما عـدا القرّاء الذين كانوا يستعملون ورقاً من عنـدهم ، فهؤلاء كانوا يكتبون على جزازات حيثما اتفق نوعها وسعتها) ، ولا تكون الجزازة كاملة إلاّ باستكمال ثلاثة وجوه . (الاول) الـكلمة المنتقاة وتكتب في الركن الأيسر العلوي من الجزازة (الثاني) التاريخ والمؤلـف والعنوان والصحيـفة وغير ذلك من البيانات الخاصـة بالكتاب المأخوذ منه (الثالث) الشاهد نفسه ، إما كاملاً وإما مختصراً : بطريقة لا تعيبه . فـكانت الجزازة الـكاملة مثلها كالآتي :

Britisher

1883, Freeman Impressions U. S. iv. 29. I always told my American friends that I had rather be called Britisher than an Englishman, if by calling me an Englishman they want to imply that they are not Englishmen themselves.

ومن أجل أن يسهل على القارىء تحرير الجزازة من غير أن يضطر الى تكرار البيانات المذكورة في الوجه الثاني ، أي التاريخ والمؤلف والعنوان والصحيفة الخ ، طبعت هذه الأشياء على الجزازات ، وما على القارىء إلاّ أن يملأ فراغها مع نقل بعض الشواهد فقط ، ومع ملاحظة تقدير العدد اللازم من الجزازات لكل كتاب على ضوء حاجة العمل في كتب أمثاله . كما انه استعيض عن الطبع بطوابع توضع على كل جزازة وعليها البيانات اللازمة .

والطريقة التي أراها ناجحة في تذليل هذه الصعوبة هي ان نعمد الى الارقام فهي اسهل واسرع ، فيطبع على الجزازة الكلمات الآتية وتملأ بأرقام كالآتي :

الكلمة	الكتاب	الفصل	التاريخ	الصحيفة	السطر	الطبعة(١)
اخذ	٣١٥	٢	س ٣٢٠ ق ٢	٢٢٠	١٢	مصر ـ ١٩٤٠

والارقام المعينة للمراجع تفرغ في قوائم يرجع اليها عند تحرير المادة

وقد طلب في الارشادات التي وزعت على القارئين مراعاة الأسس الآتية : (وكان ذلك فيما نشر سنة ١٨٧٩)

١ — ذكر شاهد لكلمة ترى أنها نادرة الاستعمال أو مهجورة أو قديمة المعنى أو خاصة أو استعملت بمعنى خاص .

٢ — يلتفت التفاتاً خاصًّا للعبارات التي تظهر أو تتضمن الدلالة على أن اللفظ جديد ومستعمل ، أو أنه في حاجة الى بيان أنه مهجور أو عهيد ، وبذلك يمكن تعيين تاريخ استعماله أو اغفاله .

٣ — ذكر عدد الشواهد بقدر المستطاع للكلمات العادية . وبخاصة عندما تستعمل لدلالة خاصة ، والرجوع الى القرينة لتوضيح معناها أو ذكر ما يساعد على ذلك من الفروض

ومن الظاهر أن هذه القواعد تختلف درجات السهولة في تطبيقها باختلاف الكتب ، وأن مهمة بعض القراء قد يتفق أن تكون أكثر صعوبة وأوسع مدى من مهمة البعض

(١) س = سنة ، ق = قرن

الآخر ، حتى إذا تناول كل منهم كتباً تتساوى من حيث الضخامة ، وكذلك كمية العمل والانتاج ، فانها تختلف اختلافاً كبيراً . وفي كلا العهدين اللذين مرّ بهما تأليف المعجم ، كان من بين القراء من هم المثلُ الأعلى في الانتاج ، وقد تركوا في كل صفحة من صفحات المعجم أثراً يمكن أن يلمسه كل من له خبرة خاصة بذلك . فهؤلاء من ناحية ، مع جيش عظيم من القراء الذين هم أقل منهم انتاجاً واتقاناً في العمل من ناحية أخرى ، استطاعوا أن يضخموا كمية الجزازات حتى ضاقت بها الأماكن التي خصصت لها في المكتب العظيم الذي أسسه الأستاذ « موري » . ومما يدلك على مقدار السرعة التي ازداد بها عدد الجزازات في العصر الذي بلغ فيه انتاجها أعظم مبالغة ، عبارات نشرت ضمن تقرير تناول سير العمل جاء فيه :

في شهر مايو من سنة ١٨٧٩ ، تقدم الى الجمعية ، تلبية للنداء التي نشرته في أواخر ابريل من السنة نفسها ١٦٥ قارئاً ، منهم ١٢٨ اختاروا الكتب التي يقرءونها بأنفسهم ، فزوّدوا بالجزازات ، وهم عاكفون الآن على العمل أما عدد الكتب التي وزعت فبلغ ٢٣٤ كتاباً.

وبعد مضي سنة على نشر هذا التقرير (١٨٨٠) ، بلغ عدد القراء ٧٥٤ عكفوا على قراءة ١٥٦٨ كتاب ، انتهى العمل في ٩٢٤ منها ، كما بلغ عدد الجزازات المطبوعة التي وزعت عليهم ٦٢٥٫٠٣٥ ، انتفع منها بما لا يقل عن ٣٦١٫٦٧٠ شاهد لغوي تاريخي . ومن هؤلاء القراء امتاز عدد بضخامة الانتاج فتراوح ما أرسل منهم بين ٤٥٠٠و١١٫٠٠٠ جزازة . وبمضي سنة أخرى ، أي في سنة ١٨٨١ بلغ عدد القراء ٨٠٠ منهم ٥١٠ لا يزالون يعملون في جمع الشواهد ، وبلغ عدد الجزازات في تلك السنة ٨١٧٫٦٢٥ والشواهد المنتفع بها ٦٥٦٫٩٠٠ . وبلغ عدد المؤلفين الذين جمعت مؤلفاتهم ليرجع اليها ٢٧٠٠ ، وبلغ عدد عناوين الكتب ٤٥٠٠ .

أما تفاصيل هذا النشاط العظيم فقد أشير اليها في مقدمة الجزء الأول من المعجم ، كما أن قائمة كاملة تضمنت أسماء القراء ، والكتب التي قرءوها في المدة الواقعة بين سنة ١٨٧٩ و١٨٨٤ مع ذكر عدد الشواهد التي استخلصها كل منهم ، قد ألحقت بخطاب الرئاسة الذي سمعته الجمعية اللغوية في سنة ١٨٨٤ . فاذا نظرت في هذه القائمة اتضح أن الاهتمام بشأن هذا المعجم في الولايات المتحدة قد ازداد بمر الزمن واحتفظ بطابعه . حتى لقد أشار منشئ « موري » في خطاب الرياسة سنة ١٨٨٠ الى ما كان من غيرة أهل الولايات المتحدة على العمل والنتائج التي أخرجوها فقال :

« أما من حيث قراءة المراجع ، فاني لا استطيع أن أقوم بواجب التقدير لما أبدى أصدقاؤنا في الولايات المتحدة من غيرة وعطف ، فان غيرتهم الصادرة عن حب صحيح لغتنا المشتركة وتاريخها ، والرغبة الكبيرة في اخراج معجم جدير بهذه اللغة ، جُمَّاع ذلك قد ترك في نفسي أثراً عميقاً لا يزول . واني لا أتردد في القول بأني قد آنست في الأمريكيين حبًّا مثاليًّا للغة الانجليزية باعتبارها ميراثاً عظيماً ورثناه عن أوائلنا ، وفخاراً بأن لهم صلة بذكرياتها المجيدة ، أشبه بذلك الفخار الذي يتيه به بحاثة فذٌّ من اتصاله بآداب الاغريق الأقدمين . آنست ذلك فيهم بقدر ما آنست من ندرة تلك المشاعر بين الانجليز نحو لغتهم . ومن هنا استنتج معتمداً على قرائن عديدة ، أن الأمريكيين سيكون لهم القيادة العليا في البحوث الانجليزية بعد مضي زمن ليس ببعيد » .

ولا يقل عمل الذين تطوعوا في مساعدة التحرير شأناً عن عمل القراء . ولو لم يقم هؤلاء بعمل سوى تصنيف ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ جزازة من جزازات المعجم ، لكان في هذا العمل وحده من اقتصاد في الوقت والمال ، ما لا تقدر له قيمة حقيقية . ولكن الواقع يشهد بأنهم اشتركوا اشتراكاً فعليًّا في تنسيق تحرير المعجم تنسيقاً ظهرت آثاره السريعة في انجاز الجزء الأعظم من صفحاته .

***

واستمر العمل في المعجم بنشاط كبير حتى أن « هنري كولردج » قد تصوّر أنه من الممكن أن يخرج الجزء الأول من المعجم بعد سنتين من بدء العمل فيه أي حوالي أوائل سنة ١٨٦٢ ، وقال إنه لو لا توانى بعض القراء لاستطاع أن يعين لاخراج الجزء الأول ميعاداً أقرب من هذا . ولكن الواقع أن بدء تكوين المواد الأولى من حرف الألف لم يبدأ إلاّ في سنة ١٨٨٢ ، وأخذ العمل في المعجم يتم على النمط الآتي :

AB — 1882 — 88

C — 1888 — 93

D — 1893 — 97

E — 1888 — 93

F — 1893 — 97

G — 1897 — 1900

H — 1897 — 99

والسبب في تداخل السنين في تحرير هذه الحروف أنه كان قد عهد الى لجان مختلفة بتحرير مواد حروف بعينها.

ومن أهم ما يلاحظ في تأليف المعجم قول كاتب المقدمة أن العمل الذي قام به المساعدون الرسميون كان له الأثر الرئيس في جميع الأدوار التي قطعها القائمون بأمر المعجم بعد تنظيم العمل بالاعتماد عليهم فكان من نتيجة ذلك توالي الخطوات على النسبة الآتية

IJK	1899	1901	L	1901	03	O	1902	
O	1902	1904	M	1904	08	R—Re	1903	07
P	1904	09	S—SH	1908	14	N	1906	07
T	1909	15	St	1914	19	Re—Ry	1907	10
Wh-Wo	1922	27	W—We	1920	23	Si—Sq	1910	20
			Su—Sz	1914	19	V	1916	20
			XYZ	1920	21	U	1921	26
						Wo-Wy	1927	

وظهر المعجم مطبوعاً أول مرة في سنة ١٩٢٨ .

***

ايضاحات عامة

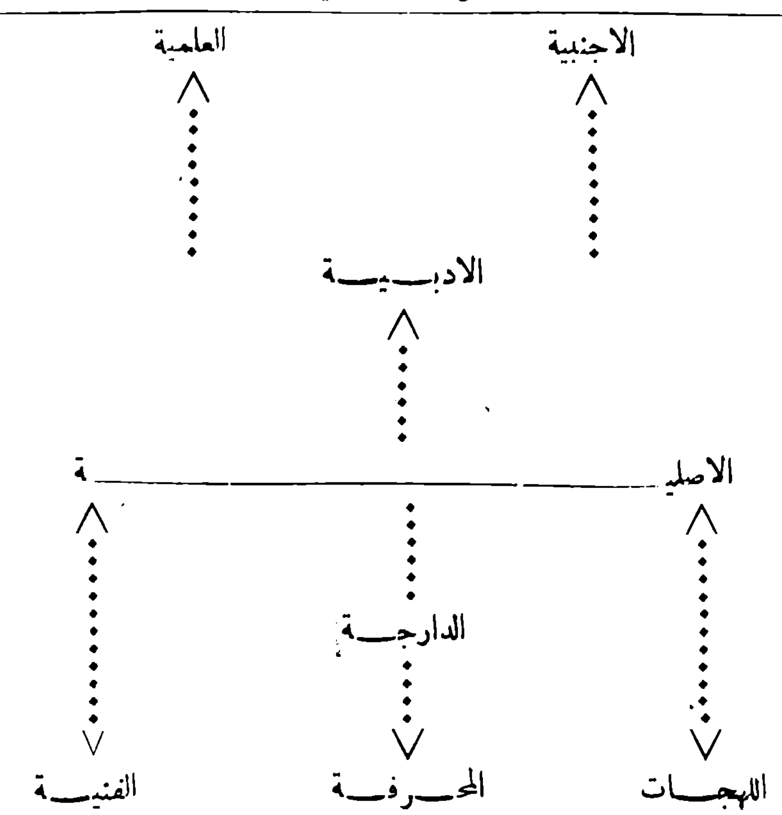
من الايضاحات العامة التي ذكرت في مقدمة معجم اكسفورد الحديث ما يمكن الانتفاع به ، لانه يتناول جهات عامة يستطاع تطبيقها على كل الحالات ومنها ما لا يمكن الانتفاع به لانه يتعلق بخصائص اللغة الانجليزية التي لايشاركها فيها لغة أخرى . لهذا نلخص هنا ما نتوقع ان ننتفع به من الآراء التي اتخذت دعامة لتأليف هذا المعجم اللغوي التاريخي الذي يعتبر الآن الديوان الكامل للغة الانجليزية

ان مفردات لغة حية عظيمة الانتشار سامية الآداب فائقة الثقافة، لا يمكن أن تصبح كمية ثابتة تحوطها حدود معينة . فان تلك المجموعة الهائلة من الالفاظ والعبارات التي منها يتكوّن مفردات اللغة التي يتكلمها الانجليز ، انما تمثل لعقل أولئك الذين يريدون النظر فيها باعتبارها كلاً محدود النواحي معين الاطراف، منظر واحدة من تلك الكتل السديمية المعروفة عند الفلكيين، والتي يكون فيها نواة نيّرة تستبان بدقة، مرسلة ضوءها إلى جميع ما يحوطها فيخترق مناطق يقل فيها الضوء ، الى أخرى تلوح كأنها برقٌ كميد لا تكتنه له منتهى ولا غاية ، ثم تمتد كمدته متدرجة شيئاً بعد شيء حتى تغيب في الظلمات الحافة به ، من غير أن يدرك كيف غابت وكيف ابتلعتها تلك الظلمات . فاللغة في تكوينها وحقيقتها يمكن أن

توازن بواحدة من تلك العشائر الطبيعية التي يصنفها الحيوانيون والنباتيون والتي تتخذ فيها أنواع مثالية لتكون بمثابة النواة الجوهرية لقبيلة من قبائل الحيوان أو النبات ، في حين تتصل هذه الانواع بأنواع أخرى ، تكون فيها تلك الصفات المثالية أقل ظهوراً ثم أقل ظهوراً ، حتى تختفي في النهاية عند حافة نلتقي عندها بصور انحرفت صفاتها عن الصفات المثالية ، ونزعت الى الاندماج لاشعوريًّا في قبائل مختلفة تحف بها في النظام الطبيعي ، أي الى حيث يكون تحديد مركزها الحقيقي غامض ومشكوك فيه . ومن أجل أن يسهل الباحث الطبيعي مهمته في التصنيف ، يبدأ بوضع خط يحدد عنده تخوم شعب أو قبيلة من الاحياء ، بحيث يكون هذا الخط في خارج نطاق صورة معينة (حيواناً أو نباتاً) أو في داخل نطاقها ، ذلك في حين أن الطبيعة لم ترسم مثل هذا الخط في ناحية من نواحيها ولم تقم نداً له في تضاعيفها كذلك مفردات اللغة الانجليزية ، فان لها نواة أو بالأحرى كتلة مركزية مكونة من آلاف من الالفاظ لم يطعن في انجليزيتها ، ومن هذه الالفاظ جزء أدبي صرف ، وجزء آخر علمي صرف ، فأغلبية هذه الالفاظ أدبية علمية ، وهذه هي التي تدعى ألفاظ اللغة الاصلية ، غير أن هذه الالفاظ موصولة من جميع نواحيها بألفاظ أخرى تمضي أحقيتها في أن تسمى هذه التسمية تتضاءل شيئاً فشيئاً ، في حين أن تضاؤل أحقيتها في أن تكون من « الالفاظ الاصلية » يحرفها نحو مجال آخر : أي نحو اللهجات المحلية، أو التحريف أو الكلام الاصطلاحي الذي يكون لبعض الطوائف والطبقات، أو العبارات التجارية أو ما تواضع عليه بعض الشعب الاجتماعية ، أو المصطلحات العلمية التي يشترك في استعمالها كل الامم المتمدينة ، واللغات التي يتكلمها أهل البلاد الاجنبية أو بعض الأمم الأخرى . ولن تقع في جُمَّاع ذلك على خط تعييني في جميع هذه الاتجاهات . فدائرة اللغة الانجليزية لها مركز معروف تام المعرفة محدد تام التحديد ، ولكن لن تقف له على محيط محدود . ذلك في حين أن الاستفادة العملية من معجم ، ينبغي أن يكون لها بعض الحدود .

وإن معجماً مّا لابدّ من أن يكون له منتهى وغاية . وهنا ينبغي للمعجمي أن يتشبه بالعالم الطبيعي ، فيرسم خطًّا أوليًّا في موضع ما لكل اتجاه من اتجاهات الانفراج والتباعد .

ولقد رسم مؤلف مقدمة اكسفورد شكلاً بيانيًّا لألفاظ اللغة الانجليزية على الصورة الآتية :



فمعجم جديد يؤلفه معجميون محدثون ، ينبغي أن يتضمن جميع الألفاظ العامة في الأدب والحديث (الـكلام) ، وكذلك الألفاظ العلمية والفنيـة والمحرفة وألفاظ اللهجات والألفاظ الأجنبية المستعملة في اللغة والتي درجت بها الألسن مما قارب مرتبة « الألفاظ العامة » للغة. وبعد كل هذا ينبغي أن يعلم المعجمي أن الخط الذي رسمه لألفاظ اللغة سوف لا يرضي النقاد. ذلك بأن مجال « الألفاظ العامة » يتسع بمقتضى اطلاع كل ناقد وبحوثه وأعماله ومعاشه من حيث اقامته في الريف أو المدن أو في بلاد أجنبية ، كما يضيق هـذا المجال في النواحي التي لا صلة له عمليًّا بها . فليست انجليزية أي فرد هي الانجليزية برمتها ، ولذا ينبغي للمعجمي أن لا يقتنع إلاّ برصد الجزء الأعظم من الألفاظ التي يستعملها كل فرد بذاته ، وهـذا يفوق ، بما لا يمكن تقديره ، مجموع الألفاظ التي يستعملها فرد واحد .

بالاضافة الى الألفاظ العامة للغة ، وبالاضافة الى كل اتجاهات التوسع والتباين فيها ؛ نقع على عدد غير محدود من أسماء الأعلام مرتجلة ومنقولة تخرج عن دائرة الألفاظ المعجمية ، في حين أنها تمسها من آلاف النواحي التي تضفي على هذه الأسماء ، وبصورة أخص على النعوت والأفعال المستمدة منها ، قيمة معنوية تختلف بحسب الأحوال . وفي هذه الحالة ينبغي أن نرسم حدوداً قد يزيد فيها أثر الاختيار أو يقل .

كذلك نجد أن للغة ناحية أخرى لا يمكن تحديد تخومها ، ذلك إذا نظرت الى اللغة من حيث علاقتها بالزمان . فان المفردات الحية للغة من اللغات ، لا تملك من صفة الاستقرار في تكوينها ، أكثر مما تملك من صفة التقيد بحدود تنتهي عندها . فمفردات اللغة اليوم غيرها منذ قرن من الزمان ، وكذلك ستكون غيرها بعد قرن يمر من الآن . ذلك بأن عناصرها المكونة لا تفتأ في انحلال وتجدد مستمرين ولكنهما بطيئي الأثر . فالألفاظ القديمة يتولاها الاغفال فتصبح مهجورة أو ميتة . ذلك في حين أن الألفاظ الجديدة دائمة التغلغل في تضاعيف اللغة . وموت كلمة من الكلمات ليس من الأشياء التي يمكن تحديد زمانها تحديداً تاماً . ذلك بأن موت اللفظ عبارة عن عملية اختفاء ، تستمر زمناً متطاولاً ، لا يستطيع المعاصرون أن يدركوا نهايته . فكلمة تستعمل في هذا العصر ، لا يمكن أن تهجر ، وانما تموت بعض الكلمات بموت أجدادنا الذين كانوا يستعملونها . وحتى بعد أن نكف عن استعمال كلمة ، فان ذكراها تظل حية قائمة ، وتبقى معتبرة حية على اعتبار امكان الرجوع الى استعمالها . فاذا مات آخر من يحتمل أن يستعملها ، ماتت الكلمة . ومن هنا نجد أن هنالك عدداً كبيراً من الألفاظ نشك في أنها وحدة من الوحدات الحية في اللغة ، ذلك بأنها حية عند البعض ، ميتة عند آخرين ، ونرى من جهة أخرى أن ألفاظاً يمكن أن يكون لها حق الدخول في مجموعة المفردات المعترف بها في اللغة وهي ألفاظ يمكن أن يعود بعضها الى التقبل والاستعمال ، بل هي من الألفاظ الكثيرة الدوران على ألسنة بعض المتكلمين وأقلام بعض الكاتبين ، وهي ليست من الانجليزية الجيدة عند البعض ، أو هي ليست انجليزية بحال ، عند البعض الآخر . اذا اتبعنا طريقة تقسيم الألفاظ قسمين : مستعمل ومهجور ، وجعلنا الفكرة في اللغة مقصورة على الألفاظ التي هي انجليزية صرفة منذ البداية أو من عصر ما من العصور ، فاننا بذلك ندخل ناحية من موضوع بحثنا يكون استعراضنا فيها لطبيعة اللغة ناقصاً غير تام . ذلك بأننا نعرف مفردات العصور السالفة عن طريق المدونات التي تركها السلف ، ومقدار علمنا بها يتوقف على كمية ما يصل الينا من هذه المدونات والمامنا بمحتوياتها . وكلما كان رجوعنا الى الماضي أبعد وأقصى ، نقصت هذه المدونات ، وقل محصول المفردات التي يمكن أن نقع عليها.

(يلاحظ هنا ان الحال في اللغة العربية الآن ربما كان على عكس ذلك تماماً)

وهذا المعجم ، مع خضوعه لكل الحالات التي يمكن أن تعتور تأليف معجم كامل للغة الانجليزية ، سيتضمن تاريخ كل الكلمات المستعملة الآن ودلالتها ، والكلمات التي يمكن أن نعرف أنها كانت مستعملة منذ أواسط القرن الثاني عشر الميلادي . وكان تعيين هذا العصر راجعاً الى الرغبة في اهمال جميع الألفاظ التي استعملت في الانجليزية القديمة أو الانجلوسكسونية .

انطون تشيكوف

القصصي الروسي

ولد انطون تشيكوف وهومن أعظم القصاص الروس عام ١٨٦٠ في مدينة تاجانروج Taganrog بجنوبي روسيا وبرغم انه نشأ في بيت لا يمت بصلة الى الطبقة العليا او المتوسطة اذ كان والده عبداً محرراً ووالدته ابنة تاجر، فانه لم يتخلف في مضمار التعليم والتهذيب

ولم يكن أنطون تشيكوف سعيداً في حداثته، اذ تضافر الضنك والقسوة الابوية عليه وقد صرّح مرة بأنه لم يكن حدثاً في يوم ما، لأن حداثته كانت معذبة. التحق بكلتا المدرستين اليونانية والعالية في تاجانروج، وتخرّج عام ١٨٧٩ في جامعة موسكو طالب طب. وفي هذه السنة نفسها، ابتدأ تشيكوف يمد الصحف والمجلات الاسبوعية ومنها الفكاهية، بقصصه ونوادره. ونال عام ١٨٨٤ درجته الطبية ثم اشتغل حولاً من الزمان بالتطبيب فكان موفقاً، واستمرّ يتابع دراسة الطب حتى بعد انه اتخذ لنفسه مهنة الكتابة حرفة، وأدى خدمة طبية جليلة حينما انتشر وباء الكوليرا عام ١٨٩٢، لم يرج منها جزاءً ولا شكوراً

***

إن أعمال تشيكوف الخيرية الكثيرة التي أداها للمتألمين والمتضايقين لتفصح عن رقة قلبه وعظم اهتمامه. فقد أسس مدارس ريفية، وصادق المعلمين التعساء، ووفر القوت لصرعى الجوع والقحط. وفي عام ١٨٩٠، زار مستعمرة العقوبات بجزيرة سخالين Sakhalin لكي يدرس نظام اشتغال السجناء بفلاحة الارض، تمهيداً لوضع كتاب في هذا الموضوع. ولما واتته الشهرة والثروة، قضى أوقات فراغه في الفلاحة، وفتح باب منزله على مصراعيه لاستقبال الناس على اختلاف حالاتهم، يلجأون اليه طالبين إرشاداً روحيًّا، وتحرراً من أمراضهم الجسدية. وبرغم انه أصيب قبل وفاته بنحو خمسة عشر عاماً بالتدرن الرئوي، فانه لم يدع حالته الصحية تمنعه من الكتابة او تؤخره عنها. واجابةً لرغبة طبيب، ترك تشيكوف سكنه في الشمال عام ١٨٩٨، ونزح الى القرم الدافئة، وهناك بنى لنفسه منزلاً في يالتا Yalta وفيه بدأ كتابة مسرحيته الخالدة «حقل الكريز» The Cherry Orchard التي مثلت في اليوم

السابع عشر من يناير من العام التالي على مسرح موسكو الفني بحضور تشيكوف نفسه إذ أصر على مشاهدة العرض الاول رغم سوء حالته الصحية. وفي يونيو ١٩٠٤ صحب معه اولجانيبر Olga Knipper ممثلة موسكو التي تزوجها قبل ثلاثة أعوام. صحبها إلى الغابة السوداء أملاً في التخلص من دائه، ولكن حالته ازدادت سوءاً فمات في يوليو التالي في قرية بادنويلر الصغيرة Badenweiler

وكان تشيكوف كغيره من الروسيين مكباً على دراسة نفسه وفحصها والتمعن فيها حتى ان كتاباته اصبحت تترجم عن حياته دون مراء وتظهر شخصيته وأخلاقه دون تزويق او طلاء. والصورة التي نستطيع استخلاصها من قصصه ومسرحياته ورسائله هي صورة شخص دعامته الحب، له سمات القديسين، لطيف، رؤوف، حساس. شجاع. حر الفكر، على استعداد لأن يقف موارده المالية ومعارفه الطبية دائماً على المحتاجين من جميع طبقات بني وطنه. وقد نجح تشيكوف باعتباره فردياً متطرفاً Strong Individualist في سلوك حياته على حسب رغبته ووفق منهله او كما وصفه القصصي الروسي ماكسيم جوركي: «في كل حياته عاش تشيكوف على نفسه، فقد كان دائماً كما هو، محرراً في دخيلته لا يعبأ بما يرجوه منه الآخرون»

وكان تشيكوف أديباً منصفاً دقيقاً، وكانت له قدرة عظيمة على العمل، فبرهن برغم علله الجسدية على أنه كاتب خصب مثمر. وقد خلف. الى جانب مسرحياته نيفاً واربعمائة قصة قصيرة تكشف عن سعة معلوماته وتظهر كمال ملكته الادبية. وكانت كتابة الرواية novel النوع الوحيد من فنون الأدب، الذي لم ينبغ فيه

وكثيراً ما اطلق على تشيكوف لقب «موباسان الروسي» وعلى الرغم من زعامة كل من موباسان وتشيكوف في كتابة القصة القصيرة فانهما لا يتفقان في أشياء كثيرة. فقصص موباسان الفاترة تتعارض مع حمية قصص تشيكوف وميله الى النزعة الانسانية، كما ان إحكام بناء قصص موباسان وسبك تركيبها يختلف عن قصص تشيكوف التي تقل عنها حبكاً وسبكاً

***

وفي عام ١٨٨٤ سخر تشيكوف قلمه أولاً لكتابة الدراما. فأنهى مسرحية «على الطريق المرتفع» On The High Road التي لم تطلع على عالم الادب بجديد، ولم تخلق ثورة في دنياه وبعد سنوات، في عام ١٨٩٦ قدم مسرحية The Sea Gull وهي تفوق سابقتها بمراحل، ومثلت في سنت بطرسبورج على عادة القوم في التمثيل، ولكنها لم تنجح، فغادر تشيكوف المسرح، وكان يشهد تمثيلها، معتقداً انه ليس بالكاتب المسرحي، وصمم على هجر هذا الفن إلى الأبد. ولم يتزعزع عن عقيدته هذه ويرجع إلى صوابه إلا بعد أن أعيد

تمثيل The Sea-Gull في مسرح موسكو الفني عام ١٨٩٨ تحت إشراف المخرج العظيم ستانيسلافسكي Stanislavsky فسما بتمثيلها الى الذروة وأعاد الى تشيكوف ثقته بقواه، وحرّك فيه حماسته المسرحية السابقة التي كادت تخمد، ونفض الرماد فبدا الجمر المستعر، وتبدت الحمية الملتهبة وثارت القوة الدفينة، فاستطاع في سبع سنوات ان ينصرف الى كتابة مسرحياته الخالدة التي نال بها الشهرة الطائرة والصيت الذائع.

وكان من حسن التوفيق أن تعاقد تشيكوف ومسرح موسكو الفني، فأصبح عميده المبدع في الانتاج الذهني والكتابة المسرحية، واجتمع للمسرح الى جودة التأليف، جماعة من خيرة الممثلين، استطاعوا بفضل مقدرتهم وحسن قيادتهم أن يخلقوا الجو الملائم، ويعبروا التعبير الصادق عما يتطلبه دور كل منهم، وان يلمسوا كل غموض في مسرحيات تشيكوف ويجعلوها ذات مغزًى ومعنًى ومذاق.

ويحق لتشيكوف أن يدرج اسمه في عداد الطبيعيين، الا أن طبيعيته تغلب عليها النزعة الفردية، وهو قليل الاهتمام بالقشور من التعاليم، شديد العناية بالحقائق السامية الخفية التي كان كثيراً ما يسوقها في أسلوب رمزي دقيق.

وأدبه كله احساس، غني في روحانيته، ماكر في سياقه، عرضي في عرضه، حتى انه يبدو في كثير من الأحيان بلا غرض أو مرمى. ولكن خاتمة مسرحياته تحمل على الاعتقاد بأن هذه العرضية أو الاتفاقية ظاهرية أكثر منها حقيقية، وان مسرحياته الجميلة تسير من بدايتها الى نهايتها وفق خطة ماهرة.

***

أما أشخاص مسرحيات تشيكوف، فهم يبعثون وكلهم حياة ويقدمون أنفسهم الى النظارة أو القراء بما يقولون أكثر مما يفعلون. وأما الحوار المرن الطبيعي فهو محشو بعبارات التردد وألفاظ الشك، كثير التقطع والتكسر. ولم يهب تشيكوف الحياة لأشخاص مسرحياته وحسب، بل تعداها، الى بعثها في الاجسام المادية التي تدخل في المسرحيات، كالصقع، وقوى الطبيعة، وحتى أثاث المنزل ورياشه، واستطاع كذلك أن يجعل جميع الأشياء الظاهرة والخفية، حنطة لطاحونته النفسية، وعجينة في يديه يشكلها كيف شاء.

وبرغم أن تشيكوف لم يكن من عمد مدرسة « المسرحية المحبوكة » (١) يصعب علينا

(١) مدرسة المسرحية المحبوكة well-made play مدرسة فرنسية يتزعمها Dumas fils, Scribe, Sardou, Augier

انكار أن دراسته للمأساة الفرنسية أثرت تأثيراً ناجعاً في كتاباته المسرحية ، وأنقذته من بعض القصور المعيب الذي يميل اليه الأدب الروسي . كما انه تعمد اهمال كثير من التدابير المرعية ، مثل المناظر الهندسية البارعة ، والخاتمات المختلقة ، والستائر المسدلة وابتدع نظاماً فريداً استطاع أن يجعله آلة يسخرها لتصوير مختلف المشاعر ، وتبيان شتى السجايا والنزعات ، وذلك ما أعاره تشيكوف جل عنايته واهتمامه .

***

وتغلب على كتابات تشيكوف نغمة كئيبة حزينة ، ولعل هذا هو السبب الذي حمل البعض على الظن بأنه كان ينظر في الحياة نظرة تشاؤم وانقباض . ولكننا اذا علمنا ان هذا الأسلوب الكئيب Welschmertz ممثل صادق لما اتصف به الروس ، وكذلك لو أدركنا أن تشيكوف كان يعيش في عصر ركود قومي منبط للهمم ، لأدركنا السر في هذه النغمة الحزينة التي تسمُ كتاباته . وكان طبيعيًّا جدًّا أن كاتباً حاد البصيرة حيّ الروح مثله ، يقدمُ صورة شوهاء لزمن مشوّه ، وقد صرح هو بنفسه أنه رأى من واجبه الأدبي أن يقدم حقائق الحياة الأساسية ، مهما كانت خستها ، دون خوف أو محاباة أو تشويه ، فقال : « ليس الكاتب حلوائيًّا[1] ، أو مجمّلاً ، أو مرفهاً أو نديماً مسليًّا . انه رجل مرتبط بعقد مع ضميره وشعوره الذاتي بواجبه ، ومتى وضع يده على المحراث وجب ألاّ يلتفت الى الخلف . وعليه ، مهما جابهه من مشاقّ ، أن يتغلب على الغثيان ، وأن لا يلوّث مخيلته بدنس الحياة . واجب الأديب أن يقول الصدق عن شخصياته وألاّ يحاول السموّ بأخلاقهم ، يجب ألاّ يكون لهم ديّاناً ، أو قاضياً عليهم » . ويجمل الاعتراف بأن تشيكوف كان عمليًّا ، وأنه كان مخلصاً لهذا المبدأ وفيًّا له .

***

ويعرض تشيكوف في معظم مسرحياته ، بؤس الأشراف الذين غدر بهم الزمان وتدهورت حالتهم ، وهي الطبقات التي تدرك عجزها ووهنها ، والتي أصبحت الحياة لا تحمل لها أي معنًى أو مغزًى . ولا يسع الانسان إلاّ أن يعجب كيف يتشبث هؤلاء القوم المحطّمو القلوب ، الضعفاء الارادة ، بالحياة ! فبرغم إدراكهم أن الفرص تولّي الأدبار عنهم ، فانهم ما فتئوا يترددون ويماطلون ويسوّفون ، معلّلين نكبتهم « بالقضاء والقدر » وهو الاعتقاد

(١) الحلوائي صانع الحلوى وبائعها .

الذي به يبرر الخامل خموله . والقوة الوحيدة التي يملكونها ، تظهر في مقدرتهم الفائقة على احتمال الألم والصبر عليه ، وقد أجاد الناقد الروسي تومكيف Tomkeyeff تشخيص الأمراض التي يعانيها هؤلاء القوم حينما قال : « تعاني جميع الشخصيات التي ابتدعها تشيكوف عَلَلَ الارادة ، والفساد في الطبيعة وعدم ضبط النفس ، وهم على استعداد للانتحار ، أو لطلب العزاء والسلوى في كؤوس الراح في كل مرة تسلب الحياة منهم شيئاً معيناً . وهم لا يطمحون الى مثل عليا عملية ، ولا يستطيعون تأدية عمل . أما العمل الوحيد الذي يملكون انجازه ، فهو نسيج هشّ من الأحلام » .

***

وجميلٌ بنا أن نسجل هنا أن كآبة مسرحيات تشيكوف يتخللها بصيص من المرح ، وأن بعض الفقرات المبعثرة في مسرحياته ، تحمل على الاعتقاد بأن تشيكوف كان متفائلاً أصلاً ، وانه يؤمن ايماناً غير محدود بالتقدم البشريّ ، وأنه يؤمل تحقيق سعادة العالم في المستقبل .

ويشترك تشيكوف مع كارليل في صفة واحدة على الأقل ، وهي أنه علق شأناً كبيراً على « العمل » ، وعدّه الترياق لكل داء عضال فتاك ببني وطنه . وقد تبدّى هذا الزعم على لسان بعض أشخاص رواياته ، فهم يمجّدون العمل ، ويرون فيه أعظم ضمان وأوكده لتحقيق سعادة الأجيال القادمة . وقد قال بهذه النظرية طوسنباخ Tusebach في رواية تشيكوف المسماة « الشقيقات الثلاث » The Three Sisters إذ قال متنبئاً : « الوقت قريب ، والسيل ينهمر صوبنا والعاصفة الهوجاء ستبلغنا ، وهي قريبة منا ، وسوف تزيل من المجتمع التراخي وعدم المبالاة ، وبغض العمل ، والكلل والملل . سأعمل ! وبعد خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين ، سيحمل الجميع على العمل ». وقد تحقق هذا الرأي برمته في القرن العشرين وفي نظام روسيا السوفيتية .

وظاهرٌ أن غرض تشيكوف من كتاباته هو أن يبين أن الشقاء ليس إلاّ فترة انتقال يجب احتمالها بالصبر للتكفير عن الأخطاء الماضية ، والاستعداد للأيام السعيدة المقبلة [1] .

وديع فلسطين

(١) عولنا في كتابة هذا المقال على كتاب Representative Modern Dramas, by C. H. Whitman

سيكولوجية أدلر

تلخيص وتبسيط

نظرة عامة

يرى « الفرد أدلر » أن اتصال الانسان — ذكراً كان أم أنثى — بالحياة والناس يقوم على دعائم ثلاث : العمل ، والحب ، والعلاقة الاجتماعية . ان هذه عنده هي وظائف الفرد في الحياة . فاذا كان الفرد مطمئنًا فيها جميعاً كان انساناً سوياً هانئاً ، والا فانه لا ينجو حين تنقصه الحياة إحدى هذه الصفات الثلاث، من أن يكون هدفاً لانحراف عصبي .

ولأدلر نظرية قائمة بذاتها في علم النفس مركزها فكرة (النقص) . ويظهر من تجارب الناس في الحياة ان فلسفة أدلر النفسية فيها شيء من الحق ، ان لم يكن فيها الحق كله ، بالرغم من النزاع العنيف القائم بين اتباعه وأتباع فرويد .

ونظرية أدلر الأساسية في علم النفس بسيطة . وقد وضعها هو في عبارات وشروح سهلة تجعل كثيرين ينظرون اليها مرتابين أول الأمر ، خشية أن تكون هذه الفكرة قولاً عادياً لا طائل وراءه . والذي قرّب نظرية « أدلر » من الأذهان أمران : أولهما نزعته العنيفة الى التبسيط ، وثانيهما طواعية أمثلة كثيرة من الحياة لتكون شواهد عليها ، وشعور كل انسان بشيء منها في نفسه . والنظرية تؤول بعد الى دعوة اصلاحية عامة ذات مساس شديد بمصالح الناس وهنائهم . ولا عجب في ذلك ، فأدلر يعتقد مع وليم جيمس « ان العلم الحقيقي ليس إلاّ العلم الذي يتصل بالحياة اتصالاً مباشراً » .

وفلسفة « أدلر » في علم النفس تدعى (السيكولوجية الفردية) . وهو يذكر ان هذه السيكولوجية انما نتجت معه من دراسته لدوافع الحياة الخلاّقة ، أي الدوافع الخفية التي تحدو بالأحياء إلى الرقي والتطور ، بالرغم من أي عائق يعوقها . ولذلك يرى أن الكائن البشري وحدة تستهدف غرضاً معيناً في اندفاعها نحو الرقي والتكامل . ان للنفس البشرية طابعاً خاصًا يتكوّن في الصغر . والنفس تحب أن تتكامل فتسد ما بها من نقص ؛ وان تندفع الى الأمام نحو هدف ثابت الرقي . ولاحظ « أدلر » ان الجسم البشري تتساند جميع أعضائه

لتحفظ الجسم وتسعده . بل هو يلاحظ أن أجزاء الجسم تحاول أن تسد أي نقص يطرأ عليه . فالجسم يجرح مثلاً ، فتعمل سائر أعضائه على تغذية المكان المجروح ووقايته حتى يلتئم ويذهب الألم والتشويه الناجمين من ذلك . « الحياة تحاول دائماً أن تستمر ، وقوى الحياة لا تخضع قط لأي عائق من الخارج يحول دون استمرارها ، من غير أن تجهد نفسها في التغلب عليه . وان حركة النفس لشبيهة بحركة الحياة العضوية » .

وهذا معناه أن النفس البشرية كذلك تتعاون أجزاؤها في سبيل إسعاد النفس كلها ، ودفعها الى الأمام في طريق السمو . فالنفس البشرية لها هدف أو مثل أعلى . وهي تحاول أن تتخطى الحالة التي تكون عليها . فاذا كانت منقوصة ، حاولت أجزاؤها الأخرى أن تسد هذا النقص . أما هذا الهدف الذي ترسمه النفس لذاتها فانه يتكوّن في أول عهد الطفولة الباكر . في السنوات الأربع أو الخمس الأولى من حياة الطفل . ويتركز الهدف الذي تستهدفه النفس حول نقص تحس به من جراء عضو مفقود أو مشوّه . فالطفل بنقصه هـذا وهدفه الذي تستهدفه نفسه من جراء هذا النقص ، يكون وحدة كاملة يسميها أدلر «النموذج الأول»[1] Proto-type . وهذا النموذج الأول للطفل يظل هو هو في أساسه لا يتغير مدى حياته . وانما يمكن تعديله وتوجيهه وجهات حسنة . وهذه هي فائدة السيكولوجية الفردية . وخير وقت لهذا التعديل والتوجيه ، هو فترة العمر الباكرة التي يتكوّن في أثنائها النموذج الأول.

وليس من الضروري أن يتشكل الشعور بالنقص من جراء فقدان عضو أو تشوهه . ولكن حرمان الطفل من مميزات الحياة ، وخاصة بالنسبة الى غيره من الناس ، يقيم فيه الشعور بالنقص . فالتربية الناعمة المرفهة (المُدلَّلة) للطفل ، التي تحفه بعناية زائدة لا حاجة اليها ، أو الكره الشديد الذي يحس معه الطفل حرج مركزه بالنسبة الى غيره ، هي من الأمور التي تزرع فيه الشعور بالنقص من ناحية أخرى . ان الطفل المدلّل يتعوّد الاعتماد على أهله ، فاذا نما لم يستطع مقابلة الحياة ، وانما استمرَّ يطلبها على الصورة التي كان يطلبها من أهله وهو صغير . وبالطبع لا يجد من الحياة التلبية التي كان يجدها من أهله ، فتتغلب عليه الحياة وتهزمه وينحرف بذلك الى نواحي الحياة الضارة . فالحياء الشديد والادعاء والقعود عن العمل ، والاجرام والجنون والادمان على الخمر ... الخ هي مظاهر مما تؤول اليه حالة الطفل ، اذا نشأ شاذاً غير سوي واستولى عليه شعور بالنقص .

ويلخص « أدلر » نظريته فيقول : « لا مندوحة لي من الاعتراف بأن طريقة

---

(١) يحسن ان يقال في هذا المصطلح « المثال البدائي » او « النموذج البدائي » . (المقتطف)

« السيكولوجية الفردية » تبدأ وتنتهي بمشكلة النقص ... فالنقص هو أساس الجهاد البشري والنجاح . غير أن الشعور بالنقص هو أساس جميع مشاكلنا النفسية . ان الفرد اذا لم يجد هدفاً من الرفعة ، تعرّض لشعور بالنقص . وهذا الشعور يقوده الى مخرج يخلصه من مواجهة الحياة . هذا المخرج هو الذي يدعى « مركب العظمة » ولا يزيد هذا المركب عن كونه هدفاً عابثاً غير مفيد يوهم بالرضى الذي يناله الانسان من نجاح خيالي »

وما دام الشعور بالنقص هو أول ماتنحل اليه نظرية « أدلر » النفسية وآخره ، فجدير بنا أن نبحث في هذا الشعور بشيء من التفصيل

***

الشعور بالنقص

قلنا من قبل أن الشعور بالنقص يبدأ في الطفل من نقص او ضعف في التركيب الجسماني، ومن الحرمان النفسي أيّاً كان نوعه . ويتوقف نوع الشعور على نوع الضعف او على نوع الحرمان . ويشمل ذلك عوامل البيئة التي نشأ فيها الطفل وبخاصة طبائع الوالدين والناس المحيطين به وكافة الذين يؤثرون في تربيته والوضع الاقتصادي الذي ينشأ فيه . ومن البين والمهم ان الطفل لايقوى على العيش وحده حين يولد، ولذلك كان لامناص له من أن يعتمد على غيره ـ عائلته ـ في مطلع حياته . واعتماده هذا هو مبدأ احساسه بالحاجة الى غيره .

وهذا الاحساس يستمر معه في الحياة . فتى كبر وأضحى مستقلاً ، كان موضعه بالنسبة الى المجتمع كما كان موضعه بالنسبة الى عائلته وهو صغير . وبعبارة أخرى تنتقل حاجة الفرد الى جماعة اكبر . ومن هنا يشعر الكبير بحاجته الى الناس وشعوره بالنقص يحمله على مواصلة العلاقة بالمجتمع « فمبدأ الحياة الاجتماعية » كما يقول « ادلر » هو ضعف الفرد واستمرار ضعفه بالنسبة للمجتمع يلزمه ان يكون اجتماعيّاً . وهذه الملاحظة ،مهمة من ناحيتين : أولاهما: اشارتها الى ان الانسان اجتماعي بالطبع . وثانيتهما: الالماع الى ان طمأنينة الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه من أحسن علامات الشعور بالنقص كما سيجيء . ومجتمعنا اليوم في الشرق قلما يضع الفرد في موضعه المناسب في الحياة . ولذلك يلازم المرء شعور الوحشة مما يجده في نفسه من نقص ومما يجده في المجتمع من عدم افساح الطريق له ليستعيض بالبروز في ناحيته عن شعوره بالنقص . وليس المجتمع في الغرب أحسن بكثير مما هو عليه في الشرق. ولكن « أدلر» يرى ان المجتمع الراقي لايتخلف عن اسداء كل فرد فيه مايستحقه بالنسبة لكفايته وهذا يفسح المجال للمواهب ، واذا فحصنا عباقرة التاريخ وجدنا في كل واحد منهم نوعاً من

النقص، فضعف البصر ضعف شائع في العظماء ، وبعض العظماء والناس يعانون ضعفاً في معدهم أو امعائهم ، ومن الأطفال والناس من يكون أعسر فلا يستطيع أن يستعمل يده اليمنى ، ومنهم من يكون عييًّا يتلعثم ، ومنهم من يكون بالغ القصر . الخ ...كل هذه عوامل تولد الشعور بالنقص .

فاذا أثر النقص في الانسان تأثيراً شديداً تولد فيه «مركب نقص» ، وظهرت لذلك بوادر كثيرة مختلفة ، فبعض الناس تراهم في حركة دائمة ، فاذا مشوا ضربوا الأرض بأرجلهم واذا تحدَّثوا رفعوا أصواتهم ليسمعهم الآخرون ، ولهم أمزجة حادة ، وانفجارات عاطفية فجائية ، ومن الناس من يتناقض في آرائه وأعماله ، ومنهم من يتردد تردداً عظيماً فلا يستطيع ان يجزم في أمر . كل ذلك من علائم المرء وقد أصيب بشعور بالنقص. ومما يدل على شعور النقص في انسان الوقوف المعتدل المتوتر الذي يدفع المرء فيه برأسه الى أعلى على شكل ملحوظ ، أو طأطأة الرأس الى الارض اثناء المشي أو الاعتماد المستمر على الطاولة أو الجدار أو العصا حين الوقوف . والطفل الذي يحب الاستناد الى أمه أو يخاف من مواجهة الناس فيظل متهيباً منفرداً ، طفل يحس بنقص ، والرجل الذي يتجافى عن المجتمع ويتحاشاه انما يفعل ذلك في الغالب لأنه يتملكه شعور بالنقص ، والخوف صفة من هذا القبيل كذلك . وهنالك نوع من الجرأة لا يختلف عن الخوف ، فالانسان أحياناً يتملكه تهور فجائي نادر يدفعه الى الهلاك .

ويرى أدلر ان الخوف والشجاعة مرتبطان بالايمان بالقضاء والقدر ، وهو يقول « ان الايمان بالقضاء والقدر مخرج يخلص به الانسان من الجهاد والبناء المفيد في الحياة . ان هذا الايمان دائماً دعامة واهية يستند اليها الانسان »

والغيرة المعتدلة صفة عادية معروفة ، ولكنها اذا اشتدت كانت من علامات الشعور بالنقص . أما الحسد فدليل مركب نقص شديد عميق . ويوافق علم النفس الفردي على ان « الحسود لا يسود » وانه لا يمكن ان يكون الحسد مفيداً في أي شكل من الاشكال .

***

التحليل النفسي

تصبح بذلك طريقة التحليل النفسي عند « أدلر » واضحة ، ان هذه الطريقة تعمد الى فهم الشخصية الانسانية المحللة ، وترمي بشكل خاص الى النفاذ الى هدف هذه الشخصية في الحياة . وعلى أساس ذلك يوصف العلاج النفسي . وللوصول الى هذا يجب ان يفهم (طراز

الحياة — Style of Life للانسان المحلل، وان تدرس الذكريات القديمة، والاحلام التي تحللها. و « طراز الحياة » هذا هو الشكل الذي تكون شخصية المرء قد استوت عليه بعد نموها خلال السنوات الاولى، ويمكن ان نفهم هذا الطراز من دراسة أوضاع الانسان، وخاصة في حالاته غير الطبيعية، فالانسان السَّوِيُّ هو الانسان الذي يستفيد المجتمع منه، والذي يكون له من الاقدام والجهود ما يتقوّى به على مشكلات الحياة، ان الرجل الذي ينحرف عن هذا لا يكون سويًّا، ويمكن مراقبته ومعرفة دائه. ومن بَعْدُ معرفة طريقة اصلاحه

ويروي « أدلر » حكاية رجل كان من صفاته أنه خجول شديد الشك بأصدقائه، فمثل هذا الرجل لا يمكن لشكه أن يكون ذا أصدقاء، ولا يمكن لشدة خجله أن يخالط الناس، ثم انه كان شديد الخوف من الفشل في عمله. فحمله ذلك على شدة العمل حتى أنهك نفسه، ويعتبر هذا الرجل فاشلاً في علاقاته الاجتماعية، كما يعتبر فاشلاً في عمله، انه يحس احساساً عميقاً بالضعف، وقد لوحظ أنه في مشكلة الحياة الثالثة — الحب — كان شديد التردد، فانه كان يتنقل في حبه من فتاة الى أخرى، ثم لم يتزوَّج قط، وكان هذا الرجل بكر أبويه. وبكر أبويه في نظر « أدلر »، يتعرض في الغالب للحرمان كله أو بعضه من جراء العناية الخاصة بالطفل الثاني التي يشاهدها البكر، وهذا الحرمان يولد في نفسه الشعور بالنقص، ومثل هذا الرجل اذا أردت أن تمكنه من أن يتغلب على شعوره بالنقص، وجب أولاً ان توضح له ان يقدر نفسه دون ما تستحق، كما يجب أن توضح له تزمته في ملاقاته الناس ووجه خطئه في تخوفه من أن يفضل عليه أحد

***

وأما عن تذكرات الانسان القديمة، فان المرء يتذكر ما له أهمية في نفسه، ولا عبرة في أن تكون تذكرات الانسان حقيقية أو وهمية، فانه ما دام يتذكرها فانها مهمة في حياته. والذكريات القديمة عبارة عن اشارات الى شخصية الانسان. انها تدل على نموذجه الأول (أي Prototype الذي تقدَّم ذكره)، لأنها تشير الى ما وقع من أمر هام، والى ما يقع على مثاله، لأن شخصية الانسان الأساسية لا تتغير، ويصلح هذا الموضوع للمقارنة بما قد اكتشف عن الانسان بوسائط أخرى، وللحصول على التذكرات القديمة، يطلب الى الانسان أن يرتد بذاكرته الى حداثته، وان يتذكر من ذلك ما يتذكر، وقد يجد المحلل صعوبة في هذا، لأن المريض قد يقول انه لا يذكر شيئاً، ولكن الالحاح عليه يثمر دائماً ثمرة طيبة، فيذكر المريض شيئاً. ان ما يذكره الآن له أهمية لأنه يدل على «وضعه الأول» — أي الحالة التي

نشأ عليها، والذاكرون من الناس يذكرون أشياء كثيرة ومختلفة بالطبع، ولكن براعة المحلل تردها الى أصول محدودة.

فبعض الناس مثلاً يقول انه يذكر انه سمع صوت قاطرة قاصف. وبعضهم يذكر انه أكل أكلة لذيذة وبعضهم يذكر أشياء تتعلق بأمه وأبيه، وبعضهم يذكر حالات مرضية أصابته وبعضهم يذكر شيئاً يتعلق بملابسه أو أنه ضرب أوحرم الخ. فوظيفة المحلل هنا أن يرد هذه الأشياء الى أصولها ليجد منها شخصية المرء الأولية وليربط ذلك بشخصيته الحاضرة. على اعتبار أن أساس شخصية الانسان لا تتغير بتقدم السن

يذكر الانسان مثلاً من قديم ذكرياته ان أمه ضربته وعنفته، حتى فرَّ منها هارباً، وضلَّ الطريق حتى خاف على نفسه من الموت، فمثل هذه الذكرى تشير الى عامل قوي من عوامل التخوف. لابدَّ وان يكون قد دخل في تكوين شخصية الانسان، وهذه الحالة تقرب من الواقعية، فان صاحبها حين دخل الجامعة ليتعلم ظلَّ خائفاً من الرسوب في الفحوص الجامعية بالرغم من ذكائه. فلما تخرَّج قتل نفسه اجتهاداً في الحياة حتى لا يفشل فيها، فهو يلعب في حياته، من حيث الأساس، دور الرجل الخائف، وهذا هو شعور النقص الاساسي في نفسه

***

ونموذج الحياة الأول للانسان، يظهر منه شيء في الأحلام. فالحلم عند «أدلر» لا يخرج عن كونه قسماً من «طراز الحياة». و «النموذج الأول» دائماً منطوٍ فيه. ومن هنا كانت معرفتك لانسان مؤدية الى معرفة نوع أحلامه. ومعظم أحلام الناس خوف، لأن النوع البشري جبان. ويحلم المرء أحلاماً مخيفة لأنه في يقظته دائماً يتوجس من الفشل، ويحاول أن يتخلص من الحياة بالهرب من مشاكلها. هو يبحث عما يجنبه متاعبها. هذا هدفه. والحلم يؤيد له هذا الهدف. ولا فاصل عند «أدلر» بين النوم واليقظة. فان طرف أحدهما منساب في طرف الآخر. فنحن في النوم نفكر ونسمع ونحس احساسات عامة. وتستهدف أحلامنا على العموم هدفاً من العظمة يخلصنا مما نحس فيه من شعور بالنقص. ولكن في الأحلام نوعاً من التشويش والغش والتمويه على النفس. ولذلك فالذين يفكرون تفكيراً منطقيا ويواجهون حقائق الحياة لا يحلمون الاَّ قليلاً، أو لا يحلمون قط. والذين يدركون ما في الأحلام من خداع نفسي تقل أحلامهم أو تنعدم. ان المرء يصنع أحلامه. فأحلامه تتجه في محتوياتها الى ما يتجه هو اليه في الحياة، ومن أحلامه يتضح لك بشيء من هدفه فيها.

فأنت تستطيع إذن بمختلف هذه الأساليب أن تتصل بمعرفة «النموذج الأول» الذي ينشأ عليه الانسان و «طراز الحياة» الذي يتبعه. وتستطيع من ذلك أن تعرف النقطة

المركزية التي يدور عليها شعوره بالنقص والطريقة التي يحاول أن يعوض بها عن هذا النقص . ان النقطة المركزية على كل حال نوع من الضعف . وهذا الضعف نفسه يحمل المرء رجلاً ، كما حمله طفلاً ، على التزام جانب المجتمع والشعور بحاجته اليه . فطريق الاصلاح الأساسي لأي انسان أصبح شعوره بالنقص مركباً وأثر في حياته فدفع به الى نواحي غير مفيدة ، هو تعديل مركزه في المجتمع وتسويته . ومرة أخرى يتلخص هذا التعديل في تحسين موقف المرء من الناس الذين هم من حوله ، ومن مهنته ، ومن مسألة زواجه.

ولا أقصد أن أطيل أكثر مما قد فعلت . فالطريقة التي يمكن أن ينشأ بها طفل لكي يكون إنساناً سوياً ، هي أن يعامل بعدل واحترام . ولكن الشاب الذي تمّ تكوين طراز حياته على صورة معوجة يجب أن يدرس وأن تعرف مزاياه وأن يوجه نظره لها . فأدلر يعتقد أن « كل انسان يصلح لكل شيء » . فاذا فتحت للشاب آفاق جديدة ، ووعد في التغلب على ضعفه ، اندفع في الحياة من جديد . وقد عولجت عملياً حالات كثيرين من المرضى العصبيين وحالات قريبة من الجنون على هذا الأساس ، فنجحت طريقة العلاج .

***

أما في ناحية المهنة ، فيحذر « أدلر » من الاستعلاء الذي يجده كل شاب في نفسه حين يعمل مع غيره . هذا الاستعلاء يحمله على الفوضى وعدم الطاعة للرؤساء . وليس من السهل ايجاد عمل لمبتدىء لا يرأسه فيه أحد . فاذا لم يعرف كيف يتلقى من رئيس له ، لم يقدر على التقدم . وإذا لم يحسن التصرف مع الناس على اعتبار انه رجل اجتماعي ، فلا سبيل الى نجاحه.

ولا يعني «أدلر» ، فيما اطلعت عليه من كتاباته الى اليوم ، بمظالم عميقة تقترفها البشرية في حق نفسها ولا تفيد فيها نصائحه ، ولكننا نغضُّ النظر عن ذلك الآن .

وحل مشكلة الحب عند « أدلر » يدخلنا في بحث يختلف عما تثيره حياتنا الاجتماعية في الشرق من مشكلات في هذه السبيل . ولكن مما لا ريب فيه أن الرجل المصاب بداء الشعور بالنقص ، قد يحجم عن الزواج خوفاً من مسئوليات الحياة الجديدة . وضعف الانسان عامة عن مواجهة انسان من الجنس الآخر ، ينتج عن إحساس بالنقص يحمل صاحبه على التردد والحياء .

السلط (شرق الاردن) — محمد أديب العامري



المدرسة الخاتونية

البرانية بدمشق[1]

يقول الاستاذ اسعد بالذيل ص ٢١١

المسجد رقم ٨٢ : مسجد الخاتونية البرانية

تقدم ذكره ص (١٣٠) ونضيف هنا أنها (اي المدرسة الخاتونية البرانية) كانت باقية الى زمن ابن كنان فانه قال في المروج السندسية بتاريخ الصالحية ص ٢٧ : جامع الخاتونية فيه درس حديث في الاشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحي. وقال العدوي : اول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي (أنظر مقال موفير بالمجلة الاسيوية سنة ١٨٩٤ ص٢٥٤ ـ ٣٠٢م)

وموقع هذا المسجد على الخريطة الملحقه بآخر الكتاب بالمربع ر ـ ٣) انتهى

***

هذا ماذكره الأستاذ بالذيل عن مسجد الخاتونية البرانية. وقد رأينا في أول عبارته أنه يشير الى ص ١٣٠ فلنرجع الى هذه الصحيفة لنرى ما ورد بها عن هذا المسجد

اننا نجد ابن عبد الهادي يقول :

فصل ثم قال (اي المؤرخ ابن شداد الذي ينقل عنه ابن عبدالهادي)

المساجد التي لم تذكر يعني فيما قدمه وهي كثيرة :

المسجد الخامس مسجد تربة خاتون بالجبل اﻫ

وعلق على ذلك الاستاذ أسعد بحاشية رقم ٣ بنفس الصحيفة بقوله :

وفي ابن كثير حـ١٣ ص ١٦١ خاتون بنت عز الدين مسعود بن زنكي واقفة المدرسة الاتابكية بالصالحية كانت زوجة الملك الاشرف وقفت مدرستها وتربتها بالجبل وهي غير

---

(١) هذا المقال هو في تحقيق « مساجد دمشق » وتعريفها الى القارىء وتصحيح الاخطاء التي وقعت في كتاب « ثمار المقاصد في ذكر المساجد » الخاص بمساجد دمشق الذي الفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ اسعد طلس

الخانقاه الخاتونية بباب النصر المعروف بباب السعادة كما قال النعيمي في باب الخوانق في أول الشرف القبلي على (نهر) بانياس شرقي جامع تنكز ولصيقه وهي منسوبة الى خاتون بنت معين الدين زوجة نور الدين محمود – انتهى

***

يستنتج مما سبق بيانه ما يلي :

أولاً : ان مسجد الخاتونية البرانية ورقمه المسلسل بالذيل ٨٢ ص ٢١١ موجود بالخريطة الملحقة بالكتاب بالمربع رقم ر — ٣ (راء).

ثانياً : ان هذا المسجد رقم ٨٢ بالذيل وبالخريطة هو نفسه الذي عناه ابن شداد بقوله بصحيفة ١٣٠ : « الخامس : مسجد تربة خاتون بالجبل » .

ثالثاً : انه هو نفسه مسجد المدرسة الأتابكية التي بنتها خاتون بنت عز الدين مسعود ابن زنكي كما ورد بحاشية رقم ٣ ص ١٣٠ تعليقاً على قول ابن شداد المذكور في « ثانياً » .

رابعاً : انه هو نفسه المدرسة الخاتونية البرانية التي يقول العلموي ان الأمير سيباي هدمها ونقل رخامها الى مدرسته .

خامساً : انه هو نفسه «جامع الخاتونية » الذي يقول ابن كنان في كتابه « المروج السندسية» ان فيه درسا في الأشهر الثلاثة وان آخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوي الصالحي » .

سادساً : ان الخاتونية البرانية هدمت في عهد سيباي كما يقول العلموي ومع ذلك كانت موجودة في عهد ابن كنان .

مناقشتنا لاقوال الاستاذ أسعد واظهار ما فيها من أخطاء

الخطأ الأول : خلق مواقع خيالية خاطئة للآثار :

ونحب قبل أن نمضي في مناقشة الأستاذ أن نصحح رقم المربع الذي يقع فيه المسجد رقم ٨٢ على الخريطة فان صحته ز — ٣ بالزاي لا بالراء لأن الخريطة تبدأ خطوط مربعاتها الرأسية من حرف الألف وتنتهي بحرف الزاي على الترتيب الأبجدي المعروف أبجد هوز حطي فلا وجود لحرف الراء فيها .

فاذا رجعنا الى هذه الخريطة وجدنا المسجد رقم ٨٢ يقع بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و ٢٦٧ وهذان المسجدان هما كما وردا في الذيل :

الأول — مسجد رقم ٢٣٠ : ص ٢٤٣ هو مسجد الفرنثي (بالراء) بجادة بين المدارس

بالصالحية . (وقد كتبه الأستاذ بالواو تارة وبالراء أخرى وصحته بالراء كما ذكرناه ولنا في ذلك بحث مستقل تال) .

الثاني — مسجد رقم ٢٦٧ : ص ٢٥١ هو مسجد المرشدية بجادة بين المدارس بالصالحية.

ولأجل تعريف القراء وخاصة الدماشقة منهم بمواقع هذه الآثار نقول : اننا اذا أخذنا ترام الصالحية حتى محطة العفيف ثم سرنا في زقاق العفيف شمالاً فاننا نجد طريقاً يتجه من الغرب الى الشرق هو شارع السكة فاذا وصلنا إلى أول طريق الماوردي عند المنزل رقم ٧٦ وانحرفنا الى اليمين في جادة بين المدارس فاننا نجد الى يسارنا بالصف الشمالي للشارع قبة بالمنزل رقم ٣ تسمى محليًّا بقبة النبي يونس ، يتلوها الى الشرق زقاق ضيق غير نافذ هو زقاق رجب أغا . فاذا واصلنا السير شرقاً حتى بيت أبي صادق الطرودي رقم ٢٧ بالصف الشمالي نفسه وجدنا مقابله بالصف الجنوبي قبة الشيخ علي الفرنثي وعلى عتب شباكها كتابة خمسة أسطر بالنسخ الأيوبي ذي الحرف الصغير وبها اسم الشيخ علي الفرنثي وتاريخ وفاته.

وهذه القبة وما يتبعها هي المسجد رقم ٢٣٠ الذي يشير اليه الأستاذ .

أما المسجد رقم ٢٦٧ وهو مسجد المدرسة المرشدية فيقع شرقي قبة الفرنثي مباشرة. وقد سقطت القبة ولكن لا تزال توجد الى شرقها المأذنة الحجرية المربعة الخاصة بهذا المسجد . وعلى عتب باب هذه المدرسة نقش تاريخي أربعة أسطر بالنسخ الأيوبي بحروف صغيرة به اسم بانيتها عصمة الدين خديجة خاتون ابنة السلطان المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب وتاريخ انشائها .

هذان هما المسجدان اللذان وضع الأستاذ أسعد بينهما مسجد الخاتونية البرانية فهل حقيقةً يوجد بينهما هذا المسجد الآن أو كان يوجد بينهما في أي وقت مضى ؟

يستطيع كل دمشقي أن يثبت بطلان ذلك بمجرد سيره بجادة بين المدارس ومشاهدته هذين الأثرين المتجاورين .

أما غير الدماشقة فنثبت لهم ذلك بالصورة الشمسية التي أخذناها لكتلة الأبنية الأثرية الممتدة من قبة الفرنثي في الغرب حتى المدرسة الأتابكية في الشرق وتشمل (١) قبة الفرنثي (٢) تتلوها المدرسة المرشدية بقبتها الساقطة ومأذنتها الحجرية المربعة (٣) مدرسة دار الحديث الأشرفية وقد سقطت قبتها ولا مأذنة لها (٤) يتلوها زقاق على ناصيته المدرسة الأتابكية ومأذنتها المربعة .

وواضح من الصورة الشمسية أن قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية متجاورتان بل ملتصقتان إحداها بالأخرى وليس هناك مكان لأي أثر آخر يمكن قيامه بينهما .

وليس ثمة شك أو شبهة في التعريف بهـذين الأثرين واسمي منشئيهما لوجود النقشين التاريخيين المشار اليهما . ووجود نقش تاريخي ثالث على عتب باب مدرسة الحديث الأشرفية. لذلك فنحن نقتبس هنا بعض ما رواه مؤرخو دمشق وخططها عن مواقع هذه الآثار لنرى هل أشار أحدهم الى وجود هذه المدرسة الخاتونية البرانيـة يوماً ما في الموضع الذي اختاره لها الأستاذ أسعد أو هو الذي انفرد بذلك ؟ .

أولا — يقول ابن عبد الهادي في كتاب المساجد الذي نشره الأستاذ أسعد بنفس الفصل الذي ورد فيه ذكر مسجد تربة الخاتون بالجبل ما يأتي بص ١٣١ : الثاني والعشرون : مسجد المرشدية . الثالث والعشرون : مسجد الشيخ علي الفرنثي .

ثانياً — يقول المؤلف نفسه في ص ١٥٦ من نفس الكتاب وهو يعدد مساجد المحلة الحادية والثلاثين من محلات الصالحية وهي حارة سوق شعيب (ونقول : هذا السوق يسمى الآن جادة بين المدارس ويمتد من الشركسية حتى شارع السكة) ... الثاني مسجد بالمدرسة التابكية (ونقول : التابكية أو التابتية هي التسمية العامية المحلية وصحتها الاتابكية نسبة للخاتون الأتابكية) .

الثالث:مسجد بمدرسة دار الحديث (نقول:هي دار الحديث الأشرفية)
الرابع:مسجد في المدرسة التي فوقها (نقول:هي المدرسة المرشدية)
الخامس:مسجد في المدرسة الفرنثية (نقول:هي زاوية الشيخ علي الفرنثي)

فيلاحظ في أولاً : ان المؤلف ذكر المسجدين متجاورين ولو كان هناك ثالث بينهما لما أغفل الاشارة اليه .

وفي ثانياً : ان الثبت الوارد هنا يشمل بالضبط الآثار الأربعة الأيوبية المتجاورة من الشرق الى الغرب كما هي موجودة فعلا في الصف الجنوبي من هذه الجادة وليس بينها جميعاً محل لهذه الخاتونية البرانية التي أقحمها الأستاذ بين المرشدية والفرنثية (انظر الصورة) .

ثالثاً — عن المدرسة المرشدية : يقول النعيمي : هي بالصالحية على نهر يزيد جوار دار الحديث الأشرفية (مخطوط الدارس للنعيمي ج ٢ ص ٥٧)

ويقول ابن قاضي شهبة : وتوفيت خديجة خاتون ببستان الماردانية سـنة ستين وستمائة ودفنت بتربتها التي أنشأتها جوار تربة الشيخ الفرنثي بالجبل . اهـ .

أي ان المدرسة المرشدية تجاورها دار الحديث الأشرفيـة (من الشرق) كما تجاورها تربة الشيخ الفرنثي (من الغرب)

رابعاً : عن الزاوية الفرنثية : يقول الشيخ عبد القادر بدران في كتابه منادمة الأطلال

المخطوط جـ ٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦ : هي بسفح قاسيون غربي الخاتونية (ونقول انه يقصد بها مدرسة خديجة خاتون المعروفة باسم المرشدية . انظر قول ابن قاضي شهبة في « ثالثاً »)

وينقل الشيخ بدران عن العدوي في « الزيارات » بعد أن يضبط اسم الفرنثي ما نصه : قال العدوي: زاويته أي الفرنثي جوار المدرسة المرشدية بصالحية دمشق من جهة الغرب » اه

وليس أصرح من هذا في اثبات ان المدرستين متجاورتان وان الفرنثية غربي المرشدية.

ويظهر أن الأستاذ أسعد قد خدعته كلمة الخاتونيـة الواردة في كلام الشيخ بدران فظن أنها الخاتونية البرانيـة دون أن ينتبه الى أن كل تربة أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه أو مؤسسة بنتها خاتون أي سيدة تسمى خاتونيـة وبدمشق والصالحية الكثير من المعاهد التي بنتها الخواتين في العهدين الأتابكي والأيوبي وأوائل المملوكي من أمثال الخاتون الأتابكيـة والماردانية والحافظية والقيمرية وزمرد خاتون وعصمة الدين خاتون زوجة نور الدين محمود ثم من بعده صلاح الدين وعصمة الدين خديجة خاتون وست الشام والصاحبة ربيعة خاتون أختا صلاح الدين والملك العادل بن أيوب والملكة هدية خاتون والخاتون المغنية وأم الملك الصالح وغيرهنَّ .

وما يقصده بدران هنا هو مدرسة خديجة خاتون ابنة السلطان الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل بن أيوب المعروفة باسم المرشدية فالخاتونية والمرشدية هنا اسمان لمعهد واحد تقع المدرسة (أو التربة أو الزاوية) الفرنثية الى الغرب منه .

***

والخلاصة انه لا وجود لهذه المدرسة الخاتونية البرانية بين المسجدين رقمي ٢٣٠ و٢٦٧ الواردين بخريطة الأستاذ وهما مسجدا المدرستين الفرنثية والمرشدية .

وأما الخاتونية البرانية التي يعنيها العلموي ومسجد الخاتونية الذي يشير اليه ابن كنان فيقع كل منهما في مكان آخر سيعلمه الأستاذ عند اتمام البحث .

الخطأ الثاني : في اثبات أن المدرسة الأتابكية ليست هي المدرسة الخاتونية البرانية :

اذا كان الاستاذ أسعد قد اطمأنَّ الى خلق موضع للمدرسة الخاتونية البرانية بين قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية بجادة بين المدارس فلا ندري كيف تكون هذه المدرسة هي المدرسة الأتابكية أيضاً ؟

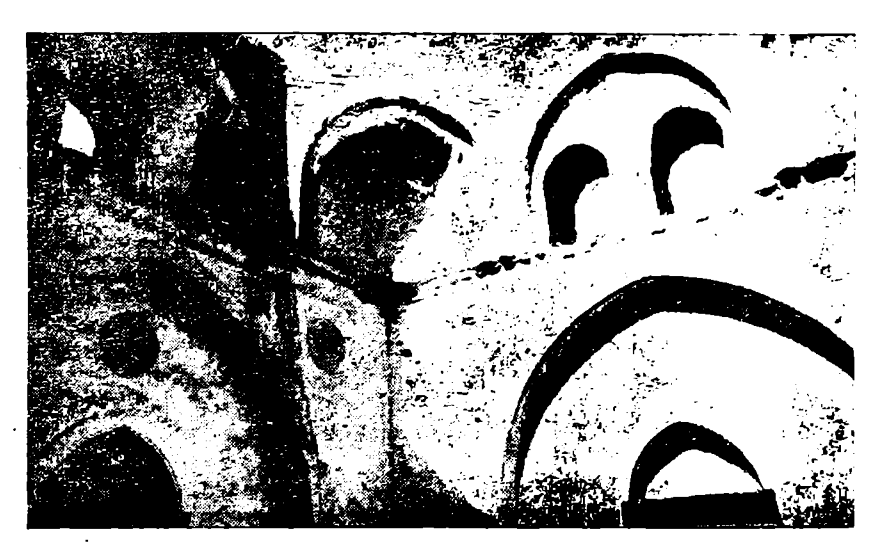
يقول الأستاذ في الحاشية رقم ٣ صحيفة ١٣٠ تعليقاً على قول ابن عبد الهادي (نقلا عن ابن شداد) . « الخامس : تربة خاتون بالجبل » ما نصه :

« هي الخاتون بنت عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن أتابك زنكي واقفة



شارع المدارس : دمشق

من اليمين : قبة الفرثي والمدرسة المرشدية ومأذنتها
والمدرسة الاشرفية والمدرسة الاتابكية ومأذنتها



دمشق : تربة عصمة الدين خاتون

المدرسة الأتابكية بالصالحية التي كانت زوجة للملك الأشرف موسى بن الملك العادل ابي بكر ابن أيوب ووقفت مدرستها وتربتها بالجبل» .

وقد رأينا الأستاذ عند كلامه على المسجد رقم ٨٢ بالذيل وهو مسجد المدرسة الخاتونية البرانية« التي كانت باقية الى زمن ابن كنان» يشير الى هذه الحاشية نفسها رقم ٣ بصحيفة ١٣٠ مما يدل على أنه يعتقد ان هذه المدرسة التي يشير اليها ابن كنان وان تربة خاتون بالجبل التي يذكرها ابن عبد الهادي هما هذه الأتابكية التي بنتها زوجة الملك الأشرف وجعلت تربتها بها

فاذا علمنا أن المدرسة الأتابكية (ويسميها العامة بدمشق التابكية أو التابتية) بجادة بين المدارس تقع شرقي دار الحديث الأشرفية ومكانها معروف مشهور ولها مأذنة مربعة ضخمة فلا ندري كيف يمكن في الوقت نفسه أن يضعها الأستاذ بين المدرسة المرشدية وزاوية الفرنثي ؟

والظاهر ان الأستاذ كان متسرعاً في كتابته هذه الحاشية فاننا لا نجده يشير اليها عند كلامه في الذيل عن المدرسة الأتابكية صحيفة ١٩١ بل يكتفي بالاشارة الى الهامش رقم ٣ ص ١٥٦ غير أن التوفيق قد خانه أيضاً في هذه المرة فقد وضع هذه المدرسة الأتابكية غربي المرشدية ودار الحديث الأشرفية وعزا ذلك الى النعيمي والحقيقة ان النعيمي يقول في باب المدرسة الأتابكية ج ١ ص ١٧١ وكذلك العلموي ص ١٦

المدرسة الأتابكية : غربيها المدرسة المرشدية ودار الحديث الأشرفية .

ويذكر الأستاذ تاريخ وفاة هذه السيدة الأتابكية في هذه الحاشية سنة ٧٤٠ والحقيقة انه سنة ٦٤٠ كما عاد وذكره بالذيل بصحيفة ١٩١ وكان من الممكن أن يشير اليه في باب التصويبات بآخر الكتاب ان كان من سبيل الخطأ المطبعي ، ولكن الذي نعتقده انه اعتمد على الرواية الخاطئة في منادمة الأطلال ج ١ ص ١٠٤ ومختصره المخطوط لبدران فصل المدرسة الأتابكية أو على ما نقله النعيمي عن الصفدي الذي انفرد بذكر تاريخ وفاتها في ربيع الأول ٧٤٠ وان كان النعيمي قد حرص على تصحيحه فنقله مصححاً ٦٤٠ عن العبر للذهبي . ولو انتبه الأستاذ قليلاً لهذا الأمر لأدرك أنه ليس من المعقول أن يتوفى الملك الأشرف موسى سنة ٦٣٥ وتتأخر وفاة زوجته تركان خاتون الأتابكية عنه — وهي صاحبة هذه المدرسة — الى سنة ٧٤٠ أي بعد وفاته بنحو ١٠٥ سنوات .

ونتيجة ذلك ان المدرسة الأتابكية ليست هي الخاتونية البرانية التي يعنيها العلموي ويذكرها الأستاذ بالذيل تحت رقم ٨٢ وليست هي التي يقصدها ابن شداد وابن عبد الهادي بقوله « الخامس مسجد تربة الخاتون بالجبل » . ولا يمكن ان يكون موقعها بين

قبة الفرنثي والمدرسة المرشدية لتجاور البنائين بل والتصاقهما .

الخطأ الثالث : نعود الى ما نقله الأستاذ أسعد عن العلموي خاصًّا بمسجد الخاتونية البرانية ذي الرقم ٨٢ بالذيل ص ٢١١ ونصه :

« قال العلموي أول من هدمها (أي المدرسة الخاتونية البرانية) ونقل رخامها الى مدرسته سيباي » اﻫ .

ومعنى ذلك أن هذه المدرسة ذات الرقم ٨٢ التي اخترع الأستاذ وجودها بين زاوية الفرنثي والمدرسة المرشدية بصالحية دمشق كانت موجودة في هذا الموضع الى أن هدمها الأمير سيباي كافل دمشق وآخر حكامها من قبل السلاطين المماليك قبل الفتح العثماني للشام ومصر .

وهذا خطأ فاحش كنا نربأ بالأستاذ أسعد طلس أن يقع فيه لأن هذه الخاتونية البرانية التي عناها العلموي والتي نقل رخامها سيباي أمير دمشق ونائبها لم تكن تقع بين هذين الأثرين المتلاصقين .

كما أنها ليست هي المدرسة الأتابكية كما ظنَّ الأستاذ خطأً . ولا علاقة لها « بمسجد تربة الخاتون بالجبل » الوارد ذكره بص ١٣٠ وحاشية رقم ٣ بهذه الصحيفة كما خيل للاستاذ.

بل لا علاقة لها بالصالحية أصلاً ولا توجد بها ويكفي ذكر كلمة بالجبل في تحديد موقع « مسجد تربة الخاتون » لانتفاء أن يكون هذا المسجد الذي بالجبل هو نفسه مسجد الخاتونية البرانية الذي عناه العلموي بعبارته السابقة .

ونتقدم نحن الآن لايضاح حقيقة ما قصد اليه العلموي من أمر هذه المدرسة فنقول : ان هذه المدرسة الخاتونية البرانية هي المدرسة الحنفية التي أوقفتها زمرد خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دقاق المتوفاة سنة ٥٥٧ ﻫ بالمدينة المنورة والمدفونة بالبقيع الغرقد .

يقول أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي من علماء القرن التاسع في كتابه نزهة الأنام في محاسن الشام ص ٧٦ — ٧٧ :

« المنيبع محلة وسويقة وحمام وأفران وبها مدرسة الخاتونية وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها (نهر) بانياس ونهر القنوات على بابها ولها شبابيك تطل على المرجة وبها ألواح الرخام لم يسمح الزمان بنظيرها وعدة (من) خلاوي الطلبة . وبجوارها دار الأمير الأصيل (ابن منجك) رحمه الله تعالى . . . . وهذه المحلة من محاسن دمشق . اﻫ .

ونقل الشيخ عبد القادر بدران في مطول المنادمة المخطوط بالجزء الاول ص ٢٢٦ ومختصره المخطوط أيضاً عن ابن المزلق في تحفة الأنام مثل ما رويناه ..... وقال :

« والحاصل ان هذه المدرسة كانت بالشرف القبلي ثم اندرست وذهبت » اه

وقال ابن كثير ج ١٢ اص ٣١٨ .. « كان يعرف ذلك المكان بتل الثعالب » اه

وقال الصفدي : « وهذه المدرسة بأعلا الشرف القبلي »

وقال العدوي في مختصر الدارس المخطوط ص ٥٦ :

هذه الخاتونية هي شمالي نهر بانياس مطلة على الميدان الأخضر وكانت قبلة بمأذنة وبئر الى آخر وقت الجراكسة وأوائل الدولة العثمانيـة وأول من خربها وأخـذ رخامها ومن جملته رخام المحاريب سيباي ووضع ذلك بمدرستـه الكائنة بباب الجابيـة الملقبة بجمع الجوامع .. اه

وفي مخطوط الدارس للنعيمي فصل مطول عن هـذه المدرسة بالجزء الأول ص ٧٣٣ وما بعدها ... ومنه يتضح ان تاريخ وقف هـذه المدرسة هو سـنة ٥٢٦ ﻫ وان زمرد خاتون أوقفتها على الشيخ ابي الحسن علي البلخي وهو اول من ذكر الدرس بها ...الخ

***

هذه هي المدرسـة الخاتونية البرانية التي عنـاها العدوي وهي كما قال صراحة تقع « شمالي نهر بانياس » وتطل على الميدان الأخضر فأين الميدان الأخضر من سكة بين المدارس بالصالحية ؟ وأين الشرف القبلي جنوبي بردي من جبل قاسيون بأقصى شمالي المدينة ؟

وأين زمرد خاتون المتوفاة سنة ٥٥٧ ﻫ والتي أوقفت مدرستها سـنة ٥٢٦ ﻫ من تركان خاتون الاتابكية المتوفاة سنة ٦٤٠ ﻫ ؟

ان على الاستاذ أسعد أن يتفضل باجابتنا مشكوراً عن هذه الاسئلة جميعاً .

وقد سميت هذه المدرسة بالخاتونية نسبةً للخاتون أي السيدة التي بنتها وسميت البرانية لوقوعها على الشرف القبلي جنوبي نهر بردي خارج أسوار المدينة ويمتد هذا الشرف كما شاهدناه من شارع النصر المسمى سابقاً شارع جمال باشا حتى طريق المزه غرباً. وقد كان من نزه دمشق لارتفاعه واشرافه على نهر بردي الذي يجري بينه وبين الشرف الشمالي . وقد كان يزخر بالمساجد والمدارس وكانت جميع المدارس الموجودة به يطلق عليها لفظ البرانية أي الواقعة خارج الاسوار كالمدرسـة الظاهرية البرانية التي بناهـا الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي والخـانقاه النجيبية البرانيـة التي انشأها جمال الدين اقوش النجيبي والمدرسة الأسدية البرانيـة التي انشأها أسد الدين شيركوه وغيرها .

له بقية — القاهرة

المهير محمد رجب



سر المريخ

اقترب المريخ من الارض في سنة ١٩٣٩ ، فجدد عناية الفلكيين به . ذلك بان المريخ من جيران الارض الاقربين في النظام الشمسي . والمريخ ، ولو انه يقترب من الارض في كل خمس وعشرين سنة ، الا أن مقدار اقترابه منها يختلف اختلافاً كبيراً تبعاً لغرابة فلكه وتذبذبه ، فيتراوح مقدار اقترابه من الارض بين ٣٥ و ٦٣ مليون ميل . أما أنسب الاوقات التي تلائم رصد هذا السيار فتقع في فترات تقع بين ١٥ و ١٧ سنة . فقد اقترب المريخ من الارض في ٢٣ من اغسطس سنة ١٩٢٤ حتى صار على ٣٤٫٦٣٧٫٠٠٠ ميل منها ، وهي أقل مسافة يمكن أن تفصل بين سيارين من سيارات النظام الشمسي . وفي شهر يوليه من تلك السنة كان بعده عن الارض لا يتجاوز ٣٦٫٠٢٢٫٠٠٠ ميل ، وبعد سبعة عشرة سنة سيعود المريخ الى هذا الموضع ثانية .

لا تقوى المقارب[1] الحديثة على استجلاء أشباح على سطح المريخ يقل امتدادها عن ٢٥ ميلاً ، حتى لو بلغ قرب المريخ من الارض مبلغه في سنة ١٩٢٤ ، لهذا كان البحث عن وجود آثار للحياة هناك أمرٌ استنتاجي ، وعلمنا به يكون بالواسطة لا بالاصالة . ولوجود الحياة في المريخ علاقة كبيرة بدرس الحالات الطبيعية القائمة فيه . ولقد نجح الفلكيون في معرفة الكثير من هذه الحالات ، غير ان بحوثهم الحديثة لم تقرّبنا من حل ذلك اللغز . فتركتنا بحوثهم حيث كنا منذ ربع قرن مضى

ان الصور الضوئية التي استخدمت فيها الاشعة الدونيحمراء[2] والفوقبنفسجية[3] التي حصل عليها (رايت)[4] في مرصد (ليك) بكاليفورنيا سنة ١٩٢٦ ، قد أثبتت أن للمريخ جواً ينتشر صعداً فوق سطح السيار ستين ميلا . والتحليلات الطيافية[5] التي قام بها أدمس[6] وسان جون[7] ودنهام[8] في مرصد جبل ويلسون ، قد أبانت عن أن

(١) Telescopes (٢) Infra-red (٣) Ultra-violet (٤) Wright (٥) Spectroscopic analysis

حل الاضواء المنبعثة من النجوم الثوابت والسيارات لمعرفة حقيقة المواد التي تتكون منها

(٦) Adams (٧) St. John (٨) Dunham

جو المريخ يحتوي بخاراً نسبته ثلاثاً في المئة من كمية البخار الذي يحتويه جو الارض، وبه اوكسجين أقل واحداً في المئة من الاوكسجين الذي في جو سيارنا

والقياسات الحراريكهربية[١] للاشعاع المرّيخي التي عملت في مرصدي لويل وجبل ولسون قد أبانت عن أن حرارة الظهيرة في منطقة الاستواء المريخية تتراوح بين ٣٠ و ٨٠ درجة فارنهايت ، تبعاً لاقتراب السيار من الشمس أو بعده عنه . واللمعان العالي الدائم الذي ينبعث من جو المريخ ينزع بنا الى القول بأن انخفاض درجة الحرارة الى حد الجليد ، لا بدّ من أن يقع وشيكاً في سطح هـذا السيار بعد غروب الشمس مباشرةً ، حتى في أشد المناطق انخفاضاً . ووفقاً لذلك قضى الفلكيون بأن جارنا المريخ ليس موافقاً للحياة على الصورة التي نعرفها . ولـكن مثل هذا القول لا يحل المشكلة ، ولا يخرجها من مجال البحث .

قد يرد الى أذهننا سؤال : لماذا يتجه فكرنا الى المريخ كلما جدَّ البحث عن الحياة في اجرام السماء ، وما المريخ الاّ كرة صغيرة من آلاف الكرات المنثورة في الفضاء ؟ هنالك أسـباب كثيرة ، ولـكن أهمها هو موقع المريخ من النظـام الشمسي ، إذ هو السيار التالي للارض من حيث البعد عن الشمس ، وموقعه هذا يجعل رصده أهون وأجدى من رصد غيره . ولـكن ما بال الزهرة Venus وهي قد تقترب من الأرض فتصير منها على بعد لن يصل اليه المريخ ؟ ولـكن للمريخ ميزة على الزهرة . ذلك بأن الزهرة قريبـة جدًّا من الشمس فوقعها غير ملائم لظهور الحياة . ناهيك بأنها مهما اقتربت من الأرض فانها لا ترينا الاّ وجهها المظلم ، أي الذي لا تقع عليه أشعة الشمس ، ولا تسمح المقارب[٢] أن ترى غير هذه الناحية منها . أضف الى ذلك أن عطارد والمريخ هما السياران الوحدان في النظام الشمسيّ اللذان يمكن الفحص عن سطحهما . فان غيرهما من السيارات مغلّفة بغلالة سميكة من السحب تخطر في جوّها بحيث لا يمكن اختراقها الى السطح بحال .

عُـطارد قريب جدًّا من الشمس ، بحيث لا يمكننا أن نتصوَّر وجود أي صورة من صور الحياة فيه على ما نعرف من خصائصها . ان حرارة عطارد بالنسبة الى قربه من الشمس تكفي لصهر الرصـاص ، وهذه الحرارة تتناوب على وجهيه سنة بعد أخرى . وهو يتوجه الى الشمس بنصف كرته سنة ، وسنة أخرى بنصفه الآخر . فالنصف الذي يتعرَّض الى الشمس تشويه الحرارة شيًّـا ، حتى لقد يصبح سطحه في حرارة الرصاص المذاب . أما

(١) Thermo-electric (٢) Telescopes

النصف الذي لا يكون معرَّضاً للشمس فيكون في ظلام دامس ، وتهبط حرارته حتى تبلغ ٤٥٠ درجة تحت الصفر . فلم يبقَ إذن غير المريخ من سيار يتوجه نحوه أهل الأرض بالبحث عن آثار الحياة .

دورة المريخ من حول الشمس تجعل فيه فصولاً إقليمية كفصول الأرض . ولا شك في أن هذه الفصول أبرد من فصول الارض لبعد السيار عن الشمس . وهي أطول مدًى لأن سنة المريخ سنتان أرضيتان تقريباً . وإذا كان في المريخ أقاليم ينبت فيها الزرع وهي تستمد طاقتها الحيوية من حرارة الشمس ، فلاشك نتوقع أن سطحه يكون عرضة للتغيرات الموسمية . ذلك بأن الزرع على سطح الأرض إذ يزدهر في الربيع ، ويصيبه السبات في الشتاء ، فان حاله يكون كذلك في السيارات الاخرى ، بأن يجري على دورات من الازدهار والسُّبات ، إذا تعرَّض لحالات تشابه حالات الارض .

ونحن إذ نرى المريخ يضيء كأنه نجم أحمر اللون في السماء في أثناء الليل ، نظن أن هذا اللون هو لون سطحه الحقيقي . ان اللون الاحمر يستغرق ثلثي حجم المريخ ، في حين أن الثلث الآخر هو عبارة عن ندوب سود كبيرة وصغيرة متفرقة على سطحه هنا وهناك ، كما انها تختلف شكلاً وظلاً ، وهي فوق ذلك متغيرة غير ثابتة .

فاذا تقدم النصف الشمالي من المريخ نحو الربيع فان معظم مساحته تلبس لوناً أزرق الى الخضرة . ويكون هذا اللون باهتاً حائلاً أول الامر ، ثم يشتد شيئاً بعد شيء ويستمر كذلك الصيف بطوله . فاذا أقدم فصل السُّبات أخذ ذلك اللون الازرق المخضرّ في الزوال تدرجاً ، حتى اذا أناخ الشتاء على تلك الاصقاع استحال الى الدكنة . ذلك في حين أن الندوب السود في النصف الجنوبي تجري على نفس هذه الدورة ، ولكن باختلاف في زمن الاكتساء باللون . فالزرقة في الشمال تقابلها دكنة في الجنوب ، والدكنة في الجنوب تقابلها الزرقة في الشمال . وهذه الدورة مستمرة التناوب في مناطق المريخ .

من الجائز ان الانسان يستطيع أن يعلل هذه التغيرات بحيث يردها الى آثار غير عضوية ، ولكن أهون تعليل وأكثر التعليلات مسايرة للمنطق هو القول بأن هذه الندوب السود انما هي مساحات واسعة يكسوها الزرع . ويكاد الفلكيون يجمعون على هذا القول .

ولكن ماذا يقول العلم عن ذوات عاقلة في المريخ ؟ إنه لا ينكر ولا يقرر ، لا يثبت ولا ينفي .



الارواح

أبى حضرة الفاضل الأستاذ نقولا الحداد إلاَّ أن يكتب مرة أخرى في موضوع الروح معارضاً حقيقة تحضير الأرواح منكراً أن للانسان روحاً . الأستاذ نقولا الحداد يرى أن شخصه آلة تحركها وتسيرها تفاعلات كيميائية الى آخر ما قال . وهو لا يعترف بروح أو نفس ، ويعتمد في كل ذلك على ما قرأه هو وتلقاه من كتابات علماء القرن التاسع عشر ومن ردَّدها من علماء القرن العشرين . وهو يدعي في جرأة غريبة أنه اطلع على مؤلفات جينز وانشتين وادنجتون (وهم من سماهم بلغته الفصحى تجينز وأينشطين وإدنغتون) بل لقد قال إنه اطلع على مؤلفات غير هؤلاء من أمثال بلانك وسير أوليفر لودج ... الخ . وقال في جرأة أشد وأغرب « ولم أر أنهم نادوا بانهيار مذهب آلية الكون لحطموا الكون المادي تحطيماً » وأنكر أن الكون المادي تبخر في ضوء علم الفيزيقا الحديثة ، وتهكم على ذلك بقوله « نعم لم يصل هذا إلى علمي لأنه لا هو (يريد ني أنا) ولا أنا تحطمنا وتبخرنا مع أننا نحن من الكون المادي » . أرأيت البلاقة والحجا ؟ ! ومضى يستنتج في منطق غريب اني أعني « أن المادة غير موجودة وان الروح وحدها موجودة » مع اعترافه بأني قلت إن الروح مادة . وطلب أن أرشده إلى مؤلف يتبسط في هذا الموضوع . ولما جئت له بكلام اينشتين الذي يعترف فيه بوجود الأثير ، عاد فاستدرك انكاره هو قائلاً انه اطلع « على بعض ما كتبه اينشطين » مع أن الأستاذ نقولا هو مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » وكان يوم أصدر هذا الكتاب ، يسمى صاحب نظرية النسبية أينشتين لا أينشطين .

واما أن الأستاذ نقولا الحداد لم يطلع على مؤلفات جينز وأينشتين وادنجتون الخ . أو انه اطلع عليها كلها أو بعضها ولم يفهمها فاليه الدليل : —

أولاً — عن العلامة جينز ونبدأ بالكتب التى ذكرها مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » في ثبت المراجع التي استعان بها في التأليف .

١ — في كتاب « الكون الغامض » ترجمة وزارة المعارف وقد قام بها زميلي الأستاذ عبد الحميد حمدي مرسي يوم كان وكيلاً لادارة الترجمة ، وراجع الترجمة العلامة الدكتور مشرفة بك عميد كلية العلوم — نرى المؤلف يقول « وعندما حاول العلماء منذ مائة عام أن يفسروا العالم تفسيراً آليـًّا لم ينبر لهم رجل حكيم يؤكد لهم أن النظرة الآلية لا بدَّ من أن يخطئها

التوفيق في آخر الأمر ، وان الظواهر الكونية لن يكون لها معنى إذا لم تعرض عرضاً رياضيًّا بحتاً » . الى أن قال «وها قد بدأ الكون يتضح مما في خلق الكون نفسه من دليل أن مبدع الكون الأعظم عالم من علماء الرياضة البحتة » . ولما علق على فلسفة باركلي القائلة بوجود روح أبدي خالق قال«وسواء أكانت الأجسام موجودة في عقلي أم في عقل أي روح من الأرواح المخلوقة الأخرى أم لم تكن، فان شيئيتها تنتج من وجودها في عقل روح أبدي» . وقبيل ختام هذا الفصل الأخير في الكتاب قال « بدأ الكون يلوح أكثر شبهاً بفكر عظيم منه بآلة عظيمة » .

٢ — وفي كتابه « الكون الذي حولنا » نراه بعد استعراضه بعض الآراء الفلسفية الخاصة بتصوير الكون يقول : ان هذا يقرّبنا كثيراً الى تلك المذاهب الفلسفية التي تعتبر الكون فكرة في عقل خالقه ، وبذلك يختزل جميع النقاش بالخليقة المادية الى سخف عديم الاعتبار »

٣ — وفي كتابه « الوراء الجديد للعلم » يقول : « كان رأينا الأخير في الطبيعة قبل شروعنا في أن نخلع عنا نظاراتنا الآدمية أنها خضم من الآلية يحيط بنا من جميع الجهات . ولكنا حين بدأنا نخلع بالتدريج نظاراتنا وجدنا المدركات الآلية تتداعى مخلية الطريق للمدركات العقلية ... الخ » .

هذا ما جاء في الكتب التي استشهد بها صاحب « هندسة الكون » . أما عن التي لم يستشهد بها من مؤلفات جينز فاليه ما يلي : —

٤ — في كتاب « علم الفلك وعلم تكوين العالم » نرى جينز قد ختمه بهذه العبارة : « لنعلم إذاً أن الجنس البشري في بداية وجوده ، فهو اذا قسناه بمقياس الزمن الفلكي لايكون قد عاش إلاّ بضع لحظات قصار ، وانه قد بدأ ينظر الى الكون الخارجي عنه هو نفسه . وإخال أنه يكاد يكون من المتعذر عليه أن يفسر ما يحيط به تفسيراً حقيقيًّا في تلك اللحظات القليلة الأولى التي منها تفتحت عيونه » .

٥ — فلما تفتحت العيون تكلم جينز في كتابه « الفيزيقا والفلسفة » الصادر سنة ١٩٤٣ صراحة على انهيار المذهب الآلي في الفصل الرابع وعنوانه « انقضاء العصر الآلي The Passing of the Mechanical age » وفي الفصل الأخير الذي عنوانه « بعض مسائل الفلسفة » نرى جينز تحت عنوان فرعي هو « المظهر والحقيقة » يقول : « ان عالم المادة يتألف من عالم الشهادة كله ، ولكنه لا يحتوي على عالم الحقيقة كله . ويصح أن نقول إنه مجرد مقطع في عالم الحقيقة » .

ثانياً — عن العلامة ادنجتون وقد استشهد الأستاذ نقولا بمؤلفاته .

١ — في كتاب « طبيعة العالم الفيزيقي » نرى ادنجتون قد استهله بفصل عنوانه : « انهيار الفيزيقا الكلاسيكية » تحدَّث فيه عن تكوين الذرَّة فقال في الصفحة الأولى « اذا نحن محونا كل الفضاء الخلاء في جسم الانسان وجمعنا بروتوناته وإلكتروناته لتكون كتلة واحدة، فان الانسان يختصر الى هباءة تكاد لا ترى إلاَّ بمنظار مكبر » .

٢ — وفي كتابه « المسالك الجديدة في العلم » نرى ادنجتون قد تكلم في الفصل الأخير كلاماً صريحاً عن « طبيعة الانسان الروحية » وعن « الحقيقة الروحية » منكراً أن الانسان آلة .

٣ — وفي محاضرته المطبوعة عن « العلم والعالم غير المنظور » نراه قد قال « لابدَّ لروح الانسان من أن تعود الى العالم غير المنظور إذ أنها تخصه » .

ثالثاً — في كتاب « تطور الفيزيقا » لمؤلفيه اينشتين وانفلد، نرى موضوع الجزء الأول من الكتاب « قيام المذهب الآلي » ونجد موضوع الجزء الثاني منه « انهيار المذهب الآلي » وقد قال المؤلفان في ختام هذا الجزء « إن العلم لم ينجح في المضي بالمنهج الآلي بشكل مقنع ، ولا يوجد اليوم من علماء الفيزيقا من يعتقد في إمكان المضي فيه » .

رابعاً — في كتاب « الكون في ضوء الفيزيقا الحديثة » لمؤلفه العلامة پلانك نراه قد ختمه بهذه الجملة « ان الفيزيقا الحديثة تقرّر لنا بشكل خاص صدق المذهب القديم القائل بأن هناك حقائق ليست في متناول مدركاتنا الحسية ... الخ » . وپلانك هذا من العلماء الذين قرأ الاستاذ نقولا لهم !

خامساً — في كتاب « تركيب الطبيعة » لمؤلفه العلامة أندريد أستاذ الفيزيقا حالاً بجامعة لندن نراه قد صدَّر الفصل الأول الذي عنوانه « ما الفيزيقا » بهذه الجملة : « إن من واجب الفيلسوف أن يفكر في الطبيعة العامة للأحداث المادية والروحية التي منها تتألف حياة الانسان » .

سادساً — لم يكشف العلم بعد شيئاً يصح أن يقال انه خامد ميت حتى لقد قال العلامة هوايتهد في كتابه « العلم والعالم الحديث » : « إن الذرَّة تحوَّلت نفسها الى كائن حي ... »

سابعاً — يقول العلامة السيكولوجي يونج في كتابه « الانسان الحديث يبحث عن نفس » وفي الباب الذي عنوانه « مسألة الانسان الحديث الروحية » ما يأتي : « وحتى الفيزيقا قد بخرت عالمنا المادي ، وإذاً فلا عجب اذا عاد الانسان الحديث فلصق بحقيقة الحياة الروحية مترقباً منها ذلك التثبت الذي أنكرته الدنيا عليه » .

مما مضى يتضح كيف نادى العلماء الذين استشهد بهم أستاذنا نقولا الحداد بانهيار المذهب الآلي ، وفي هذا المعنى تبخر الكون المادي وتحطم يا صاحب « هندسة الكون » !

وغريب من أستاذنا أن يستشهد بكتاب « الأثير والحقيقة » لمؤلفه سير أوليفر لودج، لا لأن هذا الكتاب يعترف صراحة بوجود الأثير ، بل لأن أوليفر لودج هذا من أساطين الروحيين . ففي كتبه « ما وراء الفيزيقا » و « ريموند » و « فلسفتي » قد نادى بالروح وبالحياة بعد الموت وبامكان الاتصال بأرواح الموتى . وفي خطبة له ألقاها سنة ١٩٤٠ قبل وفاته بشهور في قاعة براوننج في ولورث قال يخاطب الحاضرين « أقول لكم اننا باقون بعد الموت ، والتواصل بين الأحياء والموتى ممكن . ولقد أثبت أن الذين اتصلوا بنا هم حقيقة نفس من قالوا انهم هم . والنتيجة أن الحياة بعد الموت من الوجهة العلمية قد أثبت البحث العلمي صدقها » .

وأعود فأقول إن الروح مادة لا تستجيب لها المشاعر ، وهل تستجيب المشاعر للكهارب التي هي أصل المادة ولبناتها ؟ . ولقد صورت الروح في كمبردج وفي المعهد الدولي للبحث الروحي بلندن ، وفي المانيا وفي الولايات المتحدة وكندا وغيرها .

وتوجد كتب كثيرة جداً تبحث في تصوير الارواح وتجسيدها وتسجيل اصواتها المباشرة واكتفي ان أحيل الاستاذ نقولا الحداد الى الكتب الآتية :

ا — « ظواهر التجسد » لمؤلفه الألماني العلامة فون سرنك نوتزنج استاذ البيولوجيا في جامعة ميونيخ

ب — « تصوير غير المرئي بالفوتوغرافيا » لمؤلفه الدكتور كوتس

ج — « تجارب في العلم الروحي » لمؤلفه العلامة واريك

د — « خمسون من سني البحث الروحي » لمؤلفه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية وقد صدر هذا الكتاب بصورة فوتوغرافية لروح متجسدة بعد نبضها أحد اطباء كلية الجراحين بلندن وقد التقط الصورة العلامة السر وليم كروكس

هـ — « التجسدات » لمؤلفه هاري بودنجتون وفيه صورة السير وليم كروكس وهو متأبط ذراع روح متجسدة

و — « موسوعة العلم الروحي » لمؤلفها الدكتور ناندور فودور

ز — « أنباء من العالم الثاني » لمؤلفه القس المحترم تويديل وفيه صور عديدة من بينها صورة فوتوغرافية لروح سير وليم كروكس وبجوارها صورة فوتوغرافية له صورت قبل وفاته

ح — « وساطة جاك وبر » لمؤلفه هاري ادواردز وفيه صور لمختلف الظواهر التي

تمت في كمبردج مصورة بالأشعة تحت الحمراء ومن بينها صورة للوسيط الواقع في الغيبوبة ظهرت معها صورة لروحه المنسلخة منه

ط — « الحياة الآن والى الابد » لمؤلفه الدكتور ولز عميد كليـة العلوم والبحوث الروحية في الولايات المتحدة

ي — « المسألة الـكبرى » لمؤلفه الطبيب البارع الدكتور جورج لندسي جونسون

وسواء كان العلم الروحي هو Psychical Research أو Spiritism فان المعاهد الروحية والعقلية أثبتت وجود الروح بالبرهان العلمي. ولقد وصل العالمان الهولنديان الدكتور ثان زاست والدكتور موالطا الى وزن الروح بجهاز خاص ابتدعاه اسمه « الدينا مستوجراف » وتجد صورة لهذا الجهاز في كتاب « تجارب معمليـة في الظواهر الروحيـة » لمؤلفه العلامة السيكولوجي الدكتور هيريوارد كارنجتون أحد أعضاء لجنة التحكيم في المباراة الخيالية التي أقامتها مجلة « سينتفك أميركان » .

وأؤكد لسيدي الأستاذ نقولا الحداد أنه لا يساير الحركة العلمية العالمية وعلى الأخص في البحوث الروحية ، وأتحداه أن يذكر لي أسماء خمس كتب فقط قرأهـا من كتب العلم الروحي الحديث ظهرت في السنين العشر الأخيرة لأساتذة جامعيين . بل انه لا يتابع الحركة العلمية العالمية في الفيزيقا . وبرهاني على ذلك انه وهو مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » لم يكن قد عرف حتى فبراير من سنة ١٩٤١ كيف أن الجسم اذا تحرك بسرعة الضوء انـكمش الى حيز العدم ، على حين تزيد مادته الى ما لا نهاية . فقد كتب في مقتطف فبراير سنة ١٩٤١ بعد ما قرأ كتابي « الفيزيقا الحديثة » يطلب تعليلاً لما سماه « التناقض العجيب » في نظرية النسبية . وأرجو أن لا ينسى قرائي أنه مؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية » . وقد أوضحت له في مقتطف ابريل سنة ١٩٤١ أنه لا تناقض البتة ، وذلك لأننا نهمل في بحوثنا المادية كل ما يتعلق بغير المدرك من مشاعرنا ، وضربت له على ذلك الأمثال .

ويأبى الأستاذ نقولا الحداد الا أن يكون مفرداً علماً له مصطلحاته العلمية الخاصة . ذلك أنه في كتابه « هندسة الكون » اختار مصطلحات غريبة غير المصطلحات المتعارفة المفهومة في مدارسنا ومعاهدنا العلمية ، وكلياتنا الجامعية . مثال ذلك « الاستمرارية والمسارعة » يريد بهما « القصور الذاتي والعجلة » و « الجو الكهربي والجو المغناطيسي » يريد بهما « المجال الكهربي والمجال المغناطيسي » و « قوة الشرود عن المركز » يريد بها « القوة المركزية الطاردة » و « القوة energy » يريد بها « الطاقة » و « الزمكان » يريد « الزمان » . ذكرت هذا لأنه

استغرب المصطلح « الفترات الفضازمنية Space-time intervals » ويكفي أن أقول إنه في الترجمة العربية التي قامت بها وزارة المعارف لكتاب « الكون الغامض » سالف الذكر قد أختير المصطلح «الفضاء والزمن» مقابلاً المصطلح space-time .

***

ونعود الى الحادث الذي أثار هذه المناقشة وهو حادث رؤيا رفعة حسنين باشا ، فنؤكد له أنه حقيقي،وأن رفعة حسنين باشا لم يكذبه حتى بعد أن طلب الاستاذ نقولا الحداد في المقتطف وفي التعليل الذي نشره المقتطف لنا حوادث مشابهة . وأما القول بأن الحادث وهم وخداع فهروب من التعليل بشكل لا يليق بمؤلف كتاب « هندسة الكون بحسب ناموس النسبية» وإن يكن هذا الهروب بذلك الشكل المضحك لا يمكن أن يضاهي بما سماه « التناقض العجيب» في نظرية النسبية ! !

ونسأل أستاذنا الكبير نقولا الحداد أن يعلل لذلك الحادث الذي وقع لسعادة الدكتور نجيب محفوظ باشا وقد أنبأنا به حضرة الطبيب الفاضل الدكتور مصطفى شعراوي بك . وخلاصة ذلك الحادث ان الدكتور نجيب باشا دعى مرة لتوليد إحدى الاميرات ، وكانت الولادة عسرة . ومكث شطراً كبيراً من الليل يجاهد حتى تعب ، فجلس ليستريح ، فأخذته سنة من النوم ، فرأى في منامه المرحوم ولده يبشره بأن الاميرة قد وضعت ويدعوه أن يتم اجراءات الولادة . فاستيقظ الدكتور على الفور ، واذا به يجد الاميرة قد وضعت فعلا ، فأجرى الاسعافات اللازمة لها وللمولود . ولما اطمأن ارتدى ملابسه وغادر قصر الاميرة الى داره . فلما دخل داره وجد كريمته يقظى ، وما إن رأته حتى أقبلت عليه وسألته في لهفة قائلة « هل ذهب اليك ؟» فدهش وقال متجاهلاً «من؟» قالت«شقيقي» فلقد زارني في الحلم وقال لي إنه ذاهب لكي يسري عنك ويبشرك بأن الأميرة قد وضعت». قال « نعم لقد زارني ونبهني، وبارك الله لنا فيه حيًّا وميتاً » .

هيا علل لهذا الحادث أيها الصيدلاني المتبحر في علوم الارض والسماء ، والمتتبع الحركة العلمية العالمية . هيَّا واستفسر أولاً من سعادة الدكتور عن صحة ذلك الحلم ، وحذار أن تنسبه للوهم والخداع والعقل الباطن الذي أنكره جماعة السيكولوجيين وفي مقدمتهم مكدوجل ويونج وفرويد نفسه . وعد الى كتابنا الحديث « السيكولوجيا والروح» ففيه البيان القاطع . ولا نخالك إلاَّ متفقاً معنا في أن الكرا وخاصة باستخدام الاشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية في البحوث العلمية لا تنخدع ، وبنوع أخص إذا أجريت التجارب في كمبردج تحت رقابة علمية شديدة . وجهاز « مخدع واسن » الذي صورت به

سيول الكهارب ثم صورت به أرواح الحيوانات عند موتها ، لا بدَّ أن يكون صادقاً في الحالتين .

ولقد دقَّ ناقوس البشائر فعلاً بظفر البحث علميًّا بالروح ، ويخيل الينا أن إكباب الاستاذ نقولا الحداد على هندسة الكون واشتغاله بها لم يترك له وقتاً للقراءة والبحث . وانه لواجد البرهان العلمي العملي عند صديقه وزميله الدكتور صابر جبرة كبير صيادلة مستشفى قصر العيني . نعم ليسأله يحدثه كيف أن الارواح أبرأت السيدة حرمه من ذلك المرض المستعصي القاتل Myasthenia Gravis بعد أن عجز الطب والعقاقير عن ابرائها . سله يا سيدي الاستاذ نقولا يحدثك عن الاشعاعات والاضواء الروحية التي كانت تعالج بها . سله يحدثك عن الارواح المعالجة وكيف تيسر لمن معه رؤيتها سواء أكان العلاج عن بعد أم عن قرب . وكذلك سل الدكتور شوقي نخلة طبيب مستشفى الاقصر كيف أبرأته الارواح من أخبث حالات اكتهاف العمود الفقري وهو النوع المسمى Syringo-bulbia بعد أن أشرف على الموت ، وهو سيحدثك عن تلك الاضواء التي رآها تنصب عليه . بل سل كذلك حضرة الطبيب الفاضل الدكتور منير الجزائرلي أستاذ الباثولوجيا بكلية الطب بجامعة فاروق الاول عن الارواح التي يراها ، وسله كيف رأى عندنا الارواح المعالجة وما تحمل من أجهزة أثيرية تستحدث بها مختلف الاشعاعات . واقرأ يا سيدي عددي مجلة « سايكك أوبزرفر » الامريكية رقم ١٥٨ بتاريخ ١٠ ابريل سنة ١٩٤٥ ورقم ١٦٢ بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٩٤٥ تجد كيف أن طبيباً توفي منذ تسعة عشر عاماً قد تجسد وهو روح أمام أطباء وصحفيين وأجرى عملية استئصال الزائدة الدودية بنجاح في الظلام بغير مبضع الجراح وعقاقير الصيدلي . وأثبت الكشف بالاشعة السينية قبل وبعد العملية وجود الزائدة ثم اختفاءها ثم وجودها في قارورة ملأى بالكحول أعدت من قبل كطلب ذلك الطبيب الجراح الميت الحي . وكان ذلك في البرازيل . وقد كتب قنصل الولايات المتحدة المساعد تقريراً مصوراً نشرته المجلة في العدد الثاني المذكور . وأشارت مجلة « سايكك نيوز » اللندنية الى ذلك في عددها رقم ٦٧٦ بتاريخ ٥ مايو سنة ١٩٤٥ وعادت فذكرت في عددها رقم ٦٨٩ الصادر بتاريخ ٤ أغسطس سنة ١٩٤٥ أن هذا الطبيب « الميت » قد تجسد روحه ثانياً وأجرى عملية أخرى لاستئصال الزائدة الدودية أمام جمهور من بينهم ثمانية من الأطباء نصفهم من الجراحين ، وأن أحد هؤلاء الجراحين ابن لذلك الطبيب الميت . وهذا الطبيب الميت الحي هو الدكتور أمارال ! !

بقيت مسألة هوديني غفر الله له فأقول لسيدي الاستاذ نقولا الحداد « صحّ النوم » .

عد يا سيدي الى كتاب « ظواهر حجرة تحضير الأرواح » لمؤلفه العلامة الطبيب الدكتور باورز أستاذ الأمراض العصبية في منيابوليس ، وقد نقلنا هذا الكتاب الى العربية ، وإلى مجلتي الهلال والعلوم تتضح لك حقيقة هوديني الوسيط الروحي المتساحر . ويجب أن نفرق بين وساطته وشعوذته . ويكفي أن أقول إن لهوديني كتاباً اسمه « ساحر بين الأرواح » كتبه ليهاجم به الروحية ، وقد قال عنه العلامة هاري برايس سكرتير مجلس جامعة لندن للبحوث الروحية في كتابه « خمسون من سني البحث الروحي » إنه « عبارة عن مجموعة حيل وألاعيب لا يجرؤ على استعمالها أي وسيط مدلس خارج مستشفى المجاذيب » .

وفي عدد مجلة « سايكك أوبزرفر » الأمريكية رقم ١٦٠ الصادر بتاريخ ١٠ مايو سنة ١٩٤٥ نرى نصاً لمحاضرة أذاعها الوسيط الروحي آرثر فورد من راديو ميامي في فلوريدا عن « الروحية كعلم ودين » . وفورد هذا هو رئيس الجمعية الدولية العامة للروحيين ومدير جمعية فلوريدا الروحية بهوليوود ، وهو الوسيط الروحي الذي فضح هوديني ، واستحضر روحه بعد وفاته واستخلص منه الرسالة الشفرية المتفق عليها بينه وبين زوجه مسز هوديني . وقد نشرنا بالزنكوغراف اعتراف مسز هوديني بصحة الرسالة ممهوراً بامضائها . بل لقد نشرنا اعترافاً لهوديني نفسه قبل وفاته بأنه هو نفسه وسيط روحي . وهوديني هذا لما استغل وساطته لجمع المال والتشهير بالروحية غير عابئ بنصيحة الأرواح المهيمنة عليه هجرته هذه الأرواح وراح ضحية إحدى ألعابه الخارقة وكان يجريها في جامعة مكجيل بأمريكا ، فخرج مغلوباً على أمره الى المستشفى ثم الى القبر .

مرة أخرى « صح النوم » يا سيدي المساير للحركة العلمية العالمية .

يا سيدي الأستاذ نقولا الحداد ، ، كان من بين الأساتذة في جامعة وارسو أستاذ له مكانة علمية خاصة هو العلامة أوكوروفكز ندّد بالعلامة سير وليم كروكس حين جهر بآرائه الروحية التي ظهرت مطبوعة في كتابه الفذ « بحوث في ظواهر الروحية » . فانظر ماذا قال بعد ذلك . لقد قال : —

« انني حين أذكر كيف أني رميت بالخرق والغباء والحمق ذلك الباحث الشجاع كروكس لأنه كان لديه من الشجاعة ما وكد به صدق الظواهر الروحية، فانني أخجل من نفسي ومن غيري وأصيح من أعماق قلبي : اغفر لي يا أبي : فلقد أجرمت في حق النور » .

احمد فهمي أبو الخير

مدير السينما الثقافية بوزارة المعارف



تقسيم تاريخ مصر القديمة

اعتاد علماء التاريخ المصري القديم أن يقسموه الى عصور رئيسة أطلق على كل منها اسم معين. غير اننا لو تعمقنا في دراسة التاريخ وآثاره نرى ان معظم هذا التقسيم الشائع بتسميته غير مطابق للحقيقة والواقع.

فالعصر الأول: يقصد به الفترة التي يرجع تاريخها الى ما قبل الأسرة الأولى وأطلق عليه «عصر ما قبل التاريخ» على أساس أن التاريخ يبدأ عند وجود الكتابة ويعتمد على النقوش المدونة فقط.

على أنه لدينا بلاداً لم تعرف الكتابة قديماً، وأخرى عرفت الكتابة ولم نستطع قراءتها، وبالرغم من هذا فلها تاريخ. فتكون الكتابة وتدوين الحوادث اذن ليست الوسائل الوحيدة للتاريخ، بل هناك وسائل أخرى أساسها علم الانسان، وعلم الحيوان، وعلم طبقات الأرض، وعلم الآثار. وقد أرشدتنا هذه العلوم مجتمعة الى معرفة تاريخ هذا العصر الطويل الذي يبدأ من حوالي سنة ٨٠٠٠ قبل الميلاد الى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، كما أن هذا العصر أول قسم نبدأ به تاريخنا لذلك كله نطلق عليه اسم «فجر التاريخ».

العصران الثاني والثالث: يطلق الأول منهما على عصر الأسرة الأولى والثانية ويسمى بالعصر العتيق، والآخر على عصر بناة الاهرام من الأسرة الثالثة الى السادسة ويسمى باسم الدولة القديمة، فيقتطع أصحاب هذا الرأي الأسرتين الأولى والثانية بدعوى أن المرجع في تحديد ذلك الى بناء الاهرام.

لكننا نرى ان الدولة القديمة تبدأ من الأسرة الأولى وتستمر الى الأسرة الثامنة أي من حوالي سنة ٣٢٠٠ ق. م. الى سنة ٢٢٤٥ ق. م. لأن بناء الاهرام لا يجب أن يوضع في المكان الأول ويتخذ أساساً لتقسيم دول التاريخ المصري القديم، وانما التقسيم كان قائماً على التوحيد السياسي للبلاد تحت رعاية ملك واحد، بعد ان كانت عبارة عن ولايات مفككة، والذي كان من نتائجه ان أصبحت البلاد جميعها ملتفة حول العرش رمز البلاد. ولقد تمت

وحدة مصر الأولى على يد الملك مينا (نعرمر) أول ملوك الأسرة الأولى حوالي سنة ٣٢٠٠ ق. م. ونطلق عليه اسم « عصر الوحدة الأولى » .

العصر الرابع : وهو العصر المتوسط الأول ويشمل الاسرات السابعة الى العاشرة في نظر المؤرخين ولكن أشرنا سابقاً بأن عصر الوحدة الأولى ينتهي بالاسرة الثامنة ونضيف الآن بأنه من الاسرة التاسعة الى منتصف الحادية عشر نطلق عليه اسم « عصر تفكك الوحدة الاولى » وذلك لأن التوحيد السياسي قد تفككت أوصاله في هذه الفترة من ٢٢٤٥ ق . م الى ٢٠٧٠ ق . م

العصر الخامس : يطلق عليه المؤرخون عصر الدولة الوسطى ويشمل من أول الاسرة الحادية عشر الى آخر الاسرة الثانية عشر، ونرى هنا أن الوحدة السياسية قد عادت الى البلاد على يد الملك « نب حبت رع » منتوحبت الثاني حوالي سنة ٢٠٧٠ق . م . أي من منتصف الاسرة الحادية عشر، واستمرت حتى منتصف الاسرة الثالثة عشر (حوالي سنة ١٧٥٧ ق.م) ونسميه عصر الوحدة الثانية »

العصر السادس : ويطلق عليه العصر المتوسط الثاني ويشمل من الاسرة الثالثة عشر الى آخر الاسرة السابعة عشر. ونحن هنا نسميه عصر تفكك الوحدة الثانية من منتصف الاسرة الثالثة عشر الى الاسرة الخامسة عشر أي من سنة ١٧٥٧ ق . م الى سنة ١٧٣٠ق . م وعصر حكم الغزاة الهيكسوس من حوالي سنة ١٧٣٠ ق . م الى سنة ١٥٨٠ . ويشمل من الاسرة الخامسة عشر الى الاسرة السابعة عشر .

العصر السابع : عصر الدولة الحديثة ويبدأ من الاسرة الثامنة عشر الى أواخر الاسرة العشرين . ونحن نسميه «عصر الوحدة الثالثة » من حوالي سنة ١٥٨٠ ق. م الى حوالي سنة ١٠٨٥ ق. م (أي بدأ على يد بطل حرب الاستقلال الملك احمس الاول واستمرّ حتى عهد رمسيس التاسع) .

وأهم ما لوحظ من مزايا عصور الوحدة القومية بجانب الازدهار في السياسة والحضارة أن ملوك تلك العصور وجهوا نظرهم الى سياسة خارجية خاصة نستطيع أن نقول انها أصبحت سياسة تقليدية لكل ملك قوي يعتلي عرش مصر الموحدة ، أخذها الخلف عن السلف لدرء الخطر عن أجزاء المملكة المصرية الموحدة تحت عرش ملك واحد . وسنشير اليها مع باقي العصور في مقال آخر باذن الله .

دكتور باهور لبيب
الامين بالمتحف القبطي

سر القنبلة الذرية

كيف تنفجر ومن أين قوتها ؟

قبل أن فوجىء العالم بخبر القنبلة الذرية كان الذي ينفجر في المواد المتفجرة السابقة من بارود وديناميت وكورديت ونيتروجليسرين وترينتروتالين الخ .هو الجزيء molecule أي أصغر جسيم من المادة . وهو مؤلف من عدد من ذرَّات العناصر بقوة الالفة الـكيميائية .

والعامل الاساسي في الجزيء القابل للانفجار هو عنصر النيتروجين على الغالب . لان هذا العنصر شرير لئيم قلما يأتلف مع العناصر الأخرى ائتلافاً مكيناً كما يأتلف مثلاً عنصر الهيدروجين والاوكسجين في تكوين الماء ، أو كما يأتلف الـكلور والصوديوم في ملح الطعام الخ . واذا ائتلف النيتروجين مع عنصر ما يكون عرضةً للانفلات منه، إذا طرأ عنصر ثالث أشد ألفةً بالعنصر الثاني . ولا محل هنا للتفصيل .

إذن فالانفجار في المنفجرات المذكورة آنفاً يحدث في الجزيء molecule المركب من ذرَّات مختلفة . ولـكن الانفجار في القنبلة الذرية لا يحدث في الجزيء بل في الذرَّة نفسها atom

***

ومما هو معلوم في الطبيعة أن الطاقة الـكامنة في الجزيئات تعادل قوة التجاذب أو الائتلاف بين الذرات المؤتلفة في الجزيئات . فمتى حدث التفكك بينهـا بسبب التفاعل الـكيمائي الذي لا محل لشرحه هنا ظهرت الطاقة من مكمنها قوة شديدة . فاذا انصرفنا عن البحث في انفجار الجزيء الى البحث في انفجار الذرة نفسها ، وجدنا في الذرة ائتلافاً بين عنصريها : الكهرب والـكهيرب أقوى جدًّا من الائتلاف بين عناصر الجزيء الذرية كما سيأتي بيانه .

وهنا أشرفنا على طبيعة الائتلاف في داخل الذرة . هنا نسأل : —

ما هي الذرة ؟

حتى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل هـذا القرن العشرين كان العلماء يعتقدون أن الذرة atom هي أصغر جسم في المادة لا يتجزأ — هي الوحدة المادية الـكيمية التي تتألف منها كل مواد الـكون من تراب وحجر وخشب ولحم الخ . ولـكل عنصر من العناصر المادية (التي يبلغ عددها ٩٢ عنصراً) ذرَّته الخاصـة به التي تختلف عن ذرة أي عنصر آخر . ولم

يكن العلماء يعرفون الفرق بين ذرّة عنصر وذرّة آخر إلاّ الفرق في الخواص الكيميائية. ولهذا كان علماؤنا قبل هذا القرن يسمون هذه الوحدة المادية « الجوهر الفرد » . ويسمون الجزيء الذي يتركب من الجواهر الفردة المختلفة أي الذرات atoms « دقيقة » molecule والآن قرروا استعمال الذرة والجزيء .

فيما بين القرنين الماضي والحاضر بدت للعلماء البحّاث العمليين ظاهرات جديدة تدلهم على ان الذرة (الجوهر الفرد) ليست أصغر جسيم بسيط تتجزأ اليه المادة . فهي ليست الوحدة المادية في الطبيعة . بل هي نفسها تتجزأ أيضاً الى نوعين من الجسيمات هما وحدتا المادة المؤتلفتين كما سيجيء معنى هذا الائتلاف . كان الكيماوي يقول ان الذرة هي وحدة المادة البسيطة غير المركبة . فجاء الكهربي (نسبة الى الكهرب) يقول : لا . بل الوحدة المادية هي تجاذب كهرب وكهيرب في بطن الذرة نفسها . وهذا التجاذب هو أقوى ألوف المرات من الألفة الكيمية التي بين ذرة عنصر وذرة عنصر آخر .

أول من تنبه الى ان الذرة ليست جسماً بسيطاً غير قابل التجزئة بل هي مؤلفة من جسيمات أصغر منها هو اللورد روذرفورد في أوائل هذا القرن . فلاحظ أن في الذرة تعبئة كهربائية متعادلة أي ذات طرفين أو قطبين ، موجب وسالب . فسمى القطب الموجب « بروتون » ونحن نسميه بلغتنا « كهرباً » وسمّى القطب السالب « الكترون » ونحن نسميه « كهيرباً » . ورأى أن ذرات العناصر تختلف بعضها عن بعض بعدد ما فيها من كهارب وكهيربات متساوية في الذرة. فاذا كان في الذرة كهرب واحد فقط كما هو الحال في ذرة الهيدروجين وجب أن يكون فيها كهيرب واحد فقط . واذا كان فيها أربعة كهارب وجب أن يكون فيها أربعة كهيربات كما هو الحال في عنصر الهيليوم . وفي ذرة الذهب ١٩٧ كهرباً ومثلها كهيربات . وهلم جرّا.

ثم جاء الدكتور بوهر Bohr الدنمركي فبرهن على أن الكهارب تتوسط الذرة كنواة في مركزها . وان بعض الكهيربات تقيم معها في النواة والبعض الآخر تدور حول النواة على بعد منها في فلك أو أفلاك كما تدور السيارات حول الشمس . فالذرة في يقينه كالنظام الشمسي بكل معنى الكلمة لأن الكهيربات تدور في نظام الذرة بحكم الجاذبية حسب قانونها الذي اكتشفه نيوتن .

ثم جاء موزلي المأسوف عليه فبرهن عمليًّا على عدد الكهيربات السيارة في ذرة كل عنصر (وقد قتل موزلي في الخندق في معركة الدردنيل في الحرب الماضية) فتبًّا لمن جنده .

الالفة الكيمية تتوقف على عدد الكهيربات السيارة

ولما كانت الكهارب في النواة أكثر عدداً من الكهيربات التي يتم عددها في

الـكهيربات السيارة فتعتبر النواة إيجابية الشحنة الـكهربائية وأفلاك الذرة سلبية . ولـكن الذرة نفسها برمتهـا متعادلة . فلو انتثر منها كهيرب واحد صارت ايجابية ، أو انتثر كهرب واحد صارت سلبية .

(التيار الـكهربائي هو انتقال كهيربات من ذرات الى ذرات متجاورة باستمرار في دائرة circuit فمتى انقطعت الدائرة توقف انتقال الـكهيربات في الحال)

الـكهرب والـكهيرب متساويان حجماً ولـكنهما مختلفان وزناً . الـكهرب يزن ١٨٤٧ مرة وزن الـكهيرب . ولذلك يعتبر الـكهيرب كأنه بلا وزن أي لا يحسب حسابه في وزن الذرة . فيعتبرون وزن الذرة بقدر ما فيها من كهارب . مثلاً ذرة الرصاص تزن ٢٠٧ مرات وزن الهيدروجين الذي في ذرته كهرب واحد وكهيرب واحد فقط .

وفي ذرة الاورانيوم uranium ٢٣٨ كهرباً وهو وزنها بالنسبة الى وزن الهيدروجين .

والأبعاد بين أفلاك الـكهيربات في الذرة وبين نواتهـا التي في مركزها تناسب الأبعاد التي بين الشمس وسياراتها بالنسبة الى أحجامها . فاذاً حجم نواة الذرة بالنسبة الى الذرة نفسها ضئيل جداً ، كما ان جسم الشمس ضئيل جداً بالنسبة الى حجم النظام الشمسي الذي يشمل أبعاد جميع السيارات حول الشمس .

الطاقة التي في الذرة

وهنا مسألة جوهرية جداً في بحثنا وهي : المعلوم ان الأجسـام التي من قطب واحـد موجب أو سـالب تتنافر وتتدافع ، والجسمين اللذين في قطبين مختلفين موجب وسـالب يتجاذبان كما ترى في قطبي المغنطيس والحك (ابرة الملاحين) . ولما كانت الـكهارب كلها موجبة وهي متجمعة في النواة ، كان يجب أن تتنافر وتتدافع وتتباعد . فما سر تجمعها في المركز خلافاً لقانون الطبيعة ؟ ما هي القوة التي تربطها هناك ؟ هـذا سر لم يكتشفه العلماء حتى الآن . ولـكن الراجح انها متجمعة بقوة الجاذبية centripetal force أي الانجذاب نحو المركز كما ان الـكهيربات السيارة تدور في أفلاكها على بعـد من النواة بقوة الدافعيـة : الاندفاع عن المركز centrifugal force وكلا القوتين معروفتان في النظـام الشمسي ونظام سائر الاجرام . والرأي الحديث ان الـكهارب في النواة مترابطة بقوة كهربائيـة تسمى Electrostatic Force

ومهما يكن السر فلا بد ان هناك قوة او طاقة تربطها . وسنرى انها قوة عظيمة جداً

وتظهر عظمتها حين يطرأ طارىء فينفصل أحد الكهارب من النواة وينقذف الى خارج الذرة وينقذف معه كهربه ويلتحمان خارجها فتتنافى التعبئتان الكهربائيتان : الايجابية والسلبية وتفنيا معاً بتاتاً . ثم تظهر القوة بشكل حرارة ولمعة نور ، وهذه القوة محولة في جسيمات أصغر جداً من الكهيرب وتسمى فوتونات وبلغتنا نسميها ضويئات وهي بلا تعبئة كهربائية

ينفرط عقد الكهيرب الى ١٠٠٠٠ فوتون وعقد الكهرب الى هذا العدد مضروباً في ١٨٤٠ الذي هو وزنه بالنسبة الى الكهيرب . يعني يتحولان معاً الى ١٨،٤٠٠،٠٠٠ فوتون او ضُوَيء

اذن فالفوتون هو الوحدة الاولى للمادة . هو الوحدة التي لا تتجزأ بحسب العلم الاخير . ولعلها تظهر في المستقبل متجزئة

وهنا يبدو لنا أمر آخر فيه نظر . وهو : اذا كان الكهرب الموجب والكهيرب السالب يتفانيان ويفنيان في الفوتونات اذا التقيا، فكيف يمكن ان توجد الكهيربات مع الكهارب في النواة ولا يفني بعضها بعضاً

هذا أيضاً لغز لم ينحل حتى الآن . ولكن يمكن القول أن كل كهيرب بعيد عن كهربه يدور حوله في نفس النواة كأنه قمر له كالقمر حول الارض . وحينئذٍ لا تكون النواة كثيفة متراصة بل هي مجموعة جسيمات متباعدة ، والرأي الأخير أن الكهيرب والكهرب الملتحمان في النواة . لا تعبئة كهربائية فيهما ويسميان معاً نيوترون

وكان الدكتور شدويك اول من انتبه لهذه الفوتونات وظنها نوعاً آخر من الجسيمات لا تعبئة كهربائية فيه فسمى مجموعتها نوترون وتوقع أن يكون خير قذيفة لتحطيم الذرة ، وقد صدق ظنه كما سيأتي بيانه .

هذه الفوتونات تنطلق في الفضاء نوراً وحرارة ومادة أيضاً بسرعة النور أي حوالي ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية — تنطلق تموجات اشعاعية تسمى أشعة « جمَّا » .

وقد حسب اينشطين الطاقة التي في جرام واحد الذرات بـ ٢١ الف مليون سُعر calories. والسُّعر هو مقدار الحرارة اللازمة لرفع حرارة كيلوجرام ماء درجة واحدة من مقياس سنتغراد، وهذا يساوي حرارة ٣ ملايين طن فحم . فتأمل كم تكون الحرارة التي تحملها فوتونات الكهرب الواحد وكهيربه . وكم يكون النور الصادر منه ساطعاً . مثل هذا كان من زخم فوتونات القنبلة الذرية التي لا يحصى عددها وحرارتها ونورها .

قوة الاورانيوم Uranium

لا يخفى ان الأورانيوم هو في رأس العناصر ذات الاشعاع adiatio، ويليه الثوريوم فالاكتينيوم فالراديوم . والأورانيوم يتحول الى ذلك فذاك فهذا على التوالي، وأخيراً يتحول الراديوم الى رصاص .

وعملية التحول هذه تحدث بأن يتناثر كل عنصر من هذه العناصر من تلقاء نفسه تدريجيًّا كهارب وكهيربات على التوالي حتى تصبح ذرة العنصر الأعلى ذرة العنصر الذي تحته أي ان كل عنصر يذوب رويداً على هذا النحو . والكهارب والكهيربات تتناثر وتنطلق فوتونات اي ضوئيات حاملة حرارة ونوراً كما هو مشاهد في الراديوم

وقد قدر العلماء الفي وخمسماية سنة لذوبان الراديوم والاورانيوم النهائي على هذا النحو. فاذا كانت حرارة الراديوم أو الاورانيوم التي نحس بها ونوره الذي نراه يستمران ٢٥٠٠ سنة ،تنطلق حرارتها ونورها دفعة واحدة في ثانية واحدة كما حدث في انفجار القنبلة الذرية، فهل نعجب من قوة تلك القنبلة الساحقة الماحقة . تصور باروداً كان يحترق تدريجاً في الفي سنة ثم احترق كله دفعة واحدة، فكم يكون احتراقه عظيماً

وقد روى مع خبر ضرب هيرشيما بالقنبلة الذرية انه رئي نور يبهر العيون اكثر من نور الشمس أو لا تطيقه العين وطغت في ذلك الجو حرارة لا تضارعها حرارة الجحيم او حرارة الشمس عند سطحها وهي ستة آلاف درجة سنتغراد، وكان ثمت لسرعة الفوتونات في الاندفاع زخم يفوق زخم قذائف البنادق والمدافع ملايين المرات . فلا نعجب اذا دكّ هذا الزخم جميع المباني والاعالي وقوض المرتفعات

في ذرة الاورانيوم طاقة هي ألوف أضعاف الطاقة التي في جزيئات النيتروجليسرين مثلاً ، لأن قوة الجذب بين الكهارب والكهيربات أضعاف أضعاف قوة الألفة الكيميائية التي في جزيء النيتروجليسرين .

الحرارة والنور اللذان يأتيان الى أرضنا من الشمس، إنما هي فوتونات صادرة من كهارب الشمس وكهيرباتها المقتلعة من ذراتها والمتفككة بسبب تفاني قطبيها الكهربائيين ، الموجب والسالب ، الملتحمين في أثناء انطلاقها من ذرات الشمس .

فالنور الذي يقع من الشمس على عيوننا هو فوتونات، والذي يقع على النبات والحيوان هو فوتونات تقوم بتمثيل المواد الآلية في أجسامهما . هذه الفوتونات أعمال عجيبة في تكوين الأكوان وتطورها لا محل لشرحه هنا .

مقدار قوة الدكّ

وهنا يسأل سائل من أين جاءت هــذه القوة الهائلة التي دكت المدينة الى الحضيض وما هي قيمتها ؟ .

والجواب ان سرّ هذه القوة في سرعة انقذاف الفوتونات الهائل وهي حوالى ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية . واليك الايضاح :

كتلة × سرعة = زخماً

الـكتلة وزن المقدار من المادة . والسرعة مدى انقذاف المقدار بالثانية . والزخم شدة الانقذاف وهي القوة . مثال ذلك : —

نفرض ان حصاة تزن خمسة جرامات رُميت رمياً بسرعة ١٠ مترات في الثانيــة فيكون زخمها ٥ × ١٠ = ٥٠ زخماً على مسافة عشرة أمتار .

ولنفرض كرة صــغيرة من الصلب تزن عشرة جرامات انقذفت من بندقية أو مدفع رشاش بسرعة ٥٠٠ متر في الثانية فيكون زخمها ١٠ × ٥٠=٥٠٠٠ متر على مسافة نصف كيلو متر ، فهي لا تثقب لوح خشب على هذا البعد . ولـكنها على بعد ١٠ أمتار تثقب لوح زنك سمكه مليمتر ، لأن الزخم يشتد بنسبة مربع البعد عن مركز صدور القذيفة بالعكس . فيكون الزخم مربع ٥٠٠ / ١٠ = ٢٥٠٠٠٠ زخم .

واذا فرضنا ان هذه الـكرة الفولاذية تزن جراماً واحداً فقط ، وقد انقذفت بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية وهي سرعة النور أو سرعة الفوتون فيكون زخمها ١ × ٣٠٠٠٠٠ = ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر على بعد ٣٠٠٠٠٠ كيلو متر . فماذا يكون زخمها على بعد خمسة كيلو مترات (أي بعد مركز المدينة عن ضواحيها) ؟ يكون مربع ٣٠٠٠٠٠ / ٥ = مربع ١٢٠٠٠٠ = ١٤ ٤٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ = ١٤ الف مليون وكسوراً . هذا هو زخم فوتونات جرام واحد من الاورانيوم على بعد خمســة كيلو مترات من مركز انفجاره . فلا بدع أن يدك كل ما في المدينة الى الحضيض .

كيف يقلع الـكهرب ؟

نعود الآن الى الذرة ونسأل : ما هي الوسيلة لقلع كهرب منها ؟ أو لتحطيمها وتفتيتها الى كهارب وكهيربات ؟ ثم فوتونات وهذا هو العمل العظيم الذي قام به العلمــاء الاميركان

والانكليز في أمريكا. كان همهم أن يصنعوا المخل أو اللغم أو أية اداة لكي يقتلعوا الكهارب من ذرات الاورانيوم (الثالث الذي وزنه ٢٣٥) أو تفتيت ذرات هذا العنصر لكي تنطلق بزخم ٣٠٠٠٠٠ كيلو متراً في الثانية يعني بسرعة لمح البرق أو لمح الفكر .

في سنة ١٩١٩ نجح اللورد روذرفورد في اقتلاع كهرب من ذرة . والعلامتان هان وسترسمان فلقا ذرة اورانيوم فلقتين . فتوسما من ذلك امكان تحطيم نوى الذرات بحيث انه كلما تحطمت نواة حطمت جارتها وهكذا تحدث سلسلة تحطيمات . وبعبارة أخرى سلسلة انفجارات (كما يحدث حين تلتهب بعض ذرات البارود فتلهب جاراتها بسرعة) . وهذه هي القضية التي حلها علماء القنبلة الذرية . ومتى عرفت خواص الجسم تماماً وتركيبه سهل على المرء اصطناع المطرقة لتحطيمه

روذرفور اقتطع كهرباً من الراديوم باطلاق أشعة ألفا من الهيليوم عليه ، وأشعة « ألفا » هي أشعة الكهارب أنفسها . وأشعة « بيتا » هي أشعة الكهيربات السابقة . وأشعة « جما » هي أشعة الفوتون التي لا تعبئة فيها . يعني ضرب كهرباً بكهرب أو نواة بنواة . ويوري ولورنس في أميركا وجدا قنبلة أخرى لضرب النواة وهي نواة الدبلون أو الديوترون وهو الهيدروجين الثقيل الذي ينشأ منه الماء الثقيل .

ولكن ما هو المدفع الذي يقذف هذه النوى فتصيب الهدف تماماً ؟

هذا ما توفق الى صنعه الدكتور لورنس من جامعة كاليفورنيا ، إذ اخترع جهازاً كهربائياً لهذا الغرض سماه « سيكلوترون » وهو جهاز معقد التركيب يزن نحو أربعة آلاف طن . فينقذف منه الديوترون أي الهيدروجين الثقيل بقوة ١٧٥ مليون فولت . وهذه السرعة الهائلة لا بدَّ منها اذا استعمل الكهرب او الديوترون لانه يحمل تعبئة كهربائية ايجابية تدفع كهرب الذرة بصدمة قوية . ومتى انقذف الكهرب مع كهيربه انحلاَّ الى فوتونات وهي تحمل الطاقة أو القوة التي تندفع بها بزخم شديد .

هذه نظرية مدفع تحطيم الذرة — ذرة الأرانيوم

للأورانيوم ثلاثة نظائر مختلفة الأوزان ٢٣٤ و ٢٣٥ و ٢٣٨ والثاني هو الأصلح لاصطناع قنبلة الذرة، ولكنه قليل بالنسبة الى زميليه جداً . وعزله من بينها يقتضي عملية كيميائية معقدة صعبة جدًّا . والأورانيوم على كل حال عزيز المنال لقلة وجوده في الطبيعة .

نقولا الحداد

اليأمور

The Narwhal : Technical name : Monodon (genus) Monodon monoceros (species)

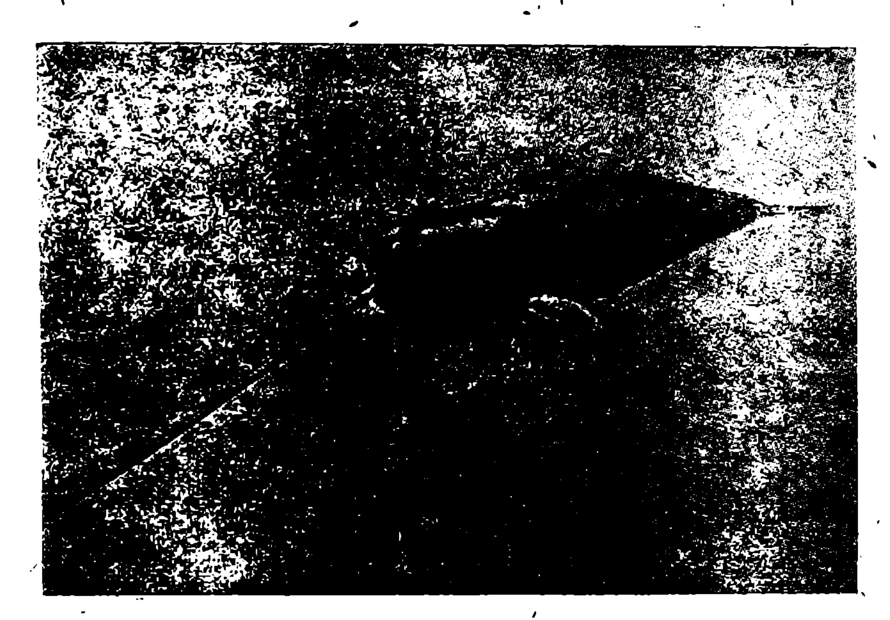
من الحيتان ، وكذلك سماه المعلوف في معجم الحيوان . وفي لسان العرب (٩٤ : ٥) التامور من دواب البحر . واذا شئنا تعريب الاسم قلنا « النرول » ليقابل Narwhal ، وأصل الكلمة من لغات الشمال ، فهي في الدانمركية والسويدية Narhval وفي الايسلندية Nahvarl ، ثم انتقلت من هذه اللغات الى الانجليزية Narwhal والفرنسية Narvel or Narwoll والالمانية Narwall . انظر المعجم الانسيكلوبيدي Encyclopaedic Dictionary ص ٣٢٥٢ ج ٣) ، وعندي ان الاولى تعريب اللفظ

***

وقبيلة الحيتان من أعجب صور الحياة ، فهي حيوانات ثديية تعيش في المياه البحرية وتلد وترضع صغارها ، وتتنفس الهواء . غير ان من فصائل هذه الحيوانات ما هي أبعث على العجب من غيرها . ومن أعجب أجناس هذه الفصائل «النرول». ففي أول عهده بالحياة يكون أشبه شيء بحوت آخر يقال له تعريباً « البربوز » : Porpoise ، ويكون أدرد فاقد الأسنان . أما عند ميلاده فيكون رصيفاً . أي ذا أسنان مرصوفة صغيرة . فاذا تقدم به العمر ، فقد هذه الأسنان . ولكن يقع عليه بعد ذلك انقلاب خطير ، ويقع ذلك الانقلاب على الذكور دون الأناث . فان الشفة العليا لا تلبث أن يخترقها ناب يأخذ في الامتداد حتى يبلغ سبع أو ثماني أقدام ، وهذه الناب هي عبارة عن استطالة تمضي فيها احدى السنين القاطعين ، هي القاطعة اليسرى . غير انها تختلف عن جميع أصناف الأسنان في انها مُلَوَّبة حلزونيَّة . وَتَلَوُّبها يساري . وقد وقع المواليديون على أفراد من « النرول» لها نابان : ولكن هذه الافراد نادرة الوجود . فاذا وجد لفرد ما نابان، كانت كلتاهما يسارية التلوّب . غير انه وجد أفراد نابها الأيمن يميني التلوُّب .

من الطبيعي أن يتساءل المواليديون : ما هي الفائدة التي تعود على الحيوان من هذه الناب؟ أهي سلاح أم زخرف ؟ ومن الصعب بالضرورة أن يجاب على هذا السؤال جواباً

قاطعاً ، إذا علمنا أن رأي المواليدين فيه مختلف جد الاختلاف ، فيقول البعض انها اداة يكسر بها الحيوان صحيفة الجمد الذي يكون فوق الماء لينشق الهواء . ذلك بأن « النروَل » من سكان المناطق الجليدية . ولكن بما ان الأنثى فاقدة الناب ، سقط هذا التعليل . وقال آخرون انه سلاح يقوم عند « النروَل » مقام القرون عند الوعل ، إذ هو عدته في سبيل الحصول على أنثاه والدفاع عنها . ولقد رئي كثير من الذكور وهم يقتحمون معركة حامية ليفوز كل منهم بأنثى ، وكان سلاحهم فيها ذلك الناب الطويل يطعن به الواحد منهم منافسه



اليأمور

فيخترق به جسده بالاندفاع نحوه اندفاعاً قويًّا . وقد ذكر الرحالة الانجليزي « سكورسبي » Scoresby انه أخرج من بطن « نرْوَل » حدأة (وهي جنس من السمك) ظهر له من شكل الجراح التي بها ، أن ناب « النرْوَل » اخترقها اختراق الحربة حتى أمكن صيدها . ولكن اذا اخترق الناب الفريسة وأصبحت معلقة به ، فكيف يستطيع « النرْوَل » أن يتخلص منها ، وينزعها من هذه الحربة الملوَّبة ؟ ربما استطاع ذلك بحركة رجعية سريعة خلال الماء ، فتندفع الفريسة من الناب الى الامام ، فاذا خلصت منه التهمها .

ابتسامة الجيوكوندا

قصة كبرى : لالدوس هكسلي

تلخيص : محمود عزت موسى

وقف مستر هاتن ينتظر مقدم جانيت سبنس وراح يتأمل خادمتها القبيحة،وكان كل مافيها يذكره بالمجرمين حتى أحس بأنه لا يستطيع أن يتأملها طويلاً فأخذ يتطلع الى ما تحتويه الغرفة، وقد كدستها جانيت بالصور والتماثيل اليونانية واللوحات الفنية، وظل يتنقل بين هذه التحف حتى وقف أمام المرآة فتأمل وجهه فيها بتأنٍ وهو يتحسس شاربه . إنه لا يزال على حاله منذ عشرين سنة ، وكذلك شعره كما هو ، وتذكر هؤلاء الشعراء ومنهم شكسبير وملتون. وحبيباتهم وابتسم ، فإن جانيت لا تدرك ذوقه ولا تفهمه ، ولاحظ فجأة أن جانيت واقفة بالقرب من باب الغرفة فاتجه اليها كأنما قد بوغت ، فمن يدري فربما سمعت ما يهمس به وأدركت مايجول في نفسه ورأته وهو يتطلع الى صورته في المرآة . وابتسم لها ولهذه المفاجأة، ومدَّ يده ليصافحها وابتسمت جانيت أيضاً — ابتسامة الجيوكندا التي تلازمها — كما لو كانت هذه الابتسامة من خصائصها وكانت جانيت ، امرأة جميلة ، ذات فم معبر ، وأنف دقيق ، وعينين واسعتين ، شهوانيتين ، سوداوين . كانتا عينين جميلتين حقاً بكل ما فيهما من شهوة وسواد واتساع ، يعلوهما حاجبان مقوسان أسحمان .

***

وراح مستر هاتن يخبرها بأنه كان يظنها قد خرجت من المنزل فأزمع في نفسه الانصراف، ولكن هذه المقابلة قد أسعدته ، وأشارت اليه أن يجلس فاعتذر بأنه يود أن ينصرف ليعود أميلي ـ زوجته ـ فانها متعبة ومصابة بعسر هضم شديد ، وكاد يخطىء ويقول لها إن أمثال هؤلاء النساء كان يجب أن لا يتزوجن ، لكنه استدرك وراح يدعوها الى الغذاء معهما غداً ، فاعتذرت ولكنها عادت فقبلت بعد إلحاح ووقف هاتن لينصرف وهو يودع هذه الفتاة العذراء وهو يقول لها : يجب أن أذهب الآن أيتها الجيوكندا الغامضة، فازدادت ابتسامتها وضوحاً وهو يقبل يدها لأول مرة ، وقال لها : غداً نراك ، ولكنه عاد يقبل يدها مرة أخرى . واصطحبته جانيت الى الخارج وهي تسأله عن سيارته، فأخبرها بأنه تركها

بعيداً عن المنزل وعرضت عليه أن تصحبه إليها ولكنه أقنعها بأن لا تفعل، ثم ودعها سريعاً وراح يركض في الطريق كأنه يخشى أن تلحق به، وكأنه سُرَّ بهذا الركض، فانه يدل على شبابه والتفت الى الوراء فوجدها لا زالت واقفة فأرسل اليها قبلة في الهواء، واختفى عن أنظارها حتى وصل الى سيارته ففتح بابها وأمر السائق بأن ينصرف به الى منزله وأن لا ينسى الوقوف عند تقاطع الطريق، وكانت صديقته دوريس تنتظره بالسيارة، وما كاد يجلس الى جانبها حتى راح يقبل وجهها الصغير فقالت :

— لا تمسني بيديك فاني أشعر برجفة كهربائية .

فابتسم هاتن وراح يكرر اسمها مرات وهو يحس بلذة عميقة عند ندائها باسمها وأخذ يقبل عنقها الجميل فقالت له : اني سعيدة جدًّا .

فأجابها — وأنا كذلك . . هل هذا حقًّا .

فقالت — ولكني أريد أن أعرف هل هذا خطأ أم صواب .

فقال — إن هذا ما كنت أسأل عنه نفسي في ثلاثين السنة الماضية .

فقالت — لتكن جادًّا . فاني أريد أن أعرف هل هذا صواب . هل من الصواب أن أكون معك وأن يحب كلانا صاحبه فاني أشعر برجفة كهربائية حين تمسني .

فقال — صواب . إن هذا حسن جدًّا بأن تصيبك هذه الرجفة الكهربائية ، فذلك أفضل من العاطفة المكبوتة . اقرئي فرويد . فالكبت خطر .

فقالت — ولكنك لم تدلني ، ولماذا لا تكون جادًّا وأنت تعلم أنني أحياناً أكون شقية حين أظن أن هذا خطأ ولا أدري ماذا أفعل حتى انني أفكر أحياناً في أن أقف علاقة حبنا

فقال — ولكن هل تستطيعين ؟

فأجابت — كلاَّ أنت تعرف أنني لا أستطيع ، ولكني أهرب وأختفي عنك وأبعد نفسي ولا آتي إليك

فطمأنها وقد وضع خده على شعرها حتى وصلت السيارة، فنزلت منها وكأنها قد حطمتها هذه القبلات وهذه الرجفة الكهربائية من يديه الرقيقتين .

***

. . . كان اليوم من أيام الصيف الدافئة حين راح مستر هاتن يحادث زوجته وهو يلعب معها الورق ، فأنبأته أن الدكتور ليبارد أشار عليها أن تستجم بتغيير الهواء في هذا الصيف،

وكان هاتن يفكر في دوريس فلم ينتبه لزوجته فاستمرت تقول : فاني يجب أن أشرب مياه معدنية لعلاج الكبد ، وأن أعالج بالكهربا والتدليك . ولكن هاتن كان لا يزال يفكر في دوريس وهي تجري في الغابة خلف الفراش الأزرق الذي كان يتنقل طائراً بين الزهور، وهي من ورائه هاتفة صائحة كأنها طفلة غريرة ، وأعاده صوت زوجته الى تفكيره فقال لها :

— إني أعتقد أن تغيير الهواء هذا سيفيدك جداً .

فقالت — ولكن يجب أن تأتي معي يا عزيزي .

فقال — ولكنك تعرفين بأني سأذهب الى سكوتلندا في نهاية هذا الشهر .

فنظرت اليه وقالت : ولكني لا أعرف كيف أقوم بهذه الرحلة، وأنت تعلم أنني لا أنام في الفنادق ، ثم هناك الحقائب . فلا أستطيع الذهاب وحدي . فأجابها : ولكنك لن تكوني وحدك . ستكون معك وصيفتك .

وراح يفكر في حبيبته الضاحكة . فقطعت زوجته عليه تفكيره بقولها .

— أظن انني لا أستطيع أن أذهب .

— ولكن يجب أن تذهبي كما أخبرك الطبيب . ثم ان هذا التغيير يفيدك .

— لا أظن ذلك .

— ولكن الطبيب يعتقد هذا . ثم أظن أنه تحدث به .

— لا . لا استطيع ، فأنا متعبة جداً ، ولا أستطيع الذهاب وحدي .

وحاول زوجها أن يقنعها ليخلو له الجو ولكن عبثاً ، فقد راحت زوجته تبكي فأدرك أنه عالج هذا الأمر بصبر معقول . ولكن لا يستطيع أن يفعل غير ذلك ، فمنذ وقت طويل في بداية رجولته اكتشف — في ذات نفسه — أنه لم يشعر بالعطف على الفقراء والضعفاء والمرضى والناقهين فقط بل كان يكرههم ، وقد كانت أميلي جميلة وغنية عند ما تزوجها فأحبها حقيقة ، ولكن هل هي غلطته أن تكون هكذا الآن.

وتعشى هاتن وحده ، ثم ذهب الى زوجته يجاملها ويقرأ لها شعراً بالفرنسية وما كاد يصل إلى الصفحة الخامسة عشرة حتى رآها قد استسلمت لنوم عميق ، فأخذ يتأمل وجهها بكراهية . لقد كانت جميلة مرة واحدة منذ زمن طويل ، وأثارت هذه الذكرى في نفسه أعمق العواطف مما لم يشعر بمثله من قبل . ولكنها الآن مجعدة ، نحل وجهها ، وبرزت عظام خديها ، وأحاطت الزرقة عينيها . كان وجهها كأنما هو وجه المسيح كما صوره الرسامون مصلوباً، فسرت في جسده رجفة خرج على إثرها من الغرفة مسرعاً على أطراف أصابعه

وفي اليوم الثاني حضرت مسز هاتن العشاء ، وكان يبدو عليها في تلك الليلة الانقباض ، ولكنها راحت تجامل ضيفتها جانيت سبنس التي ظلت تستمع إلى شكواها وهي تتحدَّث بصوتٍ عالٍ وتقذف بالكلمات كأنها منطلقة باستمرار من بندقية .

وكان هاتن ينظر اليها في سكون ، وقد أثار في نفسه منظر جانيت شعوراً غريباً ، فراح يقارن بين زوجته ودوريس وبينها وبين جانيت بابتسامة الجيوكوندا أو حاجباها الرومانيان .

وتجاذبت الزوجة وجانيت الحديث لماماً ، حتى أحضرت الخادمة القهوة ، فقامت جانيت لتأخذ قدحاً ولتقدم آخر لمسز هاتن ، بينما ذهب الزوج يحضِّر زجاجة الدواء ، ولما تناولت جرعتها من الدواء ، قدمت اليها جانيت القهوة . واستمرَّ الحديث بينهما حتى شعرت مسز هاتن بأنها متعبة ، وأنها في حاجة إلى الراحة ، فاستأذنت صديقتها ومضت إلى غرفتها . ولما أراد زوجها أن ينصرف تضرَّعت اليه وهي تبكي أن يبقى معها في المنزل فقد أصبحت لا تطيق البقاء وحدها .

ولكنه اعتذر بأنه على موعد سابق مع أحد أصدقائه ولا يستطيع أن يخلفه ثم قبلها وذهب الى الحديقة حيث قابلته جانيت وهي تقول له بلهفة .

— ان زوجتك في حالة خطيرة .

— ولكنها سرَّت كثيراً بقدمك .

— انها عصبية جدًّا ولقد راقبتها جيداً ومع سوء حالة قلبها فهي عصبية .

— ولكن الدكتور ليبارد لا يهتم كثيراً بصحتها . .

— انه طبيب القرية . ويجب ان تستشير إخصائيًّا .

وسارا معاً حتى خرجا من الحديقة الى حيث تقف سيارة جانيت ، فساعدها على ركوبها وودعها وهي تذكره بأن يزورها في الغد .

***

ومضى هاتن بعد ذلك الى دوريس وكانت تنتظره عند تقاطع الطريق فذهبا لتناول العشاء معاً في فندق بعيد وأمضيا وقتاً ناعماً لذيذاً ، كانت فيه دوريس في غمرة العاطفة ورقة الحب .

وعاد هاتن الى منزله قبيل منتصف الليل، فقابله الدكتور ليبارد في مدخل المنزل فبادره هاتن قائلاً : هل زوجتي مريضة ؟ فأجابه : لقد بحثنا عنك منذ مدة وسألنا عنك في كل مكان فقال : كنت مشغولا في جهة أخرى . فقال الطبيب : وكانت زوجتك تريد أن تراك . فقال : سأذهب اليها الآن واتجه نحو السلم ولكن الطبيب وضع يده على ذراعه وهو

يقول له : أخشى أن يكون الوقت متأخراً .

فقال : متأخراً ! وراح يخرج ساعته من جيبه دون جدوى فقال الطبيب

— ان مسز هاتن توفيت منذ نحو نصف ساعة .

وكان الطبيب يتكلم عن الموت كما لو كان يتكلم عن مباراة رياضية

وتذكر هاتن كلمات جانيت في الحال . انها قد تموت في أي لحظة اذن قد كانت على صواب

-- ولكن ماذا حدث . وما السبب .

وأخذ الطبيب يذكر له أنه انتابها قيء شديد أعقبه احتقان قلبي شديد وانفجار شرياني.

***

. . جلس هاتن يطالع في المكتبة في مساء يوم الجناز وكان يقرأ لملتون وهو موزع الذهن مبلبل الخاطر حتى انتصف الليل فتوجه الى الشرفة وكان الجو دافئاً صافياً والليل ساكناً . فراح يحدق في النجوم اللامعة ويتأمل أزهار الحديقة وهو غارق في تفكير عميق . ما العظمة والنبل وما الفارق الجدي بين النبل والدناءة . ملتون . والنجوم والموت ونفسه . الروح والجسد، الطبقة العليا والطبقة السفلى . ملتون يهذي، والنجوم اللامعة والموت وأميلي في قبرها ودوريس . كان نهباً مقسماً لصراع عقلي عنيف وتفكير محزن مشتت ، حتى خيل اليه أنه أبغض كل شيء في الحياة واعتزم في نفسه أن يحيا حيـاة جديدة يراقب مزرعته في النهار ويدرس في الليل .

ومضى هاتن الى فراشه متألماً شقيـاً ولو أنه أحسَّ بشعور طيب في نفسه واستيقظ في الصباح ، وقد نفذت أشـعة الشمس الدافئة الى غرفته فتناول افطاره وامتطى صهوة جواده وظلَّ يتجوَّل في مزارعه ثم راح يطالع في دراسـته المعقدة بعد الغـذاء ويكتب بعض الملاحظات . وفي اليوم السادس من هذه الحياة الجديدة التي قدَّرها لنفسه تلقى خطاباً من دوريس . كانت كلماتها جوفاء تافهة ، كتبت اليه تعزيه وتخبره بوحدتها وشقائها . ان فكرة الموت أصبحت تسيطر عليها ولا تجد منها خلاصاً وأنها محطمة شـقية بدونه، وأنها لم تكن لترغب في أن تكتب اليـه بل كانت تود أن تنتظر حتى ينتهي من أحزانه ويحضر فيراها ، ولـكنها يائسة وحيدة حزينة. ولذلك كتبت اليه لتستمد معونته وتريده ، فليس لها في الحياة سواه . فهو الرجل الطيب القلب ، الرقيق الحس ، وهي لا تستطيع أن تنسى طيبته ورقته نحوها، وهي لا تستطيع أن تتصوَّر أنه سيتركها ، فهو يجب أن يحبهـا لأنه أحبها قليلاً .

وثار هاتن واختلج في جنبـات نفسه شعور عظـيم بالخجل، فهي تشـكره وهو يخدعهـا .

فيا للحماقة ، ويا لها من تعسة . انه يجب أن يكتب اليهـا خطاباً رقيقاً بأنه سيلقاها قريباً .
وعاوده حنينه وتفكيره فيها حتى قطع عليه الخادم تأملاته بأن أعلن اليه إعداد جواده .

ومضت خمسة أيام أخرى حتى تقابل هاتن ودوريس . . كانت جميـلة رائعة في ملابسها الحريرية البيضاء الناعمة ، وأمضيا الليلة كأنهـا حلماً ذهبيًّا ، وراحت دوريس تغرق في نوم عميق بينما حاول أن ينام عبثاً ، فقد كانت الأفكار تلاحقه والأوهام تطارده ، ولما تحركت ألقته على كثب من مخدعها. وقد أخـذ يتأملها على ضوء النور الخافت الذي تسرَّب من بين الستائر ، وانعكس على ذراعيها العاريين وكتفيها وعينيها وشعرها الأسود الرخص . كانت رائعة حقًّـا ، ففكر لماذا لا ينام الى جانبها ويدع أحزانه وآلامه، وماذا لو عاش في الحياة بلا أمل . ومرَّت به لحظات في التفكير أن يبتعد عن المسؤولية. يجب أن لا يكون .مسؤولاً فهو حر ، حر أبداً . وفي شوق عاصف جذب اليه الفتاة. فاستيقظت كالمسحورة وهي ترتجف تحت قبلاته . . واستحالت ثورة رغبتـه الى نوع من المرح الهادىء ، وقالت له — هل تستطيع أن يحبك أحداً كما أحبك أنا فقال لها : أظن أن هناك واحدة تستطيع هذا فقالت: من هي خبرني ؟ وكان صوتها مزيجاً من الشك والألم والرجفة. فقال : ألا تستطيعين أن تعرفي؟ وظلَّا ما كنا حتى عجزت أن تجيبه . فقال لها : أنها جانيت سبنس . فأجابته في سخرية : هذه المرأة العجوز ؟ فقال ضاحكاً : هذا حق . ولـكنها تعجب بي وإني أعتقد أنهـا ترغب في الزواج بي فأجابته : ولـكن يجب أن لا تتزوجهـا . لا تفعل . فقال : لقد قرَّرت الزواج بك أنت أنت . وأحسَّ كأنه عمل أحسن ما في حياته .

ولما غادرا مكانهما الذي تقابلا فيه خرج هاتن منه رجلاً متزوجاً . ولـكنهما اتفقا على أن يظلَّ الأمر سرًّا حتى يرحلا الى الخـارج في شهور الخريف ، وحينئـذ يعلم الناس بذلك الزواج .

***

وفي اليوم التالي ذهب إلى جانيت فقابلته بابتسامتها المعتادة ، ابتسامة الجيوكوندا ، وجلسا معاً في منزلها الصيفي الجميل . ثم أخبرها أنه سيرحل إلى ايطاليـا في هذا الخريف . فدهشت لهذا الرجل ، وكأنما أصابتها صدمة فاستلقت على كرسيها وأغمضت عينيهـا وأسلمت نفسها لصمت طويل ، ولم يتبادلا حديثاً حتى تناولا العشاء .

وكان الليل ساحراً ، والسماء رقيقة جذابة ، والقمر يغمر الطبيعة بضوئه الفضي، وما لبث هذا الهدوء والصفاء أن عكرته سحابة مارة رعدت لها السماء وأبرقت،وهطلت الأمطار، وهبت

الرياح . وقالت بعد صمت طويل : أتظن أن لكل شخص الحق إلى حدٍّ ما في السعادة . أليس كذلك . فقال : بلا ريب .

ومضى يفكر ، ماذا تقصد بالسعادة ، وعرج بتفكيره إلى حياته الماضية حينما كان لديه المال والحرية ، وفي استطاعته أن يفعل ما يشاء ، فلقد افترض أنه كان سعيداً ، أسعد الرجال ، ولكنه الآن ضئيل الحظ من السعادة وقد اكتشف في عدم المسؤولية سر المرح والحياة ، وكاد يحدثها عن السعادة لولا أنها قاطعته ! إن مثلك ومثلي لهما الحق في أن يسعدا . فقال متعجباً ! مثلي أنا ؟ فقالت يا للمسكين إن الحظ لم يعاملنا معاملة حسنة فقال : لقد عاملني بسوء . فأجابته : أنت نفس وحيدة حائرة تبحث عن رفيق وأنا أحب أن أشاركك وحدتك ومضت تحدثه عن نفسه ووحدته ووحشته ، وأنها المرأة التي تستطيع أن تملأ هذا الفراغ الشاغر في حياته وأن تسعده لأنها تحبه . كانت تكلمه جادة وبحرارة ، فظل لائذاً بالصمت حتى صدمها بقوله : ولكني فقدت عاطفتي . فلم تأبه لقوله وراحت تتضرع إليه وتتوسل وتطارد قلبه وتلح عليه أن يتزوجها ، أن يرتبطا بهذه الرابطة المقدسة انها تحبه وقد حانت الفرصة الآن فهما أحرار ، وارتمت بجسدها عليه وأخذت تعانقه ولكنه أبعدها ، فبكت تستعطفه ، وقد ارتمت على الأرض تنبش في حرارة وحرقة ، حرارة الفتاة المحرومة ، وحرقة المرأة الوالهة المهجورة ، وتركها تبكي وانصرف ،وقد هدأت العاصفة وانقطع المطر ، وأسفر القمر ، وأخذ يفكر فيما حدث فلعلها تمثل دوراً وتلعب لعبة

***

وانصرف يوماً الى دوريس في منزلها الجديد الذي استأجره لها في ضاحية المدينة وهو يبدو عليه التفكير العميق فسألته عما به ، لكنه اعتذر اليها ببعض متاعبه ، وقد بدا له أنه كان من الأفضل له أن يهجر دوريس أيضاً وغرامها الفريد . فهو لم يعرف قط آلام الحب الفاشل ، ولكنه يجرب الآن آلام الحب المهجور ، فهذه الأسابيع الماضية تزيده سقماً وشقاء ، ولو أن دوريس دائماً معه . ان من الأحسن له ان يكون وحيداً وأخرج من جيبه خطاباً . لكم أصبح يكره هذه الخطابات التي تحوي دائماً أخباراً سيئة في هذه الأيام وخاصة بعد زواجه الثاني . وكان الخطاب من أخته فكاد يمزقه لولا أن رأى فيه عبارة قرأها وقلبه يخفق بشدة ، فقد كانت عبارة وحشية مروعة فهي تذكر أن جانيت تذيع عنه في كل مكان أنه سمم زوجته ليتزوج دوريس .

وكاد يتمزق غيظاً وهو يقرأ هذه الكلمات ويلعن هذه المرأة وأيقظ عقله المكدود

وقع خطوات التفت نحوها فوجدها الخادمة تقتطف فاكهة من الحديقة فراح يتأملها . كانت خادمة جميلة بفمها الصغير وجسمها اللدن فناداها وابتسمت له ابتسامة اخاذة ارتجف لها فقرر أن ينسحب قبل أن يتمادى في الحديث معها .

***

وظهرت الصحف في الأيام التالية تتحدث عن جريمة هاتن التي عرفت بعد حدوثها بشهور. وكان الرأي العام قد ثار لهذه القصة المؤلمة ، قصة الرجل الذي دسّ السم لزوجته ليقتلها ، وانتاب هاتن فزع شديد ، فقد أمضى هذه الشهور في آلام ولكنه كان في طمأنينة وأمان ، وقدّم للقضاء ، وأخذ الأطباء يبحثون جثة المتوفاة فوجدوا بها آثار السم وتعجب هاتن كيف ماتت زوجته بهذا السم . لقد قرر الاطباء أن السم ابتيع قبل الوفاة بعدة ساعات في وقت العشاء ، واستدعيت الخادمة للسؤال فقررت أن مسز هاتن استدعتها وطلبت منها دواءها ، وكان مستر هاتن وحده يحضّر هذا الدواء وأيدت جانيت شهادة الخادمة وأضافت أن مستر هاتن عاد ومعه الدواء في كوب لا في زجاجة

وتأجل التحقيق أياماً وفي نفس هذا المساء ذهبت دوريس إلى فراشها لشعورها بصداع ولما دخل عليها زوجها بعد العشاء وجدها تبكي فجلس على حافة الفراش يداعب شعرها ويسألها سبب بكائها ولكنها لم تتكلم ، فأخذ يلعب بين أنامله بخصلات شعرها بلا تفكير أو شعور وانحنى عليها يقبل كتفيها العاريين وهو غارق في تفكير عميق فيما حدث لزوجته اميلي التي ماتت مسمومة وأن هذا لا بد أن يكون كذباً وادعاء فمحال أن يحدث ذلك .

وقطعت عليه دوريس تفكيره بقولها : لقد أخطأت أنها غلطتي ، كان يجب أن لا أحبك وكان يجب أن لا أجعلك تحبني لماذا خلقت في هذه الحياة . ولم يقل شيئاً بل استمر في صمته واستأنفت حديثها : اذا أساءوا اليك فاني سأقتل نفسي .

ثم جلست في فراشها وأمسكته بقوة وأخذت تتطلع اليه في ذهول وهي تقول :

– إني أحبك . أحبك أحبك

وجذبته اليها قائلة « لم أكن أعرف أنك كنت تحبني كل هذا الحب ، ولكن لماذا فعلت هذا .. لماذا ؟ فتملص منها هاتن وقد احمرّ وجهه خجلاً وقال : هل تظنين حقّاً أنني قتلت زوجتي . انه كذب . انها حماقة لا يرتكبها رجل متحضر ، هل ابدو من نوع هؤلاء الرجال الذين يقتلون الناس . لست اعرف ما هذا الشيطان الذي دفعني الى الزواج منك ، فقد كانت حماقة سيئة وانصرف عنها الى غرفة المكتبة يفكر فيما حدث دون ان يجد عند نفسه جواباً . وقد امتلأت عيناه بالدموع وناداه شعور في نفسه بأنه يجب أن يعيش كما أن هذا الشعور ينادي زوجته

الاولى من قبل، واستغرق في تفكيره بأنه يريد ان يصلي كما كان يفعل ذلك منذ اربعين سنة عندما كان صغيراً يصلي عند سريره راكعاً كل مساء ، وتذكر ليالى الطفولة وراحت ذكرياته تمر به كأنها صور الحياه نابضة . ودعا الله ان يغفر لأبيه وأمه فكل هؤلاء الذين لازموه في طفولته وكل من أحبهم قد جعلوا منه طفلاً هادئاً صالحاً وشعر فى هذه الذكريات بهدوء ينسكب على أعصابه فيريحها وذهب الى حيث دوريس يسألها المغفرة ، فوجدها مستلقية على مقعد طويل وعلى أرض الغرفة بجانبها زجاجة دواء سام وقد بدأ عليها أنها شربت قدراً كبيراً .

ولما رأته يفتح الباب ويتقدم منها ثم ينحني عليها قالت انك لاتحبني فأدرك كل شيء وأسرع باستدعاء الدكتور ليبارد لينقذها واستطاع الطبيب أن ينجح فى عمله فقال لها وهما وحيدان فى الغرفة : يجب ان لا تفعلي هذا ثانية

فقالت : وما الذي يمنعني عن أن أفعله ؟

فقال : ليس هناك ما يمنعك ، ولكن هناك نفسك وطفلك ، فلا يجب أن يكون طفلاً سيء الحظ في هذا العالم . فصمتت برهة ثم قالت : حسناً لن أفعل .

***

قضى هاتن بقية الليل الى جانبها وقد شعر في ذلك الوقت أنه قاتل حقاً ، وكان شعوراً هو مزاج من الألم والشقاء والحنان والعطف حتى أنه أصبح لا شيء أكثر من مخلوق شقي ، وذهب الى فراشه في نحو السادسة صباحاً ثم استدعي الى المحاكمة في نفس ذلك اليوم .

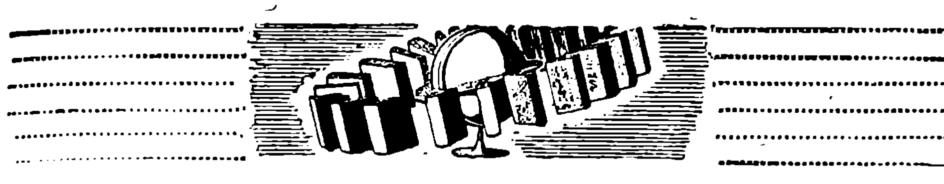
وأما جانيت فقد ساءت حالتها وانتابها أرق شديد وراح الدكتور يزورها يوماً بعد يوم، بينما أخذت هي تحدثه عن هاتن في لهجة يبدو منهـا غيظ المرأة التي تتلظى بالغيرة والغضب والانتقام وبخاصة بعد أن جاءتها الأنباء بأنه قد أصبح لهاتن طفلاً من زوجته الثانية فأثارها ذلك وكأنما كانت هذه صدمة أخرى قاتلة .

وأخذ الدكتور يحادثها بلطف ورقة حتى فاجأها في صباح يوم بسؤال وهي متعبة كليلة : أظن أنك دسست السم بنفسك لمسز هاتن . أليس كذلك فحملقت في وجهه بضع لحظات بعينيها الواسعتين ثم قالت في هدوء

— أجل .

واندفعت تبكي . فسألها : في القهوة أليس كذلك ؟

فهزت رأسها وتناول الطبيب قلمه ، ليكتب لها تذكرة طبية بجرعة منومة .



مكتبة المقتطف

الفلسفة الرواقية

تأليف دكتور عثمان أمين : نشرته مكتبة الخانجي بمصر : ٣٢٠ صفحة من القطع الاوسط ١٣٦٤ هـ — ١٩٤٥ م

نقدنا هذا الكتاب في زميلتنا مجلة « الكتاب » التي نتمنى أن تكون للكتاب خير نصير ، ولأدب العرب أكبر ظهير ، على طول السنين والأعوام . ولكن الفراغ لم يواتنا في « الكتاب » بأن نعطف على الكثير من مظاهر هذا الكتاب ، فقصرنا النقد على الموضوع في اجماله ، وأبقينا على ما وقع في الكتاب من هنات تتناول المظهر الى هذه الصفحات .

أول شيء يسترعي نظرك في هذا الكتاب ، كثرة ما وقع فيه من التحريف في رسم أسماء الأعلام ، فهي لا تجري على قاعدة . ولا تتفق والقواعد التي جرى عليها العرب ، ولا تجري على القواعد التي وضعها مجمع فؤاد الأول للغة العربية .

ذكر المؤلف اسم « فنايطوس » فرسمه بانيتوس (ص ١٢) ثم رسمه بنايطيوس (ص ٣٩) والمسمَّى واحد ، والرسمان مختلفان ، وذكر انطيغون غوناطاس (ص ١٥) ورسمه الصحيح انطيغونوس غوناطوس Antigonus Gonatus ، وقال كروسبوس (ص ٣٠) وهو خُرُسبوّس ، وقال البطالسة وهم البَطَالمة لأن رسمه في اليونانية Ptolemaeus والسين في آخر الاسم علامة الرفع في اليونانية، فهي ليست من بنية الاسم ، فعربه العرب بطليموس وحقيقته بطلميوس ، ولما جمعوا الاسم قالوا البطالسة ، فأثبتوا السين التي هي علامة رفع وحذفوا الميم التي هي من بنية الاسم ، وعلى هذا فالمفرد بطلميوس ، والجمع البطالمة . وقال شيشرون (ص ٣٢) وهو قيقرون أو كيكرون ، ولو انه اشتهر في العصر الحديث بهذا الرسم العجيب ، وقال الاكاديميَّة (ص ٣٢) وهي الاقادَمْية ، وقال كليومين (ص ٣٩) وهو إقلومانَس ، وقال انتيباطر (ص ٣٩) وهو أنطيفاطَر ، وقال أسقيبيون (ص ٣٩) وهو إسقفيون ، وقال في (ص ٤٠) بومبي ، وفي (ص ٤١) بومبيوس ، والاسم المسمَى واحد ورسم رسمين مختلفين في صفحتين متواليتين ، وحقيقته فومْبيوس ، وقال أبلودور

(ص ٤٣) وهو أفولودوروس ، وقال أرقيزيلاس (ص ٧٩) وهو : Arcesilans ويرسم في العربية أرْقَسيلاوُس . وقال استلبون (ص ١٩) وهو إستانْفون . والأخطاء في هـذا الباب لا تـكاد تنتهي من الـكتاب .

وترجم المؤلف اسم كتاب إكزينوفانس المسمى Memorabilia فقال المذكرات ، وحقيقته « الذكريات » ، لأنه في الواقع لم يكتب في صورة مذكرات ، وانما كتبه صاحبه ذكريات عن عهد مصاحبته اسقراط ، وقال « بوليطوس الصيدوني » ، والنسبة الى مدينة صيدا Sidon صيداوي كما عرفها العرب، وقال السـيـلان (ص ١٢٥) والألطف السيولة ، وقد قال العرب السيولة والميوعة، وقال ممتدة (ص ١٢٥) والأوفق « ذات امتداد » ، وقال « الجواهر الفردة » (ص ١٢٤) مشيراً الى اللفظ الذي استعمله ليبنتز وهو "monad (s)" واستعمالها بمعنى الجوهر الفرد الذي هو "atom" فيه تخليط عظيم . فان جيوردانو برونو أول من استعمل هذا اللفظ (١٥٤٨ — ١٦٠٠) ثم انتحله ليبنتز (١٦٤٨ — ١٧١٦) وما استعمله ليبنتز الا ليتفادى بذلك معنى الجوهرية الذي قال به غسندي ، وعنده انه يدل على عدد من الوحدات الحقيقية لا امتداد لها، ولـكن في تضاعيفها حياة داخلية ليفرق بذلك بين المناود monads وبين الجواهر الفردة Atoms هذا ما قاله « مرتز » مؤرخ الفكر الاوربي في القرن التاسع عشر واليك النص الاصلي :

Monad a term first used by Giordano Bruno (1548—1600) and adopted in slightly different sense and brought into prominence by Leibnitz (1648—1716). To avoid the Atomism of Gassendi, he conceived a number of true unities, without extension, but endowed with the depth of internal life, thus distinguishing them from the atoms.

على هذا يتحتم علينا أن نعرب هذه الـكلمة فنقول في المفرد « مِنْوَد » وفي الجمع « المـنَاود » ونخصها بالمعنى الذي أفردها به ليبنتز . وغير هذا خطأ يجب التنبيه عليه .

كذلك قال « القورينائية وقورينا » . والحقيقة التي لا تقبل الجدل ان يقال القورينية وقورنية كما حققت ذلك في كتابي « فلسفة اللذة والألم » ص ٥٠ الى ٥٣

وذكر في (ص ١٢١) تعريفاً للـكان ناقصاً ، وهو تعريف لارسطو نقله عنه ابن سينا في رسالة الحدود . قال المؤلف ان المـكان (عن أرسطو) هو « السطح الباطن من الحاوي المماس للسطح الظاهر من المحوي » . والحقيقة انه ناقص كلمة « الجسم » فيكون « هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي »

والـكتاب من حيث الموضوع لا ينقص من قيمته مثل هذه الهنات . ونحن نهنىء المؤلف الفاضل بكتابه ونطالب منه المزيد فأول الغيث قطر ثم ينهمرُ .

الصهيونية

تأليف أنور كامل : ٦٢ صفحة من القطع الصغير : مطبعة الاعتماد ١٩٤٤

كتاب صغير الحجم كبير القيمة حسن الاسلوب اشتراكي النزعة عربي الروح . استعرض فيه مؤلفه نشوء الفكرة الصهيونية وأثبت بجلاء ووضوح ان لهذه الفكرة سياستين: سياسة سرية توجه دعوتها الى اليهود لانشاء دولة يهودية في فاسطين على انقاض العرب ، وسياسة ظاهرة توجه دعوتها الى التعاون مع العرب تخديراً لأعصابهم حتى تتمكن من السيطرة عليهم في النهاية

ولقد أظهر المؤلف كيف تقلبت النزعات اليهودية مع دورات التاريخ من العصر القديم الى العصر الاقطاعي ثم الرأسمالي ، وشرح كيف عملت الصهيونية منذ اواسط القرن التاسع عشر وجهدت في سبيل الاستيلاء على فلسطين وطرد العرب منها رويداً رويداً حتى يتم لهم انشاء مملكة يهودية فيها

جاء في ختام ذلك الكتاب : « ان التوسع الصهيوني هو في حقيقة امره نكبة من النكبات التاريخية تحل هذه المرة بالجماهير اليهودية المقيمة في فلسطين أو الزاحفة نحو فلسطين. ولن ينقذ هذه الجماهير من الدمار الاّ شيء واحد « هو انهيار الصهيونية » وقال اننا نحارب الصهيونية « لاننا نعتقد ، واعتقادنا مستمد من الواقع الاجتماعي والتاريخي ، ان الصهيونية حركة استعمارية مركبة »

ولعلّ المؤلف لم يرد ان يقول ان التوسع الصهيوني ليس نكبة من نكبات التاريخ سوف يحل بالجماهير اليهودية المقيمة في فلسطين فقط ، بل ربما حلت النكبة على غير المقيمين بفلسطين. وان قيام هذه الحركة في الشرق ومركزها فلسطين، سوف يخلق من هذا القطر بلقاناً آخر في الشرق أشبه ببلقان الغرب، وبهذا لا يجني أهل الغرب وأهل الشرق جميعاً إلاّ مرّ الثمرات.

ملك من شعاع

تأليف عادل كامل — ٢٠٤ صفحات من القطع الكبير : مكتبة مصر

ظاهرة طيبة ولا ريب بدأنا نلحظها أخيراً ، إذ شرع الكتّاب يولون وجوههم شطر مصر القديمة ويعدون أبصارهم الى تاريخها القديم ، ينهلون منه أدباً جميلاً وقصصاً بارعة ، وأخذوا يستغلون هذا المنجم الذهبي البكر ، ويفرغون كنوزهم في قوالب تتيح لأهل البلاد وجيرانهم أن يشاركوا الفراعين الأمجاد فيما خلفوه من تراث أبقى على الدهر من تراث الذهب والمال.

فأصدرت سمو الأميرة شيوه كار قصة مصرية عنوانها « نفر رس أس » ، وكتب الأستاذ عبد المنعم محمد عمر قصة عنوانها « ايزيس وأوزريس » ، ونشر الأستاذ عادل كامل قصة « ملك من شعاع » ، وأخرج الأستاذ علي أحمد باكثير مسرحية « الفرعون الموعود » فضلاً عن « أحمس » للاستاذ عبد الحميد جوده السحار و « أخناتون ونفرتيتي» للأستاذ باكثير ، و « رادوبيس » للاستاذ نجيب محفوظ وو ...

وكتاب « ملك من شعاع » الذي نحن بصدده ، وضعه الأستاذ عادل كامل المحامي واتخذ موضوعه من سيرة حياة اخناتون . أسبق الناس الى الاعتراف بوجود اله واحد ينبغي أن يعبده الجميع ، وأول من بشر بأن الله الذي خلق الكون وأبدع صوغه ، لا تنظره العين البشرية المجردة ، وانما يدركه العقل ويؤمن به القلب . وكان اختاتون أول من جرؤ على هدم الأصنام والتماثيل وتحطيم معابدها ، وجاهد ليحمل شعبه القصير النظر ، على اعتناق دينه والخروج من أفق المحسوسات الضيق الى عالم اللامرئيات الفسيح . كان اخناتون ، فرعون مصر ، عبقريًّا يعيش في عصر لا يؤمن الاَّ بالحجر والشمس والنجوم والماديات ، وكان عليه أن يكافح كفاح الأبطال ليقنع القوم بما يعسر على العقل القاصر ادراكه . ويعصى على العين رؤيته ، فوفق في هذه المهمة أولاً ، ولكن الشعب سرعان ما تألب عليه بايعاز من كهنة الأصنام ، وانقلب عليه يطلب دمه ويحكم عليه بالموت وينعته بالخيانة ، وبيع الوطن . ولكن المنية عاجلت اخناتون ، فمات حتف أنفه مغضوباً عليه من شعبه الذي أحبه وأخلص في خدمته ، مطعوناً في نزاهته من أصدقائه المقرَّبين ، وعلت شفتيه وهو مسجى في الفراش هامداً ، بسمة هادئة عذبة تنم عن راحة قلبية واطمئنان الى عدالة القضية التي نافح لتحقيقها

وقد أجاد الأستاذ عادل كامل ، وهو من الشبان الذين وفقوا في ممارسة فنون الأدب تحليل التطور الفكري لاخناتون ، وبين الخطوات التي استطاع أن يصل بها الى الحقيقة التي غابت عن أذهان معاصريه والسالفين له . وساق القصة ، وهي مزيج نادر من الفلسفة والأدب والمنطق ، في أسلوب جميل أخاذ ، فضلاً عن أن المؤلف ضمنها دروساً في السياسة والاجتماع وألواناً من الحب وضروباً من أفانين الدسائس ووسائل حبكها .

فقال عن الحرب « إنها العمى والعرج والبتر والكساح . إنها الأرملة فقدت زوجها والأم ثكلت ولدها والأخت تبكي أخاها والفتاة تندب حبيبها . . . انها المناحة العظمى تعمّ أرجاء الوطن ، والشقاء والحزن يخيمان على كل منزل . . . انها المجاعة والذلة والمرض حين تخلو الحقول من حارثيها والبيوت من عائليها ، وتنتشر المقاذر والخبائث في كل مكان . . . فليست الحرب هي الشرف ، بل هي الغدر والاغتيال والخديعة . أما الوطن فان مَن أحبه

حقاً كره الحرب . فمن يحب وطنه يسيئه أن يسلب وطن غيره ، كما ان من يحب زوجته لا يرنو الى زوجة جاره » . وعلى هذا النمط الروائي المنطقي ساق الاستاذ عادل قصته الرائعة .

انه حقاً كتاب جليل ، ولا غرو ، فقد فاز بالجائزة الممتازة في مسابقة وزارة المعارف وقد أحسنت لجنة النشر للجامعيين بنشر هذا الكتاب لأنه سد فراغاً طالما استشعرناه .

وديع فلسطين

دفاع عن البلاغة

جاء في استهلال هذا الكتاب الجديد الذي أخرجه الاستاذ احمد حسن الزيات أن السرعة والصحافة والتطفل هي البلايا الثلاث التي تكابدها البلاغة في هذا العصر .

ثم تقرأ بعد ذلك في ص ١٢٢ أن الفرق بين عصر وعصر في الأدب أو بين أديب وأديب في الأسلوب « لا يخرج عن قوة الرجولة في هذا وضعفها في ذاك . فعصر الجاهلية عند العرب واليونان ، وعصر الفتوح عند المسلمين والرومان ، وعهد الفروسية عند الفرنسيين والطليان، كانت أزهى عصور البلاغة ، لأن الرجولة كانت فيها بفضل النزاع والصراع في سبيل الحياة والغلبة والمجد أشد ما تكون تماماً واضطراماً وقوة » .

وهذا كله صحيح ، وهي جميعاً أسباب أصاب في تفصيلها صاحب الكتاب، ولو أنا نرى بعضها أولى بالتقديم لما له من أثر فعّال في الركاكة والعامية والغثاثة التي يريد دفعها بهذا الدفاع .

وضعف الرجولة عندنا في العصر الذي نعيش فيه ظاهرة ملحوظة ، تجدها في تخنث الشباب ، وعبث الصحافة ، وتفاهة الاذاعة ، وتشهدها في تسكع الكهول والشبان على المقاهي ، وانصراف المتعلمين عن الاشتغال بالأعمال الحرة ، وهي البلية كل البلية في تدهور البلاغة وفساد الذوق ، وتفاهة الأدب .

والأستاذ الزيات من شيوخ البلغاء في مصر والشرق ، جمع بين الثقافتين ، ونقل الى العربية من عيون الأدب الغربي روائع زانها أسلوبه العربي حلاوةً ورشاقةً وجمالاً وجلالاً مع أمانة النقل ودقة التعبير . فأثبت بذلك أن العيب ليس عيب اللغة ، ولكنه جهل الناقلين وعجز المترجمين

الكتاب دفاع عن البلاغة ، ودفاع عن شخص مؤلفه وعن كل صاحب مذهب في البلاغة وتعريف بالأساليب ، وفتح في الأدب جديد ، وتوجيه للشباب والمتأدبين ، وذكرى للقائمين على شئون العلم والتعليم .

واعتقادي أن الروح الصادق القوي المسيطر على هذا الكتاب انما انبعث من أعماق نفس الأستاذ الزيات فكان صدًى لما يحس وتعبيراً لما يشعر . فاذا علمت أنه كاتب رشيق العبارة، أنيق الأسلوب ، يلتزم السموّ ويترفع عن الاسفاف والعامية ، ولكنه مع رشاقته بعيد عن التكلف ، مرتفع عن الاستكراه والتعسف ، حتى لقد تجهد في تغيير لفظة بدل أخرى فتعجز، فقد تفهم بعد ذلك السر في مهاجمة بعض عجزة الأدباء لحملة الأقلام وزعماء البلاغة فيرمونهم بالتكلف والتصنع ، والبون شاسع بين ما يصدر عن الشعور الصادق بالتعبير الجميل وبين ما يتأثر فيه الكاتب خطى المتقدمين مع النقل والتقليد .

والكتاب بعد ذلك دراسة عميقة لخصائص الأسلوب ، جمعت بين آراء القدماء والمحدثين فتقرأ معنى لعبد القاهر الى جانب فكرة لبيفون ، أو رأياً للجاحظ يتبعه رأي لفلوبير ، مع الاقتباسات الملائمة من عيون الأدب ، والأخبار الطريفة التي تبعث الشوق وتدفع السأم .

وخلاصة الرأي في الاسلوب أن الهندسة الروحية لملكة البلاغة ، وأن البلاغة التي نعنيها هي البلاغة التي لاتفصل بين العقل والذوق ، ولا بين الفكرة والكلمة ، ولا بين الموضوع والشكل : إذ الكلام كائن حي روحه المعنى وجسمه اللفظ ، فاذا فصلت بينهما أصبح الروح نفساً لا يتمثل ، والجسم جماد لا يحس » .

غير أن الأستاذ الزيات ، بالرغم من أنه ميز في الأسلوب بين الصورة والفكرة ، أو بين التركيب والمعنى ، فانه يميل في ميزانه الى جانب الأسلوب ، فهو يجعل نسبة الصورة الى الفكرة نسبة اثنين الى واحد ، كما هي نسبة الايدروجين الى الاوكسجين في الماء .

وهذه قضية قد تكون موضع خلاف ، ونحن نرى أن عكسها أدنى الى الصواب .

قال في ص ٢٥ « والحق أن أظهر الدلالات في مفهوم البلاغة هي أناقة الديباجة ووثاقة السرد ونصاعة الايجاز وبراعة الصنعة، فاذا كان مع كل ذلك المعنى البكر، والشعور الصادق، كان الاعجاز » .

ومن القضايا التي تحتاج الى إثبات ما يقرره في فصل « البلاغة بين الطبع والصنعة » في قوله : البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة لا صناعة مكسوبة .

وهذا يناقض ما جاء في ص ١٠٧ « أريد أن أقول ان توخي الجمال المطبوع في الأسلوب أصل في طبائع الناس امتد منها الى تكوين اللغة وانشاء الأدب ، فاذا سلمت في المنشىء الفطرة وواتته الملكة وساعده الاطلاع . . . صدر عنه الكلام رقيقاً من غير قصد ، أنيقاً من غير كلفة » .

وما دامت خصائص الأسلوب كما جاء في الكتاب هي الاصالة والايجاز والتلاؤم ، فليس ما

يمنع من تعلم الناس الأساليب الجيدة ، فاذا عجزوا كان العيب راجعاً الى التعليم . وفي الكتاب اشارة صادقة الى ذلك حيث يقول «ان معلمي اللغة في كل أمة هم وحدهم المسئولون عن تكوين الذوق السليم والخلق القويم في الناشىء».

الحق ان هذا الكتاب مرآة للحياة الأدبية المناصرة ، فيه تحليل عميق وأدب رفيع ، وجرأة في الحق نادرة ، واشراف على التيارات الأدبية المختلفة في مصر والشرق .

احمد فؤاد الاهوانى

فن القصص

١٣٦ صفحة من القطع الوسط — نشرته مجلة الشرق الجديد — مطبعة الرغائب

إذا ذُكرتْ القصة الحديثة في الأدب العربي ذكر معها اسم محمود تيمور فهو الذي جاهد في سبيل إرساء دعائمها ، وجاهد في سبيل النهوض بها ... وكان نجاحه فيها سبباً في اجتذاب أقلام كثيرة وخلق مواهب جديدة وكانت جهوده في هذا السبيل نقطة تحوّل في الأدب العربي كان من نتائجه أن أصبح فن القصة أحبَّ الفنون وأقربها الى النفوس .

فاذا جاء اليوم ووضع كتاباً عن فنّ القصة فان هذا الكتاب يكون خلاصة تفكير بعيد ، وثمرة جهاد شاق . ويكون نهجاً يضعه خبيرٌ لمن يتصدى لهذا الفن ببصره ويهديه ويسلك به إلى الطريق السوي .

والكتاب كما قدمته أسرة الشرق الجديد يشتمل على ثلاثة موضوعات رئيسية أولها قضية اللغة العربية وهو بحث قيم أبان فيه العوامل التي تمهد للعربيـة وسائل النمو المطرد واستكمال السلطان التام وتقرّب بين لغة الكلام فترفعها وتزيل الفوارق بينها وبين لغة الكتابة .

ثم الموضوع الثاني يتناول فن القصة ، وهو كما قلنا خلاصة تجربة ونتيجة درس ونصائح خبير . أما الموضوع الثالث فهو تذييل الكتاب بثلاث من أقاصيص المؤلف الرائعة هي « على المشنقة » و « إحسان لله » و « في ظلمة الليل » وهي تصور للقارىء مذهب المؤلف في فنه القصصي .

ولقد أحسنت دار الشرق الجديد إذ اخرجت هذا الكتاب لأنها قد سدّت به فراغاً في المكتبة العربية كانت في حاجة اليه فجاء على يد من يحسن الكتابة فيه .

الصيرفى

ظهر العدد الأول من مجلة « الكتاب » ناطقاً بلسان عربي مبين ، لابساً حلة من العروبة زاهية الألوان رائعة البيان . وكفى بمجلة تصدرها دار عربية أصيلة في العروبة ، أن تكون للسان العرب الجنة الفيحاء . ولروح العرب المربى السائغ ، وللوطنية العربية المنهل العذب .

دار المعارف التي تصدر عنها « الكتاب » دار عربية أصيلة في العروبة . رسيسة في خدمة العرب والعربية . دار تمت الى المصرية بأسباب ترجع الى نيف وخمسين سنة ، كانت في خلالها موئلاً للبلاغة ، ومجتمعاً للأدباء ، ومنهلاً لرواد الأدب ، وعلماً في حركة العلم يشار اليه بالبنان .

والصحافة المصرية خاصة ، والعربية جمعاء ، لتهتز أعطافها غبطة بأن يكون لهذه الدار الكريمة ، ممثلة في « الكتاب » ، يد في الارتفاع بالصحافة الادبية العربية الى أسمى الذروات ، على كر الايام ، ومر الاعوام .

العصر العباسي الاول

دراسة في التاريخ السياسي والاداري والمالي

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري — صفحاته ٣٠٤ من قطع المقتطف .
طبع بمطبعة التفيض الاهلية ببغداد

وضع الدكتور عبد العزيز الدوري كتاباً دقيقاً علمياً مفصلاً عن « العصر العباسي الأول » ليس في نظر من يتصفحه سوى دراسة في التاريخ السياسي والاداري المالي في ذلك العهد ، ولكنها ناحية هامة من حياة الأمم لأنها كالمرآة الصافية التي تنعكس عليها صورة حقيقية للحياة العامة والخاصة على السواء ، وقد كتب الكثيرون عن تاريخ العرب والحوادث السياسية فيه وقد جاء هذا الكتاب باكورة البحوث العلمية الدقيقة عن ناحية هامة من نواحي الحضارة العربية وعلومها ومعارفها ، ويكفي أن يطلع القارىء على المراجع التي اغترف المؤلف من منهلها العذب بعض أبحاثه ليدرك أي جهد بذل في سبيل العلم .

فن انشاد الشعر العربي

٧٦ صفحة من قطع المقتطف — مطبعة الآباء الفرنسيسيين بالقدس الشريف

هي رسالة وضعها الأب أغسطس فكيني الفرنسيسي ونقلها الى العربية الأب اسطفان سالم الفرنسيسي والدكتور اسحق موسى الحسيني أراد فيها مؤلفها أن يضع قواعد ثابتة لانشاد الشعر العربي انشاداً صحيحاً الى جانب الفائدة التي تعود على الناظمين من هذه القواعد وذلك باثباته كتابة برموز موسيقية حديثة ليضمن وحدة الايقاع الشعري ودقة اخراجه وهي رسالة لها قيمتها الفنية التي نرجو أن يقبل عليها المهتمون بالشعر العربي وانشاده .

فهرس



الامير بشير

نقلاً عن صورة زيتية صنعت في الاستانة وتاريخها سنة ١٨٥٥ . أي بعد موت الامير بخمس سنوات . وهذه الصورة محفوظة في قصر بيت الدين

المقتطف

الجزء الخامس من المجلد السابع بعد المائة

١ دسمبر سنة ١٩٤٥ — ٢٦ ذي الحجة سنة ١٣٦٤

بحث علمي تصنيفي

الثدييات

Mammalia

اختلف الكتّاب زمناً ، ولا يزالون مختلفين ، في وضع المقابل العربي للمصطلحات التي تعبر عن طبقات الاحياء في علم التصنيف Taxonomy (أو) Classification ، ويقصد به ترتيب أصناف مملكتي الحيوان والنبات ترتيباً تطابقيًّا ، بحيث يظهر من ذلك الترتيب سلسلة تطورها ومتواليـة نشوئها ، على قدر ما يؤهل بالباحثين علم الاحياء الوصفي ، وأقصد به ما جرينا على تسميته الى الآن علم التـاريخ الطبيعي حيناً ، وعلم المواليـد حيناً آخر ، والمصطلحات الثلاثة طيبة ولا مأخذ عليها ، فلا حرج من استعمالها مترادفة .

***

ومن أجل أن نتكلم في الثدييات التي هي الشعب الأعلى في الفقاريّـات ، ينبغي لنا أن نذكر هنا ما انتهى اليه مجمع اللغة العربيـة في مصطلحات التصنيف ، وبالحري المصطلحات الدالة على مختلف الطبقات . واليك هي :

العَالَم	Kingdom	العشيرة	Group
العُوَيْلِم	Sub-Kingdom	العُشَيْرة	Sub-group
الأمَّة	Phylum	الفَصِيلة	Family
الأُمَيْمة	Sub-phylum	الفصيِّلة	Sub-family
الشَّعْب	Class	الجنس	Genus
الشُّعيْب	Sub-class	الجنيْس	Sub-genus
القَبيلة	Order	النوع	Species
القُبيِّلة	Sub-order	النُّويْع	Sub-Species
العِمارَة	Tribe	الضرب	Variety
العُميِّرة	Sub-tribe	الضُّرَيب	Sup-variety

وهنالك مصطلحات أُخرى لا تدخل في باب التصنيف ، وإنما تدخل في بحوث الوراثة كالنسل والسلالة والبطن والعترة ليس هذا موضع ذكرها .

والثدييات في طبقات التصنيف شعب : Class ، أما الكلمة المستعملة : Mammals فترجمتها ذوات الثدي ، والكلمة الاصطلاحية : Mammalia : الثدييات ، وهو اصطلاح يسهل استعماله لغويًّا . ذلك بأن الثدييات لفظة تؤدي أغراض اللغة كاملة ، وتتصد أغراض الاستعمال اللغوي من إفراد وتثنية وجمع ونسبة الى غير ذلك ، فنقول ثديي وثدييان وثدييات ، وتتفادى بذلك ما يقتضيه اثبات اللفظ « ذوات » من الصعوبات إذ سماها بعضهم « ذوات الثدي » . وقد أجاز مجمع اللغة هذا الاصطلاح .

وقد اختلف كثير من الكتَّاب على تسمية الطبقة المعينة للثدييات في تصنيف الفقاريَّات فسماها بعضهم « طائفة » وقال الآخرون « قسم » وغيرهم « مرتبة » ، والاصلح أن نجري على ما أقرَّه مجمع اللغة ، فلفظة « شعب » هي عندي أصلح هذه الالفاظ . بل لقد تطرَّف أحدهم في تعريف معجمي فعرَّب المصطلح وقال « المامَاليا » ، وهذا إفراط لا موجب له.

فان الثدييات إحدى شعوب ستة تنقسم اليها مملكة الحيوان ، وهي :

الثدييات	Mammalia	البرمائيات	Amphibia
الطيور	Aves	الأسماك	Pisces
الزواحف	Reptilia	الفقاريات الدنيا	Lower Vertebrates

هذا عند الذين يعتبرون الفقاريات مُمَيْلِكة من مملكة الحيوان . والذين هم على هذا أكثرية ، وعلى مذهبهم يتعين أن تكون الثدييات شعْباً : Class ، وهنالك طائفة اخرى ، وهم أقلية ، يعتبرون الفقاريّـات مملكة Kingdom ، وبذلك يتعين أن تسمى كلٌّ من طبقاتها « أمة » : Phylum . وكلا الاعتبارين يمكن الحصول على ما يؤيده علميًّا في التصنيف . على أن الأكثرية هم الذين يعتبرون الفقاريّات مُمَيلِكَة ، ورأيهم أثبت .

كذلك ينبغي ان ننبه على خطإٍ شائع . ذلك قول بعض الكتّاب « ذوات الفقرات » تعريفاً بالفقاريّات . ذلك بأنَّ الفَقَرات والفقارات جمعان يستعملان لغويًّا لتمييز العدد لا غير . وإنما الجمع المستعمل للدلالة على الجنس هو الفَقار . وظنيّ أنه لم يرد غير ذلك في كلام لغويّ . وانظر قول ابن منظور في لسان العرب « فَقَار العجز ست فقارات » . فهو يذكر الفقار للدلالة على الجنس ، ويميز العدد بالفَقَارات . ألم نسمع بأن سيفاً لعلي بن أبي طالب سمّي « ذا الفقار » ، لأن به فقاراً يشبه فقار الظَّهْر ؟

أما تفضيل ترجمة مصطلاح : Mammalia بالثدييات فأرجح وجوهه إنها ترجمة على الحقيقة تدل على الصفة الذي أخذ منها المصطلح الأعجمي . على العكس مما لو سميناها « الحيوانات اللَّبُون » أو « اللبونة » كما قال بعضهم خطأً ، فان ذلك يكون وضعاً على المجاز ، لا ترجمة تطابق المعنى الاصلي ، أي على الحقيقة .

ومحصّل ما مضينا فيه من بحث هو أن — « الثدييات شعب من مملكة الحيوان (أو مميلكة الفقاريّات) يمتاز أفراده بأن لها ثُديًّا تفرز اللبن لتغذية الوَلائد » .

وقد دخل هذا الاصطلاح في الاستعمال العلمي في اللغات الأوربّية في أواسط القرن الثامن عشر فذكرتها الموسوعة البريطانية سنة ١٧٧٣ (ج ٣ ص ٣٦٢) . ثم جرى على استعمالها العلماء .

ومما يؤيد ما أذهب إليه في ترجمة هذا الاصطلاح ما جاء في كتاب كمبردج « للتاريخ الطبيعي » (ص ١ ج ١٠) ففيه ما يلي : « اشتق اسم الثدييات من أظهر صفة فيها ، وهي أن لها أثداء وحلمَات . أما إذا أريد استعمال الاصطلاح بمعنى حرفي ، بحيث لا يحمل من الدلالة أكثر مما يجيز اشتقاقه ، فانه لا يشمل المسلكيّات Monotremes أو Monotremata ذلك بأن هذه التَّميلَة إن كان لها غدداً ثدييّة ، فان حلماتها لم تبلغ من التَّضَغيّ والظهور حدًّا كبيراً . غير أن في المسلكيّات من جهة أخرى صفات تلزمنا اعتبارها من الثدييّات »

أما تصنيف الثدييات فقد أهتديت إلى آخر ما يستنتج من بحوث المواليديين فيه بحسب اعتبار ثقاتهم . فالتصنيف التالي من وضع الأستاذ « ليدكر » Lydekker ، وهو كما يرى

تصنيف يبدأ بالطبقة العليا وينتهي بالطبقة الدنيا :

شعب الثدييات : Class : Mammalia

الشُّعَيب الأول : Sub-class I

Viviparous Mammals (Eutheria or Vivipara)

الثدييات الولود — أو — الولودات

القسم (ا) : Section A

المشيميَّات : Placentals or Placentalia

القبيلة ١ — الرئيسات	Order 1 Primates
« ٢ — الخُفّاشيات	„ 2 — Chiroptera
« ٣ — الحشريات	„ 3 — Insectivora
« ٤ — اللواحم	„ 4 — Carnivora
« ٥ — القواضم	„ 5 — Rodentia
« ٦ — الأناعيم	„ 6 — Ungulata
« ٧ — الخَيْلان	„ 7 — Sirenia
« ٨ — الحيتان	„ 8 — Cetacea
« ٩ — الدرداوات	„ 9 — Edentata

القسم (ب) : Section B

اللامشيميَّات : Imblacentals (or) Implacentalia

القبيلة ١٠ — الجِرابيات	Order 10 — Marsupialia

الشعيب الثاني : Sub-Class II

Egg-laying Mammals (Hypotheria or Ovipara)

الثدييات البيوض (أو) البيوضات

القبيلة ١١ — المسلكيات	Order 11 — Monotremata

أما التصنيف التالي فمن كتاب كمبردج للتاريخ الطبيعي في الجزء الخاص باللدييات تأليف الأستاذ « بدرد » F. E. Beddard ، وهو كما يرى تصنيف يبدأ بأسفل الطبقات وينتهي بأعلاها .

شعب اللدييات : Class : Mammalia

شعيب الفوارط I. Sub-Class : Prototheria

القبيلة ١ـ المسلكيات أو اللأوذريات Order I — Monotremata or Allotheria

شعيب الولودات : II. Sub-Class : Eutheria

القبيلة ٢ — الجرابيات	Order 2 — Marsupialia
« ٣ — الدرداوات	,, 3 — Edentata
« ٤ — الشّنيبات	,, 4 — Ganodonta (ext.)
« ٥ — الانانعيم	,, 5 — Ungulata
« ٦ — الخيلان	,, 6 — Sirenia
« ٧ — الحيتان	,, 7 — Cetacea
« ٨ — اللّواحم	,, 8 — Carnivora
« ٩ — القرميّات	,, 9 — Creodonta (ext.)
« ١٠ — القواضم	,, 10 — Rodentia
« ١١ — النّهّاسيات	,, 11 — Tillodontia (ext.)
« ١٢ — الحشريات	,, 12 — Insectivora
« ١٣ — الخفاشيات	,, 13 — Chiroptera
« ١٤ — الرئيسات	,, 14 — Primates or Primata

والذي يتضح من الموازنة بين التصنيفين ان الأستاذ بدرد يزيد على تصنيف الأستاذ ليدكر ثلاث قبائل جميعها بائد ، هي المعرفة بالأرقام ٤ و ٩ و ١١ (ext.) وغرضه من هذا أن يبين طريقة التسلل في الطبقات وتطور وجودها. وفيما عدا ما ذكر فالخلاف بينهما ضئيل .

اسماعيل مظهر

دار الامارة

أو

قصر بيت الدين

شادها المولى الشهابي الذي جاءَ بالسعد بشيراً للانام
وعلى باب الحمى قد أرخوا دام نصر فادخلوها بسلام — ١٢٤٥

على قمة من قمم لبنان وفي رأس وادٍ شديد الخضرة بديع المنظر والى جانب شلال من الماء الزلال قصر باذخ متين البنيان رفيع الاركان يشرف على دير القمر وبعقلين ويمتد البصر منه الى البحر بحر الروم

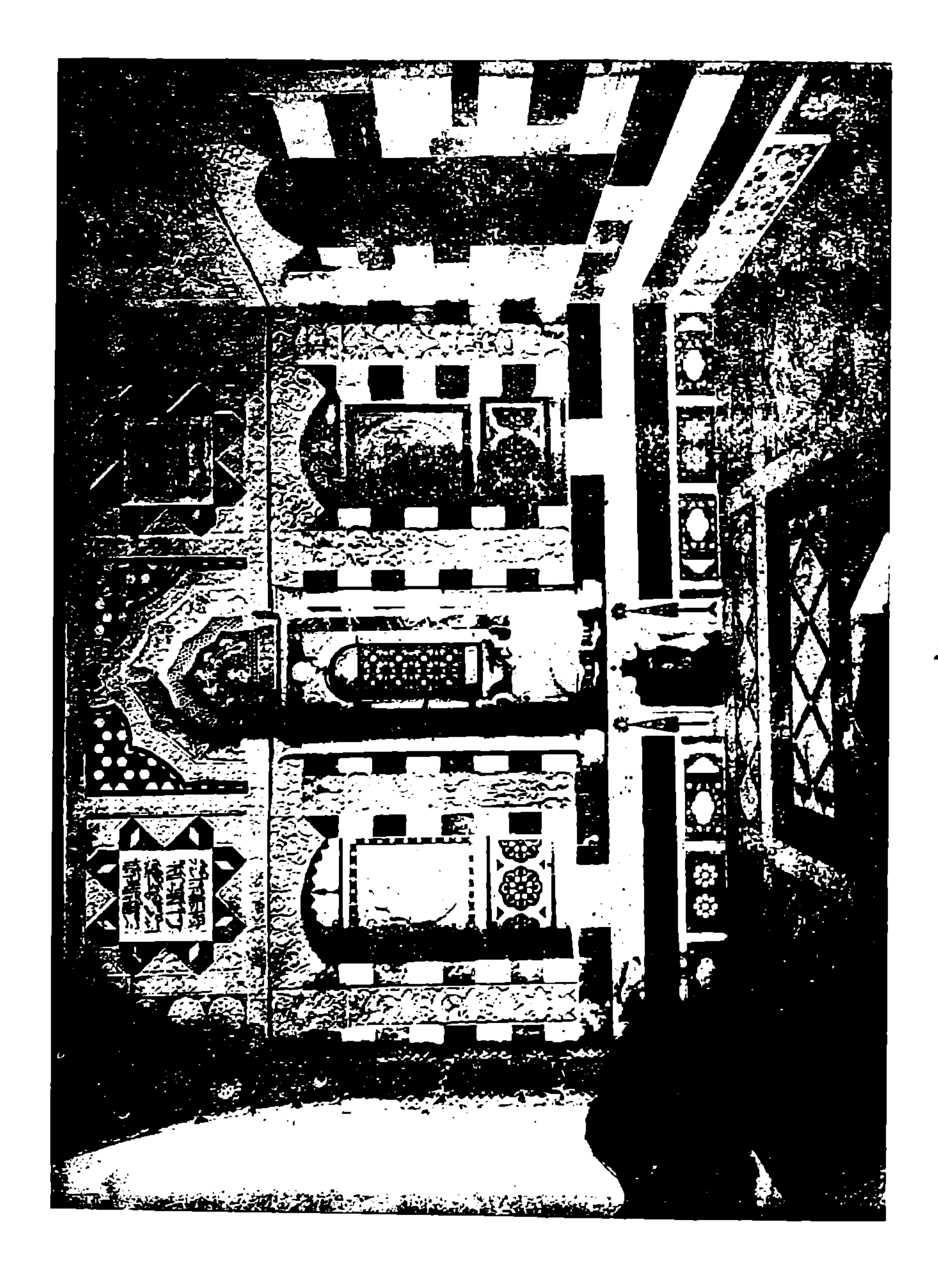
هذا هو دار الأمارة أو قصر الأمير بشير شهاب أمير لبنان وحليف محمد علي وابراهيم

والقصر بما حوى من دور فسيحة وفسقيات بديعة وأبهاء وحجر وحمامات شرقية فائقة الجمال يدل على خلق صاحبه وسمو تفكيره وحسن تدبيره وجمعه بين القوة والجمال والحسن والجلال

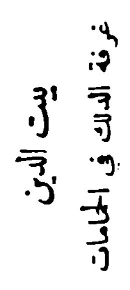
وقد عمدت حكومة لبنان الى اصلاح القصر وترميمه واعادته الى سابق بهائه وبناء بوابته الكبرى ومدخله المقوّس الى الميدان ، وقد نسفا بانفجار الذخيرة العسكرية في سنة ١٩١٢

وعهدت في هذا الاصلاح والترميم الى عالم أثري كبير هو الأمير موريس شهاب مدير مصلحة الآثار اللبنانية فدرس تاريخ القصر وجمع ما استطاع الوقوف عليه من صوره ووصفه ووضع خططاً محكمة للاصلاح والترميم واستعان بصناع بارعين من البنائين والنجارين وجلب من دمشق وسواها أبواباً ونوافذ وسقوفاً عربيــة من الخشب المزخرف والمطعم والملون لاستعمالها في الترميم





بيت الدين



بيت الدين
غرفة الدلك في الحمامات

والقصر يجمع بين الحسن والفخامة وله حديقة من الحدائق التي صنعت للاحلام والى جانبها حمامات شرقية لثلاثين مستحمًّا أرضها من الرخام المجزع المختلف الألوان وفيها أجران من المرمر ينحدر اليها الماء الساخن والماء البارد من حنفيات في واجهات بديعة من الرخام الملون والفسيفساء

***

وأجمل ما في القصر البهو الكبير المعروف بقاعة العمود سمي كذلك نقلاً عن بهو كبير في قصر دير القمر قائم على عمود ضخم في وسطه

وقاعة العمود مزخرفة الجدران بالأساليب الشرقية البديعة من رخام ملون ومقرنص ومنقوش ومحفور وفيها استقبل الأمير بشير ابراهيم باشا الكبير

والسقف عربي مذهب وقد جدد من نحو ٤٠ عاماً فزاد البهو جمالاً وبجواره مدخل دار الحريم تعلوه قنطرة كبيرة تستوقف النظر وجدران جميلة المنظر كثيرة الألوان وقد نقش عليها أبيات شعر من نظم المعلم بطرس كرامة كاتبة (سكرتير) الأمير وهو ناظم البيتين اللذين نشرناهما في صدر هذا المقال وقد نقشا على باب القصر الأكبر المؤدي الى صحن الدار العظيم حيث الفسقية الكبرى

وفي دار الحريم غرف كثيرة للنوم وأبهاء للاستقبال وهذه الأبهاء مزخرفة وأرضها من بلاط الرخام المختلف الألوان

وفي الحديقة قبة تحتها قبر من الرخام الجميل دفنت فيه زوجة الأمير الأولى فرقدت في محيط من النور والحسن والبهاء

ورقد قرينها العظيم في دير أرمني في استانبول حيث توفي منفيًّا بعد خروج ابراهيم باشا من سورية ولبنان

***

وبعد حوادث ١٨٦٠ وانشاء حكومة المتصرفية في لبنان اشترت الدولة العثمانية القصر من زوجة الأمير الثانية وجعلته مقرًّا لحكومة لبنان المركزية وأضيف اليه بعد ذلك مبانٍ

لايواء بعض مصالحها كمجلس الادارة ومحكمتي الاستئناف وثكنا للجند وقد هدمت هذه الثكن الآن لاعادة القصر الى شكله السابق

وفي الدور الأرضي للقصر أقبيـة عظيمة كانت اصطبلات لخيـل الأمير ورجاله وهي متصلة بالحديقة

والقصر كله مجهـز بالماء وفي أقسامه فسقيات كبيرة وصغيرة تسقى بماء نبع القاع ، وقد جره الأمير صاحب القصر مسافة ١٧ كيلو متراً وانتهى في بيت الدين تجاه القصر الى شلال جميل يسمع صوت انحدار مائه في ذلك الوادي كله

وبنى الأمير قصوراً لأنجاله الثلاثة وهم الأمراء قاسم وأمين وخليل

وبنى لنفسه مصيفاً فوق بيت الدين هو الآن كرسي مطران الطائفة المارونيـة لصيدا ودير القمر . وقد جدد سيادة المطران أغسطين البستاني بناءه وبنى فيه كنيسة بديعة الصنع

***

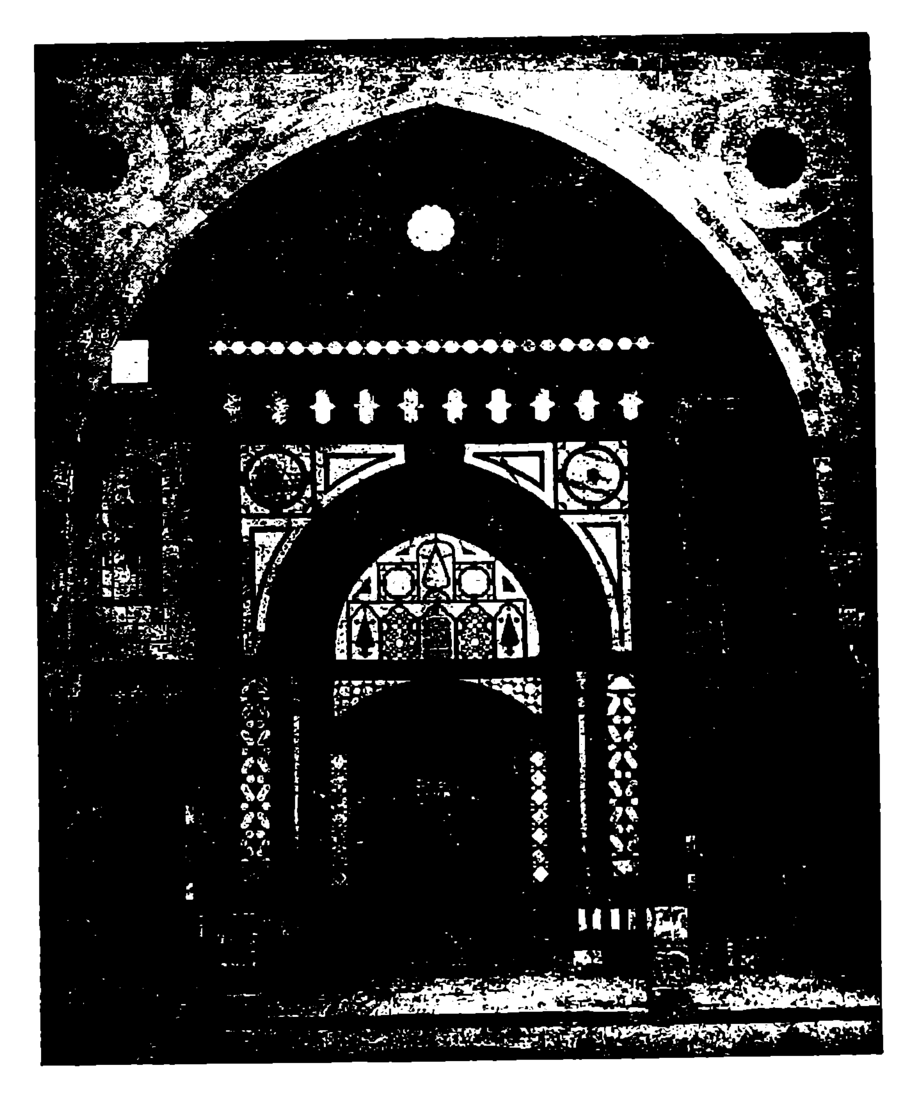
وهناك مشروع ابناء فندق كبير في بيت الدين يجر اليه ماء الشلال قبل انحداره ويشترط الأمير موريس شهاب أن يكون طراز بناء الفندق كطراز بناء القصر

واقترح بعضهم بناء كازينو منفصل عن الفندق

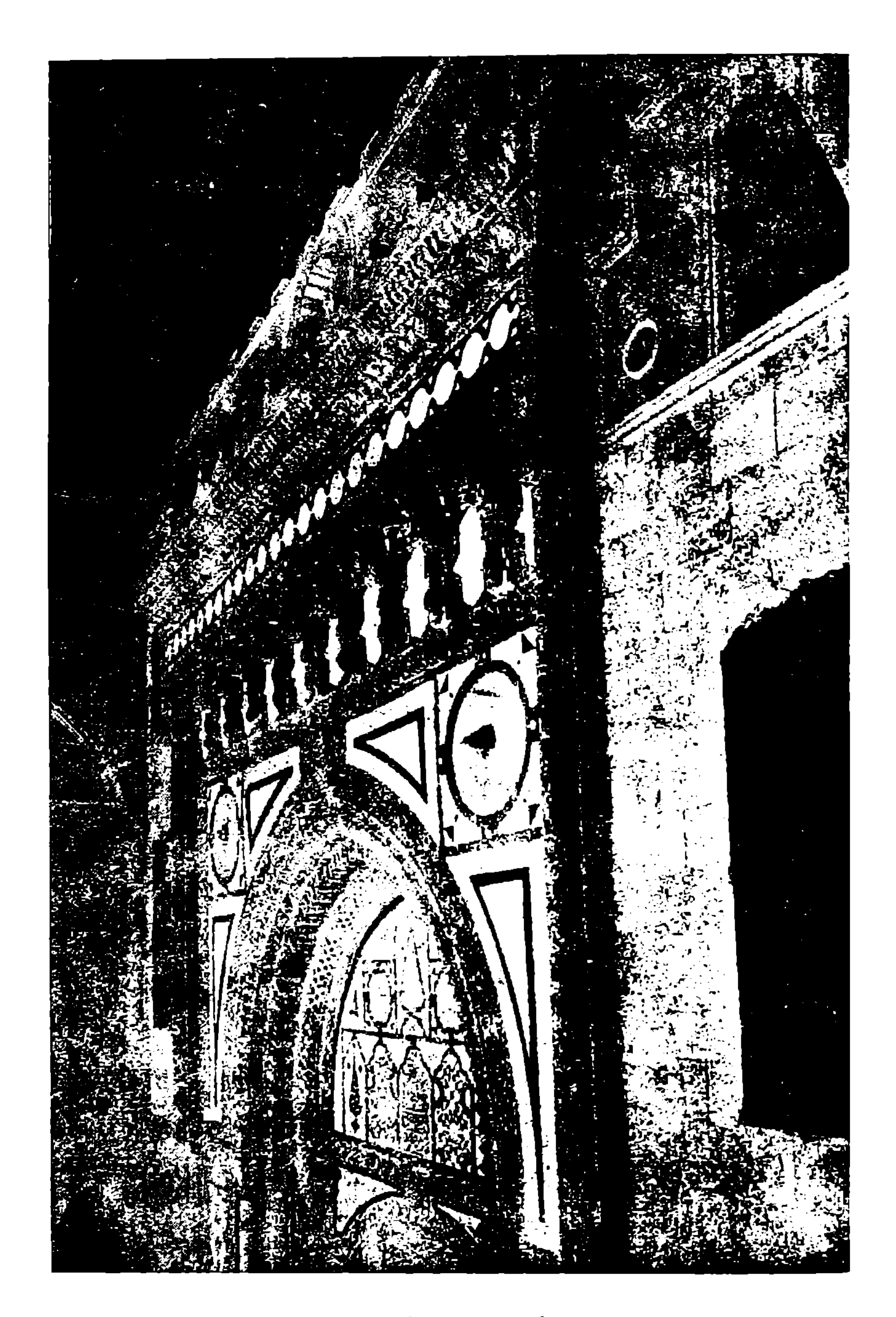
وشرعت الحكومة اللبنانية تصلح الطرق المؤدية الى بيت الدين من أربع جهات وعينت لذلك مليوني ليرا لهذا الغرض

وهناك حركة يراد بها نقل رفات الأمير صاحب القصر من مدفنه في استانبول الى لبنان فيدفن في حديقة قصره لينعم به في مماته كما نعم به في حياته

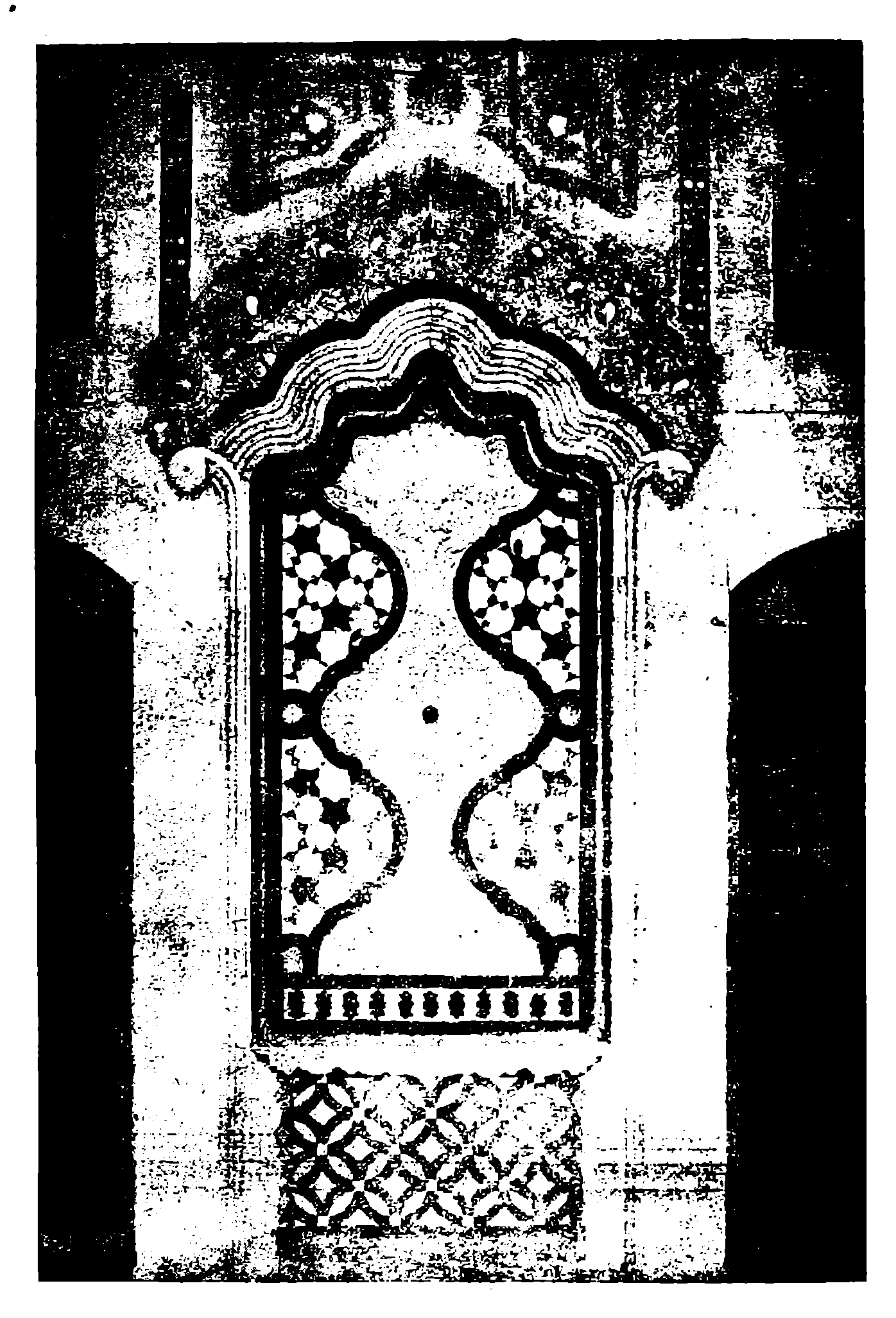
وقيل لنا أن فخامة رئيس الجمهورية اللبنانيـة سيقضي جانباً من فصـل الصيف في هـذا القصر وهو يزوره الآن ويقـيم فيه أياماً وليـالي في الصيف فيشرف على أعمال الاصلاح والترميم ويستريح من عناء الأعمال الرسمية ويمتع النفس بمناظر تشرح الصدور وتقر العيون .



باب دار الحريم في قصر الأمير بشير



نقوش المدخل الكبير لدار الحريم السفلي والسلاملك



حنية في إيوان دار الحريم العليا



قاعة استراحة

في قصر الامير بشير

إبل العم سام

لما أمعنت الولايات المتحدة الأميركية في التبسط غرباً الى ما وراء المسيسبي ، أخذ بعض المفكرين وأصحاب المصالح فيها يهتمون بتسهيل سبل المواصلات بين الولايات الشرقية والبلاد المفتوحة جديداً . وزاد هذا الاهتمام على أثر الحرب المكسيكية التي انتهت سنة ١٨٤٨ اذ غنمت الولايات المتحدة البلاد التي تشغلها الآن ولايات اريزونا ونيفادا ويوتاه ونيو مكسيكو وكاليفورنيا وأقسام من ولايتي ويومنغ وكلورادو .

ولم تكن السكك الحديدية مدّت الى الجبال الصخرية [1] بل كان الاعتماد في النقل والانتقال على العربات والخيل والبغال أو على السفن تدور حول أميركا الجنوبية بطريق مضيق مجلان . واهتمت وزارة الحربية كثيراً بأمر المواصلات في هذه البلاد الجديدة لأنها أقامت كثيراً من الحاميات العسكرية لتأمين المهاجرين الذين تقاطروا لاختطاط الأراضي الزراعية أو للبحث عن الذهب الذي اكتشف في كاليفورنيا سنة ١٨٤٨ . فزادت نفقات الحكومة كثيراً لكثرة الحاميات وتفرقها وصعوبة نقل مؤنها ومعداتها .

وقام أناس يشيرون باستيراد الابل والاعتماد عليها بدلاً من الخيل والبغال لأن البوادي تكثر في هذه البلاد الجديدة كما تكثر في البلاد العربية وشمال افريقية فلا شك ان الجمل يصلح بها .

وتألفت في نيويورك شركة لاستيراد الجمال والراجح عندي انها وقفت دون اتمام العمل ولم تستورد شيئاً . وقيل ان الاسبانيين جربوا الجمال في بيرو فوجدوا الياما llame أصلح منها في تلك البلاد . وجلب أحد الجلا بين بعض الجمال الى فرجينيا حوالي سنة ١٧٠١ وجربها بعضهم في جامايكا فلم تأت هذه المساعي كلها بفائدة .

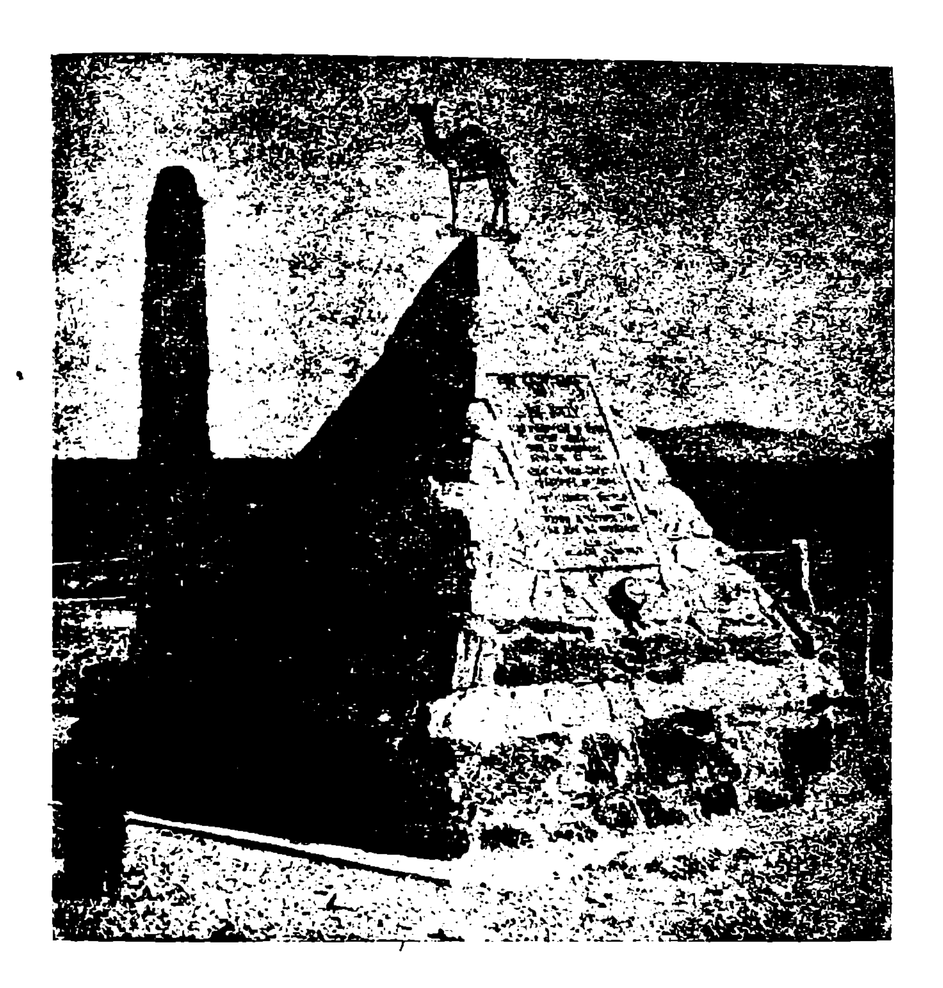
ولما تولى جفرسن دايفس [2] وزارة الحربية الأميركية رأى أن يستورد بعض الإبل

---

(١) تم مد السكة الحديدية التي وصلت الباسفيكي بالاتلنتيكي أولا سنة ١٨٦٩ .

(٢) هو الذي تولى بعد ذلك رئاسة الولايات الجنوبية التي خرجت على الاتحاد الاميركي في الحرب الاهلية الاميركية

فوافقه الكونغرس وخصص في ٣ من مارس سنة ١٨٥٥ ثلاثين الف دولار لهذا الغرض. وانتدب للمهمة ضابطين هما الماجر « هنري واين » Wayne والملازم « دايفد بورتر » Porter . فتولى « واين » أمر شراء الجمال وما يلزمها وتولى « بورتر » أمر السفينة التي خصصت لنقلها.



النصب التذكاري لابل العم سام

وسافر واين إلى أوربا ليجمع المعلومات عن الجمال ثم وافاه بورتر بالسفينة فتوجها الى تونس حيث اشترى « واين » جملا وأهداه الباي جملين . وأتيا الاسكندرية وكانت الحكومة المصرية قد حظرت إخراج الحيوانات من مصر ولكن سمح لواين بشراء بعض الجمال بإذن خاص فاشترى تسعة كان أفضلها ناقة عمانية وفحل سناري . ولم يذهب الى

الموانىء السورية إذ لم يكن فيها وسائل لنقل الجمال من البر الى السفينة فتوجه الى أزمير فاشترى فيها من الجمال ما اشترى ولكن بأسعار عالية إذكانت حرب القرم دائرة الرحى والجمال تشترى بالألوف للشؤون الحربية . ثم زار استانبول وبلاكلافا في القرم حيث أكرمه الضباط الانكليز وأطلعوه على كل ما شاء من أمر الجمال التي كانت معهم .

وقفلت السفينة راجعة بطريق أزمير والاسكندرية وكان فيها عدا الابل أناس استؤجروا من مصر وأزمير ليعتنوا بالجمال ويتعلم منهم الأميركيون . ووصلت الى اندياًنولا بساحل تكسس في ١٤ من مايو سنة ١٨٥٦ فأنزلت الى البر ٣٣ جملاً وبضعة من الجمّالة المستأجرين ، ثم عادت الى البحر المتوسط فعادت سنة ١٨٥٧ بسبعة وأربعين جملاً أخرى .

وسيقت الابل كلها الى « كامب ڤردي » على نحو ٦٠ ميلاً من سان انطونيو حيث شغلت في فتح الطرق ونقل اللوازم العسكرية .

***

وانتدبت وزارة الحربية الملازم « ادورد بيل » Beale ليرود طريقاً من فورت دفاينس بنيو مكسيكو الى القسم الجنوبي من كاليفورنيا على محاذاة الخط الخامس والثلاثين في العرض الشمالي . وجهّزته بما يلزم من الرجال والخيل والبغال و ٢٨ جملاً . فاختار بيل فصل الحرّ والجفاف ليمتحن الابل في أصعب الفصول ، فسار الى الباسو على حدود المكسيك ومنها الى البوكركي ثم « فورت دفاينس » .

وتخلّف أكثر الجمّالة المستأجرين من الشرق الأدنى عن مرافقة بيل في هذه الرحلة . قيل انهم كرهوا التعرض للأخطار وقيل ان أجورهم لم تدفع لهم حسب الشروط المتفق عليها ولكن بقي معه اثنان هما جورج الأغريقي والحاج علي . وبدأ « بيل » إرتياد الطريق الجديد من «فورت دفاينس» في آخر أغسطس سائراً على محاذاة الخط الخامس والثلاثين من العرض الشمالي حتى عبر نهر الكولورادو الفاصل بين أريزونا وكاليفورنيا في ١٨ اكتوبر وكان بذلك ختام مهمته . وقد ثبت الآن أن بيل كان موفقاً في ارتياد الطريق إذ قد مدّت على تخاطيطه سكة حديد السنتافي وفتحت طريق السيارات رقم ٦٦

وأعجب بيل بالجمال وإمتدح صبرها على العطش وإقتياتها بنبات البادية ومقدرتها على نقل الأحمال الثقيلة . ولكن بعض الجنود ممن كان معه تبرّموا بها خصوصاً لأن الخيل والبغال كانت تجفل منها .

وبعد عبور الكلورادو توجّه بيل بالجمال إلى فورت تاهون في جهات بايكرسفيلد في كاليفورنيا . وقبيل أن يصل إلى سان برناردينو أرسل الحاج علي في أثناء الطريق بجملين إلى لوس أنجلس فقطع الحاج ٦٥ ميلاً في ٨ ساعات . ولما وصل إلى ساحة لوس أنجلس نفرت الخيل والبغال وذعرت الأولاد وسار الخبر في القرية فتألب أهلها لرؤية الجملين والجمّال الغريب الزي . ثم لحق بالملازم « بيل » في المركز العسكري بفورت تاهون ، حيث بقيت الجمال تعمل في النقل والجر والركوب والأميركيون بين معجب ومستحقر حتى بدأت الحرب الأهلية فشغلت الناس عن الجمال كما شغلتهم عن غيرها . ثم باعتها الحكومة إلى بعض التجار فاستخدموها في النقل فكان بعضها ينقل الملح من بعض المناجم في نيڤادا وجيء ببعضها إلى سلفركنغ بأريزونا لنقل الفضة إلى خليج كاليفورنيا .

***

وأخيراً أُطْلِقَت في الجنوب الغربي من أريزونا لتعيش وتتوالد كحيوان البر ونشأت الخرافات حولها. ومن هذه الخرافات ما شاع عند بعض الهنود من إن جملاً تمرّد على إلهة الرعد والبرق فسخته جبلاً هو المعروف باسم « كَمِلْ باك » أي سَنام الجمل بظاهر مدينة فينكس . ومنها خرافة شاعت بين السذج إن جملاً كبيراً عليه راكب مشدود إليه بالسيور كان يرى في الليالي المقمرة ، ولكن الراكب كان ينقص إرْباً فإرْباً حتى إذا قبض على الجمل لم يكن عليه غير السيور التي كانت تشد الراكب

وقيل إنها تكاثرت في أريزونا بين « يوما » و « طوصان » وكان بعض المسافرين يرونها أحياناً وكان المكاريون والبقّارة يقتلونها لان حيواناتهم تجفل منها أو لحماية المرعى وما لم يقتل أو يمت منها أُمسك فبيع لحدائق الحيوان . قيل أن آخر ما شوهد منها جملان في جهة كوارتسيت سنة ١٩٠٩ .

والشائع عند أهل أريزونا الآن ان الجمال لم تصلح لهذه البلاد لان بواديها غير رملية كبوادي البلاد العربية بل يكثر فيها الحصى الذي يؤذي إخفاف الابل . وقد نقل بعض الكتّاب ان بعض الجمال التي أرسلت الى نيڤادا صنعت لها أحذية من الجلد . ولكن بيل لم يذكر ذلك في تقريره بل امتدح غناها عن البيطرة وفضلها على البغال والخيل من هذا القبيل.

أما الجمّالة الذين جيء بهم من الشرق الأدنى فالذين خرجوا من خدمة الحكومة الاميركية في سان أنطونيو كما تقدم، لم أجد ذكراً لهم في الكتب التي اطلعت عليها . وجورج الاغريقي قتله مكسيكي في شمال اريزونا لخلاف بينهما على لعب الورق على قول ، وانتحر في

نيومكسيكو على قول آخر . واشتهر بكثافة لحيته . ومن غريب ما روي عنه أن هنديًا رماه بنبلة فلم يكد يخدشه لأن لحيته وقته كالدرع لكثافتها .

***

أما « الحاج علي » فعمر طويلاً ويجلّ ذكره مؤرخو اريزونا ويحسبونه من روّاد الحضارة فيها Pioneer . وقد تضاربت الآراء في أصله فلا يعلم هل كان عربيًا أم تركيًا أم اغريقيًا . حادثت ملفرد ونزر مدير مكتبة المشترع في اريزونا وصاحب بحث في الحاج علي فقال لي أن «هاي جلي» كان أبوه عربيًا وأمه سبيّة إغريقية غنمها بعض العرب في الغزو. وكان اسمه الاصلي فيلب تادرو أما اسم هاي جُلّي Hi Jolly فلقب اكتسبه في أميركا وهو تحريف « الحاج علي » .

ولما باعت الحكومة إبلها اشتغل الحاج علي دليلاً للجنود في تعقب الهنود المخلين بالامن ومكارياً ينقل السلع واللوازم الحربية . ولما خرج من خدمة الحكومة عمد الى البحث عن الذهب في اريزونا وشمال المكسيك ثم مات حتف أنفه في بلدة كوارتسيت القريبة من نهر الكولورادو في الجنوب الغربي من اريزونا في ١٦ ديسمبر من سنة ١٩٠٢

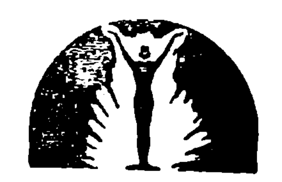
***

وسنة ١٩٣٥ اهتم بعض الموظفين في مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا بقبر « الحاج علي » فأقاموا فوقه نصباً تذكاريًا بشكل هرم علوه عشرة أقدام فوقه تمثال جمل من النحاس علوه قدمان . وأودع في الهرم في جملة ما أودع قسم من رماد جمل وأوراق الحاج علي وثلاث قطع من النقد الاميركي قيمتها أربعون سنتاً كانت في جيبه لما توفي .

وعلى وجه الهرم لوح من النحاس فيه : —

« المناخ الاخير للحاج علي . ولد في بعض نواحي سورية حوالي سنة ١٨٢٨ . مات في كوارتسيت ديسمبر ١٦ سنة ١٩٠٢ . جاء هذه البلاد في ١٠ من فبراير سنة ١٨٥٦ . جمال — مكار — وظل أكثر من ثلاثين سنة مساعداً أميناً لحكومة الولايات المتحدة . مصلحة الطرق العمومية لولاية اريزونا سنة ١٩٣٥ . ودشن هذا النصب في يناير من سنة ١٩٣٦ واشترك في حفلة التدشين حاكم أريزونا ونائب عن حاكم كاليفورنيا

ماسا اريزونا وديع نادر



فصل الخطاب

في الارواح

عاد الأستاذ العلاّمة الروحاني احمد فهمي ابو الخير ينشر على قراء المقتطف درر علمه الواسع في الارواح فضلاً عن العلم الفيزيقي والفلسفي الخ . فلأ ثماني صفحات . ولو وسعه المقتطف لملأه كله من علمه الغزير .

وكنت أقف في هذه المناقشة عند هـذا الحد (لأنه عبث أن نتمادى فيها وهو محاط بطفحات من الأرواح تحجب عنه حقائق الهيولي) ، لو لا أن عنجهيته قذفت قذائف صغيرة لا تؤذي ولكنها تضحك . ومنها قوله : « وهو(أي أنا) يدّعي في جرأة غريبة (كذا) انه اطلع على مؤلفات جينز واينشتين وادنجتون » — حقّـا انها لجرأة .

ومعناه ان مؤلفات هؤلاء الأقطاب العلماء لا يمسها إلاّ الفلاسفة المطهرون من أمثاله. ومن يطلع عليها غيره يكون وقحاً أو جريئاً . وهو يستغرب هذه الجرأة من سواه .

فيا لها من عنجهية جريئة يظهر فيها الاستاذ ابو الخير عبقريته المبدعة وفلسفته البارعة وتشرق منها أنوار علمه الساطعة

ثم يهزأ بلغتي « الفصحى » في كتابتي أسماء Jeans و Einstein, و Eddington, هكذا بجينز واينشطين وادينغتون . وكان يجب أن أكتبهـا كما وردت في معجمات اللغة كتاج العروس ولسان العرب هكذا اينشتين وادنجتون وجينز . فأعتذر لجنابه بأني لم أراجع قواميس لغتنا الفصحى لـكي أنقل عنها هذه الأسماء مضبوطة .

ثم استرسل جنابه في نقد كتابي « هندسة الـكون حسب ناموس النسبية » ونسي أن

كتابي هذا ليس موضوع المناقشة وإنما أرواحه موضوعها . ولا بدع أن ينساها ما دام قصده انتقادي على أي حال ، وهدفه التهكم إذا لم يصب نقطة منقودة في مناقشتي

وكان مما انتقده في كتابي ترجمتي المجال المغنطيسي أو الكهربائي بالجو المغنطيسي . وعندي أن الجو أصح من المجال لأن المفهوم من المجال أنه ذو بعدين طول وعرض. ولكن الجو ذو ثلاثة أبعاد وهو طول وعرض وعمق وهو الصواب أو الأصوب . ومع ذلك لا مانع عندي من استعمال « المجال » إذا أثبت في قاموس المجمع العلمي المنتظر .

ثم انتقل من نقد كتابي إلى آراء بعض العلماء في « المذهب الآلي » والتلميح إلى انهياره (في لغة أستاذنا الفصحى) . والعلماء متى اصطدموا بمجهولات الكون التي يستحيل أن تعرف كاللانهاية مثلاً أو تعذر عليهم تفسير اتصال المادة بالعقل،جنحوا إلى افتراض ما يتراءى من الصور في عالم المجهول،لكي يرضوا شهوتهم لمعرفة أسرار الطبيعة .

وتمادى استاذنا في هذا الباب وسرد من أقوال العلماء عدة أشياء ونسي أرواحه .

ان موضوعنا هو الأرواح واستحضارها ! فما لنا والمذهب الآلي والمجال الكهربائي الخ .

***

كاد يقسم جنابه بالأنبياء والرسل اني لم أطلع على شيء من كتب الروحانيين .أجل لم أقرأ سوى كتاب واحد نسيت اسم مؤلفه . فما كان أقوى حجة من الأستاذ أبي الخير . ولكني لم أفهم منه ولا من أستاذنا ما هي الروح . ألا يجب أن نعرّف الشيء الذي نتناقش فيه ؟ أم يريد أن نتلمس الشيء المفروض في ظلام العالم المجهول .

كل ما كتبه أستاذنا لكي يقنعني ويفحمني لم يستملني الى حظيرته . ولكنه حصرني فيها بايراد بعض عجائب استحضار الأرواح . وأعجبها وأغربها وأكثرها إدهاشاً حادث طبيب جراح حضرت روحه بعد ١٧ سنة من وفاته بين ثمانية من زملائه الجراحين وعمل في الظلام (لماذا في الظلام ؟) عملية الزائدة الدودية لمريض . ولما انتهى منها أنار الزملاء نور الغرفة ، فاذا المريض مضمد الجراح وقطعة الزائدة موضوعة في الكحول في أناء زجاجي .

وذكر حادثة أخرى مثلها . ثم ذكر حوادث أخرى كلها عجائب وغرائب من هذا الطراز .

حقّـًا أن هذا الحادث العجيب أي حادث الطبيب الميت الحي ، أعظم مقنع بعالم الأرواح واستحضارها — ولـكن هيهات من يصدق .

إذا كنت أصدق هـذه القصة وأومن بعـالم الأرواح فبالأولى إن أصـدق عجائب منت ترايز وسيدة لورد .

ولـكن أستاذنا يصدق . ولذلك يطالع كل كتـاب وكل مجلة تنشر هـذه الأقاصيص العجائبية . ويأخذها أمراً مسلماً به كأنه شاهدها بعينه . فما أحراه بأن يطوف على العجائز ويستمليهم أخبار عجائب الأولياء والجن وليست المجلات التي تروي قصص الأرواح بأعقل وأصح من أخبار العجائز . وأوجه أستاذنا إلى مجلة للغة الانكليزية تسمى استرولوجي أي علم التنجيم فهي محشوة بالعجائب التي هو مغرم بها .

***

مهماً يا أستاذنا . اذا قال العلماء مثل اوليفر لودج وكونان دويل وستيد وفلامريون وغيرهم من أساطين العلمـاء كما تقول أنت، فمركزهم العلمي لا يثبت صحة أقوالهم الروحانية . « لـكي نصدق نريد أن نرى آية من السماء » .

لا أصدق رواية الطبيب الميت الذي عمل العملية الجراحية بعد ١٧ سنة من وفاته ولو كنت أعرفه حيًّا وشاهدته بعيني رأسي يعمل العملية ، فلا أصدق ما ناقض النواميس الطبيعيـة . وليس ثمت شيء ما وراء الطبيعة . أكذب نظري لأنه غشني ، ولا أكذب السنة الطبيعية .

***

انتهى كلامي في هذه المناقشة العقيمة . وهنا أترك الكلام المطلق لاستاذنا أبي الخير ليشرح علمه الواسع نقرؤه بإمعين .

نقولا الحداد

الفلسفة

والانتخاب الطبيعي

هذا جزء من فصل من كتاب « الالوهية والفكر » تأليف آرثر جيمس :
إرل أوف بلفور ، الذي ترجمه محرر هذه المجلة وهو الآن تحت الطبع .

- Theism and Thought, Arthur James, Earl of Balfour.

كانت نظرية الانتخاب الطبيعي من الانتصارات العظمى في القرن التاسع عشر. وبالرغم من حقيقة أنه في ضوء البحوث التي تلت ذيوعها ، لم تظهر انها قادرة على تحقيق كل ما توقعنا منها، فان ذلك لا يزلزل مكانتها باعتبارها نقطة تحوُّل في التفكير العلمي .

الى هنا وبالقدر الذي يهم من وجهة هذا المبحث ، نلحظ نقصاً مستباناً فيه ، بالرغم مما قد نقدر له منه قيمة باعتباره اداة تطورية ذات أثر بيّـن ، ظلت عاملة خلال دور زماني قصير نسبيًّا . نحن هنا نزن تلك الشبكة العِلّية التي تصل معتقدات العصر الحاضر ، أي معتقداتنا جميعاً ، بالمادة والطاقة في حالة توزعهما القديم الأولي — أي كما كانت في العصر السديمي قبل أن تتكوَّن الأجرام السماوية . في فترة مجهولة لدينا، وبالحري فترة غير معروفة، وفي مدى ذلك التطور النشوئي ، برز سيار هيئ بمجموعة من الخصائص والحالات التي يعرفها العلم في حالته الحاضرة ، وكان من طبيعتها أن تنطوي على الحاجات الضرورية اللازمة لتنشئة صورة ما من صور الحياة العضوية. في الطور الذي قطعه ذلك السيَّار مستكملاً العدة لتنشئة الحياة ، لم يكن هنالك من محل للانتخاب ، وكذلك لم يكن للانتخاب من أثر في تهيئة المدرج التالي من مدارج التطور — وأعني به ذلك المدرج الذي شهد بدء الحياة ، وهو أعظم المدارج الانقلابية جميعاً . قبل وقوع ذلك الحادث الانقلابي ، لم يكن لنا من معرفة بما يضاف من جملة الأشياء أو يستخلص منها . ان عوالم لا عداد لها ولدت ثم بادت . ولكن أعظم ما وقع من نكبات وأحداث في عالم الأجرام ، لم يتجاوز حد انه توليف

مُعاد لما كان موجوداً بالفعل . تتالت التغيرات واحدة إثر أخرى ، على مقاس من العظمة والفخامة قلما يتصوَّر . غير أن عامة هـذه التغيرات الفوزيقية ، لم تأت بجديد فيـه صفة الاصالة والجوهرية . لم يكن في النتيجة من شيء لاتشكل بصورة أو بأخرى ، لم يسـبق له وجود في العِلَّـة. والـكون لم يأت بشيءٍ جديد، اللهمَّ إلاَّ اعادة تنسيق نفسه. ولـكن ببزوغ الحياة بدأت دورة جديدة . ومهما يكن من أمر ما اعتنق من فكرة ، فلست أدعي هنا ان الحياة ، حتى في أدنإ مدارجها ، أكثر من توزع ضروب خاصة من المادة صبَّـت في قوالب معينة ، وأن أفعالها وأركاسها [1] جميعاً ، قد تفسر بمقتضى سنن الـكيمياء والفوزيقا تفسيراً كاملاً . فعلى أي وجه نقلب هذا الرأي، فلا شكَّ يساورنا مطلقاً في حقيقة الشعور والفكر والارادة . فان هذه الأشياء كانت دائماً زوائد على مجرد إعادة توليف المادة في صور مـّا . وهي فوق ذلك أشياء ، بقدر ما لأرضنا هـذه من صفة الحدوث الزماني جديدة — نعم جديدة وانها لباعثة على أشد العجب .

لم يكن للانتخاب الطبيعي من أثر في ابراز هـذا المتجه الجديد . كما انه لم يكن له من يدعه في أن يحـدث حدثاً يسير به قُـدُماً عند ما بدأت الحياة بالوجود ، ولـكن عندما أصـبحت تلابس عضويات من طراز ملائم . فعند ما وُجدت ، بطريقة غير محدوسـة (ا) مُـر كَّـبَـات عضوية معقدة (ب) ليس لها صفة الحياة لا غير (ج) بل تـكاثرت (د) وفي تـكاثرها استحدثت أعقاباً لها بها ، على اطلاق القول . مشابهة ، ولو أن هذه المشابهة (ه) صحبتها تغيرات (و) متوازنة : قبل أن تقع هذه الأحداث الجسام وتأتلف، لم يكن في مستطاع الانتخاب الطبيعي أن يعمل وأن يبرز تلك المستحدثات الاحيائية ، التي يحاول البحث العلمي اليوم ، بجهدٍ بالغ ، أن يفصح عن أسرارها المعقدة .

***

من هنا يتضح أن تدخل الانتخاب الطبيعي في السَّوْق العلـي للأشياء تدخلا من شأنه أن يزوّد العقل الانساني ، حتى بما يشاكله أصلاً عقليًّا ، قد بدأ مؤخراً في تاريخ

(1) Actions and Reactions

الكون . ولكن لديَّ شيء آخر أقوله . فان تدخله لا يبدأ بتحقيق هذا الغرض مؤخراً جدًّا لا غير ، بل انه ينتهي مبكراً جدًّا أيضاً . فان أفعاله التأثيرية تموت وتفنى سريعاً ، حتى ليعجز عن الافصاح عما ينبغي الافصاح عنه ، وأعني بذلك الإفصاح : عن مثاليات الحب والحسن (الجمال) والمعرفة .

بالنسبة لي تظهر هذه المسألة كأنها ثانوية القيمة ، فان تلك الاشياء الباهرة العظيمة ، اذا كانت في غائيتها ، هي من عمل اللاَّعقل ، فانه لا يعنيني إلاَّ قليلاً اذا كان صدورها المباشر راجعاً إلى اللاَّعقل ملابساً صورة من الانتخاب الطبيعي محوَّراً فيما يشبه القصد ، أو أسفرت في صورة مصادفة مكفوفة . ان النتيجة بقدر ما يعنيني واحدة ، ولكنَّ هنالك من يقتبلون قبلة أخرى . هم يطلبون تفسيراً علميًّا . أعطهم هذا ، وهم بعد لا يُعْنَوْنَ بما يكون واقعاً بين العلة والنتيجة من التفكك وعدم الالتئام . ولذا تراهم قانعين راضين ، ما أثبتَّ لهم ان خصائص أية محصِّلة من المحصِّلات التطورية ، تتضمن قيمة بقائية ، وبمقتضى نظرتهم هذه تَمَّحي كل القيم الأخرى ، ولا تساوي عندهم دانقاً ولا سحتوتاً . يكتفون بأن أسمى وأندر ما في الجمال والأخلاق والفكر ، أشياء لا تفعل للانسان ، إلاَّ ما تفعل الوسائل الخسيسة لأقل كائن طفيلي حقير — بمعنى انها تساعد على الاغتذاء والتكاثر .

***

إن هؤلاء المفكرين لا يعوزهم الافراط في الطمع . ومع هذا فاني أشك في أن مراميهم ، على تواضعها ، قد تحققت في مثل هذه الدنيا التي نعيش فيها : انهم يخطئون اذ يفرضون ان هذه القيم العليا ذات أهمية في التناحر على البقاء . فالقديسون والفلاسفة والفنانون ، لم ينجحوا اطلاقاً ، على قدر عامي ، في أن ينَشِّئوا أسَراً كبيرة بأنفسهم . وكذلك هم لم يساعدوا الجمعيات التي فتنت بهم وأخرجتهم الحين بعد الحين ، من أن يبذُّوا كثرةً ونسلاً ، غيرهم من الجمعيات في بقاع أخر من الأرض . وبمقتضى قياس الطبيعة للمنفعة ، هم لا فائدة منهم . انهم ليسوا من حيث ذلك ، أكثر من نماءات خبيثة في مجمل المحصِّلة التطورية ، ولا يكونون جزءًا من نسيجها الجوهري . انهم ، بناءً على فرضية المادية الطبيعية ، حَدَثٌ اتفاقي ، أنتجه حَدَثٌ مثله .

ليس في الناحية الروحانية للتطور من شيء هو أعجب من هذا . وربما لا يكون عجيباً ان هذه الحركة الاستدراجية التي مضت فيها هذه النشوءات، والتي أدَّت الى النجاح الأحيائي، قد تذهب بها إلى آفاق تمَّحِي فيها كل كفاياتها البقائية أو جُلّها . ولكن العجب الحقيقي انه في هذه الآفاق ، او في بعضها على الأقل ، قد تحوز قيماً أجود وأرفع ، بحيث تعجز المادية الطبيعية عن الافصاح عنها أو تفسر وجودها ببيان . فالديانات البدائية ، بما فيها من الخرافات والأوهام الفجَّة ، والحماقات والإفراطات ، قد يكون لها قيمة ، تلبس تلك الصورة التي يقرها الانتخاب الطبيعي . ربما تكون قد ساعدت الانسان ، بصور متفرقة ، مساعدة مباشرة في مدارج حضارته الأولى ، ان يحتفظ بعدده ، أو أن يكثر ويزداد . ولا شك مطلقاً في انهذا يصدق أيضاً على الخُلُقيَّات البدائية ، وعلى العلم البدائي . وربما صدق أيضاً على الفن البدائي . لهذا نقول إن الاجياليين[1] الذين يعالجون علم الأجيال[2] على انه فرع من علم المواليد[3] ، محقون في اعتبار أن هذه الأشياء قد تعود بعض الشيء الى التناحر على البقاء . ولكن التناحر على البقاء ليس له تأثير مباشر على مدارجها النشوئية العليا . فأية قيمة بقائية مثلاً لحب الله كما نباشره في الممارسات الدينية العليا ؟ وأية فائدة تلك التي جناها انسان ما قبل التاريخ من ان كفاياته العقلية وتصوره ، تلك التي نلمح ان بداياتها الدَّنيَّة قد رُبِّيَت بَدِيًّا في أسلافه بعوامل الحرب والجوع والمرض، قد تتحوَّر فتنشأ منها تلك الكفايات ، التي هي بعد مرور آلاف من السنين ، سوف تيسر لأخلافه سبيل العمل والنجح ، في تتبع خطا معرفة هي الى التجريد الصرف ، والبعد عن الكسب المباشر ، وهي لأول وهلة معدومة القيمة ماديًّا ؟ وأي تأثير شامل ، من حيث الاحتفاظ بالنوع ، حدث بنشوء صفة الحب الخيالي الخالص من دَنيَّات الشهوة الحيوانية ؟ واذا سلمنا بأن الانتخاب الطبيعي قد يكون له أثر في تنشئة العطف العائلي والطاعة القبَليَّة ، فلأي شيء تزدهر هذه الصفات فتصير رحمة بريئة قوية تشمل في دائرتها كل النوع الانساني ، وهي فوق ذلك ، تخص من يدعون غير الصالحين ، لا الأصلحين ، بعطف أكبر وحنان أعظم ؟.

....

(١) Anthropologists (٢) Anthropology (٣) Natural Aistory

الشمس

قال شوقي أمير الشعراء :

اتخذ سكناك في طلق الهواء بين شمس ونبات وهواء

ولو لم يقل رحمه الله في الحب :

الحياة الحب والحب الحياة ....

اضاع بيته هذا الخالد في الشمس حيث كان ينبغي ان يقول :

الحياة الشمس والشمس الحياة ....

لان « غانية السماء » لو أشرقت يوماً ، ثم غابت ، ولم تعد لتطلع على الدنيا الى الابد ، لذبل النبت ، وفنى الحرث ، ومات الانسان ، ونفق الحيوان ، وأمسى الكون ، كما صنعه الله تعالى ، في اليوم الاول للخلق : أرضاً خربة خالية ، ذات غمر تعلوه الظلمات

والكائنات الحية، بمملكتيها : النباتية والحيوانية ، تعيش تحت الشمس من وقت مشرقها الى ساعة المغيب، الا الانسان وحده ، فقد حالت المدنية بينه وبين الشمس ، فأسكنته بيوتاً ظل يعيش فيها عاملا أو لاهياً ، كما أنها فرضت عليه ملابس ثقيلة ، ، غطى بها سائر جسده، فكانت السد المنيع بينه وبين شعاع الحياة

والجسم يولد فيتامين « D » من نفسه اذا تعرض الجلد لاشعة الشمس ، وذلك بتفاعل الاشعة فوق البنفسجية في المادة الدهنية الكائنة تحت الجلد المسماة « Ergosterol »

وينبغي ان تعلم ان النقص الجزئي لفيتامين « D » من جسمك يسبب لك الامساك ، وفقد النشاط ، والتعب السريع ، وعدم انتفاعك بالاغذية التي يدخل في تركيبها عنصري الكلسيوم والفسفور

وأما نقصه الكلي فيسبب الكساح ، ولين العظام ، وتضخم المفاصل ، واعوجاج العمود الفقري ، وتأخر النمو

فالشمس ضرورة لحياتك ، وعليك باتباع ما يأتي صيانة لصحتك :

١ — اياك أن تسكن منزلا لا تدخله الشمس

٢ — استقبل الشمس في بيتك في جميع الاوقات ، وافتح لها النوافذ على الدوام

٣ — في حجرة مشمسة من منزلك ، اخلع عنك ملابسك ، وارتد لباس السباحة ، وعرض جسدك لاشعة الشمس لمدة ربع ساعة كل يوم مهما كانت مشاغلك

٤ — ليكن حمامك الشمسي كل يوم في الصباح الباكر أو في وقت المغيب أي عندما تكون أشعة الشمس مائلة حيث تكثر الاشعة فوق البنفسجية

٥ — ينبغي تعريض جسم الاطفال لاشعة الشمس صباح كل يوم لمدة قصيرة حتى لا يصابون بالكساح أو لين العظام

٦ — في أيام الصيف لا تسرف في حمام الشمس على شاطىء البحر ، وادهن جلدك بزيت حتى لا تحرقه الاشعة

واعلم ان الشمس هي سر الاسنان السليمة ، والعظام القوية ، والصحة الكاملة ، فاحرص صيفاً وشتاء على حمام الشمس كل يوم . أتؤمن ان الشمس هي الحياة ؟

فهمى عطا الله



تقدم العلاج[1]

في أوائل القرن الحالي كان مدرسو الطب لا يعلقون أهمية كبيرة لعلاج مختلف الأمراض ولا يظهرون عظيم ثقة فيما كانوا يصفونه من أدوية ، بعكس ما كانوا يبذلون من عناية في التشخيص الاكلنيكي والاهتمام به . وكان تأثير ذلك على طلبة الطب إذ ذاك، الاعتقاد بأن التشخيص الصحيح هو السبيل الوحيد للعلاج الناجع ، ولكن بخروجهم للحياة العملية صدموا بضدّ ذلك ، فكثيراً ما شخصوا الأمراض تشخيصاً صحيحاً ولكنهم عجزوا عن علاجها ، ولم يكن أمامهم سوى مواجهة الأعراض لتخفيف ألم المريض بالحد منها تاركين المرض نفسه بدون علاج، وللطبيعة العمل على الشفاء. وبهذا الأمل ينتظرون تقدم حالة المريض عاجزين عن مد يد المساعدة له .

في ذلك الوقت لم يكن هناك سوى أدوية محدودة العدد والأثر، ولم يكن العلاج مبنيًّا على أساس ثابت، إذ كان علم الطب التجريبي يخطو خطواته الأولى، وكانت أسباب المرض لا تزال محل البحث والاستقصاء ، فكان مواجهة الأعراض همهم الأساسي فاستعانوا بالمورفين والكوكايين وأملاح البروميد Bromides للحد منها ، كما استعملت السليسلات للروماتزم الحاد ، وبجانبها استعملت أدوية أخرى ثبت فيما بعد تأثيرها الفعلي على مسببات بعض الأمراض ، وان كانت اذ ذاك تستعمل بحكم العادة كمخلفات للقرون الماضية منها السنكونا والكينين ، لمرض الملاريا ، وعرق الذهب لمرض الدوسنطاريا الأميبية ، والزئبق وأملاح الايوديد Iodides للزهري، وذلك قبل أن يكشف عن سبب كل من هذه الأمراض بسنوات.

﴿ اكتشاف أدوية من نوع جديد : الأدوية الحيوية ﴾ قد كان نتيجة البحث عن أسباب الأمراض وجود طائفة جديدة من الأدويه تمتاز عن سابقاتها بأنها مماثلة للجسم نفسه ومن طبيعته لا مواد غريبة عنه ، فكانت مكملة لنقص وظائفه ومعوضة لما يعتري أعضاءه من فتور في تأدية عملها . من ذلك استعمال الغدة الدرقية في علاج الأمراض الناتجة

(١) ملخص محاضرة للسير هنري ديل نشرت بالمجلة الطبية البريطانية بعدد شهر اكتوبر سنة ١٩٤٣

عن قصورها ، والانسولين لعلاج البول السكري ، وعلاج الدفتريا بالمصل المضاد لها . هذا النوع من العلاج يؤثر في سبب المرض نفسه ، فيمكن بذلك أن يصفه الطبيب وكله ثقة في النتيجة ، لا كما كان الحال سابقاً ينتظر مساعدة الطبيعة له في شفاء العلة .

بالمضي في هذا البحث أمكن اكتشاف الهرمونات والفيتامينات والأمصال المضادة للامراض. وساعد على ذلك تقدم علم الكيمياء الحيوية وغيرها من العلوم المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالطب. فأحدث ذلك انقلاباً شاملاً في العلاج وأصبح في وسع الطبيب ان يعالج أمراضاً لم يكن لها علاج معروف بنجاح تام، فعولج فقر الدم الخبيث (Pernicious Anæmia) بخلاصة الكبد والكساح بالفيتامين (د) وشجع ذلك على المضي في البحث عن مسببات الأمراض واختبار تأثير المركبات الكيميائية عليها . وكان العالم الألماني الكبير ايرليخ الفاتح لهذا الباب فابتدأ بدراسة مفعول الصبغات على جرثومة الملاريا وخاصة تأثير أزرق الميثيلين (Methyline Blue) عليها. ومع انه أخفق في ايجاد بديل للكينين منها، فإنه كان في عمله هذا المؤسس الأول للكيمياء العلاجية . ومما يستحق الذكر أنه بعد وفاته بسنوات تمكن غيره من استحضار مركبات مماثلة لأزرق الميثيلين ذات تأثير فعَّال على جراثيم الملاريا

﴿ الصبغات ومشتقاتها ﴾ على هدى تأثير الصبغات استمرَّ ارليخ في العمل وساعده على ذلك اكتشاف جرثومة مرض النوم . وهذه الجرثومة تمتاز بامكان ملاحظة حركتها خلال قوة مكبرة متوسطة تحت المجهر ، فأمكنه دراسة حياة هذا الحيوان الأولى ، وتأثير مختلف المواد عليه. وبمساعدة تلميذه «شيجا» الياباني لاحظ تأثره بصبغة التريبان الأحمر (Trypan Red) فكان ذلك نقطة ابتداء لعدة اختبارات انتهت بعد سنوات من وفاة ايرليخ، ولكن بواسطة أحد تلاميذه النابهين «هرمان رهل» لاكتشاف مركب معقد التكوين عرف باسم الجيرمانين، كان الشافي من مرض النوم

وقد أثبت ايرليخ بأن هذه الصبغات لا تمنع هذه الحيوانات الأولية من الحركة، ولكنها تمنعها من التوالد، فتأثير العلاج عليها وقف نموها ويكون من اليسير على قوى الجسم الطبيعية التغلب على الكميات المحدودة منه الكامنة فيه .

﴿ مركبات الزرنيخ ﴾ في عام ١٩٠٥ اكتشف توماس وآخر في ليفربول مركب زرنيخي عضوي عرف باسم الآتوكسيل ذو تأثير فعال على جرثومة مرض النوم . وقد تمكن ايرليخ فيما بعد من معرفة تركيبه الكيميائي وأثبت أن اختزال هذا المركب الخماسي الذرية لآخر ثلاثي الذرية أعظم أثراً ، وبمداومة العمل في هذه المركبات اهتدى وتلميذه «هاتا» الياباني

لاكتشاف السلفرسان قبيل الحرب العالمية الأولى محدثاً انقلاباً في علاج مرض الزهري والأمراض المماثلة المسببة عن الحلزونيات .

﴿ مستحضرات السلفانيلاميد ﴾ باكتشاف المركبات السابقة أمكن علاج الأمراض بالتأثير المباشر على مسبباتها أو بوقف نموها . وكان اهتداء جانكسو لمادة السانثالين أول اكتشاف لمركبات كيمياوية تؤثر على الميكروبات بمنع الغـذاء عنها Food Blockade . وعلى هذا الأساس اكتشفت مركبات السلفا .

ففي سنة ١٩٣٢ اكتشف دوماج الألماني مادة البرونتوزيل ولاحظ تأثيرها الفعال في علاج الأمراض المسببة عن البكتيريا القيحية عند حقن الفيران بها . وكان هذا الاكتشاف أول حدث من نوعه لعلاج الأمراض المسببة عن البكتيريا كيماوياً ، بعد اكتشاف العلاج الكيمياوي للأمراض المسببة عن الحيوانات الأولية بما يقرب من ربع قرن .

وقد اختبرت هذه المادة بمعرفة علماء انجلترا وفرنسا واتضح لهم أن التأثير العلاجي لها ليس للمادة كلها ، بل لاحتوائها على السلفانامبد فيها ، ومن هذا الوقت ابتدأت المعامل في مختلف البلاد من تحضير مختلف مستحضراته ناسبة لكل منهـا تأثيرهـا في مختلف الأمراض وكانت الحرب الحالية حائلاً دون مواصلة البحث فيها .

﴿ العلاج بالمواد الفطرية ﴾ في عام ١٩٢٦ لاحظ فلمنج تأثير نوع من الفطريات اسمه (Penicillium Notatum) على البكتيريا القيحية في مزارعها ، وتمكن فلوري من عزل المادة الفعالة المفرزة منها والمعروفة الآن باسم البنسلين . وقد لا يمر طويلاً حتى يركب هذا الدواء صناعياً أو الجزء الفعال فيه . وتأثير هذه المادة وقف توالد الميكروب لا إماتته .

كل هذه الاكتشافات تمت في مدة وجيزة فاذا علمنا أنه في نهاية الحرب الماضية لم يكن معروفاً لدينا من الهرمونات سوى الأدرينالين ، وكانت الفيتامينات لا تزال مجهولة منا . وان معظم هذه الاكتشافات تمت في مدة الهدنة بين الحربين أدركنا التقدم العظيم في العلاج في السنين الأخيرة . ولا يزال العلماء في مختلف أنحاء العالم دائبين على اكتشاف العلاج لمختلف الأمراض التي لا نزال عاجزين عن علاجها حتى ليدهشني ما يمكن أن يقوله محاضر آخر في هذا الموضوع بعد عشرين عاماً .

دكتور فريد فايق
المجموعة الصحية بالضبعية

مدينة المستقبل

« ان عدد البيوت الصغيرة التي هدمتها الحرب من مساكن العمال أمر مؤلم للنفس . سوف نشيدها مرة أخرى ، وسنعرف نحوها من العناية ما لم تلقه من قبل . والغالب ان لندن وليفربول ومنشستر وبرمنجهام هي المدن التي قاست من ويلات الحرب أكثر من غيرها . ولكنها سوف تقوم ثانية من خلال أطلالها ، أكثر جمالا وأوفر نصيباً من الضرورات الصحية » .

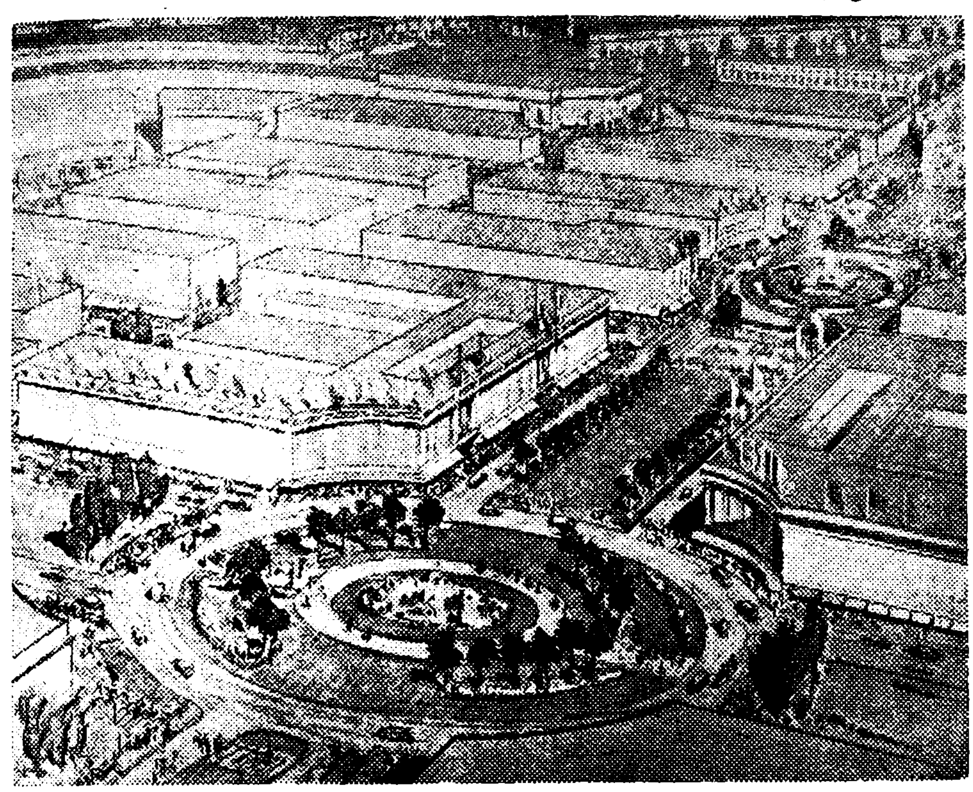
ونستون تشرشل : ١٩٤٠

الانسان بطبعه الحضاري ونزعته الاجتماعيـة من أعداء الخراب . فقد يقع زلزال في أميركا أو في اليابان أو الأناضول ، فيقوّض مدناً أو أجزاءً من مدن ويسوّي بها الثرى ، فلا تكاد تهبط ويخيم من فوقها التراب ، حتى يسبق الانسان الى التنقيب في تلك الآثار المدمرة وفي عقله فكرة التجديد في الطراز الذي يشيد على مقتضاه مدينة أجمل نسقاً وأكثر تلاؤماً مع مطلوبات الصحة والسعادة .

على هذا كان الحال عندما هدم الهجوم الجوي الألماني بقنابله الضخمة أجزاء هامـة من لندن وكوفنتري وبريستول وغيرها من المدن العظمى في الجزر البريطانية ، فنهض الإخصائيون والاطلال ما تزال مسواة بالتراب ، والثرى يتطاير من حولها ، يفتنون في الفحص عن أمثل الطرق في اعادة تشييد هذه المدن ، واعادة تشييدها على أمثل نمط تتطلبه الحياة المدنية من مختلف وجهاتها وبخاصة وجهتها الصناعية .

صرفت الحكومة البريطانية في سبيل ذلك جهداً عظيماً ، فخصصت للتعمير وزيراً أخذ يدرس أمثل طريق الى اعادة بناء المدن التي خربتها قنابل الألمان . ولم تبخل بالبذل ولا بالرجال فأذالت المـال في سبيل التعمير ، وعهدت به الى أفذاذ المهندسين أمثال لورد « ريث » ، فاستعان باخصائيين انتخبهم من مختلف المدن المهدمة ، لأنهم أعرف بما تتطلب مدنهم من أوجه التجديد . ولم يكن من تلك المدن المهدمـة من مدينة أحوج الى التجديد من مدينة لندن ، فندب لها المهندس المعروف « فورشو » Forshaw عضو المعهد الملكي للمهندسين والاستاذ « باتريك ابركرومبي » ، ليصمما عاصمة جديدة للامبراطورية البريطانية . ولقد بدت هذه المهمة شاقة مضنية أول الأمر . هذا اذا علمنا ان لندن بها تسع ملايين نسمة وفي ما حولها أربع ملايين ، وليست لندن مدينة واحدة ، بل هي عدة مدن مندمجة ، وانها

فيما بين حرب ١٩١٤ وحرب ١٩٣٩ قد ضوعفت مساحتها وقطنتها بضعة ملايين أزيد مما كان بها من قبل .



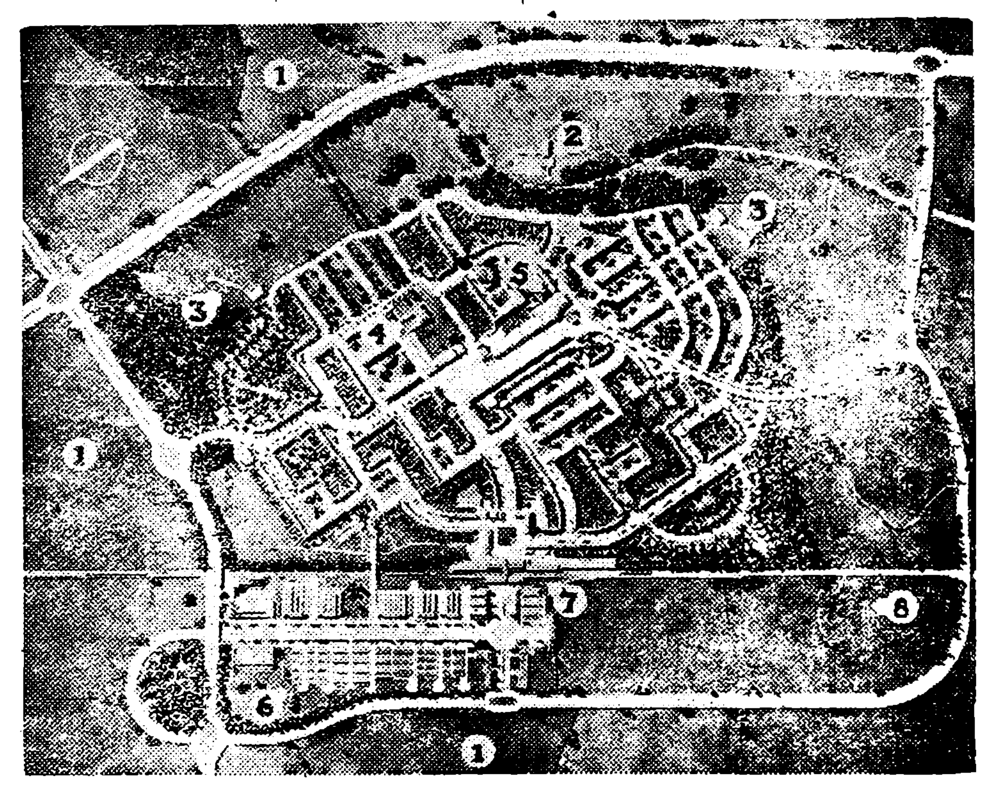
(الصورة رقم ١)

التعمير في انجلترا عقيب الحرب ، وفي غيرها من البلاد الاوربية، مشكلة من المشكلات الكبيرة. ولقد كان لنشوء الصناعات وازديادها في القرن التاسع وتركزها بجوار المدن العظمى ، أثراً جعل هذه المدن خليطاً غير متناسق من المعامل وبيوت السكن والمدارس والمستشفيات الى غير ذلك من المرافق ، فلم يراع توزيعها حاجات الصحة وحاجات المجتمع . فعكف الاخصائيون على تصميم بناء المدن التي حطمتها الحرب تصميماً تراعى فيه هذه الحاجات . والمبدأ الاساسي الذي ائتموا به هو عدم تركيز بيوت الصناعة والمعامل وعمائر السكن ومؤسسات العلم وغيرها في أمكنة معينة . فالعمال في المدن الجديدة سوف لا يحتاجون الى السفر كل يوم مسافات شاسعة للوصول الى مقار عملهم ، وكذلك غيرهم من عمال المحال التجارية والموظفين والتلاميذ والطلاب . وقد عمدوا في تحقيق هذا المبدأ الى الاكثار من الطرق ووسائل النقل وسكك الحديد ، واصطنعوا ما سموه « الزنار الاخضر» وهو زنار أو زنانير (مناطق) تحوط المدن بالزروع والحدائق والمتنزهات ، لتكون كالرئات لجسم المدينة ، والى جانب كل مدينة عدد من المدينات (المدن الصغيرة) مصممة بحيث تتسع لمن يزيد عن حاجة المدينة الاصلية اتقاء لتكاثفهم في بقاع محدودة غير قابلة للاتساع .

وهذه الصورة لجزء من مدينة بليموث صممه المهندس الانجليزي الاستاذ سير باتريك ابركرومبي ومستر باتون واطسون المهندس المدائني .

لم تكن هذه الزيادة وليدة تصميم خاص يلائم الحاجات العصرية ، بل انها زيادة جاءت خبط عشواء ، فكان لها نقائص أهمها الانتقال الاضطراري مسافات شاسعات ليصل ذوو

الأعمال الى أعمالهم ، وليعودوا منها الى بيوتهم ، فكان في ذلك اسراف في الجهد والوقت والمال . حتى لقد دل الاحصاء على أن واحداً في كل عشرة من سكان لندن كان يكسب رزقه من العمل في نقل أهل لندن ذهاباً الى أعمالهم وعودة منها إلى دورهم .



(الصورة رقم ٢)

في هذه الصورة تصميم لمدينة حديثة وضعه مستر توماس شارب وهذا بيانه :

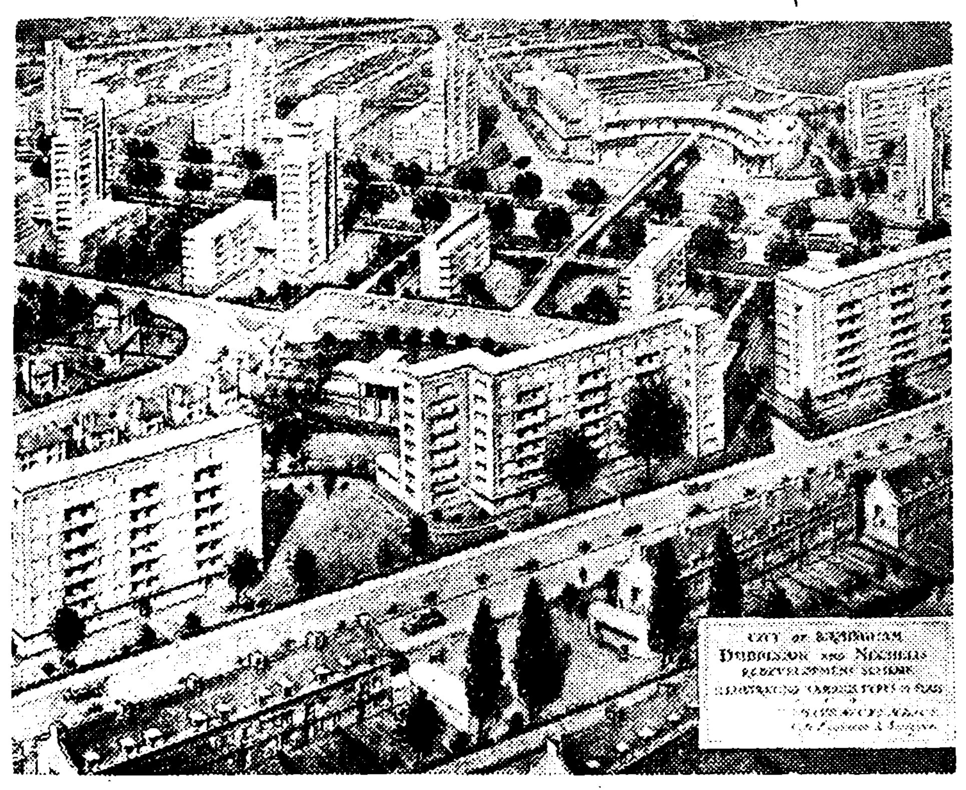
(١) زنار أخضر (٥) مركز المدينة أو سرتها
(٢) حوض للسباحة (٦) منطقة صناعية
(٣) مدرسة (٧) محطة
(٤) مجتمع أهل المدينة ومسرح (٨) منطقة التوسع الصناعي

أما المنطقة الصناعية وما يليها من فراغ للتوسع في الصناعات فسهلة الاتصال بالمدينة . وهنالك فراغ كاف في داخل المدينة وفيما حولها . وشبكة الطرق منظمة بحيث يسهل فيها التنقل مع الاقتصاد في الجهد والوقت

لوحظ مع هذا أن اتساع مدينة لندن قد جاب اليها أنواعاً جديدة من الصناعات لم يكن لها بها من عهد ، وزاد هذا الأمر الى الصعاب التي كان يعانيها سكان لندن ، كما أن نتائج اقتصادية خطيرة قد نشأت عن ذلك . ناهيك بموقف المدن من الناحية الحربية . فقد دلّ الاحصاء على أن أربعة من كل خمسة أشخاص في بريطانيا يعيشون في المدن . أي ان أربعة

أخماس الناس يعيشون في المدن والخمس في الريف . وهذا أمرٌ جعل الأهلين هدفاً هيناً لقنابل الطائرات .

وعلى ضوء هذه الحقائق عمد الخبراء الى القول بالحد من نماء المدن وبخاصة لندن وغيرها من عظام المدن مع عدم تركيز الأحياء الصناعية والمنازل والمعامل في أمكنة معينة ، وبدءوا سياستهم بترحيل ٦٠٠،٠٠٠ من السكان الى خارج لندن أي في خارج المنطقة



(الصورة رقم ٣)

تبين هذه الصورة أحياء في مدينة برمنجهام عند اعادة تعميرها . وفيها فضلا عن عمائر السكن تسع مطرحات (عمائر باذخة) كل منها مكون من خمسة عشر طابقاً أعدت جميعها بحيث تتسع كل شقة منها لشخص واحد

القديمة ليقيموا في مدائن صغيرة تنشأ من حول المدينة العظمى . وسوف لا تتسع هذه المدن الحديثة لاكثر من ٥٠٫٠٠٠ الى ٦٠٫٠٠٠ نسمة ولا تزيد . وبالجري على سياسة نقل هذا العدد من السكان لكل من المدائن التي تنشأ ، ومعهم العدد الكافي من المصانع والمعامل يمكن تفريغ أجزاء من لندن يعاد انشاؤها أخص المبادىء الأساسية التي تتطلبها الحياة الانسانية في العصر الحديث .

ونحن في مصر مقدمون ولا شبهة على عصر صناعي سوف ينشأ معه مشكلات اجتماعية واقتصادية . ذلك بأن صناعات مختلفة سوف تنشأ في المدن ومن حولها ، فاذا لم نتجه من



(الصورة رقم ٤)

منذ سنة ١٩١٨ ماشت حركة التعمير في انجلترا حركة التطور الاجتماعي. فنظر المهندسون نظرة جديدة في الطراز الذي ينبغي أن تكون عليه مدينة المستقبل ، بحيث تقوم بكل الضرورات المدنية على اختلاف وجوهها . ولقد عرف عن الانجليز انهم شعب يفضل بطبعه التغير بطريق التطور لا بطريق الثورة والانقلاب . لذلك تراهم وقد بعدوا عن فكرة الزخرفة في تصميم المدن ، وعمدوا الى مراعاة المنفعة والضرورة . ولكن للتقاليد ضروراتها أيضاً . فروعي في اعادة تعمير المدن العادات الاقليمية لاهل كل منطقة ، فانه من الواضح ان كل تقليد سار عليه الناس انما هو محصل تجاريب صادقة .

وتبين هذه الصورة مباني مستشفى الملكة اليزابث في مدينة برمنجهام الذي صممه المهندسان لنكستر ولودج ، ويتضمن مستشفيان لمرانة الطابة وكلية الطب التابعة لجامعة برمنجهام . والمساحة المقامة عليها المباني ١٥٠ أكرا أو حوالي ٦٠ هكتاراً .

الآن الى تنظيمها والعمل على اقامتها بحيث نخفف من وطأة مشكلاتها التي عانت منها مدن أوربا الأمرين، وقعنا فيما يشبه المشكلات التي قامت هنالك، وكانت سبباً في ضياع الكثير من الجهد والمال والزمن .

المخترعات الحربية

في الحياة المدنية

تشمل قائمة معجزات الحرب الحاضرة أشياء شتى لم يكن ليحلم بها امرؤ في زمن ما. وجميعها ستعود بمنافع جمة، في كل طور من أطوار الحياة المدنية، فتحدث انقلاباً في معيشة كل فرد على وجه التقريب، من كساء وغذاء، وسكنى وكماليات، حتى النزهة.

ومن هذه الأشياء، الثقاب الذي لا يؤثر فيه الماء، إذ يمكن إبقاؤه فيها بضع ساعات، دون تلف، ثم يصلح بعدها للاستعمال. والمطهر الحربي الجديد، وهو مادة مبيدة للجراثيم، ستنتفع بها البيوت والمطاعم. وأصوبها في ذلك، الجيش القائم، حيث تذاب بضع أوراق منها في وعاء يسع ٢٥ جالوناً من الماء فينتج من هذا المزيج محلول مطهر قوي، لتطهير أدوات الطبخ وأواني الأغذية مما يغشاها من جراثيم الأمراض وقاية لصحة روّاد الأندية الحربية الذين يتناولون فيها المآكل والمشارب، وهؤلاء يؤلفون سريات تبلغ كل منها مائتي جندي، وذلك عند تعذر وجود الماء المغلي. وفي الجيوش الأمريكية تستعمل مادة جديدة غير سامة لابادة الحشرات، لا تؤذي الناس، ولا تحدث التهاباً. وهذه ترش برشاشة يدوية، بضغط غاز الفريون freon ويكفي رشها في موضع محصور أيّاً كان مدة أربع ثوانٍ لقتل كل ما يحويه من الحشرات. فالصابون الحربي الصالح لكل الأغراض والأجواء حارّاً كان الماء أو بارداً أو أجاجاً أو فراتاً، فيصلح لغسل الأيادي والوجوه والاستحمام والحلاقة وغسل الملابس وأجزاء الأجهزة. ثم المادة الشحمية لدهن الجلد وهي تركيب فائق يلائم الأجواء الباردة فتدهن بها الأحذية والأشياء الجلدية فتلين، ولا تتشقق ولا تتخللها المياه، أيّاً كانت درجة الحرارة من الهبوط، وحالة الجو من التقلب.

وكذلك الشمع الواقي النافع، الذي اخترع حديثاً، وهو مؤلف من موم العسل، مخلوطاً بنشارة الخشب، وقد سمي بهذا الاسم لأنه يغني مستعمله عن موقد صغير أو نار ضئيلة، فيستغنى به الجنود عن اشعال نيران كبيرة، قد يكون ايقادها خطراً عليهم أو متعذراً

وقد أحدثت بعض تحسينات كبيرة في ملابس القوات المسلحة ، ينتظر تطبيقها في الأدوات والمنسوجات ، عند ما تضع الحرب الراهنة أوزارها ، إذ اخترع نسيج أطلق عليه اسم (الساتين الحربي الحماسي الواقي) وهو خماسي النسيج ، ويعد أمتن المنسوجات التي عرفت حتى اليوم . ومن هذه المادة سوف تتخذ عقب الحرب ، ملابس للصناع وللاحداث ، كما تصلح للاستعمال في الألعاب ، إذ تروقهم جميعاً .

وما يقال في استحسان هذا النسيج ، يقال مثله في النعال المزدوجة في أحذية الجنود إذ ثبت أنها تعيش زمناً يعدل أربعة أمثال مكث النعال العادية . ولا ننسى في هذا المقال ربط الأحذية أي شرطها المتينة التي تصنع من مادة النيلون . والازرار التي تصنع من العجائن الكيميائية[1] ثم القفافيز المفردة ، التي اذا فقدت فردة منها ، أمكنك ابتياع فردة أخرى تلائم أختها الباقية . والتحسينات التي قامت بها القوات المسلحة في الملابس ، الملائمة للجو البارد ، سيكون لها نتائج بعيدة المدى في الثياب الشتوية . فقد تبين مثلاً أن عدة طبقات خفيفة من القطن والصوف ، تدفىء لابسها دفئاً يفوق ما تحدثه الفراء . ويقول صنّاعها إنهم يدرسون مسألة صنع معاطف للرجال والنساء على السواء من هذه المادة ، لأن المادة والنسيج اللذين يصنع منهما المعطف الحربي والثوب الواقي من تقلبات الرياح أفضل من أي نسيج مألوف لمثل هذه الغاية .

***

ولم تقتصر معاونة الحرب الحالية على انتاج أغذية جديدة فحسب، مثل الحبوب الجاهزة المطبوخة مع اللبن الحليب والسكر ، وهي التي انما تحتاج الى مزجها بالماء الساخن ، لتعد للاكل ، وكذلك الزبد الذي لا يتسنخ ولا يذوب . بل ان الحرب قد عجلت نجاح طريقة تجفيف هذه الأقوات ووسعت نطاق تبريدها تبريداً عاجلاً وتكثيفها أيضاً . ولم يكن مستطاعاً قبل نشوبها ، نجاح تجفيف الأغذية واللحوم معاً . فأصبحت هذه المأكولات شائعة الاستعمال في أماكن شتى . ومن البديهي أن تحسينات كثيرة واسعة النطاق ستحدث في وسائل النقل والانتقال جميعها ، على اختلاف أنواعها ، بصفة كون هذه التحسينات نتائج مباشرة للتقدم الذي ثبت في خلال الحرب الراهنة . ومن هذا القبيل أن شركات النقل الجوي أوصت بصنع أساطيل من الطائرات الجديدة ذات المحركات الأربعة ، خاصة بنقل الركاب والبضائع ، لتقطع مسافة تتفاوت في الدقيقة بين أربعة وخمسة أميال . وستكون

---

(١) راجع مقالنا الضافي — على العجائن الكيميائية وذلك في مقتطف يوليو سنة ١٩٤٠

حجرها مريحة ملأى بالهواء المضغوط ، ولا يزعج ركابها دوي المحركات .

وصنعت مصانع بوينج الأمريكية ، التي تنتج قاذفات القنابل التي من طراز ٢٩ ب وهي المعروفة باسم القلاع الطائرة الجبارة[1] طائرة ضخمة من ذات الظهرين لنقل الركاب والبضائع عبر المحيطات ، وذلك على غرار الطائرات الحربية الهائلة المشار اليهـا . وستستخدمها حالما تنتهي الحرب الحالية . على أن تستمد قوتهـا من أربعة محركات تعدل قوة كل منها ٣٥٠٠ حصان ، فتستطيع السير بسرعة ٣٥٠ ميلاً مقلة مئة راكب عدا البضائع . وقد أطلق عليها اسم « ستراتو كروزر » أي الطوّافة الطخرورية السريعة ، التي ترقى الى أعلى طبقات الجو.

***

أما تأثير المخترعات الحربية في السفر البحري، فان بعض الخبراء يتوقع انتشار السيارات البرمائية أي التي تصلح للسير في البر والبحر على السواء لخدمة المدنيين ، على نمط السيارات المستعملة منها حالياً في جيوش الدول المتحالفة .

وكان للحرب تأثير محدود في السفانة ، ومن الأمثلة على ذلك أن إحـدى الشركات الأمريكية قد أتمت وضع الرسوم اللازمة لصنع عابرة أنهار فاخرة للنزهة أطلقت عليها اسم شنّـانوجا . وتمتاز هذه الباخرة النهرية بطولها البالغ ٢٥٠ قدماً ، وبشكلهـا المساير للتيار والريح ، وبسعتها الـكافية لحمل ٣٠٠ راكب، ثم باحتوائها على الـكماليات . وستسير للتنزه في نهر تنيسي عند ما تضع الحرب أوزارها . وستـكون مجهزة بتليفون يتيح لركابها محادثة من يشاؤون من سكان المدن والأماكن الواقعة على شاطيء النهر . وهـذا الى جانب الوسائل الأخر المعدة لراحة ركابهـا ، مما لا تتوافر إلاَّ في عابرات المحيطات من البواخر الـكبرى . وسيكون صدرها محتوياً على تجويف يصلح لاستقبال الركاب وسياراتهم فيركبون السفينة وينزلون منها على صقالات تديرها الطاقة الـكهربية . وقد حذا أصحاب هذا المشروع حذو الأسطول الأمريكي في ترحيل السفن والدبابات ، بهذه الوسيلة . وسيكون مقر دليل المركب أي مرشده ، مصنوعاً كله من العجائن الـكيميائية الشفافة ، على طراز مركز قائد الطائرة الحربية القاذفة للقنابل . وهذا من شأنه جعل ربان السفينة يتمكن من رؤية الأشباح على المدى الـكلي لثلاثمائة وستين درجة . وهو أمرٌ يعتبر من العوامل الخطيرة الشأن في سلامة الباخرة .

(١) انظر وصف القلاع الطائرة بقلم كاتب هذا المقال — وذلك في جزءي مقتطف ابريل ومايو ١٩٤٥

ثم إن استعمال دوائر القوات المسلحة ، للمباني الفولاذية قد أفضى الى ادخال تحسينات جمة اليها ، فجعل مصنع كبير في مدينة ديترويت يعدُّ برنامجاً لرسوم تشبه الأكواخ الفولاذية التي يأوى اليها الجنود والبحارة ، ليدخلها المدنيون في مباني مساكنهم ومزارعهم . وذلك لأنها سهلة التركيب متينة ، لا تتأثر بالحرارة أو الرطوبة ، ومن ثمة يتوقع لها العارفون منافع كثيرة في شتى الأغراض . وحينئذٍ يتمتع المولعون بالرياضة البدنية ، بالنعيم الذي ينشدونه في حياتهم ، وخاصة في معداتهم على الأقل . هذا إذا عُني الصناع باتباع التحسينات والأجهزة الحديثة التي تستعملها دوائر الجيش والبحرية بصفة كونها أدوات إضافية . ومنها الخيام الخفيفة التي لا قبل للبعوض على مهاجمتها، ثم المواقد الصغيرة التي لا يزيد ثقل كل منها على رطل انكليزي واحد ، وهي التي يمكن استعمالها بعض ساعات ، بملئها بالبنزين مرة واحدة . ثم استعمال أقراص الهلزون لتطهير مياه الأنهار والخلجان . ثم استعمال أكياس النوم الجديدة الطراز وعلب الكبريت العوامة .

وكذلك الأكياس التي تستعمل فيها قوارير صغيرة ملأى بمادة بروميد الميتيل لتطهير الملابس وأغطية الفرش في نصف ساعة .

***

ولا ننسى شُرط (جمع شريط) الثياب التي تصنع من نسيج النيلون ولا الفُرش التي تتخذ من شعره لأجل بوية الزيت . وهذه تمتاز بكون شعرها لا يبلى سريعاً . وقناني اللبن والصحون التي تتخذ من العجائن الكيميائية ، وهي قلما تكسر . ومن المرجح أنها سوف تصير من الأشياء المألوفة في السوق لأجل المدنيين . وحبال النيلون التي أسفرت تجربتها عن كونها أمتن من حبال القنب سبع مرات وتمتاز عنها بسهولة ربطها وحلها ومقاومتها للاهتراء . أضف الى ما تقدم سرده ، المعازف « البيانات » التي هي أخف من سواها بنحو مائة وخمسين رطلاً . وقد اخترعت خاصة للعزف في المعسكرات . ثم الآلات الموسيقية المصنوعة من العجائن الكيميائية ، وهي أخف من غيرها وأرخص وكان أول ما اخترع منها البوق الحربي . أجل إن في بعض الأحيان تحدث صعوبات عنيفة إما كثيرة وإما قليلة في تكييف المنتجات الحربية تكييفاً يلائم المنافع المدنية .

عوض جندي



تعقيب « على مقال » :

جو جزيرة العرب [1]

للاستاذ البحاثة الدكتور رفيق التميمي العذر حينما يسمي وادي « الحمض » بوادي « الحمث » كما للمرحوم البستاني صاحب « دائرة المعارف » العذر حينما يسمي ضَرَمَى » البلدة المعروفة في نجد — « ذو رَمَعٍ » . إذ تيارُ « التعريب » الجارف ، والثقة بأقوال أولئك « المتعربين الذين هم سندُ ذينك الجهبذين الفاضلين ، ورواج مؤلفاتهم ، مع قلة « المعاجم » العربية الصرفة الممحصة ، — أمورٌ مبرّرة .

ولي العذر ، حينما أعقب على قول الدكتور التميمي ، بكلمة قصيرة عن « مرابع » صباي ، و « مراتع » قومي ، سندي فيها المشاهدة ، وان كنت مزجى البضاعة في الاطلاع على آراء « المستشرقين ، المتعربين » ، معدومها في علم « الجيولوجيا » .

١ — من أهم أودية « جزيرة العرب » وادٍ عظيم يسمى « العقيق » على كثرة « الاعقة » . له ذكرٌ كثير في الشعر القديم ، وفي كتب التاريخ والأدب ، يمتد من قرب بلدة « الطائف » ويتجه محاذياً للسلسلة الجبلية « الحجاز » فاصلاً بينها وبين سهول « نجد » ماراً « بالمدينة المنورة » من الجهة الشرقية . حتى يصبُّ في « البحر الأحمر » ، جنوب « بلدة الوجه » . ويختلف نبات ذلك الوادي باختلاف الأراضي التي يمر بها ، وبقرب مصبه يكثر فيه شجر الرمث والأشجار التي من فصيلته ، و « الرِّمثُ » شجر تحمض بأكله الابل ، اذا أكثرت من رعي العشب وأشجار « العضاه » . ولذلك يسميه العرب — هو وكل أشجار تلك الفصيلة — « الحمض » . ويسمون جزء ذلك الوادي — لا كله — الذي يكثر فيه ذلك النبات « وادي الحمض » بالضاد المعجمة ، التي اختصت بها « لغة الضاد » . لا بالثاء كما ورد في مقال الأستاذ التميمي . وفي كتاب الدكتور

[1] المقتطف العدد الثاني من المجلد الخامس بعد المائة ص ١٢٥ يوليو ١٩٤٤

اسرائيل ولفنسون « اليهود في جزيرة العرب » رسم لذلك الوادي يدلُّ على تحقيق ، وسعة اطلاع .

٢ — ومن الأودية العظيمة في « الجزيرة » وادي « الرمة » الذي تنحدر فروعه في الزمن الحاضر — وفي الأزمان السحيقة في القدم ، من الجبال والحرار (جمع حرَّة) الواقعة شرقي «المدينة المنورة» لا شرقي « مكة » كما قال الدكتور التميمي ، وإذا صحَّ قوله انه يتجه نحو الشرق — وذلك صحيح — فهو يصبُّ في « الخليج الفارسي ، وآثار مصبه — قبل أن تحجزه رمال الدهناء — باقية مشاهدة في هذا العهد ، ولا يصب في «بحر عمان».
ولولا أن الدكتور فرَّق بين البحرين فأورد الاسمين قاصداً بذلك التغاير ، لقلنا انه أراد ببحر عمان الخليج الفارسي ، ثم ان « السومريين » — على رأي الدكتور — كانوا يسكنون في جهات ما بين النهرين ، فكيف مدينتاهم « أور » و « أدريدو » بقرب بحر عمان ؟ ! .

مع أن قوله بعد ذلك : ان وادي الدواسر يلتحق بوادي « الرمة » بالقرب من شواطىء خليج البصرة ، مع قوله السابق الذي أشرنا اليه فيهما شيء من التناقض — ان لم يصح أن يقال إنه أراد بحراً واحداً سماه بعدة أسماء ! ! . .

٣ — وإذا صح أن مجرى وادي الدواسر « بحذف الياء » كان مجرى لنهر عظيم ، فمن البدهي أن الأثر الباقي في العصر الحاضر للوادي المسمى بهذا الأسم هو أثر مجرى ذلك النهر في الزمن الغابر — واذن فهو يصب في بحر «عمان» — بعد اختراقه لسهل الربع الخالي قبل تكون رماله ، متجهاً الى الجنوب الشرقي ، لا الى الشمال ، اذ سلسلة جبال « طويق » والجبال الواقعة بوسط نجد تحجز بينه وبين الاتجاه الى الشمال والاتصال بوادي الرمة

ومن المسلم به أن علم طبقات الارض وتكوينها « الجيولوجيا » يقرر ان الانهار تكونت بعد الجبال . من الوجهة العامة ، لا في الحالات الاستثنائية . كما انه من المسلم به أيضاً أن ذلك العلم تعتمد أصوله وتنبني نتائجه على المشاهدة ، والاستدلال بالظواهر والتغيرات الارضية الباقية . وحسبي أن أقول ما علمت .

الطائف

عمر بن محمد آل جاسر
قاضي ينبع سابقاً

الهَمَجيّ : ج الهَمَج — Barbarian

Etm., F. Barbarie Barbaric L. Barbarian Barbariousness

المعنى العام : (١) أجنبي (٢) من تختلف لغته وعاداته عن لغة المتكلم أو الكاتب وعاداته ، وهذا هو المعنى المستفاد من الكلمة في استعمال العهد الجديد (الانجيل) ويسمى أعجمياً .

as : therefore if I know not the meaning of the voice, I shall be unto him that speaketh a barbarian, and that speaketh shall be a barbarian to me I. Cor. xiv. 11

« فان كنت لا أعرف قوة اللغة أكون عند المتكلم أعجمياً ، والمتكلم أعجمياً عندي »

(رسالة بولس الرسول الاولى الى أهل كورنثوس : إصحاح ١٤ آية ١١

Quot., Stillé, Stud. Med. Hist. 50 : ... It is well known that many of the Roman Emprors were barbarians who had been successful soldiers in the Imperial Army.

في العصرين : اليوناني والروماني : كل من لا يمت بنسب الى الاغارقة ، ويشمل ذلك الرومان . والكلمة في اليونانية barbarikos ، ومن ثم أخذت معنى غير حسن بأن أصبحت تدل على النقائص والسفالات التي كان الاغارقة أو أعداؤهم متدنون بها ، أما في العصر الروماني فان كل من لم تظله الامبراطورية الرومانية ، أو لم يصطبغ بحضارتها ، اعتبر همجياً ، وبخاصة شخصاً من أمم الشمال التي خربت الامبراطورية

في عصر النهضة : كل من ليس بايطالي ، أو لم يمت الى الايطالية بسبب

في الصين : كل من ليس بصيني ، وبخاصة الاوربيين وأهل أمريكا ، فانهم يعرفون عندهم باسم همج الغرب : Western Borbarians ويعبرون عن ذلك بكلمة خاصة ، ولما كثر استعمال اللفظ حرم استعماله في المعاهدات المتعددة مع الدول ، كما منع أن يوصف به أحد من رعاياها



هل عرف العرب أميركة ؟!

نشرت مجلة « المقتطف » في عددها الصادر في شهر فبراير الماضي نص محاضرة للأب الكرملي عنوانها : « عرف العرب أميركا قبل أن يعرفها أبناء الغرب » . وتقوم نظريته على الأمور الآتية : (١) ان العرب كانوا يتقنون الملاحة وفن بناء السفن (٢) اتساع تجارتهم منذ القدم (٣) كلمتان من أصل عربي في اللغات الأجنبية وهما : Alligator لأنها تبدأ بأل ، فهي القاطور مشتقة من فعل قطر و Caïman ، أصلها قرمان من قرم الشيء بأسنانه

لم يكن التنافس في يوم من الأيام أشد وأعنف مما هو عليه بين أمم الأرض قاطبة . وان هذا التنافس غير مقتصر على الشئون المادية التي تتعلق بحياة الجماعات وكيانها فقط ، بل تجاوز حتى شمل النواحي المعنوية الصرفة . فباتت قضايا فكرية كثيرة موضع نزاع بين الأفراد تارةً ، وبين الأمم تارةً أخرى . ونحمد الله ، لأن المتنازعين على أمر من الأمور العقلية لا يحملون سلاحاً في كفاحهم غير القلم واللسان ، ولا يخوضون ميداناً غير الطرس. وأضحت كل أمة تتحفز للنهوض ، تتمجد وتماجد غيرها من الأمم بالقسط من الروح أو العقل أو المادة الذي ساهمت به في بناء صرح المدنية ، لتفوز بأعظم نصيب ممكن من الشهرة والمكانة . وكل أمة تتمنى لو انها استأثرت بوضع كل لبنة من لبنات هذا الصرح حتى يهنأ لها العيش . وبوحي هابط من هذه الفكرة ، يحاول الأب الكرملي أن ينزع اكليل المجد والشهرة عن رأس كولنبس ويضعه على رأس العرب ، بحجة انهم سبقوه الى معرفة البلاد الأمريكية .

وقبل المضي في الرد على زعم الكرملي ، أنبه على أمر مهم جدًّا وهو أنني لا أرمي الى المجادلة والمماحكة . وان كلمة شعوبية ان جاز أن تطلق على كل من يلصق بالعرب تهمة هم بريئون منها ، فانها لا تطلق على من يرغب أن ينسب الى العرب شهرة لا تصمد في وجه النقد النزيه الجريء ، ولا يكون نصيبها في أندية العلم الاّ الاستخفاف والسخرية . وانني أعتقد أن مراضاة الضمير والحق يجب أن تتقدم على مراضاة العاطفة الثائرة والهوى ، وان القول المأثور « من ليس معنا فهو علينا » قول فاسد لا يؤيده الواقع ولا تبرهن على صحته التجارب.

ويجب أن نقف هنا قليلا لنقول إن العرب الذين يتكلم عنهم الكاتب ويظن انهم

اكتشفوا البلاد الأميركية ، هم سكان شبه الجزيرة العربيـة . لأن البلاد التي ينطق أهلها الضاد في الوقت الحاضر بلدان مستعربة جمعها والعرب الأصلاء مصير سياسي واحد ردحاً من الزمن بعد الاسلام ، ولا يزال يجمعها حتى الآن مصير لغوي وديني واحد . وبعد هذا ابادر الى القول أن العرب لم يعرفوا أمريكا قبل أبناء الغرب . وترتكز حجتي على الأسباب الآتية.

ان العرب شعب غير بحار . ويعود السبب في ذلك الى طبيعة أراضيهم الصحراوية وما ولدت في نفوسهم من السلائق البدوية . وما زالت الصحراء منذ أقدم العصور . ولن تزال ، منافية لكل ثقافة عمرانية ولكل صناعة معقدة تتطلب تفكيراً يعلو على التفكير البدائي . ولما كان لكل بيئة مقومات معينة ، فان هذه الخصائص تؤثر في أعمال الانسان ، وتوجهه توجيهاً ملائماً لطبيعة الأرض الذي يعيش عليها بما تقدم له من وسائل العمل أو تحرمه منها. فالأراضي الصحراوية لا تقدم للانسان الوسائل اللازمة لبناء السفن ، كالأخشاب مثلاً ، التي تؤخذ من الغابات . وأين أماكن الغابات في شبه الجزيرة العربية ؟ وأين المدن التي بناها العرب على شاطىء البحر ، قرب الخلجان الهادئة ، كي تلجأ اليها السفن . وما من شعب يلتفت الى البحر ويراه بدء امكانيات جديدة ، وينفض يده من السعي على سطح الأرض ، الا عندما يتجلى له أن العمل في البر لا يجديه نفعاً . أما العرب الذين اشتهروا بالقناعة في المأكل لقلة خيرات أرضهم ، وبالقليل من الثياب لدفء اقليمهم ، فكانوا ولا يزالون ، يتدبرون أسباب حياتهم بيسر ، وذلك مما تدره التجارة من الأرباح والحيوانات والشجر والحروب التي لا تنقطع وما تأتي به من الغنائم أحياناً . ويمكننا أن نستشف حياة العرب القدامى من خلال حياة العرب المعاصرين لأن التطورات التي تمر بالجماعات البشرية لا تؤثر فيهم تأثيراً يستأصل كل سلائقهم الموروثة ويخلقهم خلقاً جديداً . لأن أمواج الحضارة مهما بلغت من الشدة ، تنكسر حدتها قبل أن تغمر فيافي الصحراء . ولأن العرب في وقتنا الحاضر لا يزالون يعيشون فوق البقاع التي أهلت زمناً بأولئك ، ويمارسون نفس الأعمال التي كانوا يمارسونها ، ويتأثرون بطبيعة الاقليم على نحو ما كانوا يتأثرون . فنلاحظ اليوم ان العرب أبعد الناس عن شؤون الملاحة كما أن أكثريتهم الساحقة تقيم في الأماكن النائية عن شواطىء البحار ، لأن فيها متندحاً لهم عن البحر . وينفر العربي من البحر نفوراً يكاد يكون غريزيّاً . وأعتقد أن السبب في ذلك يعود لندرة وجود مجاري المياه الغزيرة في قلب البلاد العربية . ولم يسرف شاعرهم في الاحساس بالخوف من البحر عند ما قال :

طين أنا وهو ماء والطين في الماء ذائب

ومما يروى بهذا الصدد أن معاوية لما فكر في بناء أسطول يناجز به أسطول الروم في

البحر المتوسط ، عهد بذلك الى سوريين من عكا وصور وطرابلس . ولست بحاجة الى القول أن هذا الاسطول كان سوريًّا بأخشابه وفنه وملاحيه وبحارته .

وطبيعة العربي لا تلائم الملاحة بل تناقضها ، لا لما يتوهمه في البحر من خطر محدق واتساع لا نهاية له ، وعمق ليس له قرار ، بل إن لطبيعة البلاد التي ولد وعاش عليها يدًا في ذلك . فمن المعلوم ان البلاد العربية اقليمها صحراوي ، جاف لشدة الحرارة الناشئة عن قلة المياه والأشجار التي تعمل على تلطيف الجو . أما الاقليم البحري فهو شديد الرطوبة لا يوافق مزاجه مطلقاً . ويذكر المؤرخون ان مناخ سوريا ، ولا سيما دمشق ، بما فيه من رطوبة ناشئة عن المياه الغزيرة، كان يؤثر في أجسام العرب المعوّدة على الجفاف، عند ما كانوا يؤمون سوريا في العهد الأموي . فيحدث فيها بثوراً ودماميل حتى أصبح عندهم من الأمثال التي تتناقلها الألسن « دماميل الشام وطواعين الجزيرة » . وكان الجنود ، حتى أواسط العهد الأموي ، وقد مضى عليهم زمن ليس بيسير في الثكنات القائمة في المدن ، اذا ما أراد القائد مكافأتهم على عمل مستحسن، سألوه الاذن بالرجوع الى باديتهم . وان امرأة معاوية لم تكتم حنينها الى البادية على الرغم من حياتها الغارقة في الرخاء والهناء في بلاط العاهل الأموي في دمشق فأنشدت تلك الأبيات المشهورة : « وبيت تخفق الأرياح فيه ... » الى آخر القصيدة

فاذا كانت أجسام العرب لم تقوَ على تحمل مناخ سوريا ، وهو جاف نسبيًّا ، فكيف تستطيع أن تتحمل رطوبة البحار والريح الباردة التي تهب من ناحية القطب الشمالي ؟ ! وهل يطيق هؤلاء أن يقضوا أياماً وشهوراً لا يرون خلالها إلاّ الماء والسماء ؟ وهل يعقل أن تظل سفن شراعية في حالة بدائية الصنعة ، تذهب بها الريح كل مذهب ، أن تظل سائرة في منطقة جولف ستريم الدافئة مسافة ثلاثة آلاف ميل أو تزيد ؟ ومن المشهور في دوائر العلم انهذا التيار الدافىء ظلّ مجهولاً لدى البحارة حتى عام ١٥١٣ حيث استرعى انتباه بحار اسباني .

وهناك مشكلة أخرى تواجهنا ولا نستطيع أن نميل عنها : في أي الموانىء كانت ترسو تلك السفن العربية، وفي أي البحار تسير؟ هل تقع هذه الثغور على شاطىء بحر الروم أو البحر الأحمر أو الخليج الفارسي ؟ . ومن الثابت تاريخيًّا ان شواطىء بحر الروم، بما في ذلك مصر وسوريا ،كانت قبل الفتح العربي مأهولة بأقوام ليسوا عرباً ولا مستعربين . وأين نقاط الارتكاز التي أنشأها العرب ليلجئوا اليها كلما هبت عليهم العواصف أو ليفرغوا ما ينقلون من بضاعة ويأخذوا ما تراكم في عنابرهم من خيرات تلك البلاد على نحو ما كان يفعل السوريون القدماء ، أي الفينيقيون .

وفي الحقيقة اننا نظلم العرب وكل الشعوب القديمة اذا ما أردنا مقارنة عبقريتها البحرية

بعبقرية الفينيقيين . فهؤلاء أسسوا أول أمبراطورية بحرية في العالم القديم، واتخذوا الأهبة التامة والعدة الكاملة لهذا العمل الجبار. فبنوا مدنهم على شواطىء البحار وأنشأوا سلسلة من المراكز على شاطىء المتوسط وجزره . فكانوا لا يكادون يودعون نقطة ارتكاز حتى تطل عليهم أخرى . ما أشبه هذه المراكز بوكالات لشركة عظيمة تتولى بيع ما تحمله السفن الفينيقية وجمع الخيرات التي تنتجها البلاد . وبالرغم من نشاطهم ومهارتهم وتفوقهم في فن الملاحة واستخفافهم بالمتاعب واستهتارهم بالخطر والموت ، لم يفكروا في أحد الأيام أن يجعلوا مركز نشاطهم خارج حوض المتوسط . ولم يذكر المؤرخون إلاَّ محاولة حاولها «حنّون» القرطاجني حول الشاطىء الافريقي ، ويرجحون انهم بلغوا بحر البلطيق.

ومن الغريب ان كتب السير العربية لا تتحدث مطلقاً عن الرحلات البحرية التي قام بها جماعة من العرب القدامى ولا تذكر شيئاً عن تلك الأساطيل . حقّاً ، ان العرب كانوا يملكون أسطولاً عظيماً ، وحداته الإبل ، ويقومون برحلات جبارة لكنها على سطح اليابسة عبر الصحاري . وليس في ذلك غضاضة على العرب . فاذا كان قدّر لغيرهم أن يذللوا الأطلسي وغيره من البحار ، فانهم قد ذللوا الصحاري الشاسعة القاحلة ، وكانت قوافلهم لا تنفك تجوب البلاد من قلب الصين والهند شرقاً حتى بلاد الروم غرباً . وان الأفاويه والجوهرات والحرائر التي بلغت أوروبا وحفزت كولنبس للذهاب الى الهند، قد نقلتها قوافل عربية . بهذا فليماجد العرب . أما ان نباهي باكتشاف لم ينهض أي دليل على صحته، ولم يحدث أثراً ما في حياة البشر وننتقص من رائد جبار أوجد عالماً جديداً ، فهذا ما لا يقره وجدان، ولا يجيزه عقل يحسن التقدير والتمحيص .

ومن المعلوم أن كولنبس لما بدأ يتأهب لرحلته تلك ، لم يكن يقصد بلاداً نائية كائنة وراء المحيط ، لا اسم لها ، بلغها في القرون الخالية نفر من العرب أو النرويجيين أو غيرهم من الشعوب ، بل كان يقصد بلاداً حقيقية معينة ، تذوّق خيراتها وعرف الشيء الكثير عنها، وتواترت الروايات عن غرائبها وكنوزها . أما العرب الذين غادروا شواطىء أوروبا الغربية ، مغذين السير عبر الأطلسي ، فماذا كانوا ينشدون من وراء هذه المغامرة وأي البلاد كانوا يقصدون ؟ هل كانوا يسيرون على هدًى ؟ هل حملوا معهم زاداً يكفيهم مؤونة طريق يعرفون أين تبدأ لكنهم يجهلون أين تنتهي ومتى تنتهي ؟ واننا لا نسأل الأب عن السنة التي عرف العرب فيها أميركة، بل نسأله عن القرن الذي بلغوا به شواطىء ذلك العالم المجهول، وهل كان ذلك قبل الميلاد أم بعده ؟ ! .

واننا الآن نودع الحقبة التي تقدمت ظهور الاسلام حيث لم يكن للعرب نفوذ سياسي

مرموق يتجاوز تخوم الجزيرة العربية ولا دولة مرهوبة الجانب ، ونقفز الى ما بعد الاسلام ونتكلم عن التجارة في زمن الدولة الاسلامية التي كانت تمتد من تخوم الصين حتى الأطلسي . وهذه الفترة من الزمن هي الفترة المثلى الملائمة للعربي أن يعمل ويتجر ويكتشف . ولا يجوز أن نقارن بين قوة الدولة الاسلامية وقوة القبائل العربية قبل أن يجمعها الاسلام .

للدكتور قسطنطين زريق ، أحد أساتذة التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الأمركيـة ، بحث قيم عن التجارة الاسلامية أقتطف منه ما يتعلق بخطوط المواصلات البحرية والبرية . إن أهم الموانىء في زمن الدولة الاسـلامية على الخليج الفارسي هي : البصرة ، الأبلّـة ، سيراف ، مسقط . منها تخرج السفن الصينية والمراكب العربية، وتمر بمضيق هرمز، فالقسم الغربي من الهند، فالساحل الجنوبي المعروف ببلاد الملبار، فمضيق سرنديب، فجزر الهند الشرقية، فالنغو على شواطىء الصين . ويرجح انهم بلغوا اليابان أو شبه جزيرة كوريا . وهناك طريق فرعيـة كانت تدور حول بلاد العرب فتمر بموانىء ظفار فعدن فجدة فعيذاب على الشاطىء المصري . وأحياناً كانت تقلع بعض القوافل من عدن فزيلع على شاطىء الحبشة ، فمدغسكر التي كانت تعرف عند العرب بجزيرة الواقواق . ويستطيع القارىء أن يلاحظ أن هذه السفن في سيرها كانت تسير محاذية للشاطىء ، تحاذر أن تبتعد عن البر خوفاً من الضلال الذي ينتهي بالموت غالباً . هذه هي الطرق الرئيسية للتجارة الاسلامية ، فهل لا يزال الأب مصراً على قوله ان العرب بلغوا أمريكا عن طريق اوربا ، بعد ما عرفنا المدى الذي بلغته هذه السفن في أعظم رحلاتها ، وذكرنا الشواهد والأدلة التي تدحض هذا الزعم ؟

ولا بدَّ من المامة وجيزة ، اتماماً للفائدة ، بالتجارة البرية عند العرب قبل الاسلام وبعده

ان التجارة أشرف حرفة في نظر العربي . فيقول استرابون الجغرافي اليوناني: « العرب جميعهم أهل تجارة » ويتداول أهل مكة قبل الاسلام هذا القول المأثور « من لم يكن تاجراً فليس بشيء » . وكانت التجارة العربية تجري بين المدن الآتية: مكة ، تدمر ، البراء ، سبأ . وكان لقريش رحلتان احداها لليمن والأخرى للشام . أما في زمن الدولة الاسلامية فقد طالت هذه الخطوط التجارية وتفرعت حتى عمت سائر الأقطار التي دانت لحكم العرب . فأصبح بمكنة القوافل أن تتنقل آمنة من حدود الصين حتى بلاد الروم. وذكر الدكتور زريق في بحثه حديثاً ورد في كتاب «حديقة الورد » للشاعر الفارسي سعدي: «كنت أعرف تاجراً له قافلة كبيرة من الجمال وحاشية من المماليك الخدام ، أضافني ذات ليلة في منزله في جزيرة كيش ، وظل طول الليل يتكلم عن تجارته وأعماله الى أن قال : يا سعدي انني أرغب في القيام بسفرة تجارية أخيرة أتمها واعتزل التجارة . قلت : وما هي هذه السفرة ؟ قال : أحمل كبريت

فارس الى الصين وأجلب نخار الصين الى بلاد الروم ، فأستبدل به هناك أقمشة حريرية وأنقلها من بلاد الروم الى الهند ، وأعود بفولاذ الهند الى حلب ، فأحمل زجاج حلب الى اليمن ، وأرجع أخيراً بثياب اليمن الى فارس . فاذا وصلت الى وطني بسلام ، اعتزلت التجارة الأجنبية والأسفار البعيدة » اهـ . وهناك طرق برية أخرى تسير وتتفرّع عبر افريقيا وهي : (١) الطريق الشمالية ، تسير من مصر ، فالمغرب ، فالأندلس . (٢) الطريق الشرقية ، من مصر ، الى النوبة ، فبلاد البجة . (٣) الطريق الغربية من الغرب عبر الصحراء الكبرى فبلاد النيجر .

نستنتج مما سلف ان التجارة الاسلامية ابان ازدهارها اتخذت سوقاً لها قارتي آسيا وأفريقيا والقسم الشرقي من أوروبا الذي يتاخم البلاد الاسلامية ، وأن التجارة البحرية بلغت ذروة نشاطها على شواطئ الهند وجزء من الصين والشاطئ الافريقي .

أما الاستدلال اللغوي من لفظتين أو أكثر تشبهان ألفاظاً عربية فحجة ضعيفة غاية الضعف . من المؤكد ان العرب لا يعرفون التمساح معرفة حقيقية لأن الأنهار معدومة في شبه الجزيرة العربية . ولماذا أطلق العرب على هذا الحيوان اسم التمساح ولم يطلقوا عليه إحدى هاتين اللفظتين القاطور أو قرمان ؟ فهل خصوهما بالأجانب وخصوا لغتنا بلفظة التمساح ؟ [1] . ومن المعلوم ان الدخيل على بلاد جديدة لا يطلق على ما يرى مما ليس له به عهد أسماء من عنده . بل يدعوها بالأسماء التي يسمعها من أفواه سكان تلك البلاد . فالأجانب الذين يفدون الى بلادنا ويشاهدون أشياء لا مثيل لها في بلادهم من مأكل أو مشرب أو ملبس أو أثاث ، لا يخطر لهم أن يرتجلوا أسماء جديدة بل يلفظونها كما اعتاد السوري أن يلفظها بلسانه العربي . فالعباءة والبرنس والطربوش والديوان والقهوة والبرغل والكبة ، تسرّبت الى آدابهم بلفظها العربي . فكيف تسنى للعرب أن يقفوا موقف الأستاذ بين هنود أميركة ويقولوا لهم : « انكم لا تعرفون شيئاً ، ان هذا الحيوان لا يسمى كذا ، بل انه يدعى بالقاطور أو القرمان ! ! »

أما ان كل كلمة قد اعتمرت بالألف واللام أصبحت عربية الأصل ، فهذا ليس بصحيح . لأن في الفرنسية مثلاً كلمات كثيرة تبدأ بأل ويستحيل أن تكون عربية الأصل . وأن هناك كلمات عربية لا تحصى تسرّبت الى اللغات الأجنبية لما استبحرت الدولة العربية ، ولا تزال تستعمل كتابةً ولفظاً دون أن تدخلها أل . وعلى سبيل المثال نذكر هذه الكلمات : amiral (أمير البحر) ، azur (أزرق) ، chime (كيمياء) ، magasin (مخزن) ، cable (حبل) ، (بارجة) barge وما دام هذا الاتصال قد تمّ بين البحارة العرب وسكان أميركة الأصليين فماذا

---

(١) تمساح العربية أصلها من المصرية القديمة « امساح » : المقتطف .

استطاع العرب أن يقتبسوا عنهم من لغة أو صناعة أو غير ذلك من مظاهر الحياة ؟ لأن الشعوب لدى احتكاكها ببعضها ، سواء عن طريق التجارة أو الحرب أو الجوار ، لا بدَّ من حصول اقتباس متبادل من جانب الطرفين في شئون شتى لا يقتصر على بعض الكلمات ، بل كثيراً ما يؤدي الى اقتباس من صناعات وفنون وأنظمة حكم وطرق معيشته، كما حصل أثناء الحروب الصليبية بين الافرنج والسوريين، وكما يحصل كلما جرى اختلاط . فقد تعلمَّ كثيرون منهم اللغة العربية وذلك لكي يتمكنوا من التعامل مع السوريين في المتاجرة، والتفاهم معهم في كثير من المناسبات . كما أن بعض السوريين اقتبسوا لغات أجنبية . وقد أتاحت هذه الحرب للافرنج أن يحذقوا بعض الصناعات السورية كصناعة السكر والورق وتربية دود القز والأقمشة والأصباغ ...

وان اتساع التجارة وازدهارها عند العرب قبل الاسلام ، أتاح لهم أن يقتبسوا مفردات كثيرة من الشعوب التي اختلطوا بها كالنبط والأحباش والفرس والسريان والروم ، وعربوا هذه الألفاظ ونطقوا بها نطقاً خلع عنها عجمتها وأكسبها لهجة عربية صرفة . ولا بدَّ من أن تكون هذه الشعوب التي ذكرناها قد أخذت الكثير من الألفاظ العربية . وأرى أن وجود ألفاظ من أصل أجنبي في صلب اللغة العربية ، دليل على حيوية الشعب العربي ونشاطه . انه دليل على ان ذلك الشعب لم يعش منكمشاً في بقعة منعزلة عن المعمور بل كسر النطاق التي ضربته حوله الحواجز الطبيعية وخرج من عزلته وانه لم يعش منفرداً لا يعرف العالم ولا العالم يعرفه. واذا كان قدّر للعرب أن يبلغوا أمريكا، فلماذا لم نرَ في لغتنا كلمة واحدة تعود في أصلها الى أصل أمريكي ؟ ولماذا لم يجد الروّاد الأولون الذين ارتادوا تلك الأصقاع شيئاً ينسب الى العرب ؟ بينما نرى الملاَّحة الفينيقيين تركوا لسكان حوض البحر المتوسط ثروة لا تقيَّم ولا تندثر : هي الأبجدية . هذا عدا التماثيل الكثيرة المصنوعة من الشبة والعاج أو الحجر والآنية الفخارية أو المعدنية . فكانوا بمثابة قنطرة تصل الشرق بالغرب .

وأثبتت المباحث أن ما من أحد من شعوب العالم العربي قدر له أن يدخل أمريكا قبل منتصف القرن التاسع عشر . فيذكر الدكتور فيليب حتّي انه عثر على كتاب يصف رحلة شاب سوري اسمه انطونيوس البشعلاني دخل الولايات المتحدة عام ١٨٥٤ وتوفي عام ١٨٥٦ وقد أقام له أصدقاؤه الأمريكيون نصباً من الرخام كتبوا عليه تحت اسمه «ولد في جوار بيروت (سوريا) في ٢٢ اغسطس ١٨٢٧ وتوفي في نيويورك ٢٢ اغسطس ١٨٥٦ » . فيكون هذا الشاب أول مهاجر سوري الى أمريكا الشمالية . ولا يبعد أن يكون أول مهاجر من بلاد عربية وطيء أرض القارة الأمريكية .

صافيتا (سوريا) الياس يعقوب

النقابة والنقابية

Syndicate and Syndicalism.

النقابة (١) جماعة من أصحاب رءوس الأموال أو رجال المالية، يؤلفون وحدة غرضها القيام بمشروع يحتاج الى مال كثير أو موارد عظيمة ، حتى يخرج الى حيز الفعل ، وبخاصة مشروع يرمي الى السيطرة على سوق حاجة من الحاجيات . (٢) بمعنى أوسع : هي طائفة من الناس تتألف للقيام بعمل ما والتوسع فيه ، وبخاصة جماعة غرضها السيطرة على سوق بعض البضائع بأن يستولوا عليها ثم يقومون بالاعلان عنها اعلاناً واسع النطاق، أو السيطرة على مجموعة من الصحف.

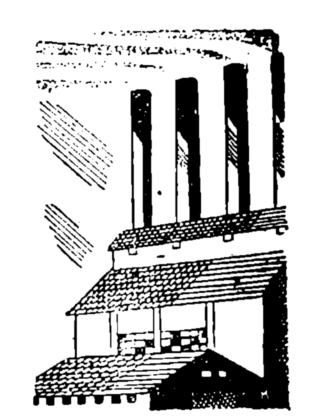
(من نقائص هـذا النظام ومخاطره الكبرى في المجتمع قوته على الاحتكار وأثره في الترويج . فان نقابة من نقابات الصحف تستطيع أن تخلق من أي كاتب أو مؤلف شخصية عالمية في يوم وليلة ، من غير تقدير حقيقي للقيم والمقاييس العلمية أو الأدبية) ، وننقل هنا شاهداً نشرته صحيفة « الرأي العام الأمريكية (١٦ من فبراير : ١٨٨٩) .

What are called newspaper Syndicates are rapidly extending their field of action. By establishment of offices not only in America, but at Paris, Berlin, Vienna .... they are able at one stroke to confer world-wide fame on any author whose work is at their disposal.

النقابية : (١) حركة قام بهـا عمال الصناعات ، والغرض منها أن ينقلوا ملكية عُدَد الانتاج والتوزيع ووسائلهما من أيدي أصحابها الى اتحادات العمال ، حتى يعود النفع المادي برمته على العمال وحدهم ، متوسلين الى ذلك بالاضراب العام . وقد أصبحت قوة النقابة من عوامل القلق في النظام الاجتماعي القائم على الرأسمالية ؛ ونستند الى شاهد ننقله عن البحاثة J. R. Hartley الانجليزي نشره سـنة ١٩١٢ ؛ أفضى فيه بأن النقابية قد تتقنع تحت اسم « الاتحادية الصناعية » فاللفظان عنده بمدلول واحد :

Syndicalism, open or baptised under the name of industrial unionism, is of the unsettling influences in the world of works.

(٢) مذهب اشتراكي وضعه رجال النقابات الفرنسية او اتحـادات التجارة ، والاسم الفرنسي Syndicalisme لم يدل أول الأمر على غير معنى الاتحاد التجاري ، ولا يزال هـذا المعنى المحدود من دلالات هذا اللفظ الى اليوم . وكانت الفكرة النقابية قبل الحرب العظمى الأولى ، ذات أثر بالغ في نظام الاجتماع ، ولـكنها اندمجت بعد في مذهب الحزب الشيوعي وما يماثله من المذاهب والجمعيات. والاصطلاح إما أن يدل على مذهب أو نظرية ذات غرض تنظيمي ، وإما على الأسلوب الذي يلجأ اليه النقابيون تحقيقاً لمثاليـاتهم . والمذهب النقابي دون كل المذاهب الأخرى المماثلة له يمت بصلة الى طبقة العامة Proletaria ، فهو كما وصفه بعض الـكتـاب « اشتراكية طبقة العمال » Le Socialisme Ouvrier على العكس من ضروب الاشتراكية الأخرى التي بشـر بهـا أصحاب الطبقة الوسطى أي المفكرون : Intellectuals والنقابي Syndicalist ، هو من يقول بالنقابية .



الزجاج
في الصناعة الحديثة

صبح للزجاج منافع جديدة استمدتها الصناعة من عدم قابليته الالتهاب أو التلف وقدرته على عزل الحرارة والكهربا والوقاية من الحشرات الضارة . فهناك الآجر الزجاجي الذي يستعمل في البناء والصوف الزجاجي الذي ينض من الصوت والشريط الزجاجي العازل والاجهزة المصنوعة من مواد زجاجية .

الزجاج مادة ذات ماضٍ طويل ومستقبل مملوء بالمنافع والتجارب . فانك تستطيع الآن أن تنشر الزجاج كما ينشر الخشب ، وان تطويه كما يطوى الصوف ، وان تنسجه كما ينسج الحرير ، وهو يستعمل في خياطة الجروح ورؤية السمك في قاع البحر . والزجاج الآن من القوة بحيث يوضع على الجليد ، ثم يختم بالرصاص المصهور ، دون ان ينشق ، وذلك نتيجة البحوث التي يقوم بها العلماء ، وخاصة في بريطانيا حيث لأبحاث الزجاج مقام خاص . وتصنع منه الألواح الصلبة المسطحة والافران والنظارات الشمسية غير القابلة للكسر ، والتي تفوق ما كان مستعملاً منذ سنوات قليلة .

منذ ثلاثة آلاف وثلاثمائة عام امتزج حامض باحدى المواد المضادة للحوامض ، فنتج الزجاج الذي بفضله استطاع الناس أن يروا ما هو خارج منازلهم ، وان ينظروا الى الجبال الموجودة في القمر ، وأن يشاهدوا الحياة المكتظة بجراثيم البكتريا . ومنذ ذلك الوقت استمرّ البحاث في التجربة على هذه المادة التي تعتبر أقدم المواد الصناعية في العالم ، حتى استطاعوا أن يبنوا المنازل من الزجاج وان يلبسوا الملابس المصنوعة من مواد زجاجية .

وفي بريطانيا تنسج هذه المواد الزجاجية من خيوط الزجاج الرفيعة . وأوقية واحدة من الزجاج تخرج ٤٨٣ كيلو متراً من الخيط وهو في خمس سمك شعرة من شعر الانسان . ولكنه بالرغم من ذلك أقوى من الصلب وغير قابل للالتهاب أو التلف أو التأثر بالحشرات الضارة ، فضلاً عن أنه أحسن عازل للحرارة والكهربا .

وهناك مادة زجاجية تشبه الحرير تستعمل في عمل الستائر والأثاث فهي لا تحترق

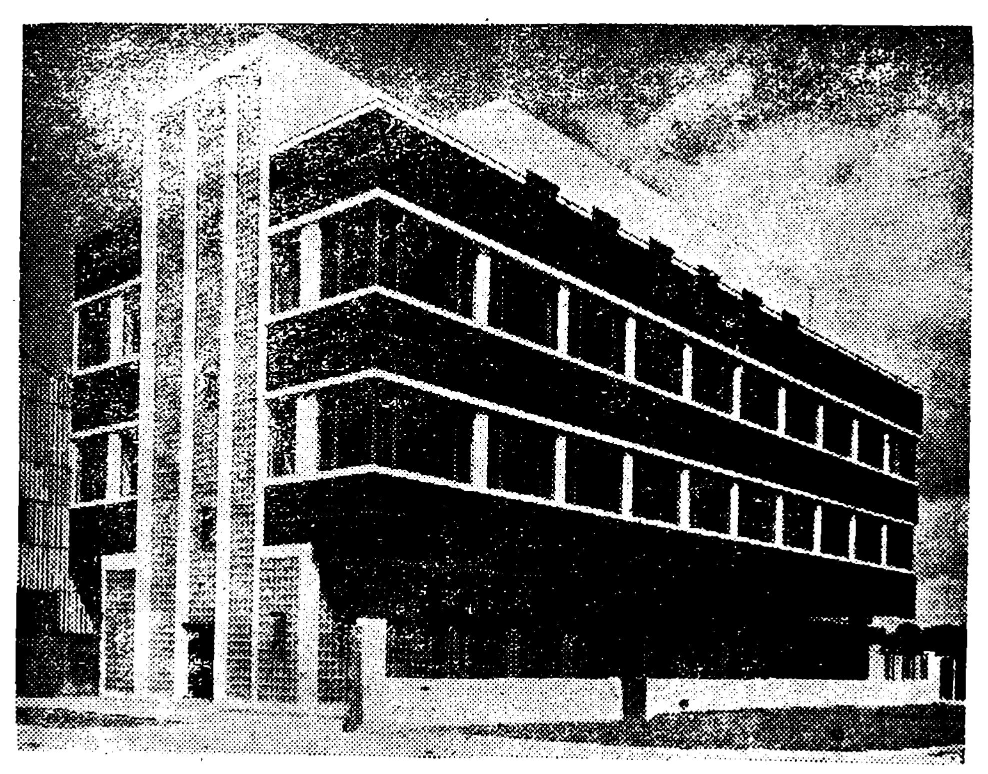
وقد استعملت فعلاً في عمل أربطة الرقبة ولوازم العرس بما فيها من قبعات وأحذية، وكذلك ملافع الاطفال نظراً لنعومتها ، ولطافة ملمسها . واذا مزج الزجاج بالعجين استطعنا أن نعمل منه ملابس الرقص ، التي تعكس النور في المراقص وتتلألأ كالفضة فوق أرضية ناصعة البياض . وحديثاً توصل البحاث في انجلترا الى حل مشكلة صبغ الأقمشة الزجاجية :



تبين هذه الصورة شريطاً عازلا وخيوطاً وعروقاً متنوعة من الزجاج ، يستخرج من كل منها ما يبلغ طوله ١٦١ كيلو متراً من الخيط . ويوضع كل عرق زجاجي في فرن حار من تحته شريط مثقوب من البلاتين ، ومن داخله تشد خويطات جبلة من الزجاج المذاب . ثم تعالج الخيوط الزجاجية بعد ذلك معالجة خيوط القطن أو الصوف فتنسج أقمشة نافعة

ويجب ان يكون الزجاج الذي يستعمل في عمل الخيوط من نوع جيد جدًّا . فتذاب المواد الخام الأساسية اللازمة لعمل عروق الزجاج الرخامية ، ثم تعاد اذابتها بعد ان تبرد ، ثم تصنع خيوطاً . وينتج كل عرق منها ١٦١ كيلو متراً من الخيط .

ولهذه العروق الزجاجية فوائد أخرى كثيرة . منها أن صوف الزجاج يصنع من خيوط زجاجية مضغوطة في غربال منتظم الثقوب ، ثم تدلى في الهواء مكوّنة طبقة زبدية من الزجاج الحريري تشبه الصوف او القطن شبهاً كبيراً . ويمكن وضع الصوف الزجاجي بين الحوائط والشقوق بحيث يكون عازلاً يحفظ رطوبة المنازل صيفاً ودفئها شتاء . فانه لا يوصل الحرارة بسهولة .

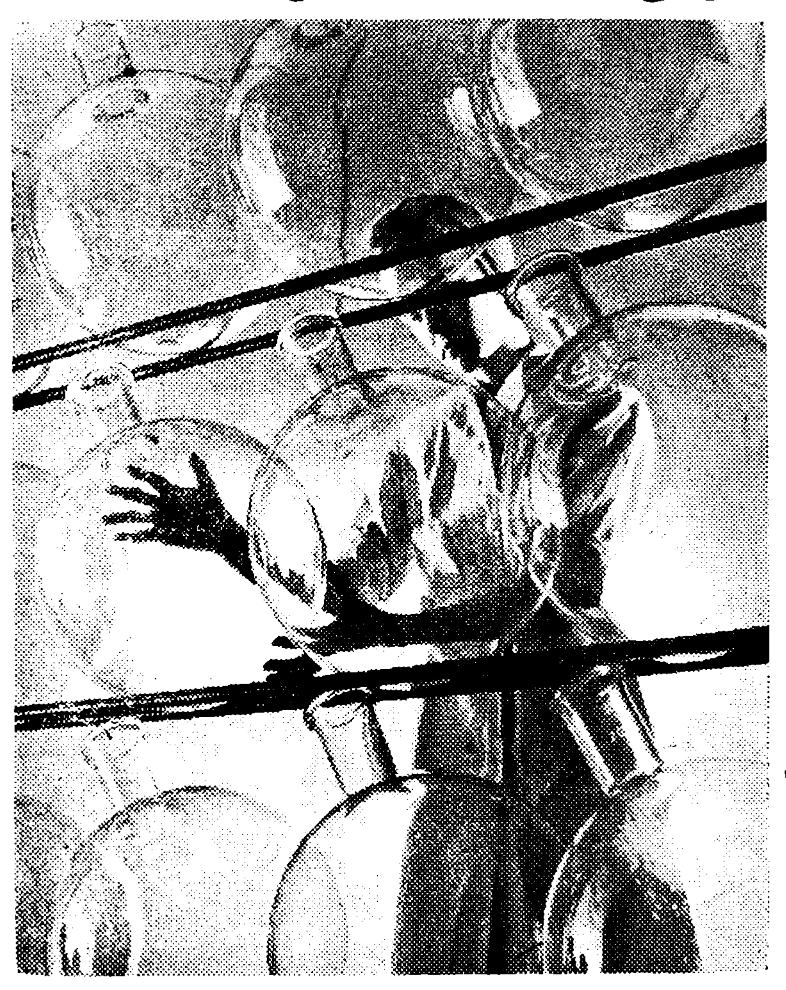


منظر خارجي لبناء جديد اتخذته شركة اخوان «وجن» مكتباً لها في «تورنلي بانك» بمقربة من غلاسكو ، وهو من تصميم المهندس الانجليزي «سلون بيكيت» من برمنجهام .

وترى في مدخل البناء قوالب الزجاج الموصلة للضوء الى مرقى السلم . وقد استخدم الزجاج ايضاً في تركيب جدران الدور الارضي . أما جدران الطبقات التي تلي هذا الطابق ، فقد غشيت بزجاج أسود صقيل يسمى في الصناعة « فيترولايت » : Vitrolite

ويستعمل أيضاً هذا الصوف لالتقاط الصوت . فالمنازل الجديدة في بريطانيا لها سقوف مزودة بهذا الصوف ، فاذا طرقت سقف حجرة بمطرقة ، فلا ينفذ اليها الصوت . وكذلك تستعمل تلك الألياف الزجاجية في تصفية الهواء . فاذا عبئت في اطارات صغيرة ذات

شبكات سلكية من الجانبين وتوصل الى فتحة في حائط خارجي ، فان الصوف يصبح كالأسفنج ويرشح جميع الأقذار العالقة في الهواء المندفع نحو الغرفة



تبين هذه الصورة نماذج من الزجاج الذي يستخدم في المصانع لمقاومة الحرارة ، واسمه الصناعي «هيزل : Hysil » . ويقوم بصناعته في بريطانيا بيت « تشانس Chance » المعروف ، وقد نجح هذا البيت في كثير من التجارب التي تتعلق بانتاج الزجاج . ويصنع من صنف من الزجاج الذي يقاوم الحرارة صحاف لا تحترق وأفران زجاجية وأدوات للطبخ

والزجاج الصلب يستعمل الآن في عمل الآجر لبناء المنازل . وانك تستطيع ان تتصوّر منزلاً ذا حوائط تشف عن لون ساحر وضوء خفيف آتٍ الى الحجرات من جميع النواحي .

وهذا الطوب الزجاجي لا يحتاج الى زخرفة فضلاً عن انه متين ورخيص الثمن جداً . وهو خفيف الوزن ويمكن غسله بسهولة بالاسفنج . أما الجدران المصنوعة من الطوب المتشابك فيمكن أن تنفذ من خلالها الأشعة فوق البنفسجية . وبهذا يصبح داخل البيوت مشبعاً بأشعة الشمس التي لا يستطاع الحصول عليها الا على شواطئ البحار .

ويكفي هذا بياناً لمنافع الزجاج في بناء المنازل . أما في داخل المنازل فللزجاج فوائد أخرى مستحدثة . فقد كانت أدوات المائدة مثلاً تصنع من زجاج رديء النوع أو هش أو غالي الثمن . أما الآن فبفضل الرمال التي تحتوي على الحديد ، والتي استكشفت في اسكتلندا ، يمكن عمل أدوات زجاجية المائدة جميلة المنظر لامعة وضاءة . وقد استمر قادة الصناع والعلماء في انجلترا عاكفون على التجارب حتى توصلوا الى انتاج أنواع جديدة من الزجاج أمتن وأجمل من سالفتها ، وهي في الوقت نفسه بخسة الثمن .

ثم الزجاج الذي يقاوم الحرارة . فان أصحاب البيوت المصنوعة من الزجاج سوف يطهون طعامهم في أفران زجاجية ويقلون البيض في مقال زجاجية ويدفئون حجراتهم باستعمال المدفئات الزجاجية ويسنون أمواسهم على مسنات زجاجية . ويعزفون على بيانات زجاجية .

***

واذا رجعنا للكلام عن منافع الزجاج العاجلة نرى أن تجارب الحرب في عمل النظارات التي تلتحم بغاز الاسيتيلين قد أدت الى صنع نظارات شمسية تحجب الأشعة الضارة بالنظر دون أن يشعر لابسها انه في جو مظلم . فان الأشعة تحت الحمراء هي التي تؤذي العين وليس الضوء . وفي بريطانيا تباع أحسن عدسات النظارات في العالم جملة تلقاء قروش قليلة .

ثم ماذا ؟ بعد أن رأينا ان الزجاج يلبس ثياباً وتتخذ منه بيوتاً . ان حشوة من الزجاج تحيل العربة الرخيصة سيارة مقفلة فاخرة . أما سائل الزجاج فيزيل التأكل من داخل الانابيب الساخنة ، وتحل خيوط الزجاج محل الأوتار المستعملة في حياكة الجروح . وأما فتائل الزجاج التي تستعمل في مصابيح النفط وفي القداحات فلا يتكاثف عليها الكربون ولا يصيبها التلف بحال

لم نبلغ بعد مبلغ القول بأن هذا العصر هو عصر الزجاج . الا انه يمكن ان يقال بحق انه عصر الرجال الذين تعلموا منافع الزجاج وأدركوا قيمته .

العقيدة والعقيدي والمذهب العقيدي

Dogma, Dogmatist, and Dogmatism

العقيدة : Dogma

From Greak(١) = That which seem good, an opinion, view, a public decree, edict, or ordinance; from Gr. dokein = think, seem, appear, seem good (that is to be ones opinion, pleasure, or will, be decreed.)

المعنى العام : (١) فكرة مقررة : (٢) مَبدأ أو ميل أو نزعة أو متجه فكري أو قاعدة ، يعتقد بأنها يقينية ثابتة : (٣) مذهب أو مبدأ يفرض تقبّله أو الاعتقاد به ، خضوعاً لسلطة مّا ، على العكس مما يتقبله العقل بناءً على حكم التجربة أو الاختبار ، وبالاجمال حكم ديني مفروض بحكم السلطة (٤) التعاليم أو الأحكام المفروضة بسلطان مّا : (٥) نظرية تقوم على مبادىء أو ميول دينية : (٦) مجموعة القواعد النصرانية ، كما تقرها الكنيسة العليا أو فرع من فروعها .

في فلسفة كنت : Kant : فرض تركيبي قائم على تصوّرات الادراك ، وهذا يضادّ : أولاً — الحكم التحليلي : ثانياً — حقائق التجربة : ثالثاً — الفرض الرياضي ، وغير ذلك .

Quot., 1893. J. Orr. God and World, I. 26-note : Dogma I take to be a formulation of doctrine stamped with ecclesiastical authority

1856 Emerson. Eng. Traits, Lit. (Bohn) II. iii : if, going out of the region of dogma, we pass into that of general culture

***

العقيدي : العقيديون Dogmatist(s)

(LL. Dogmatistes) — Gr. dogmatistes : one who maintains dogmas.

المعنى العام : (١) من يقول بالاعتقاد ، أو يروّج لعقائد خاصة ويدعو اليها ، وبخاصة من يحاول أن يفرض على الغير آراءه وعقائده ، على أنها يقين : (٢) من يبشر بآراء جديدة أو نظريات وأحكام مبتكرة : (٣) من يقول بصحة مبادىء أو عقائد أو فكرات غير قائمة على البرهان أو التجربة : (٤) من يفرض تعاليمه بمحض سلطانه .

في الفلسفة : من ينتمي الى المذهب العقيدي في الفلسفة .

Quot. 1854. Kingsly iv-137 : Dogmatists : men who asserts so fiercely as to forget that a truth is meant to be used, and not to be asserted.

1858. Mansel Bampton Lect. i (ed. 4) — In the latter language of philosophy : the term Dogmatists was used to denote philosophers who endeavoured to explain the phenomena of experience by means of national conceptions and demonstrations.

في الفلسفة القديمة : فئة من فلاسفة الطبيعة القدماء أنشأها أبقراط ، متخذاً اسمها من لفظ يظهرها منابذة للاختباريين : Empiricists والأسلوبيين : Methodists وكانوا يقيمون اعتقادهم على استنتاجات أو فكرات يستمدونها من فروض نظرية ، يقولون إن من المستطاع تأييدها ، أو اقامة الدليل عليها منطقيّاً .

***

المذهب العقيدي : Dogmatism

Mod.Lat., dogmatismus (Gr. as if dogmatismos, dogamatizein = dogmatize).

المعنى العام : (١) القول بأن مذهباً أو رأياً مّا يقيني : (٢) صفة أن تكون ذا معتقد أو ذا اعتقاد في شيء : (٣) ذو سلطان أو مزوّدٌ بالسلطة في مسائل المعتقد والفكر : (٤) يقينيّ : لا يقبل الجدل : (٥) التشدد في الدفاع عن صحة المعتقد أو الفكرات أو الدعوة اليها .

في الفلسفة : (١) أية نظرية تقوم على أصول يمليها العقل وحده ، من غير أن تستند الى تجربة ، على الضد من نظرية الشك : Scepticism ، وعلى الاجمال أسلوب في التفكير الفلسفي يقوم على مبادىء لم يسبرها التأمل : (٢) مذهب فئة من الفلاسفة يعرفون بالعقيديين.

Quot., 1858 : mansel Brampton Lect. i-(ed. 4.)-the theological Dogmatism is ...an application of reason to the support and defence of pre-existing statement of Scripture.

1877. E. Caird. Philos. Kant i - 2 : what Kant meant we may best understand if we consider how he opposes Criticism to tow forms of philosophy, Dogmatism and Scepticism.

في فلسفة كَنت : Kant : (١) أسلوب اعتقادي في البَعْديطَبَعِيّات : Metaphysics (الغيبيات) : (٢) يقين لم يَحْمِلْهُ النقد بما يمليه العقل عفواً بمجرد الظن أو التصوُّر .



من حديقة أبيقور (١)

فرغت الآن من مطالعة كتاب ، يعرض فيه أحد الشعراء الفلاسفة ناساً لا يفرحون ولا يألمون ، ولا يتشوّفون الى جديد العرفان . وما كدت أخرج من أرض هذه «الأتوبيا» الجديدة ، وأعود الى أرض دنياي هذه ، فأرى الناس من حولي يناضلون ويحبون ويألمون ، حتى داخلني الشعور بمحبتهم ، وأحسست بالرضى عن مشاركتهم فيما يحزنون ! لشد ما نرى في هذا وحده الفرحة والحق ! إنها الفرحة في الوَصب والعذاب . كالبلسم في جراح الشجرة الكريمة . لقد أمات أولئك الناس أهواءهم ومنازعهم ، فأماتوا فيهم كل شيء : أماتوا اللذة والألم ، وأماتوا الوصب والشوق ، وأماتوا الخير والشر والجمال : أماتوا كل شيء ، وأماتوا الفضيلة على الخصوص . فهم عقلاء حكماء بلا ريب ، ولكنهم مع ذلك لا يسوون شروى نقير ، لأن قيمة المرء فيما يبذل من جهد ونشاط . وأي شأن لحياتهم مهما طالت وامتدت ، إذا هم لم يملؤوها بالعمل أو يحيوها ويعيشوا فيها ؟

يفيدني هذا الكتاب الفائدة الجلّى من حيث يُعز في خاطري هذه الحال القاسية التي تتحيَّف الانسان ، ومن حيث يصل بيني وبين هذه الحياة المؤلمة ، ومن حيث يهدف بي الى تقدير الناس أمثالي ، والى العطف الكبير على الانسانية . وفضل هذا الكتاب في انه يحبّب اليك الحقيقة الواقعة، ويحذّرك من العقلية الخرافية والعقلية الواهمة . وهو إذ يعرض أحياء لا يألمون، إنما يعلّمنا أن هؤلاء المحزونين المنعمين ليسوا لنا أكفاء ولا أقراناً، وأن من أكبر الجنون أن نجوز حياتنا الى حياتهم ، إن كان التجاوز ممكن الوقوع .

يا للسعادة البائسة ! أيكون عند هؤلاء فن ، وقد فقدوا المنازع والأهواء ؟ وكيف يكون فيهم شعراء ؟ يا ويحهم !جهلوا ذوق القريحة الملحمية التي تستلهم شواظ الحقد والغرام ، والقريحة الهزلية التي تهزأ على إيقاع من نقائص البشر ومباذلهم . لقد عجزوا عن أن يتصوّروا في خيالهم بائسين كـ « ديدون » و « فيدر » وما رأوا قط هذه الأشباح العلوية القدسية التي تتخطّر مرتعشة تحت أشجار الآس الخالدة .

عميٌ صمٌّ إزاء أعاجيب هذا الشعر الذي يؤلّه أرض البشر . لا يعرفون شاعراً كفرجيليوس

---

(١) من كتاب حديقة أبيقور تحت الطبع لصاحب التوقيع

فاذا قيل انهم سعداء فلأنهم يملكون مصاعد يصعدون بها الى العلاء . على ان بيتاً واحداً من الشعر الجميل قد أحسن الى الناس أكثر مما أحسنت اليهم « روائع » الصناعة المعدنية على الاطلاق .

يا للتطور الذي لا يرق ولا يلين ! إن هذه المجموعة من المهندسين لا تعرف الأهواء ولا الشعر ولا الغرام . واحسرتاه لهم ! كيف يحبون وهم سعداء ؟ إنما الحب لا يعمر ولا يزهر إلا بالألم . أليست اعترافات العشاق هتافات الشدة والضيق والبرم ؟ لقد هتف الشاعر الانجليزي في إحدى نزوات حبه : « آه لو أن الله كان بائساً شقياً في مثل بؤسي وشقائي ، إذن ما استطاع من أجلك أنت يا محبوبتي أن يألم وأن يموت ! »

لنغفر للألم وقعه في أنفسنا ، ولنعلم حق العلم أنه من المستحيل أن نتصور سعادة أعظم من السعادة التي نشعر بها في هذه الحياة الشديدة الحلاوة والمرارة ، الكثيرة السوء والصلاح ، المثالية الواقعية معاً ، التي تضم كل شيء وتصل بين النقيض والنقيض . فهذي الحياة حديقتنا التي ينبغي أن نحرث أرضها بعزيمة ونشاط ! .

دمشق

محمد روحي فيصل

بحث معجمي : في الفلسفة وعلم النفس

المذهب العملي Bragmatism

(Prăgmat (ic) & ism). Gr. bragmatikos = active, versed, in affairs: pragma = a thing done, a fact, pl. pragmata = affairs, state affairs, public buisiness, etc. Also Practicalism.

(١) مذهب أن المعنى الكلي الذي يتضمنه تصور من التصورات. إنما يتجلى في النتائج العملية ، ملابساً صورة من السلوك او الاخلاق يحسن احتذاؤها، مقروناً بتجارب ينتظر ظهور نتائجها العملية، اذا كان ذلك التصور صحيحاً : (٢) الاسلوب الذي يمتحن به قيمة قضية يدعى بأنها صحيحة ، بما يبرز من نتائجها،أي بما يكون لها من الآثار العملية في توجيه مصالح الانسان وأغراضه

Quot., 1900, W. Caldwell in "Mind" Oct-436- in this so called Pragmatism or Practicalism of Prof. James.



سيدة القصور [1]

وهذه قصة ثانية جميلة يقدمها لقراء العربية الأستاذ الشاعر الكبير علي الجارم بك ، و « سيدة القصور » وسابقتها « شاعر ملك » تكشفان لنا عن ملكة جديدة للجارم بك لم نكن نعرفها فيه من قبل ، فقد كان الشعر أساس مجده الأدبي حتى اليوم ، ولكن هاتين القصتين أظهرتا أنه قاص مجيد ، فحبذا لو توفر على هذا النوع من الانتاج الأدبي فأخرج للقراء القصص الكثيرة ، وبخاصة أنه يستوحي في قصصه صحفاً من تاريخنا المجيد فيعيد هذه الصحف حية قوية .

وقد أجاد الكاتب في عرض حوادث القصة ، وفي صياغة الحوار ، وأسلوبه جميل قوي ، ولا غرو فهو أسلوب شاعر عظيم ، استمع الى هذه القطعة الصغيرة من القصة ، وهي جزء من حديث الشاعر عمارة الى سيدة القصور .

— « يا مولاتي ... إننا معاشر الشعراء نرى الصور بعيون من الفن لا يبصر بها سوانا. نرى الجمال فنذهب بخيالنا في روضاته فيتكشف لنا عن بدائع لا تراها العيون ... نحن نعيش في دنيا غير دنيا الناس، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس . إن الحسن أحياناً يتحرى الشعر ، وقد يعجز الخيال ، وقد يبهر العين كما بهرني ، ولكننا لا نلقي أمامه السلاح أول مرة ، ولا نستسلم خاضعين ، بل نأخذ في إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين ، مبيناً أو غير مبين ، ثم نصيح كما يصيح المحموم ، حتى نخفف من ثورة قلوبنا ، وإلاّ قتلنا الحب، ورحنا شهداء النظرات الفاتكة ، والبسمات الفاتنة .. الخ .. الخ .

وبطلة القصة « سيدة القصور » عمة الخليفتين الفاطميين : الفائز والعاضد ، وهي شخصية قوية ، وعقلية جبارة ، كانت لها السيطرة على البلاط الفاطمي في آخر أيامه ، وبطل القصة الشاعر المعروف عمارة اليمني ، وموضوعها عرض تاريخي للحوادث التي انتهت بزوال الدولة

(١) نقد كتاب من تأليف الاستاذ علي الجارم بك ، دار المعارف القاهرة.

الفاطمية . غير أني لاحظت أن الأستاذ المؤلف تحرر كثيراً من قيود الرقة العلمية عند عرض الحوادث ، ولم يرجع للأصول التاريخية المعاصرة لتحقيق الأحداث التاريخية التي اتخذها أساساً لقصته :

١ — فهو قد عرض في قصته لشخصية الواعظ زين الدين بن نجا ، وجعل هذا الواعظ رجلا يمنيًّا اسمه « الحراني » من أسرة يمنية وضيعة، وصوّره عدوًّا لمواطن عمارة لثارات كانت بين الأسرتين ، ثم نقل الرجلين الى القاهرة ، وذكر ان الحراني عاش في مصر متنكراً يسمى نفسه « زين الدين بن نجا » ويشتغل بالوعظ ، ويكيد في الخفاء لعمارة ، ثم ارتحل به الى الشام ، وعاد به في مؤخرة جيش أسد الدين شيركوه .

والمتفق عليه حقًّا بين كتّاب القصة التاريخية أنهم يستطيعون التصرف ، بعض الشيء في الحوادث التاريخيـة ، وخلق شخصيات تكمل الصورة الفنيـة التي يسعون لإحيائها ، ولكنهم مطالبون دائماً بمراعاة الدقة عند عرض الحوادث التاريخية الهامة ، وتصوير أبطال القصة ، ووصف خلقهم وخلقهم وملابسهم وقصورهم وعاداتهم.. الخ ، لذلك يبذل كتّاب القصة التاريخية الجهد كل الجهد في مراجعة الكتب المعاصرة لتخرج قصصهم كاملة من هذه الناحية،أي تصوير العصر الذي يكتبون عنه خير تصوير وأصدقه ، فهل فعل الجارم بك هـذا عند كتابة « سيدة القصور » ؟ لقد نقلنا للقارىء الكريم ما ذكره عن زين الدين بن نجا ولكن المراجع المعاصرة تذكر أن ابن نجـا لم يكن اسمه « الحراني » بل اسمه الكامل : « ابو الحسن علي بن ابراهيم بن نجا بن غنائم الانصاري الملقب زين الدين الحنبلي المعروف بابن نجية الواعظ » ،ولم تذكر هذه المراجع انه كان يمنيًّا ، بل تذكر انه شامي ولد في دمشق سنة ٥٠٨ هـ ونشأ بها ، وارتحل الى بغـداد مراراً ثم انتقل الى مصر وحدّث بها ، وتوفى في مصر في ثامن رمضان سنة ٥٩٩ هـ (انظر ابن خلكان ، الوفيات ج ١ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ وابو شامة ،الروضتين ، ج ١ ص ٣٣٩ و ج ٢ ص ٢١ ، ٥٧ — ٥٨) .

٢ — الصورة التي رسمها الجارم بك لزين الدين بن نجا صورة كريهة فقـد جعله نماماً متآمراً حقوداً دساساً . . الخ ، وهـذا كله مصدره الخطأ السابق ، في حين أن المراجع المعاصرة كلها تكيل لزين الدين المدح وتنعته النعوت الطيبة .

٣— ذكر الأستاذ المؤلف أن عمارة وفد على مصر سفيراً من لدن أمير مكة فذهب الى القصر الخليفي ، وألقى بين يدي الخليفة الفائز قصيدته العصماء :

الحمد للعيس بعد العز والهمم   حمداً يقوم بما أولين من نعم

ثم استقرَّ في مصر بعد ذلك ، واتصل بالبلاط الفاطمي ، والوزراء الفاطميين ، وقال في الجميع المدائح الكثيرة ، ثم لعب دوره المشهور في الحوادث السياسية التي انتهت بزوال الدولة الفاطمية . والذي تذكره المراجع أن عمارة وفد على مصر رسولاً من قبل أمير مكة مرتين : الأولى وهي التي أنشد فيها القصيدة سنة ٥٥٠ هـ ، والثانية في سنة ٥٥١ هـ ، يقول عمارة نفسه في كتاب « النكت العصرية » ص ٣١ — ٣٢ :

« خرجت حاجًّا بل هاجًّا الى مكة سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وفي موسم هذه السنة مات أمير الحرمين هاشم بن فليتة وولي الحرمين ولده قاسم بن هاشم فألزمني السفارة عنه ، والرسالة منه الى الدولة المصرية فقدمتها في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمس مائة والخليفة بها يومئذٍ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك ، فلما أحضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب ... أنشدتهما قصيدة » . . (ثم يذكر القصيدة السابقة)

ويذكر عمارة بعد ذلك خبر عودته الى وطنه اليمن ، وانه حجَّ الى مكة ثانية في سنة ٥٥١ هـ الى أن يقول في ص ٤١ — ٤٢ : « وهممت بالرجوع الى اليمن فألزمني أمير الحرمين بالترسل عنه الى الملك الصالح بسبب جناية جناها خدمه على حاج مصر والشام ... فخرج الأمر من عند الصالح الى الوالي بقوص أن يعوقني بقوص ولا يأذن لي في الرجوع ولا في القدوم الى باب السلطان حتى يرد أمير الحرمين ما أخذ من مال التجار ، وقيل ذلك ما نقل الى الصالح عني أني طعنت في مذهب الامامية ... ثم أذن لي الصالح في القدوم الى الباب ... »

وبعد هذه السفارة الثانية استقرَّ عمارة في مصر وكان من أمره ما كان...

٤ — قال الأستاذ الجارم بك في قصته ص ١٣٩ : « وبعد يوم استدعى الخليفة العاضد أسد الدين الى القصر وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقبه بالمنصور فغضب شاور لعزله من الوزارة .. الخ » فكأنه بهذا يثبت أن أسد الدين ولي الوزارة للعاضد وشاور حي ، بينما المراجع المعاصرة كلها تذكر انه لم يلِ الوزارة إلاّ بعد قتل شاور ، يقول أبو شامة مثلاً في الروضتين جـ ١ ص ٥١٨ :

« فصل في وزارة أسد الدين ، وذلك عقيب قتل شاور وتنفيذ رأسه الى القصر ، أنفذ الى أسد الدين خلعة الوزارة فلبسها ، وسار ودخل القصر ، وترتب وزيراً ، ولقب بالملك المنصور أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة منزلها . . الخ »

٥ — يقول الأستاذ المؤلف ص ١٢٠ : « وما هي إلاَّ أيام حتى دخل شاور القاهرة ، وفرَّ رزّيك إلى اطفيح ، وتمكن منه شاور وقتله . . . الخ » ، وصاحب الروضتين

ينقـل في ج ١ ص ١٦٥ عن يحيي بن أبي طي — وهو مؤرخ فاطمي — ما يلي : « وجمع — أي شاور — العربان وأهل الصعيد وزحفوا إلى القاهرة ... فخرج رزيك نصف الليل فضلَّ الطريق وتاه عند اطفيح ، ونمّ بيوت عرب فقبضوا عليه ، وحُمل إلى شاور. ولما حصل رزيك عند شاور أكرمه وصلب الذي أتى به ، ونادى عليـه : « هذا جزاء من لا يرعى الجميل » . . وكان ملهم وأخوه ضرغام من صنائع الصالح بن رزيك ، فلما شاهدوا ميل الناس عن شاور بسبب أولاده أخذا في مراسلة رزيك بن الصالح وهو في السجن والعمل له في إعادته إلى الوزارة ، واتصل ذلك بطيّ بن شاور فدخل على أبيـه وقال له : أنت غافل وملهم وضرغام يفسدان أمرك ، وقد شرعا في أمر رزيك ، واستحلفا له جماعة من الأمراء ، ولا يمكن تلافي حالك إلاَّ بقتل رزيك » فقال له شاور : « إن الصالح أولاني جميلاً وبسببه حللت هـذا المحل » فتركه ولده طيّ ، ودخل على رزيك فقتله في سجنه ، وسمع شاور ذلك فقامت قيامته .. الخ »

٦ — قال الأستاذ الجـارم بك ص ١٢٤ عن المقابلة الأولى بين شاور ونور الدين في الشام : « ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصـاء في صدر الخيمة ، وفي يده سبحة تتحرك حباتها بحركات لسانه ، وقد جلس إلى يمينه العلمـاء والفقهاء والمحدثون ... الخ » والذي يذكره صاحب الروضتين ج ١ ص ١٦٥ أن المقابلة تمت في الميدان الأخضر بدمشق، قال : « وركب نور الدين في الغر من وجوه دولته ... فلمـا دخل الميدان ركب شاور من الجوسق ، والتقيا في وسط الميدان بالتحية فقط ، ولم يترجل أحد منهما لصاحبه ، ثم سارا من موضع اجتماعهما وهو نصف الميدان إلى آخره .. الخ »

***

وبعد فهذه بعض صور من القصة رأينا الأستاذ المؤلف يبعد فيها عن الحقائق التاريخية بعداً يسيء إلى هذه الحقائق التاريخية نفسها .. دون مبرر يقتضيه العرض الروائي أو الحبكة القصصية .. ترى هل يقرني أعلام القصة التاريخية في مصر على هذا النقد .. ؟ إنني أكون جد مسرور لو تكرَّم بعض هؤلاء الأعلام وخاصة زعيمهم أستاذي الجليل محمد فريد أبو حديد بمناقشة هذا المبدأ .

جمال الدين الشيال
مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
بجامعة فاروق الاول

الحَلّ — Absolution

L. Absolution (n) - ; absolvere = loosen from.

---

(١) التحرير من الخطيئة بسلطة الكنيسة (٢) العبارات التي يعلن بها التحرير من الخطيئة

في اللاهوت الروماني : أن يعلن صاحب السلطة الكنسية ، على اعتبار انه يستمد السلطة من السيد المسيح، تحرير الخطيء من الخطيئة في أثناء تلقي الاسرار المقدسة بقبول التوبة منه، ولا يعتبر هذا العمل ترديداً لما ورد في الانجيل أو اعلاناً بأن الله لابد من أن يعفو عمن يتوبون اليه لا غير، بل أنه ، بحسب التعريف الذي أقره مجمع « ترنت » Trent . عمل شرعي يصدر فيه القسيس ، باعتباره قاضياً، حكماً على التائب .

في اللاهوت البروتستانتي : اعلان مقدس يحقق للتائب العفو الالهي تلقاء ندامته وايمانه .

***

يعلن القسيس في الكنيسة الرومانية الحل باسمه قائلا : « إني أحلك » :

"I absolve thee".

أما عند الطوائف البروتستانتية التي تتخذ صيغة خاصة للحل ، وكذلك في الكنيسة اليونانية ، فان الحل يعلن باسم الله وفي صورة صلاة : « ان الله أو المسيح يحلك »

"God (or Christ) absolve thee".

***

Quot., By absolution (in the Augsburg confession) is meant the official declaration of the clergyman to the penitent that his sins are forgiven him upon finding or believing that he is exercising a godly sorrow, and is trusting in the blood of Christ.

Shedd, Hist. of Christ.

الحياة سر الوجود

او كيف تتخطى الوحدة العربية العقبات

ثلاثة يتسقَّطون الحقيقة ، أو سرّ الوجود ، وهم الشاعر والفيلسوف والنبي . وأولهم أقرب الى ثالثهم منه الى ثانيهم وثانيهم أكثر اعتصاماً بالعقل ، ولذا فهو كالعقل أضيق مجالاً من أخويه . وكلٌّ من هؤلاء الثلاثة ينشد الحقيقة من باب . فالشاعر ينشدها من باب الخيال ، والفيلسوف من باب العقل ، والنبي من باب الالهام ، وكاتب هذي السطور يتشرف بالاعتراف انه ليس واحداً منهم ، مع اني مطّلع على شأن كلٍّ منهم ، ومعرفتي كيف بلغ كلٌّ منهم الموقف الذي يشرّفه ، وأعرف ما نشأ عن كلٍّ منهم ، أو عمّا عزي اليه ، في تاريخ الأسرة البشرية . وقد يكون ذلك موضوع مقالة على حدة .

كان النبي يُدعى ، في فجر التاريخ الاسرائيلي ، « رائياً » . فيقول قاصدهُ « اني ذاهب الى الرائي » . وكلمة « راءٍ » بهذا الاعتبار صفة مبالغة لا اسم فاعل . لأنه يعتبر في نسبة الحدث فيها معنى الثبوت . فالرائي بهذا المعنى هو من يرى ما لا يراه غيره من سائر الناس . فالفرق كبير بين راءٍ وراءٍ . فالعامة لهم عيون ولا يبصرون . أما الرائي فله مع العيون بصيرة ترى ما دقّ عن الأبصار .

والشاعر كذلك من صيغ المبالغة كفاضل . والمراد به من يشعر بما لا يشعر به غيره من محاسن هذا الوجود . والفرق كبير بين شاعر وشاعر ، كما بين راءٍ وراءٍ .

والشاعرية أقرب نسباً الى النبوّة منها الى الفلسفة . والفلسفة أكثر استناداً منها الى العلم لأنها من أعمال العقل ، مبتكر العلم . وهي ترمي الى سرّ الوجود كحقيقة . والشاعرية ترمي اليه كجمال . والنبوّة ترمي اليه كجمال وحقيقة . أو كخير . لأن الخير في ما أرى ، هو مجموع الحقيقة والجمال .

والفلسفة كالعلم متصلة بغير المحدود ، ولكنه ليس في متناولها . أما الشاعرية والنبوّة فغير مقيدتين بالعقل فهما أكثر حرية من الفلسفة . ومن رام التوسع في ذلك فعليه بكتاب « ايمرسن » وكتاب « النشوء الخالق » لبرغسن وكتاب « الآلهة » لولتر صكت .

وأريد بالشاعرية هنا شيئاً هو غير نظم القريض . وأكثر الناظمين ليسوا بشعراء . وقد يكون الشاعر غير ناظم . فاذا اجتمع الاثنين قلنا ملتن ودانتي وهوميروس والمعري. ولا أعرف في عصرنا شاعراً غير رابندرانات تاغور الهندي . أما في أوروبا وأمريكا فلا أعرف شاعراً من هذا الصف . أما في أنبياء اسرائيل فأعرف ثلاثة شعراء ، وهم داود ودانيال وحزقيال . واليك قطعة من فن ثالثهم . وقد ورد ذلك في الاصحاح السابع والثلاثين من سفر نبوّة حزقيال في التوراة ، قال : —

« كانت عليَّ يد الرب ، فأخرجني . . . الى البقعة ، وهي ملآنة عظاماً . وامرّني عليها من حولها ، واذا هي كثيرة جدًّا ، واذا هي يابسة . فقال لي (الرب) يا ابن آدم أتحيا هذي العظام ؟ . فقلت يا سيد الرب ، أنت تعلم . فقال لي تنبَّأ على هذي العظام . وقل لها ، أيتها العظام اليابسة ، اسمعي كلمة الرب . هكذا قال الرب لهذه العظام اليابسة ، هأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون . وأضع عليكم عصباً . وأكسوكم لحماً . وأبسط عليكم جلداً . فتعلمون اني أنا الرب . . .

(يقول النبي) فتنبَّأت كما أمرت ، وبينما أنا أتنبَّأ كان صوت ، واذا رعش . فتقاربت العظام كل عظم الى عظمه (فصارت هيا كل عظام) . ونظرتُ ، واذا بالعصب كساها . وبسط الجلد عليها . وليس فيها روح . فقال لي الرب : تنبَّأ يا ابن آدم ، وقل للروح : هلمَّ يا روح من الرياح الأربع . وهبَّ على هؤلاء القتلى فيحيون . فتنبَّأت كما أمرني . فدخل فيهم الروح . فحيوا . وقاموا على أقدامهم ، جيش عظيم جدًّا جدًّا .

هذا هو الخيال الشعري الذي أبدعته النبوة . فلنسمع مساقه بقلم النبي . قال : —

ثمَّ قال لي الرب : يا ابن آدم ، هذي العظام هي كل بيت اسرائيل ، ها هم يقولون : يبست عظامنا ، وهلك رجاؤنا . قد انقطعنا . لذلك تنبَّأ وقل لهم : هكذا قال السيد الرب . هأنذا أفتح قبوركم ، وأصعدكم من قبوركم يا شعبي ، وآتي بكم الى أرض اسرائيل . فتعلمون اني أنا الرب» انتهت القطعة النبوية . وفيها أتبيَّن مجلى شاعرية ، وشعار قومية ، لا ريبة فيها ولم يحلم حزقيال ذلك الحلم إلاَّ وهو مشبع بالقومية . ولم يبدع في تصويره بهذا الخيال إلاَّ وهو فياض بالشاعريَّة . وهذي القطعة أحد أسس الصهيونية التي قضى علينا سوء الحظ ان نجابهها ، وقد نالنا من جرائها ما نالنا .

أقول : وأراني في موقف حزقيال ، وليس لي نبوّة حزقيال ولا شاعريته ، فأقتبس معنى هذي القطعة ، وهي آية فن حزقيال ، لالقاء نور على « مبعث الأمة العربية » ، بعد هجوعها الطويل منذ أواخر العباسيين إلى مستهلّ القرن العشرين ، وغرضي بهذي المقالة تبيان الصورة

التي بها تتغلّب الأمم العربية على العقبات الكأداء التي تحول دون وحدتها ، وهذي المقالة تتمة المقالة المنشورة في عدد يناير من المقتطف الأغرّ

يصوّر لنا خيال النبي الشعريّ فعلين عظيمين هما لحمة القوميـة وسداها . والفعلان هما تقارب العظام والروح . فبالفعل الأول حدث الاتصال والتماسك . السلاميات بالرسغ والزند بالساعد بالترقوة بالقص والاضلاع والسلسلة الفقارية والطرفين السفليين . وعلى أعلى السلسلة الجمجمة . تلا ذلك اللحم والعصب والجلد . هذا هو الفعل الأول . وبالثاني وهو تتمة العمل نشوء الحياة في تلك الجثث . ويعبـر عنه النبي هنا بدخول الروح فيها ، جرياً على المتعارف عندهم في تلك العصور .

يتمّ هذان الفعلان في كل أمة هاجعة ، اذا شاء ربّـك ان تحيا . ذلك ما حصل في اليونان منذ سنة ١٧٥٠ وفي ايطاليـا منذ سنة ١٨٥٩ . وذلك ما نتوقع أمامه في الأمة العربيـة ، وهي عندي أعصى على المبعث القومي في تينك الأمتين ، الجارتين ، وذلك لاسباب ذكرت بعضها في المقالة الماضية . ولـكن اذا كان قد قضى لهذي الأمة العزيزة ان تبعث بعـد ان قضت « فالحياة » هي السرّ في تغلّـبها على العقبات الـكأداء .

لنا في الطبيعة روابط راهنة ، أولها رابط الوحدات الـكهربائية ، الذي يجمع الذريرات أو يقرنها فتتصور في شكل ندعوه « ذرة » أو « جوهر فرد » « Atom » . ثمّ هنـالك رابط آخر يجمع تلك الذرّات ، أو الجواهر الفردة ، في ما ندعوه « دقيقـة » « Particle » . فالذرة مؤلفة من الـكترون وبروتون ونوترون وبوزترون . والدقيقة مؤلفة من ذرّات . فتنقسم الخلايا العضوية إلى دقائق ميكانيكيّـا . اما الذرّة فلا تنقسم إلى جواهر فردة بالطريقة الميكانيكية، بل بالتحليل الـكيماوي . اما الذرة فلا تنقسم ميكانيكيّا ، ولا تتحلّـل كيماويـا ولـكنها تنفلق كهربائيّـا وهنالك رابط آخر عام اكتشفه العلامة اسحق نيوتن ، وصحّـحه أو فسّـره البرت اينشطاين ، وهو ما ندعوه الجاذبية العـامة ، الذي به تتناسب وتنتظم الاجرام السماوية وهي ما ندعوه « كوناً » أو Universe

أقول : إن درس الـكون بما فيه من الروابط الأربعة، الـكهربائي والملاصقة والالتصاق والجاذبية العامة ، هذا الدرس يبقى ناقصاً ، اذا نحن صرفنا النظر عن رابط آخر عظيم ، يجمع دقائق منوّعة ، في شكل عضوي ، وندعو ذلك الرابط « الحياة » فالنبات والحيوان أجسام عضوية ترابطت خلاياها برابط الحياة ، وهي سرٌّ لا ندركه ، لـكننا نشاهد آثاره في الهضم أو التمثيل والدوران والنمو والتطور الخ

وأرى ذلك الناموس السامي فاعلاً في الأمم فعله في العضويات لأن الأمم مجموعات مؤلفة

من عضويات كما أوضح ذلك هربرت سبنسر في فلسفته التركيبية . فأبان أن الناموس الفاعل في الأحياء هو الناموس الفاعل في الاجتماع أو الهيئة الاجتماعية .

ما هي الحياة ؟ . لا أدري

ما هي الكهربائية ؟ . لا أدري

ما هي الجاذبية ؟ . لا أدري

فلم يُتح لنا ادراك الماهيات . لكني أعلم ان الحياة والكهربائية والجاذبية ، تجمع . والأمم مجموعات كوائن حية ، كالاجسام المعدنية والفلكية والعضوية .

أجل انك تقول لي ان الأمم العربية شذرات متفرقة هنا وهناك . متقاطعة متباعدة متخاذلة ، ولكن هل هي أكثر تباعداً من « العظام في البقعة » التي مرَّ بك وصفها في آية فن حزقيال ؟ وقد رأيت كيف تلاءمت تلك العظام اليابسة وترابطت وعادت الى الحياة . وهل الأمم العربية أكثر تباعداً من استراليا وكندا وجنوبي افريقية وبريطانيا ؟ لا لعمري . مع ذلك انظر كيف ترابطت تلك الاقسام فتألف منها الأمبراطورية الانكليزية ؟ فاذا دبت الحياة في أقسام العالم العربي ، فلا تحول الأبعاد دون تماسكه . أقول ، وأعلم أني عن عقل أقول ، اذا توافرت عوامل بعث الأمة العربية بقوة العظيم الجبار ، زالت العقبة الأولى التي هي عقبة جغرافية .

كذلك العقبة الثانية وهي « الفقر » أعرف واعترف انا أفقر امم الدنيا . أفقر من بريطانيا ، ومن فرنسا ، ومن ايطاليا ، ومن روسيا ، بل نحن أفقر أمة على وجه الغبراء . ولكن هل نحن أفقر من الوليد ، الذي تضعه الوالدة بدون كسوة ولا حول . ولكن ، والحكيم يرمق و « لكن » بعين الشاعر . أقول ولكن كل مثرٍ في الدنيا هو ذلك الوليد الذي كان بلا حول ولا طول ولا شأو . ولكن الحياة ضامن بقائه وثرائه ونمائه وهنائه .

نعم نعم . ان الأمم العربية اليوم بدون أساطيل ، ولا طائرات ، ولا ذخائر ، ولا ثراء ، ولا مستعمرات ، لكنها ليست أفقر من الوليد . فالحياة التي ضمنت ثراء الوليد تضمن ثراء الامم العربية وقوتها . لا أقدر ان أصف شكلها السياسي ، هل تكون امبراطورية ، أو دولاً مترابطة أو ولايات متحدة . وانما أعلم أن كل من سار على الدرب وصل . والامم العربية الآن على الدرب ، فستصل .

ها ألوف من أبنائها وبناتها في دور التخصص ، في اوربا وأمريكا . وها عشرات الألوف يعملون في التشريع والاجراء وبناء الجسوم الاجتماعية التي ندعوها « الدولة » أو « الدول » وملايين يتطلعون الى تحقيق أحلام الرائين أقدمين ومحدثين في عودة الامم العربية الى

الحياة والاستقلال ، سياسيًّا واقتصاديًّا . ومطالع ذلك العصر السعيد تلوح في آفاق الشرق كأنوار الغزالة وهي لا تزال تحت الأفق . يتزايد نورها شيئاً فشيئاً الى أن يتكامل اشراقها وارتفاعها الى سمت الرائي .

ان أمم أوربا تسيطر علينا سيطرة الوالدين على الوليد . ولكن ذلك الوليد الحقير بعد نصف قرن يرث ماكان لوالديه من حول وطول . وما أدراك إنا سنرث أمم الغرب بعد مرور عقود السنين ؟ . لقد كانت تلك الامم في عهد الطفولة . وكنا في طور الرشاد الاجتماعي ، فكنا لها آباء ومرشدين . فتقدمت وتقهقرنا ، وسبقتنا بعد ما أخذت عنا أسس مفاخرها ، ولكن التاريخ يعيد نفسه . من كان يظن أن دول بابل وأشور والفرس تدول . وان لندن وباريس وَوشنطن وموسكو ستسود الدنيا ؟ ولكن الأمر يظل عجيباً حتى يحدث . فتى ألفته الانظار فصار عادياً ، لا يستغرب كالراديو والطائرات .

ان هذا القديم كان حديثاً وسيبقى هذا الحديث قديما

ذكرت عقبة كأداء في سبيل الوحدة العربية ، وهي « اختلاف المقاييس » . ولكن توحيد الثقافة يتغلب عليها . العلم يجمع الأفكار ويوحد العقيدة . فالناس على اختلاف صفاتهم يتوحدون فكراً في العلم . فلا خلاف بينهم في أن اثنين واثنين أربعة . وان زوايا المثلث في سطح مستقيم تعدل قائمتين ، وان النور والحرارة تقل كمربع البعد وان الاجسام العضوية هي خلايا مترابطة متبادلة التعاون والنفع ، والعلماء في كل أمة متفاهمون متوافقون . وكذلك الأدباء في كل عصر وفي كل مصر . فوحدة الثقافة مجلى من مجالي الحياة . وبها تتوحد المقاييس .

أقول ان الانسانية في أعماقها وذراها واحدة . والفروقات والتقسيمات بينها انما هي بين هذين الطرفين . فاذا تعمقنا في أغوار الانسانية وجدنا أن أحوالها وحاجاتها واحدة . وكذلك اذا ارتقت الافكار علماً وثقافة كانت واحدة . فالجهل — وهو الموت عقليًّا — يمزّقها شرّ ممزَّق . ولكن العلم والعرفان يوحد فكرها . وباستمرار أبناء العربية في طلاب العلم والثقافة يتقاربون ويتفاهمون فتتوحد المقاييس . ويصير كل فريق منهم يرى الأحمر أحمر والأزرق أزرق والأصفر أصفر للعامة عيون وللعلماء عين واحدة . وللعامة مذاهب وللعلماء مذهب واحد . وللموتى تمام الانفصال وعدم التفاهم . أما الأحياء فيتفاهمون ويتحدون

واذا كانت الحياة سر الوجود . فالايمان سر الحياة ، لا أريد بالايمان هنا الايمان المذهبي ، بل الايمان الكوني . الايمان الكوني هو الاستمساك بالنواميس الطبيعية وبسيادة العقل على المادة ، أو تصرُّف الحياة بالمادة .

قال حزقيال : — وبينما أنا أتنبأ كان صوت واذا رعش ، وتقاربت العظام : ذلك ما أرى وما أسمع . لست شاعراً ولكني أسمع بأذن الشاعر . ولست نبيّاً ولكني أرى بعين النبي . ولا أنا فيلسوف ، ولكني أفهم بعقل الفيلسوف ، أسمع الأصوات تتجاوب أصداؤها في أصقاع العربية ، وأرى حركات تقارب بين تلك العظام اليابسة ، التي كانت تدوسها أقدام غير مغسولة . وها هي ذي أخبارها . تحملها صحف الأنباء فيما أنا أكتب. واليك ما يأتي :

ابتهاج سورية بالحلف العربي

ردّ الملك ابن السعود والملك يحيي على تهاني البرلمان السوري

بيروت في ٢٧ دسمبر سنة ١٩٣٧

تلقى رئيس مجلس النواب السوري من سكرتير جلالة الملك عبد العزيز آل سعود برقية هذا نصها : — لقد رفعت لجلالة مولاي الملك برقية معاليكم المعربة عن تهنئة المجلس النيابي السوري وابتهاجه بابرام معاهدة الحلف بين اليمن والعراق والمملكة السعودية . وقد أمرني جلالته أن أقدم لمعاليكم شكر جلالته للعاطفة العربية السامية التي أعرب عنها مجلس سورية العربي النيابي » .

« ان هذا المظهر العربي الكريم في سورية ليس بالشيء العجيب ، ولا بالجديد ، بل هو معروف انه في قرارة كل نفس في سورية العربية . وإن جلالته ليرجو منكم ، ثم يرجو من المجلس ، دوام هـذا التآخي العربي ، وتوثيقه ، وشموله سائر الاقطار العربيـة لاعادة مجدها وحفظ كيانها » .

واللبيب في غنى عما قد يتبرّع به المؤرخ من الشروح الضافية لهـذا الحادث ، وما يراه ثاقب النظر بين سطور هذي البرقية ، أخص بها العبارة التالية « دوام هذا التآخي وتوثيقه ، وشموله سائر الأقطار العربية » . فهذه البرقية ترجمة ما يختلج في صدر كل عربي دبّت فيه الحياة القومية . واليك البرقية التالية :

وتلقى رئيس المجلس برقية أخرى من جلالة الامام يحيي امام اليمن هذا نصها : —

« لي فخر عظيم بأن أبلغكم بأنه لدى تقـديم تلغرافكم الى حضرة أمير المؤمنين جلالة ملـكي العظيم أظهر احساساته الشكرانية ودعواته الخيرية لسلامة وتعالي الشعوب العربيـة في ظل الاتحاد ، وتوحيد الكلمة . ويتمنى جلالته تبليغ شكرانه الى جميع رفاقكم المحترمين»

لأبناء عدنان وقحطان سطر لامع في تاريخ هذا السيـار. وأرى في عقد المعاهدات بين العراق واليمن ونجد بارقة أمل في استعادة عصر أمجادها . وأرجو القـارىء الكريم ألاّ

يغفل ما بين تلك الأقطار من الفوارق المذهبية . فالعراق فيه أقلية مسيحية ، وأكثرية اسلامية منقسمة سنية وشيعة . وتغلب في مملكة ابن السعود الوهابية ، وفي اليمن الزيدية . فاتحاد كل هذه الأمم في الحلف العربي ، مع ما بينها من الفوارق ليس عملاً صبيانياً . وبالحري ليس هو من فعال الموتى . واذا لم يكن نتيجة حياة فهو مقدمة حياة . وفي الحياة القومية حل مشاكل الوجود .

وهنالك ظاهرة حياة ثانية . وهي ما تجلى من شعور العراق ومصر وسورية نحو فلسطين : فقد وقف كلٌّ من نائبي الأولين في جمعية الأمم في جنيف موقف الدفع عن حقوق العرب في فلسطين . وأرسلت سورية مندوباً خاصاً الى أوربا للدفاع عن تلك الحقوق ، والسعي لدى أمم أوربا في إنالة العرب حقوقهم تلقاء الاستعمار الصهيوني . فهذا الموقف يفصح عن وحدة الروح بين أمم العين والضاد ، رغم ما بينها من الفوارق والتباين واختلاف المقاييس . واذا ذكرت في مصر أمرين كبيرين تبينت معنى ذلك الموقف . الأول : ان مصر حليفة انكلترا التي عليها ينصب اللوم في مسألة فلسطين . والثاني : ان نائب مصر في جمعية الأمم مسيحي . وقد تكلم من اقتناع روحه وميل قلبه ، مع إعرابه عن سياسة مصر العربية، وهو وزير خارجيتها . فالأمر واضح ان الوحدة العربية وان لم تتم بعد فهي في طريق التكامل . ووحدة الميول قبل الشكل السياسي واذ نكتب في الموضوع فلسنا نضارب الهواء ، أو اننا نهرف بما لا نعرف ، انما نثبت في صفحات حقائق راهنة ، وهي تراثنا لأحفادنا الذين نودعهم أمر الوحدة العربية .

لست أجهل ما يحول دون الوحدة العربية من العقبات . وما في مجموعاتها من المشاغبات ولكن هل هي ميتة ؟ . لا ورب الكعبة ، ولا هاجعة . بل هي حية مستيقظة ساعية إلى تمام وحدتها . وما نراهُ في مجموعاتها من التقسيم والمشاغبات ، إن هو الاَّ من ظاهرات الطفولة . ولكن الطفل لا يظل طفلاً إلى الأبد . بل إذا صان الله حياته ، ينمو ويبلغ رشادهُ . ذلك ما نرجوهُ للامم العربية . فالأزمات السياسية والمشاكل الحزبية لا تنفي حياة الأمة ، بل هي دليل حياتها . والاَّ فهل سمعت شغباً وضوضاء بين ساكني القبور ؟ . لا وأبيك . فالمنازعات والصيحات ان دلَّت على شيء مضافٍ إلى الحياة، فهي دليل الطفولة أو الصبوة الاجتماعية.

بقي ان هنالك ظاهرة حياة في الحركة الصناعية في الأقطار العربية . والعمل ثمرة الحياة. ودليل على وجودها . وقد يكون شرح النهضة الصناعية في البلدان العربية موضوع مقالة على حدة . فاكتفي بالاشارة اليه الآن

ودليل آخر قاطع ، على يقظة الأمم العربية موقف أبنائها في أقسام المهجر وفي كل أقسام

الدنيا ، ولاسيما في قارتي أمريكا . فشعور أولئك المهاجرين مع وطنهم الأصلي ، وأممهم العربية وما لهم في خدمتها من الهمة القعساء ، واليد البيضاء ، دليل على وجود حياة قومية متقدّمة . يزداد هـذا الدليل قوة اذا ذكرت ان أكثرية أولئك المهاجرين مسيحيون . وأكثرهم ليس لهم أي مطمع في منصب أو رفعة في ما لو نالت الأمم العربيـة مطالبها السامي . اذا اعتبرت ذلك . . ولا أراك إلاَّ معتبراً ، وضح لك وضوح الصبح لذي عينين أن الحيـاة الجديدة في بني قحطان ليست حديث خرافة ، إنما هي أمر واقع لامراء فيه .

والأمم العربية اليوم في موقف انتظـار الزعيم الأكبر ، أو الزعماء لقيادتها الى غايتها المقصودة وضالتها المنشودة . فتتوحد صفوفها وتنتظم شؤونها . لا أنكر انه قد نشأ فينا زعماء يستحقون الاحترام أذكر منهم ثلاثة ، وهم سعد زغلول ، والملك فيصل ، والملك عبد العزيز آل السعود . على أن زعامة كل منهم لم تتجاوز قطر خاص من الاقطار العربية . الاّ ان المرحوم الملك فيصل كان أكثر رغبة في خدمة مجموع الامم العربية لاقطر خاص من أقطارها. يعزّز يقظة الامم العربية تدرج ابنائها في معارج التخصص العلمي . في معاهد اوربا وأمريكا .

وأيضاً حرية المرأة الذي بزغت شمسه في مصر وسورية والعراق ونزولها الى ميدان الجهاد جنباً الى جنب مع الرجل .

ومن مؤيدات اليقظة العربية تقهقر التعصب وتضاؤله . وبقياس ذلك التضاؤل يكون تقدُّم الحياة الاجتماعية . والخلاصة ان العقبـات الكأداء في سبيل الوحدة العربيـة ليست دليل موتها ، انما هي باعث على مضاعفة الجهود وزيادة الهمة في السعي لادراك المنى وستتغلب الحياة على العقبات باذن الله . والزمان كفيل بتحقيق الآمال

حنا خباز

من أدب الغرب

هداية الطفل

CHILD GUIDANCE. By W. Mary Burbury, Edna M. Bliant, Birdget J. Yapp. Macmillan. 7s. 6 d.

كتاب مفهوم العبارة مستقيم الطريقة يتناول بالبحث أسلوباً حديثاً في معالجة الشواذ من الاطفال وقد تناول بالشرح المستفيض نظام العيادات الطبية الحديثة التي أسست لفحص الشواذ من الاطفال وكيف نشأت ، كما أفاض مؤلفاته في الاسباب خاصة وعامة ، التي تسبب الشذوذ ، وشرحن معالم الطرق التي تتخذ في علاج الطفل ليعود الى حالته السوية ، وتناولن في فصل ممتع المؤثرات الاجتماعية والمسالك المحتملة التي قد يكون لها أثر حاسم في علاج الشذوذ .

والكتاب في مجموعه وبما حوى من بحوث ، وما تأنس فيه من نزعه انسانية سامية ، جدير بأن يكون في يد كل من يهتم بمسائل التربية وتنشئة الطفل ، وأن يكون موضع درسه العميق.

الفاروق عمر

للدكتور محمد باشا هيكل (1)

نقدنا في عدد أغسطس الماضي كتاب « الصديق أبو بكر » وأخذنا على سعادة مؤلفه صنيعه في قصة « مقتل مالك بن نويرة » . ثم رأينا أن ننقد كتابه الجديد « الفاروق عمر » ونتعقب بعض ما فيه من مآخذ ، فكتبنا هذا البحث ، ونشرنا بعضه في مجلة « الكتاب » الغراء . في عددها الأول الذي صدر في أول نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، ورأينا أن ننشر بقيته في مجلة « المقتطف » الغراء ، استيفاء للبحث ، وأداء لواجب الامانة ، وإخلاصاً في النصيحة للعلم وللقراء .

مآخذ واستدراكات

١ — زعم المؤلف في مقدمة كتابه « ج ١ ص ٨) أن عمر « رأى إعفاء من أسلم من أهل البلاد المفتوحة من الجزية ومساواتهم بالمسلمين الفاتحين ، فكان ذلك مغرياً لكثير منهم بالدخول في الاسلام ... وقد أعفاهم عمر وساواهم بالفاتحين وهو يعلم ما سيترتب على ذلك من نقص في موارد المدينة ، ومن ردّ الحكم في هذه البلاد الى أهلها . مع ذلك لم يتردد في الأمر ولم تثنه هذه الاعتبارات عنه » الى آخر ما قال .

وهذا الذي حكاه عن عمر هو حكم الاسلام في القرآن والحديث نصّاً ، وهو من المعلوم من الدين بالضرورة ، ورسول الله يقول : « ليس على مسلمٍ جزيةٌ » رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث ابن عباس . انظر تفسير القرطبي (ج ٨ ص ١١٤) ونيل الأوطار للشوكاني (ج ٨ ص ٢١٩) والذي ننكره على المؤلف أن يجعل هذا من عمل عمر ورأيه وسياسته ، كأنه حكم عن اجتهادٍ منه . وهو حكم بديهي منصوص ، وكان عمر فيه متبعاً لا مجتهداً .

......

(١) جزءان ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير — مطبعة مصر سنة ١٩٤٥

٢ — وقد أنكر المؤلف على المؤرخين المتقدمين أنه بلغ من إكبارهم لسيرة عمر « أن أضافوا اليه أموراً أدنى الى المعجزات التي خصَّ بها الأنبياء ، وأن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ الناقد إثباته . وعمر في غير حاجة الى شيء من ذلك يضاف الى سيرته . فما قام هو به وما تمَّ في عهده ، مما يقره النقد التاريخيّ ، يقيمَ له في صحف التاريخ صرحاً عالياً باقياً الى الأبد . ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق الى سيرة عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها ، ولجنّبوهم الاختلاف على مبلغ صحتها ، ولما طفّف ذلك من قدر عمر ، ولا نقص من جلال صنعه . وقد رأيت من الخير أن أغفل من هذه الحوادث ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد . ثم رأيتني بعد ذلك مضطرًّا الى أن أثبت حوادثَ يتصوَّر العقل في شيء من العسر وقوعها ، ومع هذا تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواترٍ يدعو الى النزول على حكمهم فيها » ، (ج ١ ص ٩) .

هكذا يقول سعادة المؤلف . ونحن نعلم أنه ينكر كل المعجزات الكونية التي رواها المسلمون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إلحاح وإصرار ، لأنه « يجري في البحث على الطريقة العلمية الحديثة ، ويكتبه بأسلوب هذا العصر » كما قال في كتابه « حياة محمد » ص ٤٧ وإن كان لم يستطع إنكار معجزات الأنبياء السابقين ، لأنها مذكورة في القرآن ، كما قال في ذلك الكتاب ص ٥٤ فهو أجدر إذن أن ينكر الكرامات والخوارق التي تنسب إلى عمر وإلى غير عمر ، لأنها مما « لا يقره العقل ولا يثبت للنقد » ! ولسنا نجادله في هذا ، فما في الجدال فائدةٌ ، وما أيسرَ الانكارَ وادّعاءَ الكذب والوضع على رواة السنة والأخبار ، أيًّا كان مبلغهم من الثقة والأمانة والصدق والضبط والتحري . وما أحكم الكلمة التي قالها له سماحة شيخ الاسلام مصطفى أفندي صبري في كتابه الجليل « القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون » قال في ص ٤٣ : « الطريقة العلمية التي يتبجح بها معالي المؤلف ويباهي باتباعها في تحرير كتابه ، والتي يدعي أنه بنى عليها إنكار المعجزات ، هي الطريقة نفسها التي يدَّعي ملاحدة الغرب أنهم بنوْا عليها إنكارهم لوجود الله » .

ولكننا نجد المؤلف أثبت حادثة « يا سارية الجبل » وسنذكرها في موضعها من هذا المقال (رقم ١٨) وما كانت رواية هذا الحادث بأصحَّ ولا بأوثق من غيره مما أنكر ، ولا بأصح ولا أوثق مما تواتر تواتراً علميًّا صحيحاً من مُعجزات رسول الله . ومن عجب أن يدعيَ المؤلف أن حادثة سارية من الحوادث التي « تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر » ! وأظن أن سعادته لم يطلع على شيء مما قاله المحدّثون والأصوليون في معنى التواتر

ودلالاته العلمية ، والفرق بينه وبين غيره من طرق النقل عند العلماء ! ولو اطلع على ذلك لقال شيئاً غير هذا .

٣ — وذكر المؤلف (ج ١ ص ٣٥) أن عمر « لما استخلف كان أول دعائه قوله : اللهمّ إني غليظ فليّـني ، اللهم إني ضعيف فقوّني . اللهمّ إني بخيل فسخّني » . ثم قال : « أما ما ذكر عن بخله فسببه أنه لم يكن غنيـاً ، وأن أباه لم يكن غنيـاً » . الى آخر كلامه . وما كانت به حاجة الى هذا التكلف . فان هـذا الدعاء لا يدل على أن عمر كان بخيلا ، وما زعم ذلك له أحد قط ، وما كان الفقر سبباً للبخل أبداً ، وإنما البخل داء نفسي قد يزيده الغنى تمكناً . والمؤلف يستنبط أن عمر كان « متوسط الحال في الغنى طول حياته » ، وأكثر ما يكون الكرم في المتوسطين والفقراء . ويعيذ الله عمر من داء البخل ، ورسول الله يقول : « أيُّ داءٍ أدوى من البخل » ، وإنما كان مثل هذا الدعاء أن يظن الرجل الصالح بنفسه التقصير عن درجة الكمال ، حتى ليسمي عمله باسم درجة النقص ، رغبةً الى ربه وتواضعاً ، فيسأله أن يتمم من خلقه ما يظنه نقصاً . ولذلك لم يزعم أحد قط ، ولم يستطع المؤلف أن يزعم ، أن عمر كان ضـعيفاً إذ يقول « اللهم إني ضعيف فقوّني » بل قال : (١ : ٣٣) « ولما تدرَّج عمر من الصبا الى الشباب بدا في مظهر من القوة بذَّ به أقرانه » . ثم النقلُ الصحيح ثابت بأنه كان جواداً ، فقد روى ابن سعد في الطبقات (ج ٣ ق ١ ص ٢١٠) عن عبد الله بن عمر قال : « ما رأيت أحداً قط بعد رسول الله صلى الله عليـه وسلم من حين قبض كان أجدَّ ولا أجودَ حتى انتهى من عمر » فهذا وغيره من أخباره وحوادثه لا يدع شكـاً في أنه كان من أكرم الكرماء .

٤ — في (ج ١ ص ٣٦) : « ثم إن المبشرين بالمسيحية في ذلك العصر كانوا ذوي نشاط في الدعوة إلى دينهم والتبشير به مثل نشـاطهم اليوم » . وهـذه دعوى عريضة ، لا تكاد تجد دليلاً عليها . فما رأينا — على كثرة ما رأينا — في النصوص التاريخية الصحيحة أنْ قد كان للمبشرين نشاط في مكة وما حولهـا حيث نشأ عمر ، كمثل نشاطهم اليوم ولا ما يقاربه ، إلاَّ أن يكون من أمثـال آراء الأب لويس شيخو في كتـاب « النصرانية وآدابها » . ومقاصدُ هذا الكتاب معروفة ، وما من أحد من أهل العلم والتوثق يرضى عن آرائه وتحقيقاته !

٥ — (ج ١ ص ٣٩ س ١٥) « طلحة بن عبـد الله » خطأ مطبعي ، صوابه « طلحة بن عُبيد الله » .

٦ — (ج ١ ص ٨٠ — ٨٣) تهافت المؤلف في كلامه نما كان بين عمر وخالد بن الوليد

وفي شأن مقتل مالك بن نويرة في حروب الردّة ، بمثل ما صنع في كتابه « الصديق أبو بكر » . وقد حققنا القول في ذلك في بحث مستوفى نشر في عدد شهر أغسطس سنة ١٩٤٥ من مجلة المقتطف ، ورجحنا فيه بالأدلة التاريخية الصحيحة أن خالداً أمر بقتل مالك بن نويرة لإصراره على الردّة بمنع الزكاة ، وأخذ امرأته وابنتها سَبْياً ، وأن ليس في شيء من ذلك ما يُلام عليه خالد ، لموافقته أحكام الشريعة ، وأن عمر إنما سخط على خالد أن لم يتبين وجه حجته ، وأن أبا بكر تبين معذرة خالد فبرأه ، وكان إذ ذاك ولي الأمر الذي يملك فصل القضاء فيه ، وقد قضى بالبراءة ، فلا يملك أحد بعده أن يشكك في قضائه أو يعيد النظر فيه ، لا أحدَ ولا عمرُ نفسُه . حتى إن متمم بن نويرة جاءه في خلافته يستعديه على خالد ، لما كان يعرف من رأيه في هذه المسألة نفسها . فقال له : « لا أردُّ شيئاً صنعه أبو بكر » فقال متمم : « قد كنت تزعم أنْ لو كنتَ مكان أبي بكر أقدته به » ؟ فأجابه عمر الجواب الحازم الحاسم : لو كنتُ ذلك اليوم بمكاني لفعلتُ ، ولكني لا أردّ شيئاً أمضاه أبو بكر » .

وقد قلنا في ذاك المقال : « وما نظن عمر يفعل ما كان يريد لو كان خليفة ذلك اليوم . إنما هو يبين عن رأيه في أمر قد نظر اليه من جانب واحد ، هو جانب الاتهام . ولعله لو قد سمع الطرف الآخر ، طرفَ الدفاع ، ونظر إلى الأمر من الجانبين كما نظر إليه أبو بكر ، لانتهى إلى ما انتهى إليه حكم أبي بكر . وفي مثل هذا تختلف أنظار القضاة وتختلف اجتهاد المجتهدين ، في وزن الأدلة ، وتقدير البراهين ، فلن تكون كلمة عمر وحدها حجةً على خالد ، تُثبت عليه إجراماً لم يَثبت عند الحاكم ، وقد برّأه الحاكم مما نسب إليه ، ولن تكون كلمة عمر وحدها حجة على أبي بكر ، حتى يُتهم بالتهاون في شأن جرم يوجب الحدّ أو القصاص ، وبأنه كان يتزمت في تطبيق التشريع على العامة والدهماء ، ولا يتزمت في تطبيقه على النوابغ والعظماء ! ! كفعل ساسة هذا العصر ! » .

فلم يكن فعل خالد أنه تزوّج امرأة مالك بن نويرة بعد قتله زوجها وأنه بنى بها في عدّتها ، كما يصوّره المؤلف هنا وهناك ، تمسكاً بظواهر ألفاظ في بعض الروايات من غير رجوع إلى باقيها ، وما كان خالد ليأتي هذا المنكر الذي لا شك في حرمته ، والذي استحلاله خروجٌ من الاسلام ، وما كان لأحد من عامة المسلمين أن يقره عليه ، فضلاً عن أصحاب رسول الله ، فضلاً عن أبي بكر .

وقد حكى المؤلف هنا (ص ٨٢) رواية عن بعض المؤرخين « أن عمر كان سيّىء الرأي في خالد من قبل إسلامه ، وكان سيء الرأي فيه حياته » ثم علل ذلك تعليلاً عجيباً ! قال : « ولعلّ عمر لم ينس لخالد غزوة أحد وموقفه منها ، وانتصار المشركين على المسلمين بمهارته

فيها ، ثم مهاجمته رسول الله لولا أن وقف عمر في وجهه وصده عن غرضه » !! وما ظننت قط أن أحداً يقول مثل هذا القول، فإن البديهي من قواعد الاسلام أن الاسلام يَجُبُّ ما قبله ، وكل أصحاب رسول الله كانوا مشركين قبل أن يسلموا ، إلا القليل الذين كانوا صغاراً ونشؤوا على الاسلام ؛ وكثير من الكبار حاربوا رسول الله قبل أن يسلموا ، وكثير منهم كانوا أعداءه ، ثم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم ،لم يحقد مَن آمن منهم من قبل على مَن آمن منهم من بعد ، وكانوا إخواناً متناصرين ، لا أعداءً متحاقدين . ولو كان لأحد أن يحقد على خالد ما زعمه المؤلف ، لكان أولى الناس أن يحقد عليه ذلك رسول الله ثم أبو بكر ، وينزّه الله رسوله وأبا بكر وعمر من ذلك . وهذه مداخل وددنا لو يحسن المؤلف الخروج منها أو يحجم عن ولوجها .

٧ — (ج ١ ص ٨٧) يروي المؤلف أن عمر « كان يذهب في تجارته الى العراق والى الشام واليمن فكان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكماء من أهل هذه البلاد ليزداد بالتحدث اليهم علماً منه على أن تزداد تجارته ربحاً فيصبح ممن الأغنياء » . وما أدري أين وجد المؤلف أن عمر « كان أشد حرصاً على مقابلة الأمراء والحكماء منهم ليزداد بالتحدث اليهم علماً » ؟ ! إني لأخشى أن يكون هذا خيالاً يصوّر به مصدر علم عمر وحكمته ، زعماً بأن العرب لم يكن فيهم حكمة إلاّ ما أخذوا عن غيرهم ! وعمر كان قويّ الفطرة العربية ثم أوتي العلم في الاسلام من الكتاب والسنة وتأسّيه برسول الله ثم بأبي بكر .

٨ — (ج ١ ص ٩١ — ٩٣) صوّر المؤلف موقف عمر أول وقت من خلافته بعد أن دُفن أبو بكر وانطلق الى داره بعد ما انتصف الليل : « ودخل مضجعه وجعل يفكر فيما يتنفس عنه الغد ، فسيبايعه المسلمون من بكرة النهار ليتولى أمورهم ، فيواجه منهم من رضيَ استخلافه كارهاً ، ثم يواجه الموقف الحربي الجليل الدقيق في العراق وفي الشام ، فماذا عسى أن يفعل ليتغلب على هذين الأمرين ، وهما بأعظم مكان من جلال الخطر في حياة الدولة الناشئة » ثم كتب صفحة ونصف صفحة عما كان يجول في خاطر عمر تلك الليلة !! وما أظن — وأنا رجل من المتحفظين في الرواية والنقل — أن مثل هذا العمل مما يجوز للمؤرخ ، وما يبعد أن يأتي من بعده من ينقله عنه ، ظنّاً أن هذا قد كان ، رواه الدكتور محمد باشا هيكل !! بل إني أومن أن هذا لا يجوز . ولقد كتبت بهامش نسختي من كتابه في هذا الموضع : « للمؤلف خيال قوي على الطريقة الأوربية ؛ فالمظنون الراجح في مثل هذا الموقف أن يفكر عمر فيما هو مقدم عليه . ولكن سياق الكلام الموهم أن هذا

حصل فعلاً يستدعي أن يكون هناك نقل صحيح بذلك، أو يكون تزيداً وافتعالاً».
وسأدع للقارئ بعد أن يحكم فيه بما يرى.

٩ — (ج ١ ص ٩١ في الحاشية) نقل المؤلف رواية عن ابن سعد أن عمر خطب في الناس خطبة بعد دفن أبي بكر. ثم ردّ هذه الرواية بأن أبا بكر دفن بعد ما جنّ الليل، وأنه ليس طبيعياً أن يخطب عمر في القوم الذين تولوا الدفن «ثم إن أكثر الناس كانوا قد أووا الى منازلهم، فلم يكن منهم بالمسجد في هذه الساعة الا قايلون هم أهل الصفة، لأن المسجد لم يكن يضاء في ذلك العهد». وهذا لون من التحقيق العلمي! لا عهد لنا به. فان الجزم بأنه لم يكن في المسجد في تلك الساعة إلاّ أهل الصفة لا يكون إلاّ عن نقل صحيح، لأنه شيء مادي لا يدرك بالعقل وحده، ويستحيل عادةً أن يدرك بالتعليل بأن المسجد لم يكن يضاء في ذلك العهد! والثابت في السنة والتاريخ أنهم كانوا يسهرون ويسمرون في المسجد، وكانوا يصلون الفجر بغلس، يعني في الظلام. والظن في مثل هذه الحال، حال موت أبي بكر ودفنه، أن يحضرها كثير من الصحابة. إن لم يكونوا داخل بيت عائشة، ففي المسجد خارج البيت. والخطبة التي روى ابن سعد (ج ٣ ق ١ ص ١٩٧) والتي يشير اليها المؤلف، كلمة قصيرة لا تزيد على أربعة أسطر، فليست مما يستبعد قوله في مثل هذا المقام، وما من دليل ينفيها، إلاّ أن في إسنادها جهالة، لقول راويها حميد بن هلال: «حدّثنا من شهد وفاة أبي بكر» وهذا إسناد منقطع يراه المحدثون ضعيفاً. وما عمدنا بنقدنا الى الجزم بصحة تلك الخطبة، وإنما أردنا أن نضع بين يدي القارئ مثالاً من أمثلة تحقيق المؤلف ورده من الروايات «ما لا يقره العقل ولا يثبت للنقد»!

١٠ — (ج ١ ص ٩١ في الحاشية أيضاً) عبر المؤلف عن «بيت عائشة» بكلمة «دار عائشة» وهو خطأ، فان الدار أكبر من ذلك، هو اسم جامع للعرصة والبناء والمحلة، ولم تكن بيوت أزواج رسول الله تُسمى دوراً، وانما كانوا يسمونها بيوتاً.

١١ — (ج ١ ص ١٥٩ — ١٦٣) تحدَّث المؤلف عما دار من جدال وحديث بين الوفد الذين أرسلهم سعد بن أبي وقاص وبين يزدجرد، ثم نقل لنا عن بعض المستشرقين أنهم ذهبوا الى «أن هذه الروايات وضعت من بعد، إن لم يكن في جوهرها، فعلى الأقل في تفاصيلها» وأن المستشرقين يؤيدون نقدهم بأن المؤرخين المسلمين لا يتورَّعون عن رواية أمور هي أدنى الى الخرافة، وذكروا رواية عن رستم فيها تطير واعتقاد بالتنجيم. ثم ذهب المؤلف يرد على المستشرقين ردًّا فاتراً ضعيفاً، حتى إذا أتى لحديث النجوم قال ما نصه: «أما القول بأن حديث النجوم أدنى الى الخرافة فذلك ما لا أتعرض للخوض فيه، فلست

عالماً بالنجوم ، واست أعرف لذلك مبلغ ما تهدينا اليه من علم بشؤون هذه الأرض التي نعيش عليها وما يقع من الأحداث فيها . على أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها ويحسبون أن علمها يهديهم الى ما يغيب عن غيرهم » ! وما من شك في أن التنجيم والطيرة حديث خرافة ، وأنه شيء لا يقبله العقل ، وأن الاسلام نهى عنه نهياً شديداً ، وتوعد من صدق بمثل هذه الخرافات وعيداً كبيراً . ولكن العجب الذي لا ينقضي ، أن المؤلف يأخذه الرعب من حديث النجوم فيخشى أن يتعرض للحديث فيه ، زعماً منه أنه ليس عالماً بها وبمبلغ ما تهدي اليه من علم بالأرض وأحداثها !! ثم هو ينكر كل المعجزات الكونية لرسول الله، وكل الخوارق المنسوبة الى عمر أو أكثرها ، لا يجد في صدره من ذلك حرجاً ، ولا يتواضع فيظن بنفسه أن قد فاته علم كثير من علوم الأسانيد الإسلامية ، التي أتقنها المتقدمون وأثبتوا بها الصحيح من الأخبار، ونفوا بها عنها ما وضع الوضاعون وما روى الضعفاء، حتى جاءوا بالسنة بيضاء نقية . ثم هو قد وجد لنفسه عذراً فيما أحجم عنه من الكلام في النجوم أن كثيرين لا يزالون يؤمنون بها وأظنه يريد بذلك علماء الافرنج !! ولم يجد مثل ذلك العذر فيما أثبته علماء الاسلام من الأخبار المتواترة والأخبار الصحيحة، وهو يعلم أنهم كلهم الاّ من شذَّ منهم، لا يزالون يؤمنون بها ، ويعتقدون أن طرق الاثبات التي وصلت بها اليهم هي أدق طرق علمية لاثبات الأخبار والروايات . وأن علمها يهديهم الى مايغيب عن المستشرقين وأتباعهم .

١٢ — (ج ١ ص ١٧٥) قال المؤلف في أعقاب يوم أغواث: «وكانت نساء المسلمين يعنينَ بالجرحى ويمرضنهم ، ويبذلن من صنوف العناية ما يرفّه عنهم وما ينسيهم ألمهم » . ولسنا ننكر عليه في هذا إلاّ تعبيره بكلمة « الترفيه » في هذا المقام في هذا الوقت ، فان الحرب الأخيرة بين الدول أرتنا في بلادنا ، وأسمعتنا عن غير ما رأينا ، معاني منكرةً لما يسمى « الترفيه » عن الجرحى والمرضى والأصحاء من الجيوش ، مما يقشعر له بدن كل ذي خلق وكل ذي دين ، وأشاعت بذلك فساداً لايدري الناس ما عواقبه . وقد جعلت هذه المنكرات لكلمة « الترفيه » معنى يبادر الى ذهن كل من سمعها ، خصوصاً من الشبان . وكنا نظن بالمؤلف ، على ما نعرف من دقته في التعبير ، أن يتجاوز عن هذه الكلمة الآن ، ويترفع عن وصف نساء الصحابة والتابعين بها ، وقد آلت في أذهان الناس الى ما آلت اليه ، على ثقتنا بأنه لم يرمِ الى هذا المعنى ، وهو في ذلك فوق الشبهة عندنا ، ولكنا لا نريد إلاّ الحذر والاحتياط .

١٣ — (ج ١ ص ١٩١) وصف المؤلف المدائنَ عاصمة مملكة الفرس في ذلك العهد وصفاً خياليًّا ، مما قال فيه : « فقد جمعت من معاني الترف الشرقي أبهى صوره وأكثرها

وحياً لآلهة الفن وشياطين الشعر » . فما « آلهة الفن » هذه ؟ ! إني أرى كثيراً من الكاتبين في هذا العصر يصطنعون كلمات يأخذونها عن الأمم الأخرى ، يتزيَّدون بها ويتجملون ، يظنون أن لا بأس بها ، وفيها كلُّ البأس وكلُّ الشرّ . إن تسمية « آلهةٍ » أخرى من دون الله كلمات وثنية ، جاء الاسلام بحربها والقضاء عليها . وما تنفع المعذرة بأن مثل هذه الكلمات إنما هي ألفاظ لا تُعتقد معانيها ودلالاتها ، فانما وضعت الألفاظ للدلالة ، ولا يطلع على خفايا القلوب إلاَّ الله . ولا يجوز لأحد أن ينطق بمثل هذه الكلمات ، لا هزلاً ولا جدًّا ، وما أذن الله لأحد أن يقول شيئاً من ذلك (إلاَّ مَن أُكره وقلبه مطمئنٌّ بالايمان) وما أظن أحداً يُكره هؤلاء الكتَّاب على اتخاذ هذه الألفاظ الوثنية ، أيًّا كان مقصدهم منها ، أو تأولهم لدلالتها (أئِفْكاً آلهةً دون الله تريدون) . وليعلمْ هؤلاء وغيرهم أن الله نعى على المشركين تسميتَهم آلهةً من دونه ، وما كانوا يزعمون أنهم الخالقون الرازقون ، بل كانوا يؤمنون بالله ، ويشركون بآلهتهم ، أنهم يَدْعُونها ويعبدونها لتقرّبهم الى الله زلفى ، كما حكى الله عنهم في القرآن . فمهما يتأوَّل المتأوّلون في تسمية آلهة من دون الله ، فلن يبعد بهم تأوُّلهم عن شيء لا يجوز أن يقوله من يدين بدين سماوي شرعه الله .

والمؤلف يؤلف كتابه في سيرة عمر ، ويتمدَّح بأعمال عمر ، ويرفع من شأن عمر ، وأنا أوقن أن لو قد سمع هذه الكلمة عمر ، لكان له معه شأن أيّ شأن ، نسأل الله العصمة والتوفيق .

١٤ — (ج ١ ص ٢٠٥) يقول المؤلف : « وكان الناس يجتمعون بسعد في قصر كسرى ، فيتحدَّث سعد الى ذوي العلم منهم بماضي هذه البلاد ، ويذكرون أياماً سلفت كانت فيها مقر حضارة العالم » . وهذا نقل لم أجده فيما بين يديَّ من المراجع . وأخشى ، بل أرجح ، أن يكون خيالا لا حقيقة له ، لا يكون من عالم يتحرى الحقائق في نقله .

١٥ — (ج ١ ص ٢٥٨ — ٢٥٩) قال المؤلف : « يذهب بعض المستشرقين الى أن عمر إنما اعتذر عن الصلاة بكنيسة القيامة لما كان بها من صور وتماثيل » وقد ذهب يناقش هذا القول ، ويزعم أنه غير صحيح ، بل ذهب يجرؤ على الفتيا ، ويدعي أن الصلاة إلى الصور والتماثيل لا بأس بها ، بل ذهب يتقوَّل على رسول الله وعلى الذين اتبعوه ، ثم على الاسلام ، بل أربى على ذلك أن كاد يبيح الوثنية صريحاً ، ينتحل قولا يشبه وحدة الوجود ، وما هو إلا مذهب ينتهي بقائليه إلى إنكار وجود الله ! ! قال ما نصه : « وما كان لمحمد والذين اتبعوه ألاَّ يصلوا بمكان فيه صور أو تماثيل والاسلام إيمان بالله ، والأعمال فيه بالنيات ، فمن صدَّق إيمانه وخلص لله وجهه فأينما ولّى فثَمَّ

وجه الله . وإنما حطم محمد الأوثان والأصنام حول الكعبة وفي جوفها يوم فتح مكة حتى يكون بيت الله حراماً على كل دين إلاَّ على الدين الذي أوحاه الله إلى نبيه بينات من الهدى والفرقان ، كي لا تذكر هذه الأصنامُ والأوثانُ أحداً بجاهليته فيثور في نفسه إليها حنين. أما الذين صفت قلوبهم لله وتطهرت نفوسهم من كل عبادة إلاَّ عبادته جلَّ شأنه فأولئك لا خوف عليهم أينما صلّوا ، وأولئك يرون وجه الله في كل خلقه ، جلَّ ثناؤهُ وتباركت أسماؤه ! » هكذا قال ، حتى علامة التعجب وضعت في أصل الكتاب . ونعوذ بالله من حكاية هذا القول ، لولا الضرورة إلى التحذير منه ما حكيناه . وكل مسلم يعلم أنه لا تجوز الصلاة إلى التماثيل وإلى ما يوهم عبادة غير الله . والذي أراد أن ينفيه عن عمر قد صحَّ عنه وعن غيره ، ففي صحيح البخاري (ج ١ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ من فتح الباري طبعة بولاق) « قال عمر : إنا لا ندخل كنائسكم من أجل التماثيل التي فيها الصور . وكان ابن عباس يصلي في البيعة إلاّ بيعة فيها تماثيل » . فلا موضع لما افتعله المؤلف من رد الرواية عن عمر برأيه وهواه .

ويخيّل إليَّ أن للمؤلف في الوثنية رأياً خاصّاً ، لا يقره عليه أحد ، يرجع بها الى عهد الجاهلية وآراء الجاهلية ، وقد جاء القرآن بحربها وهدمها . فان المؤلف عاد الى مثل هذا المعنى عند الكلام على فتح مصر (ج ٢ ص ٧٩) قال : « فالتوجه الديني أصيل في الشعب المصري بحكم طبيعته . كذلك كان شأنه في عهود الفراعنة ، وكذلك ظلَّ شأنه على القرون . ولعلَّ بساطة عقيدته ، مع تغير الأديان التي دان بها ، كانت ذات أثر في تمسكه بمذهبه ، فهو موحِّد من أقدم العصور ، وهو على توحيده يشعر بأن الإله الخالق المنعم جلَّ شأنه أعظم من أن يسمو سواد الناس الى الاتصال بذاته وإن تطهرت قلوبهم ، فلا بدَّ من زلفى تقربهم اليه ، وتحلّهم منه محل الرضا » ! ! فان لم يكن هذا تمجيداً للوثنية ودعوةً اليها ، فخيرٌ للناس أن يلغوا عقولهم ! ! وأين ما جاء به موسى من التوحيد في عصر الفراعنة ، والكفر بألوهيتهم وبما كانوا يعبدون من دون الله ؟ ! وإن الله يقول : (والذين اتخذوا من دونه أولياءَ ما نعبدهم إلاَّ ليقربونا الى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذب كفّار) الآية ٣ من سورة الزمر ، ويقول تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون) الآية ١٠٦ من سورة يوسف .

وليت المؤلف لم يتقحم مثل هذه المآزق ، أو سأل عنها من يرشده الى وجه الحق فيها ، أو اجتهد في البحث عنها في مصادرها واصطنع الأناة والحكمة في اجتهاده !! ليته ليته .

١٦ — (ج ١ ص ٢٩١ س ٩) « أمراء الأنصار » خطأ مطبعي ، صوابه « أمراء الأمصار » كما هو واضح .

١٧ — يقول المؤلف (ج ١ ص ٣٠٠) : « فأول ما يقضي به الايمان الصحيح ألاَّ يهاب الجندي الموت ، وأن يقدم عليه مغتبطاً به ، فان استشهد ففي سبيل الله وفي سبيل الوطن وفي سبيل القضية التي ينصرها » . وقال أيضاً (ج ٢ ص ٢٢٠) : « وما ضر أحدهم أن يقتل في سبيل الله وفي سبيل الامبراطورية الاسلامية » . وهذا تعبير موهم ، وفي نسبته الى « الايمان الصحيح » مغالطة ، فان الاسلام لا يعرف الاستشهاد إلاَّ أن يكون في سبيل الله فقط ، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد وأصحاب الكتب الستة عن أبي موسى الأشعري قال : « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حميةً ، ويقاتل رياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

١٨ — (ج ٢ ص ٤٩ — ٥١) نقل المؤلف عن الطبري قصة فتح فَسَاودرابجرد والطبري ذكرَ القصة بروايتين (ج ٥ ص ٥ — ٦) فأخذ المؤلف إحدى الروايتين وبقية الأخرى ، وأعرض عن صدرها ، ليتم له تأويله الذي يبغي . ففي الرواية الأولى أن عمر أُريَ في المنام خطر موقف المسلمين وأنهم إن استندوا الى الجبل انتصروا ، فنادى في الناس « الصلاة جامعة » فجمعهم في الوقت الذي رآه في نومه وقتاً للوقعة وأخبرَ الناس بما أُريَ ، ثم قال : « يا ساريةَ الجبلَ الجبلَ » ثم أقبل عليهم وقال : إن لله جنوداً ولعلَّ بعضها أن يبلغهم » هذا ملخص الرواية الأولى ، ساقها المؤلف مفصلة في قليل من التحوير . والرواية الأخرى : « كان عمر قد بعث ساريةَ بن زُنيم الدئِلي إلى فساودرابجِرد فحاصرهم ، ثم إنهم تداعوا فأصحروا له وكثروه فأتوه من كل جانب ، فقال عمر ، وهو يخطب في يوم جمعة : يا سارية بن زنيم الجبلَ الجبلَ ، ولما كان ذلك اليوم وإلى جنب المسلمين جبل إن لجؤوا اليه لم يؤتوا إلاَّ من وجه واحد ، فلجؤوا إلى الجبل ، ثم قاتلوهم فهزموهم » ثم ذكرت الرواية ما أصابوا من المغانم ومسير رسول سارية الى عمر وعوده الى البصرة ، وأن أهل المدينة قد كانوا سألوه : « عن سارية وعن الفتح ، وهل سمعوا شيئاً يوم الوقعة ؟ فقال : نعم سمعنا « يا سارية الجبل » وقد كدنا نهلك ، فلجأنا اليه ففتح الله علينا » . وقد أعرض المؤلف عن هذه الرواية واقتبس منها حديث الغنيمة وما أرسل منها الى عمر وغداء رسول سارية معه ، فضمه الى الرواية الأولى بنصه . ثم ذكر سؤال أهل المدينة عن سارية وعن الفتح وجوابه كأنه رواية أخرى . فهذه هي القصة التي رأى المؤلف ، فيما نقلناه عنه آنفاً (رقم ٢) ، أن يثبتها

من روايات الخوارق ، لأنه « تضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر يدعو الى النزول على حكمهم فيها » !! وهي رواية من روايات التاريخ، إسنادها لا يكاد يصل الى الصحة ، لانقطاع في إسنادها الذين رواها بهما الطبري ، فضلاً عن أن يتضافر المؤرخون على روايتها تضافر تواتر ! ! ولا يبعد أن تصح فما ينكر الخوارقَ إذا صحَّت إلاَّ من ينكر ما وراء المادة ، ومن ينكر كل غيب لا يصل اليه حسُّه، أو لا يأتيه خبره إلاَّ عن يثق بهم من الأجانب .

١٩ — (ج ٢ ص ٥٩) ذكر المؤلف «دائرة المعارف البريطانية» باسمها الافرنجي مرسوماً بحروف عربية « الانسيكلوبيديا بريتانيكا » وما كانت به حاجة الى هذا التكلف والإغراب ، فان أسماء الكتب تترجم الى ما يقابل معانيها في اللغات الأخرى غالباً. وقد ترجم هذا الاسم وعرف بين قراء العربية وهو أقرب إلى إفهامهم أن يذكر اسمها المترجم الذي عرفت به .

٢٠ — (ج ٢ ص ٨٤) تحدَّث المؤلف عن إسلام عمرو بن العاص ، فلم يجد له إماماً يقلده غير العقَّاد ، في كتابه الذي ألفه عن عمرو بن العاص في سلسلة « أعلام الإسلام » فانه زعم أن عمراً كانت نظرته إلى الدنيا نظرة عملية وأن مناط الرجحان في تلك النظرة الأخذ بالأحوط والأنفع ، « حتى ليكاد الأحوط والأنفع أن يكون عنده مقياساً للحق أو لصحة الأشياء » ثم ذهب يضرب على هذه النغمة ويحكي بعض الروايات يتأوَّلها عليها (ص ٢٧ — ٢٨ و ٥٧ — ٦١) فنقل عنه سعادة المؤلف هنا مناقشة بين عمرو وبين فتى من قريش ثم قال : « ولئن صحت تلك الرواية لتكونَنَّ بالغة في الدلالة على اتجاه عمرو في تفكيره ، وعلى أنه كان يؤمن بنظرية المنفعة إيماناً قويّاً » . ومعاذ الله أن نظن ذلك بأصحاب رسول الله ، وخاصة بمثل عمرو بن العاص . وقد نقض المؤلف على نفسه ما قلَّد فيه العقَّاد ، فصرَّح بعد بأن عمراً « بادر إلى الاسلام عن بيِّنة وإيمان ، لا عن خوف ولا عن إذعان » . فما ندري لِمَ قال من قبل ما قال ، ولِمَ هذا الاضطراب ؟ !

٢١ — (ج ٢ ص ٢٠٣ — ٢٠٤) نسب المؤلف لعمر أن تأسّيَه بالرسول لم ينسه أن يفرق بين الثابت على الزمان من سنته صلى الله عليه وسلم ، وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فمن المستطاع مراجعته وإعادة النظر فيه ، من غير أن يكون ذلك إنكاراً له ، اقتناعاً بأن رسول الله لو امتدّ به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه » . وهذه نظرية خطيرة ، لم ينسبها أحد قط لعمر ، ويبرىء الله عمر من التهمة بها، فانها ليست إلاّ مخالفةَ السنة بالرأي والهوى، وما هي إلاَّ نسخُ شيء من السنة بعد وفاة رسول الله، وما قال هذا أحد قط، ولعل للمؤلف رأياً يحوم حوله ، لا يكاد يصرح به . فاني أراه قال في أواخر الكتاب (ص ٣٢٢) : « حق لعمر أن يُدفن مع صاحبيه ، ليَنعم بجوارهما ، وتطمئنَّ روحه إلى أنه سار على

سنتهما ، وأنه أتمَّ على الأرض ما قضى الله أن يَتم حين أوحي إلى نبيه رسالة السماء . وقد أتمَّ عمر هذه الرسالة » ! ! ولست أدري ، أهو يعتقد حقًّا أن عمر أتمَّ على الأرض هذه الرسالة ، أم هو يرى أن شؤون النبوءة والرسالة كبعض ما يعرف من شؤون الدولة والسلطان ، أم هو يلقي الكلام على عواهنه ، لا يلقي له بالا ؟ ! اللهمَّ غفراً .

واسمعْ — يا سيدي — بعضَ ما قال إمام الأئمة محمد بن إدريس الشافعي في وجوب اتباع سنة رسول الله على كل أحد ، وهو قولُ كافة أهل العلم : « وكلُّ ما سَنَّ فقد ألزمنا الله اتّباعَه ، وجعل في اتباعه طاعتَه ، وفي العُنود عن اتباعها معصيته التي لم يعذِرْ بها خلقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجاً » . (الفقرة ٢٩٤ من كتاب الرسالة للشافعي بتحقيقنا) . وقال أيضاً في الفقرة ٣٢٦ : « فيما وصفتُ من فرض الله على الناس اتباع أمر رسول الله : دليلٌ على أن سنة رسول الله انما قبلت عن الله ، فمن اتبعها فبكتاب الله تبعها . ولا نجد خبراً ألزمه الله خلقه نصًّا بيناً الاَّ كتابه ثم سنَّة نبيه . فاذا كانت السنةُ كما وصفت ، لا شبه لها من قول خلق الله ، لم يجز أن ينسخها الاَّ مثلها ، ولا مثل لها غير سنة رسول الله ، لأن الله لم يجعل لآدمي بعده ما جعل له ، بل فرض على خلقه اتّباعه ، فألزمهم أمره . فالخلق كلهم له تبع ، ولا يكون للتابع أن يخالف ما فرض عليه اتباعه . ومن وجب عليه اتباع سنة رسول الله لم يكن له خلافها ، ولم يقم مقام أن ينسخ شيئاً منها » . أي لا عمر ولا غير عمر ، لا أصغر من ذلك ولا أكبر . وقال أيضاً في الفقرة ٥٩٩ فيما يقع من أقوال بعض العلماء مخالفاً للسنة : « وليس ذاك لأحد ، ولكن قد يجهل الرجل السنّة فيكون له قول يخالفها ، لا أنه عمد خلافها . وقد يغفل المرء ويخطيء في التأويل » . وقال أيضاً في الفقرة ٩٠٥ : « واذا ثبت عن رسول الله الشيء فهو اللازم لجميع من عرفه ، لا يقويه ولا يوهنه شيء غيره . بل الفرض الذي على الناس اتباعه ، ولم يجعل الله لأحد معه أمراً يخالف أمره » . وكان عمر يقضي في دية أصابع اليد بالتفريق بينها ، فجعل للابهام ١٥ من الابل ، والتي تليها ١٠ وللوسطى ١٠ والتي تلي الخنصر ٩ وللخنصر ٦ ثم ثبت عند أهل العلم أن رسول الله قال : « وفي كل إصبع مما هنالك عشر من الابل » فأخذوا به كلهم وتركوا قول عمر ، فقال الشافعي في ذلك في الفقرتين ١١٦٧، ١١٦٨ : « ولم يقل المسلمون قد عمل فينا عمر بخلاف هذا بين المهاجرين والأنصار ، ولم تذكروا أنتم أن عندكم خلافهُ ولا غيركم ، بل صاروا الى ما وجب عليهم ، من قبول الخبر عن رسول الله ، وترك كل عمل خالفه . ولو بلغ عمر هذا صار اليه ، إن شاء الله ، بتقواه لله ، وتأديته الواجب عليه في اتباع امر رسول الله ، وعلمه ، وبأنْ ليس لأحد مع رسول الله أمرٌ ، وأن

طاعة الله في اتباع أمر رسول الله » . وسيرة عمر في السنة معروفة ، كان يجتهد فيما يعرض له ، مما ليس فيه نص كتاب ولا يعلم فيه سنة ، فاذا بلغته سنة رسول الله عدل عن رأيه ، واتّبع السنة ، بل هو كان أشدّ اتباعاً للسنة وتمسكاً بها ، في كل شأنه . وأقوى حجة في ذلك موقفه حين مقتله ، إذ يستدبر الدنيا ويستقبل الآخرة ، قال له ابنه عبد الله بن عمر : « إني سمعت الناس يقولون مقالة فآليت أن أقولها لكم ، زعموا أنك غير مستخلف ، فوضع رأسه ساعة ثم رفعه فقال : إن الله عزّ وجل يحفظ دينه ، وإني إنْ لا أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، وإنْ أستخلف فان أبا بكر قد استخلف . قال : فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله وأبا بكر فعلمتُ أنه لم يكن يَعدلُ برسول الله أحداً ، وأنه غيرُ مستخلف » . وهذا حديث صحيح جدًّا ، رواه الامام أحمد في مسنده (ج ١ ص ٤٧) ورواه أيضاً مسلم في صحيحه (ج ٢ ص ٨٠ — ٨١) وأبو داود في السنن (ج ٣ ص ٩٣ — ٩٤ من شرح عون المعبود) ورواه أيضاً البخاري مختصراً (ج ٩ ص ٨١ من الطبعة السلطانية) . فهذا عمله كما ترى في شيء سلبيّ سكوتيّ ، لم يستخلف رسول الله ، ولكنه لم يَنْهَ عن الاستخلاف ، واستخلف أبو بكر ، وهو الصاحب الأول ، والوزير الأول ، والخليفة الأول ، وهو كان أعلم برسول الله من عمر ومن غير عمر من الصحابة ، وأقرّه عمر وأقرّه المسلمون جميعاً فكان اتفاقاً منهم على أن الاستخلاف جائز غير ممنوع ، ومع ذلك فان عمر أبى إلاّ أن يتبع فعل رسول الله في ترك الاستخلاف ، وعرف ذلك منه ابنه عبد الله ، وهو أعرف الناس به ، « فوالله ما هو إلاّ أن ذكر رسول الله وأبا بكر فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله أحداً » فهذا هو عمر على حقيقته « بتقواه لله ، وتأديته الواجبَ عليه في اتباع أمر رسول الله ، وعلمه » كما وصفه الشافعيّ حقًّا ، لا على الصفة المنكرة التي اخترعها المؤلف : أنه يلعبُ بالسنة برأيه ، فيفرقُ بين الثابت على الزمن وبين ما قضت به أحداث الوقت ، فيراجعه ويعيد النظر فيه ، توهماً من المؤلف — لا اقتناعاً من عمر — « أن رسول الله لو امتدَّ به الأجل لراجعه وأعاد النظر فيه » ! ! وهذا هو عمر التابع المطيع والخادم الأمين ، ليس كما يصوّره المؤلف ، مخالفاً كلّ نصّ وكل معقول ، أنه أتمَّ على الأرض هذه الرسالة ! ! وعمر يعلم أن الله أنزل على رسوله في يوم عيد ، يوم عرفة يوم الجمعة في عرفة (اليوم أكملتُ لكم دينكم) .

٢٢ — (ج ٢ ص ٢٢٢) يتحدَّث المؤلف عن عمر يقول : « ولقد كان يرى نفسه مسؤولاً أمام ضميره وأمام الله » . وهذا تعبير إفرنجيّ مستحدث ، ومعنى باطل لا يعرفه

عمر ولا يعرفه الاسلام ، ، فانما الذي يدين الناس ويسألهم عن أعمالهم ، والذي يجب عليهم أن يتقوه ويخشَوْه هو الله وحده .

٢٣ — (ج ٢ ص ٢٣٦) يقول المؤلف في شأن تدوين الدواوين : « فقد كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من يكتبون له الكتب والرسائل . وكانت هذه الكتب تحفظ صورها وتحفظ الردود عليها في داره بالمدينة » . وهذا نقل طريف ، لا أذكر أني رأيته أو سمعت به قط ، فعسى أن نفيد من علم المؤلف وسعة اطلاعه ، فيرشدنا إلى المصدر الذي نقله منه .

٢٤ — (ج ٢ ص ٢٤٠) في إشارته الى عبد المطلب بن هاشم قال : « وتذكر كيف أدى نذره » . وما نظن هذا التعبير دقيقاً ، فان المعروف في كلام العرب أن يقال « وفى بنذره » أو « أوفى بنذره » أو نحو ذلك .

٢٥ — تحدَّث المؤلف عن صور النكاح في الجاهلية ، فذكر منها أن يتزوَّج الرجل امرأةً فيذرها في قومها ، ينزل عندها في رحلاته . وقد تعقبناه في ذلك في المقال الذي نشر في مجلة «الكتاب». ثم عقب المؤلف كلامه السابق بقوله: « ويذهب بعض المؤرخين الى أن هذا الزواج أصل زواج المتعة الذي أبيح في صدر الاسلام الى أن حرَّمه عمر » . ولم يكن شيء من هذا، ولم يقل أحد من المؤرخين ما قال . بل نكاح المتعة كان أحد صور النكاح في الجاهلية ، وقد أبيح في صدر الاسلام ثم نسخ وثبت الأمر على تحريمه . وليس يصح ادّعاء المؤلف أنه بقي مباحاً إلى أن حرَّمه عمر ، إلا على نظريته التي أنكرناها عليه : أن عمر كان يعيد النظر في سنة رسول الله ، وأنه أتمَّ الرسالة ! ! وأما الثابت عند أهل العلم : « أن عمر لم ينه عنه اجتهاداً ، وإنما نهى عنه سنداً إلى نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم » كما قال الحافظ ابن حجر . وانظر فتح الباري (ج ٩ ص ١٤٣ — ١٥١) . ولم يكن عمر ولا غيره يملك أن يحرّم الحلال ، ولم يجعل الله ذلك لأحد من خلقه بعد رسول الله .

٢٦ — (ج ٢ ص ٢٥٨) استعمل المؤلف فعل « تعمق » متعدياً بنفسه وهو فعل لازم ، لا شك في ذلك ولا خلاف . وفي اللسان : عمَّق النظر في الأمور تعميقاً ، وتعمق في كلامه أي تنطَّع ، وتعمق في الأمر : تنوَّق فيه فهو متعمق » . والذي ابتدع هذا الخطأ ولهج به وأشاعه ، هو الدكتور طه حسين بك ، فقلده المؤلف وغيره من الكتَّاب ، عن غير تدبر ولا بحث .

احمد محمد شاكر

رعاية الامومة والطفولة[1]

الجهود التي تبذلها وزارة الصحة في هذه السبيل

اختصَّ قسم رعاية الأمومة والطفولة بالاشراف على أمهات وأطفال المحافظات وعواصم المديريات ومراكزها . أما القرى فمن اختصاص مصلحة الصحة القروية .

ان الجهل والفقر وسوء المسكن وكثرة الأطفال عند الفقراء وقلة المولدات وزيادة المتعطلين والضعف الخلقي والأمراض المعدية وسوء استخدام الرضاعة وتفشي الدجل والخرافات ، أوجد جبهة مستعصية على العلاج إلا بالجهود الجبَّار الذي يتناسب مع خطورتها.

وهذا ما حدا بنا لشرح الجهود التي تبذلها الوزارة في سبيل رعاية الأمومة والطفولة .

وتتلخص هذه الجهود في الآتي :

أولاً — منع زيادة وفيات الأطفال — هذا الموضوع متشعب كثير المشاكل من الناحيتين الصحية والثقافية متداخل بعضه في بعض عسير تفرقتها أو تجزئتها، ولا يمكن أن تنهض الناحية الصحية منفردة بهذا العبء كله دون أن تشد أزرها الناحيتان الاقتصادية والثقافية .

ويبلغ متوسط مواليد القطر في العام ٦٥٠ ألف ، ووفياته ٤٣٠ ألف منهم ٢٤٠ ألف طفل . والأطفال الذين تقل سنهم عن الخمس سنوات هم أكثر من نصف وفيات القطر عامة بحيث يمكن اعتبار مشكلاتهم وحدها بمثابة نصف المشاكل الصحية والاجتماعية التي يجب العناية بها في هذه البلاد .

وهذه الوفيات على كثرتها لا تدل على سلامة الباقين بل تشير الى تفشي الأمراض بينهم لأن الأطفال المرضى لا يمكن أن ينتج عنهم غير شعب سقيم .

وعلاج هذه المشكلة القومية يتلخص في : —

١ — تعميم مراكز رعاية الأمومة والطفولة بمعدل مركز لكل ١٥ الف من السكان

٢ — زيادة المراقبة على أعمال الدايات ورفع مستواهنَّ الثقافي

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور حسن كمال بك مدير رعاية الامومة والطفولة بوزارة الصحة صباح ١٧ ـ ١١ ـ ١٩٤٥ بدار الحكمة في المؤتمر الطبي هذا العام

٣ — تخريج أكبر عدد ممكن من مساعدات المولدات الزائرات الصحيات
٤ — العناية باللقطاء
٥ — سن تشريع لحماية الأطفال من الاهمال أو تشغيلهم في سن مبكر أو سوء تغذيتهم
٦ — انشاء دور كفالة للعناية بالأطفال أبناء العاملات او البائعات أو الخادمات أو غيرهنَّ ممن يتحتم عليهنَّ بحكم مهنتهنَّ ترك أطفالهنَّ.

ثانياً — رفع المستوى الصحي والاجتماعي لاخراج جيل سليم قوي

ان بعض الأمراض الاجتماعية تنتقل بالوراثة كالزهري وبعضها عن طريق البيئة كالدرن الرئوي وهـذه الأمراض خطرة فتاكة تذبل أبناء الأمة وتضعف أجسامهم وعقولهم وتقتل الأجنة وتقصر الأجل وتحدث التشوّهات والشلل والجنون — وقد هبطت نسبة الاصابات بالزهري ببعض مراكز رعاية الأمومة والطفولة من ١٦ في المائة إلى ٣ في المائة نتيجـة علاجهنَّ بها .

ومما لاريب فيه أن للزهري دخلاً كبيراً في ارتفاع نسبة الوفيات في المملـكة المصرية . وقد بلغت نسبة حوادث الاجهاض بين الحوامل بالزهري في إحدى عيادات الأمراض الجلدية بالقاهرة حديثاً ٤١ في المائة . ونسبة الأطفال المولودين موتى ٢٦ في المائة . ونسبة الأطفال الذين يعالجون من زهري وراثي ٢٤ في المائة . اما السيلان فخطره يظهر جليًّـا في أنه كثيراً ما يسبب العقم لدى البالغين والعمى عند الأطفال حديثي الولادة — أما السل فرض عائلي غالباً وقدّر عدد المسلولين بالمملـكة المصرية بربع مليون مصاب يموت عشرهم سنويًّـا.والأمراض العقلية تنتقل بالوراثة إلى الأبناء والأحفاد .

كل هذه الأمراض تنتقل كما ذكرنا بالوراثة أو بالبيئة أي أنها أمراض عائلية يمكن ايقافها بل ومنعها بمعرفة مراكز رعاية الأمومة والطفولة إذا اكتملت عدة وعدداً . وقد تكون تلك المراكز السلاح الأسـاسي لذلك فيليها أهمية مكاتب الـكشف على الراغبين في الزواج ومراكز علاج الامراض السرية .

فقد بلغ تعداد حالات الزهري الوراثي التي عالجها قسم رعاية الأمومة والطفولة بمراكزه عام ١٩٤٤ ، ٩٣٤٧ ، وحالات الأمراض الجلدية ٨٨٦٧٥ ، وعينـات الدم للفحص بطريقـة وازرمان ٤٥٦٢٢، وعدد من تمّ علاجهم ضد الزهري من الأطفال ١٤١٨ وهو مجهود عظيم، ضئيل بالنسبة لحالة البلد الصحية .

ويتطلب الحمل عند الأمهات عناية كبيرة حتى يقلل من مضاعفات الولادة لدرجة محسوسة. وهـذه العناية من أعظم الأعمـال التي تقوم بها مراكز رعاية الأمومة والطفولة بالقطر .

ويكفي أن نذكر هنا أن تعداد الحوامل القديمة اللاتي ترددنَ على مراكز رعاية الطفل سنة ١٩٤٤ بلغ ٣٦٩٥١٩ كما بلغ تعداد الحوامل الجديدة ٩٥٩٦٢

وتشمل العناية بالوالدات أثناء الوضع مكاناً كبيراً من اهتمام القسم فقد بلغ تعداد الولادات التي قامت بها مراكز رعاية الطفل سنة ١٩٤٤ — ٨٣٢١٥ كما بلغت تعداد الولادات التي أحيلت على المستشفيات بمعرفة تلك المراكز ١٥٢٧ ولادة .

وهذه الأعداد على ضخامتها لا تزال ضئيلة بالنسبة لما يجب أن تكون عليه إذا ما عممت مراكز رعاية الطفل بأنحاء المملكة على أساس مركز لكل ١٥ الف نسمة على الأقل ، ذلك لأن تعداد الاهالي المطلوب من قسم رعاية الطفل الاشراف عليهم هو ٤ر٨٥٢ر٢٠٠ نسمة ، متوسط الولادات سنويًّا بينهم هو ١٨٩ر٩٤٠ .

وبمناسبة النجاح الذي أسفرت عنه التجربة التي عملت بمراكز رعاية الطفل الحالية من ايجاد بعض أسرَّة بها مستعدة لاستقبال من يأتيهنَّ المخاض أثناء زيارتهنَّ المراكز أو الحاملات الفقيرات ، أو من ليس لهنَّ عائل يرعي شئونهنَّ أو من يحضرنَ من جهات نائية وتتطلب حالتهنَّ الملاحظة أثناء الولادة والنفاس ، أو من كانت منازلهنَّ لاتليق صحيًّا للولادة بها . بدأت الوزارة تعمم الأقسام الداخليـة بالمراكز وذلك بايجاد ستة أسرَّة للولادة على الأقل ولو بالمراكز الرئيسية لتستطيع اداء هـذه الرسالة ولتكون نماذج عملية للحوامل والأمهات

أما رعاية الطفل بعد الولادة فقائمة على القواعد الصحية العلمية وأصبحت نتائجها ملموسة فقلت نسبة وفيات الأطفال في البلاد التي تقوم بالخدمة فيها مراكز رعاية الطفل والمنتظر تعميم تلك المراكز بالقطر فتقل هذه النسبة تدريجيًّا كما يزداد تعداد السكان بنفس النسبة العكسية .

وقد أدخلت على المراكز المذكورة أعمال ساعدت على تحقيق هذه الأمنية الى حدٍّ كبير . إذ لا يخفى ان اللبن المجفف ومنع توالد الذباب وتحسين المسكن وتوفير الكساء كلها عوامل أساسية في الاقلال من الوفيات — فعن اللبن المجفف تقوم مراكز رعاية الطفل بتوزيعه على الأخص في أشهر الصيف منعاً من تلوث أغذية الطفل وقتئذ .

وفوق ذلك فان الوزارة توزع ٧ كيلو لبناً حليباً مغليًّا يوميًّا في كل مركز على الأمهات والأطفال الضعفاء من سوء التغذية فقلت مقاومتهم للأمراض . وقد أتت هـذه العمليـة بتحسن واضح من حيث الوزن والصحة العـامة إلاَّ أن الكمية المنصرفة يجب مضاعفتها تمشياً مع حالة الفقر المتفشية وهو ما وعدت الوزارة به .

ولما كان الملبس المناسب ضروري للأطفال لأنه يقيهم شر البرد ويمنع عنهم الالتهابات

الرئوية فان الوزارة توزع في بعض المناسبات السعيدة كأعياد حضرة صاحب الجلالة الملك وسمو الأميرة فريال بعضاً من هذا الكساء لمن يستحقونه . وهذا القدر يجب أن يزاد كثيراً حتى تتمكن المراكز من سد هذا النقص لطبقة الأطفال الفقيرة جداً ، عراة الأجسام خماص البطون .

وأما الكساح المنتشر بين الأطفال فيعالج بشتى الوسائل كالأشعة فوق البنفسجية . وقد أنشأت الوزارة بضع أجهزة لهذا الغرض على ان تعمم مستقبلا في جميع المراكز .

وتساهم مراكز رعاية الطفل في موضوع تحسين المسكن بالارشاد والنصيحة . والثابت ان عدم وجود المنافذ الكافية وازدحام المساكن المتلاصقة وضيق قاعاتها القذرة التي لا تتخللها أشعة الشمس بل وضوء النهار فضلاً عما يحيطها من سماد وبرك ، كل هذه أسباب تعرض الطفل الى شتى الأمراض المعدية المعروفة .

أما ناحية التحصن ضد الأمراض فان رعاية الأمومة والطفولة سائرة سيراً حسناً من حيث التطعيم ضد الجدري والتحصين ضد الدفتريا وغيرهما من الأمراض المعدية الأخرى كلما دعت الظروف .

وقد بلغ عدد من تطعم ضد الجدري في عام ١٩٤٤ — ٢٤٨٧٠ طفلاً .ومن تطعم ضد الدفتريا ٢٠٦٢٤ طفلاً . والمجهود لا بأس به وهو يساعد على منع انتشار الأوبئة.

وهناك مشاريع صحية اجتماعية تساعد على إخراج جيل سليم قوي هي محل عناية وزارة الصحة تتلخص فيما يلي : —

أولاً — ناحية الأم

١ — الاكثار من تعميم مراكز رعاية الأمومة والطفولة حتى تتمكن كل حامل من الحصول على داية مثقفة أو مساعدة مولدة لتوليدها .

٢ — العمل على امكان الحصول على مساعدة طبيب اخصائي للفحص وقت الحمل وتوجيه الحالة التي تتطلبها في الوضع والنفاس .

٣ — توفير أسرَّة للولادة بمراكز رعاية الطفل .

٤ — الاستعانة بمستشفى ولادة مجاور .

٥ — الاستعانة بالمعامل وأجهزة الأشعة وغير ذلك كلما اقتضت ظروف الحمل .

٦— اعطاء أغذية مناسبة للحوامل بالمصانع ومنحهن الاجازة الكافية قبل الولادة وبعدها

فالمطلوب الآن جيل لا يملأ مستشفيات ولا تفترسه أمراض ، بل جيل يقاوم المرض . جيل نشيط . جيل كامل من كل وجهة .

ثانياً — وهناك فوق ما ذكر وجهات أخرى اصلاحية لرعاية الطفل تتلخص فيما يلي : —
١ — مكاتب الكشف على الراغبين في الزواج . ٢ — مشاريع لتحسين صحة الأطفال الفقراء كالمصحات الوقائية . ٣ — انشاء مدارس للشواذ . ٤ — السعي في الاكثار من متنزهات الأطفال . ٥ — استصدار قوانين لحماية الأطفال كقانون سلب الولاية . ٦ — الاكثار من دور الحضانة بجوار المصانع . ٧ — انشاء المصايف المجانية على سواحل البحر في فصل الصيف ترحل اليها على دفعات الأطفال والأمهات من مترددات مراكز رعاية الطفل ممن هم أكثر حاجة اليها بطريق المجان وعلى نفقة الحكومة في الانتقال والاقامة .

ثالثاً — مشتملات مركز رعاية طفل حديث : يفضل القسم أن تقوم وزارة الصحة ببناء مراكز رعاية الطفل على نفقتها حتى تصبح كلها حكومية ومنشأة على النمط الصحي السليم

وفيما يلي بيان بوظائف مركز رعاية طفل حديث :

١ — طبيب أول درجة خامسة	٦ مساعدات مولدات زائرات
١ — طبيب ثان درجة سادسة	ساعي
١ — صيدلي درجة سادسة فرعية	بواب
١ — كاتبة درجة ثامنة فرعية	غسالة
٢ — مولدة درجة سابعة فرعية	٦ ممرضات

ويشترط ان يكون بكل مركز جهاز للاشعة فوق بنفسجية ومعارض للاطفال (أغذية ملابس حمامات — ... الخ) وغرفة محاضرات تحوي جهازاً سينمائياً لعرض الأفلام الثقافية وحديقة صغيرة للاطفال ويلحق بكل مركز حمامات ومغاسل للمترددات وأطفالهن .

رابعاً — رفع المستوى الثقافي بين المساعدات والدايات : تعني الوزارة الآن بهذه الناحية وهي تبحث موضوع تتبع مدارس التوليد والتمريض المختلفة بالوزارة الى معهد واحد على غرار المعهد الصحي لتخريج موظفات اشغل وظائف التوليد والتمريض المختلفة بأقسام الوزارة التي تعمل بها هذه الفئات وهي (الصحة القروية — الأمراض العقلية — المستشفيات رعاية الطفل — مستشفيات الحميات — صحة مصر — الأمراض الصدرية — الأمراض التناسلية — الرمد)

ووضع برنامج موحد شامل ولائحة لتنظيم الدراسة بالمعهد المقترح انشاؤه

٧ — ارسال مساعدات لخدمة النوافس في منازلهن بضع ساعات يومياً في الغسيل والطهي بدون أجر على حساب المركز (هو مفيد للمساعدات المنزلية)

٨ — الاحتفاظ بقائمة من الأمهات المترددات اللواتي فقدن أطفالهن ويرغبن في

الإرضاع بأجر ليتمكن الجمهور من الاستعانة بهن كمرضعات عند الحاجة

ثانياً : الطفل — لا تتوفر رعاية الطفل في أمة الا بتوفر الشروط الآتية أو قل الوصايا الأثنى عشرة أو قانون رعاية مطفل

١ — يجب أن يولد الطفل ولادة طبيعية خالياً من مرض وراثي

٢ — يجب أن يتوفر للطفل بيئة صالحة ووسط مرح وسرور

٣ — يجب أن يخصص للطفل جزء من ايراد والده ووالدته

٤ — يجب أن يعنى بالأم قبل الوضع وبعده من الوجهتين الطبية والاجتماعية

٥ — يجب أن تساعد الأم وتفضل على غيرها في العلاج في المستشفيات

٦ — يجب أن تكرس الأم عنايتها لطفلها لمدة ثلاث سنوات على الأقل

٧ — يشترط في غذاء الطفل أن يكون كافياً

٨ — يجب أن يوضع الطفل تحت ملاحظة طبية دورية

٩ — يجب أن تتوفر للاطفال دور كفالة لمن تضطر أمهاتهم أن تتركهم وحدهم حصة من اليوم، ذلك للاطفال الذين يقل عمرهم عن الثلاث سنوات

١٠ — يجب أن تتوفر ملاجىء لايواء الأطفال الذين يزيد سنهم عن الثلاث سنوات مدة مرض أمهاتهم أو فقد من يعولهم

١١ — يجب انشاء مدارس لتعليم الأمهات العناية بالأطفال، أو على الأقل يجب تدريس ذلك بالمدارس الحالية

١٢ — يجب العناية بالمراضع والتأكد من خلوهن من أمراض معدية أو أمراض أخرى تؤثر على الطفل أو على تربيته وان يكون لبنها موافقاً للطفل الرضيع وغير ذلك حتى يكفل للطفل الغذاء والصحة والراحة . وان لا يسمح لمرضعة أن ترضع طفلاً إلا بعد أخذ تصريح بذلك

ومن هذا يتضح أن أهم العوامل في انشاء جيل جديد سليم هو العناية بالعائلة والمنزل. فأساس سعادة الأمة هو سعادة العائلة ، واستتباب وسائل الراحة بالمنزل . وهذه الوصايا الاثني عشرة ليست كلها طبية بل بعضها اجتماعية . ومن هنا يستنتج أن أهم ما تعني به الأمم الراقية هو الناحية الاجتماعية . أما الناحية العلاجية كانشاء المستشفيات والعيادات الخارجية فطريقة ترقيع واسعاف لأطالة عمر يتضوره المرض أو الضعف . ونحن الآن لا نريد ترقيعاً بل نريد انتاجاً سليماً من الأساس . نريد صحة تامة ولا نريد أمراضاً تهدد كياننا وآلاماً تحرمنا لذة العمل والكد والحياة ونستعين على تحملها بالعقاقير والمستشفيات

ولا يخفى على حضراتكم ان رعاية الأمومة والطفولة تجارة رابحة فهي أنجع وسيلة لاخراج جيل سليم، ومتى صلح الأصل سهلت مقاومته للامراض، وقلت اصابته. فتتوافر الأيدي العاملة، ويكثر بالتالي الانتاج المثمر في شفاء المرضى وخصوصاً المصابين بأمراض مزمنة. وقد أثبتت المباحث الحديثة أن مسماع الطبيب ومشرط الجراح هما آخر وسيلة للعلاج، وأن هناك وسائل كثيرة ومشروعات صحية أخرى أهمها رعاية الأمومة والطفولة إذا أعطيت شيئاً من العناية منعت كثيراً من المرض والبؤس وجلبت للوطن خيراً هو في أشد الحاجة إليه منذ آلاف السنين

الدكتور حسن كمال

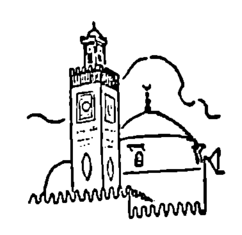
مدير قسم رعاية الامومة والطفولة

لا أعلم لماذا يفر الكتاب والخطباء من كلمة «الاشتراكية» ويعدلون الـ [illegible] عنها الى عبارة « العدالة الاجتماعية » ، مع أن الاشتراكية فيها المعنى والعدل الاجتماعي الحرفي لقوله تعالى « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » وعبارة العدالة الاجتماعية فضلا عن خطئها لغوياً ، اذ ليس في اللغة «عدالة» وانما فيها « عدل » ، فانها فوق ذلك تحمل من المعاني أوسع أنواع الاشتراك وأبعد المبادىء تطرفاً في المساواة.

معنى العدل في القانون معنى مطلق ، ولا يفرق بين درجاته على ما يفهمها التقدير العقلي الا كفاية الناس على ادراك ما تقتضيه اقامة العدل من الاعتبارات في مختلف الظروف . فالعدل في معناه الحقيقي مطلق، وفي تطبيقه نسبي . وما نأنس في تطبيق القوانين من معنى العدل ، لايتجاوز في الحقيقة المعنى المدرك من « الانصاف » ، ذلك بأن الانصاف خاص ، يفرق بين قيم الحقوق في كل حادث بعينه . أما « العدل » فعام مطلق ، بل ان فيه طعماً تجريدياً يدخله في دنيا البعديطبيعيات .

من حقنا أن نأخذ في مثل هذه الاحوال بما كان يقول كونفوشيوس حكيم الدين ، اذ انه درب تلاميذه ومريديه على ضبط المعنى اللفظي قبل المناقشة ، فكان يقول لهم «حددوا المصطلحات» . وان ما نرى من خلاف بين الناس وتنازع بين الاحزاب وتجالد بين الطبقات ، اكثره راجع الى التعميم الواسع في معنى المصطلحات ، وعدم تحديد معانيها

المحرر



المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق — ٢

الخطآن الرابع والخامس

تحقيق أمر « مسجد الخاتونية » الذي عناه ابن كنان ومسجد تربة الخاتون بالجبل » الذي ذكره ابن شداد

بعد أن فرغنا من اثبات أن مسجد الخاتونية البرانيـة لا موضع له بين زاوية الفرنثي والمدرسة المرشدية . وأنه ليس المدرسة الأتابكية . وحققنا أمر المدرسة الخاتونية البرانية التي أشار العلموي إلى أن سيباي كافل دمشق نقل رخامها إلى مدرسته بباب الجابيـة ، وقلنا انها كانت تقع بالشرف القبلي جنوبي بردي ولا علاقة لها بجبل الصالحية ، نتقدم الآن لتعريف بمسجد الخاتونيـة الذي نقل الأستاذ أسعد عن ابن كنان « إنه كان فيـه درس حديث في الأشهر الثلاثة وأن آخر من درس فيـه . القاضي حسن بن العدوى الصالحي » لأن هـذا المسجد كما سيتضح هو أيضاً غير هذه المعاهد جميعاً ولا علاقة له بها .

وكذلك سنحقق أمر مسجد تربة الخاتون بالجبل الذي ذكره ابن شداد وابن عبدالهادي وسنثبت أنه ليس المدرسة الآتابكية ولا المدرسة التي أشار إليها العلموي وإنما هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين الأيوبي .

* * *

نجد واجباً علينا ونحن ندرس مؤسسة أنشأتها خاتون أي سيدة في مدينة كدمشق بها كثير من المعاهد التي بنتها الخواتين أي السيدات والتي يسمى كل منها باسم الخاتونيـة أن نحدد ما يريد ابن كنان عند ذكره « مسجد الخاتونية »

والطريقة المثلى لذلك هي أن نتعقب ابن كنـان في جميع تضاعيف كتـابه « المروج السندسية » وأن نتأكد تماماً وبدون أدنى شك موقع وتاريخ « مسجد الخاتونيـة » الذي ذكره : —

---

(١) ظهر الجزء الاول من هذا البحث في مقتطف نوفبر الماضي

أولاً — يقول ابن كنان في ص ٢٨ من كتابه « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » مخطوط دار الكتب الملكية بالقاهرة (ومنه نسخة مصورة بالمجمع العلمي العربي بدمشق هي التي اعتمدنا عليها) جامع الخاتونية : « وفيه درس حديث في الأشهر الثلاثة وآخر من درس فيه القاضي حسن بن العدوى الصالحي »

ثانياً — ويقول في ص ٢٩ عند تعداده مساجد الصالحية. « مسجد في سوق شعيب ... ومسجد في زقاق الأسد في سوق شعيب ومسجد الشركسية . . . ومسجد عند مطهرة الخاتونية وآخر قبليه وآخر في حارة المقدم على الطريق السلطاني مقابل قناة العين .. الخ

ثالثاً — ويقول في ص ٣٠ عند ذكره مآذن الصالحية .

« قال ابن عبد الهادي في تاريخ الصالحية . . ومن مآذنها (أي الصالحية) . . (بالمدرسة) المرشدية واحدة و (بالمدرسة) الأتابكية واحدة . . . و (بالمدرسة) الماردانية واحدة . . وعند الخاتونية واحدة . . . انتهى كلامه أقول (أي ابن كنان يقول) والسليمية (أي جامع محي الدين) واحدة والموجود منها بعد الألف . . . الخاتونية والماردانية ... والأتابكية والمرشدية ... أدركتها . . الخ

رابعاً : ويقول بصحيفة ٧٥ من المخطوط « ... وأما العمائر الآن في الصالحية فمن حد الشكة الى الصالحية بها خمس خطب : المظفر ، والسليمية ، والحاجبية ، والخاتون ، والماردانية .. »

خامساً : ويقول في ص ٩٤ — ٩٥ عند افتخاره بالصالحية وبراعة أهلها في الصناعات والفنون بحيث لا يلحقهم فيها أحد :

« ... وقول الناس في المثل سابق الصالحية لا يلحق . لأن المجوب فيها كذلك ... فأما العلماء فالأجلاء كانت بها والحفاظ والصلحاء والعباد والرؤساء واصحاب الشرف . وفي الصناعة ان بجامع الخاتونية سدة مدهونة عمل رجل دهان من الصالحية فعجز أرباب هذه الحرفة عن أن يماثلوها ... وكذلك بقية الصناعات حتى المصارعين والبهلوانية والحلوانية والخطاطين وأصحاب الأصوات الجميلة حتى لقد سافر أحدهم الى مصر فسمعت صوته جارية فرمت بنفسها من الربع ... ومن قول الناس في المثل : سابق الصالحية لا يلحق لأن الجرب فيها كذلك . اه . ويستنتج من ذلك الحقائق التالية :

١ — ان مسجد الخاتونية كان به درس حديث في ثلاثة أشهر من السنة

٢ — انه يقع بالقرب من المدرسة الجهاركسية (المعروفة بالشركسية) ومن حارة المقدم

٣ — انه كانت به مأذنة في عهد ابن عبد الهادي واستمرت الى ما بعد سنة الف هجرية

٤ — انه كان أحد المساجد الجامعة الكبيرة بالصالحية وكانت به خطبة

٥ — انه كانت به سدة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هـذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها .

ولنبدأ الآن في دراسة هذه الحقائق لنصل الى التعريف الدقيق بمسجد الخاتونية الذي عناه ابن كنان فنقول :

أولاً : اثبات ان مسجد الخاتونية هذا هو مسجد تربة عصمة الدين خاتون المعروف بالمسجد الجديد .

١ — يقول النعيمي في باب الترب بالجزء الثاني من كتابه الدارس ص ٤٥٠ — ٤٥١ ما نصه في الفصل الخاص بالتربة الخاتونية :

« هي على نهر يزيد بصالحية دمشق قبلي المدرسة الجهاركسية وهي تربة عصمة الدين الخاتون بنت الأمير معين الدين تزوجت نور الدين ثم صلاح الدين (الأيوبي) وأوقفت المدرسة التي بدمشق للحنفية وقد مرت ترجمتها فيها والخانقاه التي عند جامع تنكز انشأتها سنة سبع وسبعين وخمسماية (٥٧٧ هـ) كما هو مكتوب على الشباك المطل على الطريق .

وقد وسع هـذه التربة وجعلها جامعاً يعرف الآن بالجامع الجديد وأقيمت فيه الجمعة الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسين العقيري التاجر وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي بن التدمري وذلك في شهور سنة تسع وسبعمائة (٧٠٩) غفر الله تعالى له ولهم آمين .

ثم أنشأ الخواجا أبو بكر بن العيني تربة له شمالي هذه (التربة) يسلك اليها من بابين أحدهما من الجامع المذكور وتجاههما ايوان بمحراب وأضافه الى الجامع المذكور، ثم أوقف عليها ولده شيخ الاسلام زين الدين عبد الرحمن بن العيني أوقافاً ورتب في الايوان المذكور مدرساً وعشرة من الفقهاء ووقتا في كل ليلة جمعة وشرط في المدرس والفقهاء أن يكونوا حنفية وأوقف كتبه عليها » اهـ كلام النعيمي .

ويقول العلموي في كتابه مختصر الدارس مخطوط المجمع العلمي العربي بدمشق في فصل التربة الخاتونية صحيفة ١٢٨ بعد أن يلخص ما ذكره النعيمي :

« ... ثم في سنة خمس وسبعين وتسعمائة (٩٧٥ هـ) ألهم الله تعالى عبده الصالح محمد ابن محمد المترح أن يوسع هذا الجامع فاجتهد في توسيعه من جهة الغرب ووسعه بقدر مرتين بعد أن كان ضيقاً فصار جامعاً واسعاً تصلى فيه الصلوات والعبادات والتلاوات آناء الليل وأطراف النهار وأزال الحائط الغربي وجعل في هذا الذي جدده محراباً ثانياً ورتب اماماً ووقف عليه وقفاً وأنفق عليه من ماله وساعده بعض أهل الخير تقبل الله منه ومن كل من يفعل الخير » اهـ .

٢ — يقول النعيمي أيضاً بباب المساجد بصحيفة ٥٦٠ ج ٢ . . عن ابن شداد و« مسجد تربة خاتون على نهر يزيد ».

فهنا يصرح ابن شداد بأن مسجد تربة الخاتون الذي نقله عنه ابن عبد الهادي بص ١٣٠ هو الواقع على نهر يزيد وهو قطعاً مسجد تربة عصمة الدين خاتون زوجة نور الدين الشهيد ومن بعده صلاح الدين المتوفاة سنة ٥٨١ هـ . وقد ظهر لنا بصفة مؤكدة انه كان يعرف باسم «مسجد تربة الخاتون» حتى عهد ابن شداد المتوفى سنة ٦٨٤ هـ. ثم وسع وجعل جامعاً كبيراً بخطابة وتقام فيه الجمعة في سنة ٧٠٩ هـ . والسبب في هذه العمارة كما نرى ما حدث فيه من التشعيث والتخريب بسبب ما أوقعه التتار وصاحب سيس من النهب في الصالحية في ٦٩٩هـ.

يقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٩٩ هـ مجلد ١٤ ص ٨ من كتابه البداية والنهاية. «وفي يوم الجمعة رابع عشر ربيع الآخر خطب لقازان على منبر دمشق بحضور المغول بالمقصورة ودعي له على السدة بعد الصلاة وقرئ عليها مرسوم بنيابة قبجق على الشام وذهب اليه الأعيان فهنئوه بذلك . . . وفي يوم السبت النصف من ربيع الآخر شرعت التتار وصاحب سيس في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية بها (أي بالصالحية لوجود دار حديث أخرى أشرفية بدمشق شرقي القلعة بالعصرونية) واحترق جامع التوبة بالعقيبة الخ». اه .

فبعد هذه العمارة التي جدد فيها المسجد ووسع وجعل جامعاً كبيراً بخطبة تقوم فيه الجمعة بدأ الناس يسمونه « الجامع الجديد » بجانب تسميته القديمة «مسجد الخاتون» . لذلك نجد ابن عبد الهادي يسميه الجامع الجديد ويذكره في كتابه بهذا الاسم فيقول في ص ١٥٩ : « فصل في ذكر المساجد المختصة : غالب مساجد الصالحية للحنابلة الا جامع الشبلية والجامع الجديد» الخ . و ص ١٥٥ : « المحلة الثانية والعشرون من محلات الصالحية :

حارة الدلامية وحمام المقدم : ..... المسجد السادس بالجامع الجديد» . ولكنه حين ينقل اسمه عن ابن شداد يسميه «مسجد تربة الخاتون» (ص ١٣٠) وقد علمنا فيما سبق أنه بعد هذه العمارة أنشئت تربة العيني وأضيفت إليه وجعل فيها الدرس والمكتبة ثم وسع الجامع بعد ذلك بقدر مرتين في سنة ٩٧٥ هـ . ولما كان ابن عبد الهادي قد ألف كتابه هذا في اواخر القرن التاسع الهجري وتوفي سنة ٩٠٩ أي قبل توسيع الجامع بحجمه الكبير بنحو ٦٦ سنة فقد ثبت لدينا أن هذه التسمية كانت معروفة وذائعة قبل عصر ابن عبد الهادي . فاذا أضفنا إلى ذلك أن النعيمي مؤرخ لاحق لابن عبد الهادي توفي سنة ٩٢٧ هـ وعرفنا أنه كان يعلم التسميتين للمسجد وأنه أشار إليه في باب المساجد ثم ترجم له في باب الترب في فصل

تربة عصمة الدين خاتون . وان اللوحة التذكارية المنقوش عليها اسم البانية وتاريخ انشاء التربة سنة ٥٧٧ ﻫ لا تزال موجودة في موضعها بالواجهة الشرقية للجامع كما شاهدها النعيمي . فلا يكون هناك إذن أي شك في أن مسجد الخاتونية الذي ذكره ابن كنان وكان به درس الحديث في الأشهر الثلاثة هو المسجد الجديد هذا وهو نفسه الذي يسميه ابن شداد « مسجد تربة الخاتون في كتاب المساجد بص ١٣٠ وموقعه جنوب الجهاركسية (المعروفة محلياً باسم الشركسية أو الجركسية) بحارة المقدم والدلامية قرب الطرف الشمالي للزقاق الآخذ من الجسر الأبيض إلى الجهاركسية .

ثانياً : يشير ابن كنان في ص ٢٩ عند ذكره مساجد الصالحية إلى مسجد الخاتونية في المنطقة الواقعة بين الجهاركسية وحارة المقدم .

وقد ثبت لدينا مما ذكرناه آنفاً أن مسجد الخاتونية هذا هو الجامع الجديد ولا يوجد في هذه المنطقة (بين الجهاركسية وحارة المقدم) مسجد آخر يمكن أن تنطبق عليه هذه التسمية سواه علاوة على أن اللوحتين التذكاريتين اللتين تثبت احداهما بناء تربة عصمة الدين خاتون سنة ٥٧٧ ﻫ وعمارة المسجد سنة ٧٠٩ ﻫ لا تزالان موجودتين احداهما بالواجهة الشرقية للحرم والثانية على عتب المدخل . ولا ندري لماذا حرص ابن كنان على عدم ذكر اسم الجامع الجديد مع ان المؤرخين الذين سبقوه من أمثال ابن عبد الهادي والنعيمي والعلموي قد عنوا بالاشارة إليه . والظاهر لنا أن هاتين التسميتين قد عاشت كل منهما مع الأخرى ولم يكتب لاحداهما الغلب فظلتا مشهورتين ومعروفتين حتى الوقت الحاضر . ودليلنا على ذلك ان أهل الصالحية يسمون هذا المسجد تارة مسجد الخاتون وأخرى بالمسجد الجديد .

واننا اطلعنا على كشف بيان الأماكن الأثرية في مدينة دمشق المصنفة وفقاً للقرار رقم ١٦٦ ل ر المؤرخ في ٧ تشرين الثاني (أي نوفمبر) سنة ١٩٣٣ فوجدنا به ما يلي :—
«الجوامع ... وجامع الخاتونية (بحي) الشركسية» أي ان دائرة أوقاف دمشق تأخذ حتى عصرنا هذا بالاسم القديم لهذا المسجد مع تسميته الشائعة المتداولة وهي « المسجد الجديد »

ثالثاً : ينقل ابن كنان عن ابن عبد الهادي ان مسجد الخاتونية هذا كانت له مأذنة ويقول ابن كنان ان هذه المأذنة استمرت الى ما بعد سنة الف هجرية .

ويستنتج من ذلك ان المأذنة التي يشير اليها كانت موجودة في أواخر القرن التاسع الهجري أي انها ترجع قطعاً الى عمارة سنة ٧٠٩ ﻫ لأن ابن عبد الهادي الذي روى هذا توفي سنة ٩٠٩ ﻫ أي قبل العمارة الكبرى الثانية التي حدثت سنة ٩٧٥ ﻫ لأن هذا المسجد كما ذكرنا مرّ في ثلاثة أدوار معمارية هامة :

الدور الأول : انشاؤه سنة ٥٧٧ هـ

الدور الثاني : اصلاحه وتوسيعه في سنة ٧٠٩ هـ

الدور الثالث : توسيعه في سنة ٩٧٥ هـ

وقد قلنا ان مسجد الخاتونية هو الجامع الجديد . ولو كان ابن كنان يقصد مسجداً آخر لما ذكر مساجد الخواتين الأخريات التي فيها مآذن بأسمائها المشهورة . وقد ذكر منها صراحة مسجد الماردانية وهو الى الجنوب عند الجسر الأبيض والأتابكية و لمرشدية بجادة بين المدارس إلى الغرب وليس في هذه المنطقة مساجد خواتين أخريات ذوات مآذن يمكن أن تضاف إلى هذه المساجد سوى مسجد تربة الخاتون العصمية (عصمة الدين خاتون) بالجامع الجديد .

رابعاً : إن هذا المسجد كان في عهد ابن كنان من المساجد الخمسة العظيمة الموجودة في المنطقة المحصورة «من حد السكة إلى الصالحيــة » والتي يكون منها خطبة . وهذه المساجد الخمس هي

جامع المظفر — أي جامع الحنابلة المعروف بجامع الجبل .

جامع السليمية — المعروف بجامع محي الدين ابن عربي .

جامع الحاجبية — وقد زالت عينه من الصالحية ولا أثر له الآن .

جامع الخاتون — وهو الجامع الجديد .

جامع الماردانية — وهو جامع المدرسة الماردانية المسمى بجامع الجسر الأبيض ولا تزال حتى الوقت الحاضر هذه الجوامع موجودة عدا جامع الحاجبية فقد قلنا إنه زالت عينه وكان موضعه مقابل حمام الحاجب جنوب غربي المدرسة العمرية. ولا يوجد في المنطقة المحصورة بين جامع الحنابلة من الشرق وشارع سكة المدارس من الغرب والجسر الأبيض من الجنوب جوامع أكبر من هــذه من حيث العظمة والاتساع وإن كانت المدرسة الماردانية مبنيــة على طراز المدارس لا على طراز المساجد الجامعة الكبيرة .

خامساً : ذكر ابن كنان في معرض تفاخره بالصالحية وعلمائها ورجالها وصناعاتها وفنونها أن مسجد الخاتونية هــذا كانت به سدة مدهونة بديعة الصناعة بحيث يعجز أرباب هــذه الحرفة عن أن يصنعوا مثلها أو يحاكوها .

ونقول نحن أن هذه السدة لا تزال موجودة بالجامع الجديد في مواجهة المحراب وهي مدهونة بالدهانات العجمية (على حد تسمية هذه الصناعة بدمشق) وهي وان كانت قد امحت أجزاء منها وبهتت ألوانها وحالت بهجتها فلا يزال بها أثر يبين عن دقة صناعة هــذا الفنان الصالحي (نسبة الى الصالحية) وتفوقه وعبقريته وليس في مساجد الخواتين جميعاً بالصالحية كلها مثل هذه السدة بدهاناتها وصناعتها . (له بقية) السيد محمد رجب

اللاّأدريـّة : Agnosticism

المصطلح الأعجمي من الأصل اللاطيني gnoscere أي يعرف to know

أطلق هـذا الاصطلاح أول الأمر ليكون وصـفاً لأية نظرية تنكر انه في مستطاع الانسان أن يحصل على المعرفة بالله . وبالرغم من أن اللاهوتيين يجمعون على منابذة اللاّأدرية ، فانهم لم يتحرروا من الميول المشابهة لما ترمي اليه النظرية . فالبحث في « كيف والى أي مدى يستطيع كائن محدود أن يعرف واجب الوجود » — معضلة من شأنها أن تثير صعاباً تنتهي الى نتائج فيها إثارة من طبيعةاللاأدرية . أما هذه الصعاب فلا يمكن أن تنفكّ عن الطريقة التي يعرض بها اللاهوت هذه المعضلة .

(١) أما باعتبارها نظرية تنابذ المذهب التقليدي : Traditionalism القائل بأن الانسان في حاجة الى وحي علوي ليصل الى المعرفة بوجود الله ، فان الـكنيسة الرومانية الـكاثوليكية تقضي بأنه يمكن الوصول الى تحقيق وجود الله ، من طريق النور الطبيعي المستمد من العقل الانساني . أما من حيث منابذتها لمذهب « الوجودية » Ontologism — القائل بأن الانسان فيه آبليـّة خاصة تمكنه من معرفة الله مباشرة — فانهـا تجنح الى التـكييف بعض الشيء . أما في نكرانها الميول التي تلازم مذهب الوحدية Pantheism ، فانها تقول بأنه من المستحيل على الانسان مستعيناً بالطبيعة وحدها أن ينفذ بفكره الى حقيقة وجود الله ، وان الادراك المباشر لطبيعة الله إنما يكون من نصيب المُنـعم عليهم في حياة أخرى ، وان الانسان مهما بلغ من معرفته بالله من طريق جهده العقلي ، فانه لن يصل الى معرفة الله في حقيقته .

(٢) إن الألوهية Theism النصرانية فيها إثارة من اللاّأدريـّة . فانها تقول ان الانسان له معرفة بالله ، ولـكنها تنكر ان الله والعالم شيء واحد . وهي لهذا تذهب إلى أن الله مستقل عن الـكون ، وان معرفة البشر به على دوام تقدمها ، لن تصل الى الـكمال .

(٣) يعبّـر « مَنْـسل » Mansel عن اللاّأدرية اللاهوتيـة فيالعصور القـديمة بأن الانسان بينا هو ملزم بالاعتقاد في لانهائية الله . فانه غير قادر على إدراكها . ومن هنا تنفصل العقيدة عن المعرفة ضرورة .

(٤) ان أحدث صور اللاأدرية في اللاهوت هي الصورة التي بشـر بها «رتشل» : Ritchel

وبعض أتباعه ، وتقوم على نظرية في المعرفة بنيت على بعض تفسيرات قال بها « كَنت » : Kant وعلى بعض أقوال قال بها « لوتزه » : Lotze وتقضي تلك النظرية بأن الانسان لا يعرف إلاّ الظاهرات . وبما أن الله ليس بظاهرة ، فالانسان لا يدركه . ولذا كان من طبيعة اللاهوت ألاّ يتعلق في بحوثه بالأسباب الفعّالة Causa efficiens ، بل يتعلق بالسبب الغائي : Causa finalis ، أي ان اللاهوت لا يعالج المعرفة بالله ، لا باعتباره موجوداً ، بل باعتباره « مثلاً خلاّباً » : Attractive Ideal ، يلزم الانسان ، من طريق ذاتي صرف ، الى الاعتراف به . فالله في ذاته من الأشياء المجهولة أي التي يستعصى على الانسان معرفتها حتى من طريق الوحي القدسي ، وان معرفة الانسان به إنما تقوم على تقدير ما يدركه من قيمة صفاته ليستعين بمعرفتها على التسامي أدبيًّا ودينيًّا .

بحث معجمي : في تاريخ الفلسفة واللاهوت

التَّسمُّح — Toleration

Formerly also "Tolleration" — L. toleratio (N-) tolerare, pp. toleratus = endure, tolerate.

(١) الاعتراف بحق الحكم الذاتي ، والاقتناع الشخصي في العقائد والعبادات وما يتعلق بها (٢) ما تمنح السلطات الحاكمة في دولة من الحرية الفردية ، بحيث يتسنى للفرد أن يعلن عن معتقده وآرائه الدينية ويدافع عنها وينشر تعاليمها . ويعبد ما يشاء بالطريقة التي يختارها ، وفي المكان الذي يرضيه ، ما لم يكن في عمله اعتداء أو اجحاف بحقوق الغير ، أو نقض للقوانين التي تحمي الاخلاق والآداب والنظام العام ، أو أمان السلطات الحاكمة : (٣) اعتراف الدولة بالحق الذي يباشره الفرد في التمتع بما تجيزه الشرائع والقوانين والامتيازات الاجتماعية ، من غير اعتبار للفوارق الدينية

Quot., 1780-Burke-Corr. (1844) II. 369 : I have been a steady friend, since I came to the use of reason, to the cause of religious toleration.

1849-Macaulay : Hist. Eng. VI ii 9 : Locke contended that the church which taught men not to keep faith with heretics, had no claim to toleration.

الجرابيات
ونشوء الغدد الثديية

MARSUPIALIA.
and the Development of the Mammary Glands.

Etym., (L. marspium = a pouch.) and in Gr. marsipion, also written **marsippion**, marsupion, dim. of marsipos, marsippos, marsupos = a pouch, bag.) -

والاصطلاح الأعجمي في اللاّطينية : marsupium أي كيس أو جراب ، وأصله رومي (يوناني) . وعن معجم الحيوان للمعلوف ص ١٥٨ :

« ذات الجراب أو الكيس ، وهي أدنى من رتب الحيوانات اللّبونة » اهـ . وفي هذه العبارة اضطراب ، سببه في الظاهر تقديم لفظ على لفظ . وتقديم هذا اللفظ يجعل اضطراب العبارة يتناول المعنى العلمي ، فالجرابيات من الحيوانات الثديية (اللبونة على حد قوله) فقوله « أدنى من رتب الحيوانات اللّبونة » يخرجها من الثدييات ، ولعلّ العبارة هي : « وهي من أدنى رتب الحيوانات اللبونة » . وبهذا تستقيم العبارة . وعن معجم شرف ص ٤٧٩ :

marsupial : (١) مكيَّس ، كيسيّ (٢) حيوان ثديي ذو كيس أو جيب من رتبة « المرْسوپْياليا » . marsupiate : كيسيّ ، ذو جيب في أسفل بدنه يحمل فيه صغاره » . اهـ .

وأردت أن أرجح بين « كيس وجيب وجراب » ، فوضح لي أن لفظ « جراب » أنسب هذه الألفاظ . فقد جاء في القاموس المحيط (٢٤٨ : ٢) . والكيس (بالكسر) للدراهم لأنه يجمعها (ج) أكياس وكِيَسَة . اهـ . وهذه العبارة تدل على أن الكيس خصّص للدراهم ، ولا علاقة له بصفة عضوية تكون في الأحياء . ولا مانع لغويًّا من نقل معناه الحقيقي الى معنى عضوي ، ولكن يحسن أن لا يكون ذلك إلاّ لضرورة ولا ضرورة هنا . لأن الجراب فيه هذا المعنى .

جاء في القاموس (ص ٤٥ : ١) : والجراب ولا يفتح ، أو لغيَّة فيما حكاه عياض ، المزْوَد أو الوعاء (ج) جرُب وأجْرِبة وجرْب ، ووعاء الخصيتين » . اهـ . فالجراب

أنسب اللفظين ، ليؤخذ منه اسم يدل على هذه القبيلة [١] .

وقد أطلق المواليديون أسماء أخرى تشمل هذه القبيلة : اللاَّمـشيـميَّـات [٢] ، وذوات الرحِـمَـين [٣] ، والأوسطيَّـات [٤] .

***

الجرابيات قبيلة من الثَّـديـيَّـات [٥] يشملها شُـعَـيْـب [٦] سمي ذوات الرحمين، ويشير الى الثدييات اللامشيميَّـة التي يكون لها جراب أو جانبـان تربي فيه الصغار أول عهدها بالحياة وليس لها مشيمة تنمو وتسقط مع الجنين ، ومدة الحَـمْـل قصيرة ، فتولد الأجنة صغيرة الحجم جداً ، ناقصة التكوين ، فقدة الحياة ، فتـنقـل بمجرد وضعهـا إلى الجـانبـان أو الجراب عند بطن الأم حيث تكون الحلمات ، فتلصق أفواهها بهـا لصقاً شديداً ، وتظل كذلك حتى يكتمل نموها بالرضاعة . فاذا بلغت الأجنة من النمو مبلغاً مّـا ، أمكنها في تلك الحال أن تترك الحـلـمـات من أفواهها ، ثم تعود اليها وامتصاصها ، وكثيراً ما تعود الصغار الى الجـانبـان بعد أن تكون قد تركته ودرجت إلى الأرض ، أو تتشبث بأجزاء من أمهاتها لتحملها معها حيث تذهب .

ويحسن بنا هنـا أن ننقل رأي العلامة « درون » في نشوء الغدد الثديية ، فإن هـذا موضع إثباته ، فقد جاء في الفصل السَّـابع من كتاب « أصل الأنواع » [٧] ما يلي :

« إن الغُـدَد الثديية صفة عامة في الثدييات . وهي فوق ذلك صفة ضرورية لبقائهـا . ولهذا لا نشك في أنها ضربت في التطور والنشوء منذ أزمان موغلة في القدم، ولا نستطيع أن نكتنه الآن بطريقة عملية تلك السبل التي درجت فيهـا الغدد الثديية ، واتخذتها للنشوء سبيلا » .

« يتساءل مستر ميوارت » : [٨] — هل في مستطاعنا أن نلاحظ في نواحي الطبيعة حالة نثبت بها أن مولوداً من نتاج أي نوع من الأنواع ، قد نجا من الهلاك بأن ارتضع بالمصادفة بضع قطرات من سائل مـغَـذٍّ ، أفرزته غدة تضخمت تحت ظاهر بشرة الأم اتفاقاً ؟ وإذا

....

(١) Order (٢) Implacentalia (٣) Didelphia (٤) Metatheria

(٥) Mammalia (٦) Sub-class

(٧) The Origin of Species : by means of Natural Selection or The Reservation o. Favoured Reces in the Struggle for Life. London, ed. 1911.

(٨) Ms. Mivart احد الذين انتقدوا مذهب درون في الانتخاب الطبيعي

فرضنا حدوث ذلك ، فأية فرصة أو سبب وجد حينذاك ، فساعد على الاحتفاظ بمثل هـذا التغاير الجديد » ؟

« إنّ هذا السؤال لم يوضح بطريقة قوية . فإن الاعتقاد السائد عند زعماء النشوئيين Evolutionists : أن الأثداء قد تأصلت عند أول نشوئها عن جراب عضوي Marsupium ، وإذا صحَّ ذلك تحقق عندنا أن الغدد الثديية قد تكونت بداءة في داخل ذلك الجراب . فالسمكة المسماة « جواد البحر » Hippocapmus : ينقف بيضها عن صغار يتولاها الكبار بالرباوة داخل جراب من هـذا الصنف . ويعتقد مستر « لوكوود » Lockwood ، وهو من أشهر مواليديي أمريكا ، اعتماداً على ما شاهده من نماء صغار هـذا السمك ، أنها تغتذي بإفرازات غدد تكون تحت ظاهر البشرة في ذلك الجراب . فاذا رجعنا النظر كرة إلى اسلاف الثدييات وبخاصة في تلك العصور التي لم تكن قد بلغت فيهـا من التغاير مبلغاً حقيقاً بأن يحملنا على أن نصرف عليهـا اسم « الثدييات » فان لنـا أن نرجح على الأقل ، أن تكون صغارها قد غذيت بطريقة مشابهة لهذه . وفي تلك الحال تعقب الأفراد التي تفرز من السائل ما هو أوفر غذاءً ، بحيث يكون مقارباً لتركيب اللبن الحقيقي إلى حدٍّ ما، وعلى مرّ الأزمان. عدداً من الأعقاب توافر غذاؤها ، أزيد مما تعقب الأفراد التي تفرز من السائل ما قلَّت فيه مادة الغذاء . ومن هنا نساق إلى القول بأن تلك الغدد الجلدية ، تتجانس والغدد الثديية تمام التجانس . ولا بد من أن تكون قد تطورت أوصافها . أو زادت منفعتها ، وعظم أثرها . وتلك حال تتفق وما ذكرنا من ناموس التخصيص Specialisation بأن تكون بعض الغـدد الموجودة في جزء خاص من ذلك الجراب ، قد أصبحت أكثر نماءً وتطوراً وتهذيباً عن بقيتها ، ومن ثمَّ تكونت ثُـديـًا صدريَّة ، كانت في مبدإ الأمر بغير حَـلَـمَـات ، كما نشاهد ذلك في « النُـفـطير » Ornithorhynchus [1] وهو أحط طبقات الثدييات الحيـة في عصرنا هذا . »

« أما الحكم في أي البواعث أو الأسباب كان من أثره أن يخصص بعض الغدد للقيام بوظيفة في جزء مـَّا من البدن دون الآخر ، فذلك ما لا أحاول أن أقضي فيه بحكم ، أنتأثير التَّـعاوُض في النماء أعزوه ، أم لمؤثرات الاستعمال ، أم لفعل الانتخاب الطبيعي ؟ » .

« ولا مشاحة في أن تأصل الغدد الثديية قد يصبح معدوم النفع عاطل الفائدة ، وماكان

---

(١) حيوان ثديي يبوض له منقار البط ، وأقدامه مفشاة كأقدام طير الماء . وهو الحيوان الثديي الوحيد الذي يلقي بيضاً كالطير والزواحف ويرضع صغاره .

للانتخاب الطبيعي أن يبلغ منه بأثر ، اذا لم يكن في صغار الحيوانات من الاستعداد الفطري ما يسوقها الى الانتفاع بما تفرز الغدد من السائل المغذي . واست أجد صعوبات في بحث الدوافع التي ألجأت ولائد الثدييات الى ارتضاع ثدي أمهاتها، تفوق الصعاب التي تعترضها إذا ما أمعنا في بحث ذلك المؤثر الخفي الذي يدفع الفرخ الى كسر قيض[1] البيضة بأن يمسها مساً لطيفاً بطرف منقاره المهيأ كل التهيئة للقيام بهذه الوظيفة ، أو كيف ان الفرخ بعد أن تنقف عنه البيضة ببضع ساعات ، تراه قد فقه طريقة الالتقاط بمنقاره ؟ وأرى أن أقرب فكرة توصلنا الى حل هذه المعضلة تنحصر في القول بأن هذه العادة قد اكتسبت بالتجربة بداءة ذي بدءٍ منذ عصور موغلة في القدم ، ومن ثمت انتقلت العادة من الأسلاف الى الأخلاف منذ أزمان متطاولة » .

« ويقال إن صغار الجرابيات مثل « الكنغر » Cangaro : لا ترضع ثديَّ أمهاتها امتصاصاً ، بل تكتفي بأن تثبت أفواهها في حلمة الثدي ، في حين تكون الأم قادرة على أن تصبّ فرز ثديها صبّاً في فم رضيعها ، لأنه يكون في ذلك الطور ناقص التكوين ، فاقد الحيلة »

ويلاحظ مستر «ميوارت» : أنه إذا عدمت الولائد وسيلة تزدرد بها طعامها . فانها لا محالة تستنكر اذ ذاك أن يجري شيء من اللبن في الرُغامَى (قصبة الهواء) التي تتنفس منها. غير أننا نعثر مع البحث على وسيلة عامة تحل محل الوسيلة الخاصة ، وتقوم مقامها . فإن الحلقوم Larynx يكون في مثل تلك الحال ذا استطالة ، حتى أنه ليستقيم في امتداده الى منتهى الحد الظاهر من قناة الأنف ، وبذلك لا يعوق الهواء عن الوصول الى الرئة عند الرضاعة. ذلك في حين أن اللبن يندفق من غير أن يحدث أي ضرر بالرضيع، مارّاً بجانبي الحلقوم على استطالته ، ومن ثمت يبلغ الى فُوَّهة المريء Gull أي مجرى الغذاء والماء .

« ويتساءل بعد ذلك مستر "ميوارت" : كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي أن يزيل من الكنغر البالغ ، بل ومن الثدييات كافة ، على اعتبارها متسلسلة عن حلقة قديمة من الجرابيات ذلك التركيب الساذج على بعده عن أن يحدث ضرراً مّا » .

« وندفع هذا الاعتراض بأن الصوت ، وهو أداة ذات شأن كبير في حياة الثدييات ، قد يصعب استخدامه بحرية تامة ، ما دام الحلقوم ممتداً إلى مستوى قناة الأنف . ولقد ذكر الأستاذ « فلاوَر » أن هذا التركيب ، لا بد من أن ينتابه بعض المؤثرات ، وبخاصة في الحيوانات التي تغتذي بمواد فيها تماسك وصلابة



الفيتامين والهرمون

او صفحة من الاشتراكية التعاونية في الأبدان الحية

بحث الهرمونات والفيتامينات فتح جديد من فتوحات الطب لا تزال معارفنا فيه مهوّشة ناقصة والكشوف فيه مستمرّة والآمال عليه معقودة .

هو بحث يتصل بسر الحياة الخلوية وتطور الأحياء النباتية والحيوانية واتزان وانسجام أعمالها ، فهو إذاً بحث يجمع الفلسفة الى الطب العملي السريري . يقول براسلس إن في جسم الانسان صيدلية خفية وطبيباً متوارياً عن العيون يصنع الأدوية ويصفها ويستعملها بحسب ما تقتضي الحال. ولو لم يخلق الله تلك الصيدلية وهذا الطبيب، لما أجدت مساعي جميع الأطباء معاً ولعجز أي مخلوق على البسيطة عن الحياة . فهذه الصيدلية العجيبة هي الموضوع المتشعب المتصل بالحياة وبمستقبل الطب الذي سأحاول أن استعرض أهمية دراسته واستقصائه .

الهرمونات والفيتامينات أجسام لها في البدن أعظمُ الأثر رغم وجودها بكميات ضئيلة فيه . وقد كان تفريق هذين الصنفين وليد الظروف التي كشف بها عن كل منها ، فقد فتش الاحيائيون عن المواد الضرورية لدوام الحياة فتوصلوا لكشف الفيتامينات ومن جهة أخرى فكر الغرائزيون « الفيزيولوجيون » في دراسة وظائف الغدد الصم ، فوصلوا الى الهرمونات التي تنظم المبادلات الحيوية في البدن . وقد قال بفكرة القرابة بين هذين الصنفين هُبْكِنز . فذكر ان هناك هرمونات خارجية الفيتامينات وأخرى داخليتها .

فما هو الهرمون وما هو الفيتامين ؟ الفيتامينات مواد ضرورية للبدن لضمان نموه ولاحتفاظ النسج والأعضاء بنشاطها الطبيعي والبدن عاجز عن صنع هذه المواد بنفسه، فلابدّ له من استيرادها من المحيط الخارجي، وبخاصة من المملكة النباتية الغنية بها.

أما الهرمونات فهي مواد ضرورية أيضاً لتضمن قيام كل من الأعضاء بوظائفها وليقوم توازن وانسجام بين هذه الوظائف ، يصنعها البدن ويقوم بذلك غالباً الغدد الصم . فالصفة الجامعة بين هذين الصنفين انها تؤثر بمقادير ضئيلة جداً، وانها ضرورية لايستغنى البدن عنها وفقدانها يعرضه لأمراض الحرمان من الفيتامينات أو أعراض نقص الوظيفة في الهرمونات، وتشفي جميع هذه العوارض بادخال هذه المواد في البدن المحروم منها . يقال للتفريق بين الفيتامينات والهرمونات أن مصدر الأولى أبدان الحيوانات ، بينما يعتمد الحيوان على ماتصنعه

النباتات من الثانية ليضمن حاجته منها . ان هذا الفارق غير موجود . فبعض الهرمونات توجد في المملكة النباتية كالجرابين ، الهرمون النسائي الثابت وجوده في أنواع من الفحم الحجري « Hanille, lignite, Tourbe » كما أمكن تحضير اللوتثين وهو هرمون من سترول نباتي Stigmasterol وبالمقابل فان لبعض الفيتامينات مصادر حيوانية كالحليب والزبدة والشحوم الحيوانية وكبد السمك . على اننا يجب أن نذكر بأن هذه الحيوانات اختزنت كميات كبيرة من هذه الفيتامينات من النباتات التي تتغذى بها . ثم ان بعض الفيتامينات هي هرمونات بالنسبة لبعض الحيوانات وفيتامينات بالنسبة للآخرين . فالفأر والجام تصنع في أبدانها الفيتامين فهو بالنسبة لها هورمون بينما هو فيتامين بالنسبة للآخرين .

أما الفوارق الأخرى التي يقال بوجودها بين الفيتامينات والهرمونات فلا أساس لها أيضاً . فقد قيل بأن الهرمونات تحدث تسمماً وعوارض خطرة في البدن إذا دخلت اليه بمقادير زائدة، ولا يحدث شيء من ذلك ، ولو دخل الفيتامين بمقادير كبيرة . وعلة هذا الفارق طريقة دخول أو تحضير هذه المواد الضرورية التي لا غنى للبدن عنها . فليس للفيتامينات مقادير سمية لأن الجسم الحيواني يعتمد على الوارد اليه مع الغذاء فيضطر اذا دخلت الى أنبوب الهضم كمية كبيرة من الفيتامين أن يدخرها البدن ليستعملها أيام الحرمان بينما لا يصنع البدن من الهرمونات إلاّ بقدر الحاجة اليها . وما سبب التسمم المعروف عند اعطاء كميات زائدة من فيتامين D إلاّ أن هذا الفيتامين هو هرمون أيضاً . فان البدن الانساني قادر على تركيبه في سترول الجلد بمواجهة أشعة الشمس أو يكون سبب التسمم فيه أحياناً المحضرات المركبة لهذا الفيتامين .

ثم ان الهرمونات تفسد بتأثير العصارات الهاضمة بينما الطريق الطبيعي لأخذ الفيتامين هو أنبوب الهضم . فالفيتامينات والهرمونات إذاً أجسام تؤثر بكمياتها الضئيلة تأثيراً واحداً غايته حفظ توازن الوظائف العضوية المختلفة .

إن عمل الفيتامينات والهرمونات في داخل البدن وآثارها فيه. لوحة بديعة تمثل الحياة في مدها وجزرها، في ليلها ونهارها، في حياتها وموتها. فهذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الاثر تتضاد وتتساند بعضها مع بعض في سبيل غاية واحدة هي إطراد النمو وإبقاء الجنس وحفظ الشخص ولها الأثر الكبير في نقل الصفات الخلقية والنفسانية والسيطرة على الأمزجة .

والواقع أن الجزء الفرد من الجسم الحيواني وهو كلّ خلية من خلاياه يعيش على حساب طوائف من المجهودات يقوم بها آلاف بل ملايين من الخلايا الأخرى. فالجسم الحيواني جيش لجب من الخلايا في كل منها حركة دائمة لا تقف ولا تكل . والحياة هدم وبناء وأخذ وعطاء وصعود وهبوط في صلب هذه الخلايا . ولا تقف هذه الحركة المستمرة إلاّ بوقوف الحياة

وانطفاء شعلتها . والخلايا تعجز عن القيام بأعباء هذه الأعمال الجسام بغير معونة هذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر في تسهيل التغذية والتنفس الخلويين . فقوام حياة الخلية إذاً وبالأحرى بقاء الحياة الحيوانية مدين إلى وجود القدر الكافي من هذه المواد الواردة مع الغذاء أو التي تصنعها خلايا أخرى في البدن . فالحياة في البدن اشتراكية تعاونية منظمة يتأثر كل فرد منها . أي كل خلية من اضطراب عمل أو حياة الآخرين .

تقسم حياة الانسان أقساماً ثلاثة : عضوية وحيوانية وفكرية . والفكر البشري المبدع عاجز عن إقامة حدود صريحة بين أشكال الحياة الثلاث ، فالاستقلال لاحقيقة له في الحياة، بل ان الصلات بين الأعضاء والوظائف المختلفة المظاهر صميمي وثيق .

وهذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر وهي التي تكفل تنظيم حيوية البدن ونشاط وظائفه العديدة، تتأثر وتؤثر في الجملة النباتية وأعصابها المتشعبة في جميع انحاء الجسم المسماة بأعصاب الحياة لخطورة العمل الموكول إليها . تتأثر وتؤثر هذه الجملة النباتية التي لم يعرف العلم والعلماء حتى الآن إلاَّ طرفاً يسيراً عن اعمالها المعقدة المتشابكة المتضاربة المظاهر ، تتسلط هذه المواد الضئيلة الكمية العظيمة الأثر على أعمال هذه الجملة وتتأثر منها أيضاً . ويتحكم هذا المجموع غدد صم هرمونات وفيتامينات جملة نباتية في بناء الجسم البشري وإطراد نموه وحسن تغذيته ودفاعه ودوام حياته وعلاقاته الجنسية وبقاء نوعه وتراثه إلى أولاده وأحفاده فهو يحفظ الفرد ، ويعمل على حفظ الجنس أيضاً .

قد يتبادر للفكر أن هذه الوظائف المختلفة المتشعبة لا يمكن أن تنتظم إلاَّ بتخصص الأعضاء أو الخلايا وتفرغها للعمل في سبيل ذلك . لقد عمد الانسان في سبيل زيادة الانتاج وتحسينه إلى التخصص والتفرغ لأعمال محدودة ليتمكن من انتاج أكبر قدر ممكن بأقل جهد مستطاع ، وقد توفق إلى ذلك بمعونة الآلة التي خلقها فعبدها وهذا هو مبعث فخار مدنيتنا ، أما الطبيعة ، والحياة صفحة من صفحاتها ، فانها تسخر من ذلك . فليس للقوانين الرياضية ولا لقواعد الهندسة وجود فيها . فالخط المستقيم والخطوط المتوازية والتناظر وما الى ذلك، كلها من خلق الانسان الذي يريد أن يقيم مقاييسه هذه طريقة لفهم أسرار الحياة . وقد اعتاد الفكر الانساني الدقة والضبط في الرياضيات وأعجبه ذلك ، فعجز عن استقصاء الحياة وفهم أسرارها إذ حاول أن يطبق عليها قواعد علومه التي ابتدعها ومقاييسه التي ظن أنها صالحة لكل شيء .

يقوم على تنظيم الحياة في الأبدان الحيوانية عوامل تتضارب أو تتساند ، ولكنها تصل في النهاية إلى بغيتها الأساسية فتضادها فيه تعاضد ، وعداؤها فيه صداقة وهدفها واحد هو الابقاء على الفرد والدفاع والحفاظ على الجنس .

فتنظيم سكر الدم وثباته يعتمد على الوارد الغذائي . ومولد السكر الكبدي Glycogène

والعضلي ثم استهلاك السكر بتأثير الأنسولين البانكرآس الذي يعاكسه الادرينالين الكظري surrénale وينشط المفرز البانكرآسي النخامة Hypoplyse التي تنشط أيضاً الكظر ويساند الكظر الدرق thyroide ويثبط الجميع النخامة أيضاً. فهكذا نرى في البدن أخذ وعطاء زيادة ونقصان وتضارب وتساند وتثبيط وتنشيط والغاية من جميع ذلك جعل السكر الدموي ثابتاً وهو ثابت عند الشخص الصحيح رغم اختلاف الوارد واختلاف الاستهلاك .

كذلك يعمل التيروكسين ضد الفيتامين A والفيتامين C بينما يتساند الأنسولين مع الفيتامين B و C على استقلاب ماءات الفحم ، يساعد الفيتامين B_2 والفيتامين A مفرز النخامة ليتم نمو الجسم الانساني بينما يعمل الفيتامين A كمثبط لافراز الهورمون النخامي المنشط للدرق ، وينشط الفيتامين C افراز الهرمون القشري للكظر وهذا يؤثر بدوره مثبطاً للدرق أيضاً .

تقع الأعضاء التي تشرف على هذا التنظيم البديع المعقد في مواضع بعيد بعضها عن بعض وبعيدة في مواقعها التشريحية عن الأعضاء والوظائف التي تؤثر بها. فالنخامة في قاع القحف تتسلط على نمو الهيكل العظمي ، ونقص العظام moelle osseuse يتسلط على كريات الدم الحمر ونظائر الدرق para-thyroïde خلف الرغامي على تكلس العظام والفيتامين B في قشور الحبوب التي نهملها والفيتامين A في الاقسام الملونة من النباتات التي نقتطعها، جميعها لها الأثر الكبير في نمو الجسم الانساني .

فلا تصنيف ولا مراتب في المواضع ولا تناسب بين أهمية العضو أو حجمه والعمل الموكول اليه ، ولا طبقات ولا امتيازات بين الأعضاء ولا الخلايا . فان القشر والنفاية والخلية الصغيرة من الجسم الحي والخميرة الحقيرة في التراب أو الهواء ، كلها ضرورية وكلها سواسية أمام العمل الذي تسعى جميعها الى أدائه فلا سيد ولا مسود . ولكنها الحياة تتطلب أن يعمل كل في سبيل نفسه وفي سبيل المجموع لبقاء الحياة على وجه البسيطة .

ومن المؤكد أنه لو عهد الى الانسان صنع الجسم البشري وبنائه ، فان فكرته الهندسية تقضي بأن يجمع الوظائف المتشابهة فيصنفها في جهات مختصة علوية وسفلية. أما الحياة فانها تبعثر أعمالها وتجعلها متضاربة التأثير . فمفرز يحرض، وآخر راض لئلا يستأثر البعض بالكل . فاذا تجاوز مفرز الحدود المرسومة ، قام غيره يعدل أثره . وان قصر قام من ينوب عنه أو يسانده وهي تعمل جميعاً عملا تعاونياً اشتراكياً في سبيل الخير العام . تلك هي الديمقراطية المثالية. وتلك هي روح التعاون الوثيق الكامل في سبيل الأبقاء على الحياة .

واذا تتبعنا سيرة المدنية التي نفاخر بها أمماً بشرية دارسة أو أمماً حيوانية عجماً لاحظنا جلياً خطل الرأي البشري في السعي للتحرر من الطبيعة. إذ ينسى الانسان أبداً أنه خلق من

خلائقها تتمثل به صفحة من صفحات الحياة التي يعج بها هذا الكون. فقد فكر الغرائزيون بأن قيمة الغذاء تنحصر في ما يولده من قدرة وزعموا أن نظريات الاحتراق في آلات البشر الميكانيكية يمكن تطبيقها على أعمال الجسم الحي فشبهوا ما يحدث في أنبوب الهضم من أعمال كيماوية بما يشاهد في أنابيب التجربة في المخابر. ثم انتشر في حينه الذعر من الجراثيم بعد أن كشف باستور عنها. فقال تلاميذه بأن الغذاء الصحيح هو الغذاء العقيم النقي كيماويًّا فانتشرت صناعة الأطعمة المحفوظة وانتشر استعمال الخبز الأبيض والحبوب المقشورة والسكر الأبيض النقي والأثمار المطبوخة، وأهملت الخضر والفواكه لأنها لا تولد في أنابيب التجربة كميات كبيرة من الحرور. فكان من نتيجة هذا التكلف والتفنن في الغذاء أن ظهرت أمراض الحرمان من الفيتامينات التي لم تكن معروفة قبل ذلك داء الحفر scorbut ، البلاغرا ، البريبري . . اه . وكثرت معها حوادث الداء السكري وعسرات الهضم المختلفة بسبب الاقبال الشديد على استهلاك ماءات الفحم وقود الآلة الانسية، وانتشر الرخيطس وعوارض توقف النمو والدنف كل ذلك بسبب اضطراب التوازن الغذائي، فان الذي أودع الروح في الجسد جعل النشاء في لب الحبوب والفيتامينات الضرورية في قشورها وايست الحياة الا تبادل بين المملكتين الحيوانية والنباتية. فالانسان عاجز عن أن يتحرر من عوزه الى أصغر الأحياء وأحقرها الجراثيم والخمائر. وهو عاجز عن التحرر من حاجة النبات. وقد قيل أن لا حياة في مكان لا ينبت فيه العشب.

فلولا طحالب البحار لما قدرت أسماك المحيطات أن تختزن في أكبادها فيتامينات A و B ولولا هذه الفيتامينات المختزنة في أكباد الحوت، لما تيسرت الحياة طويلا لسكان المناطق الباردة الشمالية المحرومة من نور الشمس، ينبوع القدرة والحياة في عالمنا الأرضي.

ولم يعرف سكان المناطق القطبية الرخيطس إلا بعد أن استبدلوا لحوم الأسماك وزيوتها غذاءهم الطبيعي الذي كانوا يعتمدون عليه عندما كانوا بعيدين عن العمران، بالمقددات والأطعمة المحفوظة التي حملتها اليهم المدنية مع شرورها ومفاسدها ومباهجها أيضاً.

وقد اضطرت آلة المدنيـة الانسان للسعي في الليل والنهـار بكثر من العمل والسموم المخدرة الكحول والتبغ ويقل من الغـذاء الصحي الذي يتطلب وقتاً لتحضيره ومضغه وهضمه مندفعاً في هذا التيار الجارف تيار المزاحمة والحسد والتنافس، فعرف القرن العشرون أمراضاً لم تعهد من قبل. فان انسان اليوم في حالة تعبئة دائمة وسلم مسلح ، أعصابه متوترة مستعدة دائماً لكل مفاجأة ، فكان من ذلك فرط التوتر الشرياني بسبب افراز الادرينالين المستمر. فقد كان الانسان القديم اذا تعرّض لخطر فأفرز كظره هـذا الهرمون الضروري لتعبئة قوى البدن على وجه السرعة ، تنقبض عروق الجلد لتمنع نزف الدم اذا جرح، ويرتفع سكر الدم لتجد العضـلات كفايتها منه عند الحركة ، وينشط القلب ليحتمل عبء العمل

المقبل عليه ، فتتعدل السموم العضلية الحادثة بعد التعب ويزول هذا التوتر العصبي المؤقت ، بعد أن يهاجم الانسان خصمه فيصرعه أو يتفاداه . أما رجل المدنية الحاضرة فحياته كلها مفاجآت وكفاح وتعبئة مستمرة لا سبيل الى تخفيف حدتها كالمرجل يغلي ولا سدادة للأمان. فان قيام الرجل الابتدائي بالعمل بعد الاستعداد له يفرج الأزمة ويزيل التوتر ، وتقضي حياتنا المدنية أن يكظم الانسان غيظه وفي ذلك ارهاق للأعصاب يتعرض المرء بسببه الى فرط التوتر المستمر أو الاشتدادي وعواقبه الخطرة . أو الى عسرات الهضم باضطراب المفرز المعدي لاهمال الراحة والتلذذ بالطعام وللاصابة بقرحات المعدة الناشئة عنها. كما وقد انتشر السل والسرطان والآفات العصبية النفسانية أو بالحمات الراشحة Virus filtrsutes انتشاراً يهدد المدنية الحاضرة التي نفخر ونفاخر بها ، بالانتحار والاندثار .

ان للخمسين طناً من الطعام التي يتناولها الانسان مدى حياته المتوسطة ، أثر كبير في صحته وطباعه وخُلقه. وقد أثبت العلم ان في استطاعة الباحث أن يطيل عمر الجرذان ويجعلها أكبر وأقوى إذا أشرف على تغذيتها على نحو معين . وان لمفرزات الغدد الصم أثر في طول المرء وقصره ، وفي أخلاقه وسلوكه ، في شبابه وشيخوخته. في أنوثته ورجولته، حتى الجبن والشجاعة أثر من آثارها . يقول أحد الحكماء ان الموت يدخل من الفم فلندخل الى أبداننا الصحة والسعادة بتنظيم الغذاء وتنويعه . فان الجوع أو الحرمان من بعض الأغذية الضرورية لا يزال يقضي على أكبر عدد من سكان هذا الكوكب السيار . ولا يدرس الانسان بتحليل أعضائه ودراسة أجزائه. فان التشريح والنسج والغرائز أضاءت على الطبيب صورة البشر الكامل. فليس الجسم الانساني آلة تتألف أجزاؤها من الأعضاء التي تصفها لنا هذه العلوم أحسن وصف وأدقه ، فيجب الرجوع الى دراسة الجنس البشري كمجموعة لا انفصام لها ، فليست الأمراض جميعاً جرثومية ، وليس الجرثوم كل شيء في المرض . فان دفاع البدن وتفاعلاته المختلفة باختلاف الأشخاص واختلاف أمزجتهم وعواملهم النفسانية أي تربة المريض وبناء جسمه وغذائه كلها عوامل ذات أثر فعال في تكييف المرض واختلاف ظواهره . فالناس لا يتشابهون في وجودهم ولا قاماتهم ولا أخلاقهم ولا في أمراضهم أيضاً .

وصحة الغدد الصم أساس لصحة الجسم والغذاء المنوع الطبيعي ضروري لاطراد نمو البدن واتزان تفاعلاته . فالمارد والقزم والمرأة الحسامة والرجل الغليظ والبنت السمينة والجاحظ العينين والمنتفخ الأوداج والأبله والعصبي والنحيل والمقعد والعبقري أيضاً ، كل هؤلاء نتيجة تركيب غير سوي في غددهم الصم أو اضطراب عميق في تغذيتهم وطراز حياتهم. فالحياة فن لا يتقنه إلاّ القليلون .

دكتور بشير العظمة

رئيس السريريات الطبية في معهد الطب بدمشق

من أنواع النبات الطبي

١ — ﴿ البَنسُوج (سنهالي معرب) ﴾ شجرة من اليتوعيات تنبت في جنوب آسيا اسمها النباتي Tylophra asthmatica وبالانكليزية Bourbon scammony وبالفرنسية asclépiade asthmatique جذورها فيها خواص مقيئة ومعرّقة ومنفثة وتعوض عرق الذهب (الابيكاكوانا) ينفع في الدوسنطاريا ويدخن بأوراقها لتسكين الربو . ويستخلص منهـا شبه قلوي يسمى « تيلوفورين » يستعمل في الطب مقيئاً .

٢ — ﴿ البوتبهاة (سنسكريتي معرّب) ﴾ اسم نبات من القطانيات (القرنيـات) سنوي ينبت في الهند بالمناطق الجافة ويتردد ارتفاعه بين قدم وثلاث أقدام . اسمه النبـاتي Psoralea corylifolia وبالانكليزية bawchee seed plant وبالفرنسيـة dartier de Pondicheri يستعمل الزيت الراتينجي للبذور ضد الجذام وداء الفيل وأمراض الجلد المختلفة وبالأخص الطفحات الزهرية .

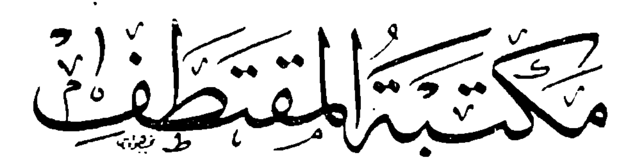
٣—﴿ البُنـقَـة (طاملي معرب) ﴾ شجرة كبيرة ظريفة من القطانيات (القرنيات) تنبت في الهند والصين واستراليا . أوراقها ريشية لامعات وحملها عناقيد من أزهـار بيض تضرب الى لون القشدة طيبـة الرائحة . اسمهـا النباتي Pongamia glabra وبالانكليزية Indian Beech وبالفرنسية arbre de pongolate تستعمل عصارة جذورها علاجاً للقروح ولتنظيف الأسنان وتقوية اللثة وزيتهـا يستعمل ضد الجرب والهربس والأمراض الجلدية الأخرى والروماتزم .

٤ — ﴿ النّـوْطم (برازيلي معرب) ﴾ شجرة من الستروكوليات تنبت في الأنتيل والبرازيل . اسمهـا النباتي Guazuma ulmifolia وبالانكليزية bastard cedar وبالفرنسيـة cèdre de la Jamaïque; orme d'Amérique والمستعمل قشرهـا وهو قابض غروي بحـالة شراب يستعمل في الحميات الحارة وهو منق في الأمراض الجلدية.وفي بلاد البرازيل يستعمل مقوياً للجروح والقروح .

٥ — الحشيش الالهـي : نبات من الفصيلة المركبة ينبت في المناطق الحارة بالشرق اسمه النباتي Siegesbeckia orientalis وبالفرنسية herbe divine وهو منوع منق في أعلى درجة كثير النجاح في معالجة القوب والقروح ويستعمل من الباطن مضاداً للداء الزهري وأمراض الجهاز التناسلي البولي . ومن الظاهر ضد الهربس والسعفة وهو معرّق أيضاً .

محمود مصطفى الدمياطي





الاداة الحكومية

تاليف ابراهيم مدكور ومريت غالي ٣٤٠ صفحة من القطع الكبير

نشرته دار الفصول للنشر بالقاهرة : ١٩٤٥

أول كتاب من نوعه في معالجة الأمراض التي نشكو منها في الأداة الحكومية . وقد نزع مؤلفاه الفاضلان نزعة وطنية صرفة ، وأضفيا على الكتاب روحاً مستقلة كل الاستقلال فبدت في صفحات الكتاب جلية واضحة قوية ، وأخرجاه صورة واضحة للتفكير السياسيّ الناضج . وهذا الكتاب على أن له قيمة كبيرة من هذه الناحية ففيه ناحية أخرى لا تقل عن هذه قدراً وقيمة ، تلك ناحية الأسلوب . فصفحات الكتاب مجلوة في أسلوب سهل مفهوم بعيد عن النظريات السياسية ، التي تتناول تلك التعميمات الواسعة في علم الاجتماع . فتراه مصريًّا عظماً ولحماً ودماً . تناول الكتاب أخص مشكلاتنا السياسية فجلاها وشرحها وعطف على المشكلات الدستورية فأبان عن سوآتها الجُلَّى وتناول الأحزاب والادارة والنظام الوزاري . كل هذا في سوق نقدي هادىء أساسه المنطق المقتطع من الأحداث التي مرَّت بنا منذ اعلان الدستور وقيام النظام الديمقراطي في بلادنا . ولم يقتصر الكتاب على هذا . بل لقد تناول المؤلفان وصف الدواء ولم يقتصرا على وصف الداء ، ووضعا القواعد العامة التي يمكن أن يقوم عليها أساس دستوري يضمن لنا شيئاً من الاستقرار ، وشيئاً كثيراً من فرص التقدم نحو مثاليات عليا .

من الأمثال التي نضربها على ما نقول ما ذكر المؤلفان في ص ١٠٨ من الكتاب في ضرورة تأليف مجلس الدولة ليتم لنا به القدرة على السير بتشريعاتنا سيراً حثيثاً نعالج به مختلف الشئون الحيوية للبلاد : قالا : « إن الآلة البرلمانية في بلادنا تنقصها قطعة — وقطعة

هامة — يتوقف عليها سير العمل وكمال انتاجه. وليست هذه القطعة شيئاً آخر سوى مجلس الدولة الذي سنتحدث عنه في تفاصيله بعد قليل. ويكفينا أن نشير الآن الى أن هـذا المجلس هو الـكفيل وحده بأن يغذي البرلمان بالمادة التشريعية الضرورية غذاءً صالحاً ومستمرًّا ، فيخرج تشريعنا من بطئه وجموده ، ويستكمل بحثه وتمحيصه ، ويحكم صياغتـه ويوفر له ما هو في حاجة اليه من تناسق وانسجام » .

وتناولا الحزبية فقالا : « ويقيننا أن أحزابنا يوم أن تعتمد على برامج ثابتة وخطط واضحة ، ستقضي على كثير من الفوارق الشخصـية التي تفصل بينها اليوم. وعلى كل حال يحتاج النظام النيابي لـكي يسير سيراً مجدياً الى حزبين رئيسيين ، يتبادلان الحكم فيما بينهما ، ويشرف كل واحد منهما على الآخر ويراقبه مراقبة نزيهة فعالة » .

وعلى هـذه الوتيرة سار المؤلفان في الوزارة والعمـل والتوجيه والنظام الاداري والموظفين والقضاء . والـكتاب في جملته قطعة فنية فقهية رائعة ينبغي أن يقف على روحها كل مصري في هذا العصر .

مشكلة البطالة

تأليف حسين حمدي عضو مكتب البحوث الفنية في وزارة الشئون الاجتماعية ، نشرته مكتبة النهضة المصرية ٤٣٢ صفحة من القطع الاوسط — ١٩٤٤

لا ريبة مطلقاً في أن مشكلة التعطل هي أعظم مشكلات العالم كله ، ويهمنا من العالم أول ما يهمنا مصر بالذات . كانت هـذه المشكلة تشغل المصلحين والساسة قبل الحرب ، وستصبح شغلهم بعد الحرب . وقد عالج المؤلف في هذا الـكتاب المشكلة من وجهة النظر المصرية فعمد الى شرح التعطل وتاريخه والأسباب التي تؤدي اليه والوسائل العامة في علاجه. كل هذا ليمهد لموضوعه فأجاد المدخل ، فأهله ذلك الى الاجادة في الموضوع . وقد شرح الجهود التي بذلتها الأمم الأخرى في مكافحة هذا المرض الاجتماعي الوبيل وتناول ما بذلته أمريكا وانجلترا والمانيا والسويد وروسيا ، ثم عطف الى مصر وحلّـل أسباب البطالة فيها ووصف الطرق التي تستطيع بها مصر أن تـكافح هذا الداء ، والنظم التي ينبغي أن تساير وجوه الاصلاح ليكفل لـكل مصري العمل اللائق بمركزه الاجتماعي ، ويضمن له ولأسرته حياة مستقرّة هي في الواقع أساس الانتاج وأساس الحضارة .

ابن باجة

تأليف عمر فروخ : دراسات قصيرة في الادب والتاريخ والفلسفة

طبع بيروت ٥٨ صفحة من القطع الاوسط : ١٩٤٥

ابن باجة من الفلاسفة الذين لم يدرسوا الدرس الكافي بعد . شأنه في ذلك شأن رفيقه ابن طفيل . وقد عدد المؤلف المصادر التي رجع اليها في تأليف رسالته فدلَّ بذلك على الطريق التي يمكن لمن يريد أن يتوسع في الدراسة سلوكه اذا أراد . ومن أهم هذه المصادر مجموعة رسائل لابن باجة مخطوطة في مكتبة برلين العامة رقم ٥٠٦٠ ، ولا نعرف الآن ماذا فعلت هذه الحرب بها . وقد تكلم المؤلف في المغرب ومعالم تاريخه ثم في انتقال الفلسفة اليه ، وعقب على ذلك بترجمة لابن باجة وتكلم في فنه وخصائصه العامة ووصف كتبه وبسط فلسفته بسطاً سهلا مقبولاً ثم نقل نماذج من فلسفته . فهذه الرسالة على صغرها كبيرة القيمة لمن يعنون بدرس آثار العرب وفنونهم وبخاصة ناحيتهم الفلسفية ، وهي من أحق النواحي بالدراسات المستفيضة .

رفاعة الطهطاوي

من سلسلة اعلام الاسلام تأليف جمال الدين الشيال نشرته لجنة دائرة المعارف الاسلاميه

١٣٦ صفحة من القطع الصغير : القاهرة ١٩٤٥

هذا الكتاب بالرغم مما بذل فيه من مجهود كبير ظاهر في صفحاته ، يدل دلالة واضحة على أن تاريخنا القريب ، ونقصد به تاريخ النهضة العلوية يكاد يكون مفقوداً ، فلا تعثر فيه على غير مزق ورقع ، قلما تخرج منها صورة كاملة لرجل من رجال ذلك العصر . ويكفي أن نعرف أن أرمنيًّا كان يوماً ما وزيراً لمعارف مصر في عهد الاحتلال الانجليزي فأمر ببيع مخازن الكتب المترجمة والمؤلفة في عصر محمد علي فبيعت بالجملة لبعض الورّاقين الجهلاء فأرسلوها أباديد .

ولقد تتبع المؤلف حياة رفاعة الطهطاوي منذ أن نشأ الى أن أرسل مع البعث الأول الذي أوفده محمد علي للتعلم في فرنسا إماماً يفقه الطلاب في أمر دينهم ويذكرهم بالاسلام في بلاد الأعجام ، الى أن نبغ وبرز في العلوم والترجمة ، فأسدى بذلك للتاريخ المصري والأدب الحديث يداً لا تنسى وأحيا من ذكر رجل وقف حياته كلها على العلم وعلى مدّ آفاق العربية سنين طوالاً .

أبو حنيفة

بطل الحرية والتسامح في الاسلام

تأليف عبد الحليم الجندي المحامي بأقام قضايا الحكومة ٢٢٠ صفحة من القطع الكبير
نشرته دار سعد مصر بالقاهرة : ١٩٤٥

لا أستطيع أن أحكم إذا كان كتَّاب المقالة القصيرة في انجلترا هم الذين نهضوا بالأدب الانجليزي الحديث أم كتّاب التراجم . على أني لا أكاد أتصوَّر الحالة التي يكون عليها أدب هذا الشعب العظيم إذا أخرجنا منه تراجم عظمائه التي خطّها براعة النابغين من كتَّابه .

كلما فكرت في هذا ساورتني فكرة في ما سوف يكون عليه أدبنا العربي إذا تمت الترجمة لرجال العرب على الصورة التي ترجم بها لرجال الانجليز . وفي رجال العرب عشرات هم الى جانب العظمة أدنى من كثير من رجال الانجليز الذين ترجم لهم باسهاب وترك رجالنا نسياً منسيًّا وسيرهم أشتات في بطون الكتب لا تكاد تقع طرف من سيرة أحدهم حتى ينتقل بك مؤلفه الى شيء آخر لا يمت إليه بشيء إلاَّ كما يمت سهيل للثريا . والترجمة لأبي حنيفة إمام الاسلام وصاحب القياس وبطل الحرية الفكرية إحدى الحلقات التي تنقص أدبنا العربي الصميم .

ولقد مضى المؤلف الفاضل في ترجمته لرجل الاسلام العظيم مُضيَّ الكاتب المرن الحاذق فعالج موضوعه معالجة العارف بدقائقه وتفاصيله ، وبأسلوب سهل رقيق ، أعانه على التصوير فهو قوي متدفق حيث يقتضي الموقف القوة والتدفق ، لين مرن حيث يقتضي الموقف اللين والمرونة . هذا ما جعل الكتاب قطعة فنية من أدبنا الحديث .

إيليا أبو ماضي

والحركة الأدبية في المهجر

تأليف نجدة فتحي صفوت : أول كتاب من سلسلة الشعراء المعاصرين
٩٦ صفحة من القطع الاصغر : طبع بغداد : ١٩٤٥

الشاعر إيليا أبو ماضي من شعراء التجديد المحدثين له روح في الشعر خاصَّة به وأسلوب إن اشترك فيه كثير من شعراء هذا العصر الاَّ أن روح هذا الشاعر تغلب أسلوبه دائماً . فهي تشيع في شعره وتدفع أسلوبه بطابعها ، فأسلوبه إذن مستمد من روحه . وهذا قليل في الشعراء . فان الكثير منهم من يغلب أسلوبه روحه ، فتذيع في شعره صفة الصناعة ، صناعة النظم ، لا روح الشعر .

ولقد قدَّم للكتاب صديقنا الأديب الأستاذ روفائيل بطي صاحب جريدة البلاد ببغداد فكانت هذه المقدمة خير تعريف بالشاعر الكبير . وتناول المؤلف بعد ذلك أدب أبناء العروبة في مهجرهم فحلَّله أحسن تحليل وأبان عن مزاياه وعن نواحي التجديد فيه ، وعطف

الى جماعة الرابطة القلمية ومضى في تحليل شعر أبي ماضي من دواوينه الكثيرة وختم الكتاب بنص كامل « للقصيدة» العظيمة التي عنوانها « الحكاية الأزلية » وهي أشبه ما يكون بقصيدة شاعرنا المصري علي محمود طه التي عنوانها « الله والعالم » لا من حيث الموضوع ولا من حيث الفكرة ولكن من حيث ان القصيدتان تحملان في ثناياها تأملاً عميقاً وفكرة تدور من حولها تمت الى الناحية الاستشرافية من الطبع الانساني .

ولا يسعنا إلاّ أن ننقل للقراء مطلع هذه القصيدة الباقية ففيه مجمل الاتجاه الذي اتجهه الشاعر ابو ماضي فيها ، وان كانت القصيدة من أنفها الى يائها متعة شعرية رائعة :

كان زمان ، لم يزل كائنا ... وحالة ، ما برحت باقيه
ملَّ بنو الانسان أطوارهم ... وبرموا بالسقم والعافيه
فاستصرخوا خالقهم واشتهوا ... لو انه كوَّنهم ثانيه
وبلغت أصواتهم عرشه ... في ليلة مقمرة صافيه
فقال : اني فاعل ما اشتهوا ... لعلَّ فيه حكمة خافيه
وشاهدوه هابطاً من علٍ ... فاحتشدوا في السهل والرابيه
من القرى الكئيبة العارية ... والمدن الضاحكة الزاهيه
تألبوا من كل صوب كما ... تجتمع الأمطار في الساقيه
ويدفع الشيخ القوي عوده ... وصار مثل الرمة الباليه
فتى مضى الفجر ولما تزل ... روعته في وجهه باقيه
وتزحم الحسناء ممكورة ... خلابة كالروضة الحاليه
دميمة تشبه في قبحها ... مدينة مهجورة عافيه
فقال رب العرش ماخطبكم ؟ ... ما بالكم صرخاتكم عاليه ؟
هل أصبحت أرضكم عاقراً ... أم غارت الأنجم في هاويه ؟
أم أقلع الماء فلا جدول ... وماتت الطير فلا شاديه ؟
أم فقدت أعينكم نورها ... أم غشيت أرواحكم غاشيه
أين الهوى ان لم يكن قد قضى ... فكل جرح واحد آسيه

وهكذا يمضي الشاعر يعدد مطلوبات الورى حتى يقول رب العرش للورى « كونوا لما تشتهوه » فأخذهم الأسف لأنهم لم يجدوا جديداً بل وجدوا الأمر كما كان ، فالقبح كان الجمال ، والخير كان الطلاح ،وليس من نقض ولا كمال .

والفكرة برمتها مأخوذة عن قطعة نثرية لكاتب إنجليزي لا أذكره الآن . ولكن الشاعر تصرَّف فيها ، فجلاها في حلة جديدة فيها كل الروعة وكل الجمال .

فهرس

الجزء الخامس من المجلد السابع بعد المائة